

افصيل
في
تاريخ العرب قبل الاسلام

الدكتور هبّاد علي

الجزء التاسع

الفصل
في
تاريخ العرب قبل الإسلام

لمفصل
في
تاريخ العرب قبل الإسلام

تأليف
الدكتور هبّوب علي

ساعدت جامعة بغداد على نشره

شبكة كتب الشيعة



الجزء التاسع

shiabooks.net

رابطه يدیل < mktba.net

○ الطبعة الثانية ○

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

الفصل الرابع والاربعون بعد المئة

الاعراب والعريية واللحن

ولا بد لنا وقد تحدثنا عن لغات العرب وعن العريية الفصحى من التحدث عن (الإعراب) لما له من صلة بها . فأقول الإعراب في تعريف علماء اللغة : الإبانة والافصاح عن الشيء . يقال للعربي : أعرب لي أي بين لي كلامك . وأعرب الكلام وأعرب به بيته . روي عن النبي أنه قال : « الثيب تعرب عن نفسها » ، أي تفصح . وفي رواية أخرى : الثيب يعرب عنها لسانها ، والبكر تستأمر في نفسها . وإنما سُمِّيَ الإعراب إعراباً لتبيينه وإيضاحه . ومن هنا يقال للرجل الذي أفصح بالكلام : أعرب . ويقال أعرب الأعجمي إعراباً ، أي أفصح وأبان . وعَرَّبَهُ : علَّمه العريية . « وفي حديث الحسن أنه قال له البتّي : ما تقول في رجل رُعِفَ في الصلاة ؟ فقال الحسن : إن هذا يُعَرَّبُ الناس ، وهو يقول رُعِفَ ، أي يعلمهم العريية ، وإنما هو رَعُفَ » . وتعرب واستعرب أفصح ، قال الشاعر :

ماذا لقينا من المُستعربين ومن قِياسِ نَحْرِهِمْ هذا الذي ابتدعوا^١

وعرف الإعراب ، بأنه أن لا تلحن في الكلام . يقال أعرب كلامه اذا لم

١ اللسان (١/٥٨٨ وما بعدها) ، (عرب) ، تاج العروس (١/٣٧٠ وما بعدها) ، (عرب) .

يلحن في الإعراب^١ . فربطوا هنا بين الإعراب واللحن . وذكروا أيضاً « أن الإعراب الذي هو النحو ، إنما هو الإبانة عن المعاني والألفاظ^٢ » ، « وإنما سمي الإعراب إعراباً ، لتبيينه وإيضاحه^٣ » ، « وعرب منطق أي هذبه من اللحن^٤ » . وروي عن (أبي هريرة) قوله : « أعربوا القرآن واتمسروا غرائبه » ، والمراد بالغريب أن تكون اللفظة حسنة مستغربة في التأويل ، لا يتساوى في العلم بها أهلها وسائر الناس . وقد عدّوا من ذلك في القرآن كله سبعاً لفظة أو تزيد قليلاً^٥ .

ورد في تاريخ (الطبري) أن رجلاً من العباديين مرّ بجمع من المسلمين أصابوا جراباً من (كافور) فحسبوه ملحاً ، فأخلوا يلقون منه في طعامهم ، فقال لهم : « يا معشر العربيين ، لا تفسدوا طعامكم ، فإن ملح هذه الأرض لا خير فيه^٦ » ، فاستعمل العربيين في معنى العرب ، ولعل العباديين ، وهم نصارى الحيرة كانوا يطلقون على العرب الخلص معربين ، لوضوح لسانهم بالنسبة لغيرهم ممن كان لا يعرب على طريقة العرب الخلص من أهل البوادي .

وقد ذهب (ابن فارس) الى وجود (الإعراب) عند العرب العاربة ، إذ يقول : « وزعم قوم^٧ أن العرب العاربة لم تعرف هذه الحروف بأسمائها ، وأنهم لم يعرفوا نحواً ولا إعراباً ولا نصباً ولا همزاً^٨ » . وقد رد على من أنكر وجود الإعراب عند العرب قبل الاسلام^٩ ، وأورد حديثاً في ذلك ، إذ قال : « وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : أعربوا القرآن^{١٠} » . وقد ورد أن (عمر بن الخطاب) ، وجه كتاباً الى (أبي موسى) الأشعري ، عامله على البصرة فيه : « أما بعد ، فتفقهوا في السنة ، وتفقهوا في العربية ،

-
- ١ تاج العروس (٣٧٢/١) ، (عرب) .
 - ٢ تاج العروس (٣٧١/١) ، (عرب) ، اللسان (٥٨٩/١) ، (صادر) ، (عرب) .
 - ٣ اللسان (٥٨٨/١) ، (عرب) .
 - ٤ المصدر نفسه (٥٨٩/١) ، (عرب) .
 - ٥ الرافعي (٥٧/٢) .
 - ٦ الطبري (٤٩٧/٣) .
 - ٧ الصحابي (٣٥) .
 - ٨ الصحابي (٣٧ وما بعدها) .
 - ٩ الصحابي (٦٦) ، (أعربوا القرآن ، فأنشأوا) ، الزينة (١١٧ وما بعدها) .

وأعربوا القرآن ، فإنه عربي ، وتمعددوا فإنكم معديون ^١ ، ووجه اليه كتاباً آخر فيه « أما بعد ، ففتقوها في الدين ، وتعلموا السنة ، وفتقوها في العربية ، وتعلموا طعن الدرية ، وأحسنوا عبارة الرؤيا ، وليعلم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب ^٢ . غير ان من العلماء من فسّر الإعراب في القرآن بأن المراد به معرفة معاني ألفاظه ، وليس المراد به الإعراب المصطلح عليه عند النحاة وهو ما يقابل اللحن ^٣ .

وعرف الإعراب ، بأنه : « الفارق بين المعاني المتكاثفة في اللفظ ، وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام ، ولولاه ما مُيز فاعل من مفعول ، ولا مضاف من منوع ، ولا تعجب من استفهام ، ولا صر من مصدر ، ولا نعت من تأكيد . وذكر بعض أصحابنا أن الاعراب يختص بالإخبار . وقد يكون الإعراب في غير الخبر أيضاً ، لأننا نقول : أزيدُ عندك ؟ وأزيداً ضربت ؟ فقد عمل الإعرابُ وليس هو من باب الخبر ^٤ ، فبالإعراب تميز المعاني ويوقف على أغراض المتكلمين ^٥ . وأنواع الإعراب رفع ، ونصب ، وجر ، وجزم ، فالإعراب عبارة عن الحركات ^٦ . وقد جعل الإعراب من العلوم الجليلة التي اختصت بها العرب ^٧ . والإعراب في الواقع ، هو التعرب ، أي التكلم بالعربية وفق طريقة العرب الخالص في مراعاة أواخر الكلم ، ومراعاة التصرف الإعرابي .

والإعراب في نظري ، أن يتكلم الانسان بطريقة العرب في كلامهم ، وذلك بأن يبين وفقاً لقواعد لسانهم ، وقد عرفنا ورود لفظة (عرب) و (عربية) في النصوص الآشورية واليونانية والسريانية ، فالإعراب إذن من هذا الأصل ، أي من العربية ، ثم اطلق على النطق وفقاً لأساليب العرب في كلامهم ووفقاً لقواعد لسانهم .

-
- ١ كنز العمال (٢٢٨/٥) ، خورشيد أحمد فاروق ، حضرت عمر (١٣٥) ، (القسم العربي) .
 - ٢ حضرت عمر (١٣٩ وما بعدها) ، (القسم العربي) .
 - ٣ السيوطي ، الاتقان (٣/٢) .
 - ٤ ابن فارس ، الصحاحي (٦٦ ، ٧٧) .
 - ٥ الصحاحي (١٩٠ وما بعدها) .
 - ٦ السيوطي ، الاشباه والنظائر (٧٢/١) وما بعدها .
 - ٧ المزمهر (٣٢٧/١) .

والوقوف على معنى : (العربية) ، يجب الرجوع الى ما ورد عنها في الأخبار. فقد ورد أن الرسول « دخل المسجد فرأى جمعاً من الناس على رجلٍ ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : يا رسول الله ، رجل علامة ، قال : وما العلامة ؟ قالوا : أعلم الناس بأنساب العرب ، وأعلم الناس بعربية ، وأعلم الناس بشعر ، وأعلم الناس بما اختلف فيه العرب ، فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : هذا علم لا ينفع وجهل لا يضر »^١ . وهو خبر يرجع مسنده الى (أبي هريرة) .

ووردت اللفظة في روايات أخرى يرجع الرواة زمانها الى أيام الخليفة (عمر بن الخطاب) . فقد روي عن (عثمان المهري) ، انه قال : « أنا كتاب عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، ونحن بأخريجان يأمرنا بأشياء ، ويذكر فيها : تعلموا العربية فإنها تثبت العقل وتزيد في المروءة »^٢ . وقد روي أن أعرايياً سمع قارئاً يقرأ : إن الله بريء من المشركين ورسوله ، بجرّ رسوله ، فتوهم عطفه على المشركين . فقال : أوّ برىء الله من رسوله ؟ فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأمر أن لا يقرأ القرآن إلا من يحسن العربية »^٣ . وروي أن الخليفة المذكور ، كتب الى (أبي موسى الأشعري) ، يوصيه ، فكان بما قاله له : « خذ الناس بالعربية ، فإنه يزيد في العقل ويثبت المروءة »^٤ . ونسبت الى (عمر) رسائل أخرى ، ذكر انه وجهها الى عامله المذكور فيها : « أما بعد : فتفقهوا في السنة ، وتفقهوا في العربية ، واعربوا القرآن فإنه عربي وتعلمدوا فإنكم معديون »^٥ ، و « أما بعد : فتفقهوا في الدين ، وتعلموا السنة ، وتفهموا العربية ، وتعلموا طعن اللرية ، وأحسنوا عبارة الرؤيا ، وليعلم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب »^٦ ، أو انه قال : « تفقهوا في الدين ، وأحسنوا عبارة الرؤيا ، وتعلموا العربية »^٧ . وفسّر (الحسن) العربية ، بأنها التنقيط ، أي

١ ابن قيم الجوزية ، اعلام الموقعين (٨٧/١) .

٢ صبح الأعشى (١٦٨/١) .

٣ صبح الأعشى (١٦٩/١) .

٤ اللسان (١٥٥/١) ، (مرأ) ، تاج العروس (١١٧/١) ، (مرأ) ، خورشيد أحمد فارق (١٤١) ، (النص العربي) .

٥ كنز العمال (٢٢٨/٥) ، خورشيد أحمد فارق (١٣٩) ، (النص العربي) .

٦ القفطي ، انباه (١٦/١) ، خورشيد أحمد فارق (١٣٩) .

٧ السجستاني ، المصاحف (١٤٢) .

ان ينقط المصحف بالنحو^١ . وذكر ان النبي قال : « عليكم بتعلم العربية ، فإنها تدل على المروءة وتريد في المودة^٢ . وروي أن عمر كتب : « أما بعد : فإنني أمركم بما أمركم به القرآن ، وأنهاركم عما نهاكم عنه محمد ، وأمركم باتباع الفقه والسنة والتفهم في العربية^٣ » ، و « مر من قبلك بتعلم العربية ، فإنها تدل على صواب الكلام ، ومرهم برواية الشعر ، فإنه يدل على معالم الأخلاق^٤ » .

وورد أن (عبدالله بن مسعود) كان يتعاطى العربية والشعر ، وقد كان يسأل في ذلك (زر بن حبيش) ، وكان من أعرب الناس^٥ . « قال عاصم : كان من أعرب الناس . وكان ابن مسعود يسأله عن العربية^٦ » . وورد : « كان بعض اليهود قد علم كتاب بالعربية ، وكان تعلمه الصبيان بالمدينة في الزمن الأول^٧ » . وورد أن أهل الحيرة كانوا يتعلمون (العربية) في الكتاتيب ، وان لهم ديواناً يكتب بالعربية ، كما كان للفرس ديوان يدون الرسائل الى العرب بالعربية ، وأن أهل الأنبار كانوا يكتبون بالعربية ويتعلمونها .

وبعد ، فما هي تلك العربية التي كان (العلامة ؟) المزعوم يعلمها في المسجد وكان من أعلم الناس بها ؟ وما هي تلك العربية التي كان الخليفة يوصي حكامه وأصحابه بأخذ الناس بها ؟ أو العربية التي علمها اليهود يثرب ؟ عربية بمعنى الإبانة والافصاح وتحريك القم تحريكاً كفيلاً بإخراج الحروف من مخارجها لإخراجاً واضحاً ؟ أم عربية أخرى ؟ أم عربية الكتابة . أي تقليم الخط ، أم بالمعنى الذي دفع (أبا الأسود) على وضع العلامات لضبط الحركات ولصيانة الألسنة من الوقوع في اللحن . ولو سألتني رأيي ، لقلت لك حالاً : انها العربية الثانية. العربية الكفيلة بضبط الألسنة وتعليمها كيفية النطق الصحيح وفقاً لقواعد العربية ، أي الإعراب وتفسير معاني الألفاظ ، أي اللغة ، وأوضح دليل على ما أقوله ، ما جاء في الرواية المتقدمة من أن (عمر بن الخطاب) لما سمع خطأ الأعرابي

-
- ١ السجستاني ، المصاحف (١٤٢) .
 - ٢ الفائق (١٥٣/٣) .
 - ٣ خورشيد أحمد فارق (١٤٠) ، (النص العربي) .
 - ٤ كنز العمال (٢٤١/٥) ، خورشيد أحمد فارق (١٤٠) .
 - ٥ ابن سعد (٧١/٦) .
 - ٦ الاصابة (٥٦٠/١) ، (رقم ٢٩٧١) .
 - ٧ فتوح البلدان ، للبلاذري (٤٥٩) ، المعارف لابن قتيبة (١٩٢) .

الفاحش في قراءة الآية أمر « أن لا يقرأ القرآن إلا من يحسن العربية » ، ومن وصيته بأخذ الناس بالعربية، ومن قوله أيضاً : « تعلموا الفرائض والسنن واللحن كما تعلمون القرآن » ، و « تعلموا اللحن في القرآن كما تتعلمونه ، يريد تعلموا لغة العرب في القرآن » ، أو : « تعلموا اللحن والفرائض فإنه من دينكم »^١ . فلم يكن خطأ (الاعرابي) هو خطأ في كيفية اخراج الحروف من مخارجها ، ولا في كيفية الافصاح وإبانة الكلم ، وإنما في جره رسوله ، وتوهمه عطفها على المشركين ، مما أخرج الآية الى عكس ما أراده الله منها . أي غلطه في اللغة ، ولهذا فزع الخليفة فحث الناس على تعلم العربية ، لتكون دليلاً لمن يتعلمها وهادياً له في صون لسانه من الوقوع في الخطأ ، وفي هذا الحث دلالة على وجود علم سابق عند العرب بكيفية حفظ الألسنة من الوقوع في الخطأ ومجانبة القواعد العامة. ويعود هذا العلم الى ما قبل الإسلام .

أضف الى ذلك ما ذكرته سابقاً من قول عمر : « أما بعد : فتفقهوا في الدين ، وتعلموا السنة ، وتفهموا العربية ، وتعلموا طعن اللرية ، وأحسنوا عبارة الرؤيا ، وليعلم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب »^٢ . فإذا صح هذا الخبر دل على وجود الإعراب في زمن عمر ، وعلى ان المراد من الإعراب الذي كلّف (أبا الأسود) أن يعلم أهل البصرة به ، هو النحو ، أي قواعد صيانة اللسان من الوقوع في الخطأ في الكلام .

ولو تساهلنا فأخلنا (العربية) الواردة في قول (عمر) وغيره بالمعنى اللغوي الظاهر من اللفظة ، وهو الإفصاح والإبانة وإخراج الكلم حسب أصول النطق عند العرب ، فإن هذا المحمل يحملنا على الذهاب الى وجود علم سابق ، كان الناس يراعونه ويسبرون بمقتضى اعتباراته وقواعده في كيفية النطق بالكلم ، ويسمونونه : العربية .

ويتبين مما ذكره أهل الأخبار من أن (أبا الأسود) « كان أول من وضع العربية »^٣ ، أن مرادهم من العربية المذكورة هذه العلامات التي تدل على الرفع

١ اللسان (٣٨١/١٣) ، (لحن) ، صبح الاعشى (١٤٨/١) .

٢ القفطي ، انباه (١٦/١) ، خورشيد أحمد فارق (١٣٩) .

٣ المعارف (٤٣٤) ، الصاحبى (٣٧) .

والنصب والجر والجزم والضم والفتح والكسر والسكون، تلك العلامات التي استعملها في المصحف ، وأن هذه الأمور لما توسع العلماء فيها بعدُ وسمّوا كلامهم نحواً سحبوا اسم النحو على ما كان قبل من أبي الأسود . وهذا المعنى نستطيع فهم ما ورد في الحديث والأخبار من وجوب الإعراب في القرآن . أي إظهار حركات الكلم عند القراءة . فالعربية ، تعني النحو . « ولما وضع أبو الأسود النحو وأطلق عليه لفظ العربية ... »^١ ، كان يقصد منه صيانة اللسان من الخطأ ، والنطق بصحة . فقد ورد أن الرسول قال : اعرّبوا القرآن ، أو اعرّبوا القرآن فإنه عربي ، وأن (عمر بن الخطاب) « قال : تعلموا إعراب القرآن كما تتعلمون حفظه »^٢ ، وروي أنه قال : « تعلموا النحو كما تعلمون السنن والفرائض »^٣ .

وهذا المعنى وردت (العربية) في حديثهم عن الشاعر (علي بن زيد) العبّادي ، فقد ذكروا أنه تعلم (العربية) في كتاب بالحيرة حتى غدا من أكتب الناس بها ، فلما حلق ومهر فنه بالعربية ، أرسل إلى كتاب الفارسية ، فتعلم مع أولاد المرازبة^٤ . وذكروا أنه « قرأ كتب العرب والفرس »^٥ ، إذ لا يعقل أن يكون مرادهم تعلم حروف الهجاء وحدها ، أو الخط ، أو مجرد معانسي الألفاظ .

وقد تحدثت عن التنقيط عند أهل الكتاب في أثناء حديثي عن نشأة الخط العربي . ويظهر أن كتاب المصاحف ، لم يكونوا على اتفاق في موضوع العواشر، أي تشير القرآن ، والتنقيط والخواتم ، والفواتح ، والألفاظ المفسرة في المصحف ، بدليل ما ورد عنهم من اختلاف رأي في هذا الموضوع ، فمنهم من كان يأمر بتجريد القرآن من كل ذلك ومنهم من جوّز ، ومنهم من كره فقط القرآن بالنحو^٦ .

-
- ١ ضحى الاسلام (٢٨٧/٢) .
 - ٢ الرافعي ، تاريخ أداب العرب (١/٣٢٦) .
 - ٣ الزينة (١١٧ وما بعدها) .
 - ٤ البيان والتبيين (٢/٢١٩) .
 - ٥ الاغانى (٢/٩٦ وما بعدها) ، (دار الكتب المصرية) ، شعراء النصرانية (١/٤٤١) .
 - ٦ الطبري (٢/١٩٣) ، (دار المعارف) .
 - ٧ السجستاني ، المصاحف (١٣٨ وما بعدها) .

وقد اختلف العلماء في تفسير معنى جملة « يريد أن يعربه فيعجمه » الواردة في شعر ينسب لرؤية ويقال للحطيفة ، هو :

الشعر صعب وطويل سلمه إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
زلت به الى الحضيض قدمه

وقوله :

والشعر لا يسطيعه من يظلمه يريد أن يعربه فيعجمه

فذهب بعضهم الى أن مراد الشاعر أنه يأتي به أعجمياً ، يعني يلحن فيه ، وقيل يريد أن يبينه فيجعله مشكلاً لا بيان له ، وقيل أزال عجمته بالنقط^١ . والذي أراه أن قول العلماء : « العجم النقط بالسواد مثل التاء عليها ققطتان ، يقال : أعجمت الحرف والتعجم مثله » ، وقولهم : « معجم الخط هو الذي أعجمه كاتبه بالنقط ، تقول : أعجمت الكتاب أعجمه إعجاماً »^٢ ، هو تعريف يجب أن يكون قد وضع بعد وضع الإعجام ، أي التقيط ، فإذا كان الإعجام من وضع (أبي الأسود) اللؤلؤي ، فيجب أن يكون ظهوره منذ أيامه فما بعد ، أما إذا كان قبله فيجب أن يكون من مصطلحات الجاهليين .

ويذكر علماء اللغة أن « أعجم الكتاب خلاف أعربه ، أي نقطه » فأزال الكاتب عجمة الكتاب بالنقط^٣ . ومعنى هذا أن النقط قد أزال التشاؤمة عن الحروف المعجمة ، أي التشابة في الشكل ، بوضع النقط فوقها ، فصارت حروفاً معربة واضحة . ولولا الإعجام لما استبان الكلام ، ولوقع سوء الفهم واللبس في كثير من الألفاظ التي ترد فيها الحروف المعجمة ، ففي الإعجام لبس ووقع في خطأ ، وفي اللحن مثل ذلك أيضاً ، ولهذا أرى وجود صلة كبيرة بين اللحن ، الذي هو الخطأ في الكلام ، بسبب الجهل بالاعراب . وقد رأيت قول العلماء : « أعجم الكتاب خلاف أعربه » ، أي وضحه وصححه بالنقط . فبين الاثنين ترابط في الأصل ، فالاعجام خلاف الاعراب ، واللحن خلاف الإعراب كذلك .

- ١ تاج العروس (٣٩٠/٨) ، (عجم) .
- ٢ تاج العروس (٣٩٠/٨) ، (عجم) .
- ٣ تاج العروس (٣٩٠/٨) ، (عجم) .

وقد صار النقط ، أو وضع الحركات على الحروف لإرشاد القارئ الى القراءة
الفصيحة الصحيحة ، ضرورة لازمة ، بدونها قد يخطئ الانسان فهم المعنى ، وقد
يقع في أخطاء جسيمة لو أخليت الكتابة من النقط والإعجام . وقد ضرب العلماء
الأمثال على أخطاء وقع بها الناس بسبب طريقة الكتابة القديمة التي لم تكن تنشط
الحروف ولا تعجمها ، فكان القارئ يقع في أخطاء .

والإعراب بعد ، لا يختص بالعربية وحدها ، بل نجد آثاره في لغات سامية
أخرى ، وانما ظهر وعرف في عربيتنا ، لأن اللغات الأخرى قد ماتت في الغالب ،
فلم يبق أحد من الناطقين بها ، لتبين كلامه ، ولأن نصوصها غير مشكلة ، وهي
خالية من الحروف التي تدل على الشكل والحركات ، لذلك لا نستطيع التحدث
عن وجود الإعراب بها . ولكن بعض النصوص البابلية تشير الى وجود الإعراب
بها . واللاتينية مع انها من اللغات الآرية فهي لغة معربة ، يراعي الكاتبون والمتكلمون
بها خصائص الإعراب ، واليونانية القديمة هي معربة كذلك . ويخيل لي ان معظم
لغات الأدب في العالم القديم كانت تراعي الإعراب ، لترفع بذلك عن ألسنة
العامة ، ولتكون اللسان الرفيع الذي يخاطب الانسان به أربابه ، ثم خفت حدة
الإعراب فيما بعد ، مجارة لتطور العقل الانساني . ونجد معظم الشعوب في الوقت
الحاضر ، تبسط لغتها وتختزل قواعدها وجمل كلامها ليتناسب الكلام مع عقل
السرعة التي أخذت تسيطر على الانسان الحاضر .

وما قلته عن اللغات الأخرى من صعوبة التكلم عن إعرابها ، بسبب عدم وجود
نصوص مشكلة عندنا تشير الى طرق الإعراب بها ، ينطبق كذلك على اللغات
العربية الجنوبية ، وعلى اللغات الأخرى ، مثل الصفوية ، والتمودية واللحيانية ،
لعدم وجود الحركات بها أو العلامات الدالة على الإعراب . وخلق هذه اللغات من
العلامات التي تقوم الإعراب ، لا يمكن أن يتخذ دليلاً على عدم وجوده في تلك
اللغات ، لأن العباد في الإعراب ، هو بالنطق في اللسان ، وهو ما لا يمكن
استخراجه من الكتابة العربية الجنوبية ، فاللسان هو الذي يشكل ويحرك الألفاظ
وفق مقتضيات قواعد الألسنة . أما النبطية ، وهي من اللهجات العربية الشمالية ،
ففيها ظواهر بارزة تشير الى انها كانت لغة معربة ، وهي في نظري أقرب اللغات
العربية الجاهلية الى عربية القرآن الكريم ، فالأسماء في النبطية ، معروفة في عربيتنا
قليلة في العرييات الأخرى ، وهي قريبة من هذه العربية في أمور أخرى نحوية وصرفية .

اللعن :

من معاني اللعن : اللغة . « روي أن القرآن نزل بلحن قريش ، أي بلغتهم . وفي حديث عمر رضي الله عنه : تعلموا الفرائض والسنة واللحن ، بالتحريك ، أي اللغة ^١ ، ومنه قول (عمر) : « تعلموا الفرائض والسنة واللحن ، كما تعلمون القرآن » ^٢ . ومن معاني الخطأ في الكلام . « قال أبو عبيد في قول عمر رضي الله تعالى عنه : تعلموا اللحن ، أي الخطأ في الكلام لتحترزوا منه » ، وورد : « وأما قول عمر رضي الله عنه : تعلموا اللحن والفرائض ، فهو بتسكين الحاء ، وهو الخطأ في الكلام ... قال أبو عدنان : سألت الكلايين عن قول عمر : تعلموا اللحن في القرآن كما تعلمونه ، فقالوا : كُتب هذا عن قوم ليس لهم لغو كلفونا ، قلت : ما اللغو ؟ فقال : الفاسد من الكلام . وقال الكلايون : اللحن : اللغة . فالمعنى في قول عمر : تعلموا اللحن فيه ، يقول : تعلموا كيف لغة العرب فيه للذين نزل القرآن بلغتهم » ^٣ ، « وجاء في رواية تعلموا اللحن في القرآن كما تتعلمونه ، يريد تعلموا لغة العرب بإعرابها » ^٤ ، ووردت اللفظة بمعان أخرى . وقد أجمل العلماء ما جاء فيها من معان بستة معان : الخطأ في الإعراب ، واللغة ، والغناء ، والفطنة ، والتعريض ، والمعنى » .

وقد ذكر أن الرسول لما أرسل (سعد بن معاذ) ، وهو يومئذ سيد الأوس و (سعد بن عباد) ، وهو يومئذ سيد الخزرج إلى (كعب بن أسد) ، وكان قد نقض عهده الذي عهد للرسول وبرىء مما كان بينه وبين رسول الله ، قال لما : « انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ، فإن كان حقاً فالحنوا إليّ لحناً أعرفه ولا تفتروا في أعضاء الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس » ، فلما أتياهم وجداهم على أنحيث ما بلغها

-
- ١ اللسان (٣٨٠/١٣) وما بعدها ، (لحن) ، تاج العروس (٣٣١/٩) ، (لحن) ، الفائق (٩٩/٢) ، (٤٥٧/٢) .
 - ٢ الامالي ، للقالبي (٥/١) ، السيوطي ، الاتقان (٢٦٠/٢) .
 - ٣ اللسان (٣٨٠/١٣) وما بعدها ، (لحن) ، تاج العروس (٣٣١/٩) ، (لحن) .
 - ٤ اللسان (٣٨١/١٣) ، (لحن) ، تاج العروس (٣٣١/٩) ، (لحن) .
 - ٥ اللسان (٣٨١/١٣) ، (لحن) ، تاج العروس (٣٣١/٩) ، (لحن) .

عنهم ، نالوا من رسول الله ، « وقالوا : من رسول الله ! لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد » ، فلما عادا الى رسول الله قالوا : « عضل والقارة . أي كغدر عضل والقارة » ، فاللحن هنا بمعنى الإيماء والاشارة والرمز^١ ، فاللحن هنا أن تريد الشيء فتورى عنه^٢ .

والذي أريده من اللحن ، الخطأ في الكلام ، والزيغ عن الإعراب ، وهو معنى لا نستطيع فهمه من النصوص الجاهلية ، نخلو تلك النصوص من الحركات ، ومن الاشارة الى قواعد لغاتها . ولذلك فلا مناص لنا لفهمه إلا بالرجوع الى الموارد الإسلامية . وهي تذكر أن اللحن بهذا المعنى ، لم يظهر إلا في الاسلام ، ظهر بسبب دخول الأعاجم في دين الله ، واختلاطهم بالعرب ، وأخذهم لغتهم واتصال العرب بهم ، ففسدت الألسنة ، وظهر اللحن بين الموالي وبين العرب . وقد عيب ظهوره في العربي ، حتى عير من ظهر اللحن على لسانه ، فلما قشا وكثر ، صار شيئاً مألوفاً حتى غلب على ألسنة الناس . وهم يذكرون ان العربي الفصح الأصيل ، لم يكن يخطئ في كلامه ، لأنه يتكلم عن طبع ومسجية ، ومن كان هذا شأنه ، لا يقع اللحن في كلامه ، أو لأنهم كانوا يتأملون مواقع الكلام ويعطونه في كل موقع حقه وحصته من الإعراب عن ميزة وعلى بصيرة^٣ .

يقول العلماء : وكان أول لحن ظهر بين العرب على عهد النبي ، فقد رووا أن الرسول سمع رجلاً يقرأ فلحن ، فقال : ارشدوا أخاكم^٤ ، أو ارشدوا أخاكم فإنه قد ضل^٥ ، ثم فشا وانتشر في مواضع الاختلاط خاصة ، حيث اختلط العجم بالعرب ، كالعراق وبلاد الشام ومصر ، حتى دخل أعمال الحكومة ، فأخطأ الكتاب في النحو ، وأفحشوا في الإعراب ، فكتب كاتب من كتاب (أبي موسى) الأشعري كتاباً فيه ، (من أبو موسى ...) أو ما شابه ذلك من خطأ في القول ، فكتب (عمر) الى عامله : « سلام عليك . أما بعد ،

١ الروض الأنف (٢ / ١٩٠) ، ابن هشام ، سيرة (٢ / ١٩٠) ، (حاشية على الروض) .

٢ الأمالي ، للقالى (٦ / ١) .

٣ الرافعي (١ / ٢٤٠) ، « وبهذا الاعتبار تقطع بأن اللحن لم يكن في الجاهلية البتة » ،

الرافعي (١ / ٢٤٢) .

٤ كنز العمال (١ / ١٥١) .

٥ ابن جنى ، الخصائص (٢ / ٨) ، (دار الكتب) .

فأضرب كاتبك سوطاً واحداً ، وأخر عطاءه سنة ١ : أو : ٢ : إذا أنك كتابي هذا ، فأجلده سوطاً واعزله عن عملك ٣ ، أو ٤ : قنع كاتبك سوطاً ٥ ، أو : ٦ : ان كاتبك الذي كتب إليّ لحن ، فأضربه سوطاً ٧ ، وذكر (الجاحظ) ، أن (الحصين بن أبي الحر) كتب إلى (عمر) كتاباً ٨ : فلحن في حرف منه ، فكتب إليه عمر : أن قنع كاتبك سوطاً ٩ .

وسبب ذلك أنهم كانوا يرون أن اللحن عيب مشين . قال ١٠ : عبد الملك بن مروان : اللحن هجنة على الشريف ، والعجب آفة الرأي . وكان يقال : اللحن في المنطق أقبح من آثار الجدري في الوجه ١١ .

ولا يمكن تفسير قول القائل أن ١٢ : اللحن بمعنى الخطأ عسدت ، لم يكن في العرب العاربة الذين تكلموا بطباعهم السليمة ١٣ ، إلا أن يكون مراده أن الجاهليين كانوا يتكلمون بطباعهم السليمة بلغاتهم ، كل يتكلم بلغته ، ووفق سجيته ولسانه الذي أدخله من بيته ، فهو ينطق وفق ما سمع وحفظ ، فلا يلحن في الكلام بلسانه الذي أدخله من أهله ، وهو رأي أقول أنه على الجملة مقبول معقول . أما إذ أريد به ، أن العرب كانوا جميعاً يتكلمون بلسان واحد ، فلا يخطئ أحدهم فيه ولا يلحن ، فإن ذلك يتعارض مع قولهم بوجود اللغات ، وبأن تلك اللغات كانت تتباين في أمور كثيرة في جملتها قواعد في النحو والإعراب ، كما في (ذي) الطائية ، وفي أعراب المثني بالألف مطلقاً ، رفعاً ونصباً وجراً وذلك في لغة (بلحرث) و (خثعم) و (كنانة) ، فيقولون : جاء الرجلان ، ورأيت الرجلان ، ومررت بالرجلان ١٤ ، وكما في (كم) الخيرية ، حيث ينصب (بنو تميم) تميز (كم) ، ولغة غيرهم وجوب جره وجواز إفراده وجمعه ، وكما في إعراب (الذين) من أسماء الموصول إعراب جمع المذكر السالم في لغة

١ مراتب النحويين (٦) ، الرافعي (٢٤٣/١) .

٢ كنز العمال (٢٢٤/٥) ، حضرت عمر (١٣٧) ، (القسم العربي) .

٣ أدب الكتاب ، للصولي (١٢٩) ، حضرة عمر (١٣٨) .

٤ حضرت عمر (١٣٨) .

٥ البيان والتبيين (٢١٦/٢) .

٦ ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة (٢٣٩/٥) .

٧ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١٤٤/١) وما بعدها .

(هذيل) ، أو (حقييل) وفي قول بعضهم هذه النخيل وقول بعض آخر هذا النخيل الى غير ذلك من مواطن خلاف وتباين بحث فيها العلماء ، لا مجال للبحث فيها في هذا المكان ، ووجود هذا الاختلاف ، هو دليل في حد ذاته على خروج القبائل على قواعد اللغة ، والخروج على القواعد هو اللحن .

لقد أقر علماء العربية بوجود خلاف بين القبائل المتكلمة بلهجات عربية شمالية، وقد أشرت الى مواضع ذكروها في هذا الباب ، وكشف علماء النحو عن خلاف في قواعد النحو ، في مثل اختلاف القبائل في التذكير والتأنيث ، كما في مثل الطريق والسوق والسبيل والتمر ، فهي ألفاظ مؤنثة عند أهل الحجاز ، وهي مذكرة عند قبائل أخرى ، وكشفوا عن أمور أخرى ، إن تكلم المتكلم أو كتب بها عدّ صدور ذلك لحناً منه ، فهل يعدّ العربي المتكلم بلهجة من هذه اللهجات المخالفة مخالفاً لقواعد العربية ، أي لحناً ، كما نعدّ الأعجمي الذي يقع في الخطأ نفسه ، أم نعدّه فصيحاً ، عربي اللسان والسليقة ؟ أما الأعجمي الذي يقع في الخطأ ذاته فنعدّه لحناً لحنة !

لقد ذكروا ان الرسول « حين جاءته وفود العرب ، فكان يخاطبهم جميعاً على اختلاف شعوبهم وقبائلهم وتباين بطونهم وأفخاذهم ، وعلى ما في لغاتهم من اختلاف الأوضاع وتفاوت الدلالات في المعاني اللغوية ، على حين ان أصحابه رضوان الله عليهم ومن يفد عليه من وفود العرب الذين لا يوجّه اليهم الخطاب ، كانوا يجهلون من ذلك أشياء كثيرة ، حتى قال له علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وسمعه يخاطب وفد بني نهد : يا رسول الله ، نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره ؟ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوضح لهم ما يسألونه عنه مما يجهلون معناه من تلك الكلمات »^١ ، فهل يعقل بعد ، أن يقال إن العربي كان لا يلحن ولا يخطئ في كلامه ولا يزيغ عن العربية المبينة ، والعرب هم على ما هم عليه من اختلاف اللهجات ، الذي يدفع حتماً على وقوع اللحن ، لو تكلموا بالعربية القرآنية ، أي هذه العربية التي يسميها علماء اللغة لغة قريش ، والتي هي اللسان العربي المبين على تسمية القرآن لها .

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/ ١٢٠ وما بعدها) .

٢ المزمهر (١/ ٣٢٥) .

ثم كيف نفسر حديث : « ارشدوا أخاكم » ، أو « ارشدوا أخاكم فإنه قد ضل » مع قولهم إن للعربي لا يخطئ في كلامه ولا يلحن ، لأنه يتكلم عن طبع وسليقة ، ولم يكن هذا الذي لحن أمام الرسول ، أعجباً ، وإنما كان عربياً ، فإذا كان الأمر كذلك ، فكيف وقع اللحن إذن ؟ ثم كيف نفسر خبر سمع الإمام (علي) أعرابياً ، وهو يلحن في القرآن ويقرأ : « لا يأكله إلا الخاطئين »^١ ، أو خبر ذلك الأعرابي الذي قرأ « إن الله بريء من المشركين ورسوله » بالجر ، لأن رجلاً من أهل المدينة أقرأه إياها على هذا النحو ، فبلغ ذلك (عمر) ، فأمر ألا يقرء القرآن إلا عالم باللغة ، وأمر أبا الأسود أن يضع النحو^٢ ، والأعراب هم لب العرب ، وصفوتهم في الكلام ، فكيف وقع هذا الأعرابي في اللحن يا ترى ؟ ثم كيف نفسر قول من زعم أن في القرآن آيات فيها لحن ، مثل : إن هذان لساحران^٣ ، والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة^٤ ، وإن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون^٥ ، ومواضع أخرى تحتاج إلى تأويل ليستقيم إعرابها^٦ ، أو إلى اصلاح املائها لتنجو من اللحن^٧ .

ثم كيف اختلف قراء القرآن في نصب (الطير) في الآية : « يا جبال أوبي معه والطير » أو رفعها^٨ ، واختلافهم في ضم الفاء أو فتحها في الآية : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم »^٩ ، واختلافهم في بناء الفعل للمجهول أو للمعلوم في الآية : « ألم غلبت الروم »^{١٠} ، وغير ذلك من مواضع اختلاف ، اختلف فيها القراء ، مع كونهم من العرب الأفحاح .

ثم كيف نفسر اضطراب العلماء وذهابهم مذاهب في قراءة الآية : « قالوا :

- ١ نزهة الالباء (٨) ، (محمد أبو الفضل إبراهيم) .
- ٢ المصدر نفسه .
- ٣ طه ، الآية ٦٣ .
- ٤ النساء ، الآية ١٦٢ .
- ٥ المائدة ، الآية ٦٩ .
- ٦ السيوطي ، الاتقان (٢/٢٦٩) .
- ٧ السيوطي ، الاتقان (٢/٢٧١) .
- ٨ سبأ ، ٣٤ ، الآية ١٠ ، تفسير الطبري (٢٢/٤٦ وما بعدها) .
- ٩ التوبة ، الآية ١٢٨ ، تفسير الطبري (١١/٥٥) ، تفسير الألوسي (١١/٤٧) .
- ١٠ سورة الروم ، الرقم ٣٠ ، الآية ١ وما بعدها .

إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم ويذهبا بطريقتكم المثلى ،^١ ،
وتأويلهم القراءة جملة تأويلات ، لأن القاعدة النحوية تقول : « ان هذين »
بينما القراءة : « إن هذان » ، فعللوها جملة تعليلات ، منها أن هذه القراءة
نزلت بلغة (بني الحارث بن كعب) ومن جاورهم يجعلون الاثنين ، أي المثني
في رفعها ونصبها وخفضها بالألف ، كما في قول بعض (بني الحارث بن كعب) :

فأطرق اطراق الشجاع ولو يرى مساعداً لتأباه الشجاع لصما

وقيل إن هذه القراءة ، هي قراءة بلحارث بن كعب ، وخثعم ، وزيد ومن
وليهم من اليمن^٢ . ونسبها (الزجاج) الى كنانة ، وابن جني الى بعض
بني ريعة^٣ .

ثم ما ورد في خبر آخر عن سعيد بن جبير ، من قوله : « في القرآن أربعة
أحرف لحن : الصابئون^٤ ، والمقيمين^٥ ، وفأصدق^٦ وأكن من الصالحين^٧ ،
وإن هذان لساحران^٨ الى غير ذلك من أخبار . ثم ما ورد من قول (عثمان) :
« إن في القرآن لحناً ، وستقيمه العرب بألسنتها » ، وأمثال ذلك^٩ ، وما ذكر
من أن (أبا بكر) ، كان يستحب أن يسقط القارئ الكلمة من قراءته على
أن يلحن فيها^{١٠} ، أفلا يدل هذا الخبر ، على أن اللحن كان معروفاً ومتفشياً في
عهد (أبي بكر) ، وما روي في رواية تقول : « لما كتبت المصاحف عرضت
على عثمان رضي الله عنه ، فوجد فيها حروفاً من اللحن ، فقال : لا تغيروها
فإن العرب ستغيرها ، أو قال ستعربها بألسنتها » ، لو كان الكاتب من ثقيف

١ سورة طه ، الرقم ٢٠ ، الآية ٦٣ .

٢ تفسير الطبري (١٦ / ١٣٦ وما بعدها) .

٣ تفسير النيسابوري (٦ / ١١٨) ، (حاشية على تفسير الطبري) ، السيوطي ،
الاتقان (٢ / ٢٧٣) .

٤ المائة ، الرقم ٥ ، الآية ٧٢ .

٥ النساء ، الرقم ٤ ، الآية ١٦١ .

٦ المنافقون ، الرقم ٦٣ ، الآية ١٠ .

٧ سورة طه ، الرقم ٢٠ ، الآية ٦٣ ، السيوطي ، الاتقان (٢ / ٢٧٣) .

٨ المصاحف (٣٣) ، السيوطي ، الاتقان (٢ / ٢٧٢ وما بعدها) .

٩ الرافعي (١ / ٢٤٠) .

والملي من هذيل لم يوجد فيه هذه ^١ ، ثم ما ورد من وقوع اللحن من عرب أقحاح ، ومنهم من ولي الحكم وإدارة أمور المسلمين ^٢ ، ومنهم ابنة (أبي الأسود الدؤلي) التي لحفت أمامه ، فعمل باب التعجب على ما يزمع الرواة ^٣ .

وتوحي الأحاديث الواردة في الحث على إعراب القرآن ، والكتب التي ألفها العلماء في إعرابه ، أن من العرب : من أهل مدبر وأهل وبر ، من كان يقرأ القرآن بغير إعراب ، إما لأن لغته لم تكن معربة ، وإما لأن إعرابها كان لا يتجانس مع إعراب القرآن ، وسببه أن الجاهليين لم يكونوا يقيمون جميعاً بقواعد الإعراب ، فمنهم من كان يتحلل منه ، ومنهم من يعمل به وفق قواعد لغته ولهجته ، ودليل ذلك قراءة الصحابة القرآن بألسنتهم ، مما سبب في ظهور مشكلة القراءات ، وهذا ما أخاف الصحابة ، وجعلها تخشى من احتمال ظهور قرائن مختلفة ، مما حمل (عثمان) على توحيد لغة القرآن ، وتدوين كتاب الله حسب للتوصيات التي أعطاها إلى اللجنة التي كلفها بتدوينه .

أضف إلى ذلك ما نجده في الكتب من إجازة إصلاح اللحن والخطأ في الحديث . من مثل ما نسب إلى الأوزاعي من قوله : « لا بأس بإصلاح اللحن والخطأ في الحديث » ، وقوله : « اعربوا الحديث فإن القوم كانوا عرباً » ، ومثل ما نسب إلى (يحيى بن معن) من قوله : « لا بأس أن يقوم الرجل حديثه على العربية » وإلى (ابن أبي رباح) حين مثل عن الرجل يحدث بالحديث فيلحن ، هل يحدث به كما سمع منه أم يعرب ، فقال لسائله : لا ، بل اعربه . وما ورد في أقوال العلماء في جواز أو عدم جواز إصلاح اللحن في الحديث ، واختلافهم فيه ^٤ ، هو دليل على أن من العرب من كان يقع في اللحن أيضاً ، وإن اللحن لم يقع من الأعاجم وحدهم .

١ مفتاح السعادة (٢٧٧/٢) .

٢ « وزعم المدائني أن خالد بن عبدالله قال : إن كنتم رجبون فانا رمضانيون . ولو لا أن تلك العجائب قد صحت عن الوليد ما جوزت هذا على خالد » ، البيان والتبيين (٢١٦/٢) .

٣ « كان الذي حدها على ذلك أن ابنته قالت له : يا أبت ما أشد الحر ، وكان في شدة القيظ . فقال ما نحن فيه ! فقالت : إنما أردت أنه شديد . فقال : قولني : ما أشد ، فعمل باب التعجب » ، الإصابة (٢٣٣/٢) ، (رقم ٤٣٢٩) .

٤ محمود أبو رية ، أضواء على السنة المحمدية (١٠٨ وما بعدها) .

ثم ان من غير المعقول ألا يقع اللحن من أهل اليمن ومن بقية عرب العربية الجنوبية ، الذين كانوا يتكلمون بالسنة عربية جنوبية ، رأينا أنها تختلف عن عربيتنا في مفردات الألفاظ وفي قواعد النحو والصرف .

إن كل من صدر منهم اللحن ، ممن أشرت إليهم وممن لم أشر ، كانوا من العرب ، منهم من كان من أهل المدر ، ومنهم من كان من أهل الوبر ، بهم بدأ اللحن ، أما لحن العجم ، فقد بدأ بعد اللحن الذي ظهر في أيام الرسول ، وفي أيام (عمر) بدأ بالطبع بالفتوح ، فلحن العرب اذن أقدم عهداً من لحن العجم ، يؤيد ذلك ما يرويه العلماء من وقوع الشعراء الجاهليين في أخطاء نحوية ، هي لحن وخروج على القواعد في نظرهم . والشعراء الجاهليون عرب ، ومن لسانهم استمد علماء النحو نحوهم وصرفهم . فقد زعموا ان (النابغة) أخطأ في قوله : « في أنيابها السم نافع » ، ولحن لحناً شنيعاً ، وكان عليه أن يقول : « في أنيابها السم نافعاً »^١ ، أخطأ ولحن على زعمهم ، مع ان كلامه حجة عندهم ، واستشهدوا به في قواعد النحو والصرف .

وأخذ (حفص بن ابي بردة) ، وهو من أهل الكوفة ومن أصحاب (حماد) الراوية على (المرقش) ، انه كان يلحن ، زعم انه لحن في شعره ، وقد أشير الى زعمه هذا في شعر هجاء هجوه به ، هو :

لقد كان في عينيك يا حفص شاغل وأنف كثير العود عما تتبع
تتبع لحناً في كلام مرقش وخلقت مبني على اللحن أجمع
فعيناك إقواء وأنفك مكفاً ووجهك ليطاء فأنت المرقع^٢

وزعم علماء الشعر ، أن (امرأ القيس) حامل لواء الشعر ، ومن جاء بعده من الشعراء ، مثل (النابغة) ، و (بشر بن أبي خازم) ، و (الأعشى) ، أقروا في شعرهم ، والإقواء : هو اختلاف إعراب القوافي ، وهو أن تختلف حركات الروي ، فبعضه مرفوع وبعضه منصوب أو مجرور . ويكثر وروده في

١ ضحى الاسلام (٢٨٨/٢) .
٢ الشعر والشعراء (٦٠١/٢) ، المرزباني ، معجم (٢٨٠) ، السمط (٣٩/٣) ، يوهان فك (٦٤) ، (معيناك اقواء) ، البيان والتبيين (٢١٥/٢) ، الشعر للشاعر « البردخت » ، وهو « علي بن خالد الضبي العكلي » ، العقد الفريد (٤٨١/٢) .

اجتماع الرفع مع الجر ، واما الإقواء بالنصب فقليل . وهو في نظرهم عيب^١ . وزعموا أن بعضاً من شعراء الجاهلية أكفأوا في شعرهم . والإكفاء ، المخالفة بين حركات الروي رفعاً ونصباً وجراً ، أو المخالفة بين هجائها ، أي القوافي ، فلا يلزم حرفاً واحداً تقاربت مخارج الحروف أو تباعدت ، ومثله أن يجعل بعضها ميماً وبعضها طاء ، وقال بعضهم : الإكفاء في الشعر هو التعاقب بين الراء واللام والنون . وهو أحد عيوب القافية الستة التي هي : الإبطاء ، والتضمين ، والإقواء ، والإصراف ، والإكفاء ، والسناد^٢ .

وقد روى أهل الأخبار قصة زعموا أنها وقعت للنايعة ، وكان لا يعرف شيئاً عن إقوائه بشعره ، فلما وقعت له عرف به فعافه ، ذكروا ان الناس خافوا تنبيه الشاعر إلى إقوائه ، وبقي هو عليه ، حتى دخل يثرب ، فأرادوا إظهار عيبه له فأمروا قينة لهم ان تغنيه شعره ، فغنته :

أمن آل مية رائح أو مغندي عجلان ذا زاد وغير مزود
زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك حدثنا الغراب الأسود^٣

ففطن اليه ولم يعد إلى إقواء . « قال أبو عمرو بن العلاء: فحلان من الشعراء كانا يقويان ، النايعة وبشر بن أبي خازم ، فأما النايعة فدخل يثرب فغنى بشعره ففطن فلم يعد للإقواء ، وأما بشر ، فقال له أخوه سودة : انك تقوي ، قال : وما الإقواء ؟ قال : قولك :

ألم ترَ أن طول الدهر يُسلى ويُنسى مثل ما نسيت جذامُ

ثم قلت :

وكانوا قومنا فبغوا علينا فسقتناهم إلى البلد الشامِ

فلم يعد للإقواء^٤ .

١ تاج العروس (٣٠٧/١٠) ، (قوى) .

٢ تاج العروس (١٠٨/١) ، (كفا) .

٣ الشعر والشعراء (١٠٦/١) ، (دار الثقافة) .

٤ الشعر والشعراء (١٩٠/١) ، (دار الثقافة) ، الخزائن (٢٦٢/٢) .

ورويت قصة لإقواء (بشر بن أبي خازم) بشكل آخر ، فقد زعم ان أخاه
(سودة) قال له : إنك تقوي ، قال : وما الإقواء ؟ قال : قولك :

ألم تر- أن طولَ الدهر يُسلي وينسي مثل ما نسيت جُدامُ

ثم قلت :

وكانوا قومنا فبنوا علينا فسقناهم الى البلد الشام

فلم يعد للإقواء^١ ، أو أن أخاه (سمير) ، قال له : « أكفأت وأسأت .
فقال : وما ذلك ؟^٢ .

وقد ذهبوا الى أبعد من ذلك ، فزعموا أن المصاحف لما كتبت « عرضت على
عثمان ، فوجد فيها حروفاً من اللحن ، فقال : لا تغيروها ، فإن العرب ستغيرها
— أو قال ستعربها — بألسنتها ، لو كان الكاتب من ثقيف والملي من هذيل
لم توجد هذه الحروف^٣ ، وقد كان كل من اختارهم الخليفة لكتابه القرآن من
خالص العرب ، ولم يكن من بينهم من هو من المولدين أو الموالي ، وقد كانوا
من الفصحاء الألباء ، فكيف وقع منهم اللحن إذن ؟

بل زعموا أن (عمر) ضرب أولاده لما لحنوا ، وأن (معاوية) كلم (عبيد الله
ابن زياد) ، فوجده كيساً عاقلاً على انه يلحن فكتب الى والده بذلك^٤، وزعموا
ان (الحجاج) كان يلحن ، زعموا انه لحن في القرآن ، فقرأ : « إنا من
المجرمون منتقمون^٥ » ، وزعموا انه لحن في آيات أخرى^٦ ، والحجاج من ثقيف ،
ولم يكن أعجمياً ، حتى يظهر اللحن منه ، مع انهم جعلوه أحياناً من أفصح
العرب ، ومن لم يلحن في حياته في جد ولا هزل . قال (الأصمعي) : « أربعة
لم يلحنوا في جد ولا هزل : الشعبي ، وعبد الملك بن مروان ، والحجاج بن

١ الشعر والشعراء (١٩٠/١) ، الموشح ٥٩ ، الخزائن (٢٦٢/٢) وما بعدها .

٢ مصادر الشعر الجاهلي (٤٩) .

٣ السيوطي ، الاتقان (٢٧٠/٢) .

٤ الفائق (٩٩/٢) ، البيان والتبيين (٢١٠/٢) ، الخزائن (١٤/٣) ، (بولاق) .

٥ البيان والتبيين (٢١٨/٢) ، (عبد السلام هارون) .

٦ ابن سلام ، طبقات (٦) ، نزهة الألباء (١٦) وما بعدها .

يوسف ، وابن القرية . والحجاج أفصحهم ^١ . وزعموا ان (الوليد بن عبد الملك) ، وأخاه (محمد بن عبد الملك) كانا لحّانين ^٢ . ذكر ان (الوليد) خطب الناس يوم عيد ، فقرأ في خطبته « يا ليتها كانت القاضية » بضم التاء . فقال عمر بن عبد العزيز : عليك وأراحنا منك ^٣ . ورووا قصصاً عن لحنه . وذكر أن (عبد الملك) قال : « أضر بالوليد حبنا له ، فلم نوجهه الى البادية » يقصد انه كان يلحن بسبب عدم ارساله الى الأعراب ليأخذ عنهم اللسان الفصح . وقد كان أخوه محمد لحّاناً كذلك ، وذكر انه لم يكن في ولد عبد الملك أفصح من هشام ومسلمة ^٤ . قال (الجاحظ) : « وكان الوليد بن عبد الملك لحنه ، فلخل عليه أعرابي يوماً ، فقال : أنصفني من ختني يا أمير المؤمنين . فقال : ومن ختتك ؟ قال : رجل من الحي لا أعرف اسمه . فقال عمر بن عبد العزيز : ان أمير المؤمنين يقول لك : من ختتك ؟ فقال : هوذا بالباب . فقال الوليد لعمر : ما هذا ؟ قال : النحو الذي كنت أخبرتك عنه . قال : لا جرم : فلاني لا أصلي بالناس حتى أتعلمه » ^٥ . وذكر (الجاحظ) أمثلة على اللحن ^٦ . وروى أن كتب (الوليد) كانت تخرج ملحونة . فسأل (اسحاق بن قبيصة) أحد موالي (الوليد) ما بال كتبكم تأتينا ملحونة وأنتم أهل الخلافة ؟ فأخبره المولى بقولي ، فإذا كتابٌ قد ورد عليّ : أما بعدُ فقد أخبرني فلان بما قلت ، وما أحسبك تشك أن قريشاً أفصح من الأشعرين ، والسلام » ^٧ .

وقد ورد في شعر (مالك بن أسماء بن خارجة الفزاري) قوله :

وحديثُ الذّه هو بما ينعت الناعتون يوزن وزنا
منطق صائب وتلحن أحيا نأ وخير الحديث ما كان لحنا

وقد ذكر أنه لم يرد اللحن في الإعراب الذي هو ضد الصواب ، وإنما أراد

-
- ١ القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية (٥٨) .
 - ٢ البيان والتبيين (٢٠٥/٢) .
 - ٣ الرافعي (٢٤٦/١) .
 - ٤ البيان والتبيين (٢٠٤/٢ وما بعدها ، ٢١٦) .
 - ٥ المحاسن والاضداد (٦) .
 - ٦ المصدر نفسه .
 - ٧ البيان والتبيين (٢٠٥/٢) .

الكتايبه عن الشيء والتعريض بذكره ، والعدول عن الافصاح عنه . قيل :
تكلمت (هند بنت أسماء بن خارجة) ، أخت الشاعر المذكور فلهجت ، وهي
عند الحجاج ، فقال لها : أتلهجن وأنت شريفة في بيت قيس ١٢ فقالت :
أما سمعت قول أخي مالك لامراته الأنصارية ؟ قال : وما هو ؟ قالت : قال :

منطق صائب وتلهجن أحيسا نأ وخبر الحديث ما كان لحنا

فقال لها الحجاج : إنما عنى أخوك اللحن في القول ، إذا كتى المحدث عما
يريد ، ولم يعنِ اللحن في العربية ، فأصلحي لسانك . غير أن منهم من رأى
أن المراد بهذا اللحن ، اللحن المخالف لصواب الاعراب^١ .

وقد ذكر (السهيلي) ، أن الجاحظ قد أخطأ حين قال في كتابه (البيان
والتبين) ، أن الشاعر لم يقصد اللحن الذي هو الخطأ في الكلام وإنما أراد
استملاح اللحن من بعض نثائه ، وخطأه في هذا التأويل^٢ ، قال : فلما حدث
الجاحظ بمحدث (الحجاج) ، قال : لو كان بلغني هذا قبل أن أألف كتاب
البيان ، ما قلت في ذلك ما قلت ! فقال له : أفلا تغيره ؟ فقال : كيف وقد
سارت به البغال الشهب ، وانجد في البلاد وغار ، . و قال السيرافي : ما
عرفت حقيقة معنى النحو إلا من معنى اللحن الذي هو ضده ، فإن اللحن عدول
عن طريق الصواب ، والنحو قصد الى الصواب^٣ .

وذكروا أن بعض شعراء الدولة الأموية كان يلحن ، ومن وقع منه اللحن
(الفرزدق) . روى أن (عبدالله بن يزيد الحضرمي) البصري ، كان يتقده
ويتعقب لحنه ، فهجاه الفرزدق ، بقوله :

فلو كان عبدالله مولى هجوته ولكن عبدالله مولى المواليا

فقال له الحضرمي : لحت . ينبغي أن تقول مولى موال^٤ .

١ أمالي المرتضى (١٥/١) ، الامالي ، للقالى (٥/١) .

٢ البيان والتبيين (١٤٧/١) .

٣ الروض الاتف (١٩٠/٢) .

٤ الرافعي (٢٥٦/١) .

« وقالوا : تريغ ابن جؤية في اللحن ، حين قرأ : هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ، وجعلوه حالاً ، يعني : أطهر . وليس هو كسما قالوا ... »^١ ،
و « تكلم معاوية بن صعصعة بن معاوية يوماً ، فقال له صالح بن عبد الرحمن :
لحنت . فقال له معاوية : أنا ألحن يا أبا الوليد ، والله لتزل بها جبريل من
الجنة »^٢ .

وقد فشا اللحن وانتشر حتى بين العلماء ، وبين علماء النحو واللغة أيضاً ، حتى
غلط بعضهم بعضاً ، ونسب بعضهم اللحن الى البعض الآخر ، قال (ابن فارس) :
« وقد كان الناس قديماً يمتنعون اللحن فيما يكتبونه أو يقرأونه اجتنابهم بعض
الذنوب . فاما الآن ، فقد تجوزوا حتى إن المحدث يحدث فيلحن ، والفقيه يؤلف
فيلحن ، فإذا نُبتها قالوا : ما ندرى ما الإعراب ! وإنما نحن محدثون وفقهاء »^٣ .
ولما كثر اللحن في الحديث ، جوزوا لإعرابه . قال (الأوزاعي) : « لا بأس
بإصلاح اللحن والخطأ في الحديث » ، وقال أيضاً : « اعربوا الحديث فإن القوم
كانوا عرباً » . وقال (النضر بن شميل) : « كان هشيم لحناً ، فكسوت لكم
حديثه كسوة حسنة ، يعني بالإعراب »^٤ .

وبعد ، فقد رأيت من روايات أهل الأخبار أنفسهم ، أن اللحن لم يكن
قاصراً على المعجم ، بل كان قد عرف بين العرب كذلك ، وعلى هذا يجب ألا
نلقي مسؤولية ظهوره على الأعاجم ، بل على العرب أولاً ، لأنهم هم الذين
بدأوا باللحن ، بدأوا به قبلهم بأمد طويل ، لحنوا في الجاهلية ، أي قبل دخول
العجم في الاسلام . فنحن نظلم الأعاجم اذن ، إن ألقينا على عاتقهم مسؤولية
إشاعة اللحن بين العرب . ولكن هل يعقل وقوع اللحن من عرب كالجاهليين ،
ومن شعراء فحول ، استمد علماء اللغة قواعد النحو والصرف من شعرهم مثل
(النابغة) الشاعر المعظم ، أو من غيره ؟ لقد سبق أن ذكر علماء اللغة أن
العربي ، لا يزال في كلامه وحاشا له أن يلحن أو يخطئ في لسانه ، لأنه إذا
تكلم تكلم عن سليقة وطبع ، وقد حماه الله من الوقوع في زلل الكلام ! إذن فكيف

١ مجالس ثعلب (٤٣) .

٢ مجالس ثعلب (٤٧) .

٣ انصاحي (٦٦) .

٤ أبو رية ، أضواء على السنة المحمدية (١٠٨ وما بعدها) .

نفسر ما ذكروه من وقوع النابغة في اللحن ، ومن وجود الإقواء في شعره وفي شعر غيره ، ومن ظهور اللحن في أيام الرسول ؟ هل نرجع ذلك الى خطأ الرواة في رواية شعر النابغة وأمثاله ، أو نرجع ذلك الى التزوير ، فنقول إن ذلك الشعر مفتعل ، وإنه ليس من شعر النابغة ، وإنما هو شعر منحول وضع عليه ، ومن ثم وقع الخطأ . ولكن الذي نعرفه أن من كان ينحل العرب الشعر وينسبه للجاهليين ، كان من أنفن الناس لشعر الجاهلية ومن أعرف الناس بالعربية ، ومن البارعين الحاذقين بقواعدها ، وأناس على هذا الطراز من الفهم والعلم ، هل يعقل وقوع مثل هذا الغلط منهم ؟ أو هل نرجع ذلك الى الخطأ في التدوين والاستساخ ، ولكن كيف غفل العلماء من النص على ذلك ؟

وجوابي أن القول بأن اللحن بمعنى الخطأ في الكلام ، يستوجب وجود لغة فصيحة ذات قواعد نحوية وصرفية مقدرة ومقتنة وثابتة تعدّ اللغة الفصيحة العالية في نظر أصحابها ، من يخالف قواعدها يعدّ لحاناً لا يحسن القول ولا الكلام . وهو قول لا يعارضه أحد بالنسبة الى وجوده في الاسلام ، بعد أن فرض الاسلام دين الله على المؤمنين به كتاباً سماوياً ولساناً عربياً مبيناً ، تثبتت قواعد نحوه وصرفه في الاسلام . فمن سار عليها عدّ فصيحاً ، ومن خالفها عدّ لحاناً عامياً . أما بالنسبة لأهل الجاهلية ، فالقول بوجود اللحن عندهم ، يقتضي التسليم بوجود لغة فصيحة عليا لديهم ، لها قواعد مقررة ، من تكلم وفقها عدّ فصيحاً ، حسب درجة إعرابه وملكته في اللغة ، ومن خالفها عدّ عامياً جلفاً . وقد أكد علماء اللغة ، وجود هذه العربية الفصيحة ، التي هي عندهم عربية قريش ، عند ظهور الاسلام ، وقالوا : إن بها كان نزول عربية القرآن ، وبها نظم الشعر الجاهلي ، وبها نثر الكلام الجاهلي المنشور . أما اللحن ، فقد أنكروا وجوده ، ولم يسلموا بوقوعه ، وحججهم ما ذكرته من أن العربي فصيح بطبعه ، اذا تكلم تكلم عن سجية فيه وسليقة ، لم يلحن ولم يخطيء في كلامه في الجاهلية ، الى أن كان الاسلام ، فاختلط العرب بالأعاجم ، ودخل الغرباء بين العرب ، ففسد الطبع وظهر الخطأ في اللسان ، وفشا اللحن .

وقد يعقل تصور وجود هذه العربية الفصحى ، اذا افترضنا - مع المفترضين الأخباريين - ان تلك العربية ، هي عربية أهل مكة ومن عاش حولهم ، وأنها كانت عربية قريش ، وأن المتكلمين بها كانوا بشراً عصموا عن الخطأ في اللسان

وجبلوا على التكلم بها على الفطرة ، ولكننا لا نستطيع القول انها كانت عربية كل عرب جزيرة العرب ، إذ رأينا العرب الجنوبيين ، وقد كانوا يتكلمون بلغات أخرى ، ووجدنا عرب أعالي الحجاز ، ولهم ألسنة ثباين عربية القرآن ، ورأينا للقبائل لهجات ، تختلف بدرجات عن هذه العريسة . فكيف يتصور اذن اتفاق العرب كلهم على التكلم بلسان قريش ، وبغير خطأ أو زلل في اللسان .

وفي بقي علماء اللغة وجود اللحن عند الجاهليين تعارض مع رواياتهم القائلة بوجود الإقواء والإكفاء في شعر بعض الشعراء الجاهليين ، وبلحن (النابغة) في قوله : « في أنيابها السم نافع » ، وبلحن الأعرابي في حضرة الرسول ، وبتباين لغات العرب ، تبايناً تحدثت عنه في فصل (لغات العرب) وقد وقع في كثير من صميم خصائص اللغات ، ومن بينها أمور تخص قواعد الإعراب ، وفيه تعارض أيضاً مع القرارات الشهيرة والشاذة للقرآن ، وبينها أمور تخص قواعد النحو والصرف والإعراب ، وفيه تعارض مع ما ذكره من أن « أطراف الجزيرة لم تكن خالصة العروبة في القديم ، بل كان أهلها مغلوبين على أمرهم ؛ فلم يكن لهم من معنى اللغة إلا تعاور المنطق والاستبداد بالكلمات يتلفونها من حولهم ، لأن ملكات الوضع العربي فيهم غير صحيحة ، وشروطه غير تامة ، وليس كل عربي الجنس عربي اللسان ، وإلا فما بال الحميريين ومن قبلهم من الأمم السالفة ؟ »^١.

وكيف يعقل نفى اللحن عن العرب مع وجود اللغات ، ووجود التعارض والإختلاف بين قواعد هذه اللهجات ، هل يعقل أن يتكلم العربي الجنوبي ، باللغة العربية الفصيحة من غير خطأ ولا لحن ، ولسانه غير لساننا ، وعربيته غير عريبتنا ، وقواعده على خلاف قواعدنا ، وإعرابه على خلاف إعرابنا ، كما أثبت ذلك بالبرهان القاطع من الكتابات الجاهلية ، وبأقوال علماء العربية أنفسهم ، وفي مقدمتهم (أبو عمرو بن العلاء) ، القائل : « ما لسان حمير بلساننا ، ولا لغتهم بلغتنا » . ثم اننا إذا أخذنا القراءات المتنوعة التي قرئ بها القرآن ، والشواهد الشعرية الكثيرة التي أوردها علماء العربية والنحو على الشواذ ، وما يذكره العلماء من خلاف في النحو ، فلنأثر لا يمكن تفسير خروجها على القواعد إلا بأنها أثر من أثر بقايا اللهجات . وخروجها على القواعد ، هو لحن . ومن خرج على

القواعد عدّ لحناً ، مهما كان عصره أو جنسه ، جاهلياً كان أم مسلماً ، عربياً كان أم أعجمياً ، لأن اللحن لا يختص بعصر أو جنس .

ان ما دعوه باللحن ، وما أخذوا الأعاجم عليه ، من عدم تمكنهم من النطق ببعض الحروف ، أو من وقوعهم في أخطاء نحوية ، نواه قد وقع للعرب الفصحاء في الجاهلية وفي الإسلام ، فما كان ينطقه بعض العرب من اشمام الضناد صوت الزاي ، أو من النطق بالجيم (كافاً) على اللهجة المصرية ، يعدّ لحناً ، ^{٥١} صدر من أعجمي ، اما ان صدر من عربي ، فلا يقال لذلك لحناً ، بل يقال انه لغة من لغات العرب . واذا تصورنا ان عربية الجاهليين ، كانت عربية عالية واحدة ، على نحو ما يراه أهل الأخبار وعلماء اللغة ، وجب اعتبار هذه اللغات لغات عامية ، المتكلم بها خارج على قواعد اللغة ، فهو ممن يلحن ويخطئ سواء كان عربياً ، أم أعجمياً ، جاهلياً أم اسلامياً ، فنحن نتكلم هنا عن اسلوب كلام ، لا عن رسم وأصل .

اننا حين نقول ان اللحن لم يكن معروفاً بين أهل الجاهلية ، نكون قد حصّناهم بالعصمة : بعصمة اللسان ، ونكون قد جعلناهم بذلك شعباً مختاراً ، فضل بعصمة لسانه على ألسنة سائر البشر، ولكن العلم لا يعرف عصمة ولا حصانة في لسان ، وهو يرى ان اللحن لا بد وأن يقع عند أي شعب ، أو قوم ، أو قبيلة ، حتى ان كانت القبيلة في سرة البادية ، وفي معزل ناء ، لأن الطبيعة توجد من اختلاف قابليات أفراد القبيلة ومن اختلاف مستوى عقلياتهم وثقافتهم وتباعده سكنهم بعضهم عن بعض ، خروجا على اللسان ، فيظهر اللحن الشاذ ، ويبرز النشاط في اللغة ، مهما كان موطن هذه القبائل ، في جزيرة العرب أو في أي موضع آخر من العالم ، فاللحن ، أي التبليل في الألسنة من الأمور الطبيعية ، التي توجد في طبيعة البشر وطبيعة الاقليم ، وأمور أخرى بحث فيها علماء اللغة والاجتماع ، ولا يمكن أن يكون العرب بمنجاة منها !

لقد تحير (السيوطي) وغيره في تفسير خبر ورد عن (سعيد بن جبير) من انه « كان يقرأ : والمقيمين الصلاة ، ويقول : هو لحن من الكاتب » . فقال : « وهذه الآثار مشكلة جداً ، وكيف يظن بالصحابة أولاً انهم يلحنون في الكلام فضلاً عن القرآن ، وهم الفصحاء اللد ! ثم كيف يظن بهم ثانياً في القرآن الذي تلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم ، كما أنزل ، وحفظوه ، وضبطوه ، وأتقنوه » .

ثم كيف يظن بهم ثالثاً اجتماعهم كلهم على الخطأ وكتابته ! ... الخ ' ، وفي بعض هذه القراءات خطأ حصل من الكتابة ، قال « هشام بن عروة عن أبيه ، قال : سألت عائشة عن لحن القرآن عن قوله تعالى : إن هذان لساحران ' ، وعن قوله تعالى : والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة ' . وعن قوله تعالى : إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون ' ، فقالت : يا ابن أخي ، هذا عمل الكتاب انخطئوا في الكتاب ' ، أي من الرسم ، وهو في الأكثر ، فهذا الخطأ في الرسم القديم للكتابة ، هو الذي جعل العلماء يسمونه لحناً ، وهو ليس بلحن في الأصل ، وإنما جاء اللحن من قراءة القراء بألحانهم ، أي على حسب لغاتهم ، وإلا فلا يعقل تطاولهم على القرآن بقراءتهم له قراءة مخالفة للإعراب ولما نزل به الوحي . وهكذا كان الأمر بالنسبة للمواضع الأخرى مثل : « اثنتا عشرة عيناً ' ، فقد قرئ بسكون الشين وهي لغة تميم ، وكسرها وهي لغة الحجاز ، وفتحها وهي لغة ' ، ومثل (الصراط) ، فقد قرأت بالسین وبالصاد ، والقراءتان لمجتنا قبائل ، ومثل (حتى) ، فقد قرئت (عني) ، قرأها (ابن مسعود) على لسانه ، إذ كان من هذيل .

وقد ذكر (المعري) أمثلة على قراءات في القرآن قرأها علماء مشهورون مثل (حمزة بن حبيب) ، هي منكرة في نظر غيره من العلماء ، « ينكرها عليه أصحاب العربية ، كخفص الأرحام في قوله تعالى : واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، وكسر الياء في قوله تعالى : وما أنتم بمصرخي ، وكذلك سكون الهمزة في قوله تعالى : استكباراً في الأرض ومكر السيئ » ، وجاء بأمثلة أخرى من قراءات غيره للقرآن^٨ . والخلاف الذي نلاحظه في أمور النحو بين علماء أهل البصرة وعلماء أهل الكوفة ، في مثل عمل الأسماء والأدوات : أدوات الجرح ، أو الخفض ، وأدوات النصب ، وأدوات الجزم ، وأمثال ذلك ، هو في حد ذاته دليل على وجود إعراب متعدد

-
- ١ السيوطي ، الاتقان (٢ / ٢٧٠) .
 - ٢ طه ، ٦٣ .
 - ٣ النساء ، الآية ١٦٢ .
 - ٤ المائدة ، الآية ٦٩ .
 - ٥ السيوطي ، الاتقان (٢ / ٢٦٩) .
 - ٦ البقرة ، الآية ٦٠ .
 - ٧ السيوطي ، الاتقان (٢ / ٢٧٧) .
 - ٨ رسالة القرآن (٣٦٧ وما بعدها) .

للعرب ، وقف العلماء على شيء يسير منه ، فوقعوا من ثم في بلبلة من أمره ، بسبب عدم اهتمامهم بأمر تلك اللغات ، واقتصارهم في جمعهم قواعد النحو على لهجات الأعراب الذين اتصلوا بهم ، فظهر لهم وكأنه نشاز ، ولو فطنوا يومئذ الى أنه من إعراب لغات ، لكان حكمهم حكماً آخر ولا شك . ومن هؤلاء الأعراب الذين أخذ عنهم البصريون : قيس ، وتميم ، وأسد ، « فسلم هؤلاء هم الذين أخذ عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب ، وفي الإعراب ، والتصريف . ثم هذيل ، وبعض كنانة ، وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم »^١ ، والقبائل المذكورة باستثناء الطائيين ، هم من مجموعة (مضر) ، وليس فيها قبيلة من (ربيعة) ، لذلك نستطيع القول ان العربية قد بنيت على لهجات مضر ، وحيث أن علماء اللغة أهملوا لغات القبائل الأخرى وبينها قبائل من مضر كذلك ، فلم يأخذوا منها إلا عرضاً ، تولد من علمهم هذا بناء العربية على تلك اللهجات وبموجب اجتهاد واستقصاء أولئك العلماء ، فظهر من أجل ذلك الغريب والنشاز ، والاختلاف في الإعراب ، الذي أشار الى قسم منه العلماء ، وهو الذي احتاجوا اليه للاستشهاد به في الشواهد والمناظرات ، وأكثره من لغات مضر ، وأهملوا الباقي ، ولو هم سجلوا كل ما عرفوه من نشاز لتجمع من ذلك تراث كبير كثير من تراث اللغات الجاهلية من اختلاف في لغة وقواعد اعراب وصرف .

لقد تمسكت القبائل بقواعد ألسنتها حتى في الاسلام ، فكان أفرادها ينطقون بلهجتهم ، من ذلك ما ذكره (الزجاجي) من اختلاف (عيسى بن عمر) الثقفي ، و (أبو عمرو بن العلاء) في رفع أو نصب : « ليس الطيب إلا المسك » ، ومن احتكامهما الى (أبي المهدى) ، فلما ذهب الى وجده لا يرفع ، فلما حاولا اقناعه بالرفع ، أبى عليهما ذلك وقال : « لا ، ليس هذا من لحي ولا من لحن قومي » ، فلما ذهب الى (المتجسج) التميمي ، وجده لا ينصب وأبى إلا الرفع ، وذكر (الزجاجي) : « ليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب ، ولا في الأرض تميمي إلا وهو يرفع »^٢ . وقع ذلك في الاسلام وبعد تثبيت القواعد ، وكان هذا حال قبائل الحجاز ، وحال تميم في الجاهلية ولا شك ،

١ السيوطي ، الاقتراح (١٩) .

٢ مجالس العلماء (١ وما بعدها) .

فهل يعد هذا الاختلاف دلالة على عدم وجود اللحن عند أهل الجاهلية ، أم يعدّ دليلاً على وجوده عندهم ؟

لقد أدى اقتصار العلماء في أخذهم العربية عن القبائل التي ذكروها وفي تمسكهم برأيهم في أن تلك القبائل ، هي صاحبة اللغة الفصيحة ، الى نبذ اللهجات العربية الأخرى ، لاعتبارهم إياها لهجات مستفححة ، ولغات حشوية ، فخسرت العربية بذلك خسارة كبرى ، وظهر بسبب ذلك التناؤد في مذاهب علماء العربية ، بسبب اعتمادهم على لغات معينة محدودة ، وليس على كل اللغات العربية القريبة من لغة القرآن ، ليتمكنوا بذلك من استقراءها كلها واستنباط القواعد الكلية منها :

ومن جملة الأمور التي يجب أن نشير إليها وننتبه إليها ، هو أن علماء العربية حين كانوا يشيرون الى لهجة من اللهجات ، مثل لهجة أهل الحجاز ، أو لهجة هذيل ، أو تميم ، وأمثالها ، كانوا يشيرون إليها بالتعميم ، مثل : جاء هذا على لغة أهل العالية : أو على لغة أهل الحجاز ، أو على لغة تميم ، مع ان حكمهم هذا لم يؤخذ من دراسة لغة القبيلة المشار إليها ، وانما أخذ من لسان أعرابي أو أكثر ، بينا الحكم على منطق إنسان واحد أو اثنين أو ثلاثة ، لا يمكن أن يتخذ حجة للحكم على منطق قبيلة بأكملها ، أضف الى ذلك أن القبائل الكبيرة ، كانت موزعة منتشرة ، والحجاز ، وحده ذو قبائل كثيرة ، متعارضة اللغات ، فكيف يقال : جاء هذا على لغة أهل الحجاز ، وكانت أسد وتميم متجزئة منتشرة في مناطق واسعة ، وهذا مما جعل لهجاتها تتأثر بالاقليمية وبالحوار ، فلم يكن لها لسان واحد ، غير أن علماء العربية لم يفتنوا الى هذه الأمور ، فوقعوا من ثم في أخطاء ، فأخذوا من بعض تميم ، ونسبوا ما أخذوه على كل تميم مثلاً .

ثم إنهم لم يستخلصوا النحو من القرآن رأساً ، وقد كان عليهم الاعتماد عليه أو لأنهم انما اتخذوا النحو لصيانة اللسان من الخطأ في القرآن وفي لغة التنزيل ، وإنما مالوا عنه الى الشعر ، والى كلام أعراب من قبائل معينة وثقوا بصحة كلامهم وزاد ابتعادهم عن الاسلوب العلمي ، بأخذهم بالعصية العلمية ، فظهرت الآراء المتعصبة للمدن والعلماء ، فهذا رجل محب للبصرة ، مفرط في حبها ، لا يقدم على علمائها عالم ، وهذا كوفي متعصب لنحو الكوفة ولعلم الكوفة ، لا يقدم على أهل الكوفة أحداً . ثم زاد هذا التعصب للعلماء ، فهذا تلميذ عالم يتعصب له ، ويأخذ برأيه كأنه رأى نزل من السماء ، وهذا عالم كبير يعيب علم عالم

منافس له ، وبتهمج هو وتلامذته عليه ، وهذا نحوي يعيب نحو الآخرين ، وقد دفعت هذه العصبية ، بعض العلماء الى الابتعاد عن العلم ، باللجوء الى الوضع والافتعال والانهام ، لإفحام الخصوم ، حتى جاء بعضهم بشواهد نحوية وصرفية مفتعلة ، وبشهود من الأعراب ، تكلموا باطلاً لتأييد عالم على عالم ، وفي المسألة الزنبورية التي وقعت بين سيويه والكسائي ، وفي مجالس الجدل التي تجادل فيها العلماء في محضر الخلفاء في قضايا النحو واللغة والشعر أمثلة عديدة على ما أقول^١ .

وعندي أن ما نسب الى بعض الشعراء الجاهليين من وقوعهم في أغلاط نحوية أو لغوية أو شعرية ، لم يكن خطأ بالنسبة لهم ، وإنما بان الخطأ عند علماء العربية ، حين قاسوا الشعر بمقياس واحد ، هو العربية التي جمعوا قواعدها ودونوها في الإسلام ، والعروض الذي ضبطه (الخليل) ومن جاء بعده ، ولو كانوا قد درسوا لهجات القبائل ، وعلموا أن الشعراء ، كلهم أو بعضهم كان ينظم شعره بلسانه ، وإن الشعر الجاهلي ، جاء باللسنة متعددة ، لعلموا إذن سر وقوع هذا الاختلاف في الشعر ، ولأراحوا أنفسهم من دراسة كثير من هذا الغريب والشاذ الذي أدخلوه كتب النحو واللغة ، بعد صقل الشعر وتهذيبه . وقد فطن الى ذلك (المعري) ، فاعتذر عما نسب الى (امرئ القيس) من خروج عن القواعد بسوء الرواية وبالتصحيف^٢ ، وبأنهم في الجاهلية كانوا لا يعدون ذلك خروجاً على قاعدة ، وإنما كان ذلك شيئاً مألوفاً عندهم ، فلما جاء « المعلمون في الإسلام » « غيروا على حسب ما يريدون »^٣ ، وجعله يقول عن (الاقوياء) : « لا نكرة عندنا في الإقواء » واعتذر عما نسب الى غيره من الشعراء من عيوب أحصاها علماء الإسلام عليهم ، بأن قال إن هذه لم تكن من العيوب في أيامهم ، وإنما هي صارت عيوباً في الإسلام .

لقد اعتمد علماء العربية على الشعر الجاهلي وعلى لغات العرب التي وثقوا منها في جمع قواعد العربية وتثبيتها ، كما استشهدوا بالقرآن ، الذي نزل بلسان عربي مبين ، والذي ثبت العربية . أما (الحديث) ، فقد اختلفوا في جواز الاستشهاد

١ راجع مجالس العلماء

٢ رسالة القرآن (٣١٣ وما بعدها) .

٣ رسالة (٣١٧ وما بعدها) .

٤ رسالة (٣٢٠) .

به ، وذلك لأن الحديث لم ينقل كما سمع من النبي وإنما روي بالمعنى ، ولهذا فإن أئمة النحو المتقدمين من المصريين : البصرة والكوفة لم يحتجوا بشيء منه ، وقد جوز بعض العلماء الاستشهاد به على تقدير التسليم بأن النقل كان بالمعنى ، إنما كان في الصدر الأول ، وقبل تدوينه في الكتب وقبل فساد اللغة ، وغايته تبديل لفظ بلفظ ، ولهذا يجوز الاحتجاج به ، لأن السلائق العربية لم تكن قد فسدت بعد . وموضوع الخلاف ، هو ان النقل لم يكن بالحرف ، وإنما بالمعنى ، ولو كان بالأول لما وقع الخلاف في وجوب الاستشهاد به ، ولجری ذلك مجرى القرآن الكريم في اثبات القواعد الكلية بموجبه . قال « مفيان الثوري : إن قلت لكم اني أحدثكم كما سمعت ، فلا تصدقوني ، إنما هو المعنى . ومن نظر في الحديث أدنى نظر علم العلم اليقين انهم يروون بالمعنى »^١ . وقد وقع اللحن كثيراً فيما روي من الحديث لأن كثيراً من الرواة كانوا غير عرب بالطبع ويتعلمون لسان العرب بصناعة النحو ، فوقع اللحن في كلامهم وهم لا يعلمون ، ودخل في كلامهم وروايتهم غير الفصيحة من لسان العرب ، فدخل من ثم هذا اللحن في الحديث ، ولهذا امتنع علماء المصريين من الاستشهاد بالحديث في النحو . وقد جوز بعض المتأخرين الاستشهاد بالأحاديث والأمثال النبوية الفصيحة ، ولم يجوزوا الاستشهاد في غير ذلك^٢ للسبب المذكور . هذا وقد ألف العلماء كتباً عديدة في إعراب القرآن وفي معانيه وغريبه ، وصل بعض منها إلينا . وقد أشار (ابن النديم) الى أسماء عدد من تلك المؤلفات^٣ . وهي مرجع هام بالنسبة لعلماء العربية ، لورود آراء لغوية ونحوية قيّمة فيها ، تفيد في شرح النحو العربي .

-
- | | |
|---|-----------------------------|
| ١ | الخزانة (٥/١ وما بعدها) . |
| ٢ | الخزانة (٦/١ وما بعدها) . |
| ٣ | الفهرست (٦٠) . |

الفصل الخامس والاربعون بعد المئة

النحو

والنحو في اللغة الطريق والجهة والقصد، ومنه نحو العربية . وهو اعراب الكلام العربي . أخذ من قولهم : انتحاء إذا قصده . وهو انتحاء سميت كلام العرب في تصرفه من اعراب وغيره ليلحق به من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها ، وإن لم يكن منهم أو ان شذ بعضهم عنها ردّ به اليها . وهو في الأصل مصدر شائع ، أي نحوت نحواً ، كقولك قصدت قصداً ثم خص به انتحاء هذا القبيل مع العلم . وقيل لقول علي بن أبي طالب بعدما علم الأسود الاسم والفعل وأبواباً من العربية : « انح هذا النحو »^١ . أو لأن أبا الأسود لما وضع ما وضع في النحو وعرضه على (علي) ، قال (علي) له : « ما أحسن هذا النحو الذي نحوت » ! ولذلك سمي النحو نحواً^٢ . ولكننا نجد (الجاحظ) يشير الى وجود اللفظة في أيام (عمر) ، إذ يقول : « وقال عُمر رضي الله عنه : تعلموا النحو كما تعلمون السنن والفرائض »^٣ ، ويشبه هذا الخبر خبراً آخر نسب

-
- ١ اللسان (٣١٠/١٥) ، (نحا) ، تاج العروس (٣٦٠/١٠) ، (نحا) ، الفهرست (ص ٦٥) ، (المقالة الثانية من كتاب الفهرست) ، (ابن الانباري نزهة) (٣ وما بعدها) ، المثل السائر (٧) ، الجمعي ، طبقات (ص ٥) ، ابن خلكان (٢٤٠/١) ، ارشاد (٢٨٠/١) .
 - ٢ ابن الانباري ، نزهة (٢ وما بعدها) ، (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم) ، (القاهرة ١٩٦٧ م) .
 - ٣ البيان والتبيين (٢/٢١٩) .

اليه أيضاً ، فقد ذكروا أنه قال : « تعلموا إعراب القرآن كما تتعلمون حفظه »^١ ،
وانه قال : « تعلموا الفرائض والسنن واللحن ، كما تعلمون القرآن »^٢ . ويظهر
أن الكتاب قد صحفوا في خبر (عمر) ، فخلطوا بين (اللمن) و (النحو) ،
وعلى كل فإن بين اللفظتين صلة . وإذا صح خبر (الجاحظ) ، واعتبرنا لفظة
(النحو) لفظة صحيحة غير محرفة ، دلت على وجود هذه التسمية علماً لهذا العلم
في أيامه ، وقبل أيامه ، أي في أيام الجاهليين .

والجمهور من أهل الرواية ان النحو علم ظهر في الاسلام . ظهر بظهور الحاجة
الماسة اليه لضبط اللسان وصيانتة من الخطأ ، ولتعليم الأعاجم نطق الكلام بالعربية.
ورجع أكثرهم مصدره وأساسه الى الإمام (علي بن أبي طالب) ، ويقولون ان
أبا الأسود الدؤلي (٦٩ هـ) أخذ هذا العلم عنه . وان الإمام ألقى عليه شيئاً من
أصول النحو . فاستأذن التلميذ أستاذه أن يصنع نحو ما صنع ، فأذن له به ، فسمي
ذلك نحواً^٣ . وذكر بعضهم ان الإمام دفع الى أبي الأسود رقعة مكتوباً فيها :
« الكلام كله اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبأ
به ، والحرف ما أفاد معنى . واعلم ان الأسماء ثلاثة : ظاهر ، ومضمر ، واسم
لا ظاهر ولا مضمر ، وانما يتفاضل الناس فيما ليس بظاهر ولا مضمر . ثم وضع
أبو الأسود بابي العطف والنعت ثم بابي التعجب والاستفهام ، الى أن وصل الى
باب إن وأخواتها ما خلا لكن ، فلما عرضها على عليّ أمره بضم لكن اليها ،
وكلماً وضع باباً من أبواب النحو عرضه عليه »^٤ . وذكر بعض آخر ان أول من
أسس العربية وفتح بابها ، وأنهج سبيلها ، ووضع قياسها ، أبو الأسود الدؤلي ،
وضع العربية « حين اضطرب كلام العرب فغلّبت السليقة ، فكان سراً الناس
يلحنون ، فوضع باب الفاعل والمفعول والمضاف وحروف الجر والرفع والنصب ،

١ الزينة (١١٧ وما بعدها) .

٢ الامالي ، للقالبي (٥/١) ، الاتقان (٢٦٠/٢) .

٣ الفهرست (٦٦) ، الروض الانف (٩٦/١) ، ابن خلكان (٦٦٢/١) ، الحلبي ،
الزبيدي ، طبقات (١٣ وما بعدها) ، الفائق (٦١١/١) ، طبقات ، ابن سلام (٥) ،
ياقوت ارشاد (٢٨٠/٤) ، المثل السائر (٧) .

٤ ضحى الاسلام (٢٨٥/٢) ، (القاهرة ١٩٦١) ، ابن الانباري ، نزهة (٤ وما
بعدها) .

والجزم^١ . وقال (ابن قتيبة) : « وهو أول من وضع العربية »^٢ . وذكر (ابن حجر) ، انه أول من وضع العربية ونقط المصاحف^٣ . وروى (ابن النديم) ان أربعة أوراق ، وجدت فيها كلام في الفاعل والمفعول من أبي الأسود الدؤلي ، وكانت بخط (يحيى بن يعمر) ، وتحت هذا خط إعلان النحوي ، وتحت هذا خط النضر بن شميل^٤ . ففي هذه الأوراق دلالة على ان هذه الأوراق من كلام (أبي الأسود) ، وانه كان صاحب علم النحو .

وروى (ابن النديم) رواية أخرى ، ذكر فيها أن (الطبري) قال : « إنما سمي النحو نحواً لأن أبا الأسود الدؤلي قال لعلي عليه السلام ، وقد ألقى عليه شيئاً من أصول النحو . قال أبو الأسود : واستأذنته أن أصنع نحو ما صنع ، فسمي ذلك نحواً . وقد اختلف الناس في السبب الذي دعا أبا الأسود الى مارسمه من النحو . فقال أبو عبيدة أخذ النحو عن علي بن أبي طالب أبو الأسود ، وكان لا يخرج شيئاً أخذه عن عليّ كرم الله وجهه الى أحد ، حتى بعث اليه زياد أن اعمل شيئاً يكون للناس إماماً ويعرف به كتاب الله ، فاستعفاه من ذلك حتى سمع أبو الأسود قارئاً يقرأ إن الله بريء من المشركين ورسوله بالكسر ، فقال : ما ظننت أن أمر الناس آل الى هذا فرجع الى زياد ، فقال : افعل ما أمر به الأمير فليغني كاتباً لقناً يفعل ما أقول ، فأثنى بكتاب من عبد القيس فلم يرضه فأثنى بآخر . قال أبو العباس المبرد أحسبه منهم ، فقال أبو الأسود : إذا رأيتني قد فتحت في بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه ، وان ضمنت في فانقط نقطة بين يدي الحرف ، وان كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف . فهذا نقط أبي الأسود . قال أبو سعيد رضي الله عنه ويقال : إن السبب في ذلك أيضاً أنه مرّ بابي الأسود سعد ، وكان رجلاً فارسياً من أهل زندخان ، كان قدم البصرة مع جماعة من أهله فدنوا من قدامة بن مظعون وادعوا أنهم أسلموا على يديه ، وانهم بذلك من مواليه . فر سعد هذا بأبي الأسود وهو يقود فرسه . فقال : مالك يا سعد لم لا تركب ؟ قال : إن فرسي ضالع أراد

-
- ١ ضحي الاسلام (٢٨٧/٢) .
 - ٢ المعارف (ص ٣٣٤) .
 - ٣ الاصابة (٢٣٣/٢) ، (رقم ٤٣٢٩) .
 - ٤ الفهرست (ص ٦٧ وما بعدها) .

ظالماً . قال فضحك به بعض من حضره . فقال أبو الأسود هؤلاء الموالي قد
رغبوا في الاسلام ودخلوا فيه فصاروا لنا إخوة ، فلو عملنا لهم الكلام . فوضع
باب الفاعل والمفعول ١ .

« وقيل لأبي الأسود : من أين لك هذا العلم ؟ - يعنون النحو - فقال :
لقد كنت حدوده من علي بن أبي طالب - عليه السلام - وكان أبو الأسود من
القراء ، قرأ على أمير المؤمنين عليه السلام ٢ .

وتذكر رواية أخرى ، ان (أبا الأسود) دخل على (علي) فوجده مطرقاً
مفكراً ، فسأله عن سبب ما به ، فذكر له أمر اللحن وما فشا من الخطأ في
اللسنة الناس ، وانه يريد أن يصنع كتاباً في أصول العربية ، فانصرف عنه ، وهو
مغموم ، ثم عاد اليه بعد أمد ، فألقى الإمام عليه رقعة كتب فيها : « الكلام
كله اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبأ به ،
والحرف ما أفاد معنى » ، ثم أمره أن ينحو نحوه ، وان يزيد عليه ، فجمع
(أبو الأسود) أشياء وعرضها عليه ، فكان من ذلك حروف النصب ، فذكر
منها : إن ، وأن ، وليت ، ولعل ، وكان ، ولم يذكر لكن ، فأشار الإمام
عليه بإدخالها عليها ٣ .

وذكر (ابن الأنباري) (٥٧٧ هـ) ، « ان من وضع علم العربية ، وأسس
قواعده ، وحدد حدوده ، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ،
وأخذ عنه أبو الأسود » . « وسبب وضع علي رضي الله عنه لهذا العلم ، ما روى
أبو الأسود ، قال : دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه
فوجدت في يده رقعة ، فقلت : ما هذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال : اني تأملت
كلام الناس فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء - يعني الأعاجم - فأردت أن
أضع لهم شيئاً يرجعون اليه ، ويعتمدون عليه ، ثم ألقى إليّ الرقعة ، وفيها

١ الفهرست (٦٥ وما بعدها) ، القفطي ، انباه الرواة (٦/١) ، (ذكر أول من وضع
النحو) ، أخبار النحويين ، للسيرافي (١٦ وما بعدها) ، الاصابة (٢٣٣/٢) ،
(٤٣٢٩) .

٢ القفطي ، انباه الرواة (١٥/١) .

٣ القفطي (٤/١) ، (ذكر أول من وضع النحو) ، معجم الادباء (٤٩/١٤) ، ابن
الانباري ، نزعة الالباء (٥) .

مكتوب : الكلام كله اسم ، وفعل ، وحرف ، فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبأ به ، والحرف ما جاء لمعنى . وقال لي : أنصح هذا النحو ، وأضف اليه ما وقع اليك ، واعلم يا أبا الأسود ان الأسماء ثلاثة : ظاهر ومضمر واسم لا ظاهر ولا مضمر ، وانما يتفاضل الناس يا أبا الأسود فيما ليس بظاهر ولا مضمر ، وأراد بذلك الاسم المبهم .

قال أبو الأسود : فكان ما وقع إلي : إن وأخواتها ما خلا لكن ، فلما عرضتها على علي رضي الله عنه ، قال لي : وأين لكن ؟ فقال ما حسبتها منها ، فقال : هي منها فألحقها ، ثم قال : ما أحسن هذا النحو الذي نحوت ، فلذلك سمي النحو نحواً^١ .

وتذكر رواية أن (أبا الأسود) ، وضع بابي العطف والنعت ، ثم بابي التعجب والاستفهام ؛ الى أن وصل الى باب إن وأخواتها^٢ .

وهناك رواية تنسب الى الأصمعي تذكر أنه قال : « سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : جاء أعرابي الى علي عليه السلام ، فقال ، السلام عليك يا أمير المؤمنين . كيف تقرأ هذه الحروف ؟ لا يأكله إلا الخاطون ، كلنا والله يخطو ، قال : فتبسم أمير المؤمنين عليه السلام ، وقال : يا أعرابي : لا يأكله إلا الخاطون . قال : صدقت والله يا أمير المؤمنين ، ما كان الله ليظلم عباده ، ثم التفت أمير المؤمنين الى أبي الأسود الدؤلي ، فقال : إن الأعاجم قد دخلت في الدين كافة فضع للناس شيئاً يستدلون به على صلاح ألسنتهم ، ورسم له الرفع والنصب والخفض^٣ . »

و روي من حديث علي رضي الله عنه مع الأعرابي الذي أقرأه المقرئ : إن الله بريء من المشركين ورسوله : حتى قال الأعرابي : برئت من رسول

١ ابن الانباري ، نزهة (٤ وما بعدها) .

٢ ابن الانباري ، نزهة (٥) ، (حاشية رقم ٢) .

٣ الزينة في الكلمات الاسلامية والعربية ، لابي حاتم أحمد بن حمدان الرازي (٧٢) ، (تحقيق حسين بن فيص الله الحرازي) ، (دار الكتاب العربي) ، (١٩٥٧) ، عبد العال سالم مكرم ، القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية (٥٢) ، ابن الانباري ، نزهة (٨) .

الله ، فأنكر ذلك علي عليه السلام ، ورسم لأبي الأسود من عمل النحو ما رسمه ما لا يجهل موضعه ^١ .

ونجد رواية أخرى تذكر أن (أبا الأسود) ، كان أول من وضع العربية ، وأول من أُملي في للفاعل والمفعول به ، والمضاف ، والنصب ، والرفع ، والجر ، والجزم . وكان قد أخذ العلم من (علي بن أبي طالب) . وحدث ان ابتته لحنّت في فعل التعجب ، فقالت لأبيها وكان اليوم حاراً شديداً الحرّ : « ما أشدّ الحر » ، وكانت تقصد « ما أشدّ الحر » ، أي على باب التعجب . فلما علم (أبو الأسود) بخطأها ، نبهها الى موضع الخطأ . ثم ذهب الى (زياد) والي البصرة ، وطلب منه السماح بوضع علم النحو ، فلم يسمح له . ولما أخطأ رجل أمام (زياد) ، كبر عليه ذلك فوضع (أبو الأسود) قواعد النحو . فأخذ عنه (الليثي) هذا العلم ووسعه ، ثم وسعه (عيسى بن عمر) في كتابيه الجامع والمكمل ^٢ .

ورويت قصة وضع النحو بشكل آخر ، « روي أيضاً ان زياد بن أبيه بعث الى أبي الأسود ، وقال له : يا أبا الأسود، إن هذه الحمراء قد كثرت وأفسدت من ألسن العرب ، فلو وضعت شيئاً يصلح به الناس كلامهم ، ويعرب به كتاب الله تعالى ! فأبى أبو الأسود ، وكرهه لإجابة زياد الى ما سأل ، فوجه زياد رجلاً وقال له : أقعد على طريق أبي الأسود ، فإذا مر بك ، فاقرأ شيئاً من القرآن ، وتعمّد اللحن فيه . فقعد الرجل على طريق أبي الأسود ، فلما مر به رفع صوته ققرأ : ان الله بريء من المشركين ورسوله » بالجر ، فاستعظم أبو الأسود ذلك ، وقال : عز وجه الله أن يبرأ من رسوله ! ورجع من حاله الى زياد ، وقال : يا هذا ، قد أجبته الى ما سألت ، ورأيت أن أبدأ بإعراب القرآن ، فابعث إلي ثلاثين رجلاً ، فأحضرهم زياد ، فاختر منهم أبو الأسود عشرة ، ثم لم يزل يختارهم حتى اختار منهم رجلاً من عبد القيس ، فقال :

١ الخصائص (٩/٢) .

٢ القفطي ، انباه الرواة على أنباه النحاة (١٦/١) ، (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم) ، (مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٠ م) ، الزبيدي ، طبقات النحويين واللغات (١٣) ، (القاهرة ١٩٥٤) ، طبقات ، لابن سلام (٥) ، العسكري ، المصون (١١٨) ، John A. Haywood, Arabic Lexicography, Leiden, 1965, p. 12 f.

خذ المصحف وصبغاً يخالف لون المداد ، فإذا فتحتُ شفتي فانقط واحدة فوق الحرف ، وإذا ضممتها فاجعل النقطة الى جانب الحرف ، وإذا كسرتها فاجعل النقطة في أسفله ، فإن أتبعْتُ شيئاً من هذه الحركات غنة فانقط نقطتين ^١ .

« وقيل : إنه دخل الى منزله ، فقالت له بعض بناته : ما أحسنُ السماء ! قال : أي بنية نجومها ، فقالت : لاني لم أَرِدْ أي شيء منها أحسن ؟ وإنما تعجبت من حسنها ؛ فقال : إذا فقولي ما أحسنُ السماء ! فحينئذ وضع كتاباً ^٢ .

و « قيل : وأتى أبو الأسود عبد الله بن عباس ، فقال : لاني أرى السنة العرب قد فسدت ؛ فأردت أن أضع شيئاً لهم يقولون به ألسنتهم . قال : لعلك تريد النحو ؛ أما إنه حق ، واستعن بسورة يوسف ^٣ . و « قال أبو حرب بن أبي الأسود : أول باب رسم أبي من النحو باب التعجب . وقيل : أول باب رسم باب الفاعل والمفعول ، والمضاف ، وحروف الرفع والنصب والجر والجزم ^٤ .

« ومن الرواة من يقول : إن أبا الأسود هو أول من استنبط النحو ، واستخرجه من العدم الى الوجود ، وأنه رأى بخطه ما استخرجه ، ولم يعزه الى أحد قبله ^٥ . وكان « أول من أسس العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها ووضع قياسها ^٦ . وروي عن (أبي سلمة موسى بن اسماعيل) « عن أبيه ، قال : كان أبو الأسود أول من وضع النحو بالبصرة ^٧ .

وتذكر رواية ان (أبا الأسود) الدؤلي ، انما وضع النحو بأمر من الخليفة (عمر) ، روت ان أعرابياً قدم المدينة في خلافته ، فقال : « من يُقرئني شيئاً مما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فأقرأه رجل سورة براءة ، فقال : « ان الله بريء من المشركين ورسوله » بالجر ، فقال الأعرابي : أو قد برىء الله من رسوله ! إن يكن الله بريء من رسوله فأنا أبرأ منه ! فبلغ عمر رضي الله عنه مقالة الأعرابي ، فدعاه فقال : يا أعرابي : أبرأ من رسول الله !

-
- ١ ابن الانباري ، نزهة (٩) ، الاصابة (٢٣٣/٢) ، (رقم ٤٣٢٩) .
 - ٢ القفطي ، انباه الرواة (١٦/١) ، الاصابة (٢٣٣/٢) ، (رقم ٤٣٢٩) .
 - ٣ المصدر نفسه .
 - ٤ كذلك .
 - ٥ القفطي ، انباه الرواة (٧/١) .
 - ٦ المصدر نفسه (١٤/١) .
 - ٧ ابن الانباري ، نزهة (١٠) .

فقال : يا أمير المؤمنين ، اني قدمت المدينة ، ولا علم لي بالقرآن ، فسألت من يقرئني ، فأقرأني هذا سورة براءة ، فقال : إن الله بريء من المشركين ورسوله ، فقلت : أو قد برىء الله تعالى من رسوله ! إن يكن بريء من رسوله ، فأنا أبرأ منه . فقال له عمر رضي الله عنه : ليس هكذا يا أعرابي ، فقال : كيف هي يا أمير المؤمنين ؟ فقال : « ان الله بريء من المشركين ورسوله » ، فقال الأعرابي : وأنا والله أبرأ ممن برىء الله ورسوله منه . فأمر عمر رضي الله ألا يقرء القرآن إلا عالم باللغة ، وأمر أبا الأسود أن يضع النحو ^١ .

وذكر أن (عمر بن الخطاب) كتب الى (أبي موسى) الأشعري ، كتاباً فيه : « أما بعد : فتفقهوا في الدين وتعلموا السنة ، وتفهموا العربية ، وتعلموا طعن الدرية ، وأحسنوا عبارة الرؤيا ، وليعلم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب » ^٢ . ويفهم من هذا الكتاب ، أن (أبا الأسود) ، كان على علم بالنحو وبالإعراب قبل أيام (علي) ، ولهذا طلب الخليفة من عامله أن يكلف (أبا الأسود) بتعليم أهل البصرة الإعراب .

ويظهر من الرواية التي ذكرتها عن النقاء (أبي الأسود) بعبدالله بن عباس ، وقوله له : « إنني أرى السنة العرب قد فسدت ؛ فأردت أن أضع شيئاً لهم يقيمون به ألسنتهم » ومن رد (عبدالله بن عباس) عليه بقوله له : « لعلك تريد النحو » ^٣ ، أن (ابن عباس) ، كان على علم بالنحو ، ودليل ذلك نصه على اسمه ، مما يدل على أنه كان معروفاً . وذلك إن جاز لنا التصديق بصحة هذه الرواية ، التي أرى أنها من المصنوعات .

وكان (أبو الأسود) مثل غيره من العرب الفصحاء يكره اللحن واللحانين . روي عنه أنه ذكر اللحن ، فقال : « إنني لأجد للحن غمزاً كغمز اللحم » ^٤ . ولأبي الحسن أحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٥ للهجرة ، وهو كما نعلم من مشاهير علماء اللغة ، رأي طريف في منشأ هذا العلم خلاصته : ان أبا الأسود كان

١ ابن الانباري ، نزهة (٨) ، الكشف ، للزمخشري (١٩١/٢) .

٢ القفطي ، انباه الرواة على انباه النحاة (١٦/١) ، خورشيد أحمد فارق ، حضرت عمر كي سرکاری خطوط (دهلي ١٩٥٩) ، (ص ١٣٩ وما بعدها) ، (القسم العربي) ، John A. Haywood, Arabic Lexicography, p. 14 .

٣ القفطي (١٦/١) .

٤ عيون الاخبار (١٥٨/٢) .

أول من وضع العربية ، لكن هذا العلم قد كان قديماً ، وأنت عليه الأيام ، وقلّ في أيدي الناس ، ثم جدده هذا الإمام^١ . فأبو الأسود الدؤلي هو مجدد هذا العلم وباعثه ، وليس موجدته ومخترعه .

فنحن اذن أمام رأي جديد ، رأي يرجع علم العربية الى ما قبل الاسلام وكفى لكنه لم يفصل ولم يشرح ولم يتعرض لموضوع متى كان ظهور هذا العلم في القديم وكيف وجد وهل كان للألسنة الأعجمية كاليونانية أو السريانية أثر في ظهوره ونشوته ؟ ثم انه لم يتعرض للأسباب التي جعلت الأيام تأتي عليه حتى قلّ في أيدي الناس ، الى أن ظهر أبو الأسود فأعادته الى الوجود ، ولم يذكر كيف عثر أبو الأسود على هذا العلم ومن لقنه به حتى بعثه وجدده ؟

تعرض (ابن فارس) لبحث منشأ علم النحو في أثناء كلامه على الخط العربي فقال : « وزعم قوم ان العرب العاربة لم تعرف هذه الحروف بأسمائها ، وانهم لم يعرفوا نحواً ولا إعراباً ولا رفعاً ولا نصباً ولا همزاً^٢ . وهو يرى ان رأيهم باطل ، وان بين العرب من كان يقرأ كما كان بينهم من كان أمياً ، وجاء بأمثلة في تفنيد دعواهم ، ثم خلاص الى هذه النتيجة : « فلما لم نزعم ان العرب كلها - مدراً ووبراً - قد عرفوا الكتابة كلها والحروف أجمعها . وما العرب في قديم الزمان إلا كنعن اليوم ، فما كل يعرف الكتابة والخط والقراءة^٣ . ثم قال : « والذي نقوله في الحروف ، هو قولنا في الإعراب والعروض ، والدليل على صحة هذا وان القوم قد تداولوا الإعراب أنا نستقرئ قصيدة الخطيئة التي أولها :

شافتك أظعان لليلي دون ناظرة بواكر

فنجد قوافيها كلها عند الترنم والإعراب نجيء مرفوعة ، ولولا علم الخطيئة بذلك لأشبه أن يختلف إعرابها ، لأن تساويها في حركة واحدة اتفاقاً من غير قصد لا يكاد يكون .

فإن قال قائل : فقد تواترت الروايات بأن أبا الأسود أول من وضع العربية ،

١ . الصحابي (ص ٣٧ وما بعدها) .
٢ . الصحابي (ص ٣٥) .
٣ . (ص ٣٦) .

وأن الخليل أول من تكلم في العروض ، قيل له : نحن لا ننكر ذلك ، بل نقول : إن هذين العلمين قد كانا قديماً ، وأنت عليها الأيام وقللاً في أيدي الناس ، ثم جددهما هذان الإمامان . وقد تقدم دليلنا في معنى الإعراب^١ .

وقال (ابن فارس) : « ومن الدليل على عرفان القدماء من الصحابة وغيرهم العربية كتابتهم المصحف على الذي يعلله النحويون في ذوات الواو والياء ، والهمز ، والمد ، والقصر ، فكتبوا ذوات الياء بالياء وذوات الواو بالواو ، ولم يصوروا الهمزة إذا كان ما قبلها ساكناً في مثل : الخبء ، والدفاء ، والملاء^٢ » .

وقد استخدم (ابن فارس) لفظة (العربية) في معنى : الإعراب . وذكر لفظة (النحو) قبل كلمة : (الإعراب) ، حيث قال كما ذكرت ذلك قبل قليل : « وأنهم لم يعرفوا نحواً ولا إعراباً ولا رفعاً ولا نصباً ولا همزاً » . وذكر غيره أيضاً أن (أبا الأسود) « أول من وضع العربية ، و « أول من نقط المصحف ووضع العربية^٣ » . وقد استتج المرحوم (أحمد أمين) من ذلك الاستعمال أنهم يعنون بالعربية هذه العلامات التي تدل على الرفع والنصب والجر والجزم والضم والفتح والكسر والسكون والتي استعملها أبو الأسود في المصحف ، وإن هذه الأمور لما توسع العلماء فيها بعد وسمّوا كلامهم (نحواً) سحّبوا اسم النحو على ما كان قبل من أبي الأسود وقالوا : إنه واضح النحو للشبه في الأساس بين ما صنع وما صنّوا ، وربما لم يكن هو يعرف اسم النحو بتاتاً^٤ . ففرق (أحمد أمين) بين (العربية) و (النحو) ، وجعل للعربية سابقة على علم النحو ، وجعل النحو وليداً ولد من العربية . وهو رأي لا يتفق مع رأي (ابن فارس) ، الذي نص على النحو بذكر اسمه ، كما نص على الإعراب من بعده .

هذا هو المشهور المعروف المتداول بين أكثر الناس عن منشأ علم النحو . وقد تعرض (ابن النديم) لهذا الموضوع فقال : « قال محمد بن اسحاق : زعم أكثر العلماء أن النحو أخذ عن أبي الأسود الدؤلي ، وإن أبا الأسود أخذ ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام » ، ثم روى روايات أخرى ،

١ الصاحبي (ص ٣٧ وما بعدها) .

٢ الصاحبي (٣٩) .

٣ ضحى الاسلام (٢ / ٢٨٧) ، الاصابة (٢ / ٢٣٣) ، (رقم ٤٣٢٩) .

٤ ضحى الاسلام (٢ / ٢٨٧) .

تذكر ان غيره قام برسم النحو ، إذ قال : « وقال آخرون رسم النحو نصر بن عاصم الدؤلي ، ويقال الليثي . قرأت بخط أبي عبد الله بن مقلة عن ثعلب ، انه قال : روى ابن ابي لهيعة عن أبي النضر ، قال : كان عبد الرحمن بن هرمز أول من وضع العربية ، وكان أعلم الناس بأنساب قريش وأخبارها وأحد القراء »^١.

وقد رد (ابن الأنباري) على من ذهب الى أن علم النحو من صنع رجل آخر غير (أبي الأسود) ، إذ قال : فأما زعم من زعم ان أول من وضع النحو عبد الرحمن بن هرمز الأعرج ونصر بن عاصم فليس بصحيح ، لأن عبد الرحمن بن هرمز ، أخذ النحو عن أبي الأسود ، وكذلك أيضاً نصر بن عاصم أخذه عن أبي الأسود ، ويقال عن ميمون الأقرن^٢ . وكان قد ذكر ما ورد في الأخبار من قيام (أبي الأسود به) ، ثم رجحها على غيرها بقوله : « والصحيح ان أول من وضع النحو علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، لأن الروايات كلها تُسند الى أبي الأسود ، وأبو الأسود يسند الى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فإنه روي عن أبي الأسود انه سئل ف قيل له : من أين لك هذا النحو ؟ فقال : لَقَعْتُ حدوده من علي بن أبي طالب رضي الله عنه »^٣ .

وبلاحظ ان الذين رجعوا سبب وضع النحو الى الخطأ في قراءة الآية : « إن الله بريء من المشركين ورسوله »^٤ ، قد اختلفوا فيما بينهم في العهد الذي لحن فيه قارئ الآية في قراءتها ، فمنهم من جعله في عهد (عمر)^٥ ، ومنهم من صيره في عهد (علي)^٦ ، ومنهم من رجعه الى أيام (زياد بن أبيه) ، فأنت أمام رواية واحدة ، لكنك تراها وقد نسبت الى ثلاثة عهود، ومثل هذا الاختلاف أمر غير غريب بالنسبة الى مراجعي الموارد الاسلامية ، إذ نجد فيها أمثلة كثيرة من أمثاله ، ويظهر ان الرواة تلاعبوا في الخبر ، فنسبه كل واحد منهم الى عهد لغاية أرادها ، من هذا التحريف والتغيير .

-
- ١ الفهرست (ص ٦٥) .
 - ٢ نزهة الالباء (١٠) ، (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم) .
 - ٣ المصدر نفسه (١١) .
 - ٤ البوبة ، الآية ٣ .
 - ٥ نزهة (٨) .
 - ٦ الخصائص (٩/٢) .

وفد رجح (أحمد أمين) نسبة النحو الى أبي الأسود ، اذ يقول : « ويظهر لي ان نسبة النحو الى أبي الأسود لها أساس صحيح ، وذلك ان الرواة يكادون يتفقون على ان أبا الأسود قام بعمل من هذا النمط، وانه ابتكر شكل المصحف ... وواضح ان هذه خطوة أولية في سبيل النحو تتمشى مع قانون النشوء ، ويمكن أن تأتي من أبي الأسود ، وواضح كذلك ان هذا يلقت النظر الى النحو وعلى هذا فن قال ان أبا الأسود وضع النحو ، فقد كان يقصد شيئاً من هذا ، وهو انه وضع الأساس بضبط المصحف حتى لا تكون فتحة موضع كسرة ، ولا ضمة موضع فتحة ، فجاء بعد ذلك من أراد أن يفهم النحو على المعنى الدقيق ، فاخترع تقسيم الكلمة الى اسم وفعل وحرف ، والاسم الى ظاهر ، ومضمر ، وغير ظاهر ولا مضمر ، وباب التعجب وباب إن ^١ .

وقال : « فالذي يظهر أنهم يعنون بالعربية هذه العلامات التي تدل على الرفع والنصب والجر والجزم والضم والفتح والكسر والسكون والتي استعملها أبو الأسود في المصحف ، وان هذه الأمور لما توسع العلماء فيها بعد رسموا كلامهم نحواً سحبو اسم النحو على ما كان قبل من أبي الأسود ، وقالوا : انه واضح النحو للشبه في الأساس بين ما صنع وما صنعوا ، وربما لم يكن هو يعرف اسم النحو بنائاً ... فالظاهر ان عمله كان في أول الأمر ساذجاً بسيطاً ، وهو وضع علامات الرفع والنصب وما اليها ولم يزد على ذلك ، فلما سمى العلماء بعد ذلك بعض ضروب الرفع فاعلاً ، وبعض ضروب النصب مفعولاً ، قالوا : ان أبا الأسود وضع باب الفاعل والمفعول ، وان كان أبو الأسود نفسه لم يعرف فاعلاً ولا مفعولاً ، بل ربما لم يعرف أيضاً رفعاً ولا نصباً ، لأنهم يروون انه قال لكانه : اذا رأيتني قد فتحت في بالحرف فانقط نقطة فوقه ، وإن ضمنت في فانقط بين يدي الحرف ، وان كسرت فاجعل النقطة من تحت . وهو تعبير ساذج يتفق وزمن أبي الأسود ^٢ .

ولإبراهيم مصطفى ، رأي قريب من رأي (أحمد أمين) . فهو يرى ان المصطلحات والقواعد التي ذكر ان (أبا الأسود) وضعها بأمر (علي) لا يمكن

١ ضحى الاسلام (٢٨٦/٢ وما بعدها) .

٢ ضحى الاسلام (٢٨٧/٢ وما بعدها) .

أن تتفق وزمنه ، لأن المصطلحات النحوية انما ظهرت في وقت متأخر . ويذكر ان الآراء النحوية ، لم تظهر أيضاً في عهده ، بدليل اننا لا نجد في كتاب سيبويه ولا في كتب النحو الأخرى رأياً له . ويستتج من ذلك ان عمل أبي الأسود ، كان وضع الإعراب وضبط المصحف^١ .

وقد درس المستشرقون موضوع نشأة علم النحو وأصله ، فمنهم من قال انه نقل من اليونان الى بلاد العرب ، وقال آخرون برأي علماء العربية، من انه عربي الأصل والنجار ، وقد نبت كما تنبت الشجرة في أرضها . وتوسط آخرون ، فقالوا : انه كان من إبداع العرب ، ولكن لما تعلم العرب الفلسفة اليونانية من السريان في بلاد العراق ، تعلموا أيضاً شيئاً من النحو ، وهو النحو الذي كتبه (ارستوطاليس) ، وبرهان هذا ان تقسيم الكلمة مختلف ، قال (سيبويه) : « فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل » ، وهذا تقسيم أصلي ، أما الفلسفة فيقسم فيها الكلام الى اسم وكلمة ورباط ، أي الاسم هو الاسم ، والكلمة هي الفعل ، كما يقال له في اللغات الأوروبية Verb ، والرباط هو الحرف، كما يقال له في اللغة الأوروبية Conjunction أي ارتباط ، وهذه الكلمات اسم وفعل ورباط ، ترجمت من اليوناني الى السرياني ، ومن السرياني الى العربي ، فسميت هكذا في كتب الفلسفة لا في كتب النحو ، أما كلمات اسم وفعل وحرف فلإنها اصطلاحات عربية ما ترجمت ولا نقلت^٢ .

ثم ان (القياس) هو من أهم الأسس والأصول في المنطق اليوناني ، وحيث انه كان من أهم أدوات علماء النحو في تفريع علم النحو ، حتى صار من مميزات مدرسة البصرة ، والبصرة غير بعيدة عن (جنديسابور) وعن مدارس نصرانية ، كان فيها علماء يدرسون علوم اليونان ، ومنها المنطق والنحو ، فلا يستبعد تأثر (أبي الأسود) اللؤلؤي ومن جاء بعده بهذه الدراسات ، ودليل ذلك ، هو ظهور هذا العلم في البصرة دون سائر المدن الأخرى ، ومنها مدن الحجاز مهد الاسلام .

ويرى (فون كريمر) ، ان ما يقال من أن ظهور اللحن ، كان السبب في

١ مجلة كلية الآداب ، المجلد العاشر (ص ٧١) ، (ديسمبر ١٩٤٨ م) .

٢ ضحى الاسلام (٢ / ٢٩٢ وما بعدها) .

وضع النحو ، دعوى لا يعول عليها ، ولا أساس لها ، وانما هو وليد الحاجة التي أحس بها الأعاجم من آراميين وفرس ، لتعلم العربية ، وللتكلم بها على وجه صحيح^١ .

وقد ألف بعض المستشرقين بحثاً في موضوع النحو العربي ومدارسه ، منهم المستشرق (فلوكسل)^٢ ، و (هول)^٣ ، و (رايت)^٤ ، وغيرهم ، وقد تطرقوا فيها الى قواعد العربية وآراء علمائها فيها .

وقد ذهب بعض المحدثين مذهب المستشرقين القائلين بتأثر النحو العربي بالنحو اليوناني ، وذلك لأمر ، منها : ان تقسيم الكلم المألوف المتبع في النحو ، هو تقسيم يوناني ، واعتبار القياس أصلاً من أصول النحو ، ووجود مدارس سريانية كانت تدرس علوم النحو في مدارسها عند ظهور الاسلام ، ووجود يونان وأديرة في العراق ، فهذه الأسباب وأشبابها تحمل الانسان على القول ان النحو العربي قد تأثر بالنحو اليوناني وبمنطق (ارسطو) خاصة ، لا سيما وان النحو قد ظهر في العراق ، وهو ملتقى الحضارات . وقد تأثر خاصة في عهد (الخليل بن أحمد) الذي كانت له صلات وثيقة مع العلماء السريان ، مثل حنين بن اسحاق وأضرابه ، حتى ذهب بعض الباحثين الى وقوف (الخليل) على اللغة اليونانية .

وقد ذهب (مصطفى نظيف) الى أن (يعقوب) الرهاوي ، كان من معاصري (أبي الأسود) الدؤلي ، وكان من تلامذة (سوبرس سيخت) ، ومن البارعين في الفلسفة والنحو والتأريخ ، ومن المؤلفين في النحو السرياني ، ومن الذين أدخلوا التنقيط والحركات . وكان في البصرة ، والبصرة ملتقى الثقافة ، وحولها أديرة ومدارس ، وهي غير بعيدة عن (جنديسابور) ، فلا يستبعد ان تأثر (أبي الأسود) بهذه التيارات اليونانية التي كانت هناك^٥ .

١ فون كريم ، الحضارة الاسلامية ، (٩٠) ، (تعريب مصطفى بدر) .

٢ Flügel G., Die Grammatischen Schulen der Araber, 1862.

٣ M. S. Howell, Grammar of the Classical Arabic Language, 7 Vols., Allahabad, 1880-1911.

٤ W. Wright, Arabic Grammar, Cambridge, 1896-8.

٥ مجلة المجمع اللغوي ، المجلد السابع (ص ٢٤٨) ، عبد المال سالم مكرم ، القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية (٥٥) .

وأنا على رأي (ابن فارس) القائل ان الإعراب كان قديماً عند العرب ، قدم معرفتهم بالحروف ، وان علم العربية كان قديماً ، ثم جدده (أبو الأسود الدؤلي) على نحو ما حكيت من قوله في ذلك قبل قليل^١. وعندي ان علم (العربية) كان معروفاً في العراق ، وانه كان يدرس في مدارس الحيرة وعين التمر والأنبار وربما في مواضع أخرى ، كانت غالبية سكانها من العرب النصارى، كان يدرسه لهم رجال الدين ، الذين كانوا يتقنون الإرمية ، وكانوا قد أخذوا علومهم في النحو من اليونان ، بتأثير النصرانية ودراسة الأناجيل والكتب الدينية المؤلفة باليونانية . ولما كان أهل المواضع المذكورة من العرب ، فلا يستبعد ظهور جماعة من رجال الدين النصارى العرب ، اتخذت من مبادئ النحو التي وضعت للسريانية والمنقولة عن اليونانية ، قواعد لضبط العربية بموجبها ، كما ضبطوا الكتابة بها بالأبجدية التي صارت الأبجدية التي انتشرت بين أهل مكة ويثرب وأماكن أخرى. وبين هذه الأبجدية وبين العربية ، من حيث هي قواعد صلة متينة . فلا يستبعد قيام رجال الدين بتعليم العربية والخط للعرب ، لأنهم كانوا يقومون بالتبشير ، وكان من مصلحتهم نشر الكتابة بين من يبشرون بينهم ، وتعليمهم أصول اللغة، ليكون في وسع من يعتنق النصرانية تثقيف المشركين ، وكانت هذه طريقتهم في التبشير في المواضع الأخرى من العالم .

وأنا لا أستبعد احتمال وقوف (علي بن أبي طالب) ، أو (أبو الأسود) الدؤلي على تقسيم الكلم الى اسم وفعل وحرف . وقفا عليه باتصالهم بالحيرة أو بعلماء من أهل العراق كانوا على علم النحو وعلوم اللغة في ذلك العهد ، وقد كان ذلك في الأسس والمبادئ ، فلما جاء الاسلام ، وأخذ المسلمون علم العربية عن المتقدمين ، زادوا فيه وفرغوا واستقصوا وقاسوا ، وأخذوا من كلام العرب ومن الشعر ، حتى تضخم النحر فبرز على الصورة التي نجدها في (كتاب) سيويه وفي الكتب التي وضعت بعده .

ومما يؤسف له كثيراً ان المؤرخين اليونان واللاتين والسريان لم يذكروا أي شيء عن علوم العربية عند العرب ، وفي ضمنهم المؤرخون الذين أرخوا تاريخ الكنيسة والنصرانية ، بسبب انهم لم يكونوا يحفلون كثيراً بأمور العرب، وأكثر ما ذكروه

عنهم انما تناول الغزوات التي كانت تقوم بها القبائل على حدود الانباطوريتين ، فأضاعوا علينا بذلك فوائد كبيرة ، كان يمكن الاستفادة منها في تدوين تأريخ ظهور الكتابة وعلوم العربية عند العرب . أما الموارد الاسلامية ، فقد رأينا رأيها في أول ظهور النحر ، وقد رأيناه حاصل روايات مضطربة ، يكتنفها غموض ، ثم هي عاجزة في النهاية عن بيان كيفية توصل الإمام (علي) أو (أبو الأسود) الى استنباط هذا التقسيم الثلاثي للكلم ، ثم البحث في (العطف) و (النعت) والتعجب والاستفهام ، وباب إن وأخواتها ، والفاعل والمفعول ، ونحو ذلك من قواعد ، لا يمكن لإنسان استنباطها بمفرده من غير علم سابق له بقواعد اللغات ، مما أوتي ذلك الانسان من ذكاء خارق وقوة إبداع !

وأنا لا أستطيع أن أتصور ان انساناً يستطيع أن يجلس بمفرده ثم يحيل النظر في محيط اللغة التي يتكلم بها قومه ، وهو غير مسلح بعلم سابق باللغات ولا بمعرفة مسبقة بقواعدها . ثم تتألم عليه المعرفة ويستخرج منها بنفسه القواعد المذكورة ، ثم يضع لأبوابها تلك الأسماء التي لا يمكن لأحد وضعها إلا اذا كان ذا علم بقواعد اللغات عند الأمم الأخرى ، لأنها مصطلحات علمية منطقية ، لا يمكن أن تخرج من فم رجل لا علم له بمصطلحات علوم اللغة والمنطق ، ولأنها ليست من الألفاظ الاصطلاحية البسيطة التي يمكن أن يستخرجها الانسان من اللغة بكل سهولة وبساطة حتى نقول انها حاصل ذكاء وعقل متقد . وكيف يعقل أن يتوصل رجل الى استنباط ان الكلمة إما اسم ، أو فعل ، أو حرف ، ثم يقوم بحصرها هذا الحصر الذي لم يتغير ولم يتبدل حتى اليوم ، بمجرد إجابة نظر وإعمال فكر ، من دون أن يكون له علم بهذا التقسيم الذي تعود جنوره الى ما قبل الميلاد . ثم كيف يتوصل الى إدراك القواعد المعقدة الأخرى التي لم يتدعها انسان واحد ، وانما هي من وضع أجيال وأجيال ، اذا لم يكن له علم بفلسفة الفعل وعمل الفاعل وما يقع منه الفعل على المفعول ، وكذلك الأبواب المذكورة التي لا يمكن أن يتوصل اليها عقل انسان واحد أبداً .

لقد كان للبابليين ولغيرهم من أهل العراق علم باللغات ، وكان لهم أساس في النحر وفي دراسة اللغة ، كما كان لليونان ولغيرهم علم بالمنطق والنحو واللغات ، وصل الى العراقيين قبل النصرانية وبعدها ، بطرق لا مجال للتحدث عنها في هذا المكان . وبقي هذا العلم العراقي اليوناني الى الاسلام ، ومنه جاء في نظري علم

النحو وعلوم العربية ، وبسببه صار العراق القطر الاسلامي الأول الذي نبت فيه علم العربية والنحو ، لا بسبب لحن وقع من أعاجم ، أو من أعراب جهلاء ، ولا بسبب تلك القصص التي ساقوها في أسباب اختراع النحو ، وإنما بسبب وجود علم سابق في العربية عند أهل الحيرة والأنبار والقرى العربية الأخرى ، وبسبب ظهور الحاجة اليه ، لتعليم العرب وغيرهم أصول لغتهم وكيفية صيانة اللسان من الوقوع في الخطأ ، فكان ما كان من وقوف (علي) أو (أبو الأسود) ، وهما من أصحاب الذكاء الخارق والتعطش الى البحث والاستقصاء ، فأخذاه ، وتوسع من جاء بعدهما في تفريعه وفي تثبيته في كتب ، كملت وتمت بالتدرج ، فهي من حاصل ذلك التراث العربي الجاهلي .

ولسابقة العراق هذه في الجاهلية بَرَزَ سائر الأقطار الاسلامية في علوم العربية ، حتى (يُثَرَّب) و (مكة) ، وهما موطننا الاسلام ومهبطه ، لم ينافسها فيها . قال (السيوطي) : « فأما مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلا نعلم بها إماماً في العربية . قال الأصمعي : أقمت بالمدينة زماناً ما رأيت بها قصيدة واحدة صحيحة إلا مصحفة أو مصنوعة . وكان بها ابن دأب ، يضع الشعر وأحاديث السمر ، وكلاماً ينسبه الى العرب ، فسقط وزهد علمه ، وخفيت روايته ^١ . » ومن كان بالمدينة أيضاً عليّ الملقب بالجمل ، وضع كتاباً في النحو لم يكن شيئاً ^٢ . وأما مكة ، فكان بها رجل من الموالي يقال له : ابن قسطنطين ، شدا شيئاً من النحو ووضع كتاباً لا يساوي شيئاً ^٣ . وفي انفراد العراق ، وتفوقه على غيره من الأمصار في هذه العلوم ، دلالة على وجود البذور القديمة لها في هذه الأرض قبل الاسلام ، فلما دخل العراق في الاسلام أبتعت واتسعت ، فكان ما كان من ظهورها فيه .

وقد تأثر النحاة والمناطق في الاسلام بمنطق (أرسطو) . هذا الإمام (الشافعي) يشير الى تأثر القوم بمنطقه ، إذ قال : « ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب ، وميلهم الى لسان أرسطوطاليس ^٤ . » وقد توفي الشافعي سنة (٢٠٤)

١ المزهر (٤١٣/٢) وما بعدها .

٢ المزهر (٤١٤/٢) .

٣ السيوطي ، صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام (١٥) ، (علي سامي النشار) ، مطبعة السعادة .

للهجرة^١ ، فلا بد اذن من أن يكون ميل الناس الى هذا المنطق قد كان هذا العهد . ولعله قصد بـ (لسان أرسطوطاليس) العلوم اللسانية التي كان قد برع بها اليونان . فتكلموا عن أقسام الكلمة وعن بناء التركيب القياسي وعن الموضوع والمحمول وأنواع الإعراب بحسب لغتهم وعن النعت والضمائر والأفعال وما الى ذلك من قواعد .

و (أبو الأسود) الدؤلي ، هو (ظالم بن عمرو بن سفيان) ، أو (عمرو ابن ظالم بن سفيان) أو (عويم بن ظليم) ، من أشباع (علي بن أبي طالب) ومن أصحابه . استعمله (عمر) و (عثمان) على البصرة ، ثم استعمله (علي) عليها بعد (ابن عباس) . وقد ذكر (أبو عبيدة) ، انه كان كاتباً لابن عباس على البصرة ، وكان (ابن عباس) يكرم (أبا الأسود) لما كان عاملاً بالبصرة لعليّ ويقضي حوائجه . وقد اشترك مع (علي) في وقعة صفين . ويذكر انه توفي في وباء سنة (تسع وستين) ، وقيل مات بعد ذلك ، توفي بالبصرة . قال عنه (الجاحظ) : « أبو الأسود الديلي ، معدود في طبقات الناس ، وهو فيها كلها مقدم ، ومأثور عنه الفضل في جميعها . كان معدوداً في التابعين والفقهاء والمحدثين والشعراء والأشراف والفرسان والأمراء والدهاة والنحويين ، والحاضري الجواب ، والشعبة ، والبخلاء ، والصلح الأشراف^٢ . وله أجوبة مسكتة مع معاوية ، ومع أشخاص آخرين أرادوا التحرش به^٣ ، تدل على بديهة وذكاء .

ولأبي الأسود الدؤلي شعر ، وقد طبع شعره في ديوان ، وقد استشهد به في شواهد اللغة والنحو ، ونجد نتفاً منه في الكتب التي تعرضت لسيرته^٤ ، وليس

١ الفهرست (٣٠٩) .

٢ وقد اختلف في اسمه ، فقليل أيضاً « عمرو بن عمران » ، و « عثمان بن عمرو » ، الاصابة (٢٣٣/٢) ، رقم ٤٣٢٩ ، أدب الكاتب ، لابن قتيبة (٦١١) ، الخزانة (١٣٦/١) ، (بولاق) ، الاغانى (١١/١٠٥ وما بعدها) ، انباء الرواة (١٢/١) وما بعدها) ، الرزباني ، معجم (٢٤٠) ، السمط (٦٦) ، تهذيب ابن عساكر (١٠٤/٧) ، الشعر والشعراء (٦١٥/١) .

٣ أمالي المرتضى (٢٩٣/١) وما بعدها .

٤ السيوطي ، شرح شواهد (٥٤٢/٢) وما بعدها ، (٩٣٤) ، الخزانة (١٣٦/١) وما بعدها) ، كتاب خلق الانسان ، لابي محمد ثابت بن ثابت (٢٤١) ، (الكويست ١٩٦٥) ، (عبد الستار أحمد فراج) ، خلق الانسان ، للاصمعي (٢١٢) ، المخصص (١٨/٢) .

شعره على مستوى رفيع من الوجهة الفنية ، ولا يتعرض للأحداث التاريخية التي وقعت في أيامه^١ .

وقد أخذ عن أبي الأسود جماعة من التلامذة ، صاروا من مؤسسي علم النحو عند العرب ، ومن مبوييه ومصنفيه . منهم ابنه (عطاء) . وكان قد بعج العربية وبرز بها^٢ . ومنهم (يحيى بن يعمر) وهو من عدوان بن قيس ، وكان عدده في (بني ليث بن كنانة) ، ولقي ابن عباس وابن عمر ، وروى عنه قتادة . ومنهم (عنبسة بن معدان) ، المعروف بـ (عنبسة الفيل) ، ويقال ان (نصر ابن عاصم) أخذ عن أبي الأسود^٣ ، وأخذ عن (نصر) (أبو عمرو بن العلاء) البصري ، وأخذ عن (أبي عمرو) (الخليل بن أحمد) ، وأخذ عن الخليل (سيويه) ، وأخذ عن سيويه (الأخفش)^٤ . ومن أخذ عن أبي الأسود : (ميمون الأقرن) ، و (عبد الرحمن بن هرمز)^٥ .

وفي رواية : ان الذي برع بعد أبي الأسود ميمون الأقرن ، وبعد ميمون عنبسة الفيل ، وبعد عبد الله بن أبي اسحاق ، فقاس وأكثر ، ثم برع بعده أبو عمرو بن العلاء ، ولحقه الخليل بن أحمد ، إلا أن نظر أبي عمرو أقدم من نظر الخليل .

ثم أتى الخليل في النحو بما لم يأت بمثله أحد قبله في تصحيح القياس، واللفظة والتصريف .

وكان يونس في عصر الخليل ، وبقي بعده مدة طويلة ، ويقال ان سيويه مات قبل يونس .

وكان عيسى بن عمر في عهد أبي عمرو وعهد الخليل ، وكان بارعاً أيضاً^٦ . وكان (عنبسة) الفيل ، من أبرع أصحاب (أبي الأسود) الذين كانوا

١ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٧٢/١) .

٢ القفطي ، انباء الرواة (٢١/١) .

٣ الفهرست (٦٨) ، (تسمية من أخذ النحو عن أبي الاسود الدؤلي) .

٤ القفطي (٦/١) .

٥ ابن الانباري ، نزهة (١١) ، طبقات ، لابن سلام (٥) .

٦ العسكري ، المصون (١١٩) .

يتعلمون منه العربية^١ . وذكر ان الناس اختلفوا إليه بعد (أبي الأسود) ، وكان من بينهم (ميمون الأقرن) الذي كان من أبرع أصحابه . وقد ذكرت رواية تنسب الى (أبي عبيدة) اسم (ميمون الأقرن) قبل عنبسة^٢ .

وأما (نصر بن عاصم) اللبثي (٨٩ هـ) (٩٠ هـ) ، فإنه كان فقيهاً عالمًا بالعربية ، فصيحا قرأ القرآن على (أبي الأسود) ، وقرأ (أبو الأسود) على (علي) ، فكان (أبو الأسود) أستاذه في القراءة^٣ .

و (ابن أبي اسحاق) الحضرمي ، هو (أبو بحر عبدالله بن أبي اسحاق) (١١٧ هـ) ، وكان قيمياً بالعربية والقراءة ، شديد التجريد للقياس . ويقال انه كان أشد تجريداً للقياس من (أبي عمرو بن العلاء) ، وكان (أبو عمرو ابن العلاء) أوسع علماً بكلام العرب ولغاتها وغريبها . ويقال انه أول من علل النحو . وكان قد قرأ على (يحيى بن يعمر) ، وعلى (نصر بن عاصم) ، وزعم انه كان أول من بعج النحو ومدّ القياس والعلل^٤ .

وأما (يحيى بن يعمر) العدواني ، (١٢٩ هـ) ، فكان عالمًا بالعربية والحديث ، لقي (عبدالله بن عمر) ، و (عبدالله بن عباس) وغيرهما من الصحابة . وكان يستعمل الغريب في كلامه^٥ . وقد لحق بخراسان ، وكتب ليزيد ابن المهلب ، ألحقه بها (الحجاج)^٦ .

وكان (عيسى بن عمر) النخعي (١٤٩ هـ) ، ثقة عالمًا بالعربية والنحو والقراءة ، وصنف كتابين في النحو ، يسمى أحدهما : الجامع ، والآخر الإكمال ، وقد ذكرهما (الخليل بن أحمد) بقوله :

-
- ١ ابن الانباري ، نزهة (١٢ وما بعدها) ، انباه الرواة (٣٨١/٢ وما بعدها) ، بغية الوعاة (٢٣٣/٢) .
 - ٢ ابن الانباري ، نزهة (١٣ ، ٤٠٦) .
 - ٣ ابن الانباري ، نزهة (١٤) ، انباه الرواة (٣٤٣/٣) ، بغية الوعاة (٣١٣/٣ وما بعدها) .
 - ٤ ابن الانباري ، نزهة (١٨ وما بعدها) ، انباه الرواة (١٠٤/٢ وما بعدها) ، بغية الوعاة (٤٠/٢) ، الزهر (٣٩٨/٢ ، ٤٢٣) ، طبقات ، لابن سلام (٦) .
 - ٥ بغية الوعاة (٣٤٥/٢) ، الزهر (٣٩٨/٢ وما بعدها) ، ابن الانباري ، نزهة (١٦ وما بعدها) .
 - ٦ طبقات ، لابن سلام (٦) .

ذهب النحو جميعاً كله غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهذا جامع فهما للناس شمس وقمر^١

وبلغ النحو درجة كبيرة من التقدم ، حين انتقلت الزعامة فيه الى (الخليل
ابن أحمد) الفراهيدي ، الذي « كان غاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح
القياس »^٢ . « فهو الذي بسط النحو ومدّ أطنابه وسبب علله ، وفتق معانيه ،
وأوضح الحجاج فيه حتى بلغ أقصى حدوده . ثم لم يرض أن يؤلف فيه حرفاً
أو يرسم منه رسماً ... واكتفى في ذلك بما أوحى الى سيبويه من علمه ، ولقنه من
دقائق نظره ونتائج فكره ، ولطائف حكمته ، فحمل سيبويه ذلك عنه وتقلده ،
وألّف فيه الكتاب الذي أعجز من تقدم قبله ، وامتنع على من تأخر بعده »^٣ :
وقد كان علم الخليل ، في جملة المنايع التي غرف منها (سيبويه) في كتابه :
الكتاب . وقد ذكر (سيبويه) اسمه في (٤١٠) مواضع من كتابه ، وأشار الى
آرائه دون أن يذكر اسمه في (١٧٤) مكاناً آخر ، وهو وان لم يشر الى اسمه ،
لكن العلماء ذكروا انه قصده^٤ .

وأورد (سيبويه) له في كتابه آراء استاذه في إعراب آيات من القرآن الكريم ،
وتأويلها ، كما جاء له بشواهد من الشعر في شرح قواعد نحوية ، منها أشعار
نص على أسماء قائلها ، مثل أمية بن أبي الصلت ، وطرفة والنابعة والأعشى ،
وغيرهم . ومنها أشعار لشعراء مخضرمين واسلاميين ، ومنها أشعار لم يذكر أسماء
أصحابها^٥ .

ونعت بأنه « نحوي عروضي ، استنبط من العروض وعلله ما لم يستخرجه
أحد ، ولم يسبقه الى علمه سابق من العلماء كلهم . وقيل انه دعا بمكة أن يرزق

١ ابن الانباري ، نزهة (٢١ وما بعدها) ، بغية الوعاة (١ / ٢٣٧ وما بعدها) .

٢ الفهرست (٧٠) .

٣ « كلما قال سيبويه سألته ، أو قال : قال من غير أن يذكر قائله ، فهو الخليل » ،
ابن الانباري ، نزهة (٥٥) ، السيوطي ، بغية (٢٤٤) .

٤ Wolfgang Reuschel, Al-Halll ibn Ahmad der Lehrer Sibawaih's, Als
Grammatiker, Berlin, 1969, S. 9.

وسأرمز اليه بـ : Reuschel .

٥ Reuschel, S. 55, 59.

علماً لم يسبق اليه أحد ، ولا يؤخذ إلا عنه ، فرجع من حجه ، ففتح عليه بالعروض ^١ . وذكر انه كان « الغاية في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليه » ، « وكان أول من حصر أشعار العرب » . دخل عليه ولده وهو يقطع العروض ، فخرج الى الناس وقال : إن أبي قد جنّ ، فدخل الناس عليه فرأوه يقطع العروض ، فأخبروه بما قال ابنه ، فقال له :

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني أو كنت تعلم ما تقول عذلتك
لكن جهلت مقالتي فعذلتني وعلمت أنك جاهل فعذلتك ^٢

ويظهر من دراسة (كتاب) (سيبويه) ان أثر (الخليل) عليه كان كبيراً ، لا يدانيه أثر أي عالم آخر عليه ، وان علم الخليل بالنحو ، كان غزيراً جداً ، يؤيده استشهداد (سيبويه) بأرائه أكثر من استشهاده برأي أي عالم آخر من علماء هذا العلم ، مثل (أبو عمرو بن العلاء) (١٥٤ هـ) ، و (عيسى بن عمر الثقفي) ، (١٤٩ هـ) ، و (يونس بن حبيب) ، (١٨٢ هـ) . ويظهر ان (الخليل) لم يدون علمه بالنحو في رسائل أو كتب ، وانما كان يعلم من يقصده مشافهة ^٣ ، فكان تلامذته يسمعون ويحملون العلم عنه ، وذلك على طريقة أكثر العلماء في ذلك العهد .

وللخليل بعد ، آراء خاصة في النحو ، ونجد (الخوارزمي) يتكلم في الفصل الثاني من فصول النحو ، بقوله : « في وجوه الإعراب وما يتبعها على ما يحكى عن الخليل بن أحمد » ^٤ ، مما يشير الى وجود آراء خاصة له به ، أشير اليها في كتب النحو ، وربما وضعها بعضهم في مؤلفات خاصة بأرائه في النحو . ومن آرائه استعماله مصطلح الرفع في الاسم المضموم المتون ، ومصطلح الخفض في الاسم المجرور المتون ، والنصب في الاسم المفتوح المتون ، على حين يسمي بقية الحركات

١ القفطي ، انباء الرواة (٣٤٢/١) .

٢ ابن الأنباري ، نزهة (٤٥ وما بعدها) ، انباء الرواة (٣٤١/١ وما بعدها) ، بقية الرواة (٥٥٧/١ وما بعدها) ، المزهر (٤٠١/٢ وما بعدها) ، مراتب النحويين (٢٧ وما بعدها) .

٣ Reuschel, S. 63. f, John Sib, Sibawaihs Buch über die Grammatik, Berlin, 1884 — 1900, Bd., I, 2, I, 2

٤ مفاتيح العلوم (٣٠) .

العارية من التنوين في الأحوال والصيغ المختلفة بأسماء الحركات العامة ، أي : الضم ، والكسر ، والفتح ، كما انه يسمى بالجر حركة الكسر التي تربط بين آخر الصيغة الفعلية وبين همزة الوصل . ولا يوجد عنده ما يدل على تأثير النظرية القائلة بأن اختلاف حركات الكلمات المتصرفة متوقف على العامل النحوي ، إلا في التفرقة التي جعلها بين التوقيف ، أي علم الحركة في أواخر الحروف وما شاكلها ، والجزم ، أي سكون الفعل المجزوم^١ :

وكان سند علماء العربية ومنبعهم الذي أخذوا منه علمهم في وضع قواعد العربية كتاب الله والشعر وكلام العرب . ويكون كلام العرب ، المنبع الأول الذي استمدا منه علمهم في اللغة وفي وضع القواعد ، وهو ما أخذ عن القبائل والأفراد ، ونجد اللهجات أهل الحجاز وتميم أهمية كبرى في كتب الشواهد والقواعد^٢ . ونظراً لاعتماد العلماء على هذا المورد أكثر من غيره ، وقعوا في مشاكل ، جعلتهم يتحايلون في حلها ، ويرجعون الى التأويل والتفسير ، من ذلك ما وقعوا فيه من عدم تمكنهم من التوفيق بين القواعد التي وضعوها ، وبين ما جاء في القرآن أو الشعر من أمور لا تتسجم مع هذه القواعد . وكل هذه الموارد المذكورة ، هي موارد أخذ منها بالسماع ، وهناك قواعد وضعها العلماء قياساً على كلام العرب ، استنبطوها بطريق (القياس) . و (القياس) من أهم الميزات التي ميزت البصرة على الكوفة في وضع قواعد اللغة .

والقياس ركن من ركنين مهمين ، قام عليها علم النحو . أما الركن الأول ، فهو السماع . وللدور الخطير الذي قام به القياس في تكوين أصول وقواعد النحو ، قال المستشرقون وغيرهم بتأثير النحو العربي بمنطق (ارسطو) . ومن أخذ وعمل به في النحو (عبدالله بن أبي اسحاق) الحضرمي ، قيل عنه « وكان شديد التجريد للقياس . ويقال انه كان أشد تجريداً للقياس من أبي عمرو بن العلاء^٣ . وفرع النحو وقاسه^٤ ، وكان أول من بعج النحو ومد القياس والعلل^٥ .

١ مفاتيح العلوم (٣٠) ، يوهان فك ، العربية (١١) .

٢ Reuschel, S. 63.

٣ نزهة (١٨) ، مراتب النحويين (١٨) ، بغية (٤٠/٢) .

٤ المزهر (٣٩٨/٢) .

٥ ابن سلام ، طبقات (٦ وما بعدها) .

وكان (الخليل بن أحمد) رأس العاملين بالقياس في فتاوى النحو . كان قياساً بارعاً فيه . قيل عنه « انه سيد قومه ، وكاشف قناع القياس في علمه »^١ . وقد تأثر (سيبويه) بقياس الخليل ، فاستعمله في تثبيت العربية . فتجد في كتابه جملاً مثل : « والقياس كذا » أو « والقياس يأباه » و « سألت الخليل عن قول العرب ما أميلحه ، فقال : لم يكن ينبغي أن يكون في القياس لأن الفعل لا يحقر ، وإنما تحقر الأسماء »^٢ .

وقد انقسم علماء اللغة والنحو الى فئتين بالنسبة لاستعمال القياس في اللغة والنحو . ولكن الأغلبية معه ، وقد وقع فعلاً ، وأثر في وضع القواعد أثراً خطيراً . فيه أوجد النحاة كليات القواعد . « قال ابن الأنباري : اعلم ان انكار القياس في النحو لا يتحقق لأن النحو كله قياس ، فمن أنكر القياس فقد أنكر النحو ، ولا يعلم أحد من العلماء أنكره . وينسب الى الكسائي انه قال :

انما للنحو قياس يتبع وبه في كل أمر يتبع^٣

وعلماء اللغة ، كلام طويل في مدى جواز استعمال القياس ، وفي حالة ورود السماع ، لأن اللغة في نظر بعض منهم سماع ، فإذا كانت سماعاً ، وجب الأخذ بالسماع ، فإذا ورد السماع بطل القياس^٤ . وقد تحدث العلماء عنه . قال (ابن فارس) : « أجمع أهل اللغة - إلا من شذ عنهم - ان لغة العرب قياساً ، وأن العرب تشتق بعض الكلام من بعض » . غير انه قال : « وليس لنا اليوم أن نخترع ، ولا أن نقول غير ما قالوه ، ولا أن نقيس قياساً لم يقيسوه ، لأن في ذلك فساد اللغة وبطلان حقائقها ، ونكته الباب ان اللغة لا تؤخذ قياساً نقيسه الآن نحن »^٥ .

ولابن جني رأي في القياس . قال : « واعلم انه اذا أداك القياس الى شيء ما ، ثم سمعت العرب قد نطقت فيه بشيء آخر على قياس غيره ، فدع ما كنت

١ الخصائص (٣٦٦/١) وما بعدها .

٢ ضحى الاسلام (٢٩٢/٢) .

٣ ضحى الاسلام (٢٨١/٢) .

٤ البغدادي ، خزنة (٥٥٩/٣) ، أحمد تيمور باشا ، السماع والقياس (١١) .

٥ الصاحبى (٦٧) ، المزهر (٣٤٥/١) وما بعدها .

عليه الى ما هم عليه ، فإن سمعت من آخر مثل ما أجزته ، فأنت فيه غير ، تستعمل أيهما شئت ، فإن صح عندك ان العرب لم تنطق بقياسك أنت كنت على ما أجمعوا عليه البتة وأعددت ما كان قياسك أداك اليه لشاعر مولد ، أو لساجع ، أو لضرورة ، لأنه على قياس كلامهم ^١ .

والاجماع ان النحو لم يجمع ولم يرتب ترتيباً علمياً إلا في الاسلام ، وإلا في أيام العباسيين ، حيث أظهر علماء العربية نشاطاً عظيماً في تتبع القواعد واستنباطها من المظان التي أشرت اليها . وقد استقر وثبت ، بعد أخذ وردّ بين علمائه في المسائل الفرعية التي أثارَت الاختلاف فيما بينهم ، فكانت ردود وتخطئة بعض منهم لبعض ، ثم استقر في كتب تمثل اليوم ثروة قيّمة تقدر في هذه اللغة الواسعة الثرية بألفاظها وبقواعدها .

ولا بد في نظري لمن يريد فهم النحو العربي فهماً صحيحاً واضحاً ، من دراسة نحو اللغات الجاهلية من عربية جنوبية ومن ثمودية ولحيانية وصفوية ونبطية ، لأنها وإن فارقت العربية القرآنية في أمور ، إلا أنها عربية في النهاية ، ودراستها تفيدنا فائدة كبيرة في الوقوف على تأريخ تطور عريبتنا والعربيات البعيدة عن الاسلام ، وهي كما نعلم من أقدم اللهجات العربية التي أفادتنا في تقديم كتابات مدونة في تلك الأيام ، يعود تأريخ بعض منها الى ما قبل الميلاد . وقد تحدثت عن نحو اللهجات العربية الجاهلية وعن أمور من صرفها في الجزء السابع من كتابي الأول المعروف بتأريخ العرب قبل الاسلام ، المطبوع ببغداد .

هذا وقد عثر حديثاً على آثار في إمارة (أبي ظبي) وفي مواضع أخرى من سواحل الخليج ، قد تقدم لنا علماً جديداً عن لهجات عربية قديمة لا نعرف اليوم من أمرها شيئاً ، وبذلك يتسع علمنا عن لهجات العرب قبل الاسلام ، وقد نستطيع بواسطتها الوقوف على كيفية تطور اللغة العربية القرآنية وعلى حصر المواضع التي كان سكانها يتكلمون بها ، أو بلهجات قريبة منها .

بل أرى ضرورة دراسة اللغات السامية للاستفادة من هذه الدراسة المقارنة في فهم خصائص اللغة العربية ولحل بعض مشاكلها في النحو والصرف والألفاظ . وقد بذل المستشرقون - والحق يقال - جهوداً يشكرون عليها في دراسة هذه اللغات دراسة مقارنة . ولدينا اليوم مؤلفات كثيرة في هذه الدراسة ، تعرضت

للحروف بنوعها، الحروف الصامتة « The Consonant Sounds » ، والحروف المتحركة « The Vowels » ، والضمائر، والأسماء الموصولة وأدوات الوصل، والأسماء، وللجموع وللأفعال ، ولحروف الجر ، وغير ذلك من الموضوعات التي تجدها في الكتب التي بحثت عنها^١.

ومن أهم الموضوعات التي يجب توجيه العناية إليها ، موضوع : علم الأصوات (Phonology) بالنسبة الى اللغات السامية ، مثل دراسة مخارج الحروف، والحركات، والإمالة، والتفخيم، والإشمام في العربية على وجه خاص ، ثم دراسة صرف هذه اللغات « Morphology » ، مثل جذور الألفاظ التي يغلب عليها الطابع الثلاثي « Triconsonantal » المكون من الحروف الصامتة ، بينما تقل فيها الجذور المكونة من حرفين صامتين أو من أربعة حروف صامتة . ومثل دراسة كيفية تكون الأسماء ، وأبنيتها ، ودراسة الجنس في هذه اللغات ، والعلامات التي تميز الجنس : المؤنث عن المذكر ، ثم العدد : المفرد ، والمثنى ، والجمع . جموع التذكير وجموع التأنيث ، وجموع التكسير ، ثم الظرف ، وحروف الجر ، والعطف ، ودراسة الأفعال بأنواعها ، وحالات الجمل ، وغير ذلك من أمور تخص علم اللغات^٢.

١ E. Renan, *Histoire Générale des Langues Semitiques*, Paris, 1865, William Wright, *Lectures on the Comparative Grammar of the Semitic Languages*, Amsterdam, 1906, Zimmern *Vergleichende Grammer D. Semitischen Sprache*, Berlin, 1898, De Lacy O'leary, *Comparative Grammar the Smitic Languages*, London, 1923.

٢ وللوقوف على أسماء المؤلفات الموضوعية في مثل هذه الدراسات أرجع الرجوع الى المصادر الآتية :

H Zimmern, *Vergleichende Grammatic der Semitischen Sprachen*, Berlin, 1898, Barth J., *Sprachwissenschaftliche Untersuchungen zum Semitischen*, Leipzig, 1907-11, G. Bergsträsser, *Einführung in die Semitischen Sprachen*, München, 1928, C. Brockelmann, *Grundriss der Vergleichenden Grammatik der Semitischen Sprachen*, 2 Bände, *Semitische Sprachwissenschaft* 2 Auflage, Leipzig, 1916, P. Dhorme, *Langues et Ecritures Sémitiques*, Paris, 1930, Fleisch, *Introduction à l'étude des Langues Sémitiques*, Paris, 1947, I. H. Gray, *Introduction to Semitic Comparative Linguistics*, New York, 1934, B. Spuler, *Handbuch der Orientalistik*, III, *Semitistik*, Leiden, 1953-54, J. H. Kramers, *De Semietische Talen*, Leiden, 1949, Levi Della Vida, *Lingustica Semitica*, Roma, 1961, Nöldeke, *Beiträge zur Semitischen Sprachwissenschaft*, Strsbourg, 1904, *Neue Beiträge zur Semitischen Sprachwissenschaft*, Strasbourg, 1910, G. Rolandi, *Le Lingue Semitiche*, Torino, 1954, Sabatino Moscati, *An Introduction to the Comparative Grammar of the Semitic Languages, Phonology and Morphology*, Wiesbaden, 1964.

وقد عالج بعض العلماء موضوعات خاصة من موضوعات النحو والصرف، مثل موضوع الفعل في اللغات السامية^١. وموضوع الصلة بين العرييات الجنوية وبين اللغة الحبشية^٢. والصلة بين العربية وبين اللغات السامية الأخرى، أو بين لغة سامية ولغة سامية أخرى من حيث قواعد النحو والصرف^٣.

G Bertin, Suggestions on The Voice — Formation of the Semitic Verb, In Journal of the Royal Asiatic, vol. XV, 4. Frithlof Rundgren, Erneuerung des Verbalaspekts' im Semitischen Funktionell-Diachronische Studien zur Semitischen Verblehre, Upsala, 1963, G. R. Castellino, The Akkadian Personal Pronouns and Verbal System in the light of Semitic and Hamitic, 1962, Barth J., Die Nominalbildung in den Semitischen Sprache, Leipzig, 1894, Hurwitz, Root Determinatives in Semitic Speech, New York, 1913. A. Murtonen, Early Semitic, A Diachronical Inquiry into the Relationship of Ethiopic to the other So-Called South-East Semitic Languages, Leiden, 1967.

De Lagarde, Übersicht Über die im Aramaischen, Arabischen und Hebräischen Übliche Bildung der Nomina, Gottingen, 1889 Barth, Die Nominalbildung in den Semitischen Sprachen, Leipzig, 1889.

الفصل السادس والاربعون بعد المئة

الشعر

الشعر والحكم والكهانة والخطابة وأضرابها ، هي أهم المظاهر التي نتحدد لنا معالم العقلية الجاهلية ، وتعطينا فكرة عامة عن العقل الجاهلي .

أما الشعر الجاهلي ، فلم يصل إلينا من الجاهلية مدوناً قط ، وإنما وصل إلينا مدوناً في الاسلام . وأقصد أننا لم نعر حتى الآن على أي شيء منه مكتوباً بقلم جاهلي ، أو عفوراً على نص جاهلي . وكل ما نحفظه ونعرفه من ذلك الشعر ، هو ما وصل إلينا بقول الاسلاميين .

والعلماء ، من اسلاميين قدامى ومحدثين ، ومن مستشرقين ، آراء في هذا الشعر . منهم من يبالغ في اليقين ، فيرى ان كل ما وصل إلينا منه صحيح ، ومنهم من يبالغ في الشك ، فيرى ان أكثر ما وصل هو شعر متحلل فاسد موضوع ، وضع لأغراض عديدة يذكرونها : دينية وسياسية وجنسية وغير ذلك ، ومنهم من يتوسط فيرى أن فيه الصحيح وفيه الفاسد اللدوس ، وان من الخير البحث فيه من نواح متعددة ودرسه دراسة علمية حديثة ونقله نقداً علمياً لتمييز صحيحه من فاسده ، ولكل فريق حجج وأدلة مدونة ، وكتب أفردوها ، فيها رأيهم وحججهم ، إليها استحسن رجوع من يريد الوقوف على تلك الآراء .

ومن الكتب المؤلفة في الأدب الجاهلي ، واشتهرت خاصة بين أدباء العربية بنقد الشعر الجاهلي وبتوجيه الشك الى صحة أكثره ، فأثارت لذلك ضجة كبيرة

كتاب ألفه الدكتور طه حسين في العربية بعنوان : « في الأدب العربي » . وقد ردّ عليه أدباء عديدون في مصر وغيرها من البلاد العربية الأخرى . وقد أوضح الدكتور في كتابه العوامل التي حملته على تكوين رأيه المذكور في الأدب الجاهلي .

وليس مرجع هذا الاختلاف هو في حقيقة وجود شعر جاهلي أصلاً ، أو في عدم وجوده . فوجود شعر للجاهليين ، حقيقة لا يشك فيها أبداً ، لأن الجاهليين هم مثل سائر الناس ، لهم حسنٌ ولهم شعور ، وما دام الحس موجوداً ، فلا بد أن يظهر على شكل شعر أو نثر . وإنما الاختلاف هو في هذا الشعر المروي لنا ، والمليون في بطون الكتب . هل هو جاهلي حقاً ، أو هو منحول فاسد محمول على الجاهليين ؟ أو وسط بين بين ، وفي كمية الصحيح منه ، بالنسبة الى مقدار الفاسد منه ؟ هذا موضع الاختلاف بين العلماء .

وقد وصف القديس (نيلوس) المتوفى حوالى السنة ٤٣٠ للميلاد غارة بدوية على دير سيناء ، وقعت سنة ٤١٠ م ، وتحدث عن تغني الأعراب بأشعارهم وهم يستقون الماء^١ . كما أشار المؤرخ (سوزيموس) الى تغني العرب بأشعارهم وذلك في المعارك التي وقعت بينهم وبين الروم في حوالى سنة (٤٤٠ م) ، وهي أغاني تشبه الأشعار التي كان يتغنى بها الأعراب في حروبهم وغزواتهم ، مثل يوم ذي قار^٢ ، والمعارك التي وقعت في فتوح العراق والشام . ولا زال الأعراب يترنمون بالشعر عند غزوهم بعضهم بعضاً ، لأن الشعر عندهم سلاح مهم من أسلحة القتال .

ثم إن شعر المخضرمين ، هو في حد ذاته دليل على وجود شعر سابق جاهلي ، فشعر مثل هذا لا يمكن أن يكون قد ظهر فجأة من غير شعر سابق ومن غير شعراء ماضين مهدوا الجادة لمن جاء بعدهم ووضعوا لهم البحور المعروفة ، وقد وجدها المخضرمون ، فنظموها عليها .

وفي القرآن الكريم سورة تسمى (سورة الشعراء)^٣ ، وهي تدل على كثرة الشعراء ، وعلى تأثير الناس بهم ، وعلى تأثير شعرهم في النفوس وتلاعبه بأفئدة

١ غرونبوم (١٣٣) .
٢ غرونبوم (١٣٤) ،
٣ رقم السورة (٢٦) .

Die Araber, II, S. 330.

الجاهليين . وتجاسر بعض الكفار على الرسول ، فوصفوه بأنه شاعر . ووصفه بهذه الصفة دليل على ما كان للشعر من أثر في نفوس القوم . وقد ورد في الحديث : ان الرسول قال : « إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكماً » ، أو ان من الشعر لحكمة ^١ . وفي الأخبار انه كان يرفع أناساً ويذل آخرين ، وإن من الناس من كان يشتري ألسنة الشعراء . وورد في الحديث ، ان الرسول ذكر الشعر فقال : « إن من الشعر لحكمة ، فإذا ألبسَ عليكم شيء من القرآن فالتمسوه في الشعر ، فإنه عربي » ^٢ . ووردت عنه أحاديث أخرى في حق الشعر ^٣ .

وورد في خبر آخر ان (العلاء بن الحضرمي) ، لما وفد على رسول الله ، قال له الرسول : أتقرأ شيئاً من القرآن ؟ فقرأ سورة عبس ، ثم زاد فيها من عنده : وهو الذي أخرج من الجبل نسمة تسعى بين شراسيف وحشى ، فقال رسول الله كف فإن السورة كافية ، ثم قال : أتقول شيئاً من الشعر ؟ فأنشده :

وحيّ ذوي الأضغان تسبّ قلوبهم تحيتك الأدنى فقد يدبغ النعل
فإن دحسوا بالكره فاعفُ تكرمًا وإن أخنسوا عنك الحديث فلا تسل
فإن الذي يؤذيك منه استأعه وإن الذي قالوا وراءك لم يقل

فقال النبي : إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكماً ^٤ .

وورد أن الرسول كان يسأل الصحابة أن يسمعه شعرًا ، سأل مرة (الشريد ابن سويد) التقي أن ينشده شيئاً من شعر أمية بن أبي الصلت ، فأنشده مائة بيت ، فقال الرسول : كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم ، أو ان كاد ليسلم . وكان الرسول يقول : أشعر كلمة تكلمت بها العرب كلمة لييد : ألا كل شيء

-
- ١ بلوغ الارب (١٣٤/٣) .
 - ٢ اللسان (٤١٠/٤) ، (شعر) ، العملة (ص ٢٧) ، (اذا اشتبه عليكم شيء من القرآن فاطلبوه في الشعر) ، مجالس ثعلب (٣١٧) .
 - ٣ العملة (ص ٢٧) .
 - ٤ بلوغ الارب (١٣٣/٣) وما بعدها ، (ان من الشعر حكماً ، وإن من البيان سحراً) وفي هذه الابيات روايات متباينة ، عيون الاخبار (١٨/٢) ، (طبعة دار الكتب المصرية) ، كنز العمال (١٧٨/٢) .
 - ٥ ارشاد الساري (١٠٠/٩) وما بعدها ، الاصابة (١٤٦/٢) ، (رقم ٣٨٩٢) ، الزهر (٣٠٩/٢) ، (مائة قافية) ، ابن سعد ، (٣٧٦/٥) . صحيح مسلم (٤٨/٧) ، (كتاب الشعر) .

ما خلا الله باطل ، أو ان أصدق كلمة قالها شاعر كلمة ليبد : ألا كل شيء
ما خلا الله باطل^١ .

وورد أنه استشهد بيت شعر لطرفة بن العبد ، هو :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود^٢

وورد أنه جلس في مجلس من الخرج ، فاستشدهم شعر : (قيس بن الخطيم) ،
فأنشده بعض شعره^٣ . وللرواة أخبار عديدة تشير الى سماع الرسول الشعر والى
وقوفه عليه وعلمه به ، وأنه كان يكلف الصحابة بأن ينشده من شعر الشعراء ،
وذكر أنه نهى من رواية رثاء (أمية بن أبي الصلت) قتلى قريش في معركة
بدر ، لما فيها من رثاء لمشركين ومن تحريض على الإسلام^٤ . وورد أن الشاعر
(العباس بن مرداس) ، شهد مع النبي حيناً على فرسه (العبيد) ، فأعطاه
النبي أربع قلايص ، فقال :

أنجعل نهي ونهب العبيد بين عينه والأقرع
وكانت نهاباً تلافيتها بكري على المهر في الأجرع

فقال الرسول : اقطعوا عنا لسانه^٥ . ولسانه هو شعره .

وروي عن (عمر) قوله : « نعم ما تعلمته العرب الأبيات من الشعر يقدمها
الرجل أمام حاجته فيستزل بها الكريم ، ويستعطف بها اللئيم ، مع ما للشعر من
عظم المزية ، وشرف الآية ، وعز الأنفة ، وسلطان القدرة^٦ .

وقديماً قال ابن عباس : « إذا أعياكم تفسير آية من كتاب الله ، فاطلبوه في

-
- ١ ارشاد الساري (١٠١/٩ وما بعدها) ، صحيح مسلم (٤٩/٧) ، (كتاب الشعر)
 - ٢ معجم الشعراء (٢٠٢) .
 - ٣ الاغاني (٧/٣) .
 - ٤ الاغاني (١٢٢/٤ وما بعدها) ، الفائق (٥٢/٣) ، الاغاني (٢٤٣/٨) ، ابن
سعد (٣٧٦/٥) ، الزهر (٣٠٩/٢) .
 - ٥ الشعر والشعراء (٦٣٤/٢) ، الاشتقاق (١٨٨) .
 - ٦ بلوغ الارب (٨٢/٣) .

الشعر ، فإنه ديوان العرب ^١ . وقيل إنه - أي ابن عباس - ما فسر آية من كتاب الله ، إلا نزع فيها بيتاً من الشعر . وروي أن غيره كان يحفظ شيئاً وافراً من الشعر ، الشعر المروي عن أناس عاشوا قبل الاسلام وأناس أدركوا الاسلام ، وأنهم كانوا يتداولونه ويتطارحونه ويحفظونه لصلته بكل فرد منهم . ففيه أخبار القبائل وأيام العرب وما قيل فيهم من مدح أو ذم ، والحق أننا بفضل هذا الشعر حصلنا على كثير من هذا القصص المنسوب الى أهل الجاهلية ، وبفضله عرفنا أخبار الشعراء والقبائل والأيام والحروب ، فهو كما قلت في الجزء الأول من هذا الكتاب مورد مهم رئيسي يرد منه المؤرخ في تدوينه تاريخ العرب قبل الإسلام .

ونحن لا نكاد نقرأ قصة من قصص (أيام العرب) ، إلا ونجد فيها شعراً ، ينسب الى بطل من الأبطال الذين ساهموا فيها ، أو من شاعر يذكر قومه أو خصوم قومه أو خصومه بالأيام التي انتصروا فيها على خصومهم . وقد ساعد هذا الشعر على تثبيت تلك الأيام في ذاكرة رواتها ، حتى وصلت الى أيام التدوين فدونت ، على نحو ما نقرأها في هذا اليوم .

ثم ان كتب الأدب بأنواعها مملوءة بأخبار المساجلات والمطارحات التي وقعت بين الشعراء قبيل الاسلام وفي أيام الرسول والخلفاء . وقد رويت فيها أشعار وقصائد لشعراء جاهليين ، ولشعراء مخضرمين . وقد تحدث معظم المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والاسلام عن ذكرياتهم في الجاهلية ، ورووا ما نظموه فيها من أشعار وما وعوه من المناسبات التي نظموا فيها . ثم ان هذه الكتب مملوءة أيضاً بأخبار مجالس سمر تناولت الحوادث والأيام والشعر والشعراء ، وفيها نقد ومفاضلات لما ذكر في تلك المجالس من شعر . وقد روي : ان الرسول كان يجالس أصحابه ويتحدث معهم ويصغي اليهم ، ويستمع الى ما يروونه وما يتذكرونه من الشعر ^٢ ، وروي : ان الخطيب ، وهو شاعر معروف ، كان يتذكر الشعراء ويحفظ أشعارهم ^٣ .

وقيل للحسن البصري : « أكان أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ،

١ المزمهر (٤٧٠/٢) ، الاخبار الطوال (٣٣٢) ، طبقات الشعراء ، للجمحي (ص ١٠)
 بلوغ العرب (٨٢/٣) ، جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (٣٦/١) ، العمدة (٣٠) ، التبريزي ، شرح الحماسة (١ وما بعدها) .
 ٢ الاغانى (٥٥/١٥) .
 ٣ الاغانى (٩٤/١٥) .

يمزحون ؟ قال : نعم ويتقارضون ، أي يقولون القريض وينشلون . والقريض الشعر ^١ . وروي أن أصحاب رسول الله ، كانوا يتناشدون الأشعار ويذكرون أمر جاهليتهم ، وأن رسول الله كان مجالسهم في المسجد ، وهم يتناشدون الشعر وأشياء من أمر الجاهلية ، فربما تبسم ^٢ . وعن (أبي سلمة) : « لم يكن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متحزقين ولا متهاوتين ، كانوا يتناشدون الأشعار ، ويذكرون أمر جاهليتهم ، فإذا أريد أحدهم على شيء من أمر دينه دارت حاليق عينيه كأنه مجنون ^٣ . »

وقد ذكر أن من الأعاجم من تعلم الشعر العربي ورواه وعشقه ، فزعم (ابن الكلبي) مثلاً أن (خَرْخَسرة) ، وهو ابن (المروزان) ، كان قد تعرب ، أعجبه العربية فتعلمها وروى الشعر ، وكان والياً على اليمن في عهد (كسرى) ، ثم بلغ (كسرى) تعربه ، وروايته الشعر ، وتأديبه بأدب العرب ، فزله ، وولى باذان ^٤ .

وللشعر أثر خطير في نفوس العرب ، كان يهز عواطفهم هزاً ، ويفعل فيهم فعل السحر ، فلا عجب إذا ما قرن (رؤبة) الشعر بالسحر ، وجعله مثله في التأثير لتلك العلة :

لقد خشيتُ أن تكون ساحراً راوية مَرّاً ومَرّاً شاعراً ^٥

قال (الجاحظ) : « وكان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب ، وهم إليه أحوج لردّه مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم ، فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر ^٦ . »

وقد بقي أثر الشعر هذا في نفوس الناس حتى بعد زوال الجاهلية ودخول الناس في الاسلام . فكان مدح الشاعر لقوم ، من المآثر والمفاخر ، وكان ذمه

١ اللسان (٢١٩/٧) ، الفائق (٣٣٩/٢) .

٢ ابن سعد ، الطبقات (٢/١ ص ٩٥ وما بعدها) .

٣ الفائق (٢٥٧/١) .

٤ الطبري (٢١٥/٢) ، (دار المعارف) .

٥ العمدة (٢٧/١) .

٦ البيان والتبيين (٨٣/٤) .

عما يشين ويسيء الى المهجو . فلما هجأ (جرير) (بني نمر) بقوله :

فغض الطرف انك من نمر فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

أخذ بنو نمر يتسبون الى (عامر بن صعصعة) ، ويتجاوزون أباهم نمرأ الى أبيه ، هرباً من ذكر (نمر) وفراراً مما وسم به من الفضيحة والوصمة . مع انهم كانوا قبل ذلك اذا مثل أحدهم ممن الرجل فخم لفظه ومدّ صوته وقال : من بني نمر ، وكانوا جمرة من جمرات العرب . وكان أحدهم اذا رأى نمرأ وأراد نبزه والإساءة اليه قال له : غمض وإلا جاءك ما تكره ، وهو انشاد هذا البيت^١ . وصار الرجل من بني نمر اذا قيل له : ممن الرجل ؟ قال : من بني عامر^٢ ١

قال الجاحظ : « وفي نمر شرف كثير . وهل أهلك عترة ، وجرمأ ، وعكلاً ، وسلول ، وباهلة ، وغنيأ ، إلا الهجاء ١٢ »

وهذه قبائل فيها فضلٌ كثيرٌ وبعض النقص ، فحق ذلك الفضل كله هجاء الشعراء . وهل فضح الحبطات ، مع شرف حسكة بن عتاب ، وعباد بن الحصين وولده ، إلا قول الشاعر :

رأيت الحُر من شر المطايا كما الحبطات شر بني تميم^٣

وقد هُجيت فزارة بأكل أير الحمار ، وبكثرة شعر القفا . وكان (حلف) الفزاري قد أطعم جرّدان الحمار ، فقتل الذي أطعمه . وقال : طاح مرقه ، فذهبت مثلاً . ففزارة تعبر بملك الى اليوم . قال الشاعر :

إن بني فزارة بن ذبيسان قد سبقوا الناس بأكل الجرّدان

وقال آخر :

أصبحانية علّت بزُبد أحب اليك أم أير الحمار^٤ ؟

١ الخزانة (٣٥/١ وما بعدها) ، (يولاق) ، البيان والتبيين (٣٥/٤) .

٢ البيان والتبيين (٣٥/٤ ، ٣٨) .

٣ البيان والتبيين (٣٦/٤ وما بعدها) .

٤ الاشتقاق (١٧٣/١ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٣٨/٤ وما بعدها) ، الخزانة

(٣٩٥/١) ، سبط اللقي (٨٦٠) .

وبين الشعر والسحر صلة ، حتى ذهب بعض الباحثين في الشعر الى أن الشعر هو فن من الفنون التي كان يمارسها السحرة في التأثير في مشاعر الناس ، إذ كانوا يتخللونه وسيلة من وسائل التأثير في النفوس ، لما يستعملونه فيه من كلام مؤثر ساحر يترك أثراً خطيراً في نفس سامعه . ولهذا عدّوا السحرة في جملة أوائل من كان ينظم الشعر من القدماء ، كما ذهب بعض الباحثين الى أن الشعراء كانوا (أهل المعرفة) والفهم ، لما كان لهم من ذكاء وصفاء ذهن في فهم تجارب الحياة ، وفي نظم خلاصة تلك التجارب على شكل علم أو حكم تفيد في التهذيب وفي التوجيه وفي وعظ الناس ، ولهذا كان لهم رأي في السياسة في السلم وفي الحرب .

وفي كتب الأدب والأخبار أمثلة كثيرة عن أثر الشعر في القبائل وفي الأشخاص من مدح وذم ، برينا كيف كان العرب يتأثرون به ، وكيف كان يلعب دوراً خطيراً في حياتهم ، والعرب قوم عاطفيون ، تلعب العاطفة دوراً خطيراً في حياتهم ، وما الشعر إلا نتيجة لهذا الطبع المتوارث في العربي . وقد كان أثر الشعر في المغازي وفي الحروب أثر السيف في الحصوم ، يجرّض المقاتلين على الاستبسال في القتال . ولما وقعت الوقائع بين المسلمين والفرس ، لعب الشعر والنثر دوراً خطيراً فيها ، ففي يوم (أرمات) مثلاً ، أرسل سعد الى قادة الكلام ، من رجال النثر والشعر ، يدعوهم الى استخدام سلاحهم في هذه المعارك ، فكان ممن حضر عنده : (طليحة) ، و (قيس بن هيرة) الأسدي ، و (حذيفة) ، و (غالب) ، و (عمرو بن معديكرب) ، و (ابن الهذيل) الأسدي ، و (عاصم بن عمرو) ، و (ربيع بن البلاد) السعدي ، و (ربيعي بن عامر) وهم من الخطباء ، و (الشماخ) ، و (الحطيثة) ، (أوس بن مغراء) ، و (عبدة بن الطيب) وأمثالهم ، وهم من الشعراء ، فلما تجمعوا ، قال لهم (سعد) : « قوموا في الناس بما يحقّ عليكم ويحقّ عليهم ، عند مواطن البأس ، فإنكم من العرب بالمكان الذي أنتم به ، وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونجدتهم وسادتهم ، فسيروا في الناس ، فذكروهم وحرضوهم على القتال » . فالشعر سلاح ماضٍ عند العرب ، مثل الأسلحة الأخرى وربما كان أمضى منها أثراً في نفوسهم لما كان يفعله فيهم ، وكذلك النثر من أثر في النفوس يحملهم

على الإقدام وعدم التهيّب من الموت .
ونحن لا نعرف حرباً أو غزواً وقع للعرب ، ثم لم يقترن خبره شعر أو أبيات
منه ، فقد كان المحاربون ، محاربون خصوصهم بألسنتهم وبسيوفهم وبسهامهم
ورماحهم في الوقت نفسه ، وقد رأينا أنه قد كان للشعر الفضل الأكبر في كثير
من الأحيان في حفظ أخبار الحروب وبقاء ذكرها الى هذا اليوم . ونستطيع القول
بأن قطعاً كبيراً من الشعر الجاهلي ، هو من شعر القتال . ولذلك نستطيع جعله
صنفاً قائماً بذاته نسميه شعر القتال والحروب .

ومن هذا الأثر الذي كان يعرفه الشعراء حق المعرفة ، كانوا يستعملون ويترفعون
به عن غيرهم ، كتب (هودة بن علي) الحنفي ، الى النبي يمجّيه على رسالته
التي أرسلها اليه : « ما أحسن ما تدعو اليه واجمله ، وأنا شاعر قومي وخطيبهم
والعرب تهاب مكانسي ، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك »^١ ، فهو شاعر قومه
وخطيبهم ، وله مكانة في العرب ، فهو يرى ان يميز عن غيره بميزات تمنح له ،
وكان الشعراء يمتنون على قومهم بأنهم ألسنتهم المخترمة الناطقة المهاجمة المدافعة ،
فهم من الطبقة المثقفة الممتازة التي حظيت بالتقدير ونالت الاحترام ، بسبب قدرة
اللسان ، وأثر الشعر في الناس .

ولا زال الشاعر ينال مكانة محترمة عند أهل الحضر وعند أهل الوبر ، فهو
لسان القبيلة حتى اليوم ، يدافع عنها ، ويهجو أعداءها ، ويردّ على شعراءها ،
ويشيد بفعال قومه . وللهجاء عندهم مكانة ، إلا انها أخذت تتزلزل عن مكانتها ،
يفعل التحضر الذي أخذ يغزو البوادي ، وتغير العقلية ، وعدم الاهتمام بالقبيل
والقال ، مما أثر على مكانة الشعر والشاعر أيضاً ، فلم يعد الناس يمتخون لسان
الشاعر ، كما كانوا يمتخونه أيام الجاهلية ، يوم كانوا يسترضون الأعشى والحطيئة ،
خوفاً من لسانيهما السليطين .

ويطلق على الشعر الذي قيل قبل الاسلام : الشعر الجاهلي ، لأنه قيل في الجاهلية
التي شرحنا معناها في الجزء الأول من هذا الكتاب ، وأصحابه كلهم ممن عاشوا
وماتوا قبل الاسلام . أما الذين أدركوا الاسلام وأسلموا ، فهم الشعراء المخضرمون

١ ابن سعد ، طبقات (٢٦٢/١) ، (ذكر بعثة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ،
الرسول يكتبه الى الملوك يدعوهم الى الاسلام) .

لأنهم أدركوا عهدين ، فعاشوا ردياً من عمرهم في الجاهلية، وقضوا البقية الباقية من حياتهم في الاسلام .

واذا قلنا الشعر الجاهلي ، أو شعر الجاهليين ، فلا نريد أو يريد أحد منا الغرض من شأنه ، أو الخط من قدره ، فلأننا على العكس ، نجد علماء الشعر والأدب ، يرفعون من قدره ، ويرون انه الأوج الذي بلغه العرب في الشعر ، ولا سيما الشعر المختار منه مثل المعلقات ، فقد بلغ القمة في نظرهم ، وقد بلغ من تقدير بعضهم للشعر الجاهلي ، أنهم كانوا « أحياناً يذهبون بعيداً في تدقيقهم الى حد التهوين من قيمة شاعر لا يمكن إنكار تفوقه ، لمجرد أن ولادته كانت بعد ظهور الاسلام »^١ .

وروي أن عمر قال : « الشعر علم قوم لم يكن لهم علمٌ أعلم منه » وأنه كتب الى (أبي موسى الأشعري) : « مَرَّ مَنْ قَبْلَكَ بِتَعْلَمَ الشعر ، فإنه يدل على معالي الأخلاق ، وصواب الرأي، ومعرفة الأنساب »^٢ . ولقد قال الجاحظ : « وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها ، بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون ، والكلام المقفى، وكان ذلك هو ديوانها ، وعلى أن الشعر يُفيد فضيلة البيان ، على الشاعر الراغب ، والمادح ، وفضيلة المأثرة ، على السيد المرغوب اليه ، والممدوح به »^٣ . وقال العسكري : « لا تعرف أنساب العرب وتواريخها وأيامها ووقائعها إلا من جملة أشعارها ، فالشعر ديوان العرب وخزانة حكمتها ومستنبت آدابها ومستودع علومها »^٤ ، والشعر هو ديوان تسجيل من لا تسجيل له ، لجأت اليه الشعوب القديمة حين لم تعرف الكتابة ، ليقوم مقام الكتابة في تخليد المآثر والأحداث وما يستجد لها من أمور عظام ، بما فيه من أثر على القلب ، ومن نعم يساعد على الحفظ ، فقام الشعر عند العرب مقام الكتابة ، قبل أن تنفشي الكتابة بينهم^٥ .

والواقع ان هذا الشعر الجاهلي قد أفاد المؤرخ الباحث في تاريخ الجاهلية فائدة

١ بروكلمن (٣٦/١) .

٢ العملة (٢٨) .

٣ الحيوان (٧٢/١) ، (عبد السلام محمد هارون) ، المحاسن والاضداد (٣) .

٤ كتاب الصناعتين (١٠٤) .

٥ كارلو نالينو (٩٥ وما بعدها) ،

لا تقدر بثمن ، وربما زادت فائدة هذا الشعر من الوجهة التاريخية على فائدته من الوجهة الأدبية ، لأنه حوى أموراً مهمة من أحداث العرب الجاهليين ، لم يكن في وسعنا الحصول عليها لولا هذا الشعراء .

ولكن كثيراً من هذا التراث الذي أريد تخليد عمل العرب به قد ضاع ، قبل الإسلام ، بسبب عدم تلويته وتحليله في كتاب واعتماد الناس في روايته على الحافظة وحدها ، والحافظة لا تحفظ المحفوظ لأمد طويل ، فضاع منه ما ضاع ، ووصل بعض منه بصورة يرتاب منها ، وآفة كل ذلك هو المرض الذي يصيب الذاكرة : مرض النسيان . قال ذو الرمة لعيسى بن عمر : اكتب شعري ؛ فالكتاب أحب إليّ من الحفظ . لأن الأعرابي ينسى الكلمة وقد سهر في طلبها ليلته ، فيضع في موضعها كلمة في وزنها ، ثم ينشدنا الناس ، والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاماً بكلام ١ .

والشعراء الجاهليون كثيرون ، ونجد في كتب اللغة والمعاجم ، أسماء شعراء ، لم يرد لهم خبر في موارد أخرى ، ذكروا لمناسبة الاستشهاد بشعرهم ، ونجد في كتب السير والرجال أسماء رجال لهم شعر ، لم يرد اسمهم في كتب الشعر . قال (ابن قتيبة) : « والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائهم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام ، أكثر من أن يحيط بهم محيط أو يقف من وراء عددهم واقف ، ولو أنفد عمره في التنقيب عنهم ؛ واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال . ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ، ولا قصيدة إلا رواها ٢ .

وأنت إذا قرأت بعض الكتب مثل كتاب : (الاشتقاق) ، و (المجبر) ، وكتب المجالس والأسامي والشواهد ، نجد أمامك أسماء عدد كثير من الشعراء الجاهليين ، لم يرد اسمهم في كتب الشعر الجاهلي ، ولم يحفل بهم علماء الشعر مع أنهم كانوا في أيامهم من الشعراء المعروفين ، وقد نص على أنهم كانوا من الشعراء .

Charles James Lyall, Ancient Arabian Poetry, London, 1930, p. Introduction.

١ الحيوان (٤١/١) ، (نعت الكتاب) .

٢ الشعر والشعراء (٨/١) .

ولا أجد في كلام قدماء العلماء القائل ان الذي وصل الينا من أمر الشعر الجاهلي والشعراء الجاهليين ، هو قليل جداً من كثير جداً ، وأن الذي فات عن علم العلماء من أمر الشعراء الجاهليين أكثر بكثير مما بقي ، أية مبالغة أو تهويل ، لأننا نجد في الموارد التي تتحدث عن الصحابة أو عن الأخبار ، أسماء رجال كانوا شعراء ، لا نجد لها وجوداً في كتب الشعر ، ثم ان علماء الشعر أنفسهم يعترفون في كتبهم ودفاترهم ، انهم لم يدونوا من أسماء الشعراء إلا من اشتهر أمره وعرف بغزارة شعره ، أما من كان دون هؤلاء ، فإنهم لم يتحرشوا بهم ، إذ لو تعرضوا بهم لاحتاجوا الى تدوين كتب ضخمة في الشعر والشعراء . أضف الى ذلك موت ذكر كثير من الشعراء ، بسبب علم وجود التدوين قبل أيام التدوين وعجز الذاكرة عن المحافظة على أسماء الشعراء وعلى شعرهم الى أمد طويل . ثم ان الشعر سليقة عند العرب ، وبديهة ، وقلما نقرأ اسم رجل من أهل الجاهلية ، إلا وقد نسب له أهل الأخبار البيت أو البيتين ، أو أكثر من ذلك من الشعر .

ونحن لا نذكر هنا من الشعراء إلا من نبه منهم، وتترك أثراً في الأدب العربي الى يومنا هذا .

وقد جرت العادة بأن يدرس الشعر الجاهلي على أسلوب الجادة القديمة ، بالاعتماد على الروايات المدونة عنه في الموارد الإسلامية القديمة ، وهي روايات لاقت رواجاً كبيراً بين المعنيين في الشعر الجاهلي ، حتى صارت في درجة القضايا البديهية المسلم بصحتها ، مع أنها في الواقع أخبار آحاد ، وردت في كتب اسلامية قديمة نقلها عنها المؤلفون المتأخرون عن المؤلفين القدماء . مع أن الصحيح هو في وجوب درس الشعر الجاهلي ، على ضوء شعر المخضرمين والشعراء الاسلاميين الذين عاشوا في صدر الاسلام ، وعلى ضوء الدراسات المعروفة عن الشعر عند الساميين ، مثل شعر السريان الذي يأخذ أيضاً بالوزن والقافية وله مصطلحات قديمة في الشعر تعود الى ما قبل الاسلام ، ثم الشعر العبراني والشعر البابلي وشعر بقية الساميين .

وفي دراسة شعر القبائل الحاضرة المتزوية في جزيرة العرب ، فائدة كبيرة في تشخيص الشعر الجاهلي ، لأنها — ولا سيما القبائل التابعة في العربية الجنوبية — لا زالت تنظم الشعر متأثرة بالقوالب القديمة ويحور جاهلية لم يحفل بها (الخليل) أو أنه لم يقف عليها ، ففات أمرها على العلماء ، وعدت من الشعر العامي المتبذل .

الذي لا يلبق بالعالم المترن أن يحفل به . وقد تفيدنا دراسة شعر القبائل العربية ، الناطقة بلهجات بعيدة عن عرييتنا بعض البعد ، فائدة كبيرة في الحكم على طبيعة ونوع الشعر عند العرب الجنوبيين قبل الاسلام ، فالسنة هذه القبائل هي من وحي الألسنة العربية الجنوبية الجاهلية ، ونظم الشعر بها بأسلوب خاص ويبحر متميزة ، هو دليل قاطع على وجود الشعر عند العرب الجنوبيين ، وهو شعر لا نعرف اليوم من أمره أي شيء ، لعدم وصول نماذج مدونة منه البنا حتى الآن ، ولعدم اهتمام العلماء القدامى به ، لاختلافه عن عريسة القرآن الكريم ، وفي الشعر الياني القديم الذي نجد نماذج منه في المؤلفات اليانية ، مثل مؤلفات (الهمداني) ، فائدة في تشخيص الشعر الياني الجاهلي ، وإن كان هذا الشعر قد صيغ وفقاً للشعر العربي القرآني ، بفعل دخول أهل العربية الجنوبية في الاسلام ، وأخذهم بلغة القرآن الكريم .

ولا استبعد احتمال ترك علماء الشعر واللغة كثيراً من الشعر الجاهلي ، لأنه شعر لم ينظم وفق عريسة القرآن الكريم أو وفق البحور (الكلاسيكية) المعروفة التي اعتبرت الصور الرفيعة لبحور الشعر العربي الصحيح ، نبلوه لأنه كان في أعينهم من الشعر العامي المبذل الذي لا يلبق بالعالم المدقق توجيه عنايته اليه ، على نحو ما فعلوه بالنسبة الى اللهجات العربية الأخرى التي كانت تختلف عن العربية المألوفة التي أخذوها من أفواه القبائل التي اعتبروا لسانها هو اللسان العربي الفصيح ، وأما ما سواها فالسنة رديئة لا يؤخذ بها ولا يحتج بما ورد فيها من نثر أو نظم .

خبر شعراء الجاهلية :

وقد حصلنا على أسماء شعراء الجاهلية من الموارد الاسلامية ، فقد ذكرتُ ان النصوص الجاهلية لم تتعرض لأمر الشعر الجاهلي ولا للشعراء الجاهليين . ونجد أسماء هؤلاء الشعراء في مختلف الموارد ، في كتب الأدب وفي ضمنها دواوين الشعر ، وفي كتب النثر الباحثة عن الشعر ، وفي كتب التفسير والحديث واللغة والمعاجم ، بل وفي الشعر الجاهلي كذلك ، إذ ذكر بعض أسماء الشعراء . ونجد في شعر بعض الشعراء الذين ظهروا في العصر الأموي أسماء شعراء جاهليين ، فنجد في شعر للفززدق أسماء شعراء جاهليين ، إذ يقول :

وهب القصائد لي النوايحُ إذ مضوا وأبو يزيد وذو القروح وجرول
 والفحل علقمة الذي كانت له حلل الملوك كلامه لا ينحل
 وأخو بني قيسٍ وهن قتلته ومهلل الشعراء ذاك الأول
 والأعشيان كلاهما ومرقش وأخو قضاة قوله يتمثل
 وأخو بني أسدٍ عبيدٌ إذ مضى وأبو دُوادٍ قوله يتنخل
 وابنا أبي سلمى زهير وابنه وابن الفريفة حين جدّ القول
 والجعفري وكان بشر قبله لي من قصائده الكتاب المجل
 ولقد ورثتُ لآل أوسٍ منطقاً كاسم خالط جانبيه الحنظل
 والحارثي أخو الحِساس ورثته صدعاً كما صدع الصفاة المعول

ونجد في شعر (جرير) الذي نقض على الفرزدق قصيدته المذكورة ، وفي شعر
 (سراقة) البارقى ، ذكراً لأسماء بعض الشعراء الجاهليين إذ يقول :

ولقد أصبت من القريض طريقةً أعيت مصادرها قرين مهلهل
 بعد امرئ القيس المتوّه باسمه أيام يَهْدِي بالدخول فحومل
 وأبو دُوادٍ كان شاعر أمةٍ أفككتْ نجومهم ولما بأفل
 وأبو ذؤيب قد أذل صعايبه لا ينصبتك رابض لم يدل
 وأرادها حسان يوم تعرضت بردى يصفق بالرحيق السلسل
 ثم ابنه من بعده فتمنعت وإخال أن قرينه لم يخل
 وبنو أبي سلمى يقصر سعيهم عنا كما قصرت ذراعاً جرول
 وأبو بصير ثم لم يبصر بها إذ حل من وادي القريض بمحفل
 واذكر ليبدأ في الفحول وحاماً يلومك الشعراء إن لم تفعل
 ومُعقراً فاذا ذكر وإن ألوى به ريب المنون وطائر بالأخيل
 وأمية البحر الذي في شعره حكم كوحى في الزبور مفصل
 واليئسري على تقادم عهده ممن قضيت له قضاء الفيصل

واقذف أبا الطمحان وسط خوانهم وابن الطرامة شاعر لم يُجْهَل
 لا والذي حجت قريش بيته لو شئت إذ حدثكم لم آثِل
 ما نال بحري منهم من شاعرٍ ممن سمعت به ولا مستعجل^١

وجمع رواة الشعر شعراً الشعراء الجاهليين وأخبارهم من موارد متعددة ، من
 الشعراء أنفسهم ، مثل الخطيئة الذي أدرك الاسلام ، ومثل حسان وبقية الشعراء
 المخضرمين ، فقد أمدوا الخلفاء وعشاق الشعر بأخبار من تقدم عليهم من الشعراء ،
 وبما حفظوه من شعرهم ، وبما استحسَنوه من أشعارهم ، كما موتَروهم بأخبارهم
 التي بقيت عالقة في أذهانهم عن الجاهلية ، وعن أيامهم في الإسلام . كما جمعوا
 أخبارهم من أبناء الشعراء الجاهليين ومن ذوي رحمتهم وآلهم ، ونجد في كتب
 الأخبار والأدب أخباراً كثيرة من شعراء جاهليين^٢ ، نقلها الرواة من أبناء أولئك
 الشعراء ، أو من ذوي قرابتهم ، فقد جاء قسط كبير من شعر الشاعر (تميم
 ابن مقل) عن ابنته أم شريك ، وجاء جزء من شعر (حاتم) وأخباره عن
 ابنه (عدي)^٣ .

وأخذ الرواة شعر الشعراء الجاهليين من قبائلهم كذلك ، فقد كان في القبيلة
 من يحفظ شعر شعرائها أو شعر البارزين منهم . وقد رأينا كيف استعزت تغلب
 بقصيدة (عمرو بن كلثوم) فكانت ترددها دوماً حتى عيبت على ذلك^٤ ، وكان
 في القبائل الأخرى من حفظ شعر شعرائها ، ونجد كتب الأدب والأخبار تنص
 على أسمائهم ، فتذكر اسم الشخص ، وتنص على اسم قبيلته ، وقد تذكر جملًا
 مثل « سمع أشياخاً من طيء »^٥ ، أو « حدثني الطائيون »^٦ ، وأمثال ذلك ،
 من جمل تنص على اسم المورد الذي استقى منه الرواية خبره أو شعر الشاعر
 من القبيلة .

ونجد في كتاب طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي (٨٢٣١) ، وفي

-
- ١ ديوان سراقه (٦٤ وما بعدها) .
 - ٢ ديوان حاتم (٣١) .
 - ٣ الاغانى (٥٤ / ١١) .
 - ٤ المعمرن (٧٢) .
 - ٥ ديوان حاتم (٣٠) .

كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢٧٦ هـ) ، أسماء شعراء جاهليين ، وقد أخذوا علمها بهم ممن تقدم عليهم فألف قبلهم في موضوع الشعر والشعراء ، ودون (اليعقوبي) في تاريخه جريدة بأسماء شعراء العرب ، وقد جعل أولهم (امرئ القيس) ، وذكر (النابغة) الذي يأتي بعده ، وانتهى بالمخضرمين^١ ، ولكنه لم ينص على اسم المورد الذي أخذ تلك الأسماء منه .

ولا نجد بين أسماء الشعراء الجاهليين اسم شاعر واحد نظم شعره وعاش في العربية الجنوبية أو نظم بلهجة متأثرة باللهجات العربية الجنوبية، فأكثر من ذكرهم من الشعراء إنما هم من الشعراء الذين قضوا أكثر حياتهم خارج العربية الجنوبية، وقد كان في هذه العربية شعراء ولا بد ، فليس من المعقول خلوها من الشعر والشعراء ، ولكن علماء العربية لم يعتنوا إلا بشعراء القبائل التي احتكوا بها والتي أخذوا العربية عنها ، والتي اعتبروا لسانها من أفصح ألسنة العرب ، فضاغ بسبب ذلك شعر القبائل التي كانت بعيدة عنهم أو التي كان لسانها بعيداً بعض البعد عن العربية التي ارتضوها والتي نزل بها القرآن الكريم .

ولا نجد في الشعر الجاهلي الواصل إلينا شعراً نظم في أغراض دينية وثنية ، أي في عبادات القوم قبل الاسلام ، اللهم إلا ما نسب إلى بعض الشعراء الأخفاف من شعر فيه تخنّف ، وإلا ما نسب إلى بعض آخر من شعر فيه إشارات عابرة إلى عقائد يهودية أو نصرانية . أما شعر وثني خالص ، من شعر فيه ترنيم بالأصنام والأوثان ، وتحميد لها وتقديس ، أو وصف لطقوس دينية وثنية ، فهو شعر لم يصل إلينا منه شيء ، وسبب عدم وصوله إلينا هو الاسلام ، الذي اجتث كل ما يمت إلى الوثنية بصلة قريبة ، وقضى عليه ، فامتنع المسلمون من رواية هذا النوع من الشعر .

الشاعر :

والشاعر متعاطي الشعر ومحترفه ومن يقوله ، أو يكثر القول منه . ذكر علماء اللغة أنه إنما سمي شاعراً ، لأنه يشعر ما لا يشعر غيره ، أي يعلم ، أو لفطنته^٢.



١ اليعقوبي (٢٣٠/١ وما بعدها) ، (شعراء العرب) .

٢ تاج العروس (٣٠١/٣) ، (شعر) ، العملة (١١٦/١) .

ومن هنا قال البعض ان الشعراء في الجاهلية كانوا أهل المعرفة ، يعنون أنهم كانوا من أئقف أهل زمانهم ، وأنهم كانوا على مستوى عالٍ في الفكر والرأي وفي فهم الأمور^١ .

وجعلوا للشعراء مزايا ، ومنحهم العلماء امتيازات خاصة ، وقالوا عنهم : « الشعراء أمراء الكلام ، يقصرون الممدود ، ويمدّون المقصور ، ويقدمون ويؤخرون ، ويؤشرون ويُسِّرون ، ويختلسون ويُعَيرون ويستعبرون . فاما لحن في إعراب ، أو إزالة كلمة عن نهج صواب ، فليس لهم ذلك »^٢ .

وفي كتب أهل الأخبار أخبار تدل على اعتداد الشعراء بأنفسهم من ناحية الرقي العقلي ، وعلى تقدير الناس لمدارك الشعراء . جاء أن « الطفيل الدوسي قدم مكة ورسول الله بها ، فحلّره رجال من قريش من سماع النبي حتى لا يتأثر بقوله . قال الطفيل : فا زالوا بي حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئاً ، ثم قلت في نفسي : واثكل أمي ! والله إنني لرجل لبيب شاعر ، ما يخفى عليّ الحسن من القبيح ، فما يمنعني من أن أسمع هذا الرجل ما يقول ؟ فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته ، وإن كان قبيحاً تركته »^٣ ، وجاء في خبر آخر ، « ان الطفيل لما قدم مكة ، ذكر له ناس من قريش أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وسألوه أن يختبر حاله فأثابه فأنشده شعره ، فثلا النبي الإخلاص والمعوذتين فأسلم »^٤ . وفي هذا الخبر ان صح دلالة على تقدير الناس لفطنة الشاعر ولسمو مداركه . وقد رأينا ما كتبه (هودّة بن علي) الحنفي ، للرسول من أنه شاعر قومه وسيلهم ، ونجد في خبر (جلاس بن سويد) الصامت الأنصاري ، أن قومه أتوا عليه « فقالوا : إنك امرؤ شاعر .. »^٥ ، وفي هذه الأخبار وغيرها دلالة على أن الشعراء كانوا يرون أنفسهم فوق الناس في الفطنة والفهم ، وأن الناس كانوا يرون هذا الرأي فيهم ، لا يجلونه فيهم من فطنة وذكاء .

١ فجر الاسلام (٥٥ وما بعدها) .

٢ المزهر (٤٧١/٢) .

٣ ابن هشام ، سيرة (٢٣٥/١) ، فجر الاسلام (٥٦) .

٤ الاصابة (٢١٧/٢) ، (رقم ٤٢٥٤) ، الاستيعاب (٢٢٣/٢) ، (حاشية على الاصابة) .

٥ الاصابة (٢٤٣/١) ، (رقم ١١٧٦) .

ولا يعني هذا ان الشعراء كانوا كلهم من أرقى الناس عقلاً ، ومن أفهم الناس إدراكاً ، ومن أعلمهم بالأمور وأبصرهم بالمعرفة ، فبينهم ولا شك تفاوت في الإدراك ، وفي مجتمعهم من هو أرقى منهم عقلاً وأكثر منهم إدراكاً ، وهم مع ذلك لا يقولون الشعر أو لا يمارسونه ، مثل الحكام والكهنة ، وأصحاب الآراء. وانما الشعر ، ملكة ، لا تكون إلا عند صاحب حس مرهف ، ولا تظهر إلا في انسان ذكي فطن لبيب ، يذل الألفاظ والآيات ، لتنصاع لإرادته ، فيخرجها أبياتاً وقصائد تعبر عن مشاعره ومداركه . فالشاعر من هنا من أذكى الناس ، ومن أهل الإدراك والمعرفة .

والشعراء ككل البارزين من طبقات مختلفة تباينت في السويات ، منهم من نبت من عائلة شريفة ، ومنهم من نبت من عائلة أعرابية ، ومنهم من نبغ من بيت فقير . وقد سمي أهل الأنجبار شعراء بأسمائهم كانوا من أشرف قومهم ، وسموا شعراء كانوا من أوساط أقوامهم ، أو من النابتة . فالنبوغ لا يختص بجماعة دون جماعة ، ولا بطبقة دون طبقة .

وشعر الشاعر هو دليل عقليته ومقدار مداركه ، ولهذا تباين واختلاف ، فنجد في شعر شعراء البادية الروح الأعرابية والخشونة تتجسم في المعاني وفي الألفاظ ، ونجد في شعر الحضرة أثر النفس الحضريّة ، ونرى في شعر الجوابين القاصدين للملوك ، والذاهبين الى الحضرة والأعاجم ، أثر اختلاطهم بهم في شعرهم ، كما هو في شعر الأعشى .

والشعراء الجاهليون ، هم من قبائل متعددة ذات لهجات وحروف في الكلام مختلفة ، ولكننا نرى أن لغة شعرهم وطريقة نظمهم واحدة ، لا فرق فيها بين قحطاني وعدناني ، ولا بين شاعر من عرب العراق أو بلاد الشام وشاعر من أهل اليمن أو الحجاز أو نجد . ومعنى هذا ان الشعراء كانوا اذا نظموا شعراً ، نظموه يبحور معروفة مقررة ، وبلغة عالية ، سمت فوق لهجات القبائل ، على نحو ما نفعل في الزمن الحاضر من استعمال لغة عربية فصيحة هي لغة القرآن الكريم في النظم والنثر والاذاعة وما شابه ذلك من وسائل الإيضاح والإعلان ، ومن استعمال لهجات محلية في الحياة اليومية الاعتيادية في مثل البيت والسوق والتفاهم بين الناس .

ولكن هذا لا يعني أن الشعراء لم يكونوا ينظمون الشعر بألسنتهم القبلية ،

ووفق قواعد منطقهم ، فقد ثبت من أقوال علماء الشعر ، ومن أخبار أهل الأخبار أن الجاهلين كانوا ينظمون بلهجاتهم ، وكان نظمهم مفهوماً عند غيرهم ، وقد تحتاج الأذن الى تأمل وتفكير ، لإدراك كلمات ومعاني ذلك الشعر . قال (ابن هشام) في شرح الشواهد : « كانت العرب ينشد بعضهم شعراً بعض ، وكل يتكلم على مقتضى سجيته التي فطر عليها ، ومن هنا كثرت الروايات في بعض الأبيات »^١ . فالشاعر التميمي ، ينظم بلهجته ، والشاعر الأسدي ينظم بلهجة بني أسد قومه الذين ولد بينهم ، والشاعر الثقيفي ينظم بلهجة ثقيف ، ولكنه إذا أنشده في غير قومه ، فهم وعرف معناه ، وإن احتيج الى ترويق أو تعديل في بعض الأحيان .

ودليل ما أقول : هو ما نجده في شعر الشواهد من اضطراب في القواعد ، وخروج على أصول النحر والصرف ، وورود ألفاظ في الشعر الجاهلي دعاها علماء اللغة غريبة أو وحشية ، أو ألفاظ خاصة ذكروا أنها وردت في شعر الشاعر ، لأنها من ألفاظ قبيلته ، التي انفردت بها دون سائر القبائل ، ولو كان نظم الشعر بغير لغة القبائل ، لما شاهدنا فيه هذه الخصائص اللسانية التي رجعها علماء اللغة في شعر بعض الشعراء ، ولجاء الشعر كله بلا خصائص قبلية وبلا ألفاظ غريبة ، أما وقد صقل العلماء الشعر وحسنوا في بعض ألفاظه ، وتفقحوا منه ما تقحوه ، فإن ذلك دليل في حد ذاته على أن الشعراء كانوا ينظمون الشعر بألسنتهم ، وهي غير متباينة تبايناً كبيراً ، فلما ضبطه العلماء ، ودونوه ، هذبوا ما شذَّ منه وفق القواعد التي تثبتت في الاسلام . ففي الأخبار أن رواة الشعر ، كانوا يجرون تغييراً في نصوص الشعر ، لتحسين الشعر وتخليصه ، فقد رووا أن (الأصمعي) رفع لفظة (زنديه) من هذا البيت المشوب الى (امرئ القيس) :

رب رام من بني ثعلبة
خرج زنديه من ستره

فجعل له كفيه^٢ ، ورووا اجراء اصلاحات أخرى ، أدخلها علماء اللغة على شعر امرئ القيس وغيره ، اقتضتها قواعد الاعراب أو البلاغة والبيان^٣ .

١ الزهر (٢٦١/١) ، (النوع السادس عشر) .

٢ الموشح (٢٢) .

٣ الموشح (٢٢ ، ٢٨ ، ٨٥ ، ٩٥) ، مجالس ثعلب (٤٨١) .

ونجد في (رسالة الغفران) ملاحظة طريقة عن التغيير الذي كان يجريه (المعلمون) في نصوص الشعر ، فقد تصور ان (امرئ القيس) قد سئل عن كيفية وجود (الزحاف) في شعره ، ثم أجاب على لسانه بقوله : « فيقول امرؤ القيس : أما أنا فما قلت في الجاهلية إلا بزحاف :

لك منهم صالح

وأما المعلمون في الاسلام ، فغيّروه على حسب ما يريدون ^١ .

وورد ان رواة الشعر كانوا ينتقون حتى في شعر الشعراء الاسلاميين ، وحثتهم في ذلك ان « الرواة قديماً تصلح من أشعار القلماء » ^٢ . وقد يقوم بذلك رواة الشاعر نفسه . ورد ان رواة الفرزدق كانوا « يعدلون ما انحرف من شعره » ، وأن رواة جرير ، فعلوا مثل فعلهم في إصلاح شعر صاحبهم ^٣ .

والتصحيح المذكور، وان كان جزئياً ، تناول ألفاظاً في الأكثر، لكنه في الواقع تحريف وتزييف ، وتغيير للنصوص وتبديل لها ، حرماناً من الوقوف على قواعد اللهجات العربية عند الجاهليين ، بسبب ان المعدلين المصححين ، لم يشيروا في كثير من الأحيان الى المواضع التي غيروها وأجروا التصحيح فيها ، ولو فعلوا ذلك ، لكان الأمر علينا سهلاً هيناً ، إذ يكون في وسعنا إرجاع الأمور الى نصابها والوقوف على النصوص، وإن كان عملهم هذا هو عمل مخالف للذمة والحق، حتى في هذه الحالة ، لأن من قواعد الأمانة وجوب المحافظة على الأصل .

وعندي أن اللغة التي نظم بها الشعر الجاهلي هي لغة الأعراب ، وهي أصل اللغة العربية ، ولغة أهل البوادي والقرى التي غلبت البادية بالسكان . ولهذا قال (الجاحظ) : « ومن تمام آلة الشعر أن يكون الشاعر أعرباً » ^٤ ، دلالة على ما للبادية والبدواء من صلة به . ولهذا أيضاً جعل العلماء مقياس الشعر أن يكون عربياً بألفاظ نجدية ، أي أعربية خالصة ، وهذه العربية كانت تمتد فتشمل لغة أعراب بادية الشام ، بما في ذلك قرى الفرات العربية ، التي جاء سكانها العرب

١ رسالة الغفران (٣١٨) .

٢ الموشح (١٢٥) .

٣ الاغانى (٢٥٨/٤) .

٤ البيان والتبيين (٩٤/١) .

من البادية . ولهذا أيضاً حفلوا بالشعر الصلب الصلد ، المنظوم بالفاظ بدوية صميحة تمثل الغلظة والشدة والمتانة ، ولم يحبلوا الى شعر شعراء أهل القرى ، لأنه شعر سهل سلس ، خال من صلابة البوادي ومن غلظة الشعر الأعرابي .

وشعراء الجاهلية بعد ، إما شعراء ظهرُوا بين أهل الوبر ، فهم شعراء أعراب يمثل شعرهم نَفَسُ البادية : وطبيعة البداوة وعقليتها ، وإما شعر أهل مدر ، وهم الحضر ، المستقرون ، وسكان القرى . ولشعر شعرائهم طابع خاص يمثل الطبيعة الحضرية حسب درجاتها ومراتبها واختلاط أهلها بالأعاجم ، أو انزغالهم في مستوطنات حضرية ظهرت في البادية . فمن سافر من شعرائهم واختلط بالأعاجم ، وشاهد بلاد الشام والعراق ، تأثر بما شاهده ، فبان ذلك الأثر في شعره ، كما يظهر ذلك في شعر الأعشى ، وعدي بن زيد العبادي ، وأمّية بن أبي الصلت .

وطبيعي أن يكون بين الشعراء تنافس وتحاسد وتقديم وتأخير وتفضيل . وفي كتب الأدب أمثلة على منافرات ومناظرات جرت بين شعراء ، لبيان رأيهم في شعر شعراء آخرين . وطبيعي أيضاً أن يكون بين شعراء الجاهلية كالذي وقع في كل زمان ومكان ، شعراء فحول ، وشعراء دونهم في المنزلة والدرجة وفي القدرة في الشعر .

وذكر أن شعراء الجاهلية كانوا يتفاخرون بعضهم على بعض ، ويتعارضون في قول الشعر ، وبما الطون . والمالطة : أن يقول رجل نصف بيت ليتمه الآخر ، ويقال لذلك التمليط ، وأن يتساجل الشاعران فيصنع هذا قسيماً وهذا قسيماً ، لينظر أيهما ينقطع قبل صاحبه^١ ، وهو نوع من التفاخر والتنافر والتعجيز وإظهار النفس بالتغلب على المنافس .

وللشعراء بعد منازل في قول الشعر ، فمنهم الشاعر الفحل ، الذي لا يبارى ، ذكر أنهم كانوا لا يسمون الشاعر فحلاً ، إلا إذا كانت له حكمة . ومنهم الشاعر الخنيزد . والخنيزد : الفحل ، والشاعر المجيد المفلح ، وتطلق اللفظة أيضاً على الخطيب البليغ المقوه المصقع وعلى العالم بأيام العرب وأشعارهم^٢ . وقيل :

١ العمدة (٢٠٢/١) ، (٩١/٢) ، « مالط فلان فلانا اذا قال هذا نصف بيت واتمه الآخر بيتاً » . يقال ملط له تمليطاً ، ، اللسان (٤٠٩/٧) ، (ملط) .
٢ تاج العروس (٥٦١/٨) ، (الخنيزد) ، المزهر (٤٨٩/٢) .

الشاعر الخنذيد ، هو الذي يجمع الى جودة شعره رواية الجيد من شعر غنره .
والملق ، هو الذي لا رواية له ، إلا أنه مجود كالخنذيد في شعره ، وقيل :
هو الذي يأتي في شعره بالقلق ، وهو العجب . ثم يليه الشاعر فقط ، وعرفوا
الشاعر ، أنه الذي لم ينعته علماء الشعر بنعت من هذه النعوت ومن كان فوق
الردية بدرجة . وأما الشعور ، فهو لا شيء ، والشويعر ، هو من كان دون
الشاعر في الشعر^١ . ويذكرون أن الشعراء أربعة . ذكروا في شعر ، ينسبه بعضهم
الى الخطيئة ، هو :

الشعراء فاعلمن أربعة فشاعر لا يرتجى لمنفعه
وشاعر يتشد وسط المعصية وشاعر آخر لا يجرى معه
وشاعر يقال خمر في دعه

وقالوا : رابع الشعراء ، لإزدراء وتحقيراً :

يا رابع الشعراء كيف هجوتني وزعمت أنني مفحم لا أنطق^٢

وقسم بعض العلماء الشعراء : ثلاث طبقات : شاعر ، وشويعر ، وشعور^٣ .
وروا : أن امرأ القيس بن حجر أطلق لفظة (الشويعر) على (محمد بن
حمران بن أبي حمران) ، وهو ممن سُمي محمداً في الجاهلية ، وهو شاعر قديم ،
فقال فيه :

أبلغنا عني الشويعر أنني عمد عين نكبتهن حزيماً

فسمي بهذا البيت الشويعر^٤ .

قال (الملاحظ) : « والشعراء عندهم أربع طبقات . فأولهم : الفحل الخنذيد .
والخنذيد هو التام . قال الأصمعي : قال رؤبة : الفحولة هم الرواة . ودون الفحل

-
- ١ العمدة (١١٤/١) وما بعدها .
 - ٢ العمدة (١١٤/١) وما بعدها ، البيان والتبيين (٩/٢) ، المزهري (٤٩٠/٢) وما بعدها .
 - ٣ البيان والتبيين (١٠/٢) ، الخزائن (١٣٠/١) .
 - ٤ البيان والتبيين (١٠/٢) الآمدي ، المؤلف (١٤١) ، السيوطي ، شرح شواهد (٢٦/١) .

الحنليذ الشاعر المفلت ، ودون ذلك الشاعر فقط ، والرابع الشعور . ولذلك قال الأول في هجاء بعض الشعراء :

يا رابع الشعراء كيف هجوتني وزعمتَ أني مفحم لا أنطق

فجعله مكيناً مخلفاً ومسبوقاً مؤخرأ .

وسمعت بعض العلماء يقول : طبقات الشعراء ثلاث : شاعر ، وشويعر ، وشعور . قال : والشويعر مثل محمد بن حُمران بن أبي حمران ، سمّاه بذلك امرؤ القيس بن حجر^١ .

ويظهر من القول المنسوب الى (رؤية) ، ان الشعراء الرواة ، كانوا في نظره أرفع مترلة من بقية الشعراء ، ولعل ذلك بسبب طول حفظهم للشعر ، مما أكسبهم علماً وخبرة ومراًناً به ، فصارت صياغتهم له أعلى من صياغة الشعراء الذين لم يكونوا يحفظون شعر غيرهم من الشعراء ، ولم يكن لهم علم بأساليب غيرهم من الشعراء . فبسبب الحفظ ، طوّعوا الشعر والكلم وركبوا ظهوره بكل سهولة، حتى صار طوع ألبسهم .

والتقسيم المذكور هو تقسيم اسلامي ، كما ان تقسيمهم الشعراء الى سبع طبقات هو تقسيم اسلامي كذلك . فقد قسموهم الى أصحاب المعلقات ، وأصحاب المجمعرات ، وأصحاب المنتقيات ، وأصحاب المذهبات ، وأصحاب المراثي ، وأصحاب المشويات ، وأصحاب الملحّات^٢ .

عدد الشعراء :

وقد أحصى بعض الباحثين المحدثين عدد أسماء الشعراء الجاهليين الذين ذكروا في كتب الأدب ، فبلغ عدد ما أحصوه (١٢٥) شاعراً^٣ . وهناك أسماء جاهليين استشهد الرواة ببيت أو بآيات من شعرهم في كتب الأدب واللغة ، لو أحصوا

١ البيان والتبيين (٩/٢ وما بعدها) .

٢ زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (٧٩/١ وما بعدها) .

٣ زيدان ، (٧٧/١) تاريخ آداب اللغة العربية (٧٥/١) .

واعتبرناهم من ضمن الشعراء ، لاضطررنا إلى تغيير هذا الرقم ، بإضافة هؤلاء عليهم . ومع ذلك ، فإننا لا نستطيع القول بأن هذا الرقم هو رقم نهائي ومضبوط لشعراء الجاهلية ، فالمنطق يحملنا على تصور وجود عدد آخر من الشعراء فات خبرهم عن رواة الشعر ، لأسباب عديدة ، منها قدم أولئك الشعراء ، بحيث لم تتمكن ذاكرة حفظة الشعر من استيعابهم ، ثم بُعد بعضهم عن الأرضين التي حصر علماء الشعر فيها نشاط بحثهم عن الشعر الجاهلي وعن شعرائه ، ثم كون قسم منهم من الشعراء المحيطين ، أو الشعراء المقلين الذين لم ينتشر شعرهم بين الناس .

وقد فطن الى ذلك القدماء ، فقال (أبو عمرو بن العلاء) : « ما انتهى اليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير »^١ ، وذكر غيره ان العلماء على حرصهم على العناية بجمع شعر الشعراء ، لم يتمكنوا مع ذلك من جمع أشعار قبيلة واحدة ، فكيف بشعر كل القبائل^٢ ! والواقع ان في العرب قابلية على قول الشعر ، وبين الصحابة عدد كبير نظموا شعراً روي في الكتب، ومع ذلك ، فلم يعدّهم العلماء في جملة الشعراء ، وكذلك الحال بالنسبة الى أهل الجاهلية ، فقد كان بينهم عدد كبير ينظم الشعر .

انشاد الشعر :

وللشعراء طريقة خاصة في انشاد الشعر . يذكرون ان الشاعر منهم كان اذا أراد إلقاء شعر ، تهيأ لذلك واستعد له ، وأظهر للناس انه يريد إلقاء شعر. ومن أصولهم في الإلقاء أن ينشد الشاعر شعره وهو قائم^٣ . وأن يلبس الرشي والمقطعات والأردية السود وكل ثوب مشهر^٤ .

وذكر أن من عادة الشعراء في الهجاء ، أن أحدهم كان إذا أراد الهجاء

١ المزهري (٤٧٤/٢) ، ابن سلام ، طبقات (٢٣) .

٢ الشعر والشعراء (٨/١) وما بعدها) .

٣ العملة (٢٦/١) .

٤ البيان والتبيين (٦٠) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر) ، (بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ١٩٥٩ م) ، البيان والتبيين (١١٥/٣) ، (هارون) .

« دهن أحد شقي رأسه ، وأرخی إزاره ، وانتعل نعلًا واحدًا »^١ . وقد ذكر (المرتضى) ، في خبر وفود العامرين على النعمان بن المنذر ، وكان فيهم (ليد ابن ربيعة) ، وهو يومئذ غلام له ذؤابة ، وكان القيسيون قد صدوا وجه النعمان عنهم ، فأرادوا تقديم (ليد) لبرجز بالربيع بن زياد رجزاً مؤلماً ممضاً ، وكان هو الذي صرف الملك بالطعن فيهم وذكر معايبهم ، فحلّقوا رأسه وتركوا له ذؤابتين وألبسوه حلة وغدوا به معهم ، فدخلوا على النعمان . فقام وقد دهن أحد شقي رأسه وأرخی إزاره وانتعل نعلًا واحدًا على فعل شعراء الجاهلية إذا أرادت الهجاء ، ثم أنشد رجزه الذي أثر في النعمان ، حتى صار سبيًا في ابعاد (الربيع ابن زياد) عنه^٢ .

وإذا أراد شاعر انشاد شعر، وقف وأنشد شعره ، بأسلوبه الخاص في الإنشاد^٣ . وقد يترنمون في انشادهم ليكون الإلقاء أوقع أثرًا في نفوس السامعين . وقد يلقي راوية الشاعر شعر شاعره إذا كان أقدر منه على الإنشاد . وذكر أن (النشيد) هو الشعر المتناشد بين القوم ينشد بعضهم بعضاً ، ومنه نشد الشعر وأنشده ، إذا رفعه . وأنشد بهم ، هجأهم . « وفي الخبر أن السليطين قالوا لغسان : هذا جرير ينشد بنا ، أي يهجوننا »^٤ . ولا يخلو الانشاد من الترنم على اللحن الذي يتسمح به الطبع ، ومن مدّ الصوت ، ليكون للشعر وقع على نفوس سامعيه ، وتأثير جميل على المتصّتين له .

وذكر ان الشعراء كانوا لا ينشدون إلا قياماً ، وقد يعلو أحدهم موضعاً مشرفاً ، أو يركب ناقته ، ليدل على نفسه ، ويعلم انه المتكلم دون غيره، وكذلك كان يفعل الخطيب^٥ . وقد استدلل بعض المستشرقين من هذا الوصف على أن الشعراء انما أخذوا تقليدهم هذا من السحرة : الشعراء الأوائل ومن الكهنة ، لأن السحرة والكهنة كانوا ينظمون الشعر وينشدونه على هيئة خاصة، يلبسون فيها أردية خاصة ويقفون في وضع خاص حين إنشاد الشعر .

١ أمالي المرتضى (١٩١/١) .

٢ أمالي المرتضى (١٩١/١) ، الرافعي ، تاريخ آداب العرب (٢٣/٣) .

٣ العمدة (٢٦/١) .

٤ اللسان (٤٢٢/٣) وما بعدها ، (نشد) .

٥ العمدة (٢٦/١) .

وذكر ان الملوك كانوا يجلسون خلف الستور حين يستمعون الى شاعر . فروي ان (عمرو بن هند) كان يسمع الشعراء من وراء سبعة ستور^١ . وان الشاعر (الحارث بن حلزة) يشكري لما طلب قومه منه انشاد قصيدته أمام (عمرو بن هند) ، قال لهم : « والله اني لأكره أن آتي الملك فيكلمني من وراء سبعة ستور ، وينضح أثري بالماء ، اذا انصرفت عنه ، وذلك لبرص كان به » . فلما سمع قصيدته أمر برفع الستور سترأ سترأ ، حتى صار مع الملك في مجلسه ، وأمر أن لا ينضح أثره بالماء .. « وأمره أن لا ينشد قصيدته إلا متوضأ »^٢ .

ولكن العادة أن الشاعر يقف أمام الملك ، الذي قد يكون جالساً على سرير ، فينشده شعره بعد أن يكون قد استأذنته بذلك . وقد يكون في المجلس جملة شعراء ، أذن لهم بالدخول عليه جملة واحدة ، لينشدوا الملك شعرهم وما جاءوا به من شعر في مدحهم . ويكون المجلس عامراً بأهل الخطوة من المقربين الى الملك ومن الشعراء الملازمين له . وكانت مجالس ملوك الحيرة ، عامرة بهذه المناسبات ، أكثر بكثير من مجالس الفساسة ، لغلبة النزعة الأعرابية على ملوك الحيرة وقلة تأثيرهم بالحضارة ، وتغلب الحياة الحضرية على الفساسة وتأثيرهم بالحياة اليومية لأهل الشام ، وبتزعة الروم في الحكم وفي آداب السلوك ، حتى أنهم كانوا يتلذذون في الاستماع الى غنائهم ، ولم يمان في قصورهم ويوتنهم يغنين لهم بغناء الروم .

وكان من عادة الأعراب الطواف حول قبة الملك مع رفع الصوت بالرجز ، لسمع الملك صوت الراجز ، فإذا عرفه أو أعجبه رجزه ، اذن له بالدخول . وكان الملوك يضربون قبة على أبوابهم ، يقعد فيها الناس حتى يؤذن لهم^٣ وقد يكون هذا الرجز مقدمة لدخول الشاعر على الملك حتى يلقي عليه ما يكون نظمه في مدحه وفي مدح آله من شعر .

وكان من عادة الملوك وسادات القوم والأشراف انهم اذا سمعوا الشاعر ، واستحسنوا شعره ، طربوا حتى يظهر الطرب عليهم وأظهروا استجادتهم لشعره ، وربما شربوا اذا كانوا في مجلس الشرب ، وأدثوا الشاعر اليهم ، وأسقوه من

١ شرح المعلقات ، للزوزني (١٥٤) . (صادر)
٢ شرح القصائد العشر ، للتبريزي (ص ٣٧٩ وما بعدها) ، (معلقة عمرو بن كلثوم التقيي)
٣ الخزائن (١٥٨/٤) ، (بولاق) ، (الشاهد الثامن والثمانون بعد السبعمائة) .

شراهم حتى يطرب : وقد يطلبون من الشاعر إعادة إنشاد الأبيات المستجادة . وكان الشاعر يستأذن صاحب المجلس أولاً ليسمح له بإنشاده شعره . ولما استأذن (النابغة) الجعدي رسول الله ، أن ينشده شعره ، قال له الرسول : أجدت لا يفضض الله فاك ، أي لا يكسر أسنانك ، والفم هنا الأسنان^١ . ولا زال الناس يرددون هذه العبارة وعبارة : أعده أحسنت وأجدت ، أو أعد أعد ، يقولونها بحماس وبصوت مرتفع ارتفاعاً يتناسب مع حسن الاستحسان اذا قال الشاعر قولاً يستجيده العارفون بالشعر .

سوق عكاظ :

ومن مرويّات أهل الأخبار ، ان الشعراء الجاهليين كانوا يفلدون الى عكاظ ، « فينعاكظون ، أي يتفاخرون ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ، ثم ينفرقون »^٢ . وذكر ان (النابغة) الليثاني ، كان ممن يأتيها ، فتضرب له قبة حمراء من آدم ، وتأنيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها ، وكان ممن تحاكم اليه ، الأعشى ، أبو بصير ، فأنشده ، ثم أنشده (حسان بن ثابت) ، ثم الشعراء ، ثم جاءت (الخنساء) فأنشدته ، فقال لها (النابغة) : والله لولا أن أبا بصير أنشدني آنفاً لقلت انك أشعر الجن والإنس . فقال حسان : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ومن جدك . فقبض النابغة على يده ، ثم قال : يا ابن أخي ، انك لا تحسن أن تقول مثل قولي :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المتأى عنك واسع

ثم قال للخنساء : أنشديه ، فأنشدته ، فقال : والله ما رأيت ذات مائة أشعر منك ، فقالت له الخنساء : والله ولا ذا خصيف^٣ .

-
- ١ تاج العروس (٦٩/٥) ، (فض) .
 - ٢ تاج العروس (٢٥٤/٥) ، (عكظ) ، معجم البلدان (٢٠٣/٦) ، البلدان (٧٠٤/٣) ، اللسان (٤٤٧/٧) ، (عكظ) .
 - ٣ الشعر والشعراء (٢٦١/١) ، الاغاني (١٩٤/٨) ، السيوطي ، شرح شواهد (٢٥٦/١ وما بعدها) ، تاج العروس (٢٥٥/٥) .

وروي أن (حسان) كان قد أنشده شعره :

لنا الجفنات الفُرْ يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابني محرق فأكرم بنا خالاً واكرم بنا ابناً

فقال له (النابغة) : أنت شاعر ، ولكنك أقللت جفنتك وسيوفك، وفخرت
بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك^١ .

وهو خبر مصنوع ، شك فيه العلماء ، قال أبو علي : هذا خبر مجهول
لا أصل له^٢ . وقد روي عن الآمدي قوله : « أجمعت العرب على فضل
النابغة الذبياني ، وسألته أن يضرب قبة بعكاظ ، فيقضي بين الناس في أشعارهم
لبصره بمعاني الشعر ، فضرب القبة وأنته وفود الشعراء من كل أوب^٣ . ثم
ذكر القصة ، وروي أن الذي فتّد حساناً وعاب عليه بيته ، هو الخنساء^٤ .
والقصة مطعون فيها . « حكى ابن جني عن أبي علي الفارسي ، أنه طعن في
صحة هذه الحكاية^٥ . فالقصة موضوعة، وما هذا القصص المروي عن (عكاظ)،
إلا من روايات أهل الأخبار ، وضعوه مع قصصهم الموضوع عن اختيار قريش
للغة ، وتخبرها أحسن الألفاظ ، وتحكيهما في الشعر .

وذكر أن (عمرو بن كلثوم) كان ممن حضر سوق عكاظ ، وقد أنشد
فيها قصيدته الشهيرة :

ألا هي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خور الأندرينا

وهي معلفته الشهيرة ، وهي قصيدة طويلة ، ذهب الكثير منها ، قيل إنها
كانت تزيد على ألف بيت . وقد ذكر أن الرسول سمع الشاعر ينشد قصيدته هذه
بسوق عكاظ^٥ .

-
- ١ العسكري ، المصون (٣ وما بعدها) ، خزانة الادب (٤٣٠/٣ وما بعدها) ، ديوان
حسان (٣٧١ وما بعدها) ، الاغانى (١٨٠/٧) .
 - ٢ خزانة الادب (٤٣١/٣) .
 - ٣ السيوطي ، شرح شواهد (٢٥٦/١ وما بعدها) .
 - ٤ السيوطي ، شرح شواهد (٢٥٧/١) .
 - ٥ الاغانى (٥٤/١١) ، زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١٢٢/١) .

ولم نسمع ان أحداً من الشعراء حكم في الشعر في سوق عكاظ قبل (النابغة) ولا بعده . وسوق عكاظ سوق لم تقم إلا قبيل الاسلام ، ولعل هذا التحكيم من القصص الذي أوجده أهل الأخبار ، وقد يكون (النابغة) قد نظر حقاً في شعر (حسان) ، ولكن ذلك لا يمكن أن يعد حكومة دائمة لسوق عكاظ ، اختصاصها النظر والتحكيم في شعر الشعراء الجاهليين ، وإذا كان (النابغة) حاكم سوق عكاظ حقاً ، فلم لم نسمع بأحكام أخرى له في حق شعر شعراء آخرين ، ما دام كان يحضرها في كل عام ، وتضرب له قبة من آدم ، يجعلها مقراً له ولحكومته ، ولئن يحضر اليه من الشعراء رجاء النظر في شعره .

وذكر ان القبائل كانت تفتد الى (عكاظ) وتبحث عن مختلف الأشياء وتتداول أشياء قيحة أو محمودة ، وان الرسول حضرها ، لل دعوة الى الاسلام .

ولم نسمع بأن الشعراء كانوا يتوافدون الى مكة موسم الحج ، لإنشاد شعرهم ، على نحو ما ذكر عن سوق عكاظ ، مع أن موسم الحج من المواسم المعهودة بالنسبة الى قريش والى من كان يعيش حولها من قبائل ، وشرف إلقاء الشعر في موسم الحج أسمى ولا شك من شرف إلقائه بسوق عكاظ وفي الأسواق الأخرى ، فلو كان الشعراء كما زعم أهل الأخبار يقيمون وزناً كبيراً لحكم قريش في أشعارهم ، فلم لا نجد في أخبارهم خبراً يشير الى تجمع الشعراء في مكة للتباري في انشاد الشعر وفي الحصول على شرف التقدير والتقييم من قريش ، ليتباهى الفائز بالتقدير على سائر أقرانه الشعراء ؟ ثم لم لم نسمع بأسماء القصائد التي نالت منهم شرف التقدير والتعظيم ، خلا المعلقات السبع ، التي شك في صحة تعليقها حتى المحافظين من أمثال المرحوم (الرافعي) !

يُرب :

وإذا كانت سوق عكاظ موضع تحكيم على النحو الذي رأيناه ، وإذا كانت مكة ، قد نظرت في شعر شاعر ، أو شاعرين ، فقد كانت يرب موضع تقدير

١ التاريخ الكبير (٢٢٣/١) ، البداية والنهاية (١٤١/٣) ، معجم البلدان (٧٠٤/٣) ، الاغانى (٦/١١) ، المرزوقي ، شرح ديوان الحماسة (١٥١٤/٣) وما بعدها ، (القاهرة ١٩٥٢) .

وتقييم للشعر كذلك . فقد ذكر أهل الأخبار ان « النابغة قدم المدينة ، فدخل السوق ، فترل عن راحته ، ثم جثا على ركبتيه ، ثم اعتمد على عصاه ثم أنشأ يقول :

عرفت منازلًا بعريّتنا فأعلى الجزع للحمي المبين

حتى اذا انتهى من شعره ، قال ألا رجل ينشد ؟ فتقدم (قيس بن الخطيم) فجلس بين يديه وأنشده قصيدته التي مطلعها : « أتعرف رسماً كاطراد المذهب » حتى فرغ منها ، ثم استمع الى شعر حسان . وذكر انه قال لكل واحد منها : « أنت أشعر الناس »^١ .

وروي ان (النبي) وضع لحسان منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يهجو الذين كانوا يهجون النبي^٢ ، وذلك لما كان للشعر من أثر في نفوس الناس آنذاك . وقد تخصص أناس بإنشاد الشعر ، كانوا رواة شعر ، ينشدون شعر غيرهم أو شعرهم بأسلوب مؤثر ، ذكر ان منشداً أنشد يوماً رسول الله :

لا تأمن وإن أمستَ في حرم حتى تلاقي ما يعني لك الماني
فالحبر والشر مقرونان في قرن بكل ذلك يأتيك الجديدان^٣

تطواف الشعراء :

وكان الشعراء يتنقلون من مكان الى مكان ، فكان (الأسود بن يعفر) ، « يكثر التنقل في العرب يجاورهم ، فيلم ويحمد »^٤ ، وجاب (الأعشى) معظم أنحاء جزيرة العرب والعراق وبلاد الشام ، وكان النابغة يتنقل ، فيزور ملوك الحيرة والغساسنة ، ويسافر الى مكة وسوق عكاظ ، وكان (عمرو بن كلثوم^٥) من المتنقلة كذلك ، وقد علمت أمر (امرئ القيس) وتنقله بين القبائل ، وأمر

١ الاغانى (١٠/٣) ، (دار الثقافة) .

٢ الاصابة (٣٢٥/١) ، (رقم ١٧٠٤) .

٣ الفائق (٥٢/٣) .

٤ ابن سلام ، طبقات (٣٣) .

(الصعاليك) ، الذين كانوا يتنقلون من مكان الى مكان للحصول على رزقهم ، وأمر (حسان) وقصده ملوك الغساسنة ووصلوه الى الحيرة ، بل اننا لا نكاد ندرس حياة شاعر جاهلي ، حتى نراه جواباً ، متنقلاً من مكان الى مكان ، حتى صار التنقل من سبياء الشاعر عند الجاهليين ، وكان هدفهم في الدرجة الأولى ملوك الحيرة ثم ملوك الغساسنة ، أما ملوك اليمن ، فقلما نجد في أخبار الشعراء وصولهم اليهم وإنشادهم شعرهم أمامهم ، وذلك بسبب أن لسانهم كان لا يشاكل لسان الشعراء ، وأما ما نسب اليهم من شعر ، وما قيل من مدح بعض الشعراء لهم ، فهو من القصص الذي لا يرجع الى أصل ، إلا ما ذكر من شعر في مدح بعض أدواء اليمن ، فإن هؤلاء لم يكونوا ملوكاً ، وإنما كانوا سادة مواضع وقبائل تقع شمال اليمن في الغالب ، وقد كانت على صلة بالعرب الشماليين ، وبلغة (ال) في ذلك الحين ، ومع ذلك فإن صلتهم بهم لم تكن على نمط صلة الشعراء بسادة العرب الشماليين .

كان الشاعر يتنقل بين القبائل ، فيترى على ساداتها ويحل في ضيافتهم ، يقصد ملوك الحيرة خاصة ، لما كان لهم من نفوذ في جزيرة العرب ، ولينال عطاياهم ، أو ليتوسط في حل ما بين الملوك وما بين قبيلة الشاعر ، أو قبائل أخرى من أمور معقدة ومشكلات مستعصية ، كما كان يزور الريف والقرى للميرة ولليل هبات ساداتها من تمر أو دقيق أو أي شيء آخر يكون عند الحضر . فيمدح ويلزم ، وينشد شعره في أسواق القرى وفي نواديها ومجتمعاتها ، فكان سوق (يثرب) ، وهو المحل الذي يتجمع فيه الناس للبيع والشراء الموضع الذي يقصده الشاعر لإنشاد شعره به ، ثم حل مسجد الرسول محله في الاسلام .

وقد ورد في الشعر الجاهلي ذكر بعض المواضع التي نزل بها الشاعر ، أو التي ارتحل اليها ليزورها ، وقد طمست أسماء بعض منها ، وبقيت أسماء بعض آخر . وقد أمدتنا هذه الأسماء بمادة طيبة ، أفادتنا في الحصول على معارف تاريخية وجغرافية عنها . ففي شعر (الأعشى) ، وهو من الشعراء المتنقلة الذين أكثروا من الأسفار ، وتنقلوا من مكان الى مكان ، نجد أسماء أماكن عديدة وردت في شعره ، مثل (عانة) ، و (بابل) ، و (الحيرة) ، ومواضع في اليمامة وفي اليمن . وتطرق في شعره هذا الى أحوال من مر بهم ، وذكر أسماءهم وأسماء قبائلهم ، فصار شعره لذلك مورداً هاماً بالنسبة لنا ، أفادنا في الوقوف على

نواح مهمة من التاريخ الجاهلي .

رحل (الأعشى) الى القساسة ملوك عرب الشام ، والى المناذرة ملوك عرب العراق ، والى (قيس بن معديكرب) ، والى (ذي فاش) في اليمن ، والى (بني الحارث بن كعب) في نجران ، فلدحهم ونال عطاءهم ، وأقام عندهم يسقونه الخمر ويسمعونه الغناء الرومي^١ ، مما يدل - إن صح هذا الخبر - على تأثير سادة نجران بالثقافة الرومية ، التي ربما أدخلوها عن طريق ارتباطهم بالروم بروابط النصرانية ، وعلى وجود جالية من الروم في نجران أو رجال دين من الروم ، عينتهم الكنيسة لتعليم الناس أمور الدين ، فقد كان الروم يرسلون رجال دينهم الى هذه المواضع والى غيرها للتبشير ، ولأغراض سياسية في الوقت نفسه . ونجد في شعر (الصعاليك) أسماء المواضع التي غزوها ، والطرق التي سلكوها في طريقهم الى الغارات ، أو في طرق عودتهم منها الى ديارهم ، ونظراً الى كثرة تنقلهم وخبرتهم بالمواضع ، وبأبعادها وبأصحابها ، لما في هذه الخبرة من العلاقة بنجاح سوقهم وتجارتهم ، أفادتنا إشارتهم الى المواضع والقبائل فائدة كبيرة إذ حصلنا بواسطتها على معارف عن أحوال أهل الجاهلية ، ساعدتنا في سد بعض الثلم الكثيرة من ثلم بنيان التاريخ الجاهلي .

طبائع الشعراء :

والشعراء في الطبع مختلفون ، منهم من يسهل عليه المديح ويسر عليه الهجاء ، ومنهم من تيسر له المراثي ويتعذر عليه الغزل ، ومنهم من يحسن الوصف ، فإذا صار الى المديح والهجاء ، أو الى الحكم والموعظة ، خانه الطبع ، وتأخر عن غيره من الفحول^٢ . ومن هنا لم يبرز فحول الجاهلية ، ومن عدّ في الطبقة العليا من طبقات الشعراء في كل درب من دروب الشعر وطرقه وفنونه . بل ظهوروا وبرزوا في أمور ، وتأخروا أو لم يبرزوا في أمور أخرى ، فذكروا مثلاً^٣ ان (النابغة) الجعدي ، كان أوصف الناس لفرس^٣ . وورد عن (ابن الأعرابي) قوله :

١ الاغاني (٣٠/٦) .

٢ الشعر والشعراء (٣٧/١) ، (الثقافة) .

٣ ابن سلام ، طبقات (٢٧) .

« لم يصف أحد قط الخليل إلا احتاج الى أبي دواد ، ولا وصف الحُر إلا احتاج الى أوس بن حجر ، ولا وصف أحد النعامة إلا احتاج الى علقمة بن عبدة ، ولا اعتذر أحد في شعره إلا احتاج الى النابتة الدياني^١ .

وقد قال من قدّم (امرأ القيس) على غيره من الشعراء ، انه « سبق العرب الى أشياء ابتدعها استحسنتها العرب واتبعته فيها الشعراء ، منه استيقاف صحبه والبكاء في الديار ، ورقة النسب ، وقرب المأخذ ، وشبه النساء بالطباء والبيض والخليل والعقبان والعصي ، وقيد الأوابد ، وأجاد في التشبيه ، وفصل بين النسب وبين المعنى ، وكان أحسن طبقته تشبيهاً^٢ . فهذه هي المزايا التي ميزت شعره عن شعر غيره من الجاهليين .

وقال علماء الشعر الذين قدّموا النابتة على غيره ، انه كان أحسنهم ديباجة شعر ، وأكثرهم رونق كلام ، وأجزلم بيتاً ، كأن شعره كلام ليس فيه تكلف^٣ . وأما الذين قدّموا (زهيراً) على غيره ، فقالوا : « كان زهير أحكمهم شعراً وأبعدهم من سخف ، وأجمعهم لكثير من المعنى في قليل من المنطق ، وأشدّهم مبالغة في المدح^٤ .

وقلما نجد الشاعر الجاهلي يعنى بوصف الطبيعة أو مظاهرها بشعر خاص ، كأن يصف المطر وحده ، أو الشمس والكواكب والأجرام السماوية ، أو الجبال أو السهول أو الحيوانات أو النباتات ، وصفاً خاصاً لا يهرب منه الى أمور أخرى لا صلة لها بهذا الوصف ، ثم إنه قلما يتعمق في الوصف ، فيصف الأجزاء والفروع وكل ما في الموصوف من مميزات ، وهو إذا وصف الطبيعة ، أو تعرض لوصف مشهد بارز منها أثر عليه ، فإنه لا يفرد ذلك الوصف في كلمة خاصة به لا يشاركه فيها مشارك بحيث يكون شعره وصفاً خاصاً بالطبيعة ، وإنما يقحم الوصف في القصيدة جرياً على العرف الشعري الذي سار عليه الشعراء ، وليس عن عمد وتقصد لوصف ما يراد وصفه بالذات . ثم هو لا يصف من الشيء الموصوف ككل ، وإنما يصف منه ما يلتفت نظره ، وما يؤثر على حسه وبصره . فهو إذا وقف

١ الاغانى (٩٣/١٥) .

٢ ابن سلام ، طبقات (١٦ وما بعدها) .

٣ ابن سلام ، طبقات (١٧) .

٤ ابن سلام ، طبقات (١٨) .

أمام شجرة لا ينظر إليها ككل ، إنما يستوقف نظره شيء خاص فيها ، كاستواء ساقها أو جمال أغصانها ، وإذا كان أمام بستان لا يحيطه بنظره ، ولا يلتقطه ذهنه كما تلتقطه (الفوتوغرافيا) ، إنما يكون كالنحلة يطير من زهرة الى زهرة فيرتشف من كل رشفة .

هذه الخاصة في العقل العربي هي السر الذي يكشف لك ما ترى في أدب العرب - حتى في العصور الإسلامية - من نقص ، وما ترى فيه من جمال .

فأما النقص فما تشعر به حين تقرأ قطعة أدبية - نظماً أو نثراً - من ضعف المنطق ، وعدم تسلسل الأفكار تسلسلاً دقيقاً ، وقلة ارتباطها ببعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ، حتى لو عمدت الى القصيدة - وخاصة في الشعر الجاهلي - فحذفت منها جملة أبيات أو قدّمت متأخراً أو أخرت متقدماً ، لم يلحظ القارئ أو السامع ذلك - وإن كان أديباً - ما لم يكن قد قرأها من قبل .

وهذا النوع من النظر هو الذي قصّر نفس الشاعر العربي ، فلم يستطع أن يأتي بالقصائد القصصية الواقية، ولا أن يضع الملاحم الطويلة كالإلياذة والأوديسا. أما ما أفادهم هذا النوع من التفكير ، وخلع على آدابهم جلالاً خاصاً، فذلك ان هذا النظر لما انحصر في شيء جزئي خاص جعلهم ينفلون الى باطنه ، فيأتون بالمعاني البديعة الدقيقة التي تتصل به ، كما جعلهم يتعاورون على الشيء الواحد ، فيأتون فيه بالمعاني المختلفة من وجوه مختلفة ، من غير إحاطة ولا شمول ، فامتلاً أدبهم بالحكم الفصار الرائعة والأمثال الحكيمة . وأتقنوا هذا النوع الى حد بعيد ، غنيّ به عقلهم ، وانطلقت به ألسنتهم ، حتى لينهض الخطيب فيأتي بخطبته كلها من هذه الأمثال الجيدة القصيرة ، والحكم الموجزة الممتعة ، فلكل جملة معان كثيرة تركزت في حبة ، أو بخار منتشر تجمع في قطرة . ولما جاء الاسلام تقدم هذا النوع من الأدب ، واقتبسوا كثيراً من حكم الفرس والهند والروم .^١ وأكثر الوصف الوارد في الشعر الجاهلي ، وصف لم يرد لأن الشاعر قصده وأراد ، وإنما هو وصف ورد عرضاً في القصيدة على النسق الذي زعموا أن (امرأ القيس) وضعه وحاكاه فيه غيره ممن عاصره أو جاء بعده من الشعراء .

١ فجر الاسلام (٤٢ وما بعدها) ، (الطبعة العاشرة ١٩٦٥) .

٢ فجر الاسلام (٤٣ وما بعدها) .

فالشاعر يبدأ بتذكر الديار وبالبكاء على الأحبة وعلى من فارقهم ، فيدفعه ذلك الى الوصف ، بأبيات يجعلها مقدمة لغرض آخر ، فهي إذن مقدمة ، وليست غاية ، ثم هو إذا افتخر وأراد الاشادة بنفسه وبما قام به من عمل بطولي، لم يصف نفسه وصفاً شاملاً عاماً ، وإنما يصف من نفسه بعض ما يعجبه وما يريد التبرجح به ، من مغامرات عجيبة قام بها ، ومن صبر وتحمل للجوع وللمشقات وللأهوال ومن عدم تيب من اقتحام الصحارى الموحشة المخوفة ، وحده ، لأنه لا يرهب أحداً ، ولا يخشى وحشاً ، فإذا جابهه وحش ، وصفه وصفاً ، لا يتعدى النواحي الخاصة التي يراها تظهر شخصيته وتبرز شجاعته ثم يبالغ ويبالغ في وصف المخاطر والمهالك التي لم يبال بها ، للوصول الى هدفه . وهو اذا اصطاد صيداً ، بالغ في الجهد الذي صرفه في صيده ، ونوه بمجودة حصانه ، وبالطريقة التي صاد بها فريسته .

وهو اذا ما أراد مدح انسان ، قدم لمدحه مقدمة تزيد على شعر المدح في الغالب ، يذكر فيها الأهوال والمخاطر وحرّ الشوق ، والتلف الشديد وما شاكل ذلك من أمور ، لتكون شرح حال له يبين مبلغ حبه له واخلاصه لمن سيمدحه، ذي الجود والكرم والسخاء ، الذي يجود بماله وبما عنده ، ولا يحسب لنفسه ولأهله حساباً ، يجود خاصة في السنة الجهاد ، وفي مواسم القحط والبرد الشديد حيث تموت الماشية والأنعام ، ومع ذلك فإن المدح ، لا يعاب بكل ذلك ، ويسخر من الخوف من العواقب السيئة التي مستحق به إن يذر ماله . وقد يبالغ الشاعر نفسه في مدح نفسه ، ويشيد بسخائه وجوده ، ويتخذ من ذلك قصص شجار يقع بينه وبين زوجه في الغالب ، يشاركها ولدها فيه ، بسبب تبذير الرجل لما عنده من مال ، وعدم اهتمامه بما سيحقيق بأهله من جوع وقفر .

وهو اذا تغزل ، فوصف محبوبته ، فإنما يصف منها ما يلفت نظره ، من أجزاء في الجسد ، أو لون أو ما شاكل ذلك مما يلفت نظره ، وقد يقارن بينها وبين بعض الحيوانات التي تعجبه مثل المها والظباء ، والخيل والعقبان ، وقد زعم

١ غرونباوم (١٦٠ وما بعدها) ،

G. E. Von Grunebaum, Die Wirklichkeit der Früh-arabischen Dichtung,

Wien, 1937, S. 148. f.

أهل الأخبار ان (امرأ القيس) كان قد سبق العرب الى أشياء ابتدعها استحسنتها العرب واتبعه فيها الشعراء ، منها انه شبه النساء بالأمور المذكورة ، فصار تشبيهه هذا لمن سنة لمن جاء بعده من قالة الشعراء^١. وقد يصف الليل وشدة طوله وسهره فيه ومبلغ ما ألم به من أرق لفراق محبوبته ، أو من شدة تذكره لها ، وقد يذكر حزنه على فراقها وكيف انه كان يقضي لياليه ساهراً يناجي نجوم السماء ، ويعبدها ، ينتظر ذهاب كابوس ليله عنه حتى يترأى له نور الصباح ، وفيه الأمل والرجاء. ووصفه كله ، ليس وصفاً كلياً عاماً محيطاً ، وانما وصف جزئي ، جاء تعبيراً عن خاطر الشاعر ومحاكاة للطريقة التقليدية التي توارثها الشعراء بعضهم عن بعض. وقد برز بعض الشعراء في وصف بعض الحيوانات ، كما أشرت الى ذلك في مواضع سابقة ، فقد اشتهر (أبو دؤاد) بوصف الخيل ، حتى صيّر بطل الشعراء في هذا الميدان ، واشتهر النابغة الجعدي بوصف الفرس ، واشتهر أوس ابن حجر بوصف الحمر ، وعرف علقمة بن عبدة بوصف النعامة^٢. وقد وصف غيرهم من الشعراء هذه الحيوانات وغيرها ، كما نجد ذلك في الأشعار المنسوبة اليهم .

ومن أبرز المواضع التي تطرق اليها الشعراء في وصفهم لمظاهر الطبيعة: المطر، والنخيل، والسحب ، ومشاهد من فصول الشتاء ، والغدران ومواضع المياه والسيول والنحل والعسل البري ، وبعض الصخور الغريبة ، والطيور ، أما البحر والسفن ، فإردان على لسان الشعراء الساكنين على السواحل ، حيث يرون البحر وصفته^٣ . ولكننا لا نجد وصفاً خاصاً بهما ، يظهر فيه تأثير الشاعر وإحساسه بالبحر ، أو بالسفن ، من حيث هي سفينة ، وانما ذكر وهما عرضاً على سبيل الفخر، ولأمر عرضية أخرى . فالوصف الجاهلي لعناصر الطبيعة خالياً من المشاعر الخاصة ، ومن التصورات المعبرة عن إلهام الشاعر الذاتي^٤ .

وذكر أن من الشعراء من كان يتأله في جاهليته ويتعفف في شعره ، ولا يستبهر بالفواحش ولا يهتم في الهجاء ، ومنهم من كان ينعي على نفسه ويتعهر ،

- ١ ابن سلام ، طبقات (١٦ وما بعدها) .
- ٢ ابن سلام ، طبقات (٢٧) ، الاغانى (٩٣/١٥) .
- ٣ غرونيباوم (١٦٢) .
- ٤ غرونيباوم (٦١) .

ومنهم امرؤ القيس والأعشى^١ ، وأن منهم من كان يأتي بالحكم في شعره ، مثل :
 زهير والأفوه الأودي ، وعلقمة بن عبدة ، وعبيد بن الأبرص ، وعدي بن
 رعاء الغساني وغيرهم . والحكمة عندهم ، هي خلاصة تجارب الشاعر في هذه
 الحياة ، وما حصل عليه من رأي استوحاه من الواقع أو من أفواه الناس وتجاربهم .
 وهي بديهة من البديهيات صيغت شعراً . قد يبدع في صياغتها الشاعر ففسير بين
 الناس مثلاً ، كقول (عدي بن رعاء) الغساني :

ليس من مات فاستراح بميتٍ إنما الميتُ ميتُ الأحياء^٢

ويظهر من بيت ينسب الى (زهير) ، هو :

ما أرانا تقول إلا مُعاراً أو مُعاداً من لفظنا مكروراً

إن شعراء الجاهلية كانوا قد وصلوا الى حالة جعلتهم يقلدون من سبقهم في
 الشعر ويحاكون طرقهم في النظم ، فهم يعيدون ويكررون ما قاله الشعراء قبلهم .
 وهو كلام يؤيده قول علماء الشعر في القصيدة ، من أنها كانت تسير على هدى
 الشعراء السابقين في نظمها من بدء بذكر الديار والبكاء على الأحبة والأطلال الى
 غير ذلك من وصف ، حتى صارت هذه الجادة ، جادة يسير عليها كل شاعر ،
 مما أثر على البراعة والابتكار وجعل الشعر قوالب معروفة معينة ، يختار الشاعر
 قالباً منها ليبر به عما يريد أن يقوله نظماً . ومن هنا ثار (أبو نواس) وأضرابه
 من الشعراء الاسلاميين على (التقليد) في النظم ، لتبدل العقلية وتغير الزمن ، وإن
 كنت أجد في هذه الثورة مبالغة وإفراطاً في الاتهام . فالقصيدة الجاهلية وإن غلب
 عليها التقليد والمحاكاة ، مما ضيق عليها المعاني ، إلا أنها لم تكن كلها على نمط
 واحد على نحو ما يقوله علماء الشعر والأدب ، كان الشعراء يراعون الوزن والقافية
 والروي ، وهي أمور ميزت الشعر العربي عن غيره ، ولكنهم كانوا يتحللون
 فيما عدا ذلك ، فيأتون بالمعاني التي تدرکها عقولهم ، وهي معان استمدت من
 المحيط ، وهو محيط واحد ، ألهم الشعراء شعرهم ، فن ثم تقارب الإلهام وقربت
 المعاني ، ولو تعددت طبيعته ، لما غلب على شعر أولئك الشعراء ما نأخذه عليهم

١ ابن سلام ، طبقات (١٤) .

٢ الاصمعيات (١٧١) .

وقد كان تغير وتنوع معاني الشعر في الاسلام ، نتيجة حتمية لتغير المحيط .

المغلوبون :

ومن الشعراء من كان لا يستطيع الوقوف أمام خصمه ، فيغلب ، فذكر ان (النابغة) الجعدي ، كان يختلف الشعر مغلباً . وكانت العرب اذا قالت مغلباً فهو مغلوب ، واذا قالت مغلباً ، فهو غالب ، وقد غلبت عليه (ليلي الأخيلية) و (أوس بن مغراء) القريني^١ . وذكروا ان (تميم بن أبي مقبل) وهو شاعر (خنزليد) مغلب عليه النجاشي ، ولم يكن اليه في الشعر ، وقد قهره في الهجاء ، ثم هاجى النجاشي عبد الرحمان بن حسان فغلبه عبد الرحمان ، وكان ابن مقبل جافياً في الدين . وكان في الاسلام يبكي أهل الجاهلية ويذكرها ، فقليل له تبكي أهل الجاهلية وأنت مسلم ، فقال :

وما لي لا أبكي الديار وأهلها وقد زارها زوار عكٍ وحيرا
وجاء قطا الأجباب من كل جانب فوقع في اعطائنا ثم طيرا^٢

ومن المغلبين : الزبرقان ، غلبه عمرو بن الأهتم ، وغلبه المخبل السعدي ، وغلبه الخطيئة ، وقد أجاب الإثنين ولم يجب الخطيئة^٣ .

والهجاء فن ، لا يستطيع كل شاعر أن يبرز فيه ، لما يجب أن يكون في الشاعر من ذكاء وسرعة خاطر وقابلية على إسكات الخصوم . ولهذا كان يخشى جانب الهجاء فلا يتعرض له إلا من وهب قابلية على الهجاء . وإلا غلب على أمره ، وصار من المغلبين^٤ ، وهو من أهم أبواب الشعر عند الجاهليين ، لما له من أثر في حياتهم ، حيث يفض من منزلة المهجو .

وذكر أن الشعراء كانوا ينازعون بعضهم بعضاً على التقدم في الشعر ، فذكر أن (امرأ القيس) نازع (الحارث بن التوأم) اليشكري ، فقال : إن كنت

١ ابن سلام ، طبقات (٢٦ وما بعدها) ، العمدة (١٠٤/١) .

٢ ابن سلام ، طبقات (٣٤) .

٣ العمدة (١٠٧/١) .

٤ العمدة (١١١/١ وما بعدها) .

شاعراً ، فأجز أنصاف ما أقول فأخذنا يتسابقان في ذلك^١ . وذكر أن (عبيد بن الأبرص) الأسدي ، لقي (امرأ القيس) يوماً ، فقال له عبيد : كيف معرفتك بالأوابد ؟ فقال له : إلتى ما شئت ، وأخذنا يتسابقان . وكان آخر ما أجاب به (امرؤ القيس) هذا البيت :

تلك الموازين والرحمان أنزلها رب البرية بين الناس مقياساً^٢

وهو بيت مفضوح ، يحدثك عن أصله وفصله ، وعن هذه القصة ، وقد فات وضاع القصة أن هذا الشعر لا يمكن أن يقع من شاعر جاهلي ، لا سيما إذا كان على شاكلة امرئ القيس .

والآيات الجيدة من الشعر ، في نظر نقدة الشعر هي الآيات التي إذا سمعت صدر البيت فيها ، عرفت قافيتها^٣ .

بدء الشاعر :

يبدأ الشاعر بالشعر بعد إحساسه بوجود مبول له الى الشعر ، تدفعه دفعاً على الاقبال عليه ، فيبدأ بحفظ الشعر المقال ، وينظمه ، ويكُون هذا النظم نظاماً تجريبياً غير متقن في بادئ أمره ، ويقال لهذه المرحلة (الغرزمة) . و (الغرزمة) أن يقول الشاعر الشعر قبل أن يستحكم طبعه وتقوى قريحته^٤ . فإذا قوي به وتمكن منه صار من الشعراء المجيدين .

وقد كان الشاعر الجاهلي مثل الشاعر الاسلامي ، يبدأ لكي يكون شاعراً بحفظ شعر غيره ، ولا سيما شعر المشهورين من الشعراء المتقدمين عليه ، حتى يرويه رواية ، وقد يتصل بشاعر يعجبه من شعراء قبيلته أو من غيرهم ، فيلازمه ويأخذ عنه شعره ، حتى يصير راوية له ، ومنى شعر هذا الراوية الحافظ لشعر غيره ، ان عوده قد استوى ، وأن له قابلية في النظم ، أظهر شعره للناس ، وربما بعد

١ الشنقيطي ، شرح المعلقات العشر (١٦ وما بعدها) .

٢ المصدر نفسه (١٧ وما بعدها) .

٣ البيان والتبيين (١١٦/١) .

٤ الخزائن (٢٢٠/١) .

أن يكون قد وجد التشجيع ممن اتصل بهم من الشعراء ومن المتلوقسة للشعر ، العارفين به ، ولما كانت الشاعرية موهبة يصقلها المران ومرور الزمن ، فإن كثيراً من الشعراء نظموا الشعر وهم صغار ، ولا سيما أولئك الذين نشأوا في بيت برز به شاعر ، أو في بيوت عرفت بنبوغ جماعة من أفرادها بتنظم الشعر، فهناك بيوت معرقة توارثت الشعر أباً عن جد . وقد سبق أن ذكرت قول (رؤبة) : « الفحولة هم الرواة »^١ ، أي ان فحول الشعراء هم الذين كانوا في بادئ أمرهم رواة شعر .

فحفظ الشعر وروايته هو مران كان لا بد منه لتهيئة شاعر فحل . وقد وجدت هذه النظرة عند الفرس كذلك ، قال صاحب (چهار مقالة) : « ولا يبلغ الشاعر هذه المنزلة إلا أن يحفظ في عتقوان الشباب وريق العمر عشرين ألف بيت من أشعار المتقدمين ويجعل نصب عينه عشرة آلاف كلمة من آثار المتأخرين ويدبم القراءة في دواوين الأئمة ويلتقط منها ليعلم كيف تصرفوا في مضائق القول ودقائق الكلام حتى يرسم في طبعه صور الشعر وطرائقه ، ويتجلى له مزايا الشعر ونقائصه ، فيرتقي قوله ويعلو طبعه . فلإذا رسخ طبعه في نظم الشعر ، وانتقاد له الكلام عمد الى علم الشعر وقرأ العروض ... وقرأ فقد المعاني والألفاظ والسركات والتراجم وأنواع هذه العلوم على أستاذ يحلقها ليكون جديراً بالأستاذية »^٢ . وهذا الرأي الفارسي الاسلامي ، يمثل ولا شك رأي قدماء الفرس كذلك .

ولم يكن الشاعر الجاهلي يعرف بالطبع هذه العلوم والقيود التي عرفت وشاعت في الإسلام ، بل لم يكن الشاعر العربي الإسلامي ليحفل بالعروض ويعلم البيان والبدیع ، لأن الشعر طبع وموهبة ، وإذا لم تكن الموهبة موجودة في إنسان، فلن يكون هذا الشخص شاعراً موهوباً مرموقاً مهما حفظ من الشعر ، وبلغ من علم العروض ومن علوم الصناعة الأخرى التي لها مساس بالشعر . فقد برز شعراء جاهليون قالوا شعراً وهم بعد أحداث ، واشتهروا به بين قومهم وهم بعد شباب . وطرفة الشاعر المشهور ، كان لا زال شاباً حين قتل ، ومع ذلك ، نجد ترتيبه بعد امرئ القيس في ترتيب العلاقات ، وفي ترتيبه هذا دلالة على تقدير قصيدته ، واشتهار أمره بالشعر . وقد نظم (الخليل بن أحمد) شعراً ، وهو صاحب

١ البيان والتبيين (٢/٩ وما بعدها) .

٢ غرر نباوم (٤٨) .

العروض ، ونظم غيره من فحول هذا العلم ، ومن فحول اللغة شعراً ، لم يعد من عيون الشعر العربي ، ونظم الفقهاء شعراً عرف بين نقاد الشعر ، وأهل البصر به بـ (شعر الفقهاء) ازدراء به . بل نجد الشعراء الإسلاميين يهزأون من قواعد العروض .

ألقاب الشعراء :

ويذكر أهل الأخبار ويؤكدون ان أهل الجاهلية لقبوا شعراءهم بألقاب ، مثل : المهلهل ، والمرقش ، وذا القروح ، والثقب ، والمنخل ، والمنخل ، والأفوه ، والنابة . قيل عن المهلهل ، انه انما سمي مهلهلاً لهلهلة شعره ، أي رفته وخفته ، وقيل لاختلافه ، وقيل : بل سمي بذلك لقوله :

لما توكل في الكراع شريدهم هلهلت أنار جابراً أو صنبلاً
وقيل لأنه كان أول من هلهل الشعر وأرقه وألان ألفاظه^١ .

وذكر ان (المرقش) الأكبر ، انما عرف بذلك ، بقوله :

الدار قفر والرسوم كما رقص في ظهر الأديم قلم
أو لأنه كان قد عني بتنميق شعره ورقشه^٢ .

وروي ان لقب (الثقب) العبدى ، انما جاءه من قوله :

رددن تحية وكنن أخرى وثقبن الوصاوص للعيون^٣

وعرف المتلمس بهذا الاسم بقوله :

فهذا أوان العريض حياً ذبابه زنايسيره والأزرق المتلمس^٤

-
- ١ العمدة (٨٦) ، (ويروي لما توغر) و « لما توغر في الكلاب هجينهم » ، و (توغر) ، المزهر (٤٣٤/٢) ، الاغانى (٥٧/٥) .
 - ٢ الشعر والشعراء (١٣٨/١) ، تابع العروض (٣١٤/٤) ، (رقص) ، البيان والتبيين (٣٧٥/١) ، المفضليات (٤١٠/١) ، (٤٨٥) .
 - ٣ الشعر والشعراء (٣١١/١) .
 - ٤ الشعر والشعراء (١١٤/١) ، البيان والتبيين (٣٧٥/١) .

وعرف الممزق بهذا اللقب لقوله :

فإن كنت مأكولاً فكن خير آكل وإلا فأدركني ولما أمزق^١

وعرف (النابغة) بالنابغة بقوله :

وحلت في بني القين بن جسر وقد نبغت لنا منهم شؤون^٢

وذكر أن (منبه بن سعد) ، إنما عرف بـ (أعصر) ، بقوله :

أعبر إن أباك غير لونه مرّ الليالي واختلاف الأعصر

وإن معاوية بن تميم ، إنما عرف بـ (الشقر) بقوله :

قد أحمل الرمح الأصم كعوبه به من دماء القوم كالشقرات^٣

وأن (خالد بن عمرو بن مرة) ، إنما قيل له (الشريد) ، بقوله :

وأنا الشريد لمن يعرفني حامي الحقيقة ما له مثل

وأن (صريم بن معشر) التغلبي ، إنما عرف بـ (أفنون) بقوله :

منيتنا الودّ يا مضمون مضمونا أزماننا إن للشبان أفنونا^٤

وأن معاوية بن مالك ، سمي معود الحكام لقوله :

أعوّد مثلها الحكام بعدي إذا ما الأمر في الأشياء نابا^٥

وذكر (الجاحظ) ، أن (عمرو بن رباح) السلمي أبو خنساء ابنة عمرو ،

غلب عليه الشريد ، لقوله :

تولي إخوتي وبقيت فرداً وحيداً في ديارهم شريداً^٦

١ الشعر والشعراء (٣١٤/١) ، البيان والتبيين (٣٧٥/١) -

٢ الشعر والشعراء (٩٨/١) ، المزهر (٤٣٢/٢ ، ٤٣٦) -

٣ المزهر (٤٣٤/٢) -

٤ المزهر (٤٣٥/٢) -

٥ المزهر (٤٣٦/٢) -

٦ البيان والتبيين (٣٧٥/١) -

وعرف (خدّاش بن بشر) ، (خدّاش بن ليث بن بية) ، (خدّاش بن بشر بن خالد بن بية) من بني مجاشع بالبعيث ، لقوله :

تبعت مني ما تبعت بعدما أمرت حبالى كل مرتها شزارا^١

وذكروا ان (الفند) ، واسمه (شهل بن شيان) ، انما سمي الفند ، لأنه قال يوم (قضية) : أما ترضون أن أكون لكم قنيداً . وأن طفيلاً الغنوى ، انما عرف بالمحر ، لتحسينه الشعر^٢ ، وأن علقمة بن عبدة ، انما لقب بالفحل ، لأنه تزوج امرأة امرئ القيس ، بعد أن حكمت له بتفوقه على زوجها في الشعر أو لأنه كان في قومه علقمة آخر عرف بـ (علقمة) الحصى ، وان (الأعشى) انما عرف بصناعة العرب ، لكثرة ما تغنت العرب بشعره^٣ ، وأن عنبرة انما لقب بالفلحاء لفلحة كانت به^٤ .

وأما الأغربة من الشعراء ، فهم عنبرة ، وخفاف بن نذبة السلمي ، وأبو عمير ابن الحباب السلمي ، وسليك بن السلكة ، وتأبط شرأ ، والشنفرى ، وكلهم من الشعراء الجاهليين^٥ .

الى آخر ما ذكروه من تعليقات عن أسباب تلقيب الشعراء الجاهليين بألقابهم التي عرفوا بها ، نجد بقيتها مدونة في كتب الأدب واللغة والأخبار^٦ .

ولعلماء الشعر بعد ، آراء في أحسن وأجود ما قيل من شعر في فن واحد من فنون الشعر ، فقيل أرثى بيت قيل في الجاهلية ، قول أوس بن حجر :

أيتها النفس اجملى جزعا إن الذي تحذرين قد وقعا

١ وقيل : سمي البعيث لقوله :

تبعت مني ما تبعت بعدما استمر فؤادي واستمر عزيمي
البيان والتبيين (٢٠٤ / ١ ، ٣٧٤) ، المؤلف (٥٦) .

٢ المزمع (٤٣٠ / ٢) .

٣ المزمع (٤٣١ / ٢) .

٤ المزمع (٤٣٢ / ٢) .

٥ المزمع (٤٣١ / ٢) .

٦ المزمع (٤٣٦ / ٢ وما بعدها) .

وهذا على رأي الأصمعي^١ ، وقدم غيره قول عبدة :
 فما كان قيس^٢ هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما^٣
 ومنهم من قدم شعر الخنساء^٤ .

وقيل إن قول امرئ القيس في الماء ، هو أحسن ما قيل فيه^٥ . وإن وصف
 (أوس بن حجر) للسحاب ، هو أحسن ما قيل فيه^٦ ، وإن أمجى بيت قالته
 العرب ، قول الأعشى :

تبيتون في المشتى ملاء^٧ بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا^٨

وأن أمدح بيت قالته العرب قول زهير :
 تراه إذا ما جتسه متهللاً^٩ كأنك معطيه الذي أنت سائله
 وبيت النابغة :

بأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منها كوكب^{١٠}

ولكنك لو أطلت النظر في كتب الأدب ، تراها تختلف في هذا الاختيار وفي
 اسم الشاعر ، وسبب ذلك اختلاف أمزجة العلماء ، واختلاف وجهات نظرهم في
 نقد الشعر^{١١} .

وللعلماء كلام في أوصاف الشعراء للدرع ، أو للفرس ، أو للنجوم والكواكب ،
 أو للعالم إلى غير ذلك من أشياء^{١٢}

١ ديوان أوس (١٣) ، المصون (١٦) .

٢ المصون (١٦) .

٣ المصون (١٧) .

٤ المصون (١٨) ، ديوان امرئ القيس (١١١) .

٥ المصون (١٩) .

٦ ديوان الأعشى (١٩) .

٧ « كأنك » ، (لآنك) ، ديوان النابغة (١٣) ، المصون (٢١ وما بعدها) .

٨ راجع المصون (٢٢ وما بعدها) ، ترى العلماء يختلفون في أمدح بيت ورد في شعر
 الجاهليين .

٩ المصون (ص ٢٤ فما بعدها) .

وقد عرفت القصائد التي يكون الشاعر فيها منصفاً في شعره ، بالمنصفات ، والمنصفة هي القصيدة التي يكون الشاعر فيها قد أنصف من تحدث عنه ، فإذا كان في فخر واستعلاء على قوم ، فخر بقومه ، وذكر في الوقت نفسه فضائل خصوم قومه ، وشجاعتهم واستبسالهم في معاركهم مع قومه . ومن المنصفات قصيدة (العباس بن مرداس) السينية التي قالها في يوم (تثليث) ، حيث غزت (سليم) مراداً ، فجمع لهم (عمرو بن معديكرب) ، قالتقوا بتثليث ، فصبر الفريقان ، ولم تظفر طائفة منها بالأخرى ، فصنع العباس بن مرداس قصيدته المذكورة^١ .

وزعم علماء الشعر ، ان الشعراء الجاهليين كانوا في سرقة الشعر مثل الشعراء الاسلاميين ، فقد كان منهم من يسطو على شعر غيره ، فيدخله في شعره ، وينخله نفسه ، أو يضمن شعره من معانيه ، ولهم في ذلك بحوث . وذكروا ان من الشعراء الاسلاميين من سطا على شعر الشعراء الجاهليين ، أو أخذ منه^٢ .

الشهرة بالشعر

يقول الرواة والعلماء بالشعر : من أراد الغريب فعليه بشعر هذيل ، ومن أراد النسيب والغزل من شعر العرب الصلب ، فعليه بأشعار عُدرة والأنصار ، ومن أراد طرف الشعر وما يحتاج الى مثله عند محاوراة الناس وكلامهم فذلك في شعر الفرسان .

وأشعر الفرسان : دريد بن الصمة ، وعنترة ، وخفاف بن نذبة ، والزبرقان ابن بدر ، وعروة بن الورد ، ونهيك بن إساف ، وقيس بن زهير ، وصخر ابن عمرو ، والسليك بن سلكة ، وأنس بن مدركة ، ومالك بن نويرة ، ويزيد ابن الصعق ، وبعد من الفرسان الأشراف ، ويزيد بن سنان بن أبي حارثة^٣ .

١ العمدة (٢١٧/٢) .

٢ المصون (٦٦ وما بعدها) .

٣ المصون (١٧٣ وما بعدها) .

التكسب بالشعر

يذكر أهل الأخبار أن العرب كانت لا تتكسب بالشعر ، أنفة وتعزراً ، وإنما يصنع أحدهم ما يصنع مكافأة عن يد لا تستطيع على أداء حقها إلا بالشكر إعظاماً لها . بقوا على ذلك دهرأ ، حتى نشأ النابغة الذبياني فدح الملوك ، وقبل الصلة على الشعر ، وخضع للنعمان بن المنذر ، وقد كان أشرف بني ذيسان ، وكان قادراً على الامتناع منه بمن حوله من عشيرته ، وله مال يكفيه ، فسقطت منزلته ، وكسب مالاً جزيلاً حتى كان أكله وشربه في صحاف الذهب والفضة وأوانيها من عطايا الملوك . وذكر عنه من التكسب بالشعر مع النعمان بن المنذر ما فيه قبح من مجاعة الحاجب ومجاملته والتودد اليه تقرباً وترلفاً ليوصله الى النعمان ، ومن دس الندماء على ذكره بين يديه ، وما أشبه ذلك^١ . هذا ، وإنما امتدح ملكاً ، فكيف بشاعر يمدح من هم دون الملوك والأشراف من السوقة وسواد الناس ، طمعاً في صلة وعطاء^٢ !

وتكسب زهير بن أبي سلمى يسيراً مع (هرم بن سنان) ، ونال (أمية ابن أبي الصلت) عطايا (عبدالله بن جدعان) لمدحه إياه ، فلما جاء الأعشى جعل الشعر متجراً يتجر به نحو البلاد ، وقصد حتى ملك العجم فأثابه ، لعلمه بقدر ما يقول عند العرب ، واقتداء بهم فيه ، على أن شعره لم يحسن عنده حين فسر له ، بل استخف به واستهجنه لكنه حذا حذو ملوك العرب^٣ .

ثم إن الخطيئة أكثر من السؤال بالشعر وانحطاط الهمة فيه ، حتى مقت وذل أهله ، واستصغر شأنه ، وعرف بتكسبه بشعره^٤ .

وقد عيب « من تكسب بشعره والتمس به صلات الأشراف والقادة ، وجوائز الملوك والسادة ، في قصائد السامطين »^٥ . وإنما المقبول ما جاء بما لا يزري بقدر ولا مروءة ، مثل الفتلة النادرة ، والمهمة العظيمة ، وعن باب التودد والتلطف

١ بلوغ الارب (٩٠/٣) وما بعدها ، العملة (٨٠/١) .

٢ العملة (٤٠/١) وما بعدها .

٣ بلوغ الارب (٩١/٣) ، العملة (٨١/١) .

٤ العملة (٨١/١) .

٥ البيان والتبيين (١٣/٢) وما بعدها .

والتذكر ، فأما من وجود الكفاف والبلغة فلا وجه لسؤاله بالشعر^١ .

ومن هنا زعم أهل الأخبار ان أشراف أهل الجاهلية ، كانوا يأنفون من قول الشعر ، وكانوا ينهون أولادهم من قوله ، فلما خالف (امرؤ القيس) ، وهو شريف وابن ملك ، أمر والده من وجوب ترك الشعر ، واستمر على قوله ، طرده بسببه من بيته ، وأخرجه من داره ، فصار من الضلّيلين ، وهو زعم عارضه (ابن رشيّق) وردّ عليه بقوله : « وقد غفل أكثر الناس عن السبب ، وذلك انه كان خليعاً ، مهتكمّاً ، شبيب بنساء أبيه ، وبدأ بهذا الشر العظيم ، واشتغل بالحر والزنا عن الملك والرياسة ، فكان اليه من أبيه ما كان ، ليس من جهة الشعر ، لكن من جهة الغي والبطالة ، فهذه العلة ، وقد جازت كثيراً من الناس ومرت عليهم صفحاً^٢ . فلم يكن طرد امرئ القيس من بيت أبيه اذن بسبب قوله الشعر ، وإصراره عليه ، وانما بسبب أعماله من خلاعة وتهتك واستهتار ، وهي أعمال تنافي أخلاق الأشراف .

وقد قيل في الشعر إنه يرفع من قدر الوضع الجاهل ، مثل ما يضع من قدر الشريف الكامل . وإنه أسنى مروءة الدني ، وأدنى مروءة السري . وقيل ان الشريف كان يتعاشى قول الشعر ، ويمنع أولاده من قوله . لأن قول الشعر مثلبة للرجل الشريف . وقد فسر هذا الزعم بعض العلماء بقوله : « إن الشعر لجلالته يرفع من قدر الخامل إذا مدح به ، مثل ما يضع من قدر الشريف إذا اتخذه مكسباً ، كالذي يؤثر من سقوط النابغة الدياني بامتداحه النعمان بن المنذر ، وتكسبه عنده بالشعر ، وقد كان أشرف بني ذبيان ، هذا ، وانما امتدح قاهر العرب ، وصاحب البؤس والنعيم^٣ . مدحه ولم يكن في حاجة اليه ، وكان أكله وشربه في صحاف الذهب والفضة وأواني من عطاء الملوك . وبين الشعراء الجاهليين من كان من السادة الأشراف ، ولم يجد مع ذلك غضاضة في قوله الشعر ،

١ بلوغ الارب (٩١/٣ وما بعدها) .

٢ العمدة (٤٣/١) .

٣ في قول « ابن رشيّق » ، وصاحب البؤس والنعيم « هفوة ، لان صاحب البؤس والنعيم ، هو « المنذر بن ماء السماء » ، وصاحب النابغة هو « النعمان بن المنذر » ، العمدة (٤١/١) ، البيان والتبيين (٢٤١/١) .

ومن غرض من قدره ، هو من استجدى شعره ، واتخذ شعره سبباً من أسباب التكسب .

وما يقوله أهل الأخبار عن التكسب بالشعر يمثل وجهة نظرهم حسب ، وهو رأي لا أساس له ، بسبب أن علمهم بالشعر لا يستند الى دليل جاهلي مكتوب ، وإنما هو من رواية ولدت في الإسلام لاكتها الألسن ، وتناولتها الكتب ، حتى صارت في حكم الإجماع ، يردده الخلف عن السلف الى هذا اليوم . والشعراء في نظرنا قبل النابغة وبعده بشر ، فيهم المترفع وفيهم المستجدي الذليل ، الذي لا يبالي أن تتمهن كرامته في سبيل الحصول على مال . وإذا كان في هذا اليوم شعراء يمدحون ويذمون لغاية الكسب والحصول على مغنم ، فلم نجعل شعراء ما قبل أيام النابغة الذين يمدحون ولا الشريفة المستحق للمدح ، ولا يذمون إلا الحقير الذي يستحق الدم ، وما شعراء تلك الأيام ، إلا كشعراء أيام النابغة ، وما بعده ، فيهم الشاعر المترفع ، وفيهم الشاعر المترذل ، وفيهم من لا يبالي بشعره ، يمدح اليوم هذا ، ثم لا يبالي من ذمه بعد حين . وفي حقهم جميعاً جاء في القرآن : « والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون »^١ ، ونحن نظلم (النابغة) ان جعلناه أول المتكسبين بالشعر ، ونخرج عن المنطق ان ذهبنا هذا المذهب .

وذكر ان ممن رفعه الشعر من القدماء : (الحارث بن حلزة) البشكري ، وكان أبرص ، فلما أنشد الملك (عمرو بن هند) قصيدته :

آذنتنا بينها أسماء رُبّ ثاوٍ عِلّ منه الثواء

وبينه وبينه سبعة حجب ، فما زال يرفعها حجاباً فحجاباً لحسن ما يسمع من شعره حتى لم يبق بينها حجاب ، ثم أدناه وقربه . وأمثاله ممن رفع من قدرهم الشعر كثير^٢ .

وروا ان المحلق كان ممن رفعه الشعر بعد الحمل ، وذلك ان الأعشى قدم مكة

١ سورة الشعراء ، الرقم ٢٦ ، الآية ٢٢٤ وما بعدها .

٢ العمدة (١/٤٣) وما بعدها .

وتسامع الناس به ، وكانت للمحلق امرأة عاقلة ، وقيل بل أم ، وكان المحلق فقيراً خامل الذكر ، ذا بنات ، فأشارت عليه ، أن يكون أسبق الناس إليه في دعوته الى الضيافة ، ليمدحهم ، ففعل ، فلما أكل الأعشى وشرب ، وأخذت منه الكأس ، عرف منه انه فقير الحال ، وانه ذا عيال ، فلما ذهب الأعشى الى عكاظ أنشد قصيدته :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق وما بي من سقم وما بي معشوق

ثم مدح المحلق ، فها أتم القصيدة إلا والناس ينسلون الى المحلق يهتفون ، والأشراف من كل قبيلة يتسابقون اليه جرياً يخطبون بناته ، لمكان شعر الأعشى^١. هذا ما يرويه أهل الأخبار عن أثر الشعر في الناس . وروي أن الأعشى أنشد قصيدته المذكورة (كسرى) ، فقال : « إن كان سهر من غير سقم ولا عشق فهو لص »^٢ .

« قال أبو عمرو بن العلاء : كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب ، لفرط حاجتهم الى الشعر الذي يُقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم ، ويهول على عدوهم ومن غزاها ، ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ، ويباهيهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم . فلما كثر الشعر والشعراء ، واتحلوا الشعر مكسبة ورحلوا الى السوق ، وتسرعوا الى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر » ولقد وضع قولُ الشعر من قدر النابغة الذبياني ، ولو كان في الدهر الأول ما زاده ذلك إلا رفعة البيان »^٣ .

ويذكر الرواة أن القبيلة كانت إذا نبع فيها شاعر احتفلت به ، وفرحت بنبوغه ، وأنت القبايل فهتأتها بذلك ، وصنعت الأظعمة ، واجتمعت النساء يلعبن بالزاهر ، وتباشروا به لأنه حماية لهم ، ولسانهم اللذاب عنهم المدافع عن أعراضهم وأحسابهم وشرفهم بين الناس . وكانوا لا يهتأون إلا بغلام يولد أو فرس تُنتج

١ العمدة (٤٩/١) .

٢ الشعر والشعراء (١٨٠/١) .

٣ البيان والتبيين (٢٤١/١) ، العمدة (٨٢/١) وما بعدها .

أو شاعر ينبغي فيهم^١ . فالشاعر هو صحيفة القبيلة و (محطة إذاعتها) ، وصوته يحط ويرفع ويخلد لا سيما إذا كان مؤثراً ، فيرويه الناس جيلاً بعد جيل .

وكان أثره في الناس أثر السيف في الحروب ، بل استخدمه المحاربون أول سلاح في المعارك . فبدأ الفارس بالرجز ، ثم يعمد الى السيف أو الرمح أو آلات القتال الأخرى . ولأثره هذا ، ورد في الحديث عن الرسول قوله : « والذي نفسي بيده ، لكأنما تنضحونهم بالنيل بما تقولون لهم من الشعر »^٢ غاطباً بذلك شعراء المسلمين ، الذين حاربوا الوثنيين بهذا السلاح الفتاك ، سلاح الشعر . وقد كان الوثنيون قد أشهروه أيضاً وحاربوا به المسلمين .

وطالما قام الشعراء بدور السفارة والوساطة في النزاع الذي كان يقع بين الملوك وبين القبائل ، أو بين القبائل والقبائل ، فلما أسر (الحارث بن أبي شمر) الغساني (شأس بن عبدة) في سبعين رجلاً من (بني تميم) ، وبلغ ذلك أخاه (علقمة بن عبدة) ، قصد (الحارث) ، فدحه بقصيدته :

طحا بك قلباً بالحسان طروب بُعيد الشباب عصر حان مشيب

فلما بلغ طلبه بالعفو عن أخيه وعن بقية المأسورين ، قال الحارث : نعم وأذنبه ، وأطلق له شأساً أخاه ، وجماعة أمرى بني تميم ، ومن سأل فيه أو عرفه من غيرهم^٣ .

ولم يقل أثر الشاعر في السلم وفي الحرب عن أثر الفارس ، الشاعر يدافع عن قومه بلسانه ، يهاجم خصومهم ويهجو ساداتهم ، ويحث المحاربين على الاسماتة في القتال ، ويبعث فيهم الشهامة والنخوة للإقدام على الموت حتى النصر ، والفارس يدافع عن قومه بسيفه ، وكلاهما ذاب عنهم محارب في النتيجة . بل قد يقدم الشاعر على الفارس ، لما يتركه الشعر من أثر دائم في نفوس العرب ، يبقى محفوظاً في الذاكرة وفي اللسان ، يرويه الخلف عن السلف ، بينما يذهب أثر السيف ،

-
- ١ بلوغ الارب (٨٤/٣) ، العمدة ، (٦٥ ، ٤٩/١) ، المزهر (٢٣٦/٣) ، العقد الفريد (٩٣/٣) .
 - ٢ الاغانى (٢٦/١٥) .
 - ٣ العمدة (٥٧/١) ، (أسرة الحارث بن أبي شمر الغساني مع سبعين رجلاً من بني تميم) ، الشعر والشعراء (١٤٧/١) وما بعدها .

بذهاب فعله في المعركة ، فلا يترك ما يتركه شعر المديح أو الهجاء من أثر في النفوس ، يهيجها حين يذكر ، وكان من أثره ان القبائل كانت اذا تحاربت جاءت بشعرائها ، لتستعين بهم في القتال . فلما كان يوم (أحد) ، قال (صفوان ابن أمية) لأبي عزة عمرو بن عبدالله الجمحي : « يا أبا عزة انك امرؤ شاعر فأعنا بلسانك ، فاخرج معنا . فقال : إن محمداً قد منّ عليّ فلا أريد أن أظهر عليه . قال : فاعنا بنفسك فلك الله علي إن رجعت أن أغنيك ، وإن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتي يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر ، فخرج أبو عزة يسير في تهامة ويدعو بني كثانة ، شعراً الى السير مع قريش لمحاربة المسلمين^١ .

وكان للرسول شاعره (حسان بن ثابت) يدافع عن الإسلام والمسلمين ، وكان للمشركين من أهل مكة شاعرهم (عبدالله بن الزبيري) يرد عليه ويهاجم المسلمين في السلم وفي المعارك ، وقد دوّنت كتب السير والأخبار والتواريخ أشعارهم وما قاله أحدهم في الآخر ، وقد فات منه شيء كثير ، نص رواة الشعر على أنهم تركوه لما كان فيه من سوء أدب وخروج على المروءة. وكان الى جانب الشاعرين شعراء آخرون ، منهم من ناصر المسلمين لأنه كان منهم ، ومنهم من ناصر المشركين لأنه كان منهم . بل كان المحاربون إذا حاربوا ، فلا بد وأن يبدأوا حربهم بتنشيطها وبتصعيد نارها بربز أو بقريض .

ومن خوفهم من لسان الشاعر ، ما روي من فزع (أبو سفيان) ، لما سمع من عزم (الأعشى) على الذهاب الى يثرب ومن اعداده شعراً في مدح الرسول ، ومن رغبته في الدخول في الإسلام . فجمع قومه عندئذ ، وتكلم فيما ستركه شعر هذا الشاعر من أثر في الاسلام وفي قريش خاصة إن هو أسلم ، ولهذا نصحهم أن يتعاونوا معه في شراء لسانه وفي منعه من الدخول في الإسلام بإعطائه مائة ناقة فوافقوا على رأيه وجمعوا له ما طلبه ، وتمكن أبو سفيان من التأثير عليه ، فعاد الى بلده (منفوحة) ومات بها دون أن يسلم^٢ .

قال (الجاحظ) : « ويبلغ من خوفهم من الهجاء ومن شدة السبّ عليهم ، وخوفهم أن يبقى ذكر ذلك في الأعقاب ، ويسبّ به الأحياء والأموات ، أنهم

١ الروض الانف (١٢٦/٢ وما بعدها) ، (غزوة أحد) .

٢ الشعر والشعراء (١٣٦ وما بعدها) ، زيدان ، آداب (١١٩/١) .

إذا أسروا الشاعر أخلوا عليه الموائيق ، وربما شذوا لسانه بنسمة ، كما صنعوا
بعبد يغوث بن وقاص الحارثي حين أسرته بنو تيم يوم الكلاب^١ . و (عبد يغوث
ابن وقاص) شاعر قحطاني ، كان شاعراً من شعراء الجاهلية ، فارساً سيد قومه
من (بني الحارث بن كعب) ، وهو الذي قادهم يوم الكلاب الثاني فأسرته
بنو تيم وقتلته . وهو من أهل بيت شعر معروف في الجاهلية والاسلام ، منهم
(اللجلاج) الحارثي ، وهو طقيل بن زيد بن عبد يغوث ، وأخوه (مسهر)
فارس شاعر ، ومنهم من أدرك الاسلام : (جعفر بن علي بن ربيعة بن الحارث
ابن عبد يغوث) ، وكان شاعراً صعلوكاً^٢ .

ولما مدح (الخطيئة) (بغض بن عامر بن لاي بن شماس بن لاي بن أنف
الناقة) ، واسمه (جعفر بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن
تيم) ، وهجا (الزبرقان) ، واسمه (الحصين بن بدر بن امرئ القيس بن
خلف بن عوف بن كعب) ، صاروا يفخرون ويتباهون بأن يقال لهم (أنف
الناقة) ، وكانوا يعيرون به ويغضبون منه ، ويفرقون من هذا الاسم ، حتى ان
الرجل منهم كان يسأل ممن هو فيقول من (بني قريع) فيتجاوز جعفر أنف
الناقة ، ويلغي ذكره فراراً من هذا اللقب ، الى أن قال (الخطيئة) هذا الشعر
فصاروا يتناولون بهذا النسب ويمدون به أصواتهم في جهازة ، إذ قال :

قوم هم الأنف والأذنان غيرهم ومن يسوي بأنف الناقة الدنيا^٣

وقد تعزز الأعشى على قومه ، وبين مكان فضله عليهم ، إذ كان لسانهم
الذباب عنهم المدافع عن أعراضهم ، الهاجي لأعدائهم بشعر هو كالمقراض يقرض
أعداء قومه قرصاً .

وادفع عن أعراضكم وأعيركم لساناً كمقراض الخفاجي ملجأ^٤

-
- ١ البيان والتبيين (٤٥/٤) .
 - ٢ الخزائن (٣١٧/١) ، (بولاق) .
 - ٣ قوم هم الأنف والأذنان غيرهم ومن يساري بأنف الناقة الدنيا
البيان والتبيين (٢٨/٤) ، (هارون) ، الاشتقاق (١٥٦) ، زهر الاداب (١٩/١) ،
الخزائن (٥٦٧/١) ، العبد (٥٠/١) .
 - ٤ ديوان الاعشى (١١٧) ، القصيدة ١٤ ، البيت ٣١ .

وذكر أن (بني تغلب) كانوا يعظمون معلقة (عمرو بن كلثوم) ويروونها صفاراً وكباراً ، حتى هجاهم شاعر من شعراء خصومهم ومنافسيهم : بكر بن وائل ، إذ قال :

ألمى بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يروونها أبداً منذ كان أولهم يا للرجال لشعر غير مشوم^١

ولسلطة ألسنة بعض الشعراء ، ولعلم تورع بعضهم من شتم الناس ومن هتك الأعراس ، ومن التكلم عنهم بالباطل ، تجنب الناس قدر امكانهم الإحتكاك بهم ، وملاحظاتهم والتعرش في أمورهم ، خوفاً من كلمة فاحشة قد تصدر منهم ، فيجرح الشخص الشريف فتدميه ، و « جُرِّحَ اللسان كجرح اليد » ، كما عبر عن ذلك (امرؤ القيس) أحسن تعبير^٢ . ولأمر ما قال طرفة :

رأيت القوافي تتلجن مواجياً تَضَايِقُ عنها أن تَوَلِّجها الإبر

وفي هذا المعنى دون (الجاحظ) هذه الأبيات :

وللشعراء ألسنة حداد^٣ على العورات موفية دليله
ومن عقل الكريم اذا اتقاهم وداراهم مسدرة^٤ جميله
اذا وضعوا مكايهم عليه - وإن كذبوا - فليس لمن حيله^٥

و « كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه عالماً بالشعر ، قليل التعرض لأهله : استعداه رهط تميم بن أبي مقبل على النجاشي لما هجاهم ، فأسلم النظر في أمرهم الى حسان بن ثابت ، فراراً من التعرض لأحدهما ، فلما حكم حسان أنفذ عمر حكمه على النجاشي كالقلد من جهة الصناعة ، ولم يكن حسان - على علمه بالشعر - أبصر من عمر رضي الله عنه بوجه الحكم ، وإن اعتل فيه بما اعتل^٦ » .

١ الاغاني (٥٤ / ١١) ، الاشتقاق (٢٠٤) ، وقد روى هذا الشعر بأوجه مختلفة ، البيان والتبيين (٤١ / ٤) .

٢ العمدة (٧٨ / ١) .

٣ العمدة (٧٨ / ١) .

٤ العمدة (٥٢ / ١ ، ٧٦) ، (باب تعرض الشعراء) .

« وكذلك صنع في هجاء الخطيئة الزبرقان بن بدر : سأل حسان ، ثم قضى على الخطيئة بالسجن »^١ ، وقد كان عمر قد كره أن يتعرض للشعراء ، فاستشهد حساناً ، فلما بين حسان رأيه في الشعر ، انقلد حكمه ، فتخلص (عمر) بعرضه سليماً^٢ .

و (تميم بن مقبل بن عوف بن حنيف) العجلاني ، من الشعراء الذين أدرکوا الاسلام فأسلم ، وكان يهاجي (النجاشي) ، فهجاه (النجاشي) يوماً ، فاستعدى (تميم) (عمر) عليه . فلما قرأ (النجاشي) على (عمر) ما قاله في (تميم) أمر بضربه وجسه . وكان ييكي أهل الجاهلية^٣ .

« ومثل أبو عبيدة : أي الرجلين أشعر : أبو نؤاس ، أم ابن أبي عيينة؟ فقال : أنا لا أحكم بين الشعراء الأحياء ، فقليل له : سبحان الله كأن هذا ما تبين لك ! فقال : أنا ممن لم يتبين له هذا ١٤ »^٤ وذلك خوفاً ولا شك من لسان الشاعر الحمي . «ولسبر الشعر على الأفواه هذا المسير تجنب الأشراف ممازحة الشاعر خوف لفظة تسمع منه مزحاً فتعود جداً »^٥

وكانوا يهابون الشاعر المهجاء البلديء اللسان المتمكن من شعر المهجاء ، أكثر من غيره من بقية الشعراء ، لما كان يتركه هجاءه من أثر فيهم ، حتى الشعراء البارزون كانوا يتقون شر الشاعر المهجاء ويتعدون عنهم . فلما هجا (عبدالله بن الزبيري) ، بني قصي ، خاف قومه من هجاء (الزبير بن عبد المطلب) ، فرفعوه برمته الى (عتبة بن ربيعة) ، فلما وصل اليهم أطلقه (حمزة بن عبد المطلب) وكساه ، وكان (الزبير) غائباً بالطائف ، فلما وصل مكة وبلغه الخبر هجا قوم (ابن الزبيري) هجاء مرأ^٦ ، بقوله :

فلولا نحن لم يلبس رجال ثياب أعزة حتى يموتوا

-
- ١ العمدة (٧٦/١) ، ابن سلام ، طبقات (٢٥) .
 - ٢ البيان والتبيين (٢٤٠/١) .
 - ٣ الاصابة (١٨٩/١) ، (رقم ٨٦٢) ، البيان (٢٣٩/١) ، الخزائن (١١٣/١) .
 - ٤ العمدة (٧٦/١) .
 - ٥ العمدة (٧٧/١) .
 - ٦ العمدة (٦٥/١) وما بعدها .

ثيابهم سَمالٌ أو طيارٌ بها دسم كما دسم الحميت
ولكنّا خلقنا إذ خلقنا لنا الحبرات والمسك الفتيت

وكان عبدالله بن الزبير قد قال حين أطلقه حمزة :

لعمرك ما جاءت بنكر عشيرتي وإن صالحت إخوانها لا ألومها
فودّ جناة الشرّ أن سيوفنا بأيماننا مسلولة لا نشيمها
فإن قصيباً أهل عزّ ونجدة وأهل فعال لا يرام قدعها
همّ منعوا يومي عكاظ نساءنا كما منع الشول الهجان قرومها^١

ونظراً لأنّ شعر الهجاء في الناس ، من أفراد وقبائل ، صاروا يصطنعون الشعراء ويحسنون جهدهم اليهم خشية ألسنتهم ، يفعلون ذلك بشعرائهم وبشعراء القبائل الأخرى ممن يحشون سلاطة ألسنتهم . يفعلون ذلك حتّى إذا كان الشاعر قد أساء اليهم ، على أمل التكفير عن ذنبه ، بمدحهم بشعر ينفي أثر ما قاله فيهم من هجاء . حتّى أنهم كانوا يعفون عن شاعر قد يقع أسيراً في أيديهم ، إذا أعطاهم العهود والمواثيق ألا يعود الى هجوهم ، وألا يقول شعراً في ذمهم . وقد يغدقون عليه بالهدايا والألطاف تأليفاً للسانه ، وأملأ في مدحه لهم ، والقاعدة عندهم ان أثر الهجاء يمحوه المدح .

وبين الشعر الجاهلي والشعر الاسلامي فروق واضحة في الأسلوب وفي الاتجاه وفي الجزالة واختيار الكلمات ، اقتضتها طبيعة اختلاف الزمان وتغير الحال واتصال العرب بغيرهم ، وخلود أكثرهم الى الحضارة ، الى غير ذلك من أسباب .

ومما امتاز فيه الشعر الجاهلي عن الشعر الاسلامي ، هو أن شعراء كانوا من العرب ، إلا بضعة شعراء ، كانوا من أصل خليط ، مثل الأعرية ، الذين كانت أمهاتهم من أصل افريقي . ولا أعلم اسم شاعر جاهلي ، يرجع أصله الى فارس أو الروم ، إلا ما ذكره (ابن الكلبي) من أمر (خرخرسة) . أما في الاسلام فقد زاحم الفرس بصورة خاصة العرب على تراثهم التليد ، وهو الشعر ، برز منهم فيه فحول ، طوروا الشعر ولوتوه ، وأضافوا اليه معاني جديدة ، اقتضتها

١ بلوغ الارب (٣ / ٨٤ وما بعدها) .

طبيعة الامتزاج بين العقليتين والتطور الاجتماعي الجديد الذي ظهر في المجتمع الجديد،
مجتمع العرب والموالي .

ولعلماء الشعر آراء في الشعر الجاهلي وفي شعراء الجاهلية ، وفي شعرهم وفي
الاستشهاد بالشعر الجاهلي . ولهم آراء في ذلك دورها في كتبهم . من ذلك أن
للعرب كانت لا تروي شعر شاعر ، أو لا تعجب به إذا كانت ألفاظه ليست
بنجدية . ذكروا أن « العرب لا تروي شعر أبي دود وعدي بن زيد . وذلك
لأن ألفاظها ليست بنجدية »^١ . وذكروا عن شعر (عدي بن زيد العبادي) ، أن
« العرب لا تروي شعره ، لأن ألفاظه ليست بنجدية . وكان نصرانياً من عباد
الحيرة قد قرأ الكتب »^٢ . وقالوا عنه أيضاً « وكان يسكن بالحيرة ، ويدخل
الأرياف ، فثقل لسانه ، واحتمل عنه شيء كثير جداً ، وعلماؤنا لا يرون شعره
حجة »^٣ .

وجزالة الألفاظ وشدة وقعها على الأسماع وغرابتها ، هي من أهم المعايير التي
اتخذها علماء الشعر في تقدير قيم الشعر الجاهلي ، والقصيدة الجيدة الحسنة هي القصيدة
الجزلة الفخمة الألفاظ التي لا تتسم بالسهولة والليونة ، والتي لا تفهم إلا بالرجوع
إلى الشروح والتعليقات والإيماءات والإشارات . ومن هنا فوقوا شعر الأعراب
على شعر الحضرة ، لوجود لين في شعر أهل المدبر ، ولسهولة ، ومن هنا قالوا :
إن في شعر قريش ليناً وسهولة ، وفي شعر أهل الحيرة وأهل القرى مثل ذلك .
وقد تعرض (ابن رشيقي) لموضوع الشعر الجاهلي القديم والشعر الإسلامي
المحدث ، فقال : « إنما مثل القدماء والمحدثين كممثل رجُلين ابتدأ هذا بناء
فأحكمه وأتقنه ، ثم أتى الآخر فنقشه وزينه فالكلفة ظاهرة على هذا وإن حسن ،
والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خشن »^٤ .

الخمر والشعر :

وقد كان الشعراء يقبلون على شرب الخمر ، إقبال أكثر الجاهليين على شربها

-
- ١ الشعر والشعراء (١٢١) .
 - ٢ الشعر والشعراء (١١٥) ، الاغانى (٩٣ / ١٥) .
 - ٣ الشعر والشعراء (١١١) .
 - ٤ العملة (٥٧ / ١) .

لتنسيهم همومهم وفقيرهم ، حتى أن منهم من كان يبيع ما عنده ليشتري الخمر .
وقد كان الشعراء يشربون ليستوحوا الوحي من الشرب ، حتى أن الأعشى لما قلم
ليسلم ، فقيل له ان الاسلام يحرم الخمر ، توقف ، ولم يسلم ، إذ شق عليه
هذا التحريم ، ولم يتمكن بعضهم من تركها ، فحدّوا على شربها . وقد هرب
(ربيعة بن أمية بن خلف) الجحفي ، من بلاد الاسلام ولحق بالروم ، لأن
عمر جلده الحدّ في الخمر ، وكان من آتف العرب وأسخاهم ، فحلف أن لا يقيم
بأرض حد فيها ولا يلدين من حله ، فحمله الأنف الى أن أتى الروم فأت بها
نصرانياً^١ . ويروى انه قال :

لحقت بأرض الروم غير مفكر بترك صلاة من عشاء ولا ظهر
فلا تتركوني من صبح مدامة فما حرم الله السلاف من الخمر
إذا أمرت تيم بن مرة فيكم فلا خير في أرض الحجاز ولا مصر
فإن بك اسلامي هو الحق والمهدي فلاني قد خلّيته لأبي بكر

ويذكر (المعري) انه قد جرى له مع (أبي بكر) خطب ، فلحق بالروم^٢.

شيطان الشاعر :

ولا بد لي هنا من أن أشير الى ما كان يعتقد الجاهليون من أن الشعراء كانوا
يستلهمون وحيهم بالشعر من (شيطان) ، كنّوا عنه بـ (شيطان الشاعر) .
فقالوا : « لكل شاعر شيطان » . وهم يعبرون بذلك عن الحس الذي يصيب
كل انسان حساس شاعر عندما يهز مشاعره وإحساسه شيء ما يؤثر عليه فيستولي
على عقله وشعوره ويستهويه ، ولا يتركه يستقر ويهجع حتى يعبر عن شعوره
هذا الذي سيطر عليه وملكه ، بشعر يأتيه وكأنه وحي يتزل عليه تنزيلاً ، وعندئذ
فقط يستقر ويهجع ، بعد أن يكون قد نسب هذا الشعور المرهف الذي ألمّ به الى
وحي (شياطين الشعر) .

١ الاشتقاق (٨٠ وما بعدها) ، الاغاني (١١٢/١٣) .

٢ رسالة الغفران (٤٤٠ وما بعدها) .

وكان الكهنة ، يقولون في الجاهلية : إن الشياطين كانت تأتيهم^١ ، فهم مثل الشعراء يعتقدون بأن وحياً يوحى إليهم بما يقولونه للناس ، يتجلى لهم على صورة (رثي) ، الرثي يقول مسجاً ، والشيطان ينظم شعراً .

وقد بلغ من اعتقاد بعضهم بوجود (شياطين الشاعر) أن رويوا قصصاً تذكر كيف أن (شياطين الشعر) كانوا يعلمون الشعراء قول الشعر حين ينحسب الشعر عنهم وحين تقف قريحتهم حتى ليصعب على الشاعر أن ينظم بيتاً واحداً ، حتى إذا حار في أمره ، استجار بشيطانه وتوسل إليه لإنقاذه من محنته ، فيرق شيطانه عليه ، ويلقي عليه الشعر إلقاءً فيأتي على لسان الشاعر وكأنه سيل متدفق . ولاعتقاد الشعراء هذا بوجود قرين لهم من الشياطين ، أو من الجن ، سموا شياطينهم بأسماء ، فكان اسم شيطان الأعشى (مسحلاً) ، وقيل هو تابعه وجنيه الذي كان يوحى إليه بالشعر . كما أشار هو إليه في شعره :

دعوت خليلي مسحلاً ، ودعوا له جهنم ، جدعاً للهجين المدمم^٢

وللأعشى أشعار أخرى ذكر فيها فضل شيطانه عليه في قول الشعر . من ذلك قوله :

وما كنت ذا قولٍ ولكن حسبني إذا مسحل يبري لي القول أنطق
خليلان فيما بيننا من مودةٍ شريكان جني وإنس موفق^٣

وجنيه هو الذي جاء بموهبة الشعر ، وبفيض الخواطر ، ينظمه كلاماً محبوباً ، فهو يشكره ويفديه بنفسه :

جاني أخي الجني نفسي فداؤه بأفبح جياش العشيات مرجم^٤

واسم هاجس الأعشى وشيطانه (مسحل بن أوثانة) ، وكان هو الذي يلقي الشعر على لسان الأعشى . وقد رآه (الأعشى) ودخل خبائه وهو من شعر ،

١ مجالس نعلب (٢٠) .

٢ اللسان (٣٣١/١١) ، ثمار القلوب (٧٠) ، (جهنم جدعا) الحيوان (٢٢٦/٦) .

٣ ثمار القلوب (٧٠) .

٤ ثمار القلوب (٧٠) ، الحيوان (٢٢٦/٦) .

وكان الأعشى في أول أرض اليمن يريد الذهاب الى (قيس بن معدي كرب) بحضرموت . فضل طريقه ، فأبصر هذا الخباء ، فذهب اليه ، وسأله الشيخ أن ينشده شعراً ، فكان اذا تلا عليه مطلع القصيدة أوقفه ، واستدعى جارية من جواربه لتتلو عليه بقية القصيدة ، حتى سقط في يدي الأعشى ونحير ، واغشته رعدة ، فلما رأى الشيخ ما حل به ، قال : « ليفرج روعك أبا بصير ، انا هاجسك مسحل بن أوثانة الذي ألقى على لسانك الشعر » . ثم ودعه وأرشده الطريق^١ .

وكان للأعشى شيطان ، اسمه (جهنم) ، وهو تابعة ، أي شيطانة أنثى . وكان لقب (عمرو بن قطن) من (بني سعد بن قيس بن ثعلبة) ، وكان يهاجي الأعشى ، وقال فيه الأعشى :

دعوت خليلي مسحلاً ودعواله جهنم جدعاً للجهين المذل^٢

وقيل إن (جهنم) كان شيطان الأعشى الأول ، ثم اتخذ الأعشى مسحلاً بعده^٣ .

وزعم ان (امرئ القيس) كانت له قصائد ومطارحات مع (عمرو الجني) . وان اسم شيطان (امرئ القيس) هو (لافظ بن لاحظ) . وان اسم شيطان (عبيد بن الأبرص) هو (هبيد) ، وهو اسم شيطان (بشر بن أبي خازم ؟) (بشر بن أبي خازم) كذلك . وان اسم شيطان (النابغة) الذيباني ، هو (هاذر بن ماهر) . وان اسم شيطان (المخبل) السعدي ، هو (عمرو)^٤ . وقد بقي هذا الاعتقاد في شياطين الشعراء الى الإسلام ، فكان الشيطان الذي يلقي الشعر الى (جرير) ، هو (ابليس الأباليس) ، وكان اسم شيطان الفرزدق (عمرو) ، واسم شيطان بشار بن برد (شقناق) . وكان جني (حسان) وصاحبه الذي يوحى اليه الشعر من (بني شيبان) ، وكانت الشعراء تزعم أن الشياطين تلقي على أفواهها الشعر ، وتلقنهن إياه ، وتعينها عليه ، وتدعي أن

١ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٩٦٨ وما بعدها) .

٢ تاج المروس (٨/٢٣٥) ، (جهنم) .

٣ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (٣/٥٠) .

٤ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (٣/٥١) ، الشنقيطي ، شرح المعلقات العشر (٨) .

لكل فحل منهم شيطاناً يقول الشعر على لسانه ، فمن كان شيطانه أمرد كان شعره أجود^١ ، وورد أن (الفرزدق) كان يرى أن للشعر شيطانين ، يدعى أحدهما (الهوبر) والآخر (الهوجل) ، فمن انفرد به (الهوبر) جاد شعره وصح كلامه ، ومن انفرد به (الهوجل) فسد شعره^٢ .

وقد زعم (أبو النجم) أن شيطانه الذي يوحى إليه الشعر شيطان ذكر ، أما شياطين بقية الشعراء فأنث :

لاني وكلّ شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطاني ذكر
فما يراني شاعر إلا استتر ففعل نجوم الليل عاين القمر^٣

وقال آخر :

لأني وإن كنت صغير السن وكان في العين نبوة عني
فلان شيطاني أمير الجن يذهب بي في الشعر كل فن^٤

وروي أن السعلاة لقبت (حسان بن ثابت) في بعض طرقات المدينة ، وهو غلام قبل أن يقول الشعر ، فبركت على صدره ، وقالت أنت الذي يرجو قومك أن تكون شاعرهم ؟ قال : نعم . قالت : فأنشدني ثلاثة أبيات على روي واحد وإلا قتلتك ، فقال :

إذا ما ترعرع فينا الغلام فما أن يقال له من هو
إذا لم يسد قبل شد الأزار فذلك فينا السلي لاهو
ولي صاحب من بني الشيصبان فحيناً أقول وحيناً هو^٥

فخلت سبيله . فهذه الأبيات هي على زعم أهل الأخبار أول شعر حسان . قالها بوحي من شيطانه : (الشيصبان) .

-
- ١ نمار القلوب (٦٩ وما بعدها) .
 - ٢ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (٥١/٣) .
 - ٣ الحيوان (٢٢٩/٦) ، نمار القلوب (٧١) ، ديوان المعاني (١١٣/١) ، الراغب ، محاضرات (٢٨٠/١) .
 - ٤ نمار القلوب (٧٢) . الخصائص (٢٢٥/١) .
 - ٥ الخزانة (٤١٨/١ وما بعدها) ، (بولاق) .

وليس هذا الشيطان الذي تصوره الجاهليون ، يلهم الشعراء وحيهم ويلقي اليهم الشعر إلقاءً بقذفه في قلوبهم ، ليخرج على ألسنتهم ، هو من وحي الجاهليين ومن تخيلاتهم وتخرصاتهم وحدهم ، بل هو شيء معروف عند غيرهم أيضاً . فقد تصور اليونان أن للشعر آلهة تقلد الشعر في نفوس الشعراء ، فينطلق على ألسنتهم^١ . والرثي الذي يوحى الى (الكاهن) علمه بالكهانة ، هو ضرب من هذه الشياطين التي تخيلوها للشعراء ، فبفضل (الرثي) يقول الكاهن سجعاً لمن يطلب منه أن يتكهن عن أمر سألته عنه ، وهو يجيب السائل بما يلقيه رثيه عليه . يلقيه سجعاً ، أما شيطان الشاعر ، فيلقيه على شاعره شعراً ، ومن هنا وقع الفرق بين قول الشاعر وبين قول الكاهن .

وكانوا يسمون الشعراء (كلاب الحى) ، وهم الذين ينبحون دونهم ، ويحمون أعراضهم . وفي ذلك يقول عمرو بن كلثوم :

وقد هرت كلاب الحى منّا وشذبنا قتادة من يلينا^٢

وأما (كلاب الجن) ، فشعراؤهم ، وهم الذين ينبحون دونهم ويحمون أعراضهم^٣ .

B. Snell, Die Entdeckung des Geistes, Hamburg, 1946, S. 117. ff.

الحيوان (٣٥٠/١) .

الرافعي ، تاريخ آداب العرب (٥٢/٣) .

الفصل السابع والاربعون بعد المئة

حد الشعر

عرف علماء العربية الشعر بقولهم : « الشعر : منظوم القول ، غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية ، وإن كان كل علم شعراً من حيث غلب الفقه على علم الشعر » . وعرف (الأزهري) الشعر بقوله : « الشعر القريض المحدود بعلامات لا يجاوزها ، والجمع أشعار ، وقائله شاعر ، لأنه يشعر ما لا يشعر غيره ، أي يعلم »^١ . وعرفه (ابن خلدون) بقوله : « الشعر هو الكلام المبني على الاستعارة والأوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي ، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده ، الجاري على أساليب العربية المخصوصة به » . فهو يجعل التفنية والوزن من شروط الشعر ، ويشترط أيضاً استقلال كل بيت منها بغرضه^٢ .

وعرف بأنه الكلام المقفى الموزون قصداً ، والتقيد بالقصد مخرج ما وقع موزوناً اتفاقاً ، فلا يسمى شعراً^٣ . وقد قصد بهذا التعريف الإسلامي ، إخراج من قال الشعر اتفاقاً لا عن قصد واحتراف . بل عفواً وسجية . ولما جاء في القرآن الكريم ، من رمي المشركين للرسول بأنه شاعر بقول الشعر ، فتزل الوحي

١ اللسان (٤ / ٤١٠) ، (صادر) ، (شعر) ، (الصاحبى) ، (٢٧٣) .

٢ زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١ / ٥٩) .

٣ ارشاد الساري (٩ / ٨٨) .

ينبغي ذلك عنه . وحدد العلماء صفة الشاعر بأنه الذي يحترف الشعر ويقول قصداً ، حتى لا تنطبق هذه الصفة على من يقول مطراً بوزن اتفاقاً من غير قصد^١ .

وقد عرفه بعضهم بقوله : « الشعر كلام موزون مقفى ، دال على معنى ، ويكون أكثر من بيت »^٢ . وهو تعريف وضعه علماء الشعر في الإسلام ، وهو لا ينطبق بالطبع على وصف الشعر عند الأعاجم من الآريين والساميين ، لأن الشعر عند هذه الأمم مفاهيم أخرى ، تختلف باختلاف وجهة نظرها الى الشعر . فقد يكون الشعر سجعاً عند الأمم الأخرى ، وتعدّ الأمثال عند بعض الشعوب في جملة أبواب الشعر^٣ ، كما أنه لا يمكن أن ينطبق على الشعر الجاهلي القديم ، إذ ليس في استطاعة أحد حق التحدث عن الشعر الجاهلي المتقدم على شعر أقدم من وصل اسمه إلينا من الشعراء الجاهليين ، لعدم وجود نصوص مدونة أو مروية عن فلك الشعر، وما دمنا لا نملك نصوصاً منه ، فلا حق لنا اذن في التحدث عنه.

وعندي ان الشعر الجاهلي المروي والمدون في المؤلفات الاسلامية يبحوره المعروفة إنما يمثل المرحلة الأخيرة من مراحل تطور هذا الشعر ، أي مرحلة الكلام الموزون المقفى الدال على معنى ، ولكننا لا نستطيع كما قلت سابقاً الزعم بأن الشعر الجاهلي الأقدم كان على نفس هذه البحور ، أي انه كان متمسكاً بالوزن والقافية إذ من الجائز أن يكون قد كان على شاكلة الشعر القديم الذي نظمته الشعراء الساميون ، من عدم تقيد بالقافية و بوزن الأبيات ، كما نجد ذلك في العبرانية وفي اللغات السامية الأخرى وإنما كانوا يراعون فيه النغم ، بحيث يتغنى به ، أو التأثير في العواطف ، بمراعاة نسق الكلام المبني على البلاغة . ولهذا عدّ السجع نوعاً من أنواع الشعر ، لأن في السجع من الوصف والعاطفة والحس ومعالجة الموضوع ، ما يجعله شعراً ، وفي بعضه نغم يجعله صالحاً لأن يتغنى به ، وبين الغناء والشعر صلة ونسب . وقد جعل بعض العلماء الشعر وليداً من أولاد الغناء ، لأن الشعوب القديمة كالبابليين ، والمصريين ، واليونان ، والعبرانيين ، كانت تقرن شعرها بالموسيقى ، وعرف هذا الشعر بالإنشاد ، وقد كان الإنشاد في المعابد ، نوعاً من

١ . الصحابي (٢٧٣) .

٢ . المزهر (٤٦٩/٢) ، (النوع التاسع والاربعون : معرفة الشعر والشعراء) .

٣ . The Bible Dictionary, II, p. 305.

التراثيل الموجهة الى الآلهة ، كما كان يستخدم في الحروب . ولهذا رأى العلماء ان الموسيقى ، أولدت الإنشاد ، والإنشاد هو والد الشعر .

والشعر معروف عند كل شعوب العالم ، معروف موجود حتى عند الشعوب البدائية ، لأنه نوع من أنواع التعبير عن الحس . والإنسان مهما كانت ثقافته ومترلته لا بد له من التعبير عن إحساساته بمختلف الصور ، وبشئ الوسائل ، من كلام أو تدوين أو نقش أو صراخ أو غناء أو رمز ، الى غير ذلك من الأنواع ، وفي جملتها الشعر . فهو لا يخص إذن شعباً معيناً ، ولا جنساً خاصاً ، إنما هو تعبير إنساني ، يؤديه كل إنسان ، متى كانت عنده المواهب ووجد عنده الحس المرهف الذي يدفعه الى تأليف الشعر دفعاً ، يؤديه على نحو ما يتأثر به إحساسه وذوقه ، في أسلوب يختلف عن الكلام المعتاد المألوف ، ولكنه ليس على نمط واحد عند جميع البشر ، فقد يكون الشعر شعراً عند أمة ، وهو ليس شعراً عند أم أخرى ، والمصطلح العربي السلي ذكرته للشعر ، يختلف عن المصطلح المفهوم للشعر عند اليونان مثلاً أو عند الرومان أو عند البابليين ، كما أن أبوابه وأنواعه قد تختلف بين أمة وأخرى .

فقد كان العبرانيون يحبون الشعر ، حب العرب له ، ويقولون له : (هـ - ش) ، أي الشعر وكانوا ينظمون أشعاراً رتلوها في مختلف المناسبات ، في الأفراح وفي الأنراح في المدح وفي الهجاء ، وفي الغزل وفي الوصف ، وفي تمجيد الرب ، وكانوا يستعينون بالشعر في القتال ، ينشدونه في قتالهم ويجعلونه عوناً لهم في شحذ الهمم وفي تقوية العزائم للنصر ، كما نرى ذلك في أسفار التوراة^١ . ونجد ثلث التوراة شعراً ، لا سيما في أسفار أيوب والمزامير والأمثال والجامعة ونشيد الانشاد . وفي مواضع من (التكوين) وكتب الأنبياء . ولكن شعرهم ليس وزناً وقافية ، على نمط الشعر العربي ، بل هو شعر من طراز آخر . هو شعر بالنسبة للعبرانيين ، وهو ليس بشعر بالنسبة لمصطلحنا المحلد للشعر .

وقد بدأ الشعر بداية متحررة ، فلم يكن الإنسان في بادئ أمره بالشعر يتقيد بالوزن والقافية ، وإنما كان يميز بينه وبين الثر بالنغم الذي يجعله فيه ، وبالنبرات

١ الخروج ، الاصحاح ١٥ ، والقضاة ، الاصحاح الخامس وفي المزامير .

التي يخرجها مخارج الغناء ، ولهذا نجد المقطوعات الشعرية القديمة التي وصلت إلينا مدونة في كتابات مختلف الشعوب لا تشبه الشعر المعروف ، إذ فيه تحرر ، وفيه اعتماد على الترميم والإنشاد وعلى فن الإلقاء ، أما الاعتبارات الفنية المعروفة ، فهي من عمل الشعراء المتأخرين الذين أحلّوا الوزن محل الإلقاء ، ووضعوا قواعد فنية في نظم الشعر . فلم تكن الأبيات الشعرية في الشعر القديم متساوية ، ولم تكن هناك قوافي بالضرورة ، حتى أنك لا تستطيع تمييز القطعة الشعرية عن غيرها ، إلا بالإنشاد^١

والشعر من أقدم الأحاسيس التي عبر بها الإنسان عن نفسه ، فهو يعبر عن عواطفه وعن أحاسيسه ، من سرور أو حزن ، أو ألم ، وعن اهتمامه بالأمور وعن تصورات ، وعن كل ما يدور في رأسه من أمور تسترعي حسه ، فيشعر عندئذ بالترفيه عنه بإخراجها كلاماً فيه نغم « Rhythm » ، أي إيقاع ووزن ، وفيه توازن ونظام بين أجزائه ، على غرار ما يفعله الراقص في رقصه ، من اقران رقصه بحركات موزونة . وهو من العواطف المولودة في الإنسان . ولهذا تعدّ العواطف التي يعبر بها الإنسان عن نفسه شعراً ، وإن خرجت بغير محور ، وبدون وزن ولا قافية . ففي كلام (سارة) : « وقالت سارة قد أنشأ الله لي فرحاً فكل من سمع يفرح لي ، وقالت من كان يقول لإبراهيم إن سارة سترضع ابناً . فقد ولدت ابناً في شيخوخته »^٢ ، وفي الآيات : « ثم أخذت مريم النبية أخت هارون الدفّ في يدها وخرجت النساء كلهن وراءها بدفوف ورقص . فجوابتهن مريم : سبّحوا الرب ، لأنه قد تعظم بالمجد . الفرس وراكبه طرحها في البحر »^٣ ، وفي مباركة يعقوب أبنائه عند شعوره بدنو أجله ، وفي كلام موسى حين قهر (فرعون) ، معان شعرية ، وتعد من أقدم أنواع الشعر السامي التصويري .

وذلك لأن الشعر السامي القديم ، لم يكن يتقيد بالقافية (Rhyme) ، ولا بالتفعيلات (Feet) أو بالمقاطع القصيرة « Short Syllables » ، وإن حاول ولا سيما

Hastings, Dictionary of the Bible, Vol., IV, p. 7. ١

٢ التكوين ، الاصحاح الحادي والعشرون ، الآية ٦ وما بعدها .

٣ الخروج ، الاصحاح الخامس عشر ، الآية ٢٠ وما بعدها .

فما بعد ، أن يضع في كل شطر أو بيت عدداً من الكلمات أو المقاطع ، يعادل ما يضعه في الشطر أو البيت الثاني منها ، ليتولد من ذلك الوزن^١ .

ويقسم الغربيون الشعر عادة الى « Epic » ، وهو شعر الملاحم ، حيث يمتاز بطول قصائده وفخامة أسلوبه، وبقصصه الذي يدور حول أبطال الملحمة والأحداث التي تعرض لها هذا النوع من الشعر . وشعر يقال له « Dramatic » ، وهو شعر مسرحي ، أي تمثيلي . وشعر يقال له « Lyric » ، وهو شعر غنائي . وشعر يقال له « Didactic » ، وهو شعر تعليمي ، أريد به التعليم ووعظ الانسان . ونجد النوع الأول منه عند اليونان والرومان والهنود والفرس والألمان وهم من الشعوب الهندوأوروبية ، أي الشعوب الآرية .

ولا نجد من شعر الملاحم ، ومن شعر (الدراما) في التوراة ، ولكننا نجد ما يشبه (الدراما) « Semi Dramatic » في سفر أيوب . ويكثر الشعر (الغنائي) المعدّ للترتيل والترنيم Lyric فيه . ففي كلمات موسى على البحر الأحمر ، التي تمثل غناء النصر « Triumphal Odes » ، وفي غناء (دبوره) « Deborah » ، وفي الزمير ، أشعار غنائية معدة للترتيل^٢ .

وقد أشير إلى إنشاد الشعر جماعة في التوراة ، فلما وصل العبرانيون الى (البشر) التي قال الرب فيها لموسى اجمع الشعب حتى أعطيهم ماءً، وحينئذ ترنم اسرائيل بهذا النشيد : اصعدي يا بشر نجابوا لها . بشر احتضرها الرؤساء ، احتضرها أشراف الشعب بمخصرة عصيهم^٣ . وقد لازم الترجم الشعر منذ أوائل أيامه ، ففي الترجم به تقوية له . وما النغم سوى (إيقاع) يجعله نوعاً من أنواع الغناء (نوطته) التفعيلات التي تكون بحوره في الأدب العربي . ولهذا نجد الشعر قد رافق الغناء بل هو نوع منه منذ نشأته .

ونجد القديس (نيلوس) « Nilus » (المتوفى حوالي سنة ٤٣٠ م) ، يصف غارة بدوية على دير سيناء وقعت سنة ٤١٠ م ، وتحدث في أثناء حديثه عنها عن إنشاد الأعراب أناشيد بترانيم عندما كانوا يأخذون المساء ، وهي ترانيم لم يشر

John D. Davis, A Dictionary of the Bible, London, 1958, p. 616. ١

John D. Davis, A Dictionary of the Bible, p. 616. ٢

العدد ، الاصحاح ٢١ ، الآية ١٦ وما بعدها . ٣

القديس الى نوعها ، ولكني لا استبعد أن تكون من الرجز ، الذي يقال في المناسبات ، في استنباط الماء ، وفي حفر الآبار ، أو رفع الأثقال ، أو في بناء ، وأمثال ذلك مما لا يزال مألوفاً ، ويشاهد حتى بين أهل القرى . وإن كان بعضها ترانيم غير فنية ولا مصقولة ، ولكنها ذات ايقاع على كل حال^١ .

ومن هذا القبيل الأشعار التي أنشدتها العرب في انتصارهم على الرومان سنة ٣٧٢ م ، والتي أشار إليها المؤرخ (سوزومن) في كتابه (تاريخ الكنيسة) ، فقد ذكر أن العرب كانوا ينشدون الشعر في قتالهم هذا مع الرومان^٢ . والواقع أننا لا نكاد نقرأ خبر معركة إلا ونجد الشعر فيها في مقدمة الأسلحة التي تستخدم فيها ، وقد يسبق للسيف في الضرب ، حيث يخرج الفارس وهو يرتجز رجزاً يشيد فيه بنفسه ، وبقومه ، مهوناً من أمر من سينازله ثم يقابله من يتبارى معه برجز آخر ، يشيد فيه بنفسه ، رداً على خصمه .

والشعر العبراني القديم نوعان : النوع المعدل للتربيل ، والنوع التعليمي . ومن النوع الأول المزامير ، ومن النوع الثاني الأقسام الشعرية من كتب الأنبياء . والمزامير « Psalms » ، هي من أفصح الأشعار الدينية في التوراة ، وهي تعبر عن الحس الديني عند الانسان ، وعن شعور البشر تجاه خالقهم ، وهي تمجيد وحده له ، واعتراف بضعف الانسان تجاه خالقه ، فهو يرتل فيها حمد الله والثناء عليه . أما الأمثال والجامعة ، وبعض أقسام كتب الأنبياء ، فهي وإن كانت دينية في الأصل ، إلا انها وضعت لغايات تعليمية ، لإرشاد الناس وتقديم النصيح لهم .

ولا توجد القوافي والبحور في هذا الشعر ، ومع ان بعض الأشعار العبرانية قد نظمت أحياناً على الحروف الأبجدية ، لكن أشطرها لم تتضمن عدداً مائلاً من المقاطع ، ليتولد منها الوزن ، أي النغم . وانما نظمت على مقابلة الأفكار في الشطر الأول والثاني ، أو في الشطرين الأولين والثالث . وقد يشرح فكر الشاعر على نوع مقابلة فكرين ، إما لوجه المشابهة بينهما ، وإما لوجه المخالفة بينهما . ومن أمثلة أوجه المشابهة :

١ غرونبوم (١٣٣ وما بعدها) .

٢ غرونبوم (١٣٤) .

فن هو الانسان حتى تذكره
أو ابن آدم حتى تفتقده^١

وما جاء في المزمور التاسع عشر من قوله :

السّموات تحدّث بمجد الله
والفلّك يخبر بعمل يديه
يوم الى يوم يذيع كلاما
وليل الى ليل يبدي علما^٢

ومن أوجه المخالفة بينهما :

لأن عاملي الشر يقطعون
والذين ينتظرون الرب هم يرثون الأرض^٣

وما جاء في الأمثال :

الجواب اللين يصرف الغضب
والكلام الموجه يهيج السخط
لسان الحكماء يحسن المعرفة
وقم الجهال ينزع حماقة^٤

وقد ذهب بعض العلماء الى وجود (التفاعيل) « Feet » و(الوزن) « Metre » في الشعر العبراني، وذهب بعض آخر الى علم وجود التفاعيل فيه ، وذهب بعض الى وجود القافية « Rhyme » والوزن « Rhythm » في الشعر العبراني . وهو شعر يختلف عن شعرنا المألوف ، وهو وإن أمكن تقسيمه الى أشطر وأبيات ، إلا أن له خصائص يختلف بها عن الشعر العربي . فترى مثلاً أن الأبيات في

١ المزامير ، المزمور الثامن ، الآية ٤ .

٢ الآية ١ وما بعدها .

٣ المزمور ٣٧ ، الآية ٩ .

٤ الأمثال ، الاصحاح الخامس عشر ، الآية ١ وما بعدها .

القصيدة العبرانية غير متساوية ، فقد يطول فيها بيت ، وقد يقصر فيها بيت آخر .
وقد ترتب الأبيات على ترتيب حروف الهجاء ، كما في الأمثال وفي المزامير^١ .

ومن أهم أبواب الشعر العبراني ، باب يقال له : « Parallelism » في الانكليزية ،
أي التطابق . وهو أنواع . وقد بحث فيه العلماء^٢ .

وقد يكون الشعر على صورة أفكار متسلسلة متتابعة ، فتتقدم الفكرة تدريجياً ،
وتوضح الأبيات التالية السابقة مثل :

ناموس الرب كامل يرد النفس
شهادات الرب صادقة تصير الجاهل حكيماً
وصايا الرب مستقيمة تفرّح القلب
أمر الرب طاهر ينير العينين
خوف الرب نقي ثابت الى الأبد
أحكام الرب حق عادلة كلها
أشهى من الذهب والابرز الكثير
وأحلى من العسل وقطر الشهاد^٣

ومن أنواع الشعر في التوراة ، ما نقول له (ترادف المتطابقات)
« Synonymous Parallelism » ، وذلك أن تكون فكرة الشطرين مترادفة ، وكذلك
المصطلحات الواردة فيها ، فترتبط فكرة الشطر الأول بالشطر الثاني من البيت ،
مثل : « وقال لآمك لامراته عادة وصلة : اسمعوا قولي يا امرأتي لآمك واصغيا
لكلامي . انني قتل رجلاً لجرحي وفني لشلخي »^٤ ، فالشطر الأول هو :
« وقال لآمك ... الخ » ، والشطر الثاني المتمم هو : « انني قتل رجلاً
لجرحي » ، ومثل : « انقلد من السيف نفسي . من يد الكلب وحيدتي ، خلصني
من فم الأسد ومن قرون بقر الوحش استجب لي »^٥ . ومثل :

1 The Bible Dictionary, Vol., II, p. 305. ff.

2 John D. Davis, A Dictionary of the Bible, p 616.

3 المزمور ١٩ ، الآية ٧ - ١٠ ، قاموس الكتاب المقدس (١ / ٦٢١) .

4 التكوين ، الاصحاح الرابع ، الآية ٢٣ .

5 المزامير ، المزمور ٢٢ ، الآية ٢٠ وما بعدها .

كيف ألعن من لم يلعه الله
وكيف اشم من لم يشمه الرب^١

وما نقول له ب (تناقض انتطابقات) ، أو (تضاد المتطابقات)
« Antithetic Parallelism » . وذلك أن يكون الشطر الثاني مثل الشطر الأول في
احتوائه على الحقيقة ، أي الفكرة ، ولكنه جاء بها بصورة أخرى ، أي متضادة
Contrast . فالشكل متطابق تماماً ، وأحد جزئي الشطر مترادف ، أما الجزئان
الآخران ، فتعارضان . وأكثر ما يقع ذلك في المثل :

الابن الحكيم يسرّ أباه
والابن الجاهل حزن أمه^٢

ونوع آخر يقال له (الایقاع المتصاعد) ، أو (الوزن الصاعد) ،
« Ascending Rhythm » « Stair-like » ، وهو شعر يرد في الشطر الثاني منه
جزء مما ورد في الشطر الأول ، أو مختصر الشطر الأول ، ليضاف عليه شيء
جديد . مثل :

حتى يعبر شعبك يا يهوه
حتى يعبر الشعب الذي اقتنيته^٣

ونوع يقال له (المتطابقات المركبة) « Synthetic Parallelism » أو « Constructive »
وذلك بأن يكون ما يرد في الشطر الثاني مغالفاً ، أو على الأكثر لما ورد في الشطر
الأول . على أن المتطابقات في الشرطين تكون موجودة . مثل :

لا تجاوب الجاهل حسب حماقه
لئلا تعدله انت
جاوب الجاهل حسب حماقه
لئلا يكون حكيماً في عيني نفسه^٤

-
- | | |
|---|--|
| ١ | العدد ، الاصحاح ٢٣ ، الآية ٨ ، |
| ٢ | الامثال ، الاصحاح العاشر ، الآية ١ . |
| ٣ | الخروج ، الاصحاح الخامس عشر ، الآية ١٦ . |
| ٤ | الامثال ، الاصحاح ٢٦ ، الآية ٤ . |

ومثل : ارفعن أيتها الأرتاج رؤوسكن وارفعنها أيتها الأبواب الدهريات فيدخل ملك المجد .

من هو هذا ملك المجد . رب الجنود هو ملك المجد . سِلاه^١ :
ومن النوع المعروف بـ « Progressive Parallelism » ، ما ورد في (أيوب)
من قوله : « هناك يكف المتفقون عن الشغبِ وهناك يستريح المتعبون . الأسرى
يطمئنون جميعاً ، لا يسمعون صوت المسخر . الصغير كما الكبير ، والعبد حرّاً
من سيده »^٢ . وقد جاء الشطر الثاني بمعانٍ إيضاحية جديدة ، لها صلة بما ورد
في الشطر الأول من معنى^٣ .

ومن النوع الذي يقال له : « Climatic Parallelism » ، ما ورد في (المزمير) :
« صوت الرب يولد الأيبل ، ويكشف الوعور وفي هيكله الكل قائل المجد .
الرب بالطوفان جلس ويجلس الرب ملكاً الى الأبد . الرب يعطي عزراً لشعبه ،
الرب يبارك شعبه بالسلام »^٤ ، وقوله : صوت الرب بالقوة . صوت الرب
بالجلال . صوت الرب مكسر الأرض ويكسر الربّ أرض لبنان ، ويمرحها مثل
عجل . لبنان وسيريون مثل غرير البقر الوحشي^٥ . حيث تعاد الألفاظ فيه
حسب سلم ارتفاع المعاني .

ويتكون الـ « Parallelism » في العادة من بيتين ، أو شطرين ، فهو من
نوع (دوبيت) ، « Distich » ، غير أنه يتكون أحياناً من ثلاثة أبيات
« Tristichs » ، ومن أربعة أبيات « Tetrastichs » ، ومن خمسة أبيات
« Pentastichs » .

ولا يرد الشعر العبراني على صورة مقطوعات أو قصائد بالضرورة ، ومع
ذلك فقد ورد في بعض المزامير على شكل قصيدة مكوّنة من ثلاثة أقسام متساوية
يربط بين أجزائها رابط ، هو بيت مكرر « Recurring Verse » . ونرى أن
أحد المزامير قد تألف من ثلاث مقطوعات ، كل قطعة منها بثلاثة أبيات ، وفي

-
- ١ المزامير ، المزمور ٢٤ ، الآية ٩ وما بعدها .
 - ٢ أيوب ، الاصحاح الثالث ، الآية ١٧ وما بعدها .
 - ٣ John D. Davis, A Dictionary of the Bible, p. 616.
 - ٤ المزامير ، المزمور ٢٩ ، الآية ٩ وما بعدها .
 - ٥ المزامير ، المزمور ٢٩ ، الآية ٥ وما بعدها .

نهاية كل مجموعة علامة (سلاه) « Selah »^١ . وقد تنتهي المجموعتان بعبارة تتكرر على نحو موصول في قصيدة أو أغنية « Refrain » .

ونجد في الزمائر شعراً ورد منظوماً على ترتيب الأبجدية ، فقد ورد مكوناً من اثنتين وعشرين قطعة ، أي بعدد حروف الهجاء ، تكونت كل قطعة منها من ثمانية أبيات « Verses » ، وتبدأ كل قطعة بالحرف العدي . ونجد ان الـ « Lamentations » ، قد رتب على الحروف^٢ ، وهي مقاطع شعرية حزينية ومرثي « Eligies » تمثل شعر المرثي الأصل « Threnody » في العبرانية . ويتوقف وزنها على بناء كل بيت . ولكن البيت فيها لا يشبه بيت الشعر في اللغة اللاتينية من نوع الأبيات المكونة من ستة تفاعيل « Hexameter » ، أو من الخمسة التفاعيل « Pentameter » ، وانما يتكون من خمسة ألفاظ أو ستة أو سبعة، مكونة ما يعادل أحد عشر مقطوعاً « Syllables » . يتكون كل بيت منها من شطرين غير متساويين أحدهما من ستة ، والآخر من خمسة ، أو من أربعة والآخر من ثلاثة ، يفصل بينها الاحساس والقواعد النحوية^٣ .

ونجد Sirach من أسفار (الأبوكريفا) « Apocrypha » ، وقد نظم على هيئة (دوبيت) Stichoï من حيث الوزن وعدد المقاطع . وهو من الشعر التعليمي : « Diadactic »^٤ .

وقد قسّم بعض العلماء الشعر العبراني الوارد في التوراة الى أقسام : شعر يتمثل بما ورد منه في أسفار (أيوب) « Job » وفي نشيد (سليمان) ، ونوع يتمثل بما جاء في (الزمائر) وهو شعر غنائي ، أي يتغنى به ، وقد يشد على إيقاع (الزمار) ، وهو يقال له « Lyric » في الإنكليزية ، وشعر ثالث يتمثل في (الأمثال) وفي أسفار الحكمة « Ecclesiasticus » التي هي في التهذيب وفي تعليم الإنسان « Didactic » ، وفي الحكم الموجزة المفيدة (Sententious) . والنوع الأول هو شعر فني ، وأما النوع الثاني فمختصر موجز ، نظم لينشد ، ولكل قسم طرق وبحور^٥ .

١ الزمائر ، المزمور الرابع والعشرون ، المزمور السادس والثلاثون .

John D. Davis, A Dictionary of the Bible, p. 616.

Hastings, p. 527

Hastings, Vol., 4, p. 7.

The Bible Dictionary, Vol., II, p. 305.

ولأجل إحلال الإيقاع أو النغم في الشعر، فقد يضطر أحياناً إلى مزج كلمتين قصيرتين ، ليتلفظ بهما ككلمة واحدة . كما يفعل ذلك لأسباب أخرى منها مراعاة (القافية) التي يقال لها (ميقف) (مقف) « Maqqeph » في العبرانية . أما إذا كان العكس ، وذلك بأن تكون الكلمة ثقيلة وطويلة ، فقد تقرأ وكأنها ذات مقطعين ، أو جزءين .

وإذا كان الشعر مؤلفاً من أبيات عديدة ، تكون وحدة واحدة ، فيطلق عليها (مقطوعة شعرية) « Strophe » . ولكن المراد بها في الغالب القطعة الكبيرة من الشعر ، أي (القصيدة) . وأما الشعر القصير ، المؤلف من بيتين ، أي من (دوبيت) وهو يقال له « Couplet » أو « Distich » في الانكليزية ، فإنه يكون الطابع الغالب على الشعر في هذه اللغة . يتكون من « Parallelism » ، أي (موازنات) أو (متطابقات) . وقد نظمت الأشطر والأبيات ، بحيث تتناسب فيما بينها في الألفاظ والجمل والمعاني . فيرد في الشطر الثاني جزء مما ورد في الشطر الأول بنصه أو باختيار لفظة منه ، لتذكير القارئ بالشطر المتقدم، فيتخرط مراد ذلك الشطر^١

ونجد في التوراة قطعاً عدّها العلماء مقطعات شعرية ، بينما هي خالية من النغم ، أي الوزن ، ونجد قطعاً ذات نغمة موسيقية ، أي ذات وزن ، فهي من الشعر الصحيح ، المقرون بنغم . والنوع الأول هو نثر « Prose » خالص ، لكنه يمتاز عن النثر المألوف باستعماله المجاز والاستعارة والكناية والتعابير الفنية والألفاظ المؤثرة في التعبير عن الرأي . فهو يعبر عن شعور عميق كامن في النفس بأسلوب أدبي رفيع لذلك عدّ من الشعر ، مع انه نثر في الواقع .

ويتكون البيت من شطرين . ومن مقاطع « Stanza » ومن « Strophe » ، أي مقطوعة . ويتكون الشطر والبيت من مقاطع ، أي من الألفاظ نظمت بعضها الى بعض بحيث اذا ما قرئت بصوت مرتفع ، فإنها تقرأ بنغمة ، وبموسيقى مؤثرة . ويتقضي ذلك تنظيم الألفاظ والمقاطع بشكل منسق ذي نغم ، لتولد منه موسيقية الشعر . فلشعر ارتباط وثيق بالموسيقى والغناء . ونجد موسيقى الأشطر والأبيات متناسبة ومن إيقاع واحد ، أي من (بحر) واحد ، وتحافظ القطعة الشعرية ،

على هذه الموسيقى ، حتى لا يقع تنافر فيها ، فتبدو متنافرة نائية على السمع ، فلا تعد شعراً من صميم الشعر .

ويدخل (الترقيم) في باب الشعر الذي يقرأ مع الموسيقى ، وتعد (الأمثال) في جملة أنواع الشعر . ونظراً لعدم وجود نصوص شعرية في العبرانية ، وفي اللغات السامية ، مدونة بصورة واضحة تبين مقاطعها كيفية التنغي أو النطق بها ، ونظراً لجهلنا أصول الايقاع عند القدماء وطرق الغناء التي تغنى بها ، ليس من السهل علينا في الوقت الحاضر ابداء رأي واضح عن الشعر عند قدماء الساميين ، وفي جملتهم العرب بالطبع .

فنحن لا نعرف اليوم عن الشعر العربي القديم ، الذي سبق الإسلام بعصور كثيرة ، أي شيء . وليس في النصوص الجاهلية التي وصلت إلينا ، نص فيه شعر أو فيه تلميح عنه . وكل ما يقال عنه ، هو حدس وتخمين وظن وقياس قيس على ما نعرفه عن الشعر عند بقية الساميين ، وما نعرفه عن ذلك الشعر هو بحذ ذاته شيء قليل . وما لم يعثر على نصوص شعرية جاهلية ، فإن من غير الممكن التحدث عنه بشيء ذي بال .

والشعر هو شعور وتعبير عن أحاسيس وخواطر قائله ، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من أن يتناسب مستواه من الرقي أو السذاجة مع مستوى الشاعر العقلي . ومعنى هذا انه بدأ ساذجاً بسيطاً ، ثم نما وتطور بنمو وبتطور عقل قائله . وعلى هذا فشعر كل أمة بدأ كما يبدأ كل مولود ساذجاً بسيطاً ، ثم نما وتطور ، وهو لا يزال يتطور ما دام العقل الانساني خاضعاً لسنة التطور ، وما دام الانسان حياً . ولد من هذا الكلام الاعتيادي المرسل المشور ، بأن ميز عنه بعض التمييز ، ثم زادت هذه الميزات أو العلامات الفارقة ، حتى صار صنواً للنثر ، بحيث صار الكلام : نثراً ونظماً .

وقد أشير الى (الشعراء) في العهد الجديد ، أي في الانجيل . ورد في (أعمال الرسل) : « لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد . كما قال بعض شعرائكم أيضاً »^١ . مما يدل على أهمية الشعراء في ذلك العهد .

١ أعمال الرسل ، الاصحاح السابع عشر ، الآية ٢٨ .

والشعر أوقع أثراً على النفس من النثر ، لما فيه من سحر النغم ومن جاذبية في الموسيقى ، ومن توازن وتطابق في بنائه ، ومن انسجام في تكوين أجزائه ، بحيث إذا أسقط جزء من شطري بيت أو وضع جزء غريب في موضع الساقط ، وهو ليس في وزنه اختل التوازن فيه أي النغم : ولهذا اقترن الشعر بالغناء ، لوجود النغم فيه ، والنغم من أسس الغناء . فكان الشاعر يترنم بشعره ويتغنى به ، ويقرأه بنغمة خاصة ليؤثر بذلك على سامعيه ، وقد يقرن ترنيمة هذا بتحريك رأسه أو يديه أو جسمه من شدة انفعاله وتأثره بشعوره ، ليؤثر بذلك في السامعين فيشبه موقفه هذا موقف السحرة في الأيام القديمة . ونظراً لتغني اليونان والرومان عند تلاوتهم أشعارهم ، قالوا : غنى شعراً ، بمعنى نظم شعراً^١ ، أو قال شعراً أو صنع شعراً . ونحن نقول في عربيتنا « أنشد شعراً ، نريد : قال شعراً ، وقرأ شعراً ، وأنشد الشعر ، قرأه ، وأنشد بهم ، أي هجاهم . » وفي الخبر أن السليطين قالوا لغسان هذا جرير يشد بنا ، أي يهجوننا . وتناشدوا أنشد بعضهم بعضاً^٢ . و « النشيد رفع الصوت . قال أبو منصور : وإنما قيل للطالب ناشد لرفع صوته بالطلب ، وكذلك المعرف يرفع صوته بالتعريف يسمى منشداً . ومن هنا انشاد الشعر ، إنما هو رفع الصوت^٣ . وفي هذا التفسير دلالة على أن الشعراء كانوا يرفعون صوتهم عند قولهم الشعر ويترنمون به ، والترنم والترتيل والإنشاد من ألوان الغناء . ولا استبعد كون قدماء الشعراء الجاهليين كانوا يترنمون في أشعارهم ، أي أنهم كانوا ينشدونها انشاداً ، بطريقة غنائية ، قد تصاحب بآلة موسيقية ، وربما كانوا يتغنون بالشعر أمام الأصنام ، تمجيداً لها وتقرباً إليها ، ومن هنا جاء مصطلح : « أنشد شعراً » ولا استبعد أن يكون هذا شأن العرب الجنوبيين في معابدهم ، نظراً لما كان لهم من معابد ضخمة وطقوس دينية وتقرب إلى الأصنام .

ولا يستبعد احتمال ترنيم بعض الشعراء الجاهليين شعرهم على نغم آلة من آلات الطرب ، على نحو ما يفعله اليوم بعض الشعراء الذين ينشدون أشعارهم بالعامية على (الرباب) (الربابة) ، ينشدونه عند أبواب البيوت في الأعياد وفي المناسبات ،

١ زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١/٦٤) .
٢ تاج العروس (٥١٤/٢) ، (نشيد) .
٣ تاج العروس (٥١٤/٢) ، (نشيد) .

يستجدون به أصحاب البيت والناس الذين قد يجتمعون حولهم لسماع الغناء . وقد يكون هؤلاء من ترسبات أولئك الشعراء الجاهليين .

وقد بدأ الشعر بداية أي شعر آخر ، بدأ بداية بسيطة ، بدأ جملاً مقفاة ، الكلام فيه يوالي بعضه بعضاً على روي واحد ، أي سجعاً^١ . أو كلاماً يشبهه ، فيه نغم وإيقاع وتعبير عن إحساس . ثم تفنن فيه ، وزيدت أنغامه ، أي بحوره وأغلبها من الأنغام البسيطة السهلة ، المتناسبة مع الحياة الأولى ، ثم تقدم بتقديم الحياة ، واتخذ صوراً متعددة تناسب مع حياة الأمم وظروفها وعقلياتها ، وماتت أوزان ، وتولدت أوزان ، وظهرت فيه أساليب عند أمة ، لم تعرف عند أم أخرى ، لاختلاف الحياة والأذواق والأجواء التي يولد فيها الانسان .

والشعر الجاهلي الواصل الينا ، إما أبيات ، نسبت الى شعراء ، وقد لا تناسب ، وإما جملة أبيات يقال لها (قطعة) « Fragment » ، وإما (قصيدة) « Ode » وهي ما زاد عدد أبياتها على حدود القطعة التي رسمها لها علماء الشعر .

وقد لعب (السجع) دوراً هاماً في حياة الجاهليين ، تكلم به الكهان بصورة خاصة ، ولهذا اشتهر وعرف باسمهم فقيل : « سجع الكهان » . ونطق به الخطباء ، وقد تعمقوا فيه فاستعملوا أقصى ما ملكته بلاغتهم من أساليب التأثير على النفوس ، لسحر عقول المستمعين لهم . فصار نوع من أنواع الكلام المقفى ، ظاهره القافية والروي ، وباطنه سحر معاني الشعر . فهو في الواقع شعر مقفى ينقصه الوزن ليكون شعراً تاماً . و (الروي) ، حرف القافية ، الحرف الذي تبنى عليه القصيدة ، ويلزم في كل بيت منها في موضع واحد^٢ . فلما أضيف اليه النغم ، أي الوزن صار شعراً ، له أوزان وبحور ، على نغمها ينظم الشاعر شعره .

والسجع، وان ظهر في عربيتنا كلام مقفى خال من الوزن ، إلا أنه في الواقع كلام موزون ، روعي فيه ، أن يكون الشطر الثاني من الجملة مواز أي مساو للشطر الأول منها ، بحيث يكون بوزنه وبقافيته . ومن هنا عدّ شعراً عند الأمم الأخرى لأنك إذا قرأت السجع الأصيل المعنى به ، أو السجع الذي استرسلت به السليقة ، والخارج من قلب إنسان ذي حس مرهف ، تجد فيه الميزان الصحيح

١ تاج العروس (٣٧٥/٥) ، (سجع) .
٢ تاج العروس (١٥٩/١٠) ، (روى) .

والمقابلة التامة والمطابقة الصحيحة بين الأجزاء ، كل كلمة فيه تقابل كلمة مثلها ، وكل عيار فيه يقابله عيار في وزنه وثقله . وفي معانيه معان شعرية وسحر بيان ، ثم إنك إذا قرأته بصوت مرتفع ، وبحركات صوتية ذات ترنم ، بنغم فيه حركات وسكنات ، صار شعراً . ومن هنا رمت قريش الرسول بقول الشعر ، وبأنه شاعر لما سمعت القرآن . فرد عليهم بقوله تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له »^١ . و « إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر ، قليلاً ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون »^٢ .

وما كانت قريش لترمي الرسول بقول الشعر ، وترغم أن القرآن شعر أو أن فيه شعراً ، لو أنها كانت تعتبر الشعر الكلام الموزون المقفى حسب ولا غير ولا تدخل التخيل فيه ، أي المعنى الشعري . ومن هنا قال المفسرون : « لأن انتفاء الشعرية عن القرآن أمر كالبين المحسوس . أما من حيث اللفظ فظاهر ، لأن الشعر كلام موزون مقفى ، وألفاظ القرآن ليست كذلك ، إلا ما هو في غاية الندرة بطريق الاتفاق من غير تعمد . وأما من جهة التخيل ، فلأن القرآن فيه أصول كل المعارف والحقائق والبراهين والدلائل المفيدة للتصديق إذا كان المكلف ممن يصدق ولا يعاند . وانتفاء الكهانة عنه أمر يفترق إلى أدنى تأمل يوقف على أن كلام الكهان أسجاع لا معاني تحتها وأوضاع تنبو الطباع عنها »^٣ . وهذا المذهب الذي ذهب قريش فيه في تفسير الشعر ، هو الذي حمل علماء التفسير على الاحتراس كثيراً في تفسير معنى الشعر وفي تحديده ، وتحديد مفهوم الشاعر . فقالوا : « الشعر وهو الكلام المقفى الموزون قصداً . والتقييد بالقصد مخرج ما وقع موزوناً اتفاقاً ، فلا يسمى شعراً ، وما يجوز من الرجز ، وهو نوع من الشعر عند الأكثر »^٤ .

على أن علماء العربية لم يغفلوا أو لم يشاءوا أن يخفوا حقيقة واقعة ، هي أن

- ١ سورة يس ، الآية ٦٩ ، تفسير الطبري (١٨/٢٣) ، ابن كثير ، تفسير (٥٧٨/٣) وما بعدها .
- ٢ الحاقة ، الآية ٤٠ وما بعدها ، تفسير الطبري (٤١/٢٩) ،
- ٣ تفسير النيسابوري ، (٣٧/٢٩) ، (حاشية على تفسير الطبري) ، (بولاق) ، (وليس هو بشعر كما زعمه طائفة من جهلة كفار قريش ، ولا كهانة ولا مفتعل ولا سحر يؤثر ، كما تنوعت فيه أقوال الضلال وآراء الجاهل) ، تفسير ابن كثير (٥٧٨/٣) ، (في تفسير سورة يس) .
- ٤ ارشاد الساري (٨٨/٩) .

في القرآن آيات ، إذا تأملت فيها وجدتها وكأنها شعر منظوم ، أو من قبيل الشعر المنشور . مثل سورة الانفطار :

إذا السماء انفطرت
وإذا الكواكب انتثرت
وإذا البحار فجرت
وإذا القبور بعثرت
علمت نفس^١ ما قدمت وأخرت^١

والجواب على ذلك، ان ما نجده في القرآن من آيات تبدو وكأنها شعر موزون ، هو من قبيل ما يقع في كلام الناس عفواً ومن غير تعمد من كلام ، لو تأملت فيه وجدته كلاماً موزوناً ، ولكن لم يقصد به أن يكون شعراً ، والشعر لا يعدّ شعراً إلا إذا كان قد صدر عن تفكير وعمل خاطر ، وإعمال رأي ، ومن رجل اتخذ الشعر صنعة له .

وليس لدى أي أحد علم بكيفية تطور الشعر العربي من حالته البدائية الى بلوغه درجة البحور . ولا يستطيع أحد اثبات أن هذه البحور التي ثبتها (الخليل) والأخفش ، وحدداها ، هي كل بحور الشعر الجاهلي ، فربما وجدت بحور أخرى لم يصل خبرها الى علم هذين العالمين أو غيرهما ، ولا سيما في الشعر القبلي الذي لم يشتهر أمره ، ولم يعرف إلا بين السواد ، ومنه الشعر العامي ، أي الشعبي ، أو المحلي ، المنظوم باللهجات الخاصة ، إذ لا يعقل عدم وجود شعر شعبي في ذلك العهد ، نظمه سواد الناس ، على غرار الشعر العامي الذي يقال له الشعر النبطي في جزيرة العرب ، فالشعر هو شعور ، ولا يقتصر الشعور على طبقة من الناس دون أخرى .

ونحن لا نملك في الوقت الحاضر تعريفاً علمياً للشعر ، نستطيع أن نقول بجزم وبتأكيد انه من تحديد الجاهليين له . والتعريف المألوف له ، هو كما ذكرت تعريف اسلامي محض . وقد رأينا كيف احترم علماء التفسير في تعريفه، فقيده بكونه « الكلام المقفى الموزون قصداً » لإخراج ما وقع موزوناً من الكلام اتفاقاً

١ سورة الانفطار ، ٨٢ ، الآية ١ - ٥ .

من الشعر ، وهو ما وقع في القرآن وفي كلام الرسول ، مما يدل على ان العرب في أيام الرسول كانوا أوسع إدراكاً لمفهوم الشعر من الاسلاميين ، وانهم كانوا يدخلون فيه ما أخرجه من جاء بعلمهم في الاسلام منه ، بسبب فرية قريش على القرآن والرسول . وبسبب هذه الفرية ، وقع جدل فيما بين الاسلاميين في موضوع الرجز ، هل هو شعر ، أو هو باب خاص من أبواب الكلام لا يدخل في باب الشعر ، لثبوت ورود الرجز على لسان الرسول !

وقد أدرك العلماء ان هنالك فروقاً بين العرب وبين العجم في نظرهم الى الشعر . قال (الجاحظ) في معرض كلامه على ميزات اللسان العربي وتفوقه على ألسنة الأعاجم : « والأمثال التي ضربت فيها أجود وأسير . والدليل ان البديهة مقصور عليها ، وان الارتجال والاقتضاب خاص فيها ، وما الفرق بين أشعارهم وبين الكلام الذي تسميه الروم والفرس شعراً ، وكيف صار النسيب في أشعارهم وفي كلامهم الذي أدخلوه في غنائهم وفي ألحانهم انما يقال على ألسنة نساتهم ، وهذا لا يصاب في العرب إلا القليل اليسير ، وكيف صارت العرب تقطع الألحان الموزونة على الأشعار الموزونة ، فتضع موزوناً على موزون ، والعجم تخطط الألفاظ فتقبض وتبسط حتى تدخل في وزن اللحن فتضع موزوناً على غير موزون »^١ . فهذا رأي (الجاحظ) في الشعر العربي وفي الشعر عند الأعاجم .

وللشعر أوزان ، هي بحوره . ضبطها (الخليل بن أحمد) القراييدي في الاسلام ثم من جاء بعده . استبطلت من الشعر المؤلف الذي كان سائداً في أيامه ، وضبطت بأوزان هي (التفعيلات) . بيد أننا لا نستطيع أن نقول إن الأوزان التي ضبطها الاسلاميون ، تمثل جميع بحور الشعر الجاهلي ، وأن علماء الشعر كانوا قد استعرضوا كل ذلك الشعر ، وحصره حصراً ، ودرسوه درساً ، فوجدوه لا يخرج خارج هذا الحصر ، فلم يفتهم منه ولا بحر واحد . فقول مثل هذا لا يمكن أن يقال ، وهل هنالك من دليل يؤيده ويستند ؟ وأنا لا استبعد احتمال عدم وقوف علماء الشعر على بحور أخرى ، لم يصل علمها اليهم بسبب موتها قبل الإسلام ، أو لقلة من كان ينظم بها ، ألا لأنها كانت من الأشعار التي لم يصل علمها الى علماء الشعر ، لكونها من أشعار العرب الجنوبيين الذين كانوا يتكلمون

١ البيان والتبيين (٣٣) ، (بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ١٩٥٩ م) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر) .

باللهجات العربية الجنوبية، أو لكونها أشعار مناطق بعيدة لم يألف علماء اللغة والشعر الذهاب إليها ، أو لأنها من الشعر (العامي) ، البعيد عن العربية المصطفاة ، ولأسباب أخرى .

ونجد في خبر : (هيب بن مالك) اللهي ، المعروف بـ (لب) ، سجعاً ورجزاً ، نستطيع أن نقول انه — إن صح — يمثل مرحلة من مراحل الشعر عند الجاهليين ، تفيدنا دراستها فائدة كبيرة في الوقوف على تطور الشعر الجاهلي . فقد ذكر انه سمع الكاهن (خطر بن مالك) ، وكان من أعلم كهان (بني لب) ، يقول :

عودوا الى السحر اثنوني بسحر
أخبركم الخير أخير أم ضرر
أم لأمن أو حذر

وذكر انه سمع الكاهن يقول :

أصابه أصابه خامره عقابه
عاجله عذابه أحرقه شهابه
زايله جوابه يا ويله ما حاله
يليله بلباله عاوده خباله
فقطعت حباله وغبرت أحواله

ثم أمسك طويلاً ، وهو يقول :

يا معشر بني قحطان أخبركم بالحق والبيان
أقسمت بالكعبة والأركان والبلد المؤمن والسدان
قد منع السمع عتاة الجان بثاقب بكف ذي سلطان
من أجل مبعوث عظيم الشأن يبعث بالتريل والقرآن
وبالهدى وفاصل الفرقان تبطل به عبادة الأوثان

ثم قال خطر :

أرى لقومي ما أرى لنفسي أن يتبعوا خير نبي الإنس
برهانه مثل شعاع الشمس^١

١ الاصابة (٣١٢/٣) ، (رقم ٧٥٦٤) ، الاستيعاب (٣١٢/٣ وما بعدهما) ،
(حاشية على الاصابة) .

وهو كلام مصنوع ، لكنه يفيدنا مع ذلك في الوقوف على نماذج من الشعر ،
روعي في صنعه محاكاة طريقة الكهان في نظم الكلام . فهو يفيدنا من هنا في
الوقوف على أسلوب من أساليب نظم الكهان في أيام الجاهلية ، كما انه يفيدنا في
دراسة موضوع صلة الكهانة والسحر بالشعر .

والشعر بعد ، تعبير عن الخواطر والأحاسيس وخوارج النفوس ، فلا يمكن
أن تنحصر أغراضه في غرض واحد ، لأن التعبير عن الحياة العامة للإنسان يحتاج
الى ألوان كثيرة من ألوان التعبير الشعري ، والشعر الجاهلي على كونه ضيقاً ،
لضيق أفق الحياة الجاهلية وبساطتها ، فقد تنوعت فنونه ، تنوعاً انبثق من صميم
حياة الجاهليين ، وأدى بذلك المعاني التي كانت تتطلبها حياتهم أداءً يتناسب مع
درجة عقليتهم ومستواهم المعاشي وأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية . وقد استعرض
الإسلاميون تلك الأغراض التي قيل الشعر فيها فحصرها (أبو تمام) وهو نفسه
من مشاهير الشعراء في الاسلام في عشرة أبواب: هي الحماسة ، والمراثي ، والأدب ،
والتشبيب (النسب) ، والهجاء ، والإضافات ، والصفات ، والسير ، والملح ،
ومعرفة النساء . وجعلها غيره : الغزل ، والوصف ، والفخر ، والمدح ، والهجاء ،
والعتاب ، والاعتذار ، والأدب ، والحمريات ، والأهديات ، والمراثي ، والبشارة ،
والنهائي ، والوعيد ، والتحذير ، والتحريض ، والملح ، وباب مفرد للسؤال
والجواب^١ . وحصرها (ابن رشيق) في النسب ، والمديح ، والافتخار ، والثناء ،
والإقتضاء ، والاستنجاز ، والعتاب ، والوعيد ، والالذار ، والهجاء ، والاعتذار^٢ .
وورد في (ديوان المعاني) ان « أقسام الشعر في الجاهلية خمسة : المديح ، والهجاء ،
والوصف ، والتشبيه ، والمراثي ، حتى زاد النابغة فيها قسماً سادساً وهو الاعتذار ،
فأحسن فيه »^٣ .

وقد تعرض (أبو العباس ثعلب) ، لهذه الأغراض فجعلها : الأمر والنهي ،
والإنخبار ، والاستفهام . وهذه الأغراض الأساسية للشعر تنفرع الى المديح ،
والهجاء ، والثناء ، والاعتذار ، والغزل ، والتشبيه ، والوصف^٤ . وجعل

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (٧١/٣) .

٢ العمدة (١١٣/٢) وما بعدها ، (باب في أغراض الشعر وصنوفه) .

٣ ديوان المعاني (٩١/١) .

٤ جوستاف فون جرونباوم ، حضارة الاسلام (٣٣٣) .

(أبو هلال العسكري) أغراض الشعر : المديح ، والهجاء ، والفخر ، والغزل ، وجعلها : المديح ، والهجاء ، والثناء ، والغزل ، والوصف ، في موضع آخر^١ .

ونلاحظ ان بعض هذه الأبواب مثل الفخر والمدح والهجاء ، عامرة ، وبعض منها فقيرة ، حتى لا نكاد نجد فيها مما يخص الشعر القصصي Epique غير نزر يسير ، وفي هذا القليل ما هو مشكوك في صحته . وأما الشعر الديني الخاص بالأصنام والأوثان ، فلا نجد منه في الشعر الواصل إلينا لا قطعة ولا قصيدة . ولا يعقل بالطبع ألا يكون للجاهليين شعر في هذا الباب ، إذ كانوا يتوسلون ويلوذون بها ويتقربون إليها بالنور ، فلا يعقل ألا يكون لهم شعر في آلهتهم . ولا يعقل أيضاً قول من قال إن الجاهلي رجل مادي ، لم يحفل بالدين ولا بالمعاني الروحية ولا بالآلهة ، وهو من أبعد الناس عن الدين والتدين ، لذا لم يحفل بها في شعره . فلو كان الجاهلي على هذا النحو المذكور من الابتعاد عن الدين والتدين ، لما تقرب إليها بالنور وبالقرابين وهو فقير محتاج ، وبالحنج ، وهي عبادات لا يمكن أن ينكر وجودها عند الجاهليين أحد ، لورود ذكرها في النصوص الجاهلية ، وفي القرآن الكريم . والذي أراه ان سبب عدم وصول شيء من الشعر الديني الوثني الجاهلي إلينا ، لا يعود الى تقصير الجاهليين في هذا الباب ، بل الى انصراف الرواة عنه ، وامتناعهم من تدوينه بسبب الاسلام ، لأنه من صميم ديانة أهل الجاهلية التي اجتثها الاسلام ، إلا أن يكون ذلك الشعر من النوع الذي يتفق مع مبادئ الاسلام ، أو لا يتعارض معها ، فلم يجدوا غضاضة من روايته ، ولذلك رووه .

وقد ذكر علماء الشعر : أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار ، فبكى وشكا ، وخاطب الربع ، واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين ، إذ كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر ، لانتقالهم من ماء الى ماء ، وانتجاعهم الكلاً وتبهم مساقط الغيث حيث كان ، ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدة الوجد وألم الفراق ، وفرط الصبابة والشوق ، ليميل نحوه القلوب ويصرف اليه الوجوه^٢ . وذكر أن (امرأ القيس) « أول من فتح الشعر واستوقف ، وبكى في الدمن ، ووصف

١ ديوان المعاني (١ / ٣١ ، ٩١) ، حضارة الاسلام (٢٣٣) .

٢ الشعر والشعراء (١ / ٢٠) .

ما فيها ، ثم قال : دع ذا - رغبة عن النسبة - فتبعوا أثره ، وهو أول من شبه الخيل بالعصا والقوة والسباع والظباء والطير ، فتبعه الشعراء على تشبيهها بهذه الأوصاف . وكان أول من بكى الديار^١ .

والشاعر المجيد عندهم ، من سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر ، ولم يطل فيمل السامعين ، ولم يقطع وبالنفوس ظمأ الى المزيد^٢ . وليس لتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام ، فيقف على منزل عامر ، أو يبكي عند مُشيد البنين ، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر ، والرسم العافي ، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفها ، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعر ، أو يرد على المياه العذاب الجوارى ، لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامي ، أو يقطع الى الممدوح منابت الترجس والآس والورد ، لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيخ والحنوة والعرارة^٣ .

وقد جعل علماء الشعر (النسيب) باباً من أبواب الشعر ، ودعاه بعضهم (التشبيب) ، وجعل بعضهم (الغزل) باباً من أبواب الشعر ؛ بأن أدخل (النسيب) فيه^٤ . وطالما نجد الناس يخلطون بين الغزل والنسيب والتشبيب . والغزل في رأي بعض علماء اللغة اللهو مع النساء ، وقيل محادثة النساء ، وقيل : الغزل والنسيب هو مدح الأعضاء الظاهرة من المحبوب أو ذكر أيام الوصل والهجر أو نحو ذلك ، وذكر بعضهم ان الغزل والنسيب والتشبيب كلها بمعنى واحد ، وقيل : إن النسيب والتشبيب ، والغزل ثلاثها متقاربة ، ولهذا يعسر الفرق بينها حتى يظن انها واحد^٥ . وذكر ان النسيب التغزل ، وان قول الرجل نسب الشاعر بالمرأة ، بمعنى شرب بها في الشعر وتغزل وذلك في أول القصيدة ، ثم يخرج الى المديح ، والنسب هو الغزل في الشعر ، والنسيب في الشعر ، هو التشبيب فيه^٦ ، والتشبيب : ذكر أيام الشباب واللهو والغزل ، ويكون في ابتداء القصائد ، وسمى ابتداءها

١ الشعر والشعراء (٦٨/١) ، (دار الثقافة) .

٢ الشعر والشعراء (٢١/١) .

٣ الشعر والشعراء (٢٢/١) .

٤ العمدة (١٢٠/١) وما بعدها .

٥ تاج العروس (٤٣/٨) ، (غزل) .

٦ تاج العروس (٤٨٣/١) ، (نسب) .

مطلقاً وإن لم يكن فيه ذكر الشباب. وقيل تشبيب الشعر ترقيق أوله بذكر النساء^١. ولو دققنا النظر في معاني هذه المصطلحات ، نجد أن هناك فرقاً بين الغزل وبين التسيب ، والتشبيب في الأصل ، غير أن الناس خلطوا بين معانيها ، فلم يفرقوا بينها . فالتسيب مصطلح استعمل في الشعر للتعبير عن ذكر الديار والأحبة في ابتداء القصيدة ، فكأنه أخذ من النسب ، حيث يقص الشاعر نسب أحبته ومكانهم ، ومرايع الأحباب ومنازلهم واشتياق المحب الى لقائهم ووصالهم وغير ذلك مما فصلوه وسموه التشبيب^٢ ، فهو ليس بغزل إذن ، فقول امرئ القيس :

قفأ نبك من ذكرى حبيب ومترل بسقط اللوى بين الدخول فحرم

لا يعدّ غزلاً بالمعنى المفهوم من الغزل ، وإنما هو تذكر وتوجع على الأحبة والأصدقاء ، لمفارقتهم الديار ، وتركه الأحباب . أما الغزل ، فهو شيء آخر ، يمثل عاطفة الحب نحو المرأة ، وما يتعلق بها ، وهو ما يقال له : Love Poem في الانكليزية . وأما التشبيب ، فهو تذكر أيام الصبا والشباب ، والغزل فيه لما فيه من المغازلة والمنادمة^٣ ، ونظراً لما بين هذه الأمور من تداخل ، تداخلت المعاني في الإسلام ، وأخذت تعني معاني متقاربة ، أو شيئاً واحداً .

وشعر الهجاء « Lampoon » ، هو من أهم أبواب الشعر المهمة عند الجاهليين. ويتناول هجاء أشخاص وهجاء القبائل . ونظراً لما كان يتركه الهجاء من أثر في النفوس ، كان قوم الشاعر يروونه ويحفظونه للحط من شأن المهجو . ولهذا الأثر الخطير الذي كان يتركه الهجاء في المهجو من كسر في الاسم وتحطيم في المترلة ، فسر (كولدزيهر) لفظة (قافية) بمعنى (تحطيم القفى) ، أي (تحطيم الجمجمة). وذهب الى ان القافية ، كانت بهذا المعنى في الأصل ، ثم فسرها العلماء بعد ذلك تفسيرهم المألوف ، وهو تفسير مخالف للأصل^٤ .

قال أهل الأخبار : « وليس في العرب قبيلة إلا وقد نيل منها ، وهجيت ،

١ تاج العروس (٣٠٨/١) ، (شبيب) .

٢ تاج العروس (١٦/١) ، (نسب) .

٣ تاج العروس (٤٨٣/١) ، (نسب) .

Goldziher, History of Classical Arabic Literature, p. 9.

وعبرت ، فحطّ الشعر بعضاً منهم بموافقة الحقيقة ، ومضى صفحاً عن الآخرين لما لم يوافق الحقيقة ، ولا صادف موضع الرمية .

فن الذين لم يُحكّ فيهم هجاء إلا قليلاً على كثرة ما قيل فيهم: تميم بن مرة ، وبكر بن وائل ، وأسد بن خزيمة ، ونظراؤهم من قبائل اليمن .

ومن الذين شقّوا بالهجاء ، ومزقوا كل ممزق - على تقدمهم في الشجاعة والفضل - أحياء من قيس : (نحو غنى وباهلة) ، (ونحو محارب بن خصفة ابن قيس عيلان ، وجسر بن محارب) ، (ومن ولد طابخة بن الياس بن مضر: تميم وعُكل ابنا عبد مناة بن أد) ، (وعدي بن عبد مناة) ، كانوا قطيناً لحاجب بن زرارة، وأراد أن يستملكهم ملك رق بسجل من قبل المنذر، والحبطات . ولم تمدح قبيلة قط في الجاهلية من قريش كما مدحت غزوم^١ .

وقد تعرض (الجاحظ) لهجاء الشعراء للأشراف ، فقال : « وإذا بلغ السيد في السؤدد الكمال ، حسده من الأشراف من يظن أنه الأحق به ، وفخرت به عشيرته ، فلا يزال سفيه من شعراء تلك القبائل قد غاظه ارتفاعه على مرتبة سيد عشيرته فهجاه . ومن طلب عيباً وجده . فإن لم يجد عيباً وجد بعض ما إذا ذكره ، وجد من يغلف فيه ويحمّله عنه . ولذلك هجّي حصن بن حذيفة ، وهجّي زرارة بن عدس ، وهجّي عبدالله بن جدعان ، وهجّي حاجب بن زرارة^٢ . فالحسد في نظر (الجاحظ) من جملة عوامل الهجاء . فالنباهة والشرف والظهور في المجتمع من العوامل التي تكون سبباً دافعاً إلى الهجاء ، بسبب داء الحسد ، ولهذا أمن الحامل من هجاء المهجّين ، وسلم من أن يضرب به المثل في قلة ونذالة وبخل ، إذ ليس فيه ما يحمل الشاعر على النيل منه وعلى ما يغيظه ، ولا يحسده حاسد ، حتى يدفع الشاعر على التحرش به وهجائه . وقد هجّيت قبائل بأقذع أنواع الهجاء مع ما لها من شرف وفضل ومكانة وخير عيم ، بسبب حسد الحساد ، وغيظ القبائل الضعيفة . أو التي لا خير فيها منها ، فتحرش شعراؤها بها ، ودفع الحسد المهجّين إلى هجائها ، على كونهم من غمار الناس ومن الحاملين في الحسب والنسب^٣ .

١ العمدة (١٨٢/٢) وما بعدها .

٢ الحيوان (٩٣/٢) .

٣ الحيوان (٣٥٧/١) وما بعدها .

وقد هجيت الملوك ، فتناولتهم السنة الهجائين ، ولا سيما أولئك الملوك الذين
رزقوا طبعاً حاداً ، وعصباً حساساً متوتراً ، مثل عمرو بن هند ، والنعمان بن
المنذر الذي نال أكبر نصيب من الهجاء . ومما قيل فيه :

ملكٌ يلاعب أمه وقظينه^١ رخو المفاصل أيره كالمرود

وقد نسب قوله الى (النابغة) الذياني ، ويمكن أن يكون قد صنعه غيره
ودسه عليه حسداً له ، للإيقاع به عند الملك . ونسب اليه قوله :

قبح الله ثم ثنى بلعن وارث الصائغ الجبان الجهولا
من يضر الأدنى ويعجز عن ضر الأقاصي ومن يخون الخيلا
يجمع الجيش ذا الألوف ويغزو ثم لا يرزأ العدو فتبلا

وقيل ان قائل تلك الأبيات هو : (عبد قيس بن خفاف) التميمي ، قاله
على لسانه للإيقاع بينه وبين النعمان^٢ .

وللهجاء عند الجاهليين وقع شديد . ولقد بكى قوم من الأشراف من شدة
هول الهجاء عليهم^٣ . ولما أمنت قريش في هجاء الرسول والمسلمين ، وجندت
الشعراء للنيل من الاسلام ، أعد الرسول (حسان بن ثابت) ، و (كعب بن
مالك) ، و (عبدالله بن رواحة) للرد عليهم ، وقد قال الرسول لحسان :
« اهجهم - أو هاجهم - وجبريل معك »^٤ ، وقال : « إن قوله فيهم أشد
عليهم من وقع النبل »^٥ . وكان حسان وكعب بن مالك يعارضانهم بمثل قولهم
في الوقائع والأيام والمآثر ويذكran مثاليهم . وكان عبدالله بن رواحة يعيرهم بالكفر
وعباد ما لا يسمع ولا ينفع ، فكان قوله يومئذ أهون القول عليهم . وكان قول
حسان وكعب أشد القول عليهم . قلما أسلموا وفقهوا ، كان أشد القول عليهم ،

١ الشعر والشعراء (٩٩/١) ، (لعن الله ثم ثنى بلعن) ، الحيوان (٣٧٩/٤) ،
الاغاني (١٥٨/٩) .

٢ الشعر والشعراء (٩٩/١) ، الحيوان (٣٧٩/٤) .

٣ الحيوان (٣٥٧/١) وما بعدها .

٤ الاصابة (٣٢٥/١) ، (رقم ١٧٠٤) .

٥ الاستيعاب (٣٣٧/١) ، (حاشية على الاصابة) .

قول عبدالله بن رواحة ^١ . وورد ان الرسول قال لحسان : « هيج الفطاريـف
على بني عبد مناف ، والله لشعرك أشد عليهم من وقع السهام ، في غبش الظلام » ^٢
وفي هذا المعنى ورد في شعر (عبد قيس بن خفاف) البرجمي :

فأصبحتُ أعددتُ للنائيـا ت عـرضاً بريئاً وعضباً صقيلاً
ووقع لسان كـحمد السنان ورَحاً طويـل الفناة عـسولاً ^٣

وفي هذا المعنى ورد أيضاً قول طرفة :

بحسام سيفك أو لسانك والكلمُ الأصيل كأرغب الكلمُ

وقول امرئ القيس الكندي :

ولو عن نثاً غيره جاءني وجرح اللسان كجرح اليد

وقول طرفة :

رأيت القوافي يتلجن موالجاً تضايقُ عنها أن تَوَلَّجها الإبر

وعكس (الهجاء) هو شعر الفخر والمدح ، وله أهمية عند العرب لا تقل عن
أهمية الهجاء ، لما له من مكانة في المجتمع . وقد لعب دوراً خطيراً في السياسة
كذلك ، ولا زال يلعب دوره هذا فيها الى هذا اليوم . ولا يعني هذا المدح أن
الشاعر كان صادق اللهجة في مدحه ، مخلصاً في مدحه لمن مدحه ، إنما المدح هو
في مقابل إحسان أو طلب إحسان في الغالب ، فإذا قطع المحسن إحسانه عن الشاعر
أو اذا حرض انسان الشاعر على من مدحه وأعطاه ليهجوه ، هجاء ، وقد يهجوه
بأقذع هجاء ، ومن هنا كان الأشراف وأصحاب التستر ، يتعدون عن الشعراء ،
لا يريدون مدحهم ولا حمدهم ، لأنهم لا يعلمون متى سينقلب الشاعر عليهم ،

-
- ١ الاستيعاب (١ / ٣٣٧) ، (حاشية على الاصابة) .
 - ٢ البيان والتبيين (١ / ٢٧٣) .
 - ٣ المفضليات (٣٨٦) .
 - ٤ الحيوان (١ / ١٥٦) ، ديوان طرفة (٦١) .
 - ٥ الحيوان (١ / ١٥٦) .
 - ٦ الحيوان (١ / ١٥٨) .

فيهجورهم بأشد هجاء ، أو ينهش أعراضهم ، لتقصيرهم في اعطائه المال . ومن هنا نعتوا بالتلون وبالكلب : « والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون »^١ .

وسبب هذا التلون عامل اقتصادي ، فقد كان الشاعر مثل غيره من الناس يتعيش بشعره ، يبذله لمن يعطيه ، ويحجبه عن لا يعطيه ، وإذا مدح أمل الإثابة ، ليعيش عليها ، وإن حرم منها ، أو وجد أن شاعراً آخر نال من ممدوحه أكثر مما أعطاه غضب ، وقلب مدحه ذماً ، فيشتمه ويتقصص من شأنه وإن كان قد أغرق بالأمس في مدحه له . وقد يشبه حساد الممدوح ، بأن يعطوه أكثر مما أعطاه ممدوحه ، فيغريه المال ، ولا يجد عندئذ رادعاً أخلاقياً يمنعه من التهجم عليه ومن هجائه بأقبح هجاء ، فالموضوع موضوع مال ، ولو كان للشعراء ثراء وغنى أو سوق رائجة تباع فيها دواوينهم ، لما ركب الشاعر ولا شك هذا المركب ، ولما تزلف وتقرّب ، ولكان حاله حال الشعراء الغربيين . يعتمدون على الرأي والفكرة والإبداع والفن ، فيشتري الناس شعرهم للاستمتاع به ، فما يهمهم لذلك مدح هذا أو ذاك .

ويرى (بروكلمن) أن « كثيراً ما كان الشاعر يتجه بفنه أيضاً الى مدح بطل أو أمير من قبيلته ، ولكنه لم يكن يفكر قديماً في الجائزة الرنانة ، التي نزلت بمكانة شعراء المديح المحترفين في بعض الأحيان - منذ عهد النبي - الى درك المتسولين بالغناء »^٢ . وهو يجاري بذلك أهل الأخبار القائلين بأن الشعراء المتقدمين لم يكونوا يمدحون طمعاً في مغنم ومال ، وإنما كانوا يمدحون عن رأي ، وإن أول من تسول بشعره الأعشى ، فحط بعمله هذا من قدر الشعراء ، ثم أفرط الخطيئة في ذلك ، حتى أهان نفسه ، فصبروا المتقدمين من الشعراء ملائكة ، ورموا الأعشى بخطيئة التسول ، بأن جعلوه رأس المتسولين ، وما الأعشى إلا بشر ، وما المتقدمين عليه إلا بشر مثله ، فإن تسول الأعشى ، فمن يثبت أنه كان أول من تسول ، وإن خطيئة التسول لم تكن معروفة بين المتقدمين عليه .
والرثاء Elegy من سنن الجاهليين القديمة ، يقال رثيت الميت رثياً ورثاء

١ سورة الشعراء ، رقم ٢٦ ، الآية ٢٢٤ وما بعدها .

٢ بروكلمن (٥٧/١) .

ورثاية ، ومرثاة ، ومرثية ، بمعنى بكيته وعددت محاسنه ، أو نظمت فيه شعراً ، والمراد به المدح^١ . وهو من أبواب الشعر المهمة كذلك ، لما كان لثناء الميت من أهمية كبيرة عند أهل الجاهلية . وقد كانوا يوصون أهلهم بأن يقيموا (النياحة) عليهم ، ليقال فيها ما يقال من الشعر في حقهم^٢ . ونجد في الشعر الجاهلي قصائد وأشعاراً في الرثاء . وقد نبغت النساء الرائيات في هذا الباب ، واستنبطن فيه أساليب بديعة لم يتنبه لها الفحول لما طبعن عليه من رقة الطباع وشدة الجزع في المصائب ، وصدق الحس ، ورقة العاطفة^٣ . وقد جمع الأب (لويس شيخو) مرثيي الشاعرات الجاهليات ، في كتاب ، جمع فيه مرثيي إحدى وستين شاعرة عدا شعر الخنساء . والخنساء ، هي من أشهر شاعرات الرثاء ، اشتهرت برثاء أخوها: صخر ومعاوية^٤ .

وشعر الرثاء وإن كان من واجب النساء النائحات في الغالب ، وقد بلغ الغاية في شعر (الخنساء) ، إلا أنه كان من واجب الشعراء كذلك . فلكثير من الشعراء رثاء لآبائهم ولاخوانهم ولأقاربهم ولأصدقائهم ولذوي الفضل عليهم ، وقد ترك (أوس بن حجر) جملة مرثي رائعة، وترك غيره قصائد في رثاء الملوك وسادات القبائل والآباء والاخوة ، ويلاحظ أن رثاء الشعراء إنما كان في رثاء الأموات الرجال في الغالب ، وذلك نابع عن طبيعة المجتمع ، التي تمجد الرجل، ولا ترى ذكر النساء الحرائر إلا في المدح والفخر .

أما شعر التوجع والتألم « Elegies » و « Threnody » الذي نجده في كتاب (المرثي) « Lamentations Book » ، المنظوم في الكارثة التي أنزلها (بختنصر) في اليهود عام (٥٨٦) قبل الميلاد ، فلا نجد مثله في الشعر الجاهلي ؛ إنما نجد أحياناً في النكبات التي كانت تحلّ بالقبائل بسبب الغارات والغزوات ، وأروعه ما جاء في رثاء قتلى بدر . وهو ذو طابع شخصي في أكثر الأحيان ، إذ يدور حول افعال الشاعر وتأثره لمصرع شخص كان يحبه أو يقدره . ويدخل ما وضع

١ تاج العروس (١٤٤ / ١٠) ، (رثى) .

٢ Goldziher, History of classical Arabic Literature, p. 9.

٣ لويس شيخو ، رياض الادب في مرثي شواعر العرب (ص ١) ، (بيروت ١٨٩٧ م) .

٤ كارلو نالينو (٨١) .

من شعر حول تحرب سدّ مأرب ، وأمثال ذلك في هذا الباب بالطبع .
وقد رثى بعض الشعراء أنفسهم حين شعروا بدنو أجلهم ، ونجد في كتب
الشعر والأدب شعراً من هذا النوع ، فكأن الشاعر أراد أن يفتح به رثاء الرائيات
والنائحات ، ليكون لهن مقدمة ينسجن عليها شعرهن في رثائه .

وتعدّ (المراثي) من عيون الشعر والتراث الخالد عند الشعوب القديمة ، ولا زال
الناس يقيمون للرثاء وزناً كبيراً ، لأنه تخليد وتقدير لشأن الميت . ونجد في الأدب
القديم مكانة كبيرة له فيه . وفي التوراة وصف لرثاء الناس لموتاهم . وهو سجع
أو رجز يناسب ظروف الميت وحاله ومكانته ، يرثى بأنغام حزينة مؤثرة ، ومنه
جاء شعر المراثي . ويلاحظ ان شعر الرثاء في العربية لا يختلف من حيث الوزن
عن بقية الشعر ، فهو يقال في كل البحور ، والفرق بينه وبين غيره هو في المعنى ،
وفي غلبة التوجع والألم فيه على المعاني الأخرى .

ولم يصل البنا شعر جاهلي طويل ، مؤلف من مئات أو آلاف من الأبيات ،
مثل الشعر القصصي الذي نجده عند الشعوب (الآرية) في سرد حكايات الآلهة
والأبطال والحروب ونحو ذلك ، ومثل الشعر الغنائي « Lyrique » ، ومثل الشعر
التمثيلي « Dramatique » ، الذي يستند على التمثيل والحوار والغناء ، وشعر
الجاهليين شعر قصير في الغالب ، لا تتجاوز القصيدة فيه ، وهي أطول قطعة من
الشعر مائة بيت .

أما القصة الشعرية القصيرة ، فنجدها في قصيدة الأعشى التي وصف فيها وفاء
السموأل . ونجد في شعر (عدي بن زيد) قصصاً قصيرة عن أحداث تاريخية ،
أوردها في شعره على سبيل العظة والاعتبار ، كما نجد في شعر (أمية بن أبي الصلت)
قصصاً ، أخذ بعضه من قصص أهل الكتاب ، وأخذ بعض آخر منه من أساطير
العرب القديمة . وكل هؤلاء هم ممن نستطيع أن نقول عنهم إنهم من الحضرة ،
أو من المتأثرين بعقلية أهل القرى والحضارة . ويمكن عدّ قصة الأعشى عن
السموأل من هذا النوع المسمى « Ballad » في الانكليزية . ويرى (بروكلمن)
أن « محاولة الأعشى إنشاء شعر القصة La Ballade واختراع أسلوب الملحمة ،
في إشادته بوفاء سموأل ، فقد بقيت عملاً فذاً لم ينسج أحد على منواله »^١ .

١ بروكلمن (١ / ٦٢) .

ونجد في شعر للناطقة قصة (زرقاء اليمامة) ، وقصة الحية ، إذ يقول :

تذكر أنتي يجعل الله فرصة فيصبح مال ويقتل واثرة
فلما وقاهما الله ضربة فأسه وللبر عين لا تغمض ناظره
فقلت: معاذ الله أعطيك إنني رأيتك غداً رأيتك فاجره
أبى لي قبر لا يزال مقابلي وضربة فأس فوق رأسي فاقره

والقصة : ان بلدة امتنعت على أهلها بسبب حية غلبت عليها ، فخرج أخوان يريدانها ، فوثبت على أحدهما فقتلته ، فتمكن لها أخوه في السلاح ، فقالت : هل لك أن تؤمنني فأعطيك كل يوم ديناراً ؟

فأجابها الى ذلك حتى أثري ، ثم ذكر أخاه ، فقال : كيف يهتوني العيش بعد أخي ؟ فأخذ فأساً وصار الى جحرها ، فتمكن لها ، فلما خرجت ضربها على رأسها ، فأثر فيه ولم يعن ، ثم طلب الدينار حين فاته قتلها ! فقالت : إنه ما دام هذا القبر بقفاني وهذه الضربة برأسي فلست آمنك على نفسي ! وكانت العرب تضرب أمثالا على السنة الهوام .

وللهجة قصص عند الشعوب القديمة ، وقد صوروها بصور مختلفة ، وأشير إليها في التوراة . وقد جعلت رمزاً للحيل والإغراء والشر والغدر ، والأرجح ان واضع القصة التي نظمها شعراً على لسان الناطقة ، انما أخذها من أهل الكتاب . ونجد لـ (عمرو بن آلة بن الخنساء) شعراً حكى فيه قصة (سابور) ، و (الحضرمي) ، منه :

ألم ينبئك والأنباء تنمي بما لاقت سراة بني العبيد
ومصرع ضيزن وبني أبيه وأحلاس الكتائب من شريد
أتاهم بالفيول مجلات وبالأبطال سابور الجنود
فهدم من أواسي الحضرمي صخرأ كان ثقالة زير الحديد

١ الشعر والشعراء (١ / ٩٦) .

٢ قاموس الكتاب المقدس (١ / ٤٠٠) .

٣ الروض الانف (١ / ٥٩) .

وقد لعبت قصة فتح (سابور) (شابور) للحضر ، دوراً خطيراً في قصص
الجاهليين . فقد وردت في شعر (أبي دواد) ، الذي يقول :

وأرى الموت قد تدلى من الحضر على رب أهله الساطرون
صرعته الأيام من بعد ملك ونعيم وجوهر مكنون^١

ونجد (عدي بن زيد) العبادي ، يذكر قصة الحضر في شعره كذلك. ذكرها
في القصيدة التي تنسب إليه ومطلعها :

أرواح مودع أم بكور فانظر لأي ذاك تصير

ثم يذكر القصة ، ويصف قصر الحضر ، ثم يذكر قصصاً آخر أورده على
سبيل العظة والاعتبار ، قالها وهو في سجنه ، للتأثير على النعمان لحمله على
العفو عنه^٢ .

وذكر (عدي بن زيد) الحضر في شعر آخر ينسب إليه ، منه :

والحضر صابت عليه داهية من فوقه أيد مناكبها
ريية لم توق والدها لحينها إذ أضاع راقبها
إذ غبقت صهباء صافية والخمر وهل يهيم شاربها
فكان حظ العروس إذ جسر الصبح دماء تجري سائبها
وخرّب الحضر واستبيح وقد أحرق في خلدّها مشاجبها^٣

وقد ورد في هذه القصيدة :

ما بعد صنعاء كان يعمرها ولاة ملك جزل مواهبها
رفعها من بني لدى قزع الزمن وتلدى مسكاً محاربها
محفوفة بالجبّال دون عرى الكائد ما ترتقي غواربها
يأنس فيها صوت النهام إذا جاوبها بالعشي قاصبها
سأقت إليه الأسباب جند بني الأحرار فرسانها مواكبها

١ الروض الانف (٥٦/١) .

٢ الروض الانف (٥٨/١) .

٣ ابن هشام ، سيرة (٥٩/١) ، (حاشية على الروض) .

وفوزت بالبغال توسق بالحتف وتسعى بها توالبها
حتى رآها الأقوال من طرف المنقل مخضرة كتابها
يوماً ينسادون آل بربر واليكسوم لا يفلحن هاربها
وكان يوماً باقي الحديث وزالت أمة ثابت مرتبها
وبدل الفيج بالزرافة والأيام جون جمّ عجائبها
بعد بني تبع نخورة قد اطمأنت بها مرازبها^١

والأعشى ، ممن أدخل قصة الحضر في شعره أيضاً ، تطرق في شعره الى
محاصرة المدينة ، وكيفية عشق (نصيرة بنت الفيزن) لسابور لما أبصرته ، فقال :
أقفر الحضر من نصيرة فالرباع منها فجانب الثرثار^٢

ثم تطرق الى اقامة (شاهبور) (شابور) (سابور) حولين في الحضر ،
ثم الى ما لاقتة (نصيرة) من جزاء ، بسبب خيانتها لوالدها ، وذلك بقوله :

ألم ترَ للحضر إذ أهله بنعمي وهل خالد من نعم
أقام به شاهبور الجنو دحولين تضرب فيه القدم
فلما دعا ربه دعوة أناب اليه فلم ينتقم^٣

ونجد قصة (الغار) مسجلة في شعر . وعجل القصة ان رجلاً من (بني ضبة)
كان له في الجاهلية سبعة بنون ، فخرجوا بأكلب لهم يقتنصون ، فأووا الى غار
فهوت عليهم صخرة فأتت عليهم جميعاً ، فلما استراث أبوهم أخبارهم اقتفى
آثارهم حتى أتى الى الغار فانقطع الأثر ، فأيقن بالشر ، فرجع وأنشأ يقول :

أسبعة أطواد وسبعة أبحر أسبعة آساد أسبعة أنجم
رزئتهم في ساعة جرعتهم كؤوس المنايا تحت صخر مريض

وتأتي أبيات بعدهم في وصف حزنه ، ثم لم يلبث أن مات كمداً^٤ .

-
- ١ ابن هشام ، سيرة (٥٣/١ وما بعدها) .
 - ٢ الروض الانف (٥٦/١) .
 - ٣ سيرة ابن هشام (٥٩/١) .
 - ٤ الامالي ، للقالبي (٦١/١) .

ويجب ألا ننسى شعر المعارك والحروب ، وهو شعر نستطيع أن نسميه شعر (الحماسة) . فالعادة عند العرب أنهم ينشدون الشعر عند الغزو وفي أثنائه ، وفي المعارك والحروب . فالمقاتل حين يتدفع بين المحاربين ليقاتل خصمه ، ينشد شعراً يفتخر فيه بنفسه وبعبيرته وبقيبلته ، ويكون في الغالب من الرجز ، لأنه شعر سهل مطاوع ، يصلح لمثل هذه المواقف ، ونجد في أخبار الأيام وفي الفتوح الإسلامية شعراً وافراً من شعر المعارك من الرجز ومن محور الشعر الأخرى .

ومن أبواب الشعر عندهم : شعر الوصايا والحكم . فنجد بين الشعر المنسوب الى الجاهليين شعراً فيه وصايا يوصي الشاعر بها ولده وأقاربه أو عشيرته بخلاصة ما حصل عليه ذلك الشاعر في حياته من تجارب . كما نجد بينه حكماً عرف بها بعض الشعراء مثل زهير بن أبي سلمى ، والأفوه الأودي وآخرون .

وقد تغنى الجاهليون بشعرهم ، فكانوا ينشدونه بنغم خاص ، قد يصحب بآلة موسيقية ، وقد يشربون ويغنون ، أو يسمعون مغنياً يغنيهم بشعر . فلما انتهى (خالد بن الوليد) الى (سوى) وأهله من بهراء ، وجد ناساً منهم يشربون خمراً لهم في جفنة قد اجتمعوا عليها ، ومغنيهم يقول :

ألا عللاني قبل جيش أبي بكر لعل منايانا قريب وما ندرى^١

ونجد في الأخبار ان ملوك الحيرة والغساسنة والأثرياء كانوا يستمعون الى الغناء وهو شعر ينشد على نغم ، توقعه قينة على آلة من آلات الموسيقى ، مثل الصنج والبربط ، والدف ، والمزهر ، وآلات أخرى أخذت من الروم والفرس ، وقد سبق أن تحدثت عن وجود قيتين بمكة كانتا لعبدالله بن جدعان ، تغنيان له ، واتخذ غيره من الموسرين والشعراء قياناً ، يغنين لهم الأغاني ، وأكثرهن من الموالي من روم وفرس .

والغناء كلام يجب أن يتأشى مع النغم ، ولهذا ينظم نظماً يتناسب مع الإيقاع . ونجد عند اليونانيين شعراً ينظم للغناء خاصة ، يقال له (الشعر الغنائي) « Lyric » ،

١ الطبري (٤١٧/٣) ، فتوح البلدان (١١٨) ، (ذكر شخص خلد بن الوليد الى الشام وما فتح في طريقه) .

وهو يختلف عن الشعر المألوف الذي لا يمكن أن يتغنى به دائماً لثقله ، وعدم اتساقه مع الإيقاع . ونجد في التوراة شعراً نظم خصيصاً للإنشاد والتغني به ، وهو يختلف في نظمه عن الشعر المألوف .

ولم يشر أهل الأخبار الى وجود شعر من هذا النوع عند الجاهليين ، وإن ذكروا ان الجاهليين كانوا يتغنون بالشعر ، وكانت قياتهم يتغنين بشعر الشعراء . ومعنى هذا انهم كانوا يغنون ببحور الشعر المألوفة ، لا بشعر غنائي خاص . ونجد في خبر (أحد) ان (هنداً) قامت في النسوة اللواتي معها ، وأخذن الدفوف يضربن خلف الرجال ويحرضونهن ، فقالت (هند) فيما تقول :

إن تقبلوا نُعاني ونقرش النمارق
أو تدبروا نُنْأرق فراق غير وامق

وتقول :

وبها بني عبد الدار وبها حماة الأدبار
ضرباً بكل بشار

فهذا شعر ، ينسجم التغني به مع الإيقاع على الدفوف ، ووزنه يتناسب ذلك النغم ، لكنه ليس من شعر الغناء الخالص ، الذي يتناسب مع الألحان المبنية على ارتفاع وانخفاض الصوت ، وعلى التغير في النبرات ، وعلى الجرّ والمطّ ، والقصر والجزم ، وما شاكل ذلك من حركات يقتضيها إيقاع اشتراك جملة آلات دفعة مع الشعر الذي يتغنى به في وقت واحد ، وربما اشترك في الغناء جملة مغنين .

ويذكر أهل الأخبار أن الغناء قديم في الفرس والروم ، ولم يكن للعرب إلا (الجداء) و (التشيد) وكانوا يسمونه (الركبانية) ، وأول من نقل الغناء العجمي الى العربي من أهل مكة سعيد بن مسجع ، ومن أهل المدينة سائب خاثر ، وأول من صنع المزج طويس^٢ ، وهو كلام قصد به أن الغناء العربي

١ الطبري (٥١٢/٢) .

٢ نهاية العرب (٢٣٩/٤) .

قبل الإسلام لم يكن كثير التنوع ، وإنما كان مقصوراً على طرق معينة ، ثم تطور في الإسلام بدخول الأعاجم فيه ، وباحتكاك العرب بهم . فالشعر الجاهلي إنما كان يتغنى به بتلك الطرق المحدودة . ونحن لا نستطيع البت في هذا الموضوع ، لأنه من أخبار أهل الأخبار ، ولكن لا يعقل في نظري أن يقتصر غناء الحضرة على هذه الأنغام البدوية ، وبينهم مغنون أعاجم وقيان استوردن من فارس والروم ، وكنّ يحسنّ الغناء ، ويتغنين بالشعر ، فكان لعبدالله بن جدعان قيتان أعجميتان ، تغنيان له ولضيوفه ، وكان لغيره قيان ، وقد ورد أن بعضهن كن يغنين بهجاء الرسول . ثم إن ملوك الحيرة كانوا على اتصال بغناء الفرس وغناء بني إرم والنبط ، فلا يعقل الا يتأثروا بدروب غناء الأعاجم ، فيدخلوها في غنائهم ، وينوعوا في التغني بالشعر ، والا يبرز بينهم من يضع أشعاراً تتسجم مع ألحان الغناء .

وكان من غناء العرب (النصب) ، وقد عرف به الأعراب ، وهو غناء يشبه الحداء ، إلا أنه أرق منه . وهو العقيرة . يقال : رفع عقيرته إذا غنى النصب^١ . فهو غناء يتغنى به بشعر على طريقة معلومة ، اشتهرت بها العرب ، أهل البوادي .

وقد لعب الجمل دوراً خطيراً في الشعر الجاهلي ، وكيف لا يستأثر بمكانة مهمة في الشعر الجاهلي ، وهو مرافق الأعرابي ، والحيوان الوحيد الذي رضي بمصاحبته ومرافقته في الصحاري الموحشة المتعبة ، ولهذا نال حقه من المدح والثناء عليه ، كما ألهم مشاعر الأعرابي فجعله يصفه في شعره ، وصفاً كاد يحيط بجميع أجزاء جسمه^٢ ، وحظيت الخيل بمكان مرموق أيضاً في مملكة الحيوان المذكورة في الشعر ، فالفراس لا يكون فارساً إلا بفرسه ، وكان يقدم فرسه على نفسه وأهله في الطعام ، لأهمية الفرس في حياته ، فلا عجب إذا ما أبدع الشاعر الجاهلي في وصف الفرس ، وأشاد بذكر الخيل في شعره . وحظيت الحيوانات الوحشية مثل المها والظباء ، والحمار الوحشي ، والأسود ، على مكانة في الشعر الجاهلي كذلك ، لما لها من صلة بحياة العربي .

يقول (بروكلمن) : « والقصيدة ، المؤلفة على نظام دقيق ، ينبغي استهلاكها

١ اللسان (١/٧٦١ وما بعدها) ، (نصب) .

٢ بروكلمن (١/٥٦) .

بالنسيب ، والحنين الى الحبيبة النائية ، ذلك الحنين الذي يعترى الشاعر عند رؤية أطلالها الدائرة وهو راكب في القفار . ثم يتحول الشاعر في تخلص نموذجي من موطن لوعته وذكرياته الى وصف مسيره في المفاوز دون انقطاع ، وهو وصف قد يخرج أحياناً الى مجرد تعداد لأسماء ما يجتازه من أماكن . ثم يخلص من ذلك الى وصف راحلته ، فإذا هو عمد في هذا الوصف الى تشبيه راحلته ببعض حيوان الوحش استطرد أحياناً الى وصف هذا الحيوان وصفاً شاملاً . ثم لا يتجه الشاعر الى التعبير عن حقيقة قصده إلا في آخر القصيدة .

هذا المنهج لا بد أن يكون قد رسخ منذ زمن طويل . وقد ذكر امرؤ القيس سلفاً له في الشكوى والبكاء على الأطلال ، يدعى : ابن خدام ، وإن لم يستطع أدباء العصر العباسي تعيين هذا الشاعر . وتبع المتأخرون هذا المنهج ولم يكادوا يحسرون على تغييره ^١ .

وقد أكثر الشعراء من استعمال بعض الجمل في افتتاح شعرهم ، مثل (بانت سعاد) . ذكر أن (بندر الأصبهاني) كان يحفظ تسعمائة قصيدة أول كل منها (بانت سعاد) ^٢ .

والشعر الجاهلي ، شعر صلد متين ، يميل الى الرصانة والى استعمال اللفظ الرصين ، الذي يغلب عليه طابع البداوة ، وشعر هذا طابعه ، لا يمكن أن يتحرر ، وأن يعبر عن المعاني بحرية ، إذ يكون الشاعر مقيداً بقيود الخضوع للعرف وللشكليات التي اصطلاح عليها الشعراء والناس ، ولهذا لم يتمكن الشعراء من التطرق الى مختلف المعاني والتصورات الإنسانية ، وصار الطابع الغالب عليه هو الطابع اللغوي ، فخشونة الشعر ، وجزالته وغرابته ، من مميزات هذا الشعر ومن محبباته الى النفوس ، وكما كان الشعر غريباً وبألفاظ غريبة ، نال التقدير والاستحسان ، لقد عمل (الأصمعي) قطعة كبيرة من أشعار العرب ، لكنها لم تنل الاستحسان ولم يرض عنها العلماء « لقله غريبها واختصار روايتها » ^٣ . والشعر الذي ينال التقدير ، هو الشعر الحشن ، الذي روي بألفاظ نجدية ، ولذلك لم يحفل العلماء بشعر عدي بن زيد ،

١ بروكلمن (٦٠/١) .

٢ السيوطي ، شرح شواهد (٥٢٩/٢) .

٣ الفهرست (٨٩) .

لأن فيه لبوة^١ ، والعلماء يبحثون عن الشعر الخشن ، الذي على العالم أن يفكر فيه ويعمل رأيه فيه طويلاً ، ويفكر ويفوص فيه حتى يجد معناه .

واشتهر بعض الشعر بشهرة عرف ونعت بها ، مثل قصيدة : (سويد بن أبي كاهل) ، واسمه (عطيف بن حارثة) البشكري ويقال الوائلي ، ويقال الغطفاني ، التي عرفت بـ (اليتيمة) ، وهي قصيدة عينية . قيل عرفت بذلك لما اشتملت عليه من الأمثال . وهو من الشعراء المخضرمين^٢ . وعرفت القصيدة التي نظمها (خدّاش بن زهير) ، في هشام والوليد ابنا (المغيرة) المخزوميان ، وفي (عبدالله بن جدعان) بالمنصفة^٣ . وذلك لإنصافه خصومه في شعره . ومن المنصفات قول (المفضل) النُكري :

كأن هزينا يوم التقينا هزير أباءة فيها حريق
وكم من سيد منا ومنهم بلذي الطرفاء منطقته شهيق^٤

لقد مر الشعر بمراحل ، سنة كل شيء في هذه الدنيا . بدأ بدائياً لبداء أصحابه ، ثم تطور بتطور الناس ، تطور من حيث معانيه وأفكاره ، وتطور من حيث قوالبه وأشكاله ، أي بحوره . واقتضى هذا التطور ومرور الزمن وتغير الانسان ، ظهور أوزان جديدة ، أوجدها الشعراء هروباً من التقليد ، وخروجاً على التقاليد ، وابتداعاً من الشاعرية ، لتقدم لعشاق الشعر لوناً جديداً من ألوان النظم ، يمتاز على المعروف المألوف المتوارث ، بنفس جديد ، وبموسيقى حديثة تناسب الزمان والمكان ، كما هو شأن الشعر عند كل أمة ، فتعددت ألوانه وبحوره ، حتى اذا كان الاسلام ضبظت ألوانه في بحور جمعها (علم العروض) المعروف .

أما أسماء أولئك المجددين في الشعر الجاهلي ، فقضية لا يمكن البت بها ، ولا اصدار حكم فيها . فنحن لا نعرف من أمر الشعر الجاهلي إلا هذا الذي يرويه أهل الأخبار عنه ، وهو لا يستند — كما قلنا — الى سند جاهلي ملون ، ولا الى كتاب من كتب أهل الجاهلية ولا الى ديوان من دواوينهم ، بل روي رواية وحكي

-
- ١ الشعر والشعراء (١٥٠/١) ، (دار الثقافة) .
 - ٢ الاغاني (١٦٥/١١) ، الاصابة (١١٧/٢) ، (رقم ٣٧٢١) .
 - ٣ ابن سلام ، طبقات (٣٣) .
 - ٤ الاصمعيات (٢٣٣) .

حكاية ، وأقام الاسلاميون على هذا المروي قواعد نظرياتهم في الشعر الجاهلي . ولم يرد في هذا المروي أي شيء عن كيفية ظهور بحور الشعر الجاهلي ، ولا عن جدد وأوجد هذه البحور . وليس لنا أي أمل في إمكان الحصول في المستقبل على علم جديد عن تطور ذلك الشعر وعن ابتكار رجاله الجاهليين فيه ، ما دام سند علمنا هذا المورد القائم على الرواية القديمة . أما إذا عثر على نصوص مدفونة عربية جاهلية أو أعجمية فيها بحوث عن الكلام المنظوم عند العرب ، فذلك شيء آخر بالطبع . ومثل هذه النصوص هي التي يكون في وسعها وحدها تقديم صورة علمية واضحة عن الشعر الجاهلي .

ومن رأى بعض أهل الأدب ، « أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار ، فبكى وشكا ، وخاطب الربيع ، واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الطاعنين عنها ... ثم وصل ذلك بالنسب ، فشكا شدة الوجد وألم الفراق ، وفرط الصباية والشوق ... لأن التشبيب قريب من النفوس ، لائط بالقلوب ، لما جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل ، وإلف النساء ، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب ، وضارباً فيه بسهم ، حلال أو حرام . فإذا استوثق من الاصغاء اليه ، والاستماع له ، عقب بإيجاب الحقوق ، فرحل في شعره ، وشكا النصب والسهو ، وسرى الليل وحرّ الحجير ، وانضاء الراحلة والبعر . فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء ، وذمامة التأمل ، وقرر عنده ما ناله من المكارة في المسير ، بدأ في المديح ، فبعثه على المكافأة، وهزه للسماح ، وفضله على الأشباه ، وصغر في قدره الجزيل . فالشاعرُ المجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام ، فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر ، ولم يطل ، فيمل السامعين ، ولم يقطع بالنفوس ظمناً إلى المزيد »^١ .

وزعموا ان هذا كان نهج شعراء الجاهلية في نظم شعرهم ، ونهج شعراء صدر الاسلام ، حتى اختلط العرب بالعجم ، وانتقل العرب من حياة الى حياة ، وظهر الشعراء الأعاجم الذين لم يتمكنوا من غسل أدمغتهم من المعاني الأعجمية ، ومن التفكير الأعجمي ، فنظموا الشعر بالعربية ، ولكن بمعان أعجمية جديدة ، وجاءوا

١ الشعر والشعراء (١ / ٢٠ وما بعدها) ، (دار الثقافة) .

ومن تأثر بالحضارة العربية الجديدة التي ظهرت في البلاد المفتوحة بآراء مستجدة ،
وظهر التجديد في الشعر العربي ، وابتعد بذلك عن أسلوب الشعر الجاهلي .

ويتوقف طول الشعر وقصره على (نفس الشاعر) ، أي على الظروف النفسية
التي تحيط بالشاعر حين ينظم شعره ، وبالمؤثرات التي أثرت عليه . وقد سئل
(أبو عمرو بن العلاء) ، « هل كانت العرب تطيل ؟ قال : نعم لسمع منها .
قيل : هل كانت توجز ؟ قال : نعم ليحفظ عنها . ويستحب عندهم الإطالة
عند الإعذار والإنذار والترغيب والترهيب والإصلاح بين القبائل كما فعل زهير
والحارث بن حلزة ومن شابهها ، وإلا فالقطع أطير في بعض المواضع والطوال
للمواقف المشهورة »^١ .

وقد ذهب (غرونباوم) الى امكانية تقسيم الشعر الجاهلي الى مدارس أدبية
متميزة ، جعلها ستة مدارس أو اتجاهات أو مذاهب بتعبير أصبح . تضم الشعراء
الذين ولدوا ما بين سنة ٤٤٠ و ٥٣٠ م على وجه التقريب . « وليس معنى هذا
أنه ليس هنالك شعراء تتجافى طبيعتهم أنفسهم عن مثل هذا التقسيم وتشذ عنه .
فإن الشعراء الصعلوكيين الشهيرين تأبط شراً والشغرى ، هما المثالان البارزان على
مثل هذه المواهب الفردية . ولعل من أمتع الأمور ، ما يتجلى في آثار تلك الفئة
من الشعراء ، الذين عاشوا في بلاط الحيرة ، من مظاهر الحضارة الساسانية .
فأبو دؤاد الأيادي (حوالى ٤٨٠ - ٥٥٠ م) ، والشاعر النصراني عدي بن زيد
(حوالى ٥٤٥ - ٥٨٥ م) ، يتجلى في شعرهما خليط من العقلية البدوية والتفكير
الحضري . وطرفة (حوالى ٥٣٥ - ٥٣٨ م) وكذلك الأعشى ، ينقلان الى
العراق سيافاً فنياً آخر للمدرسة أخرى ينتمي أعلامها الى قبيلة قيس بن ثعلبة ، من
بني بكر بن وائل ، هذا وليس من شك في أن الأعشى هو أكبر مالك لأزمة
اللغة بين شعراء الجاهلية ، وإن المشاهد البهجة في قصائده تنم عن تأثير الشعراء
الساسانيين . ثم إن امرأ القيس بن حجر الأمير الكندي (حوالى ٥٠٠ - ٥٤٠ م)
أشهر شعراء العرب الجاهليين وأبعدهم أثراً ، قد كان نظير طرفة ، صاحب إحدى
القصائد النموذجية المعروفة بالمعلقات . ومعاصره عبيد بن الأبرص يمثل قمة مدرسة
أخرى من هذه المدارس .

١ العملة (١٢٤/١) ، بلوغ العرب (٨٣/٣) .

وقبل أن يتجرم القرن السادس ، كانت وحدة اللغة واتساق الاسلوب ، قد قطعاً مرحلة واسعة نحو التبلور . وقد تداخلت هذه المدارس عن طريق تجمع المفردات وتوارد الصور الشعرية ، لكن هذا التطور لم يتسع فيشمل جماعات الشعراء التي عاشت الى جانب التيار الرئيسي الذي جرى فيه الشعر العربي . وأهم مدارس هذا العصر المتأخر هي مدرسة الشعراء المهذلين التي برزت آثارها ما بين سنة ٥٥٠ - ٧٠٠ م . وكان من الموضوعات التي اختصت بها هذه الجماعة وصف النحل والعسل . ومثل هذه الأوصاف قد استبعت ضرباً من الخصوبة في مشاهد الطبيعة لا سيما حيث ألحت بالشاعر الرغبة في جمع العسل البري .

ويشتمل ديوان المهذلين على قصائد كثيرة لأفراد ما نظموا الشعر إلا لماماً . ولا بد ههنا من التأكيد أنه كان الى جانب الشعراء (المحترفين) ، عدد عظيم من الشعراء (الهواة) والذين عملوا ، بين الفينة والفينة ، الى التعبير بالشعر عن عواطفهم ورغباتهم . وهذا يعلل لنا ما نلجده دائماً من أبيات هي من حيث التأريخ وليدة عصر واحد ، لكنها ليست كذلك من حيث درجة الاتقان . فشعر غير المحترفين يغلب أن يكون دون شعر المحترفين بنحو من جيل على أقل تقدير . ولما لم تكن هذه الظواهر قد أخذت حتى الآن بالاعتبار الكافي ، فقد ساعد ذلك على استمرار الاعتقاد بمجمود الشعر القديم في سياقه الموحد . وقد بقي في مؤخرة الركب - لكن ثقافياً لا فنياً - الرجز الذي هو أقرب الى الأدب الشعبي . على أن الفاصل ما بين الرجز والقريض - وهو الشعر بالمعنى المعروف - قد ظل حاداً الى عهد متأخر جداً^١ .

وبعد، فهناك مسائل تتصل بتطور الشعر الجاهلي أرى ان من المستحيل حلها في الوقت الحاضر ، لعدم وجود أدلة علمية مقبولة يمكن أن يركن اليها لحل ما عندنا من عقد مستعصية ، مثل نشأة وتطور الشعر العربي ، وكيف نشأت القصيدة ، وعدد الأوزان والبحور العروضية التي سار عليها الجاهليون في وزن الشعر، والتزام القافية أو عدم التقيد بها في الشعر ، ومتى نشأت القصيدة ، ثم هل كانت لغة الشعر لغة واحدة ، خاصة كما نراها في الشعر الجاهلي المدون ، أم لم تكن، وانما كان الشعراء ينظمون بلهجاتهم من الوجهة اللفظية والنحوية والصرفية ، ولكن علماء

١ غرونيباوم (١٤٠ وما بعدها) .

الشعر في الاسلام ، هذبوا تلك الأشعار حتى جعلوها بلهجة واحدة ، هي اللهجة التي وصلت إلينا ، وإذا كان هذا هو ما جرى ، فما هي نسبة التحوير التي أوقعها العلماء على ذلك الشعر ؟

القديم والحديث :

مشكلة القديم والحديث ، وتصادم الحديث مع القديم ، وتفضيل الناس القديم على الحديث ، من المشاكل التي شغلت الانسان منذ ظهوره على سطح الأرض حتى اليوم . فالحديث ينافس القديم ، ليحل محله ، والقديم يصر على حقه في البقاء وفي جدارته في الخلود . والجيل الجديد يريد أخذ القيادة من الجيل القديم ، والجيل القديم لا يريد إعطاءها لأحد إلا اذا كان من جيله ، لأنه أقدر في نظره على إدراك الأمور، وأكثر تجارباً وخبرة وحكمة من الأحداث جاع الجيل الجديد، مع ان كل قديم هو محدث في زمانه بالاضافة الى من كان قبله ، وكل جديد سيصير قديماً بالنسبة الى من يأتي بعده ، ولسبب آخر ، هو ان القديم، هو الحاضر المتنفذ ، فلا يهون عليه التنازل عن حقه لمستجد .

وقد شغلت هذه المشكلة أذهان الجاهليين ولا شك ، كما شغلت أذهان الاسلاميين . فشعراء العصر الأموي ، كانوا يرون في شعرهم إبداعاً لم يكن عند من سبقهم من المخضرمين والجاهليين ، غير ان الناس في أيامهم ، لم يكونوا يعطون شعرهم من التقدير ما أعطوه للشعر القديم ، كانوا يرونه (مولداً) بالاضافة الى شعر الجاهلية والمخضرمين ، وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين^١ .

وكان الشعر القديم ، هو الشعر الممتاز المقدم عند علماء الشعر واللغة ، فكان (أبو عمرو بن العلاء) يقول : « لقد أحسن هذا المولد حتى هممت أن آمر صبياننا بروايته » لكنه لم يستشهد به ، ولم يجعل الجيد الممتاز من الشعر المولد في منزلة الشعر القديم ، لسبب واحد هو قدم الشعر الجاهلي . « قال الأصمعي : جلست إليه ثمانى حجج فما سمعته يحتج بييت إسلامي ، وسئل عن المولدين ، فقال : ما كان من حسن فقد سبقوا اليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم ،

ليس النمط واحداً ، ترى قطعة ديباج ، وقطعة مسيح ، وقطعة نطع . هذا مذهب أبي عمرو وأصحابه : الأصمعي ، وابن الأعرابي ، أعني أن كل واحد منهم يذهب في أهل عصره هذا المذهب ، ويقدم مَنْ قبلهم ، وليس ذلك الشيء إلا لحاجتهم الى الشاهد ، وقلة ثقتهم بما يأتي به المولدون ، ثم صارت لاجابة ^١ .

وقد رجّع (الجاحظ) سبب هذا الركض وراء الشعر الجاهلي الى لاجابة علماء اللغة في البحث عن كل شعر يستفاد منه في الشواهد ، إذ يقول : « ولم أرَ غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب ، ولم أرَ غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج الى الاستخراج ، ولم أرَ غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه الشاهد والمثل ^٢ » . ويقول : « طلبت علم الشعر عند الأصمعي ، فوجدته لا يعرف إلا غريبه ، (الألفاظ والمعاني العربية) ، فسألت الأخفش ، فلم يعرف إلا إعرابه ، فسألت أبا عبيدة فأبته لا يتفقد إلا فيما انصل بالأخبار ، ولم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب ، كالحسن بن وهب وغيره ^٣ » .

لقد كان القدم ، هو المقياس الأول في تقدير الشعر في ذلك الحين . فالشعر القديم محبوب مطلوب ، مقدم على الحديث ، مهما كان في الشعر الحديث من إبداع في المعنى وفي القالب . قال عبدالله التميمي : « كنا عند ابن الأعرابي ، فأنشده رجل شعراً لأبي نواس أحسن فيه فسكت . فقال له الرجل : أما هذا من أحسن الشعر ؟ قال : فقال : بلى ، ولكن القديم أحب الي ^٤ » .

وقد بلغ من تعظيم بعضهم للقديم ، أنهم كانوا يرون المعاني على مقادير أصحابها من الشعراء ، فالمعنى الذي يكون لامرئ القيس يكون كامرئ القيس في اعتباره وإجلاله وتساميه أن يتلقى بالرد والمواجهة ، ولذا فشا الغلط بينهم في تفسير الشعر وأخذ منه التصحيف كل مأخذ ^٥ .

فالقدم وحاجة العلماء الى الشعر القديم للاستشهاد به ، والبحث عن الغريب ، كانت كلها من العوامل التي أعطت للشعر القديم منزلة لم ينلها شعر المعاصرين ،

١ العمدة (٩٠/١ وما بعدها) ، الخزانة (٣/١ وما بعدها) .

٢ البيان (٢٤/٤) .

٣ الرافعي (٤٢١/١) .

٤ الموشح ، للمرزباني (٣٨٤) .

٥ الرافعي (٤٢٠/١) .

فأغاظ ذلك الشعراء المحدثين ، وجعلهم يحقنون على علماء اللغة ، ويسخرون منهم ومن عروضهم ونحوهم ، ولم يخفف من غلواء هؤلاء العلماء إلا تغير الزمن ، وبرز الأدباء الذين نظروا الى الأدب نظرة أخرى ، نظرة تقدر (الجيد) من الشعر من غير نظر الى زمانه أو قائله .

ولا بن قتيبة رأي في الشعر يخالف رأي (أبي عمرو بن العلاء) وأصحابه ، رأي في قيمة الشعر رأي الجاحظ الذي ذكرته ، وقد عرّضه بقوله : « رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه في متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب له عنده إلا انه قيل في زمانه ، أو انه رأى قائله .

ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً في عصره ، وكل شرف خارجية في أوله .

وقال : « ولم أسلك ، فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له ، سبيل من قلّد ، أو استحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، والى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين . وأعطيت كلاّ حظه ، ووفرت عليه حقه »^١ .

قال خلف الأحمر : قال لي شيخ من أهل الكوفة : أما عجبت من الشاعر قال :

أُنبتَ قيصوماً وجُشجاناً

فاحتمِلَ له ، وقلت أنا :

أُنبتَ إجاصاً وتفاحا

فلم يُحتمل لي ؟^٢ .

ومن شدة عجب الناس بالشعر الجاهلي أنهم جعلوه انموذجاً لشعرهم ودليلاً لهم

١ الشعر والشعراء (١٠/١ وما بعدها) ، (دار الثقافة) .

٢ الشعر والشعراء (٢٢/١) .

وهادياً في أصول نظم الشعر ، من محافظة على مظهر القصيدة وعلى (عمود الشعر). وجعلوا الشكل الخارجي ، الذي رسم للقصيدة من ذكر الدبار والدمن والآثار الى آخر ما قالوه عن ترتيب المراحل التي يجب أن تمر بها القصيدة ، ثم عمود الشعر مقياسين ، قاسوا بموجبيها الشعر الجيد من الشعر الرديء ، وميزوا بينها بهذين المقياسين . « فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام ، فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر ، ولم يطل فيمل السامعين ، ولم يقطع وبالنفوس ظمأ الى المزيد »^١ .

وكان (الجاحظ) وهو من شيوخ الأدباء ، يرى مذهب الأديب في تقدير الشعر وتقييمه ، يرى أن الشعر بمواضع الحسن منه ، وبالمعاني الجليلة التي فيه ، وعلى الألفاظ العذبة التي تشتمله ، وفي ذلك يقول : « وقد أدركت رواة المسجدين والمربدين ، ومن لم يروِ أشعار المجانين ولصوص الأعراب ، ونسيب الأعراب ، والأرجاز الأعرابية القصار ، وأشعار اليهود ، والأشعار المنصفة - فلنهم كانوا لا يعدونه من الرواة . ثم استبردوا ذلك كله ووقفوا على قصار الأحاديث والقصائد والفقر والتف من كل شيء ، ولقد شهدتهم وما هم على شيء أحرص منهم على نسيب عباس بن الأحنف ، فما هو إلا أن أورد عليهم خلف الأعراب نسيب الأعراب ، فصار زهدهم في نسيب العباس بقدر رغبتهم في نسيب الأعراب ، ثم رأيتهم منذ سنين وما يروى عندهم نسيب الأعراب إلا حدث السن قد ابتدأ في طلب الشعر أو فتاني متغزل .

وقد جلست الى أبي عبيدة والأصمعي ويحيى بن نعيم وأبي مالك عمرو بن كركرة مع من جالست من رواة البغداديين ، فما رأيت أحداً منهم قصد الى شعر في النسيب فأنشده ، وكان خلف يجمع ذلك كله .

ولم أرَ غاية التحوين إلا كل شعر فيه إعراب ، ولم أرَ غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج الى الاستخراج ، ولم أرَ غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه الشاهد والمثل ، ورأيت عامتهم - فقد طالت مشاهداتي لهم - لا يقفون على الألفاظ المتخيرة والمعاني المنتخبة ، وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة ، وعلى الطبع المتمكن ، وعلى السبك

الجيد، وعلى كل كلام له ماء وروث ، وعلى المعاني التي ان صارت في الصدور عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم ، وفتحت للسان باب البلاغة ، ودلت الأقلام على مدافن الأنفاظ ، وأشارت الى حسان المعاني . ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام في رواة الكتاب أعم ، وعلى ألسنة حذاق الشعر أظهر ؛ ولقد رأيت أبا عمرو الشيباني يكتب أشعاراً من أفواه جلسائه ليدخلها في باب التحفظ والتذاكر ، وربما خُيل إليّ أن أبناء أولئك الشعراء لا يستطيعون أن يقولوا شعراً جيداً ، لمكان إغراقهم في أولئك الآباء ، ولولا أن أكون عيباً ثم للعلاء خاصة، لصورت لك في هذا الكتاب بعض ما سمعتُ من أبي عبيدة ، ومن هو أبعدُ في وهمك من أبي عبيدة ^١ .

وكانت نظرة المبالغة هذه في تقدير الشعر القديم من جملة العوامل التي حملت جهابذة العلماء الخبراء بأساليب الشعر الجاهلي المتقنين له على وضع الشعر على ألسنة الجاهليين وعلى اذاعته ونشره بين الناس . فقد وجدوا ان سوقه رائجة ، وان ما يقدمونه منه لطلابه يقدر تقديرأ عظيماً ، وان ما ينظمونه هم وينشرونه باسمهم لا ينال مثل ذلك التقدير . وقد يحفل به . وان بعض خلفاء بني أمية كان لهم عشق خاص بشعر الجاهلية ، وانهم كانوا يبحثون عنه ، واذا سمعوا بوجود راوية عرف بحفظه ذلك الشعر ، أرسلوا اليه ، ليتحفهم بما عنده ، ثم يجزلون له العطاء ، على حين كانوا لا يعطون على الشعر الذي ينظمونه أو ينظمه الشعراء الأحياء إلا قليلاً ، وإلا اذا كان مدحاً لهم وتزلفاً اليهم . فدفعهم حرصهم المادي هذا على صنع الشعر وإسناده الى الشعراء الجاهليين . وهم لو نسبوه اليهم لصار فخراً لهم ، يثمنه لهم من يجيء بعدهم ، ولكنهم ما كانوا ليحصلوا عليه شيئاً مغرباً ، ففضلوا المادة على الشهرة التي تأتي اليهم بعد الموت .

وقد اتخذ بعض علماء الشعر ورجال الأدب موقفاً وسطاً بين المحدثين ، من الشعراء الذين قيل لشعرهم : المولد، وبين الشعراء المتقدمين ، فقال (ابن رشيق) : « ليس التوليد والرقعة أن يكون الكلام رقيقاً سفساقاً ، ولا بارداً غثاً ، كما ليست الجزالة والفصاحة أن يكون حوشياً خشناً ، ولا أعرايياً جافاً ، ولكن حال بين حالبين .

١ البيان والتبيين (٢٣/٤ وما بعدها) ، الرافعي (٤٢٣/١ وما بعدها) .

ولم يتقدم امرؤ القيس والنايفة والأعشى إلا بحلاوة الكلام وطلاوته ، مع
البعد من السخف والركاكة ، على أنهم لو أغربوا لكان ذلك عمولاً عنهم ،
إذ هو طبع من طباعهم ، فالمولد المحدث - على هذا - إذا صح كان لصاحبه
الفضل للبين بحسن الاتباع ، ومعرفة الصواب ، مع أنه أرق حوكماً ، وأحسن
ديباجة^١ .

الفصل الثامن والأربعون بعد المئة

القريض والرجز والقصيد

ويقال للشعر : القريض وهو الاسم كالقصيد ، والقريض : قول الشعر خاصة ،
والتقريض صناعته . وقد فرّق (الأغلب العجلي) بين الرجز والقريض بقوله :

أرجزاً تريد أم قريضاً ؟ كليهما أجيدُ مستريضاً^١

وقد ورد أن أصحاب رسول الله كانوا يتقارضون ، أي يقولون القريض
وينشدونه . وورد أن (المنذر) ملك الحيرة حين أراد قتل (عبيد بن الأبرص)
قال له : أنشدني من قولك ، فقال عبيد : حال الجريض دون القريض ، فذهب
قوله مثلاً^٢ . و قال النحاس : القريض عند أهل اللغة العربية الشعر الذي
ليس برجز^٣ .

ويلاحظ أن العرب وإن قالوا : « نظمتُ الشعر ونظمته » ، وقصّبوا

١ اللسان (٢١٨/٧) وما بعدها ،

أرجزاً تريد أم قصيدا لقد طلبت هيناً موجودا
الأغاني (٩٧/١٤) ، تاج العروس (٧٥/٥) ، (قرض) .

٢ اللسان (٢١٨/٧) وما بعدها ، (قرض) .

٣ العملة (١٨٤/١) .

ب (النظم) الشعر ، وعرفوا الشعر بأنه « منظوم الكلام »^١ ، غير أنهم كانوا يقولون أيضاً : « قال شعراً » ، و « وهو يقول الشعر » ، وفي القرآن : « وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون »^٢ ، و « والشعراء يتبعهم الغاؤون » ، ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون »^٣ . ويقولون : قول شاعر .

والشعر في تعريف علمائه : « منظوم القول ، غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية » ، وهو « الكلام المقفى الموزون قصداً »^٤ ، ومن صيروا الكلام نوعين : كلام منظوم ، وكلام منثور . والفرق بينهما هو في وجود الوزن والقافية في الشعر ، وفي عدم وجودهما في الكلام المنثور . وتوجد هذه النظرة عند (أفلاطون) ، و (فيثاغورس) ، وهي تختلف بعض الاختلاف عن رأي (أرسطو) في الشعر* .

« وزعم الرواة أن الشعر كله إنما كان رجزاً أو قطعاً ، وأنه إنما قصّد على عهد هاشم بن عبد مناف ، وكان أول من قصّده مهلهل وامرؤ القيس ، وبينهما وبين مجيء الإسلام مائة ونيف وخمسون سنة . ذكر ذلك الجمحي وغيره . وأول من طول الرجز وجعله كالقصيد الأغلب العجلي شيئاً يسيراً ، وكان على عهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم أتى العجاج فافتنّ فيه فالأغلب العجلي والعجاج في الرجز كما مرى القيس ومهلهل في القصيد »^٥ .

والقصيد من الشعر ما تمّ شطر أبياته ، سمي بذلك لكماله وصحة وزنه . قال (ابن جني) : « سمي قصيداً لأنه قصد واعتمد وإن كان ما قصر منه واضطرب بناؤه نحو الرمل والرجز شعراً مراداً مقصوداً . وذلك ان ما تمّ من الشعر وتوفر أثر عندهم وأشدّ تقدماً في أنفسهم مما قصر واختل ، فسمّوا ما طال ووفر قصيداً ، أي مراداً مقصوداً ، وإن كان الرمل والرجز أيضاً مرادين مقصودين ،

١ اللسان (٥٧٨/٠) .

٢ الحاقة ، الآية ٤١ .

٣ الشعراء ، الآية ٢٢٤ وما بعدها .

٤ اللسان (٤١٠/٤) ، (شعر) ، (صاحب) (٢٧٣) ، ارساد الساري (٨٨/٩) .

٥ Poetics, O. I, (1447A), Borinski, Die Antike in Poetik und Kunsttheorie, I, 43.

٦ بلوغ الأرب (٨٣/٣) ، العمدة (٨٩/١) وما بعدها ، طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد .

والجمع قصائد^١ . وذكر علماء الشعر : « سمي الشعر التام قصيداً ، لأن قائله جعله من باله قصداً ولم يحتسه حسياً على ما خطر بباله وجرى على لسانه ، بل روى فيه خاطره واجتهد في تجويده ، ولم يقتضبه اقتضاباً ، فهو فعل من القصيدة . » وقالوا شعر قصيد اذا تقح وجود وهذب^٢ .

جاء في قول شاعر :

قد وردت مثل الباني المزهاز تدفع عن اعتاقها بالاعجاز
أعيت على مقصدنا والرجاز

يقال : أقصد الشاعر وأرمل وأهزج وأرجز ، من القصيد والرمل والهزج والرجز^٣ .

والرجز عند العرب كل ما كان على ثلاثة أجزاء ، وهو الذي يترنمون به في عملهم وسوقهم ويحمدون به . هذا هو تعريفه عند بعض العلماء . وعرفه بعضهم : أنه بحر من بحور الشعر معروف ونوع من أنواعه يكون كل مصراع منه مفرداً ، وتسمى قصائده أراجيز ، واحدها أرجوزة ، وهي كهيئة السجع إلا أنه في وزن الشعر ، ويسمى قائله راجزاً كما يسمى قائل بحور الشعر شاعراً وعرفه آخرون أنه شعر ابتداء أجزائه سبيان ثم وتد ، وهو وزن يسهل في السمع ويقع في النفس^٤ . وذكر أن كل شعر تركب تركيب الرجز^٥ سمي رجزاً^٥ . والرجز في الوقع سجع موزون . ونجد شبهاً في التوراة ، حيث ورد على ألسنة الحكماء العبرانيين في سفر الأمثال^٦ وعلى لسان بلعام الحكيم^٧ ، الذي جعله بعض العلماء لقمان الحكيم المذكور في القرآن .

١ تاج العروس (٤٦٧/٢) .

٢ المصدر نفسه (٤٦٨/٢) .

٣ تاج العروس (٤٦٦/٢) .

٤ اللسان (٣٥٠/٥) وما بعدها ، (رجز) ، البيان والتبيين (١٨٤/٢) ، (١٣١٣) ،

العمدة (١٢١/١) وما بعدها ، كارلو نالينو ، تاريخ الآداب العربية (١٨٦) .

٥ اللسان (٣٥١/٥) .

٦ الأمثال ، الاصحاح ٢١ ، الآية ٢٧ وما بعدها .

٧ العدد ، الاصحاح ٢٢ ، الآية ٥ وما بعدها .

وذكر بعض العلماء ان الرجز انما سمي رجزاً لأنه تتوالى فيه في أوله حركة وسكون ثم حركة وسكون الى أن تنتهي أجزاؤه ، يشبه بالرجز في رجل الناقة ورعلتها ، وهو أن تتحرك وتسكن ثم تتحرك وتسكن^١ ، وقيل سمي بذلك لتقارب أجزائه واضطرابها وقلة حروفه ، وقيل لأنه صدور بلا أعجاز. وقيل الرجز ضرب من الشعر معروف وزنه مستعملن ست مرات ، فابتداء أجزائه سبيان ثم وقد ، ولذلك جاز أن يقع فيه المشطور وهو الذي ذهب شطره والمنهوك ، وهو الذي قد ذهب منه أربعة أجزاء وبقي جزءان^٢ . وذهب بعض العلماء الى ان الرجز ثلاثة أنواع غير المشطور ، والمنهوك ، والمقطع^٣ .

وهو تام ومختصر . والمختصر ، أنواع : المجزوء والمشطور والمنهوك . وذكر ان الذي جرى على لسان الرسول من الرجز ضربان : المنهوك والمشطور^٤ .

والأرجوزة القصيدة من الرجز ، وهي كهياة السجع إلا انه في وزن الشعر ، والجميع أراجيز . ويسمى قائله راجزاً ورجزاً ، ورجازة ، ومرتجز^٥ . وقد فرّق علماء الشعر بين الشاعر والراجز ، فأطلقوا لفظة (الشاعر) على من ينظم الشعر ، أي (القصيد) ، وأطلقوا كلمة (الراجز) على من يرتجز الرجز . فنجدهم يقولون : الأغلب الراجز ، والعجاج الراجز ، وأبو الزحف الراجز ودكين الراجز وغيرهم^٦ .

وقد اختلف العلماء في طبيعة الرجز ، فمنهم من جعله شعراً صحيحاً ، وضرباً من الشعر ، معروف وزنه ، ومنهم من جعله صنفاً من أصناف الكلام قائماً بنفسه ليس بشعر ، ولا بسجع ، وإنما مجازه مجاز الشعر . ونسب الى (الخليل) قوله : الرجز شعر صحيح في رواية ، وقوله : إنه ليس بشعر ، وإنما هو أنصاف أبيات وأثلاث في رواية أخرى^٧ . ومردّد اختلافهم فيه هو ما ورد على لسان الرسول من الرجز المنهوك والمشطور ، وما ورد في القرآن الكريم من قوله : « وما علمناه

-
- ١ اللسان (٣٥١/٥) ، (رجز) .
 - ٢ تاج العروس (٣٦/٤) ، (رجز) .
 - ٣ العمدة (١٨٢/١) .
 - ٤ اللسان (٣٥١/٥) .
 - ٥ تاج العروس (٣٧/٤) ، (رجز) .
 - ٦ الشعر والشعراء (٤٩٣/٢) ، ٥٠٨ ، ٥١١ ، ٥٧٨ .
 - ٧ تاج العروس (٣٦/٤) ، (رجز) ، اللسان (٣٥٠/٥) ، (رجز) .

الشعر وما ينبغي له^١ ، و « انه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون . ولا بقول كاهن ، قليلاً ما تذكرون »^٢ . وما ورد في كتب الحديث والأخبار من أن الرسول لم يكن ينشد الشعر ولا يقوله وينظمه ، لأنه لم يكن شاعراً وما كان له أن يقوله ، وأنه إذا استشهد بالشعر ، لم يقمه على وزنه ، وإنما كان ينشد الصدر أو العجز ، ثم يجيء بالنصف الثاني على غير تأليف الشعر ، لأن نصف البيت لا يقال له شعر ولا بيت ، ولو جاز أن يقال لنصف البيت شعراً لقليل لجزء منه شعر . وقد جرى على لسان النبي : أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب . فلو كان شعراً لم يجر على لسانه^٣ . وجاء على لسانه .

هل أنتِ إلا اصبعٌ دميت وفي سبيل الله ما لقيت^٤

فالرجز اذن ليس بشعر .

وقد ردّ من يقول إن الرجز شعر على قول من يقول إنه ليس بشعر ، بقوله : « معنى قول الله عزّ وجلّ : وما علمناه الشعر وما ينبغي له ، أي لم نعلمه الشعر فيقولوه ويتدرب فيه حتى ينشئ منه كتباً ، وليس في انشاده صلى الله عليه وسلم البيت والبيتين لغيره ما يبطل هذا لأن المعنى فيه أنا لم نجعله شاعراً^٥ ، مطبوعاً على نظم الشعر وقوله ، ولهذا فلا صلة لموضوع أصل الرجز ، هل هو نوع من الشعر ، أو ليس بنوع منه مع ما جاء من نفي الشعر عن الرسول .

وورد في الحديث ، ان الرسول كان يرتجز برجز (عبدالله بن رواحة الأنصاري) الشاعر النقيب ، وهو ينقل التراب يوم الخندق ويقول :

-
- ١ سورة يس ، الآية ٦٩ ، تفسير الطبري (١٨/٢٣) ، تفسير الألوسي (٤٣/٢٣) .
 - ٢ الحاقة ، الآية ٤٠ وما بعدها ، تفسير الطبري (٤١/٢٩) ، تفسير الألوسي (٥٢/٢٩) .
 - ٣ تاج العروس (٣٦/٤) ، (رجز) ، ارشاد الساري (٨٨/٩) ، اللسان (٣٥٠/٥) ، (رجز) .
 - ٤ العمدة (١٨٥/١) .
 - ٥ تاج العروس (٣٦/٤) وما بعدها ، (رجز) ، اللسان (٣٥٠/٥) وما بعدها ، تفسير القرطبي (٥٢/١٥) وما بعدها .

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأعداء قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أينا^١

ورويت الآيات بصورة أخرى . فقد روي انه « لما خرج عامر بن الأكوع
الى خيبر جعل يرجز بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يسوق به الركاب ، وهو
يقول :

يا الله لولا الله ما اهتدينا وما تصدقنا ولا صلينا
الكافرون قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أينا
ونحن عن فضلك ما استغنيا فثبت الأقدام إن لاقينا
وأنزلن سكينه علينا^٢

وموضوع أصل الرجز اذن ، موضوع ظهر في الاسلام ، لما ورد في الأخبار
من ارتجاز الرسول بعض الرجز ، ولما ورد في القرآن الكريم وفي الحديث من نفي
قول الشعر ونظمه عنه . فرأى فريق من العلماء إخراج الرجز من الشعر ، لما بينته
من أسباب . ورأى فريق آخر ، ان الرجز جزء من الشعر ، وان ارتجاز الرسول
الرجز ، لا يتعارض مع ما جاء في القرآن الكريم ، لأن الرسول لم يتدرب عليه
ولم يتعلمه ولم ينشأ منه أراجيز ، وانما ارتجز منه قليلاً من غير قصد ولا عمد ،
ولا علاقة لذلك بالانكباب على تعلم الشعر والتخصص به . والدليل على ان الرجز
نوع من أنواع الشعر ، هو ما يرويه أهل الأخبار أنفسهم من أن قريشاً اجتمعوا
الى (الوليد بن المغيرة) وكان ذا سن فيهم ، ليتدبروا أمر الناس اذا حضر
الموسم ، ولإيجاد جواب موحد لهم في أمر القرآن وفيما يجب قولهم فيه . فلما قالوا
له : نقول انه قول كاهن ، قال : والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان
فما هو بزممة الكاهن ولا سجعته . قالوا : فنقول مجنون . قال : ما هو بمجنون
لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخرقة ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول
شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه

١ ارشاد الساري (١٥٧/٥) ، السيوطي ، شرح شواهد (٢٨٦/١ وما بعدها) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (٢٨٧/١) .

ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر^١ . فالرجز - إن صح هذا الخبر - هو مثل المزج والقريض والمقبوض والمبسوط صنف من أصناف الشعر ، ولون من ألوانه ، ومن هذه الأصناف المذكورة تكون الشعر في نظر الجاهليين .

فالرجز إذن صنف من أصناف الشعر ، وبحر من بحوره ، له وزن وإيقاع ، هكذا كانت نظرة أهل الجاهلية إليه . وهو في الواقع شعر . و « الرجز شعراء عند العرب وفي متعارف اللسان »^٢ .

« وليس يمتنع الرجز على المقصد امتناع القصيد على الراجز ، ألا ترى أن كل مقصد يستطيع أن يرجز وإن صعب عليه بعض الصعوبة ، وليس كل راجز يستطيع أن يقصد ، واسم الشاعر وإن عمّ المقصد والراجز فهو بالمقصد أعلق ، وعليه أوقع ، فليل لهذا شاعر ، ولذلك راجز ، كأنه ليس بشاعر ، كما يقال خطيب أو مرسل أو نحو ذلك »^٣ .

ولسهولة الرجز على اللسان لم ينظر إليه نظرة إكبار مثل نظرهم إلى الشعر . هذا (أبو العلاء) المعري ، يجعل جنة الشعراء جنة سامقة ، لها بيوت عالية ، أما جنة الرجز ، فجنة أبياتها ليس لها سموق أبيات الجنة ، جعل فيها : أغلب بني عجل ، والعجاج ، ورؤية ، وأبو النجم ، وحيد الأرقط ، وعذافر بن أوس ، وأبو نخيلة ، ثم يقول : « تبارك العزيز الوهاب » لقد صدق الحديث المروي : إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها . وإن الرجز لمن سفاسف القريض ، قصرتم أيها النفر فقصر بكم^٤ .

ويعد الرجز من أقدم أنواع الشعر ، ومن أبسطه وأيسره على الإنسان . ثم هو خفيف على النفس ، فيه طرب وتأثير ، وهو مطاوع يؤدي أغراضاً مختلفة ، ويصلح لأن يعبر عن أحاسيس متنوعة ، حتى يكاد أن يكون مطية الشعراء ، يركبها كل من له طبع وذوق وحس مرهف ، ومن هنا صار شعر من كان لا يقول الشعر أو لا يحضره إلا في الملمات والأزمات .

١ الروض الأنف (١٧٣/١) ، اللسان (٣٥٠/٥) .

٢ العمدة (١٨٥/١) .

٣ العمدة (١٨٦/١) .

٤ رسالة الغفران (٣٧٣ وما بعدها) .

وهو في نظري أقدم من (القصيد) ، لأنه أبسط منه وأسهل على النظم ، فهو يمثل المرحلة الأولى من مراحل الشعر المألوف . وقد تكون سهولته في النظم ، هي التي جعلت كبار الشعراء يأنفون من النظم به ، فهو باب يمكن أن يلج به الشعراء الصغار ، وربما يتغلبون به على كبار أهل القصيد ، ولعل سهولته هذه قصرت في عمره ، إذ جعلت الذاكرة تنساه بسرعة ، لسهولته هذه ، كما يسرع نسيان السجع والكلام الاعتيادي من الذاكرة . فضع بسبب ذلك الرجز الجاهلي ، ولم تبق منه غير بقية قليلة .

واستعمل الرجز في أحوال البديهة والارتجال ، وقد ارتجز في القتال ، وفي الحدا والمفاخرة ، وما جرى هذا المجرى ، واستعمل في الأعمال التي تحتاج الى تنشيط واثارة همم ، لما فيه من ملازمة للذك . فلما بنى المسلمون مسجد الرسول بالمدينة ، وكان الرسول يحمل (اللبن) معهم ، كان الصحابة يرتجزون الرجز لإثارة الهمم وللتخفيف من وطأة العمل . قال « أبو عبيدة : إنما كان الشاعر يقول من الرجز البيتين والثلاثة ونحو ذلك ، اذا حارب أو شاتم أو فاخر، حتى كان العجاج أول من أطاله وقصده ، ونسب فيه ، وذكر الديار ، واستوقف الركاب عليها ووصف ما فيها ، وبكى على الشباب ، ووصف الراحلة ، كما فعلت الشعراء بالقصيد . فكان في الرجز كأمريء القيس في الشعراء ... وقال غيره : أول من طوّل الرجز الأغلب العجلي ، وهو قديم ، وزعم الجمحي وغيره انه أول من رجز ، ولا أظن ذلك صحيحاً ، لأنه إنما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن نجد الرجز أقدم من ذلك »^١ .

ويعد (الأغلب بن جشم بن عمر بن عبيدة بن حارثة العجلي) أول من نما بالرجز منحى القصيد ، فأسبغه وأطاله . وهو من المخضمين . وقد قتل بنهاوند سنة (٨٢١هـ) . وهو الذي جاء الى (المغيرة بن شعبة) ، فقال له :

أرجزاً تريد أم قصيدا لقد طلبت هينا موجودا

وكان الخليفة (عمر) - على ما يذكره أهل الأخبار - كتب الى المغيرة وهو

١ العمدة (٨٩/١ وما بعدها) ، (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) ، الاغاني (١٦٤/١٨) .

على الكوفة أن استشهد من قبلك من الشعراء عما قالوه في الإسلام مكان الشعر ، فكتب بذلك الى (عمر) فكتب اليه أن أنقص من عطاء الأغلب خمسمائة فزدها في عطاء لييد^١ .

وروي أن (العجاج) ، وهو (عبدالله بن ربيعة بن لييد بن صخر بن كثيف بن عمرو) أبو الشعثاء التميمي ، والد الشاعر (ربيعة) ، هو أول من رفع الرجز وشبهه بالقصيد ، وجعل له أوائل^٢ . وهو من شعراء الإسلام ، وكان يفد على ملوك بني أمية من أمثال الوليد بن عبد الملك^٣ ، وسليمان بن عبد الملك^٤ .

وهو قليل الورد في شعر الشعراء الجاهليين ، فقلما استعمل (نوابغ الشعراء في زمان الجاهلية) « الرجز » ، كأنه ليس أهلاً لمترلتهم . ففي ديوان امرئ القيس لا نعر إلا على أربع مقطعات صغيرة منه . أعني اثنتين من المشطور واثنتين من غير المشطور . وأكثر من امرئ القيس ارتجاًزاً لييد بن ربيعة من الذين أدركوا الإسلام تنسب اليه خمس عشرة مقطعة في الرجز المشطور ، تدور على المفاخرة والحكمة والمعاقبة والمديح والرثاء ، وتشتمل إحداها وهي أطولها على ستة عشر بيتاً .

أما دواوين النابغة الذبياني ، وزهير بن أبي سلمى ، وعنترة بن شداد ، وطرفة بن العبد ، وعلقمة الفحل ، فلا شيء فيها من الرجز . وعلى كل حال لم يكن الارتجاءز في زمان الجاهلية إلا بصفة قطع صغيرة يقولها الناس غالباً في الهجاء أو في الحرب وعند اللقاء . أما في القرن الأول للهجرة ، فأخذ بعض الشعراء من الفحول ينظمون الشعر في ذلك البحر المحقر فإلى هذا التغير أشار ابن رشيق القيرواني في كتاب العمدة حين قال : قال أبو عبيدة انما كان الشاعر يقول من الرجز البيتين والثلاثة ونحو ذلك اذا حارب أو شاتم أو فاخر حتى كان العجاج أول من أطاله وقصده ونسب فيه وذكر الديار واستوقف الركاب عليها ووصف ما فيها

- ١ المؤلف والمختلف (٢٢) ، طبقات الشعراء (١٤٨ وما بعدها) ، الأغاني (١٦٤/١٨ وما بعدها) ، بروكلمن ، تاريخ الأدب العربي (٢٢٥/١) ، الشعر والشعراء (٥١١/٢) ، الاصابة (٧١/١) ، (رقم ٢٢٥) ، الخزائن (٢٣٣/١) ، أسد الغابة (١٠٥/١) .
- ٢ السيوطي ، شرح شواهد (٤٩/١) .
- ٣ بروكلمن (٢٢٦/١) .
- ٤ الشعر والشعراء (٤٩٣/٢) .

وبكى على الشباب ووصف الراحلة كما فعلت الشعراء بالقصيد ، فكان في الرجز
كامرئ القيس في الشعراء . وقال غيره أول من طوّل الرجز الأغلب العجلي ،
وهو قديم . وزعم الجمحي وغيره انه أول من رجز ، ولا أظن ذلك صحيحاً ،
لأنه إنما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن نجد الرجز أقدم
من ذلك .

ولكن لا شكّ في وقوع سهو في آخر كلام ابن رشيّق ، لأنه من الواضح
أن الجمحي إنما أراد بقوله استعمال بحر الرجز في نظم الشعر مثل القصائد ، فليس
من الممكن أن رجلاً عالماً بتاريخ الشعر ودقائقه مثل الجمحي جهل ما هو متداول
عند كل العلماء أن الرجز من أقدم فنون الشعر عند عرب الجاهلية . وقول الجمحي
صواب تؤيده عدة نصوص منها شهادة العجاج من أشهر شعراء الأراجيز الذي
قال مفتخراً :

وإن يكنْ أُمسَى شَبَابِي قد حَسِرَ وفترت مِنِّي البَوَانِي وفتر
إني أنا الأغلبُ أضحي قد نُشِرَ

يعني أنه أحيا طريقة شعر الأغلب . وهو الأغلب بن جشم العجلي عاش في
الجاهلية مدة وأدرك الاسلام وأسلم وله شعر في سجاح لما تزوجت مسيلمة
الكَذَّاب^١ .

و (المزج) نوع من أعاريض الشعر ، من الأغاني وفيه ترنم^٢ . وهو باب
معروف من أبواب الشعر عند الجاهليين ، كباب الرجز ، بدليل جعل (الوليد
ابن المغيرة) إياه صنفاً من أصناف الشعر . وقد عرف من كان يقول المزج بـ (المزاج)
و (أهزج) إذا هزج المزج ، أي قال به . والمزاجون طبقة امتازت عن
غيرها بقولها المزج ، وكانوا يرددونه ترديد الغناء ، ولذلك عدّ من الأغاني ،
وقالوا : المزج صوت مطرب . قبل سمي بذلك تشبيهاً بهزج الصوت ، وقيل
لطيبة لأن المزج من الأغاني^٣ . فهي إذن من الشعر الغنائي « Lyric » .

١ كارلو ناليو ، تاريخ آداب اللغة العربية (١٨٦ وما بعدها) .

٢ اللسان (٣٩٠/٢ وما بعدها) ، (هزج) .

٣ تاج العروس (١١٦/٢) ، (هزج) .

وقد استعمل العرب المزج في أناشيد التنشيط للقتال ، وفي المناسبات العامة ، مثل الأفراح ، والتجمعات ، حيث يترنم القوم جماعة بأنغام المزج ، فالمزج شعر مقرون بغناء وترنيم .

و (الرمل) من الشعر كل شعر مهزول غير مؤتلف البناء . قال بعض العلماء عنه : « وأما الرمل فإن العرب وضعت فيه اللفظة نفسها ، عبارة عندهم عن الشعر الذي وضعه أهل الصناعة ، لم ينقلوه نقلاً علمياً ولا نقلاً تشبيهاً . وبالجمله فإن الرمل كل ما كان غير القصيد من الشعر وغير الرجز »^١ . وقد أخذ علماء العروض اللفظة والمعنى كما سمعوها من العرب ولم يحدثوا عليها أي تغيير . مما يدل على أنه كان من الأبواب المميزة المعروفة عند الجاهليين . وذلك مثل الرجز والقصيد^٢ ، والمقبوض والمبسوط ، على نحو ما ذكرت قبل قليل .

وأما (القصيد) من الشعر ، فما تم شطر أبياته أو شطر أبيته ، سمي بذلك لكماله وصحة وزنه . سمي قصيداً لأنه قصد واعتمد ، وإن كان ما قصر منه واضطرب بناؤه نحو الرمل والرجز شعراً مراداً مقصوداً ، وذلك إن ما تم من الشعر وتوفر أثر عندهم وأشد تقدماً في أنفسهم مما قصر واختل ، فسموا ما طال ووفر قصيداً، أي مراداً مقصوداً، وإن كان الرمل والرجز أيضاً مرادين مقصودين^٣ . وقيل « القصيد من الشعر المنقح المجود المهذب الذي قد أعمل فيه الشاعر فكرته ولم يقتضبه اقتضاباً كالقصيدة »^٤ .

والقصيد ، جمع القصيدة ، وقيل : الجمع قصائد وقصيد . سمي قصيداً لأن قائله احتفل له فنقحه باللفظ الجيد والمعنى المختار ، وقالوا : سمي الشعر تمام قصيداً لأن قائله جعله من بابه فقصد له قصداً ولم يحتسه حسياً على ما خطر بباله وجرى على لسانه ، بل روي فيه خاطره واجتهد في تجويده ولم يقتضبه اقتضاباً^٥ . ويقال قصد الشاعر وأقصد ، إذا أطال وواصل عمل القصائد . والذي في العادة أن يُسمى ما كان على ثلاثة أبيات أو عشرة أو خمسة عشر قطعة ، فأما ما زاد

١ اللسان (٢٩٦/١١) ، تاج العروس (٣٥١/٧) ، (رمل) .

٢ اللسان (٢٩٦/١١) .

٣ اللسان (٣٥٤/٣) ، (قصد) ، تاج العروس (٤٦٧/٢) ، (قصد) .

٤ تاج العروس (٤٦٨/٢) .

٥ اللسان (٣٥٤/٣) ، (قصد) .

على ذلك فإنما تسميه العرب قصيدة^١ . وقيل : إذا بلغت الأبيات سبعة فهي قصيدة ، ولهذا كان الإيطاء بعد سبعة غير معيب عند أحد من الناس .. ومن الناس من لا يعد القصيدة إلا ما بلغ العشرة وجاوزها ولوبييت واحد . ويستحسنون أن تكون القصيدة وترّاً ، وأن يتجاوز بها العقد ، أو توقف دونه^٢ . فالقصيدة إذن كلمة طويلة بالنسبة إلى القطعة ، فيها وحدة أطول هي وحدة القصيدة ، التي تعرف بفتافيتها^٣ . ويعبر عنها بلفظة (كلمة) (الكلمة) مجازاً ، كما عبر عنها في المؤلفات القديمة^٤ .

وينسب إلى (الأخفش) قوله : « القصيد من الشعر هو الطويل ، والبسيط التام ، والكامل التام ، والمديد التام ، والوافر التام ، والرجز التام ، والخفيف التام ، وهو كل ما تغنى به الركبان ، ولم نسمعهم يتغنون بالخفيف »^٥ . و (القصد) مواصلة الشاعر عمل القصائد وإطالته كالإقصاد . قال الشاعر :

قد وردت مثل الباني الهزاهز تدفع عن أعناقها بالاعجاز
أعيت على مقصدنا والرجاز^٦

وكلمة (قصيدة) من الكلمات المستعملة في الشعر الجاهلي . جاء أن أحد شعراء (بكر بن وائل) سخر من تغلب لما كانت تنباهي به من ترديد لها لقصيدة شاعرها (عمرو بن كلثوم) في مدح نفسه وقومه ، فقال :

ألهي بني تغلب عن كل مكربة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يروونها أبدأ مذ كان أولهم يال للرجال لشعر غير مستوم^٧

وورد في شعر للمسيب بن علس قوله :

فلأهدين مع الرياح قصيدة مني مغلفة إلى القعقاع^٨

-
- | | |
|---|---|
| ١ | اللسان (٣٥٥/٣) ، تاج العروس (٤٦٧/٢) ، (قصد) . |
| ٢ | العملة (١٨٩/١) . |
| ٣ | يروكلمن (٥٨/١) . |
| ٤ | الآمدي ، المؤلف (١٠٦) ، ابن سلام ، طبقات (٢٧) ، ابن سعد (١٧٦/٣) . |
| ٥ | تاج العروس (٤٦٧/٢) ، (قصد) . |
| ٦ | تاج العروس (٤٦٦/٢) ، (قصد) . |
| ٧ | الأغاني (٥٤/١١) . |
| ٨ | المفضليات (٦٢) . |

فاللفظة إذن من الألفاظ التي استعملها الجاهليون ، بمعناها المفهوم . وقد بحث في أصلها علماء اللغة ، وذهبوا في تفسيرها لمذاهب^١ . وللمستشرقين كلام في أصلها وفي معناها . ذهب بعض منهم إلى أنها من القصد والغرض ، وأنها قيلت في شعر الطلب أولاً ، ثم أطلقت على كل شعر آخر ، ولهذا اقترح بعضهم ترجمتها بـ (شعر الطلب) أو (شعر التسول) ، وعارض هذا التفسير بعض آخر ، لأن التسول في رأيهم لم يكن الغرض الأول من نظم الشعر ، وإنما كان غرضاً من أغراضه ، ثم إن أقدم الشعراء الذين قصّدوا القصائد لم يكونوا من الشعراء المتسولين ، وإنما كانوا من المترفين المتعاليين ، ولهذا رفضوا تفسير القصيد بشعر التسول والطلب^٢ ، وقال (بروكلمن) : « إذا صح أن لفظ القصيد بعيد القدم ، فمن الممكن أن يكون الغرض والقصيد بحسب الأصل غرضاً من أغراض السحر ، وكثيراً ما صار غرضاً سياسياً في وقت متأخر ، ثم صار يستعمل بأوسع معاني الكلمة في جميع أغراض الحياة الاجتماعية ، وإن كان من الحق أنه استعمل أيضاً منذ عهد قديم في أغراض أنانية محضة »^٣ .

وتعرف (القصيدة) بـ (القافية) كذلك . واستشهد العلماء على ذلك بقول الخنساء :

فنهكم بالقوافي من هجانا ونضرب حين تختلط الدماء

وبقول آخر :

نبئت قافية قيلت تناشدها قوم سأترك في أعراضهم ندبا

وذكروا ان (القافية) في قول حسان بن ثابت :

فنهكم بالقوافي من هجانا ونضرب حين تختلط الدماء

قد تعني (القصيدة) ، وقد تعني البيت منها . قال الأزهري : العرب

١ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١ / ٥٩) ،

Goldziher, History of Classical Arabic Literature, p. 10.

٢ بروكلمن (١ / ٥٩) .

تسمي البيت من الشعر قافية ، وربما سمّوا القصيدة قافية ، ويقولون رويت لفلان كذا وكذا قافية^١ . والقافية هي (ميقف) في العبرانية .

وأطلقت على القصيدة لفظية (كلمة) ، وقد استعملها (ابن سلام) في مواضع من كتابه (طبقات الشعراء) . فتجده يقول : « ومن شعر حسان الراثع الجيد ما مدح به بني جفنة من غسان ملوك الشام في كلمة » ، ثم ذكر القصيدة ، ثم يقول : « وقوله في الكلمة الأخرى الطويلة »^٢ ، و « قال في يوم أحد كلمة قال فيها »^٣ ، ويقول « وكان أبو الصلت يمدح أهل فارس حين قتلوا الحبشة في كلمة قال فيها »^٤ ، و « السؤال بن عاديا يقول في كلمة له طويلة »^٥ ، ووردت في مواضع عديدة أخرى بهذا المعنى وفي بقية كتب الشعر والأدب .

وتألف القصيدة من أبيات . والبيت هو بيت الشعر^٦ . ويتكون البيت من شطرين . و (الشطر) نصف الشيء . فشطر البيت نصفه^٧ . والبيت في القصيدة الجاهلية وحدة معنوية مستقلة قائمة بذاتها ، إذا انتزعت بيتاً منها ، أو تركت بيتاً ، أو قلعت فيها بيتاً على بيت ، أو أخرت في أبياتها ، فلذلك لا تكاد تفصم عرى القصيدة ولا تؤثر على ترابط معناها في الغالب ، لأن كل بيت منها وحدة قائمة بذاتها لا تتصل بما قبلها أو بما بعدها إلا بسبب الوزن والقافية .

وقد عرفت بعض الأبيات بالأوابد . والأوابد من الشعر : الأبيات السائرة كالأمثال^٨ . وذكر أن الأوابد الشوارد من القوافي^٩ ، ورد في كتب اللغة : « ومن المجاز أبد الشاعر يأبد أبوداً ، إذا أتى العويص في شعره . وهي الأوابد والفرائب وما لا يعرف معناه على بادىء الرأي »^{١٠} .

-
- ١ تاج العروس (١٠ / ٣٠٠) ، (قفو) .
 - ٢ (ص ٥٣ ، ٥٤) .
 - ٣ طبقات (٥٨) .
 - ٤ طبقات (٦٦) .
 - ٥ طبقات (٧١) .
 - ٦ تاج العروس (١ / ٥٣٠) ، (بيت) .
 - ٧ تاج العروس (٣ / ٢٩٨) ، (شطر) .
 - ٨ العملة (٢ / ١٨٥) .
 - ٩ اللسان (٣ / ٦٩) ، (ابد) .
 - ١٠ تاج العروس (٢ / ٢٨٦ وما بعدها) ، (ابد) .

وتكون القصائد طويلة في الغالب ، أما (القطع) ، فهي أقصر من القصيدة . وقد كان (ابن الزبير) ، لا ينظم القصائد الطوال ، ويميل الى القطع ، وكان عذره « ان القصار أولج في المسامع ، وأجول في المحافل » . وللشعراء الطوال والقصار ، كل حسب المناسبة^١ . وقد اختتمت بعض القصائد الجاهلية بالحكم والأمثال وبالأقوال المأثورة . وللقصائد الطوال المحبوبة حبكاً حسناً ، والمنظومة نظماً جيداً ، سابقة وقدم على مثيلاتها من القصائد الوسط أو القصيرة ، ومن هنا اختار (حماد) الراوية (السبع الطوال) (السبع الطول) من الشعر الجاهلي ، وزعم في أصلها ما زعم . ونظم القصيدة الطويلة ، يحتاج الى نفس طويل ، والى تمكن من الشعر ، وإلا أصابها الوهن والعجز ، ومن هنا عدّ أصحاب المطولات الجيدة من أحسن الشعراء .

وقد ذهب (غرونيوم) الى أن القصيدة العاشرة من القصائد المنسوبة الى (عمرو بن قتيبة) ، ربما تكون أقدم قصيدة تامة وصلت الينا من الشعر الجاهلي ، « على أنها لم تكن بعد نفي بجميع مقتضيات النقاد النظريين ، لأنها لا تشمل ، في الأبيات التسعة عشر التي تلي النسيب ، إلا على وصف سحابة ممطرة ، ومدح رجل يدعى امرأ القيس بن عمرة . ولو أن هذه القصيدة تأخرت عن العصر ، بوقت قصير ، لا عبرت أثراً غناً . وليس السبب في ذلك أن عدد أبيات القصيدة من بعد قد ازداد الى ضعفين أو ثلاثة أضعاف ، أو بلغ أو جاوز المائة ، وإنه هو في كثرة المشاهد التي حشدت حتى تحققت هذه المنظومات الرائعة . ومن شواهد ذلك قصيدتان للأعشى (حوالي ٥٦٥ - ٦٢٩ م) هما الأولى والسادسة من ديوانه ، وأولى قصائد أبي ذؤيب الهللي (ت حوالي ٦٥٠ م) ، وفيها تصوير لسلطة القدر المحتوم في ثلاثة مشاهد مؤثرة تمثل مصرع حمار الوحش القوي وثور الوحش الهائج ، والفارس الشاكي السلاح المستجن بدرعه . وإذا كان الخافز لقول القصيدة هو وفاة ابن الشاعر ، فقد جمعت هذه القصيدة جمعاً موقفاً بين مزايا المراثية وخصائص القصيدة^٢ .

وقد بلغ الشعر الجاهلي ذروته عند ظهور الاسلام . كان الشعراء في هذا العهد ينظمون القصيد ببحوره التي ضببط وثبتت في الاسلام ، في مقاصد أشرت اليها

١ العمدة (١ / ١٨٦ وما بعدها) .

٢ غرونيوم (١٣٩) .

في موضع آخر من هذا الجزء من الكتاب ، كما كانوا قد طوّروا الرجز وتفننوا فيه . وقد أدى ظهور الاسلام الى إحداث تغير في نمط نظم القصائد ، لأن الاسلام حدث تأريخي جاء برأي في شؤون الحياة جديد ، فكان لا بد للشعراء من مجاراة هذا التيار الفكري ، لا سيما بعد خروج العرب من جزيرتهم وانتشارهم في أراضين جديدة غنية ، وحكمهم لأقوام كانت لهم حضارة ، فكان لا بد من تأثر النفس بالوضع الجديد ، والشعر تعبير عن النفوس والأحاسيس .

والقافية من الشعر الذي يقفو البيت ، سميت قافية لأنها تقفوه ، أو لأن بعضها يتبع أثر بعض . وقبل : هي آخر كلمة في البيت ، أو الحرف الذي تبنى عليه القصيدة ، وهو المسمى رويأ . وعرف (الخليل) القافية بقوله : « القافية من آخر حرف ساكن فيه ، أي في البيت ، الى أول ساكن يليه مع الحركة التي قبل الساكن »^١ . وأرى ان هذا التعريف قد أخذه (الخليل) من أهل الكتاب . فالقافية بهذا التعريف تقابل Maqqeph (مقف) (مقيف) عند العبرانيين^٢ ، و (المقيفات) هي التي تحدد الشعر ، وتجعل من الكلام المؤلف من (مقيفات) شعراً ، ولا يستبعد استعمال الجاهليين لهذا المصطلح استعمال العبرانيين والسريان له ، فلما دون (الخليل) علم العروض أخذ هذا المصطلح منهم ، ودليل ذلك ورود لفظة (قافية) و (القوافي) في الشعر قبل أيام الخليل^٣ ، ثم اختلاف العلماء وتباين آرائهم في معنى القافية^٤ .

ويذكر أهل الأخبار أن (مهلهل بن ربيعة) ، وهو خال (امرئ القيس) الشاعر ، وجد (عمرو بن كلثوم) هو أول من قصد القصائد . وقد قال (الفرزدق) فيه :

ومهلهل الشعراء ذاك الأول*

فهو أول شعراء القصائد ، وهو متقدم على (امرئ القيس) .

١ تاج العروس (٣٠٠/١٠) ، (قفو) .

٢ Hastings, p. 737.

٣ تاج العروس (٣٠٠/١٠) ، (قفو) .

٤ نزهة الجليس (١٢٠/١) .

٥ العمدة (٨٧) ، الشعر والشعراء (١٦٤) .

ويرى (فون غرونباوم) ان الشعراء حرصوا منذ حوالى السنة ٥٠٠ م على التصريح في المطلع ، ثم التزم قافية واحدة في جميع أبيات القصيدة ، من أولها الى آخرها ، بحيث يسوغ القول : إن القافية الواحدة أدل على وحدة القطعة الشعرية من المعاني الواردة فيها .

« ويتجلى في أقدم المحفوظ من الشعر العربي تنوع عظيم في الوزن ، وصقل بارع في التعبير اللغوي . وهذا يعني أنه كان قد نشأ ، قبل ذلك ، مذهب شعري ينص على التنوع والصقل المشار اليهما . وأخذت الأنظار المختلفة تؤثر أوزاناً مختلفة ، ويكاد يكون من المرجح أن الفرس قد تركوا ، في شعر الأقدمين من شعراء العراق ، تأثيراً بالغاً في الطريقة الفنية . فهناك وزن على الأقل ، امتاز بهما هؤلاء الشعراء هما الرمل والمتقارب ، وربما زدنا اليهما الخفيف . ويبدو أنها جميعاً اقتبست من أصول فارسية بهلوية ، وحورت بما يلائم الأوضاع العربية .

وربما كان للسريان فضل ما في وضع المصطلحات الفنية الأولى مثل كلمة (البيت) أي (الخيمة) لتدل على الوحدة الجزئية من القصيدة . لكن كان لنظرية الفن العروضي ، على العموم نشأة مستقلة ، فالخليل بن أحمد (ت ١٧٥ هـ - ٧٩١ م) ، وضع قواعد العروض العربي بعد ذلك بزمان طويل ، وقد بقيت قواعده معتمد الأدباء عبر القرون . فقد أقر الخليل ستة عشر وزناً ، واطرح بعض الأوزان الهزيلة التي كان القدماء قد استنبطوها . ثم إنه جرى على طريقة ، جرى عليها النحاة من بعد في الرمز الى صيغة اللفظة ، فأشار الى وحدة الإيقاع الشعري بصيغة مشتقة من فعل « ١ » .

وقد تكلف الناس كثيراً ، وحملوا أنفسهم حملاً ثقيلاً ، باعتذارهم عن أمور متكلفة وردت في شعر زعم انه كان للقدماء من الشعراء ، فالتصريح مثلاً ، اذا كثر استعماله في القصيدة دل في نظر العلماء بالشعر على التكلف ، إن كان من المحدثين ، أما اذا كان من المتقدمين ، فلا يعد متكلفاً في نظرهم ، واعتنوا عنه بأنه جرى على عادة الناس ، لئلا يخرج عن المتعارف . ومن هذا القبيل التصريح المنسوب الى امرئ القيس :

١ غرونباوم (١٣٤) وما بعدها) .

تروح من الحي أم تبتكر وماذا عليك بأن تنتظر
أمرخ^١ خيامهم أم عشر أم القلب في إثرهم منحدر
وشاقل بين الخليلط الشطر وفيمن أقام من الحي هر^٢

ونسبوا الى (امرئ القيس) (المسمط) من الشعر . والشعر المسمط الذي
يكون في صدر البيت أبيات مشطورة أو منهوكة مقفاة ، وتجمعها قافية مخالفة
لازمة للقصيد حتى تنقضى . وقيل : أبيات مشطورة تجمعها قافية واحدة ، وهو
الذي يقال له عند المولدين (المخمس) . ومن أنواعه المسجع والمثن ، وقيل المسمط
من الشعر أبيات تجمعها قافية واحدة مخالفة لقواني الأبيات . وقيل المسمط من الشعر
ما قفى أرباع بيوته ومسط قافية مخالفة . يقال : قصيدة مسطرة ومسطبة . ومن
الشعر المسمط المنسوب الى امرئ القيس قوله :

ومستلثم كشفت بالرمح ذيله أفت بعضب ذي سفاق ميله
فجعت^٣ به في ملتقى الخيل خيله تركت عتاق الطير تحجل حوله
كان على أثوابه نصح جريال

ونسب له قوله :

ترهت من هند معالم أطلال عفاهن طول الدهر في الزمن الخالي
مرايع من هند خلعت ومصايف^٤ يصبح بمغناها صدى وعواضف
وغيرها هوج^٥ الرياح العواصف وكل مسف ثم آخر رادف
بأسحم من نوء السماكين هطال^٦

ونعرض (المعري) للتسميط في رسالة الغفران ، حين التقى بامرئ القيس ،
فسأله : « أخبرني عن التسميط المنسوب إليك ، أصبح هو عنك ؟ وينشده
الذي يرويه بعض الناس :

١ العملة (١٧٤/١) .

٢ تاج العروس (١٦١/٥) ، (سمط) ، (كان على سرباله ، نفح جريال) ، اللسان
٣٢٢/٧ وما بعدها) ، (سمط) .

يا صحننا عرجوا تقف بكم أسج
مهريّة دُئِج في سيرها مُعج
طلّات بها الرجل

فعرّجوا كلهم والحسم يشغلهم
والعيس تحملهم ليست تعلّهم
وعاجت الرمل

يا قوم إن الهوى إذا أصاب الفسى
في القلب ثم ارتقى فهدّ بعض القوى
فقد هوى الرجل

فيجيب (المعري) على لسانه بقوله : « لا والله ما سمعت هذا قط ، وإنه
لقرى لم أسلكه ، وإن الكذب لكثير ، وأحسب هذا لبعض شعراء الإسلام ،
ولقد ظلمني وأساء إليّ ! أبعد كلمتي التي أولها :

ألا أنعم صباحاً أيها الظلل البالي وهل ينعمن من كان في الغصن الخالي

وقولي :

خليلي مرّاً بي على أم جندب لأقضي حاجات الفؤاد المعذب

يقال لي مثل ذلك ؟ والرجز من أضعف الشعر ، وهذا الوزن من أضعف
الرجز ^١ .

ونسبوا إليه كثرة التصريح في غير أول القصيدة ، وكثرة استعمال الضرب
المقبوض في الطويل ، وكثرة الإقواء في القافية ^٢ . ويعد الإقواء من عيوب الشعر ،
غير أننا لا نستطيع مجازاة علماء العروض في هذا الرأي ، إذ يجوز ألا يكون الإقواء
عيباً عند أهل الجاهلية ، وإنما صار عيباً في الإسلام ، بعد تثبيت قواعد اللغة
والبحور . ونجد هذا الرأي مثبتاً في رسالة الغفران .

١ رسالة الغفران (٣١٩ وما بعدها) .

٢ بروكلمن (٩٩/١) .

ولا يمكن أن ننصّر ان القصائد الجاهلية الطويلة قد نظمت على نحو ما يرونها أهل الأخبار ، دون اجراء أي تغيير أو تحوير عليها . فقد كان الشاعر يفعل فينظم قصيدته ويحفظها راويته ويلبّعها بين الناس ، ثم يحدث أن تخطر له خواطر أو يسمع نقداً لبعض أبياتها ، أو توجيهاً بيديه له بعض أصدقائه أو يسمع تنبيهاً موجهاً اليه بوجود شيء في قصيدته غفل عنه ، فيجري بعض التغيير عليها من تعديل أو زيادة أو نقصان ، قد يحفظ ويروى ، وقد يهمل ويترك ، ولهذا فنحن لا نستطيع الإدعاء : ان نظم القصائد كان نظماً تاماً ، لم يشمله أي تعديل أو تبديل ، وان الشاعر لم يكن ينشد قصيدته إلا بعد أن يكون قد اطمأن منها وضبطها ضبطاً تاماً .

« ومن الشعراء من يُحكّم القريض ولا يحسن من الرجز شيئاً ، ففي الجاهلية منهم : زهير ، والنابعة ، والأعشى . وأما من يجمعها فامرؤ القيس وله شيء من الرجز ، وطرفة وله كمثّل ذلك ، ولييد وقد أكثر »^١ .

وليس في استطاع أحد اثبات ان البحور المدونة في علم العروض ، هي كل بحور الشعر الجاهل وأوزانه ، لم يُهمل منها وزن ، ولم ينس منها بحر ، لأن على من يدعي هذه الدعوى ، إثبات ان الاسلاميين الذين جاءوا بعد الجاهليين قد أحاطوا علماً بكل الشعر الجاهلي ، وانهم أحصوه عدداً ، فلم يتركوا منه بيتاً ولا قطعة ولا قصيدة . وعلماء الشعر ينفون ذلك ويقولون : « والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائهم وقبائلهم في الجاهلية والاسلام ، أكثر من أن يحيط بهم محيط ، أو يقف من وراء عددهم واقف ، ولو أنقذ عمره في التنقيح عنهم ، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال . ولا أحسب أجداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ، ولا قصيدة إلا رواها »^٢ .

ويرى (غرونباوم) أن الشعر الجاهلي قد تطور : « وتتجلى فيه معالم التطور بصورة واضحة : فمن ذوبان اللهجات المتعددة في لغة واحدة ، تجمّع فيها تراث المدارس المختلفة واللهجات المتباينة بصورة متزايدة حتى تحقق حوالى سنة ٦٠٠ ، الى زيادة القيود في نظام العروض الفني ، فإن ظفر بعض الفئات باستنباط تعابير

١ البيان والتبيين (٨٤/٤) .

٢ الشعر والشعراء (٧ وما بعدها) ، (دار الثقافة) .

جديدة لم تلبث أن شاعت تدريجياً في أوساط أخرى ، وأخيراً الى اتجاه ميثاق الشعر نحو الإتساع وعدد أبيات القصيدة الى الازدياد . إن تحليل هذا النمو السريع نسبياً ، على ضوء ما نعرفه عن المخلفات القديمة ليحملنا على الاعتقاد بأن وضع تأريخ معين يحدد بدء الشعر العربي الفني أمر متعذر ، ولكن الغالب على الظن أن أوائل هذا الشعر لا تتخطى أقدم المدونات التي بلغتنا بزمان طويل . وهذا الحكم إنما ينطبق على الطبقة الشعرية الثالثة والأخيرة لا غير . ولئن تعاصرت هذه الطبقات الشعرية الثلاث معاً في الفترة الجاهلية المذكورة ، فن البدهي أنها لم تبرز الى الوجود في وقت واحد^١ .

التمليط :

وهو أن يتساجل الشاعران فيصنع هذا قسماً وهذا قسماً لينظر أيهما ينقطع قبل صاحبه^٢ ، وفي الحكاية أن امرأ القيس قال للتوأم يشكري : إن كنت شاعراً كما تقول فلط أنصاف ما أقول فأجزها ، قال نعم . فقال امرؤ القيس :

أحار ترى بريقاً هبّ وهنا

فقال التوأم يشكري :

كنار مجوس تستعر استعاراً

فقال امرؤ القيس :

أرقت له ونام أبو شريح

فقال التوأم :

إذا ما قلتُ قد هدأ استطاراً

فقال امرؤ القيس :

كأن هزيمه يوراء غيثٍ

١ غرونباوم (١٣٥ وما بعدها) .

٢ اللسان (٤٠٩/٧) ، (ملط) .

فقال التوأم :

عشارٌ وإلهٌ لاقت عشارا

فقال امرؤ القيس :

فلما أن علا كتفي أضاخ

فقال التوأم :

وهت أعجازُ ربيِّه فحارا

فقال امرؤ القيس :

فلم يترك بذات السر ظيباً

وقال التوأم :

ولم يترك بجهلها حارا

فلما رآه امرؤ القيس قد ماتته ، ولم يكن في ذلك الحرس من يمانته ، آلى
ألا يتازع الشعر أحداً آخر الدهر .

وذكر ان شعر التوأم في هذا التمليط ، أقوى من شعر امرئ القيس ، لأن
امراً القيس مبتدئ ما شاء ، وهو في فسحة مما أراد ، والتوأم محكوم عليه بأول
البيت ، مضطر في القافية التي عليها مدارها جميعاً ، ومن ههنا عرف له امرؤ
القيس من حق المانئة ما عرف . ونازع أيضاً علقمة بن عبدة ، فكان من غلبة
علقمة عليه ما كان^١ .

والمانئة المعارضة في جدل أو خصومة ، والمباهاة في الجري أو في الشعر ، بأن
يمانن شاعران أو أكثر ليتبين أيهم أشعر^٢ .

وقد يمتحن الشعراء بعضهم بعضاً قول الشعر، كأن يقول أحدهم بيتاً أو نصف
بيت ، ثم يقول لصاحبه : أجز ، ليقدم مثله ، قيل : قال زهير بن أبي سلمى
بيتاً ثم أكلدى ، ومرّ به النابغة الذبياني ، فقال له : يا أبا أمامة ، أجز ، قال :
ماذا ؟ قال :

١ العمدة (٢٠٢/١ وما بعدها) ، (٩١/٢) .

٢ تاج العروس (٢٤٠/٩) ، (متن) .

تزال الأرض إما مت خيفاً ونحيا ما خييت بها ثقيلًا
نزلت بمستقر العز منها

فإذا قال ؟ فأكلدى النابغة أيضاً ، وأقبل كعب بن زهير ، وهو غلام ،
فقال له أبوه : أجز يا بُني ، فقال : ماذا ؟ فأنشده البيت الأول ومن الثاني
قوله : نزلت بمستقر العز منها ، فقال كعب :

فنمنع جانيها أن يزولا^١

ومن الإجازة قول حسان بن ثابت :

متاريك أرباب الأمور اذا اعترت أخذنا الفروع واجتنبنا أصولها

وأجبل ، فقالت ابنته : يا أبت ، ألا أجز عنك ، فقال : أو عندك ذاك ؟
قالت : بلى ، قال : فافعلي ، فقالت :

مقاويل للمعروف خرس عن الحنا كيرام^٢ يعاطون العشيرة سؤلها

فحمى حسان عند ذاك ، فقال :

وقافية مثل السنان ردفتها تناولت^٣ من جور السماء نزولها

فقالت ابنته :

يراها الذي لا ينطق الشعر عنده ويعجز عن أمثالها أن يقولها^٤

١ أمالي المرتضى (٩٧/١ وما بعدها) .
٢ العمدة (٨٩/٢) .

الفصل التاسع والاربعون بعد المئة

العروض

والعروض ميزان الشعر، سمي به لأنه به يظهر المترن من المنكسر عند المعارضة بها . وذكر الأخباريون جملة تفسيرات لسبب تسميتهم العروض عروضاً ، منها أنه علم الشعر ، ألهم الخليل به بمكة ، ومكة من العروض ، فقليل لهذا العلم عروضاً^١ ، ومنها أنه سمي عروضاً لأن الشعر يعرض عليه ، ومنها أنه انما عرف بعروض الشعر ، بقولهم : فواصل أنصاف الشعر ، وهو آخر النصف الأول من البيت . فالنصف الأول عروض ، لأن الثاني يبنى على الأول، والنصف الأخير الشطر . أو لأن العروض طرائق الشعر وعموده مثل الطويل ، فيقال هو عروض واحد . واختلاف قوافيه يسمى ضرباً^٢ . أو لأنه إن عرف نصف البيت، وهو العروض سهل تقطيع البيت حيثلذ ، ولذلك قيل له العروض^٣ . وذهب البعض الى أنه إنما عرف بذلك من العرض ، لأن الشعر يعرض على هذه الأوزان فما وافق كان صحيحاً وما خالف كان سقيماً . وقيل من العروض ، أي الطريق التي في الجبل ، والمراد الطريق التي سلكتها العرب ، وقيل لما شبهوا البيت من الشعر بيت الشعر ، شبهوا العروض الذي يقيم وزنه بالعروض ، وهي الحشبة المعترضة

١ تاج العروس (٤١/٥) ، (عرض) .

٢ اللسان (١٨٤/٧) ، (عرض) .

٣ الخوارزمي ، مفتاح العلوم (٥١) .

في سقف البيت ، كما شبهوا الأسباب بالأسباب والأوتاد بالأوتاد ، والفواصل بالفواصل^١ . وعلم العروض ، هو علم الشعر والقافية ، ويرادفه علم الوزن : وزن الشعر ، ويدل اختلافهم الشديد في تعريفه على عدم وجود رأي واضح عند العلماء عن منشأه وعن كيفية ظهوره^٢ .

وعندي ان في اختلاف العلماء هذا الاختلاف الشديد في سبب تسمية العروض عروضاً ، دلالة على ان اللفظة من الألفاظ التي كانت مستعملة قبل الاسلام، وانها لم تكن من وضع (الخليل) ، وانما كانت لفظة قديمة جاهلية قصد بها النظر في الشعر والتبصر بدروبه وأبوابه وطرقه ، فلو كانت الكلمة اسلامية ومن وضع (الخليل) لما وقع بينهم هذا الاختلاف ، وما كان (الخليل) ليهمل السبب الذي حمله على اختيار هذه التسمية ، ولسأله العلماء حتماً عن السبب الذي جعله يسمي هذا العلم عروضاً ، فقد عودنا العلماء ، انهم اذا وقفوا أمام أمر قديم جاهلي ، وهم لا يعرفون من خبره شيئاً ، جاءوا بأراء متباينة وبتعليقات مختلفة ، لبيان العلل والأسباب . ولو كان العروض من العلوم أو المسميات التي وضعت في الاسلام ، لما اختلفوا في تعريفه هذا الاختلاف ، وفي اختلافهم هذا الاختلاف في تعريفه ، دلالة على قدمه قياساً على ما عرفناه عنهم ، من اختلافهم في تفسير المصطلحات والمسميات القديمة .

وقد قال قوم في الإسلام لا حاجة الى العروض ، لأن من نظم بالعروض شق ذلك عليه وأتى به متكلفاً ، ومن نظم بالطبع السليم والسليقة جاء شعره طبيعياً سليماً^٣ . ولا بد وأن تكون هذه المعارضة قد ظهرت بعد ظهور علم العروض وتدوينه وتثبيت قواعده ، ومحاولة العروضيين فرض سلطان قواعدهم على الشعر والشعراء ، ولما كان الشعراء ينظمون الشعر بسليقتهم وفق عرفهم الذي ألفوه وتعودوا عليه ، وعن طبع وموهبة فيهم ، لم يحفلوا بالعروض ، وصار العروض علماً يحفظه من لا يقرض الشعر الرفيع العالي المتبعث عن شاعرية وعاطفة وهيجان خاطر ، وصار شعر العروضي شعراً متكلفاً في الغالب ، لا يداني شعر الشعراء

١ نزهة الجليس (١١٥/١) .

٢ Ency., Vol. I, p. 463.

٣ نزهة الجليس (١١٦/١) .

الذين يقولون الشعر ، وهم أحرار طلقاء ، لعلم وجود الموهبة الشعرية فيهم ، والبصر بالعروض يجعل من حافظه شاعراً .

والمعروف بين الناس أن العروض وضع في الإسلام ، وضعه (أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم) الفراهيدي الأزدي البجلي (١٠٠ - ١٧٠ ، ١٧٥)^١ . استخرج الأوزان ، ودوّن البحور ، « وكان غاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس . وهو أول من استخرج العروض وحسن به أشعار العرب »^٢ . وقد عرف بـ (صاحب العروض)^٣ . وقيل عنه : كان « غاية في تصحيح القياس ، واستخراج مسائل النحو وتعليقه »^٤ ، وهو أول من استخرج علم العروض ، وضبط اللغة ... وكان أول من حصر أشعار العرب ... روي عنه أنه كان يقطع العروض فدخل عليه ولده في تلك الحالة فخرج الى الناس وقال : إن أبي قد جُنّ . فدخل الناس عليه وهو يقطع العروض فأخبروه بما قال ابنه ، فقال له :

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني أو كنت تعلم ما أقول عذلتك
لكن جهلت مقالي فعذلتني وعلمت أنك جاهل فعذلتك^٥

و (الخليل) نفسه من الشعراء ، وقد أورد العلماء له شعراً^٦ . وقد أورد (ابن قتيبة) له أبياتاً ، عقب عليها بقوله : « وهذا الشعر بين التكلف رديء الصنعة . وكذلك أشعار العلماء ، ليس فيها شيء جاء عن إسماعيل وسهولة ، كشعر الأصمعي ، وشعر ابن المقفع ، وشعر الخليل ، خلا خلف الأحمر ، فإنه كان أجودهم طبعاً وأكثرهم شعراً^٧ .

وقد تعرض (أبو الحسين أحمد بن فارس) لموضوع نشأة النحو والعروض في الاسلام ، فقال : « فإننا لم نزع من العرب كلها - مدرأ ووبرأ - قد عرفوا

-
- ١ الفهرست (٦٩ وما بعدها) ، (المقالة الثانية) ، القفطي ، انباء الرواة (١ / ٣٤٢)
 - ٢ الفهرست (٧٠) .
 - ٣ السيوطي ، بغية (٢٤٣) ، ياقوت ، ارشاد (٤ / ١٨١) ، ابن الانباري ، نزهة (٥٥) .
 - ٤ نزهة الالباء ، لابن الانباري (٢٩) ، (بغداد ١٩٥٩ م) .
 - ٥ نزهة الالباء (٢٩ وما بعدها) ، (بغداد ١٩٥٩ م) .
 - ٦ المحاسن والاضداد (٥٠) ، الشعر والشعراء (١ / ١٦) ، (٢ / ٦٣٠) .
 - ٧ الشعر والشعراء (١ / ١٦) .

الكتابة كلها والحروف أجمعها . وما العرب في قديم الزمان إلا كنحن اليوم :
فما كل يعرف الكتابة والخط والقراءة ، وأبو حية كان أمس ، وقد كان قبله
بالزمن الأطول من يعرف الكتابة ويخط ويقرأ ، وكان في أصحاب رسول الله ،
صلى الله عليه وسلم ، كاتبون . « أف يكون جهل أبي حية بالكتابة حجة على
هؤلاء الأئمة ؟

والذي نقوله في الحروف ، هو قولنا في الإعراب والعروض . والدليل على
صحة هذا وإن القوم قد تداولوا الإعراب أنا نستقرئ قصيدة الخطيئة التي أولها:

شأقتك أظعان للـلى لى دون ناظرة بواكر

ف نجد قوافيها كلها عند الترثم والإعراب نجيء مرفوعة ، ولولا علم الخطيئة
بذلك لأشبه أن يختلف إعرابها لأن تساويها في حركة واحدة اتفاقاً من غير قصد
لا يكاد يكون .

فإن قال قائل : فقد تواترت الروايات بأن أبا الأسود أول من وضع العربية،
وأن الخليل أول من تكلم في العروض ، قيل له : نحن لا ننكر ذلك ، بل نقول
إن هذين العلمين قد كانا قديماً ، وأنت عليها الأيام ، وقلّا في أيدي الناس .
ثم جددهما هذان الإمامان ، وقد تقدم دليلنا في معنى الإعراب . وأما العروض
فمن الدليل على أنه كان متعارفاً معلوماً اتفاق أهل العلم على أن المشركين لما سمعوا
القرآن قالوا - أو من قال منهم - أنه شعر . فقال الوليد بن المغيرة منكراً عليهم ،
لقد عرضت ما يقرأه محمد على أقرء الشعر : هزجه ورجزه وكذا وكذا ، فلم
أره يشبه شيئاً من ذلك . أف يقول الوليد هذا وهو لا يعرف بحور الشعر ؟ وقد
زعم ناس^١ أن علوماً كانت في القرون الأوائل والزمن المتقدم ، وأنها درست
وجددت منذ زمان قريب ، وترجمت وأصلحت منقولة من لغة الى لغة . وليس
ما قالوا ببعيد^١ .

« ومن الدليل على عرفان القدماء من الصحابة وغيرهم بالعربية كتابتهم المصحف
على الذي يعمله النحويون في ذوات الواو والياء والهمز والمد والقصر . فكتبوا ذوات

١ (ص ٣٦ وما بعدها) .

الباء بالياء ، وذوات الواو بالواو ، ولم يصوروا الهزة اذا كان ما قبلها ساكناً في مثل (الخبء) و (الدفاء) و (الملاء) فصار ذلك كله حجة ، وحتى كره العلماء ترك أتباع المصحف من كره^١ .

فابن فارس إذن من الذين رأوا أن العرب الجاهليين كانوا على علم بالعربية ويعروض الشعر ، قبل (أبي الأسود الدؤلي) و (الخليل بن أحمد الفراهيدي) . وأن فضل الرجلين على العلم ، إنما هو في جمع علم الأوائل وتثبيته وتدوينه ، وهو فضل لا يتقصه عليها متقصر . وهو استنتاج يتفق مع قواعد المنطق تمام الاتفاق . لأن من غير المعقول أن يضع إنسان قواعد لغة أو قواعد شعر ، من غير أن يكون له علم سابق بأنواع الكلام وباختلاف الاقراء وبالأسس اللغوية والنحوية التي لا بد من تعلمها حتى يتمكن المرء من بناء قواعد أساسية عليها ومن حصر دائرة العلم والإحاطة بأغصان شجرة ذلك العلم ، ويكاد يكون من المستحيل وضع قواعد العربية ، أو علم العروض على النحو الذي يعرضه علينا علماء اللغة والشعر ، من رجل لا علم مسبق له بقواعد اللغة وبأمور الشعر .

وفي خبر أن رسول الله دخل المسجد فرأى رجلاً يحدث الناس بأنساب العرب وأيامها وبالأشعار ، والعربية ، فقال رسول الله : « ذاك علم لا يضر من جهله ولا ينفع من علمه ، وإنما العلم ثلاثة : آية محكمة أو فريضة عادلة أو سنة قائمة وما خلاها فهو فضل^٢ . والأمور المذكورة هي مما كان يتحدث به أهل العلم والثقافة من الجاهليين . والشعر في طليعة تلك الموضوعات ، ولا يراد به انشاده فقط ، بل كانوا ينشدونه ويذكرون المناسبات المتعلقة به ومزاياه وعيوبه ، ولا أعتقد ان المراد بالعربية مجرد تفسير المفردات ، بل كل ما يخصها من أمور . وفي جملة ذلك أخطاء القول ، وقواعد العرب في القول .

ويذكر أهل الأخبار ان الذي حمل (الخليل) على وضع العروض ، هو انه مر بسوق الصغارين أو بحارة القصارين ، فسمع الدق بأصوات مختلفة ، فأعجبه ، وقال : والله لأضعن على هذا المعنى علماً غامضاً ، فصنع هذا العروض على حدود

١ الصاجي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها (٣٨ وما بعدها) .

٢ الكليني (١٢) .

الشعر وجعل بحورها ستة عشر بحراً^١. وهي قصة باردة من قصص أهل الأخبار، فقد كانوا يضعون مثل هذا القصص حين يُسألون عن أمور ، لا يكون لهم علم بها ، وهل يعقل أخذ الخليل بحوره من دق مطارق الصفارين المزعجة ، التي تخرش الأذن ، وتبعد الانسان عن التفكير ، وتطير من الدماغ ما قد يكون فيه من علم . فالقصة من مخترعات أهل الأخبار وضعوها في إيجاد سبب لوضع هذا العلم ، فربطوا بين دق مطارق الصفارين وبين تقطيع الشعر .

ولا يعقل في نظري أن يكون الخليل قد وضع العروض من غير علم مسبق بأصول نظم الشعر عند أهل الجاهلية. اذ لا يمكن للحس المرهف وحده أن يبتكر العلم ابتكاراً من غير علم مسبق وقواعد سابقة وأصول مقررة معروفة . ولا يعقل أن يكون الخليل قد وضع الأسماء والمصطلحات والتعاريف بنفسه من غير رجوع الى علم سبق للشعراء الجاهليين أن وضعوه ، ومن رجوع الى قواعد ومصطلحات سبق ان كانت مقررة ، ففي أخبار أهل الأخبار أن أهل الجاهلية كان لهم علم بالشعر ، كالذي ذكرته من مثل « حال الجريض دون القريض » ، وما روي على لسان (الوليد بن المغيرة) من قوله في اتهام قريش للرسول من أنه شاعر : « لقد عرفت الشعر ورجزه وهزجه وقريضه فما هو به »^٢ . وما روي عن إسلام (أبي ذر الغفاري) : « ومن قول أخيه (أنيس) له : « لقيت رجلاً على دينك يزعم أن الله أرسله » فلما سأله (أبو ذر) « فما يقول الناس ؟ قال : يقولون ساحر كاهن شاعر . وكان أنيس أحد الشعراء ، فقال : والله لقد وضعت قوله على اقراء الشعر فلا يلتزم على لسان أحد ، أي على طريق الشعر وبحوره »^٣. وقد ورد أن أهل (يثرب) كانوا يعرفون (الاقواء) و (الإكفاء) في الشعر ، وكانوا يعدونها من عيوب الشعر^٤ . وقد علمنا أن مصطلح (الرجز) و (الهزج) و (الرمل) و (القصيد) وأمثال ذلك هي من مصطلحات أهل الجاهلية . ثم إن أكثر مصطلحات العروض هي مصطلحات كانت معروفة في الجاهلية ، وقد أخذت

١ نزهة الجليس (١٢٤/١) .

٢ اللسان (٣٥٠/٥) .

٣ الطبقات (٢٢٠/٤) « صادر » ، تاج العروس (٣٧١/١) « الكويت » ، الفائق (٥١٨/١) ، تاج العروس (١٠٣/١) ، (قرأ) ، الاصابة (٨٨/١) ، (رقم ٢٨٩) .

٤ الموشح (٥٩) .

من حياتهم ، فهي ليست بمصطلحات مبتكرة ، حتى نقول إن الخليل أوجدها من عنده ، وإن علم العروض علم مستحدث نتيجة لذلك ، أوجده الخليل بملاحظاته وذكائه من دون علم سابق بأصول الشعر .

وورد أيضاً ، ان (عتبة بن ربيعة) لما مدح القرآن ، لما تلاه رسول الله ، قالت له قريش : هو شعر ، قال : لا لأنني عرضته على أقرء الشعر ، فليس هو بشعر . أقرء الشعر : طرائقه وأنواعه^١ . وسئل (الخطيئة) عن (زهير بن أبي سلمى) ، فقال : « ما رأيت مثله في تكفيه على أكتاف القوافي ، وأخله بأعتها حيث شاء^٢ » . وكلام مثل هذا لا يمكن أن يصدر إلا من رجال لهم علم بالشعر وبدرويه وبحوره وأنواعه .

والذي أراه ، ان شعراء الجاهلية كان لهم علم سابق بالشعر وضعوه قبل الاسلام ، ولهم قواعد ورثوها من أسلافهم القدماء في كيفية نظم الشعر ببحور . كانوا يعرفون البحور ، وربما كانوا قد وضعوا لها أسماء ، على نحو ما يفعله شعراء الشعر العامي في هذا اليوم ، وأكثرهم ممن لا يحسن الكتابة والقراءة ، غير أنهم يعرفون طرق الشعر العامي ودرويه ، سموها بأسماء ، وعرفوها ، ووضعوا لها أوزاناً وزنوا بها شعرهم ، وحكموا بموجبها حكمهم على الشعر ، فتراهم ينتقدون شاعراً فيرفعون شعره ، أو يذمونهم ، يزنون حكمهم بميزان علمهم المتوارث والمتعارف عليه عن الشعر . وقد وضع بعض المحدثين كتباً في هذا الشعر ، وفي ضبط درويه وتسجيل قواعده . والذي فعله (الخليل) لا يخرج عن هذا العمل ، حصر وسجل ما كان معروفاً بين الشعراء عن بحور الشعر وأبوابه وقواعده ، ثم جمعه في كتاب فعدّه بعمله هذا مؤسس علم العروض . وإنما هو في الواقع جامع شتات هذا العلم ومسجل قواعد الشعر وبحوره . فهو بذلك أول من فعل هذا الفعل على ما أعلم . وهو عمل يشكر بالطبع عليه .

والذي أعانه وساعده على هذا الحصر والجمع ، هو وجوده في العراق ، وكان أهل العراق يتدارسون النحو والشعر واللغة قبل الاسلام . كانوا قد نقلوا الى

١ اللسان (١٧٥/١٥) ، (قرأ) ، (اقرأ الشعر أنواعه وطرقه وبحوره) ، تاج العروس (١٠٣/١) ، (قرأ) ، الفائق (٥١٨/١) ، ابن سعد ، طبقات (١/٤) ص ١١٦ وما بعدها .

٢ الشعر والشعراء (٨١/١) .

السريانية - لغة الثقافة والعلم - علم اليونان باللغة والنحو والشعر ، فساعدتهم هذا النقل على تهذيب ما ورثوه من رجالهم من علم بهلته المعارف ، وقاسوه بأقيسة ونظمه تنظيماً علمياً ، وظلوا يتداولونه ، فلما دخل منهم من دخل في الاسلام ، أو احتك بالمسلمين ، وكان عند العرب كلام في اللغة وفي الشعر ، ولا سيما عند عرب العراق النصارى ، فلا يستبعد عرض هؤلاء ما كان عندهم من علم باللغة والشعر الى من كان له ميل لمثل هذه الدراسات ، كأبي الأسود الدؤلي والخليل ابن أحمد ، فصار هذا العرض سبباً لظهور الأسس في النحو وفي العروض . وقد أدرك ذلك العلماء ، فقال (الصفدي) : « إن الشعر اليوناني له وزن مخصوص ولل يونان عروض لبحور الشعر . والتفاعيل عندهم تسمى الأيدي والأرجل ، قلت ولا يبعد أن يكون وصل الى الخليل بن أحمد شيء من ذلك أعانه على إبراز العروض الى الوجود »^١ . فهو من ثم « أول من استخرج علم العروض وحصر أشعار العرب فيها »^٢ ، ولكنه لم يكن مخترع هذا العلم وموجده من العلم . وقد ذهب بعض المستشرقين الى ان (عروض) Prosody (أرسطو) هو الذي علم (الخليل) طريقة وضع (العروض) واستنباط تفاعيل الشعر وبحوره^٣ .

ولابن خلكان رأي طريف في المنبع الذي استمد منه (الخليل) علم العروض ، تراه يتحدث عنه فيقول : « وله معرفة بالإيقاع والنغم ، وتلك المعرفة أحدثت له علم العروض ، فلينها مقاربان في المأخذ »^٤ . وكان الخليل صاحب علم بالموسيقى ، ومن بين كتبه (كتاب النغم) ، فرجل ذو علم بالموسيقى ، ويتقاطعها وأوزانها ، يكون له ميل الى الشعر وأوزانه ، خاصة وأن بين الشعر والغناء والموسيقى روابط قديمة . فقد « كانت العرب تغني النصب ، وتعد أصواتها بالنشيد ، وترن الشعر بالغناء . فقال حسان :

تغنّ بالشعر إماً أنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضماره^٥

١ نزهة الجليس (١١٦/١) .

٢ نزهة الجليس (١٢٤/١) .

٣ Freytag. Darstellung d. Arabi, Verskunst, S., 18, William Lindsay Alexander,

A Cyclopaedia of Biblical Literature, Vol., I, p. 188.

٤ ابن خلكان (٢١٦/١ وما بعدها) .

٥ المرزباني ، الموشح (٣٩) .

وروي أن الخليفة (عمر) قال يوماً للناطقة الجعدي : « أسمعني بعض ما عفا الله لك عنه من غنائك . فأسمعه كلمة له ، قال له : وإنك قائلها ؟ قال : نعم . قال : لطالما غنيت بها خلف جبال الخطّاب^١ . فإذا كان العرب قد وزنوا الشعر بالغناء ، فلا يستبعد أن يكون الخليل قد ألهم من فعل العرب هذا قبله . وقد ذكرت في الجزء الخامس من هذا الكتاب^٢ ، أنه قد كان للشعر علاقة كبيرة بالغناء ، فالغناء هو التغني بالشعر ، ولذلك قالوا : تغنى بالشعر ، وفلان يتغنى بفلاته إذا صنع فيها شعراً . وله علاقة بالحداء أيضاً . قالوا : حدا به ، إذا عمل فيه شعراً^٣ . فالغناء نغم ووزن ويكون لذلك بكلام موزون . وهو الشعر الذي يناسب نغم الغناء . قال (الجاحظ) : « العرب تقطع الألحان الموزونة ، والعجم تخطط الألفاظ فتقبض وتبسط حتى تدخل في الوزن اللحن ، فتضع موزوناً على غير موزون^٤ . وقال (ابن رشيق) : « وزعم صاحب الموسيقى أن ألد الملاذ كلها اللحن ، ونحن نعلم أن الأوزان قواعد الألحان والأشعار معايير الأوتار لا محالة ، مع أن صنعة صاحب الألحان واضعة من قدره ، مستخدمة له ، نازلة به مسقطه لمروءته . ورتبة الشاعر لا مهانة فيها عليه ، بل تكسبه مهابة العلم ، وتكسوه جلالة الحكمة^٥ .

ولا يستبعد تغني الشعراء الجاهليين بشعرهم ، واستعمالهم آلات الموسيقى مثل الرباب لترافق غنائهم بشعرهم ، كما يفعل شعراء البادية في هذه الأيام . وقد ذكر أن الشاعر (عروة بن أذينة) ، وهو من شعراء العصر الأموي ، كان شاعراً لبقاً في شعره ، غزلاً . وكان يصوغ الألحان والغناء على شعره في حديثه وينحلها المغنين^٦ . وكان من شعراء المدينة^٧ .

١ العقد الفريد (٩٠/٤) .

٢ (ص ١٠٥ وما بعدها) .

٣ اللسان (١٣٥/١٥) ، (غنى) ، تاج العروس (٢٧٢/١٠) .

٤ رسائل الجاحظ (١٥٨/٢) .

٥ العمدة (٢٦/١) .

٦ العقد الفريد (٩٦/٤) .

٧ الاغاني (١٠٥/٢١ وما بعدها) ، الشعر والشعراء (٤٨٣/٢ وما بعدها) ،

المرتضى ، أمالي (٤٠٨/١ وما بعدها) ، السمط (٢٣٦) ، درة الغواص (١٣٥) ،

المعارف (٤٩٢) .

ومن آيات علم الجاهليين بصناعة الشعر وبفنونه وحذقهم بأساليبه ، استعمالهم محور الشعر حسب المواقف والمناسبات واتخاذهم الإيقاع والنغم وجرس الألفاظ أساساً في النظم ليكون الشعر مطابقاً للمناسبة التي سينظم لها . فللقناء بحور ، وللقناتل بحور تثير القلوب وتلهبها ، وللسفر وزن ، وللمناسبات المؤلفة مثل الرثاء والتوجع وزن يناسبها ، وكل ذلك ناتج عن طبع وتطبع وعلم بالمناسبة ، وقد أشير الى هذا الاستعمال في الأخبار . وهذه المناسبات هي التي خلقت تلك البحور .

ومن آيات علم الجاهليين بالشعر ، ما نقرأه في الأخبار عن علم أهل الجاهلية بطرائق الشعر وأبوابه وبيوبه وضعفه ، ومن أخذهم على الشعراء في أيام الجاهلية وقوعهم في الأخطاء ، أو مخالفتهم لأصوله ونغمه وخروجه على ما هو متعارف عليه . وأمثال ذلك مما يدل على ان الشاعر وإن كان ينظم الشعر عن طبع وسليقة ، وعن موهبة كامنة فيه ، لكنه كان يراعي في نظمه قواعد موروثة معلومة ، وأصولاً محفوظة ، على نحو ما نراه اليوم عند الشعراء الشعبيين ، الذين ينظمون الشعر العامي (الشعر النبطي) ، المقال باللهجات العامية ، وفق قواعد مقررة عندهم معروفة ، وأبواب مسماة عندهم موسومة ، يحفظونها حفظاً ، لأنها هي غير مدونة ، ثم إن أكثرهم ممن لا يقرأ ولا يكتب .

ومما يؤيد هذا الرأي ما جاء في (لسان العرب) : « قال أبو الحسن الأخفش : النصبُ في القوافي ، أن تسلم القافية من الفساد ، وتكون تامة البناء ، فإذا جاء ذلك في الشعر المجزوء ، لم يُسم نصباً ، وإن كانت قافيته قد تمت ، قال : سمعنا ذلك من العرب ، قال : وليس هذا مما سمي الخليلُ ، وإنما تؤخذ الأسماء عن العرب »^١ . فالأسماء والأصول أخذت من العرب ، ومعنى هذا أنه قد كان للعرب علم سابق بأصول الشعر وبقواعده ، وقد تمكن (الخليل) بذكائه وبتبعه للعلوم من جمع تلك القواعد ، في العروض ومن أخذ ما كان عند الشعراء والعارفين بفنونه من مصطلحات وعلم ، فكوّن من كل ذلك : العروض .

هذا وإن المعلوم أن (أرسطو) كان قد ألف كتاباً في الشعر وفي العروض Prosody وقد تطرق فيه الى الوزن Metre أي وزن الأبيات والقصيدة ، كما تكلم عن (التفعيلات) ، وعن أنواع النظم ، وقد درس كتابه علماء ذلك الوقت ،

ووقف عليه السريان قبل الإسلام ، ونقل الى العربية في الإسلام ، قال (ابن النديم) : « الكلام على أبوطيقا : ومعناه الشعر ، نقله أبو بشر متى من السرياني الى العربي ، ونقله يحيى بن عدي »^١ . وتوجد ترجمة كتاب (الشعر) ، في العربية مطبوعة في هذا اليوم ، وثبت أيضاً ان البابليين وغيرهم من أهل العراق ، كانوا قد وضعوا قواعد في نظم الأشعار وفي تأليف أبياتها ، وفي أصول نظمها ، فلا استبعد وصولها الى المتأخرين من العراقيين الذين عاشوا الى أيام الإسلام ، فوقف عليها (الخليل) ، واستنبط منها فكرته في وضع العروض .

والذي أراه أن للبت في منشأ علم العروض ، لا بد من البحث عن المصطلحات العربية الجاهلية التي كانت شائعة عند العرب في الجاهلية وعند ظهور الإسلام ، عن تكوين الشعر وأصول نظمه ، ثم تتبع مصطلحات الشعر عند الساميين ، مثل الكلدانيين والعبرانيين ومقارنة مسمياتها بالمسميات العربية المنسوبة الى (الخليل) ، لمعرفة صلتها بعضها ببعض . ومن دراسة البحور ، وتفاعيلها ، وأصول نظمها ، فقد ثبت أن لتلك الشعوب قواعد في نظم الشعر ، راعاها الشعراء في نظمهم شعرهم^٢ .

ولفظه (بحر) و (البحور) المستعملة في العروض ، هي من الألفاظ المعروفة عند الجاهليين . ورد في كتب اللغة ان الشاعر اذا اتسع في القول ، قالوا استبحر^٣ . ولما جاء (الحارث بن معاذ بن عفراء) على (حسان بن ثابت) ليستحبه في هجاء (النجاشي) الذي هجا الأنصار ، ألقى عليه (حسان) ثمانية أبيات ، ثم توقف ومكث طويلاً على الباب يقول : والله ما أبجرت^٤ . وذكر ان (أبا بكر) كان يقدم النابغة على غيره من الشعراء ، فلما سئل عن ذلك قال : « هو أحسنهم شعراً ، وأعذبهم بحراً ، وأبعدهم قرأً »^٥ . ومن هذا المعنى أخذ مصطلح (بحر) و (بحور الشعر) و (بحور العروض) .

وكان الجاهليون أصحاب علم اذن بطرق الشعر ويبحوره وبمقاصده وانحائه ،

١ الفهرست (ص ٣٦٣ وما بعدها) .

٢ Otto Weber, Die Literatur der Babylonier und Assyrier, Leipzig, 1907, S. 35.

٣ اللسان (٤٤/٤) .

٤ خزائن الادب (٥٥/٤ وما بعدها) ، ديوان حسان (١٣١ وما بعدها) .

٥ العمد (ص ٩٥ ، ١٣٦ وما بعدها) .

وكانوا يطلقون على أنواعه وعلى ما ذكرت (أقراء الشعر)^١ . وكانوا يتفحونه ويحككون به حتى يرضون عنه . ويقال للشعر الذي لم يحكم ولم يجود (شعر خشيب) و (شعر مخشوب) ، عكس الشعر المنقح المجود . ورد على لسان (جندل بن المنفى) قوله :

قد علم الراسخ في الشعر الأرب
والشعراء أنني لا أختشب
حسرى رذاياهم ولكن اقتضب^٢

والاقراء في الشعر طرائقه وأنواعه ، واحدها قرو وقرى^٣ .

والإكفاء أحد عيوب القافية الستة التي هي : الإبطاء ، والتضمين ، والإقواء ، والاصراف ، والإكفاء ، والسناد . وقد عرفه العرب الفصحاء ، بأنه الفساد في آخر البيت والاختلاف . وكانوا يقولون لمن يخالف بين حركات الروي : (أكفأ) أو (أكفأ الشاعر) . وقد كان (النابغة) يكفئ في شعره . وقد نبه الى ذلك ، فتجنب بعضه وهذبه^٤ .

والإقواء عيب آخر من عيوب الشعر . وللنابغة في هذا خبر. فلما دخل (يثرب) وأنشد داليتة المشهورة ، عيب عليه فيها ، فلم يفهم موطن العيب فيه ، وهو (الإقواء) ، فلما غنته المغنية بالقصيدة مطلّت وار الوصل ، فأحس بالإقواء واعتلر منه وغيره فيما يقال الى قوله :

وبذاك تنعاب الغرابِ الأسودِ

ثم قال : « دخلت يثرب وفي شعري صنعة ، ثم خرجت منها وأنا أشعر العرب »^٥ . وكان (بشر بن أبي خازم) يقوي في شعره كذلك^٦ . وذكر ان

١ تاج العروس (٣٧١/١) « الكويت » .

٢ تاج العروس (٣٥٤/٢) .

٣ تاج العروس (٢٩٣/١٠) ، (قرو) .

٤ تاج العروس (٣٩٦/١) « الكويت » ، العملة (١٦٤/١) وما بعدها ، الموشح (٦٠) .

٥ اللسان (٢٠٩/١٥) وما بعدها ، الشعر والشعراء (٣٩/١ ، ١٩٠) ، (دار الثقافة) ، الموشح (٥٩) وما بعدها .

٦ الموشح (٦٠) .

أخاه قال له : انك تقوي^١ .

وبينما نرى أهل الأخبار يرمون (النابغة) بالوقوع في الإكفاء وفي الإقواء ، وبعدم إدراكه للإقواء مع تلميح الناس له ، حتى دبر أهل يثرب حيلة ، أظهرت لإقواءه له ، فعلمه ، وخرج ، وهو يقول : « دخلت وفي شعري صنعة ، ثم خرجت منها وأنا أشعر العرب » ، يذكرون ان (أبا ذكوان) ، وهو من العلماء بالشعر يقول : « ما رأيت أعلم بالشعر منه . ثم قال : لو أراد كاتب بليغ ان ينشر من هذه المعاني ما نظمته النابغة ما جاء به إلا في أضعاف كلامه . وكان يفضل هذا الشعر على جميع أشعار الناس »^٢ .

والإقواء أن تختلف حركات الروي ، فبعضه مرفوع وبعضه منصوب أو مجرور . وقيل نقصان الحرف من الفاصلة يعني من عروض البيت . وأقصى في الشعر ، خالف بين قوافيه . وقيل هو رفع بيت وجر آخر . وذكر ان الإقواء كثير في كلام العرب ، لكن ذلك في اجتماع الرفع مع الجر وأما الإقواء وان كان عيباً لاختلاف الصوت به ، فإنه قد كثر في كلامهم^٣ ، وكان « أبو عمرو بن العلاء يذكر أن الإقواء : هو اختلاف الإعراب في القوافي ، وذلك أن تكون قافية مرفوعة ، وأخرى مخفوضة . كقول النابغة :

قالت بنو عامر : خالوا بني أسدٍ يا بؤس للجهل ضراراً لأقوامٍ

وقال فيها :

تبدو كواكبُ والشمس طالعة لا النور نور ولا الإظلام إظلام^٤ ،

« وبعض الناس يسمي هذا الإكفاء : ويزعم أن الإقواء نقصانُ حرفٍ من فاصلة البيت ، كقول حَجَّـلٍ بن فضلة ، وكان أسر بنت عمرو بن كلثوم وركب بها المفاوز ، واسمها النوار :

١ الشعر والشعراء (١٤٦) .

٢ انباه الرواة (١٠/٣) ، ديوان المعاني (١٧/١) ، المصون (١٥٦) ، بغية الوعاة (٣٧٥) .

٣ تاج العروس (٣٠٧/١٠) ، (قوو) .

٤ الشعر والشعراء (٣٩/١) ، (دار الثقافة) .

حَنَّتْ نَوَارَ وَلَاتَ هَنَّا حَنَّتْ وبدا الذي كانت نوار أجنت
لما رأت مساء السَّلا مشروباً والفَرثَ يُعَصِّرُ في الإِنَاءِ أَرْنَتْ

سمي اقواء لأنه نقص من عروضه قوة . . « وكان يستوى البيت بأن تقول :
متشرباً »^١ .

وقد تعرض (المعري) لموضوع الاقواء وأمثاله في رسالة الغفران ، إذ يسأل
(امرأ القيس) عنه ، ثم يجيب على لسانه . يقول للشاعر : « كيف يُنشد :
جالت لتصرعني فقلت لها : قري لاني امرؤ صرعي عليك حرام

أقول : حرام فتقوي ؟ أم تقول : حرام فتخرجه مخرج حذام وقطام ؟
وقد كان بعض علماء الدولة الثانية يجعلك لا يجوز الاقواء عليك . فيقول امرؤ
القيس : لا نكرة عندنا في الاقواء »^٢ . فهو يرى ان الاقواء لم يكن منكراً عند
أهل الجاهلية : وإنما عيب عليه في الإسلام .

ومن مصطلحات علماء الشعر : (الإبطاء) ، قال العلماء : أطأ كرر القافية
لفظاً ومعنى مع الاتحاد في التعريف والتكبير ، فإن اتفق اللفظ واختلف المعنى فليس
بإبطاء ، وكذا لو اختلفا تعريفاً وتكبيراً . وقال بعضهم الإبطاء رد كلمة قد
قفيت بها مرة نحو قافية على رجل وأخرى على رجل فهذا عيب عند العرب ،
لا يختلفون فيه ، وقد يقولونه مع ذلك . ووجه استباح العرب الإبطاء ، انه دال
عندهم على قلة مادة الشاعر ونزارة ما عنده حتى اضطر الى إعادة القافية الواحدة
في القصيدة بلفظها ومعناها فيجري هذا عندهم مجرى العي والحصر ، وأصله أن يبطأ
الانسان في طريقه على أثر وطىء قبله فيعيد الوطء على ذلك الموضع ، وكذلك
إعادة القافية من هذا . وقال (أبو عمرو بن العلاء) : « الإبطاء ليس بعيب عند
العرب ، وهو إعادة القافية مرتين » ، أما اذا كثر الإبطاء في قصيدة مرات فهو
عيب عندهم^٣ .

١ الشعر والشعراء (٣٩/١) وما بعدها .

٢ رسالة الغفران (٣٢٠) .

٣ اللسان (٢٠٠/١) ، (وطىء) ، تاج العروس (١٣٥/١) ، (وطىء) ، الشعر

والشعراء (٤١/١) .

والمضمن من الشعر ما لا يتم معناه إلا في البيت الذي بعده . وقد اختلف العلماء فيه ، فمنهم من عدّه عيباً ، ومنهم من لم يعدّه عيباً ، ويراها مذهباً أجازته العرب لسببين : السماع ، والآخر القياس . أما السماع فلكثرة ما يرد عنهم من التضمين ، وأما القياس فلأن العرب قد وضعت الشعر وضعاً دلت به على جواز التضمين عندهم . وحجة من قال بتقييح التضمين : ان كل بيت من القصيدة شعر قائم بنفسه ، فمن هنا قبح التضمين شيئاً . وقد أوردوا للناطقة ولغيره من الشعراء أمثلة من التضمين^١ . وهو بهذا المعنى معروف عند غير العرب من الساميين والآريين ، إذ ان الأبيات عندهم ترتبط معانيها بعضها ببعض ، فلا يفهم معنى بيت إلا بالبيت الذي يليه . ولهذا تكون أبيات القطعة أو القصيدة مرتبطة بعضها ببعض ، ولا سيما في أشعار الملأحم والغناء .

والإصراف في الشعر ، إذا أقوي فيه وخولف بين القافيتين^٢ . وأما السناد ، فاختلاف الأرداف . وقال (الأنخض) أما ما سمعت من العرب في السناد ، فلأنهم يجعلونه كل فساد في آخر الشعر ولا يجدون في ذلك شيئاً وهو عندهم عيب^٣ . وقد أشير إليه في قول الشاعر :

فيه سناد واقواء ونجربة^٤ .

ونجربة الشيء تعويجه .

وقيل : السناد : هو أن يختلف إردافُ القوافي ، كقولك علينا في قافية وفينا في أخرى^٥ .

وقد تحدث (الجاحظ) عن الأوتاد ، والأسباب ، والحرم والزحاف ، فقال : وكما وضع الخليل بن أحمد لأوزان القصيد وقصار الأرجاز ألقاباً لم تكن العرب تتعارف تلك الأعاريض بتلك الألقاب ، وتلك الأوزان بتلك الأسماء ، كما ذكر الطويل ، والبسيط ، والمديد ، والوافر ، والكمال ، وأشباه ذلك ، وكما ذكر

-
- ١ اللسان (٢٥٨/١٣ وما بعدها) ، (ضمن) ، تاج العروس (٢٦٥/٩) ، (ضمن) ، العملة (٨٤/٢) ، (باب التضمين والاجازة) .
 - ٢ اللسان (١٩٣/٩) .
 - ٣ اللسان (٢٢٣/٣) .
 - ٤ الشعر والشعراء (٤٠/١) .

الأوتاد ، والأسباب ، والخرم ، والزحاف . وقد ذكرت العرب في أشعارها
السناد ، والإقواء ، والإكفاء ، ولم أسمع بالإبطاء . وقالوا في القصيد ، والرجز ،
والسجع ، والخطب ، وذكروا حروف الروي والقوافي ، وقالوا هذا بيتٌ وهذا
مصرع ١ .

وقد أباح علماء الشعر للشاعر ما لم يبيحوه للنائر من (ضرورة) دعوها :
(ضرورة الشعر) . وقد جاءوا بأمثلة على ذلك ، اعتلوا عن بعضها ، وأوجدوا
لها مخارج في الإعراب ، وعدّوا بعضاً منها من (العيب في الإعراب) ٢ ، وورد :
« الشعراء أمراء الكلام ، يقصّرون الممدود ، ويمدّون المقصور ، ويقدمون
ويؤخرون ، ويومثون ويشيرون ، ويختلسون ويُعيرون ويستعيرون . فلما لحن في
إعراب ، أو لإزالة كلمة عن نهج صواب فليس لهم ذلك » ٣ .

وقد تعرض (بروكلمن) لموضوع (العروض) ، فقال : « وعلى الرغم
من انه لا تزال تعوزنا بحوث شاملة لفن العروض عند قدامى الشعراء ، يمكن أن
تقرر اليوم بحق ان هذا الفن كان يعتمد عندهم على قواعد ثابتة . نعم نجد في
بعض قصائد الشعراء الأقدمين أبياتاً خارجة عن العروض الذي وضعه الخليل بن
أحمد ، وما وضعه سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط في كتابه العروض ، كما في
قصائد المرقش الأكبر ، وعبيد ، وعمرو بن قبيصة ، وامرئ القيس ، وسلمى
ابن ربيعة . ويبدو ان هذه الظواهر آثار قليلة لمرحلة من النمو لم تقف على
كنهاها بعد .

وبذل الشعراء المتأخرون محاولات للتخلص من قوانين العروض العربي ولكنهم
قلما خرجوا عليه ٤ .

وقد تعرض (الهمداني) لموضوع الشعر العربي وقواعد العروض ، وخروج
الشعر على سلطة هذا العلم ، فقال : « أنشدني سعيد بن أبحر الهمداني ، وكان
شاعراً بدوياً مطبوعاً :

-
- ١ البيان والتبيين (١٣٩/١) .
 - ٢ الشعر والشعراء (٤٢/١) وما بعدها .
 - ٣ المزهر (٤٧١/٢) .
 - ٤ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٥٤/١) .

يا سمع يا بصري لو جاءكم خبري لكان في عذر ناع على كُور
وفي بني عامر ناع على خاطر وفي قري صافر حزن وتبشير

وكان للجاهلية الجهلاء مذهب في الشعر من الأزحاف وغيره ما يستنكره الناس
اليوم كقول علقمة :

ومنا الذي نودي بسبعة آلاف غلاماً صغيراً ما يشد إزارا

وكقوله :

كان به سيد حلاحل تُصر من دونه الطروق

وقول بعض حمير في أيام جديس ، النصف الأول من روي والنصف الآخر
من روي ، قصيدته :

لله عينا من رأى حسان قتيلاً في سالف الأحقاب

ومن ذلك شعر مالك بن الحصب اللعوي ، وهو قديم في حلف ربيعة ،
وأوله :

أنا مالك وأنا الذي جددت حلفا لكنلة قبلنا قد كان سلفا

الشعر ، وفي وزنه زيادة حرفين ^١ .

وقد يحسن العلماء في المستقبل بدراستهم لما ورد في مؤلفات الهمداني وغيره من
شعر قديم ينسب الى قدماء شعراء اليمن والى الشعراء اليابانيين والعرب الجنوبيين
عامة الذين نظموا بأسلوبهم الخاص ، لما في هذه الدراسة من فائدة كبيرة في إعادة
بناء نظريات العلماء الحالية عن الشعر الجاهلي .

وفي الدواوين وكتب الأدب أمثلة على أمور خرج فيها الشعر على قواعد العروض
أو النحر . من ذلك قول امرئ القيس :

كان أبانا في أفانين ودّقه كبير أناس في بجاد مزمل

١ الاكلیل (٢/٤٩ وما بعدها) .

فقد ضم اللام في نهاية البيت ، وهي مكسورة في المعلقة جميعها^١ . ورووا
أموراً أخرى وقعت في شعره أيضاً^٢ ، وفي قصيدة (عبيد بن الأبرص) :
أفقر من أهله ملحوب^٣ فالقطيبات^٤ فالذنوب^٥

فهي من مخلع البسيط ، قلما مخلو بيت منها من حذف في بعض تفاعيله أو
زيادة^٦ . وفي قصيدة المرقش الأكبر :

هل بالديار أن تجيب صمّم^٧ لو كان رسم^٨ ناطقاً كلم^٩

فهي من السريع ، وقد خرجت شطور أبياتها على هذا الوزن ، كالشطر الثاني
من هذا البيت :

ما ذنبنا في أن غزا ملك^{١٠} من آل جفنة حازم^{١١} مرغم

فإنه من الكامل^{١٢} . ورووا اضطراباً وقع في شعر (عدي بن زيد العبادي) ،
على النحو المذكور ، خرج فيه من السريع الى وزن المديد^{١٣} ، وفي شعر غيره
كذلك مثل نونية (سُليمان بن ربيعة) :

إن شواء^{١٤} ونشوة^{١٥} وخيب البازل الأمون

فهي خارجة عن عروض الخليل^{١٦} .

وروا وقوع مثل ذلك في قصيدة علي بن زيد العبادي :

تعرف أمس من ليس الطلل^{١٧} من الكتاب الدارس الأحول^{١٨}

١ دكتور شوقي ضيف : العصر الجاهلي (١٨٥) .

٢ راجع قصيدته :

عيناك دمعها سجال كان شأنيهما أوشال

ديوانه ١٨٩ ، العصر الجاهلي (١٨٤) .

٣ العصر الجاهلي (١٨٤) .

٤ المصدر نفسه .

٥ كذلك .

٦ كذلك (ص ١٨٥) .

فهي من وزن السريع ، وخرجت بعض شطورها على هذا الوزن كالشطر الثاني من هذا البيت :

أنعم صباحاً علقمَ بن عدي أثويتَ اليومَ أمَ ترحلُ

فلأنه من وزن المديد^١ .

وتستحق هذه الأمور وأمثالها أن تكون موضع دراسة خاصة ، لما لها من أهمية في تكوين رأي علمي دقيق عن تطور العروض في الجاهلية . ولا يعقل في نظري أن يكون الشاعر الجاهلي قد كان بغفلة عن تلك الأمور التي عدها الإسلاميون من مواطن الاضطراب والخروج عن القواعد . وإذا قسنا هذا الخروج في الوزن على مقاييس وزن الشعر عند الساميين ، نرى أنه لم يكن خروجاً ، لعدم تقييد ذلك الشعر بالوزن في كل القطعة أو القصيدة ، وإنما كانوا يتقبلون بوزن البيت ، فالقطعة أو القصيدة عندهم منسجمة ذات نغم ووزن وإن تكونت من بحر أو من جملة بحور ، وربما كان هذا شأن القصيدة عند الجاهليين كذلك . ثم أنه في هذه الاضطرابات دلالة على أن في العروض الجاهلي ما فات أمره عن علم (الخليل) ، وأن العروض الاسلامي لا يمثل كل عروض الشعر الجاهلي .

وللخليل كتاب في العروض ، اسمه (كتاب العروض) لا أعرف من أمره شيئاً . وهو أول كتاب ألف في هذا الباب ، وحمل هذا الاسم ، على ما أعلم ، وله كتاب اسمه (كتاب النغم) ، وكتاب آخر اسمه (كتاب الإيقاع) ، وكتاب اسمه : (كتاب الشواهد) ، وكتاب اسمه (كتاب النقط والشكل) ، وكتاب باسم (كتاب فائت العين)^٢ .

ولأبي الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش (٢١٥هـ) ، (٢٢١هـ) ، وهو أحد أصحاب (مسبوته) ، كتاب في العروض ، اسمه : (كتاب العروض)^٣ .

١ شوقي ضيف ، العصر الجاهلي (١٨٥) .

٢ الفهرست (٧١) .

٣ الفهرست (٨٤) .

وعرف (الخليل) بسعة علمه باللغة ، واليه ينسب وضع أول معجم في اللغة العربية ، هو كتاب (العين) . وقد نظمت حروفه على ما يخرج من الحلق واللهوات^١ . وهو ترتيب يرى بعض المستشرقين احتمال أخذ (الخليل) له من ترتيب الأبجدية السنسكريتية وذلك عن طريق (خراسان) التي لها صلة وثيقة بثقافة الهند^٢ . وقد نسب بعض العلماء كتاب العين الى غيره ، نسبه الى (الليث بن نصر بن سيار) الخراساني ، ومنهم من زعم أن (الخليل) عمل قطعة من كتاب العين من أوله الى حرف الغين وكمله (الليث) ولهذا لا يشبه أوله آخره^٣ .

وقد كان للهند حب شديد للشعر ، وقد نظمت كتبهم الدينية شعراً ، وقد أدرك (البيروني) الواسع الاطلاع بأحوال الهند هذا الحب الشديد له ، فقال : « أكثر الهنود يهتدون لمنظومهم ويحرصون على قراءته ، وإن لم يعرفوا معناه ، ويفرقعون أصابعهم فرحاً به ، واستجادة له ، ولا يرغبون في المثور وإن سهلت معرفته » . وقد كانوا يزنون شعرهم بميزان ، ف « عملوا من التفعيلات قوالب لأبنية الشعر ، وأرقاماً للمتحرك منها والساكن ، يعبرون بها عن الموزون ، فكل ذلك سمي الهند لما تركب من الخفيف والثقيل » أسماء يشيرون بها الى الوزن المفروض^٤ . فإذا كانت للهند تفعيلات وزنوا بها شعرهم ، وهي أقدم عهداً من تفعيلات (الخليل) ، أفلا يجوز أن يكون (الخليل) قد اقتبس تفعيلاته من تلك التفعيلات ، وبين الهند و (الابله) التي حلت البصرة محلها في الاسلام اتصال جد قديم ، وقد كان بين سكانها عدد كبير جاءوا قبل الاسلام من الهند .

وحيث أن العلماء ينصون على أن (الخليل) ، هو موجد البحور المعروفة في العروض ، وهو وازنها ، وحيث أن أساس المعايير التي قيس بها الأبيات ، للوقوف على البحور هي (فعل) فيجب أن تكون هذه التسمية من ابتكاراته إذن . ولم أجده أحداً وضح كيف اهتدى الخليل الى إيجاد هذا المعيار ، ولم

١ الفهرست (٧٠ وما بعدها) .

٢ John A. Haywood, Arabic Lexicography, p. 8.

٣ القفطي ، انباء الرواة (٣٤٣/١) ، المزهر (٧٦/١) .

٤ البيروني ، تحقيق ما للهند من مقولة (٦٦) .

سمّاه بهذه التسمية ، إن من المستحسن في نظري الاهتمام بهذا الموضوع ، ودراسة موازين الشعر عند الهنود ، لمعرفة أسماء معايير الشعر عندهم ، للوقوف عليها ، فقد تكون لهذه التفعيلات صلة بتفعيلات شعر الهنود . ويلاحظ أن (ابن جني) ، كنّى بالتفعيل عن تقطيع البيت الشعري ، لأنه إنما نرّنه بأجزاء مادتها كلها (فعل)^١ .

١ تاج العروس (٦٥/٨) ، (فعل) .

الفصل الخمسون بعد المئة

البصرة والكوفة

لا بد لنا من التعرض لأثر البصرة والكوفة في عمل القواعد وفي رواية الشعر الجاهلي ، إن أردنا فهم هذا الشعر وكيف جمع ودون ، وكيف نحل المنحول منه ، فقد كان للمدينتين الأثر الأكبر في جمع هذا الشعر وفي تدوينه ونحله . ولا بد من التحدث أولاً عن أثر العصية القبلية في هاتين المدينتين . فقد بنيتا على أساس هذه العصية . فلما بنيت الكوفة ، جعلت قسمين : قسم لليمن ، وقسم لآل نزار ، وكانت الأغلبية لليمن . ووزعت المحلات والسكك حسب القبائل^١ ، وكذلك كان الأمر بالبصرة حين شرع بينائها ، فقد روعي في بنائها ، توزيع أحيائها على حسب النسب والقبائل^٢ ، فكانت عصية الحبي للعشيرة أولاً ، وللقبيلة ثانياً ، ثم للمدينة ثالثاً . وهكذا غرست بذور العصية في أرض المدينتين ، منذ شرع بوضع أساس التأسيس .

وتجسّمت العصية القبلية في العصية للمدينة ، فتعصب عرب الكوفة ومواليها للكوفة ، وتعصب عرب البصرة ومواليها للبصرة ، « يفخر كل منها بطبيعة الأرض وموقعها الجغرافي ، ويفخر كل بما كان على يده من فتوح البلدان ، ويفخر كل بمن نزل عندهم من صحابة رسول الله ، ويعبر كل الآخر بما نبت عنده من

١ البلاذري ، فتوح البلدان (٢٧٤) ، (تمصير الكوفة) ، (طبعة رضوان محمد رضوان) .

٢ البلاذري (٣٤١) ، (تمصير البصرة) .

دعاة للضلالة ، وأخيراً كانوا يتفاخرون بالعلم . وظهرت هذه المفاخرات العلمية
والمناظرات وتعصب كل مدينة لعلمائها ، ظهوراً يئناً في كثير من فروع العلم ،
فالبصريون والكوفيون في المذاهب الدينية وعلم الكلام ، والبصريون والكوفيون في
الأدب ؛ يقول أعشى همدان :

اكسع البصريّ إن لاقيته إنما يكسع من قلّ وذلّ
واجعل الكوفي في الخيل ولا تجعل البصريّ إلا في النفل
وإذا فاخرتمونا فاذكروا ما فعلنا بكم يوم الجمل
بين شيخ خاضب عثنونه وفقى أبيض وضاح رفل
جاءنا مخطر في سابغة فلدحنه ضحى ذبح الحمل
وعفونا فنسيتم عفونا وكفرتم نعمة الله الأجل^١

والكوفة بظاهر الحيرة . المدينة التي كان يقصدها الشعراء والتجار ، وفيهم
تجار مكة وأشرفها ، مثل عبدالله بن جدعان ، وأبو سفيان . ومنها انتقل الخط
الى مكة ، على حد قول أهل الأخبار ، ومنها انتقلت النسطورية الى العرب النساطرة ،
وقد اشتهرت برجال برزوا فيها في العاوم الدينية النصرانية وبالعلوم اللسانية في لغة
بني إرم ، وبكنائسها وبأديرتها التي كانت تعلم الأطفال مبادئ القراءة والكتابة ،
ونهيء الطلاب للتبحر في علوم الدين وفي العلوم الدنيوية المعروفة في ذلك الوقت ،
ولما أنشئت الكوفة انتقلت اليها بأبنيتها وأناسها ، فقد هدمت منازلها ونقلت حجارتها
الى الكوفة ، لبنى بيوتها بها ، وانتقل أهلها الى الكوفة ، لأنها أخذت مكانها
في الحكم ، وصارت مقر الولاية ، فشاع أهلها أهل الكوفة في السكن وفي الالتفاف
حول قصر الوالي ، وانتقل ما كان قد تبقى من بقية علم من الحيرة الى الكوفة
كذلك ، وتجمّع في هذا الذي نسميه بعلم أهل ، أو بـمدرسة الكوفة .

وقد كان في أهل الحيرة قوم من النبط ، أي من بني إرم أهل العراق ،
وقوم من الفرس ، فتأثر لسان أهلها العرب بلسان النبط وبلسان العجم ، كما تأثروا
بحياة الحضارة والاستقرار ، فلان لسانهم وسهل منطقهم^٢ ، وثقل نطقهم بالعربية ،

١ فجر الاسلام (١٨١) ، البلدان ، لابن الفقيه (١٦٣) وما بعدها .

٢ ابن سلام ، طبقات (٣١) .

فلم يعد ينطق لسانهم نطق الأعراب من حيث الوضوح والإفصاح^١ . والذي عند علماء العربية ان في لسان الأعراب جفاء وشدة وغلظة ، دخلت عليه من خشونة البادية ومن طباعها ، فإذا خالط أهل البادية البلديين والأعاجم ، لان جفاؤهم وسهل لسانهم ، فيتعد بذلك عن اللسان العربي القح ، ولهذا طلب علماء اللغة 'جفاة الأعراب وأهل الطبائع المتوحشة ، وأخذوا عن القبائل التي بعدت عن أطراف الجزيرة ، وبقيت في سرة البادية أو فاضت حوالها ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف^٢ .

أما البصرة ، فأخذت مكانة (الأبله) المدينة الشهيرة المعروفة باسم (أبو لم) Ubulum في الكتابات الأكاديمية ، وبـ Apologus (أبولوكس) في النصوص الكلاسيكية^٣ ، وهي أقرب الى جزيرة العرب من الكوفة ، ولها اتصال ببلاد الخليج وبالهند ، فكانت سفن الهند وسيلان تأتي إليها ، وسكن قوم من الهند بها ، كما سكن بها قوم من الفرس ، خالطوا العرب ، ولعلني لا أخطئ إذا قلت ان شأن الموالي بالبصرة كان أقوى منه بالكوفة ، لاتصال البصرة بالهند وببلاد فارس ، وبعد الكوفة عنها ، وقد أثر هذا الاتصال في لسان عرب البصرة ، مما أدى الى ظهور اللحن في الكلام ، وظهور أثر للغات أهل الهند في لسان أهل (الأبله) ثم البصرة ، بسبب نزوح جاليات كبيرة من الهند الى (الأبله) ، وذلك قبل الاسلام .

وأما (بغداد) التي ظهرت بعد المدينتين بأمد ، فقد أسسها (أبو جعفر المنصور) العباسي ، فإنها كانت مدينة ملك ، ولم تكن مدينة علم ، وما فيها من العلم ، فمجلوب للخلفاء وأتباعهم ، قال أبو حاتم : أهل بغداد حشو عسكر الخليفة ، لم يكن بها من يؤثق به في كلام العرب ، ولا من تُرتضى روايته ، فإن ادعى أحد منهم شيئاً رأته غلطاً صاحب تطويل وكثرة كلام ومكابرة^٤ . وللأصمعي كلام يستهزئ به على علم أهل بغداد . قال « خرجت الى بغداد وما فيها أحد

-
- ١ الشعر والشعراء (١٥٠/١) ، (وكان « عدى بن زيد » يسكن بالحيرة ، ويدخل الارياض ، فتقل لسانه) .
 - ٢ الرافعي (٣٤٣/١) .
 - ٣ كتابي هذا ، الجزء الثاني (ص ٢٠) .
 - ٤ المزهر (٤١٤/٢) .

يحسن شيئاً من العلم ، لقد جاءني قوم يسألوني عن الجمعوى ، فأخبرتهم أنه
 المكمل . قالوا : وما المكمل ؟ قلت : هو المعضل ! قالوا : وما المعضل ؟
 وكان بقربي يقال ضخم ، فقلت : هو مثل ذلك البقال ! فرووا عني ^١ .
 ونجد (المعري) يتهم رواية بغداد بعلم الفهم في الشعر ، ترى رأيه هذا
 فيهم في رسالة الغفران ، حيث يسأل (امرأ القيس) : « يا أبا هند ، ان
 رواية البغداديين ينشدون في قفا نك ، هذه الأبيات بزيادة الواو في أولها ، أعني
 قولك :

وكان ذرى رأس المجير غدوة
 وكان مكابي الجواء
 وكان السباع فيه غرقى

فيقول : أبعد الله أولئك ! لقد أساءوا الرواية . وإذا فعلوا ذلك فأبي فرق
 يقع بين النظم والنثر ؟ وإنما ذلك شيء فعله من لا غريزة له في معرفة وزن
 القريض ، فظنه المتأخرون أصلاً في المنظوم ، وهيئات هيئات ^٢ .

وأما المدن الأخرى ، فلم تبلغ في العلم شأوا البصرة والكوفة ثم بغداد . فلم
 يعترف أحد من علماء العربية بوجود امام في العربية بدمشق أو يثرب أو مكة .
 وقد زعم (الأصمعي) ، انه أقام بالمدينة زماناً ما رأى بها قصيدة واحدة صحيحة
 إلا مصحفة أو مصنوعة ، وكان بها (عيسى بن يزيد بن بكر بن داب) المعروف
 بابن داب ، يضع الشعر وأحاديث السمر ، وكان شاعراً وعلمه بالأخبار أكثر .
 وكان بها (علي) الملقب بالجميل ، وضع كتاباً في النحو لم يكن شيئاً .

« وأما مكة ، فكان بها رجل من الموالي ، يقال له : ابن قسطنطين ، شدا
 شيئاً من النحو ، ووضع كتاباً لا يساوي شيئاً ^٣ .

وقد دفعت العصبية الى المدن ، أهل المدينتين على التحاسد والتفاخر والتنافر ،
 فادعى أهل كل مدينة انهم أرسخ علماً من أهل المدينة الثانية ، وانهم أكثر إحاطة

١ الرافعي (٤٠٤/١) .
 ٢ رسالة الغفران (٣١٣ وما بعدها) .
 ٣ المزهر (٤١٣/٢) وما بعدها .

به من خصومهم ، ومن ثم صار أهل الكوفة يترأون بخصومهم ، فينتقصونهم ويلصقون بعلماهم التهم ، ويغمزون فيهم ، وصار أهل البصرة يكدون لأهل الكوفة وينتقصونهم ، وكانوا « يرون ان أصحابهم لو ركبوا في نصاب رجل واحد ما بلغوا أن يعدلوا أضعف رجل في البصرة » ، وقد رموهم في باب الكذب بقمص الحناجر ، والأخذ عن كل بر في الرواية وقاجر ، وجعلوهم من علماء الأسواق ، وتلامذة الأوراق ^١ . ووجدت هذه المنافسة أرضاً صالحة في قصور الخلفاء والوزراء والأكابر ببغداد ، حتى تحولت الى مؤامرات ومهاترات ، ابتعدت عن أدب العلم والعلماء ، حتى نزلت أحياناً الى درك مهاترات العامة ، والى التزوير ، والاستعانة بالشهود الزور لتأييد عالم على عالم ، كالذي وقع في المسألة الزنبورية في الخلاف الذي كان بين سيويه والكسائي .

وقد وقعت العصبية بين المدينتين حتى في قراءة القرآن ، ففضل أهل كل مدينة قارئ مدينتهم ، واعتبروا قراءة صاحبهم أحسن القراءات ، فأهل الكوفة يتعصبون لقراءة (عبدالله بن مسعود) ويرون أن مصحفه أصح المصاحف ، وأهل البصرة يتعصبون لأبي موسى الأشعري ، ويأخذون بقراءته وبلحنه ، « وكانوا يسمون مصحفه لباب القلوب » ^٢ . والكوفيون يكتبون والضحي بالياء ، وأهل البصرة يكتبونها بالألف ^٣ .

وكانت أولية العربية بالبصرة ، « لأن أبا الأسود الدؤلي قد نزل بها وأخذ عنه جماعة هناك ، فكان كل أصحابه الذين شققوا العربية بعده بصريين ، ثم انتقل النحو الى الكوفة » . ثم استفاض نحو الكوفيين ، فنبغ فيه من سكنة الكوفة أبو جعفر الرؤاسي ، ومعاذ الهراء ، واضع التصريف ، والكسائي ، والفراء ^٤ . وذكر أنه لم يعلم أن أحداً من علماء البصريين أخذ شيئاً من النحو واللغة عن أحد من أهل الكوفة ، بينما أخذ الكوفيون عن أهل البصرة ، وما من أسانئتهم أحد إلا وقد تلمذ لبصري ^٥ . وقد قدم (ابن سلام) أهل البصرة على غيرهم في

١ الرافعي (٤٢٩/١) .

٢ الرافعي (١٧/٢) .

٣ المقتنع (٣٥) ، القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية (٣٥) .

٤ الرافعي (٤٣٠/١) وما بعدها .

٥ الرافعي (٤٣٢/١) وما بعدها .

العربية ، قال : « وكان لأهل البصرة في العربية قدمة بالنحو وبلغات العرب والغريب عناية »^١ . و (ابن سلام) نفسه من علماء البصرة ، ومن المتعصبين لها على أهل الكوفة .

وروي أن (أبا الخطاب) المعروف بالأخفش ، وهو من علماء البصرة ، كان أول من فسر الشعر تحت كل بيت ، وما كان الناس يعرفون ذلك قبله ، وإنما كانوا إذا فرغوا من القصيدة فسروها^٢ ، فلأهل البصرة قدمة على أهل الكوفة في هذا المضمار .

ومن أهم ميزات أهل البصرة ، هو استعمالهم القياس في النحو ، فقد سبقوا به أهل الكوفة . أما أهل الكوفة ، فقد أخذوا بالقياس في الفقه . فالقياس من أهم وسائل استنباط الأحكام الشرعية في فقه (أبي حنيفة) ، وهو من علماء الكوفة . كان علماء البصرة يطبقون القياس على النحو واللغة ، فما يسمعون يقيسونه على ما جمعوه من قواعد استنبطوها من القرآن ومن الشعر ومن لغة العرب ، ثم يحكمون حكمهم عليه . أما أهل الكوفة ، فقد تحرروا منه ، وكانوا على ما قيل عنهم ، يأخذون بالشاذ والغريب ، ولو خالف القياس . ومن هنا اتهموا بالضعف ، ويعلم التروي في البحث والاستقصاء ، وبالأخذ بالخبر من غير نقد ولا تمحيص . وهو اتهام ، قد يكون للعاطفة يد فيه . وقد صار هذا القياس سبباً في إخضاع اللغة الى حكم قواعد ثابتة اتفق عليها ، استتبطت من الاستقراء ، ومن تطبيق حكم القياس عليها ، إلا انه صار في الوقت نفسه سبباً في إهمال اللهجات المخالفة التي سماها العلماء لغات شاذة أو غريبة ، وتركها لعدم استحقاقها في نظرهم شرف التسجيل والتثبيت ، ولم يقدروا آنذاك أهميتها بالنسبة لمن يريد تتبع تأريخ لغات العرب وتطورها منذ الجاهلية الى الاسلام .

وكان لأهل البصرة ميزة قربهم من أعراب نجد والبوادي ، فكانوا يأخذون منهم القواعد واللغة ، أما أهل الكوفة ، فقد اعتمدوا على أشباه الأعراب من المقيمين في أطراف البادية ، وهم ممن رفض أهل البصرة الأخذ عنهم ، لأنهم

١ طبقات (٥)

٢ المزمهر (٢/٤٠٠) .

من خالط أهل الريف ، وأقاموا على أطراف الحواضر^١ . كما أن قياس أهل البصرة في النحو ، بني على قواعد بنوها هم وأقاموها ، وفق دراساتهم ، وأخذهم عن الأعراب من نثر وشعر ، ولهذا سخرُوا من علم أهل الكوفة ومن علم علمائهم في النحو ، وتجلّى سخريتهم في أشعار نظموها في أهل الكوفة وفي شيخهم (الكسائي) . ترى استهزاء أهل البصرة بعلم وبقياس وبعلماء أهل الكوفة في مثل هذا الشعر :

كنا نقيس النحو فيما مضى	على لسان العرب الأول
فجاء أقوام يقيسونه	على لحن أشياخ قطربل
فكلهم يعمل في نقض ما	به يصاب الحق لا يأتي
إن الكسائي وأشياعه	يرقون في النحو الى أسفل ^٢

وتراه في شعر آخر ، هو :

وقل لمن يطلب علماً ألا	ناد بأعلى شرف ناد
يا ضيعة النحو ، به مُغرب	عنقاء أودت ذات إصعاد
أفسده قوم وأزروا به	من بين أغتام وأوغاد
ذوي مرأ وذوي لكنة	لثام آباء وأجداد
لهم قياس أحدثوه هم	قياسُ سوء غير منقاد
فهم من النحو ، وإن عمروا	أعمارَ عاد ، في أبي جادا

والكسائي ، الذي طعن البصريون في علمه ، وقدموا صاحبهم (سيبويه) عليه ، ناظر خصمه بحضرة (الرشيد) أو في مجلس البرامكة على رواية ، وغلبه بمؤامرة يقال إنها حكيمة ، للإيقاع به . وذلك في المسألة التي عرفت بـ (المسألة الزنبورية) في كتب العلماء^٣ . وكان (الكسائي) قد أخذ النحو عن (أبي جعفر) الرُّؤاسي ، وهو أول من وضع من الكوفيين كتاباً في النحو ، وقيل إن كل ما في كتاب سيبويه : « وقال الكوفي كذا ... » إنما عني به الرُّؤاسي هذا ، وكتابه يقال

١ نزعة الالباء (١٠٨) ، بغية ، للسيوطي (٣٣٦) ، ارشاد (٢٩٠/٧) ، يوهان فك

٠ (٦٢)

٢ السيرافي ، أخبار النحويين (٢٣) ، يوهان فك (٦٢) .

٣ مجالس العلماء (٨ وما بعدها) ، السيوطي ، الاشياء والنظائر (١٥/٣) .

له الفیصل ، وكان له عم يقال له معاذ بن مسلم الهراء ، وهو نحوي مشهور ، وهو أول من وضع التصريف . وقد طعن رواة البصرة في علم (الرؤاسي) . قال (أبو حاتم) : « كان بالكوفة نحوي يقال له : أبو جعفر الرؤاسي ، وهو مطروح العلم ليس بشيء ، وأهل الكوفة يعظمون من شأنه ، ويزعمون أن كثيراً من علومهم وقراءتهم مأخوذ عنه »^١ .

وسبقت الكوفة البصرة في رواية الشعر ، وقد خاطب (علي بن أبي طالب) أهل الكوفة بقوله : « إذا تركتكم عدتم الى مجالسكم حلقة عزين ، تضربون الأمثال ، وتناشدون الأشعار »^٢ ، فالأمثال والشعر من أهم الموضوعات التي كان يتدارسها أهل الكوفة في أيام نشأتها الأولى ، فهم على سفن الجاهليين في ضرب الأمثال ورواية الشعر . روي أن المفضل كان يروي للأسود بن يعفر ثلاثين ومائة قصيدة ، وكان أهل الكوفة يروون له أكثر من غيرهم ، ويتجاوزون فيه أكثر من غيرهم^٣ ، وقد انفردوا برواية شعر امرئ القيس ، خلا نتف أخذت من أبي عمرو بن العلاء وبعض الرواة الأعراب^٤ . وروي أن « الشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب الى من لم يقله ، وذلك بين في دواوينهم »^٥ . وقد زعم أهل الكوفة ، أن علمهم بالشعر القديم ، إنما ورد اليهم من (الطنوج) ، وهي الكراريس التي أمر (النعمان بن المنذر) بتدوين أشعار العرب عليها ، وما مدح به هو وأهل بيته ، ثم أمر بدفنها في القصر الأبيض ، فلما كان (المختار ابن أبي عبيد) ، احتفرها ، فأخرج تلك الأشعار ، فنظم أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة »^٦ .

وكان حماد الراوية رأس أهل الكوفة في رواية الشعر وتدوينه ، فقد بلغ الغاية في العلم بشعر الجاهليين . يقابله فيه (خلف الأحمر) عند أهل البصرة ، وكان خلف أول من أحدث السماع في البصرة ، « وذلك انه جاء الى حماد الراوية فسمع

-
- ١ المزهر (٤٠٠/٢) .
 - ٢ الرافعي (٣٨٢/١) .
 - ٣ ابن سلام ، طبقات (٣٤) .
 - ٤ الرافعي (٤٣٢/١) .
 - ٥ المزهر (٤٠٧/٢) .
 - ٦ الخصائص ، لابن جني (٣٩٢/١) .

منه الشعر ، ثم تابعه البصريون فأخذوا عن حماد بعد ذلك ، لانفراده بروايات من الشعر ، فإنه هو الذي أخذ عنه كل شعر امرئ القيس ، إلا شيئاً أخذوه عن أبي عمرو بن العلاء^١ . وذكر ان (الخثعمي) ، و (أبا البلاد) كانا من رواة أهل الكوفة في الشعر قبل (حماد) ، وكانا في خلافة عبد الملك بن مروان^٢ .

ونسب الى بعض العلماء اضافتهم البيت أو الأبيات على ألسنة الشعراء ، لتوجيه الحجة وترزين الخبر ، والاستشهاد على قاعدة نحوية أو صرفية . وذكر ان بعضاً منهم قد اعترف بذلك ، وأقر الوضع^٣ . وفي هذه الاعترافات المنسوبة اليهم ، ما هو باطل مصنوع ، صنع عليهم حسادهم ومنافسوه في الصنعة ، ورموه بين الناس على انه إقرار من أولئك العلماء بالوضع ، ولا يعقل صدور مثل هذه الاعترافات منهم ، لشهرتهم وملكائتهم بين الناس ، ولخوفهم من السمعة السيئة ، واشتعارهم بالكذب والانتحال . وليس معنى هذا أنهم لم يضعوا ولم يصنعوا شيئاً على الشعر الجاهلي ، إنما أشك في صحة ما قيل على ألسنتهم من اعترافهم بالدس والوضع .

وذكر أن أهل الكوفة كانوا يقدمون الأعشى ، وأن علماء البصرة كانوا يقدمون امرأ القيس ، وأن أهل الحجاز والبادية يقدمون زهيراً والناطقة^٤ . وقد كان من اللازم أن يتعصب أهل الكوفة لامرئ القيس ، فقد روى أكثر شعره حماد ورواة آخرون من أهل الكوفة . وقد كان (يونس بن حبيب) ، وهو من البصريين ومن المتعصبين لمدينته يقول : « يا عجباً للناس ، كيف يكتبون عن حماد وهو يصحّف ويكذب ويلحن ويكسر »^٥ .

وقد اتهم الكوفيون بأنهم كانوا أكثر الناس وضعاً للأشعار التي يستشهد بها ، لضعف مذاهبهم وتعلقهم على الشواذ واعتبارهم منها أصولاً يقاس عليها . « وأول من سنّ لهم هذه الطريقة شيخهم الكسائي ، قال ابن درستويه : كان يسمع الشاذ الذي لا يجوز إلا في الضرورة فيجعله أصلاً ويقيس عليه ، فأفسد النحو بذلك » . و « قال الأندلسي في شرح المفصل : والكوفيون لو سمعوا

١ الرافعي (٤٣٢/١) .

٢ المصدر نفسه .

٣ الرافعي (٣٨٣/١) وما بعدها .

٤ طبقات ، ابن سلام (١٦) .

٥ رسائل الجاحظ (٢٢٦/١) ، (كتاب البقال) .

بيتاً واحداً فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلاً وبوّبوا عليه ، بخلاف البصريين ^١ .

واتهموا أنهم كانوا يصنعون الشاهد من الشعر فيما لا يصيبون له شاهداً اذا كانت العرب على خلافهم ، ولذلك تجدد في شواهدهم من الشعر ما لا يعرف قائله ، بل ربما استشهدوا بشطر بيت لا يعرف شطره الآخر ^٢ ، وربما أخذوا من العرب المتحضرة ، « ومن أجل هذا وأمثاله كان البصريون يفتنزون على الكوفيين فيقولون : نحن نأخذ اللغة عن حرّشة الضبّاب وأكلة اليرابيع وأنتم تأخذونها عن أكلة الشوايز والكوامخ ^٣ . ومن الأعراب الذين أخذ (الفراء) ، عالم الكوفة بعد الكسائي عنهم اللغة ، (أبي الجراح) ، و (أبي مروان) ، وأهل البصرة ممنعون من الأخذ عن أمثال هؤلاء الأعراب ، ولا يرون في قولهم حجة . » قال أبو حاتم : اذا فسرّت حروف القرآن المختلف فيها ، وحكيّت عن العرب شيئاً ، فإنما أحكيه عن الثقات منهم ، مثل أبي زيد ، والأصمعي ، وأبي عبيدة ويونس وثقات من فصحاء الأعراب وحلة العلم ، ولا التفت الى رواية الكسائي ، والأحر والأموي ، والفراء ، ونحوهم ^٤ .

واتهموا بأنهم كانوا يكثرّون من الشعر ، يقولونه على السنة الشعراء ، قال (ابن سلام) في أثناء حديثه عن (الأسود بن يعفر) الشاعر الجاهلي : « وذكر بعض أصحابنا انه سمع المفضل يقول : له ثلاثون ومائة قصيدة ، ونحن لا نعرف له ذلك ولا قريباً منه . وقد علمت ان أهل الكوفة يروون له أكثر مما نروي ، ويتجاوزون في ذلك أكثر من تجوزنا ^٥ . وكان الأسود ، يكثر التنقل في العرب يجاورهم ، فيذم ويحمد . وله في ذلك أشعار . له قصيدة جيدة ، طويلة رائعة تعد من أول الشعر ، وهي :

نام الخليّ فإحس رقادي والهمّ محتضر لديّ وسادي ^٦

١ الرافعي (١ / ٣٧٠) .

٢ الرافعي (١ / ٣٧٠ وما بعدها) .

٣ الرافعي (١ / ٣٧١) .

٤ المزهر (٢ / ٤١٠) .

٥ ابن سلام ، طبقات (٣٣ وما بعدها) .

٦ ابن سلام ، طبقات (٣٣) .

ونسلم قصصاً عن تغليب علماء البصرة والكوفة بعضهم البعض ، فنجد خلفاً الأحمر ، وهو شيخ البصرة في الشعر ، يذكر أنه أخذ على (المفضل) الضبي في يوم واحد تصحيف ثلاثة أبيات^١ . ونجد (الأصمعي) ، وهو من علماء البصرة كذلك ، يحمل على علم (الضبي) في الشعر ، ويرميه بعدم الفهم^٢ . ونجد قصصاً روي عن علماء مشاهير مثل (ثعلب) وغيره ، يحمل فيه أولئك العلماء بعضهم على بعض ، ويتنقص بعضهم على البعض الآخر^٣ .

ونحن إذا أردنا الوقوف موقفاً علمياً ، فلا نستطيع إلا أن نقول: إننا لا نستطيع تبرئة أهل الكوفة من الصنعة والوضع ، كما لا نستطيع تبرئة أهل البصرة منها ، لأن في كل مدينة من المدينتين منافسات بين العلماء ، وتزاحم على الرئاسة، وحسد، يدفع الإنسان على الوضع والصنعة والأخذ بالخبر مهما كان شأنه لإفحام الخصوم ، والتغلب عليهم . فإذا كان (حماد) عالم الكوفة في الشعر من اللواضعين ، وكان يصحف ويكذب ويلحن ويكسر ، فقد كان (خلف الأحمر) ، وهو عالم البصرة ، مثله في الصنعة والوضع والكلب . وكان (شوكر) وهو من أهل البصرة ، ومن رجال المائة الثانية ، ممن يضع الأخبار والأشعار ، وفيه يقول خلف الأحمر :

أحاديث ألفها شوكر وأخرى مؤلفة لابن دأب^٤

وقد نقح علماء الشعر من المدرستين والمدارس الأخرى ما أخذوه من الشعر الجاهلي ، وأجروا على ما لا يتفق منه والقواعد التي ثبتوها للنحو والعروض تهذيباً وتشديداً ، وعابوا منه أموراً مثل الإقواء والزحاف ، واختلال الوزن ، وما شاكل ذلك . وقد تحدث عن ذلك (المعري) في رسالة الغفران ، وهو شاعر ومن نقدة

١ المصون (١٩١ وما بعدها) .

٢ المصون (١٩٢ وما بعدها) .

٣ المزهر (٢٠٢/١ وما بعدها) .

٤ رسائل الجاحظ (٢٢٦/١) ، (كتاب البغال) .

٥ لسان الميزان (١٥٨/٣) ، (٤٠٩/٤) ، رسائل الجاحظ (٢٢٥/١) ، (كتاب

البغال) .

الشعر ، في أحاديثه التي وضعها على ألسنة الشعراء في الجنة أو في النار ، وفي أسئلته التي وجهها إليهم ، أو وجهها غيره إليهم . كما في استفساره من (امرئ القيس) عن رواة أهل بغداد في انشادهم أبياتاً من قصيدته : « قفا نبك بزيادة الواو في أولها ، فوضع الجواب على لسانه ، بقوله : « أبعد الله أولئك ! لقد أساءوا الرواية . وإذا فعلوا ذلك فأني فرق يقع بين النظم والنثر ؟ وإنما ذلك شيء فعله من لا غريزة له في معرفة وزن القريض ، فظنه المتأخرون أصلاً في المنظوم ، وهيهات هيهات ! »^١ . ثم يقول : « لو شرحتُ لك ما قال النحويون في ذلك لعجبت »^٢ .

ونرى (المعري) يوجه أسئلة الى (امرئ القيس) ، فيقول له : « أخبرني عن كلمتك (الصادية) ، و (الضادية) ، و (النونية) التي أولها :

لمن طلل أبصرته فشجاني كخط زبور في عسيب يمان ؟

لقد جئت فيها بأشياء ينكرها السمع ، كقولك :

فإن أمس مكروباً فيارب غارة شهدتُ على أقب رِخو اللبانِ

وكذلك قولك في الكلمة الصادية :

على نفق هيقٍ له ولعرسه بمنقطع الوعشاء بيض رصيص

وقولك :

فأسقي به أختي ضعيفة إذ نأت ولإذ بعد المزدار غير القريضِ

في أشباه لذلك ، هل كانت غرائزكم لا تحس بهذه الزيادة ؟ أم كنتم مطبوعين على إتيان مغامض الكلام وأنتم عالمون عما يقع فيه ؟ كما أنه لا ريب أن زهيراً كان يعرف مكان الزحاف في قوله :

١ رسالة الغفران (٣١٣ وما بعده) .

٢ رسالة الغفران (٣١٤) .

يطلب شأواً امرأين قدما حسبا نالا الملوك ، وبذا هذه السؤفا

فإن الغزائر تحس بهذه المواضع ١ .

ثم يجيب (المعري) على لسان (امرئ القيس) بقوله : « أدركنا الأولين من العرب لا يحفلون بمجيء ذلك ، ولا أدري ما شجن عنه ، فأما أنا وطبقتي فكنا نمر في البيت حتى نأتي إلى آخره ، فإذا فنى وقارب ، تبين أمره للسامع ٢ .

ثم نراه يسأل (امرئ القيس) عن قوله :

ألا رب يوم لك منهم صالح ولا سيما يوم بصدارة جلجل

أتشده : لك منهم صالح ؟ أم تنشده على الرواية الأخرى . فيجيب على لسانه بقوله : « أما أنا فما قلت في الجاهلية إلا بزحاف :

لك منهم صالح

وأما المعلمون في الإسلام ، فغيروه على حسب ما يريدون ٣ .

وقد سأله (المعري) عن الشعر المسمط المنسوب اليه ، فأذكر على لسانه أن يكون قد سمع به قط ، قائلاً : « وانه لقرى لم أسلكه ، وان الكذب لكثير ، وأحسب هذا لبعض شعراء الاسلام ، ولقد ظلمني وأساء إلي ٤ . ولما سأله عن (الإقواء) في شعره ، قائلاً له : « وقد كان بعض علماء الدولة الثانية يجعلك لا يجوز الإقواء عليك » ، أجاب على لسانه : « لا نكرة عندنا في الإقواء ٥ .

وقد كان من أصعب الأشياء على بعض رجال المدرستين ألا يجيبوا على أسئلة توجه اليهم إجابة تفيد بوجود علم لهم عنها ، ولهذا كانوا يعمدون الى الصنعة والافتعال . نجد ذلك عند أهل الأخبار ، وعلى رأسهم (ابن الكلبي) ، كما نجد ذلك عند رواة الشعر مثل حماد الراوية ، وخلف الأحمر ، كما نجده عند علماء

١ رسالة الغفران (٣١٥ وما بعدها) .

٢ رسالة الغفران (٣١٧) .

٣ رسالة الغفران (٣١٧ وما بعدها) .

٤ رسالة الغفران (٣١٩) .

٥ رسالة الغفران (٣٢٠) .

اللغة . وقد أشرت في صفحات هذا الكتاب الى أمثلة عديدة من هذا القيسل ، اضطر فيها المجيب على افتعال جواب وصنعه ، ليظهر نفسه بمظهر العارف بكل شيء .

ويجب الانتباه الى ان علماء البصرة أو الكوفة أو غيرهم ، مهما سموا في العلم وارتفعوا ، فلأنهم بشر ، لم يرزقوا العصمة ، وهم في التأثير والانفعال مثل أي كائن حي ، فقد يتأثر عالم من عالم متقدم عليه ، فيحاول للغمز في علمه أو الطعن به . قال علي بن العباس : « رأيت البحري ومعي دفتر ، فقال : ما هذا ؟ فقلتُ شعر الشنفرى . قال : والى أين تمضي ؟ قلت أقرأه على أبي العباس أحمد بن يحيى . قال : رأيت أبا عباسكم هذا منذ أيام ، فلم أر له علماً بالشعر مرضياً ، ولا نقداً له ، ورأيت ينشد أبياتاً صالحة ويعيدها ، إلا أنها لا تستوجب التردد والإعجاب فيها »^١ . وروى (أحمد بن يحيى ثعلب) ، خبر مناظرات وقعت بين (أبي عمرو الشيباني) ، والأصمعي ، ترينا مبلغ التنافس الذي كان بين العالمين ، واستهتار الأصمعي بخصمه ، استهتاراً تجاوز الحد^٢ .

وقد حاول (السيوطي) إيجاد عذر لغمز العلماء بعضهم في بعض ، بأن قال : « فإن قلت : فلماذا نجد علماء هذا الشأن من البلدين ، والمتحليين به من المصريين كثيراً ما يهجن بعضهم بعضاً ، فلا يترك له في ذلك سماً ولا أرضاً ؟ قيل : هذا أدل دليل على كرم هذا الأمر ونزاهة هذا العلم ، ألا ترى انه إذا سبق الى أحدهم ظنة ، أو توجهت نحوه شبهة سب بها ، ويرى الى الله منه لمكانها ، ولعل أكثر ما يرمى بسقطة في رواية ، أو غمرة في حكاية ، محمي جانب الصدق فيها ، بريء عند الله من تبعثها ؛ لكن أخذت عنه إما لاعتناق شبهة عرضت له ، أو لمن أخذ عنه ، وإما لأن ثالبه ومتعبيه مقصر عن مغزاه ، مغموض الطرف دون مداه ، وقد عرض الشبهة للفريقين ، ويعترض على كلا الفريقين ، ثم أخذ يعتذر عن ذلك ، بأنه وقع في سبيل العلم والحق ، ثم قال : « وإذا كانت هذه المناقضات والمناقسات موجودة بين السلف القديم ... جاز مثل ذلك أيضاً في علم العرب »^٣ .

١ المصون (٤) .

٢ المصون (١٩٣) وما بعد .

٣ المزهر (٤١٦/٢) وما بعدها .

ومن هنا يجب الاحتراس كثيراً حين قراءتنا الطعون التي ترد على ألسنة العلماء يطعن فيها بعضهم ببعض ، فأكثر هذا المروي عنهم ، صادر عن طبيعة بشرية ، تظهر بين الزعماء نتيجة التنافس الذي يقع بينهم على الزعامة والصدارة ، ولو في زعامة العلم . ولا تقتصر هذه الطعون والمغامز على طعن علماء البصرة بعلماء أهل الكوفة ، أو العكس ، بل نجدتها بين علماء المدينة الواحدة أيضاً ، لأن الموضوع موضوع زعامة ورياسة ، والتحاسد بين المتحاسدين لا ينحصر بقوم دون قوم ، وقد يقع بين الاخوة الاشقاء .

الفصل الحادي والخمسون بعد المئة

العصبية والشعر

رأيت أن أهل الكوفة كانوا يفضلون بعض الشعراء الجاهليين على غيرهم ، وأن أهل البصرة كانوا يرجعون غيرهم عليهم ، فلا يرون التقدم لمن اختارهم أهل الكوفة ، ورأيت أن أهل الحجاز يقدمون شعراء آخرين على الشعراء الذين قدمهم أهل الكوفة أو أهل البصرة .

وموضوع من هو أشعر شعراء أهل الجاهلية ، موضوع تضاربت فيه الآراء كثيراً ، وكثرت فيه الأقوال ، لما له من تماس بروح العصبية ، والعصبية اذا دخلت قضية أفسدتها . ثم انه قائم على أحكام الأذواق ، وأذواق الناس في الشعر وفي النوق والتذوق متفاوتة متباينة ، ثم هو لا يستند الى أسس مقررّة تعود الى أيام الجاهلية ، كنتقد علمي ودراسة عامة شاملة قام بها الجاهليون في أيامهم ، وانما مرجعه أقوال قيل انها صدرت من خبراء الشعر وعلمائه ، لا أدري مقدار ما فيها من صدق أو كذب . وكل ما أستطيع ان أقوله : انها آراء دونت في الاسلام ، وهي مرسلّة ، محمولة على المبالغة في الاستحسان لقصيدة أو لقطعة أو لبيت ، بل ولنصف بيت أحياناً ، وهي تمثل استلوافاً شخصياً ، لحالة من الحالات ، لا لغالب شعر الشاعر وعامة ما روى عنه ، ولما فيه من فن وإبداع ، ثم انك تجدها أحياناً متناقضة متضاربة ، تجد رواية تقول إن الشاعر الفلاني ، أو عالم الشعر فلان قال : أشعر الناس فلاناً ، ثم تجد رواية ثانية تذكر انه قدم شاعراً آخر محله فجعله أشعر الشعراء ، ثم لا تلبث أن تجد رواية ثالثة ، تذكر

أنه اختار شاعراً غيرهما ، فجعله أشعر شعراء الجاهلية ، وأشعر الناس ، فتحتار في أمر هذا التناقض ، كيف وقع ، وكيف حدث والحاكم رجل واحد ؟ هل وقع هذا حقاً ، أو أنه كان من وضع المتعصبين للشعراء ، أرادوا تقديم شاعر لهم على سائر الشعراء ، فاحتاجوا الى حجة وسند واثبات ، لإثبات دعوهم ، وتأكيدا ، فاختلقوا قولاً نسبوه الى عالم معروف وصنع قوم غيرهم مثل ما صنعوا ، فاختلقوا قولاً نسبوه الى هذا العالم أيضاً ، فن ثم تعددت الأقوال وتصادمت ، فليس للعلماء اذن يد في هذا التناقض أو أي ذنب ، وإنما الذنب هو ذنب المخلقين الذين دسوا دسهم على العلماء .

وقد لا يكون للإختلاق يد في ظهور هذا التناقض ، وإنما سببه ، أن شخصاً يُسأل عن شاعر ، فيخطر بباله خاطر عن شعره ، جملة يستعذبه أو يستعذب جزءاً منه ، يراه أنه أحسن ما قيل من نحوه ، فيرجحه على الجميع ، ويحكم من هذه الناحية على أنه أشعر الناس ، ثم يمضي وقت ، ينسى فيه ما قال ، فيسأله أشخاص : من أشعر الناس : فيتخطر خاطراً ، أو يحمله المجلس الذي كان يدور فيه الحديث إذ ذاك على خاطر ، يحمله على الحكم بتفوق شاعر آخر ، وهكذا ومن هنا كان سبب هذا التناقض والاختلاف في الرأي .

وقد كان من السهل وقوع مثل هذا التناقض ، لأن العلم كان بالمشافهة ، ولم يكن عن تدوين وقراءة كتب ، وكان بالذاكرة والتذكر ، وكان حكمهم بنصف البيت وبالببيت وبالقطعة وبالقصيدة ، أو بجملة قصائد ، لا بمراجعة شعر كل شاعر ، وبمقابلته بشعر الشعراء الآخرين ، واستنباط ما في مجموع شعر كل شاعر من مزايا ، للمقابلة بينها . ثم للحكم للمتفوق الأجود . فذلك أمر لم يكن من الممكن حدوثه : لعدم وجود التدوين عندهم ، ثم لأنه لم يكن معروفاً عندهم . فلما وقع التدوين ، وأخذ علماء الشعر في التنقيب في كل جهة بحثاً عن الشعر وما قيل فيه ، ظهر ذلك التناقض وبان ، ودون كل ما أمكن تدوينه ، بعد أن ضاع من الشعر ومن الآراء التي قيلت عنه ما ضاع ، وكانت الخلاصة هذا الواصل إلينا .

وقد أشار أهل الأخبار الى ما كان للعصية من أثرها في تفضيل الشعراء بعضهم على بعض : عصبية قبلية ، وعصبية محلية ، وعصبية منافسة وتراكم على الزعامة . فالقبائل تقدم شعراءها على شعراء غيرها وتجعل في أيديهم ألوية الشعر ، وقيادة الشعراء في معارك القصيد ، وأهل العصبية الى عدنان ، يقدمون شعر (ربيعة) وأولهم

(المهلهل) على غيره، ويرون أنه مفتق الشعر ومهلله ، وأول من قصد الفصائد ، وأهل اليمن يرون تقدمه الشعر لليمن ، يزعمون أنه بدأ في الجاهلية بامرئ القيس ، وفي الإسلام بحسان بن ثابت ، وفي المولدين بالحسن بن هانيء ، وأصحابه : مسلم بن الوليد ، وأبي الشيص ، ودعبل ، وكلهم من اليمن ، وفي الطبقة التي تليهم بالطائفتين : حبيب ، والبحثري ، ويختمون الشعر بأبي الطيب ، وهو خاتمة الشعراء لا محالة ، ويرجعون نسبه الى اليمن^٢ .

قال (ابن رشيقي) في (العمدة) : « والشعراء أكثر من أن يحاط بهم عدداً ، ومنهم مشاهير قد طارت أسماؤهم ، وسار شعرهم ، وكثر ذكرهم ، حتى غلبوا على سائر من كان في أزمانهم ، ولكل أحد منهم طائفة تفضله وتتعصب له ، وقل ما يجتمع على واحد ، إلا ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، في امرئ القيس أنه أشعر الشعراء ... »^٣ .

وكان علماء البصرة يقدمون امرأ القيس ، أما أهل الكوفة فكانوا يقدمون الأعشى ، وأما أهل الحجاز والبادية ، فقدموا زهيراً والتائبة . وكان أهل العالية لا يعدلون بالتائبة أحداً ، كما أن أهل الحجاز لا يعدلون بزهير أحداً . وهذا ما أتت به الرواية عن (يونس بن حبيب) النحوي^٤ .

ولكنك إذا تتبعت وأحصيت ما قيل على ألسنة أهل البصرة أو الكوفة أو الحجاز من أقوال ، ترى تناقضاً بين هذه الرواية وبين ما حصلت عليه من دراسة تلك الأقوال . تناقضاً ينبئك أن هذا المروي ، هو وجهات نظر وآراء أشخاص ، ولا يمثل إجماع أهل الكوفة ، أو إجماع أهل البصرة ولا إجماع أهل الحجاز ، أو إجماع أهل البادية ، ثم هو كله آراء وردت في الإسلام ، وإن حاولت إرجاع أصلها الى الجاهلية .

ويذكر من يقدم (امرأ القيس) على غيره ، أن الرسول ذكره يوماً ، فقال : « ذلك رجل مذكور في الدنيا ، منسي في الآخرة ، يجيء يوم القيامة وييده

١ العمدة (٨٦/١ وما بعدها) ، (باب تنقل الشعر في القبائل) .

٢ راجع رأي علماء الشعر في أصل نسب المتنبي ، العمدة (٨٩/١ وما بعدها) .

٣ العمدة (٩٤/١) ، المزهر (٤٧٨/٢) .

٤ ابن سلام ، طبقات (١٦) ، العمدة (٩٨/١) ، المزهر (٤٨٢/٢) .

لواء الشعراء يقودهم الى النار «^١ . أو أنه قال : « إنه أشعر الشعراء ، وقائدهم الى النار . يعني شعراء الجاهلية والمشركين »^٢ .

وروي أن (عمر بن الخطاب) كان يفضل (امرأ القيس) على غيره ، ذكر أنه قال للعباس بن عبد المطلب ، « وقد سأله عن الشعراء : امرؤ القيس سابقهم : خَسَفَ لهم عين الشعر ، فافتقر عن معان عور أصبح بصر »^٣ . « يريد أنه أول من فتق صناعة الشعر وفتق معانيها واحتدى الشعر على مثاله »^٤ . وذكر أن (علي بن أبي طالب) كان يرى له التقدم على غيره ، وذلك بقوله : « رأيت أحسنهم نادرة ، وأسبقهم بادرة ، وأنه لم يقل لرغبة ولا لرهبة »^٥ . فأنت ترى أن الرسول وعمر وعلي ، قدّموا (امرأ القيس) على غيره ، وهم من أهل الحجاز . ولكننا نجد في الوقت نفسه رواية تذكر أن (ابن عباس) « قال : قال لي عمر : أنشدني لأشعر شعرائكم . قلت من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : زهير ، قلت : ولم كان ذلك ؟ قال : كان لا يعاضل بين الكلام ، ولا يتبع حوشيه ، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه »^٦ . فهو يفضل في هذه الرواية زهيراً على غيره ، بما فيه من امرئ القيس ، إذ لم يشر اليه باستثناء .

ثم نجد رواية أخرى تذكر أن (عمر بن الخطاب) قال : أي شعرائكم يقول :

ولست بمستبق أخاً لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب

قالوا : النابغة . قال هو : أشعرهم »^٧ . « وكان أبو بكر رضي الله عنه ، يقدم النابغة ، ويقول : هو أحسنهم شعراً ، وأعذبهم بحراً ، وأبعدهم قعرأ »^٨ . فأبو بكر وعمر في هذا الموقف سواء ، فضلاً النابغة على سائر الشعراء .

-
- ١ بلوغ الارب (٩٣/٣) ، المزهر (٤٧٨/٢) .
 - ٢ العملة (٩٤/١) .
 - ٣ العملة (٩٤/١) ، الفائق (٣٤٣/١) .
 - ٤ تاج العروس (٤٧٥/٣) ، (فقر) .
 - ٥ العملة (٤١/١) وما بعدها (٩٤) ، تاج العروس (٤١٢/٧) ، (ضلل) .
 - ٦ طبقات ابن سلام (١٨) ، العملة (٩٨/١) ، الفائق (١٦٥/٢) ، الشعر والشعراء (٧٦/١) .
 - ٧ ابن سلام ، طبقات (١٧) ، السيوطي ، شرح شواهد (٧٩/١) وما بعدها .
 - ٨ العملة (٩٥/١) .

ولو استعرضنا رأي الشعراء في أشعر الشعراء ، وجدناه غير متفق ، فقد يفضل شاعر شاعراً ، وقد يخالفه فيه شاعر آخر ، وقد ينسب لشاعر رأي ، ثم ينسب له رأي مخالف . سئل (لييد) : « من أشعر الناس ؟ قال : الملك الضليل ، قيل : ثم من ؟ قال : الشاب القليل ، قيل : ثم من ؟ قال : الشيخ أبو عقيل - يعني نفسه ^١ . و « روى الجمحي أن سائلاً سأل الفرزدق : من أشعر الناس ؟ قال : ذو القروح ، قال : حين يقول ماذا ؟ قال : حين يقول :

وقاهم جلدهم بيني أبيهم وبالأشقين ما كان العقاب

وأما دعبل فقدمه بقوله في وصف عقاب :

ويلمها من هواء الجوّ طالبةً ولا كهذا الذي في الأرض مطلوب

وهذا عنده أشعر بيت قالته العرب ^٢ .

وقد سئل الفرزدق مرة : « من أشعر العرب ؟ فقال : بشر بن أبي حازم ؛ قيل له : بماذا ؟ قال : بقوله :

ثوى في ملحدٍ لا بُدَّ منه كفى بالموت نأياً واغتراباً

ثم سئل جرير ، فقال : بشر بن أبي حازم ، قال : بماذا ؟ قال : بقوله :

رهين بلى ، وكل في سبيلي فشقّي الجيب وانتحبي انتحاباً

فاتفقا على بشر بن أبي حازم كما ترى ^٣ . وقد رأيت أن الفرزدق كان قد سئل السؤال نفسه : من أشعر الناس ؟ فأجاب : ذو القروح ، أي امرئ القيس . بسبب بيت فوقه به على غيره من الشعراء . بينما هو يقدم (بشر بن أبي حازم في هذه الرواية . وينسب أهل الأخبار لجرير رواية أخرى تزعم أنه سئل من أشعر الناس ، فقال : التابعة ^٤ . فخالفت هذه الرواية ما جاء في الرواية الأخرى .

-
- | | |
|---|---|
| ١ | العمدة (٩٥/١) ، المزهري (٤٧٩/٢) ، ابن سلام ، طبقات (١٦) . |
| ٢ | العمدة (٩٥/١) ، ابن سلام ، طبقات (١٦) ، المزهري (٤٨١/٢) . |
| ٣ | العمدة (٩٦/١) . |
| ٤ | العمدة (٩٧/١) . |

« وكتب الحجاج بن يوسف الى قتيبة بن مسلم يسأله عن أشعر الشعراء في الجاهلية وأشعر شعراء وقته ، فقال : أشعر شعراء الجاهلية امرؤ القيس ، وأضر بهم مثلاً طرفة . وأما شعراء الوقت ، فالفرزدق أفخرهم ، وجريز أمجأهم ، والأخطل أوصفهم ^١ . » وفضل النقاد العرب طرفة على سائر الشعراء بإجادته وصف الناقة في معلقته على نحو لم يسبق اليه ، ويميل بعضهم الى عده أشعر شعراء الجاهلية ^٢ .

« وقيل لكثير أو لنصيب : من أشعر العرب ؟ فقال : امرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ، والنابعة إذا رهب ، والأعشى إذا شرب ^٣ . فهو رأي قدم الشعراء المذكورين على غيرهم في حالات معينة ، ولم يقدم (امرؤ القيس) على غيره بصورة مطلقة . و « زعم ابن أبي الخطاب أن أبا عمرو كان يقول : أشعر الناس أربعة : امرؤ القيس ، والنابعة ، وطرفة ، ومهلل ^٤ . »

« وقالت طائفة من المتعقبين : الشعراء ثلاثة : جاهلي : واسلامي ، ومولد ؛ فالجاهلي امرؤ القيس ، والاسلامي ذو الرمة ، والمولد ابن المعتز . وهذا قول من يفضل البديع وبخاصة التشبيه على جميع فنون الشعر ^٥ . »

وحجة من قدم امرؤ القيس على غيره « ان امرؤ القيس لم يتقدم الشعراء لأنه قال ما لم يقولوا ، ولكنه سبق الى أشياء فاستحسنها الشعراء ، واتبعوه فيها ، لأنه أول من لطف المعاني ، ومن استوقف على الطلول ، ووصف النساء بالطباء والمها والبيض ، وشبه الخيل بالعقبان والعصي ، وفرق بين النسيب وما سواه من القصيد ، وقرّب مأخذ الكلام ، فقيد الأوابد وأجاد الاستعارة والتشبيه ^٦ ، « وكان أحسن طبقته تشبيهاً ^٧ . »

١ العملة (٩٦/١) ، المزهر (٤٨١/٢) .

٢ بروكلمن (٩٢/١) .

٣ العملة (٩٥/١) .

٤ العملة (٩٧/١) ، المزهر (٤٨١/٢) .

٥ العملة (١٠٠/١) .

٦ الشعر والشعراء (٤٧٨/١ وما بعدها) ، العملة (٩٤/١) ، ابن سلام ، طبقات (١٦ وما بعدها) ، الرواية ترجع الى « يونس » وقد دونها « ابن سلام » و « ابن قتيبة » المتوفى بعده (٢٧٦ هـ) ، مع شيء يسير من الاختلاف في النص .

٧ ابن سلام ، طبقات (١٦ وما بعدها) .

ووجد (زهير) له أنصاراً وأعواناً ، من المعجبين به في الاسلام بالطبع ، قدّموه على غيره من شعراء الجاهلية . وقد سبق أن أشرت الى رواية زعمت أن (عمر) فضله على غيره من شعراء أهل الجاهلية ^١ . وذكر أن (عكرمة بن جرير) سأل أباه جريراً : من أشعر الناس ؟ قال : أعن الجاهلية تسألني أم الإسلام ؟ قال : ما أردت إلا الإسلام ؟ فإذا ذكرت الجاهلية فأخبرني عن أهلها ، قال : زهير شاعرهم ^٢ . ويوزعم أن (ابن عباس) سأل (الحطيثة) عن أشعر الناس ، فقال : الذي يقول :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم

وليس الذي يقول :

ولست بمستقب أنحاً لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب ؟

بدونه ، ولكن الضراعة أفسدته ، كما أفسدت جرولاً ، والله لولا الجشع لكنت أشعر الماضين ، وأما الباقر فلا شك أنني أشعرهم . قال ابن عباس : كللك أنت يا أبا مليكة ^٣ . وقائل البيت الأول زهير ، وقائل البيت الثاني هو النابتة .

ولكنّا نقرأ في رواية أخرى ما يخالف هذا الرأي ، نقرأ فيها أن سائلاً سأل الحطيثة عن أشعر الناس ، فقال أبو دؤاد حيث يقول :

لا أعدّ الإقتار عدماً ، ولكن قدّعد من قد رزته الإعدام

وهو رأي لم يقبل به أحد من النقاد ^٤ . وجعل بعده (عبيداً) ^٥ .

ورجح بعضهم (الأعشى) على غيره ، رجحه الشاعر (الأخطل) مثلاً ، فزعم أنه قال : « الأعشى أشعر الناس » ^٦ . وكان خلف الأحمر يقول : الأعشى

-
- | | |
|---|--|
| ١ | العملة (٩٨/١) |
| ٢ | العملة (٩٦/١) |
| ٣ | العملة (٩٧/١) ، المزهر (٤٨١/٢) |
| ٤ | العملة (٩٧/١) ، المزهر (٤٨١/٢) |
| ٥ | الشعر والشعراء (٢٤٢/١) ، (دار الثقافة ، بيروت) |
| ٦ | العملة (٩٧/١) ، المزهر (٤٨١/٢) |

أجمعهم . وقال أبو عمرو بن العلاء مثله مثل البازي يضرب كبير الطير وصغيره ، وكان أبو الخطاب الأخصش يقدمه جداً ، لا يقدمُ عليه أحداً^١ . « وقال بعض متقدمي العلماء : الأعشى أشعر الأربعة^٢ ، والأربعة ، هم : امرؤ القيس ، وزهير ، والنابعة ، والأعشى ، أو زهير ، والنابعة ، والأعشى ، وعنزة^٣ . « حكى الأصمعي عن ابن أبي طرفة : كفاك من الشعراء أربعة : زهير إذا رغب ، والنابعة إذا رهب ، والأعشى إذا طرب ، وعنزة إذا كلب . وزاد قوم : وجريز إذا غضب ، « وقيل لكثير ، أو لنصيب ، من أشعر العرب ؟ فقال : امرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ، والنابعة إذا رهب ، والأعشى إذا شرب^٤ .

وحجة من قلم (الأعشى) ، أنه كان « أكثرهم عروضاً وأذهبهم في فنون الشعر ، وأكثرهم طويلة جيدة ، وأكثرهم مدحاً وهجاء ونظراً وصفة كل ذلك عنده^٥ .

ووجد (النابغة) من فضله على غيره من شعراء الجاهلية ، وفيهم الخليفة (أبو بكر) الذي كان يقول عنه « هو أحسنهم شعراً ، وأعلبهم بحراً ، وأبعدهم قعراً^٦ ، و (عمر)^٧ والشاعر (جريز)^٨ ، وحجة من قدم النابغة على غيره أنه : « كان أحسنهم ديباجة شعر ، وأكثرهم رونق كلام ، وأذهبهم في فنون الشعر ، وأكثرهم طويلة جيدة ، ومدحاً ، وهجاء ، وفخراً ، وصفة^٩ ، « وأجزلهم بيتاً . كان شعره كلام ليس فيه تكلف^{١٠} .

وزعم أن (الكميث) كان يقول : (عمرو بن كلثوم أشعر الناس) ،

-
- | | |
|----|--|
| ١ | العملة (٩٥/١) . |
| ٢ | العملة (٩٩/١) . |
| ٣ | العملة (٩٥/١) . |
| ٤ | العملة (٩٥/١) . |
| ٥ | ابن سلام ، طبقات (١٨/١) . |
| ٦ | العملة (٩٥/١) . |
| ٧ | ابن سلام ، طبقات (١٧) . |
| ٨ | « وقال جريز : النابغة أشعر الناس » ، المزهرة (٤٨١/٢) . |
| ٩ | العملة (٩٩/١) . |
| ١٠ | ابن سلام ، طبقات (١٧) . |

وأن الشاعر (ذو الرمة) فضل (ليبدأ) على كل الشعراء ^١ .

و « كان ابن أبي اسحاق ، وهو عالم ، ناقد ، ومتقدم مشهور ، يقول :
« أشعر الجاهلية مُرَقَش » ، وسأل عبد الملك بن مروان الأخطل : من أشعر
الناس ؟ فقال : العبد العجلاني ، يعني تميم بن أبي تميم بن مقبل ^٢ ، وهو من
المخضرمين ^٣ ، « وقيل لنصيب مرة : من أشعر العرب ؟ فقال : أخو تميم ،
يعني علقمة بن عبدة ، وقيل أوس بن حجر ، وليس لأحد من الشعراء بعد
امرئ القيس ، ما لزهر والنابعة ، والأعشى في النفوس » ^٤ .

وذكر (ابن سلام) أن (أبا عمرو بن العلاء) كان يرى أن (خدش
ابن زهير) « أشعر في قريحة الشعر من ليبدأ ، وأبى الناس إلا تقدمته ليبدأ .
وكان يهجو قريشاً » ^٥ . ولعل هذا الهجاء هو الذي جعل الناس يأبون تقديمه في
الشعر .

وروي عن (الأصمعي) ، أن (أبا عمرو بن العلاء) كان يقول : « كان
أوس بن حجر فعل العرب ، فلما أنشأ النابغة طأطأ منه) ، وذكر عنه أيضاً ،
وقد سئل عن النابغة وزهير ، أنه قال : « ما كان زهير يصلح أن يكون أخيراً
لِلنابغة ، يعني راوياً عنه » . وروي أن أهل البصرة أجمعوا على امرئ القيس
وطرفة بن العبد ، وأجمع أهل الكوفة على بشر بن أبي خازم والأعشى الهمداني ،
وأجمع أهل الحجاز على النابغة وزهير ^٦ .

وليونس النحوي رأي في أشعر الشعراء ، قيل إنه سئل « عن أشعر الناس
فقال : لا أومئ إلى رجل بعينه ، ولكني أقول : امرؤ القيس إذا غضب ،
والنابغة إذا رهب ، وزهير إذا غضب » ^٧ . فربط الشاعرية بحالة من الحالات
النفسية . وورد التفضيل على هذا النحو : « أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب ،

١ المزهر (٤٨١/٢) .

٢ العمدة (٩٧/١) ، ابن سلام ، طبقات (١٦) .

٣ الشعر والشعراء (٣٦٦/١) .

٤ العمدة (٩٧/١) وما بعدها .

٥ ابن سلام ، طبقات (٣٢) وما بعدها .

٦ السيوطي ، شرح شواهد (٨٠/١) .

٧ ياقوت ، ارشاد (٣١٠/٧) .

وزهير إذا رغب ، والنايفه إذا رهب ، والأعشى إذا طرب . وكان زهير أجمع الناس للكثير من المعاني في القليل من الألفاظ، وأحسنهم تصرفاً في المدح والحكمة^١.

ترى مما تقدم أن موضوع من كان أشعر شعراء الجاهلية موضوع حساس ، لما كان للعصية وللنوق الشخصي دخل فيه ، ثم إنهم لم يكونوا يحكمون من دراسة الكل ، أي بدراسة كل ما ينسب الى الشاعر من شعر ، وإنما كانوا ربما حكموا على الشاعر بيت أو بيتين ، وحكم مثل هذا لا يمكن أن يتخذ حكماً علمياً ، أضف الى ذلك أنهم لم يميزوا بين ما نسب الى الشاعر من شعر ، وبين ما صح له من شعر ، ولا يكون الحكم في مثل هذه الأمور حكماً علمياً ، إلا بدراسة عميقة لشعر كل شعر ، بعد تمييز صحيحه من فاسده ، ثم مطابقته ومقابلته بشعر الشعراء الآخرين . الى أمور أخرى من هذا القبيل ، يطرقها نقاد الشعر والأدب ، بمقاييس ثابتة ، أما مقاييس تلك الأيام فقد اختلفت، وخضعت للعواطف والأهواء ، و (السيوطي) على حق حين يقول في هذا الموضوع : « وهذا يدل على اختلاف الأهواء وقلة الاتفاق »^٢.

وقد يعتمد علماء الشعر الى بيت من شعر ، فيجعلونه أحسن بيت قيل في الجاهلية ، أو عند العرب ، فقد قالوا : ان الاتفاق قد وقع على أن أمدح بيت للجاهلية ، هو قول زهير :

تراه إذا ما جثته مُتهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله^٣

ولكنهم قالوا ان الشاعر (دعبل) قال : إن أمدح بيت قالته العرب في الجاهلية قول أبي الطمحان القيني :

وإن بني أوس بن لأم أرومة علت فوق صعب لا ترام مراقبه
أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دُجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه^٤

١ بلوغ العرب (٩٨/٣) .

٢ المزهر (٤٨٢/٢) .

٣ بلوغ العرب (٩٩/٣) .

٤ بلوغ العرب (١٢٨/٣) .

وروي عن الأصمعي قوله إن بيت (أبي ذؤيب) الهللي :

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا تردّ الى قليل تنقع

هو أبرع بيت قالته العرب^١ .

وقد كان (بشار بن برد) حذراً حين سئل : أخبرنا عن أجود بيت قالته العرب ؟ فقال : إن تفضيل بيت واحد على الشعر كله لشديد^٢ ، ولكن قد أحسن كل الإحسان لبيد في قوله :

وأكذب النفس إذا حدثتها إن صدق النفس يزرى بالأمل
وإذا رمت رجلاً فارتحل وأعصى من يأمر توصيم الكسل^٣

وقد ذهب علماء الشعر الى أن أشعر أهل المدر ، أهل يثرب ، ثم عبد القيس ثم ثقيف ، وأن أشعر ثقيف (أمية بن أبي الصلت) . أما أشعر أهل يثرب ، فهو حسان بن ثابت في نظر كثير من رواة الشعر . وورد في بعض الأخبار أنه أشعر أهل المدر^٤ .

نقد الشعر :

وذكر أن الشعراء الجاهليين ، كانوا يراجعون شعر بعضهم بعضاً ، ويتقدونه لما كان بينهم من تسابق على نيل الشهرة والاسم ، أو لما كانوا يجدونه في شعر الشاعر من هنة أو غفلة أو هفوة ، كاللبيذ ذكروه من أمر الشاعر (المتلمس) ، ذكر أن (طرفة بن العبد) ، سمع قوله :

وقد أتناهى الهمّ عند احتضاره بناج عليه الصعيرة مكدم
وكان إذ ذاك صبيّاً ، فقال : استنوق الجمل فصار مثلاً^٥ .

١ بلوغ العرب (١٤٠/٣) .

٢ بلوغ العرب (١٣١/٣) .

٣ الاغانى (١٨٠/٣) ، (٣/٤) ، العمدة (٨٩/١) ، (باب تنقل الشعر في القبائل) .

٤ الشعر والشعراء (١١٥/١) ، ونسب هذا البيت خطأ الى المسيب بن علس ، الموشح (٧٦) ، الاغانى (٥٥٩/٢٣) .

أو أنهم كانوا يتقنون عند التحكيم . ليقنع الشعراء بصحة حكم الحكم، كالذي كان من أمر (النابغة) في سوق عكاظ ، وكالذي روي! من تنازع (امرؤ القيس) مع (علقمة) الفحل على الشعر ، وقول كل واحد منها لصاحبه : « أنا أشعر منك » ، ومن قبولهما بتحكيم (أم جندب) ، زوج (امرؤ القيس) بينهما . وقبول (أم جندب) الحكم بينهما . فذكر أنها قالت لها : « قولاً شعراً تصفان فيه الخيل على روي واحد وقافية واحدة ، فأنشداها ، ثم حكمت بترجيح شعر علقمة على شعر زوجها ، وأظهرت لها العوامل التي حملتها على هذا الترجيح ، فغضب امرؤ القيس عليها وطلقها ، فخلف عليها (علقمة)^١ . وهي قصة من هذا القصص الموضوع على (امرؤ القيس) .

ويقتضي ذلك أن الشعراء كانوا يحفظون شعر غيرهم ، فقد كان منهم من إذا قابل شاعراً ، وجادله في شعره ، أنشده شعره ، وبين له ما يراه فيه من عيوب . وقد رأيت كيف زعموا أن (النابغة) لما جاء (يثرب) ، أراد أهلها أن يظهروا له ما في شعره من (إقواء) ، وهو من عيوب الشعر ، فأمروا قينة فغنت به ، وأبانت له موطن الإقواء ، فأحس به ، ويقال له إنه تركه من يومئذ .

أما استحسان العلماء لشعر شاعر ، أو تحيئه أو تسخيفه ونقله ، فقد خضع عندهم لعوامل عديدة، قامت في بادئ أمرها على النوق والمزاج ، فهذا يستحسن شعراً لورود بيت فيه استحسنة واستعذبه على حين يرى آخر أنه لا يساوي شيئاً ، وليس فيه ما يدعو إلى المدح والثناء عليه ، ثم على العروض ، فزى العسكري يعترض على اختيار الأصمعي لميمية المرقش ، وقد سبق لابن قتيبة أن اعترض على اختيار الأصمعي القصيدة أيضاً ، وقال الآمدي انه ليس بحاجة إلى ذكر العيوب العروضية فيها لكثرتها^٢ ، ثم على النحو والبيان والبديع وغير ذلك من علوم الصناعة التي وضعت في الإسلام ، وقد كان عليهم ملاحظة أن هذه العلوم إنما وضعت أو ثبتت في الإسلام ، وإن الذوق الجاهلي يختلف عن النوق الإسلامي ، وإن

١ الشعر والشعراء (١ / ١٤٦ وما بعدها) ، (علقمة بن عبدة) ، الاغانى (٢١ / ٢٢٥ وما بعدها) ، الموازنة (١ / ٣٧) .
٢ الصناعتين (٤) ، غرونبوم (١١٢) .

(الخليل) لم يجمع كل بحور الشعر الجاهلي ، بل طرح بعض الأوزان الهزيلة التي كان القدماء قد استنبطوها^١ ، ولعله لم يتمكن من الوقوف على أوزان أخرى ، لأنها لم تكن مألوفة بين عرب العراق ، أو لأنها صيغت بلهجات قبائل لم يرتح من شعرها ، لأنه من الشعر القبلي الخاص .

وفضل العلماء الشعر الذي يكون فيه البيت تاماً مستغنياً بمعناه عن غيره ، وقالوا لذلك : البيت المقلد . لأنه قائم بذاته غني عن غيره ، يضرب به المثل^٢ . ولهذا رأوا في القصيدة الجيدة ، أن تكون أبياتها مقلدة ، إذا قدمت بيتاً منها على بيت أو أبيات ، أو إذا أخرت بيتاً منها ، أو حذف بيتاً منها أو أكثر ، فإنها لا تتأثر بهذا التغير والتبديل . ولعل لهذا الرأي صلة بقولهم : « ومقلدات الشعر وقلائده البوائق على الدهر »^٣ .

وقد أورد (الجاحظ) رأياً في القصيدة لخلف الأحمر ، فقال : « أما قول خلف الأحمر :

وبعض قريض القوم أولاد علة

فإنه يقول : إذا كان الشعر مستكراً ، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها ماثلاً لبعض ، كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات . وإذا كانت الكلمة ليس موقعها الى جنب أختها مرضياً موافقاً ، كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤونة .

قال : وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغاً واحداً ، وسبك سبكاً واحداً ، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان^٤ .

وقد رأينا أمثلة كثيرة في استحسان شعر شاعر ، أو في المفاضلة بين شعر الشعراء ، والموازنة بينهم ، وقد بنيت على أبيات ، أعجبت الناقد المفاضل ،

١ غرونيوم (١٣٥) .

٢ ابن سلام ، طبقات (١٢٧ وما بعدها) ، (دار المعارف) ، الجرجاني ، الوساطة (٣٣) .

٣ تاج العروس (٤٧٥/٢) ، (قلد) .

٤ البيان والتبيين (٦٦ وما بعدها) .

ففضل شاعره الذي جعله أشعر الشعراء على غيره ، ثم رأيناه نفسه ، لكن في موقف آخر يفضل غيره عليه ، بسبب بيت أو أبيات أعجبه أو أعجبت . وقد تبدلت هذه النظرة في أيام العباسيين ، فنجد لابن سلام مقاييس جديدة في النقد ، وفي وضع الشعراء وتصنيفهم الى طبقات . ونجد لابن قتيبة رأياً في النقد يستند على آراء من تقدم عليه وعلى ملاحظاته الشخصية في النقد والموازنة بين الشعراء ، وقد يخالف غيره على رأيه . خذ ما قاله من نقد مرير في (الاصمعي) حيث يقول :
« ومن هذا الضرب أيضاً قول المرقش :

هل بالديار أن تجيب صمم^١ لو أن حياً ناطقاً كلم^٢
يأبى الشباب الأقورين ولا تغبط أخاك^٣ أن يقال حكم

والعجب عندي من الأصمعي ، إذ أدخله في متخيره ، وهو شعر ليس بصحيح الوزن ، ولا حسن الروي ، ولا متخير اللفظ ، ولا لطيف المعنى ، ولا أعلم فيه شيئاً يستحسن إلا قوله :

النشر ميسك^٤ والوجوه دنا نير وأطراف الأكف ضم^٥ ،

ويذكر أهل الأخبار أن من الشعراء من كان يستحسن بيت شاعر ، فيسطو عليه . ونجد (ابن قتيبة) يذكر في كتابه (الشعر والشعراء) ما أخذ الشعراء بعضهم من بعض ، فذكر مثلاً أن (طرفة) ، و (النابغة) الجعدي ، والشماخ ، و (أوس بن حجر) ، و (النجاشي) ، وزهير ، والمسيب ، وزيد الخليل أدخلوا من شعر (امرئ القيس) ، فنظموه في شعرهم^٦ . وإذا صح ذلك ، كان معناه أن أولئك الشعراء كانوا قد حفظوا شعر (امرئ القيس) ، وأنهم كانوا يحفظون أشعار غيرهم من الشعراء المتقدمين عليهم أو المعاصرين لهم ، وبذلك سطوا على ذلك الشعر أو على معناه .

غير أننا لو درسنا الأمثلة التي ذكرها (ابن قتيبة) وغيره على أنها من سرقات الشعر ، نرى أن أكثرها لا يمكن أن يعد سرقة ، لأن للسرقه الشعرية علامات

١ الشعر والشعراء (١٨/١ وما بعدها) .

٢ الشعر والشعراء (٦٨/١ وما بعدها) .

ولا نكاد نلمس من هذه العلامات شيئاً في الشعر المتهم بأنه شعر مسروق . وإنما نجده من قبيل توارد الخاطر لا غير ، أسرع نقاد الشعر ، فجعلوه سطواً وسرقة . ونحن لا نعلم من أمر نقد الشعر عند الجاهليين إلا ما جاء في الموارد الإسلامية وهو شيء قليل ، وهو شيء لا ندري أيضاً مكانه من الصحة ، وكل ما لدينا من تقسيم للشعراء الى طبقات ومن تفضيل شاعر على شاعر ، ومن تفضيل شعر على شعر هو مما عمل في الاسلام، صنع وفق قواعد نقد دوتها العلماء . وقد ظهرت بواكير النقد العلمي للشعر الجاهلي عند علماء اللغة والنحو والعروض ، ثم تولاهما علماء راعوا أصول البيان والبلاغة والبديع في نقد الشعر ، ولما كان هذا النقد لا يخص موضوعنا بالذات ، وقد كتب عنه المتخصصون ، فأنا أنترك أمره اليهم ، وقد وضعت فيه مؤلفات حديثة ، وضعها عرب ومستشرقون .

أشعر الناس حياً :

ويروي أهل الأخبار أن أشعر الناس حياً هذيل . وقيل : « أفصح الشعراء لساناً وأعذبهم أهل السروات ، وهن ثلاث . وهي : الجبال المطلة على تهامة مما يلي اليمن ؛ فأولها هذيل ، وهي نلي السهل من تهامة ، ثم بجيلة في السراة الوسطى وقد شركتهم ققيف في ناحية منها ، ثم سراة الأزد ، أزرد شنوءة ، وهم : بنو الحارث بن كعب بن الحارث بن نصر بن الأزد . وقيل : أفصح الناس : عليا نعيم وسفلى قيس ، وقيل : سافلة العالية وعالية السافلة ، يعني : عجز هوازن . وأهل العالية : أهل المدينة ومن حولها ومن يليها ودنا منها ، ولغتهم ليست بتلك عند (أبي زيد)^١ .

وبلاحظ أن هنالك قبائل كثيرة لم يروِ علماء الشعر لها شعراً ، أو أنهم رويوا شعراً قليلاً لها ، بينها قبائل كبيرة معروفة ، كان لها تقليم ونقوذ ، مثل : (الغساسنة) و (تنوخ) و (لحم) و (بهراء) ، و (كلب) ، ولا يعقل أن يكون الله قد حرم هذه القبائل من قول الشعر ، فلم يثبت في أرضها شاعر ، ولم يقم بينها من جارى القبائل الأخرى في قول الشعر ، وهم عرب مثل غيرهم ،

١ العملة (٨٨/١ وما بعدها) .

لهم حس وشعور ، فلا يعقل عدم ظهور شعراء بينهم ، ويظهر أن سبب إهمال رواة الشعر لشعر هذه القبائل هو اعتبارهم هذه القبائل دون القبائل الأخرى في اللغة والفصاحة ، لأنهم كانوا على اتصال بالحضر ، فلم يسألوهم ، ولم يقيموا لشعرهم وزناً ، ولهذا لم يصل منه إلنا شيء ، أو إلا القليل منه ، فظهرت تلك القبائل في جملة القبائل المقلّة في الشعر .

وقد روي لبعض الشعراء شعر كثير ، فيه قصائد طويلة ، وصل لنا في دواوين ، أو في كتب الشعر والأدب ، فوقفنا بذلك على شعرهم . وهناك شعراء اشتهر أمرهم وعرف ذكركم ، إلا أن معظم شعرهم قد ذهب معهم ، فلم يبق منه إلا القليل ، بحيث لا يتناسب هذا الباقي منه مع الشهرة التي أحاطت بهم . وقد عرف هؤلاء بالشعراء المقلين^١ .

ومن المقلين في الشعر : طرفة بن العبد، وعبيد بن الأبرص ، وعلقمة الفحل ، وعدي بن زيد ، وطرفة أفضل الناس واحدة عند العلماء . وهي المعلقة :

لحولة أطلال بريقة شهيد

وله سواها يسير. ومن المقلين المحكمين سلامة بن جندل ، وحصين بن الحُمام المري ، والمتلمس ، والمسيب بن علس، ومنهم عنزة ، والحارث بن حنظلة ، وعمرو بن كلثوم ، وعمرو بن معدي كرب ، والأسعر بن أبي حمران الجعفي ، وسويد بن أبي كاهل ، والأسود بن يعفر^٢ .

الشعر والاسلام:

ورد في الحديث : لأن يمتلىء جوف الرجل قبحاً يريه ، خير من أن يمتلىء شعراً ، وورد أن رسول الله بينا كان بالعرج ، إذ عرض شاعر ينشد . فقال رسول الله : خلوا الشيطان ، أو امسكوا الشيطان لأن يمتلىء جوف الرجل قبحاً ، خير له من أن يمتلىء شعراً^٣ . وفي القرآن : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له

١ المزمع (٤٨٥/٢) ، (المقلون من الشعراء) .

٢ العمد (١٠٢/١) وما بعدها .

٣ صحيح مسلم (٥٠/٧) ، (كتاب الشعر) ، زاد المسلم (٣٥٠/١) وما بعدها ، كتاب خلق الانسان (٢٧٥) وما بعدها ، (لابن أبي ثابت) .

إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ^١ ، و « بل قالوا : أضغاث أحلام ، بل افتراه بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون » ^٢ ، و « يقولون أئتنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون » ^٣ ، و « أم يقولون شاعر نربص به ريب المنون » ^٤ ، و « ما هو بقول شاعر ، قليلاً ما تؤمنون » ^٥ ، و « الشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » ^٦ .

وورد عن (عائشة) قولها ، وقد قيل لها : « هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل بشيء من الشعر ؟ قالت : كان أبغض الحديث إليه . غير أنه كان يتمثل ببيت أخي بني قيس ، فيجعل آخره أوله ، وأوله آخره . فقال له أبو بكر : إنه ليس هكذا ! فقال نبي الله : إني والله ما أنا بشاعر ولا ينبغي لي » ^٧ . وورد في تفسير : « بل قالوا : أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر » . « بل قال بعضهم هو أهاريل رؤيا رآها في النوم . وقال بعضهم : هو فرية واختلاق افتراه واختلقه من قبل نفسه ، وقال بعضهم : بل محمد شاعر . وهذا الذي جاءكم به شعر » ^٨ . وورد في معنى : « ويقولون أئتنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون » ، أن قريشاً قالوا : « أنترك عبادة آلهتنا لشاعر مجنون ... يعنون بذلك نبي الله صلى الله عليه وسلم » ^٩ . وقالوا في معنى « أم يقولون شاعر نربص به ريب المنون » ، « قال ذلك قائلون من الناس : تربصوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، الموت يكفيكموه كما كفاكم شاعر بني فلان وشاعر بني فلان » ، و « قال قائل منهم اجسوه في وثاق ثم تربصوا به المنون حتى

-
- ١ سورة يس ، الرقم ٣٦ ، الآية ٦٩ .
 - ٢ الانبياء ، الرقم ٢١ ، الآية ٥ .
 - ٣ الصافات ، الرقم ٣٧ ، الآية (٣٦) .
 - ٤ الطور ، الرقم ٥٢ ، الآية ٣٠ .
 - ٥ الحاقة ، الرقم ٦٩ ، الآية ٤١ .
 - ٦ الشعراء ، الرقم ٢٦ ، الآية ٢٢٤ وما بعدها .
 - ٧ تفسير الطبري (١٩/٢٣) ، (بولاق) ، صحيح مسلم (٤٨/٧ وما بعدها) .
 - ٨ تفسير الطبري (٣/١٧) .
 - ٩ تفسير الطبري (٢٣/٢٣) .

يهلك كما هلك من قبله الشعراء زهير والناطقة ، إنما هو كأحدهم ^١ . وفسر قوله تعالى : « وما هو بقول شاعر » ، بـ « ما هذا القرآن بقول شاعر » ، لأن محمداً لا يحسن قبل الشعر فتقولوا هو شعر ^٢ ، وقوله : « والشعراء يتبعهم الغاؤون » ، « الغاؤون الرواة » ، وذكر أنهم في كل لغو يخوضون ، وإن الله استثنى منهم شعراء المؤمنين ^٣ .

وقد كره ناس الشعر لما ورد عنه في القرآن الكريم وفي الحديث ، وامتنع بعض الشعراء من قوله كالذي ذكره من ترك ليلد الشعر بعد دخوله في الإسلام ، ومن قوله للخليفة (عمر) أو لعامله على الكوفة ، وقد سأله عما قاله من الشعر في الإسلام : « ما كنت لأقول شعراً بعد إذ علمني الله سورة البقرة وآل عمران » ^٤ . وأهمل بعض الصحابة رواية الشعر ، لما فيها من تذكير بأمر الجاهلية وبأيامها ، وأقبل آخرون على القرآن يحفظونه بدلاً من الشعر الجاهلي ، ورأى آخرون أن في حفظه وفي انشاده إثارة لنعرة الجاهلية بعد أن حرمها الله ، كراهية وقوع الفتنة ، وحدث القتال كالذي كان يقع في الجاهلية ، لا سيما ما يتعلق منه بالمدح وبالهجاء وبالأيام ، ولهذا قال (عمر) لحسان بن ثابت يوم مرّ به وهو ينشد الشعر بمسجد رسول الله : أرغاء كرغاء البكر ؟ فقال حسان : دعني عنك يا عمر فوالله إنك لتعلم لقد كنت أنشد في هذا المسجد من هو خير منك فما يغير عليّ ذلك ، فقال عمر : صدقت ^٥ .

فهذا الشعر المفرق المسبب للفتن أو الثالب للأعراض ، هو الشعر الذي كرهه الناس روايته أو نظمه ، ولهذا كان (عمر) يحاسب المهجائين ، فلما هجا (الخطيئة) (الزبرقان بن بدر) ، وشكاه (الزبرقان) عليه ، حكّم (عمر) (حسان بن ثابت) فيه ، فحكّم عليه أنه « لم يهجه » ، ولكن سلح عليه ، فهو أشد إيلاماً من الهجاء ، فحبسه (عمر) ، وقال : « يا خبيث لأشغلك عن أعراض المسلمين » ^٦ ،

١ تفسير الطبري (٢٧ / ٢٩) .

٢ تفسير الطبري (٢٩ / ٤٢) .

٣ تفسير الطبري (١٩ / ٧٩ وما بعدها) ، الصاحبى (٢٧٣ وما بعدها) .

٤ الشعر والشعراء (١ / ١٩٥ وما بعدها) ، (الثقافة) .

٥ العمدة (١ / ٢٨) .

٦ الشعر والشعراء (١ / ٢٤٤) ، (الخطيئة) ، (قال : ذرق عليه) ، ابن سلام

طبقات (٢٥) .

ولما هجا (النجاشي) (بني العجلان) ، فشكوه الى (عمر) ، حكم (عمر) (حسان بن ثابت) ، و (الحطيئة) في أمر هذا الهجاء ، فلما حكما بأنه مهاجم ، قال له (عمر) : « إن عدت قطعت لسانك »^١ . وروي أن رجلاً مرّ بباب رجل ، وقد كان فتمثل :

هل ما علمت وما استودعت مكتوم

فاستعدي رب البيت عليه (عمر) ، فأمر به (عمر) فحد^٢ .

وذكر أن النبي قال : « من قال في الاسلام هجاء مقدعاً فلسانه هدر »^٣ . وأنه لما بلغه هجاء الأعشى (علقمة بن علاثة العامري) ، نهى أصحابه أن يرووا هجاءه^٤ . وروي أن المنع عن رواية الشعر ، كان خاصاً بالشعر الذي هجي به النبي^٥ .

ولما هجا (ضابيء بن الحارث) وكان رجلاً بذياً كثير الشر ، وكان بالمدينة صاحب صيد وصاحب خيل ، قوماً من (بني نهل) استعدوا عليه (عثمان) فحبسه^٦ . فكان حبه لهجائه لا لشعره .

ومع ذلك ، فقد نهجى الشعراء في أيام الأمويين وتنازعوا فيما بينهم ، وتطاول بعضهم على بعض ، وجرأت السياسة هذا الهجاء وأمدته بوقود يزيد في حدته حدة ، لعصبية وسياسة ، وتجراً البعض في هجاء الحكومة وفي هجاء المعارضين ، رحرض (يزيد بن معاوية) الشاعر (الأخطل) على هجاء الأنصار ، وفي محيط مثل هذا المحيط ، انقسم الى أحزاب وفرق ، متخاصمة شديدة عنيفة في الخصومة ، لا بد وأن يجد الشعر فيه أرضاً طيبة ، ومنبتاً خصباً مساعداً . فكانت للشعراء حرية في النيل بعضهم من بعض ، واستفاد خلفاء بني أمية من ذلك ، بتحريض شعرائهم على عض خصومهم ، مما لا مجال للبحث عنه في هذا المكان .

١ الشعر والشعراء (٢٤٨/١) ، (النجاشي) .

٢ ابن سلام ، طبقات (٣٦) .

٣ العمدة (١٧٠/١) .

٤ الفائق (٦٦٤/١) .

٥ الفائق (٣٨٩/٢) .

٦ ابن سلام ، طبقات (٤٠) .

وكان (عمر) قد نهى الشعراء عن ذكر النساء في أشعارهم ، لما في ذلك من الفضيحة ، وكان الشعراء يكتنون عمن النساء بالشجر وبالنخلة ، لثلاث شهر المرأة ، وخوفاً من أهلها وقرابتها^١ .

أما الشعر الآخر ، الذي لم يكن ينال الناس ، ولا يتذكر الأصنام والأوثان وأمور الجاهلية التي حرمها الإسلام ، فلم يتعرض له الإسلام بسوء ، بل كان الرسول نفسه يسمع الشعر، ويطلب من الصحابة انشاده له ، وقد ورد أن الرسول سمع (عمرو بن كلثوم) ، وهو بعكاظ ينشد معلقته الشهيرة^٢ ، وسمع شعر (أمية بن أبي الصلت) كما تحدثت عن ذلك في موضع آخر ، واستمع الى شعر (قيس بن الخطيم) ، وإلى شعر شعراء آخرين ، وكان يستملحه ويستعذبه ، ولا سيما شعر الحكمة والإرشاد . « جاء النابغة الجعدي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هل معك من الشعر ما عفا الله عنه ؟ قال : نعم . قال : أنشدني منه ، فأنشده :

ولما لقوم ما نعوذ خيلنا . إذا ما التقينا أن نجد وتنفرا ،

فلما أنشده قوله :

ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليمٌ إذا ما أورد الأمر أصلدرا
ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادٍ تحمي صفوه أن يكلدرا

قال رسول الله : « لا فض الله فاك »^٣ .

ومن سياء اهتمام الاسلام بأمر الشعر ، أن الشعر الجاهلي انما دون وثبت في أيامه . وأن الصحابة كانوا يحفظونه ويروونه ، وأن دواوينه ، انما ظهرت في أيام الأمويين . فلم يحرم الاسلام الشعر ، ولم يظهر كرهه له ، وانما كره الشعر الوثني الذي مجد الوثنية ، فطرح ولم يرو ، ولعل هذا هو السبب الذي جعلنا لا نقرأ في كتب الأدب والأخبار شعراً فيه إشادة بصنم ، أو بأمر من أمور

١ الخزائن (١٩٣/٢ وما بعدها) .

٢ الاغانى (١٧١/٩ وما بعدها) ، (ساسي) ، (٥٤/١١) .

٣ رسائل الجاحظ (٣٦٣/١ وما بعدها) ، (كتاب فصل ما بين العداوة والحسد) .

الجاهلية المناهضة للإسلام . وقد روي عن النبي قوله : « إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكمة ، أو قال : حكماً »^١ ، وأنه أمر حسان بن ثابت ، وعبدالله بن رواحه ، وكعب بن مالك بهجاء قريش . وأنه قال لحسان : اهجوا قريشاً ، فإنه أشد عليها من رشق النبل^٢ .

وقد اعتذر العلماء عن سبب نقى الشعر عن الرسول ، بأن الشاعر ، لا يكاد يكون إلا مادحاً ضارِعاً ، أو هاجياً ذا قذع ، وهذه أوصاف لا تصلح للنبي ، ثم إن فيه إيقاعاً ، والإيقاع ضرب من الملاهي ، ومن هنا لم يصلح الشعر للرسول^٣ . وقد بحث (القرطبي) في موضوع نقى الشعر عن الرسول ، فرجع ذلك الى أربع مسائل : الأولى أنه كان لا يقول الشعر ولا يزنه ، وكان إذا حاول إنشاد بيت قديم مثلاً كسر وزنه ، وإنما كان يحرز المعاني فقط ، وذلك ردأ لقول من قال من الكفار انه شاعر ، وإن القرآن شعر . وقد كان ربما أنشد البيت المستقيم في النادر^٤ .

الثانية : أصابته الوزن أحياناً لا يوجب انه يعلم الشعر، وكذلك ما يأتي أحياناً من نثر كلامه ما يدخل في وزن ، كقوله يوم حين وغيره :

هل أنتِ إلا لأصبعٌ دميت وفي سبيل الله ما لقيتِ

وقوله :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

فقد يأتي مثل ذلك في آيات القرآن ، وفي كل كلام ، وليس ذلك شعر ولا في معناه ، كقوله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ، وقوله : « نصر من الله وفتح قريب » ، وقوله : « وجفان كالجواب وقدور راسات » الى غير ذلك من الآيات^٥ .

١ . الصاحبى (٢٧٤) .

٢ . السيوطي ، شرح شواهد (٨٥٢/٢) .

٣ . المزهر (٤٦٩/٢) وما بعدها .

٤ . تفسير القرطبي (٥١/١٥) وما بعدها .

٥ . تفسير القرطبي (٥٢/١٥) وما بعدها .

الثالثة : إن ما روي من عدم قوله الشعر ، لا يعني عيب الشعر ، وإنما لنفي الظنة عنه من أنه كان يقول الشعر .

الرابعة : ان قوله تعالى : « وما ينبغي له » ، يعني نفي الشعر عنه ، لئلا يظن أنه قوي على القرآن بما في طبعه من القوة على الشعر^١

فالرسول لم يكره الشعر لكونه شعراً ، ولم يعبه أو نهى عن قوله ، وإنما كان النهي خاصاً به . قال « الخليل بن أحمد : كان الشعر أحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من كثير من الكلام ، ولكن لا يتأتى له^٢ .

١ المصدر نفسه (٥٤/١٥ وما بعدها) .
٢ كذلك (٥٢/١٥) .

الفصل الثاني والخمسون بعد المئة

تدوين الشعر الجاهلي

ليس في الشعر الجاهلي بيت واحد يستطيع أن يثبت انه كان مدوناً في الجاهلية وان رواة الشعر وحفظته وجدوده مكتوباً بأبجدية جاهلية ، فقلوه عنها . ولم يتجاسر على ما أعلم أحد من رواة الشعر أو حافظ من حفاظه على الادعاء بأنه نقل ما عنده من شعر جاهلي من ديوان جاهلي ، أو من قراطيس جاهلية ، أو من مادة مكتوبة أخرى تعود أيامها الى الجاهلية . فكل ما وصل الينا من هذه البضاعة ، انما هو من عهد الكتابة والتدوين ، وعهد التدوين لم يبدأ إلا في الاسلام ، وأول تدوين للشعر ، انما كان في عهد الأمين .

وعدم وصول شعر جاهلي الينا مدون في أيام الجاهلية ، أو منقول عن مكتوبات جاهلية ، ثم عدم ادعاء أحد من قدماء الرواة انه قد نقل من دواوين أو قراطيس جاهلية ، يحملنا على القول بعدم تدوين الجاهليين لشعرهم وبعدم اهتمامهم بتسجيله . فلم وقع ذلك ؟ ولم أحجم الجاهليون عن تدوين شعرهم ، وهو تراثهم الخالد وسجلهم وديوانهم الذي به حفظت الأنساب وعرفت المآثر ، ومنه تعلمت اللغة ، وهو حجة فيما أشكل من غريب كتاب الله ، وغريب حديث رسول الله ، وآثار صحابته والتابعين ؟ وقال علماء الشعر : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصبح منه ، فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلو بالجهاد وغزو فارس والروم ولهت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الاسلام وجاءت الفتوح ، واطمأن العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يثلوا الى ديوان مدون ، ولا كتاب

مكتوب ، وألقوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عنهم كثير ^١ . « قال أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير » ^٢ .

ومعنى هذا ان الشعر الجاهلي لم يكن مدوناً ، وإنما كان محفوظاً في الصدور ، وقد ورد رواية باللسان ، فكانوا يتلونه حفظاً لا عن صحيفة أو كتاب ، يؤيد ذلك ما ورد في الأخبار من ان (بني أمية) ، وقد كانوا شغوفين جداً بالشعر القديم ، ربما اختلف الرجلان منهم في بيت شعر ، فيرسلان راكباً الى (قتادة) يسأله ، عن خبر ، أو نسب ، أو شعر ، وكان قتادة أجمع الناس . ولقد قدم عليه رجل من عند بعض أولاد الخلفاء من بني مروان ، فقال لقتادة : من قتل عمراً وعامراً التغلبيين يوم قِصَّة ؟ فقال : قتلها (جحدر بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة) . قال فشخص بها ثم عاد اليه . فقال : أجل قتلها جحدر ، ولكن جيمياً ؟ فقال : اعتراه قطعن هذا بالسنان ، وهذا بالزج فعادى بينهما ^٣ . وعلى ما في هذا الخبر من أثر الصنعة والتكلف ، فإن فيه دلالة على شغف الأمويين بسماع أخبار الأيام الماضية ، وبعدم وجود مدونات في ذلك الوقت ، تضم الشعر والأخبار والنسب ، لذلك ، كانوا يرسلون الى خاصتهم ومن يرون فيه العلم بهذه الأمور للاستفسار منهم عما يريدون الوقوف عليه .

ويؤيد ذلك أيضاً ما ورد من أن الرسول كان اذا أراد سماع شعر شاعر ، سأل من كان في حضرته من يحفظ من شعر فلان ؟ فينشده عليه من قد يكون حافظاً له ، ثم ما يروى من ان الصحابة كانوا يحفظون الشعر ، ومن انهم كانوا اذا أرادوا الوقوف على شعر شاعر لم يحفظوا شعره ، سألوا غيرهم ممن يحفظه عنه . ولم نسمع في الأخبار ، ان أحداً من الصحابة ، كان يملك ديواناً ، أو كتاباً فيه شعر ، أو خبر ، أو نسب ، وانهم كانوا يرجعون الى المدونات ، في مثل هذه الحالات .

ولكن ما ذهبنا اليه من عدم وجود تدوين للشعر الجاهلي ولأخبار الجاهلية ،

١ الزهر (٤٧٣/٢ وما بعدها) ، (ذهاب الشعر وسقوطه) .

٢ الزهر (٤٧٤/٢) ، (ذهاب الشعر وسقوطه) .

٣ العسكري ، التصحيف والتحريف (٤) ، مصادر الشعر الجاهلي (١٩٨) .

تنفيه روايات تزعم ان الجاهليين كانوا يدوتون أشعارهم ، فقد روي ان (النعمان ابن المنذر) أمر « فتُسخت له أشعار العرب في الطنوج وهي الكراريس ، ثم دفنها في قصره الأبيض ، فلما كان المختار بن عبيد الثقفي ، قيل له : إن تحت القصر كنزاً ، فاحتفزه ، فأخرج تلك الأشعار ، فنّم أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة ^١ . وروايات تذكر انه « قد كان عند آل النعمان بن المنذر ديوان فيه أشعار الفحول ، وما مدح به هو وأهل بيته ، فصار ذلك الى بني مروان أو ما صار منه ^٢ . وروايات تقول ان العرب كانت شديدة العناية بشعرها ، مبالغة في المحافظة على الجيد منه ، فأمرت بكتابتها بماء الذهب على القباطي وبتعليقها على الكعبة ، إعجاباً بها وإشادة بذكرها . وقد عرفت تلك القصائد بالمذهبات وبالمعلقات وبالسموط ^٣ . وروايات تذكر ان الملك كان اذا استجذبت قصيدة يقول : « علقوا لنا هذه لتكون في خزانته ^٤ .

وتنفيه أيضاً روايات أخرى تفيد أن بعض الشعراء الجاهليين كانوا يقرأون ويكتبون ، كالذي جاء عن (عدي بن زيد) العبدي ، وعن (المرقش الأكبر) من أنه كان قد تعلم الكتابة من رجل من أهل الحيرة ، فصار يكتب أشعاره ، وكالذي يظهر من بيت لابن مقبل يفيد أن عرب أواسط جزيرة العرب كانوا يدوتون أشعار الشعراء ^٥ .. وقد ذكر أن (سعد بن مالك) والد (المرقش) ، أرسله وأخاه الى رجل من أهل الحيرة فعلمها الكتابة ^٦ . وروي أنه كان يكتب بالحيرية ^٧ ، فلا يعقل إذن أن يدوت أمثال هؤلاء الشعراء الكتاب القراء شعرهم ، أو بعض شعرهم المستجاد على الأقل !

وتنفيه الرواية القاطلة إن (لقيط بن يعمر) الإبادي ، كتب قصيدة وأرسلها

- ١ الزهر (٢٤٩/١) ، (النوع الخامس عشر - معرفة المغاريد) ، ابن جني ، الخصائص (٣٩٢/١) وما بعدها ، تاج العروس (٧٠/٢) ، (الطنوج) .
- ٢ الزهر (٤٧٤/٢) ، (ذهاب الشعر وسقوطه) ، تاج العروس (٧٠/٢) ، الجمحي طبقات (١٠) .
- ٣ الزهر (٤٨٠/٢) ، (مشاهير الشعراء) .
- ٤ الزهر (٤٨٠/٢) ، (مشاهير الشعراء) ، العمدة ، لابن رشيقي (٩٦/١) .
- ٥ جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (١٣/١) ، مجلة المجمع العلمي العراقي (المجلد الرابع ، الجزء الثاني) ، (١٩٥٦ م) ، (ص ٥٢٢) .
- ٦ الاغانى (١٣٠/٦) ، المفضليات (٤٥٩ وما بعدها) .
- ٧ الشعر والشعراء (١٣٩/١) .

الى قومه (إباد) يحترهم فيها من مجيء جيش كسرى اليهم ، للإيقاع بهم ،
وذلك في قصيدته التي استهلها بقوله :

سلام في الصحيفة من لقيط الى مَنْ بالجزيرة من إباد^١

وتنفيه روايات أخرى تشير الى أن العرب في صدر الإسلام ، كانوا يدوتون
الشعر ويوزعونه بين الناس ليتشر بينهم ، فلما هجا (النجاشي) الأنصار ، اجتمع
سادتهم وتذاكروا أمره ، ثم ذهب قوم الى (حسان) ، فنظم شعراً في هجائه ،
كتبه غلمان الكتاب^٢ ، وما كانت الغاية من تدوين الغلمان له ، إلا اذاعته ونشره
بين الناس . وروي أن (عبدالله بن الزبيري) ، و (ضرار بن الخطاب)
الفهري ، قدما المدينة فتلاحيا مع (حسان) ، في أمر الشعر ، وقالوا شعراً مما
كانا قالا في الأنصار ، وكان عمر قد نهى عن رواية شعر المهجاء حذر الفتنة ،
فغضب (حسان) منها ، وذهب الى (عمر) ، فأخبره بما وقع ، فأرسل
وراءهما ، وطلب من حسان أن ينشدهما مما قاله لهما ، فأنشدهما ، فلما انتهى من
إنشاده كتب ذلك ، وحفظ مع شعر الأنصار ، وكانوا يكتبونه حذر بلاه^٣ .
وروي أن (طلحة) ، أنشد قصيدة ، فما زال شائفاً ناقته حتى كتبت له^٤ .

غير اننا اذا ما تتبعنا تأريخ ورود هذا الذي ذكرته عن وجود التدوين في
الحيرة وارتفعنا به حتى نصل به الى أصله ، نجد انه جاء كله نقلاً ، وقد أخذه
المتأخرون عن المتقدمين ، والمتقدمون عن طبقة أقدم ، حتى نصل الى مرجع واحد
هو آخر سلسلة السند ، الذي ينتهي بـ (حماد الراوية) و (ابن الكلبي) .
فحماد هو صاحب الزعم المتقدم ، القائل ان النعمان بن المنذر ، أمر فنسخت له
أشعار العرب في الطنوج^٥ ، وابن الكلبي هو صاحب الخبر القائل ان العرب علقت
القصائد السبع على الكعبة ، وان العرب اختارتها من بين القصائد الجاهلية الكثيرة
فوضعتها على أركان الكعبة ، إعجاباً بها وإشادة بذكرها !

١ الشعر والشعراء (١٢٩/١) ، الاغانى (٢٣/٢٠) .

٢ مصادر الشعر الجاهلي (١٢٥) .

٣ الاغانى (١٤٠/٤) وما بعدها .

٤ الزمخشري ، الفائق (٦٧٧/١) .

٥ المزهر (٢٤٩/١) ، (النوع الخامس عشر) .

وهناك رواية أخرى مشابهة لرواية حماد عن تعليق المعلقات ، يرجع سندها الى (ابن الكلبي) ، هذا نصها : « قال ابن الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ وقيل سنة ٢٠٦ : أول شعر علق في الجاهلية شعر امرئ القيس ، عُلّق على ركن من أركان الكعبة أيام الموسم حتى نظر اليه ، ثم أحدر فعلقت الشعراء ذلك بعده ، وكان ذلك فخراً للعرب في الجاهلية ، وعدوا من علق شعره سبعة نفر ، إلا ان عبد الملك طرح شعر أربعة منهم وأثبت مكانهم أربعة »^١ . « وزاد بعضهم انهم كانوا يسجدون لها كما يسجدون لأصنامهم »^٢ . ولابن الكلبي زعم آخر له علاقة بهذا الموضوع ، فقد ذكر انه كان يقول : « كنت أستخرج أخبار العرب وأنسابهم وأنساب آل نصر بن ربيعة ، ومبالغ أعمار من ولي منهم لآل كسرى ، وتأريخ نسبهم ، من كتبهم بالحيرة »^٣ .

فنحن اذن أمام رجلين يرجع اليهما خبر وجود تدوين للشعر الجاهلي ، كان أحدهما من أمراء الناس بالشعر الجاهلي ، وكان ثانيهما من أشهر رجال الأخبار . ولا نعرف أحداً تقدم عليهما : زعم هذا الزعم ، أو ادعى هله الدعوى ! ثم اننا لا نجد في مؤلف من المؤلفات الاسلامية التي وصلت إلينا ما يفيد ان أحداً قد نقل شيئاً من مدون جاهلي ، أو قرأ فيه ، خلا ما ورد عن (ابن الكلبي) من انه كان يستخرج أنساب آل نصر وتأريخ من حكم منهم ومدد أعمارهم وما الى ذلك من بيع الحيرة^٤ .

ولا يعقل بالطبع تصور انفراد حماد وحده بمعرفة أمر ديوان النعمان بن المنذر ، دون سائر الرواة وعشاق الشعر ، وبينهم من كان لا يقل حرصاً ولا تتبعاً له عن حماد . ولا يعقل أيضاً تصور بلوغ الحرص والأناية بآل مروان درجة جعلتهم يضمنون حتى بالتلويح أو بارادة ذلك الديوان الجاهلي بعضهم بعضاً . ولو كان عند آل مروان ذلك الديوان حقاً ، لافتخروا بوجوده لديهم ، ولعرضوه على الناس ، ولأخذوا منه الشعر القديم ، ولما استعانوا بالرواة من حماد وأمثاله ليرووا لهم الشعر الجاهلي وليجمعوا لهم ذلك الشعر ، وحماد نفسه شاهد على ذلك.

-
- ١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١٨٧/٣ وما بعدها) .
 - ٢ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١٨٦/٣) .
 - ٣ تاريخ الطبري (٣٧/٢) .
 - ٤ تاريخ الطبري (٣٧/٢) .

حيث كانوا يستدعونه من العراق ليسألوه أمر شعر ، خفي عليهم ، أو شعر لا يعرفون عنه شيئاً ، ثم كيف يسكت رواة أهل الكوفة عن هذا الديوان ، فلا يشيرون في أخبارهم ورواياتهم اليه ، ولا يلحقون به سندهم في روايتهم للشعر؟ قال (ابن النديم) : « قال أبو العباس ثعلب : جمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وردّ الديوان الى حماد وجناد »^١ ، فلو كان لدى آل مروان ديوان جاهلي قديم ، فهل يعقل ترك الوليد ذلك الديوان وذهابه الى حماد وجناد يستعين بما عندهما من دواوين شعر ، أو من ديوان شعر ليجمع له ديواناً بأشعار القدماء ، فلما جمع له ديواناً من ديواني حماد وجناد أعادها عليهما ! ولو فرضنا أنه كان قد استعان بهما ، لأنها كانا قد جمعا شعر شعراء لم يكن عنده شعرهم ، فإن الرواة ما كانوا ليسكتوا هذا السكوت المطبق عن ذلك، ولقالوا على الأقل إنه قد كان عنده ديوان شعر جاهلي، لكنه لم يكن تاماً ، يضم كل أشعار الجاهليين ، فاستعان بهما لسدّ هذا النقص . ولو كان ديوان حماد أو ديوان جناد من دواوين أهل الجاهلية ، لما سكّت العلماء عن ذلك ، ولما سكّت حماد نفسه ، أو جناد من التنويه به ، لما لهذا التنويه من أهمية بالنسبة لها ، وإثبات أنها كانا صادقين في رواية الشعر ، وانهما استقيسا الشعر من منابع أصيلة لا يرتقي اليها الشك .

ثم انه لو كان لحامد أو غيره من أهل الكوفة ديوان جاهلي ، أو ان أهل الكوفة كانوا قد وقفوا على ديوان النعمان بن المنذر أو على كتب من كتب أهل الحيرة في الشعر أو في التواريخ والأخبار ، لما سكتوا عن ذلك أبداً، ولأسندوا روايتهم الى تلك المدونات ، رداً بذلك على أهل البصرة الذين اتهمهم بالافتعال وبنحل الشعر على السنة الشعراء الجاهليين ، وبأخذهم من أفواه أعراب لا يطمئن اليهم ، على الأقل .

إن سكوت الرواة وعلماء الشعر عن أمر هذا الديوان ، واقتصار خبر وجوده على روايات حماد ، يحملنا هذا السكوت الغريب ، على الشك في هذا المروي عنه وعلى التريث ولو مؤقتاً في تصديقه ، حتى يقوم دليل جديد مقنع بوصول شيء من مکتوبات أهل الحيرة الى الاسلاميين يمكننا من إبداء رأي علمي واضح في هذا الموضوع .

وقد سكنت كل الأخبار التي تحدثت عن (طنوج) النعمان بن المنذر ، عن الجهة التي دخل الديوان في ملكها . كما سكنت عن مصيره النهائي . فأين ذهب يا ترى ذلك الديوان ؟ ولم لم ينقل منه أحد ؟ ولم لم يشر الى وجوده شخص آخر غير حماد ؟

ولم أعر حتى الآن على خبر يفيد علم أحد من المتقدمين على حماد بوجود ديوان شعر جاهلي مدون ، ولا بنقل أحد من الرواة وبضمنهم حماد نفسه من هذا الديوان أو من ديوان آخر يعود تأريخه إلى أيام الجاهلية . مع أن بين عشاق الكتب من كان يقتني الكتب والقراطيس القديمة ، ويتهالك ويستهر في المحافظة عليها وفي العناية بها ، وبينهم من كان يملك ما شاء الله منها . وقد قص (ابن النديم) الوراق المتهاالك في البحث عن الكتب قصصاً عن القراطيس والكتب القديمة وعن استهتار الناس بجمع الخطوط العتيقة ، ولم يشر الى عثوره هو أو غيره على صفحة واحدة مكتوبة قبل الإسلام في الشعر أو في النثر . ولو كان قد سمع بهذه الأوراق ، لما تركها تمرّ سبيلها ، فلا يراها أو يسمع عنها ممن وقف عليها وراها على الأقل^١ . نعم : ذكر أنه « كان في خزانة المأمون كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم في جلد آدم فيه ذكر حق عبد المطلب بن هاشم من أهل مكة على فلان بن فلان الحميري من أهل وزل صنعاً ، عليه ألف درهم فضة كيلاً بالحديدة ، ومتى دعاه بها أجابه شهد الله والمالكان . وكان الخط شبه خط النساء^٢ » . وهو خبر تظهر عليه آثار الصنعة ، والوضع .

وقد يكون خبر الديوان ، وخبر (طنوج) من مفتعلات (حماد) و (ابن الكلبي) ، لإظهار سبب تفوق أهل الكوفة على أهل البصرة بالعلم بالشعر ، كما يظهر ذلك جلياً من نص الخبر ، وهو « ومن ثم أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة^٣ » ، وإظهار سبب تفوق (ابن الكلبي) على غيره من أهل الأخبار في رواية أخبار ملوك الحيرة ، غير أنني لا أستبعد مع ذلك وجود دفاتر وكتب في خزائن ملوك الحيرة وفي قصورها وكنائسها ، قد كان فيها شعر ونثر وأخبار

١ الفهرست (٦٧) ، (المقالة الثانية من كتاب الفهرست) .

٢ الفهرست (ص ١٣ وما بعدها) ، (الكلام على القلم العربي) .

٣ الخصائص (٣٩٢/١) .

ومراسلات وسجلات بالأموال وما شابه ذلك ، لوجود ديوان حكومي عندهم تولاه (عدي بن زيد) ، ووجود علماء ورجال دين عندهم ألّفوا الكتب في أمور الدين وفي العلوم التي كانت سائدة في ذلك الوقت ، لكنها تلت وهلكت بسبب الأحداث التي وقعت في الحيرة أيام الفتح الاسلامي لها ، وارتحال الناس عنها وفي جملتها رجال الدين ، وتهدم كنائسها وبيوتها بسبب نقل حجارتها الى الكوفة لبناء بيوتها بها ، مما سبب تلف تلك المدونات المكتوبة على آدم وقرطيس سهلة التلف ، والتي لا يمكن لها مقاومة مثل هذه الأحداث . ولا يستغرب ذلك ، فقد تلت نسخ القرآن الأولى مثل نسخة (حفصة بنت عمر) ، ونسخة (عثمان) وهلكت رسائل الرسول وكتبه على أهميتها ، وذهبت الصحف القديمة التي دون بها الحديث أو سيرة الرسول ، وغير ذلك في أيام الراشدين وبنو أمية ، فهل يستغرب بعد ذلك ذهاب ما دون في أيام ملوك الحيرة وانطاس أثره !

وقد تعرض (بروكلمن) لموضوع تدوين الشعر أو عدم تدوينه عند الجاهليين ، فقال : « ومن ثم يعد خطأ من مركليوث وطه حسين ان أنكرا استعمال الكتابة في شمال الجزيرة العربية قبل الاسلام بالكلية ، وربنا على ذلك ما ذهب اليه من ان جميع الأشعار المروية لشعراء جاهليين مصنوعة عليهم ، ومنحولة لأسمائهم . ولكن بديها ان الكتابة لم تقض قضاء كلياً على الرواية الشفوية . فقد كان لكل شاعر جاهلي كبير على وجه التقريب راوية يصحبه ، يروي عنه أشعاره ، وينشرها بين الناس ، وربما احتلى آثاره الفنية من بعده ، وزاد عليها من عنده ، وكان هؤلاء الرواة يعتمدون في الغالب على الرواية الشفوية ولا يستخدمون الكتابة إلا نادراً .

وعن الرواة كانت تنتشر الدراية بالشعر في أوساط أوسع وأشمل ، بعد أن يلعب في قبيلة الشاعر نفسه . ولهذا لم يمكن التحرز عن السقط والتحريف ، وإن لاحظنا ان ذاكرة العرب الغضة في الزمن القديم كانت أقدر قدرة لا تحذف الجفظ والاستيعاب من ذاكرة العالم الحديث »^١ .

وقد تعرض المستشرق (كرنكو) لموضوع الكتابة والتدوين عند العرب ، وذهب الى أن نظم الشعر مرتبط بالكتابة ، بدليل أن بعض القوافي تظهر حقيقتها

للعيان أكثر منه للسمع ، بحيث أن الحروف وليست الأصوات ، هي التي تلعب دوراً هاماً في الشعر^١ . غير أن رأيه هذا لم ينل تأييداً من غالبية المستشرقين . وذهب (كولنزيهر) ، الى احتمال تدوين العرب لشعر المهجاء ، لما لهذا النوع من الشعر من أهمية عندهم ، فإن في شعر الشاعرة (ليلي) الأخيلية :

أتاني من الأنباء أن عشيرة بشوران يزجون الطي المذلاً
يروح ويقدر وقد هم بصحيفة ليستجلدوا لي ، ساء ذلك معملاً^٢

وفي شعر ابن مقبل :

بني عامر ، ما تأمرون بشاعر تخير بابات الكتاب هجائياً^٣

غير أن بعضهم يرى صعوبة تصور ذلك ، لعدم وجود أدلة مقنعة تثبت هذا الرأي^٤ .

وقد توقف (بلاشير) أيضاً في قضية تدوين الرواة لشعر الشاعر الذي تخصصوا به ، أو برواية شعر أي شاعر كان . يرى احتمال تدوين بعض الرواة الحضر لبعض عيون الشعر ، غير أنه يعود ، فيرى أن ذلك مجرد احتمال ، وإن من الصعب إثباته بأدلة مقنعة ، ويلذهب الى أن رواية الرواة ، كانت رواية شفوية كذلك^٥ .

ولا استبعد احتمال تدوين الشعراء الجاهليين الذين كانوا يحسنون الكتابة والقراءة لأشعارهم ، كما لا استبعد احتمال تدوين رواة الشعر للشعر ، ولا سيما ما نبهه وشرف منه ، غير أننا لا يمكن أن نقول إن الشاعر كان إذ ذاك يدون كل شعره ، أو أن الرواة ، كانوا يدونون كل ما حفظوه من الشعر ، لأن هذا النوع من التدوين لم يكن مألوفاً عندهم ، كما كان يكلف ثمناً باهظاً ، لا قبل للشاعر أو للراوية بتحملة ، ثم إن القرطاس كان نادراً عندهم ، والتدوين على

١ بلاشير ، تاريخ الادب العربي (٩٤ وما بعدها) .

٢ المصدر نفسه (ص ٩٨) .

٣ العمدة (١٥٩/٢) وما بعدها) ، الحيوان (١١٢/٧) ، ديوان ابن مقبل (٤١٠) .

٤ بلاشير (٩٨ وما بعدها) .

٥ بلاشير (١٠١) .

الأدم ، غالباً ، ينسوء بشمته الشاعر أو الراوية ، ويأخذ مكاناً ، ولا سيما اذا كان الشاعر من الأعراب ، وأنا لا استبعد احتمال وجود مثل هذه المدونات عند الحضر ، مثل أهل الحيرة ، لانتشار الكتابة بينهم ولشيوع التدوين عندهم ، ولكن الأحداث وعوامل الطبيعة أثلفت تلك المدونات ، فلم تسقط لهذا السبب في أيدي رواة الشعر والأخبار .

ولا تزال الرواية الشفوية مستعملة حتى اليوم ، مع وجود التدوين وكثرة الورق . فلأغلب شعراء العراق اليوم مثلاً رواة يدونون شعر الشاعر ويحفظونه في الوقت نفسه حفظاً ، فإذا حضروا مجلساً ، وجاء ذكر الشعر ، أو شعر شاعر يروون شعره تلوه حفظاً على السامعين . وفي النجف رواة شعر ، دونوا شعر شعرائها المحدثين مثل الحبوبي وغيره في دواوين ، وحفظوه في الوقت نفسه حفظاً في قلوبهم ، ومنهم من حفظ شعره من غير تدوين له ، وقد يزيد ما يحفظونه على ما هو مدون ، بسبب ان الشاعر قد يحضر مناسبة تهزه فيقول فيها شيئاً ، فيحفظه رواته والمعجبون به ، وقد يفوت تسجيله على رواته الذين يلزمون الشاعر ، فلا يقفون على خبره ، ويدفع الإعجاب بالشاعر المعجبين به على التقاط شعره وحفظه في أدمغتهم حتى كأنهم أشرطة تسجيل حساسة ، لا يفوتها من التسجيل أي شيء .

وبسبب عدم لجوء الجاهليين الى تدوين شعرهم في الغالب ، لأسباب عديدة ، منها ندرة الورق ، وغلاته ، واعتمادهم في حفظه على الذاكرة ، هلك أكثره بموت حفاظه ، وأصيب قسم منه بتحريف وتغيير ، وزيد بعض منه ، ونقص منه بعض آخر ، وصنع شعر على المتقدمين لأغراض مختلفة ، ونسب الشعر الى جملة شعراء ، ورويت أبيات بروايات مختلفة ، وما كان ذلك ليحدث ، لو أنهم كانوا قد عمدوا الى تدوينه وتثنيته . « قال أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى اليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير . وما يدل على ذهاب العلم وسقوطه ، قلة ما بقي بأيدي الرواة المصححين لطرفة وعبيد ، والذي صح لها قصائد بقدر عشر ، وإن لم يكن لها غيرهن فليس موضعها حيث وضعا من الشهرة والتقدمة . وإن كان ما يروى من الغناء لها فليسا يستحقان مكانهما على أفواه الرواة . ونرى ان غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير ، غير ان الذي نالها من ذلك أكثر . وكانا أقدم الفحول ، فلعل ذلك لذلك ، فلما قلّ كلامها

١ حمل عليها حمل كثير ١ . وقد ذكر (ابن سلام) ان « عبيد بن الأبرص
قديم عظيم الذكر ، عظيم الشهرة ، وشعره مضطرب لا أعرف له إلا قوله :

أقفر من أهله ملحوب فالقطيات فالذنوب

ولا أدري ما بعد ذلك ٢ .

وذكر أنه قد سقط من شعر شعراء القبائل الشيء الكثير ، وفات على علماء
الشعر منه ما شاء الله ، مما لم يحمله إلينا العلماء والنقلة . وقيل عن الأصمعي :
« كان ثلاثة أخوة من بني سعد لم يأتوا الأمصار ، فذهب رجزهم ، يقال لهم :
منلر ونلير ومنتلر ، ويقال إن قصيدة (رؤبة) التي أولها :

وقائم الأعماق خاوي المخترق

لمتلر ٣ .

وينسب إلى (أبي عمرو بن العلاء) قوله : « لما راجعت العرب في الإسلام
رواية الشعر بعد أن اشتغلت عنه بالجهاد والغزو ، واستقل بعض العشائر شعر
شعرائهم ، وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قومٌ قلت وقائعهم وأشعارهم ،
فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ؟ فقالوا على ألسن شعرائهم . ثم
كانت الرواية بعد فزادوا في الأشعار التي قبلت ، وليس يشكل على أهل العلم
زيادة ذلك ، ولا ما وضعوا ولا ما وضع المولدون ؛ وإنما عضل بهم أن يقول
الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم ، فيشكل ذلك
بعض الأشكال ٤ .

وقال (ابن قتيبة) : « والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرتهم وقبائلهم
في الجاهلية والإسلام ، أكثر من أن يحيط بهم تحيط أو يقف من وراء عددهم
واقف ، ولو انفد عمره في التنقيح عنهم ، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال .

١ ابن سلام ، طبقات (١٠) .

٢ ابن سلام ، طبقات (٣٦) .

٣ الشعر والشعراء (٩) .

٤ المزهر (١٧٤/١) وما بعدها ، ابن سلام ، طبقات (١٤) .

ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ، ولا قصيدة إلا رواها^١ .

وورد عن (أبي عبيدة) قوله : « ان ابن دؤاد بن متمم بن نويرة قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدوي من الجلب والميرة ، فأتيته أنا وابن نوح ، فسألناه عن شعر أبيه متمم ، وقنا له بحاجته ، فلما فقد شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ، ويضعها لنا ، وإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يختدي على كلامه ، فيذكر المواضع التي ذكرها متمم ، والوقائع التي شهدا ، فلما توالى ذلك علينا علمنا أنه يفتله^٢ .

وقد ينسب قوم شعراً لشاعر ، بينما ينسب قوم لشاعر آخر ، وقد يختلف في ذلك أهل البادية عن أهل الحاضرة ، فقد روي مثلاً ان أهل البادية من (بني سعد) يروون البيت :

تعلو الدثاب على من لا كلاب له وتثقي مريض المستنفر الحامي

للزبرقان بن بدر ، بينما يرويه غيرهم للنايفة . وقد ذكر الرواة ، ان من المحتمل أن يكون (الزبرقان) استزاده في شعره كالمثل حين جاء موضعه لا مجتلباً له ، وقد تفعل ذلك العرب ، لا يريدون به السرقة^٣ . وقد حدث مثل ذلك في بيت شعر هو لأبي الصلت بن أبي ربيعة ، هو :

تلك المكارم لا قعبان من لبنٍ شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

بينما ترويه بنو عامر للنايفة الجعدي^٤ .

ونسب :

وبعد غدي ، يالهف نفسي من غدي إذا راح أصحابي ولست برائح

الى (هديسة بن خثرم) ، وعزاه آخسرون الى (أبي الطمحان) من

-
- ١ الشعر والشعراء (٨) .
 - ٢ المزهري (١٧٥ / ١) ، ابن سلام ، طبقات (١٤) .
 - ٣ ابن سلام ، طبقات (١٧) .
 - ٤ ابن سلام ، طبقات (١٧) .

المخضرمين ، ثرب الزبير بن عبد المطلب^١ .
وروي أن البيت :

الحمد لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظالم

وهو بيت ينسب الى (أمية بن أبي الصلت) ، وكان معروفاً عند حفظة الشعر مثل (الحسن بن علي بن أبي طالب) أنه له ، إلا أن الرواة يذكرون أن (النابغة) الجعدي ، قال للحسن : « يا ابن رسول الله ، والله اني لأول الناس قالها ، وإن السروق من مرق أمية شعره »^٢ . وروي أيضاً أن البيت :

من سبأ الحاضرين مأرب إذ يبنون من دون سيله العرما

هو من قصيدة للنابغة الجعدي ، غير أن قسماً من علماء الشعر يرونها لأمية بن أبي الصلت ، وقسماً آخر ، كان متردداً ، فقد ذكر أن راوية مأل (خلف الأحمر) عن القصيدة ، فقال : للنابغة ، وقد يقال لأمية^٣ . ويظهر من هذين المثليين ، أن الرواة كانوا يخلطون بين شعري الشاعرين .

ومن ذلك نسبة الشعر الذي فيه :

دان مُسَفٍّ فريق الأرض هيدبه يكاد يدفعه من قام بالراح
فن بنجوتَه كمن بعقونه والمشتكي كمن يمشي بقرواح

الى عبيد بن الأبرص ، أو أوس بن حجر^٤ .

ونسبة الشعر :

والشعر صعب وطويل سلمه اذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه

الى رؤبة والى الخطيئة^٥ .

-
- ١ السيوطي ، شرح شواهد (٢٧٤/١ وما بعدها) .
 - ٢ ابن سلام ، طبقات (٢٧) .
 - ٣ ابن سلام ، طبقات (٢٧) .
 - ٤ الحيوان (١٣٢/٦) .
 - ٥ تاج العروس (٣٩٠/٨) ، (عجم) .

ويقع من ذلك شيء كثير مذكور في كتب الشعر والأدب ، وهو يدل على ان الشعر لم يكن مدوناً في بادىء أمره ، وانما كان يروى حفظاً ، ولو كان قد أخذ من كتاب لما جاز عقلاً وقوع مثل هذا الخطأ والاشتباه .

ويحدث ان شاعرين يصنعان قصيدتين من بحر واحد وروي واحد ، فيختلط أمرهما على الرواة ، يدخلون أبياتاً من هذه في تلك ، فتختلط نسبة الأبيات^١ :

وقد وضع على لسان (عدي بن زيد) العبادي شعر كثير . وقد علل (ابن سلام) سبب ذلك بقوله : « كان يسكن الحيرة ومراكز الريف ، فلان لسانه ، وسهل منطقته ، فحمل عليه شيء كثير ، وتخليصه شديد ، واضطرب فيه خلف ، وخط في المفضل فأكثر . وله أربع قصائد غرر وروائع مبرزات ، وله بعدهن شعر حسن^٢ . وقد تكون للعصية يد في هذا الوضع . فعدي من أهل الحيرة ، وقد تعصب أهل الكوفة للحيرة ، إذ انتقل أكثر أهل الحيرة الى الكوفة فأقاموا بها ، وتعصبوا لتأريخهم القديم ، فلعل هذه العصية هي التي حملتهم على وضع الشعر على لسانه لرفع شأن نصارى الحيرة في الشعر .

ومع اشتها الحيرة بالكتابة ، واشتهار (عدي) بها خاصة ، إذ كان من كتاب (كسرى) بالعربية ، فإننا لم نعثر على خبر يفيد ان الرواة أدخلوا شعر (عدي) عن ورقة جاهلية ، أو ديوان جاهلي مدون . ولو كان لعدي ديوان مدون ، لما وقع في شعره ما قاله (ابن سلام) .

وقد يسأل سائل : كيف يعقل أن يضع شاعر مثل حماد الراوية شعراً فحماً جزلاً يستعز به ثم ينسبه الى الجاهليين ؟ ولو نسب الى نفسه لكان اليوم فخراً له ولعدت من أكابر الشعراء فأقول : كان طلب آل مروان للشعر الجاهلي شديداً . وهذا ما صير رواية الشعر من الحرف النافعة التي كانت تدر أرباحاً طيبة لأصحابها تزيد على الأرباح التي يحصل عليها الشاعر من شعره . وقد كسب حماد من حرفتنا هذه مالا حسناً . غير أن الإلحاح في طلب هذا الشعر والإغراء الذي أبداه عشاق للرواة ، أفسد الرواة ، وحملهم على وضع الشعر وحمله على القدماء للحصول على الأجر ، ولنيل الحظوة ، ولإظهار العلم وسعة الحفظ . وقد زاد في هذا الوضع

١ الحيوان (١٣٢/٦) ، (حاشية رقم ٣) .

٢ ابن سلام ، طبقات (٣١) .

المنافسة الشديدة التي كانت بين الرواة ، فخلقت هذه الظروف وأمثالها شعراً جديداً منحولاً حسب على ملاك شعر الجاهليين .

ونجد في ثانيا كتب الأدب وفي كتب الشعر أشعاراً كثيرة منحولة وضعت قديماً على ألسنة الجاهليين ، وضعت لأن الناس كانوا يومئذ في شوق عظيم وتعطش الى سماع أشعار من قبلهم ، كانوا يقلون عليها أكثر من إقبالهم على شعر معاصريهم من الشعراء ، ويجزلون له العطاء أكثر من إجزالهم لسماع شعر شاعر معاصر ، إلا ما قد يكون منه في المدح والذم . وكان ربح الراوية القدر المتبحر بالشعر الجاهلي المتجر به العارف بنظم الشعر لا يقلل عن ربح الشاعر العظيم ان لم يزد عليه في أكثر الأحيان . والعادة أن مكافأة الشاعر المعاصر على شعره ، لا تكون إلا في أمور لها صلة بالمجتمع ، مثل المدح والهجاء والهزل والاستخفاف والتضحيك ، أما في غير ذلك فتقديره الى العلماء وأصحاب الذوق ، وهم لا يثيرون على هذه الأمور إلا قليلاً ، ولهذا يكون تقدير الشاعر الذي لا يمدح ولا يهجو ولا يتقرب لأحد بالأمور المذكورة ، بعد موته في الغالب ، فلا ينال مثل هذا الشاعر من العيش ما يكفيه . ثم إن الراوية مطلوب في كل وقت ، مرغوب فيه ، وسوقه رائجة . فإذا غنت مغنية بيتاً قديماً ، أراد السامعون معرفة صاحبه ، وأكثر الناس خبرة بأصحاب الشعر القديم هم الرواة ، وهم قلة ، لما يجب أن يكون في الراوية من خصائص تجعله من نواذر الرجال . فالذكاء الخارق ، والعلم بالشعر وبأساليبه ، والتمكن من العربية بمفرداتها وبلهجاتها وبالقبائل وبأيام العرب وبأمثال ذلك ، هي من اللوازم التي لا تنهيا لكل إنسان ، ولذلك لم يكن أمثال هؤلاء الرواة إلا أفراداً نص العلماء على أسمائهم نصاً . وقد نالوا في أيامهم شهرة لم تكن أقل منزلة من شهرة أفذاذ الشعراء ، وقد تدرب عليهم فحول الشعراء ، ونخرج من مدرستهم أعظم شعراء العرب في الإسلام . فرواية الشعر إذن وحفظه وصنعه ، لم تكن حرفة سهلة يسيرة ، ولا منزلة صغيرة بالنسبة الى منزلة الشاعر ، إنها لا تقل في السمو عن أرفع منزلة وصل اليها الشعراء في ذلك العهد . ولم يقل دخل الراوية من عطايا الملوك وهداياهم بأقل من دخل الشاعر ، إلا ان لم يزد عليه في بعض الأحيان ، ولهذا فليس بغريب إذا ما رأينا الشاعر ينسب شعره للجاهليين ، ويرويه على أنه من شعر شاعر جاهلي قديم ، ولا ينسبه لنفسه .

وآفة ما تقدم عدم التدوين والتقييد ، ولو كان الشعر مدوناً في صحف وكتب ،

ومقيداً على حجر ، لما ضاع هذا الضياع ، ولما اعتوره هذا التغير ، الخطير ، فحورّ فيه وغير ، وقد أدرك أثر هذا المرض على الشعر ، شاعر اسلامي ، هو ذو الرمة ، فقال : « لعيسى بن عمر : اكتب شعري ، فالكتاب أحب إلي من الحفظ لأن الأعرابي ينسى الكلمة وقد سهر في طلبها ليلته ، فيضع في موضعها كلمة في وزنها ، ثم يشدها الناس ، والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاماً بكلام »^١ . وقد كان للشعراء الذين ظهوروا في أيام الأمويين رواة ، يروون شعرهم ، كما كانوا يهذبونه وينقحونه ويدخلون بعض التغير عليه ، بعلم الشاعر وبموافقته ، لعله فانت عليه ، فقد كان لجرير رواته ، وكان للفرزدق رواته ، وكانوا يقوّمون ما انحرف من شعرهم وما قد يكون فيه من سناد وعيوب ، خفي أمرها على الشاعر ، فأدرك أمرها الرواة^٢ .

رواة الشعر :

وقد ذكر علماء الشعر ان الشعراء في الجاهلية كانوا يتخذون لهم رواة يحفظونهم شعرهم حفظاً ويروونه رواية. ومعنى هذا ان أولئك الرواة كانوا يلزمون الشعراء ، فإذا نظم الشاعر شعراً تلاه على رايته ليحفظه فلا ينساه ، وإذا غير الشاعر في شعره أو عدّل فيه أشار على رايته بما غير وعدّل حتى يعدّل هو ويغير في الذي حفظه . فراوية الشاعر ، هو نسخة ثانية حافظة لشعر الشاعر ، أما النسخة الأولى ، فهو الشاعر نفسه . وقد يتهاى للشاعر جملة رواة . ويقال لمن يحفظ الكثير من الشعر ، وللكثير الرواية هو « راية للشعر »^٣ .

وأولئك الرواة ، هم دواوين شعر ناطقة ، تحفظ المتون ، أي أصول الشعر ، كما تحفظ المناسبات ، أي الظروف التي قيل فيها ذلك الشعر . وهم أنفسهم ذوو حس مرهف ، وفهم عال للشعر . إذ لا يقبل على رواية الشعر وحفظه إلا أصحاب الحس المرهف المهوّبون ، الذين لهم طبع شاعري ، وميل غريزي فيهم اليه . ولهذا تنتهي الرواية بالرواية في الأغلب الى قول الشعر ونظمه ، فيكون في

١ الحيوان (٤١/١) ، (عبد السلام محمد هارون) .

٢ الاغانى (٢٥٦/٤) وما بعدها .

٣ تاج العروس (١٥٨/١٠) ، (روى) .

عدد فحول الشعراء . والرواية هي تمرين وإعداد لقول الشعر ، ولفهم دروبه ، تساعد الموهوب في إظهار مواهبه . « فقد وجدنا الشاعر من المطبوعين المتقدمين يفضل أصحابه برواية الشعر ، ومعرفة الأخبار ، والتلمذة لمن فوقه من الشعراء ، فيقولون : فلان شاعر راوية » يريدون انه اذا كان راوية عرف المقاصد، وسهل عليه مأخذ الكلام ، ولم يضق به المذهب ، واذا كان مطبوعاً لا علم له ولا راوية ضل واهتدى من حيث لا يعلم ، وربما طلب المعنى فلم يصل اليه وهو مائل بين يديه ، لضعف آله : كالمقعد يجد في نفسه القوة على النهوض فلا تعينه الآلة . وقد سئل رثبة بن العجاج عن الفحل من الشعراء ، فقال : هو الراوية ، يريد أنه إذا روى استفحل .

قال يونس بن حبيب: وإنما ذلك لأنه يجمع الى جيد شعره معرفة جيد غيره ، فلا يحمل نفسه إلا على بصيرة ... وقال الأصمعي : لا يصير الشاعر في قريض الشعر فحلاً حتى يروي أشعار العرب ^١ .

والشعراء جميعاً ، هم في أول أمرهم بالشعر رواة شعر ، ولا يكون الشاعر منهم شاعراً حتى يحفظ الشعر ويرويه، لأن الحفظ يساعده على قول الشعر ونظمه ، ويكون تمريناً له ، ولا زال أمر الشعراء عندنا على هذا النحو ، فأكثر شعرائنا هذا اليوم هم رواة في الأصل ، حفظوا من الشعر ما ساعدهم على النظم، يضاف اليه موهبة الشاعر وسليقته فيه . وقد يقال إن الشاعر الراوية أمكن في الشعر وأقدر عليه من الشاعر ، الذي لا يروي من الشعر إلا يسيراً ، أو لا يحفظ منه شيئاً ، لأن الشاعر الراوية يتعلم من فنون الأقدمين ومن خبرتهم وتجاربهم في النظم ما يخفى على من ليس له علم سابق به .

الشعراء الرواة :

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء عدد من شعراء الجاهلية ، بدأوا حياتهم في قول الشعر بروايته وحفظه ، ثم صاروا من أكابر الشعراء . منهم زهير بن أبي سلمى ، فقد بدأ حياته في الشعر راوية لشعر (أوس بن حجر) ، وكان أوس راوية

١ العملة (١٩٧/١ وما بعدها) ، (باب في آداب الشاعر) .

الطفيل الغنوي وتلميذه^١ . ومنهم (كعب بن زهير بن أبي سلمى) ، فقد كان راوية لوالده ، ثم (الحطيئة) ، فقد بدأ الشعر برواية شعر (زهير) وآل زهير^٢ . وكان (زهير) راوية (طفيل) الغنوي أيضاً ، وكان (امرؤ القيس) راوية (أبي دؤاد) الإباضي^٣ ، وكان الأعشى راوية لشعر (المسيب بن علس) ، والمسيب خال الأعشى^٤ .

ولا نكاد نجد شاعراً لم يحفظ شعر غيره من الشعراء المتقدمين عليه ، أو من المعاصرين له . والشاعر العربي حتى اليوم ، لا يكون شاعراً فحلاً في الشعر ، إلا إذا حفظ من شعر غيره من الشعراء للفحول ، فحفظ الشعر يلزمه ويقويه على نظم الشعر ، وكذلك كان أمر الشعراء الجاهليين . ويؤيد هذا الرأي ما نجده في الأخبار من حفظ الشعراء شعر غيرهم ومن مناقشتهم للشعراء في شعرهم ، مما يدل بالطبع على حفظهم له .

قال «رؤبة : الفحولة هم الرواة» ، «يريد الذين يروون شعر غيرهم ، فيكثر تصرفهم في الشعر ويقوون على القول»^٥ ، فروايتهم للشعر أكسبتهم علماً بأبوابه وبفنونيه ، ومكتبتهم منه حتى صار يخرج على ألسنتهم سهلاً قوياً جيداً ، لما صار لهم من علم به ومران في حفظه .

ويكاد يكون لكل شاعر جاهلي راوية يصحبه ، «يروى عنه أشعاره ، وينشرها بين الناس . وربما احتذى آثاره الفنية من بعده ، وزاد عليها من عنده . وكان هؤلاء الرواة يعتمدون في الغالب على الرواية الشفوية ولا يستخدمون الكتابة إلا نادراً»^٦ . ومن رواة (الأعشى) ، الراوية (عبدة) ، وكان يصحب الأعشى ويروي شعره ، وكان عالماً بالإبل ، وكان يسأله عن شعره وعن معانيه وألفاظه ، وعنه أخذ الرواة مثل (سماك) أخبار الأعشى وشعره^٧ . و (سماك) ، هو (سماك بن حرب) ، وهو من مشاهير الرواة .

-
- ١ الشعر والشعراء (٧٦/١) ، بروكلمن (٩٥/١) .
 - ٢ الاغانى (١٦٥/٢) ، (دار الكتب) ، (٩١/٨) .
 - ٣ العملة (١٩٨/١) ، بروكلمن (٩٥/١) .
 - ٤ الموشح (٥١) ، الشعر والشعراء (١٠٧/١) .
 - ٥ البيان والتبيين (٩/٢) ، العملة (١١٤/١) ، (باب في الشعراء والشعر) .
 - ٦ بروكلمن (٦٤/١) وما بعدها .
 - ٧ الشعر والشعراء (١٨١/١) .

وكان من رواة (الأعشى) (يحيى بن متى) ، وهو من أهل الحيرة ، وكان نصرانياً عبادياً معمر^١ ، وله رواية آخر اسمه (يونس بن متى)^٢ ، وهو كما يظهر من اسمه من النصارى كذلك ، وقد يكون هذا الشخص ، هو الأول أي (يحيى) ، حرف التناخ اسمه ، فصار (يونس)^٣ .

ولما كان بعض الرواة من الكتبة ، فلا استبعد أن يكون من بينهم من دون شعر شاعره الى جانب حفظه لشعره ، وذلك ليرجع اليه فيما إذا خاتته حافظته ، أو شك في شيء منه ، أو لإجراء تنقيح في شعر شاعره ، وتوجد روايات تشير الى وقوع مثل هذا التدوين ، غير أننا لا نستطيع أن نسلم بتأكيدها أو أن نقوم بنفيها في الوقت الحاضر ، فثل هذه الأحكام تحتاج الى أدلة قوية مقنعة ، ولا يمكن لنا التسليم بصحة تلك الروايات أو بردها في الوقت الحاضر^٤ .

وقد تخصص بعض الناس برواية شعر جملة شعراء ، وتخصص آخرون برواية شعر قبيلة ، أو شعر جملة قبائل .

ويظهر ان أسلوب الحفظ والتسجيل في الذاكرة ، كان الأسلوب الشائع بين الجاهليين في ذلك الزمن في الإبقاء على النثر أو الشعر ، وقد كان هذا الأسلوب متبعاً عند غير العرب في تلك الأيام ، إذ كانوا يقيمون وزناً كبيراً للرواية ، حتى أنهم كانوا يفضلون الحفظ على القراءة عن كتاب أو صحيفة ، ولا سيما بالنسبة للكتب المقدسة والكتب الدينية الأخرى وفي الأمور النابهة مثل الشعر . يرون ان في القراءة ثواباً وأجرأ عظيماً ، وتعظيماً لشأن المقروء . ولا استبعد أن تكون هذه النظرة هي التي جعلت أصحاب الرسول يحفظون القرآن ويتلونه تلاوة من غير قراءة عن كتاب ولا نظر في صحيفة ، يتلونه أمام الرسول وبين أنفسهم وبين الناس ، ولا يقرأونه عن كتاب ، مع ان منهم من كان يقرأ ويكتب وقد جمع القرآن . وكان تقدير العالم آنذاك بحفظه ، لا بما يكتبه من صحف وبما يؤلفه من مؤلفات ، ولهذا اشتهر كثير من العلماء بسعة علمهم ، مع أنهم لم يتركوا أثراً مكتوباً ، لأن العلم بالحفظ لا بالتدوين ، وقد يتقص من شأن العالم اذا تلا علمه عن كتاب ،

١ الاغانى (١١٢/٩) .

٢ المغرب ، للجواليقي (٤٦) .

٣ الشعر والشعراء (٢١٦ حاشية ١) ، مصادر الشعر الجاهلي (٢٤٠ وما بعدها) .

٤ بلاشير (١٠١) .

حتى ان كان ذلك الكتاب كتابه ، لأن القراءة عن كتاب لا تدل على وجود علم عند القارئ ، وشأنه اذن دون شأن الحافظ ، الخازن للعلم في دماغه الممل للعلم إملاءً ، وكانوا اذا انتقصوا علماً قالوا : انه يتلو عن صحيفة ، أو يقرأ عن صحيفة أو كتاب ، ومن هنا قيل للذي يقرأ في صحيفة ويخطئ في قراءتها المصحفون ، قال (ابن سلام) : « فلو كان الشعر مثل ما وضع لابن اسحاق ومثل ما يروي الصحفيون ما كانت اليه حاجة ، ولا كان فيه دليل على علم »^١ . وقد حل « ابن سلام على رواية الشعر الذين تداولوه من كتاب الى كتاب ، لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء ، وانما العلم علم العلماء بالشعر وأهل الرواية الصحيحة ، أما أهل الصحف ، الذين يروون من صحيفة ، فلا يروى عنهم ، إذ لا يروى عن صحفي »^٢ . وانتقصوا من علم (القاسم بن محمد بن بشار) الأنباري ، ومن روى عنه مثل (أحمد بن عبيد) الملقب (أبا عبيدة) ، لأن هؤلاء (رواة أصحاب أسفار) ، فهم لا يذكرون مع العلماء حفظة العلم^٣ . والرواة أصحاب السفر ، والصحفيون ، انما كانوا يعتمدون على الصحف ، ويحلون منها ، ولذلك فقد يقع اللحن أو الخطأ منهم سهواً ، أما الرواة الحفاظ ، فلا يقع ذلك منهم إلا في النادر ، ثم انهم ينشدون الشعر من مخارجه وحروفه ، وهذا هو تفسير قول (ابن سلام) وأضرابه : « ليس لأحد أن يقبل من صحيفة ، ولا يروى من صحفي »^٤ . وفي جملة ما آخذ به (ابن سلام) الصحفيين ، أي الذين يكتبون ويدونون ما يقال لهم ، دون نقد ، انهم لم يكونوا أصحاب رأي وعلم ، بل كانوا يقبلون كل ما يقال لهم ، كما هو واضح من قوله في (ابن اسحاق) : « فلو كان الشعر مثل ما وضع لابن اسحاق ، ومثل ما رواه الصحفيون ، ما كانت اليه حاجة ، ولا فيه دليل على علم »^٥ .

ولهؤلاء الرواة فضل كبير ولا شك على الشعر الجاهلي وعلينا أيضاً ، فبحفظهم لذلك التراث القيم وبإذاعته ونشره بين أبناء زمانهم ، أمكن وصوله الى من جاء بعدهم من عشاق الشعر والمتميعين به ، حتى وصل الى أيدي المدونين فدوتوه .

١ المزهر (١٧٤/١) .

٢ ابن سلام ، طبقات (٥ وما بعدها) .

٣ المزهر (٤١٣/٢) .

٤ طبقات (٥ وما بعدها) .

٥ طبقات (١١) .

وصل بأفواه متعددة ، ومن الصدور ، ولهذا تعددت الروايات واختلفت القراءات وهذا شيء لا بد أن يحدث ، وهو أمر غير مستغرب ، فحفظ الصدور لا يكون كحفظ السطور . ولو كان الشعر قد دون في ذلك العهد ، وسجل في صحف ودواوين لما اختلف الرواة الإسلاميون في تدوينه يوم شرعوا في جمع ذلك الشعر وتدوينه في دواوين . فنجد الرواة قد يختلفون في عدد أبيات القصيدة وفي ترتيبها وفي نص البيت ، فترى روايات متعددة تمس بيتاً واحداً ، لا تمس شكل الكلمة ، بحيث نرجع ذلك الى خطأ النسخ ، وإنما تمس اللفظة نفسها ، أو جملة ألفاظ شطر البيت أو البيت نفسه ، وكتب الشعر والأدب مليئة بأمثال هذه الأمور التي هي من حاصل الاعتماد على الرواية الشفوية في حفظ الشعر .

ومنى أنشد شاعر شعره ، وأذاع روايته بين الناس ، حفظ وطار بين طلاب الشعر وعشاقه ، لا سيما إذا كان مما يتصل بالناس . هذا (عميرة بن جميل) (عميرة بن جميل) ، يهجو قومه ، ثم يندم على ما قال ، فيقول :

ندمت على شتم العشيرة بعدما مضت واستببت للرواة مذاهبه
فأصبحت لا أسطيع دفعاً لما مضى كما لا يرد الدرّ في الضرع حاله^١

وفي هذا المعنى جاء شعر : (المسيب بن علس) :

فلا هدين مع الرياح قصيدة مني مغلغلة الى القعقاع
ترد المياه فما تزال غريبة في القوم بين تمثل وسماع^٢

فالشعر تحمله الرياح وتنشره بين الناس ، فيحفظ ، ويرويه الرواة .

وكما كان لهم فضل على الشعر في تدوينه وتخليده ، فكذلك كان لهم يد في إفساده وفي غشه وتزييفه . فقد كان منهم من يخلط في الشعر ، ومنهم من كان يضيف عليه أو ينقص منه ، أو يصنع الشعر فينحله الشعراء ، ولما قيل للحطيفة ، وهو من المخضرمين أوصى قال : « ويل للشعر من الرواة سوء »^٣ . وفي قول

١ الشعر والشعراء (٥٤٤/١) ، المفضلية رقم (٦٣) .

٢ المفضليات (٦٢) ، العصر الجاهلي (١٤٢) .

٣ الشعر والشعراء (٢٣٩/١) ، (دار الثقافة ، بيروت) .

هذا الشاعر الخبير بدروب الشعر وفنونه ، شهادة كافية على ما كان لرواة الشعر من أثر في رواية الشعر ، غير أن منهم من كان يحسن الشعر ويقومه ، ذكر عن (ابن مقبل) قوله : « لاني لأرسل البيوت عوجاً ، فتأتي الرواة بها قد أقامتها »^١ .

وقد تحدث (الجاحظ) عن رواية الشعر في أيامه ، وعن ألوان الشعر التي كان الرواة يبحثون عنها ، فقال : « وقد أدركتُ رواية المسجدين والمربدين ومن لم يرو أشعار المجانين ولصوص الأعراب ، ونسب الأعراب ، والأرجاز الأعرابية القصار ، وأشعار اليهود ، والأشعار المنصفة ، فلأنهم كانوا لا يعدونه من الرواة . ثم استبدوا ذلك كله ووقفوا على قصار الحديث والقصائد ، والفقر والتف من كل شيء . ولقد شهدتهم وما هم على شيء أحرص منهم على نسب العباس بن الأحنف ، فما هو إلا أن أورد عليهم خلف الأحمر نسب الأعراب ، فصار زهوم في شعر العباس بقدر رغبتهم في نسب الأعراب . ثم رأيتهم منذ سنيات ، وما يروي عندهم نسب الأعراب إلا حدث السن قد ابتدأ في طلب الشعر ، أو فتاني متغزل .

وقد جلست الى أبي عبيدة ، والأصمعي ، ويحيى بن المنجم ، وأبي مالك عمرو بن كركرة مع من جالست من رواة البغداديين ، فما رأيت أحداً منهم قصد الى شعر في النسب فأنشده ، وكان خلف يجمع ذلك كله . ولم أرَ غاية النحويين إلا كل شعر فيه لأعراب . ولم أرَ غاية الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج الى الاستخراج . ولم أرَ غاية رواة الأخبار إلى كل شعر فيه الشاهد والمثل »^٢ .

التصحيح والتحريف :

أصل التصحيح أن يأخذ الرجل اللفظ من قراءته في صحيفة ، ولم يكن سمعه من الرجال فيغيره عن الصواب . وقد وقع فيه جماعة من الأجلاء من أئمة اللغة

١ مجالس ثعلب (٤٨١) .

٢ البيان والتبيين ٢٣/٢ وما بعدها .

وأئمة الحديث، حتى قال الإمام أحمد بن حنبل : من يعرَى من الخطأ والتصحيح ؟
قال ابن دريد : صحّف الخليل بن أحمد ، فقال : يوم بُغاث بالغين المعجمة ،
وانما هو بالمهملة . أورده (ابن الجوزي)^١ . وهو شيء لا يمكن وقوعه من
الخليل ، صاحب العلم الغزير بأحوال العرب ، وقد يكون من فعل النساخ ، إن
صح كلام (ابن الجوزي) ، فنسب التصحيح الى الخليل .

وسببه الخط ، إما لتشابه الحروف ، وإما بسبب عدم وجود الحركات ، فن
النوع الأول حديث ينسب الى الرسول هو : « تسمعون جرش طير الجنة » ،
وكان (الأصمعي) قد ممعه في مجلس (شُعبة) ، فقال : (جرس) بالسين
لا بالشين^٢ . ومن هذا القبيل : ما وقع من تصحيح في شعر للحطيئة هو قوله :

وغررتني وزعت انك لابن بالصيف تامر

أي كثير اللبن والتمر ، وقد قرأ :

وغررتني وزعت انك لاني بالصيف تامر

أي لا تتواني عن ضيفك بتعجيل القرى اليه .

ومثل ذلك تصحيح الأصمعي في بيت لأوس :

يا عام لو صادفت أرماحنا لكان مثوى خلك الأخرما

فقرأه (الأحرما) ، وانما هو (الأخرما) بالراء ، وهو طرف أسفل الكتف^٣ .

ومن ذلك ما وقع بين الأصمعي والمفضل عند (عيسى بن جعفر) ، فقد ناظر
(المفضل) الأصمعي ، بأن أنشد بيت أوس بن حجر :

وذات هدم عارٍ نواشرها تُصميت بالماء تولباً جلدعا

فقال له الأصمعي : « هذا تصحيف ، لا يوصف التولب بالإجلداع ، وانما

١ الزهر (٣٥٣/٢) وما بعدها .

٢ الزهر (٣٥٤/٢) .

٣ الزهر (٣٥٥/٢) .

هو جدعا . الجدع : السوء الغداء . قال : فجعل المفضل يشغب ، فقلت له :
تكلم كلام النمل وأصب . لو تفخت في شبور يهودي ما تفعلك شيئاً^١ .

وقرىء يوماً على الأصمعي في شعر أبي ذؤيب :

بأسفل ذات الدبر أفرد جحشها

فقال أعرابي حضر المجلس للقارىء ضل ضلالك أيها القارىء ! انما هي ذات
الدبر ، وهي ثنية^٢ عندنا ، فأخذ الأصمعي بذلك فيما بعد^٣ .

وقد أوردت الكتب أمثلة كثيرة على التصحيف ، وقع فيه كثير من العلماء ،
من ذلك ما وقع لأبي عمرو والأصمعي ، ولأبي حاتم ولكبار علماء اللغة ، ويعود
سببه الى التنقيط ، فالحروف مثل الجيم ، والحاء ، والخاء ، تميز بينها النقط ،
فإذا أخطأ الكاتب في وضع النقطة في محلها ، وقع التصحيف . وقد يقع ، ولا
يقع خلل في القراءة ، وإنما يتبدل المعنى ، دون أن يشعر القارىء بوجود ارتباك
في معنى المقروء ، وقد يقع في الأعلام من أسماء الرجال والنساء والأمكنة ، وقد
وقع التصحيف في الكتب بسبب السهو في النسخ ، أو جهل النساخ ، ومن ذلك
ما وقع في كتاب (العين) وفي كتب لغوية وأدبية ثمينة ، أمكن رد بعضه الى
الصحيح ، ولم يمكن تصحيح بعض آخر ، لصعوبة تعيين المراد^٤ .

وقد روى (العسكري) قصة طريفة على التصحيف والتحريف ، ذكر أنه
« كان حيّان بن بشر قد ولي قضاء بغداد ، وكان من جملة أصحاب الحديث
فروى يوماً أن عرفة قطع أنفه يوم الكلاب ، فقال له مستمليه : أيها القاضي ،
انما هو يوم الكلاب ، فأمر بحبسه ، فدخل اليه الناس ، فقالوا : ما دهاك ؟
قال : قطع أنف عرفة في الجاهلية ، وابتليت به أنا في الإسلام »^٥ .

١ مجالس العلماء ، للزجاجي (١٤) ، العسكري ، التصحيف والتحريف (١٠٤) ،
الفاضل والمفضول (٨٢) ، المصون (١٩٢) ، الحيوان (٢٥ / ٤) ، انباء الرواة
(٣٠٢ / ٣) .

٢ الشعر والشعراء (٢٧ / ١) .

٣ المزهر (٣٥٣ / ٢) وما بعدها ، النوع الثالث والاربعون معرفة التصحيف
والتحريف () .

٤ المزهر (٣٥٣ / ٢) .

الخلط بين الأشعار :

وبسبب اعتماد الرواة على الذاكرة في حفظ الشعر وروايته ، وأتقنة المتقدمين منهم من تدوينه ، ومن الرجوع الى الصحف ، وقع الخلط في شعر الشعراء ، فصاروا ينسبون شعراً لشاعر ، بينما هو من شعر شاعر آخر . ونجد في كتب الأدب أشعاراً تنسب الى شاعر ، ثم تنسب الى شاعر آخر ، أو الى شاعر ثالث في موضع آخر من الكتاب ، أو في كتب أخرى . وما كان ذلك ليقع ، لو كان القدماء قد أخذوا العلم بطريق الكتابة والتدوين . من ذلك مثلاً الشعر :

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيئا بماء فعادا بعد أبوالا

فإنه ينسب لأبي الصلت بن أبي ربيعة الثقفي ، وينسبه بنو عامر للناطقة الجعدي^١ . ومن ذلك قصيدة :

تطاول ليك بالأعمد ونام الخلي ولم ترقد

فقد نسبت لامرئ القيس الكندي ، ونسبت لعمر بن معدى كرب ، ونسبت لامرئ القيس بن عانس^٢ .

وللسبب المتقدم وقع خلط في عدد أبيات الشعر ، فقد زاد بعض الرواة في قصيدة شاعر ، بينما نقص رواة آخرون عدد أبياتها ، وقد يدخلون في القصيدة ما ليس منها بسبب اختلاط الشعر على الرواية ، وما كان هذا ليقع لو ورد الشعر مدوناً منذ أيام الجاهلية .

ومن ذلك أيضاً ورود الشعر بروايات وبأوجه مختلفة ، فقد ورد الشعر المنسوب لأفتون التغلبي :

لو أنني كنت من عادٍ ومن ارم غذى سخل ولقمانا وذا جندن

بروايات مختلفة ، كما قرئت بعض ألفاظه بأوجه مختلفة من أوجه الإهراب^٣ ،

١ المزمهر (١٨٣/١) .

٢ السيوطي ، شرح شواهد (٧٣١/٢) .

٣ مجالس العلماء (٤٢ وما بعدها) .

وما كان ليقع هذا الاختلاف لو كان الشعر قد ورد مدوناً أولاً ومشكولاً ثانياً، فلما جاء رواية بالألسن وقع فيه هذا الاختلاف . ونجد العلماء يغلط بعضهم بعضاً في اعراب ألفاظ الشعر ، تتغير معانيه بقراءتها بأوجه متعددة من الأعراب ، كما غلط بعضهم بعضاً وهاجم بعضهم بعضاً هجوماً عنيفاً خرج على حدود الأدب واللباقة بسبب الاعجام ، كما في (تعتر) و (تعتر) في بيت الحارث بن الحلزة :

عتاً باطلاً وظلماً كما تعتر عن حجرة الريض الظباء^١

ونجد علماء الشعر والأدب يروون شعر شاعر بصور متباينة في كتبهم ، فتجد (الجاحظ) مثلاً ، يروي أبيات شعر لشاعر ، ثم يرويها بشكل يختلف عما ذكره لذلك الشاعر في موضع آخر من كتابه ، وذلك إما سهواً ، وإما باختلاف رواية ، وأما من وقوع الزلل في اللسان . وتجد وقوع مثل ذلك في كتب اللغة ، فقد ذكر (ابن منظور) بيتاً للأعشى هو :

فأصبح لم يمنعه كبد وحيلة بساباط حتى مات وهو محرزق

ثم ذكره بعد سطرين على هذه الصورة :

هنالك ما أغتته عزة ملكه بساباط، حتى مات وهو محرزق^٢

وقد يقع ذلك عن تعمد ، بسبب الاستشهاد في تأييد مسألة نحوية أو لغوية . فقد روي أن سائلاً سأل (أبا عمرو بن العلاء) عن جمع يد من الإنسان ، فقال : أيد ، وأنكر أن تكون الأيادي إلا في النعم ، وقال (الأنخس) : أما إنها في علمه ، غير أنها لم تحضره ، ثم أنشد بيت (عدي بن زيد العبادي) :

أنكرت ما تبينت في أيادي نا واشناقها الى الأعناق

بينما يروى :

ساءها ما بنا تبين في الأيدي واشناقها الى الأعناق^٣

١ مجالس العلماء (١٨) .

٢ اللسان (٣١١/٧) ، (سبط) .

٣ مجالس العلماء ، للزجاجي (١٦٢) .

وقد كان العلماء يتحذلقون في مثل الأمور، ويبحثون جهدهم عن الشاذ والغريب في الشعر ، بل أخذ بعضهم يقتل الغريب ، ويضع الشاذ ، فينسبه الى المتقدمين لإفحام الخصم ، ولإظهار مقدرته العلمية وبراعته في علوم اللغة أمام الخلفاء والحكام وهذا مما أساء بالطبع الى العلم ، إذ أدى الى دخول المصنوع في الشعر ، والى الإساءة الى سمعة العلماء . وتجدر في (مجالس العلماء) للزجاجي ، مجالس فيها من استهتار كبار العلماء بعضهم ببعض ، ومن وضع أحدهم على الآخر ، ما يبعث على الشفقة على حال قسم منهم ، لما بلغوه في كلامهم وفي تصرفاتهم من الإسفاف بسبب محاولتهم التقدم عند الحكام ، بالمتزلة والجاه ونيل المال .

على كل حال ، فقد خفت فرضى الرواية ، بعد إقبال الناس على التدوين ، وتنجير الشعر وأمالى المجالس وأقوال العلماء وآرائهم على القرايطيس ، خاصة بعد شيوع الاستنساخ وظهور جملة نسخ للكتاب الواحد ، فضبطت بهذه الطريقة الرواية بعض الضبط ، وصرنا أمام روايات متعددة للقطعة أو للقصيدة ، وقد سدد هذه الطريقة وزاد في تثبيتها إقبال العلماء على نشر المخطوطات نشرأ حديثاً بواسطة الطباعة فوفرت هذه الطريقة نسخ المخطوطات القديمة للباحثين ، ويسرت لهم بذلك الوقوف عليها مما مكنهم من إبداء نظرهم على ما جاء فيها من روايات عن الشعر العربي القديم .

الفصل الثالث والخمسون بعد المئة

أشهر رواة الشعر

اشتهر (مخزومة بن نوفل بن أهيب « وهيب » بن عبد مناف بن زهرة) ، وهو من قريش برواية الشعر وبالعلم به . « وكان من مسلمة الفتح ، وله سرّ وعلم ، كان يؤخذ عنه النسب » ، ولا سيما نسب قريش إذ كان من العالمين به . وكان عالماً بأنصاب الحرم . فبعثه (عمر) هو وسعيد بن يربوع ، وأزهر ابن عبد عوف ، وحويطب بن عبد العزى ، فجددوها . وكانت أمه (رقيقة بنت أبي صيفي بن هاشم بن عبد مناف) شاعرة ، وكانت لدة عبد المطلب^١ .

وعرف (أبو الجهم بن حذيفة بن غانم بن عامر بن عبد الله بن عوف) بالعلم بالشعر . وهو من (بني عدي) . وكان من معمر بن قريش ومن مشيختهم ، وكان أحد الأربعة الذين كانت قريش تأخذ عنهم النسب . وكان شديد المعارضة ، وكان (عمر) يمنعه حتى كف من لسانه . وكان من مسلمة الفتح ، وكان مقدماً في قريش معظماً ، وكانت فيه وفي بنيه شدة وعرامة^٢ .

وكان (أبو بكر) من الحفاظين للشعر الراوين له ، روى (المطلب بن المطلب

١ كتاب نسب قريش (٢٦٢) ، (وهيب) ، زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١٠١/١) .
٢ الاصابة (٣/٣٧٠) ، (رقم ٧٨٤٢) .
٣ الاصابة (٤/٣٥٠ وما بعدها) ، (رقم ٢٠٧) ، الاستيعاب (٤/٣١ وما بعدها) ، حاشية على الاصابة) ، نسب قريش (٣٦٩ ، ٣٧٢) .

ابن أبي وداعة) عن جده قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبا بكر رضي الله تعالى عنه عند باب بني شيبه ، فمرّ رجلٌ وهو يقول :

يا أيها الرجل المحول رحله ألا نزلت بآل عبد الدار
هبلتك أمك لو نزلت برحلهم منعوك من عدم ومن إقتار

قال : فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الى أبي بكر فقال : أهكذا قال الشاعر ؟ قال : لا والذي بعثك بالحق ، لكنه قال :

يا أيها الرجل المحول رحله ألا نزلت بآل عند مناف
هبلتك أمك لو نزلت برحلهم منعوك من عدم ومن إتراف
الخاطين فقبرهم بغنيهم حتى يعود ققبرهم كالكافي
ويكثلون جفانهم بسديفهم حتى تغيب الشمس في الرجاف
منهم عليّ والنبي محمد القائلان لهم للأضياف

قال : فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « هكذا سمعت الرواة ينشئونه »^١ .

وكان أبو بكر أحد العلماء بالنسب في قريش ، وكانوا إذا أرادوا الوقوف على نسب رجل جاءوا اليه يسألونه ، فهو عالم من علماء قريش فيه .

وكان (عمر بن الخطاب) ممن يحفظون الشعر ، ووصف بأنه كان عالماً به^٢ وبأنه « كان أعلم الناس بالشعر » ، وكان يحكم على الشعر وينتقده ، ولا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر^٣ ، وأنه كان بصيراً به ، حتى قيل عنه إنه كان « لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر »^٤ ، ورووا له أمثلة كثيرة من حفظه للشعر ومن حسن نقده له ، ونفاذه في باطن معانيه ومحاسنه^٥ .

١ الامالي ، للقالبي (٢٤١/١) وما بعدها .

٢ العمدة (٧٦/١) ، البيان والتبيين (٢٣٩/١) .

٣ البيان والتبيين (٢٤١/١) وما بعدها .

٤ البيان والتبيين (٢٤١/١) .

٥ العقد الفريد (١٢٠/٦) وما بعدها .

وذكر أنه كان يقدم (امرأ القيس) على بقية الشعراء^١ .

وكانت (عائشة) من رواة الشعر ، وكانت تحفظ منه ما شاء الله ، قيل أنها قالت : « إني لأروي ألف بيت للبيد ، وانه أقل مما أروي لغيره^٢ . » وانهما كانت تحفظ من شعر كعب بن مالك شعراً كثيراً ، منها القصيدة فيها أربعون بيتاً ودون ذلك^٣ ، وكانت تتمثل بالأشعار ، وربما دخل عليها رسول الله ، فوجدما تشد الشعر^٤ . قال (أبو الزناد) : « ما رأيت أحداً أروي لشعر من عروة . فقيل له : ما أرواك ، فقال : روايتي في رواية عائشة ، ما كان يتزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعراً » ، وورد عن (عروة) قوله : « ما رأيت أحداً أعلم بفقته ، ولا بطب ، ولا بشعر من عائشة »^٥ . وروي انها كانت تمح على تعلم الشعر وروايته ، بقولها : « رووا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم »^٦ .

وكان (ابن عباس) من رواة الشعر وحفاظه . سأله (عمر) أن ينشده شعراً ، فطلب منه أن يذكر له اسم شاعر لينشد له شعره ، فقال زهير بن أبي سلمى ، فأنشده « الى ان برق الصبح »^٧ ، وزعم انه كان يفسر كلمات كتاب الله بالشعر ، قال (أبو عبيد) « انه كان يسأل عن القرآن فينشد فيه الشعر »^٨ . وزعم أهل الأخبار ان (نافع بن الأزرق) ، و (نجيعة بن عويمر) ، سألوا (ابن عباس) عن كلمات واردة في القرآن ، فجلس لها بفناء الكعبة ، وأخذ (نافع) يسأله الكلمة تلو الكلمة وهو يشرحها لهم بشعر ، وقد دون نصها العلماء ، أخرج بعضها (ابن الأنباري) في كتاب الوقف ، والطبراني في معجمه الكبير ، ويرجع سند (ابن الأنباري) الى (ميمون بن مهران) ، ويرجع سند (الطبراني) الى (الضحاک بن مزاحم) ، وقد أخذ (السيوطي) بالروايتين وسجلها في كتابه

١ الاغاني (١٩٩/٨) ، الفائق (٣٤٣/١) .

٢ العقد (١٢٥/٦) .

٣ الزهر (٣٠٩/٢) .

٤ الاغاني (١١٧/٣) .

٥ الاصابة (٣٤٩/٤) ، (رقم ٧٠٤) ، الاستيعاب (٣٤٨/٤) وما بعدها ، (حاشية على الاصابة) .

٦ العقد (١٢٥/٦) .

٧ الاغاني (٢٩١/١٠) .

٨ السيوطي ، الاتقان (٥٥/٢) .

(الاتقان في علوم القرآن) ، بعد أن حذف منها نحو بضعة عشر سؤالاً^١ .
وقد وردت هذه الرواية بصور مختلفة^٢ ، وذكر ان (أبا عبيدة معمر بن المثنى) ،
أخذ أسئلة نافع وأدخلها في كتابه في غريب القرآن^٣ .

وكان (معاوية) ممن يروي ويحفظ الشعر الجاهلي ، وقد روي عن حفظه
للشعر الجاهلي واستشهاده به في كلامه شيئاً كثيراً ، فزعموا أنه كان يمتحن الناس
بأشعار الجاهليين ، فإذا وجد في أحدهم علماً بها زاد في عطائه وقدمه عنده
وأجزل عليه^٤ . ورووا أنه كتب الى (زياد) بشأن ابنه ، وقد وجده عالماً
بكل ما سأله عنه إلا الشعر : « ما منعك أن ترويه الشعر ؟ فوالله إن كان العاق
ليرويه فيبر » ، وإن كان البخيل ليرويه فيسخر ، وإن كان الجبان ليريه فيقاتل^٥ .
ويروى أنه سأل (عبدالله بن زياد) ، ما منعك من روايته ؟ قال : كرهت
أن أجمع كلام الله وكلام الشيطان في صدري ، فقال : أعزب ! والله لقد
وضعت رجلي في الركاب يوم صفين مراراً ، ما يمنعني من الإنهزام إلا آيات
ابن الإطابة ، وتمثل بها ، ثم كتب الى أبيه أن روى الشعر ، فرواه فما كان
يسقط عليه منه شيء^٦ .

وقد تعرض (الجاحظ) لموضوع الشعر الجاهلي فقال : « والعرب أوعى لما
تسمع ، وأحفظ لما تأثر ، ولها الأشعار التي تقيد عليها مآثرها ، وتخلد لها محاسنها .
وجرت من ذلك في إسلامها على مثل عاداتها في جاهليتها ، فبنت بذلك لبني مروان
شرفاً كثيراً ومجدداً كبيراً وتدبيراً لا يحصى^٧ . وقد كان لبني سفيان وآل مروان

-
- ١ الاتقان (٥٥/٢ - ٨٨) .
 - ٢ الكامل ، للمبرد (٥٦٦ وما بعدها) .
 - ٣ السيوطي ، الوسائل في مسامرة الاوائل (١١٢) ، القرآن الكريم وأثره في الدراسات
النحوية (٢٤٣) .
 - ٤ الاغانى (١٠٠/٣ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٣٣٣/١) ، (٩/٣) ، الفائق
(٢٤٠/١) .
 - ٥ العقد الفريد (١٢٥/٦) .
 - ٦ الزهر (٣١٠/٢ وما بعدها) ، وتروى هذه القصة بروايات أخرى ، راجع المصون ،
للمسكري (١٣٦) ، مجالس ثعلب (٨٢) الامالي ، للقالى (١٥٨/١) ، عيون الاخبار
(١٢٦/١) ، ديوان المعاني (١١٤/١) ، المرزباني ، معجم (٩) ، (فراج) ، عيون
الاخبار (١٥٩/٣) . مجالس ثعلب (٦٧) ، (عبد السلام محمد هارون) .
 - ٧ البيان والتبيين (٨٨) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر) ، (بيروت ١٩٥٩ م ، المطبعة
الكتابيكية) .

عناية فائقة بالشعر الجاهلي ، فقد كان (معاوية) كما ذكرت يحفظ كثيراً من ذلك الشعر ، وينتقب عنه ، وكان يسأل من يجد فيه العلم عنه ، حتى زعم أنه ذكر قصيدتي (عمرو بن كلثوم) و (الحارث بن حلزة) اليشكري ، وقال كانتا : « من مفاخر العرب ، وكانتا معلقتين بالكعبة دهرأ^١ . وزعم أن (بني أمية) « كانوا ربما اختلفوا وهم بالشأم في بيت من الشعر ، أو خبر ، أو يوم من أيام العرب ، فيبدون فيه بريدأ الى العراق^٢ ، وأنهم كانوا يسألون الوافدين عليهم من سادات القبائل ومن الأعراب ومن العارفين بالشعر عن الشعراء ، وقد يذكرون بيتاً أو شعراً حفظوه لا يدرون اسم قائله ، فكانوا يستفسرون عن قائله ، وعن المناسبة التي قال الشاعر شعره فيها ، ويحسنون جائزة من له علم بالشعر والأخبار^٣ .

وكان (عبد الملك بن مروان) من العلماء بالشعر الجاهلي ، قيل انه كان يمتحن الناس به ، ومنهم (الحجاج بن أبي يوسف) الثقفى^٤ . وقد ذكر انه استدعى اليه (عامر بن شراحيل) الشعبي ، ليحدثه عن الحلال والحرام ، وعن أشعار العرب وأخبارهم ، وكان (الشعبي) من ذلك الطراز البارع في الشعر وفي أخبار العرب وفي الحلال والحرام^٥ ، وروي ان (عبد الملك) ، كان قد طرح أربعة من شعراء المعلقات ، وأثبت مكانهم أربعة^٦ ، واذا صح هذا الخبر دل على وجود القصائد المسماة بالمعلقات في ذلك العهد .

وروي انه كان يقول : اذا أردتم الشعر الجيد ، فعليكم بالزرق من بني قيس ابن ثعلبة ، وبأصحاب النخيل من يثرب ، وأصحاب الشعف من هذيل^٧ . ويظهر انه كان من المعجبين بشعر (الأعشى) ، روي انه قال لمؤدب ولده : « أدبهم برواية شعر الأعشى فإن لكلامه عذوبة^٨ . والأعشى هو من بني قيس بن ثعلبة ،

١ الخزانة (١٦٢/٣) .

٢ العسكري ، التصحيف والتحريف (٤) .

٣ الاغانى (٩١/٣) .

٤ ياقوت ، ارشاد (٢٧/١) ، الامالي ، للقالبي (١٥/١) .

٥ ارشاد (٩٦/١) وما بعدها ، الخزانة (٢٥٠/٢) ، (هارون) .

٦ الخزانة (٦١/١) ، الخزانة (٢٨٨/١) ، (بولاق) .

٧ العقد (١٢٤/٦) .

٨ جمهرة أشعار العرب (٦٣) .

وقد كان يقيم وزناً كبيراً للشعر في تأديب الأولاد . فكانت وصيته لمؤدب ولده :
 « روهم الشعر ، روهم الشعر ، يمجّدوا وينجّدوا »^١ . وروي انه تمثّل وهو
 بمرضه الذي مات فيه بشعر (ابن قيس) ، وذلك أمام (الشعبي) ، فأنشده
 (الشعبي) شعراً من شعر (ليلى)^٢ .

ونجد في الأخبار أن عبد الملك ، كان إذا شك في شعر ، أو أراد الوقوف
 عليه وعلى ظروفه ، كتب الى العلماء به ، يسألهم عنه ، أو يستدعي من يعرف
 أن له علماً به ، فيسأله عنه ، أو يسأل آل الشعر أو أحد أفراد قبيلته عنه .
 وكان كبير الحفظ له ، حتى كاد لا يدانيه فيه كثير من حفاظ الشعر ، وكان
 يجمع اليه الشعراء في يوم ، حتى يستمتع بإنشاد شعرهم ، وشعر المتقدمين عليهم .
 وكان له ذوق في الشعر ونقد دقيق له ، ذكر أنه قال يوماً للشعراء وقد اجتمعوا
 عنده : « تشبهوننا بالأسد والأسد أبخر ، وبالبهر والبحر أجاج ، وبالجبل مرة
 والجبل أوعر ، أقلتّم كما قال أيمن بن خريم » ، ثم ذكر شعره في بني هاشم^٣ .
 وقال للأخطل ، وقد كان قد قال له : « يا أمير المؤمنين ، قد امتدحتك
 فاستمع مني » ، « إن كنت إنما شبهتني بالصقر والأسد فلا حاجة لي في مدحتك ،
 وإن كنت كما قالت أخت بني الشريد^٤ لأخيها صخر فهاهنا . فقال الأخطل :
 وما قالت يا أمير المؤمنين ؟ قال : هي التي تقول :

وما بلغت كفو امرئ متناولٍ من المجد إلا حيث ما نلت أطول^٥»

ثم قرأ عليه الأبيات . ولما دخل (جرثومة) الشاعر على عبد الملك بن مروان ،
 فأنشده والأخطل حاضر ، « قال عبد الملك للأخطل : هذا المدح ويملك يا ابن
 النصرانية »^٦ .

وكان يجمع بين الشعراء ، ويستمع الى شعرهم ، يجمعهم حتى إن كانوا

-
- ١ العقد (١٢٥/٦) .
 - ٢ الخزائن (٢٥١/٢) ، (هارون) .
 - ٣ المصون في الادب ، لابي أحمد الحسن بن عبدالله العسكري (ص ٦٢) ، (تحقيق
 عبدالسلام محمد هارون) ، (الكويت ١٩٦٠ م) .
 - ٤ يعني الخنساء .
 - ٥ المصون (٦٣) .
 - ٦ المصون (٦٤) .

متعادين متنافسين ، فقد جمع بين جرير ، والفرزدق ، والأخطل ، في مجلس واحد ، وذكر أنه سأل أعرابياً شاعراً عن أهجى بيت في الإسلام ، وعن أرق بيت في الإسلام ، فأشار الى أبيات لجرير، وفضل جريراً عليهما ، فأبده عبد الملك في هذا الرأي^١ .

وقد وصف (عامر) الشعبي ، (عبد الملك بن مروان) وصفاً يدل على شدة إعجابه به ، إذ يقول في وصفه له : « فلما فرغ من الطعام وقعد في مجلسه واندفعنا في الحديث ، وذهبت لأتكلم ، فما ابتدأت بشيء من الحديث إلا استلبه مني فحدث الناس به ، وربما زاد فيه على ما عندي ، ولا أنشدته شعراً إلا فقل مثل ذلك . فغممتي ذلك ، وانكسر بالي له ، فما زلنا على ذلك بقية نهارنا ، فلما كان آخر وقتنا التفت إلي وقال : يا شعبي ، قد والله تبينت الكراهية في وجهك لما فعلت^٢ ، وتلدري أي شيء حلني على ذلك ؟ قلت : لا يا أمير المؤمنين . قال : لئلا تقول : لئن فازوا بالملك أولاً لقد فرزنا نحن بالعلم ، فأردت أن أعرفك أننا فرزنا بالملك وشاركناك فيما أنت فيه^٣ ، ولهذا اجتمع اليه الشعراء وعلماء الأخبار ورواة الناس ، حتى حفلت بهم مجالسه ، وكان يذاكرهم ويحادثهم وينوّه بهم ويدني مجالسهم^٤ . وذكر ان عبد الملك أرسل الى الحجاج أن يرسل اليه (الشعبي) ، فأرسله اليه ، فلما دخل عليه كان (الأخطل) عنده ، فأخذ يسأله عن الشعر ، ويسأل الأخطل عنه ، حتى اذا انتهى ، قال له : يا شعبي ، انما أعلمناك هذا ، لأنه بلغني ان أهل العراق يتناولون على أهل الشام ويقولون : إن كانوا غلبونا على الدولة ، فلن يغلبونا على العلم والرواية ، وأهل الشام أعلم بعلم أهل العراق من أهل العراق^٥ . وكان الشعبي قد جعل الخنساء أشعر النساء أما عبد الملك ففضل لبلب الأخيالية عليها . فشق ذلك على الشعبي ، فقال له ذلك القول ، وردد عليه أبيات الأخيالية حتى حفظها . والرواية المتقدمة التي أخذتها من (الرافعي) هي هذه الرواية بشيء من التغيير .

وكان يتمثل بالشعر الجيد ، ويشفي على الحسن منه ، ويحسن نقله . تمثل بشعر

-
- ١ السيوطي ، شرح شواهد (٤٥/١ وما بعدها) .
 - ٢ الزجاجي ، مجالس العلماء (٢٠٩) .
 - ٣ الرافعي (٤٠٧/١) .
 - ٤ أمالي المرتضى (١٦/٢ وما بعدها) .

لهذيل بن مشجعة البولاني ، وقال : « هذا والله شعر الأشراف . نفى عن نفسه الحسد واللؤم والانتقام عند الإمكان ، والمسألة عند الحاجة »^١ . وله مجالس كان يسأل فيها الناس عن الشعر ، يمتحنهم ، وذكر أنه سأل رجلاً وهو بالكوفة عن شعر (ذي الأصبع العدواني) وعن أخباره ، وكان من عدوان ، فلما وجدته جاهلاً حط من عطائه^٢ ، وذكر أنه اجتمع بالربيع بن ضبيح الفزاري ، وسأله عن أخباره^٣ ، وأنه كان يلدي ملاحظات قيمة على أشعار الشعراء الجاهليين والمعاصرين له^٤ . وروي أنه كان يبحث عن شعر الشعراء بما فيهم الشعراء المعاصرون له ، فلما قدم (الأجرد) (الأحرذ) ، وهو من شعراء ثقيف في نفر من الشعراء ، قال له : إنه ما من شاعر إلا وقد سبق إلينا من شعره قبل رؤيته فما قلت^٥ .

وكان (الوليد) و (سليمان) ابنا (عبد الملك) من المولعين بالشعر كذلك ، وذكر أن (الوليد) كان يقدم (النابغة) على غيره من الشعراء ، وكان (سليمان) يقدم (امرأ القيس) ، فذكر ذلك لعبد الملك ، فبعث إلى أعرابي فصيح ، ليكون الحكم بينهما^٦ . ورويت القصة بشكل آخر ، ورد فيها أن (الوليد بن عبد الملك) تشاجر مع أخيه (مسلمة) في شعر (امرئ القيس) و (النابغة) الذبياني في وصف طول الليل أيها أجود ، فرضيا بالشعبي فأحضر ، فصار الحكم بينهما^٧ .

وكان (هشام بن عبد الملك) من المولعين بالشعر كذلك ، ذكر أنه كتب إلى عامله في أشخاص (حماد) الراوية إليه ليبت سمعه لم يعرف اسم قائله .

وكان (الوليد بن يزيد) من التميمين بالشعر ، وهو نفسه شاعر مجيد ، وكان يستدعي (حماد) الراوية ليسأله عن الشعر ، وقد قتل في سنة ست وعشرين ومائة . وكان منهمكاً في اللهو وشرب الخمر وسماع الغناء ، ذكر أنه استفتح

-
- ١ رسائل الجاحظ (٣٦٢/١ وما بعدها) ، (كتاب فصل ما بين العداوة والحسد) .
 - ٢ أمالي المرتضى (٢٤٩/١ وما بعدها) .
 - ٣ أمالي المرتضى (٢٥٣/١) .
 - ٤ أمالي المرتضى (٢٧٨/١) .
 - ٥ الشعر والشعراء (٦٢٠/٢) .
 - ٦ الزجاجي ، مجالس العلماء (٢٧٢) .
 - ٧ الخزائن (٣٢٥/٢ وما بعدها) .

القرآن ، فخرج له : « واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد »^١ ، فألقاه ونصبه
غرضاً ورماه بالسهام ، وقال :

تهدّني بجبارٍ عنيدٍ فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جثت ربك يومَ حشرٍ فقل: يارب مزقني الوليد^٢

وكان إذا أراد الاستفسار عن شعر جاهلي خفي أمره عليه ، أرسل الى (حماد)
يسأله عنه^٣ ، كما كان يسأل غيره عنه كذلك .

وروي انه نشر يوماً المصحف ، وجعل يرميه بالسهام ، وهو يقول :

تذكرني الحساب ولست أدري أحقاً ما تقول من الحساب
فقل لله ينعني طعامي وقل لله ينعني شرابي

وانه قال :

اسقياني وابن حرب واسترانا بلزار
فلقد أيقنت اني غير مبعوث لنار
واتركا من طلب الجنة يسعى في خسار
سأسوس الناس حتى يركبوا دين الحمار^٤

الى غير ذلك من أشعار وأخبار ، وروايات تنهجم عليه ، نسبت بعضها الى
أهله وأقاربه ، بل زعم ان الرسول لعنه في حديثه^٥ ، ومثل هذه الأحاديث من
الحديث الموضوع .

١ ابراهيم ، الآية ١٥ .

٢ الخزانة (٢٢٨/٢) ، (هارون) ، الخزانة (٣٢٨/١) ، (بولاق) .

٣ الخزانة (١٢٩/٤) ، (بولاق) ، وورد بصورة أخرى تختلف بعض الاختلاف عن
هذه الرواية ، أمالي المرتضى (١٣٠/١) .

٤ أمالي المرتضى (١٢٩/١) ، ورويت بصور أخرى ، الاغانى (٤٦/٧) ، رسالة
الفقران (٤٤٤) .

٥ أمالي المرتضى (١٢٩/١) ، راجع رسالة الففران حيث تجد بعض اشعاره (٤٤٤)
وما بعدها .

وفي شعر الوليد سلاسة وطبع ، وعلم مبالاة ، فالحياة في نظره ، سماع غناء ،
وخر طيب ، أما الحكم والمملك ، فلا يساويان شيئاً :

أنا الأمامُ الوليدُ مفتخراً أجبر بُردِي ، وأسمع الغزلا
أسحب ذيلي الى منازلها ولا أبالي من لام أو عدلا
ما العيش إلا سماعُ مُحسنة وقهوة تترك الفقى ثملا
لا أرتمي الحور في الخلود وهل يأمل حور الجنان من عقلا ؟
إذا حبتك الوصال غانية فجازها بئنها كمن وصلا

ويقال إنه لما أحيط به ، دخل القصر وأغلق بابه وقال :

دعوا لي هنداً والرباب وفرثي ومسمعة ، حسبي بملك مالا
خلوا ملككم ، لا ثبت الله ملككم فليس يساوي بعد ذاك عقلا
وخلوا سبيلي قبل غيري وما جرى ولا تحسدوني أن أموت هزالا^١

وكان (ابن شهاب الزهري) من رواة الشعر ، وكان من المؤلفين ، وقد
توفي سنة (١٢٤ هـ)^٢ ، وكان راوية للشعر ، يحفظ الكثير منه ، حتى كان
الأمويون إذا أشكل عليهم أمر من أمور الشعر ، أرسلوا اليه يسألونه عنه^٣ .

وكان (عروة بن الزبير) من رواة الشعر ، وبعد من أشهر رواة عند أهل
الحجاز ، روى عن عائشة ، وكان يقول : « روايتي في رواية عائشة »^٤ ،
وقد روى عن اختها (أسماء) بنت أبي بكر ، روى عنها شعراً لزيد بن عمرو بن
نفييل ، ولورقة بن نوفل^٥ ، وكان يزور آل مروان ، رآه الحجاج « قاعداً مع
عبد الملك بن مروان ، فقال عروة : أنا لا أم لي ! وأنا ابن عجائز الجنة !
ولكن إن شئت أخبرتك من لا أم له يا ابن المتمنية ! فقال عبد الملك : أقسمت
عليك أن تفعل ، فكفّ عروة . والمتمنية ، هي القُريعة بنت همام ، أم الحجاج

١ رسالة الغفران (٤٤٤ وما بعدها) ، الاغاني (٧/٤٦ ، ٧٣) .

٢ المعارف (٤٧٢) .

٣ الاغاني (٤/٢٤٨) .

٤ الاصابة (٤/٣٤٩) ، (رقم ٧٠٤) .

٥ الاغاني (٣/١٢٤ وما بعدها) .

وهي القائلة :

هل من سبيل الى خمرٍ فأشربها أم من سبيل الى نصر بن حجاج^١

وللمتمنية قصة ، لا تخلو أن تكون من وضع أعداء الحجاج .

وقد نسب أهل الأخبار الى بعض رواة الشعر حفظ الشيء الكثير من ذلك الشعر ، نسبوا الى بعضهم حفظ آلاف القصائد عدا القطع والأراجيز . ذكروا مثلاً ان (حماداً) الراوية كان يحفظ (٢٧) قصيدة على كل حرف من حروف الهجاء ألف قصيدة^٢ . وان (الأصمعي) ، كان يحفظ (١٦) ألف أرجوزة^٣ ، وان (أبا ضمضم) ، كان يروي لمائة شاعر اسم كل منهم (عمرو)^٤ ، وأن (أبا تمام) حفظ (١٤) ألف أرجوزة من أراجيز الجاهلية غير القصائد والمقاطع^٥ ، الى أمثال ذلك من أرقام لا تخلو من مبالغات أهل الأخبار .

وروي أن فتياناً جاءوا الى (أبي ضمضم) بعد العشاء ، فقال لهم : ما جاء بكم يا خبيثاء ؟ قالوا : جئناك نتحدث ، قال : كلبتم ، ولكن قلتم كبر الشيخ فتتبعه عسى أن نأخذ عليه سقطاً ! فأنشدهم لمائة شاعر ، وقال مرة أخرى لثمانين ، كلهم اسمه عمرو^٦ . وقال (الأصمعي) : « فعددت أنا و خلف الأحمر فلم تقدر على ثلاثين . فهذا ما حفظه أبو ضمضم ، ولم يكن بأروى الناس ، وما أقرب أن يكون من لا يعرفه من المسمين بهذا الاسم أكثر ما عرفه » .

ولما نشأ التلويح بالمعنى المفهوم من هذه اللفظة في الإسلام ، كان الشعر في طليعة الموضوعات التي عني الناس بها في أيام الأمويين فما بعد . فجمعوا شعر الشعراء على انفراد ، وجمعوا شعر جماعة منهم ، أو شعر قبيلة أو قبائل ، وجمعوا

١ الفائق (٥٢/٣ وما بعدها) .

٢ النجوم الزاهرة (٤٢٠/١) ، زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (٧٧/١) .

٣ ابن خلكان (١٢١/١) ، طبقات الادباء (١٥١) ، زيدان (٧٧/١) .

٤ الشعر والشعراء (٤) . زيدان (٧٧/١) .

٥ ابن خلكان (١٢١/١) ، زيدان (٧٧/١) .

٦ الشعر والشعراء (٩) ، (الثقافة) .

شعر طبقة من الطبقات الاجتماعية ، كما عتوا بالاختيارات وغير ذلك^١ .

وقد أخذ بعض رواة الشعر الجاهلي من متابعه ، أي من القبائل ، « قال أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب : دخل أبو عمرو اسحاق بن مرار البادية ومعه دسنيجان من حجر ، فما خرج حتى أفناهما بكتب سماعه عن العرب »^٢ . (وأبو عمرو) هذا ، هو أبو عمرو الشيباني .

وقد أشار (ابن النديم) والعلماء الذين عتوا بالشعر الى أسماء نفر من العلماء عتوا واشتغلوا بجمع الشعر ، وذكروا أسماء كتبهم واختياراتهم . وقد وصل إلينا بعض ما اشتغلوا فيه وجمعهه ، فطبع ، ومنه ما لا زال مخطوطاً محفوظاً في خزائن الكتب . وهو معروف يعرف الناس المواضع التي يوجد فيها ، وقد يها له من يقرم بطبعه وتيسيره بذلك للناس ، غير أننا لا نزال نبجل مصير عدد كبير من اللواوين والأشعار والاختيارات التي ذكر (ابن النديم) وغيره أسماءها مع أسماء جامعها ، لا ندرى إذا كانت اليوم في خزائن الكتب لا يعرف الناس من أمرها شيئاً ، لعدم إحاطة المسؤولين بأمر تلك الخزائن العلم بها ، أو أنها عند أسر لا تعرف من أمر المخطوطات شيئاً ، لجهلها بها وبالعلم ، أو أنها تلفت وولت لعوامل عديدة ، فلا أمل إذن من بعثها ونشرها .

وقد تخرش (الجاحظ) بنموذج من رواة الشعر بالبصرة ، فقال : « وقد أدركت رواة المسجدين والمريدين ومن لم يرو أشعار المجانين ولصوص الأعراب ، ونسب الأعراب ، والأرجاز الأعراية القصار ، وأشعار اليهود ، والأشعار المنتصفة ، فإنهم كانوا لا يعدونه من الرواة . ثم استبدوا ذلك كله ووقفوا على قصار الحديث والقصائد ، والفقر والتفت من كل شيء . ولقد شهدت وما هم على شيء أحرص منهم على نسب العباس بن الأحنف ، فما هو إلا أن أورد عليهم خلف الأحمر نسب الأعراب ، فصار زهدهم في شعر العباس بقدر رغبتهم في نسب الأعراب . ثم رأيتهم منذ سنين ، وما يروى عندهم نسب الأعراب إلا حدث السن قد ابتدا في طلب الشعر ، أو فتياي متغزل .

وقد جلست الى أبي عبيدة ، والأصمعي ، ويحيى بن المنجم ، وأبي مالك

١ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٦٧/١) .

٢ نزهة الالباء (ص ٦١ وما بعدها) .

عمرو بن كركرة ، مع من جالست من رواة البغداديين ، فا رأيت أحداً منهم قصد الى شعر في النسيب فأنشده . وكان خلف يجمع ذلك كله ^١ .

ولم يقتصر عمل الراوية على رواية الشعر وإنشاده للناس ، بل كان يقوم أيضاً بشرح غامض ألفاظه وإيجلاء ما قد يكون في الشعر من معان خفية غامضة ، كما كان يقوم بشرح الظروف والمناسبات التي نظم الشعر فيها ، الى غير ذلك من أمور تتعلق بالشعر . ولهذا فإن رواية الشاعر ، هو ديوان حي للشاعر ، فيه كل ما يتعلق بشعر ذلك الشاعر .

ولم يقتصر جمع الشعر على عشاقه ورواته والعلماء به ، أو على الرواة الشعراء ، بل ساهم فيه أناس تخصصوا بأمور أخرى ، كان لاختصاصهم اتصال متين بالشعر ، مثل علماء النسب وعلماء الأيام والأخبار . فقد أمدنا هؤلاء بمادة لا بأس بها من الشعر الجاهلي ، في الجاهلية وفي الاسلام . كانوا إذا تحدثوا عن نسب قبيلة أو عن نسب رجل معروف ، ذكروا ما قيل في حقها أو في حقه من مدح أو هجاء ، وكانوا إذا تكلموا عن أيام الجاهلية ، اضطروا الى سرد ما قال فيها أبطالها وفرسانها من شعر . فقد كان من عادة الأبطال إنشاد شعر التمجيد بالنفس وبمفاخرها وبمفاخر القبيلة حين نزولهم ساحة القتال ، وكان من عادة المنتصر تخليد نصره بأشعار ينشدها أبناء القبيلة ، لتكون تسجيلاً لمفاخره بين الناس .

وساهم علماء العربية : علماء اللغة والنحو والتفسير والحديث مساهمة تذكر في تخليد الشعر الجاهلي ، بما جمعوه من شواهد في اللغة وفي النحو وفي الصرف ، وفي تفسير القرآن والحديث من أبيات وقطع بل قصائد أحياناً . فقدموا لنا بفعلهم هذا مادة ساعدتنا في زيادة معارفنا عن شعر ما قبل الاسلام ، وفي ضبط الشعر الوارد في المصادر الأخرى ، وتصحيح ما قد يكون قد وقع في الروايات المتضاربة من أوهام ، كما أمدتنا بمادة لا بأس بها ، بل جديدة ونادرة أحياناً عن أصحاب الشعر وعن المناسبات التي قيل فيها .

وقد تعرض (الملاحظ) لأمر هؤلاء في الشعر ، فقال : « ولم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب . ولم أر غاية رواة الشعر إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج الى الاستخراج . ولم أ، غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه

الشاهد والمثل ،^١ .

يقول (بروكلمن) : « ولم يبدأ جمع الشعر إلا في عصر الأمويين ، وإن لم يبلغ هذا الجمع ذروته إلا على أيدي العلماء في عصر العباسيين ، بيد أن معنى التحري في وثوق الرواية ، والتدقيق في النقل اللغوي على النحو الذي نعرفه في عصرنا هذا ، كان أمراً غريباً بعد على جماع ذلك العصر . ولما كان كثير من هؤلاء الجماع أنفسهم شعراء ، فقد ظنوا أنه ليس من حقهم فقط ، بل ربما كان واجباً عليهم أيضاً في بعض الأحيان أن يصلحوا ما روه للشعراء القدماء أو يزيدوا عليه . فلا عجب إذا لم يبالوا أيضاً بالوضع والاختراع لتوثيق رواياتهم . وقد أراد حماد الرواية أن يفسر تفوقه ، والتفوق المزعوم لأصحابه الكوفيين في الدراية بالشعر القديم ، فزعم أنه وجد الشعر الذي كتب بأمر النعمان ودفن في قصره الأبيض بالحيرة ، ثم كشف في أيام المختار بن أبي عبيد .

لقد غير الرواة بعض أشعار الجاهلية عمداً ، ونسبوا الأشعار القديمة إلى شعراء من الجاهلية الأولى ، كما يمكن أن يكون وضع أشعار قديمة ، منحولة على مشاهير الأبطال في الزمن الأول لتمجيد بعض القبائل ، أكثر مما نستطيع إثباته .

على أنه بالرغم من كل العيوب التي لم يكن منها بد في المصادر القديمة ، يبدو أن القصد إلى التشويه والتحريف لم يلعب إلا دوراً ثانوياً . وقد روى علماء المسلمين أشعاراً للجاهليين تشتمل على أسماء أصنام وعبادتها ، وأن أسقطوا أيضاً أحياناً أخرى لشبهات دينية ، وذلك في حالات يبدو أنها قليلة ، لأن الشعور الديني لم يكن غالباً على نفوس العرب في الجاهلية ،^٢ .

ويعود الفضل في جمع الشعر الجاهلي وتدوينه وتخليده إلى مدينتين اشتهرتا بالعلم ، هما : الكوفة والبصرة ، فقد كان علماء هاتين المدينتين في طليعة من عني بجمع الشعر الجاهلي وتفصيله ، ولا نكاد نجد مدينة إسلامية ، بلغت مبلغها في هذه الناحية ، أو تمكنت من مزاحمتها في جمع شتات هذا الشعر وحصره في كتب مدونة صارت مرجعاً للعلماء ولعشاق هذا الشعر إلى يومنا هذا . ونكاد لا نجد كتاباً في الشعر أو في الأدب ، إلا وهو عيال على علم علماء هاتين المدينتين .

١ البيان والتبيين (١٠١) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر) ، (بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٥٩ م) .

٢ بروكلمن (١/٦٥ وما بعدها) .

الغساسنة ، ليجد له مأوى عندهم ، كما فعل النابغة والمثلث . ولما كان الغساسنة قد تأثروا بالحياة الحضرية ، أكثر من ملوك الحيرة ، وقد تشربوا بالثقافة البيزنطية ، فعاشوا في بيوت بدمشق بين الحضرة ، وبنوا القصور الكبيرة في القرى التابعة لهم ، وهي مواضع خصبة ، وقد أثثوها على الطريقة الرومية ، وكانوا يسمعون الغناء الرومي ، وكانت مصالحهم بالأعراب وبجزيرة العرب - كما قلت - غير ذات بال ، لم يحفلوا بالشعراء الوافدين عليهم احتفال ملوك الحيرة بهم ، ولم يقدقوا لإغداق المناذرة عليهم ، فصار عدد الشعراء الوافدين عليهم قليلاً إذا قيس بعدد من كان يذهب منهم الى قصور الحيرة ، كما يظهر ذلك جلياً من كتب الأخبار والأدب التي تحدثت عن الشعراء الجاهليين ، ولعل هذا الصدد عن الشعراء هو الذي حمل (النابغة) على ألا يمحكث عند الغساسنة طويلاً ، فحمل حمله ، وعاد الى الحيرة معتبراً الى النعمان عما بدر منه من خطأ ، رامياً سبب ما وقع بينهما من قطيعة الى عمل الرشاة الحساد . ولعله كان أيضاً في جملة العوامل التي جعلت العراق يتقدم على الشام في رواية الشعر الجاهلي وفي نشره ، فنحن لا نكاد نعرف رجلاً من أهل الشام الصميين ، قام بالشعر الجاهلي ، أو بأمر شعراء العرب في الشام من أهل الجاهلية ، كما قام به أهل العراق . ولم تشتهر (دمشق) ولا غيرها من مدن بلاد الشام بما قامت به مدن العراق من جمع الشعر الجاهلي على الرغم من تحمس الأمويين وكلفهم في جمعه وتدوينه .

وقد تعرض العلماء لأمر (المدينة) ، فقالوا : « فأما مدينة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، فلا نعلم بها إماماً في العربية . قال الأصمعي : أقت بالمدينة زماناً ما رأيت بها قصيدة واحدة صحيحة إلا مصحفة أو مصنوعة .

وكان بها ابن دأب ، يضع الشعر وأحاديث السمر ، وكلاماً ينسبه الى العرب ، فسقط وزهت علمه وخفيت روايته ، وهو عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب ، يكنى أبا الوليد ، وكان شاعراً وعلمه بالأخبار أكثر^١ . وذكر ان في جملة ما صحفه من الشعر ، قول (الحارث بن حلزة) الإشكري :

أبها الكاذب المبلغ عنا عبد عمرو وهل بذاك انتهاء

وانما هو : عند عمرو^١ .

وأقدم ما لدينا من مدونات الشعر الجاهلي ، الاختيارات التي جمعها (حماد) الراوية ، المعروفة بـ (المعلقات) ، والتي عرفت بالسموط . ولعلها الديوان الذي ذكر (ابن النديم) انه أرسله الى (الوليد بن يزيد بن عبد الملك) ، فاستعان به مع ديوان آخر بعثه اليه (جناد) ، ليجمع منها ومن غيرها ديوان العرب وأشعارها^٢ ، وقد يكون ديواناً آخر أوسع من هذا المجموع .

ويلي هذه الاختيارات ، اختيارات أخرى جمعها رجل من أهل الكوفة أيضاً ، وراوية من رواة الشعر المعروفين هو (المفضل بن محمد بن يعلى) الضبي ، المتوفى سنة (١٦٤ هـ) (٧٨٠ م) ، أو (١٦٨) ، أو (١٧٠ هـ) ، على اختلاف الروايات . وقد اتخذه (المنصور) مؤدباً لابنه (المهدي) فعمل له الأشعار المختارة المسماة المفضليات ، وهي مائة وثمان وعشرون قصيدة ، وقد تزيد وتنقص ، وتتقدم القصائد وتتأخر بحسب الرواية عنه ، والصحيحة التي رواها عنه ابن الأعرابي . قال : وأول النسخة التي لتأبط شراً :

يا عيد مالك من شوق وإبراق ومرّ طيف على الأهوال طراق^٣

[هذا وقد وقع في الجزء الأول من هذا الكتاب سهو ، إذ سقطت لفظة (مائة) من « وهي مائة وثمان وعشرون قصيدة » ، فصارت على هذا النحو : « وهي ثمان وعشرون قصيدة » ، وقد تزيد وتنقص «^٤ ، ولذلك أحبيت أن ألفت نظر القراء لإصلاح هذه المفقوة] .

ويلي هذه الاختيارات اختيارات أخرى جمعها (الأصمعي) ، سأحدث عنها أثناء حديثي عنه بعد قليل ، ثم اختيارات أخرى عرفت بـ (جمهرة أشعار العرب) ، قد جمعت في أواخر المائة الثالثة للهجرة . « وهي مجموعة سباعية تشتمل على سبعة أقسام ، أولها المعلقات السبع ، وتحمل الأقسام الستة الباقية ^٥ حلّى من العناوين المختارة

١ المزهري (٣٦٢/٢) .

٢ الفهرست (١٤٠) .

٣ الفهرست (١٠٨) ، الاغانى (١٢٥/٥) ، بروكلمان (٧٣/١) .

٤ (٦٨) .

وهي : المجهرات ، المستقيات ، المذهبات ، المراني ، المشويات ، الملحقات^١.
 « ويسمى جامعها أبا زيد القرشي ، وقيل إن سند رواية أبي زيد هذا ،
 وهو المفضل ، كان في المرتبة السادسة من سلالة الخليفة عمر بن الخطاب ، وإذا
 فلا بد أن حياته كانت في أواخر القرن الثالث الهجري . على أن كلا الرجلين :
 أبي زيد والمفضل ، مجهول بالكلية فيما عدا ذلك . ويبدو لنا أن تسميتها موضوعة
 على اسمي كل من أبي زيد الأنصاري النحوي المشهور وشيخه المفضل . ولكن
 لما كان كتاب المجهرة معروفاً لابن رشيق (٣٩٠ - ٤٥٦ هـ / ١٠٠٠ - ١٠٦٤ م) ،
 فقد يكون تم تأليفه في ملتقى القرنين الثالث والرابع للهجرة^٢ .

وهناك مجموعات أخرى مثل ديوان الحماسة لأبي تمام (المتوفى ٢٣١ هـ) ،
 وديوان الحماسة للبحري (٢٠٥ - ٢٨٤ هـ) ، وحماسة (الخالدين) ، أو كتاب
 الأشباه والنظائر ، للأخوين : أبي عثمان سعيد (المتوفى حوالي ٣٥٠ هـ) ،
 وأبي بكر محمد (المتوفى ٣٨٠ هـ) ، ومجموعات أخرى معروفة ، مثل كتاب
 (الأغاني) لأبي الفرج الإصبهاني ، ذكرها (بروكلمن) و (جرجي زيدان) ،
 وغيرهما ممن بحث عن الشعر الجاهلي ، فلا حاجة بي إذن إلى ذكرها في هذا
 المكان .

ولم يلزم رواة الشعر الأول وعلماء اللغة والنحو أنفسهم النص على اسم المنبع
 الذي عرفوا الشعر أو الخبر منه ، فصار من الصعب علينا ، بل من غير الممكن
 التعرف على السبيل الذي سلكه هذا الشعر الجاهلي من الجاهلية حتى وصل إلى
 (حاد) الراوية ، أو (خلف) الأحمر ، أو غيرها من رواة الشعر . ولو
 كانوا قد نصوا عليه ، لأمكن التثبت من صحة الشعر ، بتقديس سلسلة السند ، أو
 المصدر المكتوب إن كان مكتوباً ، فيخفف بذلك من هذا الشك الذي يحوم حول
 صحة المصادر التي أخذ الرواة منها معينهم عن هذا التراث الخالد الجاهلي .

وقد اكتفى الرواة أحياناً بذكر اسم (أعرابي) ، نسبوا أخذ شعرهم أو
 خبرهم إليه ، اتصلوا به أثناء قدومه البصرة أو الكوفة ، أو في أثناء ذهابهم إلى
 البادية لجمع العلم بأخبار العرب وبشعرها القديم منها ، ومعظمهم من قبائل مختارة

١ بروكلمن (٧٥/١) .

٢ بروكلمن (٧٥/١) .

نصوا على اسمها ، مثل تميم ، وأسد ، وهي القبائل التي ارتضى علماء اللغة الأخذ عنها ، وكان بعضهم ممن ترك البادية وعاش في الحاضرتين ، وأظهروا مقدرة وكفاءة في الرد على أسئلة العلماء ، استوجبت توثيقهم وتقديمهم ، حتى صار بعضهم من طبقة العلماء .

ولم يشر العلماء أحياناً الى اسم الأعرابي ، أو الأعراب الذين أخذوا عنهم ، بل اكتفوا بالإشارة الى أنهم سمعوا ما ذكره من (أعرابي) ، أو من (أعرابي) فصيح ، أو من (فصحاء الأعراب) ، أو (فصحاء العرب) . ولا نلدي حال هؤلاء الأعراب وحظهم من العلم والمعرفة بعلوم اللغة ، وبأمور القبيلة في الجاهلية ، وقد يصح الأخذ منهم في أمور لغوية تخص لهجة قبيلتهم ، أما في موضوع الشعر والأخبار ، فهناك مشاكل شائكة تجعل من الصعب قبول روايتهم ، لمجرد أنهم أعراب ، وأنهم أعلم من الحضرة بأمور قبيلتهم ، فبينهم من كان لا يبالي من التحقق بإجابته ، فيجيب حسب مزاجه وهواه .

وقد اشتهر وعرف بعض الأعراب ، حتى دخلت أسماؤهم في الكتب ، وقد دون (ابن النديم) أسماء جماعة منهم في باب دعاة : « أسماء فصحاء العرب المشهورين الذين سمع منهم العلماء ، وشيء من أخبارهم وأنسابهم »^١ . وقد ذكر ان من بين هؤلاء من كان معلماً ، يعلم الصبيان بأجرة ، ويؤخذ منه العلم ، وكان شاعراً ، مثل (أبو البيداء) الرباعي ، وهو أعرابي نزل البصرة ، وعلم بها ، و (أبو مالك عمرو بن كركرة) ، وكان يعلم في البادية ويورق في الحضرة مولى بني سعد ، راوية أبي البيداء ، وكان عالماً باللغة ، وله رأي طريف : « يزعم ان الأغنياء عند الله أكرم من الفقراء »^٢ ، و (أبو عرار) ، وهو أعرابي من (بني عجل) ، قريب من (أبي مالك) في غزارة علم اللغة ، وكان شاعراً ، وكان ممن يتصل به (جناد) و (اسحاق بن الجصاص)^٣ . ولبعضهم مؤلفات ، ذكر أسماءها (ابن النديم) . وقد أقام معظمهم بين الحضرة ، في المدن المشهورة التي كانت تبحث عن أمثال هؤلاء ، مثل البصرة والكوفة ، ثم بغداد ، وكان أكثرهم ينظم الشعر ، ومنهم من كان كاتباً قارئاً ، طابت له

١ الفهرست (ص ٧١ وما بعدها) .

٢ الفهرست (ص ٧٢) .

٣ الفهرست (ص ٧٢) .

الاقامة بين الحضرة ، ووجد له الرزق بينهم ، ففضل الراحة وطلب المال على
الاقامة في أرض الشح والفقير .

بعض رواة الشعر :

هناك رجال غلبت عليهم رواية الشعر ، فاشتهروا بها ، مثل حماد الراوية
وخلف الأحمر . غير ان هناك رجالاً ، اشتغلوا بالعربية والنحو ، لا يقل جهدهم
في جمع الشعر الجاهلي عن جهد رواة الشعر ، منهم من جمعه لتفسير كلام الله ،
ومنهم من حفظه للاستشهاد به في ضبط اللغة وقواعد النحو ، حتى أننا لنجد في
كتب اللغة والمعجم وشواهد النحو ، أبيات شعر وقطع لشعراء جاهليين فات
خبرها عن رواة الشعر ، ولهذا فنحن لا نستطيع فصل عمل هؤلاء عن عمل رواة
الشعر ، وعدم الاشارة اليهم في أثناء حديثنا عن العلماء الذين كان لهم فضل جمع
الشعر الجاهلي .

ومن أعرف رواة الشعر الجاهلي ، عامر بن شراحيل الشعبي ، المولود سنة
(٩) للهجرة والمتوفى سنة (١٠٤) أو (١٠٥) للهجرة ، و (أبو عمرو بن العلاء)
المتوفى ما بين السنة (١٥١) والسنة (١٥٩) للهجرة ، وحماد الراوية ، والمفضل الضبي ،
وخلف الأحمر ، وأبو عمرو الشيباني ، المتوفى سنة (٢٠٥) أو (٢٠٦) ، أو
(٢١٣) للهجرة ، وأبو عبيدة ، ومحمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة (١٤٦)
لهجرة ، وابنه (هشام بن محمد بن السائب) الكلبي ، وابن الأعرابي ، وابن
السكيت ، المتوفى سنة (٢٤٤) أو (٢٤٦) للهجرة ، والطوسي ، المتوفى في
حوالي السنة (٢٥٠) للهجرة ، والسكري ، المتوفى سنة (٢٧٠) أو (٢٧٥) للهجرة
والمبرد ، المتوفى سنة (٢٨٢) ، أو (٢٨٥) ، أو (٢٨٦) للهجرة^١ ، وغيرهم
من تجد اسماءهم في (الفهرست) لابن النديم وفي الموارد الأخرى . ويعد (أبو عمرو
ابن العلاء بن عمار بن العريان) من (خزاعي بن مازن بن مالك بن عمرو بن
نميم) المتوفى سنة (١٥٤هـ)^٢ . من أعلم زمانه في الشعر واللغة ، وقد ذكر أن

Ch. J. Lyall, Ancient Arabian Poetry, pp. XXXIX.

١ المعارف (٥٤٠) ، أخبار النحويين ، للسيرافي (٢٨ وما بعدها) ، البداية والنهاية ،
٢ لابن كثير (١١٢/١٠) ، تهذيب الاسماء واللغات (٢٦٢/١) .

اسمه (زبّان بن العلاء بن عمار) المازني^١ . وكان عالماً بكلام العرب ولغاتها وغريبها ، وكان مشهوراً في علم القراءة والحديث واللغة والعربية^٢ . وقد أخذ الشعر عن أعراب أدركوا الجاهلية ، واثى عليه (الجاحظ) ، وأطرى على علمه ، فقال : « كان أعلم الناس بأمور العرب ، مع صحة سماع وصدق لسان . حدثني الأصمعي ، قال : جلستُ الى أبي عمرو عشر حجج ما سمعته يخرج بيت إسلامي . قال : وقال مرة : لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت أن آمر فتياننا بروايته . يعني شعر جرير والفرزدق وأشباههما . وحدثني أبو عبيدة قال : كان أبو عمرو أعلم الناس بالغريب والعربية ، وبالقرآن والشعر ، وبأيام العرب وأيام الناس » ، « وكانت كتبه التي كتب عن العرب الفصحاء ، قد ملأت بيتاً له الى قريب من السقف ، ثم إنه تقرأ^٣ فأحرقها كلها ، فلما رجع بعد الى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه . وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية^٤ . »

وقد فسر بعض المستشرقين إحراق (أبو عمرو بن العلاء) لكتبه ، على انه كان تحت تأثير أزمة دينية تدل « على ان أوساط التدين في العراق لا تنظر بعين الارتياح الى التنقيب عن بقايا الوثنية^٥ » . وأشار بعض منهم الى ان الحرق تناول^٦ ما جمعه من الشعر الجاهلي ، وانه كان في أزمة زهدية لينصرف الى دراسة القرآن^٧ . وهو تفسير غريب ، استنتجوه من لفظة (تقرأ) ، أي (تنسك) على ما يظهر ، وليس لهذه اللفظة صلة بالوثنية وبالشعر الجاهلي ، ولو كان الشعر الجاهلي ممقوتاً ، وجمعه وحفظه ملمومين ، لما حفظه الصحابة وترنوا واستشهدوا به ، ثم ان غيره من الزهاد مثل (أبو الأسود) الدؤلي ، كان يحفظ هذا الشعر ويستشهد به ، وقد رأينا ان الرسول ، كان يسمعه ويستشهد به ، ثم ان خبر

-
- ١ المزهري (٣٠٤/٢) ، البيان والتبيين (٣٢١/١) ، الفهرست (٤٨) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٢٧٠/١) .
 - ٢ نزهة الالباء (٢٤) ، المقتبس ، للمرزباني (٢٥ وما بعدها) ، ابن خلكان (٣٨٦/١ وما بعدها) ، الذهبي ، العبر (٢٢٣/١) .
 - ٣ تقرأ ، تنسك .
 - ٤ البيان والتبيين (٣٢٠/١ وما بعدها) ، ابن خلكان (٣٧٦/١) .
 - ٥ ريجيس بلاشير ، تاريخ الادب العربي (١١٠) .
 - ٦ المصدر نفسه (الحاشية رقم ٤) .

إحراق الكتب ، لا يشير لا تصريحاً ولا تلميحاً الى علاقته بالشعر ، ولعله خبر موضوع ، وضعه (أبو عبيدة) ، لغرض ما ، كأنه كان يريد من وضعه المبالغة في علمه وفي زهده ، أو ان حريقاً غير متعمد أصاب بعض كتبه ، فضخمه ووسعه ، وجعله إحراقاً متعمداً ، إذ لا يعقل أن يقوم هو بإحراق كتبه كلها ، ثم إن قوله : « وكانت كتبه التي كتب عن العرب الفصحاء ، قد ملأت له بيتاً الى قريب من السقف » ، ثم انه تقرأ فأحرقها كلها ، لا يخلو من مبالغة ، فليس من السهل على رجل كتابة هذا القدر من الكتب بالنسبة لذلك الوقت ، حيث كان الورق غالياً ، بحيث تحلأ بيتاً الى قريب من السقف ، ثم قيامه بإحراقها كلها يمثل هذه البساطة والسذاجة ، فهي في نظري قصة مصطنعة ، لا حقيقة فيها . وما يؤيد سذاجة هذه القصة ، هو ان صاحبها عاد فقال انه رجع بعد الى علمه الأول ، فلم يكن أمامه عنده إلا ما حفظه بقلبه^١ ، مما يثبت انه أراد من وضعها المبالغة في علمه ، يزعمه انه كان قد حفظ ما شاء الله من العلم ، ومنه الشعر الجاهلي الذي كان يمجده ، ويرى انه وحده هو الشعر ، ولهذا لم يستشهد أو يحتاج ببيت اسلامي ، مهما بلغ الشعر الاسلامي من الجودة والحسن ، لأنه شعر محدث ، والمحدث لا يقاس بالشعر الجاهلي الأصيل ، مهما بلغ من الاتقان .

وقد زعم أنه قال : « ما زدت في شعر العرب إلا بيتاً واحداً » ، يعني ما يروى للأعشى من قوله :

وأكثرني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلما^٢ ،

ولا ندرى بالطبع إذا كان هذا الكلام المنسوب الى (أبي عمرو) هو من كلامه حقاً ، أو كان من الكلام المصنوع المنحول عليه . واذا كان صحيحاً ، فان فيه تلميحاً الى أن هناك من قد اتهمه بالوضع ، جرياً على العادة التي كانت اذ ذاك من اتهام العلماء بعضهم بعضاً بالوضع ، فروي هذا الخبر في تبرير ذمته من الوضع ، وإنه لم يضع في حياته إلا البيت المذكور .

و (عوانة بن الحكم بن عياض) الكلبي ، ويكنى (أبا الحكم) ، من هذم

١ البيان والتبيين (٣٢١/١) .

٢ المزهر (٤١٥/٢) ، الاغانى (١٤٣/٣) .

الرعيل الذي كان له فضل في جمع الشعر . كان من علماء الكوفة، راوية للأخبار عالماً بالشعر والنسب ، وكان قصيحاً ضريراً . وله كتب . منها كتاب التاريخ وكتاب سيرة معاوية وبني أمية ، وقد ذكر بعضهم أنه (لمنجاب بن الحارث) ، غير أن (ابن النديم) ، نص على أنه لعوانة ، وليس لمنجاب . وذكر (ابن النديم) أنه قرأ بخط (أبي عبد الله بن مقلة) « قال أبو العباس ثعلب : جمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولقاتها الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وردَّ الديوان الى حماد وجناد »^١ . مما يدل على أن (الوليد) كان قد استعار منها ديواناً كان عندهما في أشعار العرب . ولعل كل واحد منها كان قد جمع ديواناً خاصاً به ، فاستعان (الوليد) بهما في اخراج ديوان واحد يضم ما جاء في الديوانين من شعر . وكانت وفاة (عوانة) سنة (١٤٧ هـ) .

و (الفضل بن محمد بن يعلى الضبي) الكوفي ، المتوفى سنة (١٦٤ هـ) ، (١٦٨ هـ) ، (١٧٠ هـ) ، هو من أصحاب العلم بالشعر ، وكان قد انضم الى جماعة (ابراهيم بن عبد الله بن الحسن) العلوي ، فظفر به المنصور ، وعفا عنه ، وألزمه ابنه (المهدي) ، وجعله مؤدياً له . وللمهدي عمل الأشعار المختارة المسماة (الفضليات) ، « وهي مائة وثمان وعشرون قصيدة ، وقد تزيد وتنقص وتتقدم الفصائد وتتأخر بحسب الرواية عنه . والصحيحة التي رواها عنه ابن الأعرابي . قال : وأول النسخة لتأبط شراً :

يا عبد مالك من شوق وإبراق ومرّ طيف على الأهوال طراق^٢

وذكر (ابن النديم) ان له من الكتب : (كتاب الاختيارات . وقد ذكرناه . كتاب الأمثال . كتاب العروض . كتاب معاني الشعر . كتاب الألفاظ)^٣ . وكتاب الاختيارات ، هو (الفضليات) ، ويظهر انه عرف بـ (الفضليات) نسبة الى الجامع ، فطغت هذه التسمية على الاسم الأصل^٤ .

-
- | | |
|---|---|
| ١ | الفهرست (١٤٠) . |
| ٢ | الفهرست (ص ١٠٨) ، الاغاني (١٢٥/٥) ، ياقوت ، ارشاد (١٧١/٧) ، بغية الرواة (٢٩٧/٢) وما بعدها ، انباه الرواة (٢٩٨/٣) وما بعدها ، ابن الانباري نزهة (٥٦) ، المعارف (٥٤٥) . |
| ٣ | الفهرست (١٠٨) . |
| ٤ | بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٧٢/١) وما بعدها . |

وكان المفضل عالماً بالشعر ، وكان أوثق من روى الشعر من الكوفيين . ولم يكن أعلمهم باللغة والنحو ، إنما كان يختص بالشعر . وقد روى عنه (أبو زيد) شعراً كثيراً^١ .

ولست هذه القصائد التي يضمها كتاب المفضليات كلها من جمع المفضل وترتيبه على ما جاء في بعض الموارد ، وليس في هذه القصائد المطبوعة في المفضليات إلا سبعون قصيدة هي من اختيار المفضل . أما بقيتها ، فهي زيادات وإضافات وضعت على تلك القصائد^٢ . وليس للمفضل منها على ما جاء في مورد آخر إلا ثمانون قصيدة هي التي أخرجها للمهدي . وأما ما تبقى منها ، فهي من اختيارات الأصمعي ، وهي أربعون قصيدة من مجموع عشرين ومئة^٣ . فيكون ثلثها على وفق هذه الرواية من اختيار المفضل . وأما الثلث الباقي ، فن اختيار الأصمعي^٤ . ولم يذكروا شيئاً عن القصائد الثماني الباقية ، وقد نص (ذيل الأمانى) على أنها مائة وعشرون^٥ .

ويدل هذا الاختلاف على أن رواة المفضليات لم يعتمدوا في روايتهم للكتاب على النسخة الأم ، وهي النسخة التي اختارها المفضل للمهدي . وإلا لما حدث اختلاف بين الروايات في ترتيب القصائد وفي عددها ، أو أن المفضل نفسه لم يدون اختياراته تلك في كتاب ، وإنما اختار ما اختاره دون تدوين ، فكان يحمله على المهدي مجلساً مجلساً ، حتى أكمل تلك الاختيارات ، وأنه ألقى اختياراته هذه على من كان يحضر مجلسه طلباً للشعر في مجالس أيضاً ، فن هنا وقع هذا الاختلاف . وقد كان يكفي بإلقاء المختار على طلابه دون شرح . أما الشرح المطبوع ، فليس من شرح الضبي وتفسيره ، وإنما هو من عمل رواة آخرين ورد ذكرهم في مقدمة الكتاب ، وليس للمفضل فيه إلا الاختيارات^٦ .

١ المزهري (٤٠٥/٢ وما بعدها) .

٢ مقاتل الطالبين (١١٩) ، « طبعة طهران » ، المفضليات (الترجمة الانكليزية) .
Vol., II, p. XIV.

٣ ذيل الامالي (١٣٠) ، (دار الكتب المصرية) .

٤ المفضليات (الترجمة الانكليزية) . Vol., II, p. XIV.

٥ ذيل الامالي (١٣٠) .

٦ راجع النص العربي للمفضليات (طبعة لايل) ، (١) .

والشرح المطبوع هو من صنع أبي محمد القاسم بن محمد بن بشار الأنباري وجمعه ، وقد أخذته من موارد متعددة أشار إليها في الكتاب . وقد رواه عنه ابنه أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري ، وعنه أبو بكر أحمد بن محمد الجراح الخزاز . وفي جملة من اعتمد عليه أبو محمد صاحب هذا الشرح من شيوخه ، عامر بن عمران أبو عكرمة الضبي ، وقد أملى عليه القصائد المختارة المنسوبة الى المفضل « إملاء » ، مجلساً مجلساً ، من أولها الى آخرها وذكر أنه أخذها عن أبي عبدالله محمد بن زياد الأعرابي ، وذكر أنه أخذها عن المفضل الضبي ^١ : كما كان في جملتهم أبو عمرو بندار الكرخي ، وأبو بكر العبدي ، وأبو عبدالله محمد بن رستم ، والطوسي ، وأبو جعفر أحمد بن عبيد بن ناصح . من هؤلاء ومن أمثالهم جمع الأنباري هذا الشرح ، وفيهم من هو من الكوفة وفيهم من هو من أهل البصرة وهم من أتباع الأصمعي ، ولهذا نجد رواياته تتداخل فيه من أبيات شعر أو قصائد لم يختارها المفضل ، ومن شرح أو تفسير لكلم غريب .

فالمفضليات وإن نسبت الى المفضل ، غير أنها في الواقع من جمع الأنباري المذكور ، وقد جمعها من أفواه جملة رجال ، كل واحد منهم له فيها عمل ويد . وفق الأنباري بين تلك القصائد والأشعار وبين هذه الروايات والمعارف الواردة عن الشعر ، وأخرج منها هذا الكتاب الثمين الكبير ^٢ .

وللمفضل أقوال حفظت في كتب أخرى غير هذا الكتاب ، فنجد أبا زيسد محمد بن أبي الخطاب القرشي صاحب كتاب جمهرة أشعار العرب يذكره في مواضع من كتابه ، ويذكر نتفاً من روايات مستندة إليه ^٣ ، كما نجد الأصبهاني يورد له أخباراً في الشعر في مواضع عديدة من كتابه الأغاني ، ونجد غيرهما من رجال الأدب يشيرون إليه . وفي الموارد التي أشاروا إليها ما يدل على علم واسع له في الشعر وعلى إدراك في النقد .

وإذا كان ما ذكره (ابن النديم) عن المفضليات من قوله : « هي مائة

١ المفضليات (١) (طبعة لایل) ، (النص العربي) .

٢ جواد علي ، تدوين الشعر الجاهلي ، مجلة المجمع العلمي العراقي (المجلد السابع) (الجزء الثاني ص ٥٢٠ وما بعدها) ، (١٩٥٦) .

٣ جمهرة أشعار العرب (القاهرة ١٩٢٦ م) .

وثمان وعشرون قصيدة ، وقد تزيد وتنقص وتتقدم وتتأخر ، بحسب الرواية ،
والصحيحة التي رواها عنه ابن الأعرابي ، قال : وأول النسخة لتأبط شرأ :

يا عيد مالك من شوق وإبراق ومرطيف على الأهوال طراق^١

تكون هذه النسخة أصح الروايات اذن ، وكان (ابن الأعرابي) المتوفى
سنة (٢٣١ هـ) قد سمع المفضل ، وكان يذكر انه ربيب المفضل ، كانت أمه
تحت^٢ ، فلا يستبعد أن تكون نسخته ، هي النسخة الصحيحة ، لاتصاله به .

وقد ذكر (أبو جعفر محمد بن الليث الأصفهاني قال : أملى علينا أبو عكرمة
الضبي المفضليات من أولها الى آخرها ، وذكر ان المفضل أخرج منها ثمانين قصيدة
للمهدي ، وقرئت بعد على الأصمعي فصارت مائة وعشرين . قال ابو الحسن^٣ :
أخبرنا أبو العباس ثعلب ان أبا العالية الأنطاكي والسدري ، وعافية بن شبيب ،
وهؤلاء كلهم بصريون من أصحاب الأصمعي ، أخبروه انهم قرأوا عليه المفضليات
ثم استقرأوا الشعر فأخذوا من كل شاعر خيار شعره ، وضموه الى المفضليات
وسألوه عما فيه مما أشكل عليهم من معاني الشعر وغريبه فكثرت جداً^٤ . وروي
عن (أبي عكرمة) قوله : « مر أبو جعفر المنصور بالمهدي ، وهو ينشد
المفضل قصيدة المسيب التي أولها أرحلت ... فلم يزل واقفاً من حيث لا يشعر به
حتى استوفى سماعها ، ثم صار الى مجلس له وأمر بإحضارهما ، فحدث المفضل
بوقوفه واستماعه لقصيدة المسيب واستحسانه اياها ، وقال له : لو عمدت الى أشعار
الشعراء المقلين واخترت لفتاك لكل شاعر أجود ما قال ، لكان ذلك صواباً !
ف فعل المفضل^٥ . »

ويلاحظ ان الرواة يختلفون فيما بينهم في عدد قصائد وقطع المفضليات ، فنهج
من جعلها مائة وثمان وعشرين قصيدة وقطعة ، كما هي رواية (ابن النديم) ،

١ الفهرست (١٠٨) .

٢ الفهرست (١٠٨ وما بعدها) .

٣ الاخفش .

٤ ذيل الامالي (١٣٠) .

٥ ذيل الامالي (١٣٠ وما بعدها) .

ومنهم من صبرها مائة وعشرين^١ .

وأما (جناد) (أبو محمد بن واصل) الكوفي مولى بني أسد ، فقد كان على حدّ وصف (ابن النديم) : « أعلم الناس بأشعار العرب وأيامها » ، غير أنه « لم يكن له علم بالنحو » ، و « كان يلحن كثيراً »^٢ . وهو يعدّ من الكوفيين ، وقد ذكروا أنه كثير الحفظ في قياس حماد الراوية ، وأن أهل الكوفة كانوا يلجأون إليه حين يشكون في شعر وحين يعزب عنهم اسم شاعر فيجدونه حافظاً وبما أرادوه عارفاً . غير أنهم مجمعون على أنه كان لحناً ، « كثير اللحن جداً » ، فوق لحن حماد . وقد ذكروا أمثلة على لحنه ، وعلى علم وقوفه على العروض ، فكان يخطيء فيه ويخلط في الأشعار^٣ . ومن كان ينتقض علمه ويرى قلة بضاعته في العربية وفي الشعر أيضاً ، (يونس بن حبيب) (١٨٣ هـ) ، وهو كما رأينا من المتحاملين أيضاً على (حماد) ومن المتعصبين للبصرة على الكوفة ؛ ولهذا يكون لتحامله على (جناد) أثر من التعصب للبصريين .

وقد أخذ (الثوري) على أهل الكوفة روايتهم عن (حماد) ، و (جناد) واتكلم عليهم ، وهما رجلان « كانا يرويان ولا يدریان ، كثرت رواياتهما ، وقلّ علمهما » ، ومن ثم فسدت روايتهم عن الرجلين . غير أن علينا أن نكون حذرين في تقبل هذه المؤاخذه على الكوفيين في رواية الشعر ، فقد كان (الثوري) من جماعة (الأصمعي) حتى كان ينسب إليه . وكان الأصمعي يحمل على حماد ، وعلى أهل الكوفة ، لأنه كان بصرياً ، فلا يستبعد تحمل التلميذ لاستاذه ، وتأثره به ، فقال ما قال جناد وحماد بداعي العاطفة والتعصب للبصريين على الكوفيين . وقد أشرت الى ورود رواية تنسب الى (ثعلب) ذكرت أن (الوليد بن يزيد ابن عبد الملك) « جمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها ولغاتها ... ورد الديوان الى حماد وجناد »^٤ ، مما يدل وجود ديوان للشعر عند (جناد) ، لعله كان من جمعه .

١ الفهرست (١٠٨) ، ذيل الامالي (١٣٠) .

٢ « من رواة الاخبار والأشعار ، لا علم له بالعربية ، وكان يصحف ويكسر الشعر ، ولا يميز بين الاعاريض المختلفة ، فيخلط بعضها ببعض » ، ياقوت ، ارشاد (٤٢٥/٢) .

٣ الارشاد (٤٢٥/٢) ، الفهرست (١٤١) .

٤ الفهرست (١٤٠) ، (أخبار عوانة) .

و (يونس بن حبيب) ، ويكنى (أبا عبد الرحمن) ، المتوفى سنة (١٨٢ هـ)
 (١٨٣ هـ) من رواة الشعر كذلك ، وان غلب النحو عليه^١ . ذكر انه كان
 مولى لبني ليث بن بكر بن عبد مائة بن كنانة ، وذكر انه من موالي ضبة .
 وقيل عنه : « كان أعلم الناس بتصاريف النحو » . وهو من أصحاب (أبي عمرو
 ابن العلاء) ، وكانت حلقته بالبصرة ، يتبها طلاب العلم وأهل الأدب وفصحاء
 الأعراب ووفود البادية^٢ . وكان له مذاهب وأقيسة تفرد بها^٣ .

وذكر ان (أبا عمرو) ، وهو (اسحاق بن مراد) ، المعروف بـ (الشيباني)
 مولى (بني شيبان) ، كان عالماً بشعر القبائل . « أخذ عنه دواوين أشعار
 القبائل كلها » . ولما جمع أشعار العرب كانت نيفاً وثمانين قبيلة . وقد توفي
 سنة (٢٠٦ هـ) ، وقيل سنة (٢١٣ هـ)^٤ . وكان قد خرج الى البادية ليأخذ
 عن الأعراب ، فكان يدون ما يأخذ منهم^٥ .

و (أبو عبيدة : معمر بن المنثي) التيمي ، هو من رواة الشعر وعلمائه ،
 كما كان من علماء اللغة وأخبار العرب وأنسابها ، وقد عرف بالطعن في أنساب
 الناس وبالبحث عن المثالب ، لذلك كرهه الناس ، فلما مات لم يحضر جنازته أحد ،
 لأنه لم يكن يسلم منه شريف ولا غيره . وقد توفي سنة ثمان وقيل تسع ، وقيل
 عشر وقيل إحدى عشرة ومائتين وقيل ثلاث عشرة ومائتين « وكان ديوان العرب
 في بيته »^٦ . وله كتب في الأخبار والحوادث والبيوت والنسب والشعر . وفي جملة
 مؤلفاته شرح ديوان المتلمس^٧ . ونجد له أخباراً عن أيام العرب ، مشتتة في بعض
 كتب الأدب^٨ ، وآراء في الشعر مدونة في تلك الكتب أيضاً .

-
- ١ المعارف (٥٤١) ، بغية الوعاة (٣٦٥/٢) ، مراتب النحويين (٢١ وما بعدها) ،
 المزهري (٣٩٩/٢ ، ٤٢٣) ، ابن خلكان (٤١٦/٢ وما بعدها) .
 - ٢ الفهرست (٦٩) .
 - ٣ ابن الانباري ، نزهة (٤٩ وما بعدها) .
 - ٤ الفهرست (١٠٧ وما بعدها) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٨٢/١) .
 - ٥ ابن الانباري ، نزهة (٩٣ وما بعدها) ، انباء الرواة (٢٢١/١ وما بعدها) ، بغية
 الوعاة (٤٣٩/١ وما بعدها) ، المزهري (٤١١/٢ وما بعدها) ، شذرات الذهب
 (٢٣/٢ وما بعدها) .
 - ٦ الفهرست (٨٥) ، المزهري (٤٠٢/٢ وما بعدها) ، المعارف (٥٤٣) ، انباء الرواة
 (٢٧٦/٣ وما بعدها) ، بغية الوعاة (٢٩٤/٢ وما بعدها) .
 - ٧ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٩٤/١) .
 - ٨ بروكلمن (١٢٨/١) ، ابن الانباري ، نزهة (١٠٤ وما بعدها) .

و (الأصمعي) (عبد الملك بن قريب بن عبد الملك) ، المتوفى سنة (٢١٣هـ)
 (٢١٦هـ) ، (٢١٧هـ) ، من العلماء الحفاظ للشعر ، وقد بالغ مترجموه في
 الثناء عليه ، فزعموا أنه كان يروي على روي كل حرف من حروف المعجم مائة
 قصيدة ، وذكر (ابن النديم) أنه عمل قطعة كبيرة من أشعار العرب ، ليست
 بالمرضية عند العلماء لقلة غربتها واختصار روايتها ^١ . ولا تشمل (الأصمعيات)
 إلا على (٧٢) قصيدة وقطعة ، ومجموع أبياتها (١١٦٣) بيتاً ، لكثرة ما فيها من
 المقطوعات . وعدد شعرائها واحد وستون شاعراً ، لم يسم ثلاثة منهم . وبقي
 خمسة مجهولين لا تعرف أسماؤهم في الموارد الأخرى . وأكثر الباقيين من الجاهليين ،
 وليس فيها إلا أربعة عشر شاعراً من المخضرمين والإسلاميين . وفيها قصيدة لكل
 من امرئ القيس وطرفة ^٢ . وقد نسب (ابن النديم) له كتاباً دعاه : « مصادر
 كتاب القصائد الست » ^٣ . وربما كان هو الكتاب الذي نشره (آلورد) برواية
 الأعم الشمتري بعنوان : دواوين الشعراء الستة ^٤ .

وذكر أن (الأصمعي) جمع أشعار (بني جعدة) ، وأشعار الأنصار ^٥ وأنه
 جمع (ديوان المتلمس) ^٦ ، وديوان امرئ القيس ، وأنه روى شرح هذا الديوان
 لأبي عمرو الشيباني ^٧ . وجمع ديوان الفرزدق وجريز ^٨ .

وروي أن الأصمعي كان « أثقن القوم باللغة ، وأعلمهم بالشعر ، وأحضرهم

- ١ الفهرست (٨٨ وما بعدها) ، ابن الانباري ، نزهة (١١٢ وما بعدها) ، بغية
 الوعاة (١١٢/٢ وما بعدها) ، المزهرة (٤٠٤/٢ وما بعدها) .
- ٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٧٤/١ وما بعدها) ، المعارف (٥٤٣) ، وقد
 بلغ عدد قصائدها ومقطوعاتها اثنتين وتسعين ، وهي موزعة على ٧١ شاعراً ، منهم
 نحو ٤٠ جاهلياً ، العصر الجاهلي ، لشوقي ضيف (١٧٨) .
- ٣ الفهرست (٨٨) .
- ٤ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٨٨/١) ،
 W Ahlward, The Diwan of the six ancient Arabic Poets, London, 1870.
- ٥ الاغانى (١٧١/٥) ، (٨٢/١٩ وما بعدها) ، بروكلمن (٨٤/١) .
- ٦ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٩٤/١) .
- ٧ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٠٠/١) .
- ٨ المصدر نفسه (٢١٢/١ ، ٢١٣ ، ٢٢٢) .

حفظاً ، وكان قد تعلم نقد الشعر من خلف الأحمر ^١ . وروي انه كان يقول أحفظ عشرة آلاف أرجوزة . وان الرشيد بسميه شيطان الشعر ، وروي انه كان يحفظ ستة عشر ألف أرجوزة ^٢ .

و (ابن الأعرابي) ، (أبو عبدالله محمد بن زياد الأعرابي) ، ممن سمع من (المفضل) الضبي ، وكان يذكر انه ربيب المفضل . كانت أمه تحته . ومات سنة (٢٣١ هـ) . فروايته للاختيارات ، يجب أن تعدّ من أصدق الروايات ، لاتصاله بالمفضل ، ولصلته به . وكان له مجلس ، يحضره طلاب العلم ، يسألونه فيه ويقرأ عليه ، فيجيب من غير كتاب . وكان ممن لازمه بضع عشرة سنة (أبو العباس) ثعلب . ويذكر (ثعلب) ان شيخه هذا قد أملى على الناس ما يحمل على أجمال . لم ير أحد في الشعر أغزر منه ^٣ . وقد أورد (ابن النديم) له جملة كتب ، روى بعضها عنه جماعة من مشاهير العلماء ، مثل (الطوسي) و (ثعلب) ^٤ . وذكر ان روايته للمفضليات تعدّ من أصح الروايات ^٥ . وقد سمع من المفضل الدواوين وصححها ، واعتبر رأساً في كلام العرب ، وكان من أكابر علماء اللغة المشار اليهم في معرفتها ^٦ .

وقد رمي بعض من جمع الشعر بالوضع وبانتحال الشعر وإدخاله في شعر القدماء ، واتهموا بدس القصائد عليهم ، أو بزيادتها أو بتقصيص أبيات منها ، أو بإجراء تغيير عليها . وقد تمكن بعض علماء الشعر من الإشارة الى بعض الشعر المصنوع ، أو المدخول ، ولم يتمكنوا من الإشارة الى البعض الآخر منه . ومن هؤلاء الذين عرفوا واشتهروا برواية الشعر وبعلمهم به ، وبصنعهم له ، ودسه بين الناس على أنه شعر قديم : حماد الراوية وخلف الأحمر .

فأما (حماد) الراوية فعلى رأس مشاهير رواة الشعر الجاهلي وحفاظه . وقد كان هو نفسه شاعراً مجيداً يضع الشعر على ألسنة المتقدمين ، لكنه اشتهر بالرواية

-
- ١ المزهري (٤٠٣/٢) .
 - ٢ الرافعي (١٥/٣) .
 - ٣ الفهرست (١٠٨ وما بعدها) .
 - ٤ الفهرست (١٠٩) .
 - ٥ ابن الانباري ، نزهة (٥٦) .
 - ٦ ابن الانباري ، نزهة (١٥٠ وما بعدها) ، بغية الوعاة (١٠٥/١ وما بعدها) ، المعارف (٥٤٦) ، المزهري (٤١١/٢) ، مراتب النحويين (١٤٩ وما بعدها) ، ابن الاثير ، الكامل (٢٧٥/٥) .

أكثر من اشتهاره بكونه شاعراً . ولد سنة (٧٥) للهجرة (٦٩٤م) بالكوفة، وهو من (الدليم) في الأصل ، وعرف بـ (أبي القاسم) . وعرف والده بـ (سابور ابن المبارك بن عبيد) . سباه (ابن عروة بن زيد الخيل) ، ووجهه لابتسه (ليلي) فخدمها خمسين سنة ، ثم ماتت فبيع بمائتي درهم ، فاشتراه (عامر بن مطر الشيباني) وأعتقه . وقيل إن اسم أبي (ليلي) (ميسرة) . وكان حماد ربما لحن في الشيء . وقيل إنه كان لصاً في شبابه ، يتشطر ويصحب الصعاليك والصوص ، فوجد في بعض سرقاته جزءاً من شعر الأنصار ، فقرأه واستعذبه وحفظه ، ثم اندفع في طلب الشعر وأيام الناس ولغات العرب^١ . وأخذ ينظم الشعر يشبه به مذهب شاعر مسن الشعراء ويدخله في شعره ، وكان هو بالشعر القديم بصيراً ، وحمل ذلك عنه في الآفاق ، فاختلف شعره بشعر الشعراء الجاهليين، وذاع بين الناس على أنه لهم ، حتى صار من الصعب حتى على نقاد ذلك الشعر والعالمين به ، تمييز الفاسد منه من الصحيح^٢ .

وذكر ان (حماداً) ، هو (حماد بن هرمز) ، وكان (هرمز) من سبي (مكنف بن زيد الخيل) وكان ديلمياً ، يكنى (أبإللي)^٣ . وإذا أخذنا برواية (ابن النديم) من ان مولد (حماد) كان سنة (خمس وسبعين) ، ومن أن وفاته كانت سنة ست وخمسين ومائة^٤ ، فيكون حينئذ قد عمر (٨١) سنة .

ويذكر (ابن النديم) ان (حماداً) كان في أيام (الوليد بن عبد الملك) ، وعاش الى سنة (١٥٦ هـ) ، وانه كان يقول : « كنت أنشد الوليد الشعر الجيد ، فيطلب مني السفساف فأنشده فيطرب ، فأعلم ان الأمر مدبر ، ثم أنشد المهدي السفساف ، فيطلب مني الجيد الفحل ، فأعلم ان أمرهم مقبل »^٥ . وذكر عنه انه كان يجالس (المهدي) . وذكر ان « الوليد بن يزيد بن عبد الملك

١ الاغاني (٨٧/٦) ، الخزائن (١٣١/٤) وما بعدها ، (بولاق) .

٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٢٤٥/١) وما بعدها ، الفهرست ، لابن النديم (١٤٠) ، الاغاني (١٦٣/٥) ، ابن خلكان (٢٠٥/١) ، (في ترجمة حماد) ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، تدوين الشعر الجاهلي ، المجلد الرابع (٥٢٧/٢) وما بعدها ، (١٩٥٦ م) .

٣ المعارف (٥٤١) ، ابن الانباري ، نزهة (٣٥) وما بعدها ، الاغاني (٧٠/٦) وما بعدها ، خزائن الادب (١٢٩/٤) وما بعدها ، المزهر (٤٠٦/٢) .

٤ الفهرست (ص ١٤٠) .

٥ الفهرست (ص ١٤٠) وما بعدها .

جمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ورد الديوان الى حماد وجناد^١ . ولم يشر (ابن النديم) الذي روى هذا الخبر نقلاً عن رواية تنسب الى (ثعلب) الى ديوان حماد المذكور في أثناء تحدّثه عنه . فقلعه قصد (الاختيارات) ، أي القصائد السبع ، وقد يكون قصد ديواناً آخر . ولم نسمع أي خبر عن مصير الديوان الذي جمعه الوليد بن يزيد .

ويذكر (ابن النديم) أنه لم يرَ لحامد كتاب ، وإنما روى عنه الناس وصنفت الكتب بعده^٢ . وهو خبر يظهر أن حماداً لم يؤلف كتاباً ، وإنما كان يروي الشعر رواية ، وعلمه املاء على طلاب الشعر ، فيدوّنونه . أما أن تصنيف الكتب لم يكن معروفاً آنذاك ، وإنما الناس صنفت الكتب بعده ، فيناقضه ما قاله (ابن النديم) نفسه ، من أن (زياد بن أبيه) ، ألف كتاباً في المثالب ، ودفعه الى ولده ، وقال ، استظهروا به على العرب فإنهم يكفون عنكم^٣ ، ومن أن (عبيد ابن شربة) الجرمي ، ألف كتاب الأمثال ، وكتاب الملوك وأخبار الماضين^٤ ، وقد طبع له كتاباً في (حيدر آباد) بالهند ، بعنوان : أخبار عبيد بن شربة الجرمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها ، وهو يشتمل على أسئلة لمعاوية وأجوبة عبيد عليها ، وما قاله من أن (صحاراً) العبدى له كتاب اسمه كتاب الأمثال^٥ ، وما قاله من أن لعوانة بن الحكم بن عياض الكلبي ، المتوفى سنة (١٤٧ هـ) ، أي قبل (حماد) من الكتب : كتاب التاريخ ، كتاب سيرة معاوية وبني أمية^٦ ، أضف الى ذلك ما ألفه (وهب بن منبه) المتوفى سنة (١١٤ هـ)^٧ ، و (أبو مخنف) ، و (ابن شهاب) الزهري ، و (ابن سيرين) وغيرهم^٨ .

وقد روى أهل الأخبار قصصاً عن مدى علم (حماد) بالشعر الجاهلي. وزعموا

-
- ١ الفهرست (ص ١٤٠) .
 - ٢ الفهرست (ص ١٤٠) .
 - ٣ الفهرست (١٣٧) ، (المقالة الثالثة) ، المعارف (١٧٦) ، النووي ، تهذيب الاسماء واللغات (٢٥٩ / ١) .
 - ٤ الفهرست (ص ١٣٨) .
 - ٥ الفهرست (ص ١٣٨) .
 - ٦ الفهرست (١٤٠) .
 - ٧ بروكلمن (٢٥١ / ١) وما بعدها .
 - ٨ راجع أخبارهم في بروكلمن (٢٥٣ / ١) وما بعدها .

ان خلفاء بني أمية كانوا اذا أشكل عليهم مشكل في الشعر سألوه ، وانهم كانوا يكتبون الى عمالهم بإرساله اليهم لاستفتائهم في أمر شعر جاهلي أشكل خبره عليهم وعلى من عندهم من أهل العلم بالشعر . من ذلك ما روه عن (حماد) قوله : « كان انقطاعي الى يزيد بن عبد الملك بن مروان في خلافته . وكان أخوه هشام يجفوني لذلك ، فلما مات يزيد وأفضت الخلافة الى هشام خفته ومكثت في بيتي سنة لا أخرج إلا لمن أثق به من اخواني سرّاً ، فلما لم أسمع أحداً ذكرني في السنة أمنت وخرجت وصليت الجمعة في الرصافة ، فإذا شرطيان قد وقفا عليّ وقالوا : يا حماد أجب الأمير يوسف بن عمر الثقفي ، وكان والياً على العراق : فقلت في نفسي من هذا كنت أخاف . ثم قلت لهما تدعاني حتى آتي أهلي وأودعهم ثم أسير معكما ! فقالا : ما الى ذلك من سبيل . فاستسلمت في أيديهما ، ثم صرت الى يوسف بن عمر ، وهو في الإيوان الأحمر ، فسلمت عليه ، فردّ عليّ السلام ورمى إلي بكتاب فيه بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله هشام أمير المؤمنين الى يوسف بن عمر . أما بعد ، فإذا قرأت كتابي هذا فابعث الى حماد الراوية من يأتيك به من غير ترويع وادفع له خمسمائة دينار وجملاً مهرياً يسير عليه ثنتي عشرة ليلة الى دمشق . فأخذت الدنانير ونظرت ، فإذا جمّل مرحول فركبت وسرت حتى وافيت دمشق في ثنتي عشرة ليلة ، فتزلت على باب هشام ، واستأذنت فأذن لي فدخلت عليه وهو جالس على طنفسة حمراء وعليه ثياب من حرير أحمر وقد ضمخ بالمسك ، فسلمت عليه ، فردّ عليّ السلام ، واستدنانني فدنوت منه حتى قبلت رجله ، فإذا جارينان لم أر أحسن منها قط . فقال : كيف أنت وكيف حالك ؟ فقلت بخير يا أمير المؤمنين . فقال : أندري فيما بعث اليك ؟ فقلت : لا . قال : بعث اليك بسبب بيت خطر ببالي لا أعرف قائله . قلت : وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال :

ودّعوا بالصباح يوماً فجاءت قينة في يمينها ابريق

فقلت يقوله عدي بن يزيد (؟) العبادي في قصيدة . قال : أنشدنيها ، فأنشدته :

بكر العاذلون في وضح الصب ح يحقولون لي أما تستفيق
ويلومون فيك يا ابنة عبدالله والقلب عنكم موثوق
لست أدري إذا كثر العذل فيها أعذول يلومني أم صديق

قال حماد : فانتهيت فيها الى قوله :

ودعوا بالصبح يوماً فجاءت قينة في يمينها ابريق
قدمته على عقار كعين الـ لديك صفى سلافها الرووق
مرة قبل مزجها ، فإذا ما مزجت لذّ طعمها من يلوق

قال : فطرب هشام ، ثم قال : أحسنت يا حماد ، سك حاجتك ؟ قلت :
احدى الجاريتين . قال : هما جميعاً لك بما عليها وما لها ، فأقام عنده مدة ،
ثم وصله بمائة ألف درهم^١.

وكل من تحدث عن حماد من مبغض وعبّ ، مجمع على سعة حفظه للشعر
ولإحاطته به . وحفظه هذا الشعر هو الذي وسمه بسمّة عرف بها طوال حياته وبعد
وفاته ، حتى صار لا يعرف إلا بها ، هي : (الراوية) ، فقليل له حماد الراوية.
ولو جرّد حماد من هذا النعت ، لما صار في الإمكان التعرف عليه . قيل إن
الخليفة (الوليد بن يزيد) قال لحامد الراوية : بمّ استحققت هذا اللقب ، فقل
لك الراوية ؟ فقال : بأنني أروي لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به ،
ثم أروي لأكثر منهم ممن تعرف أنك لم تعرفه ولم تسمع به ، ثم لا أنشد شعراً
قديماً ولا محدثاً إلا ميزت القديم منه من المحدث . فقال ، إن هذا العلم وأبيك
كثير ! فكم مقدار ما تحفظ من الشعر ؟ قال : كثيراً ، ولكنني أنشدك على كل
حرف من حروف المعجم مئة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون
شعر الإسلام . قال : سأمتحنك في هذا ، وأمره بالانشاد . فأنشد الوليد
حتى ضجر ، ثم وكل به من استحلفه أن يصدقه عنه ويستوفي عليه ، فأنشده
ألفين وتسع مئة قصيدة للجاهليين ، وأخبر الوليد بذلك ، فأمر له بمئة ألف
درهم^٢.

وفي الأغاني خبر آخر من هذا النوع يطري علم حماد ويثني عليه ، روي

١ ثمرات الاوراق ، لابن حجة الحموي (٨١/١) ، (حاشية على المستطرف) ، ابن
الانباري ، نزهة (٣٥ وما بعدها) ، الاغاني (٧٠/٦ وما بعدها) .

٢ الاغاني (٧١/٦) ، ابن خلكان (١٢٠/٥ وما بعدها) ، الخزائن (١٢٩/٤) وما
بعدها ، (بولاق) ، ياقوت ، ارشاد (٢٥٩/١٠) .

عن الشاعر (مروان بن أبي حفصة) . زعم أنه رآه عند (الوليد بن يزيد) . وكان قد دخل عليه في جماعة من الشعراء ، وهو في فرش قد غاب فيها ، وإذا رجل عنده ، كلما أنشد شاعر شعراً ، وقف الوليد بن يزيد على بيت من شعره ، وقال : هذا أخذه من موضع كذا وكذا ، وهذا المعنى نقله من موضع كذا وكذا من شعر فلان ، حتى أتى على أكثر الشعر ، فقلت : من هذا ؟ فقالوا : حماد الراوية . فلما وقفت بين يدي الوليد أنشده ، قلت : ما كلام هذا في مجلس أمير المؤمنين ، وهو لجنة لحانة ؟ فأقبل الشيخ علي وقال : يا ابن أخي ، لاني رجل أكلم العامة فأتكلم بكلامها ، فهل تروي من أشعار العرب شيئاً ؟ فذهب عني الشعر كله إلا شعر ابن مقبل ، فقلت له : نعم ، شعر ابن مقبل ، قال : أنشد ، فأنشدته قوله :

سل الدار من جَنِّي حَبْرٍ فَوَاهِبٍ إذا ما رأى هَضْبَ القليب المُفْجِعِ

ثم جرت ، فقال لي : قف ، فوقفت ، فقال لي : ماذا يقول ؟ فلم أدر ما يقول ! فقال لي حماد : يا ابن أخي ، أنا أعلم الناس بكلام العرب . يقال تراءى الموضعان إذا تقابلا^١ .

وقد كان الخليفة (الوليد بن يزيد) يعطف على حماد كثيراً ، ويشمله برعايته ، ويجالسه ، ويتباحث معه في الشعر . وقد كانت إحاطة حماد بالشعر هي السبب في تقديمه الى الخليفة ، إذ كان الوليد من العاشقين للشعر ومن الواقفين عليه المعروفين بسعة العلم به ، وكان هو نفسه شاعراً مجيداً^٢ . وقد ذكر عنه انه كان يمتلك ديواناً فيه أشعار الفحول ، أو جملة دواوين جمعت أشعار العرب ، كما سبق أن أشرت الى ذلك .

ويروى عن حماد انه كان ذا ذاكرة عجيبة ، وحافظة قوية غريبة في سرعة الحفظ . روي ان (الطرمّاح بن حكيم) قصّ على ابنه هذه القصة ، قال :

١ الاغاني (٧٢/٦) ، الزجاجي ، مجالس العلماء (٢٧ وما بعدها) .

٢ جمع شعر الوليد بن يزيد ورتبه المستشرق الايطالي ف . جبريالي ، ونشره المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٣٧ م ، بعنوان : ديوان الوليد بن يزيد ، وقسم له المرحوم خليل مردم بك .

أنشدت حماداً الراوية في مسجد الكوفة — وكان أذكي الناس وأحفظهم — قولي:

بان الخليط بسحرة فتبددوا

وهي ستون بيتاً : فسكت ساعة ولا أدري ما يريد ، ثم أقبل عليّ فقال : أهذه لك ؟ قلت : نعم ، قال : ليس الأمر كما تقول ، ثم ردها عليّ كلها وزيادة عشرين بيتاً زادها فيها في وقته ، فقلت له : ويحك ! إن هذا الشعر قلته منذ أيام ، ما اطلع عليه أحد ، قال : قد والله قلت أنا هذا الشعر منذ عشرين سنة ، وإلا فعليّ وعليّ ، فقلت : لله عليّ حجة حافياً راجلاً إن جالستك بعد هذا أبداً . فأخذ قبضة من حصي المسجد وقال : لله عليّ بكل حصاة من هذا الحصى مئة حجة إن كنت أبالي ، فقلت ، أنت رجل ماجن ، والكلام معك ضائع . ثم انصرفت ١ .

وقد أخذ عن (حماد) أهل المصرين : الكوفة والبصرة ، ومنهم : خلف الأحمر ، وروى عنه الأصمعي شيئاً من شعره . ونسب الى (الأصمعي) قوله : كل شيء في أيدينا من شعر امرئ القيس ، فهو عن حماد الراوية إلا شيئاً سمعناه من أبي عمرو بن العلاء ٢ .

واللهيثم بن عدي خبر يشيد فيه بعلم حماد وبسعة حفظه له . وهناك أخبار أخرى في سعة حفظ حماد للشعر ، مدونة في كتب الأدب ، قد يخرجنا سردها من صلب هذا الموضوع ٣ .

وقد عرف حماد كذلك بسعة علمه بالعربية ، فقالوا انه « كان من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها » . وورد عن الهيثم بن عدي قوله فيه : « ما رأيت رجلاً أعلم بكلام العرب من حماد » ، والهيثم راويته وصاحبه . وروي ان عمرو بن العلاء كان يقدم حماداً على نفسه ، وكان حماد يقدم عمرأ على نفسه ، وعمرو بن العلاء نفسه من شيوخ علماء العربية في ذلك العهد .

١ الاغاني (٩٤/٦ وما بعدها) .

٢ المزهر (٤٠٦/٢) ، ابن الانباري ، نزهة (٥٩) .

٣ الاغاني (٢٠٩/٢ وما بعدها) ، (٧٢/٦) ، (٤٥/٧) ، وما بعدها) .

٤ الاغاني (٧٠/٦ وما بعدها) ، ياقوت ، ارشاد (٢٦٥/١٠) .

٥ الاغاني (٧٣/٦) .

غير أن هنالك أخباراً تزعم أنه كان « قليل البضاعة من العربية » ، وأنه كان لحناً ، وأنه « حفظ القرآن الكريم من المصحف ، فصحف في نيف وثلاثين حرفاً »^١ ، وأنه قرأ « الغاديات ضيحاً » (بالغين المعجمة) ، فسعى به الى (عقبة بن مسلم بن قتيبة) الباهلي ، فامتحنه بالقراءة في المصحف، فصحف في عدة آيات^٢ . ولا استبعد وقوع اللحن منه ، إذ كان من الموالي ، بعد أن وقع اللحن من عرب خلص ومن أنبل الأسر العربية ومن بعض كبار رجال الدولة في ذلك العهد . غير أن في هذا الوارد عن قلة بضاعته في العربية وفي كثرة لحنه وتصحيحه في القرآن الكريم، مبالغات وزيادات ، وضعها عليه حساده ومنافسوه ولا شك ؛ إذ لا يعقل وقوع مثل هذه الأغلاط الشنيعة من رجل وصل الى الخلفاء برواية الشعر وبتفسيره وتفسير غريبه، وعرف بين العلماء بسعة علمه بلغات العرب ، حتى كانوا يلجأون اليه في حل مشكلها وغريبها . ولو كان على مثل ما ذكر من اللحن في الكلام والتصحيح فيه ومن قلة بضاعته في العربية ، لما وصل الى الوليد بن يزيد والى هشام والى خلفاء آخرين ، وقد كانوا لا يختارون في الشعر واللغة إلا الفطاحل القديرين . قال المدائني : « وكانت ملوك بني أمية تقدمه ، وتؤثره ، وتستزيده ، فيفد عليهم ، ويسأله عن أيام العرب وعلومها ، ويجزلون صلته » .

ولم يكن (حماد) عند أهل البصرة ثقة ولا مأموناً ، وكانوا يضعفونه . ذكروا انه كان يصنع الشعر ويقتني المصنوع منه وينسبه الى غير أهله . ورووا ان أعرابياً جاء مجلس (حماد) فأنشده قصيدة لم تعرف ، ولم يدرك لمن هي ، فقال حماد : اكتبوها ، فلما كتبوها ، وقام الأعرابي ، قال : لمن ترون أن نجعلها ؟ فقالوا أقوالاً ، فقال حماد : اجعلوها لطرفة^٣ . وروي انه قدم البصرة على (بلال بن أبي بردة) ، فقال ما أطرفتني شيئاً ، فعاد اليه فأنشده القصيدة التي في شعر الخطيئة مديح أبي موسى . فقال : ويحك يمدح الخطيئة أبا موسى لا أعلم به وأنا أروي للخطيئة ولكن دعها تذهب في الناس^٤ .

-
- ١ ابن خلكان (٢٠٧/١) .
 - ٢ ابن خلكان (١٢٩/٥) ، (حاشية رقم ١) ، (طبعة الدكتور أحمد فريد رفاعي) ، الموشح للمرزياني (١٩٥) ، (القاهرة ١٣٤٣) .
 - ٣ المزهر (٤٠٦/٢) .
 - ٤ طبقات ، لابن سلام (١٥) .

وقد اتهم (حماد) بالوضع ، قال (محمد بن سلام الجمحي) : « وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها ، حماد الراوية ، وكان غير موثوق به . وكان ينحل الشعر غيره ، ويزيد في الأشعار »^١ ، وقال : (يونس بن حبيب) : « إني لأعجب كيف أخذ الناس عن حماد ، وكان يكلب ويلحن ويكسر الشعر ، ويصحف ويكذب »^٢ . وروي عن الأصمعي قوله : « جالست حماداً الراوية ، فلم آخذ عنه ثلاثمائة حرف ، ولم أرض روايته وكان قارئاً »^٣ . وروي عنه أيضاً قوله : « كان حماد أعلم الناس إذا نصح » ، يعني إذا لم يزد وينقص في الأشعار والأخبار ، فإنه كان متهاً بأنه يقول الشعر وينحله شعراء العرب . وهؤلاء كلهم من رؤساء البصرة في العلم ، وقد كان علماء هذه المدينة يطعنون كما سبق أن قلت في علمه وفي أمانته ، ولكنهم يعترفون مع ذلك بقبليته وبمواهبه في الشعر ، حتى زعموا أنه كان إذا صنع الشعر على لسان شاعر جاهلي ، صعب حتى على العلماء ، استخراجه من الصحيح .

وقد أدخله الشريف (المرتضى) في عداد الزنادقة الملحدتين المتهمين في دينهم ، ومنهم الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وحماد الراوية ، وحماد بن الزبرقان ، وحماد عجرد ، وعبدالله بن المقفع ، وعبد الكريم بن أبي العوجاء ، وبشار بن برد ، ومطيع بن أبياس ، ويحيى بن زياد الحارثي ، وصالح بن عبد القدوس الأزدي ، وعلي بن خليل الشيباني ، وقال عن (حماد) : « وأما حماد الراوية ، فكان منسلخاً من الدين ، زارياً على أهله ، مدمناً لشرب الخمر وارتكاب الفجور »^٤ . ونقل عن (الجاحظ) أنه كان يجتمع مع أمثاله « على الشرب وقول الشعر ، ويهجو بعضهم بعضاً ، وكل منهم متهم في دينه » . وقال عنه : « وكان حماد مشهوراً بالكذب في الرواية وعمل الشعر ، وإضافته إلى الشعراء المتقدمين ودسه في أشعارهم ، حتى إن كثيراً من الرواة قالوا : قد أفسد حماد الشعر ، لأنه كان رجلاً يقدر على صنعة فيدس في شعر كل رجل منهم ما يشاكل طريقته ، فاختلط لذلك الصحيح بالسقيم »^٥ .

-
- ١ طبقات الشعراء (١٤) .
 - ٢ طبقات ابن سلام (١٥) ، المزهر (٤٠٦/٢) .
 - ٣ المعارف (٥٤١) ، المزهر (٤٠٧/٢) .
 - ٤ أمالي المرتضى (١/١٢٨ ، ١٣١ وما بعدها) .
 - ٥ أمالي المرتضى (١/١٣١ وما بعدها) .

و روي أن هارون الرشيد قال للمفضل بن محمد : كيف بدأ زهير بقوله :

دع ذا وعد القول في هرم

ولم يتقدم قبل ذلك شيء ينصرف عنه . فقال المفضل : قد جرت عادة الشعراء بأن يقدموا قبل المديح نسيباً ، ووصف ليل وركوب فلات ، ونحو ذلك . فكأن زهيراً همّ بذلك ، ثم قال لنفسه : دع هذا الذي هممت به مما جرت به العادة ، واصرف قولك الى مدح هرم . فهو أولى من صرف اليه القول ونظم ، وأحق من بدىء بذكره الكلام وختم . فاستحسن الرشيد قوله . وكان حماد الراوية حاضراً ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ليس هذا أول الشعر ، ولكن قبله :

لمن الديار بقنة الحجر

وذكر الأبيات الثلاثة . فالتفت الرشيد الى المفضل وقال : ألم تقل إن (دع ذا ...) أول الشعر ، فقال : ما سمعت بهذه الزيادة إلا يومي ، ويوشك أن تكون مصنوعة . فقال الرشيد لحماة : أصدقني ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا زدت هذه الأبيات . فقال الرشيد : من أراد الثقة والرواية الصحيحة فعليه بالمفضل ، ومن أراد الاستكثار والتوسع فعليه بحماة ^١ .

والقصة بهذا الشكل مصنوعة ، فالمعروف أن وفاة (حماد) كانت سنة (١٥٦هـ) وإن ولاية (الرشيد) للخلافة كانت سنة (١٧٠ هـ) . فلا يعقل التقاء (حماد) بالرشيد أيام خلافته . ومخاطبته له بـ (يا أمير المؤمنين) . ثم إن من الصعب تصور اعتراف (حماد) بإضافة أشعار من عنده على شعر الجاهلين بمثل هذه الصورة والبساطة ، وهو في حضرة خليفة . والأغلب أنها وضعت على حماد من خصومه ، للظعن به ، وللرفع من شأن (المفضل بن محمد) الضبي .

وقد وردت هذه القصة بشكل آخر ، وردت أنها وقعت في أيام (المهدي) ، روي أن جماعة من العلماء كانوا في دار أمير المؤمنين المهدي ببغداد ، وقد اجتمع فيها عدة من الرواة والعلماء بأيام العرب وآدابها وأشعارها ولغاتها ، إذ خرج بعض أصحاب الحاجب ، فدعا بالمفضل الضبي الراوية ، فدخل ، فكث ملأ ،

١ السيوطي ، شرح شواهد (٧٥٤/٢) .

ثم خرج الينا ، ومعه حماد والمفضل جميعاً ، وقد بان في وجه حماد الانكسار والغم ، وفي وجه المفضل السرور والنشاط ، ثم خرج حسين الخادم معها ، فقال : يا معشر من حضر من أهل العلم ، إن أمير المؤمنين يعلمكم انه قد وصل حماداً الشاعر بعشرين ألف درهم لجودة شعره ، وأبطل روايته لزيادته في أشعار الناس ما ليس منها ، ووصل المفضل بنحو مئتين ألفاً لصدقه وصحة روايته . فمن أراد أن يسمع شعراً جيداً محدثاً فليسمع من حماد ، ومن أراد رواية صحيحة فليأخذها عن المفضل . فسألنا عن السبب ، فأخبرنا ان المهدي قال للمفضل لما دعا به وحده : اني رأيت زهير بن أبي سلمى افتتح قصيدته بأن قال :

دع ذا وعدّ القول في هرم

ولم يتقدم له قبل ذلك قول ، فاما الذي أمر نفسه بتركه ؟ فقال له المفضل : ما سمعت يا أمير المؤمنين في هذا شيئاً ، إلا أنني توهمت انه كان يفكر في قول يقوله ، أو يروى في أن يقول شعراً ، فعدل عنه الى مدح هرم وقال : (دع ذا) ، أو كان مفكراً في شيء من شأنه فتركه وقال : «دع ذا» ، أي دع ما أنت فيه من الفكر وعدّ القول في هرم ، فأمسك عنه . ثم دعا بحماد ، فسأله عن مثل ما سأل عنه المفضل ، فقال : ليس هكذا قال زهير يا أمير المؤمنين ، قال : فكيف قال ؟ فأشبهه :

لمن الديار بقنة الحجر	أقوين مذ حجيج ومذ دهر ؟
فقر بمن دفع التحات من	ضفوى أولات الضال والسدر
دع ذا وعدّ القول في هرم	خير الكهول وسيد الحضر

قال : فأطرق المهدي ساعة ، ثم أقبل على حماد فقال له : قد بلغ أمير المؤمنين عنك خبر لا بد من استخلافتك عليه . ثم استخلفه بإيمان البيعة وكل يمين محرجة ليصدقته عن كل ما يسأله عنه ، فحلف له بما توثق منه . قال له : أصدقني عن حال هذه الآيات ومن أضافها الى زهير ، فأقر له حينئذ أنه قائلها . فأمر فيه وفي المفضل بما أمر به من شهرة أمرها وكشفه^١ .

١ الاغانى (٨٩/٦ وما بعدها) . الخزائن (١٢٨/٤ وما بعدها) ، (بولاق) .

فأنت ترى أن هذه القصة تكاد تكون القصة السابقة نفسها ، لولا ما أدخل عليها من ذكر اسم (المهدي) بدل الرشيد ومن تزويقات ، وهي أقرب الى الواقع من حيث الزمن من الأولى ، فقد أدرك (حماد) أيام خلافة المهدي . أما من حيث الصحة أو الكذب ، فربما كانت من وضع أعداء حماد عليه ، أو من وضع المتعصبين للمفضل الضبي المرجحين علمه على علم حماد .

وفي القصة الثانية موطن شك أيضاً ، فالمعروف أن خلافة المهدي كانت سنة (١٥٨ هـ) ، وأنه اتخذ داره بعيساباذ بعد توليه الخلافة ، وقد كانت وفاة حماد سنة (١٥٦ هـ) ، أي قبل توليه إمارة المؤمنين . فيظهر أنها من الموضوعات التي وضعت على حماد ، ربما وضعها أصحاب (المفضل) لتعظيم أمر صاحبهم ، وللحط من شأن حماد . وقد كان (المفضل) يكره (حماداً) الراوية ، ويطعن في علمه ، بسبب تنافس الرجلين على الزعامة في العلم .

وأكثر هذه التهم التي وجهت الى علم حماد والى جهله بالعربية ، وبالعروض ، إنما هي تهم وجهها اليه أهل البصرة ، عصبية لمدينتهم ولرجالهم ، وما اتهم (ابن سلام) و (يونس بن حبيب) لحامد ، بالتهم المذكورة ، سوى ترديد لهذه العصبية الضيقة ، وللخصومة على الزعامة التي كانت بين المدينتين . و (يونس ابن حبيب) الذي يحمل على حماد ، ويتهمه باللحن ، قد اتهم نفسه بتهمة اللحن ، اتهمه خصومه أهل الكوفة بالطبع ، ونجد مثل هذه الاتهامات من تجهيل العلماء بعضهم بعضاً بقواعد العربية وبالوقوع في اللحن ، في صفحات الكتب الباحثة في المناظرات وفي التراجم ، وفي كتب الأخبار والأدب ، حتى يكاد يكون من الصعب علينا العثور على عالم ، نقول إنه سلم من سهم من سهام النقد والتجريح .

ويظهر ان المنافسة على الزعامة في العلم بالشعر الجاهلي ، جعلت (المفضل الضبي) ينال من (حماد) ، ويظهر أثر هذه المنافسة فيما ينسب الى (الضبي) من أقوال ذكر انه قالها في (حماد) مثل قوله : « قد سُلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده ، فلا يصلح أبداً » . فقليل له : « وكيف ذلك ؟ انحطىء في رواية أم يلحن ؟ قال : « ليته كان كذلك ، فإن أهل العلم يردون من أخطأ الى الصواب ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره ، ويحمل ذلك عنه في الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم

ناقد ، وأين ذلك ؟ ١ .

و (ابن الأعرابي) ، الذي يروي انتقاص (المفضل) الضبي لحما ، هو على ما يذكر ربيب المفضل ، كانت أمه تحته^٢ ، فلا أستبعد تأثره بمحق الضبي على حماد ، بسبب المنافسة التي كانت بينه وبين حماد .

وقد اتهم حماد بالزندقة ، كما اتهم بها حماد عجرد ، ومطيع بن إياس ، ويحيى بن زياد ، وعلي بن الحليل ، وصالح بن عبد القدوس ، وبشار ، وأبي نواس . وقد وصف (الجاحظ) الزنادقة بقوله : « ربما سمع أحدهم ممن لا معرفة عنده ولا تحصيل له ، ان الزنادقة ظرفاء ، وانهم عقلاء وأدباء ، وانهم عبّاد وأصحاب اجتهاد ، وان لهم البصائر في دينهم ، والبذل لمهجهم ، وان هناك علماً وتمييزاً ، وإنصافاً وتحصيلاً » ، فيسري اليهم مسرى المهر الأرن ، ويحن اليهم حنين الواله العجول ، ويتصبب فيهم صباية العاشق المتيم ، ويرى انه متى اتهم بهم ، فقد قضى لهم بذلك كله ، فلا يزال كذلك حتى يسهل في طباعه ، ويرجح عنده أن يزعم انه زنديق . وذكر انه « ما منهم في الظاهر إلا نظيف البزة ، جميل الشكل ، ظاهر المروءة ، فصيح اللهجة ، ظريف التفصيل والجملة ، والله أعلم ببواطنهم وضمائرهم . قال أبو نواس ، وكان أيضاً زنديقاً يعدّ فيهم :

تبه مغن وظرف زنديق^٣ .

وكان حماد صديقاً لحمايين آخرين هما حماد عجرد ، وحماد بن الزبرقان ، وكانوا « يتنادمون على الشراب ويتناشدون الأشعار ، ويتعاشرون معاشرة جميلة ، وكانوا كأنهم نفس واحدة ، وكانوا يرمون بالزندقة^٤ . وقد هجا (حماد بن الزبرقان) (حماداً) الراوية ، فقال :

نعم الفتى لو كان يعرف ربّه ويقسم وقت صلاته حمادُ
هدلت مشافره الدنان فأنفه مثل القدوم يسنها الحدّادُ

-
- ١ ياقوت ، ارشاد (١٤٠ / ٤) ، (تحقيق مركليوث) ، الاغاني (٨٩ / ٦) .
 - ٢ الفهرست (١٠٨ وما بعدها) .
 - ٣ ثمار القلوب (١٧٦ وما بعدها) ، ديوان ابي نواس (٨٩) .
 - ٤ الاغاني (٧٤ / ٦ وما بعدها) ، الحيوان (٤٤٧ / ٤ وما بعدها) .

وأبيض من شرب المدامة وجهه فيأضه يوم الحساب سواد^١

غير أن علينا باعتبارنا من المؤرخين أن نحتراز احترازاً شديداً في تقبل كل ما يروى من الأخبار، ولا سيما في المسائل الشخصية، وفي القضايا التي تكتنفها الخصومات في مثل هذه الحالة . فقد كان لحماة خصوم كثيرون من أهل هذا الشأن ، وقد حسدوه على تقدمه وشهرته ، كما كان هو يحسد غيره ولا شك ان تقدم عليه . والانسان مهما تقدم وترفع ، فإنه لا يستطيع أن يجرد نفسه من العاطفة ، ولا سيما عاطفة الدفاع عن النفس وإثبات الشخصية والتنافس مع الآخرين. وقد كان المفضل الضبي - كما ذكرت - في جملة خصوم حماد ، وهو من رؤوس رواة الشعر في تلك الأيام ، وهو نفسه لم يكن من الناجين من هذه التهمة التي اتهم بها حماد . غير أن هذا لا يعني أن حماداً كان صادقاً في كل ما قاله وفي كل ما رواه ، فوضعه للشعر ، وصنعه له ، وحمله على القدماء من المسائل المتواترة التي لا سبيل الى نكرانها ، إنما أريد هنا أن أنبه على ضرورة التأني والتقصي في أثناء مجابته لمثل هذه الأخبار ، لنخرج ما قد بولغ أو زيد فيه ، حتى يكون حكمنا حكماً محايداً ، أو قريباً من الواقع .

وكما استدعى خلفاء بني أمية حماداً للاستفادة منه في الشعر ، كذلك استدعاه خلفاء بني العباس الأوائل ، كالمنصور والمهدي ، ليروي لهم ما كان يحفظه من الشعر والأخبار ، وليتحدث اليهم فيما أشكل عليهم من غريب الشعر. وقد استدعاه الخليفة المنصور مرة ، فأحضر من البصرة . غير أن صلاته بهم لم تكن على ما يظهر على نحو صلاته بالأمويين ، حيث حسب عليهم . واستدعى الى المهدي ، كما ذكرت ذلك . ونقرأ في رواية ان (حماداً) قال لإياس بن مطيع ، وقد ذكر صلاته بالعباسيين : « دعني فإن دولتي كانت في بني أمية ، وما لي عند هؤلاء خير »^٢ ، مما يخبر انه كان مجفواً عند بني العباس ، وذكر انه قال لمروان بن أبي حفصة : « ذهب ويحك ما كنت تعهد »^٣ . وقد يكون لتقدم (حماد)

١ الحيوان (٤٤٥/٤) .

٢ الاغانى (٨١/٦) ، (٢٥٣/٨) .

٣ « ذهب ويحك ما كنت تعهد ، ذلك زمان ، وهذا زمان » ، الزجاجي ، مجالس العلماء

(٢٨) ، الخزائن (١٣٠/٤) ، (بولاق) .

في العمر دخل في هذا البعد ، فقد كان قد جاوز السبعين من العمر في أيام المهدي ،
والعمر يؤثر بالطبع في مثل هذه الاتصالات ، التي تحتاج الى همة ونشاط ، وجواب
حاضر وبديهة ، وردّ على منافسين وحساد .

وعاش حماد فشهد سقوط دولة (بني أمية) ، إذ توفي سنة (١٥٦ هـ) ،
وذكر انه أبطل روايته فيما دسه على غيره من الشعراء .

ومن شعر (حماد) قوله :

إذا سرت في عجل فسر في صحابة وكنته فاحلرها حذارك للخسف
وفي شيمة الأعمى زيار وغيلة وقشب وإعمال لجندلة القندف
وكلم شرّ على ان رأسهم حميدة والميلاء حاضنة الكيسف
متى كنت في حيي بجيلة فاستمع فإن لهم قصفاً يدل على حتف
إذا اعتزموا يوماً على خنق زائر تداعوا عليه بالنباح وبالزف

وقوله مخاطباً الشاعر أبي عطاء السندي :

فأصفراء تكني أمّ عوفٍ كأن رُجَيْلتَيْها منجلان

وروي أن (أبا العطاء) أحسنّ بدمس حماد له ، فأجابه :

أردت زرارة وأزن زنا بأنك ما أردت سوى لساني

أي أردت جرادة ، وأظن ظناً بأنك ما أردت إلا أن تستخرج رطائي . وكان
في لسانه لكنة شديدة ولثغة ^٣ .

ويعدّ (ابن كناسة) أبو يحيى محمد بن عبدالله بن عبد الأعلى الأسدي
(٢٠٧ هـ) في جملة الرجال الذين اتصلوا بحماد ورووا عنه . ونجد في الأغاني
جملة أخبار رويت عن حماد في الشعر والأخبار . وابن كناسة نفسه من علماء

١ ارشاد ، لياقوت (١٣٧/٤ وما بعدها) ، شرح المفضليات (٨/٢) ، (لايل) ،
(مقدمة) ، الأغاني (١٦٤/٥ وما بعدها) ، الفهرست (١٤٠) ، بروكلمن
(٢٤٦/١) .

٢ الحيوان (٢٦٦/٢) .

٣ الحيوان (٥٥٨/٥) .

أيامه بالعربية وأيام الناس والشعر ، وقد سمع هشام بن عروة ، وسلمان الأعشى ، وروى عنه أحمد بن حنبل ومحمد بن اسحاق الصباغاني^١. كذلك كان أبو أيوب المديني في جملة من رأى حماداً وروى عنه^٢ .

ومن أصحاب حماد : سالم بن أبي السمعاء^٣ ، والشاعر عمار بن عمرو بن عبد الأكبر المعروف بـ (ذي كزاز) ، وهو من الشعراء المجان المعاقرين للشراب المتهتكين القائلين للشعر الطريف المضحك المستخدمين للسخف فيه لأجل الإضحاك^٤، وابن عياش^٥ ، والحسين بن يحيى^٦ ، ومعاوية بن بكر الباهلي^٧ .

ومن أشهر رواة الكوفة بعد حماد (خالد بن كلثوم) الكلبي ، وله صناعة في الأشعار المدونة على القبائل^٨ . وكان لغويّاً راوية لأشعار القبائل وأخبارها ، عارفاً بالأنساب والألقاب وأيام الناس . له كتاب أشعار القبائل يحتوي على عدة قبائل^٩ .

وأما خلف الأحمر ، الذي توفي بعد (حماد) ، سنة (١٨٠ هـ) على رواية : فذكر العلماء انه « لم ير قط أعلم بالشعر والشعراء من خلف الأحمر » : كان يعمل الشعر على ألسنة الفحول من القدماء فلا يتميز عن مقولهم ، ثم تنسك فكان يحتم القرآن كل يوم وليلة ، وبذل له بعض الملوك مالاً جزيلاً على أن يتكلم في بيت من الشعر شكّوا فيه فأبى^{١٠} . وقيل عنه « كان من أمّرس الناس لبّيت شعر ، وكان شاعراً يعمل الشعر على لسان العرب وينحله إياهم ...

١ الاغاني (١٣٥/١) .

٢ الاغاني (٢٦٦/٣) .

٣ الاغاني (٢٦٢/٥) .

٤ الاغاني (٥٦/٧ وما بعدها) .

٥ الاغاني (٦٧/٧) .

٦ الاغاني (٢٨٥/٨) .

٧ الاغاني (٧/١١) .

٨ الرافعي (٢٨٣/١) .

٩ القفطي ، انباء الرواة (٣٥٢/١) .

١٠ المستطرف (٦٠/١) ، (وكان من أمّرس الناس لبّيت شعر . وكان شاعراً ، يعمل الشعر على لسان العرب وينحله إياهم) ، الفهرست (٨٠) ، (أخبار خلف الأحمر) ، انباء الرواة (٣٤٨/١ وما بعدها) ، بنية الوعاة (٥٥٤/١) ، المزهر (٤٠٣/٢) .

وله من الكتب : كتاب العرب وما قيل فيها من الشعر ^١ . واسمه (خلف بن حيان) ، وعرف بـ (أبي محرز) ، وكان مولى لأبي موسى الأشعري، وقيل مولى بني أمية ، وأصله من (خراسان) ^٢ . وقيل مولى (أبي بردة بن أبي موسى الأشعري) اعتقه وأعتق أبويه ، وكانا فرغانيين ^٣ . وقد ذكر (ابن قتيبة) ان في شعر العلماء تكلف ، وهو رديء الصنعة ، ليس فيه شيء جاء عن إسماعيل وسهولة ، كشعر الأصمعي ، وشعر ابن المقفع ، وشعر الخليل ، خلا خلف الأحمر ، فإنه كان أجودهم طبعاً وأكثرهم شعراً ^٤ . وكان عالماً بالغريب والنحو والنسب والأخبار ، شاعراً كثير الشعر جيدة ، ولم يكن في نظرائه من أهل العلم أكثر شعراً منه . وكان يقول الشعر وينحله المتقدمين . ويكثر قول الشعر في وصف الحيات ، وأراجيزه في ذلك كثيرة ^٥ .

وقد ذكر عنه أنه كان يتلاعب بالشعر الجاهلي ، فيزيد فيه وينقص . يروى أنه زاد البيت الأول والثالث من قصيدة (زهير بن أبي سلمى) (رقم ٤) في الديوان ^٦ . ونسب بعضهم اليه صنع المراثية التي رثى (تأبط شراً) بها أقاربه ^٧ . وقد نسب بعض العلماء اليه صنع لأمية الشنفرى ^٨، المشهورة بلامية العرب التي أولها :

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني الى قوم سواكم لأميل

وروي عن (الأصمعي) قوله : سمعت خلفاً يقول : أنا وضعت على النابضة هذه القصيدة التي فيها :

خيلٌ صيامٌ وخيلٌ غيرُ صائمة تحت العجاج، وأخرى تعلق اللجأ

-
- ١ الفهرست (٨٠) ، المعارف (٥٤٤) ، تهذيب اللغة ، للازهري (٤٠ وما بعدها) ، طبقات ، لابن سلام (٦) .
 - ٢ الفهرست (٨٠) .
 - ٣ المعارف (٥٤٤) ، المزهر (٤٠٣/٢) ، الشعر والشعراء (٦٧٣/٢) .
 - ٤ الشعر والشعراء (١٦/١) .
 - ٥ الشعر والشعراء (٦٧٣/٢ وما بعدها) ، ياقوت ، ارشاد (٦٦/١١) ، نزهة الالباء (٣٧) ، الامالي ، للقاللي (١٥٤/١) ، الزبيدي ، طبقات (١١٣) .
 - ٦ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٦٥/١) .
 - ٧ المصدر نفسه (١٠٤/١) ، (حاشية رقم ١) .
 - ٨ الامالي ، للقاللي (١٥٧/١) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٠٦/١) .
 - ٩ الرافعي (٣٨١/١) .

وله قصائد أخرى نص على بعضها العلماء ويبنوا أنها مصنوعة ، وقد وضع على شعراء عبد القيس شعراً كثيراً^١ ، وقال الجاحظ : إنه هو الذي أورد على الناس نسب الأعراب ، وهذا النسب من أرق الشعر قاطبة وما أحراه أن يكون مصنوعاً^٢ . ولما توفي خلف رثاه أبو نواس يشعر فيه :

أودى جميع العلم مذ أودى خلف من لا يعدُّ العلم إلا ما عرف
قليلهم من العيالم الخسف كتبنا متى نشاء منه نغترف
رواية لا تجتني من الصحف^٣

وهو أحد رواة الغريب واللغة والشعر ونقاده والعلماء به وبقائليه وصناعته . وله صنعة فيه . وهو أحد الشعراء المحسنين ، ليس في رواة الشعر أحدٌ أشعر منه . وكان يبلغ من حذقه واقتداره على الشعر أن يشبه شعره بشعر القدماء ، حتى يشبه بذلك على جلة الرواة ، ولا يفرقون بينه وبين الشعر القديم ، من ذلك قصيدته التي نخلها ابن أخت تأبط شراً ، التي أولها :

إن بالشعب الذي دون سلع لقتيلاً دمه ما يطل^٤؛

جازت على جميع الرواة ، فما فُطِن بها إلا بعد دهر طويل بقوله :

خبر^٥ ما نابنا مُصمَّمَلْ جلّ حتى دقّ فيه الأجل

فقال بعضهم :

جلّ حتى دقّ فيه الأجل

من كلام المولدين . فحينئذ أقر بها خلف^٥ .

-
- ١ المزهري (٤٠٣/٢) .
 - ٢ الرافعي (٣٨١/١) وما بعدها .
 - ٣ الشعر والشعراء (٦٧٣/٢) ، الحيوان (١٥٤/٣) .
 - ٤ وتنسب أيضاً إلى تأبط شرا ، ديوان الحماسة (٣١٣/٢) ، العقد الفريد (١٥٧/٦) ، الأغاني (٨٧/٦) ، (ان بالشعب إلى جنب سلع) ، الأمالي (١٥٦/١) ، أمالي المرتضى (٢٨٠/٢) ، الشعر والشعراء (٦٧٤/٢) .
 - ٥ القفطي ، انباه الرواة (٣٤٨/١) وما بعدها .

كان (خلف الأحمر) رأس البصرة في رواية الشعر وفي البصر به. كما كان (حماد) زعيم الكوفة في هذا العلم . وكان (خلف) نفسه ممن أخذ هذا العلم عن (حماد) ، فهو من أحد تلامذته ورواته وسامعيه . وكان المقدم عند أهل البصرة ، حتى كانوا لا يصدرون الرأي في شعر دونه ، وإذا اختلف علماءهم في شيء منه ، عرضوا خلافهم عليه للبت فيه^١ . وروي انه كان أول من أحدث السماع بالبصرة ، وذلك انه جاء الى حماد الراوية ، فسمع منه^٢ .

وقيل عنه إنه كان شاعراً مجيداً جيد الشعر كثيره ، لم يكن في نظرائه أحد يقول مثله الشعر^٣ . ووضع على شعراء (عبد القيس) شعراً كثيراً موضوعاً وعلى غيرهم ، وأخذ ذلك عنه أهل البصرة وأهل الكوفة . وكان (خلف) أخذ النحو عن (عيسى بن عمر) ، وأخذ اللغة عن (أبي عمرو) . ولم يرَ أحد قط أعلم بالشعر والشعراء منه ، وكان يضرب به المثل في عمل الشعر ، وكان يعمل على ألسنة الناس ، فيشبه كل شعر يقوله بشعر الذي يضعه عليه ، ثم نسك فكان يحتم القرآن في كل يوم وليلة ، وبذل له بعض الملوك مالاً عظيماً خطيراً على أن يتكلم في بيت شعر شكوا فيه ، فأبى ذلك . وعليه قرأ أهل الكوفة أشعارهم ، وكانوا يقصدونه لما مات حماد الراوية ، لأنه كان قد أكثر الأخذ عنه . وبلغ مبلغاً لم يقاربه حماد . فلما نسك خرج الى أهل الكوفة فعرفهم الأشعار التي قد أدخلها في أشعار الناس ، فقالوا له : أنت كنت عندنا في ذلك الوقت أوثق منك الساعة ، فبقي ذلك في دواوينهم الى اليوم^٤ . وروي عن خلف قوله : « كنت آخذ من حماد الراوية الصحيح من أشعار العرب ، وأعطيه المنحول ، فيقبل ذلك مني ، ويدخله في أشعارها ، وكان فيه حق »^٥ .

ويصعب في الواقع تصديق هذه الرواية المنسوبة الى خلف الأحمر ، فلم يكن حماد بإجماع المنافسين له على شيء من الفضلة والحق ، حتى نصديق ما ورد في هذا الخبر الآحاد ، الذي هو خبر من أخبار رواة البصرة ، بل نرى من الأخبار

١ الرافعي (٢٨١/١) .

٢ ابن الأنباري : نزهة (٥٨ وما بعدها) .

٣ المعارف (٥٤٤) .

٤ المزهر (٤٠٣/٢) .

٥ الاغانى (٩٢/٦) ، (١٢٤/٩) .

الواردة عنهم العكس ، نرى فيه الفطنة والخبث الى آخر أيامه . ثم انه كان أقدم وأشهر وأعرف وأحفظ من خلف الأحمر ، وهو في معرفة الشعر وتمييزه أمرس من صاحبه خلف ، فلا يعقل قوات ما نحلّه (خلف) القدماء على حماد . وقد كان الرواة أنفسهم يتعجبون من مقدرة حماد على التمييز بين الصحيح والفاقد من الشعر ، وعلى إحاطته بأساليب الجاهليين في نظم القريض ، وعلى إتقانه تلك الأساليب ، حتى صار من الصعب على عشاق الشعر التمييز بين ما كان يصنعه حماد على ألسنة الشعراء الجاهليين وبين ما كان من نظمهم حقاً . ولله الأسباب يصعب التصديق بهذا الخبر ، ورأيت انه من وضع أهل البصرة ، وضموه على حماد ، كرهاً له وللكوفيين . ورواته هم من البصريين .

وما خبر توبة (خلف الأحمر) ، وخروجه الى أهل الكوفة ، ليعرفهم الأشعار التي أدخلها في أشعار الناس ، والتي أدخلها أهل الكوفة في دواوينهم ، وأبوا إصلاحها ، أو حذفها ، سوى قصة فيها الطعن والسخرية بعلم أهل الكوفة وبفهمهم للشعر ، وفيه مدح وتفخيم لعلم خلف بالشعر ، وإن كان لا يخلو من تجريخ لخلف نفسه، وفيه مدح لعلم أهل البصرة. ولصدقهم في رواية الشعر والأخبار استهزاء اذن وتعريض بأهل الكوفة ، ليس فوقه استهزاء ، وضعه رجل فيه دعاية وتعصب وتحامل على الكوفيين .

وقد اختص (خلف) بالفروع التي اختص بها حماد بالكوفة ، وبذلك جعل البصرة تنافس الكوفة فيها . اختص بالشعر القديم ، وباللغة ، وبشيء آخر مهم جداً هو وضع الشعر وحمله على ألسنة القدماء ، فصار في هذا الباب بطل البصرة وممثلاً ، كما كان حماد بطل الكوفة وزعيم الوضعيين . وقد امتاز خلف على الأصمعي العالم البصري ومعاصره بقدرته على نظم الشعر ، إذ كان هو نفسه شاعراً متمكناً في الشعر ، متقناً لفنونه ، كان من حذقه واقتداره في الشعر أن يشبه شعره بشعر القدماء فلا يفرق بينه وبين القديم . أما الأصمعي ، فلم يبلغ مبلغه فيه ، وإن كان من علماء اللغة والأدب والنحو ومن حفظة الشعر ورواته . وهناك روايات تنسب الصدوق الى خلف ، ثم لا تكفي بذلك حتى يجعله أعرف الناس وأعلمهم بالشعر. وروايات تذكر أنه كان أول من أحدث السماع بالبصرة ، وأنه تعلم ذلك من حماد^١ .

وكان (الأصمعي) ، وهو من علماء البصرة ، كما ذكرت ، غير راض عن (خلف) ، إذ كان يغمز فيه ، ويتهمة بالكلب . ويظهر أن ذلك بسبب المنافسة على الزعامة في العلم . روي عنه أنه قال في خلف : « رواة غير متفحين ، أنشدوني أربعين قصيدة لأبي دُوَاد الإيادي قالها خلف الأحمر . وهم قوم تعجبهم كثرة الرواية ، اليها يرجعون ، وبها يفتخرون »^١ . ويريد بهم أهل الكوفة . وذكر (الأصمعي) أيضاً أن خلفاً الأحمر « وضع على شعراء عبد القيس شعراً موضوعاً كثيراً ، وعلى غيرهم ، عبثاً بهم ، فأخذ ذلك عنه أهل البصرة وأهل الكوفة »^٢ .

وينسب الى الأصمعي قوله أنه حضر مائدة « وأبو محرز خلف الأحمر ، وابن مناذر معنا ، فقال له ابن مناذر : يا أبا محرز ان يكن امرؤ القيس، والنابعة ، وزهير ماتوا ، فهذه أشعارهم مخلدة ، فقس شعري الى شعرهم . قال : فأخذ صفحة مملوءة مرقاً ، فرمى به عليه فلاه ، فقام ابن مناذر مغضباً ، وأظنه هجاه بعد ذلك »^٣ . وهذه القصة - إن صحت - تشير الى وجود غلظة في طبع خلف . وهناك أخبار أخرى تؤيد هذا الرأي^٤ .

وقد أشار (ابن النديم) الى كتاب لخلف الأحمر ، أسماه : (كتاب العرب وما قيل فيها من الشعر)^٥ . وذكر ياقوت الحموي له كتابين : ديوان شعر حمله عنه أبو نواس ، وكتاب جبال العرب^٦ .

ومما يؤسف له حقاً، هو أن حماداً الراوية ، أو غير حماد ممن رروا عنه ، أو أخذوا عن غيره ، لم يشيروا الى الموارد التي أخذ حماد منها هذا الفيض من الشعر ، كما أنهم لم يشيروا الى الموارد التي استقى بقية رواة الشعر منها مارووه

١ الموشح (٢٠١ وما بعدها) .

٢ مراتب النحويين (٧٥) .

٣ الموشح (٢٩٦) ، الاغاني (١٧ / ١١) ، ياقوت ، ارشاد (١٧٩ / ٤) .

٤ « حدثني عمر بن شبة ، قال : أنشد أبو عبيدة خلفاً الاحمر شعراً له ، فقال له خلف : يا أبا عبيدة ، اخبأ هذه كما تخبأ السنور خرهما » الموشح (٣٦٦) وما بعدها .

٥ الفهرست (٧٤) .

٦ ياقوت ، ارشاد (١٧٩ / ٤) .

من الشعر الجاهلي . ولو ذكروه لأفادونا ولا شك بذلك كثيراً ، إذ يكون في مقدورنا التوصل الى معرفة الأشخاص الذين كان لهم فضل حمل هذه الثروة العظيمة من ذلك الشعر . ومما يؤسف له أيضاً هو أن معظم دواوين الشعراء الجاهليين لا يرتفع سندها الى رواة يتقدم عهدهم على عهد حماد . ولو ارتفعت لاستغفنا منها بالطبع كثيراً في معرفة أسماء رواة الشعر الجاهلي وحفاظه وجامعيه وكتبته قبل أيام حماد ، ولعرفنا بذلك شيئاً عن الموارد التي أخذ منها هذا الراوية ذلك الكثر الثمين .

ولا بد من ذكر (السكري) في هذا المكان . وهو (أبو سعيد الحسن بن الحسين) السكري اللغوي ، المتوفى سنة (٢٧٥ هـ) . فله مؤلفات عديدة عن الشعر ، وشروح للدواوين . منها : شرح أشعار هذيل^١ ، وديوان أبي كبير الهللي بشرح السكري^٢ ، وكتاب أخبار اللصوص ، جمع فيه أشعار لصوص البدو المشهورين^٣ ، وأشعار اليهود^٤ ، وشرح ديوان زهير^٥ ، وديوان امرئ القيس ، بروايته^٦ ، وشرح ديوان حسان ، وقد نقل منه (البغدادي)^٧ ، وديوان الخطيئة ، وهو روايته عن ابن حبيب^٨ ، وديوان أبي ذؤيب الهللي^٩ ، وشرحه على ديوان عبدالله بن قيس الرقيات^{١٠} ، وديوان الأخطل ، وهو روايته عن محمد بن حبيب عن ابن الأعرابي^{١١} ، وديوان الفرزدق^{١٢} .

وقد أخذ السكري من الموارد التي ألفت قبله ، كما أخذ من علماء المصريين : البصرة والكوفة ، دون تعصب أو تحزب ، وكان راوية البصريين^{١٣} .

-
- | | |
|----|----------------------------------|
| ١ | خزانة (٣١٧/٢) . |
| ٢ | بروكلمن (٨٤/١) . |
| ٣ | بروكلمن (٨٥/١) . |
| ٤ | بروكلمن (٨٤/١) . |
| ٥ | بروكلمن (٩٦/١) . |
| ٦ | بروكلمن (١٠٠/١) . |
| ٧ | خزانة (٣٣٣/٣) ، (٤٤/٤) . |
| ٨ | بروكلمن (١٦٨/١) . |
| ٩ | بروكلمن (١٦٩/١) . |
| ١٠ | بروكلمن (١٩٣/١) . |
| ١١ | بروكلمن (٢٠٨/١) . |
| ١٢ | بروكلمن (٢١٣/١) . |
| ١٣ | نزهة الالباء (١٤٤) وما بعدها . |

الفصل الرابع والخمسون بعد المئة

تنقيح الشعر والدواوين

والذي يطالع كتب الأدب والأخبار، ويقرأ ما ورد فيها عن الشعراء الجاهليين، يخرج منها بانطباع خلاصته أن أكثر شعراء الجاهلية ، لم يكونوا يهذبون شعرهم ، ولم يكونوا يثقفونه ، ولم يكونوا يحرون عليه نحويراً أو تغييراً أو تعديلاً ، بعد انشادهم له ، وإن أغلبهم كان يقول شعره ارتجالاً من غير تحضير سابق ولا تهية ، فهو من عفو الخاطر . جرت على ذلك سنة الشعراء في الجاهلية ، فكان شاعرهم يرتجل شعره حسب الظروف والمناسبات .

وتصدق دعوى أهل الأخبار هذه في شعر المناسبات وفي المفاجآت ، أي في الحالات التي لا يكون الشاعر فيها على علم مسبق بأنه سيقول فيها شيئاً من الشعر فتضطره المناسبة إلى قول شيء منه ، أما في الحالات الأخرى ، فإن دعواهم هذه لا يمكن قبولها ، بسبب أننا نجد أنهم يذكرون أن الشاعر كان يهيء شعره قبل إلقائه ، وأنه كان إذا نظم يحفظه رواته ، أو يدونه على صحيفة ، وقد ينقح فيه ويجود ، وإن من الشعراء من كان يحرص على ألا يذيع شعره إلا بعد أمد ، وإلا بعد أن يعرضه على خاصته ليرأى رأيهم فيه ، فيغير فيه ويبدل ، فإذا سمع آراءهم وملاحظاتهم ووجدوها وجيهة ، أخذ بها ، وصقل شعره بموجيها ، وعندئذ يذيعه ويعطيه روايته لينشره بين الناس .

جاء في (طبقات الشعراء) أن الرسول سأل (عبدالله بن رواحة) : وكيف تقول الشعر إذا قلت ؟ فأجابه : « أنظر في ذلك ثم أقول » . فأمره أن

يقول شعراً تقتضيه الساعة ، وأخذ ينظر إليه : فانبعث عبد الله يقول شعراً ، ثم قال : « ولم أكن أعددت شيئاً »^١ . وجاء في كتاب « الشعر والشعراء » عن (الحارث بن حنظلة) ، وهو القائل :

أذنتنا بينها أسماء ربّ ثاورٍ يعلّ منه الثواء

ويقال إنه ارتجلها بين يدي عمرو بن هند ارتجالاً^٢ . ثم قال : « قال الأصمعي : قد أقوى الحارث بن حنظلة في قصيدته التي ارتجلها ، قال :

فلكنّا بذلك الناس إذ ما ملك المنلر بن ماء السماء

قال أبو محمد: ولن يضر ذلك في هذه القصيدة، لأنه ارتجلها فكانت كالخطبة^٣ . فاعتذر عن الإقواء بالارتجال ، ومعنى هذا أنه لو كان قد هيأها وأعدّها من قبل ، كما هي العادة لما وقع في الإقواء .

وفي جواب (عبدالله بن رواحة) « لم أكن أعددت شيئاً » ، وفي اعتذار المعتذر عن إقواء (الحارث بن حنظلة) ، دلالة بينة على أن الشعراء كانوا يهشون شعرهم وينقحونه قبل إنشاده ، وأنهم كانوا لا يقولون شيئاً منه إلا بعد أن يكون قد اختتم في رؤوسهم ورضوا عنه ، حتى يكون سديداً ، اللهم إلا في المناسبات وفي الظروف الحرجة التي تهز الشاعر فتحمله على نظم الشعر .

وورد أن (الحارث بن حنظلة) البشكري ، قال لقومه ، « وهو رئيس بكر ابن وائل : إني قد قلت قصيدة ، فمن قام بها ظفر بحجته وفلج على خصمه ، فروّاها ناساً منهم ، فلما قاموا بين يديه لم يرضهم ، فحين علم أنه لا يقوم بها أحد مقامه ، قال لهم : والله اني لأكره أن آتي الملك فيكلمني من وراء سبعة ستور ، وينضح أثري بالماء إذا انصرفت عنه ، وكان لبرص كان به ، غير اني لا أرى أحداً يقوم بها مقامي ، وأنا محتمل ذلك لكم »^٤ ، مما يدل على أنه كان قد أعدّها ونظمها بعد تروي ودراسة ، ثم ألقاها على الملك ، مع أننا

١ طبقات (٥٥) ، شرح شواهد ، للسيوطي (٢٩٣/١) ، العمدة (٢١٠/١) .

٢ الشعر والشعراء (١٢٧/١) وما بعدها ، العمدة (١٩٠/١) .

٣ الخزائن (٥١٩/١) .

نرى الكتب ، تذكر أنه ارتجلها ارتجالاً ، بمعنى أنها كانت من وحي الموقف والساعة ، ولم تكن مهيأة من قبل : لأن الارتجال في الكلام ، التكلم من غير تدبر ولا تهيئة سابقة ، وقيل من غير روية ولا فكر^١ . ويظهر أنهم قصدوا بالارتجال إلقاء الكلام من غير نظر الى صحيفة ، وذلك أوقع في النفس عندهم من الإلقاء عن شيء مكتوب ، على الرغم من كون صاحبه قد أعدّه من قبل وقد حفظه ، كما يفعل شعراء هذا اليوم من إنشادهم شعرهم المنظوم سابقاً من غير نظر في صحيفة ، ليظهر الشاعر وكأنه يرتجله ارتجالاً .

ولا يعقل أن يكون الشعر كله من نتاج المصادفة والمفاجأة ، وانه كان يحفظ على نحو ما قيل وأنشد ، فلم يجر عليه قلم ، ولم ينله تهذيب ولا تشذيب، ولا سيما بالنسبة للقصائد . فقد كان الشاعر ينظم شعره مقدماً في الغالب ، ثم ينشده رواه وجماعته ، لللا ينساه ، ثم يرى رأيهم فيه ، وقد يزيد هو عليه شيئاً ، وقد ينقص منه شيئاً ، ومن هنا نجد رواية أكثر القصائد لا تثبت على ترتيب واحد، وليست لها وحدة مستقلة ولا ترتيب متكامل ، إلا في أحوال نادرة ، ومن ثم اختلفت الرواية عن الشاعر ، فقد يكون أحد الرواة ، قد افترق عن الشاعر وابتعد عنه ، وهو يحفظ شعره على نحو ما سمعه منه ، على حين يكون الشاعر قد أضاف على شعراً شيئاً جديداً ، حفظه عنه غيره من الرواة ، فتسبب ذلك في ظهور الاختلاف في القصيدة الواحدة ، وتكون الرواية القديمة أقصر من الرواية الحديثة في العادة ، لعدم دخول الزيادة التي ترد متأخرة بالطبع على الشعر^٢ . روي عن (ابن مقبل) قوله : « اني لأرسل البيوت عوجاً ، فتأتي الرواة بها قد أقامتها »^٣ . فالرواة إن صح هذا الخبر ، يد في إصلاح الشعر، وفي تغييره ، وفي إقامة ما قد يكون فيه من اعوجاج .

ولا بد للشاعر من إعداد الشعر (القصيد) وتهيئته والنظر فيه قبل انشاده ، كما في شعر المدح والهجاء ، لما يجب أن يتفنن فيه الشاعر ، وهو على علم أن من سيقصده لمدحه ، قد قصده غيره للفاية نفسها ، وقد يصادف انشاده لشعره

١ تاج العروس (٣٣٧/٧) ، (رجل) .

٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٦١/١) .

٣ مجالس ثعلب (٤٨١) .

— وهو ما يقع في الغالب — بحضور عدد آخر من الشعراء المحترفين للشعر ،
المفتنين فيه ، فإذا هو لم يهيج شعره من قبل ولم يعرضه على أحد ولم يتغن فيه ،
ويأتي فيه بفرائب القنن ، ضاع شعره بين بقية الأشعار . فهو مضطر اذن على
إعداد شعره لإعداداً حسناً قبل إنشاده أمام الممدوح ، وحكته وتشذيبه لينال المكافاة
المرجوة بين بقية الشعر .

ونجد في شعر ينسب الى (امرئ القيس) ، يذكر فيه ان المعاني كانت
تتال عليه ، فكان يعمل رأيه فيها ، فيؤخر ويقدم ، ويتخير ما يستجد من غرر
الآيات :

أذود القوافي عني ذباداً ذباد غلام جريء جرادا
فلما كثرن وعينني تخبرت منهن ستا جبادا
فأعزل مرجانها جانباً وأخذ من درها المستجادا^١

وقد نسب بعض الرواة هذه الآيات الى غيره .

ولا بد في شعر الهجاء من إعداد ، ولا سيما في شعر الهجاء الذي يعدّ للردّ
على شاعر هجاء ، أو على شعر هجاء سابق ، إذ يجب في هذه الحالة اعداده
بناية لنحطيم الهاجي وإسقاطه وإخماله ، ويستدعي ذلك عمل الروية فيه والتأمل
طويلاً ، وإنشاد الشعر مراراً وتكراراً على الرواة والعارفين بالشعر لأخذ رأيهم
فيه . وقد يزيدون عليه وقد ينقصون منه ، فإذا رضي الشاعر عنه ، وقع به ،
أنشده أمام الناس ، وقد يكون في المواسم ليسير بين القبائل ، وقد يرسل مكتوباً
الى من يهمهم الأمر ليصل اليهم ذلك الهجاء . وقد يكون الشاعر (تميم بن مقبل)
(تميم بن أبي بن مقبل) ، قد عني هذا المعنى في البيت المنسوب قوله اليه :

بني عامر ، ما تأمرون بشاعر تخير بابات الكتاب هجائيا^٢

وبابات الكتاب ، سطره ، وهو بيت لا يخلو من غموض ، حتى ان علماء

١ ديوان امرئ القيس (٦٣) .

٢ ديوانه (ص ٤١٠) ، (الدكتور عزة حسن) ، «تخير آيات» ، العملة (١٦٧/٢) ،

الحيوان (١١٢/٧) .

اللغة اختلفوا في تفسيره ، اختلافاً كبيراً ، وقد يفهم منه أن الشاعر كان قد تخير هجاء ودونه في وجوه الكتاب ، أي أن الهجاء كان مدوناً بسطور ومكتوباً ، وقد يكون قد أُنلر به وتوعد ، بأن من سيهجوهم إذا لم يكفوا عن سفههم ، فإنه سيدلون هجاءه ويثبته في سطور وينشره بين الناس ، فهو ينلرهم به ويتوعدهم وقد أدخله صاحب (العملة) في « باب الوعيد والانذار » ، وقال : « كان العقلاء من الشعراء وذوو الخزم يتوعدون بالهجاء ، ويحذرون من سوء الاحدوثة ، ولا يمتضون القول إلا لضرورة لا يحسن السكوت معها »^١. وقد اتخذ (كولدزير) هذا البيت دليلاً على وجود التدوين في شعر الهجاء عند العرب ، كما اتخذ من شعر (ليلي الأخيلى) :

أتاني من الأنبياء أن عشيرة بشوران يزجون المطي المذللا
يروح ويغلو وفدهم بصحيفة ليستجلدوا لي ، ساء ذلك معيلاً^٢

دليلاً آخر على تدوين الهجاء .

وتنقيح الشعر تهذيبه . وأنقح شعره اذا حككه ، أي أزال عيوبه . ولهذا قيل : خير الشعر الحولي المنقح^٣ . فكان الشاعر اذا نظم شعراً أجال بصره به ، ليرى ما فيه من نشاز وعيوب ، فيحك منه ما يحتاج الى حك ، ويجيل بصره به الى أن يعجبه ويرضيه ، فيقوله للناس . وقد يتقمحه بعد إلقائه ، إذ قد يسمع نقداً يراه من شاعر أو من العارفين بالشعر ، صائياً ، فينقح الموضوع المنتقد . وقد يتبته الشاعر وهو يقرأ شعره على الملاء ، الى أفكار لم تكن تخطر على باله ساعة نظم شعره ، فينظمها ويضيفها الى ما نظمه .

وكان من الشعراء من يكتب ويقرأ ويدون شعره . ومن هؤلاء (عدي بن زيد العبادي) ، الذي كان يتولى مكاتبة العرب عند (كسرى) ، والذي كان قد حذق الكتابة بالعربية والفارسية^٤ . وهو من شعراء (الحيرة) ، والشاعر

١ العملة (١٦٧/٢) .

٢ ريجيس بلاشير ، تاريخ الادب العربي (٩٨) .

٣ تاج العروس (٢٤٢/٢) ، (نقح) ، (١٢٢/٧) ، (حك) .

٤ الاغانى (١٠١/٢) وما بعدها .

(سويد بن صامت الأوسي) ، و (عبدالله بن رواحة) ، و (كعب بن مالك الأنصاري) ، وهم من شعراء يثرب^١ ، ولهذا فلا يستبعد وقوع التدوين والتفتيح من هؤلاء الشعراء ومن أمثالهم الذين كانوا يقرأون ويكتبون ، يكتبون شعرهم ، ثم يجيئون النظر فيه ، فيغيرون منه ما شاعوا ويبدلون ما لا يعجبهم منه حتى يستوي ، فيذاع .

ولو ذهبنا هذا المذهب وقلنا بصحة المذكور في هذه الروايات ، حتى علينا أن نقول إن الشعراء الجاهليين ان لم يكن أكثرهم فبعضهم على الأقل كانوا يتقحون شعرهم ويعدلون فيه ويجبرونه ، حتى يستقيم في نظرهم ويستوي . فإذا رضوا عنه ، أذاعوه عندئذ ، وأنشدوه حين تدعو الداعية إلى الإنشاد . وقد يطول هذا التفتيح ، وقد ينقص . قد يقع في أيام ، وقد يقع في شهر أو شهرين أو حول أو أكثر . ومثل هذا التفتيح والتحكيك ، يستدعي وجود تلوين في الغالب ، بأن يدون الشاعر أو راويته الشعر ، ثم يجري التفتيح على المکتوب .

ذكر (ابن قتيبة) ، ان من الشعراء المتكلف والمطبوع . « فالتكلف هو الذي قوّم شعره بالثقاف ، وقعحه بطول التفتيش ، وأعاد فيه النظر بعد النظر ، كزهر والحطيئة . وكان الأصمعي يقول : زهر والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر ، لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين . وكان الحطيئة يقول : « خير الشعر الحولي^٢ المنقح المحكك » ، وكان زهير يسمى كُبَرَّ قصائده : (الحوليات)^٣ . وقد أشار بعض الشعراء الى تنقيحه شعره والى تهذيبه له ، وتحكيكه فيه . منهم الشاعر المخضرم (سويد بن كراع) من (عطل)^٤ ، وكان شاعراً محكماً^٥ . فقال في أبيات يذكر تنقيحه شعره :

أبيت بأبواب القوافي كأنما أصادي بها سرباً من الوحش نزعاً
أكالئها حتى أعمرس بعدما يكون سحيراً أو بعيداً فأهجماً

- ١ ابن سعد ، الطبقات (٢/٣ ص ٧٩) ، المحبر (٢٧١ وما بعدها) ، الاغانى (٢٥/٣) .
- ٢ الشعر والشعراء (٢٢/١ وما بعدها) ، (الثقافة) ، البيان والتبيين (١٣/٢) ، (٢٠٤) ، (لجنة) ، البيان والتبيين (٢٠٤/١) ، (هارون) .
- ٣ الاغانى (١٢١/١١) ، الشعر والشعراء (٥٣٠/٢) ، (الثقافة) .
- ٤ الاصابة (١١٧/٢) ، (رقم ٣٧٢٢) .

إذا خضت أن تُروى علي رددتها وراء التراقي خشيةً أن تطلعا
وجشمتني خوف ابن عفان ردها فتفتتها حولاً جريداً ومربّعا
وقد كان في نفسي عليها زيادة فلم أرَ إلا أن أطيع وأسمعاً^١

وكان هجا قومه ، فاستعدوا عليه عثمان ، فأرعدته ، وأخذ عليه ألا يعود^٢ .
فأخذ يهذب شعره ويثقفه خشية الوقوع فيما لا يحمد عليه .

وذكر (ابن قتيبة) أن « المتكلف من الشعر وإن كان جيداً محكماً ، فليس
به خفاءً على ذوي العلم ، لثبوتهم فيه ما نزل بصاحبه من طول التفكير ، وشدة
العناء ، ورشح الجبين ، وكثرة الضرورات ، وحذف ما بالمعاني حاجة اليه ،
وزيادة ما بالمعاني غنى عنه »^٣ .

وقال : « والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر وانتدر على القوافي ، وأراك
في صدر بيته عجزه ، وفي فاتحته قافيته ، وتبينت على شعره رونق الطبع ووشي
الغريزة ، وإذا لم يتلعم ولم يتزحر »^٤ .

والتكلف في نظم الشعر شيء مجموع ما في ذلك شك ، لما فيه من تصنع
وتنطع ، وخروج على عفو الخاطر ، وعلى الطبع . أما تهذيب الشعر ومراجعته
وتشذيبه ، والتأني فيه ، والنظر فيه ، لتعيده وتشذيبه ، حتى يكون عذباً نقياً ،
نابغاً عن شاعرية وسليقة ، خالياً من الشطحات والزوات ، يعجب السامع ، فأمر
آخر ، على ألا يتجاوز الحد ، بحيث يخضع الشعور لاستبداد الصنعة ، فهو عندئذ
معيب . وقد رأى (الأصمعي) ، وهو من نقدة الشعر وعلائه ، في تثقيف الشعر
ونحكه وتشذيبه عبودية للشعر ، انتقد (زهيراً) و (الخطيئة) عليها ، فقال :
« زهير بن أبي سلمى والخطيئة وأشباهها ، عبيد الشعر . وكذلك كل من جود
في جميع شعره ، ووقف عند كل بيت قاله ، وأعاد فيه النظر حتى يخرج
أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة . وكان يقال : لولا ان الشعر قد كان
استعبدهم واستخرج مجهودهم ، حتى أدخلهم في باب التكلف وأصحاب الصنعة ،

-
- ١ الشعر والشعراء (٢٣/١) ، (الثقافة) .
 - ٢ الشعر والشعراء (٥٣٠/٢) ، (الثقافة) .
 - ٣ الشعر والشعراء (٣٢/١) ، (الثقافة) .
 - ٤ المصدر نفسه (٣٤/١) .

ومن يلتمس قهر الكلام ، واغتصاب الألفاظ ، لذهبوا مذهب المطوعين ، الذين تأتبعهم المعاني سهواً ورهواً ، وتثال عليهم الألفاظ اثثيالاً ، وانما الشعر المحمود كشعر النابغة الجعدي .. ولذلك قالوا في شعره : مطرفٌ بآلاف ، وخار بواف . وقد كان يخالف في ذلك جميع الرواة والشعراء ^١ . وقد فسر (ابن قتيبة) الجملة الأخيرة المتعلقة بالنابغة الجعدي ، بقوله : « وكان العلماء يقولون في شعره خار بواف ، ومطرفٌ بآلاف . يريدون ان في شعره تفاوتاً ، فبعضه حد مبرز ، وبعضه رديء ساقط » ^٢ .

وجاء في (العمدة) (لابن رشيق) : « وكان الأصمعي يقول : زهير والنابغة من عبيد الشعر ، يريد أنهما يتكلفان إصلاحه ، ويشغلان به حواسها وخواطرها » ^٣ ، فوضع (النابغة) في موضع (الحطيثة) المذكور في (البيان والتبيين) وفي الموارد الأخرى .

قال (السيوطي) : « قال الجاحظ في البيان : كان الشاعر من العرب يمكث في القصيدة الحول ، ويسمون تلك القصائد الحوليات والمنقحات والمحكات ، يصير قائلها فحلاً خنثيداً وشاعراً مفلحاً » ^٤ . فالقصيدة الحولية المنقحة المحكمة ، هي القصيدة التي يتأنى بها صاحبها ، فيهدب فيها ويشذب ، حتى يحكمها ، لتصبح متماسكة بينة متينة ، ومن هنا قال (الحطيثة) : « خير الشعر الحولي المنقح » ، أو « خير الشعر الحولي المحكك » ^٥ . وكانوا يسمون تلك القصائد أيضاً المقلدات ^٦ ، والحوليات ، والمنقحات ، والمحكات . وقد أوجز (السيوطي) كلام (الجاحظ) ، الذي أدرك ما كان يفعله الشاعر بشعره من تغيير وتبديل ومن تنقيح وتجويد ، حتى يرضى عنه . فقال أكثر مما نقله (السيوطي) عنه ، قال إن من الشعراء « من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كريئاً وزمناً طويلاً ، يردد فيها نظره ، ويجعل فيها عقله ويقلب فيها رأيه ، إتماماً لعقله ، وتتبعاً على

-
- ١ البيان والتبيين (١٣/٢) « لجنة » ، الشعر والشعراء (٢٢/١ وما بعدها) ، (بيروت ، دار الثقافة) ، (٨١/١ وما بعدها) .
 - ٢ الشعر والشعراء (٢١٠/١) .
 - ٣ العمدة (١٣٣/١) .
 - ٤ شرح شواهد (٢٦/١) ، باختلاف اللفظ ، البيان والتبيين (١٣/٢) .
 - ٥ البيان والتبيين (٢٠٤/١) ، (١٣/٢) .
 - ٦ البيان والتبيين (٢٦/٢) ، (٩/٢) ، (لجنة) .

نفسه ، فيجعل عقله زماناً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره ^١ . يفعلون ذلك ليخرج شعرهم بليغاً بيتاً ، خالصاً نقياً ، حتى ينالوا منه ما يريدون من التأثير في السامع ، ومن استهواء الناس اليهم . وكانوا إذا احتاجوا الى الرأي في معازم التدبير ومهمات الأمور ميّثوا الكلام في صدورهم وقتلوه على أنفسهم ، فإذا قوّمه الثقات وأدخل الكبير وقام على الخلاص أبرزوه محكماً منقحاً ومُصَفّى من الأدناس مهذباً ^٢ ، وقال : « وكانوا يُسمون تلك القصائد الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات ، ليصير قائلها فحلاً خنديزاً وشاعراً مقلقاً ^٣ .

والحوليات ، هي القصائد التي يحول عليها الحول . والمقلدات ، البواقي من الشعر على الدهر وقلائده ^٤ . والمنقحات ، القصائد المنقحة المهذبة المحككة . يقال : خير الشعر الحولي المنقح ، وأنقح شعره اذا حككه ، وأحسن النظر فيه، وأصلحه وأزال عيوبه ^٥ . وقد كان الشاعر يحيل النظر في شعره ، ويفكر فيه ويصلح منه ، قبل أن يعرضه على الناس ، حتى لا يعاب عليه ، فيغض من قدره ، وتهبط منزلته بين الناس ، وتطمع فيه الشعراء . فهؤلاء الشعراء ، هم أصحاب فن ، لا مهمهم الإخراج الكثير ، بل الشعر المحكك المنسق المنقح ، ولذلك يمكنون أمداً بعبودون النظر فيه حتى يعجبهم نظمه ، فيذيعونه عندئذ بين الناس .

وقد عرف (طفيل الغنوي) في الجاهلية بالمحبر ، وذهب علماء الشعر الى انه انما عرف بذلك لحسن شعره ^٦ ، وكان مثل زهير والنابعة « في التنقيح وفي التثقيف والتحكيك ^٧ . وقد عرف (ربيعة بن سفيان) الشاعر الفارس بالمحبر « لتحجيره شعره وتزيينه كأنه حبر ^٨ . و (الخطيئة) ، و (النمر بن ثعلب) من هذه الطبقة التي تأنقت في شعرها وثقفتة ^٩ . وقد عرف (النمر بن تولب) بالكيس

-
- ١ البيان والتبيين (٩/٢) .
 - ٢ البيان والتبيين (١٤/٢) ، (٩/٢) ، (هارون) .
 - ٣ البيان والتبيين (١٤/٢) .
 - ٤ تاج العروس (٤٧٥/٢) ، (قلد) .
 - ٥ تاج العروس (٢٤٢/٢) ، (نقح) .
 - ٦ العمدة (١٣٣/١) ، الشعر والشعراء (٣٦٤/١) .
 - ٧ العمدة (١٣٣/١) ، تاج العروس (١١٩/٣) ، (حبر) .
 - ٨ تاج العروس (١١٩/٣) ، (حبر) .
 - ٩ العمدة (١٣٣/١) .

لحسن شعره^١ : وورد في رواية أخرى انه انما قيل له المحبر لقوله :

سماوته أسمال بردحبر وسائره من أنحى معصب^٢

وكان (طفيل بن عوف بن كعب) (طفيل بن كعب) الغنوي ، أحد نعات الخليل من الجاهليين ، فعرف بطفيل الخليل لكثرة وصفه إياها ، قيل انه كان من أوصف الناس للخييل^٣ ، وقد أخذ عنه بعض الشعراء ، مثل النابغة وزهير . وقيل انه كان ثالث الشعراء الوصافين للخييل^٤ . وقد نشر (كرنكو) ديواني طفيل والطرماع مع ترجمتهما الى الانكليزية ، وذلك ضمن سلسلة منشورات (جب)^٥ .

ذكر أن أبا بكر قال يوماً للأنصار : زادكم الله عتاً يا معشر الأنصار خيراً ، فما مثلنا ومثلكم إلا كما قال طفيل الغنوي :

جزى الله عتاً جعفرأ حين أزلقت بنا نعلنا في الواطئين فزلت
أبوا أن يملّونا ولو أن أمتنا تلاقي الذي يلقون منا ملّت

وروي أن معاوية قال : دعوا لي طفيلاً وسائر الشعراء لكم ، وأن عبد الملك ابن مروان ، قال : من أراد أن يتعلم ركوب الخيل فليرو شعر طفيل .

ومن جيد الشعر المنسوب له ، قوله :

١ الشعر والشعراء (٢٢٧/١) ، العمدة (١٣٣/١) .

٢ الخزانة (٦٤٣/٣) .

٣ « طفيل بن عوف بن خلف بن ضبيس بن مالك بن سعد بن عوف بن كعب بن جلان ابن غنى بن أعصر » ، الخزانة (٦٤٣/٣) ، الاغاني (٨٥/١٦) وما بعدها ، (ساسي) ، الشعر والشعراء ، لابن قتيبة (٢٧٥) ، السيوطي ، شرح شواهد (٣٦٢/١) ، ديوان طفيل والطرماع ، (كرنكو) ، (لندن ١٩٢٧) ، بروكلمن تاريخ الادب العربي (١٢٠/١) ، الشعر والشعراء (٣٦٤/١) وما بعدها ، (الثقافة) ، السمط (٢١٠) ، المؤلف (١٤٧) .

٤ بروكلمن (١١٩/١) .

The Poems of T.B. 'A. al-Gh. and at-Tirimmah, ed and transl. by F. Krenkow, London, 1927 (E. J. W. Gibb Mem. XXV).

لاني، وإن قلّ مالي لا يفارقني مثل النعامة في أوصالها طول
أو قارح في الغرايات ذونسب وفي الجراء مِسْحُ الشدّ لجفيل
إن النساء كأشجار نبتن معاً منها المرار، وبعض الثبت مأكول
إن النساء متى يُنهين عن خلق فإنه واجب لا بدّ مفعول
لا ينصرفن لرشدٍ إن دعين له وهن بعد ملائم مخاويل^١

ومن شعره :

وللخيل أيامٌ فن يصطبر لها ويعرف لها أيامها الخير تعقب

وقد شرح ديوانه (يعقوب بن السكيت) ، وقد رجع اليه (البغدادي)^٢ .

وقد قسم (ابن رشيق) الشعر الى مطبوع ومصنوع . و « المطبوع هو الأصل
الذي وضع أولاً » ، وعليه المدار . والمصنوع وان وقع عليه هذا الاسم ، فليس
متكلفاً تكلف أشعار المولدين ، لكن وقع فيه هذا النوع الذي سمّوه صنعة من
غير قصد ولا تمثّل ، لكن بطباع القوم عفواً : فاستحسنوه ومالوا اليه بعض
الميل ، بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره ، حتى صنع زهير الحوليات على
وجه التنقيح والتثقيف : يصنع القصيدة ، ثم يكرر نظره فيها خوفاً من التعقب ،
بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة أو ليلة ، وربما رصّد أوقات نشاطه
فتباطأ عمله لذلك ، والعرب لا تنظر في أعطاف شعرها بأن تيجنس أو تطابق أو
تقابل ، فتترك لفظة للفظه ، أو معنى لمعنى ، كما يفعل المحدثون ، ولكن نظرها
في فصاحة الكلام وجزائه ، وبسط المعنى وإبرازه ، وإتقان بنية الشعر ، وإحكام
عقد القوافي ، وتلاحم الكلم بعضه ببعض حتى عدّوا من فضل صنعة الحطيثة
حسن نسق الكلام بعضه على بعض^٣ .

ولم يجب علماء الشعر الشعر المنقح المحكك ، إذا لم تؤثر فيه الكلفة ، ولم يظهر
عليه التعمّل ، ولم يخرج عن حدود الطبع . ومن هنا قال بعض الخدّاق بالكلام :
« قل من الشعر ما يخدمك ، ولا تقل منه ما تخدّمه . وهذا هو معنى قول

١ الشعر والشعراء (١/٣٦٤ وما بعدها) .

٢ الخزائن (٣/٦٤٢) .

٣ العمدة (١/١٢٩) ، (باب في المطبوع والمصنوع) .

الأصمعي^١ ، وهو أيضاً معنى (ابن رشيق) وغيره من علماء الشعر ، الذين يريدون شعراً طبيعياً صدر من القلب وعن عفو الخاطر ، لا تعمل فيه ولا تزويق يخرج من الطبع الى الصنعة ، فيكون ثقیل الظل لا تستسيغه الطباع .

ويرى (بروكلمن) أن « القصائد الطوال كالمعلقات ، لم يتم نظمها دفعة واحدة . ومهما كانت القافية كثيراً ما تهدي الشاعر في نظم شعره ، فإنه يجدر بنا أن نتصور نشأة القصيدة في الزمن القديم على غرار ما وصفه (موزل) عند شعراء البادية المحدثين . وعلى ذلك فلا يستبعد بحال من الأحوال أن تكون القصيدة من نتاج حول كامل . ومن هنا وجدنا رواية أكثر القصائد لا تثبت على ترتيب واحد . فقد ينشد الشاعر شعراً لرواته وأحبائه أول الأمر لثلا ينسأه ، ثم يزيد عليه ، لا سيما إذا ذكره أحباؤه بشيء غفل عنه ، وربما بدل بعض أبياته بعد ذلك بأخرى لم يسمعها ذووه الأولون ، فتختلف الرواية عن الشاعر . ولا يأبى الشاعر نفسه أن يعترف بأن كل ذلك من بنات أفكاره . وقد يكون ذلك أيضاً هو السبب في أن كثيراً من الشعر القديم لم تبق منه إلا قطع متفرقة^٢ .

ولا يختلف الشاعر الجاهلي عن الشاعر الاسلامي في نظري في تهذيب شعره وتنقيحه . فقد كان للفرزدق الشاعر المشهور الذي حفظ وروى شعر عدد كبير من الشعراء المتقدمين رواية ، كانوا يعدلون ما انحرف من شعره ، ويهذبون ما يحتاج منه الى تهذيب ، وكانوا يروونه . وكان لجرير ، الشاعر الآخر ، وهو خصم الفرزدق ومنافسه في قول الشعر ، رواته ومعدلو شعره . كانوا يقولون ما انحرف من شعره وما فيه من السناد^٣ . وإذا كان هذا شأن شعراء أيام الأمويين الذين ورثوا تقاليد الشعراء المخضرمين والجاهليين ، وساروا على هديهم في الشعر ، لا نستبعد إذن لجوء الشاعر الجاهلي ورواته الى التحكيك والتعديل واجراء التهذيب على شعره ، لغفلة قد تكون وقعت له ، وقد فانت عليه ، أو لمعنى فات عليه ، أدركه رواته عند إنشاده له ، أو غمز به خصومه فاضطر الى اجراء تنقيح عليه لإخراجه بالشكل الذي رآه يصلح فيه .

١ العملة (١٣٣/١) وما بعدها .

٢ بروكلمن (٦١/١) .

٣ الاغانى (٢٥٦/٤) وما بعدها ، (دار الكتب) .

وقد حكك وتفتح علماء الشعر ورواته ، ما سمعوه وأخذوه من شعر ، لأنهم وجدوا أنه في حاجة الى تحكيك، أو أنهم رأوا أن فيه خللاً ، وان عليهم واجب إصلاحه وتقويمه . أجروا مثل هذا التنقيح حتى في شعر الشعراء الإسلاميين . (دوي عن (الأصمعي) قوله : « قرأت على خلف شعر جرير ، فلما بلغت قوله :

فيا لك يوماً خيره قبل شرّه تغيب واشبه وأقصي عاذله

فقال : وبله ! وما ينفعه خير يؤول الى شر ؟ قلت له : هكذا قرأته على أبي عمرو . فقال لي : صدقت وكذا قاله جرير ، وكان قليل التنقيح ، مشرّداً الألفاظ ، وما كان أبو عمرو ليقرئك إلا كما سمع . فقلت : فكيف كان يجب أن يقول ؟ قال : الأجود له لو قال : فيا لك يوماً خيره دون شرّه .

فاروه هكذا ، فقد كانت الرواة قديماً تصلح من أشعار القدماء ، فقلت : لا أرويه بعد هذا إلاً هكذا ' .

وقد اضطر علماء الشعر الى تنقيح ألفاظ في الشعر بسبب تصحيف أو تحريف وقع عليها بفعل النسخ ، ومثل هذا التنقيح مستساغ بالطبع ، بل واجب لأن فيه إعادة الشعر الى الصواب ، على أن ينص على الأصل الذي كان مكتوباً به ، والتصحيح الذي أدخل عليه ، وعلى السبب الذي حمل العالم على اجرائه عليه .

دواوين الشعر الجاهلي :

ودواوين الشعراء الجاهليين ، الموجودة عندنا هي كلها وبغير استثناء من جمع علماء الشعر الاسلاميين . فلا يوجد من بينها ديوان واحد ذكر انه كان من جمع أهل الجاهلية . وقد شرع بصنع هذه الدواوين في العصر الأموي . وبلغت العناية بها ذروتها في القرن الثالث للهجرة . وقد أبدى علماء العراق من موالي وعرب تفوقاً كبيراً على غيرهم من علماء الأمصار الاسلامية في هذا الباب .

وقد نسب الى (ابن عباس) قوله : « إذا أعياكم تفسير آية من كتاب الله ،

١ ديوان جرير (٤٨٠) ، المرزباني ، الموشح (١٢٥) ، بروكلمن (٦٥ / ١) .

فاطلبوه في الشعر فإنه ديوان العرب ^١ . وإذا صح أن هذا الكلام الذي رواه (عكرمة) عن (عبدالله بن عباس) هو من كلامه نكون قد حصلنا لأول مرة على لفظة (الديوان) ، بالمعنى المفهوم من اللفظة في عرف علماء الشعر والناس . وذكر أن لفظة (الديوان) قد وردت في حديث : « لا يجمعهم ديوان حافظ » ^٢ . وإذا صح هذا الحديث وثبت ، يكون ورود اللفظة فيه قبل ورودها في كلام (ابن عباس) ، ومعنى هذا أنها كانت معروفة عند أهل الجاهلية . غير أن ورودها في هذا الحديث لا يعني ديوان شعر ، وإنما الجمع والاحصاء ، وبمعنى كتاب وسجل تدون فيه الأشياء .

وروي أيضاً أن الخليفة (عمر) سأل الصحابة عن هذه الآية : « أو يأخذهم على تخوف » ، فإن ربكم لرؤوف رحيم ^٣ ، فخاضوا في معناها ، فخرج رجل ممن كان حاضراً فلقى أعرابياً ، فقال التخوف : التنقص ، وكان ذلك الأعرابي من هذيل ، فقال له : هل تعرف العرب ذلك في أشعارها ؟ قال : نعم ، قال شاعرنا أبو كبير الهذلي :

تخوف الرجل منها تامكاً قرداً كما تخوف عود النبعة السفن

فقال عمر : أيها الناس عليكم بديوانكم لا تضلوا . قالوا : وما ديواننا ؟ قال : شعر الجاهلية ، فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم .

ويقال لمجموع الشعر المدون في دفتر أو كتاب (ديوان شعر) . فيقال (ديوان الشاعر) و (دواوين الشعراء) ، و (ديوان فلان) ، و (ديوان طيء) ، و (ديوان الأنصار) ، و (ديوان الشعراء الجاهليين) ، إلى غير

-
- ١ « وأخرج أبو بكر الأنباري في كتاب الوقف من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : إذا سألتهم عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر ، فإن الشعر ديوان العرب » المزهر (٣٠٢/٢) ، (٤٧٠/٢) (الأخبار الطوال (٣٣٢)) ، إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه ، فاطلبوه في أشعار العرب ، فإن الشعر ديوان العرب . وكان إذا سئل عن شيء من القرآن أنشد فيه شعراً ، العمدة (٣٠/١) .
 - ٢ تاج العروس (٢٠٤/٩) ، (دون) .
 - ٣ النحل ، الآية ٤٦ .
 - ٤ تفسير الطبري (٧٧/١٤) ، تفسير النيسابوري ، (٧٠/١٤ وما بعدها) ، وورد فيه أن اسم الشاعر : « زهير » .

ذلك . ويقصدون بذلك مجموعة أشعار جمعت في مجموع . وذكر بعض علماء اللغة ان الديوان « دفتر » ، ثم قيل لكل كتاب ، وقد ينحصر شعر شاعر معين مجازاً حتى جاء حقيقة فيه . فعانيه خمسة : الكتبة وعلمهم والدفتر وكل كتاب ومجموع الشعر . والديوان في الأصل الكتاب يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية . وأول من وضعه عمر . ويرى علماء اللغة ان اللفظة من الألفاظ العربية عن الفارسية ، وان كسرى كان قد رتب الدواوين لكتابه ولعاملاتهم ، فلما جاء الاسلام، وظهرت الحاجة الى تنظيم العمل . أمر الخليفة (عمر) باتخاذ الدواوين^١ .

وإذا حملنا قول أهل الأخبار انه قد كان عند النعمان بن المنذر « ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح به هو وأهل بيته »^٢ ، وقولهم ان النعمان ملك العرب كان قد أمر فنسخت له أشعار العرب في الطنوج ، وهي الكراريس ، ثم دفنها في قصره الأبيض ، فلما كان المختار بن أبي عبيد ، قيل له : ان تحت القصر كترأ ، فاحتفزه ، فأخرج تلك الأشعار^٣ ، على عمل الأخبار التي ظهرت في أيام الأمويين ، التي صنعها وروّجها بين الرواة حماد الراوية وأضرابه فإننا ثبت بذلك وجود الدواوين بالمعنى المفهوم من الديوان في أيام (حماد) ، وقبل أيامه . ولدينا أخبار أخرى تفيد ان الدواوين قد عرفت قبل أيام حماد .

ويظهر من قول (ابن سلام) : « وكان الشعر في الجاهلية ديوان علمهم ومتنهم حكيمهم ، به يأخذون واليه يصيرون . وقال ابن عوف عن ابن سيرين ، قال : قال عمر بن الخطاب : كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلو بالجهاد وغزوا فارس والروم ، ولهيت عن الشعر وروايته، فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار، راجعوا رواية الشعر ، فلم يثلوا الى ديوان مدون ، ولا كتاب مكتوب ... »^٤ أن الدواوين لم تكن موجودة ، وأن الشعر لم يكن مكتوباً في صدر الإسلام ، ولهذا ضاع أكثر الشعر الجاهلي بسبب انهماك حفظه في الحروب

١ تاج العروس (٢٠٤/٩) ، (دون) ، غرائب اللغة (٢٢٩) .

٢ طبقات الشعراء (١٠) ، المزهر (٤٧٤/٢) .

٣ الخصائص (٣٩٣/١) ، تاج العروس (٧٠/٢) ، (طنج) ، اللسان (١٤٢/٣) ، (طنج) .

٤ ابن سلام ، طبقات (١٠) .

وهلاك بعضهم فيها ، ومنها حروب الردة ، التي هلك فيها جمع من حفاظ الشعر من مسلمين ومن مشركين .

ويظهر مثل ذلك من رواية يرجع سندها الى (ابن سلام) تذكر أنه « كان الرجلان من بني مروان يختلفان في الشعر فيرسلان راكباً فينخ بيابه يعني قتادة بن دعامة ، فيسأله عنه ثم يشخص »^١ ، ويظهر من هذه الرواية إن صححت أن (قتادة) ، كان من الحافظين للشعر ، وقد عرف بأنه كان صاحب علم بأيام العرب وأنسابها وأحاديثها^٢ ، وله أخبار في تفسير القرآن^٣ ، ونعت بأنه كان من الحفاظ ، قال عنه (السيوطي) : « ولم يأتنا عن أحد من علم العرب أصح من شيء أتانا عن قتادة »^٤ . وهو من التابعين ، روي عن أنس وابن المسيب ، والحسن البصري ، وروى عنه (سعيد بن أبي عروبة)^٥ . وقد ضرب الجاحظ به المثل في الحفظ ، إذ قال : « كان يقال ، زهد الحسن ، وورع ابن سيرين ، وعقل مطرف ، وحفظ قتادة ، وكلهم من البصرة »^٦ . ويظهر أنه كان يروي الإسرائيليات^٧ . وجمع (سليمان بن عبد الملك) بين قتادة والزهري ، فغلب (قتادة) (الزهري) ، فقليل لسليمان في ذلك ، فقال : إنه فقيه مليح . فقال القحطمي^٨ : لا ، ولكنه تعصب للقرشية ، ولانقطاعه كان اليهم ، ولروايته فضائلهم^٩ . وقد عرف بالنسب^{١٠} ، وهو أحد رواة (رسالة عمر بن الخطاب) الى (أبي موسى) الأشعري في أصول القضاء^{١١} .

١ ابن سلام ، طبقات (١٧ وما بعدها) ، المزهر (٣٣٤/٢) .

٢ ابن سلام ، طبقات (١٨) .

٣ المزهر (٢٩/١) .

٤ المزهر (٣٣٤/٢) .

٥ المصدر نفسه (حاشية ١) .

٦ البيان والتبيين (٢٤٢/١) ، ثمار القلوب (٩٠) .

٧ البيان والتبيين (١٠٤/١ ، ٢٥٨) ، عيون الأخبار (١٧٩/٢) .

٨ القحطمي : أبو عبد الرحمن بن هشام بن قحتم القحطمي ، من أهل البصرة توفي

سنة (٢٢٢) ، لسان الميزان (٢٢٧/٦) .

٩ البيان والتبيين (٢٤٣/١) .

١٠ البيان والتبيين (٣٥٦/١) ، الحيوان (٢١٠/٣) .

١١ البيان والتبيين (٤٨/٢) .

وروى (الجاحظ) « ان رجلاً قتل أخوين في نقاب ، أحدهما بعالية الرمح ، والآخر بسافلته . وقلم في ذلك راكب من قبل بني مروان على قتادة يستثبت الخبر من قبله ، فأثبته »^١ . وهو يروى عن (ابن عباس)^٢ ، وعن (أبي موسى)^٣ ، ويظهر من الأخبار المنسوبة إليه انه من طراز القصاص ، الذين يروون الأخبار من دون نقد^٤ .

وورد ان الخطاط الشهير (خالد بن أبي الهيجا) ، وهو أول من كتب المصاحف في الصدر الأول ، وكان من أحسن الخطاطين في زمانه ، كتب المصاحف والشعر والأخبار للوليد بن عبد الملك^٥ . واذا صح هذا الخبر ، نكون قد وقفنا على جمع قديم للشعر ، هو في مقدمة المجموعات القديمة للشعر .

لكننا نجد في رواية تذكر ان حماداً الراوية سرق جزءاً من أشعار الأنصار ، فقرأه فاستحلاه وحفظه ، فن ثم صار يطلب الأدب ويحفظ الشعر^٦ . وهي رواية أشك في صحتها ، يظهر انها من موضوعات أعداء حماد ، ولو صحت لكانت دليلاً على وجود ديوان شعر ضم شعر الأنصار . كما نجد في خبر استدعاء (الوليد بن يزيد) له وإرساله إليه بمائتي دينار ، وأمره عامله (يوسف بن عمر) أن يحمله إليه على البريد ، وقوله في نفسه : « لا يسألني إلا عن طرفيه : قریش وثقيف : فنظرت في كتابي قریش وثقيف . فلما قدمت إليه سألتني عن أشعار بلى »^٧ ، دلالة على وجود ديوانين كانا عند (حماد) أحدهما ديوان شعر قریش ، والآخر ديوان شعر ثقيف . غير اننا لا نستطيع التأكد من صحة هذا الخبر ، وإن كنت لا أستبعده أيضاً ، لظهور التدوين قبل هذا العهد ، في أيام معاوية مثلاً .

واذا صح ما ذكره (ابن النديم) من قوله : « قال أبو العباس ثعلب جمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتنا الوليد بن يزيد بن عبد الملك ورد

-
- ١ البيان والتبيين (٢٧/٣) .
 - ٢ الحيوان (١٨٠/١) .
 - ٣ الحيوان (٢٩٦/١) .
 - ٤ الحيوان (٥٣٦/٥ ، ٥٣٧) ، (٢٩٣/٤ وما بعدها) .
 - ٥ الفهرست (١٥) ، (خطوط المصاحف) .
 - ٦ الاغانى (١٦٣/٥) .
 - ٧ الاغانى (٩٤/٦) .

الديوان الى حماد وجناد^١ ، فيكون معنى ذلك ، انه قد كان عند (حماد) و (جناد) ديوانان أو دواوين للشعر ، استعارهما منها (الوليد) ، وجمع منها ديوان العرب وأشعارهم ، ثم أعاد الديوانين الى صاحبيهما، ونكون بذلك قد وثقنا على وجود لفظة (ديوان) بالمعنى الاصطلاحي المعروف في أيام الأمويين، ووثقنا من وجود دواوين الشعر في تلك الأيام .

ولم أجد في الدواوين التي وصلت إلينا أو في كتب الأدب إشارات الى اقتباس رواة الشعر وحفظته وجامعه والمعتين به من هذا الديوان ولا وصفاً لمحترياته ولما كان بين دفتيه من قصائد وأشعار . ولو وصل إلينا شيء من هذا ، لأفادنا ولا شك كثيراً في التعرف على ذلك الديوان الملكي الذي يجب أن نعلمه أول ديوان شعر عربي وصل خبره إلينا بكل تأكيد حتى الآن .

ويذكر أن بعض شعراء العصر الأموي كانوا يملكون دواوين شعر لشعراء جاهليين . ذكر مثلاً أن (الفرزدق) كان يمتلك نسخة من ديوان الشاعر (زهير ابن أبي سلمى)^٢ .

وقد أطلق القدماء مصطلح (دفاتر أشعار العرب) على مدونات الشعر . والدفتر جماعة الصحف المضمومة^٣ ، وقسم (البغدادي) هذه الدفاتر الى قسمين: دواوين ومجاميع . فالدواوين ، هي دواوين الشعراء ، والمجاميع مثل أشعار بني محارب للشيباني ، والمفضليات للمفضل الضبي ، وأشعار الهذليين للسكري، وأشعار لصوص العرب للسكري ، وختار شعر الشعراء الست : امرئ القيس ، والناطقة ، وعلقمة ، وزهير ، وطرفة ، وعنترة وشرحها للأعلم الشتمري وغيرها^٤ .

ويظهر أن أول اختيار مدون للشعر عند العرب، كان القصائد المعروفة بالمعلقات اختارها حماد الراوية ، ثم سار من جاء بعده مثل (المفضل) الضبي ، وأبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ، ثم من جاء بعدهما على منهجه في اختيار وانتقاء الشعر والقصائد وجمعها في مجموعات . وقد ذكر (الجمحي) أن (حماداً)

١ الفهرست (١٤٠) .

٢ بلاشير (١٠٦) .

٣ تاج العروس (٢٠٩/٣) ، (دفتر) ، المصون (٤) .

٤ خزائن الادب (٩/١ وما بعدها) ، (بولاق) .

« كان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها ... وكان غير موثوق به .
كان ينحل شعر الرجل غيره ويزيد في الأشعار »^١ .

ولم أجد في الكتب المطبوعة التي تحدثت عن حماد ما يفيد اشتغال حماد بتدوين الشعر وإثباته في دواوين . وفي الفهرست عبارة تقطع بعدم ورود كتاب ولا ديوان كان من تأليف حماد أو جمعه ، إذ يقول : « ولم يُرَ لحامد كتاب ، وإنما روى عنه الناس ، وصنفت الكتب بعده »^٢ . ويفهم بالطبع من كلام (ابن النديم) هذا ان حماداً كان راوية حسب ، يروي للناس ما يحفظه من شعر دون أن يعتني هو نفسه بإثباته لما يحفظه في حروف وكلمات . غير انه يجب الاحتراز كثيراً في الأخذ برواية ابن النديم هذه ، إذ لا يعقل إهمال حماد ترتيب ما كان يحفظه من شعر كثير ، وتدوينه وإملاءه . وقد أهمل ابن النديم أسماء كتب عديدة لمؤلفين معروفين ، كما ذكر أسماء علماء لم يشر الى مؤلفات لهم ، مع ان غيره أشار الى مؤلفاتهم ، وقد وصلت بعض منها إلينا وطبعت ، فلا أستبعد أن يكون قول ابن النديم هذا من هذا القبيل .

ومما يقوي هذا الرأي ويؤيده ، ما ورد في مختارات (ابن الشجري) عن أبي حاتم السجستاني من وجود كتاب لحامد الراوية ، إذ قال : « قال أبو حاتم : هذا آخرها ، وفي كتاب حماد الراوية زيادة » ، وقوله : « قال السجستاني : وفي كتاب حماد الراوية زيادة بعد هذا البيت أربعة أبيات ، كتبها لي عرف المصنوع »^٣ . وقد أورد ابن الشجري قولتي السجستاني عند إيراده شعر الخطيئة . وكان السجستاني قد أشار الى كتاب حماد هذا ، لوجود أبيات فيه لم يجدها في رواية الأصمعي التي اعتمد عليها لشعر الخطيئة . وقد أورد تلك الزيادات ، ذاكراً انها مع ذكره لها من المصنوعات المردودات^٤ .

وفي عبارة (ابن النديم) : « ولم يُرَ لحامد كتاب ، وإنما روى عنه الناس

١ طبقات ، لابن سلام (١٤) .

٢ الفهرست (ص ١٣٥) ، « أخبار حماد » .

٣ مختارات ابن الشجري ، القسم الثالث (ص ١٢ ، ١٦) ، « تحقيق محمود حسن زفاتي » ، القاهرة ١٩٢٦ م .

٤ المورد المذكور .

وصنفت الكتب بعده^١ ، هفوة . فقد ذكر (ابن النديم) نفسه حين كلامه عن (عوانة) ، أن الخليفة (الوليد بن يزيد) « جمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها ... ورد الديوان الى حماد وجناد »^٢ ، وفي هذه الإشارة دلالة على أنه كان لحامد ديوان ، ثم نجده يذكر أنه كان لعوانة بن الحكم كتاب التاريخ ، وكتاب سيرة معاوية وبني أمية ، وقد توفي (عوانة) سنة (١٤٧هـ) ، أي قبل (حماد) المتوفى سنة (١٥٦م)^٣ ، ونجده يذكر لعبيد بن شربة الجرهمي كتاب الأمثال ، ويذكر لصحار العبدي كتاباً في الأمثال كذلك ، وقد عاشا قبل عوانة وحماد^٤ .

ودواوين الشعر أنواع : فقد يكون الديوان مجموع شعر شاعر واحد . وقد يكون مجموع شعر شعراء قبيلة ، أو مجموع شعر قبائل ، أو شعر جماعة مثل الأنصار ، وقد يكون مجموع شعر شعراء ، جمعت أشعارهم على شكل طبقات ، أو فن امتازوا به ، أو اختيارات أو أسباب أخرى تذكر في مقدمة الدواوين . ومن النوع الأول دواوين بعض الشعراء الجاهليين ، مثل ديوان امرئ القيس ، وديوان النابغة الذبياني ، وديوان عنتره ، وديوان المتلمس وغيرهم . وقد يجمع ديوان شاعر واحد عدة علماء ، فيرد الديوان بروايات مختلفة . وقد تختلف النسخ في ترتيب أبيات القصيدة ، وفي عدد القصائد ، وقد تزيد بعضها أشعاراً ، وقد تنقص بعض منها أشعاراً ، وقد تختلف نسخ الديوان الذي هو من جمع عالم واحد ، بسبب أن العلماء كانوا يملكون علمهم املاءً على تلامذتهم ، في مجالس املائهم ، فيقوم تلامذتهم بتدوين ما يملى عليهم . ويحدث أن العالم يسمع كتابته من بعض طلابه أو من كتابه ، فيصحح فيه ، وقد يزيد عليه ما فات عن ذاكرته يوم املائه في المرة الأولى ، فيأمر بتدوينه ، وقد يحذف منه شيئاً ، لم يرض عنه ، فتتعدد بذلك النسخ ، ويحدث ذلك في الكتب الأخرى ومن هنا تتعدد الروايات للديوان أو للكتاب ، مع أن جامعه أو مؤلفه رجل واحد .

وقد يأخذ الطالب هذا الديوان ، ثم يزيد عليه ما يسمعه من شيوخ آخرين ،

-
- ١ الفهرست (ص ١٣٥) ، (أخبار حماد) ، (١٤٠) ، (الاستقامة) .
 - ٢ الفهرست (١٤٠) ، (أخبار عوانة) .
 - ٣ الفهرست (١٤٠) .
 - ٤ الفهرست (١٢٨) .

وقد يعلق عليه ويزيد على شرحه ، شروحا سمعها من رجال آخرين . وبذلك تتولد نسخ جديدة ، تختلف عن النسخ الأم^١ .

وقد جمع العلماء دواوين الشعراء ، وقد وصل بعض منها ، وقصد البعض الآخر . وقد ذكر (العيني) انه كان قد حصل على ما ينيف على مائة ديوان شعر، من بينها ديوان امرىء القيس، وديوان النابغة الذبياني ، وديوان علقمة بن عبدة التميمي ، وديوان زهير بن أبي سلمى ، وديوان طرفة بن العبد ، وديوان عنبرة ابن شداد العبسي ، وديوان الأعشى ميمون ، وديوان الحطيثة ، وديوان أبي دؤاد، وديوان كعب بن زهير ، وديوان لبيد العامري ، وديوان الشنفرى ، وديوان الحارث بن حلزة ، وديوان أبي ذؤيب الهللي ، وديوان أبي كبير الهللي ، وديوان ساعدة بن جؤية الهللي ، وديوان أبي خراش الهللي ، وديوان أبي المثلم ، وديوان صخر الغي ، وديوان المتنخل ، وديوان أبي العيال ، وديوان السموأل ابن عاديا ، وديوان سحيم عبد بني الحسحاس ، وديوان عمرو بن قتيبة ، وديوان عمرو بن كلثوم ، وديوان أوس بن حجر ، وديوان النمر بن تولب ، وديوان أبي الطمحان القيبي^٢ ، وغير ذلك من دواوين لم أشر إليها . وما يؤسف له انه لم يذكر أسماء هذه الدواوين .

ومن النوع الثاني ، دواوين القبائل ، أو أشعار القبائل ، وقد ضمت شعر شعراء قبيلة أو شعر بعض من شعرائها ، فمن اشتهر وعرف ، وتحتوي بالإضافة الى الشعر كلاما يتصل بالشعر وبالشاعر وبالمناصفة التي قيل الشعر فيها ، وبنسب الشاعر وقبيلته ، على نحو ما نجده في الدواوين الخاصة ، فتكون بذلك وثائق مهمة جامعة لأمر شتى من حياة الجاهليين . وقد سميت هذه المجموعات بأشعار القبائل ، مثل : « أشعار الأزد » ، وأشعار حمير ، وأشعار الرباب ، وأشعار بني عامر بن صعصعة ، وأشعار فهم ، وشعر بني يشكر ، وأشعار بني عوف ابن همام ، وشعر هذيل^٣ . وأشعار تغلب للسكري ، وقد رجع اليه (البغدادى)^٤.

١ راجع في هذا الباب مصادر الشعر الجاهلي ، الباب الخامس وما بعده . (ص ٤٧٩ فما بعدها) .

٢ (٥٩٦/٤) ، (حاشية على الخزانة) .

٣ مصادر الشعر الجاهلي (ص ٥٤٣ وما بعدها) .

٤ خزانة (٣٠٤/١) .

وقد هلك أكثر ما جمع من أشعار القبائل ، ولم يصل إلينا مطبوعاً من هذه المجموعات إلا ديوان هذيل ، وأكثر شعراء هذا الديوان إسلاميون . وقد نال شعراء هذيل بذلك حظاً من العناية، كما نشرت لشعراء هذه القبيلة جملة دواوين^١ .

وقد أطلق (ابن النديم) جملة (أشعار العرب) على معنى ديوان أشعار العرب ، فذكر مثلاً أن (الأصمعي) ، عمل قطعة كبيرة من أشعار العرب ليست بالمرضية عند العلماء لقلة غريبها واختصار روايتها^٢ ، وذكر أن (خالد ابن كلثوم) الكلابي ، كان من رواة الأشعار والقبائل ، وله صنعة في الأشعار والقبائل ، وله من الكتب كتاب الشعراء المذكورين وكتاب أشعار القبائل، ويحتوي على عدة قبائل^٣ . وذكر أن (أبا عمرو الشيباني) (٢٠٦ هـ) ، كان عالماً بأشعار القبائل ، وقد أخذ العلماء عنه دواوين أشعار القبائل ، وكان قد جمع أشعار نيف وثمانين قبيلة^٤ . وذكر أيضاً أنه قد كان في بيت (أبي عبيدة) (٢١٠ هـ) (٢١١ هـ) (٢٠٨ هـ) ، (ديوان العرب)^٥ ، ويظهر أنه قصد به ديواناً ضم أشعار القبائل . فهو مجموع أشعار شعراء .

ومن النوع الثالث ، أي الكتب التي جمعت أشعار طبقة معينة من طبقات الشعراء أو المجتمع ، ما ذكره (ابن النديم) من أن (أبا العباس ثعلب) ، صنع قطعة من أشعار الفحول وغيرهم ، منهم الأعشى والنابتان وطفيل والطرماح^٦ . ومن أن (أبا بكر محمد بن القاسم) الأنباري ، وهو ممن أخذ عن (ثعلب) ، كان قد عمل عدة دواوين من أشعار العرب الفحول ، منه شعر زهير ، والنابتة ، والجعلدي ، والأعشى^٧ . وقد عمل (محمد بن حبيب) قطعة من أشعار العرب ، وكتاباً سماه : (كتاب أخبار الشعراء وطبقاتهم)^٨ ، وألف (ابن سلام) (٢٣١ هـ)

-
- ١ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٨٢/١ وما بعدها) .
 - ٢ الفهرست (٨٩) .
 - ٣ الفهرست (١٠٤) .
 - ٤ الفهرست (١٠٧) .
 - ٥ الفهرست (٨٥) .
 - ٦ الفهرست (١١٧) .
 - ٧ الفهرست (١١٨) .
 - ٨ الفهرست (١٦١) .

كتاباً في طبقات الشعراء ، عرف بـ (طبقات الشعراء) ، وهو مطبوع معروف .
ولعمر بن شبة كتاب في الطبقات اسمه : (كتاب طبقات الشعراء)^١ .

هذا ونقرأ في كتاب (الفهرست) لابن النديم ، وفي مؤلفات أخرى أن من العلماء من ألف كتباً في القبائل ، مثل : (كتاب الأوس والخزرج) لأبي عبيدة^٢ : وكتاب لإباد ، وكتاب كنانة ، وكتاب بني نهشل ، وكتاب بني محارب ، وكتاب بني الحارث ، وكتاب بني مرة ، وأشعار حمير ، وكتاب بني القين ابن حسر ، وكتاب بني حنيفة وغيرها من كتب كان (الآمدي) قد رجع إليها وأخذ منها . وقد درست هذه الكتب ، ولم يتحدث (الآمدي) بشيء عما احتوته ، لذلك لا نستطيع أن نتحدث عن موضوعاتها ، بيد أن (الآمدي) يشير أحياناً ، الى مواضيع اقتبس منها بعض الأشياء ، لها صلة بالشعر والشعراء ، مما يحملنا على القول بأن الكتب المذكورة كانت في الشعر : في شعر القبائل ، وفيمن نبغ بينها من شعراء ، كما يشير الى أمور أخذها من هذه الموارد التي لم يشر الى أسماء مؤلفيها ، تدل على أنها خاصة بأخبار القبائل وأنسابها ، ونظراً الى ورود أسماء قسم من هذه المؤلفات التي لم يذكر (الآمدي) أسماء مؤلفيها في (الفهرست) لابن النديم ، وفي موارد أخرى نقلت منها وأشارت الى أسماء مؤلفيها ، فإن في الإمكان التعرف بهذه الطريقة على أسماء مؤلفي تلك الكتب . وقد أشار (الآمدي) الى أسماء المؤلفين وأسماء مؤلفاتهم التي استقى أخباره منها في مواضيع أخرى .

وعلى كثرة ما ألف من دواوين ، فإننا لا نملك منها سوى قسم قليل من ذلك الكثير . ويرى (بلاشير) ان الدواوين القديمة المهمة لا تحتوي وسطياً أكثر من عشرين صفحة ، وان أطولها كدواوين التابعة وزهير وامرئ القيس لا تتجاوز أبداً الثلاثين صفحة في الأصل ، غير ان المتأخرين زادوا فيها قصائد ومقطعات عثروا عليها في موارد أخرى ، فتضخمت تلك الدواوين حتى صارت أضعاف ما كانت عليه في الأصل^٣ .

وجمع بعض علماء الشعر أشعار طوائف من المجتمعات مثل شعر اللصوص ،

١ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٤٤/١) .

٢ الفهرست (٨٦) .

٣ ريجيس بلاشير ، تاريخ الادب العربي (١٦٢) .

فللسكري ديوان دعاه : أشعار لصوص العرب . ومثل شعر الصعاليك ، وشعر الشعراء المقتالين ، وأخبار من نسب الى أمه من الشعراء ، وأخبار المتيمنين من الشعراء في الجاهلية وفي الاسلام ، الى غير ذلك من مؤلفات في أخبار الشعراء وفي شعرهم^١ .

ويظهر أن مؤلفي الدواوين لم يحفلوا في أيامهم بموضوع شرح المناسبات التي من أجلها نظم الشعر ، ولهذا جاءت خالية في الغالب من ذكر المناسبة ، وهي إذا ذكرتها فلأنما تذكرها بإيجاز واختصار . أما الشروح التي قد ترد في الديوان ، فلأنها شروح لغوية ونحوية في الغالب ، لم تتمكن من تقديم صورة واضحة عن الشاعر وعن المناسبات التي من أجلها نظم الشعر . وقد انبرى علماء آخرون بشرح هذه الدواوين ، إلا أن شروحهم لم تخرج أيضاً عن مألوف ذلك الزمن من الاهتمام باللغة والنحو وجمع الشواهد والنادر والغريب ، فضاء التأريخ نتيجة لهذه الطريقة .

وقد ذكر (ابن النديم) أن شعر (امرئ القيس) قد عمله جملة علماء ، منهم أبو عمرو الشيباني ، والأصمعي ، وخالد بن كلثوم ، وعبد بن حبيب ، وأبو سعيد السكري الذي صنعه من جميع الروايات . وقد صنعه أبو العباس الأحرول ولم يتمه وعمله ابن السكيت^٢ . ويلاحظ أن جامعي هذه الدواوين لم يشيروا الى المورد الذي استقوا منه شعرهم . صحيح ان منهم من ذكر السند، إلا انه لم يذكر كيف حصل المرجع الذي ينتهي السند عنده على هذا الشعر . ولم يحفل الرجال الذين تنتهي الأسانيد بهم بذلك ، مع أن لذكر السند كاملاً أهمية كبيرة بالنسبة للمؤرخ . إذ تتمكن بهذا التشخيص من الوقوف على معين هذا الشعر .

وقد دون (ابن النديم) جريدة بأسماء علماء الشعر الذين اشتغلوا بعمل دواوين الجاهليين . وقد استعمل لفظه (صنع) و (عمل) و (صنعة) في معنى (جمع) و (ألف) و (تأليف) . واستعمل جملة « صنعه من جميع الروايات » بعد اسم الجامع وقبل اسم الشاعر للإشارة الى ان جامع الديوان قد اعتمد على المجموعات

١ الخزانة (١٠/١) ، (بولاق) راجع الفهرست لابن النديم ، حيث تراه يذكر أسماء مؤلفات عديدة بهذا الموضوع .

٢ الفهرست (٢٢٩) .

الشعرية التي صنعت قبله ، وأوجد من مجموعها ديوانه . فقد تقدم رواية قصيدة على قصيدة ، وقد تؤخر أخرى قصيدة متقدمة ، فتقدم عليها قصيدة متأخرة ، وقد يقدم ديوان بعض أبيات قصيدة ، وقد يرتبها ديوان آخر ترتيباً آخر ، لاعتماده على مورد آخر ، روى القصيدة بصورة أخرى ، وقد يذكر ديوان شعراً وقطعاً وقصائد أو قصيدة لا تكون موجودة في الدواوين الأخرى أو في بعض منها، ولهذا يأتي جامع جديد ، تقع عنده تلك الدواوين، أو تكون عنده كتب شواهد ونوادير وأخبار ، فيها من شعر الشاعر ما لم يرد في ديوانه فيضمه إليه ، ويكون من المجموع ديواناً جديداً ، برواية جديدة ، تنسب إليه ، كما فعل (السكري) بالنسبة لشعر امرئ القيس .

ومن أعرف من اشتغل بجمع أشعار القبائل : أبو عمرو الشيباني ، وخالد بن كلثوم ، والطوسي ، والأصمعي ، وابن الأعرابي ، ومحمد بن حبيب^١ . ونظراً لحفظهم أشعار القبائل ، حفظوا بالطبع أشعار الشعراء الجاهليين، وحلهم ذلك على جمع أشعارهم في دواوين خاصة . وقد أضاف (ابن النديم) عليهم ، اسم (ابن السكيت) ، وثعلب^٢ . وكان (الطوسي) عدواً لابن السكيت ، لأنها أخذت عن (نصران) الخراساني ، واختلفا في كتبه بعد موته . وكانت كتب نصران لابن السكيت حفظاً وللطوسي سماعاً^٣ .

ولم يرتب صناع الدواوين الشعر على حسب الترتيب الزمني ، وإنما رتبوه على ترتيب القوافي ، أي وفقاً لترتيب أبجدية القوافي . وقد يسر هذا الترتيب للقارئ الرجوع الى الشعر الذي يريده ، لكنه حرمه من شيء ثمين جداً ، هو معرفة زمن نظم الشعر . وللزمن أثر كبير في الوقوف على تطور شعر الشاعر ، وعلى مدى تقدمه أو تأخره في نظم الشعر ، كما حرمه من الوقوف على العوامل التاريخية التي أثرت على الشاعر وعلى مجتمعه فدفعته على نظم شعره . ومع وجود بعض المراجع المساعدة من مثل كتب الأخبار والأدب والشواهد ، فإن هنالك أموراً تاريخية تخص الشعراء الجاهليين والشعر الجاهلي ، بقيت خافية علينا ، بسبب عدم

١ الفهرست (٢٢٩) ، (المقالة الرابعة) .

٢ الفهرست (٢٣٠) .

٣ الفهرست (١١٢ وما بعدها) .

اهتمام علماء الشعر آنذاك بموضوع ترتيب الشعر ترتيباً زمنياً ، ولعدم اهتمامهم بذكر أسباب نظم كل بيت أو قطعة أو شعر ، أو قصيدة ، مع بيان الزمن الذي نظم الشاعر فيه شعره .

وقد ظهر قوم دوتوا الشعر في الصحف ، وقرأوه منها ، ونظراً لمكانة الحفاظ عند العلماء ، ولقياسهم علم الإنسان بمقدار حفظه ، لا بما كان يشرحه أو يفسره من الصحف والكتب ، لذلك لم ينظر إلى مدوتني الصحف نظرة تجلة وتقدير ، لأنهم في نظرهم قراء صحف لا غير . قال (ابن قتيبة) : « يرويه المصحفون والآخرون عن الدفاتر »^١ ، ذكر ذلك في معرض الاستخفاف بعلمهم ، لكونهم لا يميزون بين الشعر الصحيح من الفاسد ، والرديء من الجيد ، لأنهم يقرأون عن صحف ، وينطقون بحروف وكلم مكتوبة ، لا عن فهم ودراية مثل رواية الشعر ، الذين خزنوا علمهم في أدمغتهم ، فإذا سُئلوا عن شيء أجابوا عن روية وفكر ، لا عن صحيفة مكتوبة .

وقد ساعدت الكتب المؤلفة في أخبار القبائل مساعدة كبيرة في جمع الشعر الجاهلي ، ونجد في كتاب (الفهرست) لابن النديم أسماء مؤلفات كثيرة ، في القبائل ، وفي أمور أخرى لها صلة بالشعر ، ذكرها أثناء تحدثه عن الأشخاص الذين ذكرهم في كتابه . وقد هلكت أكثر المؤلفات المذكورة ، ولكننا نجد نقولاً منها في بعض الكتب التي كتب لها البقاء والتي قدر لها أن تطبع .

ولا أجد في نفسي حاجة إلى ذكر الموارد الأخرى التي أفادتنا كثيراً في جمع الشعر الجاهلي وفي الوقوف عليه ، لأن لقارئ هذا الكتاب إلماماً بها ، قد يزيد على إلمامي بها . وعلى رأس هذه الموارد كتب الأدب ، مثل مؤلفات الجاحظ ، وكتاب الأغاني للأصبهاني ، وكتب الأماشي والمجالس وغيرها ، بقي هذه الموارد مادة قد لا نجد لها في كتب الشعر ، وقد ذكرت أسماء مصادر قديمة نقلت منها لا نعرف اليوم من أمرها شيئاً .

ولا بد من الإشارة أيضاً إلى كتب النحو والشواهد ، فقد جاءت بأشعار جاهلية استشهد بها على إثبات قاعدة نحوية ، أو شاهد رأي جاء به عالم لإثبات

رأيه في موضوع لغوي أو نحوي . وقد نص على اسم أو أسماء الشعراء في بعض الأحيان ، ولم ينص على الأسماء في أحيان أخرى . وقد يمكن معرفة بعض الأشعار التي لم ينص على اسم قائلها ، بالرجوع الى الموارد الأخرى التي نسبتها الى قائلها ، غير ان الحظ لا يساعد في أحيان أخرى على معرفة اسم قائل الشاهد ، لعدم وجوده في موارد أخرى . وقد يكون شاهداً مفتعلاً ، فلا يمكن التوصل الى أصله بالطبع .

الفصل الخامس والخمسون بعد المئة

الشعر المصنوع

ليس البحث في معرفة المصنوع من الشعر ، وفي أسباب وضعه ، من البحوث الجديدة ، التي أوجدها المستشرقون ، أو من أخذ عنهم من الباحثين المحدثين ، بل هو بحث قديم ، أتقنه أهل الجاهلية ، وأخله عنهم أهل الإسلام . وفي هذا المعنى قال الشاعر الشهير (الخطيئة) : « ويل للشعر من الرواة السوء »^١ . فرواة الشعر ، آفة بالنسبة للشعر وللشعراء ، قد يزيدون فيه ، وقد ينقصون ، وقد يضحفون ، وقد يفتعلون ويصنعون الشعر على ألسنة غيرهم ، ولو لم يكن هذا المرض معروفاً في أيام الخطيئة وقبلها لما ورد هذا القول عنه .

ومعنى انتحله وتنحله ادعاه لنفسه ، وهو لغيره . يقال : انتحل فلان شعر فلان أو قوله ادعاه انه قائله ، وتنحله ادعاه وهو لغيره . قال الأعشى :

فكيف أنا وانتحال القوا في بعد المشيب كفى ذاك عارا
وقيدني الشعر في بيته كما قيد الأسرات الحمارا

« ويقال نحل الشاعر قصيدة ، اذا نسبت اليه ، وهي من قبل غيره . ومنه حديث قتادة بن النعمان : كان بشير بن أبيرق يقول الشعر ويهجو به أصحاب

١ الشعر والشعراء (٢٣٩/١) ، (دار الثقافة ، بيروت) .

الذي صلى الله عليه وسلم ، وينحله بعض العرب ^١ . ولم يكن (بشير) أول من فعل ذلك بالطبع من العرب ، فهناك غيره ممن سبقه ومن عاش في أيامه صنعوا صنيعه في نخل الشعر وإضافته إلى الشعراء لمآرب مختلفة . ويظهر من الشعر المتقدم المنسوب إلى الأعشى ، أنه قد اتهم بانتحال الشعر ، بأخذ شعر غيره وإدعائه لنفسه ، فنفي عنه تلك التهمة .

ويروى أن (النعمان بن المنذر) ، كان يرى به هذا الرأي ، فقد ذكروا أنه قال له : « لعلك تستعين على شعرك هذا ؟ » فقال له الأعشى : احبسني في بيت حتى أقول ، فحبسه في بيت ، فقال قصيدته التي أولها :

أأزمت من آل ليلى ابتكارا وشطت على ذي هوى أن تزارا

ثم ذكر فيها البيتين المتقدمين ^٢ . وورد أن الذي قال له ذلك ، هو (قيس ابن معديكرب) الكلبي ^٣ .

وكان السطو على الشعر ، معروفاً في الجاهلية كما كان معروفاً في الإسلام . قال الفرزدق :

إذا ما قلتُ قافيةً شروداً تنحلّها ابن حمراء العيجان

وقال ابن هرمة :

ولم أتخل الأشعارَ فيها ولم تُعْجِزني المدحُ الجيادُ

يقال تنحل الشاعر قصيدة ، إذا نسبها إلى نفسه ، وهي من قبل غيره . قال يزيد بن الحكم :

ومسروق القصائد والمضاهي سواء عند علام الرجال ^٤

-
- ١ تاج العروس (١٢٩/٨) ، (نحل) ، اللسان (٦٥١/١١) ، (نحل) .
 - ٢ الشعر والشعراء (١٨٠/١ وما بعدها) ، ديوانه (رقم ٤١) .
 - ٣ الشعر والشعراء (١٨٠/١) ، حاشية رقم ٦ .
 - ٤ تاج العروس (١٢٩/٨) ، (نحل) ، اللسان (٦٥١/١١) ، (نحل) .
 - ٥ تاج العروس (٤٠٥/٨) ، (علم) .

ويقال ان (الأعشى) ، وضع في شعره ان (هرم بن قطبة) حكم لعامر بن الطفيل على علقمة بن علاثة ، وتزيد بذلك على (هرم) ، وأشاعه بين الناس^١ .
والتزيد تكلف الزيادة في الكلام وغيره . وورد ان من الشعراء الجاهليين من كان يتحل شعر غيره ، أو يجتلب منه . قال الراجز :

يا أيها الزاعم أني أجتلب وأنني غير عضاهي أنتجب
كذبت إن شر ما قيل الكذب^٢ !

فهو ينكر انه يجتلب الشعر من غيره . واجتلب الشاعر ، اذا استوق الشعر من غيره واستمده . قال جرير :

ألم يعلم مسرحي القواني فلا عيا بهن ولا اجتلابا

أي لا أعيا بالقواني ولا اجتلبهن ممن سواي ، بل أنا في غنى بما لدي منها^٣ .
وقد نحل على الأعشى ، فنسب له الرواة ما ليس من شعره ، مثل قصيدته التي قالها في مدح (سلامة ذافائش) ، فقد روى (ابن قتيبة) الأبيات الأربعة الأولى منها ، ثم قال : « وهذا الشعر منحول ، لا أعرف فيه شيئاً يستحسن إلا قوله :

ياخير من يركب المطي ولا يشرب كأساً بكف من نجلا^٤ »

وروي عن (الخليل) قوله : « إن النحارير من العرب ربما أدخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب ، لإرادة اللبس والتعنيث »^٥ . وحمل الكلام على الغير شيء مألوف ، كما أن أخذ شخص كلام غيره وادعائه لنفسه شيء مألوف كذلك . وقد اشار جهايزة العلماء الى أن في الشعر مصنوعاً وفيه مفتعل موضوع . وهو كثير لا خير فيه ولا حجة في عربيته . وقد انبرى له العلماء فنقلوا الشعر

١ مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١ / ٣٦٥ وما بعدها) .

٢ المصدر نفسه (١ / ٣٦٦) .

٣ تاج العروس (١ / ١٨٤) ، (جلب) .

٤ الشعر ، الشعراء (١ / ١٥) ، ديوان الأعشى (٢٣٢ وما بعدها) ، (القصيدة

رقم ٢٥) .

٥ المزهر (١ / ١٧١) .

لاستخراج الصحيح منه من الفاسد ، وتمكنوا قدر إمكانهم من ضبط بعض الفاسد المنحول ومن الإشارة إليه^١ . قال (ابن سلام) : « وليس يشكل على أهل العلم زيادة ذلك ، ولا ما وضع المولدون ، وإنما عضل بهم ، أن يقول الرجل من أهل البادية من ولد الشعراء ، أو الرجل ليس من ولدهم فيشكل ذلك بعض الأشكال »^٢ .

وقد ذكروا أن قوماً تداولوا هذا الشعر المصنوع « من كتاب الى كتاب ، لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء ، وليس لأحد إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه أن يقبل من صحيفة ولا يروي عن صحفي »^٣ . فقياس الصحة في نظرهم ، هو الرواية والأخذ عن أهل البادية ، وقول علماء الشعر في الشعر ، أما الشعر المدون والمنقول من الصحف ، فلا قيمة له ، مع أن التدوين أصدق وأكثر صحة من النقل والرواية ، وإذا كانوا قد خافوا التزوير في التدوين ، فإن التزوير في الرواية لا يقل خطراً عن التزوير في التدوين . وقد عدوا الصحفيين ، قوماً لا علم لهم بالشعر ، وإنما هم نقلة ، يقرأون ما هو مكتوب ، وليس في القراءة دليل على علم^٤ ، وذلك لأنهم كانوا يصحفون في القراءة ، ويلحنون ، بينا الراوية الذي يعتمد على علمه وعلى حافظته وعلى ذوقه وطبعه ، لا يصحف ولا يقع في اللحن ، ولهذا قيل لهؤلاء الصحفيين المصحفين .

« قال خلاد بن يزيد الباهلي لخلف بن حيان أبي عرز - وكان خلاد حسن العلم بالشعر يرويه ويقول - بأي شيء ترد هله الأشعار التي تروى ؟ قال له : هل تعلم أنت منها ما انه مصنوع لا خير فيه ؟ قال : نعم . قال : أفتعلم في الناس من هو أعلم بالشعر منك ؟ قال : نعم . قال : فلا تنكر أن يعرفوا من ذلك ما لا تعرفه أنت . وقال قائل لخلف : اذا سمعت أنا بالشعر واستحسنته فما أبالي ما قلت فيه أنت وأصحابك . فقال له : اذا أخذت أنت درهماً فاستحسنته ،

١ المزهري (١٧١/١) .

٢ طبقات (١٤) .

٣ المزهري (١٧١/١) .

٤ المزهري (١٧٤/١) .

فقال لك الصراف : انه رديء ، هل ينفعك استحسانك له ؟ ١ .

وقد افتخر رواية الشعر بأنفسهم ، وزعموا أنهم أكثر فهماً في النقد من رواية الحديث ، قال (يحيى بن سعيد القطان) : « رواية الشعر أعقل من رواية الحديث ، لأن رواية الحديث يروون مصنوعاً كثيراً ، ورواية الشعر ساعة ينشدون المصنوع ينتقدونه ويقولون : هذا مصنوع ٢ . يعيبون رواية الحديث على روايتهم الحديث المصنوع ، مع ان وضعهم للشعر لا يقبل عن وضع رواية الحديث للحديث على لسان الرسول ، وتقدهم له لا يرتفع كثيراً عن نقد رجال الحديث للحديث .

وقد تعرض (ابن سلام) لموضوع إفساد الشعر ونحله ، فقال : « وكان ممن هجن الشعر وأفسده وحمل كل غثاء : محمد بن اسحاق مولى آل مخزومة بن المطلب بن عبد مناف . وكان من علماء الناس بالسير ، فنقل الناس عنه الأشعار ، وكان يعتلر منها . ويقول : لا علم لي بالشعر ، إنما أوتى به ، فأحله ولم يكن ذلك له عنراً ، فكتب في السير من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط ، وأشعار النساء فضلاً عن أشعار الرجال ، ثم جاوز ذلك الى عاد وثمود . أفلا يرجع الى نفسه فيقول من حمل هذا الشعر ؟ ومن أدّاه منذ ألوف من السنين ؟ والله يقول : وأنه أهلك عاداً الأولى وثموداً فما أبقى . وقال في عاد : فهل ترى لهم من باقية . وقال : وعاداً وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ٣ .

فهو يتهم (ابن اسحاق) بالجهل بالشعر ، وهو جهل استغله صنّاع الشعر فجاءوا اليه بشعر غثاء فاسد ، وبشعر مصنوع ، فأدخله ، وبشعر مفتعل وضع على ألسنة الماضين قبله . فكان جهله من عوامل إفساد الشعر .

وهذا الشعر يبيّن الفساد ، يمكن لكل ذوي عقل رفضه ، ولكن الذي أفسد الشعر وهجنه ، هم علماء الشعر وصناعه من أصحاب الحرفة ، الذين وضعوا على ألسنة الشعراء ، شعراً صعب حتى على نقدة الشعر رده الى أصله ، لأنهم وضعوه وصاغوه على ألسنة الشعراء صياغة محبوكة من نمط الشعر الصحيح المحفوظ عن أهل الجاهلية ، ومن هنا هان عمل (ابن اسحاق) بالنسبة الى عمل (حماد) الراوية و (خلف الأحمر) وغيرهما من صاغة الشعر .

١ ابن سلام ، طبقات (٣ وما بعدها) ، المزهر (١ / ١٧٢ وما بعدها) .
 ٢ المزهر (١ / ١٧٥) ، ذيل الأماشي (١٠٥) .
 ٣ طبقات (٣ وما بعدها) ، المزهر (١ / ١٧٣ وما بعدها) .

وقال (ابن سلام) : « فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها ، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم ، وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم ، فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسن شعرائهم . ثم كانت الرواة بعد ، فزادوا في الأشعار ، وليس يُشكل على أهل العلم زيادة ذلك ، ولا ما وضع المولدون ، وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم ، فيشكل ذلك بعض الإشكال »^١ .

وروى (ابن سلام) خبراً طريفاً من أخبار النحل في الشعر ، فقال : « أخبرني أبو عبيدة أن داود بن متم بن نويرة قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدوي في الجلب والميرة ، فتزل النحيت ، فأثبته أنا وابن نوح ، فسألناه عن شعر أبيه متم ، وقتنا له بحاجته وكفيناه ضيعته ، فلما نفذ شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ، ويضعها لنا ، وإذا كلام دون كلام متم ، وإذا هو يحتلى على كلامه ، فيذكر المواضع التي ذكرها متم ، والوقائع التي شهد بها ، فلما توالى ذلك علينا علمنا أنه يفتعله »^٢ .

ونحاشياً من الوضع ، امتحنوا من كان يقدم عليهم ، للأخذ منه ، أو من كان يتصل بهم من الأعراب ، حتى يتأكدوا من أمانتهم ومن علمهم بما سبب ألونهم عنه . إذ ثبت عند العلماء بالشعر أن بعض الأعراب كانوا يفتعلون الشعر ويضعون الأخبار ويحيون عن غير علم . وقد أفرد (أبو العباس) المبرد لبعض منهم باباً خصصه بأكاذيب الأعراب . وبما كانوا يروونه من أساطير وخرافات^٣ ، ومع ذلك فقد فات عليهم الكثير من هذه الأكاذيب ، ودخلت كتبهم ، ويمكنك التعرض على البعض منه ، من دون حاجة إلى بذل مشقة أو جهد .

وقد أورد علماء الشعر امثلة على المصنوع من الشعر من ذلك ما ذكره (أبو عبيدة) من أنه أنشد (بشار بن برد) ، البيت :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلما

-
- ١ طبقات (١٤) .
 - ٢ طبقات (١٤) ، المزهري (١٧٥/١) .
 - ٣ المزهري (٥٠٤/٢) ، (أكاذيب الأعراب) .

وهو بيت وضعه (أبو عمرو) الشيباني على لسان الأعشى ، فقال بعلمه بالشعر وبألفاظ العرب : « كأن هذا ليس من لفظ الأعشى »^١ ، وقد كان (بشار) الشاعر المعروف حاذقاً بأشعار العرب ملماً بأساليبهم ، فأدرك بسليقته ويعلمه بشعر الأعشى أن هذا البيت ليس من شعره ، وقد روى الرواة أن (أبا عمرو) هو الذي وضعه على لسان الأعشى ، وأنه اعترف بصنعه له .

وقد جاء (المعري) في (رسالة الغفران) بأمثلة كثيرة من أمثلة الشعر المنحول الذي صنع على ألسنة الشعراء الجاهليين . كما أشار الى التحوير والتغيير الذي أدخله «المعلمون في الإسلام» على الشعر «فغيّروه على حسب ما يريدون»^٢.

وروي ان قريشاً كانوا أول من وضع الشعر من القبائل في الاسلام . نظروا الى أنفسهم ، فإذا حظهم في الشعر قليل في الجاهلية ، فاستكثروا منه في الاسلام. قال (ابن سلام) : « وقریش تريد في أشعارها تريد بذلك الأنصار والرد على حسان »^٣ . ولم يكتب للقرشيين بإضافة الشعر اليهم ، وباستكثاره ، بل علوا الشعر على لسان شعراء المدينة للغض منهم ، وذلك لما كان بينهم وبين أهل يثرب من تحاسد يعود الى ما قبل الاسلام . وقد ذكر ان (قتادة بن مومي) الجمحي هجا (حسان بن ثابت) ونحلها (أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب)^٤ ، صنعوا الشعر الغث الضعيف وأضافوه الى شعراء الأنصار للغض من مترلثهم في الشعر .

وقد أشار (السيوطي) الى أشعار ، ذكر ان علماء الشعر يروون انها من صنع (خلف الأحمر) ، صنعها على ألسنة الشعراء الجاهليين . من ذلك اللامية المنسوبة الى (الشنفرى)^٥ ، والقصيدة التي فيها :

خيّل صيام وخيل غير صائمة تحت العجاج وأخرى تعلقك اللجا

-
- ١ الزجاجي ، مجالس العلماء (٢٣٥ وما بعدها) .
 - ٢ رسالة الغفران (٣١٧ وما بعدها) .
 - ٣ طبقات (٦٢) .
 - ٤ الاصابة (٢١٧/٣) ، (٧٠٧٧) .
 - ٥ طبقات التحوين ، للزبيدي (١٧٨ وما بعدها) ، المزهري (١٧٦/١) .

وقد نسبها للنابعة^١ . والقصيدة التي فيها :

قل لعمرى : يا بن هند لورأيت القوم شتاً
لرأت عيناك منهم كل ما كنت تمنى^٢

كما روى أحياناً ذكر أنها من صنع (حماد) . من ذلك قصيدة نسبها لهند ابنة النعمان ، من أبياتها :

ألا من مبلغ بكرة رسولاً فقد جدّ النفر بعنفير

وقد قال الأصمعي ، إنها مصنوعة ، لم يعرفها أبو بردة ، ولا أبو الزعراء ، ولا أبو فراس ، ولا أبو سُريرة ، ولا الأغطش ، وهي مع نقبضة لها أخذت عن حماد الراوية^٣ .

وروي عن (الأصمعي) قوله : « كل شيء في أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حماد الراوية إلا نتفأ سمعتها من الأعراب وأبي عمرو بن العلاء »^٤ .

ومرد نحل الشعر عند (ابن سلام) : إما الى عصبية قبلية ، وإما الى رواة شعر . أما عصبية القبائل ، فقد دوت رأيه في سببها . وأما عن رواة الشعر ، فأول المزيفين للشعر في نظره (حماد) الراوية ، الذي قال عنه : « وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية ، وكان غير موثوق به . كان ينحل شعر الرجل غيره ، ويزيد في الأشعار . أخبرني أبو عبيدة عن يونس . قال : قدم حماد البصرة على بلال بن أبي بردة ، فقال ما أطرفني شيئاً ! فعاد اليه فأنشده للقصيدة التي في شعر الحطيئة مديح أبو موسى . فقال : وبحك يمدح الحطيئة أبا موسى ، لا أعلم به ، وأنا أروي للحطيئة . ولكن دعها تذهب بين الناس . وأخبرنا ابن سلام ، قال : سمعت يونس يقول : العجب لمن يأخذ عن حماد، وكان يكذب ويلحن ويكسر »^٥ . وحماد وأضرابه في نظر (ابن سلام)

١ المزهري (١٧٧/١) .

٢ المزهري (١٧٩/١) .

٣ المزهري (١٨٠/١) .

٤ مراتب النحويين (٧٢) ، شوقي ضيف ، العصر الجاهلي (١٧٤) .

٥ طبقات (١٤ وما بعدها) .

مزيفون ماهرون يزيفون الشعر ويصنعونه ، فهم أصحاب صنعة محترفون للترفيف ، أما (محمد بن اسحاق) ، فإنه في نظره نمط آخر ، نمط رجل جاهل بالشعر ، دفع اليه الناس المصنوع من الشعر وكل غثاء منه ، فحمله ، وأدخله في السيرة ، وحمل الناس عنه الأشعار ، وكان علته أنه لا علم له بالشعر ، إنما يؤتى به اليه فيحمله ويدونه ، ولكنه لأمه على هذا الاعتذار بقوله : « ولم يكن له ذلك علماً ، فكتب في السر أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط . وأشعار النساء فضلاً عن الرجال ، ثم جاوز ذلك الى عاد وثمود ، فكتب لهم أشعاراً كثيرة ، وليس بشعر ، إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف ، أفلا يرجع الى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر ؟ ومن أداه منذ آلاف السنين ، والله تبارك وتعالى يقول : فقطع دابر القوم الذين ظلموا ... الخ »^١ ، وقد اتهمه غيره بأنه « كان يعمل له الأشعار ويؤتى بها ، ويسأل أن يدخلها في كتابه السيرة ، فيفعل فضمن كتابه من الأشعار ما صار به فضيحة عند رواة الشعر ، وأخطأ في النسب الذي أورده في كتابه ، وكان يحمل عن اليهود والنصارى ويسميه في كتابه أهل العلم الأول ، وأصحاب الحديث يضعفونه »^٢ . وألحق بهذا الصنف من رواة الشعر ومدونيته جماعة الصحفيين ، الذين لم يكونوا يميزون بين الشعر ، ويحملون كل ما يعطى لهم ، من شعر غث أو زائف ، وقد يصحفون في تدوينه ، لعدم وجود علم لهم به ، فهم أيضاً في جملة من أفسد الشعر .

و (ابن سلام) الجمحي ، من علماء البصرة ، وأكثر حملة الشعر البصريين يتحاملون عليه ، عصبية منهم لمدينتهم ، لأنه من أهل الكوفة ، وكان أهل الكوفة يغضون أيضاً من شأن رجال العلم البصريين ويتحاملون عليهم . وكل ينسب الى خصمه التزييف ونحل الشعر على ألسنة الشعراء المتقدمين ، وكل منهم يتهم الآخر بالتهمة التي يوجهها لخصمه من التزييف والجهل .

ولم يكن (ابن سلام) أول من نبه الى وجود النحل في الشعر ، ولم يكن هو أيضاً آخر من وضع رأياً في النقد ، فتوقف الناس بعده . فقد سبقه الأعشى وغيره الى هذا الرأي . ثم جاء بعده علماء كانت لهم آراء قيمة في هذا الشعروفي

١ طبقات (١٤) ، الفهرست ، (١٤٢) .

٢ الفهرست (١٤٢) .

شعرائه ، نجدها مدونة في كتبهم ، وفي الكتب التي اعتمدت عليها ، وقد نبهت ملاحظات أولئك العلماء المستشرقين الذين ظهروا في القرن التاسع عشر فما بعد ، فعمدوا الى دراستها وتحليلها ، واستنبطوا منها آراءهم التي أبدوها عن الشعر الجاهلي.

وقد نبه (أبو العلاء) المعري الى وجود الشعر المصنوع في (رسالة الغفران) وأشار اليه وشخص قسماً منه ، وذكر اسم صانعيه في بعض الأحيان ، فذكر الشعر المنسوب الى (آدم) مثلاً :

نحن بنو الأرض وسكانها منها خلقنا ، واليها نعود
والسعد لا يبقى لأصحابه والنحس تحويه ليالي السعود

وقال على لسانه : وإن هذا القول حق ، وما نطقه إلا بعض الحكماء ، ولكني لم أسمع به حتى الساعة ^١ .

ويقول (أبو العلاء) مخاطباً (آدم) : « وكذلك يروون لك - صلى الله عليك - لما قتل (هابيل) (قابيل) :

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيح
وأودى ربيع أهلها فبانوا وغودر في الثرى الوجه المليح

وبعضهم ينشد :

وزال بشاشة الوجه المليح^٢

ثم يضع الجواب على لسان آدم ، فيقول : « أعزز عليّ بكم معشر أبيني ! انكم في الضلالة متهوكون ! آليت ما نطقت هذا النظم ، ولا نطق في عصري وانما نظمه بعض الفارغين ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ! كذبتكم على خالقكم وربكم ، ثم على آدم أبيكم ، ثم على حواء أمكم ، وكذب بعضكم على بعض ، ومالككم في ذلك الى الأرض » ^٣ .

١ رسالة الغفران (٣٦٠) .

٢ رسالة الغفران (٣٦٢) وما بعدها) .

٣ رسالة الغفران (ص ٣٦٤) .

وسأل (المعري) (آدم) عن لسانه ، ثم أجاب عنه بقوله : « انما كنت أتكلم بالعربية وأنا في الجنة ، فلما هبطت الى الأرض ، نُقِلَ لساني الى السريانية ، فلم أنطق بغيرها الى ان هلكت ، فلما ردني الله - سبحانه وتعالى - الى الجنة ، عادت على العربية ، فأني حين نظمت هذا الشعر : في العاجلة أم الآجلة ؟ ١ :

ثم تراه يتحدث عن الشعر المنسوب الى الجن ، والى أشعار أخرى ، فتراه يردّها ويستقدها ، ويشير الى وجود شعر مصنوع وضع على الإنس والجن . تراه يقول : « وكنت بمدينة السلام ، فشاهدتُ بعض الورّاقين يسأل عن قافية (عدي ابن زيد) التي أولها :

بكر العاذلات في غلس الصب ح يعاتبه أما تستفيق
ودعا بالصباح فجراً ، فجاءت قينةً في يمينها ليريق

وزعم الورّاق أن (ابن حاجب النعمان) سأل عن هذه القصيدة وطلبت في نسخ من ديوان عدي ، فلم توجد . ثم سمعت بعد ذلك رجلاً من أهل استراباذ يقرأ هذه القافية في ديوان العبادي ، ولم تكن في النسخة التي في دار العلم ٢ . وقد تحدث (أبو العلاء) المعري في (رسالة الغفران) عن القصيدة التي أولها :

أليماً على المطورة المتأبدة أقامت بها في المربع المتجردة
مضمخةً بالمسك مخضوبة الشوى بدُرّ وياقوت لها متقلدة
كان ثناياها - وما ذقت طعمها - مُجاجة نخل في كُحيت مبردة
ليقرر بها النعمان عيناً فلانها له نعمة ، في كل يوم مجددة

فقال إنها من الشعر المنحول ، نخلت على النابغة ونسبت اليه . وقال على لسانه : « فيقول أبا أمامة : ما أذكر أنني سلكت هذا القرية قط . فيقول مولاي الشيخ زين الله أيامه ببقائه : إن ذلك لعجب ، فمن الذي تطوّع فنسبها إليك ؟ فيقول إنها لم تنسب إليّ على سبيل التطوع ، ولكن على معنى الغلط والتهوم ، ولعلّها

١ رسالة الغفران (٣٦١ وما بعدها) .

٢ رسالة الغفران (١٤٦ وما بعدها) .

لرجل من بني ثعلبة بن سعد^١ فيقول نابغة بني جعدة : صبحني شاب^٢ في الجاهلية
ونحن نريد الحيرة ، فأثدني هذه القصيدة لنفسه ، وذكر أنه من ثعلبة بن عكابة ،
وصادف قدومه شكاة من النعمان فلم يصل اليه . فيقول : نابغة بني ذبيان : ما
أجدر ذلك أن يكون^٣ . فرد هذا الشعر ، وأنكر كونه من شعر النابغة ،
وبين بأسلوب جميل رأيه فيمن نخله عليه .

وتحدث عن الكلمة الشينية المنسوبة للنابغة الجعدي ، التي يقول فيها :

ولقد أغدو بشرب أنف قبل أن يظهر في الأرض ربش
معنا زق^٤ الى مُمته تسق الآكال من رطب وهش

وبعد أن دوّتها قال : « فيقول نابغة بني جعدة : ما جعلت الشين قط^٥
روياً ، وفي هذا الشعر أفاظ لم أسمع بها قط : ربش ، ومُمته ، ونخش^٦ .
وتراه يتحدث عن قصيدة نسبت للأعشى ، فيقول على لسان سائل يسأل
(أعشى قيس) في الجنة عن قوله :

أمن قتل بالأتقاء دار^٧ غير محلوله
كأن لم تصحب الحي بها ييضاء عطبوله
أناة ينزل القومي منها منظر هوله

الى أن يكمل القصيدة ، ثم يقول : « فيقول أعشى قيس : ما هذه مما رصد
عني ، وانك منذ اليوم لمولع بالمنحولات^٨ .

وفي (رسالة الغفران) مواضع أخرى كثيرة تعرض فيها (المعري) لنقد
الشعر ، وليبيان الصحيح منه من الفاسد ، تجعل الكتاب من الكتب الجيدة القديمة
التي نهت الى وجود الصنعة والنحل في الشعر الجاهلي ، والتي مهدت الجادة لمن
جاء بعده من المستشرقين والمحدثين فتكلموا عن هذا الموضوع بلغة العصر الجديد.

١ رسالة الغفران (٢٠٧) .

٢ رسالة الغفران (٢٠٧ وما بعدها) .

٣ رسالة الغفران (٢٠٨ وما بعدها) .

٤ رسالة الغفران (٢١١ وما بعدها) .

وما ذكره (المعري) في رسالته يمثل رأيه ورأي من تقدم عليه من علماء الشعر في مواضع الانتحال في الشعر الجاهلي وفي نقد الشعر .

ونبه (الجاحظ) في كتبه الى وجود شعر منحول ، وقد نص عليه ، وأشار الى اسم من نسب له ، من ذلك قوله :

« وفي منحول شعر النابغة :

فألفيت الأمانة لم تختها كذلك كان نوح لا يخون

وليس لهذا الكلام وجه ، وانما ذلك كقولهم كان داودُ لا يخون ، وكذلك كان موسى لا يخون ^١ .

والنحل في الشعر ليس بأمر غريب ، إذ وقع في غير الشعر كذلك ، وقع ذلك طلباً للغريب وللنادر ، « ذكر بعض مشايخنا رحمهم الله انه رأى مصحفاً منسوباً الى أبي خالف بعض حروفه هذا المصحف ، لكننا لا نأمن أن يكون ذلك من جهة بعض من يحب الافتخار بالغريب ، فإن هذه بلية قد أضرت بالدين وأخلت بمصالح المسلمين ، وطرقت الملحدين الى الطعن في أركان الاسلام ، وسهلت عليهم الشغب في أمره ، وقد نرى من المفتشين نواب الملوك ، وعبيد أرباب الأموال ، وأبناء الدنيا اذا لم يجدوا للقرآن وعلوم الدين عندهم موقفاً فيتقربون اليهم بغرائب الكتب ، واذا أعوزهم الغريب الذي يستلزع به أخلوا بعض الكتب المعروفة يزيدون فيها وينقصون ، ويقدمون ويؤخرون ويعنونونه بعنوان بعيد ليتسبوا بذلك الى استخراج شيء منهم .

فعلى هذا النحو لا يؤمن أحدهم ان يعمل الى مصحف فيقدم منه سوراً ويؤخر أخرى ، ويحرف ألفاظاً ، ثم يزعم انه مصحف عليّ أو عبدالله أو مصحف أبي ، وليس غرض البائس من ذلك إلا أن يحمله الى بعض الملوك فيقول : إن خزانة مثلك يجب ألا تخلو من نسخة من كل مصحف ليستخرج من خطاه شيئاً ، ولا يبالي بما كان من جنابة على الدين وأهله ^٢ .

١ الحيوان (٢٤٦/٢) .

٢ مقدمتان في علوم القرآن (٤٧ وما بعدها) ، (أرثر جفري) ، القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية (١٥) .

ولم يقع نخل الشعر عند العرب وحدهم ، وإنما وقع عند غيرهم كذلك . فقد وقع عند اليونان وعند الرومان وعند الفرس والعبرانيين ، وهو آفة لا تزال حية منهم من يضع على ألسنة المتقدمين ، ومنهم من يسرق قول غيره فينسبه نفسه ، وقد ضيقت وسائل النشر والإذاعة من سرقة آراء وأقوال الغير ، وتسجيلها باسم سارق نسبها لنفسه ، غير أن مشكلة تعيين أصول الشعر الجاهلي والنحل القديم ، لا تزال من المشاكل المستعصية ، لأن الوسائل الحديثة لا تتمكن من إحياء من في القبور واستنطاقهم عن المنحول والمسروق !

وقد وضع (ابن سلام) قاعدة في كيفية قبول الشعر والأخذ به ، فقال : « قد اختلف العلماء في بعض الشعر ، كما اختلفت في بعض الأشياء ، أما ما اتفقوا عليه ، فليس لأحد أن يخرج منه » ، ويقول : « وليس لأحد ، إذا اجتمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه ، أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفي »^١ . وقد أبدى ملاحظات قيمة في نقد الشعر ، فأشار إلى الزيف منه ، وأظهر تحفظاً في قبول بعض الأشعار ، لأنها متحلة ، فلما تطرق إلى شعر (طرفة) قال فيه : وشعره مضطرب ذاهب ، لا أعرف له إلا قوله :

أفقر من أهله ملحوبُ فالقطبيات فالذنوب

ولا أدري ما بعد ذلك^٢ . وذكر أن رواة الشعر وضعوا شعراً كثيراً على (طرفة) و (عبيد بن الأبرص) ، وكانا من أقدم الفحول ، وقد ضاع معظم شعرهما لذلك ، فوضعوا عليهما الأشعار^٣ .

وأنكر أن يكون (النابغة) قد قال :

فألقيتُ الأمانة لم تخنها . كذلك كان نوح لا يخون

وذكر أن أهل العلم أجمعوا على أنه لم يقل هذا الشعر^٤ ، وله ملاحظات أخرى

-
- ١ طبقات (٦) .
 - ٢ طبقات (١١٦) .
 - ٣ طبقات (٢٣) .
 - ٤ ابن سلام (٤٩ وما بعدها) .

من هذا القبيل ، تجدها في طبقاته ، فقد شك في أكثر شعر (عبيد بن الأبرص) ، ولم يثبت لديه من شعره إلا ثلاث قصائد^١ .

وطريقة (ابن سلام) في قبول الشعر وفي صحته ، هو إجماع علماء الشعر واجتهادهم ، فإذا قرر علماء الشعر قبول شعر ووثقوا به وثبتوه ، صار مقبولا في نظره ، لأنهم هم الذين يميزون بين الصحيح وبين الفاسد ، وليس يشكل على أهل العلم زيادة الزواة ، ولا ما وضعوا ، ولا ما وضع المولدون . فالعلماء هم صيارفة الشعر يستطيعون نقله ، واستخراج الزائف منه ورميه ، وهو لا يبالي بعد ذلك بما روى (ابن اسحاق) وأمثاله من شعر ، لا خير فيه ولا حجة في عريته ، ولا أدب يستفاد ولا معنى يستخرج ولا مثل يضرب : ولا مديح رائع ولا هجاء مقذع ، ولا فخر معجب ، ولا نسب مستطرف^٢ .

أما ما روي من شعر على ألسنة ملوك حبر وأقيال اليمن وأذوائها ، فإن العارفين بالشعر الجاهلي وبأساليبه وبروايته ، يرون انه شعر لا يطمأن الى صحته ، وضع على ألسنة من نسب اليهم . وقد رواه أناس من أهل اليمن ، عرف معظمهم برواية القصص والأساطير ، وعرف بعضهم بروايتهم القصص الاسرائيلي . أم المعروفون بأنهم حملة الشعر الجاهلي وروايته من القدامى ، فلم يرووا شيئا يذكر من ذلك الشعر . وأما رجال العلم بالنحو ويقواعد العربية ، فلم يستشهدوا به في شواهدهم ، مما يدل على ان لهم رأيا فيه . وقد ذكر أهل الأخبار ان ابن مفرغ يزيد بن ربيعة ، وكان يزعم انه من حبر ، وضع سيرة تَبَعَ وأشعاره^٣ .

وكان أول من لفت الأنظار ومهد الجادة لمن جاء بعده من المستشرقين الراغبين في دراسة الشعر الجاهلي العالم الألماني (نولدكه) (Theodor Nöldeke) في كتابه ، (Beiträge zur Kenntniss der Poesie der Alten Araber) الذي طبعه سنة (١٨٦٤م) . وقد تطرق في مقدمته الى تأريخ ونقد الشعر الجاهلي ، وإلى ما ورد عن مبدأ هذا الشعر ، وعن ابتدائه بالرجز . وقد ذهب الى أن هذا الشعر الجاهلي الاصل اليينا ، والمحفوظ في الكتب ، لا يمكن أن يرتقي الى أكثر من السنة (٥٠٠) للميلاد . ثم تطرق الى التطور الذي أحاق بالأفكار والآراء والمعاني الواردة في

١ ابن سلام (٧٦ وما بعدها ، ١١٦) .

٢ ابن سلام (٥ وما بعدها ، ٤٠) .

٣ الأغاني (٥٢ / ١٧) .

الشعر المقال في أيام الأمويين ، فأبعده من هذه الناحية عن الشعر الجاهلي ، فعراه الى الحياة الجديدة التي دخل فيها العرب في هذا العهد ، والى التغير الروحي الذي ظهر بين العرب نتيجة خروجهم من البوادي ودخولهم أرضين خصبة ، ذات عمران وحضارة ، وهو تغير يفوق في نظره أثر الدين الجديد ، أي الإسلام في العرب . فبينما كان الشعر الجاهلي^١ ، شعر بدوي ، ظهر وترعرع بين الأعراب وفي البوادي ، وكان أبطاله ورجاله ، يراجعون الإمارات الصغيرتين : امارة المناذرة و امارة الغساسنة ، نرى هذا الشعر ينمو ويظهر في قصور الخلفاء والولاة والحكام ، وهي كثيرة ، فيها البذخ والمال والترف والتعميم ، وحياة هذه طرازها لا بد وأن تؤثر على مشاعر الشاعر ، فتجفل شعره يختلف في معانيه وفي شعوره عن معاني وشعور الشعر الجاهلي ، وان حاول الشعراء جهدهم المحافظة على القوالب الجاهلية للشعر ، والتمسك بمجزأة ذلك الشعر^٢ .

ثم تحدث في مقدمته هذه عن الصعوبات التي يواجهها المرء حين يريد فهم هذا الشعر ، ثم أشار الى عمل المستشرقين الذين سبقوه في نشر وترجمة ذلك الشعر الى لغاتهم ، ثم تحدث عن تضارب الروايات واختلافها في نصوصها وعن رواة الشعر الجاهلي ، وعن تداخل الشعر بعضه في بعض في بعض الأحيان ، بحيث يدخل شعر شاعر في شعر غيره ، أو ينسب شعر شاعر لغيره^٣ ، ثم عن تغيير وتحويل الأشعار المقالة بلهجات القبائل لجعلها موافقة للعربية الفصحى ، وإن كانت هذه الفروق التي كانت بين اللهجات الشمالية لم تكن كبيرة عند ظهور الإسلام . وتحدث بعد ذلك عن الشعر الوثني وعن ورود أسماء الأصنام فيه ، وعن تجنب الرواة ايرادها ، أو تحويلها بعض التحويل . ثم تحدث عن تعمد الرواة نحل الشعر ، وحله على ألسنة الشعراء الجاهليين ، وعلى ألسنة الماضين ، وعلى ألسنة الجن والملائكة .

وتطرق أيضاً الى رأي علماء العربية في الشعر الجاهلي ، وفي المعلقات ، ورأي (النحاس) فيها ، ثم تحدث عن تصنيف علماء الشعر للشعراء الى طبقات، وعن

Beltrage, S. I. f.

١

المصدر نفسه (ص VIII) .

٢

الأسس التي وضعوها في هذا التصنيف^١ .

وبعد هذه المقدمة التي أخذت (٢٤) صفحة من الكتاب ، ترجم الصفحات الأولى من كتاب (الشعر والشعراء) لابن قتيبة ، الى باب (العيب في الإعراب) ، وانتهى منه بقول القائل :

قل لسليمي اذا لاقيتها هل تبلفنّ بلدة إلا بزد
قل للصعاليك لا تستحسروا من التماسٍ وسير في البلاد
فالفزو أحجى ما خيلت من اضطجاع على غير وساد
لو وصل الغيث أبناء امرئٍ كانت له قبة سحق بجاد
وبلدة مقفرٍ غيطانها أصداؤها مغرب الشمس تناد
قطعتها صاحبي حوشية في مرقبها عن الزور تعاد^٢

ثم تطرق في كتابه الى شعر يهود جزيرة العرب ، ثم الى شعر مالک ومتمم ابنا نويرة ، فشعر الخنساء ، ودون بعض النماذج من الشعر .

وقد تهيأت للمستشرقين الذين جاءوا بعد (نولدكه) موارد جديدة لم تكن معروفة في أيامه ، بفضل جهود العلماء الذين بحثوها ، بإخراجها مطبوعة ، بعد ان كانت مخطوطة ، قابعة في زوايا النسيان ، بعيدة عن متناول اليد ، فزاد علمهم بالشعر الجاهلي ، وأحاطوا بما فات وخفي عن علم ذلك المستشرق الكبير العالم ، وكوّنوا لهم آراءهم عنه ، نشروها في مقدمات الدواوين ومجموعات الشعر التي أخرجوها ، أو في كتبهم التي وضعوها في الأدب الجاهلي ، وفي مقالاتهم التي نشروها في المجلات . وقد ترجمت بعض منها الى العربية ، ولخصت بعض

١ Beiträge, S. IX. وما بعدها

٢ الشعر والشعراء (٤٦/٦) ، Beiträge, 1-42.

منها ، في الكتب العربية التي تناولت الأدب الجاهلي^١ .

وللمستشرق (آلورد) « W. Ahlwardt » ملاحظات قيّمة عن الشعر الجاهلي من حيث الصحة والصناعة والإصالة^٢ .

وقد تعرض (بروكلمن) لموضوع الشعر المنحول ، فأشار الى أثر الرواية الشفوية في الوضع ، والى موضوع التلوين وعدم وجوده في الجاهلية ، وأثره في فقدانه على انتقال الشعر ، ثم قال : « ومن ثم يعد خطأ من مرجليوث وطه حسين أن أنكروا استعمال الكتابة في شمالي الجزيرة العربية قبل الاسلام بالكلية ، ورتبوا على ذلك ما ذهبوا اليه من أن جميع الأشعار المروية لشعراء جاهليين مصنوعة عليهم ، ومنحولة لأسمائهم .

ولكن بدسها أن الكتابة لم تقض قضاء كلياً على الرواية الشفوية . فقد كان لكل شاعر جاهلي كبير على وجه التتريب رواية يصحبه ، يروي عنه أشعاره ، وينشرها بين الناس ، وربما احتذى آثاره الفنية من بعده ، وزاد عليها من عنده.

١ للوقوف على آراء بعض المستشرقين راجع الفصل الثالث من كتاب : مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، تأليف الدكتور ناصر الدين الاسد (ص ٣٥٢ وما بعدها) ، وكتاب تاريخ الادب العربي : العصر الجاهلي ، تأليف الدكتور ريجيس بلاشير ، تعريب الدكتور ابراهيم كيلاني (بيروت : دار الفكر) ،
Th. Nöldeke, Die Semitischen sprachen, S. 47.

Th. Nöldeke, Fünf Mo'allaqat, Wien, 1899, 1900, D. S. Margoliouth, The Origine of Arabic Poetry, In Journal Royal Asiatic Society, 1925, pp. 417-449, Encyclopaedae of Religion and Ethics, Vol. 8, p. 874, G. Richter, Zur Entstehungs Geschichte der Altarabischen Quaside, In ZDMG., XCII, (1938), W. Muir, Ancient Arabic Poetry, In JRAS, (1875), Krenkow, The Use of the Writing for the Preservation of Ancient Arabic Poetry, Cambridge, 1922, E. Bräunlich, Versuch einer Literargeschichtlichen betrachtungsweise Altarabischer Poesien, In Der Islam, XXIV, 1937, S. 201-269, G. Von Grunebaum, Die Wirklichkeiten der Früharabischen Dichtung, Wien, 1937, G. Von Grunebaum, Zur Chronologie der Früharabischen Dichtung, In Orientalia, VIII, 1939, pp. 328-345, Ahlwardt, The Diwans of the Six Ancient's Arabic Poets, London, 1870, R. Geyer, Beiträge zur Kenntnis Altarabischer Dichter, in Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes, XVIII, 1904, S. 5, Delitzsch, Jüdisch-Arabische Poesien aus Vormuhamedanischer Zeit, Leipzig, 1874.

W Ahlwardt, Bemerkungen über die Echtheit der Alten Arabische Gedichte, Greifswald, 1872.

وكان هؤلاء الرواة يعتمدون في الغالب على الرواية الشفوية ولا يستخدمون الكتابة إلا نادراً .

وعن الرواة كانت تنتشر الدراية بالشعر في أوساط أوسع وأشمل ، بعد أن يذيع في قبيلة الشاعر نفسه . ولهذا لم يمكن التحرز عن السقط والتحريف ، وإن لاحظنا أن ذاكرة العرب الغضة في الزمن القديم كانت أقدر قدرة لا نحدّ على الحفظ والاستيعاب من ذاكرة العالم الحديث .

ولم يبدأ جمع الشعر العربي إلا في عصر الأمويين ، وإن لم يبلغ هذا الجمع ذروته إلا على أيدي العلماء في عصر العباسيين ، بيد أن معنى التحري في وثوق الرواية ، والتدقيق في النقل اللغوي على النحو الذي نعرفه في عصرنا هذا ، كان أمراً غريباً بعد على جماع ذلك العصر . ولما كان كثير من هؤلاء الجماع أنفسهم شعراء ، فقد ظنوا أنه ليس من حقهم فقط ، بل ربما كان واجباً عليهم أيضاً في بعض الأحيان أن يصلحوا ما روه للشعراء القدماء أو يزيّدوا عليه . فلا عجب إذا لم يبالوا أيضاً بالوضع والإختراع لتوثيق رواياتهم . وقد أراد حماد الرواية أن يفسر تفوقه ، والتفوق المزعوم لأصحابه الكوفيين في الدراية بالشعر القديم ، فزعم أنه وجد الشعر الذي كتب بأمر النعمان ودفن في قصره الأبيض بالحيرة ، ثم كشف في أيام المختار بن أبي عبيد .

لقد غير الرواة بعض أشعار الجاهلية عمداً ، ونسبوا بعض الأشعار القديمة إلى شعراء من الجاهلية الأولى ، كما يمكن أن يكون وضع أشعار قديمة ، منحولة على مشاهير الأبطال في الزمن الأول لتمجيد بعض القبائل ، أكثر مما نستطيع اثباته . على أنه بالرغم من كل العيوب التي لم يكن منها يد في المصادر القديمة ، يبدو أن القصد إلى التشويه والتحريف لم يلعب إلا دوراً ثانوياً . وقد روى علماء المسلمين أشعاراً للجاهليين تشمل على أسماء الأصنام وعبادتها ، وإن أسقطوا أيضاً أبياتاً أخرى لشبهات دينية ، وذلك في حالات يبدو أنها قليلة ، لأن الشعور الديني لم يكن غالباً على نفوس العرب في الجاهلية ^١ .

وقد جاء المستشرق (كارلو نالينو) في محاضراته التي ألقاها بالجامعة المصرية في سنة ١٩١٠ - ١٩١١ م ، بشيء جديد في طريقة التحدث عن الأدب العربي

١ بروكلمن (٦٤/١ وما بعدها) .

من الجاهلية حتى عصر بني أمية ، فقد عرضه عرضاً جميلاً واضحاً ، مستعملاً ملاحظات أئمة العربية عنه ، مع بيان ملاحظاته وآرائه فيه ، وقد أحدثت محاضراته هذه أثراً في كيفية دراسة الأدب العربي ، لا بمصر وحدها ، بل في الأقطار العربية التي كانت تتابع ما يحدث في مصر من تطور ثقافي^١ .

وهو وإن لم يأت في كتابه برأي جديد مثير ، إذ كانت أفكاره وسطاً في الواقع بين القديم وبين الجديد ، إلا أن طريقة عرضه لآرائه وأسلوبه في بحثه وفي تحديثه عن الشعراء ، كانت طريقة جديدة غربية بالنسبة لدارسي الأدب العربي في ذلك الوقت ، ولدت شوقاً في نفوس الدارسين للأدب العربي في ذلك الوقت إلى السير على الطريقة الغربية في نقد الأدب وفي تقبله وتحليله ، وأولدت الشك في الوقت نفسه في الروايات القديمة المروية عن الأدب العربي ، التي كان يتمسك بها القدماء تمسكهم بنصوص كتاب سماوي مقدس ، باعتبار أنها روايات تتعلق بالماضي وبالآثار . ومن التجني على العربية والاسلام التعرض لها بأي سوء ، وفي جملة ذلك الشك في صحتها والنيل منها وإلحاق الأذى بها .

وتطرق المستشرق الانكليزي (مركليوث) في بحثه : (أصول الشعر العربي) « The Origins of Arabic Poetry » إلى الشعر الجاهلي ، وقد ذهب إلى أن أكثر هذا الشعر منحول ، صنع في الاسلام ووضع على ألسنة الجاهليين . وقد أورد فيه الأدلة والبراهين التي استدلت بها على إثبات رأيه . وقد تلخصت آراؤه هذه ونقلت إلى العربية ، فلا أجد حاجة إلى البحث عنها ، ما دام غيري قد سبقني إلى هذا العمل^٢ .

وقد رأى بعض المستشرقين أن علماء اللغة أدخلوا تغييراً على نصوص الشعر الجاهلي ، لما وجدوا أن قواعدها لا تتفق مع القواعد التي استنبطوها من القرآن والحديث ، أي من لغة قريش ، ولذلك عدلوا ليكون إعرابها ملائماً لما وضعوه من قواعد النحو . وهو رأي يتناقض مع رأي المستشرقين القائلين بأن القرآن إنما نزل بلغة عربية مبينة كانت فوق اللهجات وفوق اللغات ، ولم ينزل بلهجة قريش ،

١ كارلو نالينو ، تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية ، (دار المعارف بمصر ، سنة ١٩٧٠ م) .
٢ مصادر الشعر الجاهلي (٣٥٢ وما بعدها) ، ريجيس بلاشير ، تاريخ الادب العربي (١٧٧ وما بعدها) .

ورأيهم ان ما ورد من نزول القرآن بلسان قريش ، انما هو رأي ظهر في الاسلام ،
 ظهر ببروز النزاع الذي كان بين الأنصار والمهاجرين ، أدى الى التعصب لقريش
 والى تقديمهم على كل العرب بحجة ان الرسول منهم ، وانه ولد بينهم ، فيجب
 أن تكون لغته لغتهم ، وان يكون نزول الوحي بلسانهم ، فهو رأي يبرز عن
 نوازع دينية وسياسية ، مجدت قريشاً ، لأن في تمجيدهم تمجيد على رأيهم لرسالة
 الاسلام^١ .

ونظرية وقوع التعديل والتغيير والاصلاح في أصول الشعر الجاهلي ، رأي قال
 به علماء العربية قبل المستشرقين ، إذ نجد في كتبهم إشارات الى تعديل أو تهذيب
 أو تغيير أحدثه (أبو عمرو) ، أو (الأصمعي) أو غيرهما على لفظة أو بيت ،
 لاعتقادهم بعدم انسجام أصل ما غيروه مع المعنى أو مع قواعد اللغة ، أو لمخالفته
 للعروض ، أو لوقوع تصحيف ، فصححوا ما صححوه ، بدافع علم إمكان
 صدورهم من شاعر جاهلي قديم . وفي رسالة الغفران ، لأبي العلاء المعري ، أمثلة
 كثيرة على ذلك ، وقد خطأ الاقدام على التعديل ، ودافع عن وقوع الزحاف
 والإقواء في الشعر الجاهلي ، معتبراً ذلك شيئاً لم يكن عيباً في الشعر عند الجاهليين ،
 لأنه كان أمراً مألوفاً عندهم ، وقد ذكرت رأيه في مواضع من هذا الكتاب .

وتتبع المرحوم (مصطفى صادق الرافعي) ، ما جاء في التراث العربي عن
 الأدب العربي ، فدوّنه في كتابه (تأريخ آداب العرب) تدويناً يدل على إحاطة
 جيدة بما جساء في كتب الأسلاف من أخبار عن الشعر وأصحابه وعن انتحاله
 والعوامل التي دعت الى الغش فيه ، وإدخال ما ليس منه فيه ، وقد خالف رأي
 من قال بتعليق (المعلقات) ، ومخالفته هذه تعدّ فتنة بالنسبة لرواد الشعر وللمعجبين
 به بالنسبة لذلك اليوم^٢ . وبعد كتابه من الكتب القيمة المدوّنة بالعربية بالنسبة
 لتلك الأيام ، فهو رصين حوى خلاصة ما ذكره السلف عن أدب العرب ، وإذا
 نظرنا الى عمره يوم ألفه والى أسلوب دراسته ، نجد أنه كان من نوادر المؤلفين
 في ذلك العهد .

وأحدث كتاب الدكتور (طه حسين) : « في الشعر الجاهلي » رجّة عنيفة

Nicholson, A Literary History of The Arabs, p. 134.

١
 ٢ تأريخ آداب العرب (١ / ٣٦٥ - ٣٩١) ، (٣ / ١٨٦ وما بعدها) .

في مصر وفي البلاد العربية الأخرى ، لما جاء فيه من آراء خالفت المألوف والمتعارف عليه عند علماء العربية آنذاك الذين كانوا يسرون على الجادة القديمة في دراسة أدب العرب، ولما تضمنته من عبارات اعتبرت نائية فيها تهجم على المقدسات . فشكى الى الحكومة ، ورفع أمره الى القضاء ، فكان أن غير عنوانه بعض التغيير فصار : « في الأدب الجاهلي » ، وحذف منه فصل ، وأثبت مكانه فصل ، وأضيفت اليه فصول^١ . وقد لقي الكتاب نقداً شديداً في مصر وفي خارجها ، من جانب المحافظين الحروفيين ، إذ رأوا فيه هدماً للتراث العربي وللمألوف المتوارث ، بينما لقي قبولاً حسناً من جانب الشباب والجيل الجديد ، الذين تأثروا بالمؤثرات الثقافية الحديثة وأخذوا يجاهرون بنقد الأوضاع القائمة الجامدة ، وسرعان ما دخل هذا النقد ميدان العراك الذي كان قد وقع آنذاك بين المحافظين وبين المصلحين الذين كانوا يدعون الى اصلاح المجتمع بصورة عامة ولإيقاظ العقل من سباته ، والذين كانوا ينادون بإصلاح كل ما يخص هذه الحياة من مادة وروح .

ووجود شعر جاهلي منحول ، أو وجود شعر منحول ، صنع وصيغ على ألسنة الجاهليين بتعبير أصح ، قول لا يختلف فيه أحد ، لا يختلف فيه علماء العربية عن المستشرقين ، ولا القدماء عن المحدثين ، ولا المحافظون المتزمتون عن المدعين بالتقدمية والتجديد ، فكلهم مجمعون على وجوده، وكل منهم أثبت وجوده بطرقه وبأساليبه التي كانت متبعة في زمانه في طرق النقد ، فهم في هذه القضية متفقون تماماً ولا خلاف بينهم فيه ، اللهم إلا في شيء واحد ، هو : سعة حجم المصنوع بالنسبة الى حجم الصحيح من الشعر ، فمنهم من يزيد في نسبة حجم المصنوع حتى يغلبه على الصحيح ، بل يجعل الصحيح منه شيئاً ضئيلاً ، بالنسبة اليه ، ومنهم من يقلل هذه النسب الى درجات قد يصيرها بعضهم دون الشعر الصحيح بكثير .

وأول أسباب نخل الشعر : العصبيات التي عبر عنها (ابن سلام) بقوله : « قال ابن سلام : فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار، فقالوا على ألسن شعرائهم،

١ (مقدمة الطبعة الثانية) ، (القاهرة ١٩٢٧ م) .

ثم كانت الرواة بعد ، فزادوا في الأشعار^١ . من ذلك ما فعلته (قريش) ،
الذين كانوا - كما يذكر أهل الأخبار - أقل العرب شعراً وشعراء ، فلما نظروا
فإذا حظهم من الشعر قليل في الجاهلية ، استكثروا منه في الاسلام^٢ .

ومن هذا القليل ما نسب الى قداماء أهل اليمن من شعر ، وما أضافوه من
شعراء وشعر ، فجعلوا للتبابعة شعراً فيه تبجح بأعمالهم وبما قاموا به من فتوح
هزت الدنيا في يومها امتدت من أقصى طرف من الأرض الى أقصى طرفها الآخر
من (الصين) الى (روما) ، والى آخر المعمور الممتد على البحر المظلم ،
وفيه إيمان بالله وبملائكته ، وتبشير بظهور الرسول ، وأسف شديد لأنهم ولدوا
قبل زمانه ، فلم يسعدهم الحظ بإدراكه ، وهم لو أدركوه لكانوا أول المؤمنين
به ، وأول المدافعين عنه ، وحيث حرموا من هذه النعمة ، نعمة ملاقاته لإعلان
إيمانهم به أمامه ، فهم يدعون من يأتي بعلمهم ممن سيدرك أيامه الى الذب عنه
والدخول في دينه . فيقول (الرائي) منهم ، وهو (الحارث) ، في شعر له ،
ذكر فيه من يملك منهم ومن غيرهم :

ويملك بعدهم رجل عظيم نبي لا يرخص في الحرام
يُسمى أحداً يا ليت أني أعر بعد يخرج بهام^٣

وإذا عرفت أن هذا (الرائي) ، كان قد حكم قبل (بلقيس) ، وبلقيس
معاصرة (سليمان) على زعم أهل الأخبار ، وقد كان حكم (سليمان) في حوالي
السنة (٩٦٩) قبل الميلاد^٤ ، أدركت كم سيكون إذن عمر هذا الشعر المنسوب الى
(الحارث) الرائي ، الذي لقب بهذا اللقب ، لأنه كان أول من راى الناس ،
أي أول من غزا من أهل اليمن ، وأول من أصاب الغنائم والسبي ، وأدخلها
اليمن ، فراش الناس^٥ .

١ طبقات (١٤) .

٢ ابن سلام ، طبقات (٦٢) ، الرافعي (٣٦٧/١) ، في الادب الجاهلي (١٢٢) .

٣ المعارف (٦٢٧) .

٤ Hastings, p. 868.

٥ المعارف (٦٢٦) .

وبالمعنى المتقدم نطق (التبع) : (تبع بن كليكرب) ، حيث قال :

شهدتُ على أحمد أنه رسولٌ من الله باري النسم
فلو مُدَّ عمري الى عمره لكنت وزيراً له وابن عم

ولم يكتف أهل الأخبار بكل هذا ، بل زعموا أنه كان كسا البيت وأنه قال
في ذلك :

وكسوت بيت الله غير كساه
ومقالة الحبرين واليوم الذي
حذر العقاب ليرحم الرحمن
يتلى الكتاب وينصب الميزان^١

وزعموا ان التبع (تبع بن حسان) ، أو (تبع الأوسط) كسا البيت الحرام
وأطعم الناس بمكة ، وقولوه هذا البيت :

فكسونا البيت الذي حرم الله له ملاءةً معضداً وبروداً^٢

فالتبابعة هم أول من كسا البيت ، وأول من آمن بالله وبرسوله ، كانوا
مسلمين قبل ظهور الاسلام ، وقبل ميلاد الرسول بعشرات المئات من السنين .
ونسبوا للذي جدن الحميري الملك شعراً ، ذكر فيه الموت ، حيث يقول :

لكل جنب اجتبي مضطجع
اليوم تجزون بأعمالكم
والموت لا ينفع منه الجزع
لو كان شيء مقلناً حتفه
كلُّ امرئٍ يحصد مما زرع
أفلت منه في الجبال الصّدع

ونسبوا له أشعاراً أخرى^٣ . وذو جدن من أذواء اليمن ، والأذواء بعضهم
ملوك وبعضهم أقيال ، والقيال دون الملك ، والميقول : القيل أيضاً بلغة أهل
اليمن . وقد ذكر صاحب (خزانة الأدب) أسماء عدد من الأقيال^٤ . فذو جدن
هذا شاعر ، متفلسف يذكر الناس بالموت وبما بعد الموت ، حيث تجزى كل نفس

١ المعارف (٦٣١) .

٢ المعارف (٦٣٥) .

٣ الخزانة (٢٨٧/٢) وما بعدها .

٤ الخزانة (٢٨٩) وما بعدها .

بما كسبت ، ويحصد كل امرئ ما زرعه بيديه في دنياه ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، ولن يفلت أحد من الموت ، وهيئات له ذلك .

ونجد في شعر التباينة أشعاراً في الحكم وفي الحث على مكارم الأخلاق ، وفي حروبهم وفتوحاتهم التي تشبه فتوحات الإسكندر والفتوحات الإسلامية فيما بعد ، فتوحات سبقت الفتوحات الإسلامية بمئات من السنين ، حاول صانعوها المبالغة فيها ، حتى صبروا الفتح الإسلامي وكأنه ذيل لتلك التوج القحطانية التي زرعت (حمير) في الصين وفي تركستان ، صنعوا ذلك في الإسلام ، لما تبجح عليهم العدنانيون بالإسلام وبلوغه الصين والمحيط الأطلسي .

وذكر أن الشاعر (يزيد بن ربيعة بن مفرغ) الحميري^١ ، كان ممن أذاع أسطورة (تبع) ، وكان يتعصب إلى اليمن^٢ ، ولعله هو الذي وضع أكثر الشعر المنسوب إلى (التباينة) ، وكان (عبيد بن شربة) الجهمي ، ممن صنع الشعر على ألسنة التباينة وغيرهم ، وأضافه إليهم^٣ . ونجد في كتاب صفة جزيرة العرب للهمداني وفي الإكليل ، وهو من كتبه أيضاً ، شعراً كثيراً يرويه على أنه من شعر التباينة ، ومن شعر عاد وثمود ، وسادات حمير ، وهو مصنوع من دون شك ، صنعه المتعصبون لليمن من البائية ، وقد كانت العصبية قد أخذت مأخذها في الإسلام . والهمداني نفسه من المتعصبين لليمن قبله . وأدخله في كتبه دون أن يسأل نفسه عن كيفية وصول ذلك الشعر من أفواه قائله إليه ، مع بعد الزمن وتقادم العهد ، وتكلم أهل اليمن في القديم بكلام لا يشابه كلام الشعراء . ويدخل في هذه العصبية الشعر المنسوب إلى الشعراء في هجاء قحطان أو عدنان أي في هجاء القحطانية أو العدنانية بتعبير أدق ، من ذلك القصيدة التي صنعوها على لسان (الأفوه الأودي) الشاعر الجاهلي ، الذي هو من (مدحج) ، ومدحج من اليمن ، التي أولها :

إن ترى رأسي فيه نزع وشواي خلة فيها دوار^٤

١ الشعر والشعراء (٢٧٦/١) ، الاغاني (٥١/١٧) ، الخزائن (٢١٠/٢) ، (٥١٤) .

٢ الاغاني (٥٢/١٧) .

٣ Von Kremer, Die Südarabische Sage, S. VII, 78, Nicholson, A Literary History of the Arabs, p. 19.

٤ الشعر والشعراء (١٤٩/١) ، العيني (٤٢١/١) ، الاغاني (٤١/١١) ، معاهد التنصيص (١٥٩/٢) .

وهي قصيدة فيها هجاء لبني نزار ولبني هاجر ، صنعت ولا شك في الاسلام . وقد زعم ان النبي نهى عن روايتها . واذا كانت القصيدة مصنوعة ، أو ان أبيات الهجاء منها مصنوعة على الأقل ، كان حديث النبي عن روايتها مصنوعاً أيضاً ، لأن هذا الصنع انما وقع في الاسلام .

ومن فرسان العصبية اليانية الشاعر (حسان بن ثابت) ، فقد كان من المتحاملين على قريش ، ومن المتعصبين ليثرب ولليمن على قريش ومعدّ . مع ان الرسول نهى عن أمر الجاهلية ، فكان يجالس قريشاً وهو في اسلامه ، وينشد الناس ما قالته الأوس والخزرج في قريش ليشفي بذلك غليله . وكان الخليفة (عمر) قد نهى أن ينشد الناس شيئاً من شعر الهجاء الذي كان بين الأنصار ومشركي قريش حذر تجديد الضغائن ، ومع ذلك فإن عصبية حسان لمدينته ولليمن كانت تدفعه على مخالفة ما أمر به^١ .

ومن هذا القبيل ما فعلته قريش بشعر حسان . فقد « حمل عليه ما لم يحمل على أحد ، لما تعاضت قريش ، واستبت ، وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تليق به »^٢ ، وقد وضعت قريش وأشباعها المتعصبون للعذانية أشعاراً أخرى على السنة بقية شعراء يثرب ، أرادت من وضعها الخط من شأنهم ، وإلحاق السخف والركة بشعرهم وبهم ، وفعل غيرهم فعلهم في إضافة الشعر الى من كانوا يكرهونه ، للنيل منه ، فنسبوا اليهم شعراً سخيلاً مشيناً ، أو فيه تحامل وقدح على بعض الناس ، للإساءة اليهم بظهور هذا الشعر وانتشاره .

وقد ذكر (ابن سلام) أن (قدامة بن عمر بن قدامة) الجمحي ، نحّل شعراً على (أبي سفيان بن الحارث) للنيل منه ، وأن قريشاً تزيد في أشعارها تريد بذلك الأنصار والردّ على حسان^٣ . وورد أن (قتادة بن موسى) الجمحي هجا (حسان بن ثابت) بأبيات ونخلها (أباسفيان بن الحارث بن عبد المطلب)^٤ . وكان الأنصار يقظون ، واقفون لقريش بالمرصاد ، وكانت قريش يقظة كذلك ، إذا سمعت شاعراً مسدح الأنصار ولم يمدحها استاءت منه . فلما قدم (كعب بن

١ الاستيعاب (٣٣٧/١) وما بعدها ، (حاشية على الاصابة) .

٢ ابن سلام ، طبقات (٥٢) .

٣ ابن سلام ، طبقات (٦٢) .

٤ الاصابة (٢١٧/٣) ، (رقم ٧٠٧٧) .

زهير) يثرب معتزلاً عن كفره ، معلناً إسلامه أمام الرسول ، مدح قریشاً وعرض بعض التعريض بالأنصار لغلظتهم كانت عليه ، تبهمته الأنصار وغلظت عليه ، ولانت له قریش ، غير أنها لم ترض عن مدحه ، إذ وجدته قليلاً ، وأنكرت عليه ما قال ، إذ قالت له : « لم تمدحنا إذ هجوتهم ، ولم يقبلوا ذلك » منه^١ . ولما قدم (الحطيثة) المدينة أرصدت له قریش العطايا ، فعلت ذلك ليخلص لها في المدح ، وليصرف مدحه عن الأنصار^٢ .

وندخل في هذه العصبية ، العصبية الى البيوتات ، فقد كان قوم (سعيد بن العاص بن أمية) يذكرون أن (سعيداً) كان اذا اعتم لم يعتم قرشي إعظماً له ، وينشدون :

أبو أحيحة من يعتم عمته يضرب وإن كان ذا مال وذا عدد

ويذكر (الزبيريون) ان هذا البيت باطل مصنوع^٣ .

ولم تتورع العصبية والخصومات من الكذب عمداً على الناس ومن الطعن في الأنساب . فلما اعترض (مزد) أخو الشماخ ، وكان عريضاً ، (كعب بن زهير) عزاه الى (مزينة) ، وكان (أبو سلمى) وأهل بيته في (غطفان) ، فقال كعب بن زهير شعراً يثبت انه من مزينة ، « وقد كانت العرب تفعل ذلك ، لا يعزى الرجل الى قبيلة غير التي هو منها ، إلا قال : أنا من الذين عنيت . كان أبو ضمرة يزيد بن سنان بن أبي حارثة لاحي النابغة فناه الى قضاة » ، فقال شعراً يثبت انه منها^٤ . وهناك أمثلة عديدة من هذا القبيل ، أدت الى وقوع النسابين في أخطاء بسبب هذه الأكاذيب .

وقد ساهم الخلفاء الأمويون في هذه العصبية ، ساهموا حتى في التزام العلماء والشعراء . « جمع سليمان بن عبد الملك بين قتادة والزهري ، فغلب قتادة الزهري ، فقبل لسليمان في ذلك ، فقال : انه فقيه مليح . فقال (القحذمي) : لا ، ولكنه

١ ابن سلام ، طبقات (٢٠ وما بعدها) .

٢ ابن سلام ، طبقات (٢٤) .

٣ المزهر (١٨١/١) .

٤ ابن سلام ، طبقات (٢١ وما بعدها) .

تعصب للقرشية ، ولانقطاعه كان اليهم ، ولروايته فضائلهم ^١ .

وكان (معاوية) يتعصب لليمن على قيس ، وذلك بسبب زواجه من (كلبية) ، مع أنه من عدنان . حتى صار من فرط تعصبه لليمن لا يفرض إلا لهم ، ولم يزل كذلك حتى كثرت اليمن وعزت قحطان ، وضعفت عدنان ، فبلغ معاوية أن رجلاً من اليمن قال : هممت أن لا أحل جبوتي حتى أخرج كل نزارى بالشام ، ففرض من وقته لأربعة آلاف رجل من قيس . وكان معاوية يقري اليمن في البحر ونمياً في البر ، وفي ذلك يقول (النجاشي) شاعر اليمن :

ألا أيها الناس الذين تجمعوا بعكا أناس أنتم أم أباعر
أترك قيساً أمين بدارهم ونركب ظهر البحر والبحر زاخر
فوالله ما أدري وإني لسائل أهدان تحمي ضيمها أم يحابر
أم الشرف الأعلى من أولاد جبر بنو مالك أن تستمر المرائر
أوصى أبوهم بينهم أن تواصلوا وأوصى أبوكم بينكم أن تدابروا

فرجع القوم جميعاً عن وجههم ، فبلغ ذلك معاوية ، فسكن منهم . وقال : أنا أغزيكم في البحر لأنه أرفق من الخيل وأقل مؤونة ، وأنا أعاقبكم في البر والبحر ففعل ذلك ^٢ .

وأوجدت هذه العصبية كثيراً من الشعر المصنوع ، روي على أنه من شعر التبابعة ، صنع ولا شك في الاسلام ، حين بلغت العصبية العدنانية والقحطانية ذروتها في أيام الأمويين فابعد . فلما نظر البانيون الى أنفسهم ، واذا بالحكم لغيرهم . وقد كانت لهم دولة قبل الاسلام ، ثم اذ بهم يحكمهم من كان دونهم في الجاهلية ، أخذتهم العزة ، ودفعتهم العصبية على الاحتماء بالماضي ، وإعادة ذكرياته ، وما كان لهم من مآثر ، ولأجل تأكيد ذلك وتثبيتته ، لجأوا الى الشعر ، ولم يكن لهم شعر في الجاهلية بهذه العربية التي نعرفها ، لأنها لم تكن عربيتهم ، فصنعوا شعراً كثيراً بهذه العربية ، نسبوه الى التبابعة ، وارتفعوا به الى عهود جاوزت الحد المألوف الذي حدده علماء الشعر ، لتأريخ ظهور (القصيد) عند

١ البيان والتبيين (٢٤٣/١) .

٢ الخزائن (٤٦٦/١) وما بعدها .

الجاهليين ، نجد الكثير منه مدوناً في الكتب التي تتعاطف مع اليانية ، مثل كتب
الهمداني ، ونشوان بن سعيد الحميري .

ولما كان هذا الشعر هو في ذكريات أيام اليمن الماضية وأحوالها القديمة ، وفي
أخبار ملوك حير وأعمالهم ، اتخذ أسلوب القص والفخر ، فكثرت أبيات القصائد
أحياناً ، وارتبطت الأبيات في المعاني بعضها ببعض ، نظراً لاقتضاء طبيعة القص
والأساطير ذلك ، وهو يفيدنا من ناحية الوقوف على الأساطير اليانية القديمة التي
أوجدتها مخيلتهم عن تأريخهم القديم ، وفي تطور أسلوب القص في الشعر .

ويظهر من عبارة (الأمدي) : « وهي أبيات تروى لامرئ القيس بن حجر
الكندي ، وذلك باطل ، إنما هنّ لامرئ القيس الحميري ، وهي ثابتة في أشعار
حير^١ ، أنه قد كان لحير ديوان فيه أشعارهم ، أو أن قوماً منهم أو من
غيرهم جمعوا شعر حير ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلا بد أن يكون هذا الجمع
قد وقع في الإسلام ، وأن ما فيه من شعر جاهلي ، هو من الشعر المصنوع .

ومن العصبية عصبية قريش على ثقيف . فقد كانت بين قريش وبين ثقيف
خصومة ، بسبب طمع أهل مكة في الطائف ، وشراء سادات قريش الملك في
الطائف لاستغلاله ، مما جعل ثقيفاً يكرهون أهل مكة . ثم عامل آخر ، ظهر في
الإسلام ، هو كره أهل العراق للحجاج ، مما جعلهم يذمون ويلعنون ثقيفاً معه .
فزعوا أن قومه من بقايا ثمود ، وذلك في أيام الحجاج . « روي أن الحجاج
قال على المنبر يوماً : تزعمون أننا من بقايا ثمود ، وقد قال الله عز وجل :
وثنوداً فما أبقي^٢ . وذكر (الجاحظ) ، زعم الناس هذا في أصل ثقيف ،
وذكر أن مثل ثمود كمثل (بني الناصور) ، فقد هلكوا في الجاهلية ، كما
هلك غيرهم من الأمم البائدة ، وذكر أن هناك من قال إن أصل (بني الناصور)
من الروم^٣ .

وقد وجدت العصبية مرتعاً خصباً بين الموالي والعبيد ، فساهموا فيها أيضاً .
فلما رأى (جرير) (الحقيطان) يوم عيد في قبص أبيض وهو أسود ، قال :

١ المؤلف والمختلف (٩) ، (عبد الستار أحمد فراج) .
٢ البيان والتبيين (١ / ١٨٧ وما بعدها) .
٣ البيان والتبيين (١ / ١٨٧) .

كانه لا بدا للناس أيرحار لُفّ في قرطاس

فلما سمع بذلك (الحَيَقْتَان) وكان بالهامة ، دخل الى منزله فقال شعراً افتخر فيه بالنجاشي وبالسودان ، وبلقان وبأبرهة وذم قريشاً ومضر ، وتحامل عليها ، ففرحت البائية به ، وأخذت تحتج به على العدنانية ، واحتج بها العجم والحبش على العرب^١ .

وبلاحظ ان الحبش قد تعصبوا أيضاً على العرب في الاسلام، وتفاخروا بملوكهم وبأبرهة ، وقد كان لازدراء الأغنياء لهم ، وتسخير أصحاب المال لهم في أداء الأعمال الحقةرة ، ونظرتهم اليهم نظرة ازدراء وتحقير ، فلم يصاهروهم، ولم يروا انهم أكفاء لهم ، مثل العجم على الأقل ، أثر في إثارة هذه الضغينة في نفوسهم وفي وقوفهم موقف الضد من العرب . وقد تعرض (الجاحظ) لذلك ، فقال : « وقد قالت الزنج : من جهلكم انكم رأيتمونا لكم أكفاء في الجاهلية في نسائكم، فلما جاء عدل الاسلام رأيتم ذلك فاسداً » . ثم روى على لسانهم ما قاله بعض الشعراء مثل النمر بن تولب ، وليد من مدح أبرهة ، ثم أعقب ذلك بذكر من برز وظهر من الزنوج^٢ .

ومن أسباب النحل دوافع نشأت عن عاطفة دينية ، رأت أن في نحل الشعر على ألسنة الجاهليين ، عملاً ليس فيه ضرر ولا اساءة ، بل فيه منفعة من ناحية التوعية الدينية والحث على التدين والتزهد ، وعمل الخير والإيمان بدين الله، فروت الأشعار على ألسنة المتقدمين في التبشير بظهور الرسول ، قبل ميلاده بأمد ، وفي الحث على نبذ الوثنية والإيمان بآله واحد . نظم على لسان القحطانيين وعلى لسان العدنانيين ، الذين عاشوا قبل الإسلام، كما نظم على ألسنة الجن والمواف والكهنة .

ومن هذا القبيل ما قيل من شعر في التوحيد وفي الذب عن الاسلام على لسان (أبي طالب) وغيره ، وفي مدح قريش ، وجعلها القبيلة المختارة التي اصطفاها الله من بين سائر العرب ففضلها على العالمين ، بأن جعلها الصفوة ، وجعل لسانها اللسان الذي نزل به القرآن ، فعل أصحاب الصنعة ذلك لنوازع مذهبية، ولعصية

١ رسائل الجاحظ (١٨٢/١ وما بعدها) ، (فخر السودان على البيضان) .

٢ رسائل الجاحظ (١٩٧/١ وما بعدها) ، (فخر السودان على البيضان) .

قبلية سياسية ، ذات صلة بالعواطف الدينية ، فلم يكن يهن على أهل يثرب مثلاً التسليم بسيادة قريش عليهم ، فكان ما كان من وضع قريش الحجج التي تؤيد قريشاً في الجاهلية ، وتجعلهم أفضل العرب على الإطلاق، وما كان الأنصار ليقبلوا ذلك بالطبع، فأوجد صناعتهم فخراً وسبقاً لهم على قريش ، بأن قالوا إنهم الأنصار وأنهم نصروا رسول الله منذ سمعوا بالإسلام ، فلما سمع (أبو قيس بن الاسلت) وهو من الأوس ، مقالة (أبي طالب) :

ولما رأيت القوم لا ودّ فيهم وقد قطعوا كل العرى والوسائل

حين أرادوا منه تسليمهم النبي ، أرسل إليهم قصيدة ينهى فيها قريشاً عن الحرب ، ويأمرهم بالكفّ عن رسول الله ، إذ يقول :

يا راكباً اما عرضت فبلغن مغفلة عني لؤي بن غالب

وهي قصيدة طويلة دونّها (ابن هشام) في سيرته^١ ، اذا قرأتها خرجت منها ان صاحبها انما أراد من صنعها على لسان (ابن الأسلت) إظهار ان أهل يثرب كانوا أول من دافع عن الرسول والاسلام ، وانهم كانوا أول المؤمنين به ، إذ كفرت قريش بدين الله . مع انه مات مشركاً ، ولم يثبت انه دخل في الاسلام^٢ .

والقصيدة بعد من صنع أناس من الأنصار ، لعلهم كانوا من صلبه ، وجدوا ان من السهل وضع الشعر على لسانه ، فقد كان شاعراً معروفاً ، وكان من سادة يثرب ومن الوافدين على مكة ، وله فيها أصحاب ودالة ، وفي صنع هذا الشعر فخر للأنصار عظيم ، فنسبوا له تلك القصيدة ، وجعلوها جواباً لاستغاثة (أبي طالب) في قصيدته التي قال ما قال فيها في حق قريش وفي تعنتها تجاه الرسول والاسلام .

ومن هذا القبيل ، تطويلهم القصيدة المنسوبة الى أبي طالب التي قيل انه قالها في النبي ، وهي :

١ سيرة (١٨٠/١) ، (حاشية على الروض) .

٢ الاصابة (١٦٠/٤) ، (رقم ٩٤٤) ، الاستيعاب (١٥٩/٤) وما بعدها ، (حاشية على الاصابة) .

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل

فقد زيد فيها وطولت ، بحيث صار لا يعرف أيسن منهاها^١ . وقد أورد ابن هشام أشعاراً نسبها الى (أبي طالب) منها قصيدته التي رد فيها على قريش حين عرضت عليه تسليم النبي لهم ، على أن يعطوه في مقابله (عمارة بن الوليد) ، وقد دوتها (ابن هشام) ، وذكر انه ترك منها بيتين أقذع فيها^٢ . ومنها قصيدته :
ولما رأيت القوم لا ودّ فيهم وقد قطعوا كل العرى والوسائل

وهي قصيدة طويلة ، قال عنها (ابن هشام) : « وبعض أهل العلم ينكر أكثرها^٣ » .

ومن هذا القبيل ما وضع من شعر في الأحداث التي وقعت بين المسلمين والمشركين في أيام الرسول ، مثل معركة بدر ، وبقية المعارك . فقد وضع الناس شعراً كثيراً على لسان المسلمين والمشركين ، ونجد (ابن هشام) يقول في تعليقه على شعر لأبي أسامة معاوية بن زهير ، وكان مشركاً ، وقد مرّ بهيرة بن أبي رهم ، وهو منهزم : « وهذه أصح أشعار بدر^٤ » ، ونجد (ابن هشام) ، يعلق ويصحح ويشكك في صحة بعض هذا الشعر الذي أخذه من (ابن اسحاق) ، وقد طعن على (ابن اسحاق) ، لأنه أخذ مثل هذا الشعر فأدخله في السيرة ، مع أنه شعر مصنوع^٥ .

ومن هذا القبيل ما روي من أن امرأة من حضرموت ثم من (تنعة) صنعت لرسول الله كسوة ، أرسلتها مع ابنها (كليب بن أسد بن كليب) الى رسول الى ، فأناه بها وأسلم ، فدعا له ، فقال حين أتى النبي :

من وشّر برهوت تهوى بي عذافرة اليك يا خير من يحفى ويتعل
نحوب بي صفصفاً غبراً مناهله تزداد عفواً إذا ماكلت الإبل

-
- ١ ابن سلام ، طبقات (٦٠) ، المزهر (١٧٩/١) .
 - ٢ ابن هشام (١٧١/١) وما بعدها ، (حاشية على الروض) .
 - ٣ ابن هشام (١٧٩/١) ، (حاشية على الروض) .
 - ٤ ابن هشام (١١٥/٢) ، (حاشية على الروض الأنف) .
 - ٥ الروض الأنف (١٠٧/٢) وما بعدها .

شهرين أعملها نصاً على وجل أرجو بذلك ثواب الله يا رجل
أنت النبي الذي كنتا نخبره وبشرتنا بك التوراة والرسل^١

والذي نعرفه أن لسان أهل حضرموت لم يكن في هذا العهد على هذا البيان
والعربية ، وإنما كان على عربية حضرموت ، ولا أدري إذا كان هذا الرجل
يعرف شيئاً عن التوراة والرسل ، أو سمع باسم التوراة وبالرسل حتى يذكرها
ويذكر رسل الله في هذا الشعر .

ومن هذا النوع ما روي من شعر الجن والهواتف : من مثل الشعر المبشر
بقرب ظهور نبي ، كما في قصة : (راشد بن عبد ربه) السلمي التي رواها
عن سبب إسلامه ، وما سمعه من هاتف يصرخ من جوف الصم ، بظهور نبي^٢ ،
أو من شعر آخر ، قيل على ألسنة الجن ، في أغراض مختلفة وهو كثير ، من
ذلك قولهم :

وقبر حربٍ بمكانٍ قفر وليس قرب قبر حربٍ قبر

وقائله مجهول . فلما رأوا أن من الصعب إنشاده ثلاث مرات في نسق واحد
فلا يتتبع ولا يتلجلج ، قيل لهم أنه من شعر الجن . فصدقوا بذلك^٣ .

وذكر أهل الأخبار اسم شاعر من الجن ، قالوا له : (مالك بن مالك)
الجنبي . فقد زعموا أن (خريم بن فاتك) الأسدي ، خرج في بغاء إبل له ،
فأصابها بالأبرق ، فقال : أعوذ بعظيم هذا الوادي ، فإذا هاتف يهتف :

ويحك عذ بالله ذي الجلال منزل الجلال والحرام

فقال خريم :

يا أيها الداعي فما تحيل . أرشد عندك أم تضليل

١ ابن سعد ، طبقات (٣٥٠/١) ، (وفد حضرموت) .

٢ السيوطي ، شرح شواهد (٣١٧/١) .

٣ البيان والتبيين (٦٥/١) .

فقال الهاتف :

هذا رسول الله ذو الخيرات جاء يباين وحاميات
محرمات ومحلات يأمرنا بالصوم والصلاة

فقال خريم : من أنت يرحمك الله ؟ فقال : أنا مالك بن مالك ، بعثني
رسول الله على جن أهل نجد^١ .

وروي أهل الأخبار شعراً لشاعر آخر من الجن اسمه ، (مالك بن مهلهل بن
إباد) ويقال (دثار) ، زعموا أنه أحد من أسلم من الجن ، روي له قصة مع
(رافع بن عمر) التميمي المعروف بـ (دعووس الرمل) ، لأنه كان أعرف
الناس لطريق وأسراهم بليل ، وأهجمهم على هول ، وقعت له يرمل عالج ،
لما قال : أعوذ بعظيم هذا الوادي من الجن أن أؤذي أو أهاج . فهتف به هذا
الجني الشاعر ، وأمره أن يذهب إلى يثرب ، ليسلم أمام الرسول^٢ .

ومن ذلك ما روي من حديث عن (قس بن ساعدة) ، وما رواه صاحب
الحديث من صوت هاتف يقول :

يا أيها الراقد في الليل الأحم قد بعث الله نبياً في الحرم
من هاشم أهل الوقار والكرم يجلو دجنات الليالي البهم

ثم قول صاحب الحديث للهاتف :

يا أيها الهاتف في دجى الظلم أهلاً وسهلاً بك من طيف ألم
بين هداك الله في لحن الكلم من الذي تدعو إليه تغتم

ثم جواب الهاتف عن سؤاله بقوله :

الحمد لله الذي لم يخاق الخلق عبث
ولم يخلنا سدى من بعد عيسى واكثر
أرسل فينا أحدا خير نبي قد بعث
صلى عليه الله ما حجب له ركب وحث^٣ .

-
- ١ الاصابة (٣٣٣/٣) ، (رقم ٧٦٨٤) ، (٤٢٣/١) ، (رقم ٢٢٤٦) .
 - ٢ الاصابة (٣٣٥/٣) ، (رقم ٧٦٩٢) .
 - ٣ الخزنة (٢٦٤/١) ، (بولاق) .

وللجن أشعار ، ولها مع الإنس حوار . وللأعراب خاصة في الجن قصص وحكايات ، وقد ذكر (الجاحظ) أن الأعراب يتريدون في هذا الباب^١ . والحديث عن الجن من الأحاديث التي يميل لسماعها الناس لما فيها من غريب وطريف واختراع ، مالوا الى سماعها في الجاهلية وفي الإسلام ، ونجد لأبي المطراد (المطراب) (عبيد بن أيوب) العنبري ، وهو شاعر إسلامي ، وكان لصاً قد جنى جناية فنذر السلطان دمه وخلعه قومه ، قصص وأشعار كثيرة عن الجن والوحوش . أخبر^٢ في شعره أنه يرافق الغول والسعلاة ، ويبايت الذئب والأفاعي ، ويأكل مع الطباء^٣ . ونجد في كتاب (الحيوان) وفي كتب الأخبار والأدب والسير ، طرف من أشعار الجن والغيلان والسعالى ، وطرف من أخبارهم وأحاديثهم مع الإنس .

ومن هذا القبيل ما نسب الى (جذع بن سنان) من شعر زعم انه جرى له من الجن ، وهو :

أتوا ناري فقلت منون أنتم فقالوا : الجن قلت عموا صباحا
نزلت بشعب وادي الجن لما رأيت الليل قسد نشر الجناحا
أتيتهم وللأقدار حتم تلاقي المرء صبيحاً أو رواحا

وجذع شاعر جاهلي قديم ، من غسان ، وهو الذي ضرب به المثل بقولهم :
خذ من جذع ما أعطاك . والشعر المذكور من أكاذيب العرب^٤ .

وللأعشى إشارة الى الجن ، بقوله :

وسخر من جن الملائك سبعة قياماً لديه يعملون بلا أجر^٥

وفي شعره مواضع أخرى تعرض فيها الى ذكر الجن .

وقد تحدث (المعري) عن (شعر الجن) ، تحدث عنهم في رسالة الغفران

١ الحيوان (١٦٤/٦) .

٢ الشعر والشعراء (٦٦٨/٢) ، الخزائن (٢١٣/٣) ، الحيوان (١٦٥/٦) .

٣ وهي من قصيدة تجدها في الخزائن (٦/٣) ، (بولاق) .

٤ الخزائن (٦/٢) ، (بولاق) .

فكلم أحدهم واسمه (الخيتعور) ، أحد (بني الشيصبان) ، فقال له : « أخبرني عن شعر الجن ، فقد جمع منها المعروف بالمرزباني قطعة صالحة ، فيقول ذلك الشيخ : إنما ذلك هذيان لا معتمد عليه ، وهل يعرف البشر من النظيم إلا كما تعرف البقر من علم الهيئة ومساحة الأرض ؟ وإنما لهم خمسة عشر جنساً من الموزون قل ما يعدوها القائلون ، وإن لنا آلاف أوزان ما سمع بها الإنس »^١ . ثم يقول الجنّي له إن في الجن شعراء ، من لا يعدل (امرئ القيس) أضعفهم شعراً ، ثم يروي قصيدة للمتكلم معه ، وهو (أبو هدرش)^٢ .

وروى حديثاً في رسالة الغفران عن قصص (تأبط شرأ) مع الغيلان ، ثم أجاب على لسانه ، قال له : « أحتق ما روي عنك من نكاح الغيلان ؟ » ، ثم أجاب على لسانه بقوله : « لقد كنتا في الجاهلية ن تقول ونتخرص ، فاجاءك عنا بما ينكره المعقول ، فإنه من الأكاذيب » . ثم روى الشعر المنسوب إليه ، وهو :
أنا الذي نكح الغيلان في بلدٍ ما
طلّ فيه سماكي ولا جادا^٣

وقد كان الجاهليون مثل غيرهم من الشعوب يعتقدون بالجن ، وقد تصوروهم — كما سبق أن تحدثت عن ذلك — مثلهم ، قبائل وعشائر ، لهم ملوك وسادات فاجاءوا يروونه عنهم وعن اتصالحهم بهم ، يمثل حقيقة في نظرهم ، وما كان يضعه الموضوع من شعر على ألسنتهم ، يقبل ويصدق عندهم ، ويسمع اليه بتلف ، ولا سيما القسم الغريب منه ، إذ كانوا يتلذذون بسماعه ، ويذكر معه في العادة قصص لشرح المناسبة التي قيل فيها الشعر ، على طريقتهم في رواية أخبار (الأيام) . فالقصص المتعلقة بالجن ، باب من أبواب التسلية التي كان يتسلى بها أهل الجاهلية ، بل بقي من القصص المستلح المطلوب سماعه حتى اليوم .
ومن هذا القبيل ، ما ورد في أيام العرب من شعر ، ففي هذا الشعر ما شاء الله من المنحول . نخل تمجيداً لقبيلة أو لبطل من أبطالها ، أو للغضب من شأن قبيلة معادية ، اشتركت معها في قتال ، وفي أخبار هذه الأيام تعصب وتخزب ، ولذلك يجب النظر إليها بحذر شديد .

-
- ١ رسالة الغفران (٢٩١) .
 - ٢ رسالة الغفران (٢٩٥ وما بعدها) .
 - ٣ رسالة الغفران (٣٥٩) .

وشعر الشواهد من الأبواب التي فتحت المجال لنحل الشعر . قال عنه (الرافعي) :
 « وهو النوع الذي يدخل فيه أكثر الموضوع ، لحاجة العلماء الى الشواهد في تفسير
 الغريب ومسائل النحو »^١ . وقد كانوا يستشهدون بأشعار الجاهليين والمخضرمين :
 ونظراً لوجود عنصر التفوق والتغلب على الخصوم واطهار العلم ، ولوجود العصبية
 اندفع البعض إلى افتعال الشواهد والإتيان بالغريب وبما هو غير معروف . وقد اتهم
 الكوفيون بأنهم كانوا أكثر الناس ضعفاً للأشعار التي يستشهد بها ، لضعف مذاهبهم
 وتعلقهم على الشواذ واعتبارهم منها أصولاً يقاس عليها . ولهذا واشباهه اضطروا
 الى الوضع فيما لا يصيبون له شاهداً إذا كانت العرب على خلافهم ، وتجبد في
 شواهدهم من الشعر ما لا يعرف قائله ، بل ربما استشهدوا بشطر بيت لا يعرف
 شطره الآخر . ومن أجل هذا كان البصريون يغمزون على الكوفيين . فيقولون :
 نحن نأخذ اللغة عن حرشة الضباب وأكلة الربابع ، وأنتم تأخذونها عن أكلة
 الشواذ والكواميخ^٢ . على أن البصريين ، لم يكونوا ملائكة بالنسبة الى افتعال
 الشواهد ، فقد أدلوا فيه بدلوهم كذلك ، وإن قيل إنهم كانوا أقلّ فعلاً في
 ذلك من الكوفيين . ذكر أن (سيبويه) سأل (اللاحقي) هل تحفظ العرب
 شاهداً على إعمال (فعل^٣) (الصفة) ؟ قال (اللاحقي) ، فوضعت له هذا
 البيت :

حَدِّرْ أَمْوراً لَا تُضِيرُ ، وَأَمِنْ مَا لَيْسَ مُنْجِيهِ مِنَ الْأَعْدَاءِ^٤

ومن ذلك ما رواه (الزجاجي) في (مجالس العلماء) ، من نزاع وقع بين
 (الطبري) وبين (أبي عثمان) في السكين : مذكر أم مؤنث ، ومن استشهاد
 (أبو عثمان) بشعر رواه القراء ، هو :

فَعِيْثُ فِي السَّنَامِ غَدَاةَ قُرٍّ بِسَكِينٍ مَوْثِقَةُ النَّصَابِ

وجوابه : « لمن هذا ومن صاحبه ؟ وما أراه إلا أخرج من الكم ، وأين
 صاحب هذا عن أبي ذؤيب حيث يقول :

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١ / ٣٧٠) .
 ٢ الرافعي (١ / ٣٧١) .
 ٣ المزهر (١ / ١٨٠) ، الرافعي (١ / ٣٧١ وما بعدها) .

فذلك سكين على الخلق حاذق^١ .

ومن ذلك ما ذكره (خلف الأحمر) على ألسنة القدماء في ورود لفظة (عشار)
في كلام العرب ، إذ روى هذه الآيات :

قل لعمر و يا ابن هند لو رأيت اليوم شنا
لرأت عينك منهم كل ما كنت تمنى
إذ أتتا فيلق شهباً من هنا وهنا
وأنت دوسر والملحاء سرراً مطعنا
ومشى القوم الى القوم أحادى ومثنى
وثلاثاً ورباعاً وخماساً فأطعنا
وسداساً وسباعاً وثماناً فاجتلدنا
وتساعاً وعشاراً فأصبنا وأصبنا
لا قرى إلا كميأ قاتلاً منهم ومنا

« ودلائل الوضع في هذه الآيات ظاهره . وكان خلف الأحمر متهماً بالوضع^٢ .

ويدخل في باب نحل الشعر عامل آخر ، هو الاستشهاد بالشعر لتأييد الخلافات
القائمة بين المذاهب في اثبات رأي ، أو في تفسير آية ، تفسيراً يؤدي رأي ذلك
المذهب . فقد زعم أن المعتزلة ، قالت في تفسير الآية : « وسع كرسيه السموات
والأرض » ، أي علمه ، وأنهم جاءوا على ذلك بشاهد لا يُعرف وهو قول
الشاعر :

ولا يُكْرَسِي^٣ علم الله مخلوق^٣

وهو قول وإن روي عنهم وقيل ، لا أدري ، إذا كان قد صدر منهم ،
أو أنه صنع عليهم ، وقد ورد في خبر أن (عبدالله بن عباس) ، كان يقول ،
الكرسي : العلم . وأنه فسر الآية بهذا المعنى . على كل فقد فسر المفسرون لفظة

١ مجالس العلماء (ص ١٢٩) ، (الكويت ١٩٦٢) ، (عبدالسلام محمد هارون) .
٢ الخزائن (١ / ٨٢) ، (بولاق) .
٣ الرافعي (١ / ٣٧٣) .

(الكروسي) تفاسير مختلفة ، وذلك تحاشياً من الوقوع في التشبيه ، من كونه تعالى يجلس على كروسي شبه كراسينا ، ولذلك مالوا الى التأويل . وذكر في رواية أخرى ، أن (ابن عباس) كان يرى أن الكروسي موضع القدمين ، « ومن روي عنه في الكروسي أنه العلم ، فقد أبطل »^١ .

ونظراً الى ما كان للمذهبية من أثر في الناس في ذلك العهد، فلا أستبعد احتمال الوضع على ألسنة المذاهب، لذا يجب الحذر من الإسراع في التصديق بصحة الشواهد المقالة على لسان مذهب ، ونقدها نقداً علمياً دقيقاً ، بالتفتيش عنها في كتب أهل ذلك المذهب ، فقد يجوز أن تكون قد وضعت عليهم وضعاً ، ومثل هذا الوضع شيء معروف .

ومن أبواب نحل الشعر ما قيل على لسان آدم فمن دونه من الأنبياء من شعر .
فقد زعموا مثلاً ان (قاييل) حين قتل أخاه (هابيل) رثاه أبوه (آدم) ، فقال :

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبرٌ قبيح
تغيرَ كلُّ ذي طعمٍ ولونٍ وقُلَّ بشاشة الوجه المليح

فأجيب آدم :

أبا هابيل قد قُتِلَا جميعاً وصار الحيُّ كالملت الذبيح
وجاء بشرة قد كان منها على خوف فجاء بها يصيح^٢

ثم ما قيل على لسان الأمم البائدة ، والشعوب المالكة مثل عاد وثمود وقوم تبع ، وطسم وجديس ، وزرقاء اليمامة ، من أشعار زعم أنهم قالوها ، وهي من نظم القصاصيين وأصحاب السمر والحكايات ، وعشاق الأساطير والخرافات ، لما وجدوا ميلاً عند الناس الى الاستماع لمثل هذه الأشعار . فكانوا « يأتون بمثل تلك الأشعار على وهنها وتداعيتها ويعزونها الى القدماء ، ثم يزعمون أنهم أخذوها من

١ تاج العروس (٢٣٢/٤) ، (كرس) .

٢ تاريخ الطبري (١٤٥/١) ، تفسير الطبري (١٢٢/١) ، (طبعة بولاق) .

الصحف ، ويروونها للأعم البائدة وغيرهم ^١ . من ذلك ما نسبوه من شعر الى (معاوية بن بكر) ، وكان في أيام (عاد) ، مقيماً بظاهر مكة خارجاً من الحرم ، زعموا انه قاله لما استثقل طول مكث وقد (عاد) وفيه (لقمان بن عاد) عليه ، وألمحه الى قيتيه لتغنيا به أمام الوفد ، وهو :

ألا يا قيل ويحك قم فهيم
فيسقي أرض عادٍ ، إن عاداً
من العطش الشديد فليس نرجو
وقد كانت نساؤهم بخير
ولا الوحش تأتيم جهاراً
فقد أمست نساؤهم عياما
وأنتم ها هنا فيما اشتيمت
ولا تخشى لعادي سهامها
نهاركم وليلكم التامام
فقيح وفدكم من وفد قوم
ولا لُقُوا التحية والسلاما

فأجابه (جلهمة بن الخبيري) :

أبا سعد فإنك من قيل
ذوي كرم وأمك من ثمود
فإننا لن نطيعك ما بقينا
ولسنا فاعلين لما تريد
أنامرنا لنترك آل رفد
وزمّل وآل صد والعبود
ونترك دين آباء كرام
ذوي رأيٍ ونتبع دين هوداً

ومن ذلك ما نسبوه من شعر الى (مرثد بن سعد بن عفير) زعموا أنه قال حين سمع خبر هلاك عاد ، إذ قال :

عصت عاد رسولهم فأمسوا
عطاشاً ما تبلهم السماء
وسير وفدهم شهراً ليُسقوا
فأردفهم من العطش العماء
بكفرهم برهم جهاراً
على آثار عادٍ هم العفاء
ألا نزع الإله حلوم عادٍ
فلن قلوبهم قعر هواء

١ الرافعي (٣٧٥/٨ وما بعدها) ، الخزائن (٢٠٢/٤) ، (بولاق) .
٢ الطبري (٢٢٠/١ وما بعدها) ، (ذكر الاحداث التي كانت بين نوح وابراهيم) ،
تفسير الطبري (١٥٤/٨) ، جمهرة أشعار العرب (٤١) .

من الخبرِ المُبَيَّن أن يَعُوهُ^١ وما تقني النصيحة والشفاء
فنفسي وابنتاي وأم ولدي لنفسِ نيينا هودِ فداء
أتانا والقلوب مصعدات على ظلم ، وقد ذهب الضياء
لنا صمٌ يقال له صمود يقابله صداء والهباء
فأبصره الذين له أنابوا وأدرك من يكذبه الشقاء
فلاني سوف ألحق آل هودِ واخوته إذا جنّ المساء^٢

فلما هلكت عاد ، فلم يبق منهم إلا (الخلجان) ، قال :

لم يبقَ إلا الخلجان نفسه^١ يا لك من يومٍ دهاني أمسه
بثابت الوطاء شديد وطسه لو لم ينجني جثته أجسه^٢

وروا شعراً لأحد شعراء ثمود اسمه (مهوس بن عنمة بن الدميل) هو قوله :

وكانت عصبة من آل عمرو الى دين النبي دعوا شهابا
عزيز ثمود كلهم جميعاً فهم بأن نجيب ولو أجابا
لأصبح صالح فينا عزيزاً وما عدلوا بصاحبهم ذوابا
ولكن الغواة من آل حجر تولوا بعد رشدهم ذئابا^٢

ويروي أهل الأخبار انه قد كان لأهل الجاهلية شعر كثير قيل في عاد وثمود
وأمرهم ، يأتون به دليلاً على شهرة أمرهم عند العرب في الجاهلية والاسلام^١ .
من ذلك ما أورده على لسان (أفنون) التغلبي ، من قوله :

لو انني كنت من عادٍ ومن إرم غذي سخلٍ ولقمانا وذا جدان^٢

ومن هذا القبيل ما نسب الى (عمرو بن الحارث بن مضاض) الجرهمي ،
والى (الحارث بن مضاض) ، من شعر . وهو عند أهل الأخبار أحد المعمرين

١ الطبري (١ / ٢٢٣ وما بعدها) .

٢ الطبري (١ / ٢٢٤) .

٣ تفسير الطبري (٨ / ١٥٩) ، (بولاق) .

٤ الطبري (١ / ٢٣٢) .

٥ الزجاجة ، مجالس العلماء (٤٢) .

القدماء ، زعموا انه قال شعراً لما أجلت (خزاعة) جرهماً عن الحرم ، هو :
 كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
 بلى نحن كنّا أهلها فأبادنا صروف الليالي والحدود العوائل
 وزعموا انه مدّ في عمره الى أن أدرك الاسلام^١ .

ونجد في شعر (النمر بن تولب) ذكر (لقمان)^٢ . ونجد في أشعار شعراء آخرين إشارات الى هؤلاء وغيرهم ممن كان تذكرهم الأساطير وتروي أخبارهم الناس ، على نحو ما نسمعه من العجائز عن قصص الماضين ، وقد أشرت الى أسماء بعض منهم في ثنايا هذا الكتاب .

وقد سبق أن ذكرت ان هذا النوع من الأساطير ، لم يفت على بال بعض العلماء النقدة، وانهم أشاروا الى انه من صنع جماعة من صنّاع الأساطير والقصص ، فقد قال (ابن سلام) : « وكان ممن هجن الشعر وأفسده وحمل منه كل غناء محمد بن اسحاق بن يسار مولى آل بخمرة بن المطلب بن عبد مناف ، وكان من علماء الناس بالسيرة والمغازي ، قبل الناس عنه الأشعار وكان يعتذر منها ويقول : لا علم لي بالشعر ، انما أوتي به فأحمله ، ولم يكن له ذلك عذراً ، فكتب في السيرة من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط ، وأشعار النساء ، فضلاً عن أشعار الرجال ، ثم جاوز ذلك الى عاد وثمود ، فكتب لهم أشعاراً كثيرة ، وليس بشعر انما هو كلام مؤلف معقود بقوافي ، أفلا يرجع الى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر ؟ ومن أداه منذ ألوف من السنين ؟ والله تعالى يقول : فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، أي لا بقية لهم . وقال أيضاً : وانه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى . وقال في عاد : فهل ترى لهم من باقية . وقال : وقررنا بين ذلك كثيراً^٣ .

ولكن أوسع وأظهر أبواب نخل الشعر ، هو ما وضعه رواة الشعر على ألسنة الشعراء الجاهليين ، وهو ما دعاه (الرافعي) : بـ « الإتساع في الرواية » .

١ المرزباني ، معجم (١٠) ، ابن هشام ، سيرة (٨٢/١) وما بعدها ، (حاشية على الروض الأنف) ، الروض الأنف (٨٠/١) وما بعدها .
 ٢ الخزاعة (٤٤٨/٤) ، (بولاق) .
 ٣ المزهرة (١٧٣/١) ، (النوع الثامن : معرفة المصنوع) .

وتقصد به ما صنعه الرواة من وضعهم قطعاً وقصائد على ألسنة الشعراء الجاهليين لم يقولوها ، ومن اضافتهم أشعاراً على قصائد الجاهليين ، أو ادخال شعر شاعر في شعر غيره : هوى وتعتأ^١ . فهذا الباب هو أخطر أبواب نحل الشعر وأوسعها وأهمها ، ويغطي معظم الشعر المنحول . صنعه ، لرواج سوق الشعر الجاهلي في تلك الأيام ، والطلب الكثير الذي كان إذ ذاك عليه . وللريح الذي كان يجنيه حامله من روايته ، مما حمل الرواة على وضع الشعر بصوغه على قوالب الشعر الجاهلي وعلى مضامينه وطرقه في التنقل في القصيدة ، وقد أجاد فيه أساتذة الصنعة من أمثال (حماد) الراوية و (خلف) الآخر ، وليس في الرواة جميعاً من يدانيها في الصنعة وإحكامها ، فهنا طبقة في التاريخ كله^٢ .

ومن أمثلة المصنوع أحياناً مطلعها :

قل لعمرى : يا بن هند لو رأيت القوم شنا

أنشدها خلف الآخر ، وهي مصنوعة^٣ .

ومن أمثلة التطويل في الشعر ، ما فعلوه بأبيات الطيرة للحارث بن حنظلة ، وهي أربعة أبيات ، ولكنهم جعلوها قصيدة طويلة . والأبيات هي :

يا أيها المزعج ثم انثني لا يشك الحادي ولا الشاحج
ولا قيسد أعضب قرنه هاج له من مريع هائج
بيننا الفتى يتسنى ويسعى له تاح له من أمره خالج
يترك ما رقع من عيشه يعيش منه هيج هائج

وروي ان قول الأعشى :

كتميل النشوان ير قل في البقرة وفي الإزارة

١ الرافعي (٣٧٩/١) .

٢ الرافعي (٣٨٣/١) .

٣ المزهر (١٧٨/١ وما بعدها) .

٤ الرافعي (٣٨٤/١) .

هو من قصيدة مصنوعة^١ . وروى (أبو عبيدة) عن (أبي عمرو) ، انه قال : « والله ما كذبت فيما رويته حرفاً قط ، ولا زدت فيه شيئاً إلا بيتاً في شعر الأعشى ، فلاني زدته ، فقلت :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلما^٢ .

وروي ان « حماداً كان يقول : ما من شاعر إلا وقد حققت في شعره أبياتاً فجازت عنه ، إلا الأعشى ، أعشى بكر ، فلاني لم أزد في شعره قط غير بيت . قيل له : وما البيت ؟ فقال :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت^٣ .

فأنت أمام روايتين متناقضتين ، رواية تنسب وضع البيت الى (أبي عمرو بن العلاء) ، ورواية تنسب وضع ذلك البيت الى (حماد) . وسبب التناقض العصبية ولا شك .

ويجب أن نضيف على الشعر المصنوع على ألسنة الجاهلين ، الشعر الذي وضع على ألسنة الصعاليك والصوص ، فقد كان الناس يتسقطون أخبار هؤلاء ويتلذذون بسماع مغامراتهم وسطوهم ، شأن الناس في كل وقت ومكان من الميل الى التلذذ بسماع مثل هذه الأخبار ، وهذا ما حمل صناع الأخبار والأساطير على وضع الشعر على ألسنة الصعاليك والصوص لتزيين أخبارهم وترصيعها به ، على طريقتهم في رواية أيام العرب وأخبارهم ، وفي شعر هذه الطبقة شعر كثير مصنوع .

وهناك شعر وضع للتسلية وللهو من ذلك شعر الفسق والمجون ، من ذلك ما نسب الى (ابنة الحس) من قول ، هو :

سلوا نساء أشجع أي الأيور أنفع
الطويل النعنع أم القصير المردع
أم الذي لا يرفع أم الأساك الأصم

١ الزجاجي ، مجالس العلماء (١٣٠) .

٢ الزجاجي ، مجالس العلماء (٢٣٥) .

٣ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١ / ٣٨٣ وما بعدها) .

في كل شيء بطمع حتى القريض يصنع^١

وابنة الخس ، في زعم أهل الأخبار ، جاهلية قديمة من إباد ، أدركت القلمس ، أحد حكام العرب ، ولها أسجاع كثيرة وشعر قليل . وكانت تحاجي الرجال ، الى أن حاجها رجل ، فقال لها قولاً بذيثاً أخجلها ، فتركت المحاجة^٢ . وأورد الشريف (المرتضى) لها أجوبة عن أسئلة معضلة بحيرة ، لتحزر جزاها ، وذكر أجوبتها ، رواية عن (ابن الأعرابي)^٣ .

والشعر الذي نسب (أبو محمد ثابت بن أبي ثابت) إليها ، هو من الشعر المصنوع بالطبع ، وضع على لسان (ابنة الخس) ، وقد نص (تاج العروس) على أن قائله (جارية كانت جلعة)^٤ ، وهو من وضع المجان ، الذين كانوا يتلذذون بسماع هذا النوع من المجون .

وكان (ابن أبي كريمة) ، يصنع الشعر وينحله بعض شعراء البادية ، كما صنع في قصيدة له في وصف الفأر ، نحلها (يزيد بن ناجية) السعدي ، وكان لقي من الفأر جهداً ، فدعا عليهن بالسنانير ، وكان يصطنع شعر الفكاهة ، ويحاكي فيه (الحكم بن عبدل) الأسدي^٥ . وهناك كثير من اضراجه ، ممن وضع الشعر للتسلية وللتفكهة على ألسنة الأعراب والشعراء الجاهليين .

وقد وضع (خلف) الأحمر قصائد عدة على فحول الشعراء ، ذكروا منها قصيدة الشنفرى المشهورة بلامية العرب . وروي عن الأصمعي قوله : سمعت خلفاً يقول : أنا وضعت على النابغة هذه القصيدة التي فيها :

خيل صيام^٦ وخيل غير صائمة تحت العجاج ، وأخرى تملك اللجاء

-
- ١ كتاب خلق الانسان (٢٧٩) ، (لابن أبي ثابت) ، المخصص (٣١/٢) ، اللسان (٢٧١/٨) ، (قرصع) ، (لم يذكر اسم قائله) ، (٣٥٨/٨) ، (ولم يذكر اسم قائله كذلك) ، تاج العروس (٤٦٠/٥) ، (قرصع) ، (قاله أبو عمرو . وأنشد لجارية كانت جلعة) ، (٥٢٧/٥) ، (نعنغ) .
 - ٢ بلوغ العرب (٢٣٩/١) .
 - ٣ أمالي المرتضى (٢٢٠/١) .
 - ٤ تاج العروس (٥٢٧/٥) ، (نعنغ) .
 - ٥ البخلاء (٢٨٢) وما بعدها ، (الحكم بن عبدل) من شعراء أيام الامويين .
 - ٦ الرافعي (٣٨١/١) .

ومما يدخل في هذا الباب اننا نجد بيتاً أو أبياتاً تنسب في أحد الموارد لشاعر، بينما نرى ديوانه خالياً منه أو منها ، من ذلك ما رواه (المعري) ، من انه لما كان ببغداد ، شاهد بعض الورّاقين يسأل عن قافية (عدي بن زيد) التي أولها:

بكر العاذلات في غلس الصب ح يعاتبه أما تستفيق

وزعم الورّاق ان بعض طلاب شعر هذا الشاعر سأل عن هذه القصيدة ، وطلبت في نسخ من ديوان (عدي) فلم توجد . ثم سمع بعد ذلك رجلاً من أهل (استراباذ) يقرأ هذه القافية في ديوان (العبادي) ، ولم تكن في النسخة التي في دار العلم^١. وذكر أشياء أخرى من هذا القبيل ، تراها في كتاب أو في نسخة من نسخ ديوان الشاعر ، بينما لا تراها في نسخ الديوان الأخرى ، مما يدل على ان اللواوين لم تكن متفقة في النص ، وانها رويت بروايات مختلفة ، وان في بعضها ما يزيد على البعض الآخر^٢ .

ونحل الشعر ، وإن وقع وحدث ، غير ان أمره لم يفت على بال العلماء المهرة الحاذقين ، ودليل ذلك ، ما نجده في كتبهم من الإشارات الى المنحول والمصنوع من الشعر ، ومن نصهم عليه ، وإن فات عليهم بعضه، ومن نصهم على المنحول ومن ملاحظاتهم تلك أخذ المستشرقون والمحدثون من العرب آراءهم في الشعر الجاهلي، فما أورده (ماركليوث) مثلاً من نقد على الشعر الجاهلي ، أو ما أورده (الدكتور طه حسين) من رأي فيه ، ليس فيه شيء جديد ، وجديده الوحيد ، هو في التحويل بمقدار المغشوش من هذا الشعر ، أما من حيث المبدأ ، أي من حيث وجود شعر منحول فاسد ، في الشعر الجاهلي ، فالقدماء والمحدثون والمستشرقون متفقون في ذلك ، وخلافهم الوحيد ، هو في مقدار نسبة الفاسد من الشعر بالنسبة الى الصحيح .

فما قيل عن نحل الشعر إذن هو قول قديم . روي عن الأصمعي أنه قال :
« كل شيء في أيدينا من شعر امرئ القيس ، فهو من حماد الراوية إلا نتفأ سمعتها من الأعراب وأبي عمرو بن العلاء »^٣. وروي عن (حماد) الراوية قوله:

١ رسالة الغفران (١٤٦ وما بعدها) .

٢ رسالة الغفران (٥١٣) .

٣ مراتب النحويين ، لابي الطيب اللغوي (ص ٧٢) .

« دخل علينا ذو الرمة الكوفة ، فلم نر أحسن ولا أفصح ولا أعلم بغريب منه . فغم ذلك كثيراً من أهل المدينة » ، فأرادوا الكيد له بامتحانه ، فصنعوا شعراً على ألسنة بعض الجاهليين ، وأنشدوه لإياها ، فعلم ذلك (ذو الرمة) بعلمه وبمعرفته للشعر الجاهلي ، أنه شعر مصنوع ، فقال لهم : « ما أحسب أن هذا من كلام العرب »^١ .

وقد زبد في شعر (امرئ القيس) كثيراً ، وقد عدّه علماء الشعر من المقلّين، وجعل بعضهم الصحيح من شعره نيفاً وعشرين شعراً بين طويل وقطعة^٢ . وفي جملة ما نسب إليه القصيدة المسطرة ، وهي :

توهمت من هند معالم أطلال عفاهن طول الدهر في الزمن الخالي
مرايعُ من هند خلت ومصابف يصبح بمغناها صدى وعواضف
وغيرها هوج الرياح العواصف وكل مسف ثم آخر رادف
بأسحم من نوء السماكين هطال^٣

ونرى (ابن سلام) يقول : « وما يدل على ذهاب العلم وسقوطه قلة ما بقي بأيدي الرواة المصححين لطرفة وعبيد . والذي صحح لها قصائد بقدر عشر ، وإن لم يكن لها غيرهن ، فليس موضعها حيث وضعها من الشهرة والتقدمة ، وإن كان ما يروى من الغناء لها فليسا يستحقان مكانهما على أفواه الرواة . ونرى أن غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير ، غير أن الذي نالهما من ذلك أكثر . وكانا أقدم الفحول ، ففعل ذلك لذلك . فلما قلّ كلامهما حمل عليهما حمل كثير ، ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حادثة »^٤ . ولما تحدث عن (عبيد بن الأبرص) قال : « وعبيد بن الأبرص ، قديم عظيم الذكر ، عظيم الشهرة ، وشعره مضطرب ذاهب ، لا أعرف له إلا قوله :

أقفر من أهله ملحوب فالقطيبات فالذنوب

١ الاغانى (١٦ / ١١٧) .

٢ العمدة (١ / ١٠٥) .

٣ العمدة (١ / ١٧٦) .

٤ طبقات (١٠ وما بعدها) .

ولا أدري ما بعد ذلك ^١ . فهو مع علمه الواسع بالشعر ، واستشهاد العلماء بكلامه وبآرائه في الشعر ، لا يعرف لعبيد غير هذا الشعر ، مع العلم بأنه قد توفي سنة (٢٣١ هـ) ، وفي أيامه كان الناس يموتون في طلب الشعر الجاهلي . ونجد (ابن قتيبة) المتوفى بعده (٢٧٠ هـ) ، يذكر له شعراً مطلعته :

يا عين فابكي بني أسدٍ همُ أهل الندامة^٢

ثم قوله مخاطباً امرأ القيس :

يا ذا المخوفنا بقتل أبيه إذلالاً وحينا
أزعت أنك قد قتلت سراتنا كذباً ومينا^٣

ثم قوله :

هلا سألت جموع كندة يوم ولّوا هاربينا^٤

وقد ذكر (ابن سلام) أن الرواة قد وضعوا على (عدي بن زيد) شعراً كثيراً ، وعلل ذلك بقوله : « وعدي بن زيد ، كان يسكن الحيرة ومراكز الريف ، فلان لسانه ، وسهل منطقته ، فحمل عليه شيء كثير ، وتخليصه شديد . واضطرب فيه خلف ، وخطط فيه المفضل فأكثر . وله أربع قصائد غرر روائع مبرزات ، وله بعدهن شعر حسن »^٥ . ولابن قتيبة هذا الرأي فيه ، حيث يقول : « وكان يسكن بالحيرة ، ويدخل الأرياف ، فنقل لسانه ، واحتمل عنه شيء كثير جداً ، وعلماؤنا لا يرون شعره حجة . وله أربع قصائد غرر »^٦ . وذكر نقلاً عن (أبي عبيدة) عن (أبي عمرو بن العلاء) أن « العرب لا تروي شعره ، لأن ألفاظه ليست بنجدية ، وكان نصرانياً من عباد الحيرة ، قد قرأ الكتب »^٧ .

-
- | | |
|---|--|
| ١ | طبقات (١١ ، ٣١) . |
| ٢ | الشعر والشعراء (٥٠ / ١) ، ديوان عبید (١٢٥) . |
| ٣ | الشعر والشعراء (٥٢ / ١) ، ديوان عبید (١٣٦) . |
| ٤ | الشعر والشعراء (٥٨ / ١) . |
| ٥ | طبقات (٣١) ، العمدة (١٠٤ / ١) . |
| ٦ | الشعر والشعراء (١٥٠ / ١) . |
| ٧ | الشعر والشعراء (١٥٤ / ١) . |

وقد تعرض القدماء لموضوع الشعر المقال على ألسنة القدماء وملوكها ،
فرفض (ابن سلام) ذلك الشعر ، بقوله : « وإنما قصدت القصائد وطول
الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف ، وذلك يدل على إسقاط عاد
وثمود وحبر وتبع »^١. إذن فما أضيف الى هؤلاء وإلى أهل اليمن هو شعر متحل.

ومن أصحاب البصر والنظر في الشعر : (خلف الأحمر) . « وقد كان
أبو عمرو بن العلاء وأصحابه لا يجرون مع خلف الأحمر في حلبة هذه الصناعة ،
أعني النقد ، ولا يشقون له غباراً ، لنفاذه فيها ، وحذقه بها ، وإجادته لها »^٢.
وعلمه بالشعر ، جعله من كبار الوضاعين له على ألسنة الجاهليين .

وبعد ، فلإننا لا نستطيع بالطبع التصديق بصحة الشعر المنسوب الى آدم والجن
والتبابعة وأهل العربية الجنوبية وغيرهم ممن لا يعقل قولهم الشعر العربي ، وإن
نص على صحة ذلك الشعر ، ورواه العلماء . أما سبب رفضنا قبول الشعر المنسوب
الى أهل العربية الجنوبية من ملوك وأقيال ورؤساء ، فلأنهم كانوا يتكلمون ويكتبون
كما هو ثابت لدينا من نصوصهم بلغة تختلف عن لغة الشعر المألوفة ، ولو تصورنا
أنهم كانوا ينظمون الشعر بلغة الشعر المعروفة ، ويكتبون ويتكلمون بلغة أخرى :
فلإننا نكون قد قلنا برأي مخالف للمعقول والمنطق ، ونكون قد أوجدنا لهم لغة
للشعر ولغة للنثر ، وهو افتراض لا يمكن لأحد إثباته ، ثم إن لغة التلوين تكون
في العادة لغة الأدب عامة من شعر ومن نثر ، لذا فإذا قلنا بوجود شعر جاهلي
للعرب الجنوبيين ، قلنا يجب أن يكون هذا الشعر بلغتهم ، لا بلغة هذا الشعر
الجاهلي الذي نتحدث عنه .

وبعد ، فلعل قائلًا يقول : وما فائدة الشعر الجاهلي إذن ، اذا كان هذا
شأنه فيه المنحول والفاقد ، وما يشك في أصله ؟ والجواب : ان العلماء ، وان
اختلفوا فيه ، مجمعون ومتفقون على ان رواة هذا الشعر وحملته كانوا من أعلم
الناس بالجاهلية : بأخبارها وبأيامها وبأنسابها ، وبأنهم كانوا من أحرص
الناس بالشعر الجاهلي وبطرقه ودروبه ، فهم إن وضعوا ولفقوا ، أو كيفوا ،
فلأنهم لا يضعون عن جهل وعمى ، بل عن علم وفهم بالجاهليين وبمذاهبهم في نظم

١ طبقات (١١) .
٢ العمدة (١١٧/١) .

الشعر والتفسير ، ولا سيما ان العهد بينهم وبين الجاهلية لم يكن طويلاً ، وان الأخذ عن شهد الجاهلية أو أخذ منهم وسمع كان ممكناً يسيراً ، ومن هنا كان مارووه من شعر جاهلي مادة مهمة للمؤرخ مهما قيل في أمره .

ثم إننا حين نروي الشعر الجاهلي ، فلا نرويه أو ننشده ، أو نحفظه لأنه شعر مقدس ، لا يجوز أن يمسه أحد بسوء ، وانه تراث خالد ، إذا تعرض له إنسان أو نحرش به ، فإنما هو يتعرض لأثر تاريخي قديم من آثار هذه الأمة ، وإنما نرويه على أنه من مرويات العلماء ، وأنه مهما قيل فيه وفي أصله ، فإنه يحاول أن يصور لنا أحوال زمن سبق الإسلام ، وهو زمن مهم جداً بالنسبة لنا ، لانصاله بالإسلام ، ولقيام الاسلام عليه ، ولكونه فصلاً متقدمة مجهولة من كتاب ناقص ، ضاعت فصوله الأولى ، هو كتاب في تأريخ العرب منذ القدم الى هذا اليوم ، فإذا فقدنا الأصول ، فلا بأس بالتسلي بما نسبته المتأخرون على الأقل الى المتقدمين ، مهما كان بعد هذا المنسوب عن الصحة والحق ، ومهما كانت نسبة الباطل فيه كبيرة ، وحتى إذا كانت النسبة مائة بالمائة ، وهي نسبة نبالغ فيها بالطبع ، لا أعتقد أن أحداً سيراه ، مهما بلغ به الشك والحذر بالنسبة الى أصالة الشعر الجاهلي ، ومن هنا فإن النزاع الدائر حول صحة الشعر الجاهلي ، والذي سيقى مثاراً قائماً ، حتى يظهر أثر جاهلي مكتوب ، وعندئذ فقد يحسم شيئاً من مواضع الخلاف المؤلفة لهذا النزاع ، يجب ألا يحملنا على الابتعاد عن هذا الشعر ، باعتبار أنه لا يمثل الجاهلية تمثيلاً صحيحاً ، وانه شعر مكنوب منحول ، وإنما يجب أن يدفعنا - على العكس - الى الاهتمام به ، باعتبار أنه من أقدم الآثار التي وصلت إلينا ، المدونة في الاسلام . وأنها إن كانت منحولة ، فإن نخلها على السنة الجاهليين ، نخل قديم ، يعتبر تاريخياً من أقدم المنحولات الواصلة إلينا في المدونات الاسلامية ، وأنها تمثل صنعة وصناعة صنّاع ، حاولوا تقليد الماضي ، على ما وصل خبره اليهم ، فصاغوه على تلك الصياغة ، فهو أثر أصيل لأقدم مصنوعات ومحاكاة وتقليد لآثار قديمة لها صلة بتاريخ العرب القديم .

وأرى في الوقت نفسه ان من الضروري وجوب تقصي الأخبار عن الشعر المصنوع ، وتبني المراجع للوصول الى أقدم مرجع ورد فيه كل شعر مصنوع ، وتسجيل الأبيات والقطع والقصائد التي ترد لأول مرة في أقدم مورد من الموارد ، والنص على اسم المورد ، وعلى سنده إن كان مذكوراً ، لتتمكن بهذه الدراسة

من الوصول الى اسم صانع الشعر ، أو الزمن الذي ظهر فيه ذلك الشعر ان كان الاسم مجهولاً ، كما تقوم بتسجيل الموارد التي يرد فيها شعر الشعراء ، وما اختلفت فيه بعضها عن بعض من حيث الألفاظ ، أو ترتيب الأبيات ، أو عددها ، ثم أسماء من نسبت اليهم تلك الأشعار ، فقد ينسب الشعر الواحد الى جملة شعراء ، وتسجيل أسماء من روى ذلك ، واسم المصدر، وبذلك نكون قد قنا بدراسة علمية قيّمة عن الشعر المصنوع وعن الشعر الأصيل الذي لم يشك في أصالته عالم من علماء الشعر ، ثم نعرض النتائج للبحث بأساليب النقد الحديثة لاستخراج الزائف منه ، ولاستبعاد صدور بعضه من الشعراء الجاهليين، نفعل ذلك حتى في حالة علم ورود رواية لعالم قديم تشك في صحة شعر ، لأن سكوت العلماء عن الشك في شعر ، لا يكون حجة على صحة ذلك الشعر .

الفصل السادس والخمسون بعد المئة

أولية الشعر الجاهلي

لا نملك نصوصاً جاهلية مدونة عن مبدأ الشعر عند العرب، وعن كيفية ظهوره وتطوره الى بلوغه المرحلة التي وصلها عند ظهور الاسلام . ولم يعثر العلماء على شعر مدون بقلم جاهلي ، ليكون لنا نبراساً يعيننا في تكوين صورة عن ذلك الشعر وعن هيكله ومادته التي تكون منها . وكل ما نعرفه عن هذا الشعر مستمد من موارد اسلامية، أخذت علمها به من أفواه الرواة ، فلما جاء التدوين دون ما وعته الذاكرة مما أخذته عن المتقدمين بالرواية ، فثبت واستقر ، بعد أن كان المروي عرضة للتغيير والتحريف كلما تنقل من لسان الى لسان ، ومن وقت الى وقت . وقد تعرض (الجاحظ) لموضوع قدم الشعر العربي وتأريخه ، فقال: « وأما الشعر فحديث الميلاد ، صغير السن ، أول من نهج سبيله ، وسهل الطريق اليه، امرؤ القيس بن حجر ، ومهلل بن ربيعة ... فإذا استظهرنا الشعر ، وجدنا له الى أن جاء الله بالإسلام - خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا بقاياة الاستظهار فائتي عام ^١ . وذهب (عمر بن شبة) الى أن « للشعر والشعراء أول لا يوقف عليه ، وقد اختلف في ذلك العلماء ، وادعت القبائل كل قبيلة لشاعرها أنه الأول.. فادعت البائية لامرئ القيس ، وبنو أسد لعبيد بن الأبرص ، وتغلب لمهلل ، وبكر لعمر بن قيس والمرقش الأكبر ، وإباد لأبي دؤاد ... وزعم بعضهم أن

١ الحيوان (٧٤/١) .

الأفوه الأودي أقدم من هؤلاء ، وانه أول من قصد القصيد ، قال : وهؤلاء نفر المدعى لهم التقدم في الشعر متقاربون ، لعل أقدمهم لا يسبق الهجرة بمائة سنة أو نحوها ^١ . وذهب (الأصمعي) الى ان بين أول شاعر معروف ، قال كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً من الشعر ، وهو (مهلهل) ، وبين الاسلام أربعائة سنة . « وكان امرؤ القيس بعد هؤلاء بكثير » ^٢ .

وقال (الأصمعي) في رواية تنسب اليه ، « ان أول من يروى له كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً من الشعر مهلهل ، ثم ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم ، ثم ضمرة ، رجل من بني كنانة ، والأضبط بن قريع . قال : وكان بين هؤلاء وبين الاسلام أربعائة سنة ، وكان امرؤ القيس بعد هؤلاء بكثير » ^٣ . « وزعم أبو عمرو بن العلاء : ان الشعر فتح بامرؤ القيس وختم بذئ الرمة » ^٤ .

وذكر انه « لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات التي يقولها الرجل في حاجته ، وانما قصدت القصائد ، وطول الشعر على عهد عبد المطلب ، أو هاشم ابن عبد مناف » ^٥ .

وذكر (المرزباني) ، أن (بكر بن وائل) ، تزعم أن (عمر الضائع) أول من قال الشعر وقصد القصيد ، وكان امرؤ القيس بن حجر استصعبه لما شخص الى قيصر يستمده على بني أسد ، فمات في سفره ذلك فسمته بكر عمرأ الضائع ^٦ . فعمرؤ الضائع ، هو أول من قال الشعر وقصد القصيد على رأي بكر بن وائل على رواية (المرزباني) .

وقد أورد (ابن اسحاق) شعراً نسبته الى (عمرو بن الحارث بن مضاض) الجرمي ، زعم أنه قاله لما خرج بقومه من مكة الى اليمن ، أوله :

وقائلة والدمع سكب مبادر وقد شرقت بالدمع منها المحاجر
كان لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
فقلت لها والقلب مني كأنما يلجلجه بين الجناحين طائر

-
- ١ المزهري (٤٧٧/٢) ، ابن سلام ، طبقات (٣) ، المرزباني ، الموشح (٧٤) .
 - ٢ المزهري (٤٧٧/٢) .
 - ٣ المزهري (٤٧٧/٢) .
 - ٤ البيان والتبيين (١١٥) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر) .
 - ٥ المزهري (٤٧٧/٢) .
 - ٦ معجم (٤) .

الى آخر القصيدة التي يتوجع فيها لفارقتها مع قومه مكة ، ونسب له ألياًناً
أخرى هي :

يا أيها الناس سيروا ان قصركم أن تصبحوا ذات يوم لا تسبرونا
حسوا المطايا وأرخوا من أزمتهـا قبل المات وقضوا ما تقضونا
كنّا أناساً كما كنتم فغيرنا دهر فأنتم كما كنّا تكونونا

وقد ذكر (ابن هشام) ان « هذا ما صح له منها » وان بعض أهل العلم
بالشعر يقول إن هذه الألياًيات أول شعر قيل في العرب^١ .

ودون (السهيلي) صاحب (الروض الأنف) شعراً أخذه من كتاب (أبي بحر
سفيان بن العاصي) زعم أنه وجد في بئر باليامة ، وهي بئر طسم وجديس ،
في قرية يقال لها (معنق) بينها وبين الحجر ميل^٢ ، وكان مكتوباً على ثلاثة
أحجار ، كتبها قوم من بقايا عاد ، غزاهم تبع ، كتب على الحجر الأول :

يا أيها الملك الذي	بالمك ساعده زمانه
ما أنت أول من علا	وعلا شؤون الناس شانه
أقصر عليك مراقباً	فالدهر غخذول أمانه
كم من أشم معصب	بالتاج مرهوب مكانه
قد كان ساعده الزماً	ن وكان ذا خفض جنانه
تجري الجدول حوله	للجند مترعة جفانه
وقد فاجأته منية	لم ينجه منها اكنانه
وتفرقت أجناده	عنه وناح به قيانه
والدهر من يعلق به	يطحنه مفترشاً جرانه
والناس شتى في الهوى	كالمرء مختلف بنانه
والصدق أفضل شيمة	والمرء يقتله لسانه
والصمت أسعد للفتى	ولقد يشرفه ياناه

١ ابن هشام ، سيرة (٨٢/١) وما بعدها ، (حاشية على الروض الانف) .

٢ الروض الانف (٨٢/١) وما بعدها .

وكتب على الحجر الثاني :

كل عيش تعله ١	ليس للدهر خله
يوم يؤس ونعمى	واجتماع وقله
حبنا العيش والتكا	ثر جهل وضله
بينما المرء ناعم	في قصور مظه
في ظلال ونعمة	ساحباً ذيل حله
لا يرى الشمس ملغضا	رة إذ زال زله
لم يقلها وبدلت	عزة المرء ذله
آفة العيش والنعم	يم كرور الأهله
وصل يوم بليلة	واعتراض بعله
والنايا جواثم	كالقصور المدله
بالذي تكره النف	وس عليها مطله

ووجد في الحجر الثالث مكتوباً :

يا أيها الناس سيروا ان قصركم أن تصبحوا ذات يوم لا نسيرونا
 حثوا المطي وأرخوا من أزمتها قبل المات وقضوا ما تقضونا
 كنا أناساً كما كنتم فقيرنا دهر فأنتم كما كنا تكونونا ١

وقد أضاف (الأزرقى) زيادات على هذه الأبيات الأخيرة .

والأبيات التي زعم أنها وجدت مدونة على الحجر الثالث ، هي نفس الأبيات التي نسبها (ابن اسحاق) الى (عمرو بن الحارث بن مضاض) الجرهمي كما رأيت . ويظهر أن واضع هذه الأبيات قد استعان بالأبيات التي وجدت في سيرة (ابن هشام) ، أو أنه أخذها من سيرة (ابن اسحاق) . ويلاحظ أنها في الحث على الزهد والترغيب في الآخرة . ولو لم يكن هذا الشعر من النوع المصنوع ، لكان من أقدم ما وصل إلينا من الشعر الجاهلي ولا شك .

و ه العلماء من العرب الذين قالوا بمدة مائة وخمسين سنة تقريباً للشعر الجاهلي ،

١ الروض الانف (١ / ٨٢ وما بعدها) .

لم يبعدوا عن الصواب إذا فرضنا أنهم إنما أرادوا بذلك ما وصل إلينا من الأشعار القديمة ^١ ، بمعنى أن أقدم ما وصل إلينا من ذلك الشعر بصورة لا يرتاب بصحتها ، لا يمكن أن يرتقي عهده أكثر من قرن أو قرن ونصف عن الهجرة على أكثر تقدير ، وأن أقدم اسم شاعر جاهلي وصل إلينا سمعنا لا يرتقي عهده عن هذا التقدير . أما إذا كان قصدهم أن نظم القصيد كان قد بدأ في هذا الوقت ، وأن الشعر بالمعنى الاصطلاحي المفهوم منه لم يظهر عند العرب ، إلا قبل قرن أو قرنين عن الإسلام ، فذلك خطأ في الرأي ، وفساد في الحكم . فالشعر أقدم من هذا العهد بكثير ، وقد أشار المؤرخ (سوزيموس) « Zosimus » إلى وجود الشعر عند العرب ، وهو من رجال القرن الخامس للميلاد ، إلى تغني العرب بأشعارهم ، وترنيهم في غزواتهم بها ^٢ ، وفي إشارته إلى الشعر عند العرب دلالة على قدم وجوده عندهم ، واشتباره شهرة بلغت مسامع الأعاجم ، فذكره في تأريخه . وفي سيرة القديس (نيلوس) « Nilus » المتوفى حوالى السنة (٤٣٠) بعد الميلاد ، أن أعراب طور سيناء كانوا يغنون أغاني وهم يستقون من البئر . وهي أشعار ترنم بإيقاع ، تشبه أناشيد العبرانيين عند استقائهم الماء من الآبار . « حينئذ ترنم اسرائيل بهذا النشيد : اصعدي البئر أجيئوا لها ، بئر حفرها رؤساء ، حفرها شرفاء الشعب بصولجان بعصيتهم » ^٣ ، والأشعار المروية في كتب التواريخ والأدب عن حفر آبار مكة وغيرها من هذا القبيل ، فقد روي أن (عبد المطلب) لما حفر بئر (زمزم) ، قالت (خالدة بنت هاشم) :

نحن وهبنا لعسدي سجله في تربة ذات عذاة سهله

تروي الحجيج زعلة فزعله

وأن (عبد شمس) قال :

حفرت خنًا وحفرت رما حتى أرى المجد لنا قد تما

١ كارلو نالينو ، تاريخ الاداب العربية (ص ٦٨ وما بعدها) ، (الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٠ م ، دار المعارف بمصر) .

٢ Die Araber, II, S. 330.

٣ العدد ، الاصحاح ٢١ ، الآية ١٧ .

وان (سبيعة) بنت (عبد شمس) قالت في الطوى :

إن الطوى إذا شربتم ماءها صوب الغمام عنوبة وصفاء

وان (الحويرث بن أسد) ، قال في (شفية) :

ماء شفية كماء المزن وليس ماؤها بطرق أجن

وان (أميمة بنت عميلة بن السباق بن عبد الدار) قالت في حفر بئر (أم أحراد) :

نحن حفرنا البحر أم أحراد ليست كبئر النثر والجناد

فأجابتها (صفية بنت عبد المطلب) :

نحن حفرنا بئر تروي الحجيج الأكبر

من مقبل ومدبر وأم أحراد بشر

فيها الجراد والنثر وقنر لا يذكر

ولما حفر بنو جمح (السنبلة) ، وهي بئر (خلف بن وهب) الجمحي ،

قال قائلهم :

نحن حفرنا للحجيج سنبلة صوب سحب ذو الجلال أنزله

وحفر بنو سهم الغمر ، وهي بئر العباسي بن وائل ، قال ابن الربيعي أو غيره :

نحن حفرنا الغمر للحجيج تشج ماء أيمبا شجج

وحفرت بنو عدي (الحفير) فقال شاعرهم :

نحن حفرنا بئرنا الحفيرا بحراً يجيش ماؤه غزيراً

وورد ان (قصياً) لما احتفر (العجول) ، قال شاعرهم :

نروي على العجول ثم نطلق إن قصياً قد وفى وقد صدق

١ البلاذري ، فتوح البلدان (٦٠ وما بعدها) ، (ذكر حقائق مكة) ، الروض الانف
١٠١/١ وما بعدها) ، ويرد الشعر بروايات مختلفة بعض الاختلاف .

وان قصياً لما احتفر (سجلة) ، قال :

أنا قصيّ وحفرت سجلة تروي الحبيج زغلة فزغلة

وقيل بل حفرها (هاشم) ، ووهبها (أسد بن هاشم) لعدي بن نوفل ،
فقال : خلعة بنت هاشم :

نحن وهبنا لعدي سجلة تروي الحبيج زغلة فزغلة

ونجد في كتب السير شعراً قيل في حفر بئر زمزم^١ ، وفي آبار أخرى ، مما
يدل على ان العرب كانوا قبل هذا العهد ، اذا حفروا بئراً ، قالوا شعراً فيها ،
وهو شعر يمكن أن نسميه شعر الآبار ، وهو يعود ولا شك الى عرف قديم ،
قد يتقدم على الميلاد بكثير ، وهو يجب أن يكون من أقدم ما قيل من الشعر ،
لما للبشر من أهمية في حياة الغرب .

ولم يقتصر التغني بالشعر على حفر الآبار وحدها ، وإنما تغني به عند بنائهم
بناء أو حفرهم خندقاً ، أو اقامتهم سوراً ، أو قيامهم بزرع أو حصاد ، وفي
أعمال أخرى يناط القيام بها الى جماعة في الغالب ، وكذلك في الغارات وفي الحروب .
ولما شرع المسلمون يبنون مسجد الرسول بالمدينة ، قال قائل منهم :

لئن قصدنا والنبي يعمل لذاك منّا العمل المضلل

فارتجز المسلمون وهم يبنون ، يقولون :

لا عيش إلا عيش الآخرة اللهم فارحم الأنصار والمهاجرة

وقال (ابن هشام) : هذا كلام وليس برجز^٢ ، وسبب ذلك كون قائله
هو الرسول .

وقيل إنه قال :

اللهم لا عيشَ إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

١ ابن هشام ، سيرة (٩٧/١) ، (حاشية على الروض) ، الروض الانف (٩٧/١) .
٢ ابن هشام ، سيرة (١٢/٢) ، (حاشية على الروض) .

وجعل يقول :

هذا الجمال لا حال خيبر هذا أبرّ ، ربنا ، وأطهر^١

ويروي أهل الأخبار أن (المهلهل) ، كان يتغنى في شعره حين قال :

طفلةٌ ما ابنةُ المحلل بيضا ، لعوبٌ لذيلةُ العناق^٢

ورروا أن من الشعراء الجاهليين من كان يتغنى بشعره ، وإن حسان بن ثابت أشار إلى التغني بالشعر بقوله :

تَغَنَّ بالشعر إما كنتَ قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمار^٣

وقد قصد بذلك ، ترنيم الشعر وإنشاده على نغم مؤثر ، وهو الغناء . وما زال الشعراء ، يترنمون بشعرهم ، وينشدونه بأسلوب خاص يميزه عن أسلوب إلقاء النثر .

ونجد في أخبار غزوة أحد ، أن هنداً بنت عتبة ، زوجة أبي سفيان، ونسوة من قريش كنَّ يضربن على الدفوف ويتغنين بالشعر ، حيث يقولون :

نحن بناتُ طارقٍ إن تُقبِلوا نعانق
ونبسط السَّارِق أو تدبروا نفارق
فراق غير واثق

وتقول :

ويهاً بني عبد الدار ويهاً حماة الأدبار
ضرباً بكلّ بئار^٤

ولا بد وأن تكون في الأهازيج وفي أشعار الحج ، أنغام يرنم على وقعها الشعر،

-
- ١ ابن سعد طبقات (١ / ٢٤٠) ، (صادر) .
 - ٢ الاغانى (٥ / ٥١) .
 - ٣ العمدة (٢ / ٢٤١) .
 - ٤ الطبري (٢ / ٥١٠ ، ٥١٢) .

الذي هو شعر الغناء . فإننا نجد في التتف الباقية من الجمل التي كان يقولها الحجاج أثناء حجهم ، آثار شعر قد كان مقروناً بالغناء .

ونظراً لوجود تماس مباشر بين هذا الشعر وبين الحياة العامة، فإن في استطاعتنا القول ، انه قد يكون من أقدم أنواع الشعر عند العرب ، وهو شعر لم ينبع من ألسنة الشعراء المحترفين ، وإنما خرج على كل لسان ، وساهم فيه كل شخص : رجل أو امرأة ، مثقف أو جاهل ، حكيم أو سوقي . وهو يعد نابع من صميم الحياة ، ومن باطن القلب ، للترفيه عن النفس ، ولتخفيف التعب ، ولا زال الناس يتغنون عند وقوع مثل هذه الأمور لهم ، وهو غناء لم يحظ ويا للأسف بالرعاية والعناية ، لذلك لا نجد له ذكراً في الكتب إلا بالمناسبات .

ويرى العلماء المشتغلون بموضوع الشعر من الغربيين ، ان بين الشعر والسحر صلة كبيرة ، بل رأى بعض منهم ان الغرض الذي قصد اليه من الشعر في الأصل هو السحر ، ودليل ذلك ان الغناء عند الشعوب البدائية ، ليس متسقاً مع نغم العمل وإيقاع اليد العاملة ، فنجد الغناء عند البناء أو الجر أو الحفر ، أو الزرع لا يتسق مع نوع حركة العمل ، وإنما كان يسلي العمال ويسعفهم بقوى سحرية، وهو الغرض من جميع فن القول عند البدائيين، أي تشجيع العمل بطريق سحري^١.

وقد ذهب (بروكلمن) و (كولدترير) الى ان هذا الأثر السحري لا يظهر في الشعر العربي القديم إلا في شعر الهجاء ، « فن قبل أن ينحدر الهجاء الى شعر السخرية والاستهزاء ، كان في يد الشاعر سحراً يقصد به تعطيل قوى الخصم بتأثير سحري . ومن ثم كان الشاعر ، اذا تمها لإطلاق مثل ذلك اللعن ، يلبس زياً خاصاً شبيهاً بزي الكاهن . ومن هنا أيضاً تسميته بالشاعر ، أي العالم ، لا بمعنى انه كان عالماً بخصائص فن أو صناعة معينة ، بل بمعنى انه كان شاعراً بقوة شعره السحرية ، كما ان قصيدته كانت هي القلب المادي لللك الشعر »^٢ .

وكانت غاية الأغاني القصيرة ، التي يرددتها البدائي في المواقف الكبرى للحياة

١ بروكلمن (٤٥/١) ،

K. Th. Preuss, Die Geistige Kultur der Naturvölker, Leipzig — Berlin, 1914, S. 85.

٢ بروكلمن (٤٦/١) ، I. Goldziher, Abhand. Zur Arab. Philologie, I, I ,

الانسانية ، أن تحدث آثاراً سحرية ، وكذلك كانت غاية الرثاء الأصلية أيضاً هي السحر ، « فقد كان الغرض من المراثية أن تطفىء غضب المقتول وتنهاه أن يرجع الى الحياة ، فيلحق الأضرار بالأحياء الباقين ، ولكن هذا المعنى تلاشى تقريباً في الجزيرة العربية أمام الشعور الانساني بالحزن الممض . على ان إظهار الحزن لم يكن يناسب رجال القبيلة كما كان لائقاً بنسائها ، وخاصة بالأخوات ، ومن ثم بقي تعهد الرثاء الفني من مقاصدهن حتى عصر التسجيل التاريخي ^١ .

وقد لعبت الأغاني دوراً كبيراً في الصيد والحرب ، فقد رافقتها منذ أوائل انشغال الإنسان بهما . ولم يكن الصيد متعة وتسلية ورياضة عند العرب حسب ، بل كان لسد حاجة والتغلب على شغف العيش أيضاً ، ونجد في الشعر الجاهلي شعراً جعل الصيد ، نوعاً من الرياضة والتسلية ، وإظهار الرجولة في التغلب على الوحش الكاسر ، والحيوان المتوحش ، وأكثر أصحابه من المترفين والمتمكنين ، من أصحاب الخيل السريعة، مثل الملوك وسادات القبائل ، والشعراء الذين يرافقونهم في رحلات صيدهم ، أو يقومون هم أنفسهم برياضة الصيد .

ويلعب الغزو دوراً خطيراً في حياة الجاهليين ، فقد كان الغزو في الواقع نوعاً من أنواع الكفاح في سبيل الحياة، عليه معاشهم ، وبواسطته يحافظون على حياتهم وأموالهم ، وقد أنتج ضرباً من ضروب الشجاعة والمغامرة ، يتجلى في الشعر الحماسي ، الذي يقال قبل القتال وفي أثناء احتدامه . ونكاد لا نقرأ خبر يوم من أيام العرب أو غزو ، أو قتال إلا ونجد للشعر فيه دوراً ومكاناً في هذه الأحداث. يستوي في ذلك شعر الجاهلية والشعر الذي قيل في الأحداث التي وقعت في صدر الإسلام .

ونجد للنسب ، والغزل مكانة في الشعر الجاهلي ، وقد نجد فيه وصفاً للجمال الحسي لأعضاء الجسد . وقد آخذ العلماء امرأ القيس والأعشى على مجاهرتهما بالفحش وبالزنا في شعرهما . والمجاهرة بالاتصال الجنسي بصورة عارية مكشوفة من الأمور التي لا ترد بكثرة في الشعر الجاهلي ^٢ .

ولا بد وأن يكون الشعر قد مر في مراحل ، لعل أقدمها مرحلة السجع ،

١ بروكلمن (٤٧/١ وما بعدها) .

٢ بروكلمن (٤٩/١ وما بعدها) .

أي النثر المففى المجرد من الوزن ، الذي تخصص فيه الكهان عند ظهور الاسلام. وهو والد (الرجز) ، أبسط أبواب الشعر ، ومن الرجز نشأ بناء بحور العروض ، التي يظهر أثر الموسيقى على صياغتها على رأي بعض المستشرقين^١ ، وهو أثر يدل على ما كان للفناء من صلة بالشعر . ولعل هذه الصلة هي التي حملت العلماء على القول بأن بحور الشعر نشأت في الأصل من سير الإبل ، من ترنيم الشاعر شعره على ايقاع سير الإبل . غير ان البحث عن هذا الموضوع وعن موضوع كيفية نشوء بحور العروض وصلتها بعضها ببعض لا تزال من الدراسات العويصة المشكلة الشائكة التي لا يمكن الاتفاق عليها ، لعدم وجود أسس ثابتة يرتكز عليها الجدل القائم بين الباحثين في كيفية تطور الشعر الجاهلي^٢ . أما ان هذه البحور ، قد نشأت من سير الإبل^٣ ، فكلام لا يقوم على علم ، وهو من باب حدس الحداس ، فلدى الشعوب الأخرى شعر ، له ترانيم وبحور ، ومع ذلك ، فإنها لم تكن تتركب الإبل ، ولا تعرف ايقاع أرجلها عند المشي .

وقد قام المستشرقون بدراسة البحور التي نظم الشعراء الجاهليون بها شعرهم ، فوجدوا أن البحر الطويل يأتي في المرتبة الأولى من البحور ، يليه الكامل ، فالوافر ، فالبيسط . أما المتقارب فيوجد عند امرئ القيس ، كما يوجد عنده المنسرح قليلاً . واستعمل (طرفة) الرمل في قصيدة يبلغ طولها (٧٤) بيتاً ، ترتيبها الخامس في ديوانه^٤ ، كما استعمل السريع في قصيدتين^٥ ، واستعمل كل من امرئ القيس وطرفة المديد في قصيدة واحدة^٦ ، وأما الخفيف ، فقد وجد في شعر المرقشين ، وعبيد بن الأبرص ، وعامر بن الطفيل ، والأعشى ، ولا يوجد المزج إلا في قطعتين منحولتين ، واحدة لطرفة ، وأخرى لامرئ القيس^٧ .

وقد ذهب (غرونيباوم) الى أننا نجد تفتناً في شعر شعراء العراق وفي شعر من احتك بالحيرة من شعراء أكثر مما نجده في شعر أي مكان آخر . وذكر أن شعر

١ بروكلمن (٥١/١) وما بعدها .

٢ بروكلمن (٥١/١) وما بعدها .

٣ G. Jacob, Studien in Arabische Dichtem, II, S. 106.

٤ بروكلمن (٥٣/١) .

٥ رقم ٢ و ٣ من الديوان .

٦ بروكلمن (٥٣/١) .

٧ بروكلمن (٥٣/١) .

(أبي دؤاد) الإيادي قد جاء على اثني عشر بحراً ، ثم يرى أن المدرسة العراقية قد أكثرت من بحر الرمل ، ولا يستعمل هذا البحر في الشعر القديم إلا أبو دؤاد في ثلاث قصائد ، وطرفة في ثلاث قصائد ، وعدي في سبع قصائد ، والمثقب في قصيدة واحدة ، والأعشى في قصيدتين . واستعمله امرؤ القيس في قصيدة واحدة ، ورأى في ذلك دلالة على تأثير امرؤ القيس بأبي دؤاد ، وتأيداً للرواية التي ترى أنه كان راوية لأبي دؤاد^١ .

ويجيء امرؤ القيس وعدي والأعشى بعد أبي دؤاد في تنويع البحور التي نظموا بها ، فقد نظم كل واحد منهم في عشرة أوزان . وتدل الدراسات التي قام بها (فرايتك) على قلة ورود النظم في بحري الرمل والخفيف بالنسبة إلى البحور الأخرى^٢ . ويظن أن الشعر الوارد في كتاب : (البخلاء) للجاحظ ، وهو :

واعلمن علماً يقيناً انه ليس يرجى لك من ليس معك

المنسوب لعبيد بن الأبرص^٣ ، هو من الموضوعات .

ويرى (غرونبوم) أن من خصائص المدرسة العراقية نزوعها إلى بحر الخفيف ، وعند أبي دؤاد الإيادي خمس عشرة قصيدة بهذا الوزن ، وعند عدي سبع ، وعند الأعشى خمس ، ولم يستعمل هذا البحر عند سائر الشعراء المعاصرين إلا على نحو عارض^٤ . فورد عند عمرو بن قتيبة ، وعند المرقش الأكبر ، والمرقش الأصغر ، وعامر بن الطفيل ، والحارث بن حنظلة اليشكري^٥ .

ويظهر مما أورده المفسرون وأهل السير من قول (الوليد بن المغيرة) في الرسول وفي القرآن : « ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشجر كله : رجزه وهزجه ، وقريضه ومقبوضه ، ومبسوطه ، فما هو بالشعر »^٦ ، « فجعل الرجز والهزج من أوزان

١ غرونبوم (٢٦٥ وما بعدها) .

٢ E. Bräunlich, in Der Islam, XXIV, 1937, S. 248. f., Freitag, Darstellung der Arabischen Verskunst, S. 15, J. Jacob, Altarabisches Beduinenleben, S. 190. f., (1897).

٣ الجاحظ ، البخلاء (١٩٠) ، (طه الحاجري) ، غرونبوم (٨٦) .

٤ غرونبوم (٢٦٦) .

٥ غرونبوم (٢٧٩) ، بروكلمن (٥٣/١) .

٦ ابن هشام ، سيرة (١٧٣/١) ، (حاشية على الروض الاتف) .

الشعر ، وقرن بها أسماء غير محددة ، ويبدو أن تحديد هذه المعاني كلها عند العرب كان مختلفاً عن اصطلاحات العروضيين ، وإلا فإن القبض في العروض من عيوب الزحاف ، وهو حذف الحرف الخامس الساكن^١ . وورد في رواية عن (أبي ذر) : « لقد وضعت قوله على اقراء الشعر ، فلا يلتئم على لسان » ، وقد اختلفوا في المراد من الإقراء^٢ ، وفي هذين الخبرين وأمثالها دلالة على أنه قد كان لأهل الجاهلية قواعد ثابتة بالنسبة للشعر ، وأن الشعر كان يعتمد عندهم عليها . وأن علماء العروض : (الخليل بن أحمد) و (الأنخفش) لم يتمكنوا من ضبط كل محور الشعر التي كانت عند الجاهليين ، بدليل أننا نجد أبياتاً خارجة عن العروض الذي وضعها ، ويظهر أن هذا الخروج يمثل مرحلة من مراحل الشعر ، لم تقف على كنهها بعد^٣ . وقد وجد (العيني) أن في الأصمعية المرقمة بـ (٧٢) تشعيثاً ، قال عنه (غرونيوم) : « ومثل هذا لا يعد خطأ ، بل هو مظهر من مظاهر التطور الفني في هذا الوزن ، مظهراً استنكر أو نسي مع الزمن ، حين وضع علم العروض ، بعد حوالي قرنين من وفاة أبي ذؤاد^٤ . وقد ذهب (غرونيوم) الى أن (الخليل) ، أقر « ستة عشر وزناً ، واطرح بعض الأوزان الهزيلة التي كان القدماء قد استنبطوها »^٥ ، والواقع أننا لا نستطيع الزعم ، بأن الخليل قد أحاط علماً بكل أنواع العروض العربي الجاهلي .

ومن يفحص الشعر الجاهلي ، يجد ان في بعضه اضطراباً وخروجاً وشلوذاً على قواعد (العروض) ، وقد وجد هذا الشلوذ في شعر شعراء يعدون من الفحول ، مثل (امرئ القيس) ، في القصيدة التي مطلعها :

عيناك دمعها سيجال^٦ كأن شأنيها أوشال^٧

ومثل عبيد بن الأبرص في قوله :

أقفر من أهله ملحوب^٨ فالقطبيات فالذنوب

١ اللسان (٨٠/٩) ، بروكلمن (٥٣/١) .

٢ النهاية . لابن الاثير (٢٣٨/٣) ، بروكلمن (٥٣/١) .

٣ بروكلمن (٥٤/١) .

٤ غرونيوم (٢٦٨) .

٥ غرونيوم (١٣٥) .

فقلما يخلو بيت من هذه القصيدة من حذف في بعض التفاعيل ، أو زيادة ، كما في الشطر الأول من هذا المطلع .

ومثل ما نسب الى المرقش الأكبر ، وعدي بن زيد العبادي ، وغيرهم ، من خروج على الوزن في بعض الشطور ، وإخلال في الوزن ، حتى زعم بعض العلماء ، ان في نونية (سلمى بن ربيعة) خروجاً عن العروض : عروض الحليل^١ . وقد أشرت في مكان آخر الى وقوع الإقواء والإكفاء والزحاف في شعر بعض الشعراء ، مثل امرئ القيس ، والناطقة ، وبشر بن أبي خازم ، وهي أمور تلفت النظر ، لا ندرى أكانت قد وقعت من الشعراء حقاً ، أم من الرواية والرواة ، أم انها لم تكن عيباً بالنسبة لعروض الجاهليين ، وانما عدت من العيوب بالنسبة الى العروض الذي ضبط في الاسلام ، أو انه وقع بسبب تعديل أو تبديل أدخله العلماء على الأصل ، ليلائم قواعد العربية ، فوقع من ثم ما قيل له عيباً . وانني لا أستبعد وقوع السهو في نظم الشعر من شاعر مهما كان فحلاً ، فقد روي ان بعض الفحول من شعراء العصر الأموي كالكميت والفرزدق والأخطل ، قد وقعوا في أخطاء ، وان روايتهم كانوا يمحرون تنقيحاً وتغييراً على أشعارهم ، ليقوموا بذلك ما انحرف في شعرهم وما فيه من السناد^٢ ، ولكن وقوع ما نشير اليه يدل على ان ما نعد اليوم عيباً أو خروجاً على القواعد والعروض ، لم يكن ينظر اليه هذه النظرة عند الجاهليين وفي صدر الاسلام ، وإلا دل ذلك على جهل أولئك الشعراء بقواعد اللغة وعلم الشعر ، وحاشا وقوع ذلك منهم ، وشعرهم نفسه كان في جملة المواد الأساسية التي استعان بها علماء القواعد والعروض في بناء النحو والعروض .

وقد قصر علماء الشعر فحولة الشعر في الجاهلية على الشعراء المعروفين بالنظم بالبحور المشهورة ، فيما عدا الرجز ، أما قالة الرجز ، فهم طبقة خاصة ، عرفت عندهم بالرجاز . ويظهر من القول المنسوب الى (الوليد بن المغيرة) : « لقد عرفنا الشعر كله : رجزه ، وهزجه ، وقريضه ، ومقبوضه ، ومبسوطه »^٣ ، أن الشعر في نظر أهل مكة : رجز ، أو هزج ، أو قريض ، أو مقبوض ، أو مبسوط ، وأن من يقول الرجز ، فهو راجز ورجاز ، ولم يكن الرجز كما

١ العصر الجاهلي ، شوقي ضيف (١٨٤ وما بعدها) .

٢ الاغانى (٢٥٦/٤) .

٣ ابن هشام (١٧٣/١) ، (حاشية على الروض) .

يقول علماء الشعر طويل النفس ، وإنما كان أحياناً ، وقد بقي هذا حاله حتى أيام الأمويين ، فطول ولقي عناية خاصة عند كثير من الشعراء ، فأخذوا يذهبون به مذهب القصيد ، فقصوده ، بأن جعلوه قصائد ، وعمدوا الى تخفيف ما تركه بساطة العروض وسهولته في النفس من ملل ، بأن لجأوا الى استعمال العبارات البعيدة المأخذ ، والألفاظ الغريبة ، والاختراعات اللطيفة ، حتى تمكنوا من إدخاله الى قصور الخلفاء الأمويين ، ومن نيل الجوائز والألطف منهم^١ .

ويعود الفضل في رفع مستوى الرجز في الإسلام ، الى رجلين من (بني عجل) ، هما : (الأغلب بن عمرو) العجلي ، (٨٢١ هـ) ، و (أبو النجم الفضل بن قدامة) العجلي ، والى رجال من (تميم) ، على رأسهم : (العجاج) (٨٩٧ هـ) وابنه (رؤبة) المتوفى سنة (١٤٥ هـ) وقيل (١٤٧ هـ) ، و (عقبة) ابن (رؤبة) هذا ، و (أبو المرقال الزفیان) ، و (دكين بن رجاء) الفقيمي ، و (محمد ابن ذؤيب) الفقيمي الهامي^٢ .

ولا نملك شعراً يمكن أن يقال عنه انه أقدم ما وصل إلينا من مراحل الشعر الجاهلي . حتى هذا الرجز ، الذي ينظر اليه المستشرقون على انه أول مرحلة من مراحل الشعر الجاهلي ، لبساطته وسهولته ، ولكونه وسطاً بين السجع والشعر ، لا نملك نماذج منه ، يمكن أن نطمئن الى انها كانت من الشعر القديم ، السذي يصلح للاستشهاد به على انه من قديم الشعر ، إذ لم يحفل علماء الشعر بالرجز لاعتبارهم اياه دون الشعر ، فلم يدونوا منه شيئاً يذكر ، ولذلك نجد نسبته بالنسبة الى كمية الشعر الآخر (التقليدي) نسبة ضئيلة جداً ، وهذا ما جعل علمنا بالرجز الجاهلي قليلاً جداً .

ولسهولة الرجز ، واقباليته على الخروج على كل لسان ، أرى انه كان أكثر نظماً من الشعر المألوف ، ودليل ذلك اننا لو درسنا أخبار الأيام وأخبار الغزو والمعارك نجد للرجز فيها مكانة كبيرة ، فالمحارب الذي يقارع خصمه ويتجادل معه يرتجز رجزاً في الغالب لسهولته على اللسان ولمناسبته لمقارعة السيوف ، وللوقت القصير الذي يكون عنده ليقضي فيه المحارب على من يحاربه ، ثم ان في استطاعة

١ بروكلمن (٢٢٥/١) .

٢ بروكلمن (٢٢٨/١) وما بعدها .

غير الشعراء الارتجاز ، وليس في استطاعتهم نظم الشعر ، لذلك كان للرجز أكثر كمية من الشعر ، ولكن كثرته هذه وسهولته ، قصرتا في عمره ، وربما صارتا من العوامل التي جعلت الناس لا تقدم على حفظه .

ولما كان الشعر تعبيراً عن عواطف جياشة وعن حس مرهف ، وعن نفس حساسة تريد التعبير عن نفسها بأي أسلوب كان ، فإن في استطاعتنا القول انه لازم البشرية منذ عرفت نفسها ، وأخذت تعبر عن احساسها بأية طريقة كانت : بطريقة بدائية أو بطريقة متطورة . فبدأ الشعر كما بدأ الانسان نفسه ، بداية بسيطة ساذجة بدائية ، ثم تطور بتطور مدارك الانسان ، وتعددت طرقه وبجوره ، بتطور العقل والمدارك ، وبارتفاع مستوى الحياة ، فكان لذة يلتذذ بها المسافر ، وهو يقطع الطرق الصعبة ، والصحارى الموحشة ، يعبر عنها بغناء ذي نغم ، وبألفاظ تناسب ذلك الغناء ، كما كان يعبر عنها في التشوق والتجيب الى الآلهة والقوى الطبيعية التي كان يرى انها تؤثر في حياته ، وفي مناسبات التقرب الى الملوك والحكام : لينال منهم لقمة عيش ، وشيئاً من مال ، كما عبر عنها في الأفراح وفي الأتراح . وفي الفخر والمدح والذم ، وهو الهجاء ، وفي الظروف التي تؤثر عليه ، فتجعله يفرح من رؤيتها ويرتاح ، مثل المناظر الطبيعية الجميلة ، والأصوات الجميلة وجمال الانسان .

والشعر الجاهلي الصحيح ، هو حاصل تطور طويل مستمر ، لا يمكن تحديد أوله ، إذ بدأ الشعر منذ بدأ الإنسان يشعر بالفرح وبالسرور والتعبير عن عواطفه . وقد فقد القديم منه بسبب عدم تدوينه في حينه ، وبسبب صعوبة بقائه في الذاكرة الى أمد طويل ، ولم يصل منه إلينا إلا هذا القليل الذي قيل في عهد لا يرتقي كثيراً عن الإسلام ، وهذا القليل الباقي ، هو الصفحات القليلة الأخيرة من كتاب لا نستطيع أبداً تقدير حجمه ، هو كتاب الشعر الجاهلي ، الذي ختم بتغلب الإسلام على الشرك ، وبموت الجاهلية وظهور دين الله .

أما قول القائلين إنه لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الآيات يقولها الرجل في حاجته ، وإنما قصدت القصائد في عهد مهلهل ، أو هاشم ، أو عبد المطلب ، فرأي لا يقوم على دليل ، وليس له سناد تأريخي ، وإنما هو مجرد رواية رواها رواة الشعر في الإسلام . إذ لا يعقل أن تكون قريحة الجاهليين الذين عاشوا قبل

الإسلام بقرنين أو بقرن ونصف قرن ، قرينة محبوسة محصورة ، حددت بمحدود لم تتعدا ولم تتخطها ، فإذا هاجت وماجت بالأحاسيس وبالشعور المرهف ، صاغت حسها هذا بيت أو بيتين أو ثلاثة ، ثم توقفت عند هذا الحد لا تتجاوزه أبداً . وإذا كان الشعر طبع في الإنسان كما يقولون ونقل ، وهو نوع من أنواع التعبير عن الخاطر ، وجب تصور أن صياغته في قالب من أبيات شعر ، إنما تكون صياغة منسجمة مع طول وعرض الخاطر صغيراً ، ضئيلاً ، صيغ بيت أو بأبيات ، وإذا كان طويلاً مبعوثاً عن حس ملتهب جياش ، صيغ بأبيات تزيد عن تلك يتناسب عددها مع حجم ذلك الخاطر . فمن هنا لا نستطيع أن نقول إن شعر قدماء الجاهليين كان أبياتاً لا تزيد على ثلاثة ، وإنهم لم يكونوا يملكون القدرة على نظم ما يزيد على ذلك ، إلى أن جاء (عدي بن ربيعة) التغلبي ، الملقب بالمهلهل ، فوسع الشعر وزاد الأبيات وقصد القصائد . فقول مثل هذا وإن قال به علماء هم أعلم منا بفنون الشعر وبدروبه ، قول لا يمكن الأخذ به لما ذكرته . أفلم يكن للذين سبقوا المهلهل من العرب لسان مثل لسانه وحس مثل حسه ؟ إذا كان لهم مثل ما كان له ، فيفترض أن يكون تعبيرهم عن عواطفهم ، مثل تعبيره عنها سواء بسواء ، قد يكون قليلاً وقد يكون كثيراً من غير تنبير أو تحديد ولا تقنين ، لأن التحديد يتوقف على طول وقصر الحس الذي يستولي على الشاعر فيصوغه شعراً .

أما إذا فصلوا من قولهم المذكور معنى أن المهلهل كان أول شاعر وصل شعره إلينا أبياتاً زاد عددها على عدد ما وصل إلينا من شعر أي شاعر تقدم عليه ، وأنه أول من رويت له كلمة بلغت ثلاثين بيتاً ، فذلك أمر آخر لا صلة له بدعواهم أن الشعر كان قبل المهلهل رجزاً وقطعاً ، فقصده مهلهل ، ثم امرؤ القيس من بعده . وظل الرجز على قصره بمقدار ما تمتع الدلاء ، أو يتنفس المنشد في الحداء حتى كان الأغلب العجلي ، وهو على عهد النبي ، فطوله شيئاً يسيراً وجعله كالقصيدة .

وهذا معناه عندي أن شعر (المهلهل) ، هو أول شعر طويل وصل إلى علماء الأخبار من شعر قدماء الشعراء الجاهليين ، وأما شعر من سبقه ، فقد فقد وضاع معظمه ،

١ الرافعي (١٤/٣) . المزهر (٤٧٧/٢) .

٢ الرافعي (١٥/٣) .

وموجدوه ، أما (اليمن) ، فإنهم قد ساهموا فيه أيضاً ، حسب زعم أهل الأخبار والأنساب ، لكنهم لم يبلغوا فيه مبلغ ربيعة ومضر .

ويزعم أهل الأخبار ، ان من شعراء ربيعة : (المهلهل) ، والمرقشان ، وسعد بن مالك ، وطرفة بن العبد ، وعمرو بن قتيبة ، والحارث بن حلزة ، والمتلمس ، والأعشى ، والمسيب بن علس . وان من شعراء (قيس) النابقتان ، وزهير بن أبي سلمى ، وابنه كعب ، ولييد ، والحطيئة ، والشماخ ، وأخوه مزرد . وان من شعراء (تميم) (أوس بن حجر) شاعر مضر في الجاهلية ، ولم يتقدمه أحد منهم ، حتى نشأ (النابغة) ، و (زهير) فأخلاه ، وبقي شاعر (تميم) في الجاهلية غير مدافع .

ولا يمثل هذا النقل المزعوم ترتيباً زمنياً ، بمعنى ان الشعر بدأ بريئة أولاً ، ثم انتقل منها الى قيس ، ثم انتقل بعدها الى تميم ، إذ يتعارض ذلك مع ما يرويه أهل الأخبار وعلماء الشعر من تعاصر أكثر الشعراء ، ومن نبوغ معظمهم في وقت واحد ، وانما هو قول من أقوال أهل الأخبار المألوفة ، أصله رأي رجل واحد ، حمل عنه بالنص بذكر اسمه أحياناً ، وبدون ذكره أحياناً أخرى ، فلما تواتر في الكتب ، صار في حكم الإجماع ، يقال دون نقد ولا مناقشة الى هذا اليوم .

وما ذكرته عن تنقل الشعر يمثل رأي الرواة العدنانيين ، أما البائية ، فترى « مقدمة الشعر لليسن : في الجاهلية بامرئ القيس ، وفي الإسلام بحسان بن ثابت » . وقال آخرون : بل رجع الشعر الى ربيعة فحتم بها كما بدىء بها ^١ . وهو رأي يتعلق بالنسبة الى النسب الأكبر للقبائل ، وترى في الرأيين أثر العصبية للعدنانية أو للبائية ، فقد صعب على القحطانية المناهضة للعدنانية ، الاعتراف بالتفوق عليها حتى في الشعر ، فزعمت أن الشعر بدأ بها ، وأنه كان من مكارمها القديمة ، وكل مكرمة إنما بدأت بقحطان ، وما عدنان إلا مستعربة أخذت عربيتها من (يعرب بن قحطان) ، وهي دون القحطانية في كل شيء .

وحكم مثل هذا لا يمكن إصداره بالطبع إلا بسند علمي ، وليس في يد أحد حتى يومنا هذا سند جاهلي ، يؤيد رأي هذا أو ذاك ، وقد لا يأتي يوم يمكن

١ ابن سلام ، طبقات (١٣) ، العمدة (٨٦/١) ، المزهر (٤٧٦/٢) .

٢ العمدة (٨٩/١) .

اعطاء رأي علمي فيه . أما ما ذكرته ، فهو نقل لآراء أهل الأخبار ، ورأينا في آرائهم في هذه الأمور معروف ، فنحن لا نأخذ آراءهم مأخذ الجدة ، ولا نثق بها ، وكلها في نظرنا حاصل عصبية ، وقد لعبت العاطفة القبلية دوراً خطيراً في ظهورها ، ونحن لا نستطيع تقديم ربيعة على مضر في الشعر ، ولا تقديم مضر على ربيعة فيه ، لعدم وجود دليل لدينا نتخذه سنداً ومستسكاً في أيدينا لإثبات أي رأي من هذين الرأيين . أما أن يكون قد بدأ باليمن ، فالمسند ، يعارضه ويتناقضه ، إلا إذا اعتبرنا اليمن ، القبائل الساكنة في الشمال ، أي خارج العربية الجنوبية ، والتي يرجع السابون نسبها عادة الى اليمن ، وهي قبائل كانت تتكلم بلهجات عربية شمالية ، فذلك أمر آخر ، وأمرها عندنا حيثنذ مثل أمر ربيعة ومضر ، لا نستطيع تقديمها على ربيعة ولا على مضر ، ولا نستطيع تقديم ربيعة أو مضر ، للسبب المتقدم ، وهو عدم وجود أدلة لدينا تعيننا في الحكم بتقديم فريق على فريق ، واعطائه الأولوية في قول الشعر .

والشعر في نظرنا موهبة انسانية عامة ، لم تخصص بقوم دون قوم ، ولا بأمة دون أمة ، وهي على هذه السجية بين العرب ، لم تخصص بريبعة ، حتى نقول ان الشعر بدأ أول ما بدأ بها ، ولا بمضر حتى نقول انه ظهر أول ما ظهر عندها ولا باليمن ، حتى نقول انه بدأ بها وختم بها . وانما هو نتاج قرائح كل موهوب وذوي حس شاعري من كل القبائل والعشائر . والشعر كما قلت مراراً شعور وتعبير عن عواطف نخالج النفس ، فكل انسان يكون عنده حس مرهف ، واستعداد طبيعي ، وذوق موسيقي ، يمكن أن يكون شاعراً من أي حي كان ، ولهذا كان الشعراء من قبائل مختلفة ، وإذا تقدمت قبيلة على أخرى في كثرة عدد شعرائهم ، فليس مرد ذلك ان تلك القبيلة كانت ذات حس مرهف ، واستعداد فطري لقول الشعر ، وان بقية القبائل كانت قبائل غيبة بليدة الحس والعواطف ، فلم ينبغ بينها مثل ذلك العدد من الشعراء ، فقد تكون هنالك أسباب أخرى نجهلها في هذا اليوم . جعلتنا نتصور انها كانت متخلفة في الشعر ، كأن تكون منازل تلك القبائل بعيدة منزلة ، لم يتصل بها أحد من جماع الشعر ورواته . وهم بسين كوفي وبصري ، فلم يصل شعرها اليهم ، فاقطع نتيجة لذلك عنّا ، أو ان تلك القبائل كانت قبائل صغيرة ، لم يكن لها شأن يذكر ، فانحصر شعرها في حدودها ولم يخرج عنها ، فحمل ذكره ، ولم ينتشر خبره بين القبائل الأخرى ، فلما ظهر

الاسلام ، كان قد خفى ومات .

ودلينا اننا اذا دققنا في هذا الشعر الجاهلي الواصل الينا في الكتب، نجد انه شعر قبائل كبيرة ، لعبت في الغالب دوراً خطيراً في مجتمع ذلك اليوم ، مثل : كندة وبكر ، وأسد ، وتميم ، وتغلب ، ثم هو شعر شعراء كان لهم اتصال وثيق بالعراق في الدرجة الأولى ، أي بملوك الحيرة ، الذين كان نفوذهم يشمل أرضين واسعة ، مثل البحرين ونجد واليمامة في بعض الأحيان ، فكان لقبائل هذه الأرضين اتصال بحكام الحيرة ، ولها مواقف معهم : حسنة أحياناً وسيئة أحياناً أخرى ، وفي مثل هذه المواقف ، يكون للشعراء دور خطير فيها ، فهم بين مادح ، أو ذام قادح ، أو رسول قوم جاء الى الملوك في وفادة لملك أسير ، أو لإصلاح ذات بين ، أو جاء لنيل عطاء ، ونحن لا نكاد نجد شاعراً من الفحول أو من الشعراء المشهورين ، إلا وله صلة بملك أو أكثر من هؤلاء الملوك ، حتى لا يكاد يفلت منهم شاعر . أما ملوك الغساسنة ، فلهم بعد أولئك الملوك صلة بالشعراء ، بل هم دونهم اتصالاً بالشعراء ومرجع ذلك في نظري ان حكم الغساسنة لم يتجاوز يادية الشام وحدود مملكة البيزنطيين ، فلم يكن لهم لذلك اتصال بقبائل البادية البعيدة عن منطقة نفوذهم ، ولا بقبائل الحجاز ونجد واليمامة والبحرين ، فتقلص مجال اتصالهم بالشعراء ، ولم يصل اليهم إلا الشعراء من أصحاب الحاجات ، الذين كانوا يطوفون البلاد ، ويقصدون الموسرين الكرماء أينما كانوا لنيل صلاتهم ثمناً لمدحهم لهم ، وإلا الشعراء الذين غضب ملوك الحيرة عليهم ، أو لم ينالوا منهم تحقيق مطمع وحل مشكل ، أو فك أسير ، فجاءوا لذلك الى الغساسنة خصوصهم نكاية بهم ، وإلا بالشعراء الذين أغار قومهم على أرض الغساسنة ، فوقع نفر منهم في أسرهم ، فأرسلهم أهلهم وسطاء ورسلاً عنهم ، للنوئل اليهم بفك أسراهم . ونحن لو ثبتنا أسماء مواطن شعراء الجاهلية على صورة جزيرة العرب نرى أنها كانت في الحجاز ونجد واليمامة ، والبحرين والعراق . أما بلاد الشام فقد كانت فقيرة جداً بهم ، بل لا نكاد نجد فيها شاعراً لامع الاسم ، ترك أثراً في الشعر . وبلغت هذا الجذب في الشعر النظر اليه حقاً ، فقد عاشت ببلاد الشام قبائل كبيرة كان لها شأن كبير في تلك البلاد قبل الاسلام وفي الإسلام ، مثل غسان، وبهراء، وكلب ، وقضاعة ، وتنوخ ، وتغلب ، وقبائل أخرى لعبت دوراً خطيراً في الحروب مع عرب الحيرة ، وفي مساعدة الروم ، كما لعبت دوراً خطيراً في

الفتوحات الإسلامية، فقد ساعدت الروم أولاً ، ثم انضمت الى المسلمين في قتالهم مع البيزنطيين ، وقبائل هذا شأنها لا يعقل الا يكون لها شعر وألاً ينبغ من بينها شعراء لكثرة عددها ولما فستها لعرب العراق ، ولكون لسانها هذا اللسان العربي الشمالي . فهل كان عند تلك القبائل شعراء ، لم يصل اسمهم الى علماء الشعر ، فلم يذكرهم لجهلهم بهم في عداد شعراء الجاهلية ؟ قصرنا لذلك لا نعرف من أمرهم شيئاً ! أو أنها كانت مجدبة حقاً لأنها كانت بمنأى عن الشعر والشعراء ، لتحضرها وتأثرها بالنصرانية وثقافة بني إرم ، فلم توائم تربتها الشعر ، لذلك أجدبت فيه ، ولم ينبت فيها شاعر لامع الاسم !

يقول علماء اللغة : « والذين عنهم نقلت العربية وبهم اقتدي ، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم : قيس ، وتميم ، وأسد ، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ، ثم هذيل ، وبعض كنانة ، وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم .

وبالجملة ، فإنه لم يؤخذ عن حضري قط ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ؛ فإنه لم يؤخذ من لحم ، ولا من جذام ، لمجاورتهم أهل مصر والقيط ، ولا من قضاة وغسان ، وإياد ، لمجاورتهم أهل الشام ، وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية ، ولا من تغلب^١ . فالقبائل المذكورة ، وإن كانت من القبائل العربية الكبيرة المرموقة ، إلا أن إقامتها ببلاد الشام إقامة طويلة ومجاورتها أهل الشام ، وتأثرها بلسانهم ، واعتناقها النصرانية ، وأخذها ديانتها بالسريانية التي سماها أهل الأخبار خطأ العبرانية ، وتحضرها وقرارها والتهاتها بالزرع والرعي ، صيرت كل هذه الأمور وأمثالها لسانها عربياً مشوباً برطانة ، ولهذا عرفت بـ « العرب المستعربة » وبـ « مستعربة الشام » ، عند المسلمين ، حتى صارت تلك الرطانة سبباً لإعراض علماء اللغة عن الاحتجاج بلغتها في شواهد القرآن والشعر على نحو ما رأيت .

وقد يكون لتلك القبائل شعر، غير ان علماء اللغة قاطعوه للسبب المذكور ، ولكنني لا أستطيع الجزم بذلك ، لعدم ورود إشارة الى هذه الناحية في كتب أولئك

١ المزهر (٢١١/١ وما بعدها) ، الشعر والشعراء (١٥٤/١) .

العلماء ولا في كتب أهل الأخبار . ثم اني لاحظت ان أخبار فتوح الشام لا تذكر شيئاً من شعر القبائل المستعربة التي حاربت مع الروم المسلمين ، أو التي حاربت مع المسلمين الروم ، وحيث اننا نعرف ان من عادة العرب الاستعانة بالشعر والرجز أثناء غزوها وقتالها ، لذلك تلفت هذه الملاحظة الأنظار ، وتحمل المرء على البحث في سبب وجود هذا الفقر في شعر القتال في فتوح الشام ، بينما نجد شعراً غزيراً وافرأ أنتجته قرائح المتقاتلين في حروب العراق نظمه المحاربون المسلمون ، ومحاربو القبائل العراقية الوثنية والمتنصرة التي حاربت مع الفرس ، أو التي حاربت مع المسلمين أو تلك التي انضمت الى المسلمين فيما بعد .

وسبب هذا الفقر في نظري ، ان قبائل بلاد الشام ، كانت قد تأثرت بلغة وبثقافة أهل الشام ، وبالنصرانية المتأثرة بالسريانية وبالرومية وقد غلبت عليها نزعة الاستقرار ، فاستقرت في حواضر حضرية كبيرة مثل دمشق وحمص وحلب ، وقنسرين^١ ، وغيرها ، وهي حواضر معظم سكانها من السوريين والروم ، لا من العرب ، وكانت نصرانية ، صلواتها بالسريانية ، وثقافتها سريانية يونانية فتأثرت بثقافة من عاشت بينهم ، وانصرفت الى الزراعة ورعي الماشية ، وشابت لهجتها رطانة إرامية ، ولم تحفل بالشعر احتفال بقية العرب به . لذلك لم يظهر من بينها شاعر فحل .

أما عرب العراق ، فقد كانوا عرباً وأعراباً ، عربهم في قرى عربية ،حكامها من العرب ورجال دينها نصارى ، ولكنهم نصارى عرب أو مستعربة ، علموا العربية في كنائسهم ، ونشروا الخط العربي في خارج العراق ، وتفقهوا في علوم العربية ، وفي جملة هذه العربية الشعر . وأما أعرابهم ، فقد كان قوم منهم نصارى والباقيون على الشرك وعلى سمة الأعراب منذ وجدوا من الميل الى الاستقلال وعدم الخضوع لحكم أحد ، ومن الاعتزاز بالنفس والتعبير عن الأحاسيس المرهفة بقول الشعر ، وأما حكامهم ، وهم ملوك الحيرة ، فكانوا على سنة كبار سادات القبائل من استقبال الشعراء والإستماع الى إنشادهم ، وتلبية طلباتهم ، وكان من صالحهم اصطناع الشعراء لامتداد ملكهم الى نجد واليامة أحياناً والى البحرين وهي من أهم مواطن الشعر في الجاهلية ، والشعراء أبواق الدعاية في ذلك العهد ، وقد

كان ملوك الحيرة شعراء ، ينظمون الشعر، ولهم اطلاع ووقوف على شعر الشعراء ، وكان من اتصل بهم من سادة الحيرة شعراء كذلك ، لهم شعر مدون في كتب الأدب ، وفيه ما قالوه في فتوح المسلمين للعراق ، فن هنا ظهر الشعر في العراق ، على حين خمل في بلاد الشام .

ولم تكن القبائل سواء في الشعر وفي عدد شعرائها ، وهذا شيء طبيعي ، لا يختلف فيه اثنان . وقد لاحظ ذلك علماء الشعر ، فأشاروا الى أسماء قبائل أنجبت في الشعر وأخصبت في الشعراء ، وكان (الجاحظ) الكاتب الذكي ممن لاحظ ذلك ، فقال : « وبنو حنيفة مع كثرة عددهم ، وشدة بأسهم ، وكثرة وقائعهم ، وحسد العرب لهم على دارهم وتقومهم وسط أعدائهم ، حتى كأنهم وحدهم يعدلون بكرأ كلها ، ومع ذلك لم نر قبيلة قط أقل شعراً منهم . وفي إخوتهم عجل قصيد ورجز ، وشعراء رجازون . وليس ذلك لمكان الخصب وانهم أهل مدر ، وأكالو تمر ، لأن الأوس والخزرج كذلك ، وهم في الشعر كما قد علمت . وكذلك عبد القيس النازلة قرى البحرين ، فقد تعرف ان طعامهم أطيب من طعام أهل البصرة .

وثقيف أهل دار ناهيك بها خصباً وطيباً ، وهم وإن كان شعرهم أقل ، فإن ذلك القليل يدل على طبع في الشعر عجيب ، وليس ذلك من قبل رداء الغداء ، ولا من قلة الخصب الشاغل والغنى عن الناس ، وإنما ذلك عن قدر ما قسم الله لهم من الحظوظ والغرائز ، والبلاد والاعراق مكانها .

وبنو الحارث بن كعب قبيل شريف ، يجرون مجاري ملوك اليمن ، ومجاري سادات أعراب أهل نجد ، ولم يكن لهم في الجاهلية كبير حظ في الشعر . ولهم في الاسلام شعراء مغلغولون .

وبنو بدر كانوا مفحمين ، وكان ما أطلق الله به السنة العرب خيراً لهم من تصبير الشعر في أنفسهم .

وقد يحظى بالشعر ناس ويخرج آخرون ، وإن كانوا مثلهم أو فوقهم . ولم تمدح قبيلة في الجاهلية ، من قريش ، كما مدحت مخزوم ، ولم يتها من الشاهد والمثل لما دح في أحد من العرب ، ما تها لبني بدر .

وقد كان في ولد زرارة لصلبه ، شعر كثير ، كشعر لقيط وحاجب وغيرهما

من ولده . ولم يكن لحذيفة ولا الحصن ، ولا عيينة بن حصن ، ولا لحمل بن بدر شعر مذكور^١ .

وقال (يونس بن حبيب) الضبي^٢ ، « ليس في بني أسد إلا خطيب أو شاعر ، أو قائف ، أو زاجر ، أو كاهن ، أو فارس ، وليس في هذيل إلا شاعر أو رام أو شديد العدو^٣ » . وذكر (الجاحظ) أن (عبد القيس) بعد محاربة (إباد) تفرقوا فرقتين ، ففرقة وقعت بعمان وشق عمان ، وفيهم خطباء العرب ، وفرقة وقعت إلى البحرين وشق البحرين ، وهم من أشعر قبيلة في العرب . ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سرّة البادية وفي عدن الفصاحة^٤ . ولا بن سلام رأي في هذا الموضوع إذ يقول : « وبالطائف شعر وليس بالكثير ، وإنما يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء . والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم فائز ولم يحاربوا ، وذلك الذي قلل شعر عمان^٥ » .

وجاء أن أفصح الشعراء ألسناً وأعربهم أهل السروات ، ومن ثلاث ، وهي الجبال المطلة على تهامة مما يلي اليمن ، فأولها هذيل ، وهي تلي السهل من تهامة ، ثم بجيلة السراة الوسطى ، وقد شركتهم ثقيف في ناحية منها ، ثم سراة الأزد ، أزد شنوءة ، وهم بنو الحارث بن كعب بن الحارث بن نضر بن الأزد^٦ . وذكر أن قبيلة (هذيل) هي في طليعة القبائل عدداً في الشعراء ، فقد روى العلماء لأربعين شاعراً منهم في الجاهلية والإسلام ، وهو عدد قياسي بالنسبة إلى عدد الشعراء الذين أنجبته القبائل الأخرى^٧ ، وقيل عنها إنها أعرق في الشعر^٨ . وروي أن سائلاً سأل (حسان بن ثابت) : « من أشعر العرب ؟ فقال : أراحلاً أم حياً ؟ قيل : بل حياً ، قال : أشعر الناس حياً هذيل^٩ » . وكان (الشافعي) يحفظ

١ الحيوان (٤ / ٣٨١ وما بعدها) .

٢ الرافعي (٣ / ٢٠) .

٣ الرافعي (٣ / ١٩) .

٤ ابن سلام (٢١٧) .

٥ الرافعي (٣ / ١٨) ، المزهري (٢ / ٤٨٣) .

٦ الرافعي (٣ / ١٩) .

٧ تاج العروس (٨ / ١٦٦) ، (هذل) .

٨ المزهري (٢ / ٤٨٣) .

عشرة آلاف بيت من شعر هذيل بإعرابها وغريبها ومعانيها^١ . وقد عدت (هذيل) أشعر القبائل في رأي بعض العلماء^٢ .

وذكر الأخباريون ان العرب كانت تقر لقريش بالتقدم في كل شيء إلا في الشعر ، فإنها كانت لا تقر لها به ، حتى كان عمر بن أبي ربيعة ، فأقرت له الشعراء بالشعر أيضاً ولم تنازعها^٣ . وقالوا : إن قريشاً كانت أقل العرب شعراً في الجاهلية ، فاضطرها ذلك أن تكون أكثر العرب انتحالاً للشعر في الاسلام^٤ . وروي عن (معاوية) انه كان يقول : فضل المُرُتَبُونَ الشعراء في الجاهلية والاسلام . وكان يقول : أشعر أهل الجاهلية زهير بن أبي سلمى ، وأشعر أهل الاسلام ابنه كعب ، و (معن بن أوس) . و (معن) شاعر مجيد من مخضرمي الجاهلية والاسلام^٥ .

فبعض العرب مخصبين في الشعر ، وبعضهم أقل خصباً ، وقد رجع (الجاحظ) سبب ذلك الى الموهبة والطبع ، فكما ان النبوغ يتفاوت بين انسان وانسان ، كذلك يتفاوت الشعر بين قبيلة وقبيلة ، ورجع (ابن سلام) ذلك الى عامل البداوة ، والحضارة ، فالأعراب متشاجرون مكثرون من الغارات يغزو بعضهم بعضاً ، والشعر يكثر بالحروب التي تكون بين الأحياء ، أما الحضرة ، فإنهم لا يميلون الى الحروب والمعارك ، ولذلك يقل شعرهم على رأيه . ولهذا السبب قل شعر قريش ، لأنه لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا . فالحرب تهيج العواطف ، وتحمل الناس على التحمس لها والدفاع عن أنفسهم وتكديس كل القوى للتغلب على العدو ، والشعر من أهم وسائل تسخير نار الحرب .

وقد أشار أهل الأخبار الى بيوت ذكروا أنها اشتهرت بقول الشعر ، وبظهور المعرفين فيها . وضربوا أمثلة عليها ببيت (أبي سلمى) . فقد كان شاعراً واسمه ربيعة ، وابنه زهير بن أبي سلمى ، وله خؤولة في الشعر : خاله بشامة بن الغدير ، وكان كعب وبجير ابنا زهير شاعرين ، وجاعة من أبنائها .

-
- ١ المزهر (١/١٦٠) .
 - ٢ بلوغ العرب (٣/١٤٠) .
 - ٣ الاغانى (١/٣٥) .
 - ٤ طبقات الشعراء (١٠) .
 - ٥ الاصابة (٣/٤٧٥) ، (رقم ٨٤٥٢) .

وضربوا المثل ببيت (حسان بن ثابت) ، فقد كان أبوه وجدته وأبو جده شعراء ، وابنه عبد الرحمن شاعر ، وسعيد بن عبد الرحمن شاعر .

ومن البيوتات التي عرفت بالشعر : بيت (نهل بن حرثي بن ضمرة بن جابر بن قطن) ، ستة ليس يتوالى في بني تميم مثلهم شعراً ، وكذلك بيت (النعمان بن بشير) ، وكانت أمه (عمرة بنت رواحة) شاعرة ، ونحاله (عبدالله ابن رواحة) أحد شعراء الرسول^١ .

ومن بيوتات الشعر المعروفة في الجاهلية والإسلام ، (آل الحارثي) ، منهم (عبد يغوث بن الحارث بن وقاص) الحارثي . وكان شاعراً من شعراء الجاهلية ، فارساً سيّد قومه من (بني الحارث بن كعب) ، وهو الذي كان قائدهم يوم (الكلاب) الثاني فأسرته (تميم) وقتلته . ومنهم (اللجلاج) الحارثي ، وهو طفيل بن زيد بن عبد يغوث ، وأخوه (مسهر) فارس شاعر ، وهو الذي طعن (عامر بن الطفيل) في عينه يوم (قيفَ الرّيح) . ومنهم ممن أدرك الإسلام (جعفر بن عتبة بن ربيعة بن الحارث بن عبد يغوث) وكان شاعراً صعلوكاً ، أخذ في دم فحبس في المدينة ثم قتل صبراً^٢ .

وقد تعرض (جرجي زيدان) لموضوع تنقل الشعر في الأقاليم ، فقال : « وإذا أحصيت شعراء الجاهلية الذين بلغنا خبرهم بالنظر الى المواطن ، رأيت نحو خمسين من نجد ، والخمس الثالث من الحجاز ، والرابع من اليمن والباقي من العراق ، وفئة قليلة من البحرين واليامة وتهامة^٣ ، وذلك على اعتبار ان القبائل : (كندة) ، و (أسد) ، و (مزينة) ، و (عيس) ، و (سلم) ، و (عامر) ، و (طيء) ، و (جشم) ، و (ضبيعة) ، و (سعد) ، و (ضبة) ، و (جعدة) ، و (باهلة) ، و (تميم) ، و (عكل) ، و (بكر) ، و (مرة) ، و (نبهان) ، من قبائل نجد ، وان (ذبيان) ، و (هذيل) ، و (الأوس) ، و (الأزد) من الحجاز ، وان (يشكر) ، و (تغلب) ، و (العباد) ، و (تميم) ، و (بكر) ، و (إياد) ،

١ العملة (٣٠٦/٢) .

٢ الخزائن (٢٠٢/٢) وما بعدها .

٣ تاريخ آداب اللغة العربية (٧٤/١) .

من العراق ، وان (بكرأ) ، و (ضبعأ) ، من البحرين ، وان (بني ثعلبة) من اليمامة ، وان (فهمأ) ، و (مزينة) من تهامة^١ . وهو تقييم لا يمكن الأخذ به في هذا اليوم ، وفيه أخطاء ، وقد بني على روايات لأهل الأخبار ، تعارضها روايات أخرى لهم ، لم يقابلها أو يطابق بعضها ببعض ، فوقع لذلك في أوهام .

ونلاحظ أنه سار على رواية أهل الأخبار في تنقل الشعر في القبائل ، فجعل (ربيعة) أول من نبغ في الشعر ، ثم حوله إلى قيس فتميم . ثم ظهر الشعر بعد ذلك على رأيه في بطون مدركة من مضر ، وهي : هذيل ، وقريش ، وأسد ، وكنانة ، والدئل وغيرهم . وكلهم من أهل البادية ، أما أهل المدن ، فقلما نبغ بينهم شاعر فحل ، وأشعرهم (حسان بن ثابت)^٢ .

ومن أهم قبائل ربيعة ويطونها : بكر ، وتغلب ، وعبد القيس ، والنمر بن قاسط ، ويشكر ، وعجل ، و (جشم) ، وحنيفة ، وقيس بن ثعلبة ، وضبيعة ، وشيبان ، وذهل ، وسلدوس . ومن أشهر شعراء هذه المجموعة المرقشان الأكبر والأصغر ، وطرفة بن العبد ، وعمرو بن قتيبة ، والحارث بن حذرة ، والمتلمس ، خال طرفة ، والأعشى ، والمسيب بن علس وآخرون . وقد جعل (زيدان) عددهم (٢١) شاعراً^٣ .

وقد نزل بنو قيس بن ثعلبة وبنو حنيفة اليمامة . ومن بطون قيس بن ثعلبة : سعد بن ضبيعة ، رهط الأعشى ، ومن ديارهم (منفوحة) . وكانوا بين الحياة الحضرية والحياة الأعرابية ، يرعون الإبل والغنم ، إلا أنهم أصحاب نخيل . أما حنيفة ، فكانت تزرع وترعى ، وقريتهم الكبرى (حجر) ، وكانوا يزرعون الحبوب ، ويمونون الأعراب ومكة بها . وكانت النصرانية قد وجدت سبيلها بينهم ، وقد افتخر (الأعشى) بقومه على (إياد) ، لأنهم أصحاب مال ، أما (إياد) ، فأصحاب زرع ينتظرون حصاد حبههم ، وذلك في هجائه لهم بقوله :

- ١ راجع (الصفحة ٨٠ فما بعدها الى انتهاء ٨٤) من الجزء الاول .
- ٢ تأريخ آداب اللغة العربية (٧٤/١ وما بعدها) .
- ٣ العمدة (٨٦/١ وما بعدها) ، تأريخ آداب اللغة العربية (٧٤/١ وما بعدها) ، (تنقل الشعر في القبائل) .

لنا كمن جعلت إِياداً دارها تكريت تنظر حبّتها أن يُحصدا
 جعل الإلآء طعمانا في مالنا رزقاً تضمنه لنا أن ينفدا
 مثل الهضاب جزارة لسوفنا فإذا تُراع فإنها لن تطردا
 ضمنت لنا أعجازهن قدورنا وضروعهن لنا الصريح الأجردا^١

وقيس قبيلة كبيرة من بطونها : عبس ، وذبيان ، وطفان ، وعدوان ،
 وهوازن ، وسليم ، وثقيف ، وعامر بن صعصعة ، ونمير ، وجعدة ، وقشير ،
 وعقيل . وكانت هذه القبائل في نجد وأعلى الحجاز ، وقد نبغ فيها جماعة من
 فحول الشعراء ، منهم النابختان ، وزهير بن أبي سلمى ، وكعب بن زهير ابنه ،
 وليد ، والحطيئة ، والشماخ ، وأخوه (مزرد) ، وخدش بن زهير ، وعنترة
 العبيسي وغيرهم . وعندهم أن أشعر قيس الملقبون من بني عامر والمنسوبون إلى
 أمهاتهم من غطفان^٢ . وقد جعل (زيدان) عدد شعراء قيس (٣٠) شاعراً .
 وقال : « إذا اعتبرت عدد شعراء الجاهلية بالنظر إلى القبائل ، كانت قيس أكثرها
 شعراء ، تليها اليمن فريضة ، فضر فقريش فقضاة فلإد^٣ » .

وأما (تميم) ، فقبائل كثيرة من مضر ، أشهرها : مازن ، ومالك ،
 وسعد ، ودارم ، وهذلة ، ويروبوع ، وكعب ، وبجاشع ، وزرارة . وكانت
 منازلها في القديم تهامة ، ثم نزحت إلى مواضع أخرى من جزيرة العرب ، فسكن
 بعض منها في البامة ، وبعض في العربية الشرقية ، وقسم بنجد ، ونزح قوم منهم
 إلى العراق ، وأقاموا في البادية . وقد لعبت تميم شأن القبائل الكبيرة دوراً خطيراً
 في أحداث الجاهلية القريبة من الإسلام . ومن شعرائها : أوس بن حجر^٤ .
 وجعل (زيدان) عدد شعرائها (١٢) شاعراً^٥ . ولكنك لو سجلت أسماء الشعراء
 الذين وردت أسماءهم في كتب الأدب والتاريخ ، لوجدت أن عدد شعراء تميم

١ ديوان الاعشى ، القصيدة رقم ٣٤ ، العصر الجاهلي (٣٣٤) .

٢ الاغانى (٩٢/٢) ، زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (٧٥/١) ، العمدة
 (٨٨/١) .

٣ تاريخ آداب اللغة العربية (٧٥/١) .

٤ العمدة (٨٨/١) .

٥ تاريخ آداب اللغة العربية (٧٥/١) .

يزيد على العدد المذكور بكثير . فتميم من القبائل المخصصة بالنثر وبالنظم . ولكلامها رأي ومقام عند علماء اللغة .

ومن مضر أيضاً : هذيل ، وأسد ، وكنانة ، وقريش ، والدئل . وهذيل من القبائل الساكنة في هضاب وجبال غير بعيدة عن مكة ، وقد عدت لسانها من الألسنة العربية الجيدة ، واشتهرت بكثرة شعرها وبجودته ، وقد جمع في دواوين ، وعني العلماء بجمعه وبشرحه ، وبقيت منه بقية طيبة^١ .

وأما القبائل التي يرجع النسابون نسبها الى اليمن ، فهي : كندة ، وطيء ، والأشعر ، وجذام ، والأزد ، ولحم ، ومذحج ، وخزاعة ، وهمدان ، وغسان والأوس والخزرج^٢ . ولبعض منها شعر وشعراء وردت أسماءهم في ثنایا هذا الكتاب .

أما ميزات لغاتهم وخصائص نحوهم وصرفهم ، فلا نعرف عنها غير قليل . لعلم تطرق علماء اللغة الى هذه المميزات ، خلا ما ذكروه من أمور اختلفت فيها (طيء) عن غيرها في مثل (ذي) الطائية ، وغير ما ذكروه من تفردهم في تفسير معاني بعض الألفاظ ، مثل (التخوف) بمعنى التنقص في لغة أزد شنوءة^٣ .

ولدراسة شعر هذه القبائل ، دراسة لغوية مقارنة ، أهمية كبيرة بالنسبة للباحث في لغة العرب ، إذ يستطيع بها من الوقوف على مزاياها ومفارقاتها بالنسبة الى العربية المعهودة ، ومن الوقوف على الروابط اللغوية التي تجمع بين هذه اللغات التي يرجع أهل الأنساب والأخبار أصل المتكلمين بها الى اليمن .

وأما مجموعة قصاعة ، فجهينة ، وضجعم ، وتنوخ ، وكلب^٤ . وهي مجموعة لم تنجب عدداً كبيراً من الشعراء ، ولم يحفل علماء اللغة بلغتها ، إذ لا نجد للهجتها ذكراً خطيراً في كتب اللغة ، فلم يشيروا اليها في جملة القبائل التي ركنوا الى الأخذ بلسانها للاستشهاد به في شواهد اللغة والنحو والصرف . ويظهر ان احتكاكها

١ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٨٢/١ وما بعدها ، ١٠٤) .

٢ تاريخ آداب اللغة العربية (٧٦/١) .

٣ تفسير الطبري (٧٧/١٤) ، (بولاق) .

٤ تاريخ آداب اللغة العربية (٧٦/١) .

بالنبط وبالأراميين وأمثالهم ، قد عرض لسانها الى الأخذ من ألسنتهم والى التأثير بهم ، حتى بان ذلك عليه ، وهذا ما حمل علماء اللغة على عدم الاستشهاد به في جملة الشواهد . وأنا لا أستبعد احتمال وجود خصائص به ، ميّزته عن العربية القرآنية ، بدليل ان أعراب الصفا (الصفاة) ، وهم من أعراب بلاد الشام ، كانوا يتكلمون ويكتبون بعربية مباينة لعربيتنا ، وقد تكلمت عن عربيتهم في الجزء السابع من كتابي القديم : تأريخ العرب قبل الاسلام ، وأرض الصفا هي من مواطن تلك المجموعة .

وذهب (جرجي زيدان) ، كما سبق أن قلت ، الى أن قياساً أكثر القبائل عدداً في شعرائها ، تليها اليمن ، فربيعة ، فضر ، فقريش ، فإياد . وقدر عدد شعراء الجاهلية الذين وصلتنا أخبارهم بـ (١٢٥) شاعراً ، وزعمهم على هذا النحو : ثلاثين شاعراً في قيس ، وثلاثة وعشرين شاعراً في اليمن ، وواحداً وعشرين شاعراً في ربيعة ، وستة عشر شاعراً في مضر ، واثني عشر شاعراً في تميم ، وعشرة شعراء في قريش ، وأربعة شعراء في قضاة ، وشاعرين في إياد ، وشاعر واحد من أصل غير عربي ، أي مولى^١ .

وقد سمي (أبو الفرج) لمضر سبعة وستين شاعراً ، ولليمن أربعين ، ولربيعة ثلاثة عشر : وسمى شعراء آخرين ، منهم من يتصل بجديس ، ومنهم من يتصل بجرهم^٢ .

نرى مما تقدم أن الشعراء كانوا من مضر ، ومن ربيعة ، وهما من عدنان ، كما كانوا في القبائل القحطانية . ويذكر أهل الأخبار أن حظ القبائل المضرية من الشعر ، كان أحسن حالاً من حظ ربيعة وقحطان ، وأن حظ قبائل كل مجموعة من هذه المجموعات الثلاث كان متفاوتاً ، فبينها المكثّر ، وبينها المقل . ولا نستطيع إرجاع سبب تفوق القبائل المضرية على قبائل ربيعة أو قحطان الى اللغة ، لأننا لا نملك حتى الآن صورة واضحة علمية عن أصل اللغة العربية التي نظم بها الشعر والتي نزل بها القرآن ، حتى نستطيع البت بموجبيها في موضوع هذا التفوق . وإذا جارينا أهل الأنساب في تقسيمهم العرب الى عدنانيين وقحطانيين ، جاز لنا حينئذ

١ تأريخ آداب اللغة العربية (٧٥/١) .

٢ طه حسين ، في الادب الجاهلي (٢٥٦) .

القول ، بأن شعر القبائل القحطانية قد قلَّ عن شعر عدنان من مضر وريبعة ، بسبب استعراب هذه القبائل ، أي أخذها لغة العدنانيين لغة لها ، وتركها لغتها الأصلية لغة أهل اليمن ، بسبب اتصالها بالقبائل العدنانية ، فن ثم قلَّ شعرها بسبب هذا الاستعراب . ولكن ماذا يكون جوابنا عن تخلف ربيعة في الشعر عن مضر ، وريبعة أخت مضر ، في عرف النسابين ، ولغتها مثل لغة مضر ؟

والذي أراه ، ان البت في مثل هذه المشكلات ، هو أمر لا يمكن أن يكون علمياً في الوقت الحاضر ، فقد رأيت ان الأنساب حاصل تكتلات سياسية ، وتجمعات قبلية ، وانها لم تكن حاصل نسب بالمعنى المفهوم من لفظة (نسب) ، بمعنى الانحدار من صلب والدَيْن ، ورأيت ان العرب كانوا يتكلمون قبل الاسلام بلهجات متباينة ، حصرناها في مجموعات استنبطناها من الكتابات الجاهلية ، ولكننا لا نستطيع أن نقول انها تشمل كل لهجات العرب ، فقد عثر حديثاً على كتابات جديدة لم تدرس بعد دراسة علمية كافية حتى نقول رأينا فيها ، وقد يعثر في المستقبل على كتابات أخرى ، قد تزيد في عدد ما نعرفه من المجموعات اللغوية العربية الجاهلية . وفي ظروف كهذه يكون من الصعب علينا الموافقة على ما يذهب اليه أهل الأخبار وما يذهب اليه التابعون لهم من المحدثين من تنقل الشعر في القبائل ومن توزع الشعراء بين مضر وريبعة وقحطان . والرأي عندي ان من الواجب علينا في الوقت الحاضر لزوم اجراء مسح علمي دقيق لللهجات العرب في جزيرة العرب ، بالبحث في كل مكان عن الكتابات الجاهلية وعن كتابات صدر الاسلام ، وبدراسة كل ما كتبه علماء اللغة عن اللغات العربية في الكتب المعروفة وفي الكتب التي قد تكون مؤلفة بلهجات أهل العربية الجنوبية أو غيرها في الاسلام ، وبدراسة اللهجات الباقية ، ولا سيما اللهجات المنعزلة المتميزة بـمميزات خاصة ، واستنباط مزاياها وعلاقتها باللهجات القديمة ، ثم غربلة كل هذه الدراسات لاستخلاص المجاميع اللغوية منها ، وتحديد المواضع التي كانت تتكلم بهذه المجموعات ، وبذلك نستطيع تكوين رأي عن لغة الشعر ، وعن القبائل التي كانت تتكلم بها ، وصارت لهجتها لهجة الشعر عند ظهور الاسلام .

وأغلب شعراء الجاهلية من أهل الوبر ، أما شعراء أهل المدر فأقل منهم عدداً . ولم يظهر بين شعراء أهل المدر شاعر رفعه علماء الشعر وعشاق الشعر الجاهلي الى

مرتبة الشعراء الفحول من رجال الطبقة الأولى^١ من طبقات الشعراء الجاهليين . وهم يقدمون شعراء البادية على شعراء الأرياف ، ولا سيما شعراء الريف المتصل بالنبط والأعاجم . ولهذا النظرة التي تحمل طابع الغمز في صحة ألسنة عرب الأرياف ، تحفظ أكثر علماء العربية في موضوع جواز الاستشهاد بشعر شعراء الحيرة مثلاً ، لاتصال أهلها بالنبط واختلاطهم بالأعاجم .

١ زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (٧٥ / ١) .

الفصل السابع والخمسون بعد المئة

أوائل الشعراء

يقول علماء الشعر : « لم يكن لأوائل الشعراء إلا الأبيات القليلة يقولها الرجل عند حدوث الحاجة »^١ . ثم تزايد عدد الأبيات وتنوعت طرق الشعراء في نظم الشعر ، بتقدم الزمان ، وبازدياد الخبرة والمران ، وبتقدم الفكر ، فظهرت القصائد المقصدة الطويلة ، التي توتجت بالمعلقات . « قال الأصمعي : أول من يروى له كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً من الشعر مهلهل ، ثم ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم ، ثم ضمرة ، رجس من بني كنانة ، والأصبط بن قريع » . فهؤلاء هم أوائل الشعراء الجاهليين في نظر (الأصمعي) ، ممن نظم كلمة بلغ عدد أبياتها ثلاثين بيتاً فما بعدها . « وقال ابن خالويه في كتاب ليس : أول من قال الشعر ابن خدام »^٢ .

وذكر بعض العلماء ان القصائد انما قصدت ، والشعر انما طول في عهد (عبد المطلب) أو (هاشم بن عبد مناف) ، وذلك يدل على إسقاط عاد وثمود وجبر وتبع^٣ . ولم يذكروا اسم أول من قصد القصائد وطول الشعر ، ولكن رأى معظم علماء الشعر ان « المهلهل ، هو أول من قصد القصائد وأول من قال كلمة تبلغ

١ الشعر والشعراء (٤٨/١) ، (دار الثقافة) ، المزهر (٤٧٤/٢) ، (أولية الشعر) .

٢ المزهر (٤٧٧/٢) .

٣ المزهر (٤٧٤/٢) .

ثلاثين بيتاً من الشعر . وزعم بعضهم ان الأفوه الأودي ، أقدم من المهلهل ، وهو أول من قصد القصيد^١ . واذا ذهبنا مذهب من يقول إن القصائد انما ظهرت في أيام (عبد المطلب) أو (هاشم) ، فيكون ذلك قبل الهجرة بمائة سنة على الأكثر^٢ .

وزعمت بكر بن وائل ان أول من قال الشعر وقصد القصيد ، هو (عمرو بن قتيبة) ، وكان في عصر (مهلهل بن ربيعة) ، وعمر حتى جاوز التسعين . وكان (امرؤ القيس) ، قد استصحبه لما شخص الى قيصر ، فأت في سفره ذلك^٣ .

وذكر (ابن قتيبة) ان من قديم الشعر قول (دويد بن نهد القضاعي) :

اليوم يبني لدويد بيته لو كان للدهر يليّ أبليته
أو كان قرني واحداً كفيتي يارب نهب صالح حويته
وربّ عبل خشن لويته

وذكر من بعده اسم : (أعصر بن سعد بن قيس بن عيلان) ، ثم الحارث ابن كعب^٤ .

ولم يكن المذكورون أول من قصد القصيد ، وتفنن في أبواب الشعر ، وإنما هم أقدم من وصل اسمه الى مسامع علماء الشعر ، فصاروا من ثم أقدم شعراء الجاهلية . وقد نسب الى (زهير بن أبي سلمى) قوله :

ما أرانا نقول إلا معاراً أو معاداً من قولنا مكروراً

وإذا صح ان هذا البيت هو من شعره حقاً ، دلّ على اعتقاد الشاعر ومن كان في أيامه بقدم الشعر ، وبتقدمه وبتطوره ، وبتفنن الشعراء الذين عاشوا قبله ، في طرق الشعر وذهابهم فيه كل مذهب ، حتى صار من جاء بعدهم من الشعراء عالة عليهم فلا يقول إلا معاراً ، أو معاداً من الشعر مكروراً . وإلى هذا المعنى ذهب (عنترة) في قوله :

١ المزهر (٤٧٧/٢) .

٢ الرافعي (١٤/٣) .

٣ المرزباني ، معجم (٣ وما بعدها) .

٤ الشعر والشعراء (٤٨/١) وما بعدها .

هل غادر الشعراء من مترد أم هل عرفت الدارَ بعد توهم

فقد سبق الشعراء (عنترة) في قول الشعر ، وفي الإبداع والتفنن به ، حتى لم يتركوا له شيئاً جديداً ليقوله .

ونجد الشاعر (ليبدأ) ، يشير في شعره الى الشعراء الذين تقدموا عليه ، ويقول عنهم انهم سلكوا طريق مرقش ومهلل ، حيث يقول :

والشاعرون الناطقون أراهم سلكوا طريق مرقش ومهلل^١

ولقد تعرض (الفرزدق) في قصيد له الى من تقدم عليه من الشعراء ، فقال :

وهب القصائد لي التوايحُ إذ مضوا	وأبو يزيد وذو القروح وجروُلُ
والفحل علقمة الذي كانت له	حلل الملوك كلامه لا ينحل
وأخو بني قيسٍ وهن قتلنَه	ومهلل الشعراء ذاك الأول
والأعشيان كلامهما ومرقش	وأخو قضاعة قول يُثْمَلُ
وأخو بني أسدٍ عبيدٌ إذ مضى	وأبو دؤادٍ قوله يتنخل
وابنا أبي سُلمي زهيرٌ وابنه	وابن الفريعة حين جد القول
والجعفريُّ وكان بشر قبله	لي من قصائده الكتابُ المجل
ولقد ورثتُ لآل أوسٍ منطقاً	كالسَّمِّ خالط جانبيه الخنظل
والحارثي أخو الحماس ورثته	صدعاً كما صدع الصفاة المول ^٢

فهؤلاء هم من أقدم الشعراء العرب الذين وصل خبرهم إلينا على وفق هذه الأخبار والروايات . وهم ونقر آخر من أمثالهم قد عاشوا في أيام لا نستطيع أن نبتعد بها عن الاسلام بأكثر من قرن أو قرن ونصف قرن. وقد عسر على الذاكرة حفظ شيء عن أخبارهم وأيامهم ، فلم تذكر عنهم غير أسمائهم وغير شيء يسير جداً عنهم ، وخلا آيات ، لا ندري أي من نظمهم حقاً ، أم هي من نظم

١ البيان والتبيين (١٨٣/٢) .

٢ ديوان الفرزدق (٧٢٠) ، نقاض (٢٠٠) .

من تحدث عنهم ! وعلى موجب روايات أهل الأخبار تكون تلك الآيات أقدم ما عندنا من شعر عربي .

وقد ولع بعض المحدثين على وضع سنين لتثبيت سنين مواليد ووفيات الشعراء ، واكتفى بعضهم بوضع سنين لوفياتهم ، وفعلهم هذا لا يستند الى أساس علمي ، لأننا لا نملك أدلة مقبولة صحيحة ، تحولنا حتى وضع مثل هذه الأرقام ، ثم إن في الكثير من هذا المروي عن حياة الشعراء ما هو غير صحيح ، ولهذا فليس من المعقول أبداً ، وضع سنين لتحديد مواليد ووفيات أولئك الشعراء ، والشيء الوحيد الذي نستطيع فعله هذا اليوم هو أن نشير الى زمان من عاصروهم من الملوك كملوك الحيرة والغساسنة ، فنحن على شيء من العلم بأوقات حكمهم ، وأن نربط بين أيامهم وبين الحوادث الجسام التي أدركوها أو ساهموا فيها .

ونحن لا نستطيع ترتيب الشعراء ترتيباً زمنياً يستند على سنوات الوفيات ، فنقدم شاعراً على شاعر آخر امتداداً الى سنة الوفاة ، لأننا لا نملك نصوصاً فيها سني الوفاة . ثم إن حياة أقدم شاعر جاهلي لا يمكن أن تتجاوز المائة والخمسين سنة عن الاسلام على أكثر تقدير ، وان أكثرهم قد كانوا متعاصرين ، وان بين حياة الشاعر القديم منهم ، وبين الشاعر المتأخر ، فترات غير طويلة ، تتناول على العشرة سنين أو العشرين ، وهي أزمنة لا تعدّ شيئاً بالنسبة الى تاريخ هذا الشعر القصير الأجل .

ويجب ألا نخدعنا بعض العبارات التي نقرأها في كتب الأدب مثل قولهم : « وهو شاعر جاهلي قديم » ، أو « هو شاعر قديم » ، أو « هما قديمان »^١ ، أو « وهو جاهلي قديم »^٢ ، وأمثال ذلك من تعابير تشير الى قدم الشاعر أو الشعراء ، فنأخذها على الصحة ، ونقول بقدم الشاعر ، أو الشاعرين ، أو الشعراء ، فإن أكثر من ذكر أهل الأخبار أنهم من الشعراء القدماء ، هم من الذين كانوا في أيام حكم الملك (عمرو بن هند) ، وقد كان حكم هذا الملك فيما بين السنة (٥٥٤) والسنة (٥٦٩) للميلاد . وإذا ما تذكرنا أن ميلاد الرسول كان في سنة (٥٧٠) أو (٥٧١) للميلاد ، عرفنا إذن أي قدم هو هذا القدم الذي توهموه .

١ الشعر والشعراء (٣٠٢/١) .

٢ الشعر والشعراء (١٩٢/١) (٢٩٤) .

خذ ما قاله (ابن قتيبة) مثلاً عن (زهير بن جناب) سيد (كلب) وهو في نظره من الشعراء المعمرين ، تراه يقول : « وهو جاهلي قديم . ولما قدمت الحبشة تريد هدم البيت خرج زهير فلقي ملكهم ، فأكرمه ووجهه الى ناحية العراق يدعوهم الى الدخول في طاعته ... »^١ . ولو جاريته وأخذنا بصحة الخبر المزعوم ، نكون قد جعلناه حياً في النصف الثاني من القرن السادس للميلاد ، فقدم الحبشة تريد هدم البيت ، كان في عام القيل ، أي سنة (٥٧٠) أو (٥٧١) للميلاد ، أي العام الذي ولد فيه الرسول ، فهل يعد (زهير بن جناب) اذن (جاهلي قديم) ؟ وقد أدرك على حد قول (ابن قتيبة) ميلاد الرسول ؟ ثم خذ ما قاله عن (ابني خذاق) ، تراه يقول : « وهما قديمان ، كانا في زمن عمرو بن هند »^٢ ، ثم خذ ما قاله عن (سلامة بن جندل) ، إذ قال عنه : « جاهلي قديم » ، وجعل أيامه في عهد (عمرو بن هند)^٣ ، وقد عرفنا أيام حكم (عمرو بن هند) .

ثم خذ ما قاله عن (عبيد بن الأبرص) ، تراه يقول : « وكان عبيد شاعراً جاهلياً قديماً من المعمرين ، وشهد مقتل حجر أبي امرئ القيس »^٤ ، أو خذ ما ذكره عن (عمرو بن قبيصة) ، حيث يقول : « وهو قديم جاهلي ، كان مع حجر أبي امرئ القيس »^٥ : بل خذ ما ذكره عن (امرئ القيس ابن حارثة بن الحزام بن معاوية) المعروف بـ (ابن حمام) أو (ابن حزام) ، أو (ابن خذام) ، الذي يقول عنه الشعراء انه أول من بكى الديار عند العرب ، وانه عاش قبل امرئ القيس^٦ ، ترى أهل الأخبار يذكرون انه كان معاصراً للشاعر (المهلهل)^٧ ، خال (امرئ القيس) الكندي . وإذا علمنا ان حكم ملوك كندة للحيرة ، كان ما بين السنة (٥٢٥) والسنة (٥٢٨) للميلاد ، وان وفاة (الحارث) والد (حجر) والد (امرئ القيس) الشاعر الكندي ، أي

-
- ١ الشعر والشعراء (٢٩٤/١) .
 - ٢ الشعر والشعراء (٣٠٢/١) .
 - ٣ الشعر والشعراء (١٩٢/١) .
 - ٤ الشعر والشعراء (١٨٧/١) .
 - ٥ الشعر والشعراء (٢٩٢/١) .
 - ٦ الشعر والشعراء (٦٨/١ وما بعدها) .
 - ٧ الخزائن (٢٣٥/٢) ، (بولاق) .

جد الشاعر ، قد كانت في سنة (٥٢٨) للميلاد ، وان قتل (حجر) قد وقع بعده ، استطعنا الحكم بأن أولئك الشعراء المذكورين قد عاشوا في النصف الأول من القرن السادس للميلاد ، وان حياة أقدم واحد منهم ، لا يمكن أن تتجاوز قرناً واحداً قبل الاسلام ، مهما بالغنا في التقدير .

وأما ما زعمه أهل الأخبار عن بعض أولئك الشعراء ، من أنهم كانوا من المعمرين ، وان منهم من عمر أكثر من ثلثائة سنة ، وان المعمر في نظرهم لا يعدّ معمرأ إلا اذا زاد عمره على المائة والعشرين عاماً ، فأترك أمر تصديقه الى القارئ ، إن شاء أخذ به ، متمنياً له أيضاً عمر المعمرين وزيادة ، وإن شاء رفضه ، أما أنا ، فلست من حزب الذين يعتقدون برأي أهل الأخبار في العمر وفي المعمرين ، ولا أريد أبداً أن أكون من أولئك المعمرين .

وقد قسم (محمد بن سلام) الجمحي المتوفى سنة (٢٣٢) الشعراء الى طبقات ، ضمت كل طبقة جماعة من الشعراء ، رأى أن بينها تشابهاً وتقارباً فجمعهم لذلك في طبقة واحدة ، أما (ابن قتيبة) فقد بدأ بأوائل الشعراء ، وهم : (دويد بن نهد) القضاعي ، ثم (أعصر بن سعد بن قيس بن عيلان) ، ثم (الحارث ابن كعب) ، وقد تحدث عنهم حديثاً قصيراً جداً ، ثم تكلم عن بقية الشعراء ، وعلى رأسهم (امرؤ القيس) فزهير بن أبي سلمى ، ولم يسر في كتابه على طريقة (ابن سلام) في عرضه الشعراء على طبقات ، كما لم يسر على الترتيب الأبجدي لأسماء الشعراء أو على شهرتهم أو كنانهم ، كما سار غيره في مؤلفاتهم عن الشعراء .

وقد سار (جرجي زيدان) على مبدأ تقسيم الشعراء على وفق الأغراض التي نظموا شعرهم بها والتي غلبت طبائعهم عليها . فجعلهم : أصحاب المعلقات ، وعددهم (١٠) ، والشعراء الأمراء ، وجمعهم في (١٤) رجلاً ، والشعراء الفرسان ، وجمعهم (٢٨) ، والشعراء الحكماء ، وحاصلهم (٤) ، والشعراء العشاق وعددهم (٨) ، والشعراء الصعاليك وهم (٧) ، والمقنون ، وهم (١) ، والنساء الشواعر ، وعددهن (٤) ، والمهجاءون ، وعددهم (٤) ، والوصافون للخيال ، وعددهم (٤) ، والموالي ، وعددهم (١) ، وسائر الشعراء وجمعهم (٢٦) ، ومجموع الجميع (١٢١) شاعراً .

وقسم (كارلو نالينو) الشعراء الجاهليين الى أربعة أصناف : الصنف الأول ما نسجه أهل البادية أو من تقرب منهم سواء كانوا وثنيين أم يهود من شعر ، الثاني : أشعار الوثنيين الذين قصدوا ملوك الحيرة وبني غسان وجالسوهم ، الثالث : أشعار النصراني بالحيرة أو في مملكة بني غسان ، الرابع : أشعار أهل الحضرة الوثنيين في مدن الحجاز^١ . وقد أدخل في الصنف الأول : تأبط شرأ والشنفرى وأمثالهم ، لأنهم رجال بادية عوائدهم أقرب للهمجية المحضة منها لأحوال أهل بلد ذات نظام اجتماعي ، فسمّوا (أولئك الرجال) الصماليك^٢ ، وأدخل في هذا الصنف أيضاً أصحاب المعلقات ، وحاتم الطائي ، وعروة بن الورد ، والأفوه الأودي ، ودريد ابن الصمة^٣ . وأدخل في الصنف الثاني (زهير بن جناب) الكلبي ، وطرفة بن العبد ، وهو من أصحاب المعلقات ، وأوس بن حجر ، وبقيّة من كان لهم اتصال بملوك الحيرة والفساسنة^٤ ، وأدخل في الصنف الثالث : أبو دؤاد الإباضي ، وعدي بن زيد العبادي ، وأدخل في الصنف الرابع قيس بن الخطيم ، وأمّية بن أبي الصلت^٥ .

واقدم من ذكرهم علماء الشعر من شعراء أهل الجاهلية : دويد بن نهد القضاعي ، وأعصر بن سعد بن قيس بن عيلان ، والحارث بن كعب^٦ ، والعنبر ابن عمرو بن تميم ، والمستوغر بن ربيعة بن كعب بن نهد ، وزهير بن جناب الكلبي ، وجذعة الأبرش ، ولجيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل ، وابن حذام^٧ ، والأفوه الأودي ، وذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم ، وضمرة ، رجل من كنانة ، والأضبط بن قريع . وقيل : « أول من قال الشعر ابن حذام »^٨ .

ولهؤلاء البيت والبيتان والأبيات ، ولم ترد لهم قصائد ، لأن أول من قصد القصائد ، ووضع القصيد هو المهلهل ، على ما يزعمه أهل الأخبار .

-
- ١ كارلو نالينو ، تاريخ الاداب العربية (٧١) .
 - ٢ المصدر نفسه (ص ٧٢) .
 - ٣ كذلك (ص ٧٤ وما بعدها) .
 - ٤ كذلك (ص ٨١) .
 - ٥ كذلك (ص ٩٢ وما بعدها) .
 - ٦ الشعر والشعراء (٤٨/١ وما بعدها) .
 - ٧ المزهر (٤٧٥/٢ وما بعدها) .
 - ٨ المزهر (٤٧٧/٢) .

وقد قدم (ابن قتيبة) (دويد بن نهد) القضاعي على سائر الشعراء ، وقال : « لم يكن لأوائل الشعراء إلا الآيات القليلة يقولها الرجل عند حدوث الحاجة . فن قديم الشعر قول دويد بن نهد القضاعي :

اليوم بيني لدويد بيته لو كان للدهر بلى أبليته
أو كان قرني واحداً كفيته يا رب نهب صالح حويته
ورب عبل خشن لويته ^١

وقال بعد ذلك : « وقال الآخر :

أتقى عليّ الدهر رجلاً ويدا والدهر ما أصلح يوماً أفسدا
يصلحه اليوم ويفسده غدا ^٢

وهو رجز نسبة (ابن سلام) وغيره لدويد نفسه ^٣ .

وزعم أهل الأخبار انه لما حضرته الوفاة ، جمع آله ، وقال يوصيهم : « أوصيكم بالناس شراً ، لا ترحموا لهم عبدة ، ولا تقيلوهم عبثاً ، قصّروا الأعنة وطولوا الأسمنة ، واطعنوا شزراً ، واضربوا هرباً .. » الى آخر وصيته ، ثم قال :

اليوم بيني لدويد بيته يا رب نهب صالح حويته
ورب قرن بطل أرديته ورب غيل حسن لويته
ومعصم مخضب ثنيته لو كان للدهر بلى أبليته
أو كان قرني واحداً كفيته ^٣

١ الشعر والشعراء (٤٨/١) ، (الثقافة) ، ابن سلام ، طبقات الشعراء (٢٧) ، السجستاني ، المعرون (١٩) ، ابن سلام ، طبقات (١١) ، (طبعة ليدن) ، المزهر (٤٧٥/٢) .

٢ الشعر والشعراء (٤٨/١) ، (حاشية رقم ٣) ، وورد :
يفسد ما أصلحه اليوم غدا

أمالى المرتضى (٢٣٧/١) .

٣ الشعر والشعراء (٤٨/١) ، (حاشية رقم ٣) .

٤ أمالى المرتضى (٢٣٧/١) ، وروى على هذه الصورة :

اليوم بيني لدويد بيته لو كان للدهر بلى أبليته
أو كان قرني واحداً كفيته يا رب نهب صالح حويته
ورب غيل حسن لويته ومعصم مخضب ثنيته
تاج العروس (٣٤٧/٢) ، (داد) ، المزهر (٤٧٥/٢) .

وهو كلام يشعرك أنه نص لوصية الشاعر، ضبط ضبطاً ، يشعرك أن ضابطه كان حاضراً إذ ذاك ، وأنه سجله سجل المسجل للصوت ، حتى وصل إلينا أصيلاً كاملاً لا تغير فيه ولا تحوير . أما رأيي فيه ، فهو أنه من هذه النصوص الكثيرة التي وضعها أهل الأخبار على ألسنة المتقدمين عليهم ، والتي لا يمكن أن يركن إليها ، ولا أن يؤخذ بها ، ومن في استطاعته إثبات أنه نص أصيل ، وليس لديه دليل قطعي يثبت تلك الإصالة .

ومن قدماء الشعراء : (أعصر بن سعد بن قيس عيلان) ، وهو (منبه بن سعد) أبو باهلة وغني والطفافة . وهو القائل :

قالت عميرة ما لرأسك بعد ما فقد الزمان أتى بلون منكـر
أعـمـير إن أبـاك شـيـب رأسه كر الغداة واختلاف الأعصر^١

وذكر (ابن قتيبة) بعد (أعصر) اسم (الحارث بن كعب) وقال عنه :
« وكان قديماً » ، وروى له هذه الأبيات :

أكلت شبابي فأفنته وأفنت بعد شهور شهوراً
ثلاثة أهلين صاحبتهُم فبانوا وأصبحت شيخاً كبيراً
قليل الطعام عسير القيس م قد ترك القيد خطوي قصيراً
أبيت أراعي نجموم السماء أقلب أمري، بطونا ظهوراً^٢

والحارث بن كعب ، هو (الحارث بن كعب بن عمرو بن وعلة بن خالد ابن مالك بن أدد) المذحجي ، وهو من المعمرين ، وقد نسبوا له وصية زعموا أنه لما حضرته الوفاة ، جمع ولده ، فخطبهم يوصيهم ، وكان مما جاء فيها أنه على دين (شعيب) النبي ، « وما عليه أحد من العرب غيري ، وغير (أسد بن

١ المزهري (٢/ ٤٧٥) ، الشعر والشعراء (١/ ٤٨ وما بعدها) ، (الثقافة) ، ابن سلام ، طبقات (٢٨) .

قالت عميرة ما لرأسك بعدما فقد الشباب أتى بلون منكـر
أعـمـير إن أبـاك شـيـب رأسه مر الليالي واختلاف الأعصر
الشعر والشعراء (١/ ٤٩) .

٢ الشعر والشعراء (١/ ٤٩) .

خزيمة (و (نعيم بن مرة) ، ثم أوصاهم بوصيته ، على الطريقة المألوفة التي نراها في الرصايا التي تنسب في العادة الى المعمرين ، ثم ختمها بإنشاده الأبيات المذكورة^١ .

(المستوغر بن ربيعة بن كعب بن نهد) ، من قدماء المعمرين ، بقي بقاء طويلاً حتى قال :

ولقد سئمت من الحياة وطولها وازددت من عدد السنين مثينا
مائة أنت من بعدها مائتان لي وازددت من عدد الشهور سنينا^٢

وذكر (ابن دريد) ان (المستوغر) عاش ثلثاية وعشرين سنة ، ولقب (المستوغر) لقوله :

يش الماء في الرّبلاتِ منها نشيش الرضف في اللبن الوغير^٣

وذكر انه أدرك الاسلام ، أو كاد يدرك أوله . ونسبوا له قوله :

إذا ما المرء صمّ فلم يكلم وأودى سمعه إلا ندايا
ولاعب بالعشيّ بني بنه كفعل الهرّ يحترش العظايا
يلعبهم وودّوا لو سقوه من اللّيفان مّرعة ملايا
فلا ذاق النعيم ولا شرباً ولا يشفى من المرض الشفايا^٤

وزعم « ان المستوغر مرّ مرة بعكاظ يقود ابن ابنه خرقاً ، فقال له رجل :

١ أمالي المرتضى (٢٣٢/١) .

٢ ولقد سئمت من الحياة وطولها وعمرت من عدد السنين مثينا
مائة حدتها بعدها مئتان لي وازددت من بعد الشهور سنينا
هل ما بقي الا كما قد فاتني يوم يمر وليلة تحدونا
الشعر والشعراء (٣٠٠/١) .

المزهر (٤٧٥/٢) ، (وهو عمرو بن ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم
ابن حر بن اد بن طابخة بن الياس بن مضر) ، أمالي المرتضى ، (٢٣٤/١) ،
المعمرون (٧) ، المرزباني ، معجم (٣١٣) .

٣ الاشتقاق (١٥٤/١) ، الشعر والشعراء (٣٠٠/١) .

٤ أمالي المرتضى (٢٣٥/١) ، ابن سلام ، طبقات (٣٠) .

يا عبدالله أحسن اليه، فطالما أحسن اليك ! قال : أو تدري من هو ؟ قال : نعم هو أبوك أو جلك ، قال : هو والله ابن ابني ! قال الرجل : لم أرَ كالיום في الكذب ولا مستوغر بن ربيعة !! قال : فأنا المستوغر بن ربيعة . . قال أبو عمرو بن العلاء : عاش المستوغر ثلاث مائة سنة وعشرين سنة ^١ .

وقد ذكره (ابن حجر) في الصحابة ، وقال عنه : « المستوغر، بعين مهملة ثم زاي ، ابن ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم السعدي، أبو يهيس، واسمه عمرو ، والمستوغر لقب . . وكان من فرسان العرب في الجاهلية ، وقال (المرزباني) انه عاش في أيام معاوية ، ويقال مات في صدر الاسلام ^٢ . والأغلب ان وفاته كانت قبل الاسلام ، وانه لا يمكن لذلك عدّه في الصحابة .

والأفوه الأودي ، هو (صلاة بن عمرو بن مالك) من (ملحج) ، وملحج من اليمن ، فهو من البانين ، وكان من سادات قومه وقائدهم في حروبهم ، وكانوا يصلدون عن رأيه ، والعرب تعدّه من حكمائها ، بما اشتمل عليه شعره من الحكمة ^٣ . وقد اشتهر بقصيدته :

فينا معاشر لم يبنوا لقومهم	وان بنى قومهم ما أفسدوا عادوا
لا يرشدون ولن يرعوا المرشدهم	فالجهل منهم معاً والغنى ميعاد
أضحوا كقيل بن عمرو في عشيرته	إذ أهلك بالذي سدّى لها عاد
أو بعده كقذار حين تابعه	على الغواية أقوامٌ فقد بادوا
والبيت لا يبتنى إلا له عمدٌ	ولا عماد إذا لم ترس أوتادُ
فلن تجمع أوتادُ وأعمدة	وساكن بلغوا الأمر الذي كادوا
وإن تجمع أقوام ذوو حسب	اصطاد أمرهم بالرشد مصطادُ
لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم	ولا سراة إذا جهّالهم سادوا
تبقى الأمور بأهل الرأي ماصلحت	فلن تولت فبالأشرار تنقاد

١ الشعر والشعراء (٣٠١/١) ، الاصابة (٤٦٨/٣) ، (رقم ٨٤٠٧) .

٢ الاصابة (٤٦٨/٣) ، (٨٤٠٧) .

٣ الشعر والشعراء (١٤٩/١) ، الاغانى (٤١/١١) ، العيني (٤٢١/١) ، تاج العروس (٤٠٥/٩) ، (فوه) ، معاهد التنصيص (١٥٩/٢) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١١٧/١) .

إذا تولى سراة القوم أمرهم فما على ذلك أمر القوم فازدادوا
 إمامة الغي أن يلتقى الجميع للذي الإبرام للأمر والأذئاب أكساد
 حان الرحيل إلى قوم وان بعدوا فيهم صلاح لمرئاد وارشاد
 فسوف أجعل بعد الأرض دونكم وإن دنت رحم منكم وميلاد
 إن النجاء إذا ما كنت ذا فقر من أجة الغي لبعاد فابعد
 فالخير تزداد منه ما لقيت به والشر يكفك منه قلما زاد

وقد رويت بعض الأبيات بصور مختلفة . فلاين دريد ، قراءة ، ولأبي بكر
 ابن الأنباري قراءة . وقد نص (القالى) على القرائتين^١ ومن أبياتها :

كيف الرشاد إذا ما كنت في فقر لهم عن الرشاد أغلال وأقياد
 أعطوا غواتهم جهلاً مقادتهم فكلهم في حبال الغي متقباد^٢

وله قصيدة تعد من جيد شعره ، أولها :

إن ترى رأسي فيه نزع وشواي خلّة فيها دوار
 إنما نعمة قوم متعة وحياة المرء ثوب مستعار
 ولياليه إلال للقوى ومدى قد تجتليها وشفار
 وصروف الدهر في أطباقه خلقة فيها ارتفاع وانحدار
 بينا الناس على عليائها إذ هروا في هوة منها فغاروا^٣
 حتم الدهر علينا أنه ظلّف ما نال منا وجبار

وهو القائل :

والمرء ما يصلح له ليلة بالسعد تُفسدُه ليالي النحوس
 والخير لا يأتي ابتغاء به والشر لا يفتنيه صرح الشمس^٤

١ الامالي (٢٢٤/٢ وما بعدها) ، العقد الفريد (٥/١) ، الشعر والشعراء (١٤٩/١) .

٢ بلوغ الأرب (١٠٦/٣) .

٣ بلوغ الأرب (١٠٥/٣ وما بعدها) .

٤ الشعر والشعراء (١٤٩/١) .

وله ديوان مطبوع^١ .

وذكر ان النبي نهى عن إنشاد قصيدة الأفوه :

إن ترى رأيي فيه نزع وشواي خلة فيها دوار

وذلك لزود ذم فيها لبني هاجر مثل قوله :

يا بني هاجر ، ساءت خطة أن تروموا النصف منا ونجار
ان يجل مُهْري منكم جولة فعليه الكر فيكم والغوار
نحن أود ، ولأود سنة شرف* ليس لنا عنها قصار
سنة أورثناها مذحج* قبل أن ينسب للناس نزار^٢

وهي قصيدة يمانية ، فيها تعصب ليعن ، وتهجم على (نزار) أبناء هاجر ، أي العدنانيين ، ولهذا ذكر الرواة ان النبي نهى عن روايتها ، وهي من موضوعات الصراع القحطاني التزاري المعروف ، أرادت التزارية طمسها ، فروت ان النبي نهى عن روايتها ، والنهي والقصيدة - في نظري - من المصنوعات التي ظهرت بعد وفاة النبي ، وأسلوب نظم القصيدة يتجسس على أصالتها ، يتحدث انه من النظم الاسلامي .

وأورد (المعري) له هذا البيت :

كشهاب القذف يرميكم به فارس* ، في كفه للحرب نار

وهو بيت من (رائيته) التي يعدونها من أجود الشعر العربي^٣ .

وهي قصيدة يقول عنها (الجاحظ) : « وما وجدنا أحداً من الرواة يشك في أن القصيدة مصنوعة »^٤ .. ونظراً لإشارة (الجاحظ) إليها ، فإن صنعها يجب

-
- ١ طبعه عبد العزيز الميمني في الطرائف الادبية ، (القاهرة ١٩٣٧ م) ، بروكلمن .
تاريخ الادب العربي (١١٧/١) .
 - ٢ راجع ديوانه ، (القاهرة ١٩٣٧ م) .
 - ٣ رسالة الغفران (٢٩٧) ، (رقم الحاشية ٥) .
 - ٤ الحيوان (٢٨٠/٦) ، النوادر (١٦٩/١) ، معاهد التنصيص (٩٥/٤) .

أن يكون قبل أيامه، في الإسلام على أثر ظهور العصبية النزارية في أيام الأمويين ،
فوضعها أحدهم على لسان الأفوه في التعريض بالتزاريين .

ونسب (الجاحظ) له قوله :

أضحت قُرينةٌ قد تغير بشرها ونجّمت بتحية القوم العدا
ألوت بإصبعها وقالت إنما يكفيك مما لا ترى ما قد ترى^١

كما نسب له قوله :

تهنا للعلبة بن قيس جفنة يأوي إليها في الشتاء الجوع
ومذائب لا تستعار وخيمة سرداء عيب نسيجها لا يُرفع
وكانما فيها المذائب حلقة وذم الدلاء على دلوج تترع^٢

وقد نسبت إليه أبيات ورد فيها ذكر (التبابعة والمثامنة وأولاد نوح : سام
وحام ويافث) ، هي :

فلو دام الخلود إذن جدودي	وأسلافي بنو قحطان داموا
ودام لهم تبابعهم ملوكاً	ولم تمت المثامنة الكرام
وعاش الملك ذو الأذعار عمرو	وعمره حوله اللجب ^٣ اللهم
ونخلد ذو المنار وما تردى	أبوه الرائش الملك الهام
ملوك أدّت الدنيا إليها	أناوتها ودان لها الأنام
ولما يعصها سام وحام	ويافث حيث ما حلت ولام ^٤

ونسبت إليه أبيات في مدح (ملحق) ، وفي الاشادة بكرمها ، أولها :

نعظم النار إذ النار التي شبتها عنس خبت أو صعصعة^٥

والشعر المتقدم من الشعر المصنوع ولا شك، وضعه قوم من المتعصبين للقحطانية
على التزاريين ، أي العدنانيين .

١ البيان والتبيين (١٩٧/١ وما بعدها) .

٢ البخلاء (٢٢٣ وما بعدها) .

٣ تاريخ ملوك العرب الاولى (٢٨ وما بعدها) .

٤ المصدر نفسه (ص ١٣٧) .

ومن الشعراء القدماء : (زهير بن جناب) الكلبي ، سيد بني كلب وقائدهم ، وكان شجاعاً مظفراً ميمون النقيبة في غزواته^١ . ذكر انه لما قدمت الحبشة تريد هدم البيت خرج (زهير) فلقبي ملكهم ، فأكرمه ووجهه الى ناحية العراق يدعوهم الى الدخول في طاعته ، فلما صار في أرض (بكر بن وائل) لقيه رجل منهم فطعنه ، لكنه نجا وفر هارباً ، وعمر طويلاً . وقد مات منتحراً . شرب الخمر صرفاً حتى قتلته . وفي الشعر المنسوب اليه ما يشك بصحة نسبته اليه . وقد ذكر انه كان في أيام (داوود بن هبالة) ، الذي كان أول ملك للعرب في بلاد الشام ، فغلبه ملك الروم على ملكه ، فصالحه داوود على أن يقره في منزله ويدعه فيكون تحت يده ، ففعل . فكان يغير بمن معه ، ثم تنصر وكره الدماء وبني ديراً ، سمي (دير اللث) ، وأنزله الرهبان . ثم ان ملك الروم طلب منه أن يغزو بمن معه من العرب ، ففعل وكان معه في جيشه زهير بن جناب . فقتل زهير بن جناب (هذاج بن مالك) سيد عبد القيس ، فتواعد رجلان من قبضاعة على قتل (داوود) ، وكان اذا سار ليلاً ، سار وأمامه شمعة ، فقتلاه^٢ :

« قال أبو حاتم : عاش زهير بن جناب مائتي سنة وعشرين سنة ، وأوق مائتي وقعة ، وكان سيداً مطاعاً شريفاً في قومه ، ويقال : كانت فيه عشر خصال لم يجتمعن في غيره من أهل زمانه ، كان سيد قومه ، وشريفهم ، وخطيبهم وشاعرهم ، ووافدهم الى الملوك ، وطبيبهم - والطب في ذلك الزمان شرف - وحازي قومه - والحزاة الكهان - وكان فارس قومه ، وله البيت فيهم ، والعدد منهم » .

ونسبوا له وصية ، ذكروا أنه أوصى بها بنيه حين حضرته الوفاة ، وذلك على طريقتهم عند تحذثهم عن المعمرين .
وقد أورد أهل الأخبار له شعراً ، في العمر وفي النساء وفي مخاطبة أولاده^١ .
وقد نسبوا له هذا الشعر :

١ الاغاني (٩٣/٢١ وما بعدها) ، ابن سلام ، طبقات (٣٠) ، جمهرة ابن حزم (٤٢٦) ، المؤلف (١٣٠) ، المجسر (٢٥٠) ، المعمرين (٢٤) ، الشعراء والشعراء (٢٩٤/١) وما بعدها) ، كارلو نالينو ، تاريخ الاداب العربية (٨٢) ، المزهر (٤٧٥/٢) وما بعدها) .

٢ أسماء المفتالين (١٢٧) .

٣ أمالي المرتضى (٢٣٨/١) وما بعدها) .

لقد عُمِّرْتُ حتى لا أبالي أحضني في صباحي أو مساءي
 وحق لمن أتت مائتان عاماً عليه أن يعمل من الثواء
 شهدتُ الموقدين على خزازي وبالسلان جمعاً ذا زُهاء
 ونادمت الملوك من آل عمرو ويعدهم بني ماء السماء^١

ومن جيد شعره قوله :

ارفع ضعيفك لا تحربك ضعفه يوماً فتدركه عواقبُ ما جنى
 يحزبك أو يُثني عليك ، وإن من أثني عليك بما فعلت كمن جزى

وهو شعر نسبه (ابن قتيبة) إليه ، غير أن من العلماء من نسبه لورقة بن نوفل ، ومنهم من نسبه لغريص اليهودي ، وقيل لابنه (سعية) ، ومنهم من نسبه لشعراء آخرين^٢ .

أما المهلهل ، فهو امرؤ القيس بن ربيعة بن مرة بن الحارث بن زهير بن جشم ، وانما سُمي مهلهلاً لبيت قاله لزهير بن جناب الكلبي :

لما توعر في الكراع هجينهم هلهلتُ أثار جابراً أو صنبلاً

وقيل ان اسمه كان عدياً ، وقد ذكره (امرؤ القيس) في شعره^٣ . ولقب مهلهلاً لطيب شعره ورقته ، أو لأنه أول من أرق المراثي ، أو لأنه أول من قصّد القصائد ، وقال الغزل ، ف قيل : هلهل الشعر أي أرقه^٤ . وفيه يقول الفرزدق :

١ المصرون (٢٦ وما بعدها) .

٢ الشعر والشعراء (٢٩٦/١) ، (حاشية رقم ٧) .

٣ رفعت رأسها الي وقالت يا عدياً لقد وقتك الاواقي
 ضربت صدرها الي وقالت يا عدي لقد وقتك الاواقي
 وقال الصاغاني في التكملة : وليس البيت لمهلهل وانما هو لأخيه عدي ، ويروي البيت : ضربت صدرها ، (السيوطي شرح شواهد المغني ٦٥٦) ، (حاشية ٤) ، الخزانة (٣٠٠/١) ، (بولاق) ، الاغاني (١٣٩/٤) .

ضربت صدرها الي وقالت يا امرأ القيس حان وقت الفراق
 ٤ السيوطي ، شرح شواهد (٦٥٦/٢ وما بعدها) .

ومهلهل الشعراء ذاك الأول^١

وزعم انه كان به خنث^٢ . وهو أخو (كليب وائل) الذي هاجت بمقتله
حرب بكر وتغلب . وهو جدّ (عمرو بن كلثوم) ، أبو أمه (ليل) ، ونخال
امرىء القيس الشاعر^٣ .

وقد تطرق (المعري) في (رسالة الغفران) الى سبب اشتهار (المهلهل)
بهذا النعت ، فجعل أحد الأشخاص يسأله : « أخبرني لم سميت مهلهلاً ؟ » فقد
قيل ، : إنك سميت بذلك ، لأنك أول من هلهل الشعر ، أي رققه^٤ :

فيقول : إن الكذب لكثير . وإنما كان لي أخ يقال له امرؤ القيس ، فأغار
علينا زهير بن جناب الكلبي ، فتنبعه أخي في زرافة من قومه ، فقال في ذلك :

لما توكل في الكراع هجينهم هللت أثار مالكا أو صنبلا
وكانه باز عاتيه كبرة يهدي بشكته الرعيل الأول^٥ ،

وقد أورد (المعري) له بيتاً ، هو أول بيت من قصيدة تنسب اليه ، هو .

أليتنا بلذي حُسم انيرى إذا أنت انقضيت فلا تحوري^٥
فإن يك بالذنائب طال ليل فقد أبكى من الليل القصير

وأورد له بيتاً آخر هو :

أرعدوا ساعة الهياج وأبرق لنا كما توعّد الفحول الفحولا

وذكر أن (الأصمعي) كان ينكره ويقول : إنه مولد . وكان أبو زيد

١ ديوان الفرزدق (٧٢) ، الشعر والشعراء (٢٥٦) ، (٢١٥ / ١) ، (الثقافة) ،

ديوان الفرزدق (١٥٩ / ٢) .

٢ الشعر والشعراء (٢١٥ / ١) ، (الثقافة) ، الخزائن (١٦٤ / ٢) ، (هارون) .

٣ الشعر والشعراء (٢١٥ / ١) ، (الثقافة) ، الخزائن (١٦٤ / ٢) ، (هارون) ،

ابن سلام ، طبقات ٣٣ وما بعدها) ، الاغاني (١٤٠ / ٤) ، المرباني ، معجم
(٢٤٨) ، اللآلئ (١١١) ، الاغاني (٣٤ / ٥) ، (دار الكتب) ، الاصمعيات (١٧٤) .

٤ رسالة الغفران (٣٥٤) .

٥ رسالة الغفران (٣٥٣) .

يستشهد به ويشتهر^١ .

« وزعم الرواة ان الشعر كله انما كان رجزاً وقطعاً ، وانه انما قصّد على عهد هاشم بن عبد مناف ، وكان أول من قصّده مهلهل وامرؤ القيس ، وبينهما وبين مجيء الاسلام مائة ونيف وخمسون سنة . ذكر ذلك الجهمحي وغيره^٢ ، وقيل انه كان أول شاعر بلغت قصائده ثلاثون بيتاً من الشعر ، فاحتذى من جاء بعده حذوه . وان أول قصيدة قالها كانت في قتل أخيه كليب^٣ . وانه كان أول من كذب في شعره ، بقوله :

فلولا الريحُ أسمعَ من بُحْجَرٍ صليلَ البيضِ تقرع بالذكور

ويذكرون ان هذا البيت هو من أول كذب العرب ، وكانت العرب قبل ذلك لا تكذب في أشعارها ، وكان بين الموضع الذي كانت فيه هذه الواقعة وهي بالجزيرة وبين حجر وهي قصبة اليامة مسافة بعيدة ، فأخرج هذا الشاعر بقوة منته وقفاذ فطلته الى معنى آخر مستظرف في بابهِ^٤ . وقد اتهمه البعض بأنه كان يتكبر ويدعي قوله بأكثر من فعله^٥ .

وزعم انه أحد البغاة ، لقوله :

قل لبني حصنٍ يردّونه أو يصبروا للصيلم الخنْفَقِيقِ
من شاء دلى النفس في هوة ضنكٍ ، ولكن من له بالمضيق^٦

أمرهم ان يردّوا كليلاً وقد قتل ، وأعلمهم انه لا يرضى بشيء غير ذلك .

١ رسالة الغفران (٣٥٤) .

٢ العمدة (١٨٩/١) ، (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) .

٣ زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (٦٧/١) ،

ولولا الريح أسمع أهل حجر صليل البيض تقرع بالذكور
الشعر والشعراء (٢١٦/١) ، (الثقافة) ، البيان والتبيين (١٢٤/١) ، الحيوان (٤١٨/٦) ، العمدة (٥٠/٢) ، الاغانى (١٤٦/٤) ، المرزبانى ، معجم (٣٣١) ، نقد الشعر ، لقدماء (٨٤) ، الموشح (٧٤) .

٤ زهر الاداب (٢٣٤/١) ، الشعر والشعراء (٢١٦/١) ، الاغانى (١٥٢/١٤) ، خزانة الادب (٣٠٢/١ وما بعدها) .

٥ السيوطي ، شرح (٦٥٧/٢) .

٦ الشعر والشعراء (٢١٦/١) ، (الثقافة) .

وهو أحد أصحاب المستقيات السبع ، المدوّنة في كتاب : (جمهرة أشعار العرب) .

وقد ذكره (لييد) في شعره ، فجعله و (مرقشاً) من الشعراء الذين مهدوا السبيل لمن جاء بعدهم في نظم الشعر ، فالشاعرون الناطقون الذين جاؤا بعدهما إنما سلكوا دروبهما في نظم الشعر :

والشاعرون الناطقون أراهم سلكوا سبيل مرقش ومهلل^١

وكان مهلل القائم بالحرب ورئيس تغلب ، فلما كان يوم قضة ، وهو آخر أيامهم ، وكان على تغلب ، أسر (الحارث بن عباد) مهللاً وهو لا يعرفه ، فقال له الحارث : تدلني على عدي بن ربيعة المهلل وأنت آمن ؟ فقال له (المهلل) : ان دلتك على عدي فأنا آمن ولي دمي ؟ قال : الحارث : نعم ، قال : فأنا عدي افجز ناصيته وخلاؤه ، وقال : لم أعرف . وفي ذلك يقول الحارث بن عباد :

لَهْفَ نَفْسِي عَلَى عَدِيٍّ وَلَمْ أَعْرِفْ عَدِيًّا إِذْ أَمَكْتَنِي الْيَدَانِ
طُلٌّ مِنْ طُلٍّ فِي الْحُرُوبِ وَلَمْ يَطْلُلْ قَتِيلَ أَبَاتِهِ ابْنُ أَبَانَ^٢

ثم خرج (مهلل) فلقى باليمن ، فترّل في (جنب)^٣ ، فخطب إليه رجل منهم ابنته ، فقال : إني طريد غريب فيكم ، ومتى أنكحتكم قال الناس اعتسروه ، فأكرهوه حتى زوّجها ، وكان المهر أدماً ، فقال :

أَنْكَحَهَا فَقَدُّهَا الْإِرَاقِمَ فِي جَنْبٍ ، وَكَانَ الْحَبَاءُ مِنْ أَدَمٍ
لَوْ بِأَبَانَيْنِ جَاءَ يَخْطُبُهَا رُمْلٌ مَا أَنْفَ خَاطِبٍ بِلَمٍ

ثم انحدر ، فلقيه (عوف بن مالك بن ضبيعة) ، وهو أبو أسماء صاحبة

١ ديوان لييد (٢٧٦) ، (٣٩) ، البيان والتبيين (١٨٣ / ٢) .

٢ الشعر والشعراء (٢١٦ / ١) وما بعدها .

٣ حي من اليمن .

المرقش الأكبر ، فأسره فذات في أساره^١ . وللأخباريين قصص عن كيفية موته^٢.

ونسبوا له قصيدة رثى بها أخاه كليياً ، بقوله :

أبليتنا بذني حُسْمٍ أنبري إذا أنت انتقضيتِ فلا نحوري

وفيها :

على أن ليس عدلاً من كليب إذا طرد اليتيم عن الجزور
على أن ليس عدلاً من كليب إذا ما ضيم جيران المجبر
على أن ليس عدلاً من كليب إذا رجف العضاه من الدبور
على أن ليس عدلاً من كليب إذا خرجت شجأة الخلدور
على أن ليس عدلاً من كليب إذا ما أعلنت نجوى الأمور
على أن ليس عدلاً من كليب إذا خيف المخوف من الثغور
على أن ليس عدلاً من كليب غداة ثلاثل الأمر الكبير
على أن ليس عدلاً من كليب إذا ما خام جار المستجير^٣

وأورد المرتضى (مروية) للبي الأخيلىة رثت فيها : ثوبة بن الحمير ، لها أسلوب خاص في الرثاء ، حيث ترد جملة : (لنعم الفتى) و (نعم الفتى) في أوائل أربعة أبيات من القصيدة ، تلتها : لعمرى لأنت المرء أبكي لفقده ، أربع مرات مكونة الأنصاف الأولى من الأبيات ، ثم : أبى لك ذم الناس يا ثوب كلما ، مرتين ، ثم : فلا يبعدنك الله يا ثوب انما ، ثم : ولا يبعدنك الله يا ثوب انها ، مرة ، ثم : ولا يبعدنك الله يا ثوب والتقت . فخرجت من تكرار الى تكرار لاختلاف المعاني^٤ .

وروى قصيدة أخرى لابنة عم للنعمان بن بشير رثت فيها زوجها ، أنصاف أبياتها الأولى : وحدثني أصحابه ان مالكا ، أما القافية فهي على اللام^٥ .

١ الشعر والشعراء (٢١٦/١ وما بعدها) ، الخزائن (١٧٣/٢) .

٢ أسماء المقتالين (٢٠٨) .

٣ أمالي المرتضى (١٢٣/١ وما بعدها) .

٤ أمالي المرتضى (١٢٤/١ وما بعدها) .

٥ أمالي المرتضى (١٢٦/١) .

ومن معاصري (مهلهل) الشاعر (امرؤ القيس بن حمام بن عبيدة بن هبل) ابن أخي (زهير بن جناب بن هبل) ، وزعم بعضهم أنه الذي غنى (امرؤ القيس) بقوله : نبكي الديار كما يبكي ابن خدام . وكان مهلهل تبعه (يوم الكلاب) فقاته ابن حمام بعد أن تناوله (مهلهل) بالرمح . وكان (ابن حمام) أغار على (بني تغلب) مع زهير بن جناب فقتل جابراً وصنبلاً . وفيها يقول مهلهل :

لما توعر في الكلاب هجينهم هلهلتُ أثار جابراً أو صنبلاً

و (امرؤ القيس بن حارثة بن الحُمام بن معاوية) ، أو (امرؤ القيس بن حارثة بن خدام بن معاوية) على رواية أخرى ، أو (ابن خدام) ، أو (ابن خدام) ، هو شاعر سبق (امرؤ القيس) الكندي في البكاء على الديار وتذكر الأطلال ، استنتجوا ذلك من شعر ينسب لامرئ القيس ، هو :

يا صاحبيّ قفا النواعج ساعة نبكي الديار كما يبكي ابن حمام

أو (ابن خدام) في رواية (أبي عبيدة) .

ومن بيت آخر هو :

عوجا على الطلل المحيل، لعلنا نبكي الديار كما يبكي ابن خدام^١

وابن (خدام) ، و (ابن حمام) ، و (ابن حزام) و (ابن خدام) ، اسم الشاعر ، وهو اسم واحد، تحرف بالرواية والنسخ ، فصار على هذه الصور . ومن شعراء ربيعة (سعد بن مالك) ، الذي يقول :

يا بؤس للحرب التي وضعت أراهم فاستراحوا^٢

١ الخزانة (٢٣٥/٢) ، (بولاق) .

٢ الشعر والشعراء (٦٨/١ وما بعدها) ، المزهر (٢٣٨/٢) ، عوجا على الطلل المحيل ، لاننا نبكي الديار كما يبكي ابن خدام الآمدي ، المؤلف (١٠٩) ، ديوان امرئ القيس (١١٤) ، المزهر (٤٧٧/٢) ، بروكلمن (٦٠/١) .

٣ السيوطي ، شرح شواهد (٦٥٧/٢) .

قال هذا البيت في قصيدة يعرض فيها ب (الحارث بن عباد بن هبيعة بن قيس بن ثعلبة) من حكام (ربيعة) وفرسانها المعلومين ، وكان اعتزل حرب (بني وائل) وتتحى بأهله وولده وولد اخوته وأقاربه ، وحل وتر قوسه ، ونزع سنان رمح ، ولم يساهم في الحرب التي هاجت بين بكر وتغلب ابني وائل ، وهي حرب البسوس :

وسعد ، هو (سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر وائل) . وكان أحد سادات بكر بن وائل وفرسانها في الجاهلية . وكان شاعراً ، وله أشعار جياذ في كتاب بني قيس بن ثعلبة ^١ .

وفي رواية تنسب الى (دغفل) النسابة انه كان جد (طرفة بن العبد) ^٢ . وطرفة ، هو : (عمرو بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس ابن ثعلبة) ^٣ ، وإذا أخذنا بهذا النسب نرى ان (سعد بن مالك) ، هو جد (العبد) والد (طرفة) . وإذا أخذنا برواية من جعل نسب الشاعر (عمرو بن قيثة) على هذه الصورة : (عمرو بن قيثة بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس ابن ثعلبة) ، فيجب عدّه ابناً من أبناء (سعد بن مالك) ، أما إذا اعتبرنا نسبه على هذه الصورة : (عمرو بن قيثة بن ذريح بن سعد بن مالك) ، فنكون بذلك قد جعلناه حفيداً له ، ويكون (ذريحاً) ابناً من أبناء هذا الشاعر ^٤ .

ويظهر من نسب المرقش الأكبر ، وهو (ربيعة بن سعد بن مالك) ، ويقال : « بل هو عمرو بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة » ^٥ ، أنه كان ابناً ، لسعد بن مالك ، الشاعر الذي نتحدث عنه ، وإذا ذهبنا مذهب من يقول ان المرقش الأصغر كان أخاً للمرقش الأكبر ، فيكون بذلك ابناً من أبناء (سعد ابن مالك) ، وأما إذا أخذنا برواية من يذكر أنه كان ابن أخي المرقش الأكبر ، وانه (عمرو بن حرملة) ، أو (ربيعة بن سفيان) فيكون ابن ابن (سعد بن

١ الخزائن (١/٢٢٣ وما بعدها) .

٢ ذيل الامالي (ص ٢٦) .

٣ شرح القصائد العشر (ص ٩) ، (اخراج محمد محيي الدين عبد الحميد) .

٤ راجع نسبه في الخزائن (٢/٢٥٠) وفي المراجع الاخرى التي ذكرتها في أثناء حديثي عنه .

٥ الشعر والشعراء (١/١٣٨) ، (دار الثقافة) .

مالك) ، أي حفيده ، ويكون المرقش الأكبر عمه إذن ، ويكون بيت (سعد ابن مالك) من البيوت التي عرفت بالشعر .

وروي أن الشاعر (خزز بن لوذان) السدوسي ، كان قبل امرئ القيس . وقد نسب بعض أهل الأخبار له قوله :

يا ليت زوجك قد غدا متقلداً سيفاً ورعاً

ونسب هذا الشعر لغيره من الشعراء^١ .

ونسب له قوله :

كذب العتيق وماء شن بارد إن كنت مائلتي غبوقاً فاذهبي
لا تذكرني مهري وما أطعمته فيكون لوفك مثل لون الأجر

وكانت له فرس اسمها ابن النعامة ، ورد ذكرها في هذا الشعر^٢ .

ويجب أن نضيف إلى الشعراء المتقدمين شاعراً يظهر من روايات أهل الأخبار، أنه لم يكن من فحول الشعراء ، ولا من أوساطهم وإنما كان «شويراً» ، ولذلك عرف بـ (الشوير) . ويذكر أهل الأخبار أنه كان أحد من سمي (محمداً) في الجاهلية ، وهم سبعة ، واسمه الكامل : (محمد بن حمران بن أبي حمران) . وهو قديم^٣ . كان (امرؤ القيس) أرسل إليه في فرس يتاعها منه ، فأبى فقال فيه :

أبلغا غني الشوير اني عمد عين قلدهن حربما

وحريم ، هو جد الشوير^٤ . فقال الشوير مخاطباً امرأ القيس :

أتني أمور فكذبتها وقد نمت لي عاماً فعاما
بأن امرئ القيس أمسى كثيا على آله ما يلوق الطعاما

-
- ١ ونسب لعبدالله بن الزبيري الخزانة (٢/٢٣١ وما بعدها) .
 - ٢ تاج العروس (٨٣/٩) ، (نعم) .
 - ٣ المؤلف (١٤١ وما بعدها) ، (٢٠٨) ، (فراج) .
 - ٤ البيان (١٠/٢) ، الأمدي ، المؤلف (١٤١) .

لعر أهلك الذي لا يهان · لقد كان عرضك مني حراما
وقالوا : هجوت ، ولم أهجه · وهل يجدن حاج فيك مراما

وذكر الشاعر (ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم) ، بعد مهلهل في تقصيد
القصائد ، وهو (عمرو بن تميم) ، وهو من تميم ، قيل انه كان شاعراً قديماً ،
وهو الذي يقول :

يا كعب إن أباك منحلق إن لم تكن بك مرة كعب

وهي آيات قديمة يقول فيها :

جانك من يجني عليك وقد تعدي الصحاح مبارك الجرب^١

والأضبط بن قريع ، هو (الأضبط بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد بن
زيد مائة بن تميم) ، فهو من (بني تميم) . وقد عدّ في المعمرين^٢ . وقد
أورد (الجاحظ) له شعراً منه :

لكلّ همّ من الهموم سعة	والمسي والصبح لا فلاح معه
فصل جبال البعيد إن وصل الـ	حبل وأقص القريب إن قطعه
وخذ من الدهر ما أتاك به	من قرّ عيناً بعيشه نفعه
لا تحقرن الفقير علّك أن	تركع يوماً والدهر قد رفعه
قد يجمع المال غير آكله	ويأكل المال غير من جمعه ^٤

وقد روي الشعر على هذا النحو :

يا قوم من عاذري من الخدعه والمسي والصبح لا فلاح معه
فصل جبال البعيد إن وصل الجبل ، وأقص القريب إن قطعه

-
- ١ تاج العروس (٣٠١/٣) ، (شعر) .
 - ٢ الاشتقاق (١٢٤) ، المزه (٤٧٧/٢) .
 - ٣ السجستاني ، (٨) ، البيان والتبيين (٣٤١/٣) ، الاغانى (١٥٤/١٦) وما
بعدها ، الامالي (١٠٧/١) ، الخزنة (٥٨٩/٤) ، المثل السائر (٢٦/١) ،
مجالس ثعلب (٤٨٠) .
 - ٤ البيان والتبيين (٣٤١/٣) .

واقنع من العيش ما أذاك به من قرّ عيناً بعيشه فقهه
قد يجمع المال غير آكله ويأكل المال غير من جمعه
لا تهين الفقير عليك أن تخشع يوماً والدهر قد رفقه

وقد أورد هذا الشعر اللقائي في أماليه عن (ابن دريد) عن (ابن الأنباري)
عن ثعلب . وقد قال ثعلب : انه قيل قبل الاسلام بدهر طويل . ورواه أيضاً
(ابن الأعرابي) ، والجاحظ ، وصاحب الحماسة البصرية ، والشريف في حاسته ،
وابن قتيبة في كتاب الشعراء وصاحب الأغاني وغيرهم ، بتقديم بعضها على بعض
وطرح أبيات منها ٢ .

وقال (السيوطي) : « عزاه ابن الأعرابي في نوادره للأضبط بن قريع من
أبيات هي :

لكل ضيق من الأمور سعه والمسي والصبح لا بقاء معه
لا تهين الفقير عليك أن تركع يوماً والدهر قد رفقه
وصل جبال البعيد إن وصل الـ . جبل واقص القريب ان قطعه
واقبل من الدهر ما أذاك به من قرّ عيناً بعيشه فقهه
قد يجمع المال غير آكله ويأكل المال غير من جمعه
ما بال من غيّه مُصيّك لا تملك شيئاً من أمره فدعه
حتى إذا انجلت عمايته أقبل يلحي وغيّه فجعه
أذود عن نفسه ويخدعني يا قوم من عاذري من الخدعه

قيل إن هذه الأبيات قيلت قبل الاسلام بدهر طويل . وقال في الحماسة البصرية
هي للأضبط بن قريع السعدي من شعراء الدولة الأموية ٣ :

وزعم ان هذا الشعر قيل قبل الاسلام بخمسمائة عام . « فقد نقل الشيخ خالد
في التصريح ان هذا الشعر قيل قبل الاسلام بخمسمائة عام . وكان سبب هذا الشعر

-
- ١ الشعر والشعراء (١ / ٢٩٨ وما بعدها) : الإغاني (١٦ / ١٥٩) ، اللآلئ (٣٢٦) ،
السمط (٣٢٦) ، بلوغ الأرب (٣ / ١١٨) .
 - ٢ الخزائن (٤ / ٥٨٩) .
 - ٣ السيوطي ، شرح شواهد (٤٥٣) ، (شواهد عل) :

على ما في الأغاني عن أبي محم : ان أم الأضبط كانت عجبية (عجبة) بنت دارم بن مالك بن حنظلة ، وخالته : الطموح بنت دارم ، فحارب بنو الطموح قوماً من بني سعد، فجعل الأضبط يدس اليهم الخيل والسلاح ولا يصرح بنصرهم خوفاً من أن يتحزب قومه حزبين معه وعليه . وكان يشير عليهم بالرأي ، فإذا أبرمه نقضوه وخالفوا عليه ، وأروه مع ذلك أنهم على رأيه فقال في ذلك هذه الأبيات . وهو الأضبط بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم وقريع ، بضم القاف وفتح الراء ، هو أبو جعفر ، الملقب بأنف الناقة ، وهو جاهلي قديم ^١ .

وكان من فرسان العرب ، وكان أغار على بني الحارث بن كعب ، فقتل منهم وأسر وجدع وخصى ، ثم بنى أطماً ، وبنت الملوك حول ذلك الأطم مدينة صنعاء ، فهي اليوم قصبتها ^٢ . وهو شاعر قديم ، يزعم بنو تميم انه أول من رأس فيهم ^٣ .

وروي أنه هو صاحب المثل : « بكل واد بنو سعد » . وهو شبيه بالمثل : « بكل واد أثر من ثعلبة » . الميداني (٨٤/١ ، ٩٤) ، وكان الأضبط قد تأثر من قومه بني سعد ، فتحول عنهم الى آخرين ، فلما رأى ظلمهم وعسفهم قال : « بكل واد بنو سعد » ^٤ ، أو أنه قال : « أينما أوجه ألقى سعداً » .

والعمر في نظر العرب ، هو من عاش فوق المائة . « ولا تعد العرب معمرأ إلا من عاش مائة وعشرين سنة فصاعداً » ^٥ . والعادة عندهم ، أنهم إذا وصلوا الى نهاية حياة المعمر ، ينصبون له مجلس توديع ، يجمعون فيه ولده وآله وأقاربه وسادات قبيلته أحياناً ، ليوصيهم بما حصل عليه من حكم الأيام وتجاربها ، ثم قد يخنمونها بشعر . وهي متشابهة في المعاني ، لأنها في موضوع نصيح وحكم ،

١ الخزائن (٥٩٠/٤) .

٢ الشعر والشعراء (٢٩٨/١) .

٣ تاج العروس (١٧٥/٥) ، (ضبط) .

٤ البيان والتبيين (٢٩٤/٣) ، الحيوان (٣٥٨/١) ، (١٠٤/٣) ، (٣٩٤/٤) ،

البخلاء (١٨٩) ، الشعر والشعراء (٢٩٨/١) ، أمثال الضبي (٦) ، الأغاني

(١٥٤/١٦) ، شرح شواهد ، للسيوطي (١٥٥/١) ، الخزائن (٥٨٨/٤) ،

المحبر (١٨٢) .

٥ أمالي المرتضى (٢٣٦/١) .

أما أسلوبها فهو السجع ، الأسلوب المتبع عند الكهان والخطباء ، وهو وسط بين الكلام المرسل وبين الشعر .

و « أوس بن حجر بن معبد بن حزن بن خلف بن نعيم بن أسيد بن عمرو » التميمي من شعراء تميم كذلك ، وقد جعله بعضهم من الطبقة الثالثة وقرنه بالخطيئة وناطقة بني جعدة . ذكر انه كان شاعر بني تميم في الجاهلية غير مدافع ، وكان فحل العرب فلما نشأ النابغة طأطأ رأسه . وله ديوان مشروح^١ . وورد عن (أبي عمرو بن العلاء) قوله : « كان أوس ففعل مضر حتى نشأ النابغة وزهير فأخلاه »^٢ . وقال عنه أبو ذؤيب : « وكان أوس عاقلاً في شعره كثير الوصف لمكارم الأخلاق ، وهو من أوصفهم للحُمُر والسلاح ولا سيما للقوس ، وسبق الى دقيق المعاني والى أمثال كثيرة »^٣ . وكان شاعر تميم في الجاهلية غير مدافع^٤ . وكان غزلاً مغرمًا بالنساء^٥ ، وكان قد بلغ الغاية في الصيد والقنص ، يقضي الليل مع الوحش ليصطاد شيئاً منها ، وفي ذلك يقول :

قصي^٦ مبيت الليل للصيد مُطعم لأسهمه غاري وباري وراصف^٧

ويظهر من الشعر المنسوب اليه ، أنه كان على اتصال بالحضر وبالنصارى ، وقد جاء في شعره بمعان وبتعابير وألفاظ لم يستعملها غيره من الشعراء الجاهليين . فقد ذكر (المهر) والديك والخنزير في شعره ، مثل قوله :

كأن هراً جنيباً عند غرقتها والتف ديك^٨ برجليها وخنزير

-
- ١ السيوطي ، شرح شواهد (١١٣/١ وما بعدها ، ٣٩٩) ، الموشح (٦٣) ، رسالة الغفران (٢٧٤) .
 - ٢ الشعر والشعراء (١٣١/١) ، الاغانى (٥/١٠ وما بعدها) ، الخزانة (٢٣٥/٢) الموشح (٦٣) ، (كان أوس شاعر مضر ، حتى أسقطه النابغة وزهير) ، الشعر والشعراء (١٣٤/١) .
 - ٣ الشعر والشعراء (١٣١/١) .
 - ٤ الشعر والشعراء (١٣٤/١) .
 - ٥ الخزانة (٢٣٤/٢ وما بعدها) ، (بولاق) .
 - ٦ ديوان أوس (ص ٧١) ، رسائل الجاحظ (٧٢/١ وما بعدها ، ٧٦) ، (مناقب الترك) .

وجمع ثلاثة ألفاظ أعجمية في بيت واحد ، فقال :

وقارفت وهي لم تجرب وباع لها من الفصافص بالنمى سِفْسِير

وله أشعار جيدة . قال الأصمعي : ولم أسمع قط ابتداء مرثية بأحسن من ابتداء مرثيته :

أبتها النفس اجمل جزعاً إن الذي تحذرين قد وقعا^١ ،

وله شعر في مدح (أبي دليجة) ، وهو (فضالة بن كلدة) . وكان قد جبر كسراً ألم به لما صرعه ناقته ، فأواه وداواه حتى برأ ، فتذكر مته عليه^٢ . ومن شعره في مدح (فضالة بن كلدة) :

أريب أديب أخو مازق نقاباً يخبر بالغائب^٣

ولأوس شعر في (حليلة بنت فضالة بن كلدة) التي مرضته وعاونته مع والدها حتى شفي وبرأ . وهو من باب الشكر والحمد^٤ .
وورد البيت على هذه الصورة :

نجيح ، مليح ، أخوماقط نقاب يحدث بالغائب^٥

ولما توفي (فضالة) رثاه (أوس بن حجر) في قصيدة جعلها (أبو الفرج الأصبهاني) : « من فاضل مرثيه إياه ونادى بها » . ومما جاء فيها :

الألمي الذي يظن لك الظن من كأن قد رأى وقد سمعا^٦

١ الشعر والشعراء (١٣٥/١) ، رسالة الغفران (٣٣٩) .

٢ الخزانة (٢٣٦/٢) ، (يولاق) .

٣ ديوان أوس (١٢) ، رسائل الجاحظ (٣٠٢/١) ، (رسائل في نفي التشبيه) ، الحيوان (٦٠/٣) .

٤ الحيوان (٧١/٣) ، الاغانى (٧/١٠) ، البيان والتبيين (٣٢٠/٣) ، ديوان أوس (٢٧) .

٥ تهذيب الالفاظ (١٦٤) .

٦ ديوان أوس بن حجر (٥٣) ، البيان والتبيين (٦٨/٤) ، الحيوان (٥٩/٣) ، الاغانى (٨/١٠) ، رسائل الجاحظ (٣٠٢/١) ، (رسائل في نفي التشبيه) ، رسالة الغفران (٤٥٢) .

وهذا البيت من نفس القصيدة التي قال (الأصمعي) عنها : « لم أسمع قط ابتداء مرثية أحسن من ابتداء مرثيته :

أيتها النفس اجعلي جزءاً إن الذي تحلرين قد وقعا^١

ومن شعر أوس بن حجر ، قوله :

فانقض كالدرى يتبعه تقع يشور تخاله طنبا
ينفخ وأحياناً يلوح كما رفع المشير بكفه لها

وقد علّق الجاحظ عليه بقوله : « وهذا الشعر ليس يرويه لأوس إلا من لا يفصل بين شعر أوس بن حجر ، وشريح بن أوس^٢ . وشريح بن أوس^٣ هو ابن هذا الشاعر ، وقد ذكر الجاحظ له بيتاً يهجو فيه أبا المهوش الأسدي ، وهو من الشعراء المخضرمين^٤ ، وهذا البيت هو :

وعيرتنا تمر العراق وبره وزادك أير الكلب شيطه الجمر^٥

وقد ذكر (المعري) قصيدة حائية ، ذكر أنها تروى لعبيد مرة ، ولأوس أخرى. وتختلف في رواية المعري في الترتيب عما جاء في الديوان . وما جاء فيها :

قاتلها الله ، تلحاني وقد علمت اني لنفسي إفسادي وإصلاحي
أن أشرب الخمر أو أرزأ لها ثمناً فلا محالة يوماً اني صاح
ولا محالة من قبر بمحنة أو في ملبع كظهر الرس وضاح^٦

وجاء فيها ذكر (يهودي) ، إذ يقول :

قد نمت غني ، وبات البرق يسهرني كما استضاء يهودي^٧ بمصباح^٨

١ الشعر والشعراء (١٣٥/١) .

٢ الجاحظ ، الحيوان (٢٧٤/٦ ، ٢٧٩) .

٣ الجاحظ ، الحيوان (٢٧٩/٦) ، بروكلمن (١١٢/١) .

٤ الحيوان (٢٦٨/١) ، وورد (ونخله بدلا من وبره) ، (٣١٩/١) .

٥ رسالة الغفران (٢٧٤ وما بعدها) ، ديوان عبيد (٧٥) ، الامالي (١٧٧/١) .

٦ رسالة الغفران (٢٧٦) .

وقد خلط الرواة بين شعر (أوس) و (عبيد بن الأبرص) ، ولكنهم نبهوا على ذلك وأشاروا إليه^١ .

وأوس بن حجر من معاصري الملك (عمرو بن هند) ، وهو تميمي ، قتل أبوه يوم (الحجار) المصادف لسنة (٥٥٤ م) ، وكان مولده بالبحرين ، وقد طاف بشعره نجداً والعراق ، فمدح ملوك الحيرة ونادهم ، ونال شعره شهرة في الصيد والسلاح^٢ ، وله وصف للصحارى والسهول المقفرة ، ول منابع المياه المتدفقة من الكهوف التي يكثر حولها ريش النعام^٣ ، ولمسالك البادية^٤ ، والتجاد والروابي والجبال^٥ ، والرياض^٦ ، كما اشتهر بوصفه للحمير : قال ابن الأعرابي : لم يصف أحد قط الخيل ، إلا احتاج الى أبي ذؤاد : ولا وصف الحمير إلا احتاج الى أوس بن حجر ، ولا وصف أحد نعامه إلا احتاج الى علقمة بن عبدة^٧ . ولأوس شعر وصف فيه ثوراً وحشياً بقوله :

فانصاع كالدرّي يتبعه ققع يثور ، تخاله طنبا^٨

ومن أمثاله السائرة قوله :

فلإنكما يا ابني جناب وجدتما كمن دب يستخفي وفي الخلق جلجل

وقوله :

ولست بخابىء لغدير طعاماً حذار غد لكل غد طعام^٩

وقد أشار (أوس بن حجر) في شعره الى (المنخل) الشكري ، الذي اتهم بالمتجردة ، فزعم أن النعمان قتله أو حبسه ، ثم غمض خبره ، فلم يعرف

-
- ١ رسالة الغفران (٢٧٤ وما بعدها) ، ابن سلام (٧٦ وما بعدها) .
 - ٢ بروكلمن (١١٢/١) .
 - ٣ غرونبوم (١٧٩ وما بعدها) .
 - ٤ غرونبوم (١٦٢ ، ١٨٣) .
 - ٥ غرونبوم (١٦٣ ، ١٨٤) .
 - ٦ غرونبوم (١٦٦ ، ١٨٦) .
 - ٧ الاغانى (٩٦/١٥) ، غرونبوم (٢٧٧) .
 - ٨ رسالة الغفران (٢٩٨) .
 - ٩ بلوغ العرب (١٠٤/٣) .

أمره ، وضرب المثل به ، فقيل : « حتى يؤوب المنخل » . يقال إن أوساً قال :

فجئت بيبي مولياً لا أزيده عليه بها ، حتى يؤوب المنخل^١

وإذا صح أن هذا الشعر ، هو من شعر (أوس) حقاً ، وأن (المنخل) هو (المنخل) اليشكري الشاعر لا غيره ، فيجب أن يكون أوس قد عاش بعده ، وأن يكون من المتأخرين عنه .

وإذا كان أوس بن حجر من شعراء مضر ، ومن الوصافين ، فقد كان : (علقمة بن عبدة) المشهور بالفحل من شعراء مضر كذلك ، وهو مثل (أوس) من تميم ، وقد اشتهر بوصف النعام . وكان ينادم (الحارث) الأصغر الغساني ، والنعمان أبا قابوس اللخمي ، وكان له أخ اسمه (شأس) ، أسره (الحارث بن أبي شمر) الغساني المذكور مع سبعين رجلاً من تميم ، فأناه علقمة ومدحه بقصيدة أولها :

طحا بك قلب في الحسان طروب بُعيد الشباب عصر حان مشيب
إلى الحارث الوهاب أعلتُ ناقتي لكللكها والقُصْرَيْنِ وجيب

فلما بلغ هذا البيت :

وفي كل حي قد خبطتْ بنعمة فحق لشأسٍ من نذاك ذنوب

فقال الحارث : نعم وأذنية . وفك أسره ومن أسر معه من (بني تميم) . ويقال إن شأساً هو ابن أخي علقمة^٢ .

قيل إنه إنما لقب بـ (الفحل) ، لأنه احتكم مع امرئ القيس ، إلى امرأتها (أم جندب) لتحكم بينهما في أيهما أشعر ، فقالت: قولاً شعراً تصفان فيه الخيل على روي واحد ، وقافية واحدة ، فلما قالوا وانتهيا ، حكمت لعلقمة بأنه أشعر من زوجها (امرئ القيس) فغضب عليها وطاقها ، فخلف عليها علقمة ،

١ رسالة الغفران (٣٤٠) .

٢ الشعر والشعراء (١ / ١٤٧ وما بعدها) ، رسالة الغفران (٣٢٧) .

فسمي بذلك : (الفحل)^١ . وهي اسطورة . وقيل انه لقب بالفحل تمييزاً له عن (علقمة بن سهل) من رهنطه ، وكان يعرف بالخصي ، ففرقوا بينهما بهذا الاسم . و (علقمة) الخصي ممن أدرك الإسلام . وكان يكنى (أبا الوضاح) ، وقد أسلم ، وكان شاعراً . وهو القائل :

يقول رجال من صديق وصاحب أراك أبا الوضاح أصبحت ثاويا
فلا يعلم البانون بيتاً يكنهم ولا يعلم الميراث مني المواليا
ونخت عيون الباكيات واقبلوا الى بالهم قد بنت عنه بماليا
حراساً على ما كنت أجمع قبلهم هنيئاً لهم جمعي وما كنت آليا^٢

ومن شعره في النساء :

فإن تسألوني بالنساء فإني بصبر بأدواء النساء طيب^٣
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله فليس له في ودهن نصيب
يردن ثراء المال حيث علمه وشرخ الشباب عندهن عجب^٤

وما ينسب اليه قوله :

وكل حصن وإن دامت سلامته على دعائمه لا بد مهلوم
ومن تعرض للغربان يزجرها على سلامته لا بد مشؤوم
ومعظم الغنم يوم الغنم مطعمه أنى توجه والمحروم محروم
وكل قوم وإن عزوا وإن كثروا عريفهم بأثاني الشر مرجوم^٥

وقد اشتهر (علقمة) بثلاث قصائد قال فيهن (ابن سلام) : « ولا بن عبدة ثلاث روائع جواد لا يفوقهن شعر »^٦ ، منها قصيدته الميمية التي مطلعها :

هل ما علمت وما استودعت مكتوم^٧

-
- ١ الشعر والشعراء (١٤٥/١) ، ابن سلام ، طبقات (١١٦) ، الاغاني (١٧٢/٢١) ،
الخزانة (٥٦٥/١) .
 - ٢ الخزانة (٥٦٥/١) .
 - ٣ رسالة الففران (٣٢٨) ، الشعر والشعراء (١٤٦/١) .
 - ٤ بلوغ الارب (١١٣/٣) .
 - ٥ ابن سلام ، طبقات (٣١) .
 - ٦ رسالة الففران (١٤٢) .

ومن الشعر المنسوب اليه قوله :

ويلم أيام الشباب معيشة مع الكثر يعطاه الفتى المتلف الندى

وقد نسب بعضهم لابنه : خالد بن علقمة بن عبدة ، ونسبه غيرهم لشعراء آخرين^١ .

وقد ذكر (ابن حجر) في كتابه (الإصابة) اسم رجل دعاه (علي بن علقمة بن عبدة) التميمي ، قال عنه انه ولد (علقمة) الشاعر المشهور الذي يعرف بعلقمة الفحل . وكان من شعراء الجاهلية من أقران امرئ القيس ، ولعلي هذا ولد اسمه (عبد الرحمن) ذكره المرزباني في معجم الشعراء ، فيلزم من ذلك أن يكون أبوه من أهل هذا القسم ، لأن عبد الرحمن لم يدرك النبي ، وعبد الرحمن هو القائل :

وشامت بي لا يخفي عداوته إذا حماني ساقته المقادير
فلا يفرّئك جرّ الثوب معتجراً لاني امرؤ لي عند الجدّ تشمير^٢

وعبد (العنبر بن عمرو بن تميم) من قدماء الشعراء . وجعل (ابن سلام) قوله :

قد رايتني من دلو ي اضطرابها والنأي في بهراء واغترابها
أن لا تبيء ملأى يبيء قراها

من قديم الشعر الصحيح^٣ .

وكان سعد ومالك ابنا زيد مناة بن تميم ، ممن قالوا الشعر^٤ ، وكذلك (حجر ابن معاوية) آكل المرار^٥ . وقد أورد (الجاحظ) بيتين من الشعر لسعد بن ربيعة ابن مالك بن زيد مناة بن تميم ، ثم قال : « وهذا من قديم الشعر » ، وذكر

-
- | | |
|---|--|
| ١ | الخزانة (٥٦٣/١) . |
| ٢ | الإصابة (١١١/٣) ، (رقم ٦٤٦٠) ، الخزانة (٥٦٦/١) . |
| ٣ | ابن سلام ، طبقات (١١) . |
| ٤ | ابن سلام ، طبقات (١١) . |
| ٥ | البيان والتبيين (٣٢٨/٣) . |

في موضع آخر انه « من قديم الشعر وصحيحه »^١ .

ومن شعراء تميم : (عبد القيس بن خفاف) (عبد قيس)^٢ البرجمي التميمي
وكان معاصراً لحاتم الطائي ، فأتاه ذات يوم في دماء حملها عن قومه وعجز عنها ،
فأعطاه حاتم مرباعاً له من غارة على بني تميم^٣ .

ويقال انه قال شعراً على لسان النابغة في هجاء النعمان بن المنذر أبي قابوس
ملك الحيرة ، ليؤكد به الى النابغة ، حسداً له ، وقد فعل فعله في هذا الدس
شاعر آخر هو (مرة بن ربيعة) السعدي^٤ .

وينسب له قوله :

فالله فاتقه وأوف بنفذه وإذا حلفت مमारياً فتحتل
واعلم بأن الضيفَ مكرم أهله بميت ليته وإن لم يسأل
والضيف اكرمه فلن ميته حق ولا تك لعنة للتزل
وصل المواصل ما صفالك وده واحرز حبال الخائن المتبدل
واترك محل السوء لا تحل به وإذ نبا بك منزل فتحوّل
دار الهوان لمن رآها داره أفرأحل عنها كمن لم يرحل ؟
وإذا هممت بأمر شرّ فأتشد وإذا هممت بأمر خير فاعجل
وإذا أتتكَ من العدو قوارص فاقرص هناك ولا تقل لم أفعل^٥

ومن شعراء تميم : (عوف بن عطية بن الخرع) التميمي . وكان سيّد
قومه يوم (رحران) . ذكر (البغدادي) أنه كان له ديوان صغير موجود
عنده^٦ .

١ البيان والتبيين (٣ / ٢٠٠ ، ٣٤١) .

٢ بروكلمن (١ / ١١٦) .

٣ الشعر والشعراء (١ / ٩٩ وما بعدها) ، (النابغة الذبياني) ، الاغانى (٧ / ١٤٥) ،
المفضلية رقم ١١٦ ورقم ١١٧ ، الحيوان (٤ / ٣٧٩) ، المرزباني ، معجم (٣٢٥) ،
الحماسة (١ / ١١٣) ، نوادر أبي زيد (١١٣ وما بعدها ، ١٢٦) ، الاغانى
(٩ / ١٥٨) ، (ساسي) .

٤ بلوغ الارب (٣ / ١٢٥) .

٥ الخزانة (٣ / ٨٣) ، المرزباني (٢٢٦) ، بروكلمن (١ / ١١٨) .

و (سلامة بن جندل) من شعراء تميم ، ويظهر من قصيدة رثا بها (النعمان أبي قابوس) انه عاش بعده . قال عنه (ابن قتيبة) : هو شاعر جاهلي قديم من فرسان تميم الملعودين . وأخوه (أحر بن جندل) من الشعراء والفرسان . وكان (عمرو بن كلثوم) أغار على حي من بني سعد بن زيد مناة ، فأصاب منهم ، وكان فيمن أصاب (أحر بن جندل)^١ . ويدل شعره في رثاء (النعمان) انه مات في عهد قريب من الاسلام . وله ديوان صغير مطبوع ، أكثره في الحماسة والفخر ، مع شيء جميل من الوصف والتشبيه^٢ .

ومن قوله في الشيب :

ولّى الشبابُ وهذا الشيب يطلبه لو كان يدركه ركض البعاقيب^٣

ومن شعره قوله :

ليس بأسفى ولا اقنى ولا سفلى يعطى دواء قفى السكن مربوب^٤

وكان أحد من يصف الخيل ، فيحسن ، وأجود شعره قصيدته التي أولها :

أودى الشبابُ حميداً ذو التعاجيب ولى وذلك شأو غير مطلوب^٥

وقد زعم (آلورد) أنه أسلم ، « لأنه ذكر اسم الله : الرحمن . وهذا بعيد الاحتمال . كما ظنه لويس شيخو من أنه كان نصرانياً »^٦ . وقد طبع (شيخو) ديوانه في بيروت سنة (١٩١٠) .

و (طريف بن تميم) العنبري ، من الشعراء الفرسان ، وكانت الفرسان لا تشهد عكاظ إلا مبرقة مخافة الثورة ، وكان طريف لا يتبرقع كما يتبرقعون ،

-
- ١ الشعر والشعراء (١٩٢/١ وما بعدها) ، الاصمعيات رقم ٤٢ ، الخزائن (٨٦/٢) ، بروكلمن (١١٩/١) ، الامالي للقالبي (١٠/١) .
 - ٢ كارلو نالينو (٨٠) ، طبعة « كليمان هوار » في المجلة الاسيوية ، وطبعة « لويس شيخو » في « بيروت » سنة ١٩٢١ م .
 - ٣ الامالي للقالبي (١٨٥/١) .
 - ٤ ذيل الامالي (٢٠٩) ، ابن سلام ، طبقات (١٣١) .
 - ٥ الشعر والشعراء (١٩٢/١ وما بعدها) ، الخزائن (٨٦/٢) .
 - ٦ بروكلمن (١١٩/١) .

وكان قد أغار في (بني العنبر) (عائذة) حلفاء لبني (أبي ربيعة بن ذهل) ،
فرماه (حمصيصة بن شراحيل) الشيباني ، فقتله . وهو القاتل :

أو كلما وردت عكاظَ قبيلةٌ بعثوا إليّ عريفهم يتوسم^١

مفتخراً بشجاعته على أعدائه وعلى الذين كانوا يتعقبون خطاه لقتله ، أخذاً
بالتأثر منه .

و (الأسود بن يعفر بن عبد القيس بن نهشل) النهشلي ، من الشعراء المتقدمين
في الجاهلية . وهو تميمي دارمي ، وقد عدت قصيدته التي أولها :

نام الخلي^٢ وما أحس رقادي والهم محتضر لديّ وسادي

من أجود الشعر ومن مختار أشعار العرب . وقد عدّه (ابن سلام) في الطبقة
الثانية من طبقات الشعراء^٣ . وقد عرف به (ذي الآثار) ، لما كان يتركه
هجاؤه من أثر في المهجورين^٤ . وقد وردت في قصيدته المذكورة شواهد نحوية
وردت في كتب الشواهد، وتعدّ القصيدة من مختار أشعار العرب وحكمها المأثورة .
وكان يتادم (النعمان بن المنذر) ، وابنه الجراح وأخوه حطائط شاعران^٥ ،
وكان يكنى بابنه ، فعرف به (أبي الجراح)^٥ .

ومن شعره قوله :

ومن الحوادث لا أبالك انني ضُرِيتُ عليّ الأرضُ بالأسداد
لا أعتدي فيها للمدفع تلعةً بين العذيب وبين أرضٍ مرادٍ

وفيها يقول :

ماذا أؤمل بعد آل محرق تركوا منازلهم ، وبعد إباد

-
- ١ أسماء المقتولين (المجموعة السادسة) ، (ص ٢١٨ وما بعدها) ، تاج العروس (١٧٨/٦) ، (طرف) .
 - ٢ الشعر والشعراء (١٧٦٨) ، الاغانى (١٢٩/١١) ، السيوطي ، شرح شواهد (٥٥٣/٢) ، المعارف (٦٤٦ وما بعدها) .
 - ٣ المفضليات (رقم ٥٥ ، و ١٢٥) ، الاغانى (١٤/١٣ وما بعدها) ، (دار الكتب) .
 - ٤ الخزائن (١٩٥/١) ، (بولاق) .
 - ٥ الشعر والشعراء (١٧٦/١) .

أهل الخورنق والسدير وبارق والقصر ذي الشرفات من سنداد
نزلوا بأنقمة يسيل عليهم ماء القرات يجيء من أطواد
أرض تخيرها لطيب مقيلها كعب بن مامة وابن أم دواد
جرت الرياح على محل ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد
فلإذا النعم وكل ما يلهى به يوماً يصير الى بلى ونقاد^١

وهو جيد العبارة ، ليس بالمكثر ، يتزع في شعره الى الحكمة . يكثر التثقل
في العرب ، يجاورهم فيدم ويحمد^٢ .

ومن شعر (حطائط) قوله :

أريني جواداً مات هزلاً لعلني أرى ما ترين أو بنجلاً مخلداً
ذريني أكن للمال رباً ولا يكن لي المال رباً تحمدي غبه غداً
ذريني يكن مالي لعرضي وقاية ففي المال عرضي قبل أن يتبددا^٣

والشاعر (عمرو بن قتيبة بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة) ،
وقيل : (عمرو بن قتيبة بن ذريح بن سعد بن مالك) ، ويكنى (أبا كعب) ،
هو من (بني سعد بن مالك) ، رهط (طرفة بن العبد) وهو من (بني قيس
ابن ثعلبة) . وكان في عصر (مهلهل بن ربيعة) . وقد نعت بأنه قديم جاهلي .
وتزعم (بكر) ، انه أول من قال الشعر وقصد القصيد ، وذكر انه كان أول
من بكى على شبابه . وكان مع (جحر) أبي (امرئ القيس) ، فلما خرج
(امرؤ القيس) الى بلاد الروم يستمد قيصر على بني أسد ، استصحبه ، فأت
في سفره ذلك ، فسمته (بكر) (عمرأ الضائع) . وإياه عنى امرؤ القيس
بقوله :

١ المحاسن والاضداد (٨٨) ، الشعر والشعراء (١٧٦/١) وما بعدها ، طبقات ابن
سلام (١٢٣) ، ويوجد اختلاف في رواية بعض الفاظ هذا الشعر .

٢ البخلاء (٦٦ ، ٣٣٩) ، الاغانى (١٣٤/١) ، الأمدي ، المؤلف (١٦) وما
بعدها .

٣ الخزائن (١٩٥/١) وما بعدها .

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له : لا تبك عينك إنما نحاول ملكاً أو نموت فنعلنراً^١

وهو ابن أخي المرقش الأكبر ، وخال المرقش الأصغر ، وجدّ طريقة لأمه .
وذكر انه عمّر حتى جاوز التسعين ، وقال :

كأنّي وقد جاوزت تسعين حجة خلعت بها عني عذار لجام^٢

وذكر (الجاحظ) أنه هو القائل :

شرّكم حاضر وخيركم د رّ خروس من الأرانب بكر^٣

وذكر قبله أبياناً هي :

ليس طُعمي طُعْمَ الأنامل إذ قلّص درّ اللقاح في الصنبر
ورأيت الإماء كالجعثن الباء لي عكوفاً على قرارة قدر
ورأيت للدخان كالودع الأه جن ينباع من وراء الستر^٤

وذكر (ابن قتيبة) ، أن (عمرو بن قبيّة) ، كان من خدم (حجر)
والد (امرئ القيس) ، وأنه بكى لما سار معه الى بلاد الروم ، وقال له :
« غررت بنا » . ولا يعقل أن يكون (عمرو) من خدم (حجر) ، فهو
وإن نشأ يتيماً في كفالة عمه (مرثد بن سعد) ، كما تذكر بعض الروايات^٥ ،

١ المرزباني ، معجم الشعراء (٣ وما بعدها) ، (القاهرة ١٩٦٠) ، (عبد الستار أحمد فراج) ، الشعر والشعراء (٢٩٢/١ وما بعدها) ، الاغاني (١٥٨/١٦ وما بعدها) ، طبقات الشعراء (٥٩) ، المؤلف (٨٦٨) ، الجرجاني (١٢٩) ، البيان والتبيين (١٨/٢) ، المعمرن للسجستاني (٨٩) ، الخزائنة (٢٤٩/٢ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٢٤١/٣) .

٢ المرزباني ، معجم (٣) ، الشعر والشعراء (٢٩٣/١) ، المرزباني ، معجم (ص ٢٠٠) ، (القدسي ١٣٥٤ هـ) ، بروكلمن (١١٧/١) ، أمالي المرتضى (٤٥/١) .

٣ البخلاء (٢١٤) ، (الحاجري) .

٤ الحيوان (٧٣/٥) ، (عبد السلام هارون) ،

بسر يطعم الارامل اذ قلص در اللقاح في الصنبر

رسائل الجاحظ (٣٥٧/٢) ، (كتاب البغال) .

٥ الشعر والشعراء (٦٠/١) ، (الثقافة) .

٦ الاغاني (١٥٨/١٦) ، البخلاء (٤١٢) ، (الحاجري) .

إلا أن أسرته لم تكن من طبقة وضيعة ، حتى يصبر (عمرو) من خلم (حجر).
بل روي أنه كان عاملاً لحجر^١ .

وورد انه في شعراء ربيعة الذين ابتدأ الشعر بهم قبل أن يتحول في قيس ،
كالمرقشين وطرفة بن العبد والحارث بن حلزة^٢ . و (عمرو) هو القائل ييكي
شبابه :

لا تغبط المرء أن يقال له أمسى فلان لعمره حكما
إن يُمَسَّ في خفض عيشه فلقد أخنى على الوجه طول ما سلما
قد كنتُ في مِعةٍ أَمَرٌ بها أَمْنَعُ ضِيمي وأهبط العصما
يا لَهْفَ نفسي على الشباب ولم أفقد به إذ فقدته أَمَّا^٣

وأورد الجاحظ من شعره قوله :

وأهون كف لا تضيرك ضيرةٌ يدٌ بين أيدٍ في إناء طعام
يدٌ من قريبٍ أو غريبٍ بقفرةٍ ألتك بها غبراء ذاتُ قِتامُ^٤

وقد استشهد ببيت من شعر نسب إليه ، هو :

ولما رأت سائداً ما استعبرت لله در اليوم من لامها

والشعر هو :

قد سألتني بنت عمرو عن الأرض التي تنكر أعلامها
لما رأت سائداً ما استعبرت لله در اليوم من لامها
تذكرت أرضاً بها أهلها أخوالها فيها وأعلامها^٥

وأما قصة رحيله مع (امرئ القيس) الى قيصر ، ووفاته ، وهو في سفره

-
- ١ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١١٧/١) .
 - ٢ طبقات الشعراء ، لابن سلام (٣٤) ، (دار المعارف) ، (١٩٥٢) ، (البخلاء (٤١٢) ،
(الحاجري) .
 - ٣ المرزباني ، معجم (٤) ، (فراج) .
 - ٤ البيان والتبيين (٢٤١/٣) .
 - ٥ الخزائنة (٢٤٧/٢ وما بعدها) .

معه ، فجزء من أسطورة سفر (امرئ القيس) الى الروم^١ .

وكان (عبيد بن الأبرص) شاعر (بني أسد) من المعاصرين لامرئ القيس ، وله شعر يخاطبه فيه ، لما أظهره من تهديد ووعيد لبني أسد ، ويرد فيه عليه^٢ . وقد انجبت (بنو أسد) جملة شعراء . وذكر أنه كان لدة^٣ لـ (عبد المطلب) جد النبي ، وأنه مات قبل (عبد المطلب) بعشرين سنة . قتله (المنذر) أبو (النعمان بن المنذر)^٤ . وإذا أخذنا بهذه الرواية واعتبرناها صحيحة ، ورجعنا الى تأريخ وفاة (عبد المطلب) التي كانت بعد الفيل بثماني سنين^٥ ، وإذا جارينا المستشرقين واعتبرنا أن عام الفيل ، يقابل السنة (٥٧٠) للميلاد ، تكون وفاة (عبد المطلب) في حوالى السنة (٥٧٨) للميلاد ، فيكون قتل (عبيد بن الأبرص) في حوالى السنة (٥٥٨) للميلاد على هذا التقدير . ولكن الذي نعرفه من روايات أهل الأخبار أن (عبيد) هذا قد قتله (المنذر بن امرئ القيس) المعروف بالمنذر ابن ماء السماء ، الذي تولى الملك في حوالى السنة (٥٠٨) للميلاد وقتل سنة (٥٥٤) للميلاد^٦ . فيجب أن يكون مقتل (عبيد) قبل السنة (٥٥٤) للميلاد لا بعدها ، على حسب تقدير الرواية السابقة .

وهو (عبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم) من (بني ثعلبة بن دودان) من (بني أسد) . قال عنه (ابن قتيبة) : « وكان عبيد شاعراً جاهلياً قديماً من المعمرين ، وشهد مقتل حجر أبي امرئ القيس . وهو القائل لامرئ القيس :

يا ذا المخوفنا بقتل أبيه إذلالاً . وحيناً

أزعمت أنك قد قتلت سراتنا كذباً ومينا^٧ .

ويجب أن يكون مقتل (حجر) بعد السنة (٥٢٨) للميلاد . وهي السنة التي توفي فيها (الحارث) والد (حجر) على غالب الروايات^٧ . ولا نعرف متى

١ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١١٧/١) .

٢ الخزائن (٢٢٢/١) وما بعدها ، (يولاق) .

٣ الروض الانف (٥/١) .

٤ تاريخ الطبري (٢٧٧/٢) ، (ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسبابه) .

٥ الجزء الثالث (ص ٢١٩) من هذا الكتاب .

٦ الشعر والشعراء (١٨٧/١) ، الخزائن (٣٢٢/١) .

٧ الجزء الثالث من هذا الكتاب (ص ٣٤٢ وما بعدها) .

قتل (حجر) على وجه صحيح ، غير أننا نستطيع أن نقول إن حكمه لم يلم طويلاً على (بني أسد) الذين انتهزوا فرصة وفاة (الحارث) وعودة الحكم الى ملوك الحيرة ، أيام (المنذر بن ماء السماء) الذي أخذ يتعقب آل الحارث ، ليقتلهم ، فثاروا على (حجر) وقتلوه .

وذكر ان (المنذر بن ماء السماء) هو الذي قتل عبيداً ، قتله يوم يؤسه . وكان يقتل فيه أول من يطلع عليه . فلما رآه المنذر ، قال له : هلاً كان هذا لغيرك يا عبيد ! أنشدني ، فربما أعجبني شعرك ! فقال له عبيد : حال الجريض دون القريض . قال : أنشدني : أقفر من أهله ملحوب ، فأنشده عبيد :

أقفر من أهله عبيد فاليوم لا ييدي ولا يعيد

فسأله أي قتلة يختار ؟ قال عبيد : أسقني من الراح حتى أثمل ، ثم انصدمني الأكحل ، ففعل ذلك به ، ولطخ بدمه الغرين . والغريان طربالان كان يلطخها بدماء القتلى يوم يؤسه . وكان بناهما على نديعين له ، وهما : خالد بن نفلة الفقعسي ، وعمر بن مسعود .

وذكر الرواة ان الملك قال لعبيد : أي قتلة يختار ؟ أنشأ يقول :

وخيرني ذو البؤس في يوم يؤسه خصالاً أرى في كلها الموت قد برق
كما خيرت عاد من الدهر مرة سحائب ما فيها للذي نخيرة أنق
سحائب ربح لم توكل ببلدة فتركها إلا كما ليلة طلق^٢

وقد ذكر (ابن قتيبة) أن « قصيدته التي يقول فيها : أقفر من أهله ملحوب ، وهي إحدى السبع » ، هي من أجود شعره^٣ .

-
- ١ الشعر والشعراء (١٨٨/١) ، وقد أخطأ « ابن قتيبة » اذ جعل قاتله « النعمان بن المنذر » ، وقد ذهب الى هذا المذهب أيضاً في كتاب شمس العلوم (الجزء الاول ، القسم الثاني ص ٣٢٠) .
 - ٢ الخزائن (٣٢٤/١) .
 - ٣ الشعر والشعراء (١٨٨/١) .

ومن أمثاله السائرة قوله :

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا ينجب
وكل ذي غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب

وقوله :

الخبر يبقى وإن طال الزمانُ به والشرّ أخبث ما أوعيت من زاد

وقوله :

الخبر لا يأتي على عجلٍ وانشرّ يسبق سيله مطره^١

ويعد (عبيد) في جملة المعمرين ، فقد جعل (ابن قتيبة) عمره أكثر من
ثلثمائة سنة^٢ ، وجعل (السجستاني) عمره مائتي سنة وعشرين ، ويقال بل ثلثمائة
سنة^٣ . ولتأييد رأيهم في أنه عاش هذا العمر حقاً ، أوجدوا شعراً زعموا أنه
قاله ، هو :

ولتأنيّن^٤ بعدي قرون جمّة ترعى محارم أيكّة ولدودا
فالشمس طالعة وليل كاسف والنجم يجري انحسار سعودا
حتى يقال لمن تعرق دهره يا ذا الزمّانة هل رأيت عبيدا
مائتي زمان كامل وبضعة عشرين عشت معمرأ عمودا
أدركت أول ملك نصر ناشئاً وبناء شداد وكان أيبدا
وطلبت ذا القرنين حتى فاني ركضاً وكدت بأن أرى داودا
ما تبتغي من بعد هذا عيشة إلا الخلود ولن تنال خلودا
وليفنين هذا وذاك كلاهما إلا الإله ووجهه المعبودا^٥

وهو شعر يجعل عمر (عبيد) أكثر من ألف عام ، لا مائتي سنة وعشرين

١ بلوغ الارب (١٠٧/٣) .

٢ الشعر والشعراء (١٨٨/١) ، الخزانة (٣٢٣/١) .

٣ الخزانة (٣٢٣/١) .

٤ الخزانة (٣٢٣/١) .

ويجعله فيمن ولد قبل الميلاد بزمان . وقد شاء صانعه أن يجعل شاعره من المؤمنين بالله الموحدين ، على نحو ما ترى في البيت الأخير من الشعر المزعوم :

ويجب أن نضيف الى الشعراء المذكورين الشاعر المعروف بـ (مرة بن الرواح الأسدي) ، أحد بني (حيي بن مالك) . وهو شاعر قديم يقول أهل الأخبار انه كان في عصر (امرئ القيس) ، وان (امرئ القيس) كان يعلم قيامه أشعار (ابن الرواح)^١ .

وهو القائل :

أشاقك من فكيتك ادلاجُ وبُتَّ الحبل وانقطع الحلاجُ

من قصيدة طويلة . وقوله :

إن الخليط أجدوا البين وادّجوا وهم كذلك في آثارهم لحج^٢

و (المنقلد بن الطمّاح) الأسدي ، شاعر جاهلي من الفرسان المعدودين . وقد أغار على لابل المنلر بن ماء السماء^٣ . وقد عرف بـ (الجميح) ، وينسب اليه قوله :

يابى اللدكاء ويأبى أن شيخم لن يعطي الآن من ضرب وتأديب^٤

و (عبد يغوث بن صلاة) وقيل ابن الحارث بن وقاص بن صلاة بن المعقل) واسمه (ربيعة بن كعب) من شعراء الجاهلية فارس ، سيد قومه من (بني الحارث بن كعب) من اليمن . وكان قائدهم في يوم الكلاب الثاني الى بني تميم وفي ذلك اليوم أسر فقتل . وله قصيدة قالها وهو في أسره أولها :

ألا لا تلوماني كفى اللوم مايبا فالكما في اللوم خير ولا لبا

١ المرزباني ، معجم الشعراء (ص ٣٨٢) .

٢ المرزباني ، معجم الشعراء (٢٩٤) ، (عبد الستار فراج) .

٣ معجم الشعراء (٣٢٩) ، الاصمعيات (٨٠) ، المفضليات (١٠٩) ، السيوطي ، شرح شواهد (٣٦٨/١) .

٤ المفضليات رقم ٤ من القصيدة ٤ ، بروكلمن (٧٨/١) .

ذكر ان الذي أسره غلام أهوج من (بني عمرو بن عبد شمس) ، فانطلق به اهله ، فقالت له أم الغلام : من أنت ؟ قال : أنا سيد القوم ! فضحكت وقالت : قبحك الله من سيد قوم حين أسرك هذا الأهوج ، والى هذا أشار بقوله :

وتضحك مني شيخة عبشمية كأن لم ترى قبلي أسيراً يمانياً^١

وذكر أنه خاطب الشيخة بقوله : أيتها الحرة ، هل لك الى خير ؟ قالت : وما ذاك ؟ قال : أعطي ابنك مائة من الإبل وينطلق بي الى الأهم ، فلماني أخاف أن تتزعني سعد والرباب منه ، فضمن لها مائة من الإبل ، وأرسل الى (بني الحارث) فوجهوا بها اليه فقبضها العبشمي ، وانطلق به الى الأهم ، فقال عبد يغوث :

أأهم يا خير البرية والدأ ورهطاً إذا ما الناس عدوا المساعيا

فشت سعد والرباب الى الأهم فيه ، فقالت الرباب : قتل فارسنا ، وهو النعمان بن جساس ، ولم يقتل لكم فارس ، فدفعه اليهم ، فأخذه (عصمة بن أبير) التميمي ، فانطلق به الى منزله ، فقال عبد يغوث : يا بني تيم ، اقتلوني قتلة كريمة . فقال عصمة : وما تلك القتلة ؟ قال : اسقوني الخمر ودعوني أنروح على نفسي ، فجاءه عصمة بالشراب ، فسقاه ، ثم قطع عرقه الأكحل ، وتركه يترف ، ومضى وجعل معه رجلين ، فقالا لعبد يغوث : جمعت أهل اليمن ، ثم جئت لتصلحننا ، كيف رأيت صنع الله بك فقال هذه القصيدة :

ألا لا تلوماني كفى اللوم ما ييا فإلكما في اللوم خير ولا ليا^٢

وبما جاء في هذه القصيدة قوله :

أقول وقد شدوا لساني بنسعة أمعشر تيم أطلقوا عن لسانيا

وقد ذهب العلماء ملهين في تفسيره ، منهم من قال : انه أراد افعلوا بي

١ السيوطي ، شرح شواهد (٦٧٦/٢) ، الخزانة (٣١٦/١) ، (بولاق) ، الاغاني (٧٣/١٥) ، زيدان تأريخ آداب اللغة العربية (١٣٦/١) وما بعدها .
٢ الخزانة (٣١٤/١) .

خيراً لينطلق لساني بشكركم ، وانكم ما لم تفعلوا فلساني مشدود لا أقدر على مدحك ، لأن اللسان لا يشد بنسعة ، ومنهم من قال : أنهم شدّوه بنسعة حقيقة ، بأنهم ربطوه بنسعة مخافة أن يهجوهم وكانوا يسمونه ينشد شعراً ، فقال : اطلقوا لي عن لساني أذم أصحابي وأنوح على نفسي ، فقالوا : انك شاعر ، ونحدر أن تهجوننا ، فعاهدهم على أن لا يهجوهم ، فأطلقوا له عن لسانه . « قال الجاحظ : وبلغ خوفهم من الهجاء أن يبقى ذكرهم في الأعقاب ، ويسبّ به الأحياء والأموات ، أنهم اذا أسروا الشاعر أخذوا عليه الموائيق ، وربما شدّوا لسانه بنسعة كما صنعوا بعد يغوث ^١ .

وكان (عبد يغوث) شاعراً من شعراء الجاهلية ، من أهل بيت شعر معروف في الجاهلية والإسلام ، منهم : اللجلاج الحارثي ، وهو طفيل بن زيد بن عبد يغوث ، وأخوه : مسهر ، فارس شاعر ، وهو الذي طعن (عامر بن الطفيل) في عينه يوم (فيف الريح) ، ومنهم من أدرك الإسلام : (جعفر بن علي بن ربيعة بن الحارث بن عبد يغوث) ، وكان شاعراً صعلوكاً ، أخذ في دم فحبس بالمدينة ، ثم قتل صبراً ^٢ .

« قال الجاحظ في البيان والتبيين : وليس في الأرض أعجب من طرفة بن العبد ، وعبد يغوث ، فإن قسنا جودة أشعارهما في وقت إحاطة الموت بهما ، فلم تكن دون سائر أشعارهما في حال الأمن والرفاهية ^٣ .

ومن الشعراء المعمرين (ذو الاصبغ العدواني) ، واسمه (حرثان بن محرث ابن الحارث) أو (حرثان بن الحارث بن عمرو بن عبادة بن يشكر) اليشكري العدواني ، لقب بلدي الإصبغ لأن حية نهشته على اصبغه فشلت ، فسمي بذلك . زعم انه عاش مائة وسبعين سنة ، واستقل هذا العدد (أبو حاتم) ، فجعله ثلاثمائة سنة ، وهو عمر لا بأس به ! وكان أحد حكّام العرب ، وله قصة مع بناته الأربع ، في موضوع الزواج ، وصفات الزوج ، ورغبة المرأة في الازدواج ، روي ان (عبد الملك بن مروان) كان يحفظ شعره ، وانه سأل رجلاً من

-
- ١ البيان والتبيين (٤٥/٤) ، (عبد السلام محمد هارون) ، الخزانة (٣١٦/١) .
 - ٢ الخزانة (٣١٧/١) ، (يولات) ، الاشتقاق (٢٣٩/٢) .
 - ٣ البيان والتبيين (٢٦٨/٢) ، الحيسوان (١٥٧/٧) ، الخزانة (٣١٧/١) ، السيوطي ، شرح شواهد (٦٧٦/٢) .

(عدوان) عن شعره وأخباره ، فلم يعرف من أمره شيئاً، فحط من عطائه ثلاثمائة، زادها في عطاء رجل آخر ، كان يعرف شعره^١ . ومن شعره المزعوم في وصف حاله :

أصبحت شيخاً أرى الشخصين أربعة والشخص شخصين لما مسني الكبر
لا أسمع الصوت حتى أستدير له ليلاً وإن هو ناغاني به القمر^٢

ومن شعر (ذي الاصبع) قوله :

جلبنا الخيل من بقران قبا تجوب الأرض فجاً بعد فج

وقوله يذكر عدة من ديارهم :

إن داري بمرهب فبصر فغور فوخدة فالمرار
ولنا منزل برقة لا يسمع فيه تهادي الأخبار
متزل أحرز الخواضن فيه كل قرم متوج جبار
ثم بالفرع قد نزلنا قبلاً دار صدق قليلة الأقدار
ذات حرز وعزة ونجاة وامتناع من جحفل جرار
ماؤنا الفيض لا يعدبنا القيظ ولا التزع بالرشاء المغار^٣

ومن شعره قوله :

لي ابن عمّ على ما كان من خلقي مغالف^٤ لي أقليله ويقليني
أزرى بنا أننا شالت نعامتنا فمخالني دونه بل خلته دوني

-
- ١ « حرثان بن السموال » « حرثان بن محارب » ، « حرثان بن الحارث بن محرث » ، ابن الشجري (٣٦٣/١) . العقد الفريد (٣٢٨/٢ ، ٣٦٣) ، الامالي للقبالي (٢٥٤/١) ، الخزانة (٢٢٢/٣) ، الاغانى (٩١/٣) وما بعدها ، امالي المرتضى (٢٤٤/١) وما بعدها ، الاشتقاق (١٦٣) ، المعرون (٩٠) ، الخزانة (٤٠٦/٢) وما بعدها ، (بلاق) ، (حرثان بن السموال) ، اللآلي (٢٨٩) ، السيوطي ، شرح شواهد (٤٣٠/٢) ، الامالي (٩٣/١) .
 - ٢ الخزانة (٤٠٨/٢) ، بلاق ، المؤلف ، للامدي (١١٨) ، الشعر والشعراء (٥٩٧/٢) وما بعدها .
 - ٣ الصفة (١٢٣) .

إنكَ الا تدع شتمي ومنقصتي أضربك حيث تقول الهامة اسقوني
لاني لعمرى ما بيتي بلدي غلقت على الصديق ولا خيري بممنون
ولا لساني على الأدنى بمنبسط بالفاحشات ، ولا فتكي بمأمون
عني اليكَ فا أُمي براعية ترعى المخاض ولا رأبي بمفنون
لا يخرج الكرهُ مني غير مابيةٍ ولا ألينُ لمن لا يتغي لي

وله قوله :

عذير الحيّ من عدوا ن كانوا حية الأرض
علا بعضهم بعضاً فلم يُرعو على بعض
ومنهم كانت السادا ت والموفون بالقرض
ومنهم حكمٌ يقضي فلا ينقض ما يقضي
إذا ما ولدوا أشبوا بسر الحسب المحض^١

ومن شعراء (بني يشكر) : (المتخل بن عُبيد بن عامر) ، وهو قديم جاهلي ، وكان يشبب بهند أخت عمرو بن هند ، وذكر انه أتهم بـ (المتجرده) امرأة النعمان بن المنذر) ، وهو الذي وشى الى (النعمان) بالنابغة ، لما وصف المتجرده ، وكان أيضاً يتهم بامرأة (عمرو بن هند) . وكان جميلاً ، وقد يكون جماله هذا هو الذي أولد هذا القصص المقال حوله من اتصاله بأخت (عمرو ابن هند) ، وبزوجته ، وبزوجة النعمان . ويذكر (ابن قتيبة) ان (عمرو بن هند) قتله ، وانه قال قبيل قتله :

طل وسط العباد قتلي بلاجر م ، وقومي يتتجون السخالا
لارعيتم بطناً خصيباً ، ولا زر تم عدواً ، ولا رزأتم قبالا^٢

وهذا الخبر ، يتناقض الأخبار التي تذكر انه كان يتهم بالمتجرده ، وانه وشى بالنابغة عند النعمان ، وان (النعمان) خرج يتصيد ، فعمدت الى قيد فجعلت رجلها في احدى حلقتيه ، ورجل المتخل في الأخرى شغفاً به ، وجاء النعمان

١ الشعر والشعراء (٥٩٧/٢ وما بعدها) .

٢ الشعر والشعراء (٣١٨/١) ، المؤلف (١٧٨) ، الاغاني (١٦٦/٩) .

فألفاهما على حالهما ، فأمر بالمنخل فقتل ، فضربت به العرب المثل ، فقال أوس
ابن حجر :

فجئت ربيعي مُولياً لا أزيدُه عليه بها حتى يؤوب المنخل^١

وقد أشار ذو الرمة الى المنخل بقوله :

تقارب حتى يطعم التأني في الهوى وليست بأدنى من إياب المنخل^٢

وقد ورد اسمه على هذه الصورة في (تاج العروس) : « والمنخل بن خليل
الشكري ، كمعظم : شاعر . ومنه لا أفعله حتى يؤوب المنخل . مثل للتأييد ،
يضرب في الغائب الذي لا يرجى إيباه ، كما يقال : حتى يؤوب القارظ العتزي ،
واسمه عامر بن رهم بن هميم . وقال الأصمعي : المنخل رجل أرسل في حاجة ،
فلم يرجع ، فصار مثلاً في كل ما لا يرجى »^٣ .

وقد اشتهر بقصيدته :

ولقد دخلتُ على الفتاة الخلد في اليوم المطير
الكاعب الحساء تر فل في الدمقس وفي الحرير
فدفعته فتدافعت مشي القطاة الى الغدير
وعطفته فتعطففت كتعطف الظبي الغدير
فترت وقالت : يا منخل ما بمجسمك من فتور^٤

ومن المعمرين (معدي كرب) الحميري من آل (ذي رعين) ، روى له
شعراً منه :

أراني كلما أفنيت يوماً أثنائي بعده يومٌ جديدٌ
يعود بياضه في كل فجرٍ ويأبى لي غيبابي ما يعود^٥

-
- ١ أسماء القتالين (المجموعة السابعة من نواذر المخطوطات) ، (ص ٢٣٩) .
 - ٢ ديوانه (٥٠٩) ، الاغانى (١٥٣/١٨) ، أسماء القتالين (٢٣٩) .
 - ٣ تاج العروس (١٣١/٨) ، (نخل) .
 - ٤ الشعر والشعراء (٣١٧/١) وما بعدها .
 - ٥ أمالي المرتضى (٢٥٣/١) .

و (بشر بن أبي خازم) شاعر جاهلي قديم ، من بني أسد ، شهد حرب أسد وطىء ، وشهد هو وابنه نوفل بن بشر الحلفَ بينها . وكان في أول أمره يهجو (أوس بن حارثة بن لأم) الطائي ، فأسرته بنو نبهان من طيء ، فركب (أوس) اليهم فاستوبه منهم ، وكان قد نذر ليحرقه إن قدر عليه ، فوهبه له ، ثم شفت له أم أوس ، ففك أسره ، فجعل بشر مكان كل قصيدة هجاء قصيدة مدح ، لأن الهجاء لا يحى عند العرب إلا بمدح ، يمحو أثره ، في قصة يروونها عن كيفية وقوعه في الأسر^١ .

وروي انه لما طعن ، طعنه غلام من (بني وائلة) بسهم فأثخنه ، وأخذ يجود بنفسه ، قال قصيدة يخاطب بها ابنته عميرة :

أسائلة عميرة عن أبيها خلال الجيش تعرف الركابا

وهي قصيدة روى بعض أبياتها الشريف المرتضى في أماليه^٢. وكان بشر قد أغار في مقنب من قومه على (الأبناء) من بني صعصعة بن معاوية ، وكل (بني صعصعة) إلا (عامر بن صعصعة) يدعون الأبناء ، وهم وائلة ، ومازن ، وسلول ، فلما جالت الخيل مرّ (بشر) بغلام من (بني وائلة) فقال له (بشر) استأمر ، فقال له الوائلي : لتذهبن أو لأرشفنك بسهم من كنانتي ، فأبى بشر إلا أسره ، فرماه بسهم ، فاعتنق بشر فرسه وأخذ الغلام فأوثقه ، فلما كان في الليل أطلقه بشر من وثاقه وخطى سبيله ، وقال : اعلم قومك انك قتلت بشراً ، وهو قوله :

وان الوائليّ أصاب قلبي بسهم لم يكن نكساً لغابا^٣

ومن هذه القصيدة قوله :

تسائل عن أبيها كل ركب ولم تعلم بأن السهم صابا
فرجي الخير وانتظري لإيابي إذا ما القارظُ العتري آبا

-
- ١ الشعر والشعراء (١ / ١٩٠ وما بعدها) ، المفضلية (٩٨) ، أسماء المغتالين (٢١٤) ، (المجموعة السادسة من نوادر المخطوطات) ، رسالة الغفران (١٦٦) .
 - ٢ أمالي المرتضى (١ / ٣٤١) ، الخزنة (٢ / ٢٦٢) ، مختارات ابن الشجري (٨١ وما بعدها) ، الاغانى (١١ / ١٠) ، المؤلف (٦٠) .
 - ٣ الخزنة (٢ / ٢٦٢) ، (بولاق) .

والقارطان من عترة ، يقال لئنها خرجا في طلب القراط يجتنيانه ، فلم يرجعا
فضرب بهما المثل فقالوا : « لا آتيك أو يؤوب القارطان » ، يضرب في انقطاع
الغنية . وفي هذا المثل قال أبو ذؤيب :

وحى يؤوب القارطان كلاهما وينشر في القتلى كليب وواثل^١

وقد رُمي (بشر) بالإقواء في شعره^٢ ، وقد نشر ديوانه^٣ . ومن أمثاله
السائرة قوله :

لم ترَ أنَ طول العهد يُسلى وينسى مثلها نسيت جدام

وقوله :

يكن لك في قومي يد يشكرونها وأيدي الندى في الصالحين فروض^٤

وذكر أنه أوصى ابنته بأن تلزي الدمع عليه ، وأن تبكي عليه البكاء الذي
يستحقه ، وكان من عادة أهل الجاهلية ، التأكيد بلزوم البكاء والنوح على الميت ،
ويؤكدون الوصية بفعله ، وفي هذا المعنى قول طرفة بن العبد :

فإن مت فانهيني بما أنا أهله وشقي عليّ الجيب يا أم معبد^٥

و (عمرو بن حمزة بن رافع بن حارث) اللوسبي ، أحد حكام العرب من
الأزد ، شاعر قديم ، ذكروا أنه عاش ثلاثمائة وتسعين سنة : وذكروا له شعراً ،
قالوا إنه قال فيه أنه جاوز الثلاثمائة من العمر ، وأنه قد كبر ، ولا بد وأن
يأتيه يوم يموت فيه^٦ . وفي رواية أنه وفد على النبي ، وهي خطأ لأنه مات في

١ بلوغ الأرب (١٠٥/٣) .

٢ الشعر والشعراء (١٩٠/١) .

٣ نشره الدكتور عزة حسن بدمشق ، سنة ١٩٦٠ م .

٤ بلوغ الأرب (١٠٤/٣) وما بعدها .

٥ أمالي المرتضى (١/٣٤٠) وما بعدها .

٦ المرزباني ، معجم (١٧) ، (فراج) .

الجاهلية^١ . وله ولد اسمه (جندب) أسلم ، قتل يوم (أجنادين)^٢ . وذكر أنه الذي كان يقال له : ذو الحكم ، وضربت به العرب المثل في قرع العصا ، لأنه بعد أن كبر صار يذهل فاتخذوا له من يوقظه فيقرع العصا ، فيرجع إليه فهمه .
والله أشار الحارث بن ولة بقوله :

إن العصا قرعت للذي الحكم

ومن شعره الذي قاله في كبره :

أخبر أخبار القرون التي مضت ولا بد يوماً أن أطار لمصري^٣

وقد أنجبت (دوس) جملة شعراء ، منهم : (وهب بن عبد الله بن دوس ابن أبي خالد بن زهير) الشاعر في أول الاسلام ، و (جندب بن طريف) الشاعر الذي يقال له ابن الغامدية ، ومنهم : (أبو غُنَيْش) الشاعر ، جاهلي من بني مبدول (مندول ٤) .

وقد اختلف في (جران العود) النيمري ، فلمب (كرنكو) الى انه من شعراء العصر الأموي ، وانه من معاصري عبد الملك بن مروان . وقد نص (البغدادي) على انه شاعر جاهلي من (بني ضنة بن غنبر بن عامر بن صعصعة) . واسمه : (عامر بن الحرث بن كلفة) ، وقيل (كلفة) ، وانما سمي (جران العود) لقوله يخاطب امرأته :

عمدت لعود فالتحيت جرانه وللكبس أمضي في الأمور وأنجح
خذوا حذراً يا ضرتي فإنني رأيت جران العود قد كان يصلح^٥

وجران العود أحد من وصف القوادة في شعره^٦ . وقد روى (السكري) ديوان هذا الشاعر ، وقد تحدث في ديوانه عن (حمامة نوح) ، وورد فيه شعر

-
- ١ الاصابة (٥٢٦/٢) ، (رقم ٥٨٢١) ، ابن دريد ، الاشتقاق (٢٩٦/٢) .
 - ٢ الاصابة (٢٥٠/١) وما بعدها ، (رقم ١٢٢٦) .
 - ٣ الاصابة (٥٢٧/٢) ، (رقم ٥٨٢١) .
 - ٤ الاشتقاق (٢٩٦/٢) .
 - ٥ الخزنة (١٩٨/٤) ، الحيوان (٤٠/١) .
 - ٦ الشعر والشعراء (٦٠٥/٢) وما بعدها .

للرحال ، وكان خلدن جران ، وتزوج كل واحد منها امرأتين ، فلقيا منهما
مكروها^١ . وقد طبع الديوان مع شرح عليه^٢ .

ومن الشعر المنسوب اليه هذا الشعر :

حملن جران العود حتى وضعت بهلياء في أرجائها الجفن تعزف

وذكر (المعري) انه ينسب أيضاً (لسحيم)^٣ .

ونجد في شعر ينسب اليه اشارة الى الكتابة والى الوشوم ، تكون بأيدي الروم،
إذ يقول :

تُرْكَنَ بِرَجْلةِ الرُّوحَاءِ حَتَّى تَنْكَرْتَ الدِّيارُ عَلَى البَصِيرِ
كُوحِي فِي الْحِجَارَةِ أَوْ وُشُومٍ بِأَيْدِي الرُّومِ بَاقِيَةَ النُّشُورِ^٤

وذكر (الجاحظ) له قوله :

وكان فؤادي قد صحا ثم هاجه حائم ورق بالمدائن مُتَفٍ
كأن الهديل الظالم الرجل وسطها من البغي شريب يغرد مترف^٥

وله شعر في وصف (الذئب)^٦ ، وفي أصوات الطيور والحمام وبقية الحيوانات^٧ ،
وفي الطيرة ، إذ يقول :

جری یوم رحنا بالجمال نرفها عقابٌ وشحاج من البين يبرح
فأما العقاب فهي منها عقوبة وأما الغراب فالغريب المطوح^٨

وقد أورد (الجاحظ) له أشعاراً نثرها في كتابه (الحيوان)^٩ .

١ الشعر والشعراء (٦٠٥/٢) .

٢ بروكلمن (١١٦/١) .

٣ رسالة الفجران (٢٧٧) .

٤ الحيوان (٤٠/١) .

٥ الحيوان (٢٠٩/٢) .

٦ الحيوان (٢١٣/٢) .

٧ الحيوان (٢٩٧/٢) ، (٢٤٠/٣) .

٨ الحيوان (٤٤١/٣) .

٩ الحيوان (٣٨٦/٧) .

وقد وصف نفسه وعشيقته بقوله :

فأصبحَ من حيث التقينا غديّة سوار وخلخال ومرط ومُطرف
ومتقطعاتٌ من عقود تركنها كجمر الغضا في بعض ما تتخطف^١

ونجد شعره شعراً حضرياً ، فيه ذكر البقل ، كما في هذين البيتين :

فلنا سقاطاً من حديث كأنه جنى النحل أو أبكار كرم يقطف
حديثاً لو أن البقل يؤلى بمثله زها البقل واخضرّ العضاه المصنف^٢

ومن شعراء الجاهلية : (الحادرة) اللبياني ، وهو (قطبة بن أوس بن محصن ابن جرول) من (بني ثعلبة بن سعد) الغطفاني ، وهو شاعر جاهلي مجيد مقل ، كان يهاجي (زبان بن سيار) الفزاري ، وقد بقيت أشعاره القليلة برواية (أبي عبدالله) البزدي ، المتوفى سنة (٨٣١٠هـ) . وكانت له صاحبة اسمها (سمية) تغزل بها في شعره :

بكرت سمية غلوة فتمتع وغدت غلوةً مفارق لم يربع^٣

ومن شعراء الجاهلية : (سويد بن عامر) المصطلق . ينسب له قوله :

لا تأمن وإن أمسيت في حرم إن المنايا بكفّي كل انسان
واسلك طريقاً تمشى غير مختشع حتى تبيّن ما يمني لك الماني
فكل ذي صاحب يوماً يفارقه وكل زاد وإن أبقته فان
والخير والشر مقرونان في قرن بكل ذلك يأتيك الجديدان^٤

ونسب البيت الأول والثاني والرابع الى أبي قلادة الهنلي ، من قصيدة أولها :

١ البخل (٢٣٣) .

٢ البيان والتبيين (٢٨١/١) .

٣ رسالة الغفران (٢٨٢) ، الاغانى (٨٢/٣ وما بعدها) ، بروكلمن (١١٠/١) ،

البيان والتبيين (٣٢٠/٣) ، الحيوان (٤٧٥/٣) .

٤ رسالة الغفران (٢٨٢ ، ٤٠١) .

٥ أمالي المرتضى (٣٦٨/١) .

يا دارُ أعرفها وحشاً منازلها بين القوائم من رهط فألبان
مع اختلاف في روايتها وترتيبها^١ .

ومن شعراء خزاعة : (مطرود بن كعب) الخزاعي ، له شعر في رثاء عبد
المطلب بن عبد مناف ، أوله :

يا أيها الرجل المحول رحله	ألا نزلت بآل عبد مناف
هبتك أمك لو نزلت عليهم	ضمنوك من جوع ومن أقراف
الآخذون العهد من آفاقها	والراحلون لرحلة الإيلاف
والمطعمون إذا الرياحُ تناوحت	ورجال مكة مستنون عجاف
والفضلون إذا المحول ترادفت	والقائلون هكُم للأضياف
والخالطون غنيهم بفقيرهم	حتى يكون فقيرهم كالكافي
كانت قريش بيضة فتفلقت	فالمحُ خالصة لعبد مناف ^٢

ومن شعراء هذيل (أبو كبير) . وهو (عامر بن الحليس) ، وقيل (ابن
جمرة) . وهو جاهلي ، تزوج أم (نابط شراً) ، ثم تركها في قصة يرويها
أهل الأخبار^٣ . قال (ابن قتيبة) : « وله أربع قصائد ، أولها كلها شيء
واحد ، ولا نعرف أحداً من الشعراء فعل ذلك . احداهن :

أزهير هل عن شية من معدل أم لا سبيل الى الشباب الأول

والثانية :

أزهير هل عن شية من مقصر أم لا سبيل الى الشباب المدبر

والثالثة :

أزهير هل عن شية من مصرف أم لا خلود لباذل متكلف

- ١ أمالي المرتضى (٣٦٨/١) تعليق رقم (١) .
- ٢ أمالي المرتضى (٢٦٨/٢) ، المرزباني ، معجم (٣٧٥) ، ابن هشام (١١٧/١٠)
(حاشية على الروض) .
- ٣ السيوطي ، شرح شواهد (٢٣١/١) ، الخزاعة (٤٦٦/٣) ، السمط (٣٨٧) ،
رسالة الغفران (٣٣٤) ، ديوان الهذليين (٩٢/٢) .

والرابعة :

أزهير هل عن شية من معكم أم لا خلود لباذل متكرم^١

وتنسب له قصيدة فيها :

ولقد سريتُ على الظلام بمغشم جلد من الفتيان غير مُهبل
ممن حملن به وهنَّ عواقد حُبِّكَ النطاق ، فعاش غير مثقل

ونسبها بعض العلماء الى (تأبط شرأ) ، وتناول قصة حب ، وقعت بين صاحب القصيدة وامرأة ، كان لها ابن ذكي ، هدها بقتلها إن بقيت تواصل الرجل ، فأشارت المرأة على الشاعر بقتله ، لأنها تحبه ، ولا تريد مفارقتها ، وفضلت قتله على فراق الشاعر ، في قصة جميلة من قصص الحب^٢ . فالقصيدة إذن من الشعر القصصي الذي يتعلق بالحب والغرام .

وقد نسبها بعضهم الى (أبي كبير) ، وجعل الغلام (تأبط شرأ) في قصة طريفة من قصص الحب^٣ .

وقد روي أنه أدرك الإسلام ، ثم أتى النبي ، و فقال له أحل لي الزنا : فقال : أنتج أن يؤتى اليك مثل ذلك ؟ قال : لا . قال : فارض لأخيك ما ترضى لنفسك . قال : فادع الله لي أن يذهب عني ،^٤ . والأصح أنه جاهلي لم يدرك الإسلام .

ولهذيل شعر جيد وشعراء مجيدين . وتعد من القبائل المخصبة في الشعر ، ومن شعرائها : (المتنخل) : (مالك بن عمرو بن عُثم بن سويد بن حنش بن خناعة) (مالك بن عويمر) من (الحيان)^٥ . اشتهر بقصيدته التي يقول فيها :

-
- ١ الشعر والشعراء (٥٦١/٢) ، الحماسة شرح التبريزي (٤٢/١) ، الامالي (٣٢/٢) .
 - ٢ الشعر والشعراء (٥٦٢/٢ وما بعدها) ، (غير مثقل) ، الخزانة (٤٦٦/٣) .
 - ٣ الخزانة (٤٦٧/٣ وما بعدها) ، شرح الحماسة ، للتبريزي (٤٢/١) .
 - ٤ الخزانة (٤٧٣/٣) ، (فقال : أحل لي الربا) ، الاصابة (١٦٥/٤) ، (رقم (٩٦١) .
 - ٥ الشعر والشعراء (٥٥٢/٢) ، الاغاني (١٤٥/٢٠) ، المؤلف (١٧٨) ، الخزانة (١٣٥/٢) ، السمط (٧٢٤) ، ديوان الهذليين (١٥/٢) .

يا ليت شعري وهم المرء ينصبه والمرء ليس له في العيش تحريز
هل أجزيتمكما يوماً بقرضكما والقرض بالقرض مجزي وجلوز

• قال الأصمعي : ما قلت قصيدة على الزاي أجود من قصيدة الشماخ في
صفة القوس ، ولو طالت قصيدة المتنخل كانت أجود^١ . وهو من الجاهليين .
ومن شعره :

لا ينسئ الله متامعشراً شهدوا يوم الأميلح لا عاشوا ولا مرحوا
عقوا بسهم فلم يشعر له أحد ثم استفاؤا وقالوا : حبذا الوضع

التعقبة : الاعتذار . وأصل هذا أن يقتل الرجل رجلاً من قبيلته ، فيطلب
القاتل بدمه ، فتجتمع جماعة من الرؤساء الى أولياء المقتول بدية مكملة ويسألونهم
العفو وقبول الدية ، فإن كان أولياؤه ذوي قوى أبوا ذلك ، وإلا قالوا لهم :
بيننا وبين خالقنا علامة للأمر والنهي ، فيقول الآخرون : ما علامتكم ؟ فيقولون
أن نأخذ سهماً فرمي به نحو السماء ، فإن رجع الينا مضرراً بالدم ، فقد نهينا
عن أخذ الدية ، وإن رجع كما صعد ، فقد أمرنا بأخذها ، وحينئذ مسحوا
لحامهم وصالحوا على الدية ، وكان مسح اللحية علامة للصلح . قال الأشعر الجعفي :
عقوا بسهم ثم قالوا : ساهموا ياليتني في القوم إذ مسحوا اللحي^٢

وأورد (المرتضى) له شعراً في رثاء أبيه أو أخيه أوله :

لعمرك ما إن أبو مالك بوانٍ ولا بضعيف قواه

ومنه :

أبو مالكٍ قاصيرٌ فقره^٣ على نفسه ومشيع غناه^٤

ومن شعره في الضيف :

ولا والله نادى الحبي ضيفي هدوءاً بالمساءة والعلاط

١ الشعر والشعراء (٥٥٢/٢) .

٢ الخزائن (١٣٧/٢) .

٣ أمالي المرتضى (٣٠٦/١ وما بعدها) .

سأبدؤهم بمشعة وأثني بمجهدني من طعام أو بساط^١

ومن شعراء (هذيل) : (خويلد بن مطحل) الهذلي ، أحد (بني سهم ابن معاوية) ، وكان سيد هذيل في زمانه ، وابنه من بعده ، (معقل بن خويلد) . وكان شاعراً معدوداً في شعراء هذيل ، ووفد الى أرض الحبشة ، فكلّم ملكهم في من عنده من أسرى العرب ، فأطلقهم له . وهو القائل :

لعمرك لليأس غيرُ المريث خيرٌ من الطمع الكاذبِ
وللريث تحفزه بالنجس حـ خيرٌ من الأمل الخائبِ
يرى الحاضر الشاهدُ المطمئن من الأمر ما لا يرى الغائبُ

وورد في (الإصابة) اسم (معقل بن خويلد بن وائل بن عمرو بن عبد ياليل) الهذلي ، وكان شاعراً ، وكان أبوه رفيق (عبد المطلب) الى أبرهة ، وكان بين أبي سفيان وبين معقل بن خويلد ، خلاف في سلب رجل من قریش . فقال النبي : « يا معقل بن خويلد اتق معارضة قریش » . وذكره (المرزباني) في الشعراء المخضرمين^٢ .

ومن بقية شعراء الجاهلية (ذو الخرق) الطهوي ، وهو (دينار بن هلال) . ويقال إن اسمه (قرط) ، وإنما سمي بلذي الخرق لقوله :

جاءت عِجافاً عليها الريش والخرق^٣

وهو من الشعراء الفرسان^٤ .

و (سراج بن قرّة) (سراج بن قوّة) العامري ، أحد بني الصموت بن عبدالله بن كلاب من الشعراء الجاهليين . ذكر (المرزباني) في معجم الشعراء له شعراً قاله في يوم من أيام الجاهلية ، وقد نسب على هذه الصورة : (سراج

١ أمالي المرتضى (٤٩٣/١) .

٢ الشعر والشعراء (٥٥٦/٢) ، ديوان الهذليين (٦٨/٣ وما بعدها) .

٣ الإصابة (٤٢٥/٣) ، (رقم ٨١٣٧) .

٤ السيوطي ، شرح شواهد (١٦٢/١) .

٥ تاج العروس (٣٢٩/٦) ، (خرق) .

ابن قرة (قوة) بن ربيعي بن زرعة بن الكاهن بن عمرو بن عوف بن أبي ربيعة
ابن الصموت بن عبدالله بن كلاب () . وقد زعم أن له وفادة على النبي ، ولا
يوجد دليل يؤيده^١ .

و (السندري بن يزيد الكلابي) شاعر كان مع علقمة بن علاثة ، وكان
(لييد) الشاعر مع (عامر بن طفيل) ، فدعى لييداً الى مهاجاته فأبى^٢ .

ومن شعراء تغلب في الجاهلية (المهلهل) و (عمرو بن كلثوم) التغلبي ،
و (أفنون) التغلبي ، واسمه (ظالم) ، وقيل : (صريم بن معشر بن ذهل بن
تيم بن عمرو بن مالك) التغلبي . يقال انه مات بموضع يقال له (إلهة) بطريق
الشام ، بلدغة حية ، وان كاهناً كان قد قال له : انك تموت بمكان يقال له
إلهة ، فمات به .

وبما ينسب له من الشعر هذا البيت :

مَيتنا الرُّودُ يا مضمون مضمونا أزماننا إن للشبان أفنوننا^٣

وله مقطوعة أولها :

أبلغ حُببياً وخلَّل في صراتهم ان الفؤاد انطوى منهم على حزن
قد كنت أسبق من جاروا على مهلٍ من ولد آدم ما لم يخلعوا رسني
فالوا عليّ ولم أملك فيالتهم حتى انتحيت على الأرساغ والثمن
لو أني كنت من عادٍ ومن إرمٍ ربيت فيهم ولقاهن ومن جدن^٤

ذكروا أنه انما عرف بأفنون لقوله من قطعة :

ميتنا الرود يا مضمون مضمونا أيامنا إن للشبان أفنوننا

١ الاصابة (١٦/٢) ، (رقم ٣١٠١) .

٢ تاج العروس (٢٨١/٣) ، (السندرة) ، ديوان لييد (١٤) ، (مقدمة) .

٣ السيوطي ، شرح شواهد (١٤٦/١) ، وقيل اسمه « ظالم » ، المؤلف (١٥١) ،

السمط (٦٨٤) ، القاب الشعراء (٣١٧) ، الاشتقاق (٢٠٣/٢) .

٤ السيوطي ، شرح شواهد (١٤٤/١ وما بعدها) ، المفضلية رقم (٦٦) ، الامالي

(٥١/٢) ، امالي ابن الشجري (٣٧/١) ، البيان والتبيين (٢٣/١) ، الخزائن
(٤٥٥/٤ وما بعدها) .

وأنه لما قال له الكاهن تموت بمكان يقال له إلهة ، مكث ما شاء الله ثم
 سار الى الشام في تجارة ، ثم رجع في ركب من (بني تغلب) ففضلوا الطريق ،
 ثم نزلوا (إلهة) ، قارة بالسماوة ، فلما أتوها نزل أصحابه ، وقالوا : انزل .
 فقال : والله لا أنزل ! فجعلت ناقته ترتعي عرفجاً فلدغتها أفعى في مشفرها ، فاحتكت
 بساقه والحية بمشفرها فلدغته في ساقه ، فقال لأخ معه احفر لي قبراً فاني ميت ،
 ثم رفع صوته بأبيات منها :

لعمرك ما يدري امرؤ كيف يتقي إذا هو لم يجعل له الله واقياً
 كفى حزناً أن يرحل الحي غدوة وأصبح في أعلى إلهة ثاوياً^١

ومات من ساعته ، فقبره هناك . وهو القائل :

لعمرك ما عمرو بن هند إذا دعا لتخدم أمي امه بموفق^٢
 ومن شعراء تغلب : (الأخنس بن شهاب) التغلبي ، فارس العصا^٣ .
 وينسب له قوله :

يظل بها ربد النعام كأنها اماء تزجى بالعشي حواطب^٤

وقد قال (الأخنس) في أول القصيدة :

لابنة حطان بن عوف منازل كما رقص العنوان في الرق كاتب^٥
 وذكر (الأعلام الشفتمري) قبله :

فن يك أمسى في بلاد مقامه يسائل أطلالاً بها ما تجاوب
 فلابنة حطان بن عوف منازل كما رقص العنوان في الرق كاتب
 وفي جملة أبياتها :

فوارسها من تغلب ابنة وائل حماة كياة ليس فيها أشائب

-
- ١ الخزائن (٤ / ٤٦٠) ، (بولاق) .
 - ٢ الشعر والشعراء (١ / ١٥٩ ، ٣٣١ وما بعدها) ، الحيسوان (٣ / ١٣٥) ، شرح
 النقائض (٨٨٦) .
 - ٣ الاشتقاق (٢ / ٢٠٣) .
 - ٤ الشعر والشعراء (١ / ١٠٢) ، المفضلية رقم (٤١) ، الموشح (٤٤) .

وعدها ما بين ثلاث وعشرين الى ثلاثين بيتاً ، حسب اختلاف الروايات^١ .
 و (البرج بن الجلاء بن الطائي) من شعراء طيء ، وكان خليلاً للحصين
 ابن الحمام وندبمه على الشراب . ذكر أنه وقع على أخت له وهو سكران فافترضها
 فلما أفاق ندم واستكتم ذلك قومه ، ثم أنه وقع بينه وبين الحصين فعيّره بذلك في
 أبيات ، وجرت بينهما الحرب ، فأسره (الحصين) ثم من عليه لتقدم صداقته،
 فلحق ببلاد الروم ، وقيل بل شرب الخمر صرفاً حتى قتله^٢ .

ومن شعراء (طيء) في الجاهلية : (عمرو بن عمار) الطائي ، وكان شاعراً
 خطيباً ، فبلغ النعمان حسن حديثه فحمّله على منادمته ، وكان النعمان أحمر العينين
 والجلد والشعر ، شديد العريضة ، قتالاً للندماء ، فنهّاه (أبو قردودة) عن
 منادمته ، لكنه لم يثبته ، فغضب عليه النعمان وقتله ، فرثاه (أبو قردودة) بقوله :

لاني نيت ابن عمار وقلت له لا تأمنن أحمر العينين والشعره
 إن الملوك متى تنزل بساحتهم تظر بئارك من نيرانهم شرره
 يا جفنة كلزاء الحوض قد هدمت ومنطقاً مثل وشي اليمنة الجبره^٣

وأبو (قردودة) الطائي ، شاعر ، رأى (سعد القرقرة) أكل عند النعمان
 مسلوخاً بعظامه ، فقال :

بن النعام وبين الكلب منبته وفي اللثاب له ظئر وأخوال^٤
 وله قصيدة أولها :

كبيشة عيرسي تريد الطلاقا وتسألني بعد وهنٍ فراقاً^٥

و (دريد بن الصمة) من سادات (جشم) ، ويكنى (أبا قرة) ، وهو
 أحد الفرسان الشجعان المشهورين ، وذوي الرأي في الجاهلية . وشهد معركة (حنين)

-
- ١ الخزانة (١٦٥/٣) ، (بولاق) .
 - ٢ السيوطي ، شرح شواهد (٢٨٠/١) وما بعدها .
 - ٣ الحيوان (٢٤٣/٤) ، (٣٣٢/٥) ، البيان والتبيين (٢٢٢/١ ، ٣٤٩) ، المرزباني
 معجم (٢٣٦) ، محاضرات الراغب الاصبهاني (٩٢/١) .
 - ٤ الحيوان (١٤٧/١) .
 - ٥ الحيوان (٤٦٣/٥) .

مع (هوازن) ، وهو شيخ كبير ، قُتل مع من قتل من المشركين^١ . وقيل انه قال في هذه المعركة :

يا ليتني فيها جذع أخبُ فيها وأضع
أفود وطفاء الزمع كأنها شاة صدع

ومن جيد شعره قوله :

أمرتهم^٢ أمري بمنعرج اللوى فلم يستينوا الرشدَ إلا ضحى الغد
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى غوايتهم ، واني غير مهتدي
وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وان ترشد غزية أرشد

وله أشعار أخرى ، ذكر (ابن قتيبة) بعضاً منها^٣ .

وأمه (ربحانة) بنت (معدي كرب) ، أخت (عمرو بن معدي كرب)^٤ .

وله قصيدة في رثاء (معاوية) أخي الخنساء ، مما جاء فيها :

فإن الرزم يوم وقفت أدعو فلم يسمع معاوية بن عمرو
رأيت مكانه فعطفت زوراً وأي مكان زور يا ابن بكر
على ارم وأحجار ومير وأغصان من السلمات سمر
وبنيان القبور أنى عليها طوال الدهر من سنة وشهر
ولو أسمعته لأناك ركضاً سريع السعي أو لأناك يجري
بشكة حازم لا عيب فيه إذا لبس الكساء جلود نمر
فإذا تمس في جدث مقيماً بمسكة من الأرواح قفر
فعر علي هلكك يا ابن عمرو ومالي عنك من عزم وصبر^٥

-
- ١ الاغانى (٢/٩ وما بعدها) ، الخزائنة (٤٤٢/٤ وما بعدها) ، أسماء المقاتلين (٢٢٣) ، المعمرين (٢٠) ، ابن هشام ، سيرة (٤٢٩/٢) ، المقرئ ، امتاع الاسماع (٤٠٢/١) ، عيون الاثر (١٨٨/٢) .
 - ٢ الشعر والشعراء (٦٣٥/٢ وما بعدها) ، بروكلمان (١٦٤/١) ، كارلو نالينو (٨٠) .
 - ٣ السيوطي ، شرح شواهد (٩٣٨/٢ وما بعدها) .
 - ٤ الخزائنة (٤٤٤/٤) .

وقد وصف بأنه شجاع شاعر فحل : « أول شعراء الفرسان ، أطول الفرسان الشعراء غزواً وأكثرهم ظفراً وأبعثهم نقيبة عند العرب وأشعرهم »^١ . غزا نحو مائة غزوة وما أخفق في واحدة منها ، وأدرك الإسلام ولم يسلم ، وخرج مع قومه يوم حنين مظاهراً للمشركين ولا فضل فيه للحرب ، وإنما أخرجه نيمناً به وليقتبسوا من رأيه ، فقتل على شركه . وكان قد رأس قومه : (مالك بن عوف) ، فلما سأله (دريد) عن خطته في الحرب ، سفه رأيه وأشار عليه بالرجوع فخالفه (مالك) ، فلما التقوا بالمسلمين حلت الهزيمة بهم . وقتل (دريد)^٢ .

وكان (دريد) فارس (غطفان) ، وقتل أخوه (عبدالله) ، فقتل به به (ذؤاب بن أسماء بن زيد بن قارب) ، وقال :

قتلت بعبدالله خير لداته ذواب بن أسماء بن زيد بن قارب^٣

و (عامر بن الطفيل) من (بني عامر بن صعصعة) من الشعراء الذين أدركوا الاسلام ، وقد وفد على الرسول ، وهو يريد الغدر به ، ثم رجع كافراً فأتاه وهو في طريقه الى دياره بالطاعون^٤ . ورد في رواية انه قال للرسول : « تجعل لي نصف ثمار المدينة ، وتجعلني وليّ الأمر من بعد وأسلم ؟ »^٥ . وهو الذي نافر (علقمة بن علاثة) الى (هرم بن قطبة) الفزاري ، حين أهرع منه عامر بن مالك ملاعب الأسنة .

وكان فارس قيس ، أعور عقيماً لا يولد له ، ولم يعقب ، مغروراً فخوراً بنفسه : ومن شعره قوله :

فإني وإن كنتُ ابن فارس عامرٍ وسيدّها المشهور في كل موكب

١ الخزانة (٤٤٦/٤) .

٢ الخزانة (٤٤٦/٤) وما بعدها .

٣ الاشتقاق (١٧٨/٢) .

٤ الطبري (١٤٤/٣) ، (وفد بني عامر) ، ابن هشام ، سيرة (٣٣٧/١) وما بعدها ، (حاشية على الروض الانف) ، الخزانة (٤٧٣/١) ، المعمرن (٦٠) ، ابن كثير ، تاريخ (٥٦/٥) .

٥ الشعر والشعراء (٢٥٢/١) .

فا سوتني عامر عن وراثته أبى الله ان أسمو بأب ولا أب
ولكنني أحي حاما ، وأنقي أذاها ، وأرمي من رماها بمنكب^١

وله شعر يفخر به بقومه قيس عيلان ، يجعل الأرض قيس عيلان وحدهم ،
لهم السهول والحزوم ، وقد نال مجدهم آفاق السموات ، ولهم الصحو منها
والغيوم^٢ .

وكان (عامر) شديداً قوياً ، يرى لنفسه الزعامة بفضل قبيلته ، وبقوة
شخصيته ، وتذكر بعض الأخبار انه لما وفد مع (بني عامر) ، كان غليظاً في
كلامه ، حتى ان الرسول امتعض منه ، وكان يستهين أمر الرسول ، ويقول :
« لقد كنت آليت ألا أنتهي حتى تتبع العرب عقي ، أفأتبع أنا عقب هذا الفتى
من قريش ؟ » يقولها لما كانوا يلحون عليه في الدخول في الاسلام . ولما سأل
الرسول أن يجعل له ميزة فينتقى معه على أن يكون هو سيد أهل الوبر ، وان
يكون الرسول سيد أهل المدر ، وأبى الرسول ذلك عليه ، خرج من يثرب
غاضباً مهدداً ، قائلاً للرسول : « لأملأها عليك خيلاً جرداً ، ورجالاً مرداً :
ولأربطن بكل نخلة فرساً » ، مما جعل الرسول يدعو الله أن يكفيه شره . وكاز
الرسول يقول : « والذي نفسي بيده لو أسلم فأسلمت بنو عامر لزاحوا قريشاً على
منابرهم »^٣ .

وبنو عامر بن صعصعة من القبائل القوية ، وهي من (هوازن) ، وقد كانت
منازلها بنجد ، وقد ساهمت في حروب عبس وذبيان ، فساعدت عبس على ذبيان ،
ولعب عامر بن صعصعة دوراً مهماً فيها .

وقد طبع ديوانه ، طبعه المستشرق (لایل) في سلسلة (جب) التذكارية سنة
(١٩١٣) مع ديوان عبيد بن الأبرص^٤ .

ومن شعراء (بني بارق) : (معقر بن حار) البارقي ، واسمه (سفيان بن
أوس بن حار) ، سمي معقراً بقوله :

-
- ١ الشعر والشعراء (٢٥٣/١) .
 - ٢ الشعر والشعراء (٢٥٢/١) .
 - ٣ الاغانى (١٣١/١٥) وما بعدها .
 - ٤ بروكلمن (١١٧/١) .

له ناهض في الوكر قد مهدت له كما مهدت للبعل حسناء عاقر

وقوم (معقر) ، وهم (بارق) من اليمن في الأصل ، ينتهي نسبهم بالأزد .
وكانوا قد حالقوا (بني نمير بن عامر) لدم أصابوه منهم ، وشهدوا يوم
(جبلة) . وهو يوم كانت فيه وقعة بين (بني ذبيان) و (بني عامر) ،
فظهرت (بنو عامر) على (بني ذبيان) . وكان (معقر) من فرسان قومه
ومن شعرائهم يوم (جبلة) وقد حدد ذلك اليوم بوقوعه قبل الإسلام بتسع وخمسين
سنة ، ويتسع عشرة سنة قبل المولد النبوي^١ .

ومن شعره :

الشعرُ لبُّ المرء يعرضهُ والقول مثل مواقع النبل
منها المقصر عن رميته ونوافذ يذهبن بالخصل^٢

ومن شعره المشهور :

فألقت عصاها واستقرّ بها النوى كما قرّ عيناً بالإياب المسافر^٣

ومن شعراء الجاهلية ، شاعر لا نعرف من أمره شيئاً يذكر ، اسمه : (عمرو
ابن عبد الجثن)^٤ ، (عمرو بن عبد الحق)^٥ ، وينسب له قوله :

أما ودماء مائرات تخالها على قنة العزى وبالنسر عندما
وما سبج الرهبان في كل بيعة أيل الأيلين المسيح بن مريم

١ الخزانة (٢/٢٩٠ وما بعدها) ، (ومعقر بن أويس) البارقي ، كمحدث ، شاعر .
هكذا نسبته « ابن الكلبي » . ويقال هو : معقر بن حمار البارقي حليف بني نمير .
وبارق هو سعد بن عدي بن حارثة بن عمرو بن عامر ، تاج العروس (٣/٤١٨) ،
(عقر) .

٢ الحيوان (٣/٦١ وما بعدها) .

٣ المؤلف (٩٢) ، الرزباني ، معجم (٢٠٤) .

٤ المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الالفية ، للعيني (١/٥٠٠) ، (حاشية على
الخزانة) ، (بولاق) ، اللسان (١١/٦ وما بعدها) ، (أبل) .

٥ تاج العروس (٧/١٩٨) ، (أبل) ، شيخو ، النصرانية (٢/١ ص ١٨٦) .

لقد ذاق منا عامر يوم لعل حساماً اذا ما هز بالكف صمماً^١

ومن شعراء (قيس) المجيدين في الجاهلية : (خدّاش بن زهير بن ربيعة ابن عمرو بن عامر بن صعصعة) ، قال (أبو عمرو بن العلاء) : « خدّاش ابن زهير أشعر في عظم الشعر ، يعني تقس الشعر ، من ليد ، انما كان ليد صاحب صفات » . وجده (عمرو بن عامر) ، يقال له (فارس الضحياء) ، والضحياء فرسه . وفيه يقول :

أبي فارس الضحياء عمرو بن عامر أبي النّم واختار الوفاء على الغدر

ومما يتمثل به من شعره قوله :

ولن أكون كمن ألقى رحالته على الحمار وختلى صهوة القرس

وقوله :

فإن يك أوس حية مستميتة ففترني وأوساً ، إن رقيته معي^٢

وذكر أنه كان من الصحابة ، وأنه شهد حيناً مع المشركين ، ثم أسلم بعد ذلك . ويرى (المرزباني) أنه جاهلي لم يدرك الإسلام ، وأغلب أهل الأخب على هذا الرأي . وينسب إليه قوله :

يا شدة ما شددنا غير كاذبة على سخينة لولا الليل والحرم

و (سخينة) قريش . وكانت تعبر بكثارتها من أكلها السخينة^٣ .

ومن شعره :

فيا راكباً أما عرضت قبلن^٤ عقيلاً إذا لاقيته وأبا بكر
بأنكم من خير قوم لقومكم على أن قولاً في المجالس كالهجر

١ العيني (٥٠٠/١) ، اللسان (٦/١١ وما بعدها) ، (أبل) .
٢ الشعر والشعراء (٥٤٠/٢) ، المؤلف (١٠٧) ، السمط (٧٠١) ، الخزائنة (٢٣٣/٣) ، (٢٣٣/٤) .
٣ الخزائنة (٢٣٣/٣) ، الإصابة (٤٥٥/١) ، (٢٣٢٧) .

دعوا جانباً إنا مشترك جانباً لكم واسعاً بين البامة والظهور^١

و (الحصين بن الحمام) المريّ ، شاعر جاهلي ، وهو من (بني مرة) ،
يعد من أوفياء العرب^٢ . وهو أحد الشعراء المقلّين . « قال أبو عبيدة : واتفقوا
على أن أشعر المقلّين في الجاهلية ثلاثة : المتلمس ، والمسيب بن علس ، والحصين
ابن الحمام المريّ »^٣ . وقد أدخله بعضهم في الشعراء الجاهليين الذين أدركوا الإسلام.
وقد احتجوا بإسلامه بما نسب إليه من الشعر من قوله :

أعوذ بربي من المخزيات يوم ترى النفس أعمالها
وخف الموازين بالكافرين وزلزلت الأرض زلزالها

والأصح أنه جاهلي لم يدرك الإسلام^٤ .

وأما (المفضل بن معشر بن أسحم) ، فهو من (ثُكرة) من (لكيز) ،
فضلته قصيدته التي يقال لها (المنصفة) ، وأولها :

ألم تَرَ أن جبرتنا استقلوا فنيننا ونيتهم فريق^٥

وقد ولم بعض العلماء في وضع تواريخ للشعراء المتقدمين ولغيرهم ، تحدد سني
ميلادهم وسني وفاتهم ، وسني الحوادث التي وقعت في أيامهم والمذكورة في
أشعارهم . وهو ولم لا يستند على أسس علمية . لأن أغلب الروايات الواردة عن
هؤلاء الشعراء هي غير ثابتة ، وقد تتناقض أحياناً ، وقد يثبت بطلانها بعد نقدها
نقداً علمياً ، ثم إن فيها ما هو موضوع مصنوع ظاهر الصنعة ، يبيّن التكلف ،
ولهذا فأنا أحاول جهد إمكاني تجنب نفسي من توريطها في وضع أرقام تمثل

١ الخزانة (٣٣٨/٤) .

٢ الخزانة (٩/١) ، (بولاق) ، الشعر والشعراء (١١٥/١) ، (٥٤٢/٢) ،
الخزانة (٧/٢) ، (٣٥٢/٣) ، الاغانى (١١٨/١٢) ، المؤلف (٩١) ، السمت
(١١٧) .

٣ الشعر والشعراء (١١٥/١) .

٤ الاصابة (٢٣٥/١) ، (١٧٣٢) .

٥ ابن سلام ، طبقات (٧٠) .

مواليد الشعراء الجاهليين أو سني وفاتهم ، أو تواريخ الحوادث المذكورة في شعرهم ، لعدم امكانية التثبت من ذلك ، بل اني أرى لزوم الابتعاد جهد الإمكان من وضع التواريخ لسني حكم الملوك ولسني وفاتهم لصعوبة اثبات ذلك ، والاكتفاء بجهد الإمكان بتقريب أيامهم إلينا بصور تقريبية . ولهذا السبب لم أحفل في هذا الفصل بترتيب الشعراء ترتيباً زمنياً على وفق ما ذهب إليه المولعون بتدوين التواريخ بالسنين ، إذ أرى صعوبة الأخذ بهذا الرأي في التواريخ .

الفصل الثامن والخمسون بعد المئة

المعلقات السبع

ومن الشعر الجاهلي قصائد عرفت بين الناس باسم (المعلقات السبع) وب (المعلقات) وب (المذهبات) وب (السموط) ، لزعم الرواة أن العرب اختارتها من بين مائتي الشعر الجاهلي ، فكتبتها بماء الذهب على القبايطي ، ثم علقتها على الكعبة إعجاباً بها واشادة بذكرها ، وقد بقي بعضها الى يوم الفتح ، وذهب ببعضها حريق أصاب الكعبة قبل الاسلام^١ .

والمعلقات السبع هي سبع قصائد طويلة اختيرت من الشعر الجاهلي ، فعرفت لذلك بين الناس ب (السبع) وبالسبع الطوال ، وبالسبع الطول ، وبالقصائد المختارة ، وبالسبعيات ، وعرفت أيضاً باختيارات حماد ، وبالسبط، وبالسموط ، وبالمذهبات. ويظهر ان لفظة (السبع) ، هي من الألفاظ القديمة التي أطلقت على اختيارات (حماد) ، فقد ذكر (محمد بن أبي الخطاب في كتابه الموسوم بمجمهرة أشعار العرب : ان أبا عبيدة قال : أصحاب السبع التي تسمى السبط : امرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة ، والأعشى ، وليد ، وعمر ، وطرفة . قال : وقال الفضل : من زعم أن في السبع التي تسمى السبط لأحد غير هؤلاء فقد

١ المزهري (٤٨٠/٢) ، الجزء الاول من تاريخ العرب قبل الاسلام (٣٧/١) ، العمدة (٩٦) ، العقد الفريد (١٦٩/٦) .

أبطل^١ . ولما تحدث (ابن قتيبة) عن معلقة (عمرو بن كلثوم) ، قال :
« وهي من جيد شعر العرب القديم ، واحلى السبع »^٢ . فالسبع ، تسمية أخذت
من حقيقة ان القصائد المذكورة المختارة كانت سبع قصائد .

وأما تسمية المعلقات بـ (السبع الطوال) و (السبع الطوال) ، فلكون هذه
القصائد السبعة ، هي من أطول ما ورد في الشعر الجاهلي من قصائد . ونجد هذه
التسمية واردة على لسان (المفضل) حيث نسب اليه قوله : « هؤلاء أصحاب السبع
الطوال »^٣ . وقد أطلقها (ابن كيسان) المتوفى سنة (٢٩٩ هـ) (٩١١)^٤ ،
(٣٢٠ هـ) (٩٣٢)^٥ ، على شرحه لتلك القصائد حيث سماه بـ (شرح السبع
الطوال الجاهلية)^٦ ، وأطلق (أبو جعفر أحمد بن محمد) النحاس^٧ (٣٣٨) هذا
العنوان عليها ، إذ ذكرها بقوله : « ان حماداً هو الذي جمع السبع الطوال ،
ولم يثبت ما ذكره الناس من انها كانت معلقة على الكعبة »^٨ ، وأطلقه على
شرحه لها^٩ .

وعرفت أيضاً بـ (القصائد السبع) وبـ (القصائد السبع الطوال) وبـ (القصائد)^{١٠} .
وبـ (القصائد التسع) ، وبـ (القصائد التسع المشهورة) ، وذلك بالنسبة لمن
أضاف على القصائد المذكورة قصيدتين أخريين^{١١} ، وبـ (القصائد العشر) ، وذلك
بالنسبة لمن أضاف ثلاث قصائد عليها^{١٢} .

ويظهر أن مصطلح (السبع الطوال) ، هو أنسب المصطلحات تعبيراً عن
هذه القصائد ، لأنها تمثل في الواقع أطول ما وصل إلينا من الشعر الجاهلي . فإن
عدد أبيات أقصر قصيدة من قصائدها هو (٦٤) بيتاً ، أما عدد أبيات أطول

-
- ١ المزهر (٤٨٠/٢) .
 - ٢ الشعر والشعراء (١٥٨/١) ، (عمرو بن كلثوم) .
 - ٣ الجهمرة (٤٥) .
 - ٤ بلاشير (١٥٥) .
 - ٥ بروكلمن (٧٠/١) .
 - ٦ ياقوت ، ارشاد (١٤٠/٤) ، جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (٣٧/١) .
 - ٧ بلاشير (١٥٥) .
 - ٨ الاغانى (٨/١١) ، بلاشير (١٥٥) ، شرح القصائد السبع الطوال (للانباري ،
(تحقيق عبد السلام محمد هارون) ، (القاهرة ١٩٦٢ م) ، (دار المعارف) .
 - ٩ بروكلمن (٦٨/١) .
 - ١٠ شرح القصائد العشر ، للتبريزي ، بروكلمن (٧١/١) .

قصيدة منها ، فهو (١٠٤) ، ومعدل أبيات المعلقة (٨٥) بيتاً^١ .

وعرفت هذه القصائد بـ (القصائد المختارة) لطبيعة كونها قصائد اختيرت من قصائد الشعر الجاهلي ، وانتخبت منه انتخاباً^٢ . ونجد مجموعة أخرى عرفت بـ « شعر الشعراء الست » ، وهم امرؤ القيس ، والنابغة ، وعلقمة ، وزهير ، وطرفة ، وعنترة . وقد أشار (البغدادي) الى كتاب دعاه : « مختار شعر للشعراء الست : امرؤ القيس ، والنابغة ، وعلقمة ، وزهير ، وطرفة ، وعنترة . وشرحها للأعلم الشتمري »^٣ .

ولم نجد في الكتب التي وصلت إلينا ، الاسم الصحيح الأول الذي أطلقه جامع هذه القصائد ومختارها عليها . وقد ورد في مقدمة شرح التبريزي (٨٥٠٢) على (القصائد العشر) : « سألتني - أدام الله توفيقك - أن ألخص لك شرح القصائد السبع ، مع القصيدتين اللتين أضافهما إليها أبو جعفر أحمد بن محمد بن اسماعيل النحوي - قصيدة النابغة الليثاني الدالية ، وقصيدة الأعشى اللامية - وقصيدة عبيد بن الأبرص تمام العشر »^٤ . فيظهر منها أن جملة (القصائد السبع) ، كانت غالبية على تلك القصائد ، من حقيقة كونها سبع قصائد في الأصل .

ولا نعلم اسم أول من أطلق مصطلح (المعلقة السبع) على هذه القصائد ، وفي أي وقت أطلقه عليها . ولا يستطيع أحد إثبات أن (حماداً) الراوية هو الذي أطلقه على متبنياته . وقد ذكر (بلاشير) أن (ابن قتيبة) لما تكلم عن قصيدة (عمرو بن كلثوم) التي تدخل في المعلقة قال عنها أنها (احدى السبع المعلقة)^٥ . وقد رجعت الى النص فوجدته يقول : « وهي من جيد شعر العرب القديم ، واحدى السبع »^٦ ، ولما كنت لا أملك النسخة الافرنسية لكتاب (بلاشير) ، لذلك لا أدري اذا كانت تلك النسخة قد استخدمت جملة (احدى السبع المعلقة) ، كما وردت في الترجمة العربية ، أم ان الترجمة العربية هي التي استعملتها تصرفاً ،

Ch. J. Lyall, Ancient Arabian Poetry, p. XX.

- ١ (شرح القصائد المختارة للتبريزي) ، السيوطي ، شرح شواهد المغني (١١ / ١) ، (مقدمة) .
- ٢ الخزائن (١٠ / ١) ، (بولاق) .
- ٣ شرح القصائد العشر (ص ٤٥) ، (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) .
- ٤ بلاشير (١٥٤) .
- ٥ الشعر والشعراء (١٥٩ / ١) .

وانها لم ترد في النص الأصل . واني أستبعد احتمال أخذ (بلاشير) من نسخة أخرى استعملت جملة (احدى السبع المعلقات) بدلاً من (احدى السبع) الواردة في النص الذي اعتمدت عليه ، المطبوع ببيروت سنة ١٩٦٤ م .

والعلماء مختلفون في القصائد التي تعدّ من المعلقات وفي عددها ، ولكنهم متفقون على خمس منها ، هي معلقات امرئ القيس ، وطرفة ، وزهير ، ولييد ، وعمرو بن كلثوم . أما بقيتها ، فمنهم من يعد من بينها معلقة عنتره والحارث بن حلزة ، ومنهم من يدخل فيها قصيدتي النابغة والأعشى . وقد أضاف بعض العلماء القصيدتين اللتين اختارهما المفضل الضبي ، وهما قصيدتا النابغة والأعشى ، الى المعلقات السبع التي هي من اختيار حماد ، فجعلها تسع معلقات . ويرى (نولدكه) ان لولاء حماد لبكر بن وائل علاقة يادخال حماد قصيدة الحارث بن حلزة البشكري في جملة المعلقات ، وذلك ان حماداً كان مولى لبكر بن وائل ، وكانت هذه القبيلة في عدااء مع تغلب ، ولما كانت قصيدة (عمرو بن كلثوم) التغلبي قد لقيت شهرة واسعة ، لم يسع حماد أن يعدل عن اختيارها ، فاخترها ، واختار معها قصيدة الحارث لإرضاء لمن انتمى اليهم بالولاء ، مع قلة شهرتها بالنسبة الى القصائد الأخرى^١ .

ونجد في (الفهرست) اسم كتاب ذكر (ابن النديم) انه من مؤلفات (الأصمعي) ، دعاه (كتاب القصائد الست)^٢ . ولهذا التسمية أهمية كبيرة ، لأنها تدل على ان (الأصمعي) ، كان قد اختار من القصائد المعروفة ست قصائد ، وضمها بين دفني كتاب . ولم يشر (ابن النديم) الى أسماء القصائد الست المختارة ، ولكنني لا أستبعد احتمال اسقاطه قصيدة واحدة من بين القصائد السبع التي اختارها (حماد) ، فصار العدد ست قصائد . كما أشار (البغدادي) الى كتاب دعاه : (مختار شعر الشعراء الست : امرئ القيس ، والنابغة ، وعلقمة ، وزهير ، وطرفة ، وعنتره) ، والى شرحها للأعلم الشنتمري^٣ .

وأشار (السيوطي) أثناء حديثه في مقدمته لكتابه : « شرح شواهد المغني »

Brockelmann, I, S. 18, Char. Lyall, Translations of Ancient Arabian Poetry, London, 1885.

٢ الفهرست (٨٨) ، (الأصمعي) .

٣ خزائن (١٠/١) ، (بولات) .

الى « شرح المعلقات السبع » ، وما ضم اليها للتبريزي ولأبي جعفر النحاس ، وشرح السبع العاليات للكميث ، وشرح القصائد المختارة للتبريزي ،^١ . وتلفت جملة : « وشرح السبع العاليات للكميث » النظر ، لأنها جاءت في أثناء تحدث (السيوطي) عن الكتب التي رجع اليها في جمع مادة كتابه ، وفي أثناء تحدثه على المعلقات السبع وما ضم اليها للتبريزي ولأبي جعفر النحاس ، مما يدل على أنه قصد بشرح السبع العاليات للكميث ، قصائد سبعاً مختارة لها صلة بهذه المعلقات السبع ، ولا سيما وقد ذكر بعد هذا الشرح اسم شرح القصائد المختارة للتبريزي ، التي هي المعلقات العشر ، وأنه لم يقصد بالقصائد السبع (الهاشميات) ، (هاشميات) الكميث وهي أيضاً سبع قصائد ، من شعر هذا الشاعر ، عرفت بالهاشميات . ولو كان قصدها بالذات لدعاها باسمها الذي عرفت به ، وهو (الهاشميات)^٢ ، وإنما قصد كتاباً آخر ، اسمه : (شرح السبع العاليات) ، ولفظة (العاليات) نعت للقصائد السبع . ولم يتحدث السيوطي وبنا للأسف عن هذا الشرح بأي شيء ، فهل يكون الكميث المتوفى سنة (١٢٦ هـ) ، أي قبل (حماد) ، قد اختار سبع قصائد جاهلية وضمها في ديوان عرف بـ (السبع العاليات) وقف عليها (حماد) أو صارت اليه ، فأملأها فنسبت اليه ، على عادة القدماء في ذلك الوقت ، من أخذهم الكتب والروايات القديمة ، ثم أملاها على تلامذتهم ، فنسب اليهم ، فتكون المعلقات اذن من جمع الكميث ، رواية حماد !

ويفهم من خبر مذكور في (خزانة الأدب) أن الخليفة (عبد الملك بن مروان) أمر فطرح شعر أربعة من أصحاب المعلقات ، وأثبت مكانهم أربعة . ومعنى هذا الخبر هو وجود المعلقات قبل أيام عبد الملك . وفي الكتاب خبر آخر هو أن بعض أمراء بني أمية أمر من اختار له سبعة أشعار ، فسيماها المعلقات^٣ ، وفي رواية أخرى : المعلقات الثواني^٤ . ولم يعين المورد الشخص الذي أمر باختيار تلك الأشعار ، ولا الشخص الذي قام بالاختيار . ولعله قصد الوليد وحماداً ،

١ السيوطي ، شرح (١١) .

٢ القصائد الهاشميات ، للكميث (مطبعة الموسوعات بمصر ، ١٣٢١ هـ) ، بروكلمن (٢٤٣/١) ، وطبعت بليدن سنة ١٩٠٤ م ، زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (٣١٦/١) .

٣ خزانة الادب ، للبغدادي (٦١/١) .

٤ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١٨٧/٣) .

فإليها ينصرف الذهن ، لما للوليد من ولج بالشعر ، ولما لحماذ من علم به .
ولم يشر (البغدادي) صاحب (خزانة الأدب) الى اسم المورد الذي استقى
منه خبره عن طرح (عبد الملك) شعر أربعة من أصحاب المعلقات ، وإثباته
أربعة مكانهم . كما أنه لم يشر الى أسماء أصحاب المعلقات الذين طرحت معلقاتهم ،
ولا إلى أسماء الشعراء الأربعة الذين أثبتت قصائدهم مكان القصائد الأربع المطروحة .
وروي أن (معاوية) ، تذكر قصيدة (عمرو بن كلثوم) ، وقصيدة (الحارث
ابن حلزة) فقال « قصيدة عمرو بن كلثوم ، وقصيدة الحارث بن حلزة ، من
مفاخر العرب ، كانتا معلقتين بالكعبة دهرأ »^١ .

والمعروف اليوم ، ان حماداً الراوية ، هو الذي جمع القصائد السبع المذكورة ،
وأذاعها بين الناس . وهو من حفظة الشعر ورواته ومن اشتهروا وعرفوا برواية
الشعر القديم . وكان من المتكسبين بالشعر . وقد اتهم بالوضع والدس على الجاهليين
وبالكذب عليهم : وهو نفسه لم ينكر ذلك ، ولم يبريء نفسه من الدس على
الجاهليين والوضع عليهم . ولكنه كان بإجماع أنصاره وخصومه من أفرس الناس
بالشعر ، ومن أعلمهم بالشعر الجاهلي وبطرقه ودروبه وأساليبه ، ولعل علمه هذا
بالشعر ، ورغبته في التفوق والتصدر على أقرانه المتعishين مثله على رواية الشعر ،
كانا في رأس الأسباب التي حملته على الوضع والدس والافتعال .

ووضع (المفضل) الضبي قصيدتي النابغة والأعشى مكان قصيدتي عنتره
والحارث بن حلزة اليشكري في الاختيارات الشهيرة للمعلقات . وضم (أبو جعفر
أحمد بن محمد بن اسماعيل) النحوي قصيدتي النابغة والأعشى على اختيارات (حماد)
فصار العدد تسع معلقات ، أضاف عليها بعض العلماء قصيدة (عبيد بن الأبرص)
فصارت عشرة ، وقد شرحها (التبريزي)^٢ . وجعل بعضهم العدد ثمانية . ولكن
المشهور المعروف بين علماء الشعر الجاهلي انها سبع قصائد : وهي في رأيهم أفضل
ما قيل من الشعر في زمان الجاهلية^٣ .

ولأهل الأخبار قصص وحكايات عن سبب تسمية المعلقات بالمعلقات . فذكر

١ الخزانة (١٦٢/٣) .

٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٦٨/١) ، شرح التبريزي (٤٥) ، (طبعة محمد
محبي الدين عبد الحميد) .

٣ المقدم الفريد (٩٣/٣) ، ابن خلدون (٥٠٩/١) .

(أحمد بن عبد ربه) مثلاً أن العرب كلفت بقصائد خاصة من الشعر الجاهلي وفضلتها على غيرها ، وعمدت الى سبع قصائد تختيرتها من الشعر القديم ، فكتبتها بماء الذهب في القبايطي المدرجة ، وعلقتها في أستار الكعبة ، فنه يقال : مذهبة امرئ القيس ومذهبة زهير ، والمذهبات سبع ، ويقال لها المعلقات^١ . وورد : يقال مذهبة فلان إذا كانت أجود شعره . وقال (ابن رشيق) : « وكانت المعلقات تسمى المذهبات ، وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر فكتبت في القبايطي بماء الذهب وعلقت على الكعبة ، فلذلك يقال مذهبة فلان ، إذا كانت أجود شعره ، ذكر ذلك غير واحد من العلماء . وقيل : بل كان الملك إذا استجيدت قصيدة الشاعر يقول : علقوا لنا هذه ، لتكون في خزانته^٢ .

وذهب (السيوطي) هذا المذهب كذلك ، إذ قال : « وكانت المعلقات تسمى المذهبات ، وذلك أنها اختيرت من سائر الشعر ، فكتبت في القبايطي بماء الذهب ، وعلقت على الكعبة ؛ فلذلك يقال : مذهبة فلان إذا كانت أجود شعره . ذكر ذلك غير واحد من العلماء . وقيل : بل كان الملك إذا استجيدت قصيدة يقول : علقوا لنا هذه لتكون في خزانته^٣ . وهو رأي أخله من (ابن رشيق) ، من كتابه (العمدة) . وكتاب العمدة من الموارد التي استقى منها (السيوطي) ، يشير اليه أحياناً ، ولا يشير اليه أحياناً أخرى ، كما هو الحال في هذه الجملة ، التي هي عبارة (ابن رشيق) بحرفها كما جاء في العمدة . وقد توفي (ابن رشيق) سنة (٤٥٦ هـ) .

وزعم بعض آخر أن العرب كانوا في جاهليتهم يقول الرجل منهم الشعر في أقصى الأرض ، فلا يعبأ به ولا ينشده أحد ، حتى يأتي مكة في موسم الحج فيعرضه على أندية قريش ، فإن استحسوه روي ، وكان فخراً لقائله وعلق على ركن من أركان الكعبة حتى ينظر اليه ، وإن لم يستحسنوه طرح وذهب فيما يذهب . وقال « أبو عمرو بن العلاء : كانت العرب تجتمع في كل عام وكازت تعرض أشعارها على هذا الحي من قريش^٤ . وذهب (ابن خلدون) الى أن العرب

١ العقد الفريد (١١٦/٣) ، (١١٩/٦) ، (لجنة) .

٢ العمدة (٩٦/١) ، الخزانة (٦١/١) .

٣ السيوطي ، المزهر (٤٨٠/٢) .

٤ خزانة الادب (٦١/١) .

كانوا يعلقون أشعارهم بأركان البيت كما فعل أصحاب المعلقات السبع ، وإنما كان يتوصل الى تعليق الشعر بها من له قدرة على ذلك بقومه وعصبيته ومكانه في مضر^١ . وذكر أن « أول من علق شعره في الكعبة امرؤ القيس وبعده علق الشعراء ، وعدد من علق شعره سبعة . ثانيهم طرفة بن العبد . ثالثهم زهير بن أبي سلمى ، رابعهم ليبد بن ربيعة ، خامسهم عنتره ، سادسهم الحارث بن حلزة ، سابعهم عمرو بن كلثوم . هذا هو المشهور »^٢ . وروي عن (معاوية) قوله : « قصيدة عمرو بن كلثوم ، وقصيدة الحارث بن حلزة من مفاخر العرب كانا معلقتين بالكعبة دهرأ »^٣ .

وعن (ابن الكلبي) انه قال : « أول شعر علق في الجاهلية شعر امرئ القيس علق على ركن من أركان الكعبة أيام الموسم حتى نظر اليه ، ثم أحْدَر فعَلقت الشعراء ذلك بعده ، وكان ذلك فخراً للعرب في الجاهلية ، وعدوا من علق شعره سبعة نفر ، إلا ان عبد الملك طرح شعر أربعة منهم وأثبت مكانهم أربعة »^٤ . ولا بد وأن يكون ظهور قصة التعليق قد حدث قبل أيام (ابن عبد ربه) المتوفى سنة (٨٣٢هـ) ، لورودها في (العقد الفريد)^٥ . (وابن عبد ربه) من معاصري (أبي جعفر أحمد بن محمد) النحاس ، المتوفى بعده بعشر سنوات ، أي سنة (٨٣٨هـ) ، الذي ذكر القصة أيضاً ، لكنه أنكر تعليق المعلقات ، فعنده « أن حماداً هو الذي جمع السبع الطوال ، ولم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلقة على الكعبة »^٦ . وذكر أنه قال في شرحه على المعلقات ما نصه : « واختلفوا في جمع القصائد السبع ، وقيل إن العرب كانوا يجتمعون بعكاظ فيتناشدون الأشعار ، فإذا استحسّن الملك قصيدة قال : علقوا لنا هذه وأثبتوها في خزائني » ، وقال أبو جعفر : « وأما قول من قال إنها عُلقت بالكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة » ، « وهو يستند في رأيه هذا ، إلى أن حماداً الراوية لما رأى زهد الناس في الشعر ، جمع لهم هذه القصائد السبع ، وقال هذه هي

١ مقدمة ابن خلدون (٥١١) ، (٥٠٩/١) .

٢ الخزائنة (٦١/١) .

٣ الخزائنة (٥١٩/١) ، (بولاق) .

٤ الرافعي (١٨٧/٢) .

٥ زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١٠٦/١) .

٦ ياقوت ، ارشاد (١٤٠/٤) .

المشهورات ! فسميت القصائد المشهورة ١ .

وقد مشت اسطورة التعليق هذه بين الناس ، حتى صارت رأياً اعتقد به كثير من المحدثين ، الى درجة أن منهم من صار يغضب ويثور إذا قرأ رأياً يخالف هذا الرأي ، لاعتقاده أن في هذا الإنكار غضاً وتعريفاً بأخلد تراث من تراث العرب القديم ، وأن فيه انتقاصاً من قدر الأدب العربي التليد .

وقد تعرض المستشرقون منذ أيام (بوكوك) لموضوع المعلقات ، وقد رأى كثير منهم ان قصة التعليق قصة مصطنعة وان الموضوع مصنوع موضوع . ويرى (نولدكه) ان اختلاف رواة الشعر في ضبط أبيات تلك المعلقات ، دليل في حد ذاته على عدم صحة التعليق ، إذ لو كانت تلك القصائد معلقة ومشهورة وكانت مكتوبة لما وقع علماء الشعر في هذا الاختلاف . ثم يرى سبباً آخر يحمله على الشك في صحة ما يقال عن المعلقات . هو ان كل الذين كتبوا عن فتح مكة مثل الأزرقي وابن هشام والسهيلي وغيرهم وغيرهم ، أشاروا الى ان الرسول أمر بطمس الصور وكسر الأوثان والأصنام ، ولم يشيروا أبداً الى المعلقات ، ولو كانت المعلقات موجودة كلاً أو بعضاً لما غض أهل الأخبار أنظارهم عنها ، ولما سكتوا عن ذكرها ، لأهميتها عند العرب ٢ .

ثم يرى (نولدكه) ان هذه القصائد لو كانت معلقة حقاً ، وكانت على الشهرة التي يذكرها أهل الأخبار لما أغفل أمرها في القرآن الكريم وفي كتب الحديث وفي كتب الأدب مثل كتاب الأغاني وأمثاله ، ولأشهر إليها ، ولهذا يرى ان ما يروى عن المعلقات هو من القصص الذي نشأ عن التسمية وعن اختيارات حماد لها ، فلما أشاعها بين الناس ، أوجد الرواة لها قصة التعليق ٣ .

وقد استدل (نولدكه) من عبارة : « وقال المفضل : القول عندنا ما قاله

١ محمد هاشم عطية ، الادب العربي وتاريخه (١٢٤) .

Theodor Nöldeke, Beiträge zur Kenntnlss der Poesie der Alten Araber, Hannover, 1864, S. XVIII f. ٢

راجع وصف دخول الرسول الكعبة ، وأمره بطمس الصور وكسر الاصنام والاثوان، ارشاد الساري (٣٩٣/٦ وما بعدها) .

Nöldeke, Beiträge, S. XVII, XX. ٣

بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٦٧/١) .

أبو عبيدة في ترتيب طبقاتهم : وهو ان أول طبقاتهم أصحاب السبع معلقات . وهم : امرؤ القيس وزهير والنابعة والأعشى ولييد وعمرو بن كلثوم وطرفة بن العبد . قال المفضل : هؤلاء أصحاب السبع الطوال التي تسميها العرب بالسموط ، ومن زعم غير ذلك ، فقد خالف جمهور العلماء ^١ ، على ان الأدباء أوجدوا قصة تعليق المعلقات في الكعبة ، نظراً الى ما يقال من تفاخر الشعراء بعكاظ ، وتحكيم المحكمين فيما بينهم ، فرأى رواة الشعر أن يجعلوا المختار من الشعر ، وهو القصائد السبع الطوال سيد الشعر الجاهلي ، ولما كانت مكة ذات قلمية ، وجدوا انها أصح مكان لأن يربط بينه وبين هذا المختار من عيون الشعر ، فأوجدوا حكاية التعليق ^٢ .

وبين المستشرقين فريق ذهبوا مذهب (نولدكه) في رفض قصة التعليق ، ورأوا أن القصة أسطورة لا أصل لها ولا فصل . وفريق أيد التعليق ، وهم أقلية ، وذهب مذهب المثبتين له من علماء الشعر الجاهلي . أما علماء العربية في أيامنا ، فهم أيضاً بين مؤيد وبين مخالف ، ولكل رأي .

وقد تعرض (الرافعي) لموضوع تعليق المعلقات ، فذهب الى أن قصة التعليق على الكعبة قصة مفتعلة ، وأن (ابن الكلبي) هو الذي ذكر خبر تعليقها على الكعبة ، وأن من عدا ابن الكلبي ممن هم أوثق في رواية الشعر وأخباره لم يذكروا من ذلك شيئاً ، بل جملة كلامهم ترمي الى أن القصائد لم تخرج عن سبيل ما يختار من الشعر ، وأن المتأخرين هم الذين بنوا على خبر التعليق ما ذكروه من أمر الكتابة باللذهب أو بمائه في الحرير أو في القباطي ؛ وأن العرب بقيت تسجد لها (١٥٠) سنة حتى ظهر الإسلام ، تسجد لها كما يسجدون لأصنامهم ^٣ . (وابن الكلبي) على رأيه ، هو أول من افترى خبر كتابة القصائد السبع المعلقات وتعليقها على الكعبة ^٤ .

وتعرض (الرافعي) أيضاً الى رأي من ينكر أن هذه القصائد صحيحة النسبة الى قائلها . مرجحاً أنها منحولة وضعها مثل حماد الراوية ، أو خلف الأحمر ،

Beiträge, S. XX. ١

Nöldeke, Beiträge, S. XXII. ٢

الرافعي (١٨٦/٢ ، ١٩٢) . ٣

الرافعي (٤١٦/١) ، (١٩٢/٢) . ٤

فراى أنه رأى فائل ، لأن الروايات قد تواردت على نسبتها ، وتجد أشياء منها في الصدر الأول ، غير أنه بما لا شك فيه أن تلك القصائد لا تخلو من الزيادة وتعارض الألسنة ، قل ذلك أو كثر ، أما أن تكون بجملتها مولدة فدون هذا البناء نقض التاريخ^١ .

ولم أجد بين الموارد التي وصلت إلينا من موارد مطبوعة أو مخطوطة مورداً واحداً ذكر أن الرسول حينما فتح مكة ، وأمر بتحطيم ما كان بها من أصنام وأوثان وبطمس ما كان بها من صور ، وجد معلقة واحدة أو جزءاً من معلقة أو أي شعر آخر وجد مكتوباً ومعلقاً على أركان الكعبة أو على أستارها ، كما اني لم أجد في أخبار بناء الكعبة خبراً يشير إلى أنهم علقوا المعلقات على الكعبة حينما أشادوها وبنوها من جديد . ولو كانت تلك القصائد قد علفت ، لما سكنت الرواة عنها وأغفلوا أمرها اغفلاً تاماً . ثم إن أهل الأخبار الذين أشاروا إلى الحريق الذي أصاب الكعبة ، والذي أدى إلى إعادة بنائها ، لم يشيروا أبداً إلى احتراق المعلقات كلها أو جزء منها في هذا الحريق ، ولو كانت موجودة ومعلقة على الكعبة كما زعموا ، لما سكنتوا عن ذكر هذا الحدث الهام . ثم اني لم أسمع أن أحداً من حملة الشعر الجاهلي من الصحابة أو التابعين ، ولا غيرهم من رواة شعر الجاهلية وحفظته ، وكلهم كانوا يتلذذون بروايته وبسماعه، أشار إلى وجود معلقات ومذهبات وقصائد سبع مختارة ، ولو كان لهم علم بها لما أخفوا ذلك عن جاء بعدهم أبداً . وتعليق المعلقات قصة ، لا أستبعد أن تكون من صنع (حماد) جامعها، أو من عمل من جاء بعده ، في تعليل سبب ذلك الاختيار .

وأما ما زعم من أن معاوية قال : « قصيدة عمرو بن كلثوم ، وقصيدة الحارث بن حلزة ، كانتا معلقتين بالكعبة دهرأ »^٢ ، فخير لا يوثق به .

ومن (السمط) جاءت فكرة تعليق المعلقات . فالسمط : خيط النظم لأنه يعلق ، وقيل قلادة أطول من المخنقة ، والخيط ما دام فيه الخرز ، وجمعه (سموط)^٣ . فالسمط يعلق ، وقد دعي القصائد المذكورة بـ (السمط) ، وقالوا

١ الرافعي (١٩٣/٢) .

٢ الخزائن (٥١٩/١) ، (بولاق) .

٣ اللسان (٣٢٢/٧) .

من ثم بتعليق تلك القصائد ، وتعليقها على الكعبة أو على استارها هو خير مكان يناسب المقام الذي وضعوه لتلك المنظومات .

وتلفت جملة : « وقال المفضل : من زعم أن في السبع التي تسمى السمط لأحد غير هؤلاء ، فقد أبطل » النظر حقاً^١ . فقد استعمل لفظة (السمط) ، فقط ، وقصد بها المعلقات، وهذا الاستعمال يدل على نعت العلماء للقصائد المذكورة بأن كل قصيدة منها وكأنها خيط من اللؤلؤ منظوم يتلو بعضه بعضاً ، وأن تلك القصائد السبع قد اختيرت من بين قصائد الشعر الجاهلي ، وأن من يزيد على ذلك العدد قصيدة ، فقد أخطأ .

وقد روي أن العرب كانت تسمي القصائد الطويلة الجيدة المقلدات والمسمطات^٢ . و « مقلدات الشعر وقلائده البواقى على الدهر »^٣ . « وسمط الشيء تسميطاً علقه بالسوط ، وهي السيور » ، ومن هذا المعنى أخذ اختراع تعليق المعلقات في رأي بعض الباحثين^٤ .

ويذكر علماء اللغة والشعر أن (المسمط) من الشعر ، أبيات تجمعها قافية واحدة بخالفة لقوافي الأبيات . ويقال قصيدة مسمطة، شبهت أبياتها المقفاة بالسوط . وذكر بعضهم : الشعر المسمط الذي يكون في صدر البيت أبيات مشطورة أو منهوكة مقفاة وتجمعها قافية بخالفة لازمة القصيدة حتى تنقضي . وهو الذي يقال له عند المولدين : الخمس ، والسبع ، والثمان . وذكر بعض علماء الشعر أن لامرئ القيس قصيدتان سمطيتان^٥ .

وأرى أن الذي أوحى إلى أهل الأخبار بفكرة المعلقات السبع هو ما جاء في القرآن الكريم : « ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم »^٦ ، وما جاء في الحديث من قوله : « أوتيت السبع الطول »^٧ . وقد ذكر علماء التفسير أن (السبع الطول) من سور القرآن : سبع سور ، وهي سورة البقرة وسورة آل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ، واختلف في السابعة ، ففهم من قال السابعة

١ العمدة (ص ٩٦) .

٢ البيان والتبيين (٩/٢) .

٣ تاج العروس (٤٧٥/٢) ، (قلند) .

٤ تاج العروس (١٦١/٥) ، (سمط) .

٥ تاج العروس (١٦١/٥) ، (سمط) .

٦ الحجر الآية ٨٧ .

٧ اللسان (٤١٠/١١) .

الأنفال ، ومنهم من جعل السابعة يونس ، ومنهم من قال انها سورة (الفاتحة)
وانها « السبع المثاني » ، لأنها تتألف من سبع آيات^١ . فن السبع المثاني التي قصد
بها السور السبع الطوال المذكورة ، والتي ذكر المفسرون انها خصت بهذه التسمية
بسبب كونها أطول السور ولاحتوائها على أكثر الأحكام أخذ رواة الشرع في رأبي
فكرتهم في المعلقات السبع ، التي نعتوها أيضاً بـ (الطوال) وبـ (السبع الطوال)
وهو نعت جاء في الحديث وفي كتب التفسير للسبع المثاني ، أي للسور المذكورة ،
إذ عبّر عنها بـ (السبع الطوال) ، وورد في الحديث : « أوتيت السبع الطوال » .

ويلاحظ أن علماء الشعر مفرمون بعدد السبعة ، وأن نظام انتقائهم للأشعار
قائم على سبع . فالمعلقات سبع ، ومتنقيات العرب والمدهبات التي للأوس والخزرج
خاصة سبع كذلك ، وعيون المراثي سبع ، ومشوبات العرب وهي التي شابهن
الكفر والإسلام سبع كذلك ، والمملحات سبع أيضاً . ومجموع هذه الاختيارات
تسع وأربعون . وهي حاصل هذه المجموعات السبع التي تتألف كل مجموعة منها
من سبعة أشعار^٢ .

وهذا التقسيم السبعي لا بد أن يكون له أساس ، فليس من المعقول أن يكون
اعتباطياً وعلى غير أساس . والمعروف أن التقسيم السبعي ، أو النظام السبعي ،
تقسيم قديم يعود الى سنين طويلة قبل الميلاد ، فالساعات والأرضون سبع ،
والكواكب السيارة سبعة ، والأنغام الموسيقية سبعة ، وأيام الأسبوع سبعة . والعدد
سبعة هو عدد مقدس عند بعض الشعوب القديمة .
وقد سبق لي أن تحدثت في مجلة المجمع العلمي العراقي عن المعلقات السبع ،
وذكرت الأسباب التي حملت العلماء على تسميتها بالمعلقات .

١ تفسير الطبري (٣٥/١٤ وما بعدها) ، تفسير ابن كثير (٥٥٧/٢) ، تفسير
الطبرسي (٣٤٤/٣) .
٢ الراعي (١٩٠/٣ وما بعدها) .

الفصل التاسع والخمسون بعد المئة

أصحاب المعلقةات

أصحاب السبع الطوال ، هم : امرؤ القيس ، وطرفة بن العبد ، وزهير بن أبي سلمى ، وليد بن ربيعة ، وعمرو بن كلثوم ، وعنترة بن شداد ، والحارث ابن حلزة البشكري . وهم الذين اختار (حماد) الراوية قصائدهم ، فألف منها اختياراته . وقد رتبهم حسب الترتيب المألوف الذي يرد في دواوين المعلقةات ، وإن كان هذا الترتيب يتعارض مع الترتيب الزمني . فليد مثلاً كان من الواجب علينا تأخيرها ، يجعله آخر الشعراء المذكورين ، لأنه أدرك الاسلام ، فهو من المخضرمين ، وبعض منهم كان من اللازم تقديمه ، ليأخذ مكانه المناسب له من الناحية الزمنية ، يجعله في موضع من يؤخر لتأخره في الزمان .

وسأضيف على ما ذكرت الأعشى والنابعة وعبيد بن الأبرص ، مجارة لمن زاد على ذلك العدد شاعراً أو شاعرين أو ثلاثة ، أو طرح منه شاعرين ، ووضع في محلها شاعرين آخرين . كما جرى الحديث عن ذلك حين تكلمت عن المعلقةات . وسأبدأ لذلك بالكلام على أولهم ، وهو بإجماع علماء الشعر : امرؤ القيس . وامرؤ القيس ، هو على رأس شعراء الجاهلية في الذكر والشهرة ، وعلى رأس أصحاب (المعلقةات السبع) . وقد أوصله أهل الأخبار الى (قيصر) ، وجعلوا له معه حكايات ثم قبروه بـ (أنقرة) الى جانب قبر ابنة بعض الملوك الروم^١ .

١ نزعة الجليس (١٤٧/٢ وما بعدها) ، السيوطي ، شرح (٢١) ، الاغانى (٦٢/٨ وما بعدها) ، (بولاق) ، الخزائن (٥٣٢/٣) .

وخنموا حياته بخاتمة مؤلمة مفاجئة ، وقالوا إنه عرف بـ (ذي القروح) ، لأن ملك الروم كساه حلة مسمومة فقرحته^١ ، أو لقوله :

وبدلت قرحاً دائماً بعد صحة لعل منايانا تحوّلن أبؤساً^٢

ويرى (بروكلمن) ان قصة موت (امرئ القيس) ، بسبب الحلة المسمومة ، أسطورة تشبه الأسطورة التي حصلت لهرقل البطل اليوناني الشهير^٣ .

ودعوه بـ (الملك الضليل) ، و (الملك المضلل)^٤ . وذكروا انه سعى وجدّ لإعادة ملك والده ، ولكنه باء بالفشل ، وكان آخر ما فعله في هذا الباب ، أن ذهب الى (القسطنطينية) لمقابلة (قيصر) لإقناعه بمساعدته في الحصول على حقه ، وتقويته لينتقم من قتلة والده ، وليعيد الحكم الى كندة ، فكان مصيره ان جاءه الموت وهو في طريقه ، على نحو ما نقصه علينا قصص أهل الأخبار .

وما قصة موته من قروح أصيب بها من لبسه الحلة المسمومة ، إلا أسطورة . ويرى (بروكلمن) احتمال ظهورها من سوء فهم الآيات ١٢-١٤ من القصيدة (٣٠) من ديوانه . ولعل هذه القصة هي التي أوجدت له اللقب الذي لقّب به ، وهو (ذو القروح) . وأنا لا أستبعد احتمال اصابته بدمامل أو بمرض جلدي آخر ، قرحت جلده ، ومات منها ، فعرف لذلك بـ (ذي القروح) ، وأوجدت له قصة الحلة المسمومة على نحو ما أوجدته خيلة أهل الأخبار .

ويذكر أهل الأخبار ان (امرأ القيس) لما احتضر بأنقرة ، نظر الى قبر فسأل عنه ، فقالوا قبر امرأة غريبة ، فقال :

١ المستطرف (٣٥/٢) ، سرح العيون ، لابن نباتة (١٨١) ، (بولاق) ، العمدة (٤١/١) وما بعدها (٩٧) ، شرح القصائد العشر (٤٦ ، ٧) ، المؤلف والمختلف ، للامدي (٩ وما بعدها) ، قال الفرزدق :

وهب القصائد لي النوايح اذ مضوا وأبو يزيد وذو القروح وجرو
ديوان الفرزدق (٧٢٠ وما بعدها) ، النقائض (٢٠٠ وما بعدها) .

٢ شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها ، للشيخ أحمد بن الامين الشنقيطي (ص ٥) (طبعة دار الاندلس) .

٣ بروكلمن (٩٩/١) .

٤ تاج المروس (٤١٢/٧) ، (ضلل) ، الخزانة (١٦٠/١) ، (بولاق) .

أجارتنا إن الخطوب تنوب ولاني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إننا غريان ههنا وكل غريب للغريب نسيب
فإن تصلينا فالمودة بيننا وإن تهجرنا فالغريب غريب

وورد في كتاب : مقاتل الفرسان - لأبي عبيدة ، ان صخر بن عمرو الشريد
أخا الخنساء ، قال لما أدركه الموت :

أجارتنا إن الخطوب تنوب علينا وكل المخطئين مُصيب
أجارتنا لست الغداة بظاعن ولاني مقيم ما أقام عسيب

ومات فدفن بقرب عسيب . فلعلها تواردا ،^١ .

وتذكر قصة ، أن (امرأ القيس) دخل مع القيصر الحمام ، فإذا قيصر أqlف ،
فقال :

لاني حلفت يميناً غير كاذبة أنك أqlف إلا ما جنى القمر
إذا طعنت به مالت عمامته كما تجمع تحت الفلكة الوبر

وتذكر القصة ان ابنة القيصر نظرت اليه فعشقتة ، فكان يأتيها وتأتيه ، وطيبين
(الطمّاح بن قيس) الأسدي لها ، وكان حجر قتل أباه ، فوشى به الى الملك ،
فخرج امرؤ القيس متسرعاً ، فبعث اليه قيصر بحلة مسمومة ، فتناثر لحمه ونفطر
جسده . وكان يحمله (جابر بن حني) التغلبي ، فذلك قوله :

فإما تربني في رحالة جابرٍ على حرج كالقمر تخفق أكفاني
فيا ربّ مكروب كررت وراءه وعانٍ فككت الغلّ عنه ففداني
إذا المرء لم يحزن عليه لسانه فليس على شيء سواه يحزان^٢

ولم ينس (ابن الكلبي) من ذكر آخر كلمة قالها شاعرنا حين حضرته الوفاة ،
فقال إنه قال :

١ السيوطي ، شرح (٧١٥) ، نزهة الجليس (١٤٧/٢) .

٢ الشعر والشعراء (١/ ٥٢ وما بعدها) ، (الثقافة) .

وطعنة مسحفرة وجفنة متعجرة تبقى غداً بأنقرة

فكان هذا آخر شيء تكلم به ، ثم مات^١ .

ورويت كلماته الأخيرة على هذه الصورة :

رب خطبة مسحفره وطعنة مشعجسره
وجعبة متحيره تدفن غداً بأنقره

كما روى شعره الذي قاله يخاطب قبراً لامرأة زعم انها من بنات ملوك الروم ،
على هذا النحو :

أجارتنا إن المزار قريب وإني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إننا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب^٢

وهكذا نجد الرواة يختلفون فيما بينهم في رواية هذه الأشعار التي صنعت على
لسان الشاعر ، لتكون مادة مقومة للقصة . وكان آخر ما صنعه لإتمام القصة ،
أن أوجدوا له قبراً بأنقرة ، اتخذوه الى جانب قبر منفرد منعزل ، هو قبر إحدى
بنات ملك من ملوك الروم ، أوصاهم به (امرؤ القيس) نفسه لمسا رأى دنو
أجله . فكانت الجماعة مؤلمة ، وكان الاختيار موقفاً جذاً ، فالقبر قبر امرأة ،
وكان صاحبنا متيماً بحب النساء ، وكانت المرأة بنتاً لملك من ملوك الروم ، فهي
من طبقة ، وتصلح أن تكون جارة له ، وهو ابن ملك ، وكان صديقاً حميماً
لقيصر الروم ، يدخل معه الحمام ، ويراه عارياً تماماً ، أقلق . فابنة ملك من
ملوك الروم ، تصلح لأن تكون له جارة وصاحبة لهذا القبر ، وهكذا قبروا
الاثنتين في قبرين متجاورين .

وقد زعموا أن امرأ القيس كان « مثناً لا ذكر له ، وغيوراً شديد الغيرة ،
فلذا ولدت له بنت وأدها ، فلما رأى ذلك نساء غيبين أولادهن في أحياء العرب ،
وبلغه ذلك فتبعهن حتى قتلهن »^٣ .

-
- ١ الشعر والشعراء (٥٣/١) ، (الثقافة) ، نزهة الجليس (١٥٣/٢) .
 - ٢ الشعر والشعراء (٦٣/١) ، (الثقافة) .
 - ٣ الشعر والشعراء (٦٣/١) ، (الثقافة) .

وزعموا أنه كان مع جماله ووسامته وحسنه ، مُفْرَسَكاً لا تريده النساء إذا جربته . وقال لامرأة تزوّجها : ما يكره النساء مني ؟ قالت : يكرهن منك أنك ثقيل الصدر ، خفيف العجز ، سريع الارقاة ، بطيء الافاقة . وسأل أخرى عن مثل ذلك فقالت : يكرهن منك أنك إذا عَرَقْتَ فُحْتَ بريح كلب ! فقال : أنت صدقتني ، إن أهلي أرضعونني لبن كلبة . ولم تصبر عليه إلا امرأة من كندة يقال لها هند ، وكان أكثر ولده منها ^١ .

وترغم قصة أن قيصر وجه معه جيشاً ، ليعاونه على استعادة ملكه ، فوشى به رجل من (بني أسد) يقال له (الطلاح) ، فهمّ بقتله ، وأرسل اليه في أثره بحلة مسمومة مع رجل ، أدخله الحمام وكساه إياها بعد خروجه ، فلما لبسها تنفط بدنه ^٢ . وزعم (الجاحظ) أنه « راسل بنت قيصر وأراد أن يختدعها عن نفسها ، وبلغ ذلك قيصر وأراد أن يقتله ، فتذم من ذلك ، وأمر بقميص فغمس في السم ، وقال لامرء القيس : لبس هذا القميص فلاني أحبيت أن أؤثرك به على نفسي لحسنه وبهائه فعمل السم في جسمه وكثرت فيه القروح فمات منها ، فسمي ذا القروح . وقد كان قبل لقيصر قبل ذلك إنه هجاه ، فعندها يقول :

ظلمت له نفسي بأن جئت راغباً إليه وقد سبّرت فيه القوافيا
فإن أكُ مظلوماً فقدماً ظلمته وبالصاع يُجزى مثل ما قد جزانيا ^٣

. قال علماء الشعر : كان (امرؤ القيس) ممن يتعهر في شعره ^٤ ، وقد سبق الشعراء الى أشياء ابتدعها : واستحسنها العرب ، واتبعته عليها الشعراء ، من استيقافه صحبه في الديار ، ورقة النسيب ، وقرب المأخذ . وله تشبيهات مستجادة ، واجادة في صفة الفرس ، وفي الوصف ^٥ . « واجتمع عند (عبد الملك) أشرف من الناس والشعراء ، فسألهم عن أرق بيت قالته العرب ، فاجتمعوا على بيت امرئ القيس :

-
- ١ الشعر والشعراء (٦٣/١) ، (الثقافة) .
 - ٢ نزهة الجليس (١٥٢/٢) .
 - ٣ المحاسن والاضداد (١٤٣) .
 - ٤ الشعر والشعراء (٥٣/١) ، (الثقافة) .
 - ٥ الشعر والشعراء (٥٤/١) ، (الثقافة) .

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل^١ ،

وقال (أبو عبيدة معمر بن المثنى) : « من فضله ، انه أول من فتح الشعر واستوقف ، وبكى في الدمن ، ووصف ما فيها ، ثم قال : دع ذا - رغبة عن المنسبة - فنبعوا أثره ، وهو أول من شبه الخيل بالعصا والقوة والسباع والظباء والطير ، فنبعه الشعراء على تشبيهها بهذه الأوصاف^٢ . »

وقال أبو عبيدة : هو أول من قيد الأوابد ، يعني في قوله في وصف الفرس (قيد الأوابد) فنبعه الناس على ذلك .

وقال غيره : هو أول من شبه الثغر في لونه بشوك السبّال فقال :

منابته مثل السدوس ولونه كشوك السبّال وهو عذب^٣ يفحص

فاتبعه الناس . وأول من قال : « فعادى عداء » فاتبعه الناس . وأول من شبه الحمار (بمقلاء الوليد) وهو عود القلّة و (بكر^٤ الأندري) ، والكر : الحبل . وشبه الطلل (بوحى الزبور في العسيب) . والفرس بتيس الحلب^٥ .

وأورد له علماء الشعر أشياء ذكروا انه انفرد بها ، ولم يتمكن أحد من مجاراته بها^٦ ، وعابوا عليه أشياء ، دافع عنها بعض العلماء ، وردّوا العائنين عليها . وما عابوه عليه تصريحه بالزنا والديب الى حرم النساء ، وفجوره بالمتزوجات ، والشعراء تنوقى ذلك في الشعر وإن فعلته^٧ . وقد فضله (لبيد بن ربيعة) على جميع الشعراء ، إذ قال : « أشعر الناس ذو القروح ، يعني امرأ القيس » .

وقد ذكر علماء الشعر أبيات شعر لامرئ القيس ، قالوا ان غيره من الشعراء أخذوها أخذاً ، مع تغيير بسيط وأدخلوها في شعرهم ، أو أخذوا أكثر ألفاظها أو معانيها فأضافوها الى شعرهم . من ذلك قول امرئ القيس :

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيهم يقولون : لا تهلك أسي وتجمل

١ الشعر والشعراء (٥٦/١) ، (الثقافة) ، ديوانه (١٣) .

٢ الشعر والشعراء (٦٨/١) ، (الثقافة) .

٣ الشعر والشعراء (٧٢/١) وما بعدها ، (الثقافة) .

٤ الشعر والشعراء (٧٣/١) وما بعدها ، (الثقافة) .

٥ الشعر والشعراء (٥٠/١) ، (الثقافة) .

أخذه طرفة فقال :

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيهم يقولون : لا تهلك أسمى وتجلد

ومثل قول امرئ القيس :

فلأياً بلأى ما حملنا غلامنا على ظهر محبوبك السراة محتب

أخذه زهير ، فقال :

فلأياً بلأى ما حملنا غلامنا على ظهر محبوبك ظاهٍ مفاصله

الى غير ذلك من أمثلة ذكرها (ابن قتيبة) وغيره في مؤلفاتهم عن الشعراء والشعراء^١ . إن صحت دلت على أن الشعراء الجاهليين كانوا يحفظون شعر من تقدم عليهم ، وشعر المعاصرين لهم ، وأنهم كانوا يتبعونه ويستقصونه ليحفظوه ، ولم يبالوا بعد ذلك إذا أخذوا شيئاً من شعر غيرهم . وهذا يدل أيضاً على أن الشعر الجاهلي كان محفوظاً في الصدور ، يحفظه الشعراء وغيرهم من عشاق الشعر ، الى أن جاء الاسلام فدوّن بالقراطيس .

يقول علماء الشعر لم يتقدم امرؤ القيس الشعراء لأنه قال ما لم يقولوا ، أو لأنه كان أول من ابتدأ بالشعر ووضع جادته ومهد سبيله ووضحه لمن جاء بعده من الشعراء ، لكنه سبق إلى أشياء طريفة فاستحسنها الشعراء واتبعوه فيها ، لأنه كان أول من لطف المعاني ، ومن استوقف على الطلول ، ووصف النساء بالظباء والمها والبيّض ، وشبه الخيل بالعقبان والعصي ، وفرق بين النسيب وما سواه من القصيدة ، وقرب مأخذ الكلام ، فقيّد الأوابد ، وأجاد الاستعارة والتشبيه^٢ . وقد ثمن (الباقلاني) شعره بقوله : « وأنت لا تشك في جودة شعر امرئ القيس ولا ترتاب في براعته ولا تتوقف في فصاحته ، وتعلم أنه قد أبدع في طرق الشعر أموراً اتبع فيها من ذكر الديار والوقوف عليها الى ما يتصل بذلك من البديع الذي أبدعه والتشبيه الذي أحدثه والتميح الذي يوجد في شعره والتصرف

١ الشعر والشعراء (٦٩/١ وما بعدها) ، (الثقافة) .

٢ الشعر والشعراء (٥٣/١ وما بعدها) .

الكثير الذي تصادفه في قوله ، والوجوه التي ينقسم إليها كلامه من صناعة وطبع وسلاسة وعلو ومثانة ورقة وأسباب تحمد وأمور تؤثر وتمدح . وقد ترى الأدباء يوازنون شعره فلاناً وفلاناً . ثم هو يؤاخذ الشاعر على عيوب ذكر أنها عوار في معلقته^١ .

ووضع أهل الأخبار (امرئ القيس) في رأس زمرة عشاق العرب والزناة . وذكروا له عشقه لـ (فاطمة بنت العبيد بن ثعلبة) العنزية ، وعشقه لـ (أم الحارث) الكلبية ، وعشقه لـ (عنيزة) ، وهي صاحبة يوم (دارة جلجل)^٢ ، ورووا له قصة طريفة حدثت له مع صاحبة يوم (دارة جلجل) ، تبين كيف مكر بابتة عمه (عنيزة) ، فأجبرها على أن تتجرد من لباسها ، لينظر إليها وهي تخرج من الغدير مقبلة ومدبرة ، حتى يتمتع نظره برؤية جسدها العاري ، ثم كيف نحر ناقته ، وشوى لحمها ، وأخذ يطعم به البنات ، وكيف توسل إلى ابنة عمه (عنيزة) لتحمله على غارب بعيرها بعد أن ذبح ناقته وشوى لحمها ليتخذ ذلك حجة له في مشاركة (عنيزة) بعيرها . ثم تروي القصة ، كيف أنه صار يجنح إليها فيدخل رأسه في خلجها فيقبلها . ثم تنتهي القصة بذكر الشعر الذي قاله في هذه المناسبة . حيث يقول :

ويوم عقرت للعذارى مطيبي فيا عجباً من رحلها المتحمّل
يظل العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهداب الدمقس المقتل
ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة فقالت: لك الويلات إنك مُرجلي
تقول وقد مال الغيظ بنا معاً : عقرت بعيري يا امرئ القيس فأنزل
فقلت لها : سيري وأرخي زمامه ولا تبعدينا من جناك المعلّل^٣

ورأوي هذه القصة هو (محمد بن سلام) ، سمعها كما يقول من (أبي شقفل) راوية (الفرزدق) الشاعر الشهير ، وقد ذكر هذا الراوي أنه لم ير رجلاً كان أروى لأحاديث امرئ القيس وأشعاره من الفرزدق ، وذلك لأن (امرئ القيس)

١ اعجاز القرآن (٧٤ وما بعدها) .

٢ الشعر والشعراء (٦٤/١) .

٣ الشعر والشعراء (٦٦/١) ، الثقافة .

كان قد أقام في (بني دارم) رهط الفرزدق حيناً ، حين رأى من أيه جفوة ،
 فن سَمَّ أخذ (الفرزدق) علمه بأخبار (امرئ القيس) وأحاديثه وأشعاره ^١ .
 ويكثر (امرؤ القيس) من ذكر أسماء المواضع التي نزل بها ، وقد أفادنا
 بذلك في معرفة تلك المواضع . وفي جملة ما ذكره موضع (الخص) ، وقد اشتهر
 بالخرم . وهو قرية من أسفل الفرات :

كأن التجار اصعدوا بسيئة من الخص حتى أنزلوها على يسر^٢

وقوله :

لمن الديار عرفتها بسحام فعايتين فهضب ذي أقدام
 فصفا الأبط ففاحتين فعاسم تمشي النعاج بها مع الآرام^٣

وقد ذكر عشرة مواضع من أرض البحرين بقوله :

غشيت ديار الحمي بالبكرات فعارمة فبرقة العيرات
 ففول فحلبي ففني ففنعج الى عاقل فالجب ذي الأمرات^٤

وله أشعار أخرى كثر فيها ورود أسماء المواضع .

ويذكر ان قوماً من أهل اليمن أقبلوا يريدون النبي ، فضلتوا ، ووقعوا على
 غير ماء ، فكثوا ثلاثاً لا يقدرون على الماء ، وأوشكوا على الهلاك ، فأنشد أحدهم
 بيتين من شعر امرئ القيس ، هما :

لما رأت ان الشريعة همها وان البياض من فرائصها دامي
 تيممت العين التي عند ضارجي بغيء عليها الظل عرمضها طامي

فقال أحدهم : ضارج عندكم ، وأشار اليه فشوا على الركب ، فإذا ماء غدق ،

١ الشعر والشعراء (٦٤/١) ، (الثقافة) .

٢ الصفة (١٢٩) .

٣ الصفة (١٥١ ، ٢٢٦) .

٤ الصفة (٢٢٥) .

٥ الصفة (٢٢٩ وما بعدها) .

واذا عليه العَرَمُض ، والظل يفيء عليه ، فشرّبوا وحلّوا ولولا ذلك لهلكوا^١ .
ولما بلغوا النبي ، أخبروه خبرهم ، فقال : « ذاك رجل مذكور في الدنيا شريف
فيها ، منسي في الآخرة خامل فيها ، يجيء يوم القيامة معه لواء الشعراء الى النار »^٢ .
وروي عن (عمر) قوله في (امرئ القيس) : « سابق الشعراء ، خسف لهم
عين الشعر »^٣ . ونجد لهذا الشاعر ذكراً في كتب الحديث^٤ .

وذكر أن (امرأ القيس) أشار الى (ابن مندلة) (ملك العرب) بقوله :
فأقسمت لا أعطي مليكاً ظلاماً ولا سوقة حتى يؤوب ابن مندلة
وروي أن هذا البيت ، هو لعمر بن جوين^٥ .

وتذكر قصة رواها (أبو الحسين) النسابة ، أن (حجرأ) والد امرئ
القيس نهى ابنه عن قول الشعر ، فلما لم ينته عنه ، أمر أحد غلمانه أن يقتله
وبأبيه بعينه ، فانطلق به الغلام ، فاستودعه جبلاً منيفاً ، وعلم أن أباه سيندم
على قتله . وعمد الغلام الى جؤذر كان عنده فنحره وامتلخ عينيه ، فأثى بهما
حجرأ ، فانفجر حجر من الغضب والندم ، حتى همّ بقتل الغلام ، فأخبره الغلام ،
أنه لم يقتله ، وأنه لا زال حياً ، وأنه كان يعلم أن والده سيندم على قتله .
فأمره عندئذ بالذهاب اليه ، والعودة به الى بيته ، فأثاه به . وكف امرؤ القيس
من قول الشعر حتى قتل أبوه^٦ . وهي قصة نجد أمثالها في أساطير الأمم الأخرى .
والى هذه القصة أشار (امرؤ القيس) بقوله :

فلا تتركني يا ربيعُ هذه وكنت أراني قبلها بك واثقاً

-
- ١ الشعر والشعراء (٥٥/١) ، (الثقافة) .
 - ٢ الشعر والشعراء (٦٧/١ وما بعدها) ، (الثقافة) .
 - ٣ الشعر والشعراء (٦٨/١) ، (الثقافة) .
 - ٤ احمد بن حنبل ، مسند (٢٢٨/٢) ، طبقات الشافعية ، للسبكي (٢٥٦/١) ،
(١٩٦٤ م) .
 - ٥ تاج العروس (١٣٢/٨) ، (ندل) .
 - ٦ شرح شواهد المغني ، للسيوطي (٢١) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٩٨/١) ،
« دعا مولى له يقال له ربيعة » ، الشعر والشعراء ، (٥١/١) ، (الثقافة) ،
الخزانة (١٦٠/١ وما بعدها) .

وتذكر رواية أخرى ان أباه نهاه بعد عودته اليه من قول الشعر ، ثم انه قال :

ألا انعم صباحاً أيها الطفل البالي

فبلغ ذلك أباه فطرده^١ .

والمشهور بين علماء الشعر ، ان امرأ القيس انما طرد ، لأنه كان يقول الشعر ، وكانت الملوك تأنف من ذلك ، فزجره أبوه ومنعه عن قوله ، فلما لم ينته طرده . فكان يسير في أحياء العرب ومعه أخلاط من شذاذ العرب من طيء وكلب وبكر ابن وائل ، فلذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد أقام ، فذبح لمن معه في كل يوم وخرج الى الصيد فتصيد ثم عاد فأكل وأكلوا معه وشرب الخمر وسقاهم وغنته قبانه ، ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء ذلك الغدير ، ثم ينتقل عنه الى غيره . فأتاه خبر أبيه ومقتله وهو بدمون من أرض اليمن ، فقال : ضيعني صغيراً وحملني دمه كبيراً ، لا صحو اليوم ولا سكر غداً ، اليوم خمر وغداً أمر ا ثم شرب سبعا ، فلما صحا آلى أن لا يأكل لحماً ، ولا يشرب خمرأ ، ولا يدهن ولا يصيب امرأة ، ولا يغسل رأسه حتى يدرك ثأره . وهكذا صبروا (امرأ القيس) من الصعاليك ، وجعلوه في عدادهم ، فاتكأ كثير الغزل والولوع بالنساء ، ينتقل في أحياء العرب ويغير بهم ، فيصف الأوثان ، ويبكي على الدمن ، ويذكر الرسوم والأطلال وغير ذلك^٢ .

ويرجع سند أكثر الروايات المتقدمة والتي بعدها الى (ابن الكلبي) ، ولابن الكلبي كتاب يتصل بامرئ القيس اسمه : « كتاب تسمية ما في شعر امرئ القيس من أسماء الرجال والنساء »^٣ ، وله روايات مدونة في الأغاني وفي كتب أدب أخرى عن هذا الشاعر وعن ملوك كتندة ، ويظهر أنه قد اصطنع قصص امرئ القيس ، وأضاف على القصص شعراً ، ليكون له سنداً وتفسيراً ، وقد يكون أخذ القصص من أفواه الأعراب والرواة الذين حرفوا تأريخ امرئ القيس ووالده وحوروه وحوّلوه على طريقته المألوفة الى قصص وأساطير ، تميل نفوسهم الى الاستماع إليها . فنقلها عنهم كما سمعها . غير أن (ابن الكلبي) ، كان كما

١ الشعر والشعراء (٥٢/١) ، (الثقافة) .

٢ نزهة الجليس (١٤٧/٢) وما بعدها) .

٣ الفهرست (١٤٨) .

نعلم من الوضاعين ، وكان من العارفين بدروب الشعر ، وكان أيضاً مثل والده ممن يضع الشعر على ألسنة الناس .

وتذكر قصة (امرئ القيس) أنه انتقم من (بني أسد) قتلة والده، فقرت عيناه بأخذه الثأر منهم . وقد نظم ذلك في شعره^١ . وتذكر أنه خرج اليهم أول ما خرج مع بكر وتغلب ، وهم الذين كانوا معه ، فأدرك بني أسد ظهراً ، فكثرت الجرحى والقتلى ، وحجز الليل بينهم ، وهربت بنو أسد ، فلما أصبحت بكر وتغلب ، أبوا أن يتبعوهم وقالوا له : قد أصبت ثأرك . قال : والله ما فعلت ولا أصبت من بني كاهل ولا من غيرهم من بني أسد أحداً ؛ قالوا : بلى ، ولكنك رجل مشؤوم ، وانصرفوا عنه ، فشى هارباً لوجهه ، حتى أمده (مرثد الخير بن ذي جدن) الحميري ، وتبعه شذاذ من العرب ، واستأجر رجالاً من القبائل ، ثم خرج فظفر ببني أسد ، وألح المنذر في طلب امرئ القيس ووجه اليه الجيوش ، ففترق من كان معه ونجا في عصيته . فكان يتزل على بعض العرب ويرحل حتى قدم على السموأل ، ثم على قيصر ، على نحو ما ذكرت^٢ .

وتذكر رواية ان (امرأ القيس) لما مر ببكر بن وائل طالباً منهم النصرة ، سألهم عن شاعر محسن فيهم ، فأتوه بعمر بن قتيبة الضبيعي ، وقد أسن ، فأعجب به (امرؤ القيس) ، فأخذه معه ، حتى ذهب الى (الحارث بن أبي شمر) الفسائي ، طالباً منه النجدة ، فقال له : اني لست أقدر على المسير الى العراق في هذا الوقت ، ولكني أسير معك الى الملك قيصر ، فهو أقوى مني على ما سألت ، وكانت للحارث وفادة على الملك ، فأوفده معه^٣ . فالذي أخذ (امرأ القيس) الى الروم هو (الحارث) ، على هذه الرواية . والمعروف من الروايات الأخرى ان هذا الملك طالب (السموأل) بأسلحة (امرئ القيس) التي أودعها عنده ، فلما أبى السموأل إلا اعطاءها الى (آل امرئ القيس) الشرعيين وورثته، حاصره ، وقتل ابنه ، فضربت العرب بالسموأل المثل في الوفاء^٤ .

١ تاريخ ملوك العرب الاولى (ص ١٢٦ وما بعدها) .

٢ الرافعي (١٩٥/٣ وما بعدها) .

٣ الخزائن (٦١٣/٣ وما بعدها) ، (بولاق) .

٤ نزهة الجليس (١٥١/٢) .

وكنية امرئ القيس (أبو يزيد) ، ويقال : (أبو وهب) ، ويقال :
 (أبو الحارث) ، ويقال (أبو كبشة) . وأما اسمه ، فاختلف فيه ، فقيل :
 (عدي) ، وقيل (مليكة) ، وقيل (حندج) . وكان يقال له : (الملك
 الضليل) ، و (الضليل) ، و (ذو القروح)^١ .

ويذكر أهل الأخبار أن (امرأ القيس) كان مِعْنًا عَرِيضًا يَنَازِعُ كُلَّ مَنْ
 قال أنه شاعر ، فنازع (التوأم اليشكري) ، (الحارث بن التوأم)^٢ ، فقال له :
 « إن كنت شاعراً فَلَطْ أَنْصَافَ مَا أَقُولُ وَأَجْزَهَا » . ونازع (عبيد بن الأبرص)^٣ .
 وإذا ما أخذنا بآراء بعض المستشرقين عن سنة وفاة الشاعر (امرئ القيس)
 من أنها كانت بين السنة (٥٣٠) والسنة (٥٤٠) بعد الميلاد ، فيكون عصر أقدم
 شعر جاهلي وصل إلينا لا يزيد عمره على القرن السادس للميلاد ، أو أواخر القرن
 الخامس للميلاد . وهذا التقدير معقول يتناسب مع الأخبار المروية عن هذا الشاعر .
 روي أن رؤبة بن العجاج قال : حدثني أبي عن أبيه قال : حدثني عمي .
 قالت : سألت امرأ القيس ، ما معنى قولك : كَرَّكَ لَأَمِينٍ عَلَى نَابِلٍ ؟ فقال :
 مررت بنابل وصاحبه يناوله الريش لُؤَامًا وظُّهَارًا ، فَمَا رَأَيْتُ أَسْرَعَ مِنْهُ وَلَا
 أَحْسَنَ ، فَشَبَّهْتُ بِهِ^٤ . ولو أخذنا بهذه الرواية وصدقناها ، فلن نتمكن من
 الارتفاع بها من حيث الزمن إلى أكثر من هذا التقدير .

وذكر أن (امرأ القيس) لما هرب من (المنذر بن ماء السماء) صار إلى
 جبلى طيء : أجا وسلمى ، فتزوج أم جندب . وصادف أن جاءه (علقمة بن
 عبدة التميمي) ، فنذاكرا الشعر ، فقال امرؤ القيس : أنا أشعر منك ، وقال
 علقمة : بل أنا أشعر منك ! فتحاكما إلى أم جندب ، فأخذ كل واحد منهما
 يقول شعراً وهي تسمع ، وتعلق عليه ، ففضلت أم جندب (علقمة) عليه ،
 فغضب (امرؤ القيس) وطلقها ، فخلف عليها علقمة ، فسمي علقمة الفحل^٥ .

-
- ١ السيوطي ، شرح (٢١ وما بعدها) .
 - ٢ قتادة بن التوأم اليشكري ، اللسان (٢١٣/٦) ، (مجس) ، « لقي التوأم
 اليشكري ، واسمه الحارث بن قتادة » ، العملة (٢٠٢/١) .
 - ٣ اللسان (٢١٤/٦) ، (مجس) ، السيوطي ، شرح (٢٥) ، العملة (١٧٦/١) ،
 (٨٧/٢) .
 - ٤ تاريخ العرب قبل الاسلام (٢٦٥/٣) .
 - ٥ التنبيهات على أغلاط الرواة (٤) .
 - ٦ السيوطي ، شرح شواهد (٩٢ وما بعدها) .

وجاء في كتاب (الشعر والشعراء) : « وكان امرؤ القيس في زمان أنوشروان ملك العجم ، لأنني وجدت الباعث في طلب سلاحه الحارث بن أبي شمر الغساني . وهو الحارث الأكبر . والحارث هو قاتل المنذر بن امرئ القيس الذي نصبه أنوشروان بالحيرة . ووجدت بين أول ولاية أنوشروان وبين مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، أربعين سنة ، كأنه ولد لثلاث سنين خلت من ولاية هرمز بن كسرى ، ومما يشهد لهذا ، ان عمرو بن المُسَبِّح الطائي وفد على النبي صلى الله عليه وسلم ، الى المدينة في وفود العرب وهو ابن مائة وخمسين سنة وأسلم . وعمرو يومئذ أرمى العرب . وهو الذي ذكره امرؤ القيس »^١ .

و (عمرو بن المُسَبِّح) (المسيح ؟) الطائي ، هو الذي عناه (امرؤ القيس) بقوله :

رَبِّ رَامٍ مِنْ بَنِي ثَعْلٍ مَخْرَجَ كَفِيهِ مِنْ سِتْرِهِ

وكان كما يزعم أهل الأخبار أرمى العرب يومئذ ومن فرسانهم المعروفين . ومن المعمرين . عمر على ما يقولون مائة وخمسين سنة ، وجعلوه ممن أدرك أيام الرسول ، يل زعموا انه وفد عليه فأسلم . وجعل بعض أهل الأخبار وفاته في خلافة (عثمان) . وتوقف (ابن قتيبة) في (المعارف) ، فقال : « لا يدري أقبض قبل النبي صلى الله عليه وسلم ، أو بعده »^٢ ، « ولست أدري أقبض قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، أم بعده »^٣ .

وذكروا أنه هو القاتل :

لقد عمرت حتى شف عمري علي عمرو بن علة وابن وهب^٤

ولا يعقل خبر بقاء (عمرو بن المسيح) الطائي الى أيام النبي ، ولا سيما خبر

١ الشعر والشعراء (٥٠ وما بعدها) ، (٦٦/١) ، (الثقافة) .

٢ الاصابة (١٧/٣) ، (رقم ٥٩٦٤) ، ابن دريد ، الاشتقاق (٢٣٢) ، المعمرين

(٨٦) ، الشعر والشعراء (٦٧/١) ، (الثقافة) ، الاستيعاب (٥١٣/٢) ،

(حاشية على الاصابة) .

٣ المعارف (٣١٤) .

٤ الاصابة (١٧/٣) ، (رقم ٥٩٦٤) .

من جعل موته في خلافة عثمان . ولعل شخصاً كان اسمه مثل هذا الاسم ، فاشتبه أمره على الرواة ، فظنوه صاحب امرئ القيس . ولو كان هو صاحبه لما سكت عشاق الشعر والباحثون عن شعر صاحبه عنه ، ولوجدنا له خبراً مع الرسول أو عمر عن حياة امرئ القيس .

وقد أشير الى (البريد) في شعر (امرئ القيس) ، إذ ذكر أنه نادى (قيصر) وأركبه البريد :

ونادمت قيصر في ملكه فأوجهنى وركبت البريد
إذا ما ازدحمنا على مكة سبقت الفرائق سبقاً بعيداً^١

وكانت البرد منظومة الى كسرى ، من أقصى بلاد اليمن الى يابه ، أيام وهرز ، وأيام قتل مسروق عظيم الحبشة، وكذلك كانت برد كسرى الى الحيرة: الى النعمان وآبائه ، وكذلك كانت برده الى البحرين : الى المكعب مرزبان الزارة، والى مشكاب ، والى المنذر بن ساوى ، وكذلك كانت برده الى عمان ، الى الجلندى بن المستكبر ، فكانت بادية العرب وحاضرتها مغمورتين برده ، إلا ما كان من ناحية الشام ، فإن تلك الناحية من مملكة خثعم وغسان الى الروم ، إلا أيام غلبت فارس على الروم^٢ .

ويرجع الفضل في تخليد شعر (امرئ القيس) الى (حماد) الراوية ، والى (أبي عمرو بن العلاء)^٣ . وكان (أبو عمرو بن العلاء) يقول : « فتح الشعر بامرئ القيس وختم بذي الرمة »^٤ . والى (الفرزدق) الذي كان من أروى الناس لأحاديثه وأشعاره^٥ ، والى (ابن الكلبي) الذي نجد عنه نقولاً في كتاب (الشعر والشعراء) لابن قتيبة ، تخصص (امرئ القيس)^٦ ، وفي كتاب الأغاني ، وهو من أهم الأخباريين الراوين لأخبار كندة .

-
- ١ ديوانه (٢٦٢) ، رسائل الجاحظ (٢٧٥/١ ، ٢٩٠ وما بعدها) ، (كتاب البغال) .
 - ٢ رسائل الجاحظ (٢٩١/١ وما بعدها) ، (كتاب البغال) .
 - ٣ المزهر (٢٥٣/٢) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٩٩/١) .
 - ٤ السيوطي ، شرح شواهد (١٤٢/١) .
 - ٥ الشعر والشعراء (٦٤/١) ، (الثقافة) .
 - ٦ الشعر والشعراء (٥٣/١ ، ٥٩ ، ٦٧ ، ٦٨) .

وذكر (الرياشي) ان كثيراً من الشعر الوارد في ديوان امرئ القيس ، هو منقول عليه ، وهو لجماعة من أصحابه ، مثل عمرو بن قبيصة^١. وقد نص بعضهم على انه لم يصح له إلا نيف وعشرون شعراً بين طويل وقطعة^٢. وقد عُني علماء الشعر والأخبار بجمع أشعاره في ديوان ، فجمعه غير واحد منهم ، وشرحه كثيرون ، وطبع جملة طبعات ، وترجم الى مختلف اللغات^٣.

وقد اختلف رواة الشعر في ضبط عدد أبيات معلقة امرئ القيس، كما اختلفوا في تقديم وتأخير الأبيات ، « وفي رواية بعض الألفاظ ، بحيث لا تجتمع اثنتان منها على صورة واحدة »^٤. وذكر (البغدادي) : أن قصيدة امرئ القيس التي مطلعها :

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي

هي من عيون شعره ، وعدتها ستة وخمسون بيتاً ، وأكثرها وقعت شواهد في كتب المؤلفين ، وفي كتب النحو والمعاني^٥.

« وكان امرؤ القيس يروي شعر أبي ذؤاد الإيادي ويتوكأ عليه . وهو فحل قديم كان أحد نعات الخيل المجيدين » . « ثم هو كان يعرف أن امرأ القيس ابن حذام يبيكي في شعره الطلول ، فأخذ ذلك عنه كما أخذ صفة الخيل عن أبي ذؤاد ، وتراه يحاول أن يلحقه في إجادة نعتها والشهرة بذلك ، حتى لا يخلو أكثر شعره من هذا الوصف »^٦.

وقد كان يعاصره من الشعراء المعروفين : علقمة بن عبدة، وعبيد بن الأبرص، والشنفرى ، وسلامة بن جندل ، والمثقب العبدى ، والبراق بن روحان ، وتأبط شراً ، والتوءم البشكري .

-
- ١ الموشح للمرزباني (٢٤) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٩٩/١) .
 - ٢ العمدة (٦٧/١) ، الرافعي (٢٠٣/٣) .
 - ٣ راجع التفاصيل في بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٠٠/١ وما بعدها) ، ودائرة المعارف الاسلامية .
 - ٤ الرافعي (١٩٩/٣) .
 - ٥ الخزائن (٢٨/١) ، (يولاق) .
 - ٦ الرافعي (٢٠٤/٣) .

وزعم أن (التوعم) اليشكري لقي (امرأ القيس) يوماً فقال له : إن كنت شاعراً كما تقول فقل لي أنصاف ما أقول فأجزها ، قال : نعم : فقال امرؤ القيس :

أحارٍ ترى بريقاً هب وهناً

فقال التوعم : كنار مجوس تستعر استعاراً

واستمرأ على ذلك . ولما رآه امرؤ القيس قد ماتته ، ولم يكن في أيامه من يطاوله ، آلى أن لا ينازع الشعر أحداً أبداً^١ .

ونجد للباقلاني صاحب كتاب (إعجاز القرآن) آراءً في بعض أشعار (امرئ القيس) ، حيث ينتقد بعض الأبيات ويبين ما فيها من عيوب^٢ . كما نجد في كتب (النقد) آراءً في شعره ، وهي بين مستحسن ومستهجن لبعض الأبيات أو القصائد . ومن الخصائص العروضية في شعره كثرة استعمال الضرب المقبوض في الطويل ، وكثرة الإقواء في القافية ، وكثرة التصريع في غير أول القصيدة^٣ .

وللقدماء ملاحظات عن شعر (امرئ القيس) ، وقد شك بعض منهم في كثير من شعره وذهبوا إلى أنه من الموضوعات ، وقد أشاروا إليه ، ثم جاء المستشرقون ، فركنوا إلى ما قاله القدماء عنه ، وأبدوا رأيهم فيه . وتحدث المحدثون من العرب عنه ، وعلى رأسهم الدكتور طه حسين ، حيث أنكر شعره لحجج أوردها في كتابه في الأدب الجاهلي^٤ .

وعاش في أيام (امرئ القيس) شاعر آخر عرف أيضاً بامرئ القيس ، هو (امرؤ القيس بن حمام بن عبيدة بن هبل بن أبي زهير بن جناب بن هبل)^٥ . و (طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك) ، من قيس بن ثعلبة . وهو ابن أخي (المرقش الأصغر) ، وكان من المقربين إلى عمرو بن هند (ملك

١ الرافعي (٢٢٨/٢) .

٢ الباقلاني ، إعجاز القرآن .

٣ بروكلمن (٩٩/١) .

٤ راجع أيضاً شوقي ضيف : العصر الجاهلي (ص ٢٤٨ وما بعدها) .

٥ السيوطي ، شرح شواهد (٢٦/١) .

الحيرة ، ومن المنادمين لأخيه (أبو قابوس) . وهو ابن أخت (جرير بن عبد المسيح) المعروف بـ (التلمس) . وقد قال الشعر وهو صغير السن ، ومات أبوه وهو صغير ، وأكل أعمامه ماله ، وأبوا تقسيمه ، فهجاهم ، واشتهر بمعلقته التي عاتب بها ابن عمه (مالكا) لأنه لم يُعِنْ أخاه (معبداً) في جمع شتات إبله . وقد قتل بالبحرين على ما يذكره أهل الأخبار في قصص متضارب ، اختلف في سبكه الرواة ^١ .

واسم (طرفة) عمرو ، وإنما سمي طرفة لقوله :

لا تعجلا بالبكاء اليوم مطرفاً ولا أميريكما بالدار إذ وقفا

وقيل إن كنيته (أبو عمرو) ^٢ . وقد فضل بعض علماء الشعر شعره على شعر سائر الشعراء الجاهليين ^٣ .

وكان (طرفة) أحدث الشعراء سنّاً وأقلهم عمراً ، قتل وهو ابن عشرين سنة . فيقال له (ابن العشرين) . وقيل بضع وعشرين سنة . وأمه (وردة) من رهط أبيه ، وفيها يقول لأخواله وقد ظلموها حقها ، بأن يعطوها حقها :

ما تنظرون بمال وردة فيكم صغُر البنون ورهط وردة غيَّب ^٤

ويقال إن أول شعر قاله (طرفة) انه خرج مع عمه في سفر ، فنصب فخاً ، فلما أراد الرحيل قال :

يا لك من قبرة بمعمر خلا لك الجو فيبضي واصفري
وتفري ما شئت أن تفري قد رفع الفخ فاذا تحلري
لا بد يوماً أن تصادي فاصبري ^٥

-
- ١ الخزانة (٤١٣/١) (بولاق) ، الاغاني (١٨٥/٢١) ، الموشح (٥٧) ، المرزباني معجم (٢٠١) ، طبقات ابن سلام (١١٥) ، الشعر والشعراء (١١٧/١) وما بعدها ، الخزانة (٤١٩/٢) ، (هارون) .
 - ٢ أنسيوطي ، شرح شواهد (٨٠٥/٢) ، المزهر (٤٤١/٢) .
 - ٣ المصدر نفسه .
 - ٤ الابيات في ديوانه (١١) ، الشعر والشعراء (١١٩/١) ، (الثقافة) .
 - ٥ الشعر والشعراء (١٢٠/١) ، (الثقافة) ، الخزانة (٤١٧/١) .

وروي ان أخته رثته بقولها :

عددنا له ستاً وعشرين حجة فلما توفاهما استوى سيّداً ضخماً
فُجّعنا به لا رجونا إياه على خير حال لا وليداً ولا قحماً

ورغم قلة ما نسب الى (طرفة) من الشعر ، فقد قدمه علماء الشعر على غيره من الشعراء بأن جعلوا ترتيبه الثاني بعد امرئ القيس ، ولهذا ثنوا بعملته . ذكر (ابن قتيبة) انه أجود الشعراء قصيدة^٢ . وقد ذكر (ابن سلام) ان معظم شعر (طرفة) قد ضاع حتى لم يبق منه بأبيدي المصححين لشعره إلا بقدر عشر قصائد ، مع انه كان من أقدم الفحول . وقد حمل عليه كثيراً من الشعر^٣ .

وكان في حسب من قومه ، جريئاً على هجائهم وهجاء غيرهم . وكانت أخته عند (عبد عمرو بن بشر بن مرثد) ، وكان (عبد عمرو) سيد أهل زمانه ، فشكت أخت طرفة شيئاً من أمر زوجها اليه ، فقال :

ولا عيب فيه غير أن له غنى وإن له كشحاً ، إذا قام أهضماً
وإن نساء الحي يعكفن حوله يقطن ، عيب من سرارة ملها

فبلغ عمرو بن هند الشعر ، فأبلغه الى (عبد عمرو) وهو معه في صيد ، فقال (عبد عمرو) : أبيت اللعن ؛ الذي قال فيك أشدّ مما قال فيّ ، قال : وقد بلغ من أمره هذا ؟ قال نعم . فأرسل اليه ، وكتب له الى عامله بالبحرين فقتله . في قصة منمقة مدوّنة في أكثر كتب الأدب والأخبار . وقد تعرضت لها في مكان آخر من هذا الكتاب . ويقال ان الذي قتله (المعلّى بن حنشل العبدى) ، والذي تولى قتله بيده (معاوية بن مرة الأيظلي) ، حيّ من طسم وجديس^٤ . وقيل (الربيع بن حوثره) عامله على البحرين^٥ . وقيل إن قاتله : (عبد هند

١ الخزانة (٤١٦/١) .

٢ الشعر والشعراء (١١٧/١ وما بعدها) ، الخزانة (٤١٩/٢) ، (هارون) .

٣ طبقات (٢٣) .

٤ الشعر والشعراء (١١٧/١ وما بعدها) .

٥ الشعر والشعراء (١٢١/١) ، الخزانة (٤٢١/٢ وما بعدها) ، (هارون) ، الاغانى (١٢٥/٢١) ، نوادر المخطوطات (المجموعة السادسة) (ص ٢١٢ وما بعدها) .

ابن جرد بن جريّ بن جرّوة بن عمير (التغلبي ، عامل (عمرو بن هند) على البحرين . وان (عمرو بن هند) ، كان قد جعل (طرفة) و (المتلمس) في صحابة (قابوس) أخيه ، فكان (قابوس) يتصيد يوماً ، ويشرب يوماً ، فكان إذا خرج الى الصيد خرجا معه ، فنصبا وركضا يومهما ، فلما كان يوم لهما وقفا على باب يومهما كله ، فلما طال ذلك عليهما ، هجا طرفة (عمرو بن هند) وأخاه ، فبلغ الهجاء الملك ، فقرر قتلها^١ . وورد أن (عمرو بن هند) ، كان قد رشح أخاه (قابوس بن المنذر) ليملك بعده ، وانه جعل (طرفة) و (المتلمس) في صحابة (قابوس) وأمرهما بلزومه ، فكان قابوس شاباً يعجبه اللهو ، وكان يركب للصيد ، فيركض يتصيد ، وهما معه يركضان حتى يرجعا عشية وقد تعباً ، فيكون قابوس من الغداة في الشراب فيقفان بباب سراقه الى العشي ، فضجرا منه فهجوا وهجوا عمرأ معه ، فبلغ ذلك الهجاء (عمرأ) ففعل بهما ما فعل^٢ .

ويقال ان (طرفة) كان ينادم يوماً (عمرو بن هند) ، فأشرفت ذات يوم أخته ، فرأى طرفة ظلها في الجام الذي في يده ، فقال :

ألا يا بابي الطيّب الذي يبرقُ شفاه
ولولا الملك القاعدُ قد الثمني فاه

فحقّد ذلك عليه ، وكان قال أيضاً :

وليت لنا مكان الملك عمرو رغوئاً حولَ قبتنا تدورُ
لعمرك إن قابوسَ بن هند ليخلط ملكه نوكٌ كثير

وقابوس هو أخو (عمرو بن هند) . وكان فيه لبن . ويسمى قينة العرس . فحقّد (عمرو بن هند) عليه واستدعاه ، وكتب له كتاباً ، وكتب بمثل ذلك (للمتلمس) ، وشكّ المتلمس في أمر الصحيفة ، ومزقها ، ومضى (طرفة) الى البحرين ، فأخذ (الرئيس بن حوثره) فسقاه الخمر حتى أثمّله ، ثم فصّد أكحلّه ، فقبّره بالبحرين . وكان لطرقة أخ يقال له (معبد بن العبد) ، فطلب

١ أسماء المقتالين (المجموعة السادسة) . (ص ٢١١ وما بعدها) .

٢ الخزائفة (٤١٢/١) وما بعدها .

بديته ، فأخذها من الحوثر^١ .

ويرى (بروكلمن) أن (طرفة) لم ينادم أبا قابوس ، وإنما نادى (عمرو ابن مامة) أخ الملك من أبيه ، باليامة . وكان قد التجأ الى (مراد) من عداوة أخيه . فعاقب الملك (طرفة) بأخذ إبله التي تركها في (تبالة) من ديار (لحم) ، فهجاه طرفة^٢ . وقد ذكر (المرتضى) رواية تذكر أن صاحب المتلمس وطرفة هو (النعمان بن المنذر) ، وذلك أشبه بقول طرفة :

أبا منذرٍ كانت غروراً صحتي ولم أعطكم في الطوع مالي ولا عرضي
أبا منذرٍ أفنيتَ فاستبق بعضنا حنانك بعض الشرّ أهون من بعض

وأبو منذر ، هو النعمان بن المنذر ، وكان النعمان بعد عمرو بن هند ، وقد مدح طرفة النعمان ، فلا يجوز أن يكون عمرو قتله ، فيشبه أن تكون القصة مع النعمان^٣ .

وذكر « ان عائشة سئلت : هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل بشيء من الشعر ؟ فقالت : لا ، إلا لبيت طرفة :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

فجعل يقول : ويأتيك بالأخبار من لم تزود . فقال أبو بكر : ليس هكذا . فقال : اني لست بشاعر ، ولا ينبغي لي^٤ .

وينسب الى طرفة قوله :

عفا من آل ليلي السهـ ب ، فالأملح فالغمر
ففرق فالرماح فالـ لوى من أهله قفر
وأبلي^٥ الى الغرأ فالماوان فالحجر

١ الشعر والشعراء (١/١٢١) ، النقافة (،) ، فليت (،) الخزائن (١/٤١٢) وما بعدها .

٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/٩٢) .

٣ أمالي المرتضى (١/١٨٥) .

٤ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٨٠٤) وما بعدها .

فأمواه الدنا فالنجد لد فالصحراء فالنسر
فلاة ترتعها العيب من فالظلمان فالعقر

وينسب للخرنق أيضاً^١ .

ويقدم علماء الشعر (طرفة) على غيره من الشعراء ، بإجاده وصف الناقة في
معلقته على نحو لم يسبق إليه^٢ . وقد جعله (لييد) بعد (امرئ القيس) في
الشعر ، وقال عنه « أبو عبيدة : طرفة أجودهم واحدة ، ولا يلحق بالبحور ،
يعني امرأ القيس وزهراً والناقة ، ولكنه يوضع مع أصحابه : الحارث بن حلزة
وعمر بن كلثوم وسويد بن أبي كاهل » .

وقد ذكر علماء الشعر أبياتاً جيدة لطرفة سبق بها غيره من الشعراء ، فأخذها
عنه الشعراء وضمنوها أو ضمنوا معناها شعرهم . ومن اقتبس منه : (لييد)
و (الطرماح) و (علي بن زيد) العبادي ، وعبدالله بن نهيك بن أساف
الأنصاري وغيرهم^٣ .

وتعدّ (معلقة) (طرفة) أطول المعلقات أبياتاً ، فهي تتألف من (١٠٥) أبيات
في شرح القصائد العشر للزوزني^٤ ، وقد يزيد عليها بيتاً أو أكثر في بعض الروايات^٥ .
وتنتهي المعلقة بذكر الموت ، وبالنصح ، وبأن الأيام معارة فما استطعت من معروفها
فتزود بها ، ثم ختمها بقوله :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

وهي حِكْم ، لا تصدر في العادة إلا من شيخ شارف على الموت ومن حَكِم
عرك الأيام ، ومن رجل خبير مجرب . والقصيدة نفسها من نفس رجل ، يجب
أن يكون قد خبر الحياة ، ومارس الشعر زمناً ، فهل تكون من نظم شاب هو
ابن عشرين سنة ، أو بضع وعشرين ؟

١ الصفة (٢٢٥) .

٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٩٢ / ١) .

٣ الشعر والشعراء (١٢١ / ١) ، (الثقافة) .

٤ (ص ١٣٣ وما بعدها) .

٥ نزهة الجليس (١٥٨ / ٢) وما بعدها .

وفي معلقة (طرفة) آيات تشير الى وقوفه على سفن الفرات ودجلة والبحر،
إذ يقول فيها ^١ :

كأن حلوج المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصف من دد
عدولية أو من سفين ابن يامن يجرُّ بها الملاح طوراً ويهتدي
يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم التربّ المفاثل بالسد

ويقول فيها أيضاً ^٢ :

وأتلع نهاضٌ إذا صعدت به كسُكَّان بوصي بدجلة مصعد

وزهير بن أبي سلمى ، من هذا الرعيل الذي عدت إحدى قصائده من
الملقات . وكان على ما يقال راوية لأوس بن حجر زوج أمه ، وكان أوس
راوية للطويل الغنوي ، وهو والد (كعب بن زهير) الشاعر الشهير الذي كساه
الرسول بردة له ، بعد أن كان قد أمر بقتله لما بلغه من هجائه له . فلما سمع (كعب)
بذلك جاء الى المدينة فأسلم ، وطلب العفو ، وقال قصيدته الشهيرة بحضرة الرسول
فغفى عنه وأعطاه البردة . أما والده (زهير) ، فقد توفي قبل المبعث ، ولا
صحة لما ذكره البعض من انه لقي الرسول ^٣ . وقد كان يكنى بـ (أبي بجير) ^٤ .
وأثنى (بجير) النبي وأسلم . وقد زعم انه رأى رؤيا في منامه ، ان سبياً تدلى
من السماء الى الأرض وكان الناس يحسبونه ، فأولاه بنبي آخر الزمان ، وان مدته
لا تصل الى زمن بعثه ، وأوصى بنيه أن يؤمنوا به عند ظهوره . ثم توفي قبل
المبعث بسنة ^٥ .

وهو (زهير بن أبي سلمى) ، واسم (أبي سلمى) ربيعة بن رياح
الزني ، من مزينة بن أد بن طابخة ، وكانت محلتهم في بلاد (غطفان) ، فظن
الناس أنه من غطفان . وقد ذهب (ابن قتيبة) الى أنه من (غطفان) وردّ على

١ المعلقة ، البيت (٣ - ٥) .

٢ المعلقة ، البيت (٢٨) .

٣ الاغانى (١٥٠ / ٩) ، الاصابة (٢٧٩ / ٣) ، (رقم ٧٤١٣) ، الخزانة (١ / ٤٣٦) وما
بعدها) .

٤ السيوطي ، شرح شواهد (١٣١ / ١) .

٥ الخزانة (٢ / ٣٢٥) وما بعدها) .

من زعم أنه من مزينة^١ . وهو أحد الشعراء الثلاثة الفحول ، المتقدمين على سائر الشعراء بالاتفاق ، وإنما الخلاف في تقديم أحدهم على الآخر ، وهم امرؤ القيس ، وزهير ، والنابعة الذيباني^٢ . ويقال إنه لم يتصل الشعر في ولد أحد من الفحول في الجاهلية ما اتصل في ولد زهير^٣ . وكان والد (زهير) شاعراً ، وأخته (سلمى) شاعرة ، وأخته (الخنساء) شاعرة ، وابناه كعب وُبَيْسِر شاعرين ، وابن ابنته (المضرب بن كعب) شاعراً^٤ . وكان خال (زهير بن أبي سلمى) : (أسعد بن الغدير) شاعراً ، وقد عرف بأمه ، وكان أخوه : (بشامة بن الغدير) شاعراً ، كثير الشعر^٥ .

ويظهر من شعر ينسب إليه أنه عاش أكثر من مائة سنة ، إذ نراه يتأفف من هذه الحياة ، ومن مشقاتها ، حتى سئم منها ، إذ يقول :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً ، لا أبالك يسأم

ويقول :

بدا لي إن الله حق فزادني إلى الحق ، تقوى الله ما كان بادياً
بدا لي أني عشت تسعين حجة تباعاً وعشراً عشتها وثمانياً

أو :

ألم ترني عُمرت تسعين حجة وعشراً تباعاً عشتها ، وثمانياً^٦

ويظهر أن بيت بدا لي أن الله حق فزادني ، وما بعده من الشعر المنحول عليه . ولم يرد في رواية أبي العلاء ، والأصمعي ، والمفضل الضبي ، والسكري^٧ .

- ١ الخزانة (٣٣٢/٢) ، (هارون) ، (والناس ينسبونونه إلى مزينة ، وإنما نسبته في غطفان) ، الشعر والشعراء (٧٦/١) ، الأغاني (١٤٦/٩) .
- ٢ الخزانة (٣٣٢/٢) وما بعدها .
- ٣ الشعر والشعراء (٧٦/١) .
- ٤ الخزانة (٣٣٣/٢) .
- ٥ من نسب إلى أمه من الشعراء ، نوادر المخطوطات ، (المجموعة الأولى) ، (ص ٩١) .
- ٦ رسالة الغفران (١٨٢) وما بعدها .
- ٧ رسالة الغفران (١٨٣ رقم ١) .

وفي شعر زهير ، زهد ووعظ وتهذيب ، حملت بعض الباحثين على اعتباره نصرانياً ، ويشك (بروكلمن) في ذلك ، إذ يرى ان أثر النصرانية وإن كان واسع الانتشار في جزيرة العرب في ذلك الوقت ، يسد انه لا توجد لدينا أدلة تحملنا على جعله نصرانياً^١ . وقد ذكر علماء الشعر ان (زهيراً) كان يتأله ويتعفف في شعره . ويدل شعره على إيمانه بالبعث وذلك قوله :

يؤخر فيودع في كتابٍ فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم^٢

ومن جيد شعره في تحديد اليمين قوله :

فلان الحق مقطعه ثلاث^٣ يمين أو نِفار أو جلاء^٤

وقد ثمن شعره وقدره العلماء . قال (الثعالبي) فيه : « انه أجمع الشعراء للكثير من المعاني في القليل من الألفاظ »^٥ . وفي معلقته أبيات في نهاية الحسن والجودة ، وقد جرت مجرى الأمثال الرائعة^٥ .

وورد أن (عمر بن الخطاب) كان لا يقدم عليه أحداً . وذكر أن (عمر) قال لابن عباس : أنشدني لأشعر شعرائكم . قلت : من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : زهير . قيل بمَ كان ذلك ؟ قال : كان لا يعاظم بين الكلام ، ولا يتبع حوشيه ، ولا يمدح الرجل بما لا يكون في الرجال . قال : فأنشدته حتى برق الصبح . وورد أن عمر كان جالساً « مع قوم يتذكرون أشعار العرب إذ أقبل ابن عباس ، فقال عمر : قد جاءكم أعلم الناس بالشعر ، فلما جلس قال : يا ابن عباس ، من أشعر العرب ؟ قال : زهير بن أبي سلمى . قال فهل نشد من قوله شيئاً نستدل به على ما قلت ، قال : نعم ، امتدح قوماً من غطفان يقال لهم بنو سنان فقال :

١ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٩٥/١) .

٢ الشعر والشعراء (٧٨/١) ، (الثقافة) .

٣ الشعر والشعراء (٧٩/١) ، (الثقافة) .

٤ خاص الخاص (٧٥) ، الاعجاز والايجاز (٣٧) .

٥ كارلو نالينو (٧٧) .

لو كان يقعد فوق الشمس من أحد قوم لأولهم يوماً إذا قعدوا
مُحَسَّدُونَ على ما كان من نعم لا يترع الله عنهم ماله حسدوا^١

وورد في رواية أخرى ، ان (عمر) قال لابن عباس : « أنشدني لشاعر الشعراء ، الذي لم يعاقل بين القوافي ، ولم يتبع وحشي الكلام ، قال : من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : زهير^٢ .

وكان زهير أستاذ الحطيثة . وسئل عنه (الحطيثة) فقال : ما رأيت مثله في تكفّيه على أكثاف القوافي ، وأخذها بأعنتها حيث شاء ، من اختلاف معانيها ، امتداحاً وذمّاً . قيل له : ثم من ؟ قال : ما أدري ، إلا أن تراني مسلططاً واضماً إحدى رجلي على الأخرى رافعاً عقيرتي أعوي في أثر القوافي .

« قال أبو عبيدة : يقول من فضّل زهيراً على جميع الشعراء : انه أمدح القوم وأشدّهم أسراً شعر . قال وسمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : الفرزدق يشبه بزهير . وكان الأصمعي يقول : زهير والحطيثة وأشباههما عبيد الشعر ، لأنهم تقحوه ولم يلهموا به مذهب المطبوعين . قال : وكان زهير يسمي كُبرَ قصائده الحوليات .

وكان جيد شعره في هرم بن سنان المري . وقال عمر رضي الله عنه لبعض ولد هرم : أنشدني بعض ما قال فيكم زهير ، فأنشدته ، فقال : لقد كان يقول فيكم فيحسن ، فقال : يا أمير المؤمنين إنا كنا نعطيه فنجزل ! فقال عمر رضي الله عنه : ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم^٣ . وقد عيب على (زهير) لأخذه عطايا (هرم بن سنان) ، إذ عد أهل الأخبار ذلك نوعاً من التكبسب بالشعر ، وهو مردول عند العرب^٤ .

وقد قدمه (الأخطل) كذلك ، وقال (ابن الأعرابي) : « كان لزهير في الشعر ما لم يكن لغيره ، كان أبوه شاعراً وهو شاعر وخاله شاعر وأخته

١ السيوطي ، شرح شواهد (١٣١/١ وما بعدها) ، الشعر والشعراء (٧٦/١) .

٢ الشعر والشعراء (٨١/١) ، (الثقافة) .

٣ الشعر والشعراء (٨١/١ وما بعدها) ، (الثقافة) .

٤ العمد (٤٩/١) .

سلمى شاعرة ، وابناه كعب وبجير شاعران ، وأخته الخنساء شاعرة^١ . ومن قدّم زهيراً قال : كان أحسنهم شعراً ، وأبعدهم من سخف ، وأجمعهم لكثير من المعنى في قليل من المنطق ، وأشدّهم مبالغة في المدح ، وأكثرهم أمثالاً في شعره^٢ . وقيل ان أمدح بيت قالته العرب ، هو بيت زهير :

تراه إذا ما جتته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت مائله^٣

ولزهير قصيدة أولها :

ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى من الأمر أو يبدو لهم ما بدا ليا

يقال إنه قالها لما طلب (كسرى) النعمان بن المنذر ، ففرّ فأتى طياً ، فسألم أن يدخلوه جبلهم ، فأبوا ، فلقيه بنو رواحة من عبس ، فقالوا له : أقم فينا ، فلما نمنعك مما نمنع منه أنفسنا . فقال : لا طاقة لكم بكسرى ، وأثنى عليهم خيراً . وورد أن (الأصمعي) أنكر كون هذه القصيدة لزهير . ونسبها بعضهم (لصرمة بن أبي أنس الأنصاري) ، وهي لا تشبه كلام زهير^٤ .

ولزهير شعر سبق به غيره ، فأخذه الشعراء منه وضمنوه شعرهم . وقد ذكر العلماء أمثلة على ذلك^٥ . « ويروى أن لزهير سبع قصائد نظم كلاً منها في عام كامل ، ومن ثمّ سميت : الحوليات^٦ » .

ومن أولاد زهير بن أبي سلمى ، كعب وبجير . وكان (بجير) قد أسلم قبل (كعب) . فبلغ ذلك كعباً ، فقال شعراً تعرض فيه بالرسول فهلر الرسول دمه ، فكتب (بجير) إليه شعراً يخوفه فيه ويدعوه الى الاسلام ، فجاء وأسلم^٧ .

١ السيوطي ، شرح شواهد (١٣٣/١) .

٢ المصدر نفسه (١٣٢/١) .

٣ الشعر والشعراء (٧٧/١) .

٤ السيوطي ، شرح شواهد (٢٨٢/١ وما بعدها) ، ديوان زهير (٢٨٣ وما بعدها) ، الخزائن (٥٨٨/٣ وما بعدها) ، (بولاق) .

٥ الشعر والشعراء (٨٣/١ وما بعدها) ، (الثقافة) .

٦ الخصائص ، لابن جني (٣٣٠/١) ، بروكلمن (٩٥/١) .

٧ السيوطي ، شرح شواهد (٥٢٤/٢) ، العملة (١٦٥/١) ، ابن هشام ، سيرة (٢٦/٣) ، الروض الانف (٣٠٥/٢) .

و (لكعب) ولد يقال له (المضرب بن كعب) . كان شاعراً^١ ، واسمه :
(عقبة بن كعب بن زهير بن أبي سلمى) ، لقب بالمضرب ، لأنه شب
بامرأة من بني أسد ، فضرب ، فسمي المضرب . روى له الشريف (المرتضى)
شعراً^٢ .

وكانت لزهير بنت كانت شاعرة كذلك . ذكر ان بنت زهير دخلت على
(عائشة) ، وعندها بنت (هرم بن سنان) ، فسألت بنت هرم : بنت زهير
من أنت ؟ قالت : أنا بنت زهير . قالت : أو ما أعطى أبي أباك ما أغناكم ؟
قالت : إن أباك أعطى أبي ما فني ، وإن أبي أعطى أباك ما بقي ، وأنشدت
بنت زهير :

وإنك إن أعطيتني فن الغنى حدث الذي أعطيت من ثمن الشكر
وإن يفن ما تعطيه في اليوم أو غد فإن الذي أعطيك يبقى على الدهر^٣

والشاعر (ليبد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب) العامري ، ويكنى
(أبا عقيل) ، هو من أشرف قومه في الجاهلية والإسلام ، وكان سخيّاً من
أسرة معروفة . وكان في شبابه من فرسان زمانه ، وقد شارك قبيلته في غاراتها
على أعدائها ، وذب عنها بسيفه وبقلمه . وهو من الشعراء المترفين الذين ترفعوا
عن مدح الناس لنيل جوائزهم وصلاتهم كما كان من الشعراء المتقدمين في الشعر^٤ .
وقد عرف والده ب (ربيعة المقترين) ، أو (ربيع المقترين) ، لسخائه .
وقد ذكره (ليبد) ابنه في شعره بقوله :

ولا من ربيع المقترين رزثته بلدي علق فاقني حياءك واصبري
وتحدث عن كرمه ، فقال :

وأبي الذي كان الأرا مل في الشتاء له قطينا^٥

-
- ١ الخزاعة (٣٣٣/٢) ، المؤلف (٢٨١) .
 - ٢ أمالي المرتضى (٤٥٨/١) .
 - ٣ السيوطي ، شرح شواهد (٧٥٤/٢) وما بعدها .
 - ٤ الخزاعة (٢٤٦/٢) ، (هارون) ، (٣٣٧/١) ، (بولاق) .
 - ٥ شرح ديوان ليبد بن ربيعة العامري (١٧) ، (شرح الدكتور احسان عباس) ،
(الكويت ١٩٦٢) .

وقد قتل والده وهو صغير السن ، فتكفل أعمامه بتربيته . ويرى (بروكلمن) احتمال مجيء (لبيد) الى هذه الدنيا في حوالى سنة (٥٦٠ م) . أما وفاته ، فكانت سنة أربعين ، وقيل احدى وأربعين ، لما دخل معاوية الكوفة إذ صالح (الحسن ابن علي) ونزل (النخيلة) ، وقيل إنه مات بالكوفة أيام (الوليد بن عقبة) في خلافة عثمان ، وقد رجح (ابن عبد البر) هذه الرواية ، وورد أنه توفي سنة نيف وستين^١ .

وقد عُرِفَت أم (ربيعة بن مالك) ، أي والد (لبيد) ب (أم البنين) ، وهي بنت (عمرو بن عامر بن صعصعة) ، وكانت تحت (مالك بن جعفر بن كلاب) ، فولدت له منه (عامر بن مالك) مُلَاعِب الأُسنة ، و (طفيل بن مالك) فارس قُرُزل ، وهو أبو (عامر بن الطفيل) ، و (ربيعة بن مالك) أبا لبيد ، وهو ربيع المقترين ، و (معاوية بن مالك) معوّد الحكّام (معوّد الحكماء) ، وإنما سمي (معوّد الحكّام) (معوّد الحكماء) بقوله :

أعوّد مثلها الحكّام بعدي إذا ما ألحق في الأشياء ناباً^٢

وقيل انه لما مات دفن في صحراء (بني جعفر بن كلاب) رهطه ، وانه لما قدم الكوفة وأقام بها ، رجع بنوه الى البادية أعراباً^٣ . وروي في خبر انما مات بالكوفة أيام (الوليد بن عقبة) في خلافة (عثمان) ، فبعث (الوليد) الى منزله عشرين جزوراً فنحرت عنه . وقد رجح (ابن عبد البر) ، هذه الرواية . وورد في رواية أخرى انه توفي في عهد (زياد) وفي خلافة معاوية^٤ . وقد ذكر من ترجم حياته انه كان فارساً شجاعاً سخياً ، وقد جعله (ابن قتيبة)

-
- ١ الاستيعاب (٣٠٧/٣) ، (حاشية على الاصابة) ، الاصابة (٣٠٧/٣) ، (رقم ٧٥٤٣) ، السيوطي ، شرح شواهد (١٥٢/١ وما بعدها) .
 - ٢ أمالي المرتضي (١٩٣/١) ،
 - أعوّد مثلها الحكماء بعدي إذا ما ألحق في الحدثان ناباً
اللسان (٣٩٩/١٤) ، (سما) ، وورد « معوّد الحكماء » ، بالذال المعجمة ، تاج العروس (٤٤٠/٢) ، (عود) .
 - ٣ المعارف (٣٣٢) .
 - ٤ الاستيعاب (٣٠٩/٣) ، (هامش على الاصابة) ، الاصابة (٣٠٨/٣) ، (رقم ٧٥٤٣) .

في جملة المائة فارس الذين وجههم (الحارث بن أبي شمر) الغساني ، وهو (الأعرج) الى (المنذر بن ماء السماء) لقتله ، فلما صاروا الى معسكر (المنذر) ، أظهروا انهم أتوه داخلين في طاعته ، فلما تمكنوا منه قتلوه ، فقتل أكثرهم ، ونجا ليبد ، حتى أتى ملك غسان فأخبره الخبر . فحمل الغسانيون على عسكر (المنذر) فهزمهم ، وهو يوم (حليلة) . وقد ذكر (ابن قتيبة) في كتابه (الشعر والشعراء) ان (الحارث) كان قد أمّر (الوليد) على المائة فارس^١ ، وذكر في كتابه (المعارف) ، انه كان غلاماً إذ ذاك^٢ . وقد وقعت معركة (يوم حليلة) سنة (٥٥٤ م) ، فيجب أن يكون مولد (ليبد) قبل هذا العهد . ولو أخذنا برأي أهل الأخبار القائل انه عاش فوق المائة ، وانه كان يوم توفي ابن مائة وثلاثين سنة ، أو مائة وأربعين ، أو مائة ومبضع وخمسين أو مائة وستين^٣ ، جاز لنا تصور اشتراك (ليبد) في ذلك اليوم ، غلاماً أو شاباً . ولم يذكر (ابن قتيبة) كيف جاء (ليبد) الى (الحارث) ، وهو في هذا العمر ، ولم اشترك مع من اشترك في اغتيال المنذر . ولكننا نجد (الميداني) ، يسمي ليبد^٤ الذي اشترك في اغتيال (المنذر) (ليبد بن عمرو)^٤ ، أي شخصاً آخر ، وهي رواية أدعى الى القبول من رواية (ابن قتيبة) .

وتقول قصة يرونها أهل الأخبار عن سبب نظم ليبد لأرجوزته الشهيرة ، التي أولها :

يارب هيجا هي خبر من دعه إذ لا تزال هامتي مقرعة

أن (ليبدأ) كان غلاماً آنذاك ، وكان قد ذهب مع وفد (بني عامر) أبناء (أم البنين) ، وعليه (أبو البراء عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب) ، وقد وضعوه على رحالهم يحفظ أمتعتهم ، ويغدو بإبلهم فبرعاها . وكان (النعمان) قد ضرب قبة على (أبي براء) وأجرى عليه وعلى من كان معه النزل ، وكان

١ الشعر والشعراء (١ / ١٩٤) ، (الثقافة) ، الخزائن (١ / ٣٣٧) ، (بولاق) .

٢ « فوجه اليهم مائة رجل ، فيهم « ليبد » الشاعر ، وهو غلام » ، المعارف (٦٤٢) .

٣ الاصابة (٣ / ٣٠٧) ، (رقم ٧٥٤٣) ، الاستيعاب (٣ / ٣٠٦ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .

٤ الميداني ، مجمع الامثال (٢ / ٢٩٥ وما بعدها) .

(الربيع بن زياد) العبسي^١ ينادم النعمان ويتقدم على من سواه ، وكان يلدعي (الكامل) ، وكان يعادي (بني جعفر) ، فأوغر صدر (النعمان) عليهم ، حتى صد عنهم ونزع القبة عن (أبي براء) . فلما وقف (لييد) على خبرهم ، قال لهم : هل تقدرون أن تجمعوا بيني وبينه غداً حين يقعد الملك فأرجز به رجراً ممضاً مؤثلاً ، لا يلتفت إليه النعمان بعده أبداً ؟ قالوا وهل عندك ذلك ؟ قال : نعم ، قالوا : فلإنا نبلوك بشتم هذه البقلة ، فقال فيها قولاً أعجبهم . فلما أصبحوا قالوا : أنت والله صاحبه ، فحلّقوا له رأسه ، وتركوا له ذؤابتين ، وألبسوه حلة ، وغلدوا به معهم ، فدخلوا على النعمان فوجلّوه يتقدّى ومعه (الربيع) ليس معه غيره ، والدار والمجالس مملوءة بالوفد . فلما فرغ من الغداء أذن للجعفرين فدخلوا عليه ، والربيع الى جانبه ، فذكروا للنعمان حاجتهم ، فاعترض الربيع في كلامهم ، فقام لييد : وقد دهن أحد شقي رأسه ، وأرخى ازاره ، وانتعل نعلاناً واحدة ، على عادة الشعراء في الجاهلية إذا أرادت الهجاء ، ثم قال رجزة حتى إذا بلغ قوله :

مهلاً أبيت اللعن لا تأكل معه إن استه من برص مئلمه^٢
وإنه يدخل فيها اصبعه يدخلها حتى يوارى أشجعه
كأنه يطلب شيئاً ضيعه

نفر (النعمان) من (الربيع) ورمقه شزراً ، وكره مجالسته لتأثير هذه الأبيات فيه ، وأعاد القبة على (أبي براء)^١ .

وقد أيد (ابن رشيّق) رواية من ذكر ان (لييداً) كان غلاماً يوم قال قصيدته المذكورة بقوله : « والربيع بن زياد ، كان من ندماء النعمان بن المنذر ، وكان فحاشاً عياباً بذياً سبّاباً لا يسلم منه أحد ممن يفد على النعمان ، فرمي بلييد وهو غلام مراهق فنافسه »^٢ . فجعل (لييداً) غلاماً مراهقاً .

ويروي أهل الأخبار خبراً يؤيد الخبر المتقدم . يقول خبرهم : « نظر النابتة

١ الفاخر (ص ١٤١ وما بعدها) ، الاغاني (٢٢/١٦) ، نزهة المجلس (٥٠٧/٢) وما بعدها ، أمالي المرتضى (١٨٩/١) وما بعدها ، العملة (٢٧/١) ، الخزائنة (١١٧/٤) ، مجالس ثعلب (٤٤٩ وما بعدها) .
٢ العملة (٥١/١) .

الى ليبد بن ربيعة وهو صبي مع أعمامه على باب النعمان بن المنذر ، فسأل عنه فتُسب له . فقال له : يا غلام ، إن عينيك لعينا شاعر ، أفترض من الشعر شيئاً ؟ قال : نعم يا عم ، قال : فأُنشدني شيئاً مما قلته ، فأُنشده قوله : « ألم تربع على اللعن الخوالي » فقال له : يا غلام أنت أشعر بني عامر . زدني يا بني ، فأُنشده : طلل نخولة بالريسيس قديم . فضرب يديه الى جبينه وقال : اذهب فانت أشعر من قيس كلها : أو قال : هوازن كلها . ويقال : انه أنشده : غفت الديار محلها فقامها ، فقال له : اذهب فانت أشعر العرب^١ .

واذا أخذنا بالروايتين المذكورتين القائلتين ان (ليبدأ) كان صبيّاً أو غلاماً في أيام حكم الملك النعمان ، وجب علينا افتراض ان ميلاده لم يكن بعيداً عن سنة (٥٨٠) أو (٥٨١) أو (٥٨٢ م) ، السنة التي تولى فيها (النعمان) الملك ، ومعنى هذا انه لم يعمر طويلاً ، وهو خلاف ما يذكره أهل الأخبار ، وان كل ما يمكن أن ننصّره عن عمره ، انه كان في حوالى الثمانين حين دأبته منيته . وقد جعل (بروكلمن) مولده حوالى السنة (٥٦٠ م) ، وجعل وفاته سنة (٥٤٠ م) أي حوالى السنة (٦٦٠ م) ، ومعنى هذا انه كان من أبناء المائة حين جاء أجله^٢ .

ولليبد شعر في (النعمان بن المنذر) ، وصف فيه مجلسه . فذكر انه كان قاعداً كعتيق الطير يُغضي ويُجمل ، والهانيق قيام ، بأيديهم الأباريق ، تحسر الديباج عن أذرعهم ، ينتظرون أمراً يصدره اليهم . وهو شعر مدون في ديوانه بعد^٣ من جيد شعره^٤ .

وله قصيدة في رثاء (النعمان) ، تعرض فيها للموت ولزوال النعيم ، ولعدم دوام الدنيا لأحد ، ثم تحدث عن النعمان وعن أعماله وتجارته ختمها بقوله :

وأسمى كأحلام النيام نعيمهم وأي نعيم خلته لا يزايل
نرد عليهم ليلسة أهلكتهم وعام وعام يتبع العام قابل^٥

١ الاغانى (٩٧/١٤) ، شرح ديوان ليبد (٢١) .

٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٤٥/١) .

٣ ديوان ليبد (١٩٥) ، الشعر والشعراء (٢٠٣/١) ، (الثقافة) .

٤ القصيدة رقم (٣٦) من الديوان ، شرح ديوان ليبد (ص ٢٦٦) ، الخزائنة

(٣٣٩/١ وما بعدها) ، (بولاق) .

وقد ذكر فيها (الله) بقوله :

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم بلى : كل ذي لب الى الله واسل
ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
وكل أناس سوف تدخل بينهم دويبة تصفر منها الأنامل
وكل امرئ يوماً سيعلم سعيه إذا كشفت عند الإله المحاصل^١

وهي قصيدة أزيد من خمسين بيتاً . وأولها :

ألا تسألان المرء ماذا يحاول أنحب فيقضى أم ضلال وباطل^٢

وروي أن لييدا أنشد النبي قوله :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

فقال له صدقت ، فقال : وكل نعيم لا محالة زائل

فقال له : كذبت ، نعم الآخرة لا يزول . وروي أن ذلك كان مع (أبي بكر) ،
وروي في خبر آخر أنه كان مع (عثمان بن مظعون)^٣ .

ولليد شعر يرثي به أخاه لأمه (أريد) ، وكان قد أصابته صاعقة فقتل .
وكان (أريد) أكبر منه سنًا . وأبوه (قيس بن جزء بن خالد بن جعفر)
(أريد بن قيس بن مالك بن جعفر)^٤ ، وكان يعطف على (لييد) كثيراً وعلى
ذوي رحمه ، فارساً كريماً ، فلما أصابته الصاعقة تألم (لييد) مما ألم بأخيه كثيراً ،
فرثاه برجز وبقصيد . وقد وجدت في النسخة العربية لتأريخ الأدب العربي لبروكلمن
هذا النص : « ولما استقام السلطان للنبي بالمدينة ، سار لييد يحمل رسالة اليه من
عمه : أريد ، فأعجبه دينه »^٥ . وهو وهم ، فأريد هو أخوه لا عمه . قال

١ القصيدة رقم (٣٦) ، البيت (٨) وما بعده .

٢ الخزانة (٢٥٢/٢) ، (هارون) .

٣ الخزانة (٢٥٥/٢) وما بعدها .

٤ الطبري (١٤٤/٣) ، (وقد بني عامر بن صعصعة) ، الخزانة (٢٥٠/٢) وما
بعدها .

٥ بروكلمن (١٤٥/١) .

الطبري : « وكان أريد بن قيس أخا لييد بن ربيعة لأمه ^١ . وكان من خبره انه قدم مع وفد (بني عامر بن صعصعة) على الرسول ، وفيه (عامر بن الطفيل) وثلاثون من رؤوس القوم وشياطينهم ، وفي رأس (عامر) الغدر بالرسول ، بأن يشاغله في الحديث ، فيعلو (أريد) النبي بالسيف ، فلم يتجاسر (أريد) على ضربه ، ورجع الوفد الى بلاده . فلما كان (عامر) ببعض الطريق أصيب بالطاعون فمات ، ومات (أريد) بعد ذلك بقليل بالصاعقة ^٢ .

وذكر أن (عامر) لما مات نصبت (بنو عامر) نصاباً ميلاً في ميل حمى على قبره ، لا تنشر فيه راعية ولا يرعى ولا يسلكه راكب ولا ماش ، وكان (جبار بن سلمى بن عامر بن مالك) غائباً ، فلما قدم قال : ما هذه الأنصاب ؟ قالوا نصبناها حمى على قبر (عامر) ، فقال ضيقم على أبي علي . إن أبا علي بان من الناس بثلاث . كان لا يعطش حتى يعطش الجمل ، وكان لا يضل حتى يضل النجم ، وكان لا يجبن حتى يجبن السيل ^٣ .

وفي اصابة (اريد) بالصاعقة يقول (لييد) يكيه :

ما ان تعرى المنون من أحد لا والد مشفق ولا ولد
أحشى على أريد الخوف ولا اهرب نوء السماء والأسد
فجعتي الرعد والصواعق بالفارس يوم الكربة النجد

وهي قصيدة دون أبياتها (ابن هشام) ^٤ .

وله قصيدة أخرى في رثاء (اريد) مطلعها :

ألا ذهب المحافظ والمحامي ومانع ضيمها يوم الخصام

١ الطبري (١٤٥/٣) ، ابن هشام ، سيرة (٣٧٢/٢) .

٢ الطبري (١٤٤/٣) وما بعدها ، وروى « ابن سعد » خبر وفد « عامر بن صعصعة » بشكل اخر ، ذكر أنه طلب من الرسول أن يجعل له ميزة على غيره ان أسلم ، أو أن يجعل الامر اليه من بعده ، فلما رفض الرسول ذلك ، قال : لاملأها عليك خيلا ورجالا ، ابن سعد ، الطبقات (٣١٠/١) ، (وفد عامر بن صعصعة) ، سيرة ابن هشام (٣٣٧/٢) ، (حاشية على الروض الانف) ، (الروض الانف (٣٣٧/٢) .
الخرانة (٤٧٤/١) ، (بولاق) .

٣ الشمس والشعراء (١٩٨) ، ابن هشام (٣٣٨/٢) ، (حاشية على الروض الانف) ، تفسير الطبري (٨٤/١٣) وما بعدها .

٤ سيرة (٣٣٨/٢) .

وقد رواها (ابن هشام)^١ . وقصائد أخرى عديدة^٢ ، تدل على شدة تأثيره بوفاة (أربد) .

وقد اختلفت الروايات في زمن إسلام (لييد) . قيل إنه أسلم سنة وفد قومه (بنو جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة) فأسلم^٣ . وقيل إن (لييد بن ربيعة) و (علقمة بن علاثة) كانا من المؤلفة قلوبهم^٤ . وقيل إنه وفد على الرسول بعد وفاة أخيه (أربد) فأسلم^٥ .

وتجمع روايات أهل الأخبار وعلماء الشعر على إقبال (لييد) على الاسلام كل قلبه ، وعلى تمسكه بدينه تمسكاً شديداً ، ولا سيما حينما بدأ يشعر بتأثير وطأة الشيخوخة عليه وبقرب دنو أجله ، ويظهر ان شيخوخته قد أبعدته عن المساهمة في الأحداث السياسية التي وقعت في أيامه ، فابتعد عن السياسة وانزوى في بيته ، وابتعد عن الخوض في الأحداث ، ولهذا لا نجد في شعره شيئاً ، ولا فيما روي عنه من أخبار ، انه تمحزب لأحد أو خاصم أحداً .

وروي ان (لييداً) ترك الشعر في الاسلام وانصرف عنه . فلما كتب (عمر) الى عامله (المغيرة بن شعبة) على الكوفة يقول له : « استشهد من قبلك من شعراء مصر ما قالوا في الاسلام » ، أرسل الى (الأغلب) الراجز العجلي ، فقال له : انشدني ؟ فقال :

أرجزاً تريد أم قصيداً لقد طلبت هيناً موجوداً

ثم أرسل الى لييد ، فقال : « انشدني ما قلته في الاسلام » ، فكتب سورة البقرة في صحيفة ، ثم أتى بها وقال : « أبدلني الله هذا في الاسلام مكان الشعر » فكتب المغيرة بذلك الى عمر ، فنقص من عطاء (الأغلب) خمسمائة وجعلها في عطاء لييد^٦ : وروي ان (عمر) كتب الى عامله بالكوفة : سل لييداً والأغلب

-
- ١ سيرة (٣٣٨/٢) .
 - ٢ ابن هشام ، سيرة (٣٣٨/٢) وما بعدها .
 - ٣ الاستيعاب (٣٠٦/٣) ، حاشية على الاصابة .
 - ٤ الاستيعاب (٣٠٨/٣) ، الخزانة (٢٤٦/٢) ، (هارون) .
 - ٥ الاغانى (٩٠/١٤) .
 - ٦ الاغانى (٩٧/١٤) ، زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١٢٠/١) وما بعدها .

العجلى ما أحدثا من الشعر في الاسلام ؟ فقال لييد : أبدلني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران . فزاد عمر في عطائه ١ :

وروي الخبر المتقدم بشكل آخر . روي أن (عمر بن الخطاب) قال للييد : أنشدني ، فقرأ سورة البقرة ، وقال : ما كنت لأقول شعراً بعد اذ علمني الله سورتي البقرة وآل عمران . فزاد عمر في عطائه خمس مائة ، وكان ألفين . فلما كان في زمن (معاوية) قال له (معاوية) : هذان الفودان فما بال العلاوة ؟ وأراد أن يحطه لياها ، فقال أموت الآن وتبقى لك العلاوة والفودان ! فرق له ، وترك عطائه على حاله ، ومات بعد يسيراً ٢ . وورد في رواية أخرى أن (معاوية) كتب الى (زياد) أن اجعل أعطيات الناس في ألفين ، وكان عطاء (لييد) ألفين وخمسمائة . فقال له (زياد) : « أبا عقيل هذان الخراجان ، فما بال هذه العلاوة ؟ قال : ألحق الخراجين بالেলাوة ، فإنك لا تلبث إلا قليلاً حتى يصير لك الخراجان والেলাوة ! فأكملتها (زياد) ، ولم يكملها لغيره . فما أخذ لييد عطاء آخر حتى مات ٣ .

وقيل إن لييداً لم يقل في الاسلام إلا بيتاً واحداً ، هو :

ما عاتب الحرّ الكريم كنفسه والمرء ينفعه القرين الصالح ٤

في رواية . وورد على هذه الصورة :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح ٥

في رواية أخرى .

وقيل هو هذا البيت :

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى كسانني من الاسلام سربالاً ٦

-
- ١ الاصابة (٣٠٧/٣) ، (رقم ٧٥٤٣) .
 - ٢ الشعر والشعراء (١٩٥/١) وما بعدها ، الاستيعاب (٣٠٩/٣) ، (حاشية على الاصابة) .
 - ٣ الاصابة (٣٠٨/٣) ، (رقم ٧٥٤٣) .
 - ٤ السيوطي ، شرح شواهد (١٥٥/١) ، الاصابة (٣٠٧/٣) ، (رقم ٧٥٤٣) .
 - ٥ الشعر والشعراء (١٩٥/١) ، (الثقافة) .
 - ٦ الشعر والشعراء (١٩٥/١) ، (الثقافة) .

وذكر بعض العلماء أن البيت :

الحمد لله إذ لم يأتي أجلي حتى اكتسبت من الإسلام مربالاً

ليس لليد ، بل هو ل (قردة بن نفاعة)^١ .

ومن الشعر المستجاد المنسوب الى ليد ، قصيدته :

إن تقوى ربنا خير فقل وبإذن الله ريبي وعجل
أحمد الله فلا نصد له يديه الخير من شاء فعل
من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء أضل

وقد زعم بعض العلماء أنها قيلت في الجاهلية ، ولكنها لا يمكن أن تكون من شعر الجاهلية ، لما فيها من آراء اسلامية ، ثم أنها قيلت بعد موت (اربد) ، وكان ليد مسلماً آنذاك على ما جاء في بعض الأخبار^٢ .

ومما جاء فيها :

اعقلي إن كنت لما تعقلي ولقد أفلح من كان عقل
إن ترى رأسي أسمى وأضحاً سلط الشيب عليه فاشتعل

وقوله :

غير أن لا تكذبها في التقى واخزها بالبر لله الأجل

وهي قصيدة تبلغ عدتها (٨٥) بيتاً^٣ ، بعض أبياتها لشعراء آخرين ، وقد نسبها بعض العلماء اليه ، فأدخلت في القصيدة^٤ .

١ الاصابة (٣٠٧/٣) ، (رقم ٧٥٤٣) ، الاستيعاب (٣٠٧/٣) ، (حاشية على الاصابة) .

٢ ديوان لبيد (١٧٤ وما بعدها) ، أمالي المرتضى (٢١/١) .

٣ الخزائن (٢٨/٢) ، (بولاق) .

٤ ديوان لبيد (١٩٩ وما بعدها) .

ومما جاء فيها في حق (أربد) قوله :

من حياة قد مللنا طولها وجدير* طول عيش أن يمل
وأرى أربد قد فارقني ومن الأرزاء رزء* ذو جلال^١

وقد عاب بعض العلماء عليه قوله :

ومقام ضيق فرجه بمقامي ولساني وجدل
لو يقوم الفيل أو فياله زال عن مثل مقامي وزحل

« وقالوا : ليس للفيال من الخطابة والبيان ، ولا من القوة ، ما يجعله مثلاً لنفسه ، وإنما ذهب الى ان للفيل أقوى البهائم ، فظن ان فياله أقوى الناس ! قال أبو محمد ، وأنا أراه أراد بقوله : لو يقوم الفيل أو فياله مع فياله ، فأقام (أو) مقام الواو^٢ .

وفي هذه القصيدة إشارة الى صلاة اليهود ، حيث يقول :

يلبس الأحلاس في مترله يديه كاليهودي المصل^٣

« قال أبو الحسن الطوسي : كأنه يهودي يصلي في جانب يسجد على جبينه . قال البغدادي : واليهودي يسجد على شق وجهه^٤ .

وقد تعرض (كارلو فالينو) لهذه القصيدة ، فقال : « ومن المشهور ما في ديوانه من العبارات الدينية ، بل الشبيهة بالعقائد الإسلامية » ، ثم ذكر أحياناً منها ، ثم قال : « ولكن ليس كل ما ينسب اليه في ديوانه من هذا الباب صحيحاً ، بل لا اختلاف في بعض الأشعار أنها مصنوعة^٥ .

١ البيتان (٧٩ - ٨٠) .

٢ الشعر والشعراء (١ / ٢٠٠ وما بعدها) .

٣ البيت رقم (٣٢) من القصيدة (٢٦) في ديوانه (ص ١٨٣) .

٤ ديوان لبيد (١٨٣) .

٥ كارلو فالينو ، تاريخ الآداب العربية (٧٨) .

ونسب له قوله :

من ييسط الله عليه اصبعاً بالخير والشر بأيّ أولعاً
ملاً له منه ذنباً مُترعاً^١

وقوله :

وما الناس إلا كالديار وأهلها بها يوم حلتوها ، وغدواً بلاع

وقوله :

تمنى ابتأي أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر^٢

وفي هذه الأبيات إشارات الى رأي لبيد في الدنيا وفي الموت، وهي آراء يقوّلها في العادة المعمرون ، فإذا صح أنها له ، فلا بد وأن تكون من شعره الذي قاله بعد تقدمه في السن .

ويظهر أن الكبير هو الذي حمل (لبيداً) على ترك الشعر أو الاقلال منه ، فالتقدم في السن يوقف القرينة ويحمد الذهن . فلما أرسل (الوليد بن عقبة) إليه شعراً ، ومعه مائة بكرة ، قال لبيد لابنته : اجيبه فقد رأيتني وما أعيأ بجواب شاعر^٣ . وفي هذا الجواب دلالة على توقف قرينته عن قول الشعر ، وأنه لم يعد باستطاعته نظمه ، وليس السبب هو الإسلام :

وكانت مناسبة لإرسال (الوليد بن عقبة) الشعر والهدية إليه ، أنه (لبيد) كان آلى في الجاهلية ألا تهب الصبا إلا أطعم الناس حتى تسكن ، وألزمه نفسه في إسلامه . فهبت الصبا ، ولم يكن عند (لبيد) ما يعينه على الإطعام ، فخطب (الوليد) الناس بالكوفة ، وقال : إن أخاكم لبيداً آلى ألا تهب له الصبا إلا أطعم الناس حتى تسكن ، وهذا اليوم من أيامه ، فأعينوه ، وأنا أول من أعانه.

١ أمالي المرتضي (٣١٩/١) .

٢ أمالي المرتضي (٤٥٣/١) .

٣ أمالي المرتضي (٥٥/٢) .

٤ الشعر والشعراء (١٩٦/١ وما بعدها) ، (الثقافة) .

ونزل فبعث اليه بمائة بكرة وكتب اليه شعراً يمدحه فيه ويذكر له كرمه ونلذه^١
 ويشك (بروكلمن) في صحة ما ورد من ترك (لييد) الشعر بعد دخو
 في الإسلام . ويرى أن كثيراً من شعره مطبوع بطابع إسلامي ، ويعد أن يكو
 مما صنع عليه ، وإن زيد عليه بعض الزيادات^٢ .

ونجد في قصيدة (لييد) الكبرى التي مطلعها :

عفت الديار علتها فقامها بمنى تأيد غولها فرجامها^٣

أسماء مواضع كثيرة من نجد والحجاز^٤ .

والعلماء للشعر آراء في شعر لييد ، من ذلك ما قالوه في قوله :

ما عاتب المرأة الكريم كنفه والمرء يصلحه المجلس الصالح

فقالوا : إنه شعر جيد المعنى والسبك ، لكن ألفاظه قصرت عن معناه . فإذا
 قليل الماء والروث^٥ .

وقد ذكروا له أشعاراً سبق بها غيره من الشعراء ، أخذها غيره عنه ، فأعاده
 علماء الشعر الى أصلها . كما عابوا عليه بعض الأمور الصغيرة التي لا يمكن أن
 يغفل عنها شاعر^٦ .

و (عنترة بن شداد العبسي) ، هو (عنترة بن عمرو بن شداد بن قراد
 العبسي . وشداد جدّه أبو أييه في رواية لابن الكلبي ، غلب على اسم أييه فنسب
 اليه . وقال غيره : شداد عمه ، وكان عنترة نشأ في حجره فنسب اليه دون أييه
 وكان يلقب بـ (عنترة الفلحاء) لتشقق شفثيه .

وانما ادعاه أبوه بعد الكبر ، وذلك انه كان لأمة سوداء يقال لها (زبيبة) .

-
- ١ الشعر والشعراء (١٩٦/١ وما بعدها) ، (الثقافة) ، الاغاني (٢٩٨/١٥)
 السيوطي ، شرح شواهد (١٥٥/١) .
 - ٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٤٥/١) .
 - ٣ القصيدة رقم (٤٨) في الديوان ، شرح ديوان لييد (ص ٢٩٧) .
 - ٤ الاكليل (٢٢٣) .
 - ٥ الشعر والشعراء (١٤/١) ، (الثقافة) .
 - ٦ الشعر والشعراء (١٩٩/١ وما بعدها) ، (الثقافة) .

وكانت العرب في الجاهلية اذا كان للرجل منهم ولد من أمة استعبده ، وكان لعنترة اخوة من أمه عبيد . وكان سبب ادعاء أبي عنترة إياه ان بعض أحياء العرب أغاروا على قوم من (بني عيس) ، فأصابوا منهم ، فقتلهم العبيسون فلحقوهم فقاتلوهم عما معهم ، وعنترة فيهم ، فقال له أبوه : أوعه في رواية أخرى : كرّ يا عنترة ! فقال عنترة : العبد لا يحسن الكرّ انما يحسن الحلاب^١ والصر^٢ . فقال : كر وأنت حر ، فكرّ وقاتل يومئذ حتى استنقذ ما بأيدي عدوهم من الغنيمة ، فادعاه أبوه بعد ذلك ، وألحق به نسيبه^٣ .

وورد في رواية أن اخوته قالوا له : اذهب فارع^٤ الإبل والغنم واحلب وصر : فانطلق يرعى وباع منها ذوداً ، واشترى بثمنه سيفاً ورمحاً وترساً ودرعاً ومغفرأ ، ودفنها في الرمل . وكان له مهر يسقيه ألبان الإبل . وان في الجاهلية من غلب سبا . وأنه جاء ذات يوم الى الماء فلم يجد أحداً من الحلي ، فبهت وتبحر حتى هتف به هاتف : أدرك الحلي في موضع كذا ، فعمد الى سلاحه فأخرجته والى مهره فأسرجه واتبع القوم الذين سبوا أهله فكرّ عليهم ففرق جمعهم وقتل منهم ثمانية نفر ، فقالوا : ما تريد ؟ فقال : أريد العجوز السوداء والشيخ الذي معها ، يعني أمه وأباه ، فردّوهما عليه . فقال له عمه : يا بني كرّ ، فقال : العبد لا يكر ، ولكن يحلب ويصر . فأعاد عليه القول ثلاثاً وهو يحلبه كذلك . قال له : إنك ابن أخي وقد زوّجتك ابنتي عيلة . فكرّ عليهم فأنقذه وابنته منهم . ثم قال : إنه لقبيح أن أرجع عنكم وجيراني في أيديكم : فأبوا ، فكرّ عليهم حتى صرع منهم أربعين رجلاً قتلى وجرحى فردّوا عليه جيرانه . فأنشد :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم^٥

وروي انه كان من معاصري (امرئ القيس) ، وانه اجتمع به^٦ ، وان امرأة (شداد) أبي (عنترة) ذكرت لشداد ان عنترة أرادها عن نفسها ، فأخذها أبوه فضربه ضرب التلف ، فقامت المرأة فألقت نفسها عليه لما رأت ما به

-
- ١ الشعر والشعراء (١ / ١٧١ وما بعدها) ، (الثقافة) ، السيوطي ، شرح شواهد (١ / ٤٨١ وما بعدها) .
 - ٢ السيوطي ، شرح شواهد (١ / ٤٧٩ وما بعدها) .
 - ٣ السيوطي ، شرح شواهد (١ / ٤٨٢) .

من الجراحات ، وبكته . وكان اسمها : (سمية) ، فقال عنترة :

أمن سمية دمع العين مفروف لو كان منك قبلَ اليوم معروف^١

وذكر انه كان من أشد أهل زمانه وأجودهم بما ملكت يده ، وكان لا يقول من الشعر إلا البيتين والثلاثة ، حتى سابه رجل من عبس ، فذكر سواد أمه وأخوته ، وعبره بذلك ، وبأنه لا يقول الشعر ، فاغتاظ منه وردّ عليه ، وهاجت قريحته فنظمت له قصيدة :

هل غادر الشعراء من متردم

وهي أجود شعره ، وكانوا يسمونها (المذهبة)^٢ .

وله كأكثر الشعراء أبيات شعر ، استحسناها علماء الشعر ، وقالوا انه أجاد فيها وأحسن ، وما سبق اليه ولم يتازع فيه في بعض ذلك الشعر^٣ .

وهو أحد أغربة العرب ، وهم ثلاثة : عنترة ، وأمه زبيبة ، سوداء ، وخفاف بن عمير الشريدي^٤ ، من بني سليم ، وأمه نَدْبَة ، واليها ينسب ، وكانت سوداء ، والسليك بن عمير السعدي ، (السليك بن سلكة) ، وأمه سلكة ، واليها ينسب ، وكانت سوداء^٥ . وذكر أنه كان يفخر بأخواله السود ، رهط أمه ، فدعاهم ب (حام) حيث يقول :

إنّي لتعرف في الحروب مواطني في آل عبسٍ مشهدي وفعالي
منهم أبي حقاً فهم لي والدٌ والأم من حامٍ ، فهم أخوالي^٦

وإذا صح ان هذا الشعر هو لعنترة ، دلّ على وقوف الجاهليين على اسم (حام) ، الوارد في التوراة ، على أنه جدّ السودان . ولا بد أن تكون التسمية قد وردت الى الجاهليين عن طريق أهل الكتاب .

١ المحاسن والاضداد (١٤٣) .

٢ الشعر والشعراء (١٧٢/١ وما بعدها) ، الزوزني (١٣٦) ، السيوطي ، شرح شواهد (٤٨١/١) .

٣ الشعر والشعراء (١٧٤/١) ، (الثقافة) .

٤ الشعر والشعراء (١٧٢/١) ، (الثقافة) .

٥ الشعر والشعراء (١٧٥/١) .

وذكر أنه كان قد أغار على (بني نيهان) فرماه (وزر بن جابر بن سدوس ابن أصمغ) النبهاني ، فقطع مطاه ، فتحامل بالرمية حتى أتى أهله فأت .

ويعد (عمرو بن كلثوم) التغلبي من كبار شعراء الجاهلية ، وكان معاصراً للملك (عمرو بن هند) (٥٥٤ - ٥٦٨ م) ، وهو قاتله في خبر سبق أن تحدثت عنه . وهو من الشعراء الذين مالوا إلى الحِكم في نظم الشعر^٢ . وقد عرف بـ (أبي الأسود)^٣ . ويقال إن أخاه (مرة بن كلثوم) التغلبي ، هو قاتل المنذر بن النعمان بن المنذر . وكان (عمرو بن كلثوم) سيد قومه ، سادهم وهو ابن خمس عشرة ، ومات وله مائة وخمسون سنة^٤ . وكان خطيباً حكيماً وشاعراً ، أوصى بنيه عند موته بوصية بليغة حسنة^٥ ، ضبط نصها الرواة فيما بعد ، وكانهم كتبوها بخط يدهم .

وقصيدته الشهيرة التي هي إحدى السبع ، هي من جيد شعر العرب القديم ، ولشغف تغلب بها وكثرة روايتهم لها قال بعض الشعراء :

ألمى بني تغلب عن كل مكربة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يفاخرون بها مذ كان أولهم يا للرجال لفخر غير مسؤول^٦

وفي قتل (عمرو بن كلثوم) (عمرو بن هند) يقول أحد شعراء تغلب ، وهو (افنون بن صريم) التغلبي :

لعمرك ! ما عمرو بن هند وقد دعا لتخدم ليلى أمه بموفق
فقام ابن كلثوم إلى السيف مصلاً وأمسك من ندمانه بالمخنق^٧

ويذكر في سبب نظم (عمرو بن كلثوم) قصيدته الشهيرة ، أن قبيلة (تغلب)

-
- ١ أسماء القتالين (المجموعة السادسة من نوادر المخطوطات) ، (ص ٢١٠ وما بعدها) .
 - ٢ بروكلمن (١٠٣/١) ، الاغاني (١٧٥/٩) ، الخزانة (٥٢/١) ، الشعر والشعراء (١٥٧/١ وما بعدها) ، المرزباني ، معجم (٦ وما بعدها) .
 - ٣ السيوطي ، شرح شواهد (١٢١/١) ، الخزانة (٥١٧/١ وما بعدها) .
 - ٤ الاغاني (١٧٥/٩ وما بعدها) ، المرزباني ، معجم (٧) .
 - ٥ الاغاني (٥٩/١١) ، (بولاق) ، المرزباني ، معجم (٧) .
 - ٦ الشعر والشعراء (١٥٩/١ وما بعدها) ، (لشعر غير مسؤول) ، الخزانة (٥١٧/١ وما بعدها) ، الاغاني (٥٤/١١) ، (دار الكتب) ، الخزانة (٥١٩/١) ، (بولاق) .
 - ٧ المعجب (٢٠٤) ، الاغاني (١٧٥/٩ وما بعدها) ، (٥٤/١١) ، (دار الكتب) .

كانت من أشد الناس في الجاهلية ، وكانت بينهم وبين (بكر) حزازات وعداوة ، ويقال : جاء ناس من بني تغلب الى بكر بن وائل يستسقونهم فطردتهم بكر للحقد الذي كان بينهم فرجعوا ، فات سبعون رجلاً عطشاً . فاجتمعت (تغلب) لحرب (بكر) ، واستعدت لهم (بكر) حتى إذا التقوا ، خافوا أن تعود الحرب بينهم كما كانت ، فدعا بعضهم بعضاً الى الصلح ، فتحاكموا في ذلك الى (عمرو ابن هند) . فجاءت تغلب يقودها (عمرو بن كلثوم) وجاءت بكر ، ومعها (الحارث بن حلزة الشكري) ، فألقى قصيدته :

أذنتنا بينها أسماء رُبّ ثاوٍ يُملّ منه الثواء

وتأثر (عمرو بن هند) بها ، فحكم لبكر ، وأنشد (عمرو) قصيدته :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خور الأنلرينا^١

وفي جملة أبياتها :

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا^٢

ويذكر بعض الرواة أن (عمرو بن كلثوم) ارتجل قصيدته الشهيرة ارتجالاً ، وأنها كانت تبلغ ألف بيت أو تزيد^٣ . وإن ما وصل إلينا منها هو بعضها . وتبلغ (٩٦) بيتاً في كتاب (شرح القصائد العشر) للتبريزي^٤ . يظهر من دراستها وامعان النظر فيها أنها لم تنظم دفعة واحدة ، وإنما لم تكن بهذا الطول يوم ألقيها الشاعر ، بل زيدت فيما بعد حسب المناسبات ، لأن فيها أبياتاً تمس أموراً وقعت فيما بعد ، في ظروف متأخرة ..

ويروى أن (عمرو بن كلثوم) ، جاء سوق عكاظ ، فألقى معلقته هناك . وروي أن (معاوية بن أبي سفيان) قال : إن قصيدة عمرو بن كلثوم وقصيدة الحارث بن حلزة ، من مفاخر العرب ، وكانتا معلقتين بالكعبة دهرأ^٥ .

١ التبريزي ، شرح القصائد العشر (٣٧٩ وما بعدها) .

٢ أمالي المرتضى (٥٧/١ ، ٣٢٧) ، (١٤٧/٢) .

٣ شعراء النصرانية (١٩٧ وما بعدها) .

٤ (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد ح ، ص ٣٨٠ - ٣٨٢) .

٥ الخزائن (٥١٧/١ وما بعدها) ، (بولاق) .

وبلاحظ ان في معلقة (عمرو بن كلثوم) أبياتاً خرجت على رويّ القافية ،
مثل قوله :

تركنا الخيل عاكفة عليه مقلدة أعتها صفونا^١
وقوله :

ندافع عنهم الأعداء قدماً ونحمل عنهم ما حملونا^٢
وقوله :

نحزُّ رؤوسهم في غير برٍّ فما يدرون ماذا يتقونا^٣
وقوله :

إذا ما صيَّ بالإسناف حيٌّ من الهول المشبه أن يكونا^٤
وقوله :

برأسٍ من بني جشم بن بكر ندق به السهولة والحزونا^٥
وقوله :

إذا عضَّ الثفاف بها اشمازت وولتهم عَشَوَزةً زبونا^٦
وقوله :

علينا كلَّ سايغة دلاص تَرى فوق النجادِ لها غضونا
إذا وضعت عن الأبطال يوماً رأيتَ لها جلود القومِ جُونا^٧

-
- ١ البيت رقم (٢٤) من المعلقة .
 - ٢ البيت رقم (٣١) .
 - ٣ البيت رقم (٣٦) .
 - ٤ البيت رقم (٣٩) .
 - ٥ البيت رقم (٤٥) .
 - ٦ البيت رقم (٥٠) .
 - ٧ البيتان رقم (٧٠ وما بعده) .

وقوله :

وأنا المانعون لما يلينا إذا ما البيض زابت الجفونا^١

ومواضع أخرى من هذا القبيل^٢ . وكان من اللازم مسابقة الغافية التي هي (الأندرينا) .

ولعمرو أشعار ، فيها هجاء للنعمان بن المنذر . فقد ذكر أن النعمان توعد (عمرو بن كلثوم) ، قبله ذلك ، فدعا كاتباً من العرب ، فكتب إليه :

ألا أبلغ النعمان عني رسالةً قدحك حولي^٣ وذمك قارح
متى تلقني في تغليب ابنة وائل وأشياها ترقى اليك المسالح^٤

وهجاء في شعر آخر ، ذكر فيه أمه ، وعيَّره بها ، وعيَّره في شعر آخر بأن خاله صانع يصوغ القروط والشنوف بيثرب ، ورماه فيه باللؤم^٥ .

وتنسب لعمرو أبيات نظمها في البذل والسخاء وفي إعطاء المال ، أولها :

لا تلومني فلاني متلف كل ما تحوي عيني وشمالي
لست إن أطرفت مالا فرحاً وإذا أنلفته لست أبالي^٦

ولعمرو بن كلثوم ديوان صغير ، نشر في مجلة المشرق . وقد ترجمت معلقته الى الألمانية^٧ . وفي معلقة (عمرو) أشعار مضطربة وتكرار ، وعدم تجانس في وحدة الموضوع . وقد يكون ذلك بسبب تلاعب الأيدي في القصيدة . وإذا عثر على نصها القديم ، الذي زعم انه كان ألف بيت أو يزيد ، فإنها ستكون أطول قصيدة في تأريخ الشعر العربي نسبها علماء الشعر الى أحد من الجاهليين . وذكر ان (عمرو بن كلثوم) ، أغار على (بني حنيفة) بالهامة ، فأمره

١ البيت رقم (٧٧) .

٢ الأبيات (٨٠ - ٨٣) ، (٨٨) .

٣ الاغاني (١٧٥/٩ وما بعدها) ، (٥٨/١١) ، (دار الكتب) .

٤ المرزباني ، معجم (٧) .

٥ بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (٥٧/١ ، ٦٧ وما بعدها ، ١٠٣) ، المشرق (١٩٢٢ م) ، (ص ٥٩١ وما بعدها) .

(يزيد بن عمرو الحنفي) ، ثم سقاه الخمر في قصر بـ (حجر) اليمامة ، حتى مات . وذكر ان (يزيد) أراد المثلة به ، بربطه بجمل ، ثم ضرب الجمل ، ليركض به ، فصاح : « يالَ ربيعة ! أمثلة »^١ .

وتذكر رواية ان نهاية (عمرو بن كلثوم) كانت انتحاراً بشرب الخمر ؛ وذلك ان الملوك كانت تبعث اليه بجبائه وهو في منزله من غير أن يفد اليها . فلما ساد ابنه (الأسود بن عمرو) بعث اليه بعض الملوك بجبائه كما بعث الى أبيه . فغضب (عمرو بن كلثوم) وقال : « ساواني بولي » ، فحلف لا يلوق دسماً حتى يموت . وجعل يشرب الخمر صرفاً على غير طعام . فلم يزل يشرب حتى مات^٢ .

و (الحارث بن حلزة) الشكري ، هو من (بني يشكر) ، من بكر بن وائل . وكان أبرص . وقد اشتهر بقصيدته التي هي احدى المعلقات ، كما اشتهر بمثلها (عمرو بن كلثوم) و (طرفة بن العبد) . يذكر أنه ارتجلها بين يدي (عمرو بن هند) ارتجالاً ، في شيء كان بين بكر وتغلب بعد الصلح ، وكان ينشده من وراء السجف ، للأبرص الذي كان به . وكان من عادة الملك أن يسمع الأبرص من وراء سبعة ستور ، وينضح أثره بالماء إذا انصرف عنه . فلما سمعت أم (عمرو بن هند) قصيدته ، قالت : « تالله ما رأيت كاليوم قط رجلاً يقول مثل هذا القول يكلم من وراء سبعة ستور » ، فقال الملك : « ارفعوا سترأ وأدنوا الحارث » ، وكان كلما استحسنت شيئاً منها أمر برفع ستر ، حتى رفعت الستور السبعة . واقعده الملك قريباً منه استحساناً لها وتقديراً له . وكان الحارث متوكلأ على عنزة فارتزت — كما يقول أهل الأخبار — في جسده وهو لا يشعر^٣ . وقد زعم أنه قال قصيدته المشهورة وهو ابن مائة وخمس وثلاثين^٤ .

والقصيدة من قصائد الفخر والتبجح بالمفاخر والمآثر ، وقد عرض فيها بقبيلة (تغلب) ، وعرض بـ (عمرو بن هند) كذلك . وقد ضرب به المثل بالفخر

١ الشعر والشعراء (٢٢٤ وما بعدها) .

٢ المحبر (٤٧٠ وما بعدها) .

٣ الشعر والشعراء (١٢٧/١) ، الخزائن (١٥٨/١) ، (بولاق) .

٤ الخزائن (١٥٨/١) ، (بولاق) ، (٥١٩/١) ، (بولاق) .

فقيل : « أفخر من الحارث بن حنظلة »^١ . ويرى (تولدكه) ان سبب اختيار (حماد) الراوية لهذه القصيدة وضمها الى القصائد الأخرى المختارة ، هو ان حماداً كان مولى لقبيلة (بكر بن وائل) ، وكانت هذه القبيلة في عداوة مع قبيلة (تغلب) ، ولما كان (حماد) قد اختار قصيدة (عمرو بن كلثوم) التغلبي لشهرتها ، لم يسع حماداً أن يعدل عن اختيارها ، ولكنه اضطر على اختيار قصيدة أخرى الى جانبها تشيد بمدح (بكر بن وائل) سادته ، فاختار قصيدة (الحارث ابن حنظلة) للذي لم يبلغ في الشهرة شهرة الشعراء الآخرين^٢ .

ويزعم أهل الأخبار انه ارتجلها ارتجالاً أمام الملك ، بينما يذكرون انه كان قد قال لقومه قبل ارتجاله لها أمام الملك : « اني قد قلت قصيدة ، فمن قام بها ظفر بحجته وفلج على خصمه فرواها ناساً منهم . فلما قاموا بين يديه لم يرضهم فحين علم انه لا يقوم بها أحد مقامه ، احتملها وأنشدها أمام الملك^٣ . وقد قالها لتكون حجة لقومه في نزاعهم السيامي مع قبيلة تغلب ، ودفاعاً عنهم أمام الملك^٤ .

ويرى (بروكلمن) أن شعر (الحارث) أقل إصالة من شعر (عمرو بن كلثوم) . وهو قريب من شعر (زهير) في ميله الى مذهب التعليم والتهديب^٥ . وقد قدم (أبو عبيدة) شعره وجعله أحد ثلاثة نفر اشتهروا بمجودة قصائدهم ، إذ قال : « أجود الشعراء قصيدة واحدة جيدة طويلة ثلاثة نفر : عمرو بن كلثوم ، والحارث ابن حنظلة ، وطرفة بن العبد »^٦ .

وللحارث بن حنظلة شعر يذكر فيه (ابن مارية) ، وهو (أبو حسان) (قيس بن شراحيل بن مرة بن همام) ، وكان ممن سعى في الصلح بين بكر وتغلب . وفي جملة ما قاله فيه :

والى ابن مارية الجواد وهل شروى أبي حسان في الأنس^٧

-
- ١ زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١٢٥/١) .
 - ٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٦٧/١ وما بعدها) .
 - ٣ الخزائن (٥١٩/١) .
 - ٤ كارلو فالينو (٧٥) .
 - ٥ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٠٣/١) .
 - ٦ الخزائن (١٥٨/١) ، (بولاق) .
 - ٧ المفضليات (٥٤) .

وفي قصيدة (الحارث بن حنظلة) أسماء مواضع من محاسن ومحال حلالهم .
وهي قصيدته التي تبدأ بـ :

أذنتنا بينها أسماء رب ثاورٍ يحمل منه اللثواء^٢

وللحارث بن حنظلة ديوان صغير^٣ وأشعار مثورة في كتب الأدب والأخبار^٤.

و (الأعشى) (ميمون بن قيس بن جندل) من (سعد بن ضبيعة بن قيس ابن ثعلبة) ، ويكنى أبا بصير . وهو ممن عاش في الجاهلية وأدرك الإسلام . ذكر (ابن قتيبة) أنه (كان أعمى)^٥ . وهو وهم ، وإنما عسي في أواخر أيامه ، كما يفهم ذلك من شعره ، بعد أن لعب به الكبر ، وتحكمت به الشيخوخة ، وصار عاجزاً ، يقوده قائد ، يوجهه أنى يشاء ، تسيره عصاه ، وهو يخاف العثار^٦ . وقد وصف شيخوخته هذه وصفاً مؤلماً ، صادراً من قلب متفطر حزين ييكى أيامه الأولى ، أيام اللذة والمتعة ، أيام اللهو والجمرة والنساء ، أيام مضت ، حلت محلها أيام سود ، لا يفرق فيها الأبيض من الأسود ولا الليل والنهار ، ثم هو وحده ، لا خمر ولا امرأة ولا لحم دسم ، عافته المرأة ، لذهاب ماله وشبابه ، وتركه الزنا على رغم منه ، ولم يعد يرى في هذه الأيام إلا الهم والحزن والألم .

وأم الأعشى بنت (عكس) أخت المسيب بن علس من بني ('جماعة') ، ثم من بني (ضبيعة بن ربيعة بن نزار) ، ولد بقرية باليامة يقال لها (منفوحة) ، وفيها داره وبها قبره . ويقال إنه كان نصرانياً ، وهو أول من سأل بشعره^٧ . ويسمى (صناجة العرب) . لأنه أول من ذكر الصنّج في شعره فقال :

١ الصفة (٢٢٠) .

٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٠٣/١) ، مجلة المشرق (١٩٢٢ م) (ص ٥٩١ وما بعدها) .

٣ الاغانى (١٧١/٩ وما بعدها) ، المفضليات رقم (٢٥) ، (٦٢) ، (١٢٧) .

٤ الشعر والشعراء (١٧٨/١) ، (الثقافة) ، الخزائن (٨٤/١) وما بعدها ، الاغانى (١٠٨/٩) ، رسالة الففران (١٥٩) .

٥ القصيدة رقم (١٢) و (٢٨) من ديوانه ، المرزباني ، معجم (٤٠١) ، طبقات ابن سلام (١٥) ، الاغانى (١٠٨/٩) ، المؤلف (١٢) ، رسالة الففران ١٥٩ .

٦ المرزباني ، معجم (٢٢٥) ، (فراج) .

ومستجيب لصوت الصنج تسمعه إذا ترجع فيه القيمة الفضل^١

وذكر أنه إنما عرف بصناعة العرب لكثرة ما تغت العرب بشعره ، أو لجودة شعره ، أو لأن العرب كانت تتغنى بشعره على صوت الصنج ، الى غير ذلك من شروح وتفسير^٢ .

وقد نشأ (الأعشى) راوية لشعر خاله (المسيب بن علس) ، وهو من شعراء الجاهلية المقلين . ثم نبغ هو في الشعر ، فعلا اسمه على اسم خاله ، حتى حلق في سماء الشعر ، ولا سيما في وصف الخمر ، حيث حظي الخمر عنده بموقع ممتاز في شعره ، فأجاد في وصفه وفي أثره في النفس . وتفنن في وصف الخمر ، حتى سبق بوصفه هذا سائر شعراء الجاهلية ، ولم يلحق به في هذه الناحية من الشعر أحد . وقد عدّه بعض علماء الشعر رابع الشعراء الأربعة ، فهو يأتي بعد امرئ القيس ، وزهير بن أبي سلمى ، والناطقة الديباني^٣ . وقد أجاد أيضاً في وصف القيان .

قيل : كان الأعشى يفد على ملوك فارس ، ولذلك كثرت الفارسية في شعره^٤ ، وزعم ان (كسرى) سمعه يوماً يُنشد ، فقال : من هذا ؟ فقالوا : أمروذ كويد تازى ، أي مغني العرب ، فأنشد :

أرقتُ وما هذا السهاد المؤرقُ وما بي من سقم وما بي معشوق

فقال كسرى : فسروا لنا ما قال ! فقالوا : ذكر انه سهر من غير سقم ولا عشق !

فقال كسرى : إن كان سهر من غير سقم ولا عشق فهو لص !!* الى غير ذلك من قصص مصنوع .

١ المرزباني ، معجم (٣٢٥) ، (فراج) ، الشعر والشعراء (١٧٩/١) ، (الثقافة) ، السيوطي ، شرح شواهد (٢٤٠) .

٢ المزهر (٤٣١/٢) ، الخزانة (٨٥/١) ، (بولاق) .

٣ رسالة الغفران (٢٢٩) ، (بنت الشاطيء) .

٤ الشعر والشعراء (١٧٩/١) ، (الثقافة) ، الخزانة (٨٥/١) .

٥ الشعر والشعراء (١٨٠/١) ، (الثقافة) .

وكان يفد أيضاً على ملوك الحيرة ، ويمدح الأسود بن المنذر ، أخا النعمان^١ :
 وقال له (النعمان بن المنذر) : لعلك تستعين على شعرك هذا؟ فقال له الأعشى :
 احبسنى في بيت حتى أقول ، فحبسه في بيت ، فقال قصيدته التي أولها :
 أأزمتَ من آل ليلي ابتكارا وشطت على ذي هوى أن تزارا
 وفيها يقول :

وقيدني الشعر في بيته كما قيد الأسرات الحمارا^٢

ورود في شعر الأعشى قوله :

وكننت امرأة زمناً بالعراق عفيف المُنَاخ طويل التفن^٣

وإذا كان ما نسب الى الأعشى من قوله :

لسنا كمن جعلت لإياد^٤ دارها تكريت تنظر حببها أن يحصدا
 جعل الإله طعامنا في مالنا رزقاً نضمته لنا لن ينفدا
 مثل الهضاب جزارة لسيوفنا فإذا نُراَع فلأنها لن تطردا
 ضمنت لنا أعجازهن قُدورنا وضروعهن لنا الصريح الأجردا^٥

صحيحاً ، فإنه يشير الى أرض يقال لها (تكريت) . وقد ذكر بعض علماء
 اللغة أن (تكريت) بنواحي الموصل ، سميت بتكريت بنت وائل ، أخت (قاسط)^٥ .
 ويظهر أن الساسانيين قد أبعدوا بعض بطون (إياد) الى هذه الديار ، فأجبروهم
 على الإقامة بها ، وأما النسب المذكور ، فقد وضع فيما بعد . ويظهر من هذا
 الشعر ان تلك البطون قد تعلمت الزراعة ، فزرعت الحب ، والزراعة مزدرة في
 نظر العرب ، ولهذا تبجح الشاعر عليها وافتخر ، بكون قومه أصحاب إبل

١ الشعر والشعراء (١ / ١٨٠) ، (الثقافة) .

٢ الشعر والشعراء (١ / ١٨٠ وما بعدها) ، (الثقافة) .

٣ أمالي المرتضى (١ / ٣١ ، ٣٥) ، ديوانه (٢٢) .

٤ ديوان الاعشى رقم ٣٤ ، تاج العروس (١ / ٥٧٦) ، (كريت) .

٥ تاج العروس (١ / ٥٧٦) ، (كريت) .

ضخمة ، يعقرونها لمن يتزل بساحتهم من ضيوف ، أما لإياد فهم أصحاب زراعة وحصاد .

وكان الأعشى يتادم (هودة بن علي) الحنفي ، صاحب اليمامة ، وكان نصرانياً علي ما يقال . وذكر ان (الأعشى) كان نصرانياً كذلك ، وكان يزور (الحيرة) كما كان يزور أسقف (نجران) . وله رواية يروي شعره اسمه (يحيى ابن متى) من عبّاد الحيرة . وقد أشار في شعره الى أمور توراتية مثل حمامة نوح وأنخبار سليمان . لا ندرى اذا كان قد أخذها من التوراة ، أو انه سمعها من رجال الدين أو من قصص نصارى الحيرة^١ .

وله أشعار كثيرة في مدح (هودة) (هودة بن علي بن ثمامة) الحنفي ، منها قصيدته التي مطلعها :

أحييت نبيّاً أم تركت بدائكا وكانت قتولاً للرجال كذلكا
وأقصرت عن ذكرى البطالة والصبا وكان سقيها ضلة من ضلالكا

الى أن قال :

الى هودة الوهاب أهديت مدحتي أرجي نوالاً فاضلاً من عطائكا
تجانب عن جوّ اليمامة ناقتي وما عمدت من أهلها لسوائكا

وهذه القصيدة تشبه أشعار المحدثين والمولدين في الرقة والانسجام^٢ .

ومن شعره في مدح (هودة) قوله :

له أكاليل بالياقوت زينها صواغها لا ترى عيباً ولا طبعها

وقوله :

وكلُّ زوجٍ من الديباج يلبسها أبو قدامة مجبوراً بذلك معاً^٣

-
- ١ راجع قصائده ١٣ ، و ٣٤ ، و ٧٩ من ديوانه ، ويروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٤٧/١) ، الاغانى (٧٦/١٦) ، رسالة الغفران (١٧٤) .
 - ٢ الخزائن (٦١/٢ وما بعدها) ، (بولاق) .
 - ٣ أمالي المرتضى (١٧٢/٢) .

وكان يزور اليمن ، ويقف بأبواب أقيالها ، لينال منهم هداياهم . وفي خبر
يرجع سنده الى (الأعشى) ، أنه قال : « أتيت سلامة ذا فائش (فائش)
فأطلت المقام بيابه حتى وصلت اليه ، فأنشدته :

إن محلاً وإن مرتحلاً وإن في شعر من مضى مثلاً
استأثر الله بالوفاء وبإلـ عدل وولى الملامة الرجال
الشعر قلده سلامة ذا فائش والشيء حيث ما جعلاً

قال : صدقت ، الشيء حيث ما جعل ، وأمر لي بمائة من الإبل وكساني
حلاً وأعطاني كيرشاً مدبوغة مملوءة عنبراً ، فبعثها في الحيرة بثلاثمائة ناقة حمراء^١ .
والشعر المذكور هو من قصيدة رقت برقم (٣٥) في ديوانه وتقع في (٢٤) بيتاً ،
وفي ترتيب بعض أبياتها اختلاف . وقد شكك (ابن قتيبة) في صحة نسبتها الى
الأعشى ، كما شك غيره في صحة نسبتها اليه ، لأسباب ذكروها^٢ . وقد نسبها
(الهمداني) الى الأعشى^٣ .

ونسب (الهمداني) الى الأعشى قصيدة أخرى في مدح (سلامة) أولها :

رأيت سلامة ذا فائش إذا زاره الضيف حياً وبش^٤
وقال لهم مرحباً مرحباً وأهلاً وسهلاً بهم وابتهش

وتنسب الى الأعشى قصيدة أخرى في مدح (سلامة ذا فائش) ، وهو :
(سلامة ذو فائش) ابن يزيد بن مرة بن عريب بن مرثد بن حريم الحميري^٥ ،
وقد ذكر (الهمداني) أن (ذا فائش) هذا ، هو (ذو فائش الأصغر) ،
واسمه (سلامة بن يهر) القليل . وأورد أبياتاً في مدحه أولها :

١ السيوطي ، شرح شواهد (٢٣٩/١) ، الاغاني (١٢٤/٩) ، ديوان الاعشى الكبير
(ص ٦٨ ، رقم القصيدة ٨) ، (شرح وتحقيق الدكتور محمد حسين) ، رسالة
الغفران (١٧٥) .

٢ ديوان الاعشى الكبير (٢٣٢) ، الاغاني (٨٥/٨) ، الامالي (٩٩/٢) .

٣ الاكليل (١٩٨/٢) .

٤ الاكليل (١٩٥/٢) .

٥ هي القصيدة التي رقت برقم (٨) في ديوانه ، (ص ٦٨ وما بعدها) ، ديوان
الاعشى (١٩) ، (أوربا) ، رسالة الغفران (٢١٨) .

تؤم سلامة ذا فائش هو اليوم حم* لميعادها
وكم دون بيتك من صنف وكدالك رمل وأعقادها

وهي أبيات من القصيدة المرقمة برقم (٨) في ديوان الأعشى ، وتقع في (٥٦) بيتاً .

ودون (الهمداني) أبيات شعر زعم أنها في مدح (ذي فائش) ، الذي هو (سلامة بن يهر) القليل ، ذكر أن (ابراهيم بن المحابي) ، أنشدها إياه ، أولها :

وذو فائش قد زرتة في ممنع من النيق فيه للوعول موارد^١

وذكر (الهمداني) أبياتاً من الشعر في مدح (زرعة بن عمرو) (زرع بن عمرو) . وكان (زرعة بن عمرو) يتولى وآبأؤه للتبائع أعمال (المعافر) و (مأرب) وحضرموت ، وكان قد حارب (مذحجاً) ، وفيه يقول (الأعشى) وقد وفد على بعض أولاده ومدحهم ، قصيدة أولها :

تسنم في العلا زرع بن عمرو وشيد ما بنى عمرو وزادا^٢

ودون (الهمداني) أبيات شعر في مدح (حجر بن زرعة) ذكر أنها للأعشى ، وقال إنه كثيراً ما يفد الى المعافر ، ثم قال : وقيل إنها للمسيب بن علس . وأولها :

حلت على حجر بن زرعة بعدما برى الجسم مني مشفقات العواذل^٣

ونسب (الهمداني) أبيات شعر في مدح (فهد بن النعمان) ، وكان قبلاً بالمعافر . وقد وفد عليه . وأول هذه الأبيات :

ونادمت فهداً بالمعافر حقبة وفهد سماح لم تشبه المواعد^٤

-
- ١ الاكليل (١٩٥/٢) .
 - ٢ الاكليل (١١٥/٢) .
 - ٣ الاكليل (١١٧/٥) .
 - ٤ الاكليل (٣٦٣/٢) .

ونسب الرواة الى (الأعشى) قصيدة في مدح (مسروق بن وائل) الحضرمي .
وهو ممن وفد الى (النبي) في وفد حضرموت فأكرمه^١ . وهي قصيدة رقت
برقم (٧٠) في ديوانه^٢ .

وفي (يزيد بن صهر بن أبي ثابت) الشيباني ، من سادة بني شيان وذوي
الرأي فيهم ، يقول الأعشى :

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً أبها الرجل ؟

وهي لاميته الشهيرة التي تعدّ من المعلقات^٣ . ومما جاء فيها في وصف مجلس
الشرب والخمر :

نازَعَتْهُمْ قُضْبُ الرِّيحَانِ مَرْتَفَقًا وقهوة مزة راووقها خضل
لا يستغيقون منها إلا وهي راهنة إلا بهات ، وإن علّوا وإن نهلوا
يسعى بها ذو زجاجات لما نطف مقلص أسفل السريال ، مُعْتَمِل
ومستجيب لصوت الصنج يسمعه إذا ترجع فيه القينة القُضْلُ^٤

وكان يبغى من أسفاره هذه جمع المال للاستمتاع بلذة الحياة ، ولذة الحياة
عنده : الخمر والطعام والنساء ، وقد جمعها بقوله :

إن الأحامرة الثلاثة أهلكت مالي وكنتُ بهن قدماً مُولما
الخمر واللحم السمين مع الطلى بالزعران ولا أزال مُردّعا^٥

وهو من الشعراء الذين تعهروا في شعرهم ، على شاكلة (امرئ القيس) .
وقد أبدع في وصف صاحبتة (قَتيلة) . وهو لا يخشى من التصريح بأنه اتما
يحب النساء ، لأجل الاستمتاع بهن . فليست المرأة إلا أداة اللذة في هذه الحياة .
فهو يبحث عنها ، ولا يبالي من أي نوع كانت ، جارية أم حرة ، عاهرة أم

-
- ١ الاصابة (٣/٣٨٨) ، (رقم ٧٩٣٥) .
 - ٢ شرح ديوان الأعشى (٣٢٨ وما بعدها) ، الاكليل (٣٧٦/٢) .
 - ٣ طبقات ابن سلام (٢٣) ، الاغانى (١٠٠/٨) ، رسالة الغفران (١٧٤) ،
(حاشية) .
 - ٤ رسالة الغفران (١٧١ وما بعدها) ، تهذيب الالفاظ ، لابن السكيت (٢٢٧) .
 - ٥ ديوان الأعشى (ص) ، (دكتور م - محمد حسين) .

متزوجة، وهو على شاكلة (امرئ القيس) يطيب له أن يصور صاحبه متزوجة،
تخون زوجها ، وتقدم له الحب واللذة ، لأن في الاتصال بالمتزوجة مجازفة من
الرجل ومن المرأة ، والمجازفة من سياء العشاق الفرسان الشجعان .

وقد تمكن الأعشى باتصاله بملوك الحيرة والغساسنة ، وبقيس بن معديكرب ،
وسلامة ذي فائش ، وبسادة نجران ، وبهوذة ، وبأمثالهم من حكام وسادة - من
الحصول على مال طيب، ومن التمتع بمشاهدة مجالس أولئك السادة ، ومن الشرب
بصحاف الذهب والفضة ، ومن أكل أكلات الحضر ، التي لا يعرفها إلا أصحاب
المال والترف ، ومن الاستمتاع بسماع الغناء العربي والأعجمي ، ومن التأثير بالحياة
الرفيعة التي يحياها أهل الحضر . فأثرت تلك الحياة فيه ، وصار يقبل عليها
ويبحث عنها في كل مكان . وما الحياة تلك إلا اللهو بالخمر والنساء والطعام
الطيب ، حتى كان يتلف ماله في سبيلها ، إن عسر الحصول عليها بغير ثمن .

وهو في شعره صريح يعلن فيه حبه لجمع المال ، لا يخشى من التصريح به
أحداً ، ولعلّه كان يريد الإعلان عن ذلك ، ليرزقه الناس بما عندهم ، ويزيدوا
في ماله . نراه يقول :

وطوّفت للمال آفاقها عمان وحمص فأوريشكّم
أتيت النجاشي في داره وأرض النبط وأرض العجم
فنجران فالسرو من حبر فأبي مرام له لم أرم
ومن بعد ذاك الى حضرموت فأوفيت همي وحيناً أهم

ثم هو يعاد المواضع التي زارها فيقول :

ألم ترني جولتُ ما بين مأربٍ الى عدن فالشام والشام عانده
وذا فائش قد زرت في متمتع من التيق فيه للوعول موارد
يبعدان أوريحان أو رأس سكيّة شفاء لمن يشكو السهائم بارد
وبالقصر من أرياب لو بت ليلة لجاءك مثلوج من الماء جامد
ونادمتُ فهدأ بالمعافر حقبة وفهد سمّاح لم تشبه المواعد

وقيساً بأعلى حضرموت انتجعتـه فنعـم أبو الأضياف والليل ، اكـد^١

ويظهر من الشعر المتقدم انه طاف بلاداً كثيرة ، فيها أرض العجم ، وأرض
النبط ، وبلغ حمص و (أورشليم) ، أي القدس ، وعمان ، وزار جزيرة العرب
حتى وصل حضرموت واليمن ، وعبر الى (النجاشي) في داره . وهي أسفار
بعيدة متعبة بالنسبة لذلك الوقت ، وربما كان هذا الشعر مما أقحم عليه .

وله أشعار كثيرة في مدح (قيس بن معديكرب)^٢ ، الذي كان يرزقه ويغلق
عليه المال ، وهو لا يجد غضاضة من التصريح في مدحه له أن لا يحرمه من نداءه
الجزيل . ولهذا عدة علماء الشعر أول من سأل شعره ، وابتذل نفسه في السؤال ،
وأسرف في الترحال من أجل جمع المال . ومن شعره في (قيس) وفي الاستجداء
منه ، قوله :

ونبت قيساً ولم أبله كما زعموا خير أهل اليمن^٣
فجثثك مرتاداً ما خبروا ولولا الذي خبروا لم ترن
فلا تحرمي نذاك الجزيل فلاني امرؤ قبلكم لم أهن
وهي قصيدة نونية ، موجودة في ديوانه^٤ .

ولالأعشى قصيدة في مدح (أبي الأشعث بن قيس) الكندي . والأشعث
اسمه (معديكرب) كان أبداً أشعث الرأس فسمي الأشعث ، وهو من الصحابة ،
وفد على النبي سنة عشر وأسلم ، وكان شريفاً مطاعاً جواداً شجاعاً ، وهو أول
من مشى الرجال في خدمته وهو راكب ، وكان من أصحاب (علي) في وقعة
صفين . ومن شعر الأعشى في مدح (أبي الأشعث) ، وهو (قيس بن معديكرب)
قوله :

-
- ١ الصفة (١٠٠ ، ٢٢٥) ، الاكليل (١٠٢ / ٢) .
 - ٢ تاريخ ملوك العرب الاولى (١٢٤) .
 - ٣ ديوان الاعشى (١٥) ، (أوربا) ، شرح ديوان الاعشى (ش) ، رسالة الغفران (٢١٨) ، وله قصيدة مطلعها :

ألزمت من آل ليلى ابتكارا وشطت على ذي هوى أن يزارا
في مدحه أيضاً ، راجع ديوانه (ص ٣٥) ، (أوربا) ، رسالة الغفران (٢٢٧) .

من ديار هضْب كهضْب القلب فاض ماء الشؤون فيض الغروب
أخلفتني بها قتيلة ميعا دي وكان للوعد غير كذوب^١

وكان الأعشى ، إذا زار اليمن تخوف به (أثافت) ، وكان له بها معصر
للخمر يعصر فيه ما أجزل له أهل (أثافت) من أعنابهم . وقد ذكرها (الأعشى)
في شعره ، إذ قال :

أحبُّ أثافيتَ وقت القطاف ووقت عُصارة أعنابها

وكانت تسمى (درني) في الجاهلية . وإياها التي ذكرها الأعشى بقوله :

أقول للشرب في درني وقد ثملوا شيموا وكيف يشم الشارب الثمل^٢

وذكر غير (الهمداني) أن (درني) المذكورة في شعر الأعشى ، هي ناجية
من شق اليمامة . قال الأعشى :

حلّ أهلي ما بين درني فبادر لي وحلّت علوية بالسخال

فهي ليست بـ (أثافت) ، كما ذكر ذلك (الهمداني)^٣ . ونجد الهمداني
يذكر (درنا) في مواضع اليمامة . ولما كان (الهمداني) من العلماء بمواضع
جزيرة العرب ، فلا اعتقد أنه وهم حين ذكر قول (الرئيس الكباري) ، أن
(درني) هي (أثافت) ، فلعل (درني) غير (درنا) اليمامة^٤ .

وقد هجا (الأعشى) (علقمة بن علاثة) من سادات (بني عامر)
وأشرافهم . وكان سبب ذلك ، أنه مدح (الأسود) العنسي ، فأعطاه خمسمائة

١ الخزانة (٢ / ٤٦٣ وما بعدها) ، (بولاق) .

٢ ديوان الأعشى (ف) ، (دكتور م . محمد حسين) ، (واثافت وتسمى أثافه بالهاء
وبالتاء أكثر ، وخبرني الرئيس الكباري من أهل أثافت قال : كانت تسمى في
الجاهلية درني وإياها التي ذكرها الأعشى بقوله :
أقول للشرب في درني وقد ثملوا شيموا وكيف يشم الشارب الثمل) ،
الصفة ، للهمداني (٦٦) .

٣ تاج المروس (٩ / ١٩٨) ، (درن) .

٤ الصفة (١٣٧) .

مقال ذهباً وخسائة حللاً وعنباً ، فخرج ، فلما مر ببلاد (بني عامر) ، وهم قوم (علقمة) و (عامر بن الطفيل) ، خافهم على ما معه ، فأتى (علقمة ابن علاثة) ، فقال له : أجرني ! قال قد أجرتك من الجن والأنس . قال الأعشى ومن الموت . قال : لا . فأتى (عامر بن الطفيل) ، فقال له : أجرني ! قال : قد أجرتك من الجن والأنس . قال الأعشى : ومن الموت ! قال عامر : ومن الموت أيضاً . قال : وكيف يجبرني من الموت ؟ قال : إن مت في جوارى بعثت إلى أهلك الدية . قال : الآن علمت أنك قد أجرنتني . فحرضه عامر على تنفيره على علقمة ، فغلبه عليه بقصائد . فلما سمع علقمة نلر ليقننه إن ظفر به . فقال الأعشى قصيدة مطلعها :

شافك من قيلة أطلالها بالشط فالجزع إلى حاجر

ولما نلر (علقمة) دم الأعشى جعل له على كل طريق رسداً . فاتفق أن الأعشى خرج يريد وجهاً ومعه دليل فأخطأ به الطريق ، فألقاه على ديار بني عامر ابن صمصمة ، فأخله رهط (علقمة) فأتوه به . فقال له علقمة : الحمد لله الذي مكنتني منك ، فقال الأعشى :

أعلم قد صيرتني الأمور إليك ، وما أنت لي مُنْقَصُ
فهبلي ذنوبي فذلك النفوس ولا زلت تنمي ولا تنقصُ

في أبيات ، فعفا عنه ، فقال الأعشى ينقض ما قال أولاً :

علمم يا خير بني عامر للضيف والصاحب والزائر
والضاحك السن على همه والغافر العثرة للعائري

وكان (عامر بن الطفيل) لما نافر (علقمة) خرج مع ليد الشاعر والأعشى ، فعكبا (أبا سفيان) ، فأبى أن يحكم بينهما ، فأتيا (عيينة بن حصن) فأبى ، فأتيا (غيلان بن سلمة) الثقفي ، فردهما إلى (حرملة بن الأشعر) المرّي ، فردهما إلى (هرم بن قطبة) الفزاري ، فحكم بتساويهما في الشرف والمترلة ،

ولم يفضل فانصرفا على ذلك^١ .

ويقال إن النبي قال لحسان : يا حسان أنشدنا من شعر الجاهلية ما عفا الله لنا فيه ؟ فأنشده حسان قصيدة الأعشى في علقمة بن علاثة :

علقم ما أنت الى عامر الناقض الأوتار والواتر

فنهى النبي حسان من تلاوتها . وذكر أن النبي رخص في الأشعار كلها إلا هاتين الكلمتين : كلمة أمية بن أبي الصلت في أهل بدر ، وكلمة الأعشى في علقمة بن علاثة^٢ .

وقد اختلفت الروايات في (علقمة) ، فرواية تذكر أنه أسلم وصحب الرسول ورواية تذكر أنه لم يسلم ، وأنه كان عند (قيصر) ، وأنه أثني أمامه على الرسول حين كان عنده ، بينما تناول أبو سفيان منه ، ورواية تذكر أنه أسلم ثم ارتد ولحق بالشام ، ثم عاد الى الإسلام ، ورواية تذكر أن (عمر) استعمله على (حوران) ، فأت بها . وقد رثاه (الحطيئة) بقصيدة ، وكان قد ذهب اليه لنيل نواه ، فوجده قد مات ، وقد أوصى له بجائزة في حياته ، فأعطاه ابنه مائة ناقة يتبعها أولادها^٣ .

ولما كان الأعشى تاجراً من تجار الشعر ، اتخذ الشعر متجراً يتاجر به ، فيمدح من يعطيه ، ويهجو من لا يحسن اليه ويصله ، لذلك صار شعره في الرجال الذين اتصل بهم ، بين مدح وبين هجاء .

وقد أفادنا (الأعشى) فائدة كبيرة في ذكره أسماء المواضع التي مر بها في شعره . وقد اقتبس (الهمداني) بعض شعره المتعلق بهذا الموضوع . كما أورد شعراً لغيره يتعلق بالمواضع ، انفرد به في بعض الأحيان . ومما ذكره من شعر الأعشى في بعض مواضع اليمامة ، قوله :

قالوا : "نمار" قبطن الخال جادهما فالعسجدية فالأبلاء فالرجل

١ الاصابة (٢/٤٩٦ وما بعدها) ، (٥٦٧٦) .

٢ الخزانة (٢/٤٣) ، (بلاق) ، الاصابة (٢/٤٩٦) ، (رقم ٥٦٧٧) .

٣ الاصابة (٢/٤٩٧ وما بعدها) ، (رقم ٥٦٧٧) .

فالسَّجَّحُ يَجْرِي فَيَخْتَرِفُ فَبَرُّقَتُهُ حَتَّى تَتَابَعُ فِيهِ الْوَتَرُ وَالْحَبْلُ^١

ونجد في شعر الأعشى قصصاً من قصص أهل الجاهلية ، من ذلك ما رواه عن سد (مارب) في قصيدته التي يقول فيها :

ففي ذلك للمؤتسي أسوة ومارب ققى عليها العرم^٢
رخام بنته لهم حمير إذا جاءه ماؤهم لم يرم
فاروى الزروع وأعتابها على سعة ماؤهم لم يرم^٣

وهي أبيات نظمت على طريقة ذلك الوقت في ذكر نكبات الماضي ، وما حل بالقبائل والمدن والقرى من مصير سيئ ، لاتخاذها درساً وعبرة للأحياء . وهي لذلك تكون ذات صبغة أدبية أخلاقية ، لا يهتم فيها للتأريخ ولواقع الأحداث ، وإنما للقص وللتأثير في العواطف والقلوب .

ومنها قصيدته التي ذكر فيها من أهلكه الدهر من الجبابرة ومطلعها :

ألم تروا إرمأ وعادا أفناهم الليل والنهار
وقبلهم غالت المنايا طسماً فلم يُنْجِها الخدار
وحل بالحي من جديس يوم من الشر مستطار
وأهل جو أنت عليهم فأفسدت عيشهم فباروا
فصبحتهم من الدواهي نائحة عقبها الدمار

وقد روى أهل الأخبار قصص هؤلاء الأقوام الذين ذكرهم الأعشى في شعره ، وقد رصعوها على عادتهم بالشعر ، نسبوه الى أبطال ذلك القصص^٤ .

وأشار (أبو العلاء) المعري الى شعر نسب للأعشى أوله :

أَمِنْ قَتْلَةٍ بِالْأَنْفَا ۝ دَارٍ غَيْرِ مَحْلُولَةٍ
كَأَنَّ لَمْ تَصْحَبِ الْحَيَّ ۝ بِهَا بَيْضَاءُ عَطْبُولَةٍ

١ الصفة (١٣٧) .

٢ ديوان الأعشى البيت (٦٧) وما بعده من القصيدة رقم ٤ .

٣ الخزانة (١ / ٣٤٧ وما بعدها) ، (بولاق) .

أناء^١ يتزل القوسي منها منظر هول^٢
وما صهباء من عانة^٣ في الدارع محموله
تولى كرمها اصهب يسقيه ويغدو له
ثوت في الخرس أعواماً وجاءت وهي مقتوله
عماء المزنة الغراء راحت وهي مشموله
بأشهى منك للظلم^٤ ن لو أنك مبلوله

فنفى على لسان الأعشى أن يكون من شعره ، أو أن يكون قد صدر عنه^١ .
وقد ورد في بعض الأخبار أن الأعشى كان نصرانياً . ويرى (بروكلمن)
أن من الجائز أن يكون نصرانياً ، غير أن نصرانيته لم تكن مؤثرة عليه ، وهو
إذا كان قد تحدث عن الله وعن البعث ، وعن الحساب ويوم الدين ، فقد تحدث
غيره عن هذه الأمور أيضاً ، ولم يكن من النصارى^٢ . ونحن لا نكاد نجد في
شعره ما يؤكد كونه نصرانياً صحيحاً قويم الدين ، له علم بأحكام شريعته ونواهيها ،
ولعل نصرانيته الوحيدة البادية عليه ، هي في حلقه برهان دير هند ، وإشارته
إلى عيد الفصح وإلى طوفان نوح ، وزيارته (بني الحارث بن كعب) سادة
نجران ، وهم نصارى ، وتشبيهه (قيس بن معديكرب) بالرهبان في عدله
وتقواه^٣ . وقوله :

ولاني ورب الساجدين عشية وما صلك ناقوس^٤ النصارى أبيلها^٥

وقوله :

ربّي كريم لا يكدر نعمة وإذا يناشد بالمهارق أنشدا^٥

-
- ١ رسالة الغفران (٢١١ وما بعدها) .
 - ٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٤٧/١ وما بعدها) ، القصيدة رقم ١٥ حيث
يحلف بثوب راهب اللج .
 - ٣ ديوان الاعشى (دكتور م . محمد حسين) ، راجع القصيدة رقم ٥ من مدح قيس بن
معديكرب الكندي ، والقصيدة رقم ١٥ .
 - ٤ القصيدة رقم ٢٣ .
 - ٥ القصيدة رقم ٣٤ .

ولكننا نجده يقسم بالكعبة إذ يقول :

لاني لعمر الذي خطت مناسمها -تغذى وسبق اليه الباقر الغيل^١

ويقول :

ولاني وثوبي راهب اللج والتي بناها قصي^٢ والمضاض بن جرهم

ويقول :

وما جمل الرحمن بيتك في العلا بأجباد غربي القناء المحرم^٣

وورد ان الأعشى كان يقول بالقدر . ورد في كتاب (الأغاني) : « قال لي يحيى بن متى راوية الأعشى ، وكان نصرانياً عبادياً ، وكان معمرأ ، قال : كان الأعشى قديراً ، وكان ليبد مثبأ ، قال ليبد :

من هداه سبلُ الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء أضل

وقال الأعشى :

استأثر الله بالوفاء وبالعدل وولتي الملامة الرجال

قلت : فن أين أخذ الأعشى مذهبه ؟ قال : من قبل العباديين نصارى الحيرة ، كان يأتهم يشتري منهم الخمر فلقنوه ذلك^٤ . وقد جعله (المرتضى) في عداد من كان على مذهب أهل العدل من شعراء الطبقة الأولى لقوله البيت المذكور^٥ .

وقد نسب الأعشى هلاك الإنسان وموته الى فعل الدهر ، إذ يقول :

فاستأثر الدهرُ الغداة بهم والدهر يرميني ولا أرمي
يا دهر قد اكثرت فجعتنا بسرانا ووقرت في العظم^٥

١ القصيدة رقم (٦) .

٢ القصيدة رقم ١٥ .

٣ الاغاني (٧٩/٨) .

٤ أمالي المرتضى (٢١/١) ، ديوانه (١٥٥) .

٥ أمالي المرتضى (٤٦/١) .

ومن شعره قوله :

وأرى الغواني لا يواصلن. أمراً فقد الشباب وقد يصلن الأمردا^١

وهو شعر يظهر أنه قاله بعد أن عبث به الكبر ، وقصد الشباب ، فقال على عادة الشعراء في ذمهم المرأة حين بلوغهم هذه المرحلة من العمر .

وروي أنه مرّ بأبي سفيان بن حرب فسأله عن وجهه الذي قدم منه فعرّفه ، ثم سأله : أين يقصد ؟ فقال : أريد محمداً . فقال : إنّه يحرم عليك الزنا والخمر والقمار . فقال له : أما الزنا فقد تركني ولم أتركه ، وأما الخمر فقد قضيت منه وطراً ، وأما القمار فلعلّي أن أصيب منه خلفاً . قال : فهل لك الى خير ؟ قال : وما هو ؟ قال : بيننا وبينه هدنة فارجع عامك هذا وتأخذ مائة ناقة حراء ، فإن ظهر آتيته ، وإن ظهرنا كنت قد أصبت عوضاً من رحلتك : قال : لا أبالي . فانطلق به أبو سفيان الى منزله وجمع له أصحابه وقال : يا معشر قريش ، هذا أعشى بني قيس بن ثعلبة ، وقد عرفتم شعره ، ولئن وصل الى محمد ليضربن عليكم العرب بشعره ، فجمعوا له مائة ناقة وانصرف ، فلما كان بناحية اليمامة ألفاه بعيره فوقصه فات^٢ .

ويذكر علماء الشعر ، ان الأعشى كان قد هيا قصيدة لينشدھا أمام النبي ، في صلح الحديبية ، فلما صرفه (أبو سفيان) عن الذهاب الى يثرب لم يقرأها . ومطلع القصيدة :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدنا وبت^٣ كما بات السليم مسهدا^٤

وهي قصيدة نخلت عليه ، ولا يمكن أن تكون من شعر هذا الشاعر الذي لم يتعود على التعمق في جزئيات أمور الدين . ثم ان القسم الخاص بمدح النبي من

١ أمالي المرتضى (٦١٢/١) .

٢ السيوطي ، شرح شواهد (٢٤٠/١) ، الخزائن (٨٥/١) ، رسالة الغفران (١٧٢ وما بعدها) .

٣ السيوطي ، شرح شواهد (٥٧٦/٢) ، القطعة رقم ١٧ من ديوان الأعشى ، الاكليل (٢٥٩/٢) ، الخزائن (٨٥/١ وما بعدها) ، الشعر والشعراء (١٧٨/١ وما بعدها) .

هذه القصيدة وبأحكام الاسلام ضعيف الحبك ، لا يتناسب مع المطلع ولا مع شعر الأعشى الآخر ، ولهذا ذهب أكثر المعاصرين الى انها من الشعر المصنوع^١. وفيها أمور من المجرمات لا يمكن أن يكون الأعشى قد وقف عليها .

وما جاء في هذه القصيدة :

ألا أيها السائل أي يمت^٢ فإن لها في أهل يثرب موعدا
فأليت لا أرثي لها من كلاله ولا من حفي ، حتى تلاقى محمدا
متى ما تُناخي عند باب ابن هاشم تراحي ، وتلقي من فواضله يدا
أجدك لم تسمع وصاة محمد نبي الإله حين أوصى وأشهدا
إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى وأبصرت بعد الموت من قد ترودا
ندمت على أن لا تكون كمثله وأنت لم ترصد لما كان أرصدا
فإياك والميتات لا تقربنها ولا تأخذن سهماً حديدا لقصدا
ولا تقربن^٣ جارة إن سرها عليك حرام فانكحن أو تأبدا
نبي يرى ما لا يرون، وذكره^٤ أغار لعمرى في البلاد وأنجدا^٥

وأنت اذا قرأت هذه الآيات والآيات الأخرى التي لم أذكرها ، فستخرج جازماً. انها من الشعر المصنوع المنحول على الأعشى . ففيها نهى عن أكل الميتة، وعن عبادة الأوثان ، والحث على الصلاة ، وعلى ايصال السائل المحروم ، وغير ذلك من آراء اسلامية ، تجد جلورها في القرآن .

وذكر أن الأعشى سمى قصيدته المحكمة حكيمة ، أي ذات حكمة . فقال :

وغريبة تأتي الملوك حكيمة قد قلتها ليقال من ذا قالها^٦

وقال بعض علماء الشعر : الأعشى أغزل الناس في بيت ، وأخنث الناس في

١ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٤٨/١) ، طه حسين ، في الادب الجاهلي (٢٥٨) ، فؤاد أفرام البستاني ، مجلة المشرق (المجلد ٣٠) ، (ص ٧٦٣ وما بعدها) ، ديوان الأعشى (١٣٤) ، (الدكتور م. محمد حسين) .

٢ وفي رسالة الغفران بعض الاختلاف عما جاءت في ديوانه وفي كتب الادب ، رسالة الغفران (١٧٨ وما بعدها) .

٣ تاج العروس (٢٥٥/٨) ، (حكم) .

بيت ، وأشجع الناس في بيت ، فأغزل بيت قوله :
غراء فرعاء مصقول عوارضها تمشي الهوينى كما تمشي الوجي الوحل

وأخنت بيت قوله :

قالت هريرة لما جئت زائرهما ويلى عليك ويلى منك يا رجل

وأشجع بيت قوله :

قالوا الطراد فقلنا تلك عادتنا أو يتزلون فلما معشر نزل^١

ومن جيد شعره قوله :

عهدي بها في الحمي قد دُرعت صفراء مثل المهرة الضامر
لو أسندت ميتاً الى نحرها عاش ولم يُنقل الى قابر
حتى يقول الناس بما رأوا يا عجباً للميت الناشر^٢

وكان الأعشى سليط اللسان ، اذا هجا أقذع ، شديداً في هجائه ، لذلك كان الناس ينجشون جانبه ، ويرهبون لسانه ، وكان مداحاً ، يمدح فينال عطاء المدوحين . وله أسلوب خاص في نظم الشعر ، وفي العرض والسبك ، وموسيقى النظم ، وفي شعره طلاوة ، وفي أبياته حلاوة . وقد أبدع في أمور ، منها وصف الحمر ، ووصف الحمر الوحشية ، ولا نجد في شعره مكانة للأطلال والديار ، وهو يطيل في النسب^٣ .

ومن أمثلة ما يروونه عن أثر شعره في الناس ، ان رجلاً بائساً مسكيناً اسمه (المحلق) ، كان والد ثمان بنات ، ولا يملك شيئاً سوى ناقصة ، سمعت زوجته بذكر الأعشى وبمروره منهم في طريقه الى سوق (عكاظ) ، فأشارت على زوجها أن يركض الى الأعشى ليستضيفه ، لعله يمدحه ، فيزوج بناته وينال شرف مدحه

١ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٩٦٧ وما بعدها) ، الخزائنة (٣/٥١٨) ، (بولاق) .

٢ أمالي المرتضى (١/٤٥١) .

٣ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٤٨ وما بعدها) .

بين الناس . ففعل ، وذبح ناقته الوحيدة وأكرمه مع بناته غاية الإكرام ، فلما علم الأعشى بسوء حاله ، أعدّ له قصيدة ، ألقاها في عكاظ ، مطلعها :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة الى ضوء نار في يقاع تحرق

فلما رأى الناس (الملق) ، وقد حيّاه الأعشى ، أقبل الناس يخطبون منه بناته ، فاقام من مقعده حتى خطبت بناته جميعاً^١ .

ولعلّ خفة عروض شعر الأعشى ومرونته ، وما في شعره من ترنيم ورنين ، وما فيه من سهولة ، تدل على براعة في الشعر ، هي التي حلت بعض علماء الشعر على تقديمه على غيره ، أو على رفع مكانته بوضعه في طبقة الشعراء الفحول من الطبقة الأولى ، غير أن من العلماء من انتقد شعره ، وانتقد اكثاره من ادخال الألفاظ الأعجمية في نظمه^٢ .

وكان للأعشى رواية اسمه (عبيد) ، كان يصحبه ويروي شعره ، وكان عالماً بالإبل . ومنه أخذ الرواة أخبار الأعشى وشعره . وكان (سمالك) أحد الرواة المتصلين به ، وعنه أخذ (حماد) الرواية أخباره عن الأعشى . وعنه أيضاً أخذ (شعبة بن الحجاج) أخباره عن (الأعشى) . وعن (شعبة) روى (مؤرج بن عمرو السدوسي) (أبو فيد) أحد علماء البصرة المتوفى سنة (١٩٥ هـ) . وعنه أخذ (الرياشي) أخباره عن (الأعشى) . و (الرياشي) هو (أبو الفضل) العباس بن الفرج مولى سليمان بن عليّ الهاشمي . وكان عالماً باللغة والشعر كثير الرواية عن (الأصمعي) . وقد توفي الرياشي سنة (٢٥٧ هـ)^٣ .

وقد شك علماء الشعر في صحة نسبة بعض الشعر الى (الأعشى) . فقد روى (أبو عبيدة) ان (أبا عمرو بن العلاء) زاد بيتاً على قصيدة :

بانث سعاد وأمسى جبلها انقطعاً واحتلت الغمر فالجدين فالفرعا

وهو البيت الثاني من هذه القصيدة . وروى غيره ان (حماد) الرواية ، هو

١ الخزانة (٣ / ٢١١ وما بعدها) ، (يولاق) .

٢ الموشح (٤٩ وما بعدها) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١ / ١٤٩) .

٣ الشعر والشعراء (١ / ١٨١) ، الفهرست (٩٢) .

الذي دس ذلك البيت ، ولم يطمئن (المرزباني) من هذه القصيدة ، ثم هي « من
الأشعار الغثة الألفاظ ، الباردة المعاني ، المتكلفة النسيج ، القلقة القوافي ، المضادة
للأشعار المختارة » ، ما خلا ستة أبيات^١ .

ولم يرض (المرزباني) عن قصيدة الأعشى الثانية المدونة في ديوانه ، ومطلعها:
لعمرك ما طولَ هذا الزمنِ على المرءِ إلا عناءٌ معن^٢

وفي شعره قصائد تعد من المصنوعات^٣ .

ويذكر أن الأعشى كان يهاجي شاعراً عرف بـ (جُهَنَام) ، وهو لقب
(عمرو بن قطن) من بني سعد بن قيس بن ثعلبة^٤ ، وذكر أنه هو القائل :

أبوك قتل الجوع قيس بن جندلٍ وخالك عبدٌ من خماعة راضع

قاله يهجو به الأعشى . إذ زعم أن والده دخل غاراً ، فوقعت عليه صخرة ،

سدت فم الغار ، فمات فيه من الجوع^٥ .

وفي حقه قال الأعشى :

دعوت خليلي مسلحاً ودعوا له جُهَنَامُ جدعاً للهجين المدم

وذكر أن (جهنم) تابعة للأعشى ، أي شيطانه ، كما يقال لكل شاعر
شيطان^٦ :

والناطقة ، هو (زياد بن معاوية بن ضباب) الـذياني ، أبو أمانة وقيل
(أبو ثمامة) و (أبو عقرب) ، أحد شعراء الجاهلية المشهورين ، ومن أعيان
فحولهم المذكورين . عدّة بعض العلماء من الطبقة الأولى بعد (امرئ القيس) .

-
- ١ الموشح (٤٩ وما بعدها) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٤٩/١) ، ديوان
الأعشى (١٠٠) ، (القصيدة ١٣) ، (دكتور م. محمد حسين) .
 - ٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٤٩/١) .
 - ٣ العصر الجاهلي (٣٤٠ وما بعدها) .
 - ٤ تاج العروس (٢٣٥/٨) ، (جهنم) .
 - ٥ الاغانى (١٠٨/٩) .
 - ٦ تاج العروس (٢٣٥/٨) .

وذكر أن الخليفة (عمر) قال : أشعر العرب النابتة . وأنه قال : « النابتة أشعر شعرائكم ، وأعلم الناس بالشعر » أو أنه قال : « هذا أشعر شعرائكم » ، وذلك لوفد كان قد قدم عليه ، كان في جملة ما تحدث عنه موضوع الشعر ، وموضوع أفضل شاعر جاهلي^١ . وقد فضله (ابن عباس) على غيره أيضاً في رواية تنسب إليه^٢ . وذكر أن الشاعر (حسان بن ثابت) سئل من أشعر الناس ؟ فقال : أبو أمامة ، يعني النابتة الليثاني . وأن (أبا عمرو بن العلاء) ، قال : « كان أوس بن حجر فحل العرب ، فلما أنشأ النابتة طأطأ منه . وأنه قال أيضاً ، وكان بعضهم قد ذكر النابتة وزهير : ما كان زهير يصلح أن يكون أخيراً للنابتة ، يعني راوياً عنه^٣ . وقال بعضهم : « كان النابتة أحسنهم ديباجة شعر وأكثرهم رونق كلام ، وأجزلم بيتاً ، كان شعره كلاماً ليس فيه تكلف ، ونبيغ في الشعر بعدما احتكتك ، وهلك قبل أن يُهتر »^٤ . وقال أبو عبيدة : يقول من فضل النابتة على جميع الشعراء : هو أوضحهم كلاماً ، وأقلهم سقطاً وحشواً ، وأجودهم مقاطع ، وأحسنهم مطالع ، ولشعره ديباجة ، ان شئت قلت : ليس بشعر مؤلف ، من تأننه ولينه ، وان شئت قلت : صخرة لو رديت بها الجبال لأزالتها »^٥ .

وذكر ان (النعمان) غني بشيء من دالية النابتة ، فقال : هذا شعر علوي ، أي عالي الطبقة أو من عليا نجد^٦ . وقيل عن شعره : « ينسبُ اذا عشيق ويثليب اذا حنيق ويمدح اذا رغب ، ويعتذر اذا رهب »^٧ . وقد قال الأصمعي فيه وفي

-
- ١ السيوطي ، شرح شواهد (٧٨/١ وما بعدها) ، أمالي المرتضى (١٧/٢) ، الخزانة (٦/٢) ، طبقات الشعراء (٤٧ وما بعدها) ، الشعر والشعراء (١٢٤) ، ديوان النابتة (٥٧) ، كنى الشعراء ، لمحمد بن حبيب (٢٨٨) ، (سلسلة نوادر المخطوطات) ، (عبد السلام هارون) .
 - ٢ السيوطي ، شرح شواهد (٨٠/١) ، الخزانة (٧/٢) ، الشعر والشعراء (١١٠) ، (١٢٣ ، ٣٠٣) ، الخزانة (٤٤٨/٢) ، (هارون) .
 - ٣ السيوطي ، شرح شواهد (٨٠/١) .
 - ٤ الشعر والشعراء (٩٢/١) ، (الثقافة) .
 - ٥ الشعر والشعراء (١٠١/١ وما بعدها) ، جمهرة اشعار العرب (٢٦) .
 - ٦ تاج العروس (٢٥٣/١٠) ، (علو) .
 - ٧ كارلو فالينو (٨٦) .

غيره من الشعراء المشاهير : « كفاك من الشعراء أربعة : زهير إذا طرب ،
والنابغة إذا رهب ، والأعشى إذا غضب ، وعنترة إذا كلب »^١.

قيل انما سمي النابغة بقوله : فقد نبغت لنا منهم شؤن ، وانه كان شريفاً
فغضب منه الشعر . وكان مع النعمان بن المنذر ومع أبيه وجده ، وكانوا له مكرمين .
وروي ان أول ما تكلم به النابغة من الشعر ، انه حضر مع عمه عند رجل ،
وكان عمه يشاهد به الناس ويخاف أن يكون عيباً ، فوضع للرجل كأساً في يده
وقال :

تطيب كؤوسنا لولا قذاها ويحتمل المجلس على اذاها

فقال النابغة : وحيي لذلك :

قذاها أن صاحبها بخيل يحاسب نفسه بسكم اشتراها^٢

وقد أخذ عليه علماء الشعر تكسبه بشعره ، فقد ذكروا ان العرب كانت لا تتكسب
بالشعر ، وانما يصنع أحدهم ما يصنعه فكاكة أو مكافأة عن يد لا يستطيع على
أداء حقها إلا بالشكر إعظاماً لها ، حتى نشأ النابغة ، فمدح الملوك وقبل الصلة على
الشعر وخضع للنعمان بن المنذر ، وكان قادراً على الامتناع منه بمن حوله من عشرته
أو من سار اليه من ملوك غسان ، فسقطت منزلته ، وتكسب مالا جسيماً ،
حتى كان أكله وشربه في صحاف الذهب والفضة وأواني من عطاء الملوك^٣ . وفي
هذا القول الذي لا يخلو من مبالغة ، دلالة على ان النابغة قد كان موسراً نوعاً
ما حسن الحال ، وان قسماً من ثرائه قد جاء اليه من مدحه للملوك .

وقد رمي بالإقواء ، ف قيل انه كان يقوي في شعره ، فعيب ذلك عليه ،
وأسموه في غناء :

أمن آل مية رائح أو مغتد عجلان ذا زاد وغير مزود
زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك خبرنا الغداف الأسود

١ جمهرة أشعار العرب (٢٦) ، الزهر (٢٩٧/٢) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (٨٠/١) .
٣ العملة (٤٩/١) .

فقطن فلم يعد^١ . وذكر ان ذلك كان يثرب . فقد كان قد دخلها ففني
بشعره ، فقطن فلم يعد للإقواء^٢ .

وقد أخذ العلماء عليه بعض مآخذ ، ذكرها (ابن قتيبة) في كتابه : (الشعر
والشعر)^٣ ، وأخذوا عليه (الاكتفاء) في بعض أشعاره^٤ .

ونفى (المعري) في رسالة الغفران أن تكون الكلمة التي أولما :

ألمّا على المطورة المتأبده أقامت بها في المربع المتجرده^٥
مضمخة بالسك مخضوبة الشوى بدرٍ وياقوت لها مثقله

من شعر النابغة ، إذ يقول على لسانه : « ما أذكر أنني سلكت هذا القري
قط ، ثم ينسبها الى رجل من بني ثعلبة بن عكابة » .

والنابغة مثل غيره من أهل زمانه ، كان يعتقد بالجن ، فأشار في شعره الى
(جنة البقار) . ونجد في شعر (زهير) إشارة الى (جنة عبقرية) ، و (جنة
عبقر) مشهورة في أساطير الجاهليين . وذكر (ليبد) (جن البدي)^٦ . وهو
ممن ذكر بعض القصص والأساطير في شعره ، فقد ذكر (النعمان بن المنذر) ،
بقصة زرقاء اليمامة ، وهي قصة يظهر أنها كانت شهيرة وشائعة بين الجاهليين ،
ضربها مثلاً له ، وذكر قصة الحية ، وهي اسطورة في ذم الغدر والخيانة ،
ضربت مثلاً ، لكل من يغدر ، ومثل هذه الأساطير معروفة عند الأمم الأخرى ،
ولا سيما قصص الإنسان مع الجن ، والحية من فصائل الجن في نظر أكثر الجاهليين .
وكانت العرب تضرب أمثالا على السنة الموام^٧ .

ويظهر من الشعر المنسوب الى النابغة انه كان لا يتبدل في مجون ، ولا يسرف
في هجاء ، ولا يتدنّى في سفاهة ، وقد نسب بعض المستشرقين هذا الخلق الرفيع

-
- ١ الشعر والشعراء (٩٣/١) ، (الثقافة) .
 - ٢ المصدر نفسه (١٠٢/١) .
 - ٣ (١٠٢/١ وما بعدها) .
 - ٤ الشعر والشعراء (١٠٥/١) ، (الثقافة) .
 - ٥ رسالة الغفران (٢٠٧ وما بعدها) .
 - ٦ الصفة (١٢٨) .
 - ٧ الشعر والشعراء (٩٦/١) .

الذي فراه فيه الى تنصره ، مستدلين على رأيهم هذا بما ورد في شعره من أمور نصرانية ، غير اننا لا نستطيع إثبات ذلك ، كما اني لا أستطيع نفيها عنه مستشهداً بالبيت :

فلا لعمر الذي قد زرتة حججاً وما هريق على الأنصاب من جسد^١

فالقسم عند الجاهليين لا يشير دائماً الى عقيدة صاحب القسم ، فقد نسب الى (عدي بن زيد) العبادي القسم بمكة ، ولم يكن من عباد الأصنام ، ثم إن من المحتمل أن يكون من الشعر المصنوع ، واني أرى ان ما نسب الى (عدي) من هذا القسم موضوع عليه . فهو رجل نصراني ، وكان الملك وثنيّاً ، ثم صار نصرانياً ، ولم يكن عباد الأصنام من عرب الحيرة يحجون الى مكة حتى يقسم (عدي) بها مجارة للوثنيين ، ولذلك أرى ان هذا الشعر مصنوع عليه ، صنع لإظهار ان الحج الى مكة كان عاماً عند جميع العرب ، حتى عرب العراق وبلاد الشام ، وقد رأينا ان أهل الأخبار صبروا ملوك اليمن من أشد الناس تعلقاً بالكعبة ، جعلوهم يحجون اليها ، مع ان المسند يسخر من هذه الخزعبلات ، كما اننا لا نسمع بحج أحد من عرب العراق أو بلاد الشام الى مكة ، ولو كانوا يحجون اليها لما سكّت أهل الأخبار عن ذلك .

ونال النابغة الذبياني رزقاً كثيراً من النعمان بن المنذر . أعطاه مرة مئة ناقة من الإبل السود برعاتها ، لإنشاده قصيدته التي يقول فيها :

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منها كوكب^٢

والإبل السود ، هي أغلى وأثمن الإبل عند العرب . وكاد ملوك الحيرة يحتكرون هذه الجمال ، ولا يسمحون لافتحال أحد فحلاً أسود . ولهذا كان هذا الحياء الذي أغدقه النعمان على النابغة حياءً ثميناً وعطاءً كبيراً ، وكان (النعمان) قد أعطى (النابغة) إبلاً وريشها ، أي بما يصلحها من الآلة والثياب^٣ .

وروي عن الشاعر (حسان بن ثابت) ، أنه رحل الى (النعمان) ، فلقني

١ معلقته البيت رقم (٣٧) .
٢ المعقد الفريد (٢٢/٢) د لجنة ، .
٣ مجالس ثعلب (٣٥) .

رجلاً فقال : أين تريد ؟ فقلت : هذا الملك ، قال : فإنك إذا جثته متروك شهراً ، ثم يسأل عنك رأس الشهر ، ثم أنت متروك شهراً آخر ، ثم عسى أن يأذن لك ، فإن أنت خلوت به وأعجبته فأنت مصيب منه ، وإن رأيت (أبا أمانة) النابغة فاطعن ، فإنه لا شيء لك . قال : فقدمت عليه ، ففعل بي ما قال ، ثم خلوت به وأصبت منه مالا كثيراً ونادمته ، فبينما أنا معه في قبة إذ جاء رجل يرجز حول القبة :

أنت أم تسمع ربّ القبة يا أوهب الناس لعنسي صليّة
ضراية بالمشفر الأذبة ذات هباب في يدها جلبة

فقال النعمان : أبو أمانة ! فأذنوا له ، فدخل فحيّاه وشرب معه ، ووردت النعم السود ، ولم يكن لأحد من العرب بعير أسود يُعلم مكانه ، ولا يفتحل أحد فحلاً أسود ، فاستأذنه أن ينشده ، فأنشده كلمته التي يقول فيها :

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكب

فدفع اليه مائة ناقة من الإبل السود ، فيها رعاؤها ، فما حسدت أحدًا حسدي النابغة ، لما رأيت من جزيل عطيته ، وسمعت من فضل شعره^١ .

وذكر انه نادم المنذر الثالث والمنذر الرابع من ملوك الحيرة ، وكان من المقربين جداً من النعمان بن المنذر ، المعروف بأبي قابوس . ثم وقعت قفصة بينهما ، أدت الى هروب (النابغة) من (النعمان) ، وذهابه الى (عمرو بن الحارث) ملك غسان والى ابنه (النعمان بن عمرو) . وسبب هروبه من ملك الحيرة على ما يزعمه أهل الأخبار ، ان (النابغة) تجاسر فوصف (المتجردة) امرأة النعمان بن المنذر ملك الحيرة^٢ ، وتغزل بها ، مما أثار غضب النعمان عليه ، فخاف على نفسه ، وفر الى أعداء النعمان ملوك غسان . ويظهر ان النابغة ، كان يتصل بالفساسة ويراجعهم ، وهم أعداء ملوك الحيرة ، أو ان جاعة من حساد النابغة وأعدائه دسوا ذلك الوصف عليه ، ونسبوه له ، ورووه وأوصلوه الى النعمان ،

١ الشعر والشعراء (٩٨/١ وما بعدها) ، السيوطي ، شرح شواهد (٨١/١) .

٢ تاج العروس (٣١٩/٢) ، (جرد) ، المحاسن والاضداد (١٤٣) .

وهو رجل عصبي المزاج ، حاد الطبع ، سريع التأثر والأخذ بأقوال الناس ، فأراد الفتك به ، فهرب النابغة الى مكان يكون بآمن فيه ، وينال فيه التقدير ، فوقع اختياره على أرض الغساسنة . وعاش في كنف عمرو بن الحارث ، وفي ظل ابنه (النعمان) . فلما مات (النعمان بن عمرو بن الحارث) ، أخذ ينظم الشعر في مدح (النعمان بن المنذر) ، وفي الاعتذار منه ، وفي التنصل مما آتاه به حساده ، حتى غفى الملك عنه ، فعاد الى الحيرة ، ولما مات (النعمان) في محبسه ، رجع النابغة الى قبيلته ، وعاش بينها حتى مات هناك^١ .

ولأهل الأخبار قصص في سبب وقوع هذه الفجرة ، فقال قوم : إنه هجاء فقال :

ملك يلاعبُ أمه وقطينه رخوا المفاصل أيره كالمرود
وهجاء أيضاً فقال قصيدة فيها :

قبح الله ثم ثنى بلعن وارث الصائغ الجبان الجهولا
من يضر الأذننى ويعجز عن ضر الأفاصي ومن يخون الخليللا
يجمع الجيش ذا الألوف ويتزرو ثم لا يرزأ العدو فتبلا

ويقال إن هذا الشعر والذي قبله لم يقله النابغة ، وإنما قاله على لسانه قوم حسدوه ، منهم (عبد قيس بن خفاف) التميمي ، ومنهم (مرة بن ربيعة بن قرظ) السعدي^٢ ، (مرة بن ربيعة بن قريع) وهو الذى سعى الى النعمان بالوشاية بالنابغة^٣ .

ويقال ان النعمان قال للنابغة وعنده المتجردة امرأته : صفها لي في شعرك يا أبا أمامة ! فقال قصيدة^٤ ذكر فيها بطنها وعكنها وممتها وروادفها وفرجها ،

١ الشعر والشعراء (٧٠ وما بعدها) ، الاغانى (١٦٢/٩ وما بعدها) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٨٨/١ وما بعدها) ، تاريخ ملوك العرب الاولى (١٠٧ وما بعدها ، ١١١) .

٢ الشعر والشعراء (٩٩/١ وما بعدها) ، (الثقافة) .

٣ مرة بن ربيعة بن قريع ، الخزائن (٣٢٢/٢) ، (هارون) .

٤ هي القصيدة التي أولها : « أمن آل مية رائح أو مفتد » ، الخزائن (٢٨٧/١ وما بعدها) ، (بولات) ، (٤٢٧/١) ، (بولات) .

وكان للنعمان نديم هو (المنخل) الشكري ، يتهم بالمتجردة ويظن بولد النعمان منها أنهم منه ، وكان (المنخل) جميلاً ، وكان النعمان قصيراً دميماً أبرش ، فلما سمع المنخل هذا الشعر قال للنعمان : ما يستطيع أن يقول مثل هذا الشعر إلا من قد جرب ا فوقر ذلك في نفسه ، وبلغ النابغة ذلك فخافه فهرب الى غسان ، فصار فيهم ، وانقطع الى (عمرو بن الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر بن أبي شمر الغساني) ، والى أخيه النعمان بن الحارث ، فأقام النابغة فيهم فامتدحهم ، فغم ذلك النعمان ، وبلغه أن الذي قذف به عنده باطل ، فبعث اليه : إنك صرت الى قوم قتلوا جدي فأقت فيهم تملحهم ، ولو كنت صرت الى قومك لقد كان لك فيهم ممتنع وحصن ، إن كنا أردنا بك ما ظننت ، وسأله أن يعود اليه ، فقال شعره الذي يعتذر فيه . وقدم عليه مع (زبّان بن سيار) ، و (منظور بن سيار) الفزاريين ، وكان بينهما وبين النعمان دخل ، فضرب لها قبة ، ولا يشعر أن النابغة معها . ودس النابغة آياتاً من قصيدته :

يا دار مبة بالعلياء فالسند

فلما سمع النعمان الشعر ، أقسم بالله انه لشعر النابغة ، وسأل عنه فأخبر انه مع الفزاريين ، وكلّمه فيه فأمته^١ . ويرى (بروكلمن) ان (النابغة) كان قد واصل بني غسان ، فظن (النعمان) به الغدر ، وعلم الوفاء له ، وهرب النابغة منه ، فوجد ملجأ في بلاط عمرو بن الحارث ، رجع النابغة الى الحيرة ، وقال عفو أبي قابوس وحظوته من جديد ، ولكنه لم يتمنع طويلاً بذلك ، لموت أبي قابوس في سجن كسرى ، فرجع الى قبيلته (بني ذبيان) ، حيث توفي بينها^٢ .

وقد مدح (النابغة) (عمرو بن الحارث) الغساني ، والغساسنة بشعر حسن ، يعدّ من الشعر الحسن المتفوق في المديح ، من جملة ما ورد فيه :

مجلتهم ذات الإله ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب^٣

١ الشعر والشعراء (٩٩ وما بعدها) ، (الثقافة) .

٢ بروكلمن (٨٨/١ وما بعدها) .

٣ « محلّتهم » ، كارلو نالينو (٨٥) .

رَفَاقُ النِّعَالِ طَيِّبُ حِجْزَاتِهِمْ يَحْيَوْنَ بِالرَّيْحَانِ يَوْمَ السَّبَاسِبِ
نَحْيَتُهُمْ يَبِضُّ الْوَلَّادُ بَيْنَهُمْ وَكَسِيَةُ الْإِصْرِيجِ فَوْقَ الْمَشَاجِبِ
يَصُونُونَ أَجْسَادًا قَدِيمًا نَعِيمَهَا بِمَخَالِصَةِ الْأُرْدَانِ خَضِرَ الْمَنَاقِبِ
وَلَا يَحْسِبُونَ الْخَيْرَ لَا شَرَّ بَعْدَهُ وَلَا يَحْسِبُونَ الشَّرَّ ضَرْبَةَ لَا زَبِ
حَبُوتُهَا غَسَانٌ إِذْ كُنْتَ لَاحِقًا بِقَوْمِي وَإِذْ أُعِيتَ عَلَيَّ الْمَذَاهِبُ^١

وهو مدح يختلف عن مدح شعراء البادية ، فيه رقة وجمال ، وفيه إبداع في وصف الغسانة وعاداتهم في الاحتفال بأعيادهم النصرانية^٢ .

وتروى للناطقة خطبة ، ذكر انه خاطب بها (الحارث) الغساني ، ليفك له أسرى قبيلته^٣ .

ويروى ان العرب سألت الناطقة أن يضرب قبة بعكاظ فيقضي بين الناس في أشعارهم لبصره بمعاني الشعر ، فضرب قبة حراء من أدم وأنته وفود الشعراء من كل أوب ، فكان يستجيد الجيد من أشعارهم ، ويرذل ، فيكون قوله مسموعاً فيهم جميعاً ومأخوذاً به . فكان فيمن دخل عليه (الأعشى) وحسان بن ثابت والخنساء ، فأنشده الأعشى ، ثم أنشده حسان ، ثم أنشدته الخنساء ، فقال الناطقة مخاطباً (حسان) : « لولا ان أبا بصير ، يعني الأعشى ، أنشدني لقلت انك أشعر الجن والأنس ، فقال حسان : أنا والله أشعر منك ومن أهلك ومنها ا : » وهي قصة تروى بشرح أوفى ، قرن بالأسباب التي دعت بالناطقة الى تفضيل شعر الأعشى على شعر حسان . وهي قصة طعن في صحتها بعض علماء الشعر^٤ .

وللناطقة شعر في هجاء (زرعة بن عمرو) الكلابي ، وكان لقي الناطقة بعكاظ وأشار عليه أن يشير على قومه أن يغدروا بـ (بني أسد) ، وينقضوا حلفهم ، فأبى عليه الناطقة ، فتوعده ، فقال الناطقة :

١ ديوان الناطقة عدد (١) .

٢ كارلو نالينو (٨٦) .

٣ بروكلن ، تاريخ الادب العربي (٨٩/١ وما بعدها) .

٤ السيوطي ، شرح شواهد (٢٥٧/١) .

نبئت زرعة والسفاهة كاسمها يهتدى إلى غرائب الأشعار
فحلقت يا زرع بن عمرو اتني مما يشق على العدو ضراري^١

وله شعر يهجو به (عامر بن الطفيل) حيث يقول :

فإن بك عامر قد قال جهلاً فإن مطية الجهل الشباب
فإنك سوف تحكم أو تنهى إذا ما شبت أو شاب الغراب

يقول : هو معذور فإنه شاب ، ثم قال : سوف تحكم إذا شخت ، أو لعلك
لا تحكم أبداً ، حتى يشيب الغراب ، وذلك لا يكون أبداً ، ونحكم ، أي نصير
حكماً^٢ . ويلاحظ أن هجاء النابغة هو هجاء مؤدب لا جهالة فيه ولا سفاهة ،
عف يؤثر في المهجو أكثر من أثر الهجاء القاحش المليء بالسفاهة والسباب .

وقد نعت شعراء آخرون بلفظة (النابغة) ، غير النابغة الديباني . منهم :
النابغة الجعدي : قيس بن عبد الله الصابي ، والنابغة الحارثي زيد بن أبان ،
والنابغة الشيباني : حمل بن سعدانة ، والنابغة الدهلي : المخارق بن عبد الله ،
والنابغة ابن لؤي بن مطيع الغنوي ، والنابغة العدوان ، والنابغة ابن قتال بن يربوع
الديباني ، والنابغة التغلبي الحارث بن عدوان^٣ .

وتبدأ معلقة (النابغة) بقوله :

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت ، وطال عليها سالف الأبد^٤

ولما تحدث (البغدادي) عن الشاهد التاسع والثمانين بعد المائة ، وهو :

كانه خارجاً من جنب صفحته صفود شرب نسوه عند مفتأد

قال : « وهذا البيت من قصيدة للنابغة الديباني ، يمدح بها التمان بن المنذر ،
ويعتذر إليه فيها بما بلغه عنه » . ثم قال : « وهذه القصيدة أضافها أبو جعفر

١ الخزانة (٦٧/٣ وما بعدها) ، (بولاق) .

٢ أمالي المرتضى (٥٥/١) .

٣ السيوطي ، شرح شواهد (٨١/١) ، الخزانة (٢٨٩/١) ، (بولاق) .

٤ شرح القصائد العشر ، للزوزني (٥١٢ وما بعدها) .

أحمد بن محمد بن اسماعيل النحوي الى المعلقات السبع لجودتها وقد أورد الشارح المحقق في شرحه عدة أبيات منها ، وقبل هذا البيت :

كان رحلي وقد زال النهار بنا بني الجليل على مستأنس وحد
من وحش وجرة موثي أكارعه طاوى المصير كسيف الصيقل الفرد^١

وهي قصيدة نعتها (البغدادى) بأنها طويلة^٢ ، ويبلغ عدد أبياتها في المعلقات (٥٠) بيتاً^٣ . وقد ورد فيها اسم النبي (سليمان) ، ذكر انه انما ذكره فيها ، لأنه كان له الملك مع النبوة ، يريد انه لا يشبهه أحد ممن أوتي الملك إلا سليمان النبي^٤ . وتعدّ من أحسن شعر النابغة ، ولهذا ألحقوها بالقصائد المعلقات^٥ . ومن شعر النابغة قوله :

فلا زال قبر بين تبنى وجاسم عليه من الوسمي ظل ووابل
فينبت حوذاً وعوفاً منوراً سأتبعه من خير ما قال قائل

وذلك على مذهب العرب المعروف في ذلك ، لأنهم كانوا يستسقون السحاب لقبور من قلدوه من أعزائهم ، ويستنبتون لمواقع حفرةم الزهر والرياض. ويجرونه مجرى الاسترحام ، ونسب (ابن الأعرابي) الى (علي) قوله : « إن للعرب انما تستسقي القبور لأنها اذا سقيت وعمّ الفطر أعشب المكان ، فحضره القوم للرعي ، وترحموا على الموتى »^٦ .

وكان النابغة صديقاً لزهير بن أبي سلمى ، « روى هشام بن المنذر قال : قال زهير بن أبي سلمى المزني بيتاً ثم أكلدى ، ومر به النابغة اللذياني فقال له : أجز ، قال : ماذا ؟ قال :

تزال الأرضُ إما متّ خفاً ونحياً ما حيت بها ثقيلاً
نزلت بمستقر العز منها

-
- ١ الخزانة (٥٢١/١) ، (بولاق) .
 - ٢ الخزانة (٤٥/٢) ، (بولاق) .
 - ٣ التبريزي ، شرح القصائد العشر (٥٣٣) .
 - ٤ الخزانة (٤٥/٢) ، (بولاق) .
 - ٥ الخزانة (٣١٥/٢) ، (بولاق) .
 - ٦ أمالي المرتضى (٥٤/١) .

فإذا قال ؟ فأكدى والله النابغة أيضاً ، وأقبل كعب بن زهير وهو غلام ، فقال له أبوه : أجز يا بني ، فقال : ماذا ؟ فأنشده البيت الأول ، ومن الثاني قوله : بمستقر العز منها ؛ فقال كعب :

فتمنع جانيها أن تزولا

فقال زهير : أنت والله ابني ^١ .

و(عبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم بن عامر بن زهير بن مالك بن الحارث) الأسدي ، شاعر مفلح من فحول شعراء الجاهلية . وكان معاصراً لامرئ القيس ، إذ يروي أهل الأخبار له قصيدة يخاطب بها امرأ القيس بن حجر ، أولها :

يا ذا المخوفنا بقت لآية إذلالاً وحيناً
أزعمت أنك قد قتلت سراتنا كذباً وميناً^٢

أو أنه قال :

يا ذا المخوفنا بمقتل شيخه حُجْرٍ تمنى صاحب الأحلام

يخاطب به امرأ القيس الشاعر ، الذي هدد (بني أسد) قتل آية ، فأجابه عنهم بأن جعل وعيده كاذباً وما تمناه من الإيقاع بهم ، كأصغاث أحلام^٣ . فهو إذن من الرعيل القديم من الشعراء المعاصرين لامرئ القيس .
وذكر انه القائل :

سائل بنا حجر بن أم قطام إذ ظلت به السمرة النوايل تلعب^٤

وقد قدمه بعض علماء الشعر ، فجعله من طبقة (امرئ القيس) ، وجعله بعضهم من الطبقة الرابعة من فحول الجاهلية ، وقرن به طرفة وعلقمة بن عبدة ،

-
- ١ أمالي المرتضى (٩٧/١ وما بعدها) .
 - ٢ السيوطي ، شرح شواهد (٢٥٨/١) ، الخزائن (٣٢٤/١) ، (بولاق) ، (٢١٢/٢) ، (هارون) ، الاغاني (٨٧/١٩) ، البخلاء (١٩٠) .
 - ٣ الخزائن (٢١٢/٢ وما بعدها) ، (٣٢٤/١) ، (بولاق) .
 - ٤ أمالي المرتضى (٥٦/١) .

وعدي بن زيد^١ . وأجود شعره قصيدته التي يقول فيها : « أقصر من أهله
 ملحوب^٢ » . وهي إحدى السبع^٣ . وجعلوه في عداد المعمرين ، فجعل (ابن
 قتيبة) عمره يوم قتل أكثر من ثلاثمائة سنة^٤ . وجعل (السجستاني) عمره مائتي
 سنة وعشرين ، ثم استترك المقدار وقال : « ويقال بل ثلاثمائة سنة^٥ » . ولكي
 يثبتوا صحة دعواهم في انه عاش هذا العمر ، روي له شعراً زعموا انه قاله، هو :

ولثنتين بعدي قرون جمّة	ترعى محارم أيكة ولدودا
فالشمس طالعة وليل كاسف	والنجم يجري أنحساً وسعدوا
حتى يقال لمن تعرق دهره	يا ذا الزمانة هل رأيت عبيدا
مائتي زمان كامل وبضعة	عشرين عشت معمرأ محمودا

أدركت أول ملك نصير ناشئاً	وبناء شدّاد وكان أييدا
وطلبت ذا القرنين حتى فائني	ركضاً وكدت بأن أرى داودا
ما تبغني من بعد هذا عيشة	إلا الخلود ولن تنال خلودا
وليفنين هذا وذاك كلاهما	إلا الإله ووجهه المعبودا

وزعم أنه هو القائل :

فنيث وأفئاني الزمان وأصبحت	لداني بنو نعش وزهر الفراقد
----------------------------	----------------------------

وأنه القائل :

تذكرت أهل الخير والباع والندى	وأهل عتاق الخيل والخمر والطيب
فأصبح مني كل ذلك قد خلا	وأبي فتي في الناس ليس بمكذوب
ترى المرء يصبو للحياة وطيبها	وفي طول عيش المرء برح بتعذيب ^٥

وهو شعر لو أخذنا بحكم من ذكروا فيه ، إذن وجب أن يكون عمر (عبيد)

-
- ١ السيوطي ، شرح شواهد (٢٦٠/١) ، الخزانة (٢١٥/٢) ، ابن سلام ، طبقات (٣١) ، الاغانى (٨٤/١٩) .
 - ٢ الشعر والشعراء (١٨٨/١) ، (الثقافة) .
 - ٣ الشعر والشعراء (١٨٧/١ وما بعدها) .
 - ٤ الخزانة (٣٢٣/١) ، (بولاق) .
 - ٥ الخزانة (٣٢٣/١) .

قد جاوز الألف سنة بكثير ، ويكون أهل الأخبار قد ظلموه ، إذ جعلوا عمره أكثر من ثلثمائة سنة ، وهو دون هذا العمر بكثير .

وزعم أن (المنذر بن امرئ القيس بن ماء السماء اللخمي) المعروف بـ (ذي القرنين) ، لقي (عبيد بن الأبرص) في يوم يؤسه ، وكان يقتل أول من يرى في يوم يؤسه ، فلما رآه قال له : هلاً كان المذبح غيرك يا عبيد ! فقال : أتلك بجائن رجلاه ، وأرسله مثلاً ، فقال له : أنشدني يا عبيد ؛ فربما أعجبتني شعرك ! فقال : حال الجريض دون القريض ، وبلغ الحزام الطيبين . وأرسلها مثلاً ، وبقي يسأله وهو يجيب ، فيصير جوابه مثلاً ، حتى أمر بقتله ، فقال :

وخيرني ذو البؤس في يوم يؤسه خيلاً أرى في كلها الموت قد برق
كما خيّر عادي من الدهر مرة سحاب ما فيها للنبي خيرة أنق
سحاب ربح لم توكل ليلة فتركها إلا كما ليلة الطلق

وزعم أنه سأله أي قتلة تختار ؟ قال عبيد : أسقي من الراح حتى أتمل ، ثم أفصدي الأكحل ، ففعل ذلك به ، ولطخ بدمه الغرين^١ .

وقد أخطأ (ابن قتيبة) ، إذ جعل قاتله (النعمان بن المنذر)^٢ ، بينما هو (المنذر بن ماء السماء) ، في الموارد الأخرى .

ولعبيد بن الأبرص شعر يتباهى فيه ببني أسد قومه ، من ذلك قوله :

فاذهب اليك فلاني من بني أسد أهل القباب وأهل الجرد والنادي^٣

وبقباب الأدم تتفاخر العرب ، وللقباب الحمر قالوا : مضر الحمراء، والجرد : الخيل القصيرة الشعر ، وانما ذكر النادي لأن النادي من سياء السيادة والرياسة وضخامة القبيلة ، حيث يجتمع ساداتها فيه .

١ الخزانة (٢١٨/٢ وما بعدها) ، (هارون) ، الخزانة (٣٢٤/١) ، (بولاق) ، السيوطي ، شرح شواهد (٢٦٠/١) ، أسماء المغتالين (المجموعة السادسة من نواذر المخطوطات) ، (ص ٢١١) .

٢ الشعر والشعراء (١٨٨/١) ، (دار الثقافة) .

٣ الحيوان (٤٨٦/٥) .

وله قصيدة قالها متشكياً فيها من إعراض صاحبه عنه ، إذ رآته وقد كبر وصار شيخاً ، تغير لون شعره ، وعلا الشيب مفرقه ، وقلّ ماله ، منها هذه الأبيات :

تلك عرسي غضبي تريد زبالي ألبين تريدُ أم لدلالِ
إن يكن طلبك الفراق فلا أحصلُ أن تعطيني صدور الجمالِ
أو يكن طيبك الدلال فلو في سالف الدهر والليالي الخوالي
كنت ييضاء كالمهاة وإذا تيك نشوانٍ مُرخياً أذيالي
فاتركي مطاً حاجيك وعيشتي معنا بالرجاء والتأمالِ
زعمت أنني كبرتُ وأني قل مالي وذن عني الموالِ
وصحا باطلاي وأصبحت شيخاً لا يُؤاتي أمثالي أمثالي
إن تريني تغيرَ الرأس مني وعلا الشيب مفرقي وقذالي^١

الفصل الستون بعد المئة

الشعراء الصعاليك

قال صاحب (اللسان) : « الصعلوك : الفقير الذي لا مال له ، زاد الأزهرى : ولا اعتماد . وقد تصعلك الرجل اذا كان كذلك ، قال حاتم طيء :
غنيا زماناً بالتصعلك والغنى فكلاً سقانا ، بكأسها الدهر
فما زادنا بغياً على ذي قرابة غنانا ، ولا أزرى بأحسابنا الفقر »^١

« والتصعلك : الفقر . وصعاليك العرب : ذؤبانها . وكان عروة بن الورد يسمى : عروة الصعاليك لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة فبرزقهم مما يغنمه »^٢ ، وقيل : الصعلوك : الفقير ، وهو أيضاً المنجرد للغارات »^٣ . والصعاليك ، قوم خرجوا على طاعة ييوتهم وعشائهم وقبائلهم ، لأسباب عديدة ، منها عدم إدراك أهلهم أو قبيلتهم نفسياتهم ، مما سبب الى نفورهم منهم ، وخروجهم على طاعة مجتمعهم ، وهروبهم منه ، والعيش عيشة الذؤبان ، معتمدين على أنفسهم في الدفاع عن حياتهم ، وعلى قوتهم في تحصييل ما يعتاشون به ، بالإغارة على الطرق والمسالك ، وبمهاجمة أحياء العرب المبعثرة ، أفراداً أو طوائف . وهم أبداً في خوف من متعقب يتعقبهم ، لاسترداد ما أخذ أو سلب ، ومن متربص يتربص

١ اللسان (٤٥٥/١٠) وما بعدها ، (صعلك) ، (صادر) .

٢ اللسان (٤٥٦/١٠) ، (صعلك) ، تاج العروس (١٥٣/٧) ، (صعلك) .

٣ جمهرة أشعار العرب (١١٥) .

بهم الدوائر ، ليأخذ منهم ما غنموه بالقوة من غيرهم أو ما قد يجده في أيديهم .
ولهذا كانوا يتكلمون أحياناً ، بانضمام بعضهم الى بعض ، مكونين جماعات ،
جمعت بينها وحدة الهدف ، وغريزة حماية النفس ، والمصلحة المشتركة ، بعد أن
حرمهم أهلهم ومجتمعهم من تقديم أية مساعدة أو حماية لهم ، وسحب منهم حق
الأخذ بالثأر والانتقام ممن قد يعتدي عليهم ، بحق (العvisية) ، وبعد أن جعل
دمهم هدراً ، وتبرأ منهم ومن كل جريرة يرتكبونها ، فلا يطالب أهلهم بدمهم ،
ولا يطالبونهم بأي دم قد يسفحه الصعلوك .

ولا استبعد أن تكون للمغامرة ولإثبات الشخصية ، دخل أيضاً في حدوث
الصعلكة وفي تمرد الشباب على مجتمعهم ، على غرار ما نجده اليوم من تمرد على
مجتمعاتهم ، لإثبات وجودهم وشخصيتهم في هذه المجتمعات ، بطريقة العبث
بالعرف والعادات وبعدم المبالاة لأوامر العائلة والمجتمع ، مما يجعلهم يسرون سيرة
الصعاليك في ذلك الوقت ، فلو نظرنا الى حالة الصعاليك نجد أن منهم من كان
من أسرة متمكنة أو لا بأس بأحوالها المالية ، ومع ذلك عاش صعلوكاً ، لما وجد
فيها من مغامرات ومجازفات ومطاردة وهجوم ودفاع . فحب المغامرة ، وإثبات
الشخصية ، من أسباب الصعلكة في الجاهلية كذلك .

والصعاليك بعد ، حاقدون على مجتمعهم ، متمردون عليه ، للأسباب المذكورة ،
نبتت في أكثرهم عقد نفسية ، تكونت عندهم من سوء معاملة المجتمع لهم ، ومن
سوء فعلهم وتصرفهم الخاطيء تجاه مجتمعهم ، فهم حاقدون لا يباليون من شيء
ولو كان ذلك سلباً ونهباً وقتل أبناء قبيلتهم وعشيرتهم ، لأنهم خلعوا منها ،
وحرموا من حق الدم ، فكان خلعها لهم سبب شقائهم وبؤس حياتهم ، فأبي حق
بقي إذن يمنحهم من الحقود على القبيلة ومن مهاجمة العشيرة ؟ ثم لأنهم حاقدون
على مجتمعهم ، لأن منهم فقراء معدمين ، لا شيء عندهم يتناشون عليه ، ولا
ملابس لديهم تقيهم من الحر أو البرد أو المطر ، وكل ما تقع أعينهم عليه ،
هو مفيد لهم نافع ، ومن حقهم بحكم فقرهم انتزاعه من مالكة ، وإن كان مالكة
فقيراً معلماً مثلهم ، لأن النفس مقدمة على الغير ، وهم يعيرون الخامل منهم ،
الذي يعيش صعلوكاً ذليلاً قائماً بما كتب عليه من اللذ والتشرد ، عائشاً على
صدقات الناس ، ويرون الخلاص من هذا اللذ بالحصول على المال بالقنا والسيف ،
فن استعمل سيفه نال ما يريد ، لا يبالي فيمن سيقع السيف عليه ، وإلا عدّ

من (العيال) . قال (السليك) :

فلا تصلي بصلوك نثوم إذا أمسى يُعد من العيال
ولكن كل صعلوك ضروب بنصل السيف هامات الرجال^١

« ولذلك كان صعاليك العرب ولصوصهم وأرباب الغارة منهم يرون أن ما يحوونه من النعم بالغارة ، ويتألمونه بالسرقة والسلب ، إنما ذلك مال منعت منه الحقوق ، ودفع عنه بالبخل والعقوق ، فأرسلهم الله إليه وسببه لهم رزقهم إياه ، كما قال عروة الصعاليك :

لعلّ انطلاقي في البلاد وعزمتي وشدتي حيازيم المطيئة بالرحل
سيدفعني يوماً إلى رب هجمة يدافع عنها بالعقوق وبالبخل^٢

« وكما أن فيهم من يتمدح ببذل القرى ومعانة الطوى ، وتحمل الكلفة ومواساة ذوي الخلة ، فكذلك فيهم البخيل الجامع ، والثلثم الراضع ، ومن يؤثر التفرد بناره والاستئثار بزاده دون ضيفه وجاره . ويشد لبعضهم :

أعددت للأضياف كلباً ضارباً عندي وفضل هراوة من أرزن

وقال الآخر :

وإني لأجفو الضيف من غير بغضة مخافة أن يغري بنا فيعود

وقال الأصمعي : مرَّ ابن حمارة بالخطيئة ، فقال : السلام عليك . قال : قلت ما لا ينكر . قال : إني أردت الظل . قال : دونك ، والجبل حتى يغنيء عليك . قال : إني خرجت من عند أهلي بغير زاد . قال ما ضمنت لأهلك قراك . قال : إني ابن حمارة . قال : كن ابن نعام . فضى عنه آيساً .

قال : وخرج الخطيئة يوماً من خبائه ويده عصا ، فقال له رجل : ما هذه ؟ قال : عجاء من سلم . قال : إني ضيف . قال : للضيف أعددت^٣ .

١ الشعراء الصعاليك (٢٣٥) .

٢ الجمان في تشبيهات القرآن (٢٦٢ وما بعدها) .

٣ الجمان في تشبيهات القرآن (٢٦٠ وما بعدها) .

والحطيثة من الملحقين في السؤال المستجدين الذين لا ينجلون من الاستجداء . فكان يلج في شعره بالطلب ، ويحاول بكل الطرق جمع المال ، حتى أهان نفسه ، ولم يترك رجلاً معروفاً إلا ذهب إليه يسأله أن يعطيه مما عنده . فلما عيّن (عمر) (علقمة بن علاثة) على حوران ، قصده (الحطيثة) ، فوجده قد مات ، فقال :

وما كان بيني لو لقيتك سالماً وبين الغنى إلا ليال قلائل^١

فأعطاه ولده مائة ناقة مع أولادها .

وقد عاب (الأعشى) (علقمة بن علاثة) ، بقوله :

تبيتون في المشى ملاءً بطونكم وجاراتكم غرثى يبين خمائصاً^٢

وقد وجد الصعاليك في الأغنياء البخلاء ، هدفاً صالحاً لهم . فهؤلاء أصحاب مال ، وهم أصحاب جوع ، ولا بسد للجوعان من أن يعيش ، فلم يجدوا في مباغنة الأغنياء أي حرج يمنعهم من السطو على أموالهم ، لأنها زائدة عليهم ، وهم في حاجة إليها ، وبذلك يضمنون لأنفسهم ولاخوانهم الجياع الصعاليك أسباب الحياة ، فالحاجة عندهم تبرر الوسطة ، وإذا امتنع إنسان على صعلوك وأبى تسليم ما عنده إليه ، فهو لا يبالي من قتله ، فالقتل ليس بشيء في نظره ، منظره مألوف ، والفقر ذاته قتل للإنسان ، بل أشد فتكاً به من القتل ، والصعلوك نفسه لا يلدي متى يقتل ، فلا عجب إذا ما رأى القتل وكأنه شربة ماء .

وكان (أبو عبيدة) ، لا يستأنس بسماع شعر الصعاليك ، لأنهم فقراء ، قال (أبو حاتم) : « جئت أبا عبيدة يوماً ، ومعني شعر عروة بن الورد ، فقال : فارغ حمل شعر فقير ليقراه على فقير »^٣ ، فهو من المحبين للأغنياء ، وما الذي يجنيه من الفقراء ! وكان (أبو مالك عمرو بن كركرة) البصري ، مثل (أبي عبيدة) في الابتعاد عن الفقراء ، بل كان أشد منه تعصباً عليهم ،

١ الجمان في تشبيهات القرآن (٢٨٨) .

٢ الجمان في تشبيهات القرآن (٢٥٩) .

٣ أمالي المرتضى (١/٦٣٨) .

« قال الجاحظ : كان أحد الطيِّاب ، يزعم أن الأغنياء عند الله أكرم من الفقراء . ويقول إن فرعون عند الله أكرم من موسى »^١ . و (ابن كركرة) أعرابي ، وكان مرجع الأعراب الوافدين إلى البصرة ، وقد تحدث عنه (الجاحظ) في كتبه .

وقد عرف الصعاليك بـ (الذؤبان) وبـ (ذؤبان العرب) ، « وذؤبان العرب لصوصهم وصعاليكهم وشطارهم الذين يتلصصون ويتصعلكون ، لأنهم كالذئباب »^٢ . وعرفوا باللصوص لأنهم كانوا يتلصصون . واللص السارق ، في لغة طيء^٣ ، وقيل لهم : (الشطار) . « والشاطر من أعبي أهله ومؤدبه خبثاً ومكرأ ، جمعه الشطار كرمآن . وهو مأخوذ من شطر عنهم ، إذا نزع مراغماً . وقد قيل أنه مولد »^٤ . وعرفوا بـ (الخلعاء) ، والخلع الشاطر ، « وهو مجاز سمي به ، لأنه خلعته عشيرته وتبرأوا منه ، أو لأنه خلع رصنه . ويقال : خلع من الدين والحياء »^٥ . « وكان في الجاهلية إذا قال قاتل منادياً في الموسم : يا أيها الناس ! هذا ابني قد خلعته ، وذلك إذا خاف منه خبثاً أو خيانة ، أو من هو بسبيل منه ، فيقولون : إنا قد خلعنا فلاناً ، أي فإن جر لم أضمن ، وإن جر إليه لم أطلب . يريد تبرأت منه . وكان لا يؤخذ بعد بجريرته وهو خلع »^٦ . و (الخلعاء) جماعتهم « واختلعوه إذا ذهبوا بماله »^٧ . ولعل لهذا التفسير صلة بالصعلكة التي تعني الفقر ، والفقر والإملاق والجورع من أهم الملازمات التي لازمت ورافقت الصعاليك ، وفي هذا المعنى أيضاً ما جاء في كتب اللغة : « وشفر المال تشفيراً : قلّ وذهب »^٨ ، ولعل للفظ (الشفري) ، صلة بهذا المعنى ، وقد تكون للفظ (الرجل) التي تعني البؤس والفقر^٩ ، صلة بهذا المعنى كذلك . فقد عرف الصعاليك بـ (الرجلين)

١ الفهرست (٧٢) .

٢ تاج العروس (٢٤٨/١) ، (ذاب) ، الخزائن (٥٣٢/٣) .

٣ تاج العروس (٤٣٢/٤) ، (لص) .

٤ تاج العروس (٢٩٩/٣) ، (شطر) .

٥ تاج العروس (٣٢١/٥) ، (خلج) .

٦ تاج العروس (٣٢١/٥) ، (خلج) .

٧ تاج العروس (٣٢٢/٥) ، (خلج) .

٨ تاج العروس (٣٠٨/٣) ، (شفر) .

٩ تاج العروس (٣٣٨/٧) ، (رجل) .

وب (الرجلاء) ، وعرف الواحد منهم بـ (الرجلي^١) ، وقد تكون للفظه (الخلع) صلة بالفقر والإملاق كذلك ، بدليل ما ذكره في تفسير (المعيل) من قولهم : « المعيل : الذي قصر ماله وعليه عيال^٢ » . وقد عرف الصعاليك بـ (الرجلين) لاستعمالهم أرجلهم في الإقدام والهروب ، لأنهم فقراء لا يملكون غير أرجلهم تحملهم الى المواضع التي يريدون سرقتها ، إذ لا خيل لهم يركبونها لعجز أكثرهم عن شرائها ، فلا يكون أمامهم غير الاعتماد على الرجل .

والجوع حليف ملازم للصعاليك ، لم ينفر منهم ، ولم يبتعد عنهم لذلك كثر الحديث عنه في شعرهم وفي أخبارهم . وقد كانوا يهربون منه ، لكنهم لم يفلتوا منه . فقد كان ممسكاً بهم ، ملازماً لهم ، ما داموا صعالكة ، فالجوع نفسه جزء من أجزاء الصعلكة . وفي شعر (عروة بن الورد) أن الجوع كان ينزل به ، حتى يكاد يهلكه ، أنزل به الهزال ، وأراه الموت ، لولا أنه كان يتهرب منه بالغارة ، لينال منها البلغة ، فالمنايا خير من الهزال المقيت المميت^٣ . وفي شعر للسليك بن السلكة ، أن الجوع كان يغشاه في الصيف ، حتى كان إذا قام تولاه اغماء شديد ، يريه الدنيا ظلاماً من أثر الجوع^٤ .

وما دامت حياة الصعلكة جوع وفقر ، وإملاق وهروب من متعقب ، فالموت خير للصعلوك من حياة يعيشها فقيراً ، لا أقارب له تعطف عليه ، ولا أهل يشفقون عليه ، ولا قوم يراجعونه ويتعهدونه بالحماية^٥ ، حياته موحشة قاسية ، تفور بالأخطار والتهلكة والمغامرات ، لا يدري متى يأتيه الموت ومن أين يأتيه ، إذا نام ، خاف من غادر قد يغدر به ، ومن متعقب يتعقب أثره ، ومن طالب ثار يريد الأخذ بثأره منه ، ومن حيوان صعلوك مثله ، يريد أن يقضي على

١ تاج العروس (٣٣٩/٧) ، (رجل) ، (أجارت السليك بن السلكة السعدي ، وكان رجلياً) ، المحبر (٤٣٣) .

٢ تاج العروس (٣٢١/٥) ، (خلع) .

٣ أقيموا بني لبني صدور ركابكم فان منايا القوم خير من الهزل ديوان عروة (١٠٦) .

٤ الاغانى (١٣٥/١٨) .

٥ اذا المرء لم يبعث سواما ولم يرح عليه ، ولم تعطف عليه أقاربه فللموت خير للفتى من حياته فقيراً ، ومن مولى تدب عقاربـه ديوان عروة (١٥٠) ، وينسبان لغيره ، حماسة أبي تمام (١٦٧ ، ١٦٦/١) .

جوعه بافتراسه ، وهو معذور في ذلك لأنه جائع لا طعام له ، ومن هنا هان الموت في نظر الصعلوك ، فهو معه يتبعه مثل ظله وملازم له ، وتولدت في نفسه فلسفة (الآجال) : فلسفة ان لكل نفس أجل ، وأن كل نفس ذائقة الموت ، وأن الإنسان مهما عاش وعمر ، فلا بد من أن يلاقي الموت ويستجيب له ، لن ينجيه منه قصر (ريمان) ، ولا حرس أبوابه المدججون بالسلاح ، يمنعون الناس من دخوله ، فالموت لا يعرف حرس القصور ولا يحول بينه وبين من يريد الوصول اليه حائل مهما كان . قال أبو الطمحان القيني :

لو كنتُ في ريمان تحرس بابه أراجيل أحبوش وأغضف آلف
إذن لأتني حيث كنت منيني يحبُّ بها هاد بأمرى قائف^١

ولقرب الموت من الصعاليك ، ولتعقب أصحاب الثأر دوماً لهم ، لازموا سلاحهم ، فكانوا لا ينامون إلا وسيفهم معهم . كما لازمهم الرقاد والسهر بالليل ، خشية مباغته غادر لهم ، والليل رفيق الغدر . لذلك كان ليلهم قصيراً ، ونومهم قليلاً ، من شدة قلقهم ومن تحسبهم لتعقب طلاب الثأر لهم ، ونجد في شعرهم اشارات الى مظاهر القلق الذي كان يستولي عليهم ، فيحول بينهم وبين النوم . ونجد في شعر للشنفرى توجع وتألم ومرارة ، وإن صيغ بصورة الاستهتار بالموت وبالحياة ، فهو إن جاءه الموت ، فلن يبالي ، ولم يبالي ، وهو انسان خليع بائس ، إن مات لا يجد من يبكي عليه أحد . فأني توجع أشد من هذا التوجع المصوغ في هذا البيت الساخر :

إذا ما أتني ميتي لم أبالها ولم تذر خالاني الدموع وعمتي^٢

ولكن الحياة على ما فيها من مرارة وشقاء ، مطلوبة محبوبة ، فرباً لحظة فيها حبور تنسي كل ما كابده الانسان من تعاسة وشقاء ، والموت مكروه محمقوت ، وإن تمناه المتمني ، وما تمنيه له إلا لثورة طارئة في النفس ولضيق في الصدر ، فإذا بان الموت لمتمنيه ضاق صدره ، وتمنى لو مد في عمره . يدفعه الأمل الى

١ الاغاني (١١ / ١٣٣) .

٢ الاغاني (٢١ / ١٣٩) ، الشعراء الصعاليك (٣٣) .

التفكير في احتمال تغير الأوضاع ، وتحسن الحال ، والحصول على الغنى والمال ، بشرط أن يسعى ويضرب في الأرض وأن يكون صادق العزيمة ، لا ينخور أمام المصائب مهما كانت شديدة عاتية ولا ينهار منها :

فسر^١ في بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسار أو تموت فتعلرا^٢

وقد كان عماد الصعلوك في حياته ، قوته الجسدية وسلاحه الذي يحارب به ، وجماعته الذين يأوي اليهم ، وكان يقا تل بضراوة ، قتال المستميت ، لأنه إن لم يدافع عن نفسه ، هلك ، إذ لا أمل له في وجود عصيبة تدافع عنه ، أو أهل يقومون بافتدائه وتحليصه من أسر إن وقع فيه ، وسيله الوحيد للخلاصه عند قيامه بغارة : المباغتة والهرب بما قد يحصل عليه بسرعة ، كي يأمن العاقبة ، وعمل الحيلة في التخلص من المآزق ، لكيلا يقع في ايدي متعقبه ، فيكون بذلك هلاكه ، وفي جملة ذلك الفرار ، للنجاة بالنفس من موت محتم . وهو فرار يؤدي به الى معاودة الغارة والتلصص ، إذ لا مورد له في هذه الحياة يتعيش منه غير هذين الموردين . فحاله في هذا الفرار حال (أبي خراش) الهللي حيث يقول :

فلن تزعمي أنني جيتُ فلاني أفر وأرمي مرة كل ذلك
أقاتل حتى لا أرى لي مقاتلاً وأنجو إذا ما خفت بعض المهالك^٣

ونظراً لفقر الصعاليك ، وعدم وجود مال لديهم يكفل لهم شراء فرس يركبونها في غاراتهم ، اعتمد أكثرهم على أرجلهم في طلب رزقهم ، وفي الحصول على معاشهم ، وعلى خفة حركاتهم ، وسرعتهم في الهروب من تعقب المتعقبين لهم في حالتي الفشل أو النجاح . وكان من بينهم من ضرب به المثل في زمانه في شدة العدو ، وفي سرعة الركض ، ورويت عنه الأقاصيص في ذلك . منهم (سليك بن المقانب بن السلكة) ، وهو عداء بالغ . يقال : أعدى من السليك^٤ . وقد عرفوا لذلك بـ (العدائين) لشدة عدوهم^٥ ، جمع (عداء) ، ومنهم أيضاً

١ ديوان عروة (١٩١) .

٢ ديوان الهذليين (١٦٩/٢) ، الدكتور يوسف خليف ، الشعراء الصعاليك (٤٠) .

٣ تاج العروس (٤٠٩/١) ، (غرب) .

٤ الخزنة (١٧/٢) .

(الشنفرى) : « شاعر عداء . ومنه المثل : أعدى من الشنفرى »^١ ، « وكان من العدائين . وفي المثل : أعدى من الشنفرى »^٢ . كما عرفوا بـ (الرجلين) وبـ (الرجال) ، وهم « قوم كانوا يعدون . كذا في العباب . ونص الأزهري : يغزون على أرجلهم ، الواحد رجليّ محرّكة أيضاً ... وهم سليك المقانب ، وهو ابن سلكة ، والمتشر بن وهب الباهلي ، وأوفى بن مطر المازني »^٣ ، « والرجلة بالفتح وبالكسر : شدة المشي ، أو بالضم القوة على المشي ، وفي المحكم : الرجل بالضم المشي رجلاً »^٤ . وقد صار العدو من أهم صفاتهم ومميزاتهم التي امتازوا بها عن غيرهم ، حتى قيل إن الخيل لم تكن تلتحق بهم . وفتوا بأنهم كانوا أشد الناس عدواً ، وأنهم « لا يجارون عدواً » ، « لا يلحقون »^٥ . ومن العدائين : (تأبط شرأ) ، و (عمرو بن البراق) ، و (أسيد بن جابر)^٦ . وورد أن العرب كانت تضرب بالسليك المثل في العدو ، وترغم أنه والشنفرى أعدى من رثي^٧ .

وضرب المثل بسرعة عدوهم ، واتخذ القصاص من شدة علو الصعاليك مادة أدخلوها في قصصهم ، وبالغوا فيها لتناسب طابع القص واسلوبه ، وقد وجد بغضه سيلاً إلى كتب الأخبار والأدب والعجائب وال نوادر . وتؤلف المبالغات في سرعتهم وعدوهم أهم عنصر في القصص الذي يتحدث عنهم ، نجد فيها أن الصعلوك يسابق الخيل ، فيسبقها ، هذا (أبو خراش) الحلبي ، يدخل مكة ، فوجد (الوليد بن المغيرة) المخزومي ، يهيم بإرسال فرسين له إلى (الحلبة) فيقول له : ما تجعل لي إن سبقتهما ؟ قال : إن فعلت فيها لك ، فأرسلا وعدا بينهما فسبقها فأخذهما^٨ . وهذا (تأبط شرأ) يوصف بأنه « كان أعدى ذي رجلين وذو ساقين وذو عينين ، وكان إذا جاع لم تقم له قائمة ، فكان ينظر

-
- ١ تاج العروس (٣١٨/٣) ، (الشنفرية) .
 - ٢ تاج العروس (٣٠٨/٣) ، (شنفر) .
 - ٣ تاج العروس (٣٣٩/٧) ، (رجل) ، ثمار القلوب (١٣٥) .
 - ٤ تاج العروس (٣٣٦/٧) ، (رجل) .
 - ٥ الاغانى (٤٩/١٢) ، (١٣٣/١٨ وما بعدها) ، المرزباني (٤٦٨) ، الخزائنة (١٦/٢) .
 - ٦ تاج العروس (٣١٨ ، ٣٠٨/٣) ، (شنفر) ، (شنفر) .
 - ٧ ثمار القلوب (١٣٤) .
 - ٨ الاغانى (٥٧/٢١) .

الى الظباء ، فينتقي على نظره اسمها ، ثم يجري خلفه ، فلا يفوته حتى يأخذه فيلججه بسيفه ، ثم يشويه فيأكله ^١ . الى غير ذلك من قصص وحكايات .

وقد فخر العداؤون بشدة عدوهم ، وتباهوا بمقدرتهم على العدو السريع ، حتى أنهم نسبوا سبب نجاتهم من الموت الى عدوهم هذا ، لا الى قتالهم وشجاعتهم ، وبالغوا في شعرهم به ، حتى ذكروا أنهم كانوا يسبقون الخيل والظباء بل الطير ^٢ . هو نوع من (البطولة) في مفهوم الصعاليك ، حتى أنهم - كما قلت - فضلوه على الشجاعة ، وإذا كانت الشجاعة ضرب من الإقدام وإظهار المقدرة والرجولية ، فالركض فراراً ، نوع من البطولة أيضاً ، فيه مقدرة وشجاعة في ضبط الأعصاب وفي التصميم والإقدام على السلامة والنجاة بالنفس وبقاء الحياة وهكذا أوجدوا لفرارهم عذراً اعتلوا به ، فهم إن اختاروا الفرار وفضلوه على المعاركة والقتال فلما اختاروه لأن فيه أمل المعاودة الى قتال جديد ، ثم لأنهم لا يرون سبباً يدعو الإنسان الى أن يرمي نفسه في المهالك ، وأن يكون طعاماً للوحوش الكاسرة ^٣ . فليس في الهروب جبن ، وليس في الإقدام شجاعة ، والعامل من اتعظ فنجى نفسه من الموت ، وفي النجاة شجاعة .

وقد كان لسرعة عدو الصعاليك العدائين فضل كبير عليهم في النجاة من المهالك المحتملة ، هذا (تأبط شراً) ، يذكر في شعر له انه وقع في فخ في موضع (العيكتين) ، وكاد يهلك ، لولا استعاضته بالركض ، ولا أحد أسرع منه ، وبذلك نجا وخلص من الوقوع في داهية ^٤ . فلا عجب إذن ، اذا ما افتخروا بسرعة عدوهم ، وجأهروا بما لأرجلهم من فضل ومنة عليهم . فلولا العدو لما خرج (أبو خراش) سالماً من موت كان قد أحاق به ، ولكنه غلب الموت بشدة عدوه وهروبه منه ، فعاد سالماً معافى الى حليلته ، فاستقبلته ابنته بقولها : « سلمت وما إن كدت بالأمس تسلم » ، وأنقذ بذلك ابنه (خراش) من الوقوع في اليم ^٥ .

١ الاغاني (٢١٠/١٨) .

٢ الشعراء الصعاليك (٢٠٩ وما بعدها) .

٣ الشعراء الصعاليك (٢٠٩ وما بعدها) .

٤ المفضليات (٧ وما بعدها) ، الشعراء الصعاليك (٤٢) .

٥ الاغاني (٥٦/٢١ وما بعدها) ، ديوان الهذليين (١٤٨/٢) .

فلا عجب اذن ، إن رأينا (الحاجز الأزدي) ، يفدي رجله بأمه وخالته ، وهو فداء في نظرنا غريب ، لكنه ليس بغريب ، بالنسبة الى انسان رجلاه رأسماله في هذه الحياة ، بفضلها سلم من المهالك ، وحصل على قوته ، ولولاهما لكان من الهالكين :

فدى لكما رجليّ أمي وخالتي بسعيكما بين الصفا والأثاب^١

وكان الصعاليك يغيرون فرساناً كذلك ، كانوا يجيدون ركوب الخيل والإغارة عليها ، وعدّ بعضهم من خيرة فرسان الجاهلية . ولعروة بن الورد فرس يسمى (قرمل)^٢ ، وللسيلك فرس يسمى (النحام)^٣ ، وللشنفري فرس يسمى (اليحموم)^٤ ، وقد عرفت هذه الأفراس بشدة عدوها .

والسلاح للصعلوك ، هو الحماية الوحيدة التي يتقي بها أذى الناس ، ويستعين بها في القضاء على خصمه ، وهو السيف والقمص والرمح والدرع والمغفر ، وكان لا يفارق سلاحه ، لأنه لا يلدي متى ينقض عليه عدو له فيقتله ، فكان لا بد له من حمل سيفه معه ، واعتناقه له حين نومه ، وقد عد (عروة بن الورد) ، و (عمرو بن بركة) السلاح رأسمالهما الذي يتكلون عليه في هذه الحياة * .

ولصعوبة تصعلك الرجل بمفرده ، تكتل الصعاليك كتلاً ، وكوّنوا لهم فرقاً ، تكونت من أشبات وأنماط من الرجال ، فيهم الحرّ الثائر ، وفيهم الضال الغاوي ، وفيهم الأسود العبد ، وفيهم القاتل الفاتك . وهم بالطبع من قبائل مختلفة ومن بطون متنافرة . فلا تجمعهم عصبية القبيلة ، ولا نخوة العشيرة ، ومع ذلك فيبينهم رابطة قوية ، ووحدة جمعت بينهم ، هي وحدة الدفاع عن النفس ، واللب عنها ، والكفاح في سبيل المعيشة ، بأي سبيل ، وبأية طريقة وجدت ووقعت ، حتى بالقتل . فن وجد شخصاً ومعه مال ، لا يجد الصعلوك والقاتل سبباً أخلاقياً

١ الاغاني (٥٢/١٢) .

٢ قال عروة :

كليلة شيباء التي لست ناسيا وليلتنا اذ من ما من قرمل

تاج العروس (٧٩/٨) ، (القرمل) .

٣ ذيل الامالي ، للقالبي (١٨٨) .

٤ ديوان الشنفري ، تحقيق الميمني ، (لجنة) (ص ٤٠) .

٥ ديوان عروة (٢٠٧) ، الاغاني (١٧٥/٢١) .

يمنعه من قتله للحصول على ماله . فلما كان (عروة بن الورد) في أرض (بني أنقن) يربص المارة ، فرت به إبل ، فيها ظئنة ورجل يحرسها ، خرج إليه (عروة) فرمى الرجل بسهم في ظهره ، أراحه قتيلاً ، واستاق الإبل والظئنة . ولما خرج (الأخنيس) الجهني فلقني (الحصين) العمري ، وكانا فاتكين ، وسارا حتى لقيا رجلاً من كندة في تجارة أصابها من مسك وثياب وغير ذلك ، طمعا به ، فاغتره (الحصين) فضرب بطنه بالسيف فقتله ، واقتسما ماله ، ثم ركبوا ، وطمع (الأخنيس) في مال (الحصين) فتربص به الفرص حتى أخذه على غرة فقتله واستولى على ما كان عنده ، في حكاية تروى ، وفيه يقول الأخنيس على لسان (صخرة) أخت (الحصين) :

تساءل عن حصين كل ركب وعند جهينة الخبر اليقين^١

فالفاتك لا يجد مانعاً أخلاقياً يمنعه من الفتك بأي شخص إن وجد . عنده المال ووجد له فرصة مؤاتية ، ثم هو لا يمتنع من الفتك حتى يزميله وصاحبه وشريكه في الإغارة والفتك ، والتاجر لا يأمن من حراسه ومن مرافقيه حتى يصل مقره ، لأن الفقير لا يعرف أخاً ولا صديقاً وشريكاً ، قاتل الله الفقير ووقانا شره^٢ .

ونجد (تأبط شراً) ، يتبعج في شعر ينسب له ، فيقول انه لا يبيت الدهر إلا على فتي أسلبه ، أو على سرب أذعره^٣ . ونجد صاحب (لامية العرب) ، إن صح أنها للشفري ، يصف غارة ملأت الرعب في قلب من وقعت عليهم ، قام بها في ليلة باردة ، عاد منها سالماً معافى بغنائم ، وهو فرح بما تركه من قتل وسلب وألم في نفوس النساء والأطفال ، إذ يقول :

فأبمت نسوانا ، وأيتمت لدة^٤ وعدت كما أبدأت ، والليل أيل^٥

ونجد (السليك) يخرج مع صعلوكين يريدون الغارة ، فساروا حتى أتوا بيتاً متطرفاً ، ووجد شيخاً غطى وجهه من البرد ، وقد أخذته إغفاءة ، ومعه إبله

-
- ١ ديوان عروة (١١٣) ، (اخراج عبد المعين الملوحي) .
 - ٢ عيون الاخبار (١٨١/١) وما بعدها ، (طبعة وزارة الثقافة والارشاد القومي) .
 - ٣ الاغانى (٢١٧/١٨) .
 - ٤ الشعراء الصعاليك (٤٩) .

ترعى ، فأسرع اليه وضربه بسيفه فقتله ، ونهبوا إبله ، وعادوا بها مسرعين فرحين ، خشية شعور الحي بأمرهم وتعقبهم لهم . قتله دون أن يشعر بوخزة ضمير ، لقتله انساناً نائماً طاعناً في السن يرعى إبله ، وإن وجدناه يبرر فعلته هذه ، بأنه لم ينل هذه الإبل إلا بعد أن صكه الجوع ، واستولى عليه الفقر ، فهو قد قام به مضطراً^١ ، والضرورات تبيح المحظورات .

ونرى (صخر الغي) المزني ، يقول في شعر له ، انه قتل رجلاً من (مزينة) وسلبه ماله ، ليقوى به مال رجل فقير ، لا يملك مالا^٢ :

في المزني الذي حششت به مالَ ضريك تلاده التكد^٣

وعلى الرغم من هذا العنف، ومن هذه القساوة العنيفة ، التي تصل الى الوحشية ، نرى عند بعضهم ، روحاً إنسانية ، فيها العطف على الضعيف ومساعدة المحتاج وبذل المال والتجدة ، والبر للأهل والأقارب بل وللغريب أيضاً . بل نجد هذه الروح أحياناً حتى عند القساوة منهم ، وسبب ذلك أن الصعاليكة في ثورات نفسية ، يعيشون عيشة قلق مضطربة ، فإذا كانوا في ثورة جامحة من جوع وحاجة وتألّم بما حلّ بهم وبما هم فيه من سوء حال ، هاجوا فكفروا بكل شيء ، وثاروا على كل شيء وعلى كل أحد ، وصاروا لا يباليون بعرف ولا سنة ، يقتلون لأنفسهم الأسباب ، لأنهم معرضون أنفسهم في كل لحظة للقتل . ثم إن القتل لا شيء بالنسبة الى تلك الأيام ، وإن تعاضم في نظرنا . فهم في ذلك مثل الأسود الجائعة ، لا تعباً بشيء ، وكل همّها الحصول على فريسة لتأكلها فتعيش عليها ، فإذا وجد الصعلوك غنيمة ، وعاد الى مقره سالماً ارتخت أعصابه ، وهذأت سورته ، وتذكر نفسه وما يقاسيه من ألم وجوع ، فيعود إنساناً آخر ، باراً بأصحابه حنوناً عليهم ، نادماً على حياة يعيشها جعلته يعيش مثل الوحوش الكاسرة ، كريماً يعطي مما ناله بقوته وبسلاحه وبلدكائه . هذا (عروة بن الورد)^٤ و (أبو خراش) الهللي

-
- ١ وما نلتها حتى تصعلكت حقبة
وحتى رايت الجوع بالصيف ضربي
الشعراء الصعاليك (١٨٢ وما بعدها) .
- ٢ وكنت لاسباب المتية أعرف
إذا قمت تغشاني ظلال فأسدف
الشعراء الصعاليك (٢٣٨) .

وغيرهما ، نجد فيهم التقيضين ، نجد فيهم القسوة بل الوحشية ، ثم نجد فيهم العطف والشفقة والرحمة والاشفاق على الضعفاء ، وما الجمع بين التقيضين إلا من واقع هذه الظروف النفسية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والادارية التي كانوا يعيشون فيها .

وفي شعر ينسب الى (أبي خراش) الهللي ، امتداح للكرم ولكرامة الانسان في الحياة ، وترفع عن المذلة وتباهٍ بإثثار الغير على نفسه ، مع انه فقير صعلوك ، فهو يقول :

واني لأثوي الجوعَ حتى يملي فيذهب لم يدنس ثيابي ولا جرمي
وأغبق الماء القراح فأنتهي اذا الزاد أمسى للمزج ذا طعم
أرد شجاع البطن قد تعلمينه وأوثر غيري من صياك بالطعم
مخافة أن أحيا برغم وذلة وللموت تُخبر من حياة على رغم

وقد عاش هؤلاء على المباغنة والغارات ، فكانوا يتسترون في المواضع الوعرة ، وفي مفارق الطرق وشعاب الجبال حتى اذا مر بهم مار ، ووجدوا أن في إمكانهم الحصول على غنيمة ، باغتوه ، وأخذوا منه ما هو عنده . وقد يغفرون على الأحياء ليلاً ، فيأخذون ما يجدونه أمامهم ، ثم يجرون بسرعة حتى لا يدركهم أحد ، ليصلوا الى مواضع آمنة بعيدة عن التعقيب ، مثل الكهوف والمغاور والآكام ، يأوون اليها ويعيشون بها عيشة الخائف المنشرد الهارب من مجتمعه ، الحاقد عليه ، لأن في قلبه حقداً عليه ، لأنه لم يفهمه ولم يفهم سبب ثقته على مجتمعه . وأكثرهم من الشباب الذين خرجوا على طاعة أوليائهم أو على عُرْف مجتمعه ، أو عوملوا معاملة أشعرتهم انها اذلتهم وجرحت كرامتهم ، فانفصلوا بذلك عن أهلهم وعشيرتهم أو فصلهم أهلهم عنهم ، فلم يبق أمامهم من سبيل سوى التصعلك والتشرد .

وكان من هؤلاء مثل (عروة بن الورد) من جمع حوله الصعاليك ، ولقّبهم حوله ، فكان يغزو بالقوي الجسر منهم ، فإذا أصابوا مغنماً جاءوا به الى أصحابهم الضعفاء ممن لا يتمكن أو لا يتجاسر على الغارة ، فيصيبونهم مما أصابوا ويعينونهم بما غنموا ، وحياة على مثل هذا الطراز ، هي حياة شديدة قاسية ولا شك .

وقد كانت المرتفعات الصعبة المشرفة على المسالك والطرق الضيقة من أهم الأماكن المحيية الى نفوس الصعاليك وقطاع الطرق ، يحتمون بالمواضع المشرفة منها على الطرق لمراقبة المارة ، من (مرقبة) تخفي معالمها لئلا يراها أو يفتن لوجودها سلاك الطرق ، فاذا مروا بها انقضوا عليها منها ، وكأهم هبطوا عليهم من السماء . ونجد لما ذكرنا في شعر الصعاليك واللصوص وقطاع الطرق^١ . وقد اشتهر جبل هذيل بمرقبته ، ورد : « المرقبة جبل كان فيه رقباء هذيل »^٢ .

ونجد في شعر (تأبط شرأ) أنه كان يغير على (أهل المواشي) و (أهل الركب) والحب ، وعلى (أرباب المخاض) ، فعند هؤلاء ما يطعم فيه الفقير الصعلوك من مال وحب يعتاش عليه ، ومن نوق حوامل^٣ . ونرى (الأعمى) الهللي ، يذكر أنه يغزو المترف السمين ، الذي يعيش بين السناثر والكثيف ، بينما هو وأمثاله لا يملكون شيئاً ، فاذا هاجموه ، خاف وأهدت كيانه^٤ . ولهذا صار الساكنون في الأرضين الحصبة والتجار والسابلة من خيرة الأهداف التي كان يترصدها الصعلكة ، لعلهم بوجود شيء عند أصحابها ، أكثر مما يجدونه عند الأعراف الضاربين في البوادي النائية المكشوفة .

ويطعم الصعاليك أيضاً بعضهم في بعض ، فالحياة جوع وقر ، والفقير كافر لا يعرف عرف (المهنة) ولا مجاملات الصنف ، ثم هم أبناء البادية ، ومن طبع البادية ، أن يغير أبناؤها بعضهم على بعض ، للحصول على لقمة للعيش ، فكان الصعاليك تبعاً لهذه السنة يغير بعضهم على بعض ، خاصة اذا كانوا صعلبك متعادية . فكان بين صعلبك هذيل وصعاليك فهم ، عداوة شديدة ، وحقد دفين ، بسبب العداوة بين الحيين^٥ ، عداوة مرجعها تجاور الحيين ، واختلاف مصالحهما الحيوية ، وطبع القبيلتين في (بجيلة) ، و (بجيلة) في جوار (الطائف) ، وهي غير

١ الشعراء الصعاليك (١٨٦ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (٢٧٦/١) ، (رقب) .

٣ فيوما على أهل المواشي وتارة لاهل ركب ذي ثميل وسنبيل ولكن أرباب المخاض يشفهم اذا اقتفروه واحدا أو مشيعا الاغانى (٢١٧/١٨) ، حساسة أبي تمام (٢٨/٢) .

٤ الشعراء الصعاليك (٢٣٧) .

٥ شرح أشعار الهذليين (٢٣٣/١) وما بعدها ، الشعراء الصعاليك (٤٨) .

بعيدة عن فهم ، ولا تبعد منازلها بعداً كبيراً أيضاً عن ديار هذيل^١ .

وكان بين (صخر الغي) الحللي و (تأبط شراً) عداء شديد . وقد سمي (الحللي) (تأبط شراً) ب (ابن ترني) ازدراء به . ونجد في الشعر الوارد في هجاء الشعراء بعضاً لبعض لوناً طريفاً من ألوان هذا الصراع السلي كان يقع بين الصعاليك^٢ ، وهو صراع أسبابه عديدة ، صراع متولد من عصبية قبلية ، أو من تنافس وتخاصد في الحرفة وعلى الرئاسة والزعامة والصيت والشهرة ، أو في طمع كل واحد منهم في الآخر للاستيلاء على ما حصل عليه من مال ليتعيش به .

وقد انتشر الصعاليك في كل موضع من جزيرة العرب ، ففي كل مكان منها جوع وفقير وصعلكة ، حتى صاروا قوة مرعبة مخوفة ، لشدة بأسهم في القتال ، ولعرفتهم بالمسالك وبمنازل الطرق وبمداخلها وبأسرار البوادي وخفايا النجاد والجبال ، فكانوا أن اتخذوا من الكهوف والمنحدرات والمسترات المشرفة على الأودية والطرق ، مواضع رصد واختفاء ، يراقبون منها حركات المارة ، فإذا وجلوهم دخلوا موضعاً صعباً ، يمكن حصرهم به ، انقضوا عليهم ، فأخذوا منهم ما يكون عندهم من متاع هذه الدنيا ، ثم هربوا بما غنموا إلى مخابثهم حيث لا يصل إليهم أحد ، وإن وجدوا أن السابلة أقوى منهم وأشد بأساً ، اتخذوا من القرار وسيلة للسلامة والنجاة ، فلا يلحقهم متعقب ، ولا يطمع أحد في إصابتهم بمكرهه ، وهم على علم واسع وخبرة عالية بمجاهل البوادي وبخبايا الأرض ، وهكذا يكونون في نأي عن التعقيب وفي منجاة من التعقب . ولما سدت السبل في وجه (النعمان ابن المنذر) بعد أن غضب كسرى عليه ، وأخذ يتنقل من مكان إلى مكان ، لجأ إلى (هانيء بن قبيصة) الشيباني ، فأجاره وقال : لزمني ذمامك ، وإني مانعك مما أمتنع نفسي وأهلي وان ذلك مهلكي ومهلكك ، وعندي رأي لست أشير به لأدفعك عما تريده من مجاورتي ، ولكنه الصواب ، فقال هانيء ، قال : إن كل أمر يجمل بالرجل أن يكون عليه ، إلا أن يكون بعد الملك سوقة . والموت نازل بكل أحد ، ولأن تموت كريماً خير من أن تتجرع الذل أو تبقي سوقة بعد الملك . امض إلى صاحبك واحمل عليه هدايا ومالاً والى نفسك بين يديه ،

١ شرح اشعار الهذليين (١/٢٣٣ وما بعدها) .

٢ الشعراء الصعاليك (١٩٢) .

فلما أن يصفح عنك فعدت ملكاً عزيزاً ، واما أن يصيبك ، فاللوت خبير من أن تتلعب بك صعاليك العرب ويتخطفك ذئابها ^١ ، وفي نصيحة هانيء، للنعمان، وإشارته فيها الى (صعاليك العرب) دلالة على انتشارهم في كل مكان . وأنهم صاروا خطراً على الأمن ، يحسب له كل حساب .

ولما خلع (امرؤ القيس) ، وصار ضليلاً خليعاً ، « جمع جموعاً من حمير غيرهم من ذؤبان العرب وصعاليكها » ^٢ ، وأخذ يغير بهم على أحياء العرب ، ما كان (امرؤ القيس) ليجمع جمعهم ويحزبهم حزبه لو لم تكن في نفسه حاجة لهم ، فقد كانوا قوة ، وقد صاروا رعباً يخيف الناس ، كالذي كان في جبل (مة) من تكتل خليط من كنانة ومزينة والحكم والقارة والسودان ، من تكتلهم وأبهم وأخذهم من كان يمر بالغارة والنهب والسلب ، بقوا على ذلك أسداً ثائثاً على مجتمعهم ، حتى ظهر الاسلام ، فكاتبهم الرسول ، وأمنهم أنهم ان آمنوا أقاموا الصلاة ، وصدقوا ، « فعبدهم حر ، ومولاهم محمد ، ومن كان منهم من قبيلة لم يردّ اليها ، وما كان فيهم من دم أصابوه أو مال أخلوه ، فهو لم ، وما كان لهم من دين في الناس رد اليهم ، ولا ظلم عليهم ولا عدوان » ^٣ . فهم قم متمردون ثائرون لا يعطون أحداً طاعة ، إلا طاعة أنفسهم والمترس فيهم . زلزل هذا هو الذي حدا بأهل النسب والأخبار أن يقولوا : « والخلعاء : بطن من بني عامر بن صعصعة ... كانوا لا يعطون أحداً طاعة » ^٤ .

وهكذا وضع (الصعاليك) أنفسهم في خدمة من يريد استخدامهم لتحقيق أهدافه التي يريدها ، مقابل ترضيتهم وإعاشتهم ، كما يفعل الجنود المرتزقة هذا اليوم من خدمة الدول الأجنبية ، بانضمامهم الى الفرق الأجنبية ، كما هو الحال في (فرنسا) مثلاً لاستخدامهم في القتال .

وقد جعلت حياة التشرد والغارات والهروب والفرار الى مواضع بعيدة نائية وفي مجاهل البرادي ، الصعاليك من أعلم الناس بلروب جزيرة العرب ، وبالمواضع

-
- ١ الاغاني (١٢٦/٢) ، الخزانة (١٨٥/١) وما بعدها) .
 - ٢ الخزانة (٥٣٢/٣) ، (جمع جمعا من بني بكر بن وائل وغيرهم من صعاليك العرب) ، معاهد التنصيص (٥/١) .
 - ٣ ابن سعد ، طبقات (٢٧٨/١) ، (صادر) .
 - ٤ تاج العروس (٣٢١/٥) .

الصعبة منها بصورة خاصة . وقد وصف (السليك) ، (البعيد - الغارة) بأنه
 « أدل من قطاة » ، ونعت الصعاليك جميعاً بأنهم « أهلى من القطا »^١ ،
 وافتخر الصعاليكة أنفسهم بأنهم كانوا يعرفون عن خفايا البوادي والجبال ما لا يعرفه
 أحد غيرهم ، وبذلك كانوا يتنجون أنفسهم من تعقب المتعقبين لهم^٢ .

ونجد لشذاد العرب ، ذكراً في أخبار الفزو وفي أخبار الأخذ بالشار ، وفي
 أخبار من كان يريد الانتقام من أعدائه ، فلما غزا (زيد الخيل) الطائي (بني
 عامر) ومن جاورهم من قبائل العرب من قيس ، « جمع طيئاً وأخلاقاً لهم ،
 وجمعوا من شذاذ العرب »^٣ ولما غزا (زهير بن جناب) الكلبي ، بكرأ وتغلب
 أخذ « من تجمع له من شذاذ العرب والقبائل » وغيرهم فغزا بهم^٤ . وقد كان
 هؤلاء (الشذاذ) على استعداد لوضع أنفسهم في خدمة من يريد استخدامهم في
 مقابل أجر ، أو يتكفل بإعاشتهم وإرزاقهم ، أو من يرزقهم غنيمته من غارة
 يساهمون فيها ، فلما أراد (أبو جندب) الهنلي ، الأخذ بثأر جارين له قتلها
 (بنو لحيان) ، قدم مكة ، فأخذ جماعة من خلعاء بكر وخزاعة ، وخرج
 بهم على بني لحيان ، وكان قد « قدم مكة » فواعد كل خليع وقتل في
 الحرم أن يأتوه يوم كذا وكذا ، فيصيب بهم قومه ، ليثأر لأخيه^٥ .

وكانت مكة على ما يظهر من أخبار أهل الأخبار ، مكاناً أوى إليه ذؤبان
 العرب وخلعائهم وصعاليكهم ، حتى كثر عددهم بها ، لما وجدوه فيها من حماية
 وموئنة ، وكان أحدهم اذا جاءها ، نادى قريشاً نداء النخوة لتؤويه وتجيّره ،
 فيقوم أشرافها بحمايته وتقديم الجوار له . ومن هنا نجد الفتاك وأهل الغي والضلال
 يجوسون خلالها في أمن وسلام ، لحمة المدينة ولحمة حقوق الجوار ، ولعل المصالح
 الاقتصادية التي كانت تجنيها قريش من هذا الإيواء ، كانت السبب الأول في
 جعل سرائرها يقدمون العون والجوار لأولئك الذؤبان الفتاك الذين كانوا لا يتورعون
 من الإقدام على أي عمل مهما كان شأنه خطيراً ، حتى إن كان فيه هلاكهم ،

١ الاغانى (١٣٤/١٨) ، المرزبانى (٤٦٨) ، الشعراء الصعاليك (٥٤) .

٢ الاصمعيات (٣٥/١) .

٣ الاغانى (٥٢/١٦) .

٤ الاغانى (٩٦/٢١) .

٥ الاغانى (٦٢/٢١ وما بعدها) ، شرح أشعار الهذليين (٨٣/١ وما بعدها) .

أو جاء بالأذى على من أحسن إليهم وأجارهم ، فهم قوم أصابهم طيش وركبهم التمرد والحقد على المجتمع ، فهم لا يبالون بارتكاب أية موبقة ولو وقعت منهم في الحرم ، فقد كان في وسع تجار قريش تأمين تجارتهم بالإحسان إلى هؤلاء الذين كان في استطاعتهم مهاجمة القوافل ونهب ما معها من أموال ، كما كان بإمكانهم استخدامهم حرّاساً يخرجون مع قوافلهم لحراستها من بقية الصعاليك إلى وصولها إلى الأماكن التي تريدها ، كما كان في استطاعتهم الاستفادة من الفتاك في الفتك بمن يناصبهم العداء ، وفي القضاء على كل من يريد التحرش بقريشي أو بأموال قريش أو حلفائهم . وبذلك تمكنوا من حماية تجارتهم من الصعاليك ومن الأعراب الذين قد تمر تجارة قريش بهم ، وإن كانت قريش قد أمنت جانبهم أيضاً بعقد حبالها مع سادات القبائل بزيلاف عرف بـ (زيلاف قريش) في القرآن الكريم .

وكان (البراض) ، وهو (رافع بن قيس) وهو من الفتاك ، قد لجأ إلى مكة ، فحالف (بني سهم) من قريش ، فعدا على رجل من هذيل فقتله ، فخلعه (العاص بن وائل) فأتى (حرب بن أمية) فحالفه ، فعدا على رجل من خزاعة فقتله وهرب إلى اليمن ، فخلعه (حرب) ، فلما ضاقت به السبل ذهب إلى الحيرة ، وطلب من النعمان أن يجير له (لطيمته) ، فقال له (الرحال ابن عروة) : « أنت تجبرها على أهل الشيخ والقيصوم ؟ وإنما أنت كلب خليج ! » فأعطاهما (النعمان) إلى (عروة) ، فخرج (البراض) في أثره ، فلما انتهى إلى (أواره) قتله وانتهب اللطيمة ، فكان بسببه حرب الفجار بين كنانة وقيس^١.

وبين الصعاليك قوم من (الغربان) (غربان العرب) ، وأغربة العرب سودانهم . شبهوا بالأغربة في لونهم ، وكلهم سرى إليهم السواد من أمهاتهم^٢ . تصعلكوا لآزدراء قومهم لهم ، ولا تنقص أهلهم لشأنهم ، وعدم اعتراف آبائهم ببنوتهم لهم ، لأنهم أبناء إماء . أو لفقرهم ، وظلم المجتمع لهم ، وعدم طبقة مملوكة ، هم والحيوان المملوك سواء بسواء . ليس لأحد منهم جسمه ، ولا أهله ولا نسله ، وكل ما يملكه أو ما يحصل عليه يكون ملك سيده ، ومن خالف أمره منهم ، جاز لسيده قتله ، ولسيده حق الاستمتاع بمملوكته وبجواره من غير

١ المحبر (١٩٥ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (٤٠٩/١) ، (غرب) .

قيد ولا شرط . وهذا ما جعل بعض الرقيق يهرب من سيده ، فراراً من ظلمه ، لينضم الى الصعاليك ، أو ليكون عصابة تلجأ الى الجبال والكهوف ، تهاجم المارة ، والأحياء ، لتحصل على ما تنعيش به . ولما ظهر أمر الرسول ، كتب للجماع كانوا في جبل تهامة قد غصبوا المارة ، وهم خليط من كثانة ومزينة والحكم والقارة ، ومن فرق من سادته من العبيد ، كتاباً ، فيه أنهم « إن آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فعبدهم حرّ » ، ومولاهم محمد ، ومن كان منهم من قبيلة لم يردّ اليها ، وما كان فيهم من دم أصابوه أو مال أخذوه ، فهو لهم ، وما كان لهم من دين في الناس ردّ اليهم ، ولا ظلم عليهم ولا عدوان ^١ .

وأغربة العرب ، أو أغربة الصعاليك بتعبير أصدق ، كثيرون ، فقد كانت عادة اتصال العرب بالزنجيات منتشرة في الجاهلية ، وقد أولدت طبقة من المهجناء امتازت بسرعة العدو وبالشجاعة ، وبثحمل المشقات ، وكلها من مولدات الظروف . ولكن أشهر أغربة الصعاليك : السليك بن السليكة ، وتأبط شراً . وقد جعل (ابن قتيبة) أغربة العرب ثلاثة : عنزة ، وخفاف بن عمير الشريدي ، والسليك بن عمير السعدي ^٢ ، ولكن عددهم أكثر من ذلك بكثير ، يدخل فيهم الصعاليك وغيرهم .

أما الباقون ، فهم من شذاذ العرب ، ومن الخلقاء المطرودين المنبوذين ، الذين طردوا من أهلهم أو من عشيرتهم وقبيلتهم ، وحرموا من (العصية) ، فلا أحد يسأل عنهم ، ولا أحد يسأل عن جرائرهم وأعمالهم ، قدمهم هدر ، ومسؤوليتهم على عاتقهم وحدهم . وهم من عشائر مختلفة ، فلا ينتسبون الى نسب واحد ، ونسبهم الوحيد الذي يربط بينهم ، هو الصعلكة ، والتمرد على المجتمع والتشرد في البوادي والهضاب والجبال ، ولهذا نجد الصعاليك من مختلف قبائل وعشائر جزيرة العرب ، قد يتكتلون في مجموعات تضم صعاليك قبيلة واحدة ، وقد يتكتلون في جماعات تتكون من صعاليك قبائل مختلفة . وتكون الألفة بين صعاليك القبيلة الواحدة أشد وأقوى من الألفة التي تكون بين صعاليك القبائل المختلفة ، لما يكون

١ ابن سعد ، طبقات (٢٧٨/١) ، « ذكر بعثة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الرسل بكتبه الى الملوك يدعوهم الى الاسلام وما كتب به رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لناس من العرب وغيرهم » .

٢ الشعر والشعراء (١٧٢/١) ، (دار الثقافة) ، (عنزة) ، الاغانى (٢٤٠/٨) .

لنسب والدم من أثر في نفوسهم ، وإن كفروا بعرف القبيلة وخرجوا على طاعتها. ونجد في شعر شعرائهم إشادة بأخوة (الصنف) و (الحرفة) تحمل محل أخوة العشيرة والقبيلة ، إذا مات أحدهم أو قتل ، حزنوا عليه ، وإن مرض عالجوه ، وإن جاع قدموا له ما عندهم من طعام^١ .

وقد يستجير الخليج بمجير ، فيقبل جواره ، إلى حين أو بغير أجل محدد ، أو على شروط ، ففي حديث خروج (امرئ القيس) مطالباً بدم أبيه ، أنه لجأ إلى (عامر بن جوين) أحد الخلفاء الفتاك ، وعامر يومئذ خليج ، تبرأ قومه من جرائمه وتنصل أهله منه^٢ ، وفي حديث (البراء بن قيس) الكناني وكان خليعاً فأنكأ سكيراً ، لا يتزل بقوم ، إلا عمل منكراً فيهم - ، أنه لجأ إلى بني (الدليل) ، فشرب وجرت جريرة ، استوجبت خلعه فخلعوه ، فأتى مكة ، فنزل على حرب بن أمية ، فحالفه وأحسن جواره ، ثم شرب بمكة وأساء على عادته ، حتى همّ حرب أن يخلعه^٣ ، وفي حديث (أبي الطمحان) القيني ، وكان خليعاً فاسقاً ، منهتكاً ، لا يعرف خلقاً ولا أدباً ، أنه نزل بمكة في جوار (الزبير بن عبد المطلب) ، « وكان يتزل عليه الخلفاء »^٤ ، ونزل (مطرود ابن كعب) الخزاعي ، في جوار (عبد المطلب) ، فجاه وأحسن إليه ، وكان قد لجأ إليه لجنائيه كانت منه^٥ ، ووجد (قيس بن الحدادبة) من يؤويه ، مع أنه كان صعلوكاً خليعاً ، عجز هو وأهله عن دفع دية قتيل قتلوه ، فخلعته قبيلته خزاعة ، فنزل عند بطن من خزاعة ، يقال لهم : (عدي بن عمرو بن خالد) ، فأحسنوا إليه ، كما نزل في بحيلة على (أسد بن كرز) فأحسن إليه وإلى قومه^٦.

ولا ينسى بعض الصعاليك ذكر من أحسن إليهم فأكرمهم ورعاهم وحماهم . هذا (أبو الطمحان) القيني ، يثني على من آووه وساعدوه حتى صبروه واحداً

١ الشعراء الصعاليك (٢٠٣ وما بعدها) .

٢ الاغانى (٩٥/٩) ، الخزائن (٢٤/١) .

٣ الاغانى (٧٥/١٩) .

٤ الشعر والشعراء (٣٠٤/١) ، الاصابة (٣٨١/١) ، (رقم ٢٠١١) ، الاغانى (١٢٥/١١) .

٥ المرزبانى ، معجم (٢٨٢) .

٦ الاغانى (٢/١٣ وما بعدها) .

منهم ، لا تتحرش به كلابهم ، لأنها عرفت ثيابه ، وتأكدت انه واحد منهم ، فلا تهر عليه^١ . وهذا (حاجز) الأزدي ، يفخر بانتسابه الى (بني مخزوم) من قريش ، وهم قوم لا يخذلون أحداً اذا استنصر بهم ، وجعل حلفه فيهم ، اذا أصاب حليفهم مكروه ، هرعوا اليه لنجدته ، فهم أهل النجدة والكرم^٢ . وهذا (قيس بن الحدادية) يفي على (آل عمرو بن خالد) أحسن ثناء ، ويدعو الله أن يجزيهم خيراً لما فعلوا من حميد الفعال لصعلوك خليع^٣ .

والصعاليك كثيرون ، وقد خلدت أسماء جماعة منهم في كتب الأدب والأخبار ، أشهرهم وأبرزهم : (عروة بن الورد) ، و (الشنفرى) ، و (تأبط شرأ) ، و (السليك بن السلكة) ، وآخرون .

وللصعاليك بعد قصص في الكتب ، وقد بولغ في قصصهم لتؤثر في السامع ، ولتكون لذة للسامعين وممتع يستمتعون بها أوائل الليل في أوقات سمرهم ، وقد رصعت بشعر ، على عادة العرب في رواية الأخبار . وفي بعض هذا القصص والشعر أثر الوضع المتعمد ، الذي صنع لمثل الحالة الاجتماعية في ذلك الوقت ، حيث كان الأغنياء متخمين بالمال ، بينما جيرانهم يموتون جوعاً ، فكأن هذا القصص قد وضع ليتحدث عن ذلك الوضع . وقد عرف هذا القصص عند الغربيين كذلك ، حيث كان الغنى وكان الفقر ، فظهر الصعاليك ، وظهر قصصهم وبولغ فيه ، وما (روبن هود) الانكليزي الذي آثر التصعلك وغزو الأغنياء ، لإتفاق ما يحصل عليه على الفقراء لإعاشتهم ، إلا صورة من صور غارة (عروة بن الورد) وأمثاله من الصعاليك ، وقد دونت أخبارهم في قصص ، وصيغ بعض منها على صورة أشرطة (سينائية) عرضت ولا تزال تعرض في دور (السينما) وفي (التلفزيون) ، لما فيها من بطولة ومروءة ومساعدة ضعفاء واستهتار في الحياة .

-
- ١ وقد عرفت كلابهم ثيابي كائني منهم ونسيبت أهلي الحيوان (١ / ٣٨٠) ، الشعراء الصعاليك (٢٢٩) .
 - ٢ قومي سلامان اذا ما كنت سائلة وفي قريش كريم الحلف والنسب اني متى أدع مخزوما ترى عنقا لا يرعشون لضرب القوم من كتب الاغانى (١٢ / ٤٩) .
 - ٣ الشعراء الصعاليك (٢٢٩) .

وأما (عروة بن الورد) ، فهو من (عبس) وكان شاعراً فارساً وصلوكم مقدماً ، عرف بـ (عروة الصعاليك) ، لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يفتنمه^١ . وهو شاعر بدوي قح ، وكان أبوه ممن كان له ذكر في حرب داحس والغبراء ، وقد مدحه (عنتره) ، وكانت أمه من (نهد) ، ولم تكن من أهل البيوتات . وكان لشعره أثر في قومه : حتى كانوا يرون أنه أشعر الشعراء^٢ .

وذكر أنه إنما لقب بعروة الصعاليك لقوله :

لحي الله صلوكاً إذا جن ليله مضافي المشاش آلفاً كل مجزر
يعد الغنى من دهره كل ليلة أصاب قراها من صديق ميسر
ينام عشاءً ثم يصبح قاعداً يحث الحصى عن جنبه المتعفر
ولله صلوك صفيحة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور
مطلّ على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنيح المشهر^٣

ويظهر من شعر لعروة ، انه كان نحيلاً ، شاحب الوجه هزيلًا ، فكانوا يعيرونه بذلك ، وكان يجيبهم بقوله :

لاني امرؤ عافى اناثي شركة وأنت امرؤ عافى إناثك واحد
أتهزأ مني ان سمئت وان ترى بجسمي شحوب الحق ، والحق جاهد
أفرق جسمي في جسام كثيرة وأحسوا قراح الماء ، والماء بارد^٤

فهو نحيف نحيل شاحب الوجه ، لأنه يشرك الآخرين معه في أكله وشربه ،

١ تابع العروس (١٥٣/٧) ، (صعلك) .

٢ الاغاني (١٨٤/٢ وما بعدها) دار الكتب ، الخزائن (١٩٤/٤) بروكلمن ، (١٠٩/١ وما بعدها) .

٣ الشعر والشعراء (٥٦٦/٢) ، (الثقافة) ، من تصيصة مطعها :

أقل علي اللوم يا بنت منفر ونامي ، وان لم تشتهي النوم ، فاسهري
ديوان عروة بن الورد (٦٦ وما بعدها) ، (اخراج عبد المعين الملوحي) ، (وزارة الثقافة والارشاد - الجمهورية العربية السورية) ، الاغاني (٩٧/١٦ وما بعدها) .

٤ ديوان عروة (٢) ، الاغاني (٧٢/٣ وما بعدها) ، الجمان في تشبيهات القران (٢٥٧) .

أما الهازيء به ، فهو أناثي ، لا يشرك أحداً معه في أكله ، وإناثه واحد ، لا يأكل به أحد غيره ، ولذلك ممن وثخن من التخمّة ، أما هو ، وهو الوهاب فكان يقتّر على نفسه ، ويجوع ، ليأكل غيره أكله ، فأصابه من ثم هذا المزال. فهو إنسان ، يقسم ما عنده وما يأتيه على نفسه وعلى غيره ، وقد يقدم غيره على نفسه . ومن هنا « كان يقال : من قال إن حائماً أسمح العرب ، فقد ظلم عروة ابن الورد »^١ .

ويذكرون أنه أصاب في بعض غاراته امرأة من كنانة ، فاتخذها لنفسه، فأولدها، فلقبه قومها ، وقالوا : فادنا بصاحبتنا ، فلما نكّره أن تكون سبية عندك . قال : على شريطة ، قالوا : وما هي ؟ قال : على أن نخيرها بعد الغداء ، فإن اختارت أهلها أقامت فيهم ، وإن اختارتني خرجت بها . وكان يرى أنها لا تختار عليه ، فأجابوه الى ذلك ، وفادوا بها ، فلما خيروها اختارت قومها ، وتركته فنظم في ذلك شعراً^٢ .

وذكر أن (معاوية) تذكر (عروة بن الورد) ، فقال : « لو كان لعروة ابن الورد ولدٌ لأحببت أن أتزوج منهم » . وان (عبد الملك بن مروان) تذكره يوماً ، فقال : « ما يسرّني أن أحداً من العرب ممن ولدني لم يلدني إلا عروة بن الوردٍ لقوله :

واني امرؤ ، عافى إنائي شركةً وأنت امرؤٌ عافى إنائك واحدٌ^٣

وهو بيت يمثل خلق هذا الشاعر ومروّثه التي أبت عليه إلا أن يشرك غيره من الضعفاء والمحتاجين فيما يحصل عليه ويناله من المتمكنين بالإكراه والقوة . إنناؤه مليء لبناً ، حتى يفيض ويكثر ، فإن طرقه إنسان وجد اللبن أمامه ، يشرب منه وهو شريكه فيه ، شريكه في كل شيء عنده قلّ أو كثر ، وهو يفخر بذلك ويتبجح بإشراكه غيره إنناؤه على من حرص على ماله ، وبخل بما عنده ، مثل (قيس بن زهير) ، الذي استأثر بما عنده ، فلم يعطِ لمحتاج شيئاً منه . فصار

١ الروض الانف (١٨٠/٢) .

٢ الشعر والشعراء (٥٦٧/٢) .

٣ ديوان عروة (٢) ، الاغانى (٧٢/٣) وما بعدها) .

يسمن وغيره يجوع ، على حين كان (عروة) يختار الجوع ، ليأكل الجوع ،
لتغود اليهم القوة والحياة ، ولا يبالي هو بنفسه إن جاع ، وفي ذلك يقول :

لاني امرؤ عافى لئائي شركة^١ وأنت امرؤ عافى لئالك واحد
أنهزأ مني إن سمئت وأن ترى بوجهي شحوب الحق ، والحق جاهد
أقسم جسمي في جسام كثيرة وأحسو قراح الماء ، والماء بارد

وكان قد قال هذه الأبيات ردأ على أبيات (قيس بن زهير) التي خاطب
بها (عروة) بقوله :

أذنبت علينا شتم عروة خاله بغرة أحساء ويوماً يبديد
رأيتك ألقاً بيوت معاشر تزال يد في فضل قعب ومرفدا^٢

وللأنخض حديث عن مروءة (عروة) وعن انسانيته فيقول : « عن ثعلب
عن ابن الأعرابي ، قال : حدثني أبو فقعس ، قال : كان عروة إذا أصابت
الناس سنة شديدة تركوا في دارهم المريض والكبير والضعيف ؛ وكان عروة
يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس ، من عشيرته في الشدة ، ثم يحفر لهم الأمراب ،
ويكثف عليهم الكنف ، ويكسبهم ، ومن قوي منهم ، إما مريض يبرأ من
مرضه ، أو ضعيف تثوب قوته ، خرج به معه فأغار ، وجعل لأصحابه الباقيين
في ذلك نصيباً ، حتى إذا أخصب الناس وألبنوا ، وذهبت السنة ، ألحق كل
انسان بأهله ، وقسم له نصيبه من غنيمة إن كانوا غنموها ، وربما أتى الانسان
منهم أهله وقد استغنى ، فلذلك سمي : عروة الصعاليك »^٣ .

ومن هنا عدّ من أصحاب الكرم والسماحة والسخاء . حتى قيل إن عبد الملك
قال : « من زعم أن حاتمًا أصبح الناس ، فقد ظلم عروة بن الورد »^٤ . وقيل
إنه بلغه عن رجل من بني (كنانة بن خزيمة) ، أنه من أبخل الناس وأكثرهم
مالاً ، فبعث عليه عيوناً ، فأتوه بنجره فشدّ على إبله فاستاقها ثم قسمها في

١ ديوان عروة (٥١ وما بعدها) .

٢ ديوانه (٨ وما بعدها) ، الاغانى (٧٨/٣ وما بعدها) ، التبريزي ، شرح حماسة
أبي تمام (٩/٢) ، جهمرة أشعار العرب (١١٤ وما بعدها) .

٣ ديوان عروة (٣) ، الاغانى (٧٤/٣) .

قومه . فقال عند ذلك :

ما بالراء يسود كل مسودٍ مثرٍ ، ولكن بالفعال يسودُ
بل لا أكأثر صاحبي في يسره وأصده إذ في عيشه تصريد
فإذا غنيتُ ، فإن جاري نيله من نائلي ، وميسري معهود
وإذا افتقرت ، فلن أرى متخشعاً لأخي غني ، معروفه مكلدوداً

فالسيد بفعاله ، وأعماله لا بالمال . وهو يقول في شعره ، ان فراشه فراش
الضيف ، وأن بيته بيت للضيوف ، يجالس الضيف ويحادثه ، فالحديث جزء من
القرى :

فراشي فراش الضيف والبيت بيته ولم يلهمني عنه غزال مقنع
أحدثه ، إن الحديث من القرى وتعلم نفسي أنه سوف يهجع

وفي خبر آخر ، ان سنين شديدة أصابت الناس ، فأهلكتهم ، وترك الناس
الغزو لجدوبة الأرض ، وكان عروة في تلك السنين غائباً ، فرجع غفقى ، قد
ذهبت إبله ونخيله ، وجاء (الكنيف) ، أي الحظيرة والمأوى ، فوجد أصحابه
وقد سقطوا من الإعياء والشدة ، فندب منهم رهطاً ، فنحر لهم بعيراً ، وحلوا
سلاحهم على بعير آخر ، وقدد لهم بعيراً ، فوزعه بينهم . وخرج بهم غازياً
يلتمس الرزق . وهو يقول لهم : ان أصبنا رغبة فلنلك الذي نريد ، وإن رجعنا
خائبين ، كنا معانورين . قد أدينا ما علينا ، ولن نقعد عن الطلب . فهو يحنهم
على الرزق والطلب ، دون تفكير في نجاح أو فشل ، فالحياة : نجاح وفشل ،
ومن فشل ، عليه المواظبة حتى ينجح ويستعيد قواه ، وذلك قوله :

قلت لقوم في الكنيف : تروحوا عشية بتنا عند ما وان رزح^١

الى آخر الأبيات .

وهو يصف في أبيات حالة الفقير وما يلقي من ظلم ، وحالة الغني وما يلقاه

١ ديوان عروة (٤٨) ، شرح ديوان عروة (١٨١) .

٢ ديوانه (٢٠ ، ٣٩ وما بعدها) .

من إجلال . فيقول :

دعيني للغنى أسمى فلاني رأيت الناس شرهم الفقير
وأبعدهم وأهونهم عليهم وإن أسمى له حسب وخير
ويقصيه الندي وتزدريه حليته وينهره الصغير
ويلقى ذو الغنى وله جلال يكاد فؤاد صاحبه يطير^١

وله شعر بحث فيه الناس على السير في البلاد ، الهامساً للرزق ، لأن من لم يطلب
معاشاً لنفسه ، وقعد في داره دون أن يعمل شكا الفقر ، وصار كلاً على غيره ،
حتى على ذوي قرباه ، فيقول :

إذا المرء لم يطلب معاشاً لنفسه شكا الفقر ، أو لام الصديق فأكثر
وصار على الأدين كلاً ، وأوشكت صلوات القريبى له أن تنكراً
وما طالب الحاجات ، من كل جهة من الناس إلا من أجدّ وشمراً
فسر في بلاد الله ، والتمس الغنى تعش ذايسار أو تموت فتعذرا^٢

ومن شعره في المال والورثة قوله :

متى ما يجيء يوماً الى المال وارثي يجد جمع كف غير مألئ ولا صفر
يجد فرساً مثل القناة وصارماً حساماً إذا ما هز لم يرض بالهبر^٣

ويقول في شعر آخر :

أليس وراثي ان أدب على العصا فإمن أعدائي ويسأمني أهلي
رهينة قعر البيت كل عشيّة يطيف بي الولدان أهوج كالرأل

يعني : أليس وراثي إن سألت الناس ، وتركت غاطر التصعلك ، أن يلحقني
الكبر فأهون ويضجر مني أهلي^٤ . فهو يعتذر بذلك عن التصعلك واتخاذ الصعلكة
حرفة له .

- ١ ديوانه (٩١ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٢٣٤/١) ، وقد روي برواية تختلف
عن رواية الديوان .
- ٢ ديوانه (٨٩) .
- ٣ كتاب العصا (٢٠٦) ، (نودار المخطوطات ، المجموعة الثانية) .
- ٤ الحيوان (٣٥٦/٤) .

وقد زعم ان (عبدالله بن جعفر بن أبي طالب) ، « قال لمسلم ولده :
لا تُروّهم قصيدة عروة التي يقول فيها :

دعني للفنى أسعى فلاني رأيت الناس شرهمُ الفقير

ويقول : هذا يدعوهم الى الاغتراب عن أوطانهم « ١ .

وهو يرى ان الموت خير للفنى من حياته فقيراً . وان الأقارب اذا ضنوا عليه
ولم يساعدوه ، فعليه بالرحيل عنهم ، والتماس الفجاج ، فإنها عريضة ، اذا ضاقت
عليه السبل . وهو لا يترك اخوانه أبداً ما عاش ، كما ان الانسان لا يتمكن من
ترك شرب الماء :

إذا المرء لم يبعث سواماً ولم يرح عليه ، ولم تعطف عليه أقاربه
فلموت خير للفنى من حياته فقيراً ، ومن مولى تدب عقاربه
وسائلة : أين الرحيل ؟ وسائل ومن يسأل الصلوك : أين مذهب
مذهبه أن الفجاج عريضة إذا ضنّ عنه ، بالفعال ، أقاربه
فلا أترك الإخوان ما عشتُ للردى كما أنه لا يترك الماء شاربهُ ٢

وهو يبحث على المخاطرة بالنفس ، فإن القعود مع العيال قبيح ، حثّ عليها
في أبيات نسبت اليه ، وقيل انها ليست له ، بل هي للنمر بن تولب ، هذا نصها :

قالت تماضر ، إذ رأت مالي خوى وجفا الأقارب ، فالفؤادُ قريب
مالي رأيتك في الندي منكساً وصبا ، كأنك في الندي نطيج
خاطر بنفسك كي تصيب غنيمة ان القعود مع العيال قبيح
المال فيه مهابة ونجاسة والفقير فيه مذلة وفضوح ٣

والصلوك الحامل ، القعود الذي يعين نساء الحي ، ولا يستعمل سيفه للحصول
على رزقه ، هو خليق أن يكون ممن يهان ويزهدى ، والصلوك العامل النشط ،

١ ديوانه (٣) .

٢ ديوانه (٢٩) .

٣ ديوانه (٤٣) .

هو الرجل الذي يستحق الحياة ، ويصلح أن يكون انموذجاً للرجال ، صحيفة وجهه كضوء شهاب القابض المتنور ، مطلقاً على أعدائه ، يهابونه ولا يستطيعون الاقتراب منه ، ان لقي منيته لقيها حميداً ، وان عاش واستغنى فتعمة كبرى ، ينشق منها على من يحتاج اليه من الناس^١ .

وتراه يقول في أبيات أخرى :

إذا آذاك مالك ، فامتنته لجاديه ، وإن قرع المراح^٢
وإن أخنى عليك ، فلم تجده فنبت الأرض والماء القراح^٣
فرغم العيش لاف فناء قوم وإن آسوك ، والموت الرواح^٤

ومعناها : لا تبخل بمالك ، ولا تحرص عليه ، أعط منه السائل والمحروم والمحتاج ، ولا تحش الفقر ، فإن أخنى عليك ، وقل مالك ، وتركك الأصحاب فلا تيأس ولا تمنع لأحد ، ولا تجزع ، ففي الأرض رزق لكل أحد ، ومتسع لكل نفس ، وإن كان ذلك نبات الأرض وماؤها ، ولا تن تقسك ، وتذل كرامتك ، فتعيش على موائد غيرك ، من اللؤماء الحقراء ، فأكلك منهم ، هو الموت الرواح ، بل هو شر من الموت . فلا تقرب موائد أصحاب المنة ، وإن آسوك وساعدوك ، فؤاساتهم كاذبة ، عن مظاهر ونفاق .

وفي أبيات شعر ، يذكر (عروة) (أصحاب الكنيف) والتواءهم عليه ، وكيف تمردوا عليه ، مع فضله عليهم ، وإشراكه لهم في كل ما كان يكسبه ويغنمه ، فيقول :

ألا إن أصحاب الكنيف وجدتهم كما الناس لما أخصبوا وتمولوا
ولاني لمدفوع^٥ إلي ولاؤهم بماوان إذ نمشي ، وإذ نتمل
وإذ ما يريح الحي^٦ هرماء جوة^٧ ينوس عليها رحلها ما يحلل
موقعة الصفيق^٨ ، حذاء ، شارف تقيد أحياناً ، لديهم وترحل
عليها من الولدان ما قد رأيت^٩ وتمشي بجنيها أرامل عيل

١ ديوان عروة (٧٨ وما بعدها) .

٢ ديوانه (٤٢) .

وقلت لها يا أم بيضاء ، فنية طعامهم ، من القلور ، المعحر
مضيق من النيب الممان ، ومُسَخَّن من الماء نعلوه بآخر من عل
بدعومة ما إن تكاد ترى بها من الظأ ، الكوم الجلاذ تنول
تنكر آيات البلاد لمالك وأيقن أن لا شيء فيها يُقول^١

وهي آيات ، تعبر عن مرارة نفسه ، وعن ألمه مما لاقاه من أصحاب الكنيف ،
مع افضاله عليهم ، وتقديمه لهم على نفسه ، وهو يواسي نفسه فيها ، فيقول أنهم
ناس ، ومن شأن الناس أنهم اذا اخصبوا وتمولوا وتحسنت أحوالهم ، تنكروا لمن
كان صاحب الفضل عليهم ، وتجاهلوا كل ما قام به من صنع حسن نحوهم .
أخرجتهم وأجسامهم هزال من شدة الجهد ، لا يقدرّون على المشي من شدة
الضعف والجوع ، وقت بأمرهم ، حتى اذا قوا ، ودنوا من بلادهم وعشائرتهم ،
وأقبلت أقسم فيهم ما غنمته من إبل ، فأعطيتهم بالتساوي ، وأخذت لنفسها
نصيب أحدهم ، تنكروا لي وصاروا كالأباعد ، ليس لهم شكر ، خاصموه وعارضوه .
وكان من شأنهم : انه خرج مع صعايلكة يبحثون عن غنائم ، حتى نزل أرض
(بني القين) ، فأقام مع أصحابه يوماً عند موضع ماء ، بانتظار مجيء الرعاة
لاسقاء إبلهم ، ثم ورد عليهم فصيل ، فقالوا : دعنا فلنأخذله ، فلناكل منه يوماً
أو يومين ، فقال : إنكم إذن تنفرون أهله ، وان بعده إبلًا . فتركوه ثم قدموا
على تركه ، وجعلوا يلومون عروة على الجوع الذي جهدهم . ثم وردت لإبل
بعده بخمس ، فيها ظعينة ورجل ، والإبل مائة ، فخرج (عروة) ورمى صاحبها
في ظهره بسهم ، فخرّ ميتاً ، واستاق عروة الإبل والظعينة^٢ . وأتى بالإبل
الكنيف فجعل يحلبها لهم ، ثم حملهم حتى اذا دنوا من بلادهم وعشائرتهم ، أقبل
يقسمها فيهم ، وأخذ مثل نصيب أحدهم ، واستخلص المرأة لنفسه ، فقالوا :
لا والله لا نرضى حتى تجعل المرأة نصيباً فمن شاء أخذها من سهمه ، فجعل
عروة يهيم أن يحمل عليهم فيقتلهم ويتزع ما معهم ، ثم يتذكر صنيعة بهم ،
وأنه إن فعل ذلك أفسد ما كان صنع ، ففكر طويلاً ثم أجابهم الى أن يردّ
عليهم الإبل إلا راحلة يحمل عليها امرأته ، فأبوا إلا أن يجعلوا الراحلة لهم ،

١ ديوانه (١١٩ وما بعدها) .
٢ ديوانه (١١٣ وما بعدها) .

فانتدب رجل منهم فجعل الراحلة من نصيبه وأقربها عروة ، أي منحها إياه منيحة
إذا استغنى عنها ردّها ؛ فقال عروة يذكر أصحاب الكنيف والتواءهم عليه تلك
الآيات المتقدمة^١ .

فهو في الآيات المتقدمة يذكر أن الإنسان ذليل كبير ما دام فقيراً ، يتقرب
إلى القوي ويتبصص له ، ويتظاهر بحبه وإخلاصه له ، فإذا نال حاجته ، أو
اغتنى تبطر على من كان محتاجاً إليه ، وتعاظم عليه ، ونال منه .

وقد عرف (عروة) بـ (أبي الصعاليك) ، قيل إن الناس كانوا إذا
أصابتهم السنة أتوه « فجلسوا أمام بيته حتى إذا بصروا به صرخوا وقالوا :
يا أبا الصعاليك ، أغثنا » . فيخرج ليغزو بهم^٢ . وقد كان يعدّ صعاليكه
(عباله)^٣ ، وكان يرعاهم ويحذب عليهم حذب الوالد على عياله ، ويخرج بالقوي
منهم للغزو ، بحثاً عن غنيمة ينالها لإشباع أتباعه الجياع الصعاليك ، بمال غني جمع
غناه بالعقوق وبالبلخل ، لأنه لا يرضى أن يرى اخواناً له يهلكون من الجوع ،
ثم لا يجد ما يقدمه لهم لسد رمقهم^٤ ، وهو يطوف لذلك في البلاد باحثاً عن
غنى ينفق منه على المعوزين وفوي الحاجات . وشر الناس في هذه الدنيا الفقير ،
يباعده القريب لفقره ، وتردريه حليته ، ولا يحترمه أحد ؛ بينما يعظم الغني
ويحترم ، لا لسبب إلا لماله ولغناه ، ذنبه قليل في نظر الناس ، لأنه غني ، وللغني
رب غفور :

ذريني للغني أسعى ، فلاني رأيت الناس شرهم الفقير^٥
وأدناهم ، وأهونهم عليهم وإن أمسى له حسب وخير
يباعده القريب ، وتردريه حليته ، ويقهره الصغير
ويلقى ذو الغنى ، وله جلال يكاد فؤاد لاقيه يطير
قليل ذنبه ، والذنب جم ولكن للغني رب غفور^٦

١ ديوانه (١١٨) ، الاغاني (٧٩/٣) وما بعدها .

٢ الاغاني (٨١/٣) .

٣ ديوان عروة (٩٩) ، حماسة أبي تمام (٧/٢) ، الشعراء الصعاليك (٣٢٢) .

٤ أيهلك معتم وزيد ولم أقم على ندب يوما ولي نفس مخطر

ديوان عروة (٨٣) ، الشعراء الصعاليك (٣٢٥) .

٥ العقد الفريد (٢٩/٣) ، عيون الاخبار (٢٤١/١) وما بعدها ، البخلاء (١٨٣) ،
٣٩١) ، البيان والتبيين (٢٣٤/١) ، وتختلفه نصوص هذه القصيدة باختلاف

الموارد .

وفي قصيدته :

لما الله صعلوكاً اذا جن ليله مصافي المشاش ألفاً كل مجزر
بعد الغنى من دهره كل ليلة أصاب قراها من صديق ميسر
ينام عشاءً ثم يصبح طاوياً يحب الحصى عن جنبه المتفر
قليل التماس الزاد إلا لنفسه اذا هو أمسى كالعريش المجور
يُعينُ نساء الحبي ما يستعينه فيمسي طليحاً كالبعير المحسر
ولكن صعلوكاً صحيفة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور
مُطلاً على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر النيج المشهر
فإن بعلوا لا يأمنون اقترابه تشوّف أهل الغائب المنتظر
فلك إن يلق المنيّة يلقها جيداً وان يستغن يوماً فأجلر

«عان سامية ، تعبر عن نفسية انسانية ، وعن عطف على الفقير والمحتاج والنساء
« وصف فيها فضيلة الفقير الحر الباسل وذم الذي يستأجر شغله » ٢ .

وفي شعر (عروة) اشارة الى الموت ، فهو يرى ان الحياة أجل ، وان الانسان
غير خالّد في هذه الدنيا ، حياته قصيرة ، ثم يكون أحاديث للناس . اذا جاء
أجله خرجت منه هامة تلو كل نشر :

أحاديث بقي، والفقى غيرُ خالد اذا هو أمسى هامة فوق صيّر
تجاوب أحجار الكناس ، وتشتكي الى كل معروف رآته ، ومنكر

ثم تجاوب هله الهامة أحجار الكناس، وتشتكي الى كل معروف تراه ومنكر .
أي تصوت في كل حال اذا رأت من تعرف ومن تنكر ٣ .

والموت ملازم للانسان ، وهو ثغر كل ثنية ، ولا مفر منه :

وأن المنايا ثغر كل ثنية فهل ذاك، عما يبتغي القوم محصر
وغبراء مخشى رداها مخوفة أخوها ، بأسباب المنايا مفر

-
- ١ الخزانة (٤/١٩٦) ، (يولاق) .
 - ٢ كارلو نالينو (٧٩) .
 - ٣ ديوانه (٦٦ وما بعدها) .
 - ٤ ديوانه (٧٧) .

وقد نسبت له قصيده مطلعها :

لما الله صعلوكاً مناه وهمه من الدهر أن يلقى لبوساً ومطعماً
ينام الضحى حتى إذا الليل جنة تبيت مسلوب القنود مورماً
ولكن صعلوكاً يساور همته ويمضي على الهيجاء ليثاً مصماً
فلنك أن يلقى الكربة يلقها حميداً وان يستغن يوماً فربماً

وقد ذهب بعضهم الى أن هذه القصيدة لحاتم الطائي ، لأن قصيدة عروة رائية ، وليست هذه ، ولحاتم قصيدة على هذا الروي ، وليس فيها هذه الأبيات ، وفيها ما يشبهها ، وهو :

وليل بهم قد تسربت هوله إذا الليل بالنكس الضعيف نجها
ولن يكسب الصعلوك مالا ولا غنى إذا هو لم يركب من الأمر معظماً
يرى الخمص تعذيباً وان يلق شبة بيت قلبه من قلة الهم مبها
ولكن صعلوكاً يساور همهم ويمضي على الأيام والدهر مقملاً
يرى ربحه ونبله ومجنه وذا شطب بين المهلة مخملاً
واحناء سرج قاتر وجمامه معداً لدى الهيجاء طرفاً مسوماً
فلنك ان يهلك فحسنى ثناؤه وان يحيى لا يقعد ضعيفاً ملوماً

وفي كتاب (ذيل الأمالي والنوادر) للقالبي ، أبيات على هذا النمط غير معزوة لقائلها ، أوردتها على أثر تحدته عن (الشيطم بن الحارث الغساني) ، وكان قد قتل رجلاً من قومه ، فخافهم ، فلاحق بالحيرة متنكراً ، وكان من أهل بيت الملك ، فكان يتكفف الناس نهاره ويأوي الى خربة من خراب الحيرة ، فبينما هو ذات يوم في تطوافه إذ سمع قائلاً يقول :

لما الله صعلوكاً اذا نال مدقة توسد إحدى ساعديه فهو ما
مقيماً بدار الهون غير مُناكرٍ اذا ضم أغصى جفنه ثم برشما
يلوذ بأذراء المثاريب طامعاً يرى المنع والتعيس من حيث يما
يضم بنفسه كدر البؤس عيشها وجود بها لو صانها كان أحزماً

فذلك الذي إن عاش عاش بذلة وإن مات لم يشهد له الناس مأتماً
بأرضك فاعرك جلد جنبك اني رأيت غريب القوم لحماً موضعاً
فهي آيات في المعاني المتقدمة ، لم يعرف اسم صاحبها^١ .

وهو يزجر امرأته سلمى لأنها تلومه على غاراته وغزواته ، لما تخشاه عليه من
الوقوع في المهالك ، ومن ملاقاته حشفه . ويقول لها : إنه إنما يجازف ويخطأ
في سبيلها ، حتى يغنيها فلا تلذ بعده أو تستجلي أحداً ، ثم إن عليه حق الوفاء
لأقاربه وللضعفاء ولإخوانه الصعاليك الذين يلوذون به ، فعليه مساعدتهم ، وهو
لا يتمكن من تقديم المساعدات لهم ، إلا بهذه الغارات^٢ .

وروي أن (عروة) كان يتردد على (بني النضير) فيستقرضهم إذا احتاج
ويبيع منهم إذا غم ، فأروا عنده (سلمى) فأعجبتهن ، فسألوه أن يبيعهن
فأبى ، فسقوه الخمر واحتالوا عليه حتى ابتاعوها منه وأشهدوا عليه ، وفي ذلك
يقول :

سقوني الخمر ثم تكنفوني عداة الله من كذب وزور

وروي أيضاً أن قومها افتدوها منه وكان يظن أنها لا تختار عليه أحداً ولا
تفارقه ، فاختارت قومها فندم وكان له بنون منها ، ثم تزوجها بعده رجل من
في النضير . وفيها يقول عروة :

أرقت وصحيتي بمضيق عمق لبرق في تهامة مستطير

وهي قصيدة أشار فيها الى (سلمى) ، ومفارقتها له ، عند (بني النضير) ،
حيث يقول :

وآخر معهد من أم وهب معرسنا فوق بني النضير

وفي هذه القصيدة البيت المتقدم ، الذي يشير الى أنهم سقوه الخمر ، واحتالوا
عليه ، حتى ابتاعوها منه^٣ .

١ ذيل الامالي (١٧٩) ، الخزائن (١٩٥ / ٤) .
٢ الاصمعيات (٣٥) .
٣ الروض الانف (١٨٠ / ٢) وما بعدها .

وقد أشار (عروة) في شعر ينسب إليه الى (التعشير) ، وهو أن ينهق
الانسان عشر مرات اذا أراد دخول (خير) لكي لا تصيبه الحمى . فقال :

وقالوا: أحبُ وانقُ، لا تضيرك خير وذلك من دين اليهود وُلوع
لعمرى، لئن عشت، من خشية الردى نهاقَ الحمير اني لجزوع^١

وقد رفض عروة ذلك ، وسخر من هذه الخرافة .

قال (الجاحظ) : « وكانوا اذا دخل أحدهم قرية خاف من جنّ أهلها،
ومن وباء الحاضرة ، أشد الخوف ، إلا أن يقف على باب القرية فيعشر كما يعشر
الحمار في نهيقه ، ويطلق عليه كعب أرنب . ولذلك قال قائلهم :

ولا ينفع التعشير في جنب جرمة ولا دعدع يغني ولا كعب أرنب ،

« وقد قال عروة بن الورد ، في التعشير ، حين دخل المدينة فقيل له : إن
لم تعشر هلكت :

لعمرى لئن عشتُ من خيفة الردى نهاقُ الحمير اني لجزوع^٢ ،

ولعروة شعر في يوم (ساحوق) ، وهو يوم لبني ذبيان على (بني عامر) ،
إذ يقول :

ونحن صبحنا عامراً في ديارها عُلالة أرماح وعضباً مُدكراً
بكل رقيق الشفرتين مهند ولَدْنِ من الحطبي قد طُرَّ أسمر
عجبت لهم إذ يَخْنَقون نفوسهم ومقتلهم عند الوغى كان أغلرا
يشدّ الحليمُ منهم عقْدَ حبله ألا إنما يأتي الذي كان حُدْراً

أي انهم كانوا ذوي غدر بين ، لو أنهم جاهدوا في الحرب وقتلوا ، أما الآن
فلا غدر لهم بين الرجال في خنقهم أنفسهم . وكان (الحكم بن الطفيل) وأصحابه
قد خنقوا أنفسهم ، بشد الحبل حول العنق^٣ ، وذلك تحت شجرة بالمرورة ،

١ ديوانه (٩٥) ، الحيوان (٣٥٩/٦) .

٢ الحيوان (٣٥٩/٦) .

٣ الحيوان (٢٧٣/٢) ، الخزانة (٢١٨/٤) ، العقد الفريد (٣١٨/٢) .

خشبة الوقوع في الأسر . و (الحكم بن الطفيل) هو آخر (عامر بن الطفيل) ،
وقد عرف يوم (المروارة) بيوم (التخائق) ^١ .

وقد عدت قصيدته التي تبدأ ب :

أقل عليّ اللوم يا ابنة منذر ونامي فإن لم تشتهي النوم فاسهري

من القصائد (المنتقيات) ^٢ .

وأما شعر (عروة) ، فقد عد أشعر شعر (بني عبس) في رأي أبناء قبيلته.
روي ان (عمر بن الخطاب) « قال للحطيثة : كم كنتم في حربكم ؟ قال :
كنا ألف حازم . قال : وكيف ؟ قال : فينا قيس بن زهير ، وكان حازماً
وكنا لا نعصيه ، وكنا نعلم باقدام عنترة ، ونأتم بشعر عروة بن الورد ، وننقاد
لأمر الربيع بن زياد » ^٣ .

ويرى (بروكلمن) ، انه كان بدوياً قحاً ، رويت له أشعار أكثر مما روي
لتأبط شراً والشنفرى ، لكنه كان دونهما في تصوير حياة الجاهلية ^٤ .

ولعروة ديوان برواية (ابن السكيت) (٢٤٣هـ) (٢٤٤هـ) ، طبع جملة طبعات.
وقد ترجم الى الألمانية والفرنسية ، وقد جمع (الأصمعي) شعره في ديوان
لم يصل الينا ^٥ .

وفي شعر عروة شعر مصنوع ، وضع عليه ، وفيه كما رأينا ما ليس له، وقد
نسبه بعض العلماء الى غيره ، ونجد في شعره شعراً يمثل طبيعة مجتمع حضري
غلبت عليه التفرقة الطبقية ، فيه غنى حضر ، وفقر أهل مدن ، يظهر أنه وضع
على لسانه حكاية عن وضع الناس في ذلك الوقت ، خشية ناظمه من تعرض الحكام

١ الخزانة (٢١٦/٤ وما بعدها) .

٢ الاغانى (١٩٠/٢) ، الشعر والشعراء (٤٢٥) ، الجهرة . (١١٤) ، زيدان ،

تاريخ الادب العربي (١٦٤/١) .

٣ ديوان عروة (٣) .

٤ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٠٩/١) .

٥ راجع التفاصيل في بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٠٩/١) ، زيدان ، تاريخ
آداب اللغة العربية (١٦٤/١) .

٦ الشعراء الصعاليك (١٥٨) .

أو الأغنياء له بسوء ، فيما لو نشره باسمه ، فآثر نظمه باسم (عروة) .
و (الشنفرى) ، وهو (ثابت بن أوس) الأزدي ، وقيل بل (الشنفرى)
اسمه لا لقبه ، وقيل : بل هو : (عمرو بن مالك) الأزدي ، وقيل (عمرو
ابن براق) ، وقيل غير ذلك ، من (بني الأواس بن الحجر بن الهنيء بن
الأزد)^١ ، من اليانية في عرف أهل النسب . وهو من الصعاليك ومن العدائين .
وكان من المرافقين للشاعر (تأبط شراً) في كثير من غزواته . وكان أكبر منه
سناً ، وتوفي قبله . وذكر أنه حلف يميناً أن يقتل من (بني سلامان) مائة رجل
فقتل تسعة وتسعين ، فأسلك به رجل عداء ، هو (أسيد بن جابر) وهو عداء
من العدائين وقتله . فرت به رجل من بني سلامان فركل جمجمته ، فدخلت
شظية منها في رجله فات . فوفى الشنفرى بقسمه ، وأتم العدد وهو ميت^٢ :
ويلاحظ أن أهل الأخبار يزعمون أن (عمرو بن هند) كان قد حلف يميناً أن
يقتل من (بني دارم) مائة رجل ، وأن يلقي بهم في النار ، فسار اليهم فقتل
تسعة وتسعين وأحرقهم بالنار ، وبقي عليه أن يبر بقسمه بقتل واحد آخر منهم
حتى يكمل العدد ، فر رجل من البراجم شم رائحة حريق القتلى ، فحسبه قتار
الشواء ، فال إليه ، فلما رآه (عمرو) ، قال له : ممن أنت ؟ قال : رجل من
البراجم ، فقال : ان الشقي وافد البراجم ، وأمر فقتل وألقي في النار . فبرت
به يمينه^٣ . وقد يكون للقصتين ولقصص آخر من هذا النوع علاقة بطقوس أو
بأساطير جاهلية قديمة ، تجعل الأبطال ، ينثرون نلوراً مختلف عن نلور سائر
الناس ، هي قتل مائة نفس قربى إلى الآلهة ، بدلاً من تقديم الضحايا من
الحيوانات .

وكان (الشنفرى) يحقد على (بني سلامان) حقداً شديداً ، وسبب حقه
عليهم ، انه كان قد وقع أسيراً وهو صبي في (بني شباة بن فهم) ، فانتمى

-
- ١ الخزائن (١٦/٢ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٢٢٤/٣) ، المفضليات (١٠٦/١)
وما بعدها) ، مجالس ثعلب (٤٢٦) ، الحيوان (١٠٨/٣) ، (٢٤٤/٦) ، أمالي
القالبي (١٥٧/١) ، رسالة الغفران (٣٥١ وما بعدها) .
 - ٢ الشعر والشعراء (٢٥/١ وما بعدها) ، تاج السروس (٣٠٨/٣ ، ٣١٨) ،
(شفر) ، (الشنيفة) ، الاغانى (٨٧/٢١) ، الخزائن (١٤/٢) ، بولاق ،
ذيل الامالي (٢٠٨ وما بعدها) ، زيدان ، تاريخ آداب (١٦١/١) .
 - ٣ الجزء الثالث من هذا الكتاب (ص ٢٥١) .

اليهم ، ثم وقع أحد (بني شبابة) أسيراً في (بني سلامان بن مفرج) من الأزد ، ففدى (بنو شبابة) الأسير به . فصار (الشنفرى) فيهم ، وحسب منهم ، ثم انه أراد الزواج من ابنة رجل منهم ، فردده والدها رداً عنيفاً ، أثر فيه ، فعاد الى (بني فهم) ، وأخذ يغير على (بني سلامان) للإهانة التي لحقت من الرجل ، والتي كانت سبب صمكته^١ .

ويروى ان الشنفرى أغار مع (تأبط شرأ) و (عمرو بن براق) على (بجيلة) ، فوجدوا بجيلة قد أقعدوا لهم على الماء رصداً ، وقد علم (تأبط شرأ) انهم يريدونه ، فتأمر مع الشنفرى وعمرو بن براق ، على انقاذه إن وقع في أيديهم ، فلما جاء الماء قبضوا عليه ، فعمد الشنفرى وابن براق الى حيلة كانوا قد اتفقوا عليها لغش بجيلة ، فأتقنوه ، وهربوا ساخرين من بجيلة التي خدعت بها^٢ . وللعرب قصص ترويه عن بساطة (بجيلة) ، وسرعة انخداعها بالحيل .

وهو كما سبق أن ذكرت ، أحد أغربة العرب ، ويظهر ان الملامح الافريقية كانت بارزة عليه ، بدليل تلقيبه بالشنفرى ، و (الشنفرى) الغليظ الشفاه ، ويظهر انه أخذ ملامحه من أمه السوداء . وأخباره متناقضة متضاربة ، يظهر منها ان أباه قد قتله قاتل من (الأزد) ، قتله (حرام بن جابر) ، وكان قد قدم (منى) فقيل له : هذا قاتل أبيك ، فشد عليه فقتله^٣ . فحقد على قتلة أبيه ، وقرر الانتقام منهم شر انتقام ، وأن لا يكف عنهم ما دام حياً ، فكان يكثر من الغارة عليهم ، يغير مع من معه من صعاليك ، وقد يغير عليهم وحده^٤ .

ويروى في قتله ، انه قتل من (بني سلامان بن مفرج) تسعة وتسعين رجلاً ، فأعدت له رجالاً يرصدونه ، فلما دنا من ماء ليشرب ، قبض عليه رجلان من (بني البقوم) من الأزد ، فقبضا عليه ، وأصبحا به في (بني سلامان) . فربطوه الى شجرة ، فقالوا : قف أنشدنا على حين المسرة ، ثم قال :

١ بروكلمن (١٠٥/١) ، الاغاني (١٣٤/٢١) .

٢ الخزائن (١٧/٢) .

٣ الاغاني (١٣٧/٢١) ، الخزائن (١٦/٢) .

٤ الاغاني (١٣٥/٢١) .

فلا تدفنونني إن دفني محرم^١ عليكم ولكن خامري أم عامر
إذا حملوا رأسي وفي الرأس أكثرني وغودر عند الملتقى ثم سائري
هنالك لا أرجو حياة تسرني سمير الليالي مبسلاً بالجرائر^٢

وذكر (المرتضى) أن هناك من نسب هذا الشعر الى تأبط شرأ^٣ . وقد نسيه
(الجاحظ) الى (تأبط شرأ) ، إذ قال : « وقال تأبط شرأ :

فلا تقبروني إن قبري محرم^٤ عليكم ولكن خامري أم عامر
إذا ضربوا رأسي وفي الرأس أكثرني وغودر عند الملتقى ثم سائري
هنالك لا أبغي حياة تسرني سمير الليالي مبسلاً بالجرائر^٥ ،

ويختلف نص هذا الشعر بعض الاختلاف عن النصوص الأخرى^٦ .

ويذكر أنه لما وقع بأيدي أعدائه ، تفننوا في قتله ، وأروه أصناف العذاب .
قطعوا يده ، وصاروا يسخرون منه ، ويسألونه أين يدفونه . فرد عليهم بمقطوعة
رائعة ، كما رثا يده بأرجوزة لما قطعوها ، وقد ذكر أنه طلب منهم ألا يدفن ،
وإنما يلقي بجسده الى الضباع^٧ . وروي أن رجلاً من (بني سلامان) رماه بسهم
في عينه فقتله ، فقال (جزء بن الحارث) في قتله :

لعمرك للساعي أسيد^٨ بن جابر أحن بها منكم بني عقب الكلب^٩

١ الشعر والشعراء ، لابن قتيبة (٢٥/١) ، (دار الثقافة) ،

ولا تقبروني ان قبري محرم عليكم ولكن ابشري أم عامر
إذا احتملوا رأسي وفي الرأس أكثرني وغودر عند الملتقى ثم سائري
هنالك لا أرجو حياة تسرني سمير الليالي مبسلاً بالجرائر

حماسة أبي تمام (٢٤/٢ وما بعدها يولاق) ، كارلو نالينو ، تاريخ الآداب العربية
(٧٣) ، الخزاعة (١٨/٢) ، أمالي المرتضى (٧٢/٢ وما بعدها) ، (إذا احتملت
رأسي) ، أسماء المقتالين (٢٣٢) ، (المجموعة السادسة) .

٢ أمالي المرتضى (٧٢/٢ وما بعدها) .

٣ الحيوان (٤٥٠/٦) .

٤ راجع العقد الفريد (٥٣/١) ، (٢١٩/٤) ، الحماسة (١٨٨/١) ، المخصص
(٢٥٨/٣) .

٥ الشعراء الصعاليك (٣٣٥) .

٦ أسماء المقتالين (المجموعة السادسة) ، (ص ٢٣٢) .

وقد ضاع أكثر شعر (الشنفرى) . وقد طبعت لاميته ، وللعلماء شروح وبحوث عليها . وهي في الفخر والحجاسة ، ولم يعرف كثير من قدماء علماء الشعر القديم هذه اللامية ، ومن بينهم مؤلف كتاب (الأغاني) . وقد تعرض (القالي) لموضوع (اللامية) ، فقال : « حدثني أبو بكر بن دريد : ان القصيدة المنسوبة الى الشنفرى التي أولها :

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فلاني الى قومٍ سواكم لأميل

له ، وهي من المقدمات في الحسن والفصاحة والطول ، فكان أقدر الناس على قافية ١ . ويعود الضمير (له) الى خلف الأحمر . أي ان القصيدة هي من صنعه وعمله . وعدة القصيدة ثمانية وستون بيتاً . ومن شرحها : الخطيب التبريزي ، والزنجشري ، وابن الشجرى ، وابن اكرم وغيرهم ٢ . وقد ورد في (تأريخ الآداب العربية) لكارلو نالينو : « أما الشنفرى الأزدي فصاحب اللامية المشهورة التي يفتخر فيها بانفراده من قومه ووحشة عيشه في البراري كأنه لم يعاشر إلا السباع . وهي قصيدة غاية في الجمال تنطق بلسان حال الشاعر وان كان بعض النحويين يزعمون انها من مصنوعات حماد الراوية المتوفى سنة ١٥٥ هـ ٣ . وفي قوله : « وان كان بعض النحويين يزعمون انها من مصنوعات حماد الراوية » وهم ، لا أدري أوقع منه ، أم من الترجمة ، لأن غالبية العلماء تنسبها الى خلف الأحمر ، لا الى حماد . كما ان وفاته كانت سنة (١٥٦ هـ) ٤ .

وقد ذهب بعض المستشرقين الذين بحثوا أمر هذه القصيدة ، الى أن القصائد التي نخلها (خلف الأحمر) احتفظت دائماً بعمود الشعر القديم وطابعه ، أما هذه القصيدة ، فلها طابع خاص يجعل من الصعب تصور صدورها من (خلف الأحمر) ٥ .

-
- ١ الامالي (١٥٦/١ وما بعدها) ، الاغاني (٨٧/٢١) ، الخزائن (١٦/٢) ، زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١٦١/١ وما بعدها) .
 - ٢ الخزائن (١٥/٢) ، (بلاق) ، اللاميتان : لامية العرب ولاميمة العجم ، من شروح الزنجشري والصنفدي ، علق عليهما وأعدهما : عبد المعين الملوحي ، دمشق وزارة الثقافة والارشاد القومي ، رقم ١٣ .
 - ٣ (ص ٧٣) .
 - ٤ الفهرست (١٤٠) .
 - ٥ بروكلمن (١٠٦/١ وما بعدها) .

وذهب بعض آخر الى جواز كونها من نظم (الشنفرى)^١، وذكر أنها من مصنوعات (جناد) الراوية^٢ .

وفي (المفضليات) قصيدة طويلة له ، هي قصيدة تائية ، ومقطعات ، وفي قصيدته وصف لحياته ولبعض غاراته، وكيف كان يقود صعايلكه في طرق وعرة، وهم على أرجلهم ، ثم يصف حاله ، فهي قصيدة فيها بعض تأريخ هذا الشاعر وقصص غزوه وتعامله مع رفاقه^٣ .

وقد طبع الأستاذ (عبد العزيز) الميمني ، ديوان الشنفرى في (الطرائف الأدبية)^٤ ، وتوجد أشعاره أيضاً في (ديوان المهذلين)^٥ . وقد كان عند العيني ديوان للشنفرى في جملة دواوين عديدة كانت في حوزته^٦ . وقد كتب عدد من المستشرقين عن الشنفرى وشعره بمختلف اللغات^٧ .

وأما (تأبط شراً) ، وهو (ثابت بن جابر بن سفيان) ، وقيل (ثابت بن عمسل) فهو من فهم ، وكان من أغربة العرب ، لأن أمه أمة سوداء . وكان من العدائين المعروفين عند العرب . وله أخبار كثيرة في ذلك ، وله مغامرات تحمل طابع القصص والأساطير . وله قصيدة في وصف (الغول) ذكر فيها كيف طير بسيفه قجف ابنة الجن^٨ . وكان أحد رآبيل العرب . وذكر علماء اللغة ان الرثبال هو الذي ولدته أمه وحده^٩ ، وبه سميت رآبيل العرب، ومن السباع الكثير اللحم الحديث السن ، والذئب الخبيث ، وترأبلوا : تلصصوا أو أغاروا على الناس

-
- ١ بروكلمن (١٠٧/١) .
 - ٢ تاريخ الآداب العربية (٧٣) ، الاغانى (١٣/٥) .
 - ٣ العصر الجاهلي (٢٨٠ وما بعدها) .
 - ٤ بروكلمن (١٠٥/١ ، ١٠٩) ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٣٧ م .
 - ٥ الشعراء الصعايلك (١٥٩ وما بعدها) .
 - ٦ العين ، كتاب المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الالفية (٥٩٦/٤) .
 - ٧ راجع بروكلمن (١٠٧/١) .
 - ٨ الشعر والشعراء (١٧٤) ، الاغانى (٢٠٩/١٨) « بلاق » ، خزانة الادب (٦٦/١) ، بروكلمن (١٠٤/١ وما بعدها) ، شرح شواهد المغنى ، للسيوطي (١٩) ، المفضليات (٢٧ وما بعدها) ، الشعر والشعراء (٢٣٠/١ وما بعدها) ، (دار الثقافة ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٠٤/١) .
 - ٩ تاج العروس (١٠٠/٥) ، (أبط) ، السيوطي ، شرح شواهد المغنى (٥٠/١ وما بعدها) ، (أحمد ظافر كوجان) .

وفعلوا فعل الأسد ، أو غزوا على أرجلهم وحدهم بلا والٍ عليهم^١. وهذا المعنى هو أقرب المعاني وأقرب إلى الصحة في تفسير (رأيل العرب) . فهم الصعاليك الذين نبحت عنهم .

ويظهر أن أباه مات وهو صغير ، وأن أمه التي كانت أمة سوداء على أغلب الروايات ، أو أمة حرة في رواية ، تزوجت الشاعر (أبا كبير) الهللي ، وهو من الصعاليك ، من صعاليك هذيل ، وأن أبناء قبيلته كانوا يعبرونه بسواده ، مما ترك أثراً في نفسه ، فتصعلك ، وأخذ يرافق الصعاليكة ، ومنهم صعلوك شهير آخر ، هو (الشفري) الذي رافقه في كثير من غزواته . وقد نعت (تأبط شراً) بأنه كان شاعراً بشياً ، يغزو على رجله^٢ .

وبما يروى من قصصه أنه كان يشتار عسلاً من جبل ليس له غير طريق واحد ، فأخذت لحيان عليه ذلك الموضع ، وخبروه النزول على حكمهم أو إلقاء نفسه من الموضع الذي ظنوا أنه لا يسلم . فصب العسل الذي معه على الصفا وشد صدره على الزق ثم لصق على العسل ، فلم يبرح يتزلق عليه حتى نزل سالماً ، فنظم في ذلك قصيدة مطلعها :

إذا المرء لم يحتل وقد جد جده أضاع وقاسى أمره وهو مُدبر^٣

ولعلماء الشعر قصص في تفسير تسمية هذا الشاعر بـ (تأبط شراً) ، فزعم بعض منهم أنه : إنما سمي تأبط شراً لأنه أخذ سيفاً وخرج ، فقبل لأمه أين هو ؟ قالت : لا أدري ، تأبط شراً وخرج . وقيل أخذ سكيناً تحت أبطه وخرج إلى نادي قومه فوجأ بعضهم ، فقبل تأبط شراً . وزعم بعض آخر أن أم تأبط شراً قالت له يوماً : إن الغلمان يجنون لأهلهم الكمأة فهلا فعلت كفعلمهم ، فأخذ جرابه ومضى فلأه أفاعي وأتى متأبطاً به ، فألقاه بين يديها فخرجت الأفاعي منه

١ تاج العروس (٣٣٣/٧) ، (ربل) ، الاشتقاق (١٦٢ وما بعدها) ، اللآلئ

(١٥٨ وما بعدها) ، التيجان (٢٤٢ وما بعدها) ، أسماء القتالين (٢١٥) ،

٢ الشعر والشعراء (٢٢٩/١) ، (دار الثقافة) ، الأغاني (٢١٥/١٨ وما بعدها) ،

Beur, in ZDMG, X, 7, 17, ff.

٣ السيوطي ، شرح شواهد (٩٧٥/٢) ، الأغاني (٢١٥/١٨) ، شرح ديوان

الحماسة (٣٨/١) ، المحبر (١٩٧ وما بعدها) ، الخزائن (٣٥٧/٣) .

تسعى فولت هاربة . فقال لها نساء الحي : ما الذي كان ابنك متأبطاً له ؟ فقالت :
تأبط شراً ! وقيل : إنه رأى كيشاً في الصحراء فاحتمله تحت إبطه ، فجعل
يبول عليه طول طريقه ، فلما قرب من الحي ثقل عليه الكيش ، فرمى به ، فإذا
هو الغول . فقال له قومه : ما كنت متأبطاً يا ثابت ؟ قال : الغول . قالوا :
لقد تأبطت شراً ، فسمي بذلك . وانه قال في ذلك :

تأبط شراً ثم راح أو اغتدى يوائم غمّاً أو يشيف على ذحل

وقيل سمي بهذا البيت . قال رجل لتأبط شراً : يمّ تغلب الرجال وأنت دميم
ضليل ؟ قال : باسمي ، إنما أقول ساعة ما ألقى الرجل : أنا تأبط شراً ، فينخلع
قلبه حتى أنال منه ما أردت ^١ . وقيل إنما سمي (تأبط شراً) ، لأن أمه رآته
وقد تأبط جفير سهام وأخذ قوساً ، فقالت له : هذا تأبط شراً ، أو تأبط
سكيناً فأتى ناديم فوجاً بعضهم ، فسمي به لذلك ، وكان لا يفارقه سيفه .
قتلته هذيل في رواية ، وقالت أخته ترثيه :

نعم الفتى غادرتم برخمان بثابت بن جابر بن سنان

وكانت تسمى (ريطة) . وذكر أن أمه هي التي رثته . وقد ذكر في أشعار
هذيل ^٢ .

وكان سبب قتله ، انه خرج غازياً في نفر من قومه ، إذ عرض لهم بيت
من هذيل ، بين صدى جبل ، فأراد مهاجمته ، فتنعه من كان معه من مباغتته ،
لخروج ضبع اعترفوا منه ، فلم يبال بتشاؤمهم ، فلما قارب البيت رآه غلام ،
فهرب الى الجبل ، فهجم تأبط شراً مع جاعته على البيت ، فقتلوا شيخاً وعجوزاً ،

١ الاغانى (١٤٦/٢١) ، شرح حماسة أبي تمام (٧٥/١) ، السيوطي ، شرح شواهد
٠ (٥٢/١)

٢ تاج المروس (١٠٠/٥) ، (أبط) قال مليح الهذلي :
ونحن قتلنا مقبلاً غير مدبر تأبط ، ما ترهق بنا الحرب ترهق
اللسان (٢٥٤/٧) ، (أبط) .

بثامت بن جابر بن سنان
ويل أم طرف قتلوا برخمان
الشعر والشعراء (٢٢٩/١) ، (دار الثقافة) ، الاغانى (٢٠٩/١٨) ، (بولاق) ،
المقتالين (٢١٥) ، الخزائن (٦٦/١) .

وحازوا جاريّتين وإبلاً ، ثم أبصر تأبط شراً بالغلام ، فاتبه ، فرماه الغلام بسهم أصاب قلبه ، وحمل على الغلام فقتله ، ثم مات هو من السهم ، وترك جثة ، فاحتملته هذيل ، وطرحته في غار يقال له غار (رخمان) . فرثته أخته (ربيعة) بقولها :

نعم الفتى غادرتم برخمان ثابت بن جابر بن سفيان
قد يقتل القيرن ويَروِي الندمان^١

وفي بيت شعر ينسب الى تأبط شراً ، هو :

ولست أبيت الدهرَ إلا على فقى أسلبه أو أذعر السرب أجمعا^٢

معنى يفيد انه كان يغير على القادم والآيب ، يسليه ويأخذ ما عنده ، لا يبالي بشيء إلا بمحصله على غنيمة السلب ، وهو ان قابل قافلة ، فلم يتمكن منها ، يكون قد رضي من فعله بما ألقاه من رعب وذعر في قلوب أصحابها ، ويكون قد اشتفى بذلك منها . فهو رجل مستقم ، يريد أن يفرج عما ولد في قلبه من غلّ ، بأية طريقة كانت ، غلّ ، ولد فيه ، من سواد لونه ، ومن ازدراء قومه له ، ومن فقره وسوء حاله في هذه الحياة ، وذلك فيما لو صح ان هذا الشعر هو من قوله .

ونسب قوم من الرواة الى (تأبط شراً) قصيدة مطلعها :

ولقد سرّيتُ على الظلام بمغشم جلد من الفتيان غير مهبل

وهي قصيدة نسبها غيرهم الى (أبي كبير) الهللي ، ووضعوا حولها قصة في شرح السبب الذي حمل (أبا كبير) أو (تأبط شراً) على نظمها^٣ .

قال (الجاحظ) في كتابه (الحيوان) : « وقال تأبط شراً - إن كان قالها - :

١ أسماء المفتالين (٢١٥ وما بعدها) .

٢ الاغانى (٢١٧/١٨) .

٣ الشعر والشعراء (٥٦٢/٢ وما بعدها) ، (الثقافة) .

شامس في القرّ حتى اذا ما ذكت الشعبرى فبرد وظل
وله طعمان أرني وشري وكلا الطعمين قد ذاق كل^١ ،
مما يدل على انه في شك من أمر نسبة هذه القصيدة اليه .

وأشعار (تأبط شراً) متناثرة في كتب الأدب . ولم يطبع له ديوان بعد .
ومن شعره أبيات ، يذكر فيها أن (عدالة) لامته حتى أكثرت من لومه ،
فكادت تحرق جلده أي تحرق ، وقد عبر عن ذلك بقوله :

يا من لعدالة خذالة نسب خرقت باللوم جلدي أي تحرق
تقول: أهلك مالا لو ضمنت به من ثوب عزٍ ومن بزٍ وأعلاق
سدّد خلالك من مال تجمعه حتى تلاقى ما كل امرئ لاق
عاذلتا ان بعض اللوم معنفة وهل متساع وإن بقيته باق^٢

وهذه هي مشكلة أولئك الصعاليك ، كانوا يحاطرون بجيائهم ، للحصول على
مال ، فإذا حصلوا عليه ، ونجوا من تعقب الناس لهم ، أهلكوه . يتلفونه على
ملذاتهم ، أو على أصدقائهم . وإذا بهم في حاجة الى مال ، وفي عسر وضيق .
ومن شعره قوله :

لَتَقْرَعَنَّ عليّ النّ من ندمٍ إذا تذكّرت يوماً بعض أخلاقي^٣

وله شعر يصف فيه حاله ، بقوله :

قليل التشكّي للمهم يُصيّبه كثيرُ الهوى شتى النوى والمسالكِ
يظلّ بمؤامةٍ وعِسيّ بغيرها جحيشاً ويعرّوْري ظهورَ المهالكِ
ويسبق وفد الريح من حيث يتحي بمنخرق من شدة التمداركِ
إذا خاط عينه كرى النوم لم يزل له كاليء من قلب شيخان فاتك

-
- ١ الحيوان (٦٨/٣ وما بعدها) .
 - ٢ الشعر والشعراء (١/ ٢٣٠) ، (دار الثقافة) ، أبو تمام ديوان الحماسة (٣٨٢ وما بعدها) .
 - ٣ الحيوان (٦٣/١) .

ويجعل عينه ريشة قلبه الى سلة من حدّ أخلق صائك
اذا هزّة في عظم قرن تهلت نواجذ أفواه المنايا الضواحك
يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدي بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك^١

وهي قصيدة مدح بها عمه (شمس بن مالك)^٢ .

وقد شك (الجاحظ) في نسبة هذه القصيدة الى (تأبط شرأ) ، إذ قال :
« ومن هنا الباب قول تأبط شرأ ، أو قول قائل فيه في كلمة له »^٣ . وتنسب
أيضاً الى (السليك بن السلكة) أحد غرابيب العرب^٤ .

وله قصيدة ذكر فيها أنه التقى بالغول ، وصار جاراً للغيلان ، وقد وصف
حاله معها ، حيث قال :

وأدهم قد جيت جلبابه^٥ كما اجتابت الكاعب^٦ الخيلا
الى أن حدا الصبح^٧ أنناه^٨ ومزق جلبابه الأيلا
على شيم نار^٩ تنورها^{١٠} فبت لها مدبراً مقبلا
فأصبحت والغول لي جارة^{١١} فيسا جارنا أنت ما أهولا
وطالبتها بعضها فالتوت^{١٢} بوجه تهول^{١٣} فاستهولا

وهي قصيدة ذكرها (ابن قتيبة) ، وقد اكتفيت منها بالأبيات المتقدمة * .
وقد عمل (ابن جني) ديوان (تأبط شرأ)^{١٤} ، ونشرت بعض أشعاره
وترجمت بلغات أعجمية^{١٥} .

- ١ الحماسة ، لابي تمام (٤٦/١ وما بعدها) ، (بولاق) ، كارلو نالينو ، تاريخ الآداب العربية (٧٣) ، (اذا خاص) ، (اذا خاط) ، الحيوان (٤٦٧/٦) .
- ٢ كارلو نالينو ، (٧٣) .
- ٣ الحيوان (٢٥٥/٦) ، وتجدد اختلافاً بين نص الجاحظ لها ، وبين نصها في الموارد الأخرى .
- ٤ الحماسة (٢٢/١) ، القالي ، أمالي (١٣٨/٢) ، التيجان (٢٤٢) ، زهر الاداب (١٨/٢) ، الصناعتين (٢٧٩ ، ٣١٠) ، ثمار القلوب (٢٠٤) ، الحيوان (٢٥٦/٦) .
- ٥ الشعر والشعراء (٢٣٠/١ وما بعدها) . اعجاز القرآن ، للباقلاني (٢٢) ، مرجع الذهب (١٣٤/٢ وما بعدها) ، (ذكر أقاويل العرب في الغيلان والتغول) .
- ٦ بروكلمن (١٠٤/١ وما بعدها) .
- ٧ Ch. Lyell, Four Poems by T. Sh. the Poet, brigand, JRAS, 1918, 211-227.

وأما (السليك بن السلكة) ، فهو من تميم . وأمه أمة سوداء ، وكان يغير على القبائل ، ولا سيما القبائل البائية وقبائل ربيعة . وكان من العارفين باقتضاء الأثر . ومن العالمين بالمسالك وبالطرق والأرض . يذكرون أنه كان إذا جاء الشتاء استودع بيض النعام ماء السماء ثم دفنه ، فإذا كان الصيف ، وأغار واحتاج الى الماء ، جاء الى مواضع البيض ، فاستخرج البيض منها وشرب ما فيه من ماء^١ .

وقد نسب (سليك) على هذا النحو : « سليك بن يثربي بن سنان بن عمرو ابن الحرث ، وهو مقاعص بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مائة بن تميم بن سلكة ، وهي أمه . ولذا قيل : (ابن السلكة) وقيل اسم والده : (عمرو بن يثربي) ، ويقال (عمير) ، وهو شاعر لص فتاك عداء . يقال : «أعدى من سليك » ، ويقال له : (سليك المقائب) . قال قرآن الأسدي ، وقيل أنس ابن مدرك :

”لحطابُ ليلى يالَ برثن منكم على الهول، أمضى من سليك المقائب“

وقال أهل الأخبار عنه، انه أحد أغربة العرب ومجنائهم وصعاليكهم ورجلائهم ، وكان له بأس ونجدة . وكان أدل الناس بالأرض وأجودهم عدواً على رجله ، وكان لا تعلق به الخيل . وتذكر قصة انه خرج رجاء أن يصيب غرة من بعض من يمر عليه ، فيذهب بإبله ، وبينما هو نائم ، واذا برجل يجم عليه ، ويقول له : استأسر ، فتمكن منه السليك ، ووجده صعلوكاً فقيراً جاء مثله لعله يصيب شيئاً ، فاتفق معه على أن يغزوا معاً ، فلما سارا وجدوا رجلاً صعلوكاً انضم إليهما ، واتفقوا على الغزو ، ولما كانوا في جوف (مراد) ، وجدوا نعماً ، فطلب (سليك) من رفيقيه الانتظار والترص ريثما يذهب الى الرعاء فيلهبهما ، ثم يغيرا على النعم . فلما وصل الى الرعاء ، تودد اليهم ، ثم قال لهم : ألا أغنيكم ؟ قالوا : بلى ، فأخذ يغني :

١ زيدان ، تاريخ آداب (١٦٣/١) ، الاغانى (١٨/١٣٣) ، الشعر والشعراء (٢١٣) .

٢ اللسان (٤٤٣/١٠) ، (سلك) ، تاج العروس (٧/١٤٤) ، (سلك) ، (السليك ابن سنان بن سلكة) ، تحفة الايبه فيمن نسب الى غير آبيه (١٠٥ وما بعدها) ، (نوادر المخطوطات ، المجموعة الاولى) .

يا صاحبيّ ألا لا حيّ بالوادي إلا عبيد وآم بين أذواد
أنتظران قليلاً ريث غفلتهم أم تعدوان فإن الريح للعادي

فلما سمعا ذلك أطردا الإبل فذهبا بها^١ .

وذكر ان (بكر بن وائل) سارت للإغارة على (تميم) . ورأته طلائعها ، فأرادت القبض عليه ، حتى لا يذهب اليهم فيخبرهم يزحفهم عليهم . ولكنه ركض مسرعاً ، فقلت منهم ، وأخبر قومه بغزوهم ، فكذبوه . فقال في ذلك شعراً ، وجاءت (بكر بن وائل) فأغارت عليهم^٢ .

وقد وصفه (عمرو بن معدى كرب) في شعر منه :

وسيري حتى قال في القوم قاتل : عليك أبا ثورٍ سُلَيْكُ المقانِبِ^٣

ومرّ (سليك) في بعض غزواته ببيت من (خثعم) ، أهله خلوف ، فرأى فيهم امرأة بضمة شابة ، فتسنّمها ومضى ، فأخبرت القوم ، فركب (أنس بن مدرك الخثعمي) في أثره فقتله ، وطولب بديته ، فقال : والله لا أدبسه ابن إفال ، وقال :

إني وقتلي سليكا يوم أعقله كالثور يضرب لما عافت البقر
غضبتُ للمرء إذ نيكت حليلته وإذ يشدُّ على وجعائها الثغر^٤

وقد ورد البيتان على هذه الصورة :

إني وقتلي سليكا ثم أعقله كالثور يضرب لما عافت البقر
أنفت للمرء إذ نيكت حليلته وأن يشدُّ على وجعائها الثغر^٥

ومن بقية الشعراء الصعاليك ، (حاجز) الأسدي ، و(قيس بن الحداية)

١ الشعر والشعراء (٢٨٢/١ وما بعدها) ، (الثقافة) ، الاغاني (١٣٤/١٨) .

٢ الشعر والشعراء (٢٨٤/١) ، (الثقافة) ، الخزائن (١٧/٢) ، (بولاق) .

٣ الشعر والشعراء (٢٨٤/١) ، (الثقافة) .

٤ الشعر والشعراء (٢٨٥/١) ، (الثقافة) أسماء المفتالين (٢٢٠ ، ٢٢٦ وما بعدها) ، الاغاني (١٣٣/١٨) ، المؤتلف (١٣٧) ، الخزائن (١٧/٢) .

٥ الحيوان (١٨/١) .

الأزددي ، و (أبو الطمحان) القيني ، (وأبو خراش) الهللي ، وصخر الغي الهللي^١ ، وأخوه الأعم الهللي^٢ ، وعمرو ذو الكلب^٣ .

فأما (قيس بن الحداية) ، فهو (قيس بن منقلد بن عبيد بن أصرم بن ضاظر بن حُبشية بن سلول) ، وله مع (عامر بن الظرب) حديث . وصفه (المرزباني) بـ « شاعر قديم كثير الشعر »^٤ . وأمه من (بني حُدَاد) كنانة ، وقوم يجعلونها من حُدَاد محارب . وكان صعلوكاً خليعاً^٥ ، ساهم مع جماعة من أهله في قتل رجل من قبيلتهم ، وعجز قومه من دفع ديتة ، فولوا هارين ، فقتلوا في (فراس بن غم) ثم لم يلبثوا أن قتلوا منهم رجلاً ، فهربوا ، فقتلوا على (أسد بن كرز) من (بجيلة) ، فأحسن إليهم وتحمل عنهم ما أصابوا في خزاعة وفي فراس^٦ . وقد نسب (قيس) الى أمه الحُدَادية ، وهي حضرمية من محارب^٧ . وورد ان أمه من (محارب بن خصفة) . و (حُدَاد) من كنانة . ومن شعره :

أنا الذي أطرده مواليه^٨ وكلهم بعد الصفاء قاله^٩

ولا نجد في بطون الكتب شعراً كثيراً لقيس بن الحداية ، بحيث تنطبق عليه جملة (كثير الشعر) التي أطلقها (المرزباني) على شعر هذا الشاعر ، مما يبعث على الاحتمال بضياعه منذ عهد طويل .

وألف (قيس بن الحداية) ، عصابة ضمت « شذاذاً من العرب وفتاكاً

-
- ١ شرح أشعار الهذليين (١٢/١) ، الاغانى (١٩/٢٠) ، الشعر والشعراء (٥٥٩/٢) ، ديوان الهذليين (٥٧/٢) .
 - ٢ الشعر والشعراء (٥٥٩/٢) .
 - ٣ الاغانى (١٩/٢٠) .
 - ٤ زيدان ، تاريخ آداب (١٦٤/١) .
 - ٥ المرزباني ، معجم (٢٠٢) ، الاغانى (٦/١٣) .
 - ٦ الاغانى (٢/١٣) وما بعدها ، الشعراء الصعاليك (٩٦ وما بعدها) .
 - ٧ كتاب من نسب الى أمه من الشعراء (٨٦ وما بعدها) ، (نواذر المخطوطات ، المجموعة الاولى) .
 - ٨ كتاب من نسب الى أمه من الشعراء (٨٧) ، الاشتقاق (٢٧٧) ، القاب الشعراء ، لابن حبيب (١٣٩) .

من قومه ، وأخذ يغير على عشرته بسبب خلعهما له ، وبقي شريداً متمرداً يغزو بصعاليكه ، الى أن قتل صعلوكاً^١ .

وأما (أبو الطمحان) القيني ، فهو (حنظلة بن الشرقي) من بني كنانة بن القين ، وكان فاسقاً ، نازلاً بمكة على الزبير بن عبد المطلب ، وكان يتزل عليه الخلاء ، وكان ندماً له في الجاهلية . اختلف فيه ، فتنهم من قال إنه جاهلي ، ومنهم من قال إنه أدرك الإسلام . وقد زعم بعضهم أنه عاش مائتي سنة ، وأنه ندم على ما اقترفه من الذنوب كالزنا وشرب الخمر وأكل لحم الخنزير والسرقة ، ورووا له شعراً تبرأ فيه من الذنوب . ذكر أنه قيل له : ما أدنى ذنوبك؟ قال : ليلة الدير ، قيل له : وما ليلة الدير ؟ قال : نزلتُ بديرانية ، فأكلت عندها طفشيلاً بلحم خنزير ، وشريت من خمرها ، وزنيت بها ، وسرقت كساءها ، ومضيت ؟ وكانت له ناقة يقال لها (المرقال) ، وله إبل استقاها قوم نزلوا ضيوفاً عليه وشربوا من ألبانها ثم أدخلوها معهم ، فقال في ذلك شعراً منه :

واني لأرجو ملحها في بطونكم وما بسطت من جلد أشعث أغبر^٢

وذلك أنه جاورهم ، فكان يسقيهم اللبن ؛ فقال أرجو أن تشكروا لي ردّ إبلي ، على ما شربتم من ألبانها ، وما بسطت من جلد أشعث أغبر ، كأنه يقول : كنتم مهازبل فبسط ذلك من جلودكم^٣ .

وروي أنه كان من المعمرين ، عاش على حدّ قول بعضهم مائتي سنة . فقال في ذلك :

حتني حائيات الدهر حتى كأنني خاتل أدنو لصيد
قصير الخطو يحسب من رأني ولست مقيداً أني بقيد^٤

١ الشعراء الصعاليك (٩٧ وما بعدها) .

٢ الشعر والشعراء (٣٠٤/١ وما بعدها) ، الاصابة (٣٨١/١) ، (رقم ٢٠١١) ، الاغاني (١٢٥/١١) ، الخزائن (٤٢٦/٣) ، المعمرين للسجستاني (٦٢) ، المؤلف (١٤٩) ، أمالي المرتضى (٢٥٧/١ وما بعدها) .

٣ الحيوان (٤٧٣/٤) .

٤ أمالي المرتضى (٢٥٧/١) .

ونسب (المرتضى) له قوله :

ولاني من القوم الذين همُّهم
نجوم سماء كلما غاب كوكب
أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم
وما زال منهم حيث كان مسود
إذا مات منهم ميت قام صاحبه
بدا كوكبٌ تأوي إليه كواكبه
دجى الليل حتى تَظَمَّ الجزع ثاقبه
تسير المنايا حيث سارت كتابه^١

وقد لاقى (أبو الطمحان) مصاعب عديدة ، وكان لا يكاد يجد له مكاناً يستقر فيه ، حتى تقع له حادثة توقعه في مشكلات عويصة وفي شدة وعنة ، فكان ينتقل من جار الى جار ، ثم يهم بالعودة الى أهله لولا خوفه من أداء الدية التي عليه أن يدفعها ، فيحجم عن الذهاب اليهم ، حتى استقر أخيراً في (بني فزارة) في جوار رجل يقال له (مالك بن سعد) أحد (بني شميخ) ، وكان كريماً ، فأواه ، وأعطاه إيلاً لتكون دية جنايته وزاد عليها ، وكان قد لمح له انه يريد العودة الى أهله لولا هذه الدية ، فلما وجد هذا السخاء من مالك ، بقي عنده ، وصار أحد عشيرته حتى هلك فيها ، وهو طاعن في السن^٢ . فذكره (السجستاني) لذلك في المعمرين ، وأعطاه مائتي سنة من عمر مديد^٣ !

ونسب الى (أبي الطمحان) قوله :

إن الزمان ولا تنفى عجائبه فيه تقطع آلاف وأقران
أمست بنو القين أفرافاً موزعة كأنهم من بقايا حي لقان^٤

وله شعر في مدح (مالك بن حمار) الشمخي ، وكان شريفاً من أشراف العرب قتله (خفاف بن ندمة) السلمي^٥ ، يقول فيه :

١ أمالي المرتضى (٢٥٧/١) .

٢ الاغانى (١٣٢/١١) وما بعدها .

٣ المعمرين (٦٢) .

٤ البيان والتبيين (١٨٧/١) .

٥ الاشتقاق (١٧٢/٢) ، البيان والتبيين (٢٣٥/٣) ، وقد اخطأ السيد عبد السلام محمد هارون في الجزء الاول من كتاب الحيوان الذي حققه ، اذ قال : « وهو يمدح مالك بن حماد الشمخي » ، ثم علق عليه برقم (٤) حاشية ، ثم قال في الحاشية : « هو قاتل خفاف بن ندمة » ، (ص ٢٨٠) ، الاغانى (١٣٤/١٣) .

سأمدح مالكا في كل ركبٍ لفيتهم وأترك كل رذل
فأنا والبكارة من مخاضٍ عظامٍ جلة سدس وبزل
وقد عرفت كلابكم ثيابي كأنني منكم ونسيتُ أهلي
نمتكم من بني شمع زناد لها ما شئت من فرع وأصل¹

وله أيضاً :

فكم فيهم من سيد وابن سيد وفي بعقد الجار حين يفارقه
يكاد الغمامُ الغرّ يزعب إن رأى وجوه بني لأم وينهل بارقه²

وله في (بني نمر) قوله :

مهلاً نمرُ فلأنكم أمسينم منّا بشفر ثنية لم تُسترِ
سوداً كأنكم ذنائب خطيطة مطيرِ البلاد وحيرمها لم يُمطرِ
يحبون ما بين أجا وبرقة عالج³ حبو الضباب الى أصول السخري
وتركتهم قصب الشريف طوامياً تهوى ثنيته كعين الأعور⁴

وله في الإعتاظ والاعتبار بدروس الغابرين ، قوله :

ألا ترى مأرباً ما كان أحصنه وما حواله من سور وبنيان
ظلّ العبادي يسقي فوق قلته ولم يهب ريب دهرٍ حق خوان
حتى تناوله من بعد ما هجموا يرقى إليه على أسباب كتان⁵

ولما في حياة الصمالة من غرابة وطرافة ومغامرات ، تستلذ لسامعها الآذان ،
وضع الموضوعون عليهم أخباراً كثيرة وأشعاراً عديدة ، تجد بعضها تحكي الأيام

١ البيان والتبيين (٢٣٥/٣)

٢ البيان والتبيين (٣٣٧/٣)

كم فيهم من سيد وابن سيد
يكاد الغمام الغر يزعج ان رأى
وفي بعقد الجار ، حين يفارقه
وجوه بني لأم وينهل بارقه

الحيوان (٩٣/٣)

٣ الحيوان (١١٣/٦)

٤ الحيوان (١٥٤/٦)

التي وضع الرضاعون فيها تلك الأشعار ، من حيث الطعن في الأغنياء ، وتفضيل
الفقراء عليهم ، وترجيح الفقير على الغني ، لشعوره بشعور انساني حرم منه الغني
الذي لم يكن يفكر إلا بنفسه ، كما ان في كثير من الشعر المصنوع طابع حياة
المغامرات . وهو يختلف نصاً من مؤلف الى مؤلف، مما يدل على تعدد الروايات،
وانه أخذ من السنة متعددة ، فتعدد بعددها .

الفصل الحادي والستون بعد المئة

شعراء القرى العربية

والقرى العربية في نظر (ابن سلام) خمس هن: مكة والمدينة والطائف واليامة والبحرين^١. و (القرية) في تفسير علماء العربية المصير الجامع ، وقيل كل مكان اتصلت به الأبنية واتخذ قراراً وتقع على المدن وغيرها^٢. وقد جاءت اللفظة في مواضع عديدة من القرآن. كما وردت فيه: (القريتين) ، بمعنى مكة والطائف^٣، و (أم القرى) ، بمعنى (مكة)^٤ ، و (أهل القرى) ، و (القرى) . ومكة والمدينة والطائف قرى ، أما (اليامة) ، فمصر بجامع ، ضم قرى ، وكذلك البحرين . ولم تدخل (الحبرة) ، أو الأنبار ، في القرى العربية لكونها خارج حدود جزيرة العرب في عرف العلماء .

وذكر (ابن سلام) ان أشعر أهل القرى الخمس ، أهل قرية (المدينة) ، أي (يثرب) . وقد أخرجت خمسة من الفحول : ثلاثة من الخزرج واثنان من الأوس . فن الخزرج من (بني النجار) : حسان بن ثابت ، ومن بني سلمة: (كعب بن مالك) ، ومن (بلحارث بن الخزرج) (عبدالله بن رواحة) .

١ طبقات (٥٢) .

٢ تاج العروس (٢٩٠/١٠) ، (قرى) .

٣ الزخرف ، الرقم ٤٣ ، الآية ٣١ ، تفسير الطبري (٣٩/٢٥) .

٤ الانعام ، الرقم ٦ ، الآية ٩٢ ، تفسير الطبري (١٨٠/٧) .

ومن (الأوس) : قيس بن الخطيم ، من (بني ظفر) ، (و) أبو قيس ابن الأسلت (من (بني عمرو بن عوف)^١ .

وروي عن (أبي عبيدة) قوله : « اجتمعت للعرب على ان أشعر أهل المدر : يثرب ، ثم عبد القيس ، ثم ثقيف ، وعلى ان أشعر أهل المدر : حسان بن ثابت ، ثم قال : « حسان شاعر الأنصار في الجاهلية ، وشاعر اليمن في الاسلام ، وهو شاعر أهل القرى » . وروي انه كان أشعر أهل الحضرة^٢ .

وقال (ابن سلام) في حديثه عن مكة : « وبمكة شعراء »^٣ ووصف أشعار قريش بأنها أشعار فيها لين^٤ ، وهي سهلة سلسة اذا قيست بأشعار أهل البادية ، يتغلب عليها طابع الحضارة ، وكذلك شعر باقي القرى . وقال عن (الطائف) ، وبها شعراء وليس بالكثير . وعلل ذلك بقوله : « وانما يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء ، نحو حرب الأوس والخزرج ، أو قوم يغيرون ويغار عليهم : والذي قلل شعر قريش انه لم يكن بينهم ثائرة ، ولم يحاربوا . وذلك الذي قلل شعر عمان وأهل الطائف »^٥ . وقال عن (البحرين) : « وفي البحرين شعر كثير جيد وفصاحة »^٦ . وقال عن (اليمامة) : « ولا أعرف باليمامة شاعراً مشهوراً »^٧ .

ولم تنفرد أشعار قريش وحدها باللين ، وإنما الليونة والسهولة في الشعر من طابع الشعر الحضري أجمع . ففي طبيعة الحياة في الحضرة سهولة غير موجودة في حياة البداوة ، وراحة ودعة واستقرار ، وهي أمور لا توجد في البادية ، ثم فيها اجتماع واحتكاك بعالم خارجي ، وميل الى جمع المال والاستمتاع به ، والابتعاد عن الغزو والحرب ، وكراهة القتال وتعريض النفس للخطر ، والنفس عزيزة غالية عند الحضرة ، وهي هيئة رخيصة عند الأعراب ، وما الذي يجعل الأعرابي يحرص على حياته حرص أهل الحواضر ، وكل ما عنده جوع وفقير وطبيعة قاسية

-
- ١ ابن سلام ، طبقات (٥٢) .
 - ٢ الاستيعاب (٣٣٨/١) ، (حاشية على الاصابة) .
 - ٣ طبقات (٥٧) .
 - ٤ طبقات (٦٠) .
 - ٥ المصدر نفسه (٦٥) وما بعدها .
 - ٦ كذلك (٦٦) .
 - ٧ كذلك (٧٠) .

تجعله لا يحصل على قوته إلا بالإغارة على غيره لاستلاب ما عنده من رزق .
فلا غرابة إذا ما غلظ شعره وخشن شعوره المتمثل في نظمه ، ولأن شعر الحضري
في مقابله :

ولم يذكر (ابن سلام) السبب الذي جعل (اليمامة) فقيرة في الشعر ، حيث
يقول : « ولا أعرف باليمامة شاعراً مشهوراً »^١ ، ولا الأسباب التي حملته على
القول بعدم وقوفه على شاعر شهير فيها ، مع أن (الأعشى) منها ، وهو شاعر
شهير ، والمرقش الأكبر ، والمرقش الأصغر ، وهما شاعران مشهوران من (قيس
ابن ثعلبة) ، و (قيس بن ثعلبة) من القبائل النازلة باليمامة ، وقد ذكرها (ابن
سلام) في طبقاته ، كما ذكر (المتلمس) ، في طبقاته ، وهو شاعر معروف
من شعراء اليمامة كذلك . ويظهر أنه نسي أسماءهم ، لأنه كان يعلم أن الغلبة
كانت لبني حنيفة على اليمامة عند ظهور الإسلام ، ولم يحفظ الرواة - لسبب
لا نعرفه - شعراً لشعراء من بني (حنيفة) ، فعمم قوله على كل اليمامة ، والحكم
بالتعميم شيء مألوف بين أهل الأخبار .

وقد ذهب (الجاحظ) إلى أن (بني حنيفة) أهل اليمامة ، كانوا أقل الناس
شعراً ، إذ يقول : « وبنو حنيفة مع كثرة عددهم ، وشدة بأسهم ، وكثرة
وقائعهم ، وحسد العرب لهم على دارهم ونجومهم وسط أعدائهم ، حتى كأنهم
وحدهم يعدلون بكرأ كلها ، ومع ذلك لم نر قبيلة قط أقل شعراً منهم . وفي
أخوتهم عجل قصيد ورجز ، وشعراء ورجازون » . وقد أنكر أن يكون ذلك
بسبب مكان الحصب وأنهم أهل مدر ، أي حضر ، وإنما رجع ذلك إلى الطبع ،
والى « قدر ما قسم الله لهم من الحظوظ والغنائز ، والبلاد والأعراق مكانها »^٢ .
ويلاحظ أن علماء اللغة ، جعلوا (اليمامة) في جملة الأراضين التي لم يرجعوا
إلى لغاتها ، فذكروا أنهم لم يأخذوا اللغة « لا من بني حنيفة وسكان اليمامة ،
ولا من ثقيف وأهل الطائف ، لمجاورتهم تجار اليمن المقيمين عندهم »^٣ ، وذلك
في الإسلام بالطبع ، لأن تدوين اللغة لم يبدأ به إلا في هذا الحين . وهو رأي
صحيح ، لأن لغات أهل اليمامة متأثرة بالللهجات العربية الجنوبية ، كما كانت كتابتهم

١ طبقات (٧٠) .
٢ الحيوان (٣٨٠/٤) وما بعدها .
٣ المزهر (٢١٢/١) .

بالمسند ، بدليل عشور المستشرقين على كتابات عديدة في مواضع من اليامة ، مدونة بهذا القلم ، وبلغت عربية جنوبية متأثرة بلهجات خاصة بعض التأثير ، ولهذا فنحن نستطيع أن نقول إن كتابات اليامة التي عثر عليها الآن والتي سيعثر عليها في المستقبل ، تكون مجموعة فريدة مهمة من الكتابات الجاهلية وقد تكون جسراً بين اللغويات الجنوبية القديمة ، وبين اللغات العربية الشمالية ، وقد تكون هذه الخصائص اللغوية الفريدة هي التي جعلت (ابن سلام) يقول في طبقاته : « ولا أعرف باليامة شاعراً مشهوراً »^١ ، إذ سمع أن شعراء اليامة كانوا يقولون الشعر بلهجاتهم التي تختلف عن اللهجة التي نظم بها شعراء مجموعة (ال) ، فأهمل لذلك شعرهم ، أو أن شعرهم لكونه شعراً محلياً خاصاً ، لم ينتشر خارج قبائل اليامة ، فلم يصل الى علمه منه شيء ، فقال لذلك قوله المذكور ، ولم يعده من الشعر المألوف ، الذي تعورف عليه بين علماء الشعر ، ولما كان (الأعشى) و(المرقش) الأكبر ، و(المرقش الأصغر ، والمتلمس ، قد نظموا الشعر باللهجة المألوفة ، ولكونهم من المتنقلة الذين تنقلوا بين العرب ، وقضوا أكثر أوقاتهم خارج اليامة ، لم يدخلهم لذلك في شعراء اليامة ، لا جهلاً منه بأصلهم ، وإنما لما يئته من أسباب.

ولعل لكثرة وجود العبيد والموالي بها دخل في هذا الباب ، فاليامة أرض خصبة ذات مياه ، استقر أهلها وأقاموا في القرى وزرعوا واستعانوا بالموالي وبالعبيد وبأهل اليمن لاستغلال أرضهم ، فصاروا من أصحاب الزراعة في جزيرة العرب ، كما استغلوا معادنها ، واستعانوا في استغلالها بالأعاجم ، فذكر انه كان في معدن (شمام) ألف أو يزيد من المجوس ، لهم بيت فارسي^٢ . ولعل (آل كرمان) ، و (الأحمر) في الحرملية ، هم من الأعاجم الذين كانوا قد ولجوا هذه المواضع للعمل بها قبل الاسلام^٣ ، أضف الى ذلك وجود عدد كبير آخر من الموالي في أكثر قرى اليامة ، شغلوا في الزراعة وفي استغلال المعادن وفي تصنيعها ، وهي أمور يأنف منها الأعرابي ويزدريها . ولهذا قيل لهم أهل (ريف) ، وقد وصفهم جرير بقوله :

١ طبقات (٧٠) .

٢ الصفة (١٤٢) .

٣ لفظة (٣٠٢ وما بعدها ، ٣٥٩) .

صارت حنيفة أثلاثاً فثلثهم من العبيد وثلث من موالها^١

وذلك تعبيراً عن كثرة من كان في اليامة من العبيد والموالي الذين لعبوا دوراً كبيراً في اقتصاد اليامة ، حيث شغلوا في الزراعة وفي الرعي وفي استغلال المعادن والصناعة ، وانشاء القرى ، حتى صارت أرضها بين قرى وأرض استغلت بزرعها سبياً ، أي على مياه الأمطار . وأما القرى ، فقد أقيمت على الآبار والعيون والمياه الجارية وعلى حافات الأودية. وقد حفر الرقيق أكثر هذه الآبار، كما استغلت الآبار العادية ، أي الآبار القديمة التي تنسب الى ما قبل مجيء قبائل (ربيعه) الى اليامة . ونجد في الكتب التي وصفت اليامة ذكراً لمواضع كثيرة ، توفرت بها المياه ، فصارت أرضين خصبة ، مونت اليامة وغيرها بالحنطة والتمور والخضر .

وكان جلّ أهل (اليامة) عند ظهور الإسلام من (بكر بن وائل) ، وبكر ابن وائل من (ربيعه) ، فهم ليسوا من (مضر) اذن ، الذين أخذ عنهم علماء العربية اللغة في الإسلام . فقوم الأعشى ، وهم (بنو قيس بن ثعلبة) من بكر بن وائل ، وبنو حنيفة ، وهم قوم (مسيلمة) من (بني لجيم بن صعب ابن علي بن بكر بن وائل)^٢ ، فإلى ربيعة كانت الغلبة في هذا العهد ، وأما بطون (تميم) التي كانت تقيم في مناطق من اليامة ، فلم تكن تكون الكثرة الى جانب ربيعة ، وتميم من مضر في عرف أهل الأخبار .

واليامة اقليم مشهور عرف بعلوبة مياهه ، وبخصبه وبكثرة قراه ، وباشتغال أهله بالزراعة ، زراعة التخيل والأشجار المثمرة والحنطة ، كما عرف بتربيته للإبل والبقر والغنم ، ولذلك وفرت اللحوم به ، وقد استقر أهله ، وصاروا حضراً وأشباه حضر ، ولعلّ لصلتهم باليمن ولتزوج أهلها القدامى من اليمن ، وهم أهل زرع وضرع ، ثم توفر الماء والتربة الخصبة في اليامة ، جعلت كل هذه الأمور أهلها حضراً على مستوى عالٍ من الحياة بالنسبة الى من كان يقيم في البوادي من القبائل ، اعتمدوا في الدفاع عن أنفسهم على الحصون والتل التي لا تزال آثار بعضها قائمة الى هذا اليوم ، فكانوا إذا يوغتوا بهجوم ، أسرعوا الى بتلهم وقصورهم ، فتحصنوا بها . وهي من أهم ما يميز أهل الحضرة عن

١ الخزائن (٢/٣٠٠) ، (بولاق) .

٢ تاج العروس (٦/٧٨) ، (حنف) .

أهل الوبر . ولهذا نجد مستوطنات أهل المدر ، مكونة من أطم كما تسمى في (يثرب) ، أو قصور كما تسمى في الحيرة وفي قرى عرب العراق ، وبتل كما عرفت في اليمامة ، وبفضل هذا النظام الدفاعي ، حووا أنفسهم من هجمات الأعراب عليهم .

ولطابع الاستقرار الغالب على أهل اليمامة أثر في شعر شعراء اليمامة . يظهر في أساليب شعرائها السهولة وفي البحور التي نظموا بها شعرهم ، وهم يقربون بذلك من شعراء عرب العراق أو الشعراء الذين تأثروا بالشعر العراقي ، كما يظهر هذا الطابع في المعاني التي تطرقوا إليها ، وسبب قربهم في المعاني وفي الصياغة من أهل العراق ، هو تشابه الحياة بين عرب الحيرة مثلاً وبين أهل اليمامة . فأهل الحيرة حضر أو أشباه حضر ، وأهل اليمامة حضر مثلهم أو أشباه حضر ، لهم زراعة ، ولهم حرف قد احترقوها منذ أمد طويل ، ثم ان النصرانية كانت قد انتشرت بين عرب العراق ، وقد انتشرت بين أهل اليمامة كذلك ، وجنورها وإن لم تكن عميقة راسخة في المحيطين ، لكنها كانت قد تأثرت بعقلية أهلها على كل حال .

ومن شعراء اليمامة (المرقش) الأكبر ، وهو (ربيعة بن سعد بن مالك) ، ويقال : بل هو عمرو بن سعد بن مالك ، وقيل (عوف بن سعد بن مالك) من (بني قيس بن ثعلبة) من قبائل اليمامة المعروفة ، وكان أبوه سيد قومه في حرب البسوس ، وهو خال (عمرو بن قتيبة) ، وله صهر مع طرفة والأعشى ميمون^١ . ذكر انه اعما عرف بالمرقش بهذا البيت :

الدار قفر والرسوم كما رقص في ظهر الأديم قلم^٢

وبعد (المرقش) الأكبر من الشعراء العشاق ، وله قصة عن حبه لابنة عمه ، وعن زواجها أثناء غيابه ، ثم بحثه عنها ، ونزوله كهفاً أسفل (نجران) ، ثم احتياله في الوصول إليها ، ووفاته بعد ذلك . وهي قصة نجد لها مثيلاً في قصص

-
- ١ بروكلمن (١٠٢/١) ، الزهر (٤٧٦/٢ وما بعدها ، ٤٨١) .
 - ٢ الشعر والشعراء (١٣٨/١) ، (دار الثقافة) ، المرزباني ، معجم (٢٠١) ، الاغانى (١٩٩/٥) ، السيوطي ، شرح شواهد (٨٨٩/٢) ، اللسان (١٩٥/٨) الاغانى (١٢٧/٦) ، المؤلف (١٨٤) ، المفضليات (١١١) ، رسالة الغفران (٣٣٧ وما بعدها ، ٣٥١ ، ٣٥٥ ، ٥٦٠) ، البيان والتبيين (٣٧٤/١) .

وحكايات الأمم الأخرى^١ . وقيل ان صاحبه (أسماء بنت عوف بن مالك) ، كان أبوها زوجها رجلاً من مراد ، والمرقش غائب ، فلما رجع أخبر بذلك ، فخرج يريد لها ومعه عسيف له من (غفيلة) ، فلما صار في بعض الطريق مرض ، حتى ما يحمل إلا معروضاً ، فتركه الغفيلي هناك في غار ، وانصرف الى أهله ، فخبّرهم أنه مات ، فأخذوه وضربوه حتى أقر ، فقتلوه ، ويقال إن أسماء وقفت على أمره ، فبعثت اليه فحمل إليها ، وقد أكلت السباع أنفه . فقال :

يا راكباً أما عرضتَ فبلغن أنس بن عمرو حيث كان وحرملنا

وقد وصف في هذه الأبيات ما لاقاه في سفره، وهروب الغفيلي منه ، وذهاب السباع بأنفه . ويقال إنه كتبها على خشب الرجل بالخميرية ، وكان يكتب بها ، فقرأها قومه ، فلذلك ضربوا الغفيلي حتى أقر^٢ . وفي أكل السباع أنفه يقول :

من مبلغ الفتيان أن مرقشاً أضحى على الأصحاب عبثاً مثقلاً
ذهب السباع بأنفه فتركته ينهشن منه في القفار مجدلاً^٣

ونسب له قوله :

ومن يلقَ خيراً يحمد الناسُ أمره^٤ ومن يغو لا يعلم على الغي لائماً
أخوك السلي إن أخرجتك ملمة^٥ من الدهر لم يبرح لها الدهر واجبا
وليس أخوك بالذي إن تشعبت عليك أمور ظلّ يلحاك دائماً^٦

وقد تعرض (المعري) لكلمة (المرقش) :

هل بالديار أن نجيب صمم ؟ لو كان حياً ناطقاً كلّم

وقال بعد ذلك : « على أن مرقشاً خلط في كلمته فقال :

١ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٠٢/١) .

٢ الشعر والشعراء (١٣٨/١ وما بعدها) ، (الثقافة) .

٣ رسالة الغفران (٣٥٥) ، الاغانى (١٢٧/٦) .

٤ بلوغ الارب (١٠٧/٣ وما بعدها) .

ماذا علينا ان غزا ملك من آل جفنة ظالم مُرغِم

وهذا خروج عما ذهب اليه الخليل^١

وتعرض بعد ذلك له ، بأن تصور نفسه وهو يقول له وقد زاره في أطباق العذاب: « ان قوماً من أهل الإسلام كانوا يسترون بقصيدتك الميمية التي أولها :

هل بالديار أن نجيب صمم لو كان حياً ناطقاً كلم

ولأنها عندي لمن المفردات . وكان بعض الأدباء يرى أنها والميمية التي قالها المرقش الأصغر ناقصتان عن القصائد المفضليات ، ولقد وهم صاحب هذه المقالة . وبعض الناس يروي هذا الشعر لك :

تغيّرت من نعمان عود أراكة لهند ، ولكن من يُبلغه هنداً ؟
خليلي جُوراً بارك الله فيكما وإن لم تكن هنداً لأرضكما قصداً
وقولا لها : ليس الضلال أجارنا ولكننا جرنّا لنلقاكم عمداً
ولم أجدها في ديوانك فهل ما حكى صحيحٌ عنك ؟

فيقول : لقد قلت أشياء كثيرة ، منها ما نُقل اليكم ، ومنها لم ينقل . وقد يجوز أن أكون قلتُ هذه الأبيات ولكني سرّفتها لطول الأبد ولعلك تنكر أنها في هند ، وان صاحبتني أسماء ، فلا تنفر من ذلك ، فقد ينتقل المشبب من الاسم الى الاسم ، ويكون في بعض عمره مستهتراً بشخص من الناس ، ثم ينصرف الى شخص آخر ، ألا تسمع الى قولي :

سفه تدكره خويلة بعدما حالت ذرانجران دون لقائها^٢

ومن القصيدة الميمية المنسوبة اليه قوله :

النشر مسك والوجوه دنسا نير^٣ ، وأطراف الأكف غم^٣

١ رسالة الغفران (٣٣٧ وما بعدها) .

٢ رسالة الغفران (٣٥٥ وما بعدها) .

٣ رسالة الغفران (٥٦٠) ، أمالي المرتضى (٢٥٥/٢ ، ٢٥٧) .

وقوله :

ليس على طول الحياة نَدَمٌ ومن وراء المرء ما يعلم^١

ولم يبق من شعر المرقش الأكبر إلا (١٢) قطعة ، وفي بعض شعره اضطراب ، والقطعة (٥٤) من الأصمعيات من بحر عروض لم يهتد المتأخرون الى تحديده^٢ . ونجد بحر الخفيف عنده^٣ .

وأما المرقش الأصغر ، فهو (عمرو بن حرملة) ، وقيل : (ربيعة بن سفيان) ، وقيل (عمرو بن سفيان) وهو من بني سعد بن مالك بن ضبيعة ، أحد عشاق العرب المشهورين . وورد في رواية أنه أخو المرقش الأكبر ، ويقال إنه ابن أخيه . وقد اشتهر بقصة غرامه بفاطمة بنت المنذر الثالث ملك الحيرة^٤ وكانت لها خادمة تجمع بينهما ، يقال لها (هند بنت عجلان) ، وكان للمرقش ابن عم^٥ يقال له (جناب بن عوف بن مالك) ، لا يؤثر عليه أحداً ، وكان لا يكتمه شيئاً من أمره ، فألح عليه أن يخافه ليلة عند صاحبته ، فامتنع عليه زماناً ، ثم انه أجابه الى ذلك ، فعلمه كيف يصنع اذا دخل عليها ، فلما دنا منها أنكرت عليه مسّه ، ففتحته عنها ، وقالت : لعن الله سرّاً عند المعيدى ، وجاءت الوليدة فأخرجته ، فأثنى المرقش فأخبره ، فعصّ على إبهامه فقطعها أسفاً وهام على وجهه حياءً . وخلد القصة في شعره^٦ .

وكان هرب من المنذر وأثنى الشام ، فقال :

أبلغ المنذر المنقبَ غني غير مستعيب ولا مستعين
لاتَ هنا ولبنتي طرفَ الرّج وأهلي بالشّام ذاتِ القرون^١

١ أمالي المرتضى (٧٨/٢) .

٢ بروكلمن (١٠٢/١) .

٣ غرونبوم (٢٧٩) .

٤ الشعر والشعراء ، لابن قتيبة (١٠٥ وما بعدها) ، الاغاني (١٩٣/٥ وما بعدها) ، للمرزباني (٢٠١) ، بروكلمن (١٠٣/١) ، (٤ وما بعدها) ، (فراج) ، المؤتلف (١٨٤) ، المفضليات (١١٤) ، الاغاني (١٣٦/٦ وما بعدها) ، رسالة الغفران (٣٥٧) .

٥ الشعر والشعراء (١٤٣/١) ، (الثقافة) .

٦ الشعر والشعراء (١٤٤/١) ، (الثقافة) .

وصاحبتہ بنت عجلان ، أمة كانت لبنت (عمرو بن هند) ، وفيها يقول :
يا بنت عجلان ما أصبرني على خطوب كنت بالقدم

ومن شعره المشهور هذا البيت :

ومن يلق خيراً يحمد الناس أمره^١ ومن يفر لا يعلم على الغي لائماً^٢

ويعد المرقش الأصغر أشعر من عمه ، ويغلب على شعره الغزل ، وهو أكثر
صقلاً ، وأقرب مطابقة لأسلوب المتأخرين^٣ .

ومن شعراء الهامة : (المتلمس) ، وهو (جرير عبد المسيح) ، وقيل
(جرير بن عبد العزى) ، وقيل غير ذلك ، وهو من بني ضبيعة ، وأخواله
(بنو بشكر) . وهو خال (طرفة) ، لقّب بالمتلمس لبيت قاله ، هو :

فهذا أوان العرض حياً ذبابه زنايره والأزرق المتلمس

وقيل ان اسم أبيه (عبد العزى) ، وهو من أسماء الوثنيين، ويظهر انه تنصر
فسمى نفسه عبد المسيح^٤ .

وكان ينادم (عمرو بن هند) ملك الحيرة هو وطرفة بن العبد ، فبلغه أنها
هجوا ، فكتب لها الى عامله بالبحرين كتابين ، أوهمها انه أمر لها فيها بجواهر ،
وكتب اليه يأمره بقتلها ، فاستراب (المتلمس) من الكتابين وعرض كتابه على
غلام من أهل الحيرة ، فقرأه فإذا فيه أمر بقطع يديه ورجليه ، ودفعه حياً ،
فزقه ، ورماه في نهر الحيرة ، وقال لطرفة : ادفع اليه صحيفة يقرأها ، فأبى
وذهب الى البحرين فقتله عامل (عمرو بن هند) . وهرب المتلمس الى بصرى

١ الشعر والشعراء (١٤٣/١ وما بعدها) ، (فمن يلق خيراً) ، أمالي المرتضى
(٢٤٦/٢) .

٢ بروكلمن (١٠٣/١) .

٣ بروكلمن ، تاريخ الآداب العربية (٩٣/١) ، الشعر والشعراء (١١٢/١ وما
بعدها) ، الخزائن (٧٣/٣) ، (بولاق) .

فهذا أوان العرض جن ذبابه زنايره والأزرق المتلمس
السيوطي ، شرح شواهد (٢٩٨/١) ، الاشتقاق (١٩٣/١) ، البيان (٣٧٥/١) .

واستقر هناك الى أن مات بها . وضرب المثل بصحيفة المتلمس^١ .

و (المتلمس) من (ضبيعة أضجم) ، وقد نسبت الى (الحارث الأضجم) ، وكان قديم السؤدد فيهم ، كانت تجيى اليه أناتهم^٢ .

وقد ذكر (العيني) أن البيت المنسوب الى (المتلمس) ، وهو البيت الذي ضرب به المثل ، فقيل صحيفة المتلمس ، ونصه :

ألقي الصحيفة كي يخفف رحله والزاد حتى نعله ألقاها

ليس من نظم المتلمس ، ولم يقع في ديوان شعره ، وإنما هو لأبي مروان النحوي ، قاله في قصة المتلمس حين فرّ من عمرو بن هند . وكان قد هجا عمرو بن هند ، وهجاه أيضاً طرفة بن العبد ، فقتل طرفة وفرّ المتلمس . وبعد البيت المذكور :

ومضى يظن بريد عمرو خلفه خوفاً وفارق أرضه وقلاها^٣

ويحتمل على رأي (بروكلمن) أن تكون قصة الصحيفة مختلفة ، وكذلك القصيدة التي ورد فيها ذلك البيت^٤ .

قال الشرف (المرتضى) : « ويقال ان صاحب المتلمس وطرفة في هذه القصة هو النعمان بن المنذر ، وذلك أشبه بقول طرفة :

أبا منذر كانت غروراً صغيّتي ولم أعطكم في الطوع مالي ولا عرضي
أبا منذر أنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشر أهون من بعض

وأبو منذر هو النعمان بن المنذر ، وكان النعمان بعد عمرو بن هند ، وقد مدح

١ الشعر والشعراء (١١٢/١ وما بعدها) ، الاغاني (١٢٠/٢١) ، الخزائن (٤٤٦/١) ، (بولاق) ، الميداني ، أمثال (٢٧٠/١) ، أمالي المرتضى (١٨٣/١ وما بعدها) .

٢ الاشتقاق (١٩٢/١) .

٣ العيني ، المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الالفية (١٣٤/٤) ، (حاشية على خزائن الادب) .

٤ بروكلمن (٩٤/١) .

طرفة النعمان ، فلا يجوز أن يكون عمرو قتله ، فيشبه أن تكون القصة مع النعمان^١. وفي شعر المتلمس ما يتعلق بأخبار القبائل ، وفيه هجاء لعمر بن هند . وهو من الشعراء المقلين . قال أبو عبيدة : واتفقوا على أن أشعر المقلين في الجاهلية ثلاثة : المتلمس ، والمسيب بن علس ، وحصين بن الحجاج المري^٢ . وذكر أنه أخذ يهجو (عمرو بن هند) من منافاه ، ويحرض قوم طرفة على الطلب بدمه . فن جملة ما قاله قصيدته :

إن العراق وأهله كانوا الهوى فإذا نأى بي ودهم فليعد

ولما تهده (عمرو) ، وحلف أن وجده بالعراق ليقتله وإن لا يطعمه حب العراق ، قال المتلمس :

آليت حب العراق الدهر أطعمه والحب يأكله في القرية السوس
لم تدر بصرى بما آليت من قسم ولا دمشق إذا ديس الكراديس^٣

وبقي ببصرى حتى هلك بها ، وكان له ابن يقال له : عبد المدان ، أدرك الاسلام ، وكان شاعراً ، هلك ببصرى ولا عقب له^٤ .

وكان طرفة بن العبد وخاله المتلمس وفدا على (عمرو بن هند) ، فترلا منه خاصة ونادماه ، ثم اتهاها هجواه بعد ذلك ، فكتب لها كتابين الى البحرين وقال لها : إني قد كتبت لكما بصلة ، فاشخصا لتقبضاها . فخرجا من عنده ، والكتابان في أيديهما ، فرآ بشيخ جالس على ظهر الطريق منكشفاً يقضي حاجته ، وهو مع ذلك يأكل ويتفلى ، فقال أحدهما لصاحبه : هل رأيت أعجب من هذا الشيخ ؟ فسمع الشيخ مقالته فقال : ما ترى من عجيبي ؟ أخرج خبيثاً ، وأدخل طيباً ، وأقتل عدواً ، وإن أعجب مني لمن يحمل حتفه وهو لا يدري . فأوجس المتلمس في نفسه خيفة وارتاب بكتابه . ولقيه غلام من الحيرة فقال : أتقرأ يا غلام ؟

١ أمالي المرتضى (١٨٥/١) .

٢ الشعر والشعراء (١١٥/١) .

٣ الخزائن (٧٥/٣) ، (بولاق) .

٤ الشعر والشعراء (١١٥/١) ، (دار الثقافة) .

قال : نعم . ففَض خاتم كتابه ودفعه الى الغلام فقرأه عليه ، فلماذا فيه : إذا أتاك المتلمس فاقطع يديه ورجليه واصلبه حياً . فأقبل على طرفة فقال : تعلم والله ، لقد كتب فيك بمثل هذا . فلم يلتفت الى قول المتلمس ، وألقى المتلمس كتابه في نهر الحيرة وهرب الى الشام ، وأخذ يهجو عمرو بن هند^١ .

ورويت القصة بشكل آخر خال من التزييق والتنميق نوعاً ما . ذكرت ان المتلمس وطرفة بن العبد هجوا عمرو بن هند ، فبلغه ذلك ، فلم يظهر لها شيئاً ، ثم مدحاه فكتب لكل منها كتاباً الى عامله بالحيرة (٩) ، وأوهم انه كتب لها فيه بصلة . فلما وصلا الحيرة ، قال المتلمس لطرفة : إنا هجوناه ، ولعله اطلع على ذلك ، ولو أراد أن يصلنا لأعطانا ! فهلم ندفع الكتابين الى من يقرأهما ، فإن كان خيراً وإلا ندرنا . فامتنع طرفة ، ونظر المتلمس الى غلام قد خرج من المكتب فقال : أحسن القراءة ؟ قال : نعم . فأعطاه الكتاب ففتحه ، فإذا فيه قتله . فقرر المتلمس الى الشام وهجا عمرأ هجاءً قديماً . وأتى طرفة الى عامل الحيرة بالكتاب فقتله^٢ . وقد حلت الحيرة في هذه القصة في محل البحرين ، وصار العامل للقاتل عامل الحيرة ، وخلت من ذكر الشيخ .

وطرفة هو القاتل في قصيدة له :

سبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وكان النبي إذا استراث الخبر يتمثل بعجز هذا البيت من هذه القصيدة^٣ .

ومن الشعر المنسوب اليه ، قوله :

قليل المال تصلحه فيبقى ولا يبقى الكثيرُ على الفساد
وحفظ المال خير من بُغاه وجول في البلاد بغير زاد

وقوله :

ولا يقيم على ذل يُراد به إلا الأذلان : غير الحمي، والوند
هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشج فلا يرثي له أحد

١ السيوطي ، شرح شواهد (١ / ٢٩٥ وما بعدها) ، المرزباني ، معجم (٥) ، (فراج) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (١ / ٣٧١) ، الشعر والشعراء (١ / ١١٢) .
٣ المرزباني ، معجم (٦) .

وقوله :

ولو غير أخوالي أرادوا تقيصتي جعلت لهم فوق العرائن ميسما
وما كنت إلاّ مثل قاطع كتفه بكفّ له أخرى فأصبح أجلما^١

وذكر أن النبي كتب لعينة بن حصن كتاباً ، فقال : يا محمد أتراني حاملاً
الى قومي كتاباً كصحيفة المتلمس . أي لا أحمل الى قومي كتاباً لا علم لي بما
فيه . وقد أشير الى (صحيفة المتلمس) في شعر الفرزدق^٢ ، وفي شعر شعراء
آخرين^٣ .

ونسب الى (المتلمس) قوله :

وأعلمُ علمَ حقٍ غير ظنٍّ وتقوى الله من خير العتاد
لحفظ المال أيسر من بُغاه وضرب في البلاد بغير زاد
ولاصلاح القليل يزيد فيه ولا يبقى الكثير مع الفساد^٤

وله شعر في الأقارب ذكره له الجاحظ في كتاب الحيوان^٥ .

والمسيب بن علس ، واسمه (زهير بن علس) ، وانما لقب بالمسيب بقوله :

فإن سرّكم ألا تؤوب لقاحكم غزاراً فقولوا للمسيب يلحق^٦

و (المسيب بن علس بن مالك بن عمرو بن قامة) ، هو من (جاعة) ،
وهم من (بني ضبيعة بن ربيعة بن نزار) ، ويكنى (أبا الفضة) ، وهو
خال الأعشى ، وكان الأعشى راويته . واسمه : (زهير بن علس) . وانما
سمي (المسيب) لبيت قاله ، هو :

فإن سرّكم ألا تؤوب لقاحكم غزاراً فقولوا للمسيب يلحق

-
- ١ بلوغ العرب (١١٢/٣) وما بعدها .
 - ٢ السيوطي ، شرح شواهد (٢٩٧/١) .
 - ٣ الحيوان (٨٥/٢) .
 - ٤ الحيوان (٤٧/٣) .
 - ٥ (١٣٦/٣) .
 - ٦ الشعر والشعراء (١٠٨/١) .

وهو جاهلي لم يدرك الاسلام ، من شعراء بكر بن وائل الملعودين . وكان
امتدح بعض الأعاجم ، فأعطاه ، ثم أتى عدواً له من الأعاجم يسأله ، فسمته
فات ، ولا عقب له^١ .

وقد ذكر (الهمداني) ان الأعشى يحتذي في شعره على مثال (المسيب) ،
وكان الأعشى راويته^٢ .

وله قصيدة قالها في (القعقاع بن معبد بن زرارة) ، فيها :

فلأهدين مع الرياح قصيدة مني مغلفة الى القعقاع
أنت الذي زعمت معد أنه أهل التكرم والتدى والباع^٣

وقد أورد (الهمداني) له قصيدة زعم أنه قالها في مدح (زيد بن مرب) ،
أو في مدح ابن ابنه (زيد بن قيس بن زيد) أولها :

كلفت بليلي خدين الشباب وعالجت منها زماناً خبالاً
لها العين والجيد من مغزل تلاعب في القفرات الغزالا^٤

وقد ذكر (الجاحظ) شعراً قال انه لغيلان بن سلمة الثقفي ، هو :

في الآل يخفضها ويرفعها ريع^٥ كأن متونه السحل^٦
عقلاً ورقاً ثم أردفه كليل^٧ على ألوانها الحمل^٨
كدم الزعاف على مآزرها وكأنهن ضوامراً لإجل^٩

وعقب عليه بقوله : « وهذا الشعر عندنا للمسيب بن علس » .

وقد نشر ديوان (المسيب بن علس) في سلسلة نشرات (كب) Gibb
بلندن سنة (١٩٢٨م)^{١٠} .

١ الاشتقاق (٣١٦) ، الخزائن (٥٤٥ / ١) ، الشعر والشعراء (١٠٧ / ١) ، ابن

سلام ، طبقات (٣٦) ، القاب الشعراء (٣١٥) ، الخزائن (٩ / ٢) ، (بولاق) .

٢ الاكلیل (٣٠٧ / ٢) ، الشعر والشعراء (١٠٨ / ١) ، أمالي المرتضى (٥٦٠ / ١) .

٣ ابن سلام ، طبقات (٣٦) .

٤ الاكلیل (٣٠٤ / ٢) وما بعدها () .

٥ الحيوان (٣٣٥ / ٦) .

٦ بروكلمن (١٥١ / ١) . Gibb, Memorial, London 1928.

ومن شعراء اليمامة : (ذو الكف الأشل) ، واسمه (عمرو بن عبد الله بن حنيفة) من بني قيس بن ثعلبة ، يكنى أبا جلان ، فارس شاعر جاهلي، توعده (بنو حنيفة) فقال فيها شعراً^١ .

و (الفند) ، هو (شهل بن شيان بن ربيعة بن زِمَان بن مالك بن صعب) الزماني من شعراء الجاهلية. وله قصيدة في حرب البسوس^٢. وهو من (بني حنيفة): وكان أحد فرسان ربيعة المشهورين ، شهد حرب بكر وتغلب، أي حرب البسوس ، فكتب بنو بكر بن وائل الى بني حنيفة يستنصرونهم ، فأمدوهم بالفند الزماني في سبعين رجلاً^٣ ، وكتبوا اليهم إنا قد بعثنا اليكم ألف رجل^٤ .

ومن الشعر المنسوب اليه ، قوله :

كففتنا عن بني هند وقلنا : القومُ إخوانُ
عسى الأيام ترجعهم جميعاً كالذي كانوا
فلما صرح الشرُّ وأضحى وهو عربان
شددنا شدة الليث عدا والليث غضبان
بضرب فيه تفجيع وتوهين^٥ وارنان
وطعن كغم الزق وهى والزق ملان^٦

وقد وردت هذه الأبيات في (الخزانة) بشيء من الاختلاف^٧ .

و (عمرو بن عبد العزى بن سحيم بن مرّ بن الدئل) الحنفي ، من بني حنيفة ، وهو شاعر جاهلي^٨ ، وكذلك كان (عمرو بن الذارع) الحنفي من الشعراء الجاهليين^٩ .

-
- ١ المرزباني ، معجم (١٤) .
 - ٢ الحماسة (٢١/١) ، الخزانة (٥٧/٢) ، السيوطي ، شرح شواهد (٩٤٤/٢) ، الاغانى (١٤٣/٢٠ وما بعدها) ، الاشتقاق (٢٠٧) ، الحماسة ، للبحري (٧٤) الحماسة لابن تمام (٦/١) .
 - ٣ الخزانة (٥٧/٢ وما بعدها) .
 - ٤ الحيوان (٤١٥/٦ وما بعدها) ، الامالي ، للقالبي (٢٦٠/١) .
 - ٥ الخزانة (٥٨/٢) .
 - ٦ المعجم ، للمرزباني (٤٠) .
 - ٧ المعجم ، للمرزباني (٤١) .

ومن شعراء اليمامة أيضاً (موسى بن جابر بن أرقم بن سلمة بن عبيد)
الحنفي اليمامي . وكان جاهلياً نصرانياً ، يلقب بـ (أزيق) اليمامة . ويعرف
بـ (ابن ليلى) ، وهي أمه . وهو شاعر كثير الشعراء ، وعرف أيضاً بـ (ابن
الفربعة)^٢ . وورد أنه كان من الشعراء الاسلاميين^٣ .

ومن شعراء اليمامة : (مجاعة بن مرارة بن سلمى^٤ بن زيد بن عبيد بن ثعلبة
ابن يربوع بن ثعلبة بن الدؤل بن حنيفة) الحنفي اليمامي ، وكان من رؤساء
حنيفة ، وأسلم ووفد ، وأعطاه الرسول أرضاً باليمامة يقال لها (العورة) ، وكتب
له كتاباً بذلك ، وكان بليغاً حكيماً ، وكان ممن أسر يوم القيامة ، فأشير على
(خالد) باستبقائه فأبقاه ، وكان قد انضم الى (مسيلمة)^٥ .

ومن شعراء اليمامة (ثمامة بن اثال) ، وكان من ساداتها ، ولما أسلم قطع
الميرة عن أهل مكة ، وكانوا قد عتبوا عليه لدخوله في الاسلام ، حتى شق عليهم
ذلك ، فكتبوا الى الرسول : انك تأمر بصلة الرحم ، وإننا قد هلكنا ، فكتب
الى ثمامة ان خل اليهم الحمل ، فخلاه اليهم . وكان قد ثبت على الاسلام ، ولم
يرتد مع مسيلمة . وتوفي سنة (١٢) للهجرة^٦ . وذكر من شعره قوله :

دعانا الى ترك الديانة والهدى مسيلمة الكذاب اذا جاء يسجع
فيا عجباً من معشر قد تتابعوا له في سبيل اللغي والغي أشنع^٧

وأشير الى شاعرة من شاعرات (بنى عجل) اسمها (حسينة) ، وكان
(عمرو بن الحارث بن أقيش) العكلي ، قد أسرها ، في يوم العذاب في الجاهلية ،
وهو يوم أغارت فيه (بنو عبد مناة بن أد بن طابخة) على عجل وحنيفة بأرض

-
- ١ المرزباني (٢٨٥) ، شرح الحماسة ، للمرزوقي (٣٢٦) .
 - ٢ الخزائن (١٤٦/١) ، (بولاق) ، المؤلف (١٦٥) ، الاغاني (١٠٧/١٠) .
 - ٣ الحيوان (٢٨٠/٤) .
 - ٤ الحيوان (٢٨٠/٤) ، (حاشية ٥) .
 - ٥ وقيل سليم .
 - ٦ الاصابة (٢٤٢/٢) ، (رقم ٧٧٢٤) ، المرزباني ، معجم (٤٤٢) ، خليفة بن خياط
كتاب الطبقات (٦٦) .
 - ٧ الاصابة (٢٠٤/١) ، (رقم ٩٦١) ، الجمان في تشبيهات القرآن ، لابن ناقيـا
البغدادي (٢٨٣) .
 - ٨ الاستيعاب (٢٠٨/١) ، (حاشية على الاصابة) .

جو باليامة ، ففادها أخرى (أبحر بن جابر بن مجير بن شريط) العجلي بمائة من الإبل وخمسة أفراس^١ .

وإذا تجوزنا فادخلنا (الحيرة) في جملة هذه القرى ، وجب اعتبار (عدي بن زيد) العبادي ممثلها الأول ، إذ لم يبلغ أحد مبلغه في الشعر من بين رجال هذه المدينة . فهو المقدم على جميع شعراء الحيرة التي كان يفد إليها الشعراء ، ولاكثرهم ذكريات مع ملوكها ، الذين كانوا يجزلون العطاء لمن يمدحهم ويكيل لهم بالثناء ، لا لمجرد حب الاستماع الى المدح والثناء والإطراء ، بل لما لشعر المديح ولشعر الهجاء من أثر كبير في حياة ذلك اليوم ، فالشعر هو من أهم وسائل الإعلام في ذلك الوقت ، وللدعاية والإعلام وجلب الناس نحو الممدوح أهمية كبيرة بالنسبة الى رجال الحكم والسياسة في كل زمان ومكان ، إن كذباً وإن صدقاً ، فالسياسي يريد تحقيق سياسته ، بأية وسيلة كانت ، حتى إن كانت بالكذب والغش والتزوير ، فالشعر من وسائل الخدمة السياسية التي استعان بها ملوك الحيرة في بسط نفوذهم في جزيرة العرب .

و (عدي بن زيد) العبادي هو ابن الحيرة ، فهو لسان هذه المدينة ، أما بقية الشعراء ، فقد كانوا يأتون هذه المدينة ، لنيل صلة أو لقضاء أمر ، ثم يعودون الى ديارهم ، ومنهم من كان يطيل المقام بها ، فيتأثر بثقافتها وبمحيطها حسب قابلياته وسرعة استجابته للمؤثرات الخارجية . ويظهر انه كان لأهل الحيرة ولعرب العراق عامة ذوق خاص في الشعر ، ولهم حب لتنويع البحور ، والتزام البحور السهلة المؤثرة ، وميل الى التنوع في الوزن ، والتعبير أحياناً عن بعض أفكار مستمدة من البداوة ، والظهور بلون محدد من التراث المحلي^٢ .

يقول (غرونبوم) : « وليس من الغريب أن نجد التفنن في الأوزان الشعرية في العراق أغنى مما كان عليه في أي مكان آخر ، وذلك لأن أجيالاً كثيرة هي التي عاشت في المدينة وفي البلاط ، ونزعت بطبيعة وضعها الى التحسين في تلك الفنون ، ولكن الغريب المدهش حقاً ان نرى أبا دؤاد يعرض علينا أغنى تنوع عروضي في الشعر العربي القديم ، لأن شعره جاء على اثني عشر بحراً . وإذا

١ المرزباني ، معجم (٣٧) .

٢ غرونبوم (٢٦٤) .

عدينا أمر التنوع في الأوزان ، وجدنا هذه المدرسة قد أكثرت من بحر الرمل ، ولا يستعمل هذا البحر في الشعر القديم إلا أبو ذؤاد في ثلاث قصائد ، وطرفة في ثلاث قصائد ، وعدي في سبع قصائد ، والمنقب في واحدة ، والأعشى في اثنتين. ولا يستثنى من هذا الحكم أيضاً إلا امرؤ القيس ، القصيدة ١٨ . وأقول ان هذه الحقيقة تقوي الرواية التي تقول انه كان راوية لأبي ذؤاد ١ .

وقد لفت نظره وجود هذا البحر : بحر الرمل في العراق ، ونمونه بالحيرة بصورة خاصة ، وعلل ذلك بقوله : « ان الرمل استعير من الوزن البهلوي الثماني مقاطع كما صورّه (بنفيسسته) (المجلة الآسيوية ٢ : ٢٢١ ، ١٩٣٠) ، وانه عدل على نحو يلائم العروض العربي . والحق ان ليس من عقبة داخلية تقف دون القول بوجود أثر فارسي في النسق الشعري العربي ، في المناطق المجاورة للدولة الفارسية والتابعة لها ، ولأؤيد هذه النظرية أحيل القارئ على بحر المتقارب ، فقد أثبت (بنفيسسته) انه مشتق من البحر البهلوي Hendekasyllabic ذي الأحد عشر مقطعاً اثباتاً يكاد لا يقبل الشك ٢ .

ولاحظ (غرونبوم) أن الخاصية العروضية الثانية لمدرسة الحيرة هي نزوعها الى بحر الخفيف ، وعند أبي ذؤاد منه خمس عشرة قصيدة ، وعند عدي سبع ، وعند الأعشى خمس ، ولم يستعمل هذا البحر عند الشعراء المعاصرين إلا على نحو عارض ٣ . ولكننا نجد بحر الخفيف في شعر (عمرو بن قيثه) ٤ ، وفي شعر للمرقش الأكبر ٥ ، والمرقش الأصغر ٦ ، وفي شعر لعبيد ٧ ، وفي شعر ينسب لعامر ابن العليل ٨ ، ومعلقة الحارث بن حلزة ٩ .

ويعتبر (شوارتز) بحري الرمل والخفيف نوعاً من الإيقاع الفارسي ، انتقل الى العربية . أما تأثير الشعر الساساني في الأعشى فيشهد به قطعة (بهلزية) طبعها

-
- ١ غرونبوم (٢٦٥ وما بعدها) .
 - ٢ غرونبوم (٢٦٥ وما بعدها) .
 - ٣ غرونبوم (٢٦٦) .
 - ٤ القصيدة ٦ و ٩ (ليل) .
 - ٥ المفضليات (٤٨) .
 - ٦ المفضليات (٥٩) .
 - ٧ عبيد (١١) و (٢٧) .
 - ٨ القصيدة (٥) ، والقطعة (١٤) ، (ليل) .
 - ٩ غرونبوم (٢٧٧) .

(بنفيسسته) وترجمها، وقطعة أبيي دؤاد ١٤ ، و ٢١٨ ، وما فيها من إشارة الى البيزرة ، تدلان على أثر الحضارة الساسانية في العراق .

وقد تعرض (بروكلمن) لموضوع تأثير الشعر الجاهلي بمؤثرات أجنبية ، فأذكر ذلك ، إذ قال : « وأما ما زعمه بعض العلماء من أن مؤثرات أجنبية أثرت في فن الشعر القديم ، فليس هناك ما يؤيده ، نعم يريد بورداخ أن يرجع النسب العربي الى شعر القصور اليونانية بالاسكندرية ، لأن أكثر النسب العربي يقال في عشق النساء المتزوجات ، كما هو الحال عند شعراء ملوك الإسكندرية، ويتصور انتقال هذه الصناعة الى العرب عن طريق شعراء الملوك في الشام والعراق . ولكن مثل هذه الأبيات الغزلية ، التي تشبه النسب في مطلع القصائد وإن لم تبلغ بعد نمواً كاملاً ، يعرفها أيضاً شعر التكرية في أوائل القصائد المطولة وفي أواخرها .

ولا شك أنه من قبيل المصادفة والاتفاق أن يبدو في قصيدة للمسيب بن علس، يتكرر فيها ست مرات هذا الخطاب : ولأنت ، صدى ورنين لأسلوب الأنشودة القديم الذي يتميز به أكنوستوس قيس . كما وضع ذلك الأستاذ نوردين^٢ .

ونرى في الشعر العراقي وفي شعر سواحل الخليج ، أي العربية الشرقية ، ذكراً للبحر والسفن . وفي شعر طرفة قوله :

كأن حدوج المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصف من دَدِ
عدولية أو من سفين ابن يامن يجورُ بها الملاح طوراً ويهتدي
يشق حَبَابَ الماء حيزومها بها كما قسم التّربّ المقابل باليد^٣

وصف للبحر ولسفن رجل يظهر انه كان يهودياً صاحب سفن ، ولا نجد هذا الوصف أو الالتفاتة الى البحر في شعر الشعراء القاطنين البوادي، أو الذين لم يروا النهرين الكبيرين في العراق أو ساحل الخليج . فهذا الوصف هو من خصائص

جوعته القناص للدراج

١ فانتحي مثل ما انتحي باز دجن
الاغاني (٩٥/١٥) ، من الخفيف .

٢ اذا شاء فارسه ضمه كما ضم باز اليه الجناح
غرونيابوم (٣٠٢) .

٣ بروكلمن (٦٢/١) .

٤ البيت رقم (٣) وما بعده من معلقته .

البلاد التي تكون على سواحل البحار .

وليس وجود السهولة في الشعر العراقي مثل شعر (عدي بن زيد) ، أو في شعر أهل القرى ، بأمر غريب . وقد عبر عنها بالليونة كذلك . فالحضارة ، أي الحياة في القرية أو في المدينة ، أو حياة أهل المدر ، هي ليونة وسهولة في حد ذاتها بالنسبة الى حياة البوادي والبراري ، حيث الخشونة والغلظة في الحياة ، ومن ثم صار الأعرابي غليظاً فظاً خشناً ، يتكلم بمنهجية لا يفهمها أهل المدر والاستقرار ، فيتصورونها فظاظه منه وغلظة ، وانسان على هذا النحو من الطبع أو التطبع ، لا بد وأن يكون شعره خشناً مثله ، فالشعر تعبير عن احساس نفسي ، وعن انعكاس لثقافة المرء ولتربيته الناتجة عن محيطه ، ولهذا نجد شعر شعراء القرى يختلف عن شعر أهل البوادي ، بألفاظه وبأسلوب نظمه وبمعانيه وبروحه الحضرية .

وقد وصف شعر (عدي) بالليونة ، ونسبوا ذلك الى سكنه الحضر . « وأما عدي بن زيد فلقرية من الريف وسكنه الحيرة في حيز النعمان بن المنذر لانت ألفاظه فحمل عليه كثير ، وإلا فهو مقل »^١ . وقالوا عنه « وعدي من الشعراء مثل سهيل في النجوم : يعارضها ، ولا يجري معها . هؤلاء أشعارهم كثيرة في ذاتها ، قليلة في أيدي الناس ، ذهبت بذهاب الرواة الذين يحملونها »^٢ . وقيل عن شعره : « والعرب لا تروي شعره ، لأن ألفاظه ليست بنجدية ، وكان نصرانياً من عباد الحيرة ، قد قرأ الكتب »^٣ . وقد أرادوا بالكتب ، الكتب المقدسة التوراة والأنجيل والكتب النصرانية الأخرى . ولم يشيروا الى لغتها ، والأغلب أنها كانت بالإرامية التي كانت شائعة في العراق وبين نصارى المشرق ، ولكني لا استبعد احتمال وجود بعض منها باللغة العربية ، لأن غالبية أهل الحيرة كانت تتكلم بها ، ولا سيما الطبقة الحاكمة التي هي من صلب عربي . فلا يستبعد احتمال ترجمة بعض الكتب لهم بالعربية ، للوقوف عليها .

قال (أبو عبيدة) « إن العرب لا تروي شعر أبي ذؤاد وعدي بن زيد ، لأن ألفاظها ليست بنجدية ، فلا بد أن يكون أساس الشعر عندهم على صميم العربية

١ العملة (١٠٤/١) .

٢ العملة (١٠٤/١) ، الاغانى (١٨/٢) .

٣ الشعر والشعراء (١٠٤/١) ، (الثقافة) .

من لسان مضر ، وما عدا ذلك فهو مما تبعث عليه فطرة صاحبه ، ولكن العرب لا يبالون به ولا يروونه ، وعلى هذا مشى المتأخرون في الاحتجاج بالشعر العربي ، فالعلماء لا يرون شعر عدي بن زيد حجة ، لأنه كان يسكن بالحيرة ويدخل الأرياف ، فنقل لسانه ؛ وهذا الاعتبار يحدد لنا منشأ الشعر^١ . ولكننا لو تصفحنا شعر الشواهد، نجد أن فيه شعراً من شعر عدي ، استشهد به في القواعد^٢ ، وقد ذكر (الجاحظ) أن (أبا إياس) النصري ، وكان أنسب الناس ، كان يقول : « كانوا يقولون : أشعر العرب أبو دؤاد الإيادي ، وعدي بن زيد العبادي »^٣ .

والواقع ان شعر (عدي) أقرب إلينا من شعر أهل البادية ، وأسهل فهماً ، وفيه معان حضرية لا نعر عليها في شعر شعراء أهل الوب ، ونجد في شعره ألفاظاً معربة ، استشهد بها (الجواليقي) في كتابه المعرب ، وذلك دليل على تأثره بمحيطه وببلدته التي كانت عربية نبطية فارسية ، تلعب بها تيارات ثقافية متباينة ، وهو يخالف شعراء البوادي ، في ابتعاده عن الأعاريض الطويلة ، وميله الى الأعاريض القصيرة ، ثم في أسلوب خبرياته الشبيهة بخمريات الأعشى وحسان بن ثابت ، ثم يخالف شعراء نجد في أفكار الزهد والتصوف التي ترد في شعره ، والتي لا ترد ولا تخطر على بال الشاعر الأعرابي^٤ .

وعدي بن زيد العبادي ، هو (عدي بن زيد بن حماد بن أيوب) ، وقيل : (عدي بن زيد بن حمار (حماز) بن زيد بن أيوب بن مجروف (محروف) ابن عامر بن عصبه (عصبية) بن امرئ القيس بن زيد مناة بن تميم) ، وقيل : عدي بن زيد بن أيوب بن حمار (حماد) (جمار) ، أحد بني (امرئ

١ الرافعي (٨/٢ وما بعدها) ، الاغانى (٩٧/١٥) ، الشعر والشعراء (١٥٠ وما بعدها ، ١٦٢) .

٢ شرح شواهد المغنى ، للسيوطي (٦٥٨/٢) .

٣ البيان والتبيين (٣٢٣/١) .

٤ كارلو نالينو (٩٠ وما بعدها) .

القيس بن زيد مناة بن تميم ^١ . وكان كاتباً لكسرى على ما يجتبي من الغور ، وكان سبب ملك النعمان بن المنذر . وكان كسرى مكرماً له محباً ، وكان عدي أنبل أهل الحيرة وأجودهم منزلة ولو أراد أن يملكه كسرى على الحيرة ملكه ، ولكن كان يحب الصيد واللهو ، ولم يكن راغباً في ملك العرب ^٢ . وعرف بـ (أبي سودة) ^٣ .

وجده عدي أول من سمي من العرب بأيوب ، وجده (جمار) (حمار) (حماد) (حماز) أول من كتب من العرب ، لأنه نزل الحيرة فتعلم الكتابة منها . وذكره الجهمي في الطبقة الرابعة من شعراء الجاهلية ، وقال : هم أربعة رهط ، فحول شعراء ، موضعهم من الأوائل ، وإنما أدخل بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة ، طرفة وعبيد بن الأبرص ، وعلقمة بن عبدة ، وعدي بن زيد ^٤ . وذكر أن (حمازاً) ، كان أول من تعلم الكتابة (من بني أيوب) وكتب للنعمان الأكبر ^٥ .

وكان لعدي بن زيد عدو من أهل الحيرة يقال له : (عدي بن أوس) من (بني مريثا) ، سبق أن تحدثت عنه ، أوغر صدر (النعمان) على عدي حتى حبسه بالصنمين ، سجن بظاهر الكوفة ، فقال عدي بن زيد شعره كله أو أكثره في الحبس حتى مات به ^٦ . وكان موته من جملة أسباب القضاء على حكم النعمان ^٧ .

-
- ١ . توجد اختلافاً بين النسخ المطبوعة في ضبط الاعلام ، في مثل « حماد » و « مجروف » و « عصبه » ، وذلك بسبب ، اختلاف النسخ الخطية الاصلية في ضبط هذه الاسماء لتحريف وقع بها من النساخ ، فأخذ كل محقق ما وجده في نسخته ، أو في النسخ ، وبسبب الاخطاء المطبعية ، راجع الشعر والشعراء (١٥٠/١ ، ١٥٣) ، (الثقافة) ، (حماد) ، و « حمار » في معجم الشعراء ، للمرزباني (٨٠) ، (اخراج عبد الستار أحمد فراج) ، (حمار) ، (كذا في اوهي احدى روايتين في اسمه ، وجعلها الشنقيطي « حماد » بالبدال ، ويروي « حماز » و « خمار ») ، اسماء المفتالين (١٤٠) ، (تحقيق عبد السلام هارون) ، طبقات ابن سلام (١١٧) ، الاغانى (١٧/٢) ، الخزائن (١٨٤/١) ، الموشح (٧٢) .
 - ٢ . المرزباني ، معجم (٨٠ وما بعدها) ، (فراج) ، طبقات ابن سلام (٣١) ، رسالة الفبران (١٤٦ وما بعدها) .
 - ٣ . رسالة الفبران (١٨٦ ، ٢٠٣) .
 - ٤ . السيوطي ، شرح شواهد (٤٧١/١ وما بعدها) .
 - ٥ . الشعر والشعراء (١٥٣/١) .
 - ٦ . كتاب أسماء المفتالين من الاشراف في الجاهلية والاسلام ، لمحمد بن حبيب (١٤٠ وما بعدها) ، (تحقيق عبد السلام هارون) .
 - ٧ . السيوطي ، شرح شواهد (٦٥٨/٢ وما بعدها) .

وقد ذكر عنه علماء الشعر ، انه كان نصرانياً هو وأهله ، وليس معلوداً من الفحول ، وعيب عليه أشياء . « وكان الأصمعي وأبو عبيدة يقولان : عدي بن زيد في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم ، يعارضها ولا يجري معها . وكذلك عندهم أمية بن أبي الصلت . ومثلها عندهم من الاسلاميين الكميّت والطرماح »^١ . وقيل عنه انه « كان يسكن بالحيرة ، ويدخل الأرياف ، فتقل لسانه ، واحتمل عنه شيء كثير جداً ، وعلماؤنا لا يرون شعره حجة ، وله أربع قصائد غرر احداهن :

أرواح مودع أم بٌكور لك ؟ فاعمد لأي حال نصير »

والثانية :

أنعرفُ رسم الدار من أم معبدٍ نعم ، فرماك الشوق قبل التجلد

والثالثة :

لم أرَ مثلاً للفتيان في غبن الـ أيام ينسون ما عواقبها

والرابعة :

طال ليلى أراقب التنويرا أرقب الليل بالصباح بصيراً^٢

ومن شعره :

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه فإن القرين بالمقارن مقتدي

يقال ان رسول الله قال : كلمة في ألقىت على لسان شاعر : إن القرين بالمقارن مقتدي^٣ .

ومن الأخباريين من نسب القصيدة التي مطلعها :

طال ليلى أراقب التنويرا أرقب الليل بالصباح بصيراً

١ السيوطي ، شرح شواهد (٤٧١/١) ، الخزانة (١٨٤/١) ، (بولاق) .
٢ الشعر والشعراء (١٥٠/١) وما بعدها ، (الثقافة) .
٣ المرزباني ، معجم (٨٢) ، (فراج) .

الى (سودة بن عدي) ، غير أن معظمهم يرى أنها لعدي^١ .
 وذكر (أبو العلاء) المعري ، أنه شاهد بعض الوراقين ببغداد ، يسأل عن
 قافية (عدي بن زيد) العبادي ، التي أولها :

بكر العاذلات في غلس الصبح يح يعاتبه أما تستفيق

وأن (ابن حاجب النعمان) ، وهو أبو الحسين عبد العزيز بن ابراهيم ، سأل
 عن هذه القصيدة وطُلبت في نسخ من ديوان عدي ، فلم توجد ، ثم سمع بعد
 ذلك أن رجلاً من أهل (أستراباذ) ، يقرأ هذه القافية في ديوان (العبادي) ،
 ولم تكن في النسخة التي في دار العلم^٢ . وقد أورد (المعري) قصائد من شعره
 في رسالة الغفران^٣ ، وأشار الى بعض ما نحل عليه ، وإلى بعض ما نسب إليه ،
 ونسب الى غيره^٤ .

وقال الأصمعي : كان عدي لا يحسن أن ينعت الخليل ، وأخذ عليه قوله في
 صفة الفرس : فارهاً متتابعاً . وقال : لا يقال للفرس (فاره) إنما يقال له
 جواد وعتيق ، ويقال للكودن والبغل والحمار : فاره^٥ . ووصف الخمر بالحضرة ،
 ولم يعلم أحد وصفها بذلك . وهو أول من شبه أباريق الخمر بالظباء^٦ . وقالوا
 عنه انه ممن أقر على نفسه بالزنا . وأوردوا له أبيات شعر في ذلك^٧ .

وفي شعر (عدي بن زيد) ، زهد الرهبان وتصوف المتصوفين ، فيه تذكير
 بالآخرة وتزهيد في الدنيا ، ووعظ بمصير محزن يلحق المغرورين العناية المتجبرين
 كالمصير الذي لحق الملوك الطفساء والأقوام الخالية ، ولا سيما في القصيدة التي
 يقول فيها :

-
- ١ الخزانة (١٨٣/١ وما بعدها) .
 - ٢ رسالة الغفران (١٧٣ وما بعدها) .
 - ٣ (ص ١٨٦ وما بعدها) .
 - ٤ رسالة الغفران (٣٣٥) .
 - ٥ الشعر والشعراء (١٥٤/١) ، (الثقافة) .
 - ٦ الشعر والشعراء (١٥٥/١) ، (الثقافة) .
 - ٧ الشعر والشعراء (١٥٦/١) ، (الثقافة) .

أين كسرى كسرى الملوك أنوشتر^١ وان ؟ أم أين قبله سابور ؟
 وبنو الأصغر الكرام ملوك الر^٢ وم ؟ لم يبق منهم مذكور
 وأخو الحضّر إذ بناه وإذ دجلة تجي إليه والخابور
 شاده مرمراً وجلله كلساً قللطي^٣ في ذراه وكور
 لم يهبه ريب المتون فبان الملك عنه فباه مهجور
 وتبين ربّ الخورنق إذ أشرف يوماً وللهدي تفكير
 سره ماله وكثرة ما يملك والبحر معرضاً والسدير
 فارعوى قلبه وقال فما غيطة^٤ حيّ الى الممات يصير ؟
 ثم بعد الفلاح والملك والنعمة وارثهم هناك القبور
 ثم صاروا كأنهم ورق جف فالتوت به الصبا والدبور^٥

وورد أن (هشام بن عبد الملك) ، كان في مجلس فخم ، فحدثه (خالد
 ابن صفوان) بحديث ملك الحيرة الذي اغتر بهذه الدنيا ، ثم أنشده قصيدة عدي
 ابن زيد) ، التي منها :

أبها الشامت المعير بالدهر أنت المبرأ الموفور ؟
 أم لديك العهد الوثيق من الأ^٦ يام ، بل أنت جاهل مغرور

حتى أتم انشادها عليه ، فبكى وتأثر^٧ . وورد في رواية أخرى أن قاتل هذا
 الشعر هو : أحد بني تميم (عدي بن سالم) المري العدوي . وقد ذكر ذلك
 (السهيلي) ، لكنه عاد بعد ذكره الشعر ، فقال : « والذي ذكره عدي بن
 زيد في هذا الشعر هو النعمان بن امرئ القيس جدّ النعمان بن المنذر . وأول
 هذا الشعر :

أرواح مودع أم بكور فانظر لأيّ ذاك تصير

قاله عدي وهو في سجن النعمان بن المنذر وفيه قتل^٨ . وروي أن (يونس

١ المقد الفريد (٣ / ١٩١) ، ابن هشام ، سيرة (١ / ٥٦) ، (حاشية على الروض) ،

٢ الجمان في تشبيهات القرآن (٣٠٤ وما بعدها) .

٣ الروض الانف (١ / ٥٨) .

النحوي) ، كان يقول : « لو تمنيت أن أقول شعراً ما تمنيت إلا هذا »^١ ،
أي القصيدة المذكورة .

وفي شعره الذي قيل انه قاله للنعمان بن المنذر ، وكان قد نزل معه في ظل
شجرة موقفة ليظهر النعمان هناك ، مثال على الحث على الزهد والابتعاد عن الدنيا
والافتناع بنبذها والترهب في هذه الحياة . تحدث فيه على لسان الشجرة ، مخاطباً
الملك ، قائلاً له بعد أن أرى ما عليه من الأنس والحبور : أيها الملك ؟ أبيت
اللعن ، أتدري ما تقول هذه الشجرة ؟ قال : وما الذي تقول ؟ قال : تقول :

من رآنا فليحدث نفسه انه مُوفٍ على قرن زوالٍ
وصروف الدهر لا يبقى لها ولما تأتي به صُمُ الجبال
ربَّ ركبٍ قد أناخوا حولنا يمزجون الحمرَ بالماء الزلال

الى أن يقول :

ثم أصبحوا عَصَفَ الدهرُ بهم وكذلك الدهرُ حالاً بعد حال

قالوا : فتنفص النعمان ، ونزع ملكه ، وخلعه عنه ، وترهب. الى غير ذلك
من أشعار له ، فيها هذا المعنى من الترغيب في الزهد والابتعاد عن لذائذ الدنيا^٢ .

و « حكي عن النعمان بن المنذر ، أنه خرج متصيلاً ومعه عدي بن زيد العبادي
فر بأرام - وهي القبور ، فقال عدي : أبيت اللعن أتدري ما تقول هذه الآرام ؟
قال : لا . قال : إنها تقول :

أيها الركب المخفون على الأرض تمرون
لكمّا كنتم فكتمّا وكما كنّا تكونون^٣

والشعر المنسوب الى (عدي) السلي أدى على حدّ قول علماء الأخبار الى

١ بلوغ الارب (١١٩/٣) .

٢ المبرد ، الكامل (٢٩٤/١) ، العمدة (٢٢٣/١) ، الجمان في تشبيهات القرآن
(٣٠٨) ، المحاسن والاضداد (٣٦) .

٣ المحاسن والاضداد (٣٥) .

أعراض (النعمان) السائح عن ملكه، وهروبه الى البراري ليعيش فيها عيشة الرهبان، هو شعر لا يمكن أن يكون من شعر (عدي) ، لأن شاعرنا لم يكن كبير السن آنذاك حتى يصدر منه مثل هذا الشعر ، كما أنه لم يكن على اتصال وثيق بملك الملك في ذلك العهد . ولعلته من الشعر المصنوع ، الذي وضع عليه . وهو شيء كثير . ولو قالوا إنه نظمه، وهو في سجنه حكاية عن قصة قديمة ، لكان كلامهم هذا أقرب الى العقل وأسهل للتصديق ، لأنه كان قد كبر في العمر ، وفي موقف يمكن أن يصدر منه مثل هذا الشعر .

وهو شعر سلس سهل جميل ذو معان عميقة لطيفة ، تتحدث عن تجارب رجل خبر الأيام ، وعاش في نعيم ورفاه ، حتى وصل مركزاً عالياً في بلده ، وإذا به يجد طريقه الى المقابر ، فيقبر بها وكأنه لم يكن شيئاً مذكوراً ، فن رأى الثاوين فيها ، ومن نظر الى القبور ، فليحدث نفسه ، أنه سيكون مثلهم ، وانه موف على قرن زوال ، وصروف الدهر لا يبقى لها ، ولا تدوم حال على حال . وقد صار اسلوبه هذا نموذجاً لمن مال الى الزهد والتصوف في الإسلام ، وربما كان الشاعر (أبو العتاهية) ممن تأثر بهذا الشعر المنسوب الى (عدي) .

ولعل الأحداث التي وقعت له ، والأيام التي قضاها في سجنه ، حتى جاءته منيته ، وهو فيه ، قد أثرت في نفسيته فجعلته ، يكثر من الزهد في هذه الحياة ، ومن وعظ الإنسان ، بأن يغتر ويتجبر ويتكبر ، فالسعادة لا تدوم لأحد ، والملك لا يخلد للملك أو مالك ، والحياة مهما كانت سعيدة ناعمة ، فإنها قصيرة تمر مرّ البرق خاطفة ، فعلى المتجبر أن يتعلم العبر من حياة الماضين ومن الأمم العظيمة ، ومن الجبابرة ، من أمثال : الأكاسرة وملوك الروم ، وصاحب الحضرة ، ومن حياة من شاد القصور ، وإذا به يتركها لغيره ، ثم يدفن في حفرة ضيقة ، فيخاطب النعمان صاحبه والشامتين به ، الحساد الذين وشوا به حتى أصابه ما أصابه ، ويقول لهم جميعاً ، وهو قابع في سجنه :

أيها الشامت المعيرُ بالدهر سر أأنت المبرأ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من الأيد سام بل أنت جاهل مغرور

من رأيت المتنّ خلّدت أم من
أين كسرى: كسرى الملوك أنوش
فا عليه من أن يضام خضير
وان أين قبله سابور ؟

الى أن ينتهي منها ، بقوله :

ثم صاروا كأنهم ورق جَدَّ ففألوت به الصبا والدبور

وهي قصيدة نظمت بالبحر الخفيف .

قال (الملاحظ) : « وقال عدي بن زيد العبادي ، وهو أحد من قد حُمِّل على شعره الحَمَل الكثير ، ولأهل الحيرة بشعره غناية ، وقال أبو زيد النحوي : لو تمنيت أن أقول الشعر ما قلت إلا شعر عدي بن زيد :

كفى زاجراً للمرء أيام عمره
ففسك فاحفظها من الغي والردى
فإن كانت النعماء عندك لأمريء
عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه
ستدرك من ذي الجهل حقك كله
وظلم ذوي القربى أشدّ عدواة
وفي كثرة الأيدي عن الظلم زاجر

وورد ان (عمر بن الخطاب) تمثل بشعر علي :

كدمى العاج في المحاريب أو كالـ بيض في الروض زهره مستنير^٢

ومن شعراء الحيرة (ابن بقلّة) ، وله شعر ذكر فيه حال الحيرة بعد فتح المسلمين لها ، إذ يقول :

أبعد المتذرين أرى سَوماً نروح بالخورنق والسدير
وبعد فوارس النعمان أرى قلوهاً بن مرة والحفر

- ١ الحيوان (١٥٠ / ٧) .
- ٢ البيان والتبيين (٤٥ / ١) .

فصرنا بعد هلك أبي قبيس كجرب المعز في اليوم المطير
تقسّمتا القبائل من معد علاينة كأيسار الجزور
وكنّا لا يرام لنا حريم فنحن كضرة الضرع الفخور
نؤذي الحرج بعد خراج كسرى وخرج من قريظة والنضير
كذلك الدهر دولته سجال فيوم من مساء أو سرور^١

فهو يتأسف على ما وقع للحيرة ، من تسلط قبائل (معد) عليها ، ومن دخولهم في حكمهم ، بعد أن كانوا يحكمون تلك القبائل ، ويجبون الجبابات ، ويظهر من ذكر (قريظة) والنضير في هذا الشعر ، ان حكم الحيرة قد بلغ أرض هاتين القبيلتين ، وذلك إن صح بالطبع ان هذا الشعر هو من شعره ، وانه أصيل غير مصنوع .

وهو (عبد المسيح بن ببيعة) الغساني ، أو (عبد المسيح بن عمرو بن قيس ابن حيان بن ببيعة) ، وببيعة اسمه (ثعلبة) ، وقيل : (الحارث) . وقد حشر في جملة المعمرين الذين عاشوا ثلاثمائة سنة وخمسين سنة ، وأدرك الإسلام فلم يسلم ، وكان نصرانياً . وله حديث مع خالد ، حين طلب من أهل الحيرة لإرسال رجل من عقلائهم ليكلّمه في أمر المدينة ، فلما جاء إليه قال له : أنعم صباحاً أيها الملك . فقال خالد : قد أغنانا الله عن نحيثك هذه ، ثم سأله أسئلة أخرى ، ثم قال له . أعرب أنتم أم نبيط ؟ قال : عرب استبطننا ، ونبيط استعربنا^٢ ، في حديث منق ، يرويه أهل الأخبار ، وكأنهم كانوا مع خالد وابن ببيعة يسجلون حديثهما بالكلم والحروف .

وقد تطرق (الجاحظ) الى خبر التقاء (عبد المسيح) بخالد بن الوليد ، وروى حديثه معه^٣ . وذكر (المرتضى) أنه لما بنى قصره المعروف بقصر ابن ببيعة قال :

- ١ الطبري (٣/٣٦٢) ، وتجد هذه الأبيات في أمالي المرتضى مع بعض الاختلاف (١/٢٦٢) .
- ٢ الطبري (٣/٣٦٢) ، أمالي المرتضى (١/٢٦٠ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٢/١٤٧ وما بعدها) .
- ٣ البيان والتبيين (٢/١٤٧ وما بعدها) .

لقد بنيت للحدثان حصناً لو أن المرء تنفعه الحصون
طويل الرأس أقعس مشمخراً لأنواع الرياح به حيناً^١

وروى (المرتضى) ، أن بعض مشايخ أهل الحيرة خرج الى ظهرها بخط
ديراً ، فلما احتضر موضع الأساس ، وأمن في الاحتضار أصاب كهيشة البيت ،
فدخله فإذا رجلاً على سرير من رخام ، وعند رأسه كتابة : أنا عبد المسيح
ابن بقبلة :

حلبتُ الدهرَ أشطرهُ حياتي ونلت من المنى بلغ المزيد
وكافحت الأمور وكافحتني فلم أحصل بمعضلة كثود
وكدت أنال في الشرف الثريا ولكن لاسيل الى الخلود^٢

ومن شعره في الناس وفي تهافتهم والتفافهم حول الغني قوله :

والناس أبناء علات فن علموا ان قد أقل فمجفوا ومهجور
وهم بنون لأم إن رأوا نشباً فذاك بالغيب محفوظ ومخفور

وهذا يشبه قول أوس بن حجر :

بني أم ذي المال الكثير يرونه وإن كان عبداً سيد الأمر جحفا
وهم لقل المال أولاد علة وإن كان محضاً في العمومة مخولاً^٣

ومن شعراء (تنوخ) (عمرو بن عبد الجن بن عائذ الله بن أسعد بن سعد
ابن كثير بن غالب) ، وكان فارساً في الجاهلية ، و (بنو عبد الجن) أسرة
معروفة ، كان لها بقية في الكوفة . ومن شعره :

أما والدماء المائرات تحالها على قنة العزى وبالنسر عندما

١ أمالي المرتضى (٢٦٢/١) .

٢ أمالي (٢٦٣/١) .

٣ أمالي المرتضى (٢٦٢/١ وما بعدها) .

نم :

وما سبح الرحمان في كل ليلة أبيل الأييلين المسيح بن مريم^١

وأدخلوا في هذه الطبقة (جذيمة) الأبرش ، و (لجيم بن صعب بن علي بن بكر
ابن وائل) ، وهو القائل :

من كل ما نال الفقى قد نلتله إلا النحية^٢

وجذيمة الأبرش ، هو (جذيمة بن مالك بن فهم بن عمرو) ملك الحيرة ،
والأبرش لقب له ، ويقال له الواضح^٣ ، وهو خال (عمرو بن عدي) ، وكان
ينادم عدياً ، وكان له نديمان هما : مالك ، وعقيل ، بقيا معه أربعين سنة ،
ثم قتلها وندم ، ويضرب بهما المثل لطول ما نادماه . وقد قتلت الزباء جذيمة^٤ .
وقد شاء أهل الأخبار عدة شاعراً من الشعراء وأوردوا له شعراً ، كما سبق أن
تحدثت عنه في أثناء حديثي عن مملكة الحيرة ، وعن اسطورة صلته بالزباء . ولو
جعلناه شاعراً : لوجب علينا تقديمه على كل الشعراء الجاهليين .

وقصة شعره اسطورة من أساطير أهل الأخبار ، فلو كان له شعر ، لوجب
أن يكون بعربية أخرى ، هي العربية التي دون بها شاهد قبر (امرئ القيس)
ملك الحيرة ، الذي توفي سنة (٣٢٨) للميلاد أي بعد (جذيمة) بأمد ، وشعره
هو من شعر تبابعة اليمن وآدم والجن من صنع الرواة وأهل الأخبار .

وترى في شعر الأعشى ، وأمية بن أبي الصلت ، و (عدي بن زيد) ،
وكلهم من شعراء القرى ، قصصاً ، لا تجده في الشعر المنسوب الى غيرهم من
الشعراء . قصصاً نصرانياً وقصصاً يرد عند اليهود ، وقصصاً من قصص الأساطير
والخرافات ، أو مما يتعلق بالأشخاص ، كالذي ينسب الى الأعشى من سرده
حكاية السموأل وقصره في قصيدته التي يقول فيها :

١ الخزانة (٣ / ٣٤٠ وما بعدها) ، (بولاق) .

٢ الزهر (٢ / ٤٧٦) ، أسماء المفتالين من الاشراف في الجاهلية والاسلام ، نوادر
المخطوطات (المجموعة السادسة) (ص ١١٢ وما بعدها) .

٣ البيان والتبيين (١ / ٣٦٢) .

٤ رسالة الغفران (١٧٠ ، ٢٧٨) .

كن كالسموأل اذ طاف الهمام به في جحفل كسواد الليل جرار
بالأبلى الفرد من تيماء منزله حصن حصين وجار غير غدار^١

وقد وصف فيها سموأل وحصنه ، وقصة وفائه ، وما كان قد جرى من حوار بينه وبين الملك الغساني المطالب بأدرع الكندي ، وترى من قراءتك لها ان النظم نمط غير مألوف في شعر غيره من الشعراء ، الأبيات فيها مكملة لما قبلها متصلة بعضها ببعض ، بحيث لا يمكن أن تفصل بينها ، وإلا اختل المعنى ، وظهر فراغ فيه . وهو شيء غير مألوف عند غيره . فالبيت على حد قول علماء الشعر شعر مستقل قائم بنفسه ، لا يؤثر حذفه أو تقديمه أو تأخيره على المعنى ولا على ارتباط الأبيات بعضها ببعض ، أما في هذه القصيدة ، فكل بيت فيها تابع لسابقه ، متصل معناه بمعناه ، لأنه جزء منه ، فلا يمكن حذف شيء من القصيدة دون ان يؤثر في معناها .

ونجد في شعره قصصاً عن سد مأرب ، وعن تدمره وإغراقه من كان يسكن عنده بالماء ، ذكر ذلك ليكون عبرة وأسوة للمؤتسي ، وهو قصص بني على حادث تهلّم ذلك السد^٢ .

وفي شعر الأعشى قصص إرم وعاد وطسم وجديس ، وأهل جو^٣ ، ووبار^٤ . وهو قصص رصعه الأخباريون بشعر نسبوه الى (هزيلة) امرأة من (جديس) ، والى (عميرة بنت غفار الجديسية) ، في قصص عن الملوك القدماء ، وكيف انهم كانوا يدخلون على العذارى قبل ادخالهم على أزواجهم ، في قصص ينسب الى ملوك آخرين ، مثل ملوك اليمن^٥ . وهو قصص نجد له مشابه عند الأمم الأخرى .

ومن شعراء (غسان) : (الشيظم بن الحارث) الغساني ، وهو من الأسرة الحاكمة ، كان قد قتل رجلاً من قومه ، وكان المقتول ذا أسرة ، فخافهم

١ الزمخشري ، المستقصى في أمثال العرب (٤٣٦/١) .

٢ راجع البيت (٦٧ فما بعده) من القصيدة رقم (٤) ، وديوانه (ص ٤٣) .

٣ الخزائن (٢/٢٧٠ وما بعدها) ، (هارون) .

٤ الخزائن (٢/٢٧١ وما بعدها) ، (هارون) .

فلحق بالحيرة ، فكان يتكفف الناس نهاره ويأوي الى خربة من خراب الحيرة ،
فبينما هو ذات يوم في تطوافه إذ سمع قائلاً يقول :

لما الله صعلوكاً إذا نال مذقة تومد احدى ساعديه فهو ما
مقيماً بدار الهون غير متاكرٍ إذا ضيمَ أغضى جفته ثم برشما
يلوذ بأذراء الثايب طامعاً يرى المنع والتعبس من حيث يما
يضمُّ بنفسٍ كدَّرَ البؤس عيشها وجودُ بها لو صانها كان أحزما
فذاك الذي إن عاش عاش بلدةٍ وإن مات لم يشهد له الناس ماتما
بأرضك فاعرك جلد جنبك إنني رأيت غريب القوم لهما مؤمها

فكانه نهبه من رقدة ، فتحايل الى صاحب خيل المنذر ، وتقرب اليه ، وأظهر
له أنه رجل من أهل (خيبر) ، أقبل الى هذه البلدة بتجارة فأصاب بها ، وله
بصر بسياسة الخيل ، فضمه الى بعض أصحابه ، حتى إذا وافق غرة من القوم ،
ركب فرساً جواداً من خيل المنذر وخرج من الحيرة يتعسف الأرض ، حتى نزل
بحي من بهراء فأخبرهم بشأنه ، فأعطوه زاداً ورعاً وسيفاً ، وخرج حتى أتى
الشام فصادف الملك متبدياً ، وكان إذا تبدى لا يُحجب أحد عنه ، فأتى قبة
الملك فقام قريباً منه ، وأنشأ يقول :

يا صاحب الخيل الجياد القربه وصاحب الكنيبة الموكبه
والقبة المنية المحجبه وواهب المضمرة المريبه
والكاعب البهكنه المؤنبه والمائة المدفأة المتخبه
والضارب الكيش فوق الرقبه تحت عجاج الكبة المكتبه
هذا مقام من رأي مُطلِّبه لديك إذ سمى الضلال مذهبه
وخال أن حظه قد كربه

فأذن له الملك ، فدخل عليه ، وقص قصته ، ثم بعث الى أولياء المقتول
فأرضاهم عن صاحبهم^١ .

١ ذيل الاماني (١٧٩ وما بعدها) .

وفي شعر شعراء القرى ، ميزة امتازوا بها عن شعر شعراء أهل البوادي ، هي ان أبيات القصيدة عندهم ليست على نحو أبيات القصيدة عند بقية الشعراء من استقلال الأبيات بنفسها ، وقيامها بذاتها بحيث يمكن رفع الأبيات من مواضعها وتقديمها أو تأخيرها ، أو حذفها ، دون أن يؤثر ذلك على وحدة القصيدة أو المعنى . ففي شعر (الأعشى) مثلاً ، ترابط بين الأبيات واتصال بين البيت المتقدم والبيت الذي يليه ، بحيث لا يمكن حذف أحدهما ورفع ، دون أن يؤثر حذفه على المعنى ، كذلك يتعذر علينا في بعض شعره نقل البيت عن موضعه ، وقد يأتي الأعشى بالفعل في بيت ثم يأتي بفاعله أو بمفعوله في البيت التالي ، أو يأتي بفعل الشرط في بيت ويأتي بخبره بعد بيت أو بيتين^١ . ويرد التضمين في شعره ، كما نجد (الاستدارة) فيه كذلك ، والاستدارة توالي مجموعة متلاحمة من الأبيات تجري على نظام متسق ، يقوم فيه كل بيت بنفسه في معناه ، ولكن المعنى التام لا يتم إلا بالبيت الأخير منها . وهو أسلوب يثير السامع ويشوقه ، ويجعله يتتبع الكلام حتى يبلغ منتهاه^٢ .

وأشعر شعراء (البحرين) الذين ذكرهم (ابن سلام) : المثقب العبدى ، والمزق العبدى ، والمفضل بن معشر^٣ .

و (المثقب العبدى) واسمه (عائد بن محصن بن ثعلبة) ، من (بني عبد القيس) ، من شعراء الجاهلية ، وإنما سمي مثقباً لقوله :

ظهري بكلة وسدلي أخرى وثقبن الوصاوص للعيون^٤

وذكر (ابن قتيبة) ان اسمه (محصن بن ثعلبة)^٥ ، وقيل اسمه شأس بن عائذ

١ ديوان الأعشى ، المقدمة (ص ٥) .

٢ ديوان الأعشى ، (غ) .

٣ طبقات (٦٩) .

٤ رددن تحية وكنن أخرى
الشعر والشعراء (٣٥٦) ، طبقات الشعراء (٢٢٩) ، الخزائن (٤٣١/٤) ،
السيوطي ، شرح شواهد (١٩٠/١ وما بعدها) .

٥ ظهري بكلة وسدلي رقما
وثقبن الوصاوص للعيون
تابع العروس (١٦٦/١) ، (ثقب) ، القاب الشعراء (٣١٦) .

• الشعر والشعراء (٣١١/١) ، (طبعة دار الثقافة) .

ابن محسن ، وقيل اسمه نهار بن شأس ، وكان يكنى أبا وائلة . وهو من شعراء البحرين^١ .

« وكان أبو عمرو بن العلاء يستجيد هذه القصيدة له ، ويقول : لو كان الشعر مثلها لوجب على الناس أن يتعلموه ، وفيها يقول :

أفاطم قبل بينك متعني ومنعك ما سألتك أن تبيني
ولا تعدي مواعد كاذبات تمرّ بها رياح الصيف دوني
فلاني لو تعاند في شمالي عنادك ما وصلت بها بعيني
إذا لقطعتها ولقلت بيني كذلك اجتوى من يجتويني
فلما أن تكون أخى بحق فأعرف منك غي من سميني
ولا فاطرحني وانخلني عدواً أنفك وتقبيني
فأأدرى إذا عمت أرضاً أريد الخير أيها يليني
الخير الذي أنا أبتغيه أم الشر الذي هو يبتغي^٢

وتحدث عنه (ابن قتيبة) ، فقال : « وهو قديم جاهلي ، كان في زمن عمرو بن هند ، وإياه عني بقوله :

الى عمرو ومن عمرو أتني أخي الفعلات والحليم الرزين

وله يقول :

غلبت ملوك الناس بالخزم والنهي وأنت القتي في سورة المجد ترتقي
وأعجب به من آل نصر ممدع أغرّ كلون الهندواني رونق^٣

ويرى (بروكلمن) ، ان (ابن قتيبة) انما أخذ رأيه المذكور من البيت المتقدم المذكور في المفضليات ، ولكن الأصحعي يعارض ذلك ، فقد مدح المثقب أبا قابوس النعمان بن المنذر^٤ .

١ المرزباني ، معجم (١٦٧) ، الخزانة (٤/٤٢٩ وما بعدها) .

٢ الشعر والشعراء (١/٣١١ وما بعدها) .

٣ الشعر والشعراء (١/٣١٢) ، المرزباني ، معجم (٣٠٣) .

٤ بروكلمن ، (١/١١٥) ، البيت ٤١ من القصيدة ٧٦ ، المفضليات .

فان أبا قابوس عندي بلاؤها جزاء بنعمي لا يحل كنودها البيت ١٤ من القصيدة ٢٨ في المفضليات .

وللمثقب العبدى ديوان مطبوع ، كما يوجد له شرح^١ . ومن شعره :

لا تقولن إذا ما لم ترد أن تمّ الوعد في شيء نعم
حسن قول نعم من بعد لا وقبيح قول لا بعد نعم
إن لا بعد نعم فاحشة فبلا فابدأ إذا خفت الندم
فلإذا قلت نعم فاصبر لها بنجاح القول إن الخلف ذم^٢
واعلم بأنّ الذمّ نقص للفتى ومتى لا تنقي الذمّ تلم
أكرم الجار وراع حقّه إن عرفان الفتى الحق كرم
لا تراني راتعاً في مجلس في لحوم الناس كالسبع الضرم
إنّ شرّ الناس من يكشر لي حين يلقاني وإن غبت شتم
وكلام سيء قد وقرت عنه أذناي وما بي من صمم
فتعديت^٣ خشاة أن يرى جاهل أنني كما كان زعم
ولبعض الصفح والإعراض عن ذي الخنى أبقي وإن كان ظلم^٤

وأما (الممزق) العبدى ، فاسمه (شأس بن نهار بن أسود) ، وانما سمي
(الممزق) ببيت قاله :

فلن كنت مأكولاً فكن خير آكل وإلا فأدركني ولما أمزق^٥

وهو ابن أخي المثقب العبدى ، وكان معاصراً لأبي قابوس النعمان بن المنذر* .
قال عنه (ابن قتيبة) : « وهو جاهلي قديم ، قال البيت المذكور في قصيدة
قالها لبعض ملوك الحيرة^٦ . وذكر انه قالها للملك عمرو بن هند ، حين همّ بغزو
عبد القيس ، فلما بلغته القصيدة انصرف عن عزمه^٧ . وقيل انه عرف بالممزق
ببيته :

- ١ حققه الشيخ محمد حسن آل يسين ، (بغداد ١٩٥٦ م) ، بروكلمن (١١٥/١) .
- ٢ الخزائن (٤٣١/٤) ، (بولاق) .
- ٣ بلوغ الأرب (١٢٤/٣) .
- ٤ ابن سلام ، طبقات (٧٠) ، الاشتقاق (٣٣٠) ، الامدي ، المؤلف (١٨٥) ،
القباب الشعراء (٣١٦) ، المفضليات (٢٣٢/٢) .
- ٥ بروكلمن (١١٩/١) ، القباب الشعراء (٣١٦) ، المرزباني (٤٩٥) ، المزهرة
(٤٣٥/٢ وما بعدها) ، الحيوان (٢٩٨/٢) ، (٤٤١/٥) .
- ٦ الشعر والشعراء (٣١٤/١) ، المرزباني ، معجم (٤٨١) ، الاصمعيات رقم (٥٠)
- ٧ البيان والتبيين (٣٧٥/١ وحاشية رقم ٤) ، جمهرة ابن حزم (٢٨٢) .

فن مبلغ النعمان ان ابن أخته على العين يعتاد الصفا ويمزق^١

وقد نسب (السيوطي) على هذه الصورة : (شأس بن نهار بن الأسود بن جبريل بن عباس بن حي بن عوف بن سود بن علرة بن منبه بن بكرة) العبدى ، ثم البكري^٢ . ومن شعره :

أحقاً أيت اللعن إن ابن فرتنا على غير إجرامٍ برقي مشرق
فإن كنت مأكولاً فكُن خير آكل وإلا فأدركني ولما أمزق
فأنت عميد الناس مها تقل تقل ومها تضع من باطلٍ لا يحق
أكلتني أدواء قوم تركتهم فألا تداركني من البحر أغرق
فإن يعمنوا أشتم خلافاً عليهم وإن يتهموا مستحقني الحرب أعقي^٣

ومما ينسب إليه :

هل للقي من بنات الدهر من واقٍ أم هل له من حمام الموت من واقٍ

وقوله :

هون عليك ولا تولع باشفاقٍ فلأنا مالنا للوارث الباقي^٤

ونجده يذكر في شعره صراخ الديك ، ولا نجد للديك ذكراً عند الأعراب ، لأنهم لا يربون الدجاج ، وتربية الدجاج من خصائص الحضرة . تراه يقول :

وقد تخلت رجلاي في جنب غرزا نسيلاً كأفحوص القطاة المطرق
أنيت بجوى يصرخ الديك عندها ويات بقاعٍ كادىء النبت سملق^٥

وذكر (المرتضى) أن من شعره قوله :

ألا من لعينٍ قد نأها حيمها وأرقتني بعد المنام همومها

١ بلوغ الأرب (١٢٤/٣) .

٢ شرح شواهد (٦٨٠/٢) وما بعدها .

٣ الشعر والشعراء (٣١٤/١) .

٤ بلوغ الأرب (١٢٥/٣) .

٥ الحيوان (٢٩٨/٢) .

فبانت لها نفسان شتى همومها فنفسٌ تعزّيا ونفسٌ تلومها

وذكر أن من العلماء من ينسبه لمعمر بن حمار البارقى^١.

ومن شعراء (عبد القيس) : (سويد) و (يزيد) ابنا (خذاق) . قال عنها (ابن قتيبة) : « وهما قديمان ، كانا في زمن عمرو بن هند . ويزيد القائل :

نعمانُ إنك غادرٌ خَدَعُ يخفي ضميرك غير ما تُبدِي
فإذا بدا لك سَحَتُ أثَلْتَا فعليكما إن كنتَ ذا جدِّ
وهزّت سيفك كي تحاربنا فانظر بسيفك من به تردي

وله شعر في الموت وفي ذم الدنيا ، قال عنه (أبو عمرو بن العلاء) إنه أول شعر قيل في ذم الدنيا^٢.

وكان يزيد قد هجا (النعمان بن المنذر) فبعث اليهم النعمان كتيبته (الدوسر) فاستباحثهم ، فقال أخوه سويد :

ضربت دوسرُ فينا ضربة أثبت أوتاد مُلك فاستقر
فجزاك الله من ذي نعمة وجزاه الله من عبد كفر^٣

ومن شعره قوله في (عمرو بن هند) :

أبى القلبُ أن يأتي السديرَ وأهلهُ وإن قيل عيشٌ بالسدير غزير
به البق والحُمى وأسدُ خَصِيَّة وعمرو بن هند يعتدي ويحور

وهو القائل أيضاً :

جزى الله قابوسَ بن هند بفعله بنا وأخاه غُدرة وأثاما
بما فَجَّرَا يومَ العُطيفِ وفَرَّقَا قبائلَ أحلافًا وحيًّا حراما
لعلَّ لَبُونُ المَلِكِ تمنع درها ويبيح صرف الدهر قوماً نياما
ولا تغاديني المنيّة أغشكم على عدوّاء الدهر جيشاً لها^٤

١ امالي المرتضى (٣٢٥/١) .

٢ الشعر والشعراء (٣٠٢/١) .

٣ الاشتقاق (٢٠٠/٢) .

٤ الشعر والشعراء (٣٠٢/١) وما بعدها .

وكانت عبد القيس وتميم على اتصال بملوك المناذرة الذين كان نفوذهم يمتد الى البحرين واليمامة في بعض الأحيان ، فكانت جيوش الحيرة في نزاع مستمر مع هذه القبائل التي كانت تنفر من دفع الإتاوة ومن الخضوع لآل لخم . ونجد أخبار هذا النزاع في شعر شعرائها ، وهي أخبار لا نجد لها في كتب التواريخ المألوفة ، التي لم تحفل بالشعر ، فصاع عليها قسط كبير من تأريخ الحيرة ، حصلنا عليه لحسن حفظنا من كتب الشعر والأدب التي دونت أخبار الشعراء ودونت المناسبات التي قيل فيها ذلك الشعر .

الفصل الثاني والستون بعد المئة

شعراء قريش

ويزعم أهل الأخبار أن العرب كانت تقرأ لقريش بالتقدم في كل شيء عليها إلا في الشعر ، فلئذا كانت لا تقرأ لها به ، حتى كان عمر بن أبي ربيعة ، فأقرت لها الشعراء بالشعر أيضاً ولم تنازعها . وذكر أن قريشاً كانت أقل العرب شعراً في الجاهلية ، فاضطرها ذلك إلى أن تكون أكثر العرب انتحالاً للشعر في الإسلام . ويؤيد هذا الرأي أننا نجد أكثر من ذكر الرواة أسماءهم وأشعارهم من الشعراء الجاهليين إنما هم من غير قريش^١ .

وذكر أهل الأخبار أن المنافسة التي كانت بين قريش والأوس والخزرج ، أهل يثرب ، دفعت أهل مكة على صنع الأشعار لتغلب بها على الأنصار . « يروي الناس لأبي سفيان بن الحارث قولاً يقول له لسان :

أبوك أبو سوء وخالك مثله ولست بخير من أهلك وخالك
وان أحق الناس أن لا تلومه على اللوم من ألقى أباه كذلكا

أخبرنا أبو خليفة ، أخبرنا محمد بن سلام ، قال : وأخبرني أهل العلم من

١ الاغانى (٢٥/١) ، ابن سلام ، طبقات الشعراء (١٠) .
٢ مجلة المجمع العلمي العراقي ، جواد علي ، لهجة القرآن الكريم (المجلد الثالث)
(الجزء الثاني ١٩٥٥ م) ، (ص ٢٧٨) .

أهل المدينة ان قدامة بن موسى بن عمر بن قدامة بن مطعون الجمحي قالها ونحلها
أبا سفيان . وقريش تزيد في أشعارها تريد بذلك الانتصار والرد على حسان ^١ .
وهناك أخبار أخرى في هذا المعنى تفيد نحل الشعر وضمه الى شعراء مكة ، لتبهاى
به على يثرب .

ولا نجد بين الشعراء البارزين من أصحاب المعلقات شاعراً واحداً هو من قريش؛
كذلك لا نجد من بين شعراء الطبقات المتقدمة من فحول الشعراء الذين قدمهم
علماء الشعر على غيرهم شاعراً هو من أهل مكة . . وهذا هو تفسير قول أهل
الأخبار المتقدم ، الدال على تأخر قريش بالنسبة الى بقية العرب في قول الشعر ،
أما لو أخذنا قولهم المذكور ، وصرفناه على أهل القرى ، فلأننا نجد مكة متقدمة
فيه ، لأنها انجبت عدداً لا بأس به من الشعراء بالقياس الى الطائف، التي اشتهرت
بشعر شاعرها (أمية بن أبي الصلت) ، ولكنها لا تداني مكة في عدد من
ظهر بها من الشعراء ، وبالقياس الى (نجران) والى قرى اليمامة . أما بالنسبة الى
يثرب ، فقد برز يثرب شعراء ، هم أكثر عدداً وشهرة من شعراء مكة .

وقد وصف (ابن سلام) شعر قريش بقوله : « وأشعار قريش أشعار فيها
لينٌ يشكل بعض الأشكال » ^٢ . وذلك حين تحدث عن شعر (أبي طالب)
وعن شعر (الزبير بن عبد المطلب) ، وعما وضع الناس من شعر عليها .

ويذكر أهل الأخبار ، ان قريشاً كانت في الجاهلية دون غيرها من العرب ،
تعاقب شعراءها اذا هجا بعضهم بعضاً ، كما كانت ترمي من يروي المثلاب ويقع
في أعراض الناس بالحق ، فتسقط منزلته بين الناس، ولهذا قلّ فيها شعر المهجاء ^٣.
ويذكرون ان أهل مكة لما أصبحوا يوماً وعلى باب الندوة مكتوب :

ألمى قُصياً عن المجد الأساطيرُ ورشوة مثل ما ترشى السفاسيرُ
وأكلها اللحمَ بحثاً لا خليط له وقولها رحلت غير أنت غير

أنكر الناس ذلك ، وقالوا ما قالها إلا (ابن الزبيري) ، وأجمع على ذلك

١ ابن سلام ، طبقات (٦٢) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٦٠ وما بعدها) .
٣ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (٤١٣/١) .

وأبهم ، فشوا الى (بني سهم) ، وكان مما تنكر قريش وتعاقب عليه أن يهجو بعضها بعضاً ، فقالوا لبني سهم : ادفعوه الينا نحكم فيه بحكمنا . قالوا : وما الحكم فيه ؟ قالوا قطع لسانه ، قالوا : فشأنكم . واعلموا والله انه لا يهجوننا رجل منكم إلا فعلنا به مثل ذلك . وكان (الزبير بن عبد المطلب) يومئذ غائباً نحو اليمن ، فخاف بنو قصي أن يقول شيئاً من هجاء ، فيؤتى اليه مثل ما أتى الى ابن الزبيرى ، وكانوا أهل تناصف ، فأجمعوا على تخليته فخلوه^١ .

وقد أحصى (جرجي زيدان) عدد الشعراء الجاهليين بنحو من (١٢٠) شاعراً على اختلاف القبائل والبطون . وقد وجد أن عشرة شعراء منهم هم من قريش^٢ . معظمهم ان لم نقل كلهم كان ممن عاش عند ظهور الإسلام ، وقد اشتهر بالشعر وعرف به لموقفه المعادي من الإسلام ، ولاضطرابه على مهاجمة النبي والمسلمين دفاعاً عن عقيدته ، ولهذا كان معظم شعره في هجاء المسلمين ، وفي الرد عليهم وفي الفخر بقومة وتعدد مآثرهم ومناقبهم والدفاع عنهم .

قال (ابن سلام) : « وبمكة شعراء ، فأبرعهم شعراً عبد الله بن الزبيرى ابن قيس بن عدي بن ربيعة بن سعد بن سهم ، وأبو طالب بن عبد المطلب ، شاعر ، وأبو سفيان بن الحارث ، شاعر ، ومسافر بن أبي عمرو بن أمية ، شاعر ، وضرار بن الخطّاب ، شاعر ، وأبو عزة الجمحي ، شاعر ، واسمه عمر بن عبدالله ، وعبدالله بن حذافة السهمي الممزق ، وهُبيرة بن أبي وهب ابن عامر بن عائذ بن عمران بن مخزوم »^٣ .

ونجد في كتب السيرة والأخبار شعراً لعبد المطلب ، من جملته قوله :

لاهم ان العبد يمنع رحله فامنع حلالك
لا يغلبن صليهم ومحالم غدوا محالك
إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدا لك^٤

١ ابن سلام ، طبقات (٥٧ وما بعدها) .

٢ تاريخ آداب اللغة العربية (٢٧٥/١) وما بعدها ، (شعراء العصر الاموي) .

٣ طبقات (٥٧) .

٤ ابن هشام ، سيرة (٤٤/١ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) ، الحيوان (١٩٨/٧ وما بعدها) ، ويختلف النص في الموارد .

ومن شعراء قريش (أبو لييد بن عبدة بن جابر) ، وكان أحد فرسانها في
الجاهلية^١

و (أبو طالب) ، عم النبي . وقد أدخلناه في عداد الشعراء ، لوجود شعر
ينسب إليه ، ورد أكثره في سيرة (ابن اسحاق) ، ولوجود ديوان مطبوع نسب
إليه . واسمه (عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي) ،
وقيل اسمه (عمران) ، وقيل اسمه كنيته^٢ . قال عنه (ابن سلام) : « وكان
أبو طالب شاعراً جيد الكلام ، وأبرع ما قال قصيدته التي مدح فيها النبي صلى
الله عليه وسلم ، وهي :

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل^٣

ولد قبل النبي بخمس وثلاثين سنة ، ولما مات (عبد المطلب) وصي بالنبي
إليه ، فكفله ، وسافر به إلى الشام ، وهو شاب ، ولما بُعث الرسول كان لا زال
حياً ، وقد اختلف في إسلامه^٤ ، وتوفي في السنة العاشرة من المبعث^٥ .

وقد ذكر (ابن هشام) قصيدة لأبي طالب ، قال انه قالها في (المطعم بن
عدي) يعرض به ، ويعم من خلده من بني عبد مناف ومن عاداه من قبائل
قريش منها قوله :

ألا قل لعمرو والوليد ومطعم ألا ليت حظي من حياطتكم بكر
من الخور حجاب كثير رغاؤه يرش على الساقين من بوله قطر^٦

وأورد (ابن هشام) له قصيدة أخرى ، ذكر انه قالها في مدح قريش ،
لما رأى (أبو طالب) من قومه ما سره في جهلهم معه وحدهم عليه . فقال :

-
- ١ الاشتقاق (٧١) .
 - ٢ الإصابة (١١٥/٤) وما بعدها ، (رقم ٦٨٥) .
 - ٣ ابن سلام ، طبقات (٦٠) .
 - ٤ الخزاعة (٧٥/٢) ، (عبد السلام محمد هارون) ، (٢٥١/١) وما بعدها ،
(بولاق) .
 - ٥ الخزاعة (٢٦١/١) ، (بولاق) .
 - ٦ سيرة ابن هشام (١٧١/١) ، (حاشية على الروض الانف) .

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخر فعبد مناف سرها وصميمها
فلأن حصلت أشراف عبد منافها قفي هاشم أشرافها وقديمها^١

ونسبت له قصيدة 'ذكر انه قالها لما خشي (أبو طالب) دهاء العرب أن
يركبوه مع قومه ، تعوذ بها بحرم مكة وبمكانه منها ، وتودد فيها أشراف قومه ،
وهو على ذلك يخبرهم وغيرهم في ذلك من شعره انه غير مسلم الرسول ولا تاركه
أبدأ حتى يهلك دونه . إذ يقول :

ولما رأيت القوم لا ودّ فيهم وقد قطعوا كل العرى والوسائل
وقد صارحونا بالعداوة والأذى وقد طأوعوا أمر العدو المزائل^٢

وهي قصيدة طويلة ، قال (ابن هشام) في آخرها : « هذا ما صح لي من
هذه القصيدة وبعض أهل العلم ينكر أكثرها »^٣ . ويظهر أنها وردت بصورة أطول
في سيرة (ابن اسحاق) ، إلا ان (ابن هشام) طرح منها ما شك في أصله
وما لم يثبت عنده انه من شعر (أبي طالب) ، واكتفى بهذا القدر الذي دونه
في سيرته .

وفي جملة ما جاء في القصيدة المذكورة قوله :

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وقد ذهب (ابن سلام) الى أن الرواة زادوا في قصيدة أبي طالب وطولوها
فأبعدوا آخرها عن أولها . وتعرض لها (الرافعي) فقال : « وقد يزيدون في
القصيدة ويبعدون بآخرها متى وجدوا لذلك باعثاً ، كقصيدة أبي طالب التي
قالها في النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي مشهورة أولها :

خيل لي ما أذني لأول عاذل بصغواء في حق ولا عند باطل^٤

١ سيرة ابن هشام (١٧٢/١) ، (حاشية على الروض) .

٢ سيرة ابن هشام (١٧٣/١) وما بعدها ، (حاشية على الروض الانف) ، الخزائن
(٥٧/٢) وما بعدها ، وقد دون القصيدة وشرح أبياتها (عبد السلام محمد هارون)

٣ سيرة ابن هشام (١٧٨/١) وما بعدها ، (حاشية على الروض الانف) .

٤ طبقات ، (٦٠) .

قال ابن سلام : زاد الناس في قصيدة أبي طالب وطولت بحيث لا يسدري أين متهاها ، وقد سألت الأصبعي عنها فقلت صحيحة ، فقال: أتدري أين متهاها قلت لا ، قلنا : وإنما طُوِّلت هذه القصيدة معارضة للطوال المعروفة بالمعلقات حتى لا يكون من شعر الجاهلية ما هو خير مما قاله عم النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ولكن في أصلها أبياتاً هاشمية نفى بكثير من الطوال ^١ .

وقد تعرض (ابن سلام) - كما قلت - لهذه القصيدة فقال : « وقد زيد فيها وطولت . رأيت في كتاب كتبه يوسف بن سعد صاحبنا منذ أكثر من مائة سنة : وقد علمت أن قد زاد الناس فيها ، فلا أدري أين متهاها . وسألني الأصبعي عنها ، فقلت صحيحة . قال : أتدري أين متهاها ؟ قلت لا أدري ^٢ . ونسب أهل الأخبار لأبي طالب شعراً زعموا أنه قاله لأبي لبب يحرضه فيه على نصرته ونصرة الرسول ، فيه :

ان امرأ أبو عتبة عمه لفي روضة ما ان يسام المظالم ^٣

ونسبوا له قصيدة (دالية) ذكروا انه نظمها لما مزقت (الصحيفة) : صحيفة قریش ، التي كتبوها في مقاطعة (بني هاشم) ، أولها :

ألا هل أتى بحرينا صنع ربنا على نايهم والله بالناس أورد
فيخبرهم ان الصحيفة مزقت وان كل ما لم يرضه الله مفسد
تراوحها افك وسحر مجمع ولم يلف سحر آخر الدهر يصعد ^٤

وقد أورد (الزبيري) منها هذه الأبيات :

جزى الله رهطاً من لؤي تتابعوا على ملأ يهدى لحزم ويرشد
فعوداً لدى جنب الحطيم كأنهم مقالة ، بل هم أعز وأجدا
هم رجعوا سهل بن يضاء راضياً فسر أبو بكر بها ومحمد
لم يأتكم ان الصحيفة مُزقت وإن كان ما لم يرضه الله يفسد

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (٢٨٤/١ وما بعدها) .

٢ ابن سلام ، طبقات (٦٠ وما بعدها) .

٣ سيرة ابن هشام (٢٣٠/١) ، (حاشية على الروض) .

٤ سيرة ابن هشام (٢٣٣/١ وما بعدها) ، (حاشية على الروض الانف) .

أعان عليها كل صقر كأنه شهاب بكفي قابس يتوقد
جري على حل الأمور كأنه اذا ما مشى في رفرق الدرع أجود^١
وهي من الشعر المصنوع .

ونسبوا له قوله :

ودعوتني وزعمت انك صادق^٢ ولقد صدقت وكنت قبل أمينا^٣
ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا

وقوله :

ألا أبلغا غني على ذات بيتنا لؤياً وخُصّاً من لؤي بني كعب
ألم تعلموا انا وجدنا محمداً نبياً كموسى خطاً في أول الكتب
وان عليه في العباد مودة^٤ وخير فيمن خصه الله بالحب^٥

ولأبي طالب شعر ، رثى به (أبا أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم) ، وكان قد خرج تاجراً الى الشام ، فمات في موضع يقال له : «سرو سميم» . وكان (أبو أمية بن المغيرة بن عبدالله) من (أزواد الركب) في قريش ، وهم ثلاثة : هو و (مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس) ، و (زمعة بن الأسود بن عبد المطلب) ، وكانوا إذا سافروا لم يتزود معهم أحداً . وله شعر في رثاء (مسافر)^٥ .

وفي الديوان المطبوع شعر يمكن أن يكون صحيحاً ، ولكن أكثره شعر منحول ، ولا سيما القصيدة (اللامية) الطويلة . فإن القسم الأكبر منها ، لا يمكن أن يكون من الشعر الأصيل . ويرى (بروكلمن) أن سبب الوضع ، هو رغبة من وضعه على تزوين سيرة الرسول بمكة ، وفي أوائل عهد النبوة ، بكثير من الأشعار ،

١ نسب قريش (٤٣١) .

٢ انروض الانف (٢٢١/١) ، الخزانة (٥٧١/١) وما بعدها ، (بولاق) ، (ودعوتني وزعمت أنك ناصح) .

٣ الروض الانف (٢٢١/١) ، الخزانة (٧٦/٢) ، (عبد السلام محمد هارون) .

٤ الخزانة (٤٤٦/٣) وما بعدها ، (بولاق) .

٥ الخزانة (٣٨٦/٤) وما بعدها ، (بولاق) .

بعد أن كثرت الأشعار في سيرته بالمدينة . كما أن للشبيعة يداً في وضع هذا الشعر على لسان (أبي طالب) لإظهاره بمظهر المعاون للنبي المؤيد له ، المؤمن بدعوته في قلبه ولسانه ، تأييداً للإمام (علي) ، الذي هو ابن (أبي طالب)^١ .
ونسب (الجاحظ) له قوله :

أمن أجل حبلٍ لا أباك علوته بمنسأة قد جاء حبل وأحبل^٢

ويروى لعلي بن أبي طالب شعر كثير^٣ . ولا يوجد شك في أن علياً كان مطبوعاً على قول الشعر ، وأنه كان ذا شاعرية ، وله مواهب تؤهله لنظمه ، كما كان من الحفاظ للشعر ، وقد أورد له أهل الأخبار والأدب شعراً ذكره في المواضع المناسبة ، كما جمع بعض الأدباء شعره في ديوان ، فهو صاحب شعر ، نظم في المناسبات ، غير أنه لم يكن شاعراً بمعنى أنه اتخذ الشعر صناعة له ، وإنما كان يقوله في المناسبة ، ثم إن في المنسوب إليه ، شعراً كثيراً ، هو موضوع . صنع وحمل عليه . وأكثر ما جاء في الديوان الذي يحمل اسمه هو من هذا القبيل^٤ .

ونظراً إلى ما لعلي بن أبي طالب من المكانة في نفوس المسلمين ، ولوجود شبيعة له ، فقد اهتم الناس بأمر ديوانه ، وشرحوه شروحاً عديدة ، وترجموه إلى لغات مختلفة ، وطبع جملة طبعات ، بحيث نستطيع أن نقول دون مبالغة ، أن ديوان (علي) نال من المكانة والتقدير ما لم ينله أي ديوان آخر ، ليس لما فيه من شعر أو من بلاغة ، بل لحرمة والمكانة صاحبه . ففي هذا الديوان غث كثير ، وفيه ما لا يمكن إرجاعه إلى (علي) أبداً^٥ . قال (أبو عثمان) المازني : « لم يصح عندنا أن علياً تكلم من الشعر إلا هذين البيتين » :

تلكم قريش تمناني لتقتلني فلا وربك ما برّوا وما ظفروا
فإن هلكتُ فربهنّ ذمّي لهم بذات رواقين لا يعفو لها أثر^٦

-
- ١ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٧٥/١) .
 - ٢ البيان والتبيين (٣٠/٣) .
 - ٣ المرزباني ، معجم (١٣٠) ، (عبد الستار أحمد فراج) .
 - ٤ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٧٥/١ وما بعدها) .
 - ٥ راجع التفاصيل في بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٧٥/١ وما بعدها) .
 - ٦ الفائق (٥١٢/١) .

ونسبوا لعلّ قصيدة في الأيام السبعة منها :

أرى الأحد المبارك يوم سعد	لغرس العود يصلح والبناء
وفي الإثنين للتعليم أمن	وبالبركات يعرف والرخاء
وإن رمت الحجابة في الثلاثاء	فذلك اليوم لإهراق الدماء
وإن أحبيت أن تسقي دواء	فنعم اليوم يوم الأربعاء
وفي يوم الخميس طلاب رزق	لإدراك الفرائد والغناء
ويوم الجمعة التزويج فيه	ولذات الرجال مع النساء
ويوم السبت إن سافرت فيه	وقيت من المكارة والعناء

وقد رويت القصيدة بروايات أخرى^١.

ونسبوا (لورقة بن نوفل) شعراً ، زعموا أنه قاله حين رآهم يعذبون بلالاً على إسلامه . منه :

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم أنا النذير فلا يغرركم أحد
لا تعبدن إلهاً غير خالقكم فإن دعيتم فقولوا دونه حدد
سبحان ذي العرش لا شيء يعادله رب البرية فرد واحد صمد^٢

ورقة ، هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، يجتمع مع النبي في جدّ جدّة . ذكر أنه كره عبادة الأوثان وطلب الدين في الآفاق وقرأ الكتب ، وأنه كان حنيفاً على ملة إبراهيم ، وذكر أنه كان نصرانياً قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس ، ومات في فترة الوحي قبل نزول الفرائض والأحكام ، وروى بعضهم أنه آمن بالرسول وجعله من الصحابة ، وشدد الإنكار على من أنكر صحبته ، وجمع الأخبار الشاهدة له بأنه في الجنة . وهكذا نجد الروايات تجمع على نبذه عبادة الأوثان ، ثم تختلف في أنه كان حنيفاً على ملة الأحناف ، أو نصرانياً . أما زعم إيمانه بالرسول ، وما روه من الشعر من ذكره اسم الرسول وإيمانه به ، ومن أخباره عنه ، فإنه من الشعر الموضوع المصنوع ، الذي وضع على لسان غيره أيضاً ، بزعم اثبات نبوة الرسول . وفي أكثره ركة .

١ نزهة الجليس (٢٥١/١) .

٢ الخزائن (٣٧/٢) ، (بولاق) ، نسب قريش (٢٠٨) .

وقد نسب بعضه مثل قوله :

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم أنا النذير فلا يغرركم أحد

الى غيره . فقليل إنه لأمية بن أبي الصلت ، وقيل انه لزيد بن عمرو بن نفيل .
غير أن (السهيلي) ، و (أبا الريح) الكلاعي ، والبغدادى يرون أنه له ^١ .
ومن الشعر المنسوب اليه قوله :

ارفع ضعيفك لا تحجر بك ضعفه يوماً فتدركه العواقب قد نمت
بجزيك أو يثني عليك وإن من أننى عليك بما فعلت كمن جزى

وقد نسباً أيضاً لزهير بن جناب ^٢ .

ولزيد بن عمرو بن نفيل ، وهو أحد الأحناف شعر ، وهو من المتألهين الذين
حاربوا عن مكة طلباً للعلم والمعرفة والدين ، ذهب الى بلاد الشام . وهناك احتك
بالتنصاري ، فتعلم منهم أمور الدين . ولعله تعلم السريانية والرومية بها ونظر في
كتب النصرانية ، لما يذكره أهل الأخبار من تعلمه للغتين . وفارق شأن بقية
الأحناف قومه ، وعاب الأصنام والأوثان ، ونسب أهل الأخبار اليه انه كان
يسند ظهره الى الكعبة ثم يقول : يا معشر قريش ، والذي نفسي بيده ما أصبح
منكم أحد على دين ابراهيم غيري . وكان مثل بقية الأحناف أمثال ورقة بن نوفل ،
وعثمان بن الحويرث ، وعبيد بن جحش وغيرهم ، قد خالفوا قريشاً ، وقالوا :
انكم تعبدون ما لا يضر ولا ينفع من الأصنام وعابوا عليهم ما هم عليه من التقرب
الى الحجارة . وقد أورد من ترجم حياته شيئاً من شعره ، واستشهدوا ببعضه في
الشواهد ^٣ .

ومن شعر (زيد بن عمرو بن نفيل) في الأصنام قوله :

تركت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا ابتغيها ولا صنمي بني غنم أزور

-
- ١ الخزانة (٣٨/٢ وما بعدها) ، (بولاق) .
 - ٢ نسب قريش (٢٠٧ وما بعدها) .
 - ٣ الخزانة (٩٧/٣ وما بعدها) ، (بولاق) .

ولا هبلاً أزور وكان ربّاً لنا في الدهر إذ حلّمي صغيراً

و (سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل) ، المعروف بـ (أبي الأعور) ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الصحابة الذين أسلموا قديماً ، من الشعراء وهو ابن (زيد بن عمرو) المذكور . وكان إسلامه قديماً وقبل عمر ، وكان إسلام (عمر) عنده في بيته ، لأنه كان زوج أخته فاطمة ، وقد توفي سنة خمسين ، أو إحدى وخمسين ، وقيل اثنتين وخمسين^١ . ومن شعره قوله :

تلك عرساي تنطقان على عمّد لي اليوم قول زورٍ وهتر
سالتاني الطلاق ان رأنا ما لي قليلاً قد جثمتاني بنكرٍ
فلعلّي أن يكثر المال عندي ويعرى من المغارم ظهري
وترى أعبدٌ لنا وأواقٍ ومناصيف من خوادم عشر
ونجر الأذيال في نعمة زوٍ ل تقولان ضع عصاك لدهر
وتيّ كان من لم يكن له نسبٌ يُحَبِّبُ ومن يفتر عيش ضرٍ
ويجنب سرّ النجى ولكن أخا المال محضر كل سرّ^٣

وكان (نبيه بن الحجاج بن عامر بن حليفة بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب) شاعراً ، وكان هو وأخوه (منبه) من وجوه قريش وذوي النباهة فيهم ، وقتلا بيدر كافرين ، وكانا من المطمئنين يوم بدر . وقد رثاهما (الأعشى بن نباش بن زرارة) التميمي ، حليف بني عبد الدار . وكان مداحاً لنبيه بن الحجاج^٤ .

وقد أورد (الزبير) له شعراً منه قوله :

تلك عرساي تنطقان بهجر ونقولان قول زورٍ وهتر
تسالن الطلاق إذ رأتاني قل مالي قد جثمتاني بنكر

-
- ١ الخزانة (٢٤٤/٣) ، (بولاق) .
 - ٢ الإصابة (٤٤/٢) ، (رقم ٣٢٦١) .
 - ٣ البيان (٢٣٥/١) ، الخزانة (٩٩/٣) ، الشمنتري (١٧٠/٢) ، عيون الاخبار (٢٤٢/١) .
 - ٤ الخزانة (١٠١/٣) ، (بولاق) .

فلعلي أن يكثر المال عندي وتخلي من المغنم ظهري
وترى أعبد لنا وأواق ومناصيف من ولاند عشر^١

وقال (الزبيري) إن له أشعاراً كثيرة^٢. وقد رأينا أن هذا الشعر الذي نسب
لنبيه، قد نسب أيضاً لزيد. وقد نسب صاحب (الحزاة) الشعر لزيد، ثم
عاد فنسبه لنبيه.

وكان (أبو العاصي) المعروف بـ (الأمين) من حكماء وشعراء قريش،
ومما نسب إليه من شعر قوله:

أبلغ لديك بني أمية آية نصحاء مبينا
أنا خلقنا مصلحين وما خلقنا مفسدين
إني أعادي معشراً كانوا لنا حصناً حصينا
خلقوا مع الجوزاء إذ خلقوا وواللهم أبونا^٣

وهو العاصي بن وائل، وكان من أشرف قريش، وفيه يقول ابن الزبيري:

أصاب ابن سلمى نخلة من صديقه ولولا ابن سلمى لم يكن لك رائق^٤
فأوى وحيثاً إذ أتاه نخلة وأعرض عنه الأقربون الأصادق
فلما أصب يوماً من الدهر نصرة^٥ أئتلك ولاني باين سلمى لصادق
وإلا تكن إلا لسانى فإنه بحسن الذي أسديت عني لناطق
ثمال يعيش^٦ المقترون بفضله وسيب ربيع فيه صواعق^٧

وعبدالله بن الزبيري بن قيس بن علي بن ربيعة بن سعيد بن سهم القرشي
السهمي، من «أشعر قريش»^٨، وكان شديداً على المسلمين، ثم أسلم في الفتح.
وذكر أنه لما فتح رسول الله مكة، هرب إلى (نجران)، ثم أسلم ومدح النبي،

-
- ١ الاغانى (٦٢/١٦)، نسب قريش (٤٠٣ وما بعدها) .
 - ٢ نسب قريش (٤٠٤) .
 - ٣ نسب قريش (٩٩) .
 - ٤ نسب قريش (٤٠٨ وما بعدها) .
 - ٥ تاج العروس (٢٣٤/٣)، (زبير)، العملة (٢٣/١) .

فأمر له بحلة^١. وكان يهاجي حسان بن ثابت وكعب بن مالك . وذكر أنه «كان من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى أصحابه بلسانه ونفسه . وكان من أشد الناس وأبلغهم . يقولون إنه أشعر قريش قاطبة . قال محمد بن سلام : بمكة شعراء فأبرعهم شعراً عبدالله بن الزبير ، قال الزبير : كذلك يقول رواة قريش انه كان أشعرهم في الجاهلية . وأما ما سقط الينا من شعره وشعر ضرار بن الخطّاب ، فضرار عندي أشعر منه ، وأقل سقطاً^٢ .

كان (ابن الزبير) من المؤذنين للرسول ، قام يوماً فأخذ قرناً ودماً فطبخ به وجه النبي ، فانقتل النبي من صلاته ، ثم أتى (أبا طالب) عمه فقال : يا عم ألا ترى الى ما فعل بي ؟ فأخذ (أبو طالب) قرناً ودماً فطبخ به وجوه القوم الذين كان (ابن الزبير) بينهم . وبقي على عداوته هذه للرسول وفي هجائه له وللمسلمين الى عام الفتح ، فأسلم^٣ .

وقد أشرت الى ما ذكره (ابن سلام) من أمر البيتين اللذين وجدا مكتوبين على باب الندوة ، وهما :

ألمى قصيباً عن المجد الأساطير ورشوة مثل ما ترشى السفاسير
وأكلها اللحمُ بحثاً لا خليط له وقولها رحلت عيرٌ أنت عير

وما كان من إجماع أهل مكة على انها من قول (ابن الزبير) ليس غير . وذلك مما أهاج أولاد قصي خاصة ، فمشوا الى (بني سهم) رهط (ابن الزبير) طالبين منهم تسليمه لهم ليحكموا فيه حكمهم^٤ .

وفي البيتين ، هجاء مرّ لقصي ولآل قصي ، اللذين ألهتهم الأساطير عن المجد ، وكانوا يرشون ويرتشون مثل ما ترشى السفاسير ، وهم السامسة ، أولئك الذين يأكلون اللحم . ولا يعرفون إلا كلام : رحلت عيرٌ ، أنت عيرٌ . كلام التجار . فلا يفهمون قولاً غير هذا القول .

-
- ١ الاصابة (٣٠٠/٢) ، (رقم ٤٦٧٩) .
 - ٢ الاستيعاب (٣٠٠/٢) وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، كتاب نسب قريش (٢٥١ ، ٣٠٠ ، ٣٨٦ ، ٤٠٢ ، ٤٠٨ وما بعدها) .
 - ٣ تفسير القرطبي (٤٠٦/٦) وما بعدها) .
 - ٤ طبقات (٥٨) .

ومن شعر (ابن الزبيرى) قصيدته وفي وقعة أحد ، ومطلعها :
يا غراب البين أسمعتم ققل إنما تنطق شيئاً قد فعل
قال وهو مشرك ، فلما أسلم قال :

يا رسول الملك إن لسانى رائق ما فتقت^١ إذ أنا بور^١

وقد أشار في قصيدته في يوم أحد، الى انتصاف أهل مكة من المسلمين بقوله :

ليت أشياخي يبدر شهدوا جزع الخرج من وقع الأسل
حين ألفت بقاء بركها وعدلنا ميل بدر فاعتدل^٢

وقصيدته في (أحد) من القصائد الجيدة ، وقد دوّنها (ابن هشام) في جملة ما دوّن من الشعر الذي قيل في هذه المعركة . وقد ردّ عليه (حسان بن ثابت) بقصيدة دوّنها (ابن هشام) بعدها^٣ .

وله شعر في مدح النبي ، فيه :

منع الرقاد بلابل^٤ وهموم والليل معتلج^٥ الرواق بهم
بما أناني أن أحمد لأمي فيه فبت كأنني محموم
ياخير من حلت على أوصالها عيراة سرح اليدين رسوم
إني لمعتلر اليك من الذي أسديت إذ أنا في الضلال أهيم
أيام تأمرني بأغوى خطة سهم^٦ وتأمرني بها مخزوم
فاغفر فدى لك والدي^٧ كلاهما ذنبي فلأنك راحم مرحوم
وعليك من أثر المليك علامة^٨ نور أضاء وخاتم مخنوم
مضت العداوة فأنقضت أسبابها ودعت أواصر بيتنا وحلوم^٩

وهي أبيات نظمها معتزلاً فيها عما كان منه من هجاء الرسول والمسلمين ،

١ السيوطي ، شرح شواهد (٥٤٩/٢) وما بعدها) .

٢ ابن سلام ، طبقات (٥٨) .

٣ سيرة (١٥٧/٢) ، (حاشية على الروض) .

٤ ابن سلام ، طبقات (٥٩) وما بعدها) .

ومن وقفه مع المشركين في مواقفهم المعروفة ، بعد أن سمع بما حل بغيره من هجا الرسول من قتل .

ويذكر أهل الأخبار أن (عبدالله بن الزبير) و (ضرار بن الخطاب) القهري ، قدما المدينة أيام (عمر بن الخطاب) ، فأتيا (أبا أحمد بن جحش) الأسدي ، وكان مكفوقاً ، وكان مألفاً يُجتمَع إليه ويتحدث عنه ، ويقول الشعر ، فقالا له : أتيناك لَنرسل إلى حسان بن ثابت فتناشده وتذكره ، فإنه كان يقول في الإسلام ويقول في الكفر ، فأرسل إليه ، فجاء فقال : يا أبا الوليد أخواك تطربا إليك : ابن الزبير وضرار يُدَاكِرانك ويناشدانك . قال : نعم إن شئنا بدأت وإن شئنا فابدأ . قال : نبأ . فأنشده حتى إذا صار كالمرجل يفور قعدا على رواحلهما . فخرج حسان حتى لقي عمر بن الخطاب ، وتمثل بيت ذكره ابن جعدبة لا أذكره . فقال عمر : وما ذاك ؟ فأخبره خبرهما . فقال : لا جرم والله لا يفوتانك . فأرسل في أثرهما فرُدّا . وقال لحسان أنشد . فأنشد حسان حاجته . قال له : اكتفيت ؟ قال : نعم . قال شأنكما الآن ، ان شئنا فارحلا وان شئنا فأقما ^١ .

ومن شعره قوله :

ألا لله قوم و لدت أخت بني سهم
هشام وأبو عبد مناف مدره الخضم
وذو الرمحين أشبالٌ على القوة والحزم
فلئن أحلف وبيت الله لا أحلف على لثم
لما أن اخوة بين قصور الروم والروم
بأزكى من بني ربيعة أو أوزن في حلم^٢

وكان (الزبير بن عبد المطلب) من فرسان قريش ومن شعرائها ^٣ ، وقد روى (ابن كثير) له شعراً ، ذكر أنه قاله فيما كان من أمر الحية التي كانت

١ ابن سلام ، طبقات (٦٠) .

٢ نسب قريش (٣٠٠) .

٣ الاشتقاق (٣٠) .

قريش تهاب بنيان الكعبة لها ، هو :

عجبت لما تصوبت العقاب الى الثعبان وهي لها اضطراب
وقد كانت يكون لها كشيخ وأحياناً يكون لها وثاب
إذا قفنا الى التأسيس شدت تهيئة البناء وقد تهاب
فلما ان خشنا الرجز جاءت عقاب تتلثب لها انصباب
فضمتها اليها ثم خلت لنا البنيان ليس له حجاب
فقمنا حاشدين الى بناء لنا منه القواعد والتراب
غداة نرفع التأسيس منه وليس على مساوينا ثياب
أعز به الملك بني لؤي فليس لأصله منهم ذهاب
وقد حشدت هناك بنو عدي ومرة قد تقدمها كلاب
فبوأنا الملك بذلك عزاً وعند الله يلتمس الثواب^١

وقد وردت هذه الأبيات في سيرة (ابن هشام)^٢ ، أخذت من سيرة (ابن اسحاق) . وهي ولا شك من ذلك الشعر المصنوع الذي انتحل على الشعراء ، وأعطى الى (ابن اسحاق) فأدخله في سيرته ، أسلوبها يتحدث عن نفسه ، ونظمها بعيد عن نظم شاعر عاش في ذلك الوقت .

وقد تعرض (ابن سلام) لشعر (الزبير) ، فقال عنه : « وأجمع الناس على أن الزبير بن عبد المطلب شاعر ، والحاصل من شعره قليل . فإصح عنه قوله :

ولولا الحبش لم يلبس رجال^٣ ثياب أعززة حتى يموتوا ،

ويقال ان :

إذا كنت في حاجة مرسلًا فأرسل حليماً ولا توصه

للزبير^٣ .

١ تفسير ابن كثير (١/ ١٨١) .

٢ سيرة ابن هشام (١/ ١٣٢) ، (حاشية على الروض الاتف) .

٣ طبقات (٦١) .

وكان (الزبير) شاعراً مقلداً شديد المعارضة مقذع الهجاء ، ولما جاء (عبدالله ابن الزبيرى) السهمي (بني قصي) رفعوه برمته الى (عتبة بن ربيعة) خوفاً من هجاء (الزبير) فلما وصل (عبدالله) اليهم أطلقه (حمزة بن عبد المطلب) وكساه ، فدحه . وكان (الزبير) غائباً بالطائف أو باليمن ، فلما وصل الى مكة وبلغه الخبر قال :

فلولا نحن لم يلبس رجالٌ ثياب أعزة حتى يموتوا
ثيابهم سمالٌ أو طمارٌ بها ودكٌ كما دسم الحميت
ولكنّا خلقنا إذْ خلقنا لنا الحبرات والمسك الفتيت^١

وقد كان الخلعاء يتزلون على (الزبير بن عبد المطلب) ، ومنهم (أبو الطمحان) القيني ، وكان فاسقاً ومن الشعراء^٢ .

وكان (أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم القرشي) الهاشمي ، ابن عم الرسول وأخيه من الرضاعة من شعراء قريش المطبوعين . وكان ممن يؤذي النبي والمسلمين ، ويهجو رسول الله ، وقد عارضه (حسان بن ثابت) ، ثم أسلم . وكان إسلامه يوم الفتح قبل دخول رسول الله مكة^٣ . قال (ابن سلام) : « ولأبي سفيان بن الحارث شعر ، كان يقوله في الجاهلية فسقط ، ولم يصل إلينا منه إلا القليل ، ولسنا نعدّ ما يروي ابن اسحاق له ولا لغيره شعراً ، ولأن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذلك لهم . قال أبو سفيان :

لمعرك لاني يوم أحمل راية لتغلبُ خيلُ اللاتِ خيل محمدٍ
أنا المدلجُ الحيرانُ أظلم ليلُهُ بعيد أرجى حين أهدى واهتدي
هداني هادي غير نفسي وقادني الى الله من طردت كل مطرد^٤

١ العمدة (٦٦/١) .

٢ الشعر والشعراء (٣٠٤/١) ، (دار الثقافة) .

٣ الاصابة (٩٠/٤) ، (رقم ٥٣٨) ، الاستيعاب (٨٣/٤) ، (حاشية على الاصابة) الاشتقاق (٢٦٠/٢) .

٤ ابن سلام ، طبقات (٦١) ، المرزباني ، معجم (٢٧١) ، ابن سعد ، طبقات (٥١/٤) ، (صادر) ، وتجد فيه بعض الاختلاف في الشعر .

وروي له شعر قاله يوم تعرض المسلمون بقافلة (أبي سفيان) ، ويوم أحد ،
وفي المناسبات الأخرى^١ . وله شعر في يوم أحد ، وقد رد عليه حسان بن ثابت^٢
وبقية شعراء المسلمين حيث كانت بينهم وبين شعراء مكة مساجلات .
وكان نديماً لعمر بن العاص السهمي ، وكان الحارث بن حرب بن أمية ،
نديماً للحارث بن عبد المطلب^٣ ، وكان الحارث بن عبد المطلب من المؤلفة قلوبهم^٤ .
ولما توفي الرسول رثاه (أبو سفيان بن الحارث) بقصيدة مطلعها :

أرقت فبات ليلى لا يزول وليل أخي المصيبة فيه طول
وأسعدني البكاء وذاك فيما أصيب المسلمون به قليل
لقد عظمت مصيبتنا وجلت عشية قيل قد قبض الرسول
وأضحت أرضنا مما عراها تكاد بنا جوانبها تميل
فقدنا الوحي والتزيل فينا يروح به ويغدو جبرئيل
وذاك أحق ما سالت عليه نفوس الناس أو كريت تسيل
نبي " كان يجلو الشك عنا بما يوحى إليه وما يقول
ويهدينا فلا نخشى ضلالاً علينا والرسول لنا دليل
أفاطم إن جزعت فذاك غدر وان لم تجزعي ذاك السبيل
فقبر أبيك سيد كل قبر وفيه سيد الناس الرسول^٥

وقد وضعت أشعار على لسان (أبي سفيان) في هجاء (حسان بن ثابت) .
فقد هجا (قتادة بن موسى) الجمحي حسان بن ثابت بأبيات ونحلها (أباسفيان) .
وقتادة من الشعراء المخضرمين^٦ .

وضرار بن الخطاب بن مرداس بن كثير بن عمرو بن سفيان بن محارب بن
فهر القرشي الفهري من ظواهر قريش ، وكان لا يكون بالبطحاء إلا قليلاً .

-
- ١ ابن سلام ، طبقات (٦١ وما بعدها) .
 - ٢ ابن سلام (٦٢) ، أمالي المرتضى (١ / ٦٣٢) .
 - ٣ المحبر (١٧٧) .
 - ٤ المحبر (٤٧٣) .
 - ٥ الروض الأنف (٣٧٩ / ٢) وما بعدها .
 - ٦ الإصابة (٢١٧ / ٣) ، (رقم ٧٠٧٧) .

وكان أبوه رئيس بني فهر في زمانه ، وكان يأخذ المرباع لقومه . وقد قدمه بعض رواة الشعر من قريش على (عبدالله بن الزبيري) ، وعدّوه من الشعراء المطبوعين المجودين . قاتل المسلمين في الوقائع أشد القتال ، ثم أسلم في الفتح^١ . وهو من الأشراف^٢ . وذكر انه « كان من فرسان قريش وشجعانهم وشعرائهم المطبوعين المجودين ، حتى قالوا : ضرار بن الخطاب فارس قريش وشاعرهم .. قال الزبير بن بكار : لم يكن في قريش أشعر منه ومن ابن الزبيري . قال الزبير : ويقدمونه على ابن الزبيري ، لأنه أقل منه سقطاً ، وأحسن صنعة »^٣ . وكان من فرسان قريش يوم الخندق .

ولضرار شعر قاله في يوم (بدر)^٤ ، وشعر في رثاء (أبي جهل)^٥ . وأشعار أخرى في أحد وفي الوقائع الأخرى تجدها في سيرة (ابن هشام) .

وكان ضرار جمع من حلفاء قريش ومن مُراق كنانة ناساً ، فكان يأكل بهم ويغير ويُسبي ، ويأخذ المال . وكان خرج في الجاهلية في ركب من قريش فرّوا ببلاد دؤس ، وهم يطالبون قريشاً بدم (أبي أزيهر) ، قتله (هشام ابن المغيرة) ، فثاروا بهم وقتلوا فيهم ، فقاتلهم ضرار ، ثم لجأ الى امرأة منهم ، يقال لها : (أم غيلان) مقيمة تقين العرائس ، فساعدته وساعده بنوها وبناتها ، فلم . ولقي ضرار يوم أحد (عمر بن الخطاب) ، فضربه بعارضة سيفه ، وقال : انج يا ابن الخطاب ، لأنه كان قد آلى أن لا يقتل يومئذ قرشياً ، فلما ولي (عمر) الخلافة ، وسمعت (أم غيلان) بذكر (ابن الخطاب) ظنته ضراراً ، فقدمت المدينة ، فتوسط لها (ضرار) عند الخليفة فأثابها^٦ .

١ الاصابة (٢٠١/٢) ، (رقم ٤١٧٣) ، الاستيعاب (٢٠١/٢) ، (حاشية على الاصابة) ، تاج العروس (٢٣٤/٣) ، (زبير) ، كتاب نسب قريش (١٢٦) ، ٤٣٣ ، وما بعدها) .

٢ تاج العروس (٣٥٠/٣) ، (ضرر) .

٣ الاستيعاب (٢٠١/٢) وما بعدها ، (حاشية على الاصابة) .

٤ سيرة ابن هشام (١٠٩/٢) ، (حاشية على الروض الانف) .

٥ سيرة ابن هشام (١١٣/٢) ، (حاشية على الروض الانف) .

٦ ابن سلام ، طبقات (٦٣) .

وكان من مسلمة الفتح ، ومن شعره في يوم الفتح ، قوله :

يا نبيّ الهدى اليك لجسا حي قريش وأنت خير لجا
حين ضاقت عليهم سعة الأر ض وعاداهم إلّه السماء
والثقت حلقتا البطان على القو م ونودوا بالصيلم الصلحاء
إن سعداً يريد قاصمة الظهر بأهل الحجون والبطحاء
خزرجي لو يستطيع من الغيـ ظ رمانا بالنسر والعواء
وغر الصدر لا بهم بشيء غير سفك الدماء وسبي النساء
قد تلظى على البطاح وجاءت عنه هند بالسوءة السواء
إذ تنادى بذلّ حيّ قريش وابن حرب بدا من الشهداء
فلئن أقحم اللواء ونادى يا حاة اللواء أهل اللواء
ثم ثابت اليه من نهم الخز رج والأوس أنجم الميجاء
لتكونن بالبطاح قريش ققعة القاع في كف الإمام
فأنه أسد الأسد لدى الغاب والغ في الدماء
انه مطرق يدير لنا الأمر سر سكوناً كالحية الصباء^١

ومن الشعراء الذين هجوا الرسول والإسلام (هيرة بن أبي وهب) المخزومي .
من فرسان قريش وشعرائها ، وكان مثل (ابن الزبيري) ممن يؤذون الإسلام، فهدر
النبي دمه ، فهرب الى (نجران) حتى مات بها كافراً . وكانت عنده (أم
هانيء) ابنة (أبي طالب) فأسلمت عام الفتح، فقال حين بلغه اسلامها قصيدة
من بينها هذه الأبيات :

أشأقتك هند أم ناك سؤاها كذاك النوى أسبابها وانفتاها
وقد أرقّت في رأس حصن ممرّد بنجران يسري بعد نوم خيالها
وإن كنت قد تابعت دين محمدٍ وعظفت الأرحام منك حبالها

وهي قصيدة رويت في موارد متعددة مع شيء من الاختلاف^٢ .

١ الاستيعاب (٢٦/٢ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ كتاب نسب قريش (٣٩ ، ٣٤٤) ، الشعر والشعراء (٨٠) ، الاشتقاق (٩٥) ،
البيان والتبيين (٢٠٣/٢) ، العملة (٢٣/١) .

وأورد (ابن هشام) قصيدة لـ (هبيرة بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ)
المخزومي ، في معركة (أحد)^١ . وذكر (ابن سلام) أن (هبيرة) ، كان
شاعراً من رجال قريش المعدودين ، وكان شديد العداوة لله ولرسوله ، فأخذه الله
ودخقه ، وهو الذي يقول يوم أحد :

قدنا كنانة من أكتاف ذي يمن عرض البلاد على ما كان يُزجيهما
قالت كنانة أنى تذهبون بنا قلنا النخيل فأموها وما فيها

وله شعر كثير وحديث^٢ .

و (الحارث بن هشام بن المغيرة) المخزومي ، أخو (أبي جهل) وابن
عم (خالد بن الوليد) ، كان من أشرف قومه ، وقد مدحه (كعب بن
الأشرف) اليهودي . وكان فيمن شهد بدرًا مع المشركين ، وفرَّ حينئذٍ وقتل
أخوه أبو جهل ، فعبر بفراره ، فما قيل فيه قول حسان بن ثابت :

إن كنت كاذبة للذي حدثني فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ونجا برأس طمرّة ولجام

فأجابه الحارث :

الله يعلم ما تركت قتالهم حتى رموا فرسي بأشقر مزبد
فعلمت أني إن أقاتل واحداً أقتل ولا يبيكي عدوي مشهدي
ففررت عنهم والأحبة فيهم طمعاً لهم بعقاب يوم مرصد

ويرى علماء الشعر ان هذه الأبيات أحسن ما قيل في الاعتذار من الفرار^٣ .

١ ابن هشام ، سيرة (١٥٥/٢) ، (حاشية على الروض) .

٢ طبقات (٦٥) .

٣ الإصابة (٢٩٣/١) ، (رقم ١٥٠٤) ، « فاعتذر اليه الحارث بن هشام من فراره
يومئذ ، بما زعم الاصمعي أنه لم يسمح بإحسن من اعتذاره ذلك من فراره » ،
الاستيعاب (٣٠٨/١) ، (حاشية على الإصابة) ، نسب قريش (٣٠١) وما بعدها ،
وقد روى الشعر بصور مختلفة .

وكان الحارث يضرب به المثل في السؤدد حتى قال الشاعر

أظننت ان أباك حين تسيّتي في المجد كان الحارث بن هشام
أولى قریش بالمكارم والندى في الجاهلية كان والاسلام^١

وله أشعار في بلد وفي المناسبات الأخرى التي وقعت مع المسلمين ، وله شعر في رثاء أخيه (أبي جهل) . وذكر (ابن هشام) أن بعض أهل العلم بالشعر ينكر بعض هذا الشعر^٢ .

وقد شهد (أحد) مشركاً حتى أسلم يوم فتح مكة ، وكان من المؤلفة قلوبهم ، وشهد مع النبي حينئذ فاعطاه مائة من الإبل كما أعطى المؤلفة قلوبهم ، وكان من المطعنين بمكة . وخرج الى الشام في زمن (عمر) ، فقبه أهل مكة فيكون فراقه . وتوفي هناك بطاعون عمواس سنة ثمانئ عشرين في رواية ، أو بيوم اليرموك رجب سنة خمس عشرة في رواية أخرى^٣ .

ومن شعراء قریش : (مالك بن نعيم بن السباق بن عبد الدار بن قصي) القرشي ، وهو جاهلي ، من معاصري (هشام بن المغيرة) المخزومي^٤ .

ومن شعراء قریش الذين أدركوا الاسلام وصاروا عليه ، (ابن خطل) (عبدالله بن خطل) ، أو (آدم) القرشي الأدمي . وهو من ولد (تميم بن غالب) . وكان ممن يهجو الرسول والاسلام ، ويأمر قيتتين له بأن تغنيا بهجاء الرسول . فأهدر النبي دمه ولو وجد تحت أستار الكعبة . وإنما أمر بقتله لأنه كان مسلماً ، ثم ارتد مشركاً ، وكانت له قيتان : فرتني وأخرى معها ، وكانتا تغنيان بهجاء رسول الله ، فأمر بقتلها معه . فقتله (أبو برزة) الأسلمي وهو متعلق بأستار الكعبة^٥ .

١ الاصابة (٢٩٣/١) ، (رقم ١٥٠٤) .

٢ ابن هشام ، سيرة (١١٣/٢) ، (حاشية على الروض) .

٣ الاصابة (٢٩٣/١) ، (رقم ١٥٠٤) ، الاستيعاب (٣٠٧/١) ، (حاشية على

الاصابة) ، ابن سلام ، طبقات (٣٣ وما بعدها) .

٤ المرزباني ، معجم (٢٥٥) .

٥ الطبري (٥٩/٣) ، (فتح مكة) ، العمدة (٢٣/١) .

ومن شعراء قريش (أبو العاصي بن أمية الأكبر بن عبد شمس) ، كان يقال له (الأمين) ، وكان من حكماء قريش . وينسب إليه قوله :

أبلغ لديك بني أمية آية نصحاً مينا
إنا خلقنا مصابين وما خلقنا مفسدين
اني أعادي معشراً كانوا لنا حصناً حصينا
خلقوا مع الجوزاء إذ خلقوا ووالدهم أبونا^١

وكان (أبو عزة) واسمه (عمرو بن عبد الله بن عمير) ، شاعراً ، وكان مملقاً ذا عيال ، فأسر يوم بدر كافراً ، فن عليه الرسول على أن لا يهجو المسلمين ، فعاهده وأطلقه . فلما كان يوم أحد ، أطعمه (صفوان بن أمية بن خلف الجمحي) ، وكان محتاجاً ، والمحتاج بطمع ، فأخذ يحرض الناس على الإسلام ، فقتل . وقيل إنه برص بعد ما أسن^٢ ، وكانت قريش تكره الأبرص ، وتخاف العدوى ، فكانوا لا يؤاكلونه ولا يشاربونونه ولا يجالسونه ، فكبر ذلك عليه ، فصعد جبل حراء ، يريد قتل نفسه ، فظعن بها في بطنه ، فسال ماء أصفر ، وذهب ما كان به ، فقال في ذلك شعراً^٣ . وذكر (الزبير) أنه أسر يوم (بدر) وكان ذا بنات ؟ فقال : « دعني لبناتي » فرخه ، وأخذ عليه ألا يكتر عليه بعدها ، فلما جمعت قريش لرسول الله لتسير إليه ، كلمه (صفوان بن أمية) وسأله أن يخرج الى (بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة) ، وهم حلفاء قريش ، فيسألهم النصر ، فأبى عليه ، وقال : « إن محمداً قد من عليّ وأعطيته ألا أكثر عليه » ، فلم يزل صفوان يكلمه حتى خرج الى بني الحارث ، يحرضهم على الخروج مع قريش والنصر لهم ، فقال في ذلك :

أنتم بنو الحارث والناس إلهام أنتم بنو عبد مناة الرزام
أنتم حماة وأبوكم حمام لا تعدوني نصركم بعد العام
لا تسلموني لا يحل لإسلام

١ كتاب نسب قريش (٩٨ وما بعدها) .

٢ ابن سلام ، طبقات (٦٣ وما بعدها) .

فلما انصرفت قريش من أحد ، تبعهم رسول الله حتى بلغ (حراء الأسد) ، فأصاب بها (عمراً) ، فقال له : « يا محمد ! عفوك ! » فقال له الرسول ، « لا نسمح سبائك بمكة ، تقول : خدعتُ محمداً مرتين ! » « لا يلدغ مؤمن من جحر مرتين ، وقتله صبراً »^١.

ومن شعراء قريش (حرب بن أمية)^٢ ، وهو من بني أمية^٣ ، وكان رئيساً بعد المطلب^٤ ، وهو والد (أبي سفيان بن حرب) ، وقد زعم ان الجن قتلته ، وأنشدوا في ذلك شعراً ذكروا ان الجن قالته ، هو :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

وقد زعموا ان الجن خفتة^٥ . وقد نسبوا له هذه الأبيات :

أبا مطرٍ هلُمَّ الى صلاحٍ فتكفيكَ الندامى من قريش
فتأمن وسطهم وتعيش فيهم أبا مطرٍ هديت لخير عيش
وتتزل بلدة عزت قديماً وتأمن أن يزورك ربُّ جيش

قالوا انه قالها مخاطباً بها (أبا مطر) الحضرمي ، يدعوهُ الى حلفه ونزول مكة^٦.

ومن شعراء قريش الذين أدركوا الاسلام : (أبو زمعة) ، واسمه (الأسود ابن المطلب) . له شعر رثا به من قُتل بيدر ، منه :

تُبَكِّي أن يضل لها بعيرٌ ويمنعها من النوم السهود

١ سبب قريش (٣٩٧ وما بعدها) .

٢ نسب قريش (١٥٧) .

٣ المحبر (١٣٢) :

٤ المحبر (١٦٥) .

٥ الحيوان (٢٠٧/٦) ، معاهد التنصيص (١٢/١ وما بعدها) ، المعارف (٣٢) .

٦ الحيوان (٣٠٢/١) .

٧ الحيوان (١٤١/٣) .

فلا تبكي على بكرٍ ولكن
 على بدرٍ سراة بني هصيص
 وبكى إن بكيت على عقيل
 وما لأبي حكمة من نديد
 ألا قد ساد بعدهم رجالٌ
 ولو لا يوم بدر لم يسودوا^١

١ نسب قريش (٢١٨ وما بعدها) .

الفصل الثالث والستون بعد المئة

شعراء يثرب

قال (ابن سلام) : « شعراؤها الفحول خمسة : ثلاثة من الخزرج واثنتان من الأوس . فمن الخزرج ، من بني النجار حسان بن ثابت ، ومن بني سلمة ، كعب بن مالك ، ومن بلحارث بن الخزرج : عبدالله بن رواحة ، ومن الأوس : قيس بن الخطيم من بني ظفر ، وأبو قيس بن الأسلت من بني عمرو بن عوف^١ . وهناك شعراء آخرون لكنهم لم يبلغوا مبلغ هؤلاء في الشعر ، منهم : (أحبحة بن الجلاح) و (سويد بن الصامت) ، و (أبو قيس مالك بن الحارث) وآخرون . ونسبوا لأبي أمية جدّ النبي قوله :

وإذا أتيت معاشرأ في مجلسٍ فاختر مجالسهم ولما تقعد
ولكل أمر يستعاد ضراوة فالصالحات من الأمور تعود^٢

ويعد (مالك بن العجلان) الخزرجي في جملة شعراء يثرب ، ذكر انه القائل للربيع بن أبي الحقيق اليهودي من أبيات :

لاني امرؤ من بني سالم كرم وأنت امرؤ من يهود

١ طبقات (٥٢) .

٢ المصون (١٨٩) .

فأجابه الربيع من أبيات أولها :

أنسفه قيلة أخلامها وحان بقيلة عثر الجدود^١

وفيه يقول الشاعر (عمرو بن امرئ القيس) من بني الحارث بن الخزرج ،
من شعراء الجاهلية :

يا مال والسيد المعمم قد يبطره بعد رأيه السرف^٢
نحن بما عندنا وأنت بما عندك راضٍ والرأي مختلف^٣

وهو من مشاهير سادة (يثرب) ، وله ذكر في نزاع أهل يثرب مع اليهود ،
وفي حرب (سمير) بين الأوس والخزرج . وهو قاتل (الفطيون)^٤ .

وعمر بن الإطنابة من شعراء (يثرب) ، وهو من الخزرج ، وهو شاعر
فارسي قديم ، خرجت الخزرج معه وخرجت الأوس وأحلافها مع (مُعاذ بن
النعمان) في حرب كانت بين الأوس والخزرج . وذكر ان حسان بن ثابت جعله
أشعر الناس ، لقوله :

لاني من القوم الذين اذا انتدوا بدأوا بحق الله ثم النائل
المانعين من إلحنا جيرانهم والحاشرين على طعام النازل
والخالطين فقيرهم بغنيهم والباذلين عطاءهم للسائل
لا يطعمون وهم على أحسابهم يشفون بالأحلام داء الجاهل
القائلين ولا يعاب خطيئهم يومَ المقامة بالكلام الفاصل

ومن شعره :

أبت لي عفتي وأبى بلاني وأخذي الحمد بالثمن الربيع
وأكرامي على المكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيع

١ المرزباني ، معجم (٢٥٦) .

٢ والشعر يختلط أبياته بأبيات قصيدة أخرى لقيس بن الخطيم ، وأخرى لمالك بن
العجلان ، البيان والتبيين (٣ / ١٠٠) ، جمهرة أشعار العرب (١٢٧ وما بعدها) ،
الجمهرة (١٢٢) ، ديوان قيس بن الخطيم (١٦ وما بعدها) .
٣ الاشتقاق (٢ / ٢٧٠) .

ويقال إن معاوية قال : « لقد وضعت رجلي في الركاب يوم صفين وهممت بالفرار ، فما منعني من ذلك إلا قول ابن الإطنابة ، الشعر المذكور^١ .

ونسب (أبو الفرج) الأصبهاني الى (أحيحة بن الجلاح بن الحريش «الجريش») ابن جحجي بن كلفة (الأوسي قوله :

لتبكي قنية ومزمرها ولتبكي قهوة وشاربها
ولتبكي ناقة إذا رحلت وغاب في سريخ مناكبها

وهي أبيات قبلها :

يشتاق قلبي الى مليكة لو أمست قريباً لمن يطالبها
ما أحسن الجيد من مليكة والد لآيات إذ زانها ترائبها

وقد نسبها بعض آخر لعدي بن زيد العبادي، ونسبها بعض آخر لبعض الأنصار^٢.
و (أحيحة بن الجلاح) ، من سادات الأوس . وكان سيدهم في زمانه . وكان شاعراً . وكانت عنده (سلمى بنت عمرو) من بني النجار ، وأولاده منها اخوة (عبد المطلب)^٣ وهو من أصحاب المذمبات^٤ .

وقد ذكر (ابن الشجري) ، أنه وجد في كتاب لغوي أن الشعر المذكور منسوب الى (عدي بن زيد) ، وقد تصفح نسختين من ديوان عدي فلم يجده فيها ، وإنما وجد له قصيدة على هذا الوزن وهذه القافية أولها :

لم أرَ مثل الأقوام في غن الأيام ينسون ما عواقبها

وذكر (البغدادي) أن (الأصبهاني) اقتبسه في (الأغاني) لأحيحة^٥ .

وقد ذكر أهل الأخبار أن (أحيحة) كان في أيام التبع (أبو كرب بن حسان بن تبع بن أسعد) الحميري ، وأن هذا التبع لما عاد من العراق يريد

١ المرزباني ، معجم (٨ وما بعدها) .

٢ السيوطي ، شرح شواهد (٤١٧/١) .

٣ الاشتقاق (٢٦٢) .

٤ الأغاني (١١٩/١٣) ، زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١٤٩/١) .

٥ الخزائن (٢٠/٢ وما بعدها) .

(يُثرب) لقتل أهلها ابناً له بها ، وهو مجمع على خرابها وقطع نخلها واستئصال أهلها وسبي النريسة ، نزل بسفح (أحد) فاحتفر بها بئراً ، عرفت بـ (بئر الملك) ، ثم أرسل الى أشرافها ليأتوه ، فكان ممن أتاه (زيد بن ضبيعة) وابن عمه (زيد بن أمية بن عبيد) ، وكانوا يسمون (الأزياد) ، و (أحبيحة) بن الجلاح) . فلما جاء رسول التبّع ، ذهب الأزياد اليه ، وكان (أحبيحة) له تابع من الجن ، أخبره أنه يريد قتلهم جميعاً ، وكان لا يقول إلا صواباً ، فلما قابل التبّع تحدث معه عن أمواله وعن أموال المدينة ، ثم خرج من عنده ودخل خبائه ، وكان (تبّع) قد أوكل حراساً به ، فشرب وقرض أحياناً مطلعها :

بشتاق قلبي الى مليكة أمسى قريباً لمن يطالبها

وأمر قيته أن تغنيه حتى استغفل الحرس ، فقر منهم الى أطمه (الضحيان) ، وقيل (المستظل) ، فجرد الملك كتيبة عليه ، ثم حاصر المدينة ، فلم يتمكن منها ، إذ اعتصم أهلها من الأوس والخزرج واليهود بأطمهم ، ثم أفتعه (حبران) من أحبار يهود بكف الحصار عنها ، فرجع^١.

وكان (أحبيحة) سيد الأوس في الجاهلية ، وكان كثير المال شحيحاً عليه يبيع بيع الربا بالمدينة ، حتى كاد يحيط بأموالهم ، وكان له تسع وتسعون بعبراً كلها ينطح عليها ، وكان له أطمان ، أطم في قومه يقال له (المستظل) ، وأطم يقال له (الضحيان) بالعصبة في أرضه التي يقال لها الغابة ، بناه بحجارة سود ، ويزعمون انه لما بناه هو وغلّام له أشرف ، ثم قال : لقد بنيت حصناً حصيناً ما بنى مثله رجل من العرب أمني مني ، ولقد عرفت موضع حجر منه لو نزع وقع جميعاً . فقال غلامه : أنا أعرفه . قال : فأرنيه يا بني ؟ قال : هو ذا ، وصرف اليه رأسه . فلما رأى أحبيحة انه قد عرفه دفعه من رأس الأطم ، فوقع على رأسه فات^٢ . وهي قصة تشبه قصة (سنار) ، ولها شبه عند اليونان . ويذكرون انه لما بناه قال :

بنيت بعد مستظل ضاحيا بنته بعصبة من ماليا

١ الخزانة (٢١/٢ وما بعدها) ، (يولاق) ، الاغانى (١١٩/١٣) .

٢ الخزانة (٢٣/٢) ، (يولاق) .

للسر مما يتبع القواضيا أخشى ركبياً أو رجلاً غادياً^١

وينسب لأحيحة قوله :

استغن أومت ولا يغرك ذو نسب من ابن عمّ ولا عمّ ولا خال
لاني مقيم على الزوراء أعمرها إن الحبيب الى الإخوان ذو المال

وقوله :

وما يلدي الفقير متى غناه ولا يلدي الغني متى يعيل^٢

و (سويد بن صامت) أخو (عمرو بن عوف) من الأوس ومن (الكلمة) ومن الأشراف أصحاب النسب ، ومن الشعراء . وكانت له أشعار كثيرة . وهو الذي ذهب اليه النبي يوم قدم مكة حاجاً أو معتمراً ليدعوه الى الإسلام ، فلما كلمه النبي قال له (سويد) فلعل الذي معك مثل الذي معي ! فقال له رسول الله وما الذي معك ؟ قال : مجلة لقمان . فقال له رسول الله : اعرضها عليّ ! فعرضها عليه ، فقال : إن هذا لكلام حسن والذي معي أفضل من هذا : قرآن أنزله الله تعالى عليّ ، هو هدى ونور . فتلا عليه رسول الله القرآن ودعاه الى الإسلام ، فلم يبعد منه . وقال : إن هذا لقول حسن ، ثم انصرف عنه . فقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث أن قتله الخزرج^٣ . ويشك في إسلامه^٤ .

و (أبو قيس بن الأسلت) (أبو قيس بن عامر بن جشم) و (عامر) هو الأسلت ، شاعر من الأوس . اختلف في اسمه ، فقيل (صيفي) وقيل (الحارث) (الحارث) ، وقيل (عبدالله) ، وقيل (صرمة) ، واختلف في إسلامه . ذكر انه كان يدعى (الحنيف) لتحنفه . ولم يكن أحد من الأوس والخزرج أوصف لدين الحنيفية ولا أكثر مساءلة عنها منه . وكان يسأل من اليهود عن دينهم ،

١ الخزانة (٢٣/٢) ، (بولاق) .

٢ بلوغ العرب (١٢٧/٣) .

٣ الروض الانف (٢٦٥/١) وما بعدها ، ابن هشام ، سيرة (٢٦٥/١) وما بعدها ، (حاشية على الروض) ، الاغانى (١٦٩/٢) .

٤ الاصابة (١٣٢/٢) ، (رقم ٣٨١٨) ، الاستيعاب (٥٩٣/٢) ، رسالة الففران

(١٣٧) .

فكان يقاربهم ، ثم خرج الى الشام فتزل على (آل جفنة) فأكرموه ووصلوه ، وسأل الرهبان والأخبار ، فدعوه الى دينهم فامتنع ، ثم خرج الى مكة معتمراً ، فبلغ (زيد بن عمرو بن نفيل) فكلّمه ، فكان يقول ليس أحد على دين ابراهيم إلا أنا وزيد بن عمرو بن نفيل . ولما قدم النبي الى المدينة جاء اليه فقال : إلام تدعو ؟ فذكر له شرائع الاسلام . فقال : ما أحسن هذا وأجمله ! فلقبه (عبدالله ابن أبيّ بن سلول) ، فقال : لقد لذت من حزبتنا كل ملاذ ، تارة تخالف قريشاً ، وتارة تنيع محمداً . فقال : لا جرم لأتبعنه الى آخر الناس . وقد اختلف في اسلامه ، والأغلب انه لم يسلم^١ . وذكر انه كاد أن يسلم ، لما اجتمع برسول الله ، ولكن كلام (عبدالله بن أبيّ) أثر عليه ، فقال : والله لا أسلم سنة . ثم انصرف الى منزله ، حتى مات قبل الحول ، وذلك في ذي الحجة على رأس عشرة أشهر من الهجرة^٢ .

وفي سيرة (ابن هشام) قصيدة نسبت الى (أبي قيس بن الأسلت) زعم أنه وجهها لقريش ينهى فيها عن الحرب ويأمرهم بالكف بعضهم عن بعض ، ويذكر فضلهم وأحلامهم ، ويأمرهم بالكف عن رسول الله ، ويذكرهم بلاء الله عندهم ودفعه عنهم الغيل وكيدهم عنهم . وأول القصيدة :

يا راكباً اما عرضت فبلغن مغلفة عني لؤي بن غالب
رسول امرئ قد راعه ذات بينكم على الثاني مخزون بذلك ناصب^٣

وهو من أصحاب المذاهبات ، ومطلع مذهبه :

قالت ولم تقصد لقول الخني مهلاً فقد أبلغت أسماعي^٤

ونسب له قوله :

ولو شا ربنا كنّا يهوداً وما دين اليهود بلدي شكول

-
- ١ الاصابة (١٦٠/٤ وما بعدها) ، (رقم ٩٤٤) ، الاستيعاب (١٥٩/٤ وما بعدها) ،
(حاشية على الاصابة) ، ابن سلام ، طبقات (٥٦) .
 - ٢ ابن سعد ، طبقات (٣٨٥/٤) .
 - ٣ سيرة ابن هشام (١٨٠/١) ، (حاشية على الروض) .
 - ٤ الاغانى (١٦٠/١٥) ، الجمهرة (١٢٦) ، زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية
(١٣٩/١) .

ولو شا ربنا كنّا نصارى مع الرهبان في جبل الجليل
ولكنّا خلقنا إذ خلقنا حنيفاً ديننا عن كل جيل
نسوق الهدى ترسف مذعنات تكشف عن مناكبها الجلول^١

وكان (أبو قيس بن الأسلت) الأنصاري يهاجي حسان بن ثابت . وهو من الأوس ، وحسان من الخزرج ، فكانا يتهاجيان . وكان بين الحين هجاء ، فكان شعراء كل حي ، يهاجون شعراء الحي الثاني ، عصبية ، لما كان بينهما من تحاسد وتنافر^٢ .

والأسلت لقب (عامر بن جشم بن وائل بن يزيد) والد الشاعر المتقدم من الأوس ، وهو شاعر من شعراء الجاهلية ، وكانت الأوس قد أسندت أمرها في يوم (بعث) الى (أبي قيس بن الأسلت) ، فقام في حربهم وآثرها على كل أمر آخر ، حتى أنهكته وشحب لونه . وقال (ابن حجر) ان اسم (أبي قيس ابن الأسلت) (صيفي) ، وقيل (الحارث) ، وقيل (عبدالله) ، وقيل (صرفة) ، وقيل غير ذلك . واختلف في اسلامه . فمنهم من صبره مسلماً ، وجعله في عداد الصحابة ، ومنهم من جعله متألماً حنيفاً على دين ابراهيم ، وكاذ يقول : ليس أحد على دين ابراهيم إلا أنا وزيد بن عمرو بن نفيل ، ومنهم من زعم انه قال : والله لا أسلم الى سنة ، فأت قبل الحول على رأس عشرة أشهر من الهجرة بشهرين ، وذكر انه هرب الى مكة فأقام بها مع قريش الى عام الفتح^٣ . وللعصبية دور في هذه الروايات ، ترد في رجال آخرين من أهل يثرب ومن أهل مكة ، تقدم روايات منها رجالاً في الاسلام ، وتؤخرهم أخرى ، وتتفي عنهم بعضها الدخول في دين الله ، لما لهذا التأخير أو التقديم ، أو للبقاء على الشرك من أهمية كبيرة بالنسبة لهم في ذلك الوقت .

وذكر أن (أبا قيس بن الأسلت) كان يعدل (بقيس بن الخطيم) في الشجاعة والشعر^٤ . وقيس بن الخطيم ، شاعر فارس من الأوس . معدود من

-
- ١ ابن سعد ، طبقات (٢٨٥/٤) .
 - ٢ الخزائن (٦٨/٤) ، (بولاق) .
 - ٣ الخزائن (٤٧/٢) وما بعدها ، (بولاق) .
 - ٤ الاصابة (١٦١/٤) ، (رقم ٩٤٤) ، « واسم الاسلت عامر . فهو لقب له » ، تاج العروس (٥٥٤/١) ، (سلت) .

أصحاب (المذهبَات) . وتبدأ مذهبه بقوله :

أُتُعرف رسماً كاطّراد المذاهب لعمره وحشاً غير موقف راكبٍ

وكان يلاحى الخزرج ، قتل أبوه وهو صغير . قتله رجل من الخزرج ، وعلم أن جدّه قتله رجل من (عبد القيس) . فتعقب القاتِلين ، حتّى ظفر بقاتل والده يثرب ، وظفر بقاتل جده بلدي المجاز فقتله^١ . أدرك الإسلام ، ولكنه لم يسلم . ذكر أنه قدم على النبي بمكة قبل الهجرة ، فعرض النبي عليه الإسلام ، فقال : إني لأعلم أن الذي تأمرني به خير مما تأمرني به نفسي ، وفيها بقية من ذلك ، فاذهب فاستمتع من النساء والخمر وتقدم بلدنا فأتبعك . فقتل قبل أن يتبعه . أصابه سهم وهو راكب أمام أطم لرجل من الخزرج^٢ .

وهو الذي يقول في حرب كانت بينهم وبين الخزرج :

قد حصت البيضة رأسي فما أطعم نوماً غير تهجاع
أسمى على جلّ بني ملكٍ كل امرئ في أمره ساعي^٣

وذكر (المرزباني) أن قيس بن الخطيم ، شاعر مجيد فحل ، من الناس من يفضلهُ على حسان شعراً . وقال حسان : إنا إذا نافرنا العربُ فأردنا أن نخرج الحبرات من شعرنا أتينا بشعر قيس بن الخطيم^٤ . وله ديوان مطبوع^٥ . وهو الذي يقول في يوم بعث :

أُتُعرف رسماً كاطّراد المذاهب لعمره قفر غير موقف راكبٍ

وله أشعار جيدة أخرى^٦ .

-
- ١ الاشتقاق (٢٦٤) ، الاغاني (١٥٩/٢ وما بعدها) ، الخزائنة (١٦٨/٣) ، المرزباني ، معجم (١٩٦) .
 - ٢ المرزباني ، معجم (١٩٦) ، ديوان الحماسة (١٠٤/٣) ، بروكلمن تاريخ الادب العربي (١١٤/١ وما بعدها) .
 - ٣ ابن سلام ، طبقات (٥٦) .
 - ٤ المرزباني ، معجم (١٩٦) ، ابن سلام ، طبقات (٥٦) .
 - ٥ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١١٥/١) .
 - ٦ ابن سلام ، طبقات (٥٦ وما بعدها) .

وذكر انه كان مقيماً على شركه ، وأسلمت امرأته ، وكان يقال لها (حواء) ، وكان يصدها عن الاسلام ، ويعيث بها . وكان رسول الله وهو بمكة قبل الهجرة يخبر عن أمور الأنصار ، وعن حالهم فأخبر بإسلامها وبما تلقى من قيس ، فلما كان الموسم ، وحضر مكة ، أتاه النبي في مضره ، فلما رأى النبي رجب به وأعظمه ، فأخبره النبي بما تلاقى امرأته منه بسبب اسلامها ، وقال له : أحب أن لا تعرض لها ، فكف عن أذاها^١ ، ويقال ان النبي دعاه الى الاسلام وتلا عليه القرآن ، فقال : اني لأسمع كلاماً عجيباً فدعني أنظر في أمري هذه السنة ثم أعود اليك فات قبل الحول^٢ .

وذكر انه كان سيداً شاعراً ، فلما هدأت حرب الأنصار ، تذاكرت الخزرج قيس بن الخطيم ونكايته ، فتذامروا وتواعدوا قتله ، فلما مر بأطم (بني حارثة) ، رمي بثلاثة أسهم ، فصاح صيحةً أسمعها رهطه ، فجاءوه فحملوه الى منزله ، فلم يروا له كفواً إلا (أبا صعصعة بن زيد) النجاري ، فاندس اليه رجل حتى اغتاله في منزله فضرب عنقه ، وجاء برأسه ، ووضعهُ أمام (قيس) وكان به رمق ، فما لبث أن مات^٣ .

وله قصيدة مثينة ، قالها حين ظفر بقاتل أبيه وقاتل جده ، فقتلها ، من أبياتها :

طعنتُ ابن عبد القيس طعنة ناثرة	لها نقدٌ لولا الشعاع أضاءها
ملكنتُ بها كهيّ فأنهت فتقها	يرى قائم من دونها ما وراءها
يهون عليّ أن ترد جراحها	عيون الأواسي إذ حدت بلاءها
وكنت امرءاً لا اسمع الدهر سبّة	أسب بها إلا كشفت غطاءها
فاني في الحرب الضروس موكلٌ	يلقдам نفسٍ ما أريد بقاءها
متى يأت هذا الموت لاتلف حاجة	لنفسٍ إلا قد قضيت قضاءها
ثارت عدياً والخطيم فلم أضع	ولاية أشياخ جعلت إزاءها ^٤

١ ابن سلام ، طبقات (٥٧) .

٢ الاصابة (٢٦٦/٣) ، (رقم ٧٣٥٠) .

٣ أسماء المتالين ، (المجموعة السابعة من نوادر المخطوطات) ، (٢٧٤) .

٤ حماسة أبي تمام (٩٤/١ وما بعدها) ، (بولاق) ، الاغانى (٦٠/٢) ، ديوانه

(٣ وما بعدها) ، (طبعة لايبزك ١٩١٤) .

وله غزل ، نابع من غزل أهل الحضر ، تغزل فيه بعمرة بنت رواحة^١ .

و (أبو قيس) (مالك بن الحارث) ، وقيل « صرمة بن أبي أنس بن مالك » من بني النجار، شاعر كذلك . كان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح وفارق الأوثان واغتسل من الجنابة ، وهم بالنصرانية ثم أسلك عنها ، ودخل بيتاً فاتخذ مسجداً لا يدخل عليه طامث ولا جنب . وقال : أعبد رب إبراهيم ، فلما قدم الرسول يثرب أسلم فحسن إسلامه ، وهو شيخ كبير . وكان قوياً بالحق معظماً له . يقول في الجاهلية أشعاراً حسناً . وقد ذكر (ابن اسحاق) أشعاراً له ، في الوصايا ، وفيها حث على مكارم الأخلاق والأمر بالمعروف وفي انصاف اليتيم وغير ذلك من شعر المواعظ^٢ .

ومن شعراء يثرب : (عمرو بن امرئ القيس) ، الذي سبق أن ذكرته ، وهو جدّ (عبدالله بن رواحة) وهو شاعر خزرجي جاهلي . وله شعر في القتال الذي وقع بين الأوس والخزرج بسبب (سمير) الذي عدا على (بجير) مولى (مالك بن العجلان) قتلته ، فوقعت الحرب من أجل ذلك بين الحيين، فحكموا (عمرو بن امرئ القيس) ، فحكم بدية المولى للمالك ، فلما رفض الحكم هاجت الحرب . فلما طالت حكموا فيها (ثابت بن المنذر) والد حسان وبذلك انتهى النزاع^٣ .

وحسان بن ثابت من المخضرمين ، من شعراء الخزرج ، واسمه حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام . وهو شاعر رسول الله وشاعر الاسلام . وأمه (الفريرة) بنت (خالد بن حيش بن لؤذان) . وهي من الخزرج أيضاً . أدركت الاسلام أيضاً فأسلمت ، وقيل هي أخت (خالد) لا ابنته ، ويكنى (أبا الوليد) ، وأبا المضرب ، وأبا الحسام ، وأبا عبد الرحمن . « قال أبو عبيدة : فضل حسان ابن ثابت على الشعراء بثلاث : كان شاعر الأنصار في الجاهلية ، وشاعر النبي صلى الله عليه وسلم في أيام النبوة ، وشاعر اليمن كلها في الاسلام . وكان مع

١ كارلو نالينو (٩٣) .

٢ الاستيعاب (١٥٧/٤ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، الاصابة (١٧٩/٢) ، (رقم ٤٠٦١) .

٣ الخزانة (١٨٨/٢ وما بعدها) ، (بولاق) .

ذلك جباناً^١ . ولم يشهد مع النبي مشهداً لأنه كان يجبن^٢ . وذكر انه كان لسناً شجاعاً ، فأصابته علة أحدثت فيه الجبن ، فكان بعد ذلك لا يقدر أن ينظر الى قتال ولا يشهده^٣ . وروي عن (أبي عبيدة) قوله : « اجتمعت العرب على أن أشعر أهل المدر يثرب ، ثم عبد القيس ، ثم ثقيف . وعلى ان أشعر أهل المدر حسان بن ثابت » . وقال الأصمعي : حسان بن ثابت أحد فحول الشعراء . فقال له أبو حاتم : تأتي له أشعار لينّة . فقال الأصمعي : تنسب له أشياء لا تصح عنه^٤ .

وورد ان رسول الله قال : « ليس شعر حسان بن ثابت ، ولا كعب بن مالك ، ولا عبدالله بن رواحة شعراً ، ولكنه حكمة^٥ . وذكر ان (الحارث المرتي) ، قال للنبي : « اني أعوذ بالله وبك من هذا ، إن شعر هذا لو مزج بماء البحر لمزجه » . وكان حسان قد رآه جالساً مع الرسول ، فقال فيه شعراً مطلعاه :

يا حار من يغدر بدمّة جاره منك فإن محمداً لا يغدر^٦

ويروى أنه كان إذا عالج شعراً ، وعصي عليه ، ثم أحكمه وأعجبه ، طرب به وربما صاح من الطرب ومن فرحة الانتهاء من الشعر . قال أحدهم : سمعت حسان بن ثابت في جوف الليل وهو يتنوّه بأسمائه ويقول : أنا حسان بن ثابت : أنا ابن الفريعة ، أنا الحسام . فلما أصبحت غدوت عليه فقلت له : سمعتك البارحة تنوّه بأسمائك ، فما الذي أعجبك ؟ قال : عاجلت بيتاً من الشعر ، فلما أحكمته نوّهت بأسمائي ! فقلت وما البيت ؟ قال : قلت :

- ١ الاصابة (٢٢٥/١) ، (رقم ١٧٠٤) ، السيوطي ، شرح شواهد (٣٣٤/١) ، المحاسن والاضداد (٤٨) .
- ٢ الشعر والشعراء (٢٦٤) ، السيوطي ، شرح شواهد (٣٣٣/١) ، الجمان في تشبيهات القرآن ، لابن نقيب البغدادي (١٩٢ ، ٣٤٣) ، (بغداد ١٩٦٨) .
- ٣ السيوطي ، شرح شواهد (٣٣٤/١) .
- ٤ الاستيعاب (٣٣٨/١) ، السيوطي ، شرح شواهد (٣٣٤/١) ، الاغانى (١٣٤/٤) ، المؤلف (٨٩) ، المرزباني ، معجم (٤٠١) .
- ٥ المصدر نفسه (٣٣٥/١) .
- ٦ السيوطي ، شرح شواهد (٣٣٥/١) .

وإن امرأ يمسي ويصبحُ سالماً من الناس إلا ما جئني لسعيد^١

وروي أيضاً أنه قام من جوف الليل فصاح : يا آل الخرج ، فجاءوه وقد
فزعوا ، فقالوا : مالك ؟ قال : بيت قلته فخشيت أن أموت قبل أن أصبح
فيلعب ضيعة خلوه عني ، قالوا : وما قلت ؟ قال : قلت :

ربّ حلم أضاعه عسلم الما لـ وجهل غطى عليه النعيم^٢

وقد حمل على (حسان) شعر كثير ، بسبب تعامله على قریش ، فأرادت
قریش النكایة به ، فوضعت شعراً على لسانه ليحط من مكانته . قال (ابن سلام) :
« وأشعرهم حسان بن ثابت ، هو كثير الشعر جیده . وقد حمل عليه ما لم يحمل
على أحد . لما تعاضهت قریش واستبّت ، وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تليق به »^٣.

وأكثر علماء الشعر ان شعر (حسان) في الجاهلية أقوى منه في الاسلام ، قال
(الأصمعي) : « الشعر نكد يقوى في الشر ويسهل ، فإذا دخل في الخير ضعف
ولان . هذا حسان فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الاسلام سقط شعره . وقال
مرة أخرى : شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر . وقيل لحسان لان شعرك
أو هرم في الاسلام يا أبا الحسام ! فقال للقاتل : يا ابن أخي ان الاسلام يحجز
عن الكذب ، أو يمنع من الكذب ، وان الشعر يزينه الكذب . يعني ان شأن
التجويد في الشعر الإفراط في الوصف والتزيين بغير الحق وذلك كله كذب »^٤ .
وقال (الثعالبي) : « من عجائب أمر حسان انه كان رضي الله عنه يقول الشعر
في الجاهلية فيجيد جداً ويغير في نواصي الفحول ويدعي ان له شيطاناً يقول الشعر
على لسانه كمادة الشعراء في ذلك ... فلما أدرك الاسلام وتبدل الشيطان الملك تراجع
شعره وكاد يرك قوله ، ليعلم ان الشيطان أصلح للشاعر وأليق به وأذهب في
طريقه من الملك »^٥ . وما قوة شعر (حسان) في الجاهلية ، إلا بسبب قوة شبابه

١ السيوطي ، شرح شواهد (٣٣٥/١) وما بعدها) .

٢ السيوطي ، شرح شواهد (٣٣٦/١) .

٣ طبقات (٥٢) .

٤ الاستيعاب (٣٣٨/١) وما بعدها ، أسد الغابة (٥/٢) ، الشعر والشعراء

(٢٢٤/١) ، بروكلمن (١٥٣/١) .

٥ خاص الخاص (٨٠) ، الموشح ، للمرزباني (٦٥) .

آنذاك ، واندفاعه على الشراب وصمغ القيان ، فلما كبر وشاخ ، وذهبت قوة شبابه ، وامتنع من الشرب بسبب تحريم الاسلام له ، لم تبق له قريحة الشباب ، واندفاع ذلك الوقت ، فضعف شعره لذلك ، وللسن دخل في حيوية الانسان وفي نتاجه العقلي ، ومنه الشعر .

ونسب الى (الخطيئة) قوله : « أبلغوا الأنصار أن شاعرهم أشعر العرب حيث يقول :

يفشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل

وقال عبد الملك بن مروان : أمدح بيت قالته العرب بيت حسان هذا ^١ . وكان حسان قد أدرك النابغة وأنشده ، وأنشد الأعشى ، وكلاهما قال له إنك شاعر^٢ . وله حديث مع النابغة .

وصيَّفَ بأنه كان صاحب لسان طويل ، « وكان يضرب بلسانه روثه أنفه ، من طوله ، ويقول ، ما يسرني به مقول أحد من العرب ، والله لو وضعت على شعر حلقة ، أو على صخر لفلقه ^٣ . وكانت له ناصية يسلمها بين عينيه^٤ .

وكان أبوه (ثابت بن المنذر) من سادة قومه وأشرفهم ، وكان (المنذر) الحساکم بين الأوس والخزرج في يوم (سميحة) ، وكانوا حكّموا في دمائهم يومئذ (مالك بن العجلان بن سالم بن عوف) ، فتعدّى في مولى له قتل يومئذ ، وقال : لا آخذ إلا دية الصريح ، فأبوا أن يرضوا بحكمه ، فحكّموا (المنذر ابن حرام) . فحكم بأن أهدر دماء قومه الخزرج ، واحتمل دماء الأوس^٥ .

وكان حسان في أول أيامه ينتقل في الأرض طلباً للمال والعطايا والهبات ، فكان يراجع ملوك الحيرة ، ويعاود آل غسان . وكان هواه مع التماسنة أقوى منه مع آل لخم ، حتى أنه كان يذكرهم بخير ويمدحهم وهو في الإسلام . وقد أكرموه كثيراً ، وأنعموا عليه أكثر مما أنعم ملوك الحيرة عليه . والظاهر أن لبعد الشقة

١ الاستيعاب (٣٣٩/١) .

٢ الاستيعاب (٣٤٢/١) .

٣ الشعر والشعراء (٢٢٣/١) ، الفائق (٥١٢/١) .

٤ الشعر والشعراء (٢٢٣/١) .

٥ ابن سلام ، طبقات (٥٢) .

التي تفصل يثرب عن الحيرة ، ولكثرة ما كان يفد من الشعراء على آل نلهم ، وفيهم من هو أشعر من حسان ، وأكثر منه مكانة في الشعر بين العرب ، دخل في انصرافه الى مدح آل غسان وذهابه في الأكثر اليهم طلباً للآل في مقابل مدحه لهم.

ويروى عن (حسان) ان السعالى نصحته بمدا رسة الشعر ، فقد روي عنه انه قال : « خرجت أريد عمرو بن الحارث بن أبي شمر الغساني ، فلما كنت في بعض الطريق وقفت على السعلاة صاحبة النابغة ، وأخت المعلاة صاحبة (علقمة ابن عبدة) ، فقالت واني مقترحة عليك بيتاً ، فإن أنت أجزته شفعت لك الى أخي ، وإن لم تجزه قتلتك . فقلت هات . فقالت :

إذا ما ترعرع فينا الغلام فما أن يقال له من هو

قال : فتبعها من ساعتي ، فقلت :

فإن لم يسد قبل شد الإزار فذلك فينا الذي لاهوه
ولي صاحب من بني الشيصبان فحيناً أقول وحيناً هو

فقالت : أولى لك ، نجوت ، فاسمع مقالتي واحفظها عليك بمدا رسة الشعر ، فإنه أشرف الآداب وأكرمها وأنورها ، به يسغو الرجل ، وبه ينتظرف ، وبه يجالس الملوك ، وبه يخدم ، وبتركه يتصنع . ثم قالت : إنك إذا وردت على الملك وجدت عنده النابغة ، وسأصرف عنك معرفته ، وعلقمة بن عبدة ، وسأكلم المعلاة حتى تردّ عنك سورتها . قال حسان فقدمت على عمرو بن الحارث فاعتاص عليّ الوصول إليه فقلت للحاجب ، بعد مدة : إن أذنت لي عليه ، وإلا هجوت اليمن كلها . ثم انتقلت عنها . فأذن لي عليه ، فلما وقفت بين يديه وجدت النابغة جالسا عن يمينه ، وعلقمة جالسا عن يساره ، فقال لي : يا ابن الفريعة ، قد عرفت عيصك ونسبك في غسان ، فارجع فلأنسي باعث اليك بصلة سنية ، ولا أحتاج الى الشعر ، فلاني أخاف عليك هذين السبعين أن يفضحاك ، وفضيحتك فضيحتي ، وأنت اليوم لا تحسن أن تقول :

رفاق النعال طيب حجزاتهم يحيّون بالريحان يوم السبابس

فقلت : لا بد منه . فقال : ذاك الى عميك فقلت : أسألكما بحق الملك ،

الجواب : الا ما قدمنا في عليكما ؟ فقالا : قد فعلنا ، هات ، فأنشأت أقول والقلب وجل :

أسألتَ رسم الدار أم لم تسألَ بين الجوابي فالبيض فحول

حتى أتيت على آخرها . فلم يزل عمرو بن الحارث يزحل عن مجلسه سروراً حتى شاطر البيت ، وهو يقول : هذه والله البتارة التي قد بترت المدائح ، هذا وأبيك الشعر ، لا ما تعلقاني به منذ اليوم . يا غلام ألف دينار مرجوحة ، فأعطيت ألف دينار ، في كل دينار عشرة دنائير . ثم قال : لك عليّ مثلها في كل سنة ، ثم أقبل على النابغة فقال : قم يا زياد بني ذبيان فهات النشاء المسجوع ، فقام النابغة فقال :

ألا أنعم صباحاً أيها الملك المبارك ، السماء غطاؤك ، والأرض وطاؤك ، والداي فداؤك ، والعرب وقاؤك ، والعجم حاؤك ، والحكماء وزراؤك ، والعلماء جلساؤك ، والمقاول سمارك ، والعقل شعارك ، والحلم دثارك ، والصلق رداؤك ، واليمنُ حذاؤك ، والبرُ فراشك ، وأشرف الآباء آباؤك ، وأطهر الأمهات أمهاتك ، وأفخر الشبان أبناؤك ، وأعف النساء حلائلك ، وأعلى البنات بنياتك ، وأكرم الأجداد أجدادك ، وأفضل الأخوال أخوالك ، وأنزه الحداثق حداثك ، وأعذب المياه مياهلك ، وحالف الإضريج عاتقك ، ولاءم المسك مسكك ، وجاور العنبر تراتبك ، العسجد قواريرك ، واللجين صحائفك ، والشهد إدامك ، والخرطوم شرابك ، والأبكار مستراحك ، والعبير بنواسك ، والخير بفنائك ، والشر في ساحة أعدائك ، والذهب عطاؤك ، وألف دينار مرجوحة لإعماؤك ، وألف دينار مرهوجة إيتاؤك ، والنصر منوط بلوائك ، زين قولك فعلك ، وطحطح عدوك غضبك ، وهزم مقانيهم مشهلك . وسار في الناس عدلك ، وسكن تباريح البلاد ظفرك . أيفاخرك ابن المنذر اللخمي ؟ فوالله لققاك خير من وجهه ، ولشمالك خير من يمينه ، ولصمئك خير من كلامه : ولأملك خير من أبيه ، ولخدمك خير من عليه قومه . فهب لي أسارى قومي ، واسترهن بلك شكري ، فإنك من أشراف قحطان وأنا من سروات عدنان .

فرجع عمرو بن الحارث رأسه الى جارية كانت علي رأسه قائمة ، فقال :

مثل ابن الفريفة فليمدح الملوك ، ومثل ابن زياد فليثن على الملوك ،^١ وهكذا
دبج أهل الأخبار هذا الثناء في كتبهم ، وكان روايتهم قد سجلوه ساعة وقوعه
على شريط مسجل .

وتعد قصيدة (حسان) :

أسألت رسم الدار أم لم تسأل بين الجوابي فالبضيع فحومل

من جيد شعره ، وأشهر قصائده ، فهي لينة الألفاظ أسهل فهماً من قصائد
شعراء الصنف الأول ، وفيها من المديح ما يليق بملوك أهل المدر ، المتمتعين
بأنواع الترف والرفاهية ، ثم إن أطناب الشاعر في وصف الخمر يبعد عن أسلوب
شعراء أهل البادية ، كما يبعد عنه أيضاً الافتخار بقومه المقصور في بلاغة خطابهم
ووفدهم على أبواب الملوك . وقد أبدع فيها في وصف معيشة ملوك غسان ، وفي
حياتهم الحضرية التي كانوا يحبونها ، كما افتخر فيها بعشيرته الخزرج^٢ .

وخير شعر حسان هو ما قيل في مدح ملوك غسان .. وكان هواه فيهم ،
وكانوا هم يقدقون عليه العطايا والأموال ، ولا يؤخرونه من الدخول الى مجالسهم ،
ويؤثرونه بالمودة ، فخصص جيد شعره بهم . وقد مدح ملوك الحيرة أيضاً ،
غير أن مدحه لهم ، هو دون مدحه لأنفسهم الغساسنة ، الذين كان يكثر التردد
عليهم ، على حين لم يكن يقصد المناذرة إلا للحاجة شديدة ولطلب . ولعل ذلك
بسبب بعد الحيرة عن يثرب ، وكثرة ذهاب الشعراء الى ملوك الحيرة ، واستلراج
هؤلاء الملوك للشعر واغداقهم عليهم ، للاستفادة منهم في نشر الدعاية لهم بين
الأعراب .

ومن جيد شعره في ملوك الغساسنة قوله :

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل
يسقون من ورد البريض عليهم بردى يصفق بالرحيل السلسل
يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل

١ الاغاني (١٢٣/١٥ وما بعدها) ، السيوطي ، شرح شواهد (٣٧٩/١ وما بعدها) .

٢ كارلو نالينو (٨٧ وما بعدها) .

وابن مارية هو الحارث الأعرج بن أبي شمر الغساني ، وكان أثيراً عندهم ،
ولذلك يقول :

قد أراني هناك حق مكين عند ذي التاجِ مقعدي ومكاني^١

وذكر أنه دخل يوماً على (جبلة بن الأيهم) الغساني ، فأذن له ، فجلس
بين يديه وعن يمينه رجل له صغيرتان ، وعن يساره رجل ، وكان الأول هو
الناطقة ، وكان الثاني ، هو (علقمة بن عبدة) . فاستشدهم جبلة ، فأنشد
الناطقة قوله :

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب

قال حسان فذهب نصفني . ثم قال لعلقمة أنشد ، فأنشد :

طحا بك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

قال حسان ، فذهب نصفني الآخر . ثم قال (جبلة) لحسان ، أنت أعلم
الآن إن شئت سكت ، وإن شئت أنشدت ، فأنشد :

أبناء جفنة عند قبر أبيهم قبر ابن مارية الجواد المفضل
يسقون من ورد البريص عليهم كأساً تصفق بالرحيل السلسل

فأدناه منه ، ثم أمر له بثلاثة دينار وعشرة أقمصة لها جيب واحد . وقال :
هذا لك عندنا في كل عام . وذكر (أبو عمرو الشيباني) هذه القصة لحسان مع
(عمرو بن الحارث) الأعرج^٢ . ونجد الرواة يختلفون في مثل هذه القصص ،
بسبب ركونهم الى رواية مختلفين ، لم يدونوا الأخبار وانما سمعوها سماعاً ، وأكثرها
من المخترعات .

ويظهر انه قد تمكن من جمع ثروة مكنته من السكن في حصن حصين يثرب

١ الشعر والشعراء (٢٢٤/١) .

٢ الخزائن (٢٤٠/٢) وما بعدها ، (بولاق) .

عرف بـ (فارح)^١ . وكان الرسول اذا خرج لغزوة أو معركة أودع أهله حصن حسان ، لأنه كان حصناً حصيناً . وتذكر (صفية بنت عبد المطلب) ، ان حسان كان في حصنه مع النساء والصبيان فر يهودي به ، وجعل يطيف حوله ، فقالت (صفية) لحسان إن هذا اليهودي لا آمنه أن يدل على عوراتنا فانزل اليه فاقتله ! فقال : يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب ، لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا ، فترلت صفية وأخذت عموداً وقتلت اليهودي . فقالت : يا حسان انزل فاسلبه ! فقال ما لي بسلبه من حاجة يا ابنة عبد المطلب^٢ . وقد دفع بعض العلماء الجبن عن حسان ، بحجة انه لو كان جباناً على نحو ما يقولون لما سكت عن تعبيره به خصومه ممن كان يهاجهم كضرار وابن الزبير ، وعللوا عدم نزوله من حصنه لقتل اليهودي بحجة انه ربما كان معتلاً في ذلك اليوم . وأنكر بعضهم أن يكون هذا الخبر صحيحاً^٣ . على كل ، صبح هذا الخبر أم لم يصبح فلما لا نجد لحسان ذكراً في مغازي الرسول ولا في سراياه . بل نجد العلماء مجمعين على انه « لم يشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم مشهداً ، لأنه كان جباناً »^٤ .

ولحسان شعر في رثاء (المطعم بن عدي) والد (جبير بن مطعم) ، مات ولم يسلم . وكان (مطعم) أجاز النبي حين قدم الطائف لما دعا ثقيفاً الى الإسلام ، وهو أحد الذين قاموا في نقض الصحيفة التي كتبها قريش على بني هاشم وبني المطلب . وكان فيما قاله في رثاء (المطعم) :

فلو كان مجداً يخلد الدهر واحداً من الناس أبقي مجده الدهر مطعماً
أجرت رسول الله منهم فأصبحوا عبيدك ما لي مهلاً وأحرماً

ومن شعره :

أهوى حديث الندمان في فلق الصبح وصوت المغرد الغرد

-
- ١ الاصابة (٣٢٥/١) ، (رقم ١٧٠٤) ، (فارح حصن بالمدينة ، يقال انه حصن حسان بن ثابت) ، تاج العروس (٤٤٩/٥) ، (فرع) .
 - ٢ الاصابة (٣٢٥/١) ، (رقم ١٧٠٤) ، سيرة ابن هشام (١٩٣/٢) ، (حاشية على الروض الانف) ، الروض الانف (١٩٣/٢) .
 - ٣ الروض الانف (١٩٤/٢) .
 - ٤ الشعر والشعراء .
 - ٥ السيوطي ، شرح شواهد (٨٧٥/٢) .

ذكر ان بعض أهل المدينة كان يقول : ما ذكرت بيت حسان هذا إلا عدت في الفتوة^١ .

وذكر أن الناس كانوا يتمثلون بـ « فشر كما تلحير كما الفداء » ، وهو عجز بيت لحسان . هو :

أنهجوه ولست له بند فشر كما تلحير كما الفداء^٢

وهو من قصيدة يقول بعض الرواة إن مطلعها :

عفت ذات الأصابع فالجواء الى عنراء مترها خلاء

هجا فيها (أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب) . « قال مصعب الزبيري : هذه القصيدة ، قال حسان صدرها في الجاهلية وآخرها في الإسلام »^٣ .

وينسب الى (حسان) قوله :

تعلمتم من منطق الشيخ يعرب أينا فصرتم معربين ذوي نفر

وهو بيت تليه أبيات أخرى في الفخر بيعرب ، وبفضله على العرب ، لأنه هو صاحب العربية ، ومنه تعلم العرب عربيتهم . وقد دوت هذه الأبيات في كتاب : تاريخ ملوك العرب الأولية للأصمعي^٤ . وقد دوّن هذا الكتاب أبياتاً من قصيدته الشهيرة في مدح الفاسانة^٥ . وأبياتاً في مدح (جبلة بن الأيهم) الذي فرّ الى بلاد الروم ، وواصل مع ذلك يره لحسان^٦ . وهو شعر أراه مصنوعاً ، ولا يتفق مع مذهب (حسان) في النظم .

وقد ذكر (حسان) قصر دومة ، أي دومة الجندل في شعره ، إذ قال :

١ الشعر والشعراء (٢٢٥/١) .

٢ الشعر والشعراء (٢٢٦/١) ، « أنهجوه ولست له بكف » الاستيعاب (٣٣٦/١) .

٣ الاستيعاب (٣٣٦/١) .

٤ (ص ٨) .

٥ (ص ١٠٢) .

٦ (ص ١١٣) .

أما نرى رأسي تغير لونه شحطاً فأصبح كاللثام المجول
فلقد يراني صاحبائي كأنني في قصر دومة أو سواء الهيكلي^١

وورد أن الرسول لما قدم المدينة ، فهجته قريش ، وهجوا الأنصار معه ،
فأتى المسلمون كعب بن مالك (٩) فقالوا : أجب عنا ، فقال : استأذنوا لي
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ادعوه ، فأتى حسان ، فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : اني أخاف أن تصيبني معهم تهجو من بني عمي ، فقال
حسان : لأسلنك منهم سل الشعرة من العجين ، ولي مقول ما أحب أن لي به
مقول أحد من العرب ، وأنه ليفري ما لا تفريه الحربة . ثم أخرج لسانه فضرب
به أنفه كأنه لسان حية بطرفه شامة سوداء ، ثم ضرب به ذقنه ، فأذن له رسول
الله^٢ . وورد « أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة ، تناولته قريش
بالهجاء ، فقال لعبدالله بن رواحة : ردّ عني . فذهب في قديمهم وأولهم ، ولم
يصنع في الهجاء شيئاً . فأمر كعب بن مالك ، « ولم يصنع في الهجاء شيئاً ، فدعا
حسان بن ثابت فقال : اهجهم ، واثأ أبا بكر يخبرك بمعايب القوم . فأخرج
حسان لسانه حتى ضرب به على صدره ، وقال : والله يا رسول الله ، ما أحب
أن لي به مقولاً في العرب ، فصبّ على قريش منه شأبيب شر . فقال رسول
الله : اهجهم ، كأنك تنضحهم بالنيل »^٣ .

وروي أن الرسول لما هجاه (عبدالله بن الزبير) ، و (أبو سفيان بن
الحارث بن عبد المطلب) ، و (عمرو بن العاص) ، و (ضرار بن الخطاب)
قال : « ما يمنع القوم الذين نصرُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بسلاحهم
أن ينصروه بألسنتهم ؟ فقال حسان : أنا لها وأخذ بطرف لسانه ، وقال : والله
ما يسرنى به مقول يعن بصرى وصنعاء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
كيف تهجوهم وأنا منهم ؟ وكيف تهجو أبا سفيان وهو ابن عمي ؟ فقال :
والله لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين ، فقال له : ائت أبا بكر فلأنه
أعلم بأنساب القوم منك . فكان يمضي الى أبي بكر ليقلقه على أنسابهم . وكان

١ الإصابة (١٣٢/١) ، (رقم ٥٤٩) .

٢ السيوطي ، شرح شواهد (٣٣٤/١) ، « كعب بن مالك » ، « هكذا » ، بينما الحال
يستدعي ذكر « حسان بن ثابت » .

٣ السيوطي ، شرح شواهد (٣٥٤/١) وما بعدها .

يقول : كف عن فلانة وفلانة واذكر فلانة وفلانة ، فجعل حسان يهجوهم .
فلما سمعت قريش شعر حسان ، قالوا: إن هذا الشعر ما غاب عنه ابن أبي قحافة ،
أو متى شعر ابن أبي قحافة .

فن شعر حسان في أبي سفيان بن الحرث :

وإن سنام المجد في آل هاشم بنوبنت مخزوم ووالدك العبد
ومن ولدت أبناء زهرة منهم كرام ولم يقرب عجائزك المجد
ولست كعباس ولا كإبن أمه ولكن لثيم لا يقوم له زند
وان امرءاً كانت سمية أمه وسمراء مغمور اذا بلغ الجهد
وأنت هجين نيط في آل هاشم كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

فلما بلغ هذا الشعر أبا سفيان ، قال : هذا كلام لم يغب عنه ابن أبي قحافة^١ .
وذكر ان الرسول جعله شاعره الناطق باسمه اذا جاءته الوفود ، وتبارى الشعراء
أمامه ، قام هو للرد عليهم . فحين قدم وفد (بني تميم) بخطيبهم وشاعرهم ،
ونادوه من الحجرات ان اخرج إلينا يا محمد ، وخطب خطيبهم مفتخراً ، ثم قام
شاعرهم وهو (الزبرقان بن بدر) ، فقال :

نحن الملوك فلاحيّ يقاربنا فينا العلاء وفينا تنصب البيع

قال رسول الله لحسان : قم ، فقام وقال :

إن اللوائب من فهرٍ واخوتهم قد بينوا ستة للناس تتبع

الى آخر الأبيات . و فقال التميميون عند ذلك : وربكم إن خطيب القوم
أخطب من خطيبنا ، وإن شاعرهم أشعر من شاعرنا ، ويعد شعره هذا من
جيد شعره^٢ .

وقد روي أن النبي كان يضع لحسان المنبر في المسجد يقوم عليه قائماً يهجو

١ الاستيعاب (١/ ٣٣٤ وما بعدها) .

٢ الاستيعاب (١/ ٣٤١) .

الذين كانوا يهجون النبي^١ . وقد شك (كيتاني) وكذلك (بروكلمن) في صحة هذا الخبر . ولكن الروايات تؤكد أن الرسول كان يستدعيه أحياناً للرد على شعراء الوفود ، وأنه كان يجلس في المسجد ينشد الشعر ، والرسول يسمعه . وأن (عمر) مرّ بحسان وهو ينشد الشعر في مسجد رسول الله ، ثم قال : أرغاء كرهاء البكر ؟ فقال حسان : دعني عنك يا عمر ، فوالله إنك لتعلم لقد كنت أنشدُ في هذا المسجد من هو خير منك ، فما يغير عليّ ذلك ، فقال عمر : صدقت^٢ . أو أن (عمر) مرّ على (حسان) ، وهو ينشد الشعر في المسجد ، فقال أفي مسجد رسول الله تنشد الشعر ؟ فقال : قد كنت أنشد وفيه من هو خير منك . أو ما أشبه ذلك^٣ . وروي أن (عمر) ، نهى أن ينشد الناس شيئاً من مناقضة الانصار ومشركي قريش ، وقال : في ذلك شتم الحمي والميت وتجديد الضغائن ، وقد هدم الله أمر الجاهلية بما جاء من الإسلام^٤ .

وذكر أن أول شعر قاله (حسان بن ثابت) في الإسلام ، هو قوله :

فانا ومن يهدي القصائد نحونا كمستبضع تمرأ الى أهل خير^٥

ولما أسرت (هذيل) بعض المسلمين وباعتهم من قريش ، هجاهم (حسان) هجاءً مرأ ، وصفهم فيه باللؤم ، واللؤم عند العرب من أقبح المعيبات ، إذ قال فيهم :

لو خلقت اللؤمُ انساناً يكلمهم لكان خير هذيل حين يأتيها
ترى من اللؤم رقاً بين أعينهم كما لوى أذرع العانات كاويها
تبكي القبور اذا ما مات سيدهم حتى يصيح بمن في الأرض داعيها
مثل القنائف تحزني أن تفاجئها شد النهار ويلقى الليل ساريها^٦

-
- ١ الاصابة (١/ ٣٢٥) ، (رقم ١٧٠٤) ، السيوطي ، شرح شواهد المغنى (١١٤) .
 - ٢ العملة (٢٨/١) .
 - ٣ الاصابة (١/ ٣٢٥) ، (رقم ١٧٠٤) .
 - ٤ الاستيعاب (١/ ٣٣٨) .
 - ٥ تاج العروس (٥/ ٢٧٨) .
 - ٦ ديوان حسان (٦٧) ، (لندن ١٩١٠) .

وهي أبيات شديدة المهجاء ، موجعة ، تغنن فيها الشاعر وأبدع في وصف من هجأهم باللؤم وبالأمر المخزية الأخرى .

ويشك بعض المستشرقين في صحة الشعر المنسوب الى (حسان) الوارد في التفجع على مقتل (عثمان) وفي الحث على الأخذ بثأره . وذلك لأن هذا الشعر شعر ملتهب فيه قوة وحيوية ونفس شباب ، فيبعد أن يكون من شعر شيخ قد تقدمت به السن^١ .

وروي^٢ عن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خرج وقد فرش حسان فناء أطمه ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سباطين وبينهم جارية لحسان يقال لها (شرين) ومعها مزهر تغنيهم ، وهي تقول في غنائها :

هل عليّ وبحكم إن لهوت من حرج

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : لا حرج^٣ .

و (شرين) لفظة فارسية بمعنى (حلوة) و (جميل) ، فيكون اسم الجارية من الأسماء الفارسية ، معناه في العربية (حلوة) و (جميلة) . ولا يستبعد أن تكون من أصل فارسي ، وإن نص أهل الأخبار على أنها قبطية .

و (شرين) ، هي (سيرين) جارية أعطاها رسول الله لحسان لدبّه بلسانه عنه في هجاء المشركين ، وقيل لضربة (صفوان بن المعطل) له بالسيف . وهي أنخت (مارية) القبطية . وذكر أن الرسول أعطى حسان الموضع الذي بالمدينة ، وهو قصر بني (جديلة)^٤ .

وقد اختلف الناس في سنة وفاة (حسان) الذي كان قد عمي لما تقدمت به السن . فقيل : توفي قبل الأربعين ، وقيل ستة أربعين ، وقيل خمسين ، وقيل أربع وخمسين من سني الهجرة ، والجمهور على انه عاش مائة وعشرين سنة ، ولكن منهم من ذهب الى انه عاش دون المائة أو ما بين المائة والمائة والعشرين .

١ بروكلمن (١٥٣/١) ، Th. Nöldeke, Die Ghassan., S. 41.

٢ السيوطي ، شرح شواهد (٣٣٤/١) وما بعدها .

٣ الاستيعاب (٣٤٠/١) .

وقد قال (ابن سعد) انه عاش في الجاهلية ستين سنة وفي الاسلام ستين ، ومات وهو ابن عشرين ومائة^١ . وذكر انه مات في أيام معاوية^٢ .

وقد كان حسان ممن مشى بين الناس بحديث الإفك ، وهو ممن نزلت بحقه الآية : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم ، بل هو خير لكم . لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم . والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم^٣ » ، لأنه مشى بالإفك مع من مشى به . وهم (عبدالله بن أبي) رأس المنافقين بالمدينة ، ومسطح ، وحمنة بنت جحش . وقال بعضهم إن الذي تولى كبره منهم (حسان بن ثابت) . قيل لعائشة ، وقد دخل عليها (حسان بن ثابت) : « أليس الله يقول : والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم . قالت : أليس قد أصابه عذاب عظيم . أليس قد ذهب بصره وكنع بالسيف^٤ » . وروي انه جلد مع (مسطح) بسبب الإفك^٥ .

واعتر (حسان) من قوله في الإفك بقوله :

فلن كنت قد قلت الذي قد زعمتم فلا رفعت سوطي إليّ أنا ملي

ثم يقول :

فلن الذي قد قيل ليس بلائط ولكنه قول امرئ بني ماحيل^٦

وقد أسرف (حسان) في افكه بحديث الفك ، حتى آلم النبي ، ويظهر أنه لم يكن من أولئك الأشخاص الذين كانوا يتخرجون من الهجوم على أقرب الناس اليهم ، في حالة تسرعه وتأثره ، فهو شاعر ، ومن عادة الشعراء عدم الاستقرار . وكان عليه أن يدافع عن (عائشة) ، باعتباره شاعر نبيّه ، لا أن يساهم مع

١ الاصابة (٣٢٥/١) ، (١٧٠٤) ، الاستيعاب (٣٤٢/١) .

٢ الشعر والشعراء (٢٢٣/١) ، (الثقافة) .

٣ سورة النور ، الرقم ٢٤ ، الآية ١١ .

٤ تفسير الطبري (٦٨/١٨ وما بعدها) ، تفسير الألوسي (١٠٠/١٨) ، تفسير ابن

كثير (٢٧١/٣) .

٥ رسالة الغفران (٢٣٥) .

٦ العمدة (٢٤/١ وما بعدها) .

من استغل الحادث لإيلاام الرسول من المنافقين والذين لم يكن الإيمان قد دخل قلوبهم ، وان يمعن في الإفك وفي إيلاام الرسول ، وقد اعتذر بعد ذلك كما رأينا بعلر بارد ، حاول أن يتنصل فيه عما قاله في الإفك ، مع أنه كان صنواً لبعداالله ابن أبي في ذلك الحديث .

ولما انتقل الرسول الى الرفيق الأعلى ، قال حسان قصيدته :

بطيبة رسم للرسول ومعهد منير وقد تعفو الرسوم وتهمد^١

وقال قصيدة أخرى مطلعها :

ما بال عينك لا تنام كأنما كحلت مآقيها بكحل الأرمد
جزعت على المهدي أصبح ثاوياً يا خير من وطىء الحصى لا تبعد

وقال قصائد أخرى في رثائه^٢ .

وكان حسان من المتعصبين ليثرب على مكة ، ونجد في شعره عصبية اليمن ، وتفائخراً شديداً بالأزد ، والأزد من اليمن ، وبنو غسان من الأزد . وهي عصبية قديمة ، تعود الى ما قبل الاسلام . يظهر ان سببها اختلاف ما بين المدينتين في الطباع وفي الطبيعة والأحوال الاقتصادية والزعامة ، وقد فرح ولا شك حين كلفه الرسول بالرد على شعراء قريش ، وهو حاقط عليهم منذ أيام الجاهلية . وقد بقيت هذه العصبية كامنة في نفسه حتى في الاسلام ، وكاد أن يؤجج نارها مراراً بين الأنصار والمهاجرين ، وقد نهى عمر من التعرض لأمر الجاهلية وأيامها ومن إنشاد ما كان قد قيل من شعر في الجاهلية بين أهل يثرب وقريش ، حذر الفتنة ، وعودة العصبية الجاهلية الأولى . وكان (عمر) قد نهى أن ينشد الناس شيئاً من مناقضة الأنصار ومشركي قريش ، وقال : في ذلك شتم الحسي والميت وتجديد الضغائن ، وقد هدم الله أمر الجاهلية بما جاء من الاسلام^٣ . ويظهر انه لم يكن مثالياً بدليل هذه التزوات التي صدرت منه وهو في الإسلام وكادت تثير فتن الجاهلية هـ

١ ابن هشام ، سيرة (٣٧٨/٢) ، (حاشية على الروض) .

٢ سيرة ابن هشام (٣٧٩/٢) وما بعدها .

٣ الاستيعاب (٣٣٧/١) وما بعدها ، (حاشية على الاصابة) .

وكان حسان يهاجي (أميّة بن خلف) الخزاعي . وكان خلف قد هجا حسان بقوله :

أليس أبوك فينا كان قيناً لدى القينات، فلا في الحفاظ ؟
يمانياً يظل يشدّ كبراً وينفخ دائباً لهب الشواظ^١

وكان قد قال :

ألا من مبلغ حسان عني مغلفة تدب الى عكاظ ؟

فأجابه حسان :

أتأني عن أمية زور قول وما هو في المغيب بلي حفاظ
سأنشر إن بقيت لكم كلاماً ينشر في المجنة مع عكاظ
قواني كالسلاح إذا استمرت من الصم المعجزة الغلاظ
ترورك إن شتوت بكل أرض وترضخ في محلك بالمقاز
بنيت عليك أيماناً صلاباً كأمر الوسق قمض بالشواظ
مجللة نعمه شناراً مضرمة تأجج كالشواظ
كهمة ضيغم يحمي عريناً شديد مغارز الأضلاع خاظمي
تغض الطرف ان ألقاك دوني وترمي حين أدبر بالحقاظ^٢

وقد هاجى (حسان بن ثابت) النجاشي ، واسمه (قيس بن عمرو) من رهط (الحارث بن كعب) ، وكان قد هجا الأنصار فردّ عليه (حسان بن ثابت) ، ثم أمر بأن يكتب رده غلمان الكتاب ، ليوزع على الناس . وقد كان النجاشي قد هاجى (عبد الرحمن بن حسان) ، واشتد هجاؤه عليه فأعانه والده عليه^٣ . وكان مما قاله حسان في (الحارث بن كعب) رهط النجاشي قوله :

لا بأس بالقوم من طولٍ ومن عرضٍ جسم البقال وأحلام العصافير^٤

-
- ١ اللسان (٤٤٦/٧) ، (شوط) ، تاج العروس (٢٥٣/٥) ، (تشاوط) .
 - ٢ تاج العروس (٢٥٤/٥) ، (عكظ) .
 - ٣ الخزائن (١٠٥/٢) وما بعدها ، (بولاق) .
 - ٤ ديوان حسان (٢١٤) ، رسائل الجاحظ (٣٤٣/٢) ، (كتاب البقال) .

ويلاحظ ان أهل الأخبار نسبوا الى ابنه (عبد الرحمن) ، والى حفيده (سعيد ابن عبد الرحمن) مثل هذا الذي نسبوه الى (حسان) . إذ ذكروا ان (عبد الرحمن) أوقد ناراً حتى اجتمع اليه الحبي ، ثم قال : قد قلت بيتاً ، فمخفت أن يسقط يحدث يحدث عليّ فجمعتكم لتسمعوه ، وان ابنه (سعيد) فعل فعله^١ . ويلاحظ ان الأبيات التي ذكروها هي على وزن واحد وعلى قافية واحدة . وقد تكون من وضع الرواة .

وأم (عبد الرحمن بن حسان) ، أخت مارية القبطية أم ابراهيم ابن الرسول . وكانت تسمى (سيرين) (شيرين) (شرين) . وكان عبد الرحمن شاعراً كذلك . ذكر ان والده أشار اليه بقوله :

فن للقوافي بعد حسان وابنه ومن للمثاني بعد زيد بن ثابت^٢

ونسب الى حسان أو ابنه عبد الرحمن قوله : قلت شعراً لم أقل مثله ، وهو :

وان امرأ أمسى وأصبح سالماً من الناس ، إلا ما جنى ، لسعيد^٣

وكانت لحسان بنت شاعرة ، أرق حسان ذات ليلة فعن له الشعر فقال :

متاريك أذئاب الأمور إذا اعترت أخلطنا الفروع واجتثنا أصولها

ثم أجبل فلم يجد شيئاً ، فقالت له بنته : كأنك قد أجبلت يا أبه ١٩ قال : أجل ، قالت ، فهل لك أن أجيز عنك ؟ قال : وهل عندك ذلك ! قالت : نعم ، قال : فافعلي ، قالت :

مقاويل بالمعروف خرس^٤ عن الخنا كرام يعاطون العشرة سولها

فحمي حسان فقال :

وقافية مثل السنان رزقتها تناولت من جو السماء نزولها

١ السيوطي ، شرح شواهد (٣٣٦/١) .

٢ الاصابة (٦٧/٣ وما بعدها) ، رقم (٦٢٠٥) .

٣ الشعر والشعراء (٢٢٦/١) .

قالت :

يراهما الذي لا ينطق الشعر عنده ويعجز عن أمثاله أن يقولهما

فقال حسان : لا أقول بيت شعر وأنت حية ، قالت : أوَ أومنك ؟ قال :
وتفعلين ؟ قالت نعم ، لا أقول بيت شعر ما دمتَ حياً^١ .

ولحسان ديوان شعر مطبوع . طبع جملة مرّات . وقد شرح أيضاً ، وطبعت
الشروح كذلك^٢ .

وكعب بن مالك من شعراء يثرب كذلك . ويكنى أبا عبداقة وقيل أبا عبد
الرحمن ، وهو ممن شهد العقبة ، وكان أحد شعراء رسول الله الذين كانوا يردّون
الأذى عنه ، وكان مجوداً مطبوعاً قد غلب عليه في الجاهلية أمر الشعر . وذكر
انه كان أحد الثلاثة الأنصار الذين قال الله فيهم : « وعلى الثلاثة الذين خلفوا
حتى إذا ضاقت عليهم الأرض^٣ » ، وهم كعب بن مالك الشاعر هذا ، وهلال
ابن أمية ، ومرارة بن ربيعة تخلّفوا عن غزوة (تبوك) فتاب الله عليهم وعذرهم ،
وكانوا كلهم من الأنصار^٤ .

وكعب بن مالك من أسرة أظهرت جملة شعراء ، فمالك والد كعب كان
شاعراً ، وعنه قيس كان شاعراً كذلك . وكان أولاد كعب وأحفاده شعراء
« يجيئون مقدمون في الشعر »^٥ .

وقد ذكر (ابن سيرين) ان كعباً قال بيتين كانا سبب إسلام دوس وهما :

قضينا من تهامة كل وتر وخيبر ثم أغمدنا السيوف
تخبرنا ولو نطق لقال قواطعهن دوساً أو ثقيفا

١ الشعر والشعراء (٢٢٦/١) .

٢ للوقوف على مواضع طبع الديوان والشروح راجع بروكلمن ، تاريخ الادب
العربي (١٥٣/١ وما بعدها) .

٣ التوبة ، الآية ١١٨ .

٤ تفسير الطبري (٤١/١١) ، الاصابة (٢٨٥/٣ وما بعدها) ، (رقم ٧٤٣٥) ،
السيوطي ، شرح شواهد (٣٣٧/١) ، الخزائن (٢٠٠/١) ، (بلاق) ، البيان
والتيبين (٢٦/٣) .

٥ الاغانى (٣٧/١٥) .

فلما بلغ ذلك دوساً ، قالوا : خذوا لأنفسكم لا يتزل بكم ما نزل بشقيف^١ .

وقال (ابن سيرين) أيضاً : « كان شعراء المسلمين : حسان بن ثابت ،
وعبدالله بن رواحة ، وكعب بن مالك . فكان كعب يخوفهم الحرب ، وعبدالله
يعبرهم بالكفر ، وكان حسان يقبل على الأنساب » ، وأما شعراء المشركين :
فعمر بن العاص ، وعبدالله بن الزبيري ، وأبو سفيان بن الحارث ، وضرار بن
الخطاب^٢ .

ولكعب شعر في يوم أحد ، فيه :

فَجِئْنَا إِلَى مَوْجٍ مِنَ الْبَحْرِ وَسَطُهُ أَحْيَيْشُ مِنْهُمْ حَاسِرٌ وَمَقْنَعُ
ثَلَاثَةُ آلَافٍ وَنَحْنُ نَصِيْبُهُ ثَلَاثُ مِثَالٍ إِنْ كُنَّا أَوْ أَرْبَعُ
فَرَاخُوا مِيرَاعًا مُرْجِعِينَ كَأَنَّهُمْ جِهَامٌ هَرَّاقَتْ مَاءَهُ الرِّيحُ مَقْلَعُ
وَرُحْنَا وَأَخْرَانَا بَطَاءُ كَأَنَّنَا أَسْوَدَ عَلَى لَحْمٍ بَيْبِشَةٌ ظَلَعُ

وله شعر في أيام الخندق ، وفي يوم بدر وفي المعارك الأخرى^٣ .
ومن شعر كعب بن مالك قوله :

زَعَمْتُ سَخِينَةً أَنْ سَتَغْلِبَ رَبِّهَا فَلَیْغَلِبُنِ مَغَالِبُ الْغَالِبِ

وفي رواية :

جَاءَتْ سَخِينَةٌ كَيْ تَغَالِبَ رَبِّهَا فَلَیْغَلِبُنِ مَغَالِبُ الْغَالِبِ^٤

وكانت العرب تعبر قريشاً بها ، لأنهم كانوا يكثرُونَ من أكلها ، ولذا كانت
تعبر به . والسخينة حساء يؤكل في الجذب . مازح (معاوية) الأحنف بن قيس
فقال : ما الشيء الملقف في البجاد ؟ فقال : هو السخينة يا أمير المؤمنين .
والملقف في البجاد وطب اللبن يلف به ليحمى ويدرك ، وكانت تميم تعبر به .

١ الإصابة (٢٨٦/٣) ، (رقم ٧٤٣٤) .

٢ الاستيعاب (٢٧٢/٣) وما بعدها ، (حاشية على الإصابة) .

٣ ابن سلام ، طبقات (٥٣) وما بعدها ، الخزائن (٢٠٠/١) وما بعدها ، (بولاق) .

٤ الاستيعاب (٢٧٤/٣) .

فلما مازحه معاوية بما يعاب به قومه ، مازحه الأحنف بمثله^١ . وروي أن رسول الله قال لكعب : أترى الله نسي قولك :

زعمت سخينة أن مستغلب ربها وليغلبن مغالب الغلاب^٢

وجاء في رواية يضعفها العلماء ، ان (حسان بن ثابت) وكعب بن مالك ، والنعمان بن بشير ، دخلوا على (علي) فناظروه في شأن (عثمان) وأنشده كعب شعراً في رثاء عثمان ، ثم خرجوا من عنده ، فتوجهوا الى معاوية فأكرمهم . وروي أنه كان ممن رثى عثمان ، ولم يرد في الأخبار أنه ساهم في حرب علي ومعاوية^٣ . وذكر أنه فقد بصره في آخر عمره ، وتوفي في زمن معاوية سنة خمسين ، وقيل ثلاث وخمسين^٤ .

و (عبدالله بن رواحة) من الخزرج ، وهو أبو محمد ، ويقال أبو رواحة ، ويقال أبو عمرو ، وكان من شعراء يثرب المعروفين : وهو أحد النقباء ليلة العقبة وشهد بدرأ ، وكان ممن يكتب للنبي ، وكان ممن يكتب في الجاهلية ، وهو الذي جاء ببشارة وقعة بدر الى المدينة ، وبعثه رسول الله في ثلاثين راكباً الى (أسير ابن رقرام) (يسير بن رزام) اليهودي بخيبر فقتله . وقد استشهد بمؤنة سنة سبع^٥ . وليس له عقب . وهو خال (النعمان بن بشير) الأنصاري . وكان عظيم القدر في قومه ، سيداً في الجاهلية ، ليس في طبقته أسود منه . وكان في حروبهم في الجاهلية بناقض قيس بن الخطيم^٦ .

وهو يختلف عن حسان في كونه محارباً ، اشترك مع الرسول في معاركه ، ومات قتيلًا محارباً^٧ .

-
- ١ تاج العروس (٢٣٢/٩) ، (سخن) .
 - ٢ ابن سلام ، طبقات (٥٤) .
 - ٣ الاصابة (٢٨٦/٣) ، (رقم ٧٤٣٤) ، الاغانى (٢٨/١٥) وما بعدها .
 - ٤ الاستيعاب (٢٧٢/٣) ، (حاشية على الاصابة) .
 - ٥ الاصابة (٢٩٨/٢) وما بعدها ، (رقم ٤٦٧٦) ، شرح شواهد ، للسيوطي (٢٨٨/١) ، اعلام النبلاء (١٦٦/١) ، ابن حبيب ، كنى الشعراء (٢٨٩) ، « أسير بن رزام » ، المحبر (١١٩) .
 - ٦ ابن سلام ، طبقات (٥٤) ، الخزائن (٣٠٤/٢) وما بعدها ، (هارون) .
 - ٧ المحبر (١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٩ ، ٢٨٧ ، ٤٢١) .

وأكثر ما روي من شعره ، هو من الشعر الذي قاله في الإسلام . ولا سيما في معركة (مؤتة) . وروي أن الرسول قال له يوماً : قل شعراً تقتضيه الساعة وأنا أنظر إليك . فانبعث مكانه يقول :

لاني تفرست فيك الخير أعرفه والله يعلم ان ما خانني البصر
أنت النبي ومن يحرم شفاعته يوم الحساب لقد أزرى به القدر
فثبت الله ما آتاك من حسن تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا

وفي رواية ابن هشام :

لاني تفرست فيك الخير فاقلة فراسة خالفت فيك الذي نظروا
أنت النبي ومن يحرم نوافله والوجه منه ، فقد أزرى به القدر

وروي ان الرسول دعاه ، فقال له : كيف تقول الشعر اذا قلت ؟ قال أنظر في ذلك ثم أقول . قال : فعليك بالمشركين . فأنشده :

فخبروني أثمان العباء متى كنتم بطاريق أو دانت لكم مضر

فظهرت الكراهة في وجه الرسول ، ان جعل قومه أثمان العباء ، فقال :

نجالد الناس عن عرض فأناسهم فينا النبي وفينا تنزل السور
وقد علمتم بأننا ليس يغلبنا حي من الناس إن عزوا وإن كثروا
يا هاشم الخير إن الله فضلكم على البرية فضلاً ما له غير
لاني تفرست فيك الخير أعرفه فراسة خالفتهم في الذي نظروا
ولو سألت أو استنصرت بعضهم في جل أمرك ما آووا ولا نصروا
فثبت الله ما آتاك من حسن تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا

فتبسم الرسول وسراً به^٢ .

وروي « هشام بن عروة عن أبيه . قال : ما سمعت بأحد أجراً ولا أسرع شعراً من عبدالله بن رواحة ، يوم يقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم :

١ الاستيعاب (٢٨٧/٢) ، (حاشية على الاصابة) .

٢ ابن سلام ، طبقات (٥٥) .

قل شعراً تقتضيه الساعة وأنا أنظر إليك ، ثم أبدّه بصره ، فانبعث عبدالله بن رواحة يقول :

لاني تفرست فيك الخير أعرفه والله يعلم ما إن خانني بصره^١

وروي أن الرسول قال « لعبدالله بن رواحة : ما الشعر ؟ قال : شيء يختلج في صدر الرجل ، فيخرجه على لسانه شعراً »^٢ . وقد ذكر (ابن سلام) البيت المذكور وما بعده في قصيدة مطلعها :

فخبروني أمان العباء متى كنتم بطارق أو دانت لكم مضر

ذكره في ضمن القصيدة ، ولم يجعله مطلعها^٣ .

ولما دخل رسول الله مكة في عمرة القضاء ، وابن رواحة بين يديه وهو يقول :

خلّوا بني الكفّار عن سيّله اليوم نضربكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله وينهل الخليل عن خليله

قال عمر : يا ابن رواحة في حرم الله وبين يدي رسول الله تقول الشعر ؟ فقال النبي : خل عنه يا عمر ، فوالذي نفسي بيده لكلامه أشدّ عليهم من وقع النبل^٤ . وقد كانت عمرة القضاء سنة ست من الهجرة^٥ .

وقد روي هذا الرجز بزيادة واختلاف^٦ . وقد ذكر (ابن هشام) ، بعد إيراد هذه الأبيات هذه الملاحظة : « نحن قتلناكم على تأويله الى آخر الأبيات : لعمار بن ياسر في غير هذا اليوم ، والدليل على ذلك أن ابن رواحة إنما أراد المشركين ، والمشركون لم يقرؤوا بالتنزيل ، وإنما يقتل على التأويل من أقر بالتنزيل »^٧ .

١ شرح شواهد ، للسيوطي (٢٩٣/١) .

٢ المصدر نفسه (٢٨٩/١) .

٣ ابن سلام ، طبقات (٥٥) .

٤ السيوطي ، شرح شواهد (٢٩٠/١) .

٥ ابن هشام ، سيرة (٢٥٤/٢) ، (حاشية على الروض) .

٦ ابن هشام ، سيرة (٢٥٥/٢) ، (حاشية على الروض) ، ابن سيد الناس

(١٤٩/٢) ، اعلام النبلاء (١٦٩/١) ، ابن سعد ، طبقات (٣ القسم الثاني ٨٠) ،

الروض الاتف (٢٥٥/٢) .

٧ ابن هشام ، سيرة (٢٥٥/٢) .

وكان (النعمان بن العجلان) الزرقى لسان الأنصار وشاعرهم ، وكان رجلاً
أحر قصيراً تزدريه العين ، وكان سيذاً ، وله شعر يفخر بقومه على قريش من
جملته :

فقل لقريش نحن أصحاب مكة ويوم حنين والفوارس في بدر

* * *

نصرنا وآوينا النبي ولم نخف صروف الليالي والعظيم من الأمر
وقلنا لقوم هاجروا مرحباً بكم وأملأً وسهلاً قد أمتنم من الفقر
نقاسمكم أموالنا وديارنا كقسمة أيسار الجزور على الشطر

ثم تعرض لموضوع الخلافة ، وقصة انتخاب (سعد) لها ، وتعين قريش
أبا بكر خليفة ، ثم تعرض لحق علي فيها^١ .

وكان (علي بن أبي طالب) استعمل (النعمان) هذا على البحرين ، فجعل
يعطي كل من جاء من (بني زريق) ، فقال فيه (أبو الأسود) الدؤلي :

أرى فتنة قد ألهمت الناس عنكم فندلا زريق المال ندل الثعالب
فإن ابن عجلان الذي قد علمتم يبدد مال الله فعل المناهب^٢

١ الاستيعاب (٥٢١/٣) ، (حاشية على الاصابة) .

٢ الاصابة (٥٣٢/٣) ، (رقم ٨٧٤٨) .

الفصل الرابع والستون بعد المئة

شعراء ثقيف

وثقيف من القبائل التي لم تنجب عدداً يذكر من الشعراء . وشاعريهم الوحيد الذي نال شهرة ، وظهر أمره هو (أمية بن أبي الصلت) الثقيفي . وقد علل (ابن سلام) قلة الشعر بالطائف بقوله : « وبالطائف شعراء ، وليس بالكثير ، وإنما يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء نحو حرب الأوس والخزرج ، أو قوم يغيرون ويغار عليهم ، والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ناثرة ولم يحاربوا ، وذلك الذي قلل شعر عُثْمان وأهل الطائف »^١ .

وقد عرفت ثقيف بفصاحة لسانها ، وبمقدرتها في الكتابة ، ولهذا ورد ذكرها في حادث تدوين القرآن .

ومن شعراء ثقيف (أبو الصلت بن أبي ربيعة) ، وهو والد (أمية بن أبي الصلت) ، وغيلان بن سلمة ، وكنانة بن عبد ياليل^٢ ، وأبو محجن الثقيفي . وكانت زوجة (أبي الصلت) : (رُقَيْة بنت عبد شمس بن عبد مناف) ، فهي من قريش . وهي والدة (أمية)^٣ .

ونسبت الى (أبي الصلت) قصيدة زعم أنه مدح فيها أهل فارس حين

١ ابن سلام ، طبقات (٦٥ وما بعدها) .

٢ ابن سلام ، طبقات (٦٦) .

٣ الشعر والشعراء (٣٦٩/١) .

قتلوا الحبشة ، ومدح (سيف بن ذي يزن) ، وهنأه فيها لتوليهِ الملك^١ ، وقد أشار فيها الى قصة (سيف) ، وكيف ذهب الى (هرقل) يستنجد به على الحبشة ، فلم يجد عنده ما طلب ، ثم كيف ذهب الى (كسرى) ، وبقي عند بابهِ تسع سنوات حتى أمله بالجنود وعلى رأسهم باذان ووهرز ، الى آخر القصة التي ترد في كتب الأخبار والتواريخ . وقد نسبها بعض الرواة الى ابنه (أمية) .

وأمية بن أبي الصلت من الشعراء الذين رغبوا عن عبادة الأوثان وآمنوا بالله وبالبعث ، ووقف على كتب أهل الكتاب فتأثر بها ، وكان يجالسهم ويخطبهم . وكان أبوه شاعراً ، روى رواية الشعر شيئاً من شعره ، وكان ابنه (القاسم بن أمية بن أبي الصلت) شاعراً كذلك وله صحة . وذكر ان العرب اتفقت على ان (أمية) كان أشعر ثقيف^٢ .

ذكر انه كان في الجاهلية نظر الكتب وقرأها وليس المسوح وتعيد أولاً يذكر ابراهيم واسماعيل والحنيفية وحرّم الخمر وتجنب الأوثان . ولما ظهر الاسلام حسد النبي ، فلم يسلم ، لأنه كان طمع في النبوة ، أو انه أراد أن يسلم ، فلما سمع يقتل بدر ، توقف ورثى قتلى المشركين ، وذهب الى الطائف فات بها . وقد اختلف في سنة وفاته ، فقيل انه توفي سنة تسع من الهجرة ، وقيل قبل ذلك وورد في رواية انه مات في الجاهلية ولم يدركه الاسلام . وقد صدقه النبي في بعض شعره ، وقال : قد كاد أمية أن يسلم^٣ . وقد كان يكنى بـ (أبي عثمان) وبـ (أبي القاسم)^٤ .

وورد في بعض الروايات ان في حقه نزلت الآية : « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فاتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين »^٥ . ويرجع مسند القائلين بذلك الى (عبدالله بن عمرو) والى (ابن الكلبي)^٦ .

-
- ١ ابن سلام ، طبقات (٦٦) ، ابن قتيبة ، الشعر (١ / ٣٧١) .
 - ٢ الاصابة (١٣٤ / ١) ، (رقم ٥٥٢) ، الاغانى (١٧٩ / ٣) وما بعدها ، (١٦ / ٦٩) ، خزائن (١١٨ / ١) ، بروكلمن (١١٣ / ١) وما بعدها .
 - ٣ الاصابة (١٣٤ / ١) ، (رقم ٥٥٢) ، الخزائن (١١٩ / ١) وما بعدها ، الجمان في تشبيهات القرآن (٨٤ ، ٢٨٤) .
 - ٤ كنى الشعراء ومن غلبت كنيته عليه (٢٨٩) ، (نوادر المخطوطات) .
 - ٥ سورة الاعراف ، الآية ١٧٥ .
 - ٦ تفسير الطبري (٨٢ / ٩) ، تفسير اللوسى (٩٨ / ٩) .

وروي أن النبي سأل (الرشيد بن سويد) أن ينشده من شعر أمية ، فأنشده
إياه ، فقال : كاد ليسلم . وأن النبي أنشد قول أمية :

رجل وثور تحت رجل يمينه والنسر للأخرى وليث مرصد

فقال : صدق ، وهذه صفة حملة العرش . وذكر أن معظم شعر أمية كان
في الآخرة ، كما كان معظم شعر عنترة بلذكر الحرب^١ .

وقد دون (ابن هشام) قصيدة (أمية) التي نظمها يرثي من أصيب من
قريش يوم بدر ، ومطلعها :

ماذا يبدر بالعقد قل من مرازمة ججاجح
ألا بكيت على الكرام بني الكرام أولى المدائح
كبكا الحمام على فرو ع الأليك في الفصن الجوانح^٢

وذكر أن النبي نهى عن روايتها لما ورد فيها من رثاء قتلى بدر^٣ ، ولكني
أشك في صحة صدور هذا النهي من الرسول ، إذ لو كان الرسول قد نهى عن
إنشادها ، فكيف دونها (ابن هشام) وغيره ، ولا تزال مدونة ، وقد قال
(ابن هشام) أنه دون القصيدة إلا بيتين نال فيها من أصحاب الرسول^٤ .

ودون (ابن هشام) قصيدة أخرى لأمية قالها يرثي ويكي (زمعة بن الأسود)
وقتل (بني أسد)^٥ من أبياتها :

عَيْنُ بَكْيٍ بِالمُسْبَلَاتِ أَبَالِما صبي ولا تذكري على زمعه
لبنِي مُسْلِمٍ لهم خَرَّتْ الجِو زاء لا خانة ولا خدعه
وهم الهامة الوسيطة من كعب ومن هُم كلزوة القمعه

١ الخزانة (١/١٢٠ وما بعدها) .

٢ ابن هشام ، سيرة (١١٤/٢) ، (حاشية على الروض الانف) ، البيان والتبيين
(٢٩١/١) .

٣ الحيوان ، للجاحظ (٢٩١/١) ، (عيد السلام محمد هارون) ، يروكلمن ، تاريخ
الادب العربي (١١٣/١) .

٤ ابن هشام ، سيرة (١١٤/٢) .

٥ ابن هشام ، سيرة (١١٤/٢) ، (حاشية على الروض الانف) .

أُنبِتُوا مِنْ مَعَاشِرِ شَعْرِ الرَّأْسِ وَقَدْ بَلَّغُوهُمْ الْمُنْعَهَ
وَهُمُ الْمُطْعَمُونَ إِنْ قَحَطَ الْقَطْرُ وَأَصْحَتِ فَلَا تَرَى قَرْعَهُ
أَمْسَى بَنُو عَمِّهِمْ إِذَا جَلَسَ النَّاسُ دِيَّ عَلَيْهِمْ أَكْبَادُهُمْ وَجَعَهُ

ومن شعره الذي قاله في التحريض على رسول الله قوله :

لَقَدْ دَرَّ بَنِي عَلِيٍّ أَيْمٌ مِنْهُمْ وَنَاكَحَ
إِنْ لَمْ يَغَيِّرُوا غَارَةً شِعْوَاءَ تَحْجَرُ كُلُّ نَابِجٍ
بِزَهَاءِ أَلْفٍ أَوْ بَالِغٍ بَيْنَ ذِي بِلْدَنٍ وَرَامِحٍ

وروي انه كان يحكي في شعره قصص الأنبياء ، ويأتي بالفاظ كثيرة لا تعرفها
العرب ، يأخذها من الكتب المتقدمة ، وبأحاديث من أحاديث أهل الكتاب .
وكان يسمي السماء في شعره : (صاقورة) و (حاقورة) ، و (يَرْقِيع) .
ويقول في الله عز وجل :

هو السليط فوق الأرض مقتدر

ويقول : وأبدت الثغور را ، يريد الثغر .

وفي شعر (أمية) إشارة الى قصة أصحاب الفيل ، إذ قال :

إِنْ آيَاتِ رَبِّنَا يَنَّاتٌ لَا يَمَارِي بِهِنَّ إِلَّا الْكَفُورُ
حَبَسَ الْفِيلَ بِالْمَغْمَسِ حَتَّى ظَلَّ يَمْشِي كَأَنَّهُ مَعْقُورُ
كُلَّ دِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا دِينَ الْخَنِيفَةِ زُورُ

ونسبت الى (أمية) قصيدة طويلة عدتها تسعة وسبعون بيتاً ، ذكر فيها شيئاً
من قصص الأنبياء : داوود ، سليمان ، ونوح ، وموسى ، وذكر قصة ابراهيم

-
- ١ نسب قريش (٢٠٦) .
 - ٢ نسب قريش (١٠ وما بعدها) .
 - ٣ الشعر والشعراء (٣٦٩ / ١) ، (دار الثقافة) .
 - ٤ الشعر والشعراء (٣٧١ / ١) .
 - ٥ الجمان في تشبيهات القرآن ، لابن نايقا البغدادي ، (٣٨٤) .
 - ٦ رسالة الفجران (٥٤٢) .

واسحاق ، وزعم أنه هو الديبح ، وقد وردت في ديوانه الذي جمعه (محمد بن حبيب) ، وفي أبياتها بيت هو :

ربما تكره النفوس من الأمر له فرجة كحل العقال^١

وقد وجد هذا البيت في قصيدة رواها (الأصمعي) لأبي قيس اليهودي ، وقيل هي لابن صرمة الأنصاري مطلعها :

سبحوا للمليك كل صباح طلعت شمسه وكل هلال

ووجد أيضاً في أبيات لحنيف بن عمير الشكري ، قالها لما قتل محكم بن الطفيل يوم اليمامة في أبيات هي :

يا سعاد الفؤاد بنت أثال طال ليلى بفتنة الرجال
أنها يا سعاد من حدث الدهر عليكم كفتنة الدجال
إن دين الرسول ديني وفي القوم رجال على الهدى أمثالي
أهلك القوم محكم بن طفيل ورجال ليسوا لنا برجال
ربما يجزع النفوس من الأمر له فرجة كحل العقال^٢

وقد تحدث (أمية) في قصيدته اللامية عن الخلق وعن كيفية تكون الأرض وظهور الأنهار والعيون ، ثم عن الموت والبعث والنشر ، وهي قصيدة أرى أنها منحولة ، وهي لا يمكن أن تكون من شعر تلك الأيام ، وقد نحل على لسان (أمية) وأظن أن ذلك في أيام الحجاج ، الذي كان يتعصب له لكونه شاعر ثقيف ، وهو منها^٣ .

ومما نسب إلى أمية هذا الشعر :

والأرض معقلنا وكانت أمنا فيها مقامتنا وفيها فولد

١ ربما تكره النفوس من الشر له فرجة كحل العقال .

٢ الخزانة (٥٤٣/٢) وما بعدها ، (بولاق) ،

ربما تكره النفوس من الأمر له فرجة كحل العقال
أما المرتضى (٤٨٦/١) .

٣ راجع ديوان أمية طبعة « شولتس » « Shultes » ، وطبعة بشير يموت .

وبها تلاميذ على قدواتها حبسوا قياماً فالقرائص ترعد

وهذا الشعر :

صاغ السماء فلم يخفض مواضعها لم يتقص علمه جهل ولا هرم
لا كشفت مرة عنا ولا بليت فيها تلاميذ في أقفائهم دغم

وهذا البيت ، الذي هو من الشعر الأول :

فضى وأصعد واستبد إقامة بأولى قوى فبتل ومتلدا

وروى أهل الأخبار قصصاً عنه ، هو من نوع القصص الذي يروى وقوعه
للأنبياء ، مثل تكليم الجن له ، ووقوع طير على صدره ، وشقه له ، لتنظيف
قلبه ، في قصة أخلت من خبر غسل قلب الرسول ولا شك . ثم حكاية شعوره
بدنو أجله ، ووفاته^٢ . وقد حاول وضاع هذا القصص تبجيل (أمية) واعطائه
قدسية خاصة وإظهاره بمظهر الصالحين حتى كاد الوحي يتزل عليه لولا ظهور
الرسول . وقد حاول بعض أهل الأخبار تخفيف أثر ما روي عن معارضة (أمية)
للإسلام ، ومنهم من أمانه قبل الإسلام ، وبذلك خلصه من تهمة اشتراكه مع
المشركين في محاربة الإسلام . وهي روايات يظهر أنها ظهرت في أيام الحجاج ،
وبتأثير منه .

وأكثر ما نسب إليه من شعره محمول عليه ، ونجد في كتاب (البدء والتاريخ)
لمطهر بن طاهر المقلعي شعراً فيه عبارات وألفاظ قرآنية، لا شك في أنها مصنوعة،
وقد حملت عليه . وقد ذهب (كليان هوار) أن شعره كان من مصادر القرآن،
ومعنى هذا أنه شعر صحيح ، قاله (أمية) قبل الإسلام ، فتعلمه الرسول منه،
ونزل به الوحي . وقد عارضه (بروكلمن) وآخرون من طائفة المستشرقين ،
وهم يرون أن هذا الشعر قد صنع ونسب إليه في عهد مبكر ، ربما كان في القرن

١ رسالة التلميذ ، لعبد القادر بن عمر البغدادي (٢٢٢ وما بعدها) ، من « نوادر
المخطوطات » ، (تحقيق عبد السلام هارون) ، (المجموعة الثانية ، القاهرة ١٩٥١م)

٢ الإصابة (١٣٥/١) .

الأول للهجرة . وقد أدخل فيه قصص أخذ من القرآن' .

وتعدّ قصيدة (أمية) التي مطلعها :

عرفتُ الدار قد أقوت سنينا لزنب إذ تحلّ بها قطينا

في المجهرات .

ونسب لأبي الصلت بن أبي ربيعة الثقفى ، والد أمية قوله :

لن يطلب الوتر أمثالُ ابن ذي وزن لجج في البحرِ للأعداء أحوالا
أتى هرقل وقد شالت نعماته فلم يجد عنده القول الذي قال
ثم انتحى نحو كسرى بعد تاسعة من السفين ، لقد أبعدت إيفالا
حتى أتى بيني الأحرار يحملهم انك عمري لقد أسرعت قلقالا
من مثل كسرى وبأذان الجنود له ومثل وهرز يوم الجيش إذ صالا
لله درهم من عصبة خرجوا ما ان ترى لهم في الناس أمثالا
غلبا جحاجة بيضا مراجعةً أسداً تربب في الغيصات أشبالا
يرمون عن عتَلٍ كأنها غبط يزعزع بعُجَل المرمى إعجالا
أرسلت أسداً على سود الكلاب فقد أضحى شريدهم في الأرض فلاّلا
فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفعاً في رأس غمدان داراً منك محلالا
ثم أطل المسك إذ شالت نعمتهم واسبل اليوم من بُرديك إسبالا
تلك المكارم قعبان من لبنٍ شيبا بماء فعادا بعد أبولا^٢

وهي قصيدة زعم انه قالها في (سيف بن ذي يزن) ، وزعم انها لابنـه
(أمية بن أبي الصلت) . وقد رواها (الطبري) في تأريخه ، على هذه الصورة :

Cl Huart, in JA., Ser., X, I, IV, (1904), p. 125, Tor Andrae, Der ursprung d. Islam
und d. Christentum, Stockholm, (1926), S. 48.

بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١١٣ / ١) .

الشعر والشعراء (٣٧١ / ١) وما بعدها ، التيجان (٣٠٥) ، الاغانى (٧٣ / ١٦) ،
الروض الانف (٥٢ / ١) ، ابن سلام ، طبقات (٢١٨) ، البحترى ، حماسة (١٦) .

ليطلب الوتر أمثال ابن ذي وزن
 أتى هرقل وقد شالت نعماتهم
 ثم انتحى نحو كسرى بعد سابعة
 حتى أتى بيني الأحرار يحملهم
 من مثل كسرى شهنشاہ الملوك له
 لله درهم من عصبة خرجوا
 غرّ جحاجة ، ييضم مرازية
 يرمون عن شدف كأنها غبط
 أرسلت أسداً على سود الكلاب فقد
 فاشرب هنيئاً عليك التاج متكئاً
 وأطل بالمسك إذ شالت نعماتهم
 تلك المكارم لا قعبان من لبن
 ريم في البحر للأعداء أحوالا
 فلم يجد عنده بعض الذي قالوا
 من السنين ، لقد أبعدت إغالا
 إنك لعمرى لقد أطولت قلقالا
 أو مثل وهرز يوم الجيش إذ صالا
 ما إن ترى لهم في الناس أمثالا
 أسد تربب في الغيصات أشبالا
 في زغر يعجل المرمي إعجالا
 أضحي شريدهم في الأرض فللا
 في رأس غمدان داراً منك محلا
 واسبل اليوم في برديك إسبالا
 شيئا بماء فعادا بعد أبوالا

وقد نسبها لوالد أمية .

وقد ذكر (ابن هشام) ، ان (ابن اسحاق) نسب هذه القصيدة لأبي الصلت
 ابن أبي ربيعة ، ويروي أنها لامية . وقد رواها على هذا النحو :

ليطلب الوتر أمثال ابن ذي وزن
 بم قصير لما حان رحلته
 ثم انثنى نحو كسرى بعد عشرة
 حتى أتى بيني الأحرار يحملهم
 لله درهم من عصبة خرجوا
 ييضم مرازية غلباً أساورة
 يرمون عن شدف كأنها غبط
 أرسلت أسداً على سود الكلاب فقد
 فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفقا
 وأشرب هنيئاً فقد شالت نعماتهم
 تلك المكارم لا قعبان من لبن
 ريم في البحر للأعداء أحوالا
 فلم يجد عنده بعض الذي سالا
 من السنين يهين النفس والمالا
 إنك عمرى لقد أسرع قلقالا
 ما ان أرى لهم في الناس أمثالا
 أسداً تربب في الغيصات أشبالا
 يزجر يعجل المرمي إعجالا
 أضحي شريدهم في الأرض فللا
 في رأس غمدان داراً منك محلا
 واسبل اليوم في برديك إسبالا
 شيئا بماء فعادا بعد أبوالا

وقد ذكر (ابن هشام) ان هذا ما صح له مما روى ابن اسحاق منها ،
 إلا آخرها بيتاً : تلك المكارم لا قعبان من لبن . فإنه للناطقة الجملدي^١ .
 وأثر الوضع على بعض شعر أمية واضح ظاهر لا يحتاج الى دليل ، وهو وضع
 يثبت أن صاحبه لم يكن يتقن صنعة الوضع جيداً ، ولا له إلمام بأمور التأريخ ،
 فالقصيدة التي مطلعها :

لك الحمد والمنز رب العبا د أنت المليك وأنت الحكم

هي قصيدة إسلامية ، لا يمكن أبداً أن تكون من نظم شاعر لم يؤمن بالإسلام
 إيماناً عميقاً من كل قلبه ولسانه . خذ هذا البيت منها مثلاً :

محمدأ أرسله بالمهدى فعاش غنياً ولم يهتضم

ثم خذ الأبيات التالية له وفيها :

عطاء من الله أعطيته	ونخص به الله أهل الحرم
وقد علموا أنه خيرهم	وفي بينهم ذي الندى والكرم
يعيون ما قال لما دعا	وقد فرج الله إحدى البُهم
به وهو يدعو بصدق الحديد	ث إلى الله من قبل زيغ القدم
أطيعوا الرسول عباد الإل	ه تنجون من شر يوم ألم
تنجون من ظلمات العذاب	ومن حر نار على من ظلم
دعائي النبي به خاتم	فمن لم يحبه أسر الندم
نبي هدى صادق طيب	رحيم رؤوف بوصل الرحم
به ختم الله من قبله	ومن بعده من نبي ختم
يموت كإمات من قد قضى	يرد إلى الله باري النسم
مع الأنبياء في جنات الخلود	هم أهلها غير حل القسم
وقدس فينا بحب الصلاة	جميعاً وعلم خط القلم
كتاباً من الله تقرأ به	فمن يعتره فقلماً أم

١ ابن هشام (٥٢/١ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) ، الشعر والشعراء ، لابن قتيبة (٣٧١/١) ،

٢ ديوان أمية ، قصيدة رقم ٢٣ في طبعة فردرش شولثيس ، (ص ٢٣ وما بعدها) ،
 و (ص ٥٥ وما بعدها) من (طبعة بشير يموت) ، الخزانة (١٢٢/١) ، (بولاق) .

اقرأ هذه المنظومة ، ثم أحكم على صاحبها ، هل تستطيع أن تقول انه كان شاعراً مغاضباً للرسول ، وانه مات كافراً ، وان صاحبها رثى كفار قريش في معركة بدر ، وانه قال ما قال في الاسلام وفي الرسول ؟ اللهم ، لا يمكن أن يقال ذلك أبداً ، فصاحب هذا النظم رجل مؤمن عميق الإيمان ، هو واعظ ومبشر يخاطب قومه فيدعوهم الى الاسلام والى طاعة الله والرسول . انه مؤمن قلباً ولساناً ، مع انهم يذكرون ان الرسول قال فيه : آمن شعره وكفر قلبه ، أو آمن لسانه وكفر قلبه ، ولم يقصد الرسول إيمان أمية بالله وبرسوله ، وانما إيمان لسانه وشعره بالله ، وكفره برسوله ، إذ لم يؤمن به ، فأتى على كفره وعناده وبغضه للرسول : ثم ان صاحب المنظومة رجل يتحدث عن وفاة الرسول ، ويريد تثبيت الناس على الإيمان به بعد أن انتقل الى الرفيق الأعلى ، فظهر من تزلزل إيمانه بسبب وفاته ، مع ان أمية ، كان قد توفي في السنة التاسعة من الهجرة ، أي قبل وفاة الرسول ، فهل يعقل أن يكون اذن هو صاحبها وناظمها ؟^١

أليست هذه المنظومة وأمثالها اذن دليلاً على وجود أيدٍ لصناع الشعر ومنتجيه في شعر أمية . نحمد الله على ان صناعها لم يتقنوا صنعها ، ففضحوا أنفسهم بها ، ودلّوا على مقاتل النظم .

وروي ان بعض الرواة نسبوا الى أمية بيتاً في قصيدة هو :

الحمد لله لا شريك له^٢ من لم يقلها فنفسه ظالم

وفي الفصيلة ضروب من التوحيد والإقرار بالبعث والجزاء والجنة والنار غير أن العارفين بالشعر ينكرون أن تكون لأمية ، وإنما نسبوها الى النابغة الجعدي ، وذكروا أن هذا البيت هو من شعر النابغة الذي كان يتأله في الجاهلية وأنكر الخمر وهجر الأزلام واجتنب الأوثان ، وذكر دين ابراهيم^٣ .

ثم خذ قصيدة أخرى من القصائد المنسوبة لأمية ، وهي في وصف الجنة والنار استهلت بهذا البيت :

١ « وكانت وفاة أمية بن أبي الصلت قبل ذلك بيقين سنة تسع من الهجرة » ،

الاصابة (٤٩٣/١) ، (رقم ٢٥٩٠) .

٢ ابن سلام (١٠٦) ، الاصابة (٥٠٩/٣) ، (رقم ٨٦٤١) .

جهنم لا تبقي بقياً وعدن لا يطالها رجم

ثم استمر في قراءتها ، وفي ما جاء فيها من وصف للجنة والنار ، ثم أنعم النظر في عبارات هذه الآيات :

فذا غسل وذا لبن وخر	وقح في متابته صريم
ونخل ساقط الأكثاف عد	خلال اصوله رطب قيم
وتفاح ورمآن وموز	وماء بارد عذب سليم
وفيهما لحم ساهرة وبحر	وما فاهوا به لهم مقيم
وحور لا يرين الشمس فيها	على صور الدُمى فيها سُهوم
نواعم في الأرائك قاصرات	فهن عقائل وهم قروم
على سرر ترى متقابلات	ألا ، ثم النضارة والنعيم
عليهم سندس وجبّاد ريط	وديباج يرى فيها قنوم
وحكّوا من أساور من بلّين	ومن ذهب ، وعسجد كريم
ولا لغو ولا تأثيم فيها	ولا غول ولا فيها مُليم
وكأس لا تصدع شاربِيها	يلد بحسن رؤيتها النديم
تصفق في صحاف من بلّين	ومن ذهب مباركة رذوم

ثم احكم بعد ذلك على صاحب هذه الآيات . لقد حاول ناظرها إدخال بعض الكلمات الجاهلية فيها ، لإلباسها ثوباً جاهلياً ، ولإظهارها بمظهر الشعر الجاهلي الأصيل ، ولكنه لم يتمكن من ذلك ، بل صبرها في الواقع نظماً لوصف الجنة والنار في الاسلام. وما بي حاجة الى أن أحييك على الآيات التي أخذ منها صاحب هذا الشعر وصفه من القرآن .

ومن الغريب ان بعض الباحثين اتخذ هذا النظم وأمثاله حجة لتبيان عقائد الجاهليين ، فذكر مثلاً ان العرب في جاهليتها كانت تؤمن بالجزء ، وأن منهم

١ تجد اختلافاً في كلمات هذه القصيدة وأبياتها ، وكذلك في قصائد هذا الشاعر الأخرى ، فارجع في ذلك الى طبعات ديوانه والى كتب الادب لمعرفة مواضع الاختلاف ، كتاب البده والتاريخ (٢٠٢/١ وما بعدها) ، ثم ديوانه .

من نظر في الكتب وكان مُقرأ بالجنة والنار. وحجته في ذلك هذه المنظومة المنسوبة الى أمية ، مع أنها من الشعر المزيف المصنوع !

ثم خلد قصيدته في (عيسى بن مريم) وحمل أمه به^١ ، وسائر قصائده الأخرى ، تجدد عليها هذه المسحة الاسلامية بارزة ظاهرة ، ومن الممكن إدراك هذا المصنوع المزيف بدراسة ألفاظه وأسلوبه وأفكاره ، وبهذه الطريقة نتمكن من استخلاص الأصل من شعره من الهجين .

ولأمية شعر في الموت ، حيث يقول :

من لم يمت عبطة يمت هرمًا وللموت كأسٌ ، والمرء ذاتها^٢

ويروى له قوله في الله :

واشهد أن الله لا شيء فوقه عليمًا وأمسى ذكره متعاليا^٣

وزعم أن أمية ، قال عند موته :

إن تغفر اللهم تغفر جمًا وأيَّ عبد لك لا آلا

وقد تمثل به النبي وصار من جملة الأحاديث . قالوا في ذلك : يجوز إنشاد الشعر للنبي ، وإنما المحرم انشاؤه . وقد زعم أن البيت لأبي خراش الهذلي ، وذكر أنه لا يعرف قائله ولا بقيته ، وقد أخذه أبو خراش وضمه الى بيت آخر ، وكان بقولها ، وهو يسعى بين الصفا والمروة^٤ .

ومن شعر أمية قوله :

زعم ابن جدعان بن عمرو أنني يوماً مُدابر
ومسافرٌ سَفراً بعيداً ، لا يؤوبُ له مسافرٌ

١ ديوان أمية (٥٨) ، (بشير يموت) .

٢ أمالي المرتضى (١ / ٥٣٣) .

٣ أمالي المرتضى (٢ / ١٦٨) .

٤ الخزائن (٢ / ٢٩٥) ، (هارون) .

٥ اللسان (٤ / ٢٧٥) ، (دبر) .

ومن ولد (أمية بن أبي الصلت) : عمرو ، وريعة ، ووهب ، والقاسم .
وكان ربيعة والقاسم شاعرين^١ . وذكر انه نظم شعراً رد به على أبيه في انتسابه ،
منها :

ولانا معشر من جلد قيس فنسبتنا ونسبتهم سواء^٢

وهو القائل :

وإن يك حياً من إباد فلأنا وقيساً سواء ما بقينا وما بقوا
ونحن خيار الناس طراً بطانة لقيس ، وهم خير لنا إن هم بقوا^٣

ولا نعرف من أمر (القاسم بن أمية بن أبي الصلت) شيئاً يذكر . وقد
أورد له (المرزباني) شعراً في مدح (بني دهمان)^٤ . وذكر انه رثى (عثمان
ابن عفان) في قصيدة منها :

لعمري لبش الذبح ضحيت به خلاف رسول الله يوم الأضاحي
فطيطوا نفوساً بالقصاص فلأنه سيسعى به الرحمن سعي نجاح^٥

وأورد له (ابن قتيبة) أربعة أبيات مطلعها :

قوم^٦ إذا نزل الغريب بدارهم تركوه رب صواهل وقيان^٧
ورويت له مراثية في عثمان بن عفان منها :

لعمري لبش الذبح ضحيت به خلاف رسول الله يوم الأضاحي
فطيطوا نفوساً بالقصاص فلأنه سيسعى به الرحمن سعي نجاح^٨

-
- ١ رسائل الجاحظ (٢٥٨/١) .
 - ٢ الاصابة (٤٩٣/١) ، (رقم ٢٥٩٠) .
 - ٣ رسائل الجاحظ (٢٥٨/١) ، الاغاني (١٧٩/٣) وما بعدها ، « ربيعة بن ابي الصلت ، صاحب ربيعتان نهر بقرب الابل ، ومن ولده : كلدة بن ربيعة ، كان من رجال أهل البصرة » ، الاشتقاق (١٨٥/١) .
 - ٤ الشعر والشعراء (٣٧٢/١) ، (دار الثقافة) ، المرزباني ، معجم (٢١٣) ، الاغاني (١٧٩/٣) ، الحيوان ، للجاحظ (٦٤/١) .
 - ٥ الاصابة (٢١٣/٣) ، (رقم ٧٠٥٢) .
 - ٦ الشعر والشعراء (٣٧٢/١) .
 - ٧ الاصابة (٢١٣/٣) ، (٧٠٥٢) .

وله موعظة في أسلوب يشبه أسلوب أعشى بني ربيعة ، نشرها (كابر) في ديوان الأعشى^١ .

ومن شعراء ثقيف (عوف بن عامر بن حسان بن مالك بن حطائط بن جشم ابن ثقيف) الكاهن ، وكان جاهلياً كاهناً شاعراً^٢ ، و (كنانة بن عبد ياليل ابن سالم بن مالك بن حطائط بن جشم بن ثقيف) ، وكان يمدح النعمان بن المنذر^٣ : و (كنانة بن عبد ياليل بن عمرو بن عُمر بن عوف بن عقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف) ، وهو شاعر ذكره (ابن سلام)^٤ .

ومسعود بن معتب بن مالك الثقفني من شعراء ثقيف ، وهو جاهلي . وابنه عروة بن مسعود ، الذي دعا قومه الى الاسلام ، فقتلوه . وكان (مسعود) غنياً ، وكان يخشى عليها من أن تباع الى قريش بعد وفاته ، وكانت قريش تشتري الأرض والأموال بالطائف ، فخشي أن يبيع ورثته ملكه لقريش .

و (أبو محجن الثقفني) واسمه مالك ، وقيل عبدالله بن حبيب بن عمرو بن عمير بن عوف ، وقيل اسمه كنيته ، هو من الشعراء المطبوعين ، وكان كريماً منهمكاً في الشراب لا يكاد يقلع عنه ، أسلم مع ثقيف . جلده (عمر) مرات ثم نفاه الى جزيرة ، وبعث معه رجلاً فهرب منه ولحق بسعد بن أبي وقاص ، يوم القادسية فكتب عمر الى (سعد) أن يحبس فحبسه . فأرسل الى امرأة سعد من يقول لها : اطلقيني ولك عليّ ان سلمني الله أن أرجع حتى أجمع رجلي في القيد ، وان قتلت استرحمت مني . فأطلقته ، فوثب على فرس لسعد ، ثم أخذ رماً ثم خرج يهاجم الفرس ، فجعل لا يحمل على ناحية من العدو إلا هزمهم ، وجعل الناس يقولون هذا ملكك ، لما يروونه يصنع ، فلما هزم الفرس ، رجع فوضع رجله في القيد ، وترك الخمر قائلاً : قد كنت أشربها إذ يقام عليّ الحد وأطهر منها ، فأما الآن

١ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١١٤/١) .

٢ المرزباني ، معجم (١٢٥) .

٣ المرزباني ، معجم (٢٤٦) .

٤ المرزباني ، معجم (٢٤٦) .

٥ المرزباني ، معجم (٢٨٣) .

فلا والله لا أشربها أبداً^١ .

ومن شعره :

إذا مت فادفني الى جنب كرمه تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفني في القلاة فلاني أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها
أباكرها عند الشروق وتارة يعاجلني عند المساء غبوقها
وللكأس والصهباء حق معظم فن حقها أن لا تضاع حقوقها

وحدث من رأى قبر (أبي محجن) أنه نبتت عليه ثلاثة أصول كرم وقد طالت وأثمرت وهي معرشة على قبره . ولكنهم عندما تحدثوا عن موضع قبره ، اختلفوا فيه ، فقال بعض منهم إنه في نواحي أذربيجان ، وقال قوم بـمـرجـان^٢ . ويظهر أنهم اختلفوا قصة ظهور الكرم على قبره من الشعر المتقدم .

وذكر بعض الرواة ان (أبا محجن) هوى امرأة من الأنصار ، يقال لها (شمس) فحاول النظر إليها ، فلم يقدر ، فأجر نفسه من بناء بيتاً بجانب منزلها فأشرف عليها من كوة فأنشد :

ولقد نظرت الى الشمس ودونها خرج من الرحمن غير قليل

فاستعدى زوجها عمر فقاه ، وبعث معه رجلاً يقال له أبو جهراء ، فلما رأى (أبو جهراء) من أبي محجن سيفاً هرب منه الى عمر ، فكتب (عمر) الى (سعد) يأمره بسجنه فسجنه^٣ .

وذكر (بروكلن) ان (أبا محجن) لم يزل يشرب الخمر حتى نفاه (عمر) الى (باصع) ، وهي مدينة (مصوع) على ساحل الحبشة . وتوفي بها بعد مدة

١ السيوطي ، شرح شواهد (١٠١/١ وما بعدها) ، الاغاني (١٣٧/٢١) ، الخزائن (٥٥٠/٣) ابن سلام ، طبقات (٢٢٥) ، المؤلف (٩٥) ، الاصابة (١٧٣/٤) (رقم ١٠١٧) ، الشعر والشعراء (٣٣٦/١ وما بعدها) ، طبقات ابن سلام (٦٨ وما بعدها) .

٢ السيوطي ، شرح شواهد (١٠٣/١) ، (الى أصل كرمه) ، ديوانه (ص ١٤) ، (لندن ١٨٨٧ م) ، (تحقيق Abol) ، عيون الاخبار ، لابن قتيبة (٣٨/١) ، (القاهرة ١٣٢٤) ، كارلو نالينو ، تاريخ الاداب العربية (١٠٩) ، الاستيعاب (١٨١/٤ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .

٣ الاصابة (١٧٤/٤) ، (رقم ١٠١٧) .

وجيزة^١ . وهو خبر غريب ، يخالفه كل من تعرض لأمر هذا الشاعر . فقد ذكروا جميعاً انه ترك الخمر منذ يوم (القادسية) ولم يعد إليها ، ولم يذكر أحد انه عاد إليها ، حتى فترض انه عاد يعد ذلك الى المدينة وعاد اليها فنهاه ، وقصة نفيه الى جزيرة في البحر ، ترد قيل ذهابه الى العراق ، يعد أن فرّ منه حارسه ، وكان قد أحس انه يريد قتله ، فأمر (عمر) سعداً عندئذ بحبسه فحبس ، ثم خرج فقاتل ، فلما انتصر المسلمون ، رجع الى محبسه ، ففك (سعد) قيوده وأطلقه .

وقد جمع شعر (أبي عجم) في ديوان ، طبع ، كما نجد له قطعاً من أشعاره في مختلف كتب الأدب ومن تعرض لسيرته من رجال الأخبار^٢ .

وكان (غيلان بن سلمة) من الأشراف ، ذكر (الجمحي) ، انه كان قسم ماله كله بين ولده وطلق نساءه ، فنهاه (عمر) عن ذلك ، ففعل بما أمر به^٣ .

١ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٦٧/١) .

٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٦٧/١ وما بعدها) .

٣ ابن سلام ، طبقات (٦٩) .

الفصل الخامس والستون بعد المئة

الشعراء اليهود

لا نعرف نصاً جاهلياً جاء فيه خبر عن شعر يهودي ، أو عن شاعر يهودي عاش في بلاد العرب . وكل ما ورد إلينا عن شعر يهود ، مستقى من الموارد الإسلامية حسب . كذلك لا نعرف مصدراً عبرانياً أو غير عبراني ، تعرض لأمر شعر اليهود في جزيرة العرب . ولهذا فحديثي عن شعر يهود في أيام الجاهلية مستمد من الموارد الإسلامية وحدها .

ومن يلقي نظرة على أشعار اليهود لا يجد فيها أي أثر لليهودية ، ولا أية مصطلحات تشعر أن صاحبها يهودي . فلا نجد فيها شيئاً من قصص التوراة أو التلمود أو المشنا أو (الكهانة) أو أي شيء له صلة بعقيدة يهودية . مع أننا قد وجدنا شيئاً من قصص العهد القديم في شعر (أمية بن أبي الصلت) ، وهو غير يهودي . فهل يعني هذا أن شعراء اليهود لم يكن لهم ميل إلى التحديث في أمور الدين ، والنظر في أحكام الشريعة ، وفي التفكير في خلق السماوات والأرض والإنسان وفي الموت والفناء ، أو أنهم كانوا في جهل بها ، وكان أمرها عندهم إلى رجال دينهم ، هم يبحثون فيها ، ولهذا لم يحملوا أنفسهم مشقة التعرض لها والبحث فيها ، أو أنهم كانوا قد تطرقوا فعلاً إلى هذه الأمور ، وجاؤوا في شعرهم بأشياء مما يختص بدينهم ويميزهم عن غيرهم ، وتطرقوا إلى عاداتهم وأشادوا بذكر أنبيائهم ، غير أن الرواة المسلمين لم يحملوا بشعرهم لأنه شعر يهودي ،

فضاع ، كما ضاع شعر الوثنيين إذ لم يرو منه القليل^١ .

وقد ذهب (ولفنسون) الى ان السبب في قلة ما وصل الينا من شعر اليهود في الجاهلية ومن أسماء شعرائهم ، انما يرجع الى ضعف إقبال اليهود على اعتناق الاسلام . والذي حافظ على القليل الذي وصل الينا هم اليهود الذين اعتنقوا الاسلام ، ومن تناسل منهم تخليداً لما كان لأجدادهم من مجد أثيل وشرف عظيم . ولو لم يسلم بعض الأفراد من ذرية السموأل ، لكان من الجائز عدم وصول أي شيء من شعره الينا^٢ .

وذهب (الدكتور طه حسين) الى ان اليهود قالوا كثيراً من الشعر في الدين وهجاء العرب ، وانهم انتحلوا وصنعوا شعراً لإثبات وجود لهم في الشعر ، فنسبوه الى شعراء يهود ، ولكن الرواة العرب لم يحفلوا به فضاع^٣ .

وقد أدخل (كارلو نالينو) الشعراء اليهود مع الشعراء الوثنيين ، وجعلهم في الصنف الأول من أصناف طبقات الشعراء على حسب تصنيفه لهم الى أربع طبقات . وقال : « لا تستغربوا عدم الفرق بين الوثنيين واليهود من أهل البادية ووجوده بين الوثنيين والنصارى من أهل الحضر ، لأنكم اذا اطعمتم على ما وصل الينا من أشعار اليهود قبل الاسلام ما أقيم فيها شيئاً أو عبارة يميزها من سائر أهل البادية . فن طالع مثلاً أبيات السموأل بن عادياء (مع قطع النظر عن قصيدة واضحة التروير منسوبة اليه لم تعرف ولم تطبع إلا حديثاً) لما توهم ان صاحبها تابع لدين اليهود . والأمر كذلك أيضاً في سائر أشعار يهود جزيرة العرب مثل شعبة بن غريص ، والربيع بن أبي الحقيق وغيرهما التي اعتنى بجمعها (نولدكه) و (فرائز دلتش) ليس من المستحيل ان ما فقد من أشعارهم (وهو كثير بالإضافة الى ما حفظ) ، قد حوى أشياء مما يختص بدينهم وليس من المحال أيضاً ان الرواة المسلمين امتنعوا عن نقلها لهذا السبب ، ولكن لا يجوز لنا الحكم إلا في الموجود المعروف الذي لا يختلف عن شعر أهل البادية الوثنيين لا لغة ولا أسلوباً ولا مأخذاً ، كأن دينهم لم يؤثر في شعرهم البتة^٤ .

١ كارلو نالينو ، تاريخ الآداب العربية (٧١) .

٢ تاريخ اليهود في بلاد العرب (٢٤ وما بعدها) .

٣ المصدر نفسه .

٤ كارلو نالينو (ص ٧١) .

ولكنني أجد من مطالعتي لشعرهم نفساً يختلف عن النفس الذي نجده في شعر شعراء البادية، ذلك هو ميل هذا الشعر الى التحدث عن المثل الأخلاقية، كالإنصاف والحكم بالعدل ، والحلم ، والصدقة ، واحترام حق الصديق ، والاعتناظ بالموت وبحوادث الدهر ، وبوجوب الوفاء ، خذ الآيات المنسوبة الى (الربيع بن أبي الحقيق) ، وهي :

سائل بنا خابِرَ أكائنا والعلم قد يُلقي لدى السائل
لسنا إذا جارت دواعي الهوى واستمع المنصت للقائل
واعتلج القوم بألبابهم بقائل الجود ولا الفاعل
إنا إذا نحكم في ديننا فرضى بحكم العادل الفاصل
لا نجعل الباطل حقاً ولا نلظ دون الحق بالباطل
نخاف أن تسفه أحلامنا فنحمل الدهر مع الحامل

ففيها إشارة الى دين يأمر بالعدل والإنصاف ، وبعدم مزج الباطل بالحق ، ينهى عن الظلم ويأمر بالحق وفيها - ان صح بالطبع أنها من شعرهم - منطق واستماع الى صوت متظلم ، يعمد الى رفع شكواه الى المنصفين لإنصافه ، فينصف ، فأخذ الحق هنا هو بحكم الدين وقواعد العدالة لا بالسيف وبحكم العصبية والأخذ بالثأر ، ونجد مثل ذلك في بقية شعرهم ، وتحمل هذه الظاهرة المرء على التفكير في سبب ظهور هذا النوع من الشعر ، وهل هو شعر جاهلي يهودي أصيل ، أم أنه شعر مصنوع ، وضع عليهم في الإسلام ، لما رب مختلفة ، مثل المأرب الذي حل الرواة على نسبة القصيدة المشهورة :

إذا المرء لم يدتس من اللؤم عِرْضُهُ فكلُّ رداءٍ يرتديه جميل

الى السؤال ، وكذلك بعض الأشعار الأخرى !

وقد ذكر (ابن سلام) أسماء فحول شعراء يهود ، فجعلهم : السموأل بن الغريص بن عادياء ، والربيع بن أبي الحقيق ، وكعب بن الأشرف ، وشُريح ابن عمران ، وشُعْبة بن غريص ، وأبو قيس بن رقاعة ، وأبو الديال ، ودرهم

ابن زيد^١ . وأضاف غيره إليهم : أوس بن دني ، وسمك ، والغريص بن السموأل^٢ و (سلام بن مشكم) و (كنانة بن أبي الحقيق)^٣ .

والسموأل ، هو أشهر شاعر يهودي . وهو على ما يقوله لنا الأخباريون يهودي ثري شاعر ، عرف بـ (السموأل بن عاديا) ، وبـ (السموأل بن عاديا) الأزدي ، وبـ (السموأل بن غريص بن عاديا « عاديا » اليهودي)^٤ ، وبـ (السموأل بن حيان بن عاديا)^٥ ، وبـ (السموأل بن عاديا بن حيا)^٦ ، وبـ (السموأل بن حيا بن عاديا بن رفاعة بن الحارث بن ثعلبة بن كعب)^٧ ، وبـ (السموأل بن أوفى بن عاديا)^٨ ، وبـ (السموأل بن أوفى بن عاديا بن رفاعة بن جفنة) ، وبـ (السموأل بن غريص بن عاديا بن حيا) . واختلفوا في نسب (عاديا) (عاديا) ، فقالوا : (عاديا بن حيا) ، وقالوا : (عاديا بن رفاعة بن جفنة) ، وقالوا : انه من ولد (الكاهن ابن هارون بن عمران)^٩ ، وقالوا انه من (بني غسان) ، ونسبه (دارم بن عقال) ، الى (رفاعة بن كعب بن عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء) . وهو نسب أنكره (أبو الفرج الأصبهاني) حيث قال : « وهذا عندي محال ، لأن الأعشى أدرك شريح بن السموأل ، وأدرك الاسلام ، وعمرو مزيقيا قديم لا يجوز أن يكون بينه وبين السموأل ثلاثة آباء ولا عشرة ولا أكثر ... وقد قيل ان أمه كانت من غسان »^{١٠} . ونسب السموأل أيضاً الى الأزدي^{١١} . وذكر (ابن دريد) ان السموأل

-
- ١ طبقات ، ابن سلام (٧٠) .
 - ٢ الاغاني (٩٤/١٩ وما بعدها) .
 - ٣ الاستيعاب (٣٣٧/٤) ، (حاشية على الاصابة) .
 - ٤ « عاديا » الاغاني (٩٨/١٩) ، ابن سلام ، طبقات (٢٣٥) ، « طبعة دار المعارف » ، « تحقيق محمود محمد شاكر » ، « تاج المروس (٣٨٢/٧) » ، « سمل » ، شرح شواهد المغني (٥٣٥/٢) ، Ency. IV, p. 133.
 - ٥ الميبداني ، الامثال (٢٧٦/٢) ، المشرق ، السنة الثانية عشرة ، ١٩٠٩ م ، العدد ٣ آذار (ص ١٦٢) .
 - ٦ المغرب ، للجواليقي (١٨٨) .
 - ٧ ابن دريد ، الاشتقاق (٢٥٩) .
 - ٨ المشرق ، العدد المذكور (١٦٢) ، السيوطي ، شرح شواهد (٥٣١/٢) ، الاغاني (١٢/٣) .
 - ٩ معاهد التنصيص (١٣١/١) ، المشرق ، العدد المذكور .
 - ١٠ الاغاني (٩٨/١٩) ، المشرق ، العدد المذكور .
 - ١١ المغرب (١٨٨) .

من (بني غسان) ، ولكنه ذكر أيضاً انه كان يهودياً^١ ، ونسبه (محمد بن حبيب) الى غسان كذلك ، ولم يشر الى تهوده^٢ . وقد جعل (ابن قتيبة) السموأل ملكاً على تباء^٣ .

والسموأل جدّ (صفية بنت حيي بن أخطب) لأمها . وهي يهودية ، وقد تزوّجها الرسول^٤ . وقد نسبها (ابن عبد البر) على هذه الصورة : صفية بنت حيي بن أخطب بن سعة بن ثعلبة بن عبيد بن كعب بن الخزرج بن أبي حبيب ابن النضير بن النحام بن نخوم من بني اسرائيل من سبط هارون بن عمران . وأمها (برة بنت سموأل)^٥ . وكانت عند (سلام بن مشكم) ، وكان شاعراً ، ثم خلف عليها كنانة بن أبي الحقيق ، وهو شاعر ، فقتل يوم خيبر ، وتزوجها رسول الله ، في سنة سبع من الهجرة .

وقد اشتهر السموأل بالوفاء ، أكثر من اشتهاره بالشعر ، ولا زال العرب يتبجحون بوفائه ويضربون به المثل في الوفاء . واشتهر بقصره الذي ضرب به المثل بالفضامة والجسامة ، وهو (الأبلق) بـ (تباء) ، أو على مقربة منها . حتى زعم أهل الأخبار أنه من أبنية (سليمان بن داود) بناء بتباء ، واستشهدوا على صحة دعواهم ببيت شعر زعموا أنه من شعر الأعشى ، هو :

ولا عاديّا لم يمنع الموت ماله وورد بتبّاء اليهودي أبلق
بناء سليمان بن داود حقبه له أزج حم وطى موثق^٦

لكنهم يذكرون أيضاً انه من بناء (عاديّا) والد السموأل ، ويستشهدون على صحة روايتهم بشعر ذكروا انه للسموأل نفسه ، يقول فيه :

١ الاشتقاق (٢٥٩) .

٢ المحبر (٣٤٩) .

٣ الشعر والشعراء (٦٠/١ ، ٦١) .

٤ الاصابة (٣٣٧/٤ وما بعدها) ، (رقم ٦٥٠)

٥ الاستيعاب (٣٣٧/٤) ، (حاشية على الاصابة) .

٦ تاج العروس (٢٩٨/٦) ، (بلق) ، راجع قصيدة الاعشى رقم ٢٥ في ديوانه ،

و له جندل صم وطى موثق ، ، (له أزج عال وطى موثق) ، الحيوان (١٨٨/٦) ،

(تحقيق عبد السلام هارون) ، المشرق ، الجزء المذكور (١٦٣) .

بني لي عاديا حصناً حصيناً وعيناً كلما شئت استقيت
وأطماً تزلق العقبان عنه اذا ما ضامني أمر أبيت^١

وقد زعموا انه عرف بـ (الأبلق الفرد) . أخذوا ذلك من شعر نسبوه الى
السموأل ، هو :

هو الأبلق الفرد الذي سار ذكره يعز على من رماه ويطول^٢

وذكروا انه انما عرف بالأبلق ، لأنه كان في بنائه يياض وحمرة ، وقيل لأنه
بني من حجارة مختلفة الألوان^٣ . وقد ذكر في شعر للأعشى :

وحصن بتياء اليهودي أبلق^٤

وفي شعر آخر له أيضاً هو :

بالأبلق الفرد من تياء منزله حصن حصين ، وجار غير ختار^٥

وزعم أهل الأخبار ، أن الزباء (ملكة الجزيرة) قصدته فعجزت عنه وعن
مارد ، فقالت : « تمرد ماردا وعز الأبلق » ، فسيرته مثلاً^٦ . ولا أستبعد
كون حصن سموأل من الحصون أو القصور القديمة التي كانت بتياء . ورثه
(سموأل) من آبائه وأجداده ، فقد كان البابليون قد بنوا بها قصوراً وحصوناً ،
لما اتخذت عاصمة لهم ، وسكنها ملكهم ، ثم انها كانت من المدن القديمة العامرة ،
وقد كانت الأسر الكبيرة الغنية تبني القصور الفخمة في المدن للتحصن بها من
الغزو ومن غارات الأعداء عليها ، كما كانت الحكومات ، ولا سيما حكومات
المدن تقيم الحصون القوية المنيعة في المدن ، للدفاع عنها ، ولتكون مقرأ للحكام ،
وتشاهد الى اليوم آثار القصور والأبنية الفخمة التي كانت في تياء . وما يؤيد

-
- ١ تاج العروس (٢٩٨/٦) ، (بلق) .
 - ٢ تاج العروس (٢٩٨/٦) ، (بلق) .
 - ٣ تاج العروس (٢٩٨/٦) ، (بلق) .
 - ٤ اللسان (٢٦/١٠) ، (بلق) .
 - ٥ « غير غدار » ، اللسان (٢٦/١٠) ، (بلق) .
 - ٦ تاج العروس (٢٩٨/٦) ، (بلق) .

رأبى في أن قصر (السموأل) ، أى حصنه من الحصون القديمة هو ما ورد في شعر (الأعشى) من أنه من أبنية (سليمان) ومن ورود لفظة (عاديا) في شعر الأعشى كذلك ، وفي شعر السموأل :

بنى لي عاديا حصناً حصيناً وعيناً كلما شئت استقيت

ولفظة (عاديا) ، وإن صيرت اسم علم لرجل ، لكنني أعتقد أنها ليست علماً ، وإنما تعني القدم ، فالعادي عند العرب القديم جداً ، ولو كان (عاديا) جدّ (السموأل) ، فكيف نوفق بين الشعر المذكور المنسوب الى الأعشى الذي يزعم انه من أبنية سليمان ، ثم قولهم ان (عاديا) من أجداد السموأل ، ثم قولهم انه من الحصون القديمة ، وانه تعزز على (الزباء) لما أرادت فتحه ، في الأسطورة التي يرويها أهل الأخبار ، والتي تدل على قدم الحصن . ولكن ليس من المستبعد أن يكون أحد أجداد السموأل ، قد جدد في بنائه ورممه لإصلاح ما أفسده الزمان منه ، وأما الحصن نفسه فربما كان من بقايا أبنية البابليين بتياء ، فقد كانت (تياء) معروفة في أيام (البابليين) ، وموجودة قبل أيامهم ، بدليل ان (نبونيد) ملك بابل جاء إليها فالتحذها أمدأ عاصمة له .

وقصه وفاء السموأل قصة مشهورة ، وقد تحدثت عنها ، وذكر أن السموأل لما أبى دفع الدروع الى الملك ، وشاهد منظر ذبح ابنه ، قال في ذلك :

وفيت بأدراع الكنديّ لاني إذا ما خان أقوامٌ وفيت
وقالوا عنده كثر رغب فلا وأبيك أغدر ما مشيت
بنى لي عاديا حصناً حصيناً وبشراً كلما شئت استقيت^١

وتعدّ قصيدة السموأل التي مطلعها :

إذا المرء لم يدنّس من اللؤم عِرضه فكلُّ رداءٍ يرتديه جميل

من أجمل القصائد السلسلة المنظومة في الوفاء وفي الفخر . وقد سجلت ثمانية أبيات منها في الكتاب المسمى : « تاريخ ملوك العرب الأولية من بني هود وغيرهم » ،

١ المحاسن والاضداد (٣٦ وما بعدها) .

المنسوب (لأبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي) ، رواية (أبي يوسف يعقوب بن السكيت) . وقد تم استنساخاً في عاشر شوال سنة ثلاث وأربعين ومائتين^١ . وهو كتاب لم يشر (ابن التديم) اليه ، لا في أثناء حديثه عن (الأصمعي) ولا في أثناء كلامه علي (ابن السكيت) .

وأول هذه الأبيات المدونة فيه :

تعرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها إن الكرام قليل^٢

وقد اختلف العلماء في قائل القصيدة ، فمنهم من نسبها الى السموأل ، ومنهم من نسبها لابنسه (شريح)^٣ ، ومنهم من جعلها لـدكين^٤ ، ومنهم من نسبها لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي^٥ ، ومنهم من جعلها للجلاح الحارثي^٦ . ورجح (بروكلمن) نسبتها لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي ، وهو شاعر اسلامي^٧ . ويقول (التبريزي) في شرحه للبيت :

فلان بني الديان قطب^٨ لقومهم تدور رحاهم حولهم وتجول

وهو من أبيات هذه القصيدة ، يذكر انه لعبدالله الحارثي لا للسموأل^٩ .

ويلاحظ ان (أبا الفرج الاصبهاني) ، قد نسب القصيدة المذكورة للسموأل ثم نسبها الى (شريح) ، البذي هو ابن السموأل في موضع آخر ، ثم نسبها الى

-
- ١ نشرة الشيخ محمد حسن ال ياسين ، بعنوان : تاريخ العرب قبل الاسلام (بغداد ١٩٥٩ م) ، وتجد القصيدة في ديوان الحماسة (ص ٣٩) ، (طبعة أوربة) ، وفي نزهة الجليس (١٤٩/٢ وما بعدها) .
 - ٢ طبع ديوانه مرارا ، وطبع ببغداد سنة ١٩٥٥ م ، راجع عن شعره ، شرح شواهد المغني (٥٣١/٢ وما بعدها) ، الحماسة (١٠٨/١) ، الامالي (٢٦٩/١) ، البيان والتبيين (١٨٥/٣) ، ديوان الحماسة (٢٧/١) ، أمالي القاضي (٢٦٩/١ وما بعدها) ، الاغاني (٧٦/٦ وما بعدها) ، عيون الاخبار (١٧٣/٣) .
 - ٣ ديوان الحماسة (٣٩) ، (طبعة أوربة) ، الحماسة (١٠٨/١) ، الامالي (٢٦٩/١) .
 - ٤ السيوطي ، شرح شواهد (٥٣١/٢) ، الاغاني (٢٥٣/٩) .
 - ٥ شرح شواهد (٥٣١/٢) .
 - ٦ السيوطي ، شرح شواهد (٥٣١/٢) .
 - ٧ بروكلمن (١٢١/١) .
 - ٨ ولفنسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب (٢٧) .

(دكين العنري) في موضع ثالث^١ ، مما يدل على انه أخذ من مصادر مختلفة، اختلفت فيما بينها في نسبة القصيدة الى صاحبها^٢. كما نجد الرواة يختلفون فيما بينهم في ترتيب أبيات القصيدة ، فمنهم من يقدم فيها ، ومنهم من يؤخر ، ويبحث هذا الاختلاف الريبه في صحة نسبة القصيدة الى السموأل^٣ .

ولما تحدث (ابن قتية) عن الشاعر (دكين بن رجاء) من بني فقيم للراجز ، وهو من شعراء العصر الأموي ، ومن المتصلين بـ (عمر بن عبد العزيز) ، قال عنه : إنه هو القائل :

إذا المرء لم يندس من اللؤم عِرْضه فكلّ رداءٍ يرتديه جميل
وإن هو لم يضرع عن اللؤم نفسه فليس الى حسن الثناء سبيل^٤

ويرى (ونكلر) أن قصة الوفاء هذه هي أسطورة استمدت مادتها من أسفار (صموئيل الأول) في التوراة، ومن الأساطير العربية القديمة نظمت على هذه الصورة فجعل بطلها شخصان هما : (السموأل) ، و (امرؤ القيس)^٥ .

وإذا تتبعنا الروايات الواردة في قصة وفاء السموأل ، وذبح ابنه ، وامتناعه عن تأدية الأمانة المودعة لديه ، إلا لأصحابها الشرعيين ، نجد أنها ترجع الى موردن رئيسين : قصة (دارم بن عقال) وشعر الأعشى .

وذكر (ابن سلام) ، ان للسموأل (كلمة له طويلة) ، يقول فيها :

إن حلمي اذا تغيب غني فاعلمي انني عظيماً رزيت^٦

وقد وردت في الأصمعيات^٧ ، وهي تتحدث عن نشأة الانسان وحياته وبعثه بعد

١ الاغاني (٦٧/٦) ، (١٥٥/٨) .

٢ ولفنسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب (٣١) .

٣ المصدر نفسه .

٤ الشعر والشعراء (٥٠٨/٢) وما بعدها .

٥ H. Winckler, Araabisch-Orientalisch., In Mittel. Vorder. Asai. Gesellschaft, ٥

(1901) 6 Jahrgang, S., 112.

٦ طبقات (٧١) .

٧ الاصمعيات (٨٤) ، (دار المعارف) .

موته ، ويظن أنها مصنوعة^١ . وفي جملة ما قاله :

ميتاً خلقت ولم أكن من قبلها شيئاً يموت فت حينَ حيث^٢

وقد طبع الأب (لويس شيخو) ديوان السؤال برواية (نقطويه) (٣٢٣هـ) ، وقد ترجم (ابن النديم) نقطويه ، وذكر أسماء كتبه ، ولكنه لم يذكر من بينها اسم هذا الديوان^٣ ، وترجمه غيره ، ولم ينسب له هذا الديوان^٤ . ويرى (بروكلمن) احتمال كون الشعر المرقم (١ - ٦) من الديوان من الشعر الأصيل ، أي من شعر السؤال ، أما الشعر الباقي المنشور في الديوان ، فهو لشعراء يهود متأخرين^٥ . ويرى غيره أصالة قصيدتين فقط من شعر هذا الديوان. وذكر بعضهم ان القصيدة رقم (٧) ليست للسؤال ، وإنما لأحد يهود المدينة^٦ .

وقد تحدث المستشرقون عن شعر (السؤال) ولهم فيه كلام ، فمنهم من يؤيد أصالة أكثره ، ومنهم من لا يعترف إلا بأصالة القليل^٧ منه . والواقع أن موضوع وجود (السؤال) نفسه قضية فيها نظر ، ولا استبعد أن تكون هذه القصة من وضع (دارم بن عقال) ، وهو من ولد (السؤال) ، أو من وضع أناس آخرين رووا عنه . و (دارم) هو راوي خبر قصة الوفاء ، والأشعار المنسوبة الى (امرى القيس) المتعلقة بهذا الموضوع. وقد أشار الى ذلك مؤلف كتاب (الأغاني) في أثناء كلامه على قصيدة نسبت الى (امرى القيس) ، ابتداءها :

طرقتك هند بعد طول تجنب وهنأ ولم تك قبل ذلك تطرق

١ العصر الجاهلي (٣٨٩) .

٢ البيان والتبيين (١٢٧/٣) .

٣ الفهرست (١٢٧) ، شيخو ، ديوان السؤال ، بيروت ١٩٠٩ م ، المشرق ، السنة الثانية عشرة ، العدد ٣ اذار ١٩٠٩ م (ص ١٦١ وما بعدها) .

٤ نزهة الالباء في طبقات الادباء ، لابن الانباري (١٧٨ وما بعدها) ، (تحقيق : ابراهيم السامرائي) ، ابن القفطي ، الانباء (١٨٠/١) .

٥ بروكلمن (١٢٢/١) .

٦ بروكلمن (١٢٢/١ وما بعدها) .

٧ Margoliouth, The Relations., p. 71, Ency., IV., p. 133, Fr. Delitzsch, Jüdisch-Arabische Poesien aus vor Muhammedanischer Zeit, Leipzig, 1874, Nöldeke, Beiträge, zur Kenntnis der Poesies der alten Araber, Hanover, 1864, M. Steinschneider, Die Arabische Literatur der Juden, Frankfurt am Main, 1900, Brockelmann, Geschichte der Arabischen Literatur, I, S. 28, Suppl., I, S. 60.

فقال : « وهي قصيدة طويلة ، وأظنها منحولة ، لأنها لا تشاكل كلام امرئ القيس ، والتوليد فيها بين ، وما دوتها في ديوانه أحد من الثقات ، وأحسبها مما صنعه دارم ، لأنه من ولد السمؤال ، ومما صنعه من روي عنه من ذلك فلم تكتب هنا »^١ .

وبلاحظ أن في شعر الأعشى كثيراً من أخبار السمؤال ، ومن شعره أخذ الأنباريون (تباة اليهودي)^٢ و (الأبلق الفرد) ، حيث يقول :

كن كالسمؤال إذ طاف الهام به في جمفل كقريع الليل جرّار
بالأبلق الفرد من تباة منزله حصن حصين وجار غير غدار
خيّره خطي خسف فقال له مهبا تقولن فلاني سامع حار
فقال ثكل وغدر أنت بينها فاختر فسا فيها حظ لمختار
فشك غير طويل ثم قال له اقتل أسيرك إنني مانع جاري^٣ .

ومن ولد السمؤال (شريح) و (الغريض بن السمؤال) ، وكانا شاعرين كذلك^٤ . و (برة) في رواية من جعلها ابنة للسمؤال ، ووالدة (صفية) زوج الرسول^٥ .

وللأعشى الشاعر الشهير شعر يرويهِ الرواة في مدح (الشريح بن السمؤال) (شريح بن السمؤال) . وقد ورد في قصيدته الرائية اسم ولدين للسمؤال ، هما : (حوط) و (منلر)^٦ . ولم يذكر الأنباريون اسم الولد الذي زعم أن (الحارث بن أبي شمر) ، أو (الحارث بن ظالم) قتله لرفض السمؤال دفع أدرع الكندي إليه ، على نحو ما يذكره الرواة في قصة الوفاء . ونجد مضمون هذه القصة في هذه القصيدة المذكورة للأعشى ، الموجودة في ديوانه . وهي قصيدة تتألف من واحد وعشرين بيتاً ، يروي الرواة أنه قالها مستجيراً بـ (شريح بن

١ الاغانى (٧٠/٨) .

٢ البلدان (٤٤٢/٣) ، جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (٢٧٢/٣) .

٣ نزعة الجليس (١٥١/٢) ، المحاسن والاضداد (٣٧) .

٤ السيوطي ، شرح شواهد (٥٣١/٢) ، بروكلمان ، تاريخ الادب العربي (١٢٢/١) .

٥ الاستيعاب (٣٣٧/٤) ، (حاشية على الاصابة) .

٦ المشرق ، العدد المذكور (١٦٣) .

(السموأل) ليفكه من الأسر . وكان الأعشى على ما يقوله الرواة قد هجا رجلاً من (كلب) ، فظفر به الكلبي وأسرّه ، وهو لا يعرفه ، فترل بشريح بن السموأل وأحسن ضيافته ، ومراً بالأسرى ، فناداه الأعشى بهذه القصيدة ، فجاء شريح الى الكلبي ، وتوسل اليه بأن يهبه ، فوهبه اياه ، فأطلقه . وقال له : أقم عندي حتى أكرمك وأحبوك ، فقال له الأعشى : « ان تمام احسانك إليّ ان تعطيني ناقة ناجية ، وتخلّيني الساعة ، فأعطاه ناقة ناجية ، فركبها ومضى من ساعته . وبلغ الكلبي ان الذي وهبه لشريح هو الأعشى ، فأرسل الى شريح ابعث إليّ الأسير الذي وهبت لك حتى أحبوه ، فقال : قد مضى ، فأرسل الكلبي في أثره ، فلم يلحقه^١ .

وقد اختلف في اسم (شريح) الذي خلّص (الأعشى) من الأسر ، فقد ذكر انه (شريح بن حصن بن عمران بن السموأل) ، وذكر انه (شريح بن عمرو الكلبي) لا كما دعاه بذلك (ابن قتيبة)^٢ .

وذكر (بروكلمن) اسم شاعر آخر من شعراء (آل عاديّا) ، هو الشاعر (سعيد بن الغريص) (سعيد بن غريص) ، أخي السموأل . كما ذكر اسم (شعبة) حفيد السموأل^٣ . وقد ذهب (نولدكه) الى أن (الغريص) لم يكن أخاً للسموأل ، بل ابناً له ، وأن ما ذهب اليه (أبو الفرج الاصبهاني) ، من أن (غريصاً) كان أخاً له ، خطأ ، لأن (شعبة) ، كان قد اعتنق الإسلام وعاش الى زمن الخليفة (معاوية) ، أي الى زمن بعيد عن (السموأل) ، وهذا يجعل من الصعب تصور أن (شعبة) كان ابن أخي (السموأل) ، بل لا بد من أن يكون حفيداً له . أي ان الغريص كان ابناً للسموأل ، وقد جعله يعيش في حوالى السنة (٦٠٠) للميلاد ، وجعل أيام (السموأل) في حوالى السنة (٥٥٠) للميلاد^٤ .

- ١ الاغاني (٩٩/١٩ وما بعدها) ، ديوان الاعشى (١٢٦ وما بعدها) ، (تحقيق رودلف كايّر) ، (Rudolf Geyer) ، (لندن ١٩٢٨ م) ، ديوان الاعشى الكبير (١٧٩) ، (تحقيق الدكتور م. محمد حسين) .
- ٢ الشعر والشعراء (١٨٢/١ وما بعدها) .
- ٣ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٢٢/١) ، تاريخ دمشق ، لابن عساكر (١٥٧/٤) .

Th. Nöldeke, Beiträge Zur Kenntniss der Poesie der Alten Araber, S. 64, Hannover, 1864.

ونسبت لشعبة بن غريص بن السموأل قصيدة هي :

لباب يا أخت بني مالك لا تشري العاجل بالآجل
لباب داويني ولا تقتلي قد فضل الشافي على القاتل
لباب هل عنك من نائل لعاشق ذي حاجة سائل
علته منك بما لم ينل يا ربما علت بالباطل
إن تسألني بي فأسألني خابراً فالعلم قد يكفي لدى السائل
ينيك من كان بنا عالماً عتاً وما العالم كالجاهل
إنا إذا جارت دواعي الهوى وأنصت السامع للقاتل
واعتلج الثوم بالبابهم في المنطق الفاصل والقاتل
لا نجعل الباطل حقاً ولا نكيط دون الحق بالباطل
نخاف أن تسفه أحلامنا فنخمل الدهر مع الحامل^١

كما نسبت له أبيات أولها:

يا دار سعدى بمفضى تلعة النعم
"حييت داراً على الاقواء والقدم^٢

ونسبوا له أبياتاً في الخللان هي :

أرى الخللان لما قل مالي وأجحفت النوائب ودعوني
فلما ان غنيت وعاد مالي أراهم لا أبالك راجعوني
وكان الثوم خللاً لمالي وإخواناً لما خولت دوني
فلما مرر مالي باعدوني ولما عاد مالي عاودوني^٣

وروى أهل الأخبار ان (شعبة بن غريص) ، عاش فأدرك أيام معاوية ،
وان معاوية لما حج رأى شيخاً يصلي في المسجد الحرام عليه ثوبان أبيضان ، فقال :
من هذا ؟ فقالوا : شعبة بن غريص ، فأرسل اليه يدعوه ، فأتاه رسوله ، فقال :
أجب أمير المؤمنين ! قال : أليس قد مات ! قيل فأجب معاوية . فأتاه فلم
يسلم عليه بالخلافة . فقال له معاوية : ما فعلت أرضك التي تكسي منها العاري

Nöldeke, Beiträge, S. 65. f.

١ المصدر نفسه (ص ٦٦)
٢ المصدر نفسه (ص ٦٧)

ويرد فضلها على الجار ؟ قال : باقية . قال : أنبيعها ؟ قال : نعم . قال : بكم ؟ قال بستين ألف دينار ولولا خلة أصابت الحمي لم أبعها . قال : لقد أغليت ! قال : أما لو كانت لبعض أصحابك لأخذتها بستائة ألف ، ثم لم تبال . قال : أجل . قال : فإذا بخلت بأرضك فأنشدني شعر أبيك الذي يرثي به نفسه . قال : قال أبي :

يا ليت شعري حين أندب هالكاً ماذا تؤنني به أنواحي
أيقن لا تبعد قرب كربة فرجتها بشجاعة وسماح
ولقد ضربتُ بفضل مالي حقه عند الشتاء وهبة الأرواح
ولقد أخذت الحق غير خاصم ولقد رددت الحق غير ملاح
وإذا دعيت لصعبة سهلتها ادعسي بأفصح مرة ونجاح

فقال : أنا كنت بهذا الشعر أولى من أبيك ! قال : كذبت ولولا مت . قال : أما كذبت فنعم . وأما لولا مت فكيف ولم ؟ قال : لأنك أنت ميت الحق في الجاهلية وميته في الاسلام . أما في الجاهلية فقاتلت النبي صلى الله عليه وسلم ، وكذبت الوحي حتى جعل الله تعالى كيدك المردود . وأما في الاسلام ، فنعت ولد النبي صلى الله عليه وسلم الخلافة وما أنت وهي ! وأنت طليق . فقال معاوية : قد خرف الشيخ فأقيموه . فأخذ بيده فأقيم^٢ .

وقد ذكر (ابن حجر) موجز هذه القصة ، أخذه من (ابن أبي طيء) ، وقد رواها (عمر بن شبة) بسنده الى (الهيثم بن عدي) ، وذكر ان اسمه (سعة بن عريض بن عاديا) التياوي ، نسبة لتيماء ، وهو ابن أخي السؤال . ثم قال : « وحكى الخلاف في سعة هل هو بالنون أو الياء ؟ ووردت له أشعار في مجالس ثعلب ، وروي ان من شعره قوله :

معتقة كانت قريش تعافها فلما استحلوا قتل عثمان حلت^٣

وقد نسب (ابن نباتة) في شرحه لرسالة (ابن زيدون) القصيدة المذكورة

١ تجد هذه الابيات بشكل اخر في طبقات ابن سلام (٧٢) .

٢ Th. Noldeke, Beiträge.

٣ الاصابة (٤١/٢) ، (رقم ٣٢٤٥) ، (١١٢/٢) ، (٣٦٨٦) .

للسموأل^١ . وأثبت (ابن سلام) الآيات المذكورة في طبقاته ، على أنها من شعر (شعبة بن غريص)^٢ .

و (شعبة) تصحيف (سبعة) ، و (سبعة) من أسماء يهود^٣ .

وأشير في حاشية (البحري) الى رجل من هذه الأسرة دعي (عريض بن شعبة) ، وذكرت له هذه الآيات :

ليس يعطى القوي فضلاً من الرزق ولا يحرم الضعيف الخبيث
بل لكلٍ من رزقه ما قضى الله ولو كدّ نفسه المستميت^٤

ومن شعراء يهود (الربيع بن أبي الحقيق) ، وهو من (بني قريظة) على ما جاء في كتاب الأغاني ، غير أننا نجد (ابن هشام) صاحب السيرة ، يذكر : (سلام بن أبي الحقيق) ، وهو شقيق (الربيع) ، و (كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق) ، وهو أحد أبناء (الربيع) في جملة سادات (بني النضير)^٥ . مما يدل على أن (الربيع بن أبي الحقيق) هو من (بني النضير) . وقد قتل ابن أبي الحقيق بعد (الخندق) ، وذلك أن (الأوس) لما أصابت (كعب بن الأشرف) ، قالت الخزرج ، والله لا يذهبون بها فضلاً علينا أبداً ، فاستأذنوا النبي في قتل (ابن أبي الحقيق) ، وهو بخير ، فأذن لهم فقتلوه^٦ . وقد جعله (ابن سلام) من بني النضير ، ونسب له أبياتاً دونتها في أول هذا الفصل^٧ . وذكر أن (الربيع بن أبي الحقيق) كان على رأس قومه يوم (بعاث) . وذكر أنه كان قد التقى مع (النابغة) ، وقد تسابعا في نظم أنصاف الآيات^٨ .

١ شرح رسالة ابن زيدون (٥٤) ، ولفنسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب (٣١) .

٢ طبقات (٧٢) .

٣ Levi Della Vida, in Rivista degli Orientali, VIII Roma, 1919-1921, and Levi

Della Vida, A Proposito di AS-Samaw'al, In Rivista degli Orientali, XIII, 1931-1932, p. 52.

٤ الحماسة (٢٣٢) . Th. Nöldeke Beiträge, S. 71.

٥ ابن هشام ، سيرة (١٧٨/٢) ، (حاشية على الروض الانف) ، الاغاني (٦١/٢١) ، البيان (٢١٣/١) ، (هارون) .

٦ ابن هشام ، سيرة (٢٠٩/٢) وما بعدها ، (حاشية على الروض الانف) ، الروض الانف (٢٠٩/٢) وما بعدها .

٧ طبقات (٧١) ، (لين) .

٨ الاغاني (٦١/٢١) .

ونسب الى (الربيع بن أبي الحقيق) شعر ، هو :

سئمت وأمسيت رهمن الفراء ش من جُرم قومي ومن مغرم
ومن سفه الرأي بعد النهي وعيب الرشاد ولم يفهم
فلو أن قومي أطاعوا الحلي م لم يتعدوا ولم يظلم
ولكن قومي أطاعوا الغوا ة حتى تعكس أهل الدم
فاوى السفيه برأي الحلي م وانتشر الأمر لم يبرم

وقد نسب (المرزباني) هذا الشعر الى (كنانة بن أبي الحقيق)^٢ ، من بني النضير ، وهو أخ الربيع .

ومن شعر الربيع قوله :

فلا تكثر التجوى وأنت محارب^١ تؤامر فيها كل نكسرٍ مُقصر

قاله مخاطب (أبا ياسر) النضيري ، وهو أخو حيي بن أخطب ، وكان من العلماء بالتوراة . وفيه وفي عبدالله بن صوريا ، ووهب بن يهودا ، نزل قوله :
ومن الدين هادوا سماعون للكذب^٣ .

ومن الشعر المنسوب اليه قوله :

إذا مات منّا سيد قام بعده له خلف يكفي السيادة بارع
من أبنائنا والعرق ينصر فرعه على أصله والعرق للفرع فارع

وقوله :

يرمي إليّ بأطراف الهوان وما كانت ركابي له مرحولة ذللا
أنا ابن عمك إن تابك نائبة ولست منك اذا ما لعبك اعتدلا

١ الاغاني (٩٢/٢١) ، وهناك بعض الاختلاف في الروايات .

٢ المرزباني ، معجم (٢٤٦) ، (فراج) .

٣ البيان والتبيين (١٤/٢) .

وقوله :

ترجو الغلامَ وقد أعياك والده وفي أرومته ما ينبت العود
وله أشعار أخرى في بني النجار^١ .

ولكعب بن الأشرف، وهو من سادة يهود الذين كانوا يحرضون قريشاً وغيرهم
على الرسول ، أشعار في الحث على الانتقام من المسلمين لما أوقعوه بأهل مكة من
قتل يوم بدر . ذكرت في سيرة (ابن هشام)^٢ . وله أشعار أخرى افتخر بها
بأهله وبماله وبخيله التي تخرج التمر كأمثال الأكف ، جاء فيها :

رُبَّ خالٍ لي لو أبصرته سبط المشية اباء أنف
لين الجانب في أقربه وعلى الأعداء كالسم الزعف
وكرام لم يشنهم حسب أهل عزّ وحفاظ وشرف
يذلون المال فيما نابهم لحقوق تعزيرهم وعرف
وليوث حين يشتد الوضى غير أنكاس ولا ميل كسف^٣

ومن شعره في رثاء قتلى بدر قوله :

طحنن رحي بدر لمهلك أهله ولثل بدر تستهل الأدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم لا تبعلوا إن الملوك تصرع^٤

ويشك (ولفنسون) في صحة نسبة هذه الأبيات الى (كعب) ويرى احتمال
كونها من الشعر المحمول عليه^٥ .

Beiträge, S. 75. ff.

- ١
- ٢ ابن هشام ، سيرة (١٢٣/٢ وما بعدها) ، الاغانى (١٠٦/١٩) ، الجمان في
تشبيهات القرآن (١٣١ ، ٢٣٣) ، ديوان المعاني (٣٩/٢) ، نهاية الارب
(١٢٥/١١) ، ابن هشام (١٢٥/٢) ، (حاشية على الروض الانف) .
- ٣ الروض الانف (١٢٥/٢) ، (الزعف) ، ابن سلام ، طبقات (٧١) ، (وعلى الاعداد
سم كالزعف) ، ولفنسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب (٣٢) ، المرزباني ، معجم
(٢٣١) ، ابن الاثير (٥٣/٢) .
- ٤ ابن هشام (٣٣٨/٢) ، ولفنسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب (٣٣) ، ابن هشام
(١٢٣/٢) ، (حاشية على الروض الانف) .
- ٥ ولفنسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب (٣٣) .

وقد ردّ على شعر (كعب) هذا حسان بن ثابت ، وامرأة من المسلمين ،
قالت :

نحن هذا العبد كل نحن
بيكي على قتلي وليس بناصب
بكت عين من بكى لبدر وأهله
وعلت بمثلها لوي بن غالب

إلى آخر الأبيات .

فأجابها كعب بن الأشرف بقوله :

ألا فازجروا منكم سفيهاً لتسلموا
عن القول يأتي منه غير مقارب
أنشمتني إن كنت أبكي بعبرة
لقوم أثنائي ودهم غير كاذب
فلاني لبالك ما بقيت وذاكر
مآثر قوم مجدهم بالجباب

ويقال إن والده من (طيء) . أما أمه ، فن بني النضير ، وانه شيب بنساء
النبي ونساء المسلمين ، فأمر الرسول بقتله ، فقتله محمد بن مسلمة ورهط معه من
الأنصار^١ . وله مناقضات وهجاء مع (حسان بن ثابت) وغيره في الأيام التي
وقعت بين الأوس والخزرج^٢ .

ومن شعره الذي شيب فيه بأم الفضل بنت الحارث قوله :

أراحل^٣ أنت لم تحلل بمنقبة
وتارك أنت أم الفضل بالحرم
صفراء رادعة لو تعصر انعصرت
من ذي القوارير والحناء والكم
يرتج ما بين كعبيها ومرقها
إذا تأنت قياماً ثم لم تقم
أشبه أم حكيم إذ قواصلنا
والحبل منها متين غير منجلم
أحدى بني عامل جنّ الفؤاد بها
ولو تشاء شقّت كعباً من السقم
فرع النساء وفرع اللقوم والدها
أهل التحلة والإيفاء بالدم
لم أرَ شمساً بليل قبلها طلعت
حتى تجلت لنا في ليلة الظلم^٤

-
- ١ ابن هشام (١٢٣/٢) ، (حاشية على الروض) .
 - ٢ ابن سلام ، طبقات (٧١) ، المرزباني ، معجم (٢٣١) ، المقرئ ، امتاع الاسماع (١٠٧/١) وما بعدها .
 - ٣ الاغانى (١٠٦/١٩) .
 - ٤ الطبري (٤٨٨/٢) .

ونسب له شعر في مدح (الحارث بن هشام) ، هو :

نبئت أن الحارث بن هشام في الناس بيني المكرمات ويجمع
ليزور أتربَ بالجنوع وإنما بيني على الحسب القديم الأرفع^١

ومن شعراء يهود (أوس بن دنى) القرظي . ذكر أن زوجته اعتنقت الإسلام
في حياة الرسول ، وطلبت منه اعتناقه كذلك ، فقال :

دعني إلى الإسلام يومَ لقيتها فقلت لها لا بل تعالي تهودي
فنحن على توراة موسى ودينه ونعم لعمر الدين دين محمد
كلانا يرى أن الرشادة دينه ومن يهد أبواب المرشد يرشد^٢

وله أبيات أخرى ذكرها (نولدكه) في أثناء حديثه عن الشعراء اليهود^٣ .

ولا نعرف من أمر (شريح بن عمران) شيئاً يذكر ، وقد روى له (ابن سلام)
أربعة أبيات في المؤاخاة والصدقة ، والبخل والمال^٤ . وروى (نولدكه) له بيتين
من قافية أخرى في الصدقة والصديق وحفظ العهد ، هما :

آخ الكرام اذا وجدت الى اخائهم سيلا
واشرب بكأسهم وان تشرب به السم الثميلة^٥

وروى له قوله :

بجلي منك اذا ما ختني ليس لي في وصل خوان ارب
لا أحب المرء إلا حافظاً ربة العهد على كل سبب^٦

١ نسب قريش (٣٠١) .

٢ الاغانى (٩٤/١٩) ، زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١٦٥/١) ،
Nöldeke, & Belträgo, S. 76.

٣ Nöldeke, Belträgo, S. 77.

٤ ابن سلام ، طبقات (٧٢) .
Nöldeke, Belträgo, S. 79. f.

٥ Nöldeke, Belträgo, S. 80.

وروى (ابن سلام) أحياناً من قصيدة تنسب الى (أبي قيس بن رفاعه)^١ ،
قال (البكري) : اسمه دينار ، وقيل انه : (أبا قيس بن رفاعه) الأنصاري ،
فهو ليس من يهود . ومن شعره :

منا الذي هو ما إن طرّ شاربه والعانسون ومنا المرد والمشيبي
ونسب لأبي قيس بن الأسلت الأوسي^٢ .

وروى (ابن سلام) قصيدة على قافية الدال مطلعها :

هل تعرف الدار خفّ ساكنها بالحجر فالمستوى الى التمدد
دارٌ لبهانةٍ خدلجة تبسم عن مثل بارد البردِ
ذكر أنها لأبي الذبّال^٣ . وأورد (البكري) له هذه الأبيات :

لم ترَ مثل يوم رأيتَه برعبل ما احمر الأراك وأنمرا
وأيامنا بالكبس قد كان طولها قصيراً وأيام برعبل أقصرا
فلم أرَ من آل السماأل عَصبة حسان الوجوه يخلغون الملعرا^٤

ودرهم بن زيد الذي يقول :

هجرت الرباب وجاراتها وهمك بالشوق قد يطرح
يمانة نازح دارها تقيم بغمدان لا تبرح^٥

وأورد (ابن هشام) قصيدة لرجل من يهود سمّاه (سمال) اليهودي ، يذكر
فيها (بني النضير) مطلعها :

غداة غلوتم على حتفه ولم يأت غدراً ولم يخلف
بقتل النضير وأحلافها وعقر النخيل ولم تقطف

١ طبقات (٧٢) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (٧١٦/٢) ، الامالي (٦٧/٢) .

٣ طبقات (٧٢) ، ١ . Nöldeke, Beiträge, S. 77.

٤ Nöldeke, Beiträge, S. 79.

٥ ابن سلام ، طبقات (٧٤) .

وقد ردّ بها على قصيدة نسبت لعلّي بن أبي طالب على رأي ابن اسحاق ،
أو أخيره من المسلمين على رأي (ابن هشام) مطلعها :

عرفت ومن يعتدل يعرف وأيقنت حقاً ولم أصدف^١

ولما قال (كعب بن مالك) شعراً في أجلاء (بني النضير) وقتل (كعب
ابن الأشرف) مطلعها :

لقد خزيت بغدرتها الجبور كذاك الدهر ذو صرف يدور

أجابه (سمال) اليهودي ، بقوله :

أرقت وضافني همّ كبير بليل غيره ليل قصير
أرى الأخبار تنكره جميعاً وكلهم له علم خبير
وكانوا الدارسين لكل علم به التوراة تنطق والزبور
قتلتم سيد الأخبار كعباً وقدماً كان بأمن من يجير
تدل نحو محمود أخيه ومحمود سريره الفجور^٢

وكان (مرحب) اليهودي من الشعراء ، ولما حاصر المسلمون (خيبر) خرج
من حصنهم قد جمع سلاحه ، وهو يرتجز ويقول :

قد علمت خيبر اني مرحب شاكى السلاح بطل مجرب
أطعن أحياناً وحيناً أضرب إذا الليث أقبلت تحزب
إن حمي للحمى لا يقرب^٣

ونسب الى أحد اليهود بيت شعر ، خاطب فيه (مالك بن العجلان) بقوله :

تسقيت قبله أخلافها ففيمن بقيت وفيمن تسود

فأجابه (مالك) بقوله :

لاني امرؤ من بني سالم بن عوف وأنت امرؤ من يهود

١ ابن هشام (١٧٩/٢) ، (حاشية على الروض) .

٢ ابن هشام (١٨٠/٢) ، (حاشية على الروض الانف) .

٣ ابن هشام (٢٣٨/٢) ، (حاشية على الروض الانف) .

ولما هرب اليهود الى بيعهم وكنائسهم ، قال مالك :

تخاني اليهود بتلعانها تخاني الحميم بأبوالها
فاذا علي^١ بأن يلعنوا وتأتي المنايا بأذلالها^١

وفي المفضليات قصيدة لرجل يهودي لم يذكر اسمه مطلعها :

سلا ربة الخدر ما شأنها ومن أي ما فاتنا تعجب
فلسنا بأول من فاته على رفقة بعض ما يطلب^٢

ومن شعراء يهود (أبو أثاية) القرظي^٣ ، و (أبو ياسر) النضيري^٤ ،
وأبو القرظ اليهودي^٥ . و (عمرو بن أبي صخر بن أبي جرثوم) اليهودي ،
(أبو حمزة) . وله شعر في الجيران^٦ ، و (كعب بن أسد بن سعيد) القرظي
اليهودي ، من بني قريظة ، جاهلي ، له مع قيس بن الخطيم في يوم (بُعث)
مناقضات^٧ ، و (مالك بن عمر النضيري) ، وهو جاهلي^٨ .

وذكر (المعري) اسم شاعر يهودي ، ذكر ان اسمه (بُسمير بن أدكن)
(سمير بن أدكن) ، من أهل خيبر ، قال شعراً لما أمر (عمر) باجلاء أهل
الكتاب من جزيرة العرب ، هو :

يصول أبو حفص علينا بدرّة رويدك ان المرء يطفو ويرسب
كانك لم تتبج حولة ما قط لتشيع ، إن الزاد شيء محبب
فلو كان موسى صادقاً ما ظهرتم علينا ، ولكن دولة ثم تذهب

Th. Nöldeke, Beiträge, S. 83. ff. ١

Th. Nöldeke, Beiträge, S. 84. f. ٢

المرزباني ، معجم (٥٠٧) . ٣

المرزباني ، معجم (٥١٥) . ٤

المرزباني ، معجم (٥١٣) . ٥

المرزباني (٥٩) . ٦

المرزباني ، معجم (٢٣٢) . ٧

المرزباني ، معجم (٢٦١) . ٨

ونحن سبقناكم الى اليمن فاعرفوا لنا رتبة البادي هو أكذب
مشيم على آثارنا في طريقنا وبغيتكم في أن تسودوا وترهبوا^١

وذكر ان (جبل بن جوال بن صفوان بن بلال بن أصرم بن إياس بن عبد
غهم بن جحاش بن مجالة بن مازن بن ثعلبة بن سعد بن ذبيان) الشاعر الديباني
ثم الثعلبي ، كان يهودياً مع (بني قريظة) وكان قد رثي (جبي بن أخطب)
بآيات منها :

لعمرك ما لام ابن أخطب نفسه ولكنه من يخذل الله يخذل

وقال بعض الناس انها لحبي بن أخطب نفسه . وذكر انه من ذرية (العطيون
ابن عامر بن ثعلبة) (الفطيون ؟) ، وكان يهودياً فأسلم ، وهو القائل لما فتح
النبي خيبر :

رمت نطاة من النبي بفيلق شهباء ذات مناقب وفقار

وذكر انه هو القائل :

ألا يا سعد سعد بني معاذ لما فعلت قريظة والنضير
تركتم قدركم لا شيء فيها وقدر القوم حامية تفور

وزاد المرزباني فيها :

ولكن لا خلود مع المنايا تخطف ثم تضمنها القبور
كأنهم غنائم يوم عيد تدبح وهي ليس لها نكير

فأجابه حسان :

تعاهد معشراً نصرروا علينا فليس لهم يلدتهم نصير
هم أوتوا الكتاب فضبعوه فهم عمي عن التوراة بور
كذبتم بالقرآن وقد أبيتهم بتصديق الذي قال النذير
وهان على سراة بني لؤي حريق بالهيرة مستطير^٢

١ رسالة الغفران (٤٤١ وما بعدها) ، (بنت الشاطيء) .

٢ الاصابة (٢٢٣/١ وما بعدها) ، (رقم ١٠٧١) .

وأورد (أبو الفرج الاصبهاني) أبيات شعر، نسبها الى شاعرة يهودية سمّاها
(سارة) القريظية ، ذكر أنها قالتها في رثاء قومها بعد أن قتل (أبو جيلة)
أشراف اليهود :

بنفسي أمة لم تغن شيئاً بلدي حُرُص تعفيها الرياح
كهول من قريظة أتلفتها سيوف الخزرجية والرماح
رزقنا والرزية ذات ثقل يمر لأهلها الماء القراح
ولو أربوا بأمرهم لجالت هنالك دونهم جأوى رداح^١

وذكر (الجاحظ) يبين نسبها لشاعرة يهودية ، قالتها في نفث الرقية والعثار، هما:

وليس لوالدة نفثها ولا قولها لابنها دعدع
تداري غراء أحواله وربك أعلم بالمصرع^٢

وقد جمع (ديلتج) أشعار يهود وتحدث عن أصحابها^٣ .

١ الاغانى (٩٦/١٩) ، ولغنتسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب (٣٤) ،
Nöldeke, Beiträge, S. 52. ff.

٢ الحيوان (٣٥٩/٦) .

٣ Delitzsch, Jüdisch — Arabische Poesien aus Vormuhammedanischer Zeit,
Lepzig, 1874.

الفصل السادس والستون بعد المئة

الشعراء النصارى

وحديثنا عن الشعر النصراني ، مستمد من الموارد الإسلامية . أما النصوص الجاهلية ، فليس فيها أي شيء عن هذا الموضوع . وأما النصوص الأعجمية ، فلم تحفل به أيضاً ، ولم تتطرق الموارد الإسلامية الى الشعر النصراني نفسه ، من حيث طبيعته ومادته ، وما امتاز به عن الشعر الوثني ، أو شعر الشعراء اليهود ، وما سنذكره عن الشعراء النصارى ، مستمد من أسماء آبائهم ومن أسمائهم التي تدل على كونهم من النصارى ومن الشعر المنسوب اليهم .

والشعراء النصارى الذين نص على نصرانيتهم أهل الأخبار ، مثل (عدي بن زيد) العبّادي ، أو لم ينص على نصرانيتهم ، وانما يفهم من شعرهم ومن مواطنهم انهم كانوا نصارى ، هم من الحضر ، من سكان القرى ومن قبائل اشتهرت بتنصرها ، وقد وجدت النصرانية سبيلها الى مواطن الحضر والأعراب فأقامت (بيعاً) وكنائس للتبشير بالنصرانية ، ولتعليم أتباعها أمور الديانة، وللإشراف على ادارة شؤونهم الدينية ، وقد كان أكثر من قام بالتبشير من غير العرب في بادئ الأمر ، من روم ومن (بني لرم) ، ثم انضم اليهم رجال دين عرب ، كانوا قد تعلموا النصرانية في المدارس ، وأظهروا فهماً ونباهة فيها، فعينوا مبشرين ومعلمين لتعليم العرب والأعراب أصول النصرانية ، ولتنشرها في جزيرة العرب ، وكان من المبشرين من ينتقل مع الأعراب ، لهم خيامهم ، يرتحلون بها من مكان الى مكان ، فعرفوا لذلك برهبان الخيام .

« وكانت تنوخ في المرتبة الأولى بين عرب البادية الذين عرفوا النصرانية قبل الإسلام بزمان طويل . وقامت جماعة تنوخ على أساس حلف عقده بنو فهم وبنو تيم اللات مع قبائل من التزاريين وغيرهم . ومن شعراء تنوخ أسد بن ناعسة التنوخي ، الذي كان معاصراً لعنزة ، وكان مولعاً بالاكثار من الألفاظ الغريبة في قصائده ، حتى كان الخليل نفسه يتشكك في تفسيرها في كتاب العين ^١ :

وقد كانت النصرانية واسعة الانتشار على عهد الرسول ، في قضاة ، وربيعة ونعيم ، وطيء ، وكان لها أتباع في القرى العربية ، وبين الأعراب ، وبواسطتهم عرف العرب شيئاً عن النصرانية وعن رجالها الذين كانوا يقيمون في البيع ، أو يسبحون في البلاد ، ويرتحلون مع الأعراب طمعاً في تنصيرهم ، وفي تعليم المنتصرين منهم أمور الدين . فقد كان بمكة فقر من التجار النصارى ، وجماعة من الرقيق الأسود والأبيض ، كانوا على النصرانية ^٢ ، وكان يثرب بعض النصارى كذلك ، وكذلك بالطائف . أما نجران ، فكانت من مراكز النصرانية المهمة في ذلك العهد ، وقد ورد أن (طلق بن علي بن طلق بن عمرو) السحيمي الحنفي ، وهو من سادة بني حنيفة باليامة ، كان نصرانياً ، فلما ذهب إلى المدينة وشاهد الرسول أسلم أمامه ، فلما أراد العودة أخبر رسول الله أن بأرضهم بيعة ، فقال له الرسول ولن معه : « إذا قلتم بلكم فاكسروا بيعتكم وابنوها مسجداً » ، فكسروا بيعتهم واتخذوها مسجداً ، ونضحوها بماء فضل طهور رسول الله ، وكانوا قد جاءوا به في اداوة ، وكان يدير البيعة راهب من طيء ، فارتحل عنهم .

وإذا صح هذا البيت المنسوب إلى حسان :

فرحت نصارى يثرب ويهودها لما توارى في الضريح الملحد ^٣

فإن فيه دلالة على وجود نصارى ويهود بالمدينة عند وفاة الرسول .

ونحن لا نستطيع في الوقت الحاضر التحدث عن مدى تغلغل النصرانية في قلوب

-
- ١ بروكلمن (١٢٤/١) .
 - ٢ الاستيعاب (٢٣١/٢) ، (حاشية على الإصابة) ، (طلق بن علي بن المنذر بن قيس) ، خليفة بن خياط ، كتاب الطبقات (٦٥) ، ابن سعد ، طبقات (٤٠٢/٥) ، أسد الغابة (٦٣/٣) .
 - ٣ ديوان حسان (٥٩) ، (مرشقلد) .

النصارى^١ العرب . ولكننا نستطيع أن نقول قياساً على ما نعرفه من أحوال الأعراب وأحوال أهل القرى ، أي الحضر ، أن النصرانية كانت أوضح وأعمق جذوراً في نفوس أهل المدر ، منها في نفوس أهل الوبر . أما الأعراب فكانت نصرانيتهم اسمية في الغالب شأنهم شأن أعراب هذا اليوم ، وأعراب كل زمان ، متدينون بدين ، ولكنهم لا يعرفون من دينهم إلا الاسم ، دينهم الصحيح ، الذي يغلب على نفوسهم هو دين الفطرة ، أعني العرف الذي ولدوا ونشأوا عليه . ولكن الرهبان ورجال الدين كانوا يتنقلون بين القبائل لتبصيرهم ، حاولوا جهدهم تعليمهم قواعد النصرانية وأصولها ، ومنها : عدم اغارة بعضهم على بعض ، والعيش بعضهم مع بعض بسلام ، حتى أنهم أثروا على بعض ساداتهم فحولهم على الزهد والدخول في الرهبة وكره الدماء ، فذكر مثلاً أنهم أثروا على (داود ابن هباله) سيد (بني سليج) ، من قضاة ، فأدخلوه في النصرانية ، وكره الدماء وبني دبراً ، فكان ينقل الطين على ظهره والماء ، فسمي اللثقي ، فنسب الدير اليه ، وأنزله الرهبان ، واعتزل الغزو الى أن أمره ملك الروم به ، فلم يجد بداً من أن يفعل^١ . وقد كانت العرب تتهم القبائل العربية المنتصرة بعدم قدرتها على القتال ، وتستهنين بها إذا ما التحمت بها في قتال .

والشعر النصراني ، شعر سهل لين بالنسبة الى شعر الشعراء الأعراب ، وقد علل علماء الشعر ذلك بكون هؤلاء الشعراء من سكنة القرى والأرياف ، ومن سكن القرية أو الريف لان لسانه ورق كلامه ، ولهذا قالوا إن في شعر شعراء القرى لا مثل أهل مكة ويثرب ليونة ، لأنهم لم يبتوا في البوادي ، ولم يقاسوا ما يقاسيه الأعراب من خشونة وشدة وضنك في الحياة ، بل عاشوا في استقرار وأمان في حياة ناعمة بالقياس الى حياة الأعراب ، ولهذا لان لسانهم ، وسهل شعرهم ، وصار من السهل على صناع الشعر ومزوريه صنع الشعر على ألسنتهم ، كالذي فعلوه من وضع شعر كثير على لسان (عدي بن زيد) العبادي النصراني ، وعلى شعر أمية بن أبي الصلت ، وهو من شعراء ثقيف ، وعلى شعر (حسان ابن ثابت) ، وهو من شعراء يثرب .

ولا يختلف الشعر النصراني عن شعر الشعراء الوثنيين بشيء ، اللهم في تطرق

١ أسماء المفتالين (المجموعة السادسة من نواذر المخطوطات) (ص ١٢٧) .

شعر (عدي بن زيد) وأضرابه الى معان دينية ، وإلى إشارات الى بعض معالم نصرانية . أما فلسفة نصرانية ، أو حديث عن التثليث أو عن العقائد النصرانية الأساسية التي تميز النصراني المتدين عن غيره ، فلا نجد لها ولا أمثالها موضعاً في هذا الشعر . نعم لقد تطرق (عدي بن زيد) ، وكذلك الأعشى الى قصص مستمد من أصول نصرانية ، كما تطرق الى أعياد نصرانية ، ولكننا نجد في شعر غيرهم إشارات الى الأديرة والكنائس والرهبان والرهبة ومصطلحات نصرانية وأشياء أخرى عرفوها من احتكاكهم بالنصارى ، ومن سمعهم شيئاً عن النصرانية من النصارى العرب ، تجعل من الصعب على الباحث أن يجد فرقاً كبيراً بين شعر الشعراء النصارى وشعر الشعراء الوثنيين . ولهذا ذهب بعض المستشرقين الى ان من الصعب التحدث عن وجود شعر نصراني عربي له ميزات امتاز بها عن الشعر الوثني قبل الاسلام^١ .

ومن النصارى (العباد) ، وهم عرب تنصروا ، ولم يكونوا من قبيلة واحدة ، وإنما كانوا من مختلف العرب . ولقطة (العباد) لقطة خصصت بنصارى الحيرة خاصة . ويذكر في الحديث المسند : أبعد الناس عن الاسلام : الروم والعباد^٢ . ويظهر ان مرد ذلك ، هو ان الروم والعباد ، كانوا أصحاب ديانة ورجال دين ومؤسسات دينية منظمة ، ومدارس ، وثقافة ، فكان من الصعب عليهم وكلهم نصارى ، نبذ دينهم والدخول في الاسلام ، لا على نحو العرب الوثنيين ، اللذين لم تكن لهم كتب دينية ، ولا منظمات دينية ، وكل ما كان عندهم عرف وعادات وتمسك بأصنام جبلوا على عبادتها ، ولهذا كان تحولهم عنها أسهل من تحول العباد عن دينهم . وفي جملة (العباد) (بنو امرئ القيس بن زيد مائة) واليههم ينسب (عدي بن زيد)^٣ .

وقد أدخل (كارلو نالينو) (أبا دؤاد) الإيادي في عداد الشعراء النصارى^٤ ،

George Graf, Geschichte der christlichen Arabischen Literatur, I, S. 32,
Siegmond Fränkel, Die Aramäischen Fremdwörter im Arabischen, Leiden,
1888, S. 267, Tor Andrae, Der Ursprung der Islams, S. 32. ff.

١ الروض الانف (٥٣/١) .
٢ سيرة ابن هشام (٥٣/١) ، (حاشية على الروض الانف) ، الروض الانف (٥٣/١) .
٣ كارلو نالينو (٨٩) .

ولكني لم أجد في شعره الى ما يشير الى تنصره ، فلعلّه أدخله في النصرانية ، لما عرف عن انتشارها بين إباد ، وهو (أبو دؤاد جارية بن الحجاج) ، ويقال : (جويرية بن الحجاج بن يحمر بن عصام بن منبّه بن حذافة بن زهر بن إباد بن نزار بن معد) ، وقيل : (حنظلة بن الشرقي) شاعر قديم من شعراء الجاهلية ، ركان وصافاً للخيل ، وأكثر أشعاره في وصفها . ذكر أهل الأخبار أن « ثلاثة كانوا يصفون الخيل لا يقاربهم أحد : طفيل ، وأبو دؤاد ، والنابعة الجعدي . فأما أبو دؤاد ، فإنه كان على خيل المنذر بن النعمان بن المنذر ، وأما طفيل فإنه كان يركبها ، وأما الجعدي فإنه سمع من الشعراء فأخذ عنهم » . وقال (أبو عبيدة) : « أبو دؤاد أوصف الناس للفرس في الجاهلية والإسلام ، وبعده طفيل الغنوي والنابعة الجعدي »^١ . وله شعر في المدح والفخر ، لكن شعره في الخيل أكثر^٢ . وبما يلفت النظر ، أن يكون أكثر شعر أبي دؤاد في وصف الخيل ، ثم يكون مدحه لقومه بأنهم (أهل البغال) . حيث ورد في شعر هو :

نشدتكم بالله يا أهل البلد هل سابق فيكم لمجد من أحد
إلا إباد بن نزار بن معد أهل البغال والقباب والمعدد
ما سامهم في الدهر ملك بعقد^٣

ولاني أشك في هذا الشعر، فأسلوبه لا يدل على أنه من أساليب شعراء الجاهلية ، ولا سيما الشطر الأول من البيت الأول ، ثم إن هذا النسب المسطور في الشطر لأول من البيت الثاني ، هو نسب ظهر في الإسلام ، وعرف في أيام الأمويين . وذكر ان (الحجاج) كان معروفاً بـ (حمران) . ولذلك قيل لأبي دؤاد : (جارية بن حمران) . وقيل له : (حارثة بن الحجاج) ، كما قيل له : (جريرة) ، و (حوثة) ، ويظهر ان مصدر هذا الاختلاف هو وقوع النساخ في أخطاء في أثناء تدوين الاسم ، فاختلط الأمر عليهم بين (جارية) و (حارثة) ،

-
- ١ السيوطي ، شرح شواهد (٣٥٩/١) ، تاج العروس (٣٤٧/٢) ، (داد) ، الاغاني (٩١/١٥) ، الخزائن (١٩٠/٤) ، المؤلف والمختلف (١١٥) ، الموشح (٧٣) ، الاغاني (٩١/١٦ وما بعدها) ، (ساسي) ، الشعر والشعراء (١٦١/١) وما بعدها ، العيني (٣٩١/٢) .
 - ٢ الاغاني (٩٥/١٥) ، غرونيادوم (٢٦٢) .
 - ٣ غرونيادوم (٣٠٢) ، وهو من الرجز ، منقول من جمهرة ابن الكلبي ، الورقة ٣١ .

وبن (جويرة) ، و (جريرة) ، و (حوثة)^١ ، وهو اختلاف طالما نجده في أسماء وفي ألقاب الأشخاص الجاهليين ، يقع بسبب التصحيف .

وهو من (بني حذافة) ، كما يظهر من شعر ينسب لطرفة ، وقد أشار (أبو دؤاد) في القصيدة الميمية التي تنسب إليه الى (حذاق) بقوله :
من رجال من الأقارب فادوا من حذاق ، هم الرؤوس الكرام^٢

وحذاق قبيلة من إباد .

وكان شاعرنا من إباد ، وقد تزوج امرأة من قبيلته ، ماتت بعد أن تركت له صبياً اسمه (دؤاد) ، فتزوج امرأة أخرى ، طلقها لأنها كانت تمقت ابنه ، وكان ابنه شاعراً ، رثى والده يوم وفاته . وقد تزوج (أبو دؤاد) امرأة أخرى هي (أم حنر) لكنها طلقته لتبديره وإسرافه ، وللخصومات التي كانت تقع بينهما^٣ . ويظهر انه ترك ابنة اسمها (دؤادة)^٤ .

وقد ذهب (بروكلمن) الى انه كان من المعاصرين للمنذر بن ماء السماء، الذي قدر وقته فيما بين حوالي (٥٠٦) و (٥٥٤) للميلاد^٥ . وذهب (فون غرونباوم) الى انه كان حياً من سنة ٤٨٠ الى حوالي (٥٤٠ - ٥٥٠) للميلاد^٦ .

وقد ورد اسم (أبو دؤاد) في شعر (طرفة) ، كما ذكره (الأسود بن يعفر) ، الشاعر نديم (النعمان بن المنذر) ، حيث يقول :

ماذا أؤمل بعد آلٍ محرق تركوا منازلهم ، وبعد إباد

أهل الخورنق والسدير وبارق والقصر ذي الشرفات من سنداد

١ « وأبو دؤاد الأيادي ، وهو حوثة بن الحارث بن الحجاج » ، يعقوبي (٢٣٣/١) ، (طبعة النجف) ، الميني (٤٤٥/٣) ، غوستاف فون غرونباوم ، دراسات في الادب العربي (ص ٢٥٥) .

٢ الشعر والشعراء (١٦٢/١) ، الخزائن (١٩١/٤) ، (يولاق) .

٣ الاغاني (٩٥/١٥ وما بعدها) ، غرونباوم ، دراسات (٢٥٨) ، الامدي ، المؤلف (١١٦) .

٤ الاغاني (٩٨/١٥ وما بعدها) ، غرونباوم ، دراسات (٢٥٨ وما بعدها) .

٥ بروكلمن (١١٨/١) .

٦ دراسات في الادب العربي (٢٥٦ وما بعدها) .

نزلوا بأنقرة يسيل^١ عليهم^٢ ماء الفرات يجيء من أطواد
أرض تخيرها لطيب مقلها^٣ كعب بن مامة وابن أم دؤاد^٤

وكعب بن مامة من إباد، وابن أم دؤاد ، هو الشاعر أبو دؤاد (أبو دؤاد)
الإبادي . و (أنقرة) موضع بالعراق على مقربة من الحيرة^١ . ويظهر من هذا
الشعر ، أن (إباداً) ، أو فرعاً منها ، نزلوا بأنقرة ، بزعامة كعب بن مامة
والشاعر أبو دؤاد .

وكان في عصر (كعب بن مامة) الإبادي ، الذي أثر بنصيبه من الماء
رفيقه (النبري) فات عطشاً ، فضرب به المثل في الجود ، وبلغه عنه شيء
فقال :

وأنا نبي تقحيم كعب إلى المنطق إن النكبة الأحمام
في نظام ما كنت فيه فلا يحزنك قول^١ ، لكل حسناء ذام
ولقد رايتني ابن عمي كعب^٢ إنه قد يروم ما لا يرام
غير ذنب بني كنانة مني ان أفارق فإني مجذام

وكان بعض الملوك أخافه ، فصار إلى بعض ملوك اليمن فأجاره فأحسن إليه ،
فضرب المثل بجار أبي دؤاد ، قال طرفة :

إني كفاني من هم^١ هممت به جار كجار الحذافي الذي انتصفا

والحذافي هو (أبو دؤاد) ، والحذافي قبيلة من إباد .

ويقال : انما أجاره الحارث بن همام بن مرة بن ذهل بن شيان ، وذلك ان
قباد سرح جيشاً إلى إباد ، فيهم الحارث بن همام ، فاستجار به قوم من إباد
فيهم أبو دؤاد ، فأجارهم .

وذكر ان جار (أبي دؤاد) هو كعب بن مامة^٢ ، وكان (أبو عبيدة)

١ الشعر والشعراء (١٧٦/١) ، (الاسود بن يعفر) .

٢ تاج المروس (٥٨٢/٢) ، (نقر) .

٣ الشعر والشعراء (١٦١/١ وما بعدها) ، الخزائنة (٤٠٨/١ وما بعدها) ،
(بولاق) .

يلذكر ان جار (أبي دؤاد) ، هو (كعب بن مامة) ، وأنشد لقيس بن زهير
ابن جذيمة في ربيعة بن قُرت :

أحاول ما أحاول ثم آوي الى جارِ كجارِ أبي دؤاد^١

ويظهر أن (قباذ) لما أرسل جيشاً على (إباد) هربت من مواطنها فأجارها
(الحارث بن همام) . وورد في رواية أن جدّاً حل بإباد ، فاضطرت بطونها
على الارتحال الى مواضع أخرى ، وكانت لهم ناقة اسمها (الزباء) ، كانوا
يتبركون بها ، فخرجت تلتبس لهم الحصب والمرعى ، حتى بركت بالحارث بن
همام ، فترلت إباد عنده ، وأجارهم^٢ .

وتذكر رواية أن (الحارث بن همام) ودى ابناً لأبي دؤاد : غرق حين
كان أبو دؤاد في جواره ، فدحسه . فحلف الحارث أنه لا يموت لأبي دؤاد
ولد ، إلا وداه ، ولا يذهب له مال إلا أخلفه عليه^٣ .

ويرى (غرونيوم) أن (أبا عبيدة) ، هو الذي صير (كعب بن مامة)
الإيادي جار (أبي دؤاد) ، وقد تابعه من جاء بعده على ذلك ، فصار (كعب)
بذلك مجير شاعرنا ، بينما هو (الحارث بن همام)^٤ . وسبب ذلك أن (كعباً)
كان قد اشتهر بالكرم والإيثار وتقديم الغريب على نفسه ، حتى أنه ضحى بنفسه
في سبيل صاحبه (النميري) حتى فضله بعض أهل الأخبار على (حاتم) الطائي
في الجود^٥ . ثم إن كعباً من إباد ، فرجما فضل بنو إباد أن يكون منهم أسخى
وأكرم رجل في العرب ، على أن يكون من غيرهم ، ولذلك افتخروا به ،
فنسبوا الجوار له ، وحذفوه من (الحارث بن همام) ، وهو من (بني شيان) .

وهناك رواية تجعل (المنذر) جاراً لأبي دؤاد ، لأنه ودى أبناء (أبي دؤاد) ،
ودى كل ابن بمائتي بعير ، حينما قتلهم (رقة بن عامر) البهراني ، وكان رقة

١ الشعر والشعراء (١٦٢/١) .

٢ غرونيوم ، دراسات (٢٥٩) .

٣ المصدر نفسه (٢٥٩) .

٤ غرونيوم ، دراسات (٢٥٩ وما بعدها) .

٥ البخلاء ، للجاحظ (١٥٨ ، ٢١٨ ، ٣٨٢) ، ثمار القلوب (٩٨ وما بعدها) ،

المحاسن والأضداد (٥٤) ، الحيوان (٣٧/٢) ، البيان والتبيين (١١٢/١) .

في جوار المنلر^١ . وذكر (البغدادى) ، ان أحد الملوك أحسن الى (أبي دؤاد) وأجاره ، فضرب المثل بجار (أبي دؤاد) ، ولم يذكر اسم الملك . قال طرفة :
إني كفاني من أمر همت به جار كجار الخدائي الذي انتصفاً^٢

وقد ذكر (البغدادى) في الجزء الأول من الخزانة في تفسير بيت قيس بن زهير بن جديمة :

أطوف ما أطوف ثم آوي الى جار كجار أبي دواد

« وأبو دواد ، هو أبو دواد الإيادي الشاعر المشهور ، وجاره كعب بن مامة الإيادي ، الجواد المشهور ، وقيل : بل هو الحارث بن همام بن مرة ، وكان أسر أبا دواد ناساً من قومه ، فأطلقهم وأكرم أبا دواد وأجاره فلدحه أبو دواد وأعطاه ، وحلف أن لا يذهب له شيء إلا أخلفه له . ويقال ان ولد أبي دواد لعب مع صبيان في غدير فغمسوه فأت ، فقال الحارث : لا يبقى صبي في الحبي إلا غرق . فودى ابنه بديات كثيرة »^٣ .

ونسب بعض رواة الشعر اليه القصيدة التي أولها :

أعني على برق أراه وميض يضيء حياً في شماريخ بيض

وهي قصيدة تنسب أيضاً الى (امرى القيس)^٤ .

ونسب (الأصمعي) له قوله :

ويصيح أحياناً كما استمع المضل دعاء ناشد^٥

وقد تمثل بشعره ، وبما تمثل به قوله :

أكل امرئ تحسب من امرأ وناراً تحرق بالليل نارا

١ الاغانى (٩٩/١٥) ، غرونبوم (٢٦٠) .

٢ الخزانة (١٩١/٤) .

٣ الخزانة (٤٠٨/١) ، (بولاق) .

٤ السيوطي ، شرح شواهد (٤٠٣/١) .

٥ رسالة الغفران (٤٠٩) .

وقوله :

الماء يجري ولا نظام له لو وجد الماء مخرقاً خرقة^١

ومن شعره :

ترى جارنا آمناً وسطنا يروح بعقد وثيق السبب
إذا ما عقدنا له ذمة شددنا العناج وعقد الكرب

أخله الخطيئة ، فقال :

قوم إذا عقدوا عقداً لجارهم شدوا العناج وشدوا فوقه الكربا

وكان الخطيئة من المقلدين لشعره . قيل له من أشعر الناس ؟ فقال : الذي يقول :

لا أعد الإقتارَ عذماً ولكن فقدت من قد رزئته الأعدام

من قصيدة تعدّ من أجود شعره^٢ .

ومن شعره قطعة هجا فيها رجلاً اسمه (امرؤ القيس بن أروى) ، إذ يقول فيه :

امراً القيس بن أروى مؤلياً ان رأني لأبوان^٣ بسبد
قلت بجلاً، قلت قولاً كاذباً إنما يمتعني سيفي ويد^٤

وقد وضع (غرونبوم) قبل هذين البيتين : بيتاً هو :

وفتر حسن أوجههم من إباد بن نزار بن معد^٥

١ الشعر والشعراء (١٦٣/١) ، (الثقافة)

٢ الشعر والشعراء (١٦٢/١) ، (الثقافة)

٣ اللسان (٢٠٢/٣) ، (بحرا) ، (سبد) ، (بجرا) ، تاج العروس (٣٧٠/٢) ،

(سبد) . وقد ورد البيتان على هذه الصورة : « قال أبو دؤاد الأيادي :

امرو القيس بن أروى مقسم ان رأني لأبوان بفند

قلت بجلاً قلت قولاً كاذباً إنما يمتعني سيفي ويد ،

تاج العروس (٢٣١/٧) ، (بجل) .

٤ غرونبوم ، دراسات (٣٠٥) .

وقد ورد في (اللسان) وفي (التاج) على هذه الصورة :

في فتو حسن أوجههم من إيراد بن نزار بن مضر^١

وعندي ان هذا البيت من الشعر المصنوع ، لأن هذا النسب ، لم يعرف إلا في الاسلام ، ولا يوجد دليل يثبت وقوف الجاهليين عليه . وهو على الصورة التي ورد عليها في لسان العرب وفي تاج العروس خطأ ، لأن نزاراً ليس ابن مضر في عرف أهل الأنساب ، كما سبق أن تحدثت عن ذلك في باب العرب المتعربة .

وقد نسب هذا البيت الى (الحارث بن دوس الإيادي)^٢ .

ونجد الشاعر يرثي رجلاً اسمه (أبو بجاد) ، نعتة بـ (أبي الأضياف في السنة الجهاد) ، وهذا الوصف هو من الأوصاف الدالة على غاية الكرم ، إذ يلجأ الناس اليه في أيام الجوع وانحباس المطر وحصول القحط ، حيث يجب أن يخل الإنسان بماله من الإسراف في اتقائه ، أما هو فلكرمه لا يحفل بسنة المحل سنة الجهاد ، بل يعطي وينفق على كل من يلجأ اليه مستجيراً . ولا نعلم من خبر (أبي بجاد) هذا شيئاً يذكر^٣ . وقد ورد في (تاج العروس) : « وأبو الجهاد شاعر سمي ببيت قاله :

فويل الركب إذ آبوا جيعاً ولا يدرون ما تحت الجهاد^٤

ولكن هل توجد صلة بين (أبي بجاد) الممدوح ، وبين (أبي الجهاد) الشاعر ؟ وجوابي : لا .

وقد أشار (أبو ذؤاد) الى قتال وقع بين (بني شهران) وبين قوم آخرين لم يشر الى اسمهم ، وذلك في هذا البيت :

وَلَتَ رجال بني شهران تتبعها خضراء يرمونها بالليل من شمم^٥

١ اللسان (٧٧/٣) ، (أيد) ، تاج العروس (٢/٢٩٣) ، (آد) .

٢ العملة (٧٩/٢) .

٣ تاج العروس (٩٩/٥) ، (هض) ، اللسان (١١٦/٩) ، (هض) .

٤ تاج العروس (٢/٢٩٤) ، (بجد) .

٥ غرونبوم ، دراسات (٥٦) .

وينسب رواة الشعر له شعراً زعم أنه قال فيه :

ضربنا على تُبع جزية جياذ البرود وخرج الذهب
وولى أبو كرب هارباً وكان جباناً كثير الكذب
واتبعته فهوى للجين وكان العزيز لها من غلب^١

وتبع ، لقب يطلقه العرب على ملك حمير ، فيقولون تبابعة اليمن ، يريدون ملوك اليمن . والتبع (أبو كرب) هو الملك : (أبو كرب أسعد) وهو ابن الملك (ملك كرب يهأمن) ، الذي حكم من سنة (٣٨٥) حتى السنة (٤٢٠) للميلاد^٢ . ولكن كيف ضربت (إياد) الجزية على (تبع) ، وكيف وصل الشاعر الى اليمن البعيدة عن إياد ؟ قد يقال إنه أشار الى غزو قام به أحد ملوك الحيرة على (أبي كرب أسعد) ، تبع اليمن ، انتصر فيه ملك الحيرة على التبع ، وكان هو وقومه قد ساهموا فيه ، ولكننا لا نستطيع التأكد من ذلك ، إذ من يثبت لنا أن هذا الشعر هو شعر صحيح ، لم تصنعه العدنانية على لسانه في الإسلام حتى نصدق بصحة الخبر !

ونجد في شعره إشارة الى (قباذ) ، والى (الحضر) ، إذ يقول :

أين ذو التاج والسريّر قباذ خبته الأيام فباذّ احدى الحُبُون
ولقد عاش آمناً للدواهي ذا عناد وجوهر مخزون
وأرى الموت قد تدلى من الحضر على ربّ أهله الساطرون
صرعته الأيام من بعد ملكٍ ونعيم وجوهر مكنون
ملك الحضر والفرات فما دجلة شرقاً فالطور من عابدين
ولقد كان في كتائب خُضر وبلاطٍ يشاد بالآجرون^٣

و (قباذ) ملك من الساسانيين حكم من سنة (٤٨٣ - ٥٣١) بعد الميلاد ، وأما (الساطرون) فقد تحدثت عنه في الجزء الثاني من هذا الكتاب^٤ .

-
- ١ غرونبوم ، دراسات (٢٩١) .
 - ٢ راجع الجزء الثاني من هذا الكتاب (ص ٥٧٤) .
 - ٣ حماسة البحترى (٨٧) ، تاج العروس (٢ / ٢٦١) ، (٩ / ٢١٤) ، الامالي ، للشجري (١٠٠ / ٣٦١) ، غرونبوم ، دراسات (٣٤٥) .
 - ٤ (٦١٥ وما بعدها) .

ولدينا قطعة من الشعر نسبت اليه ، وردت فيها أسماء مواضع مثل : (هضبة ذي الأسناد) ، و (السيلحين) ، و (بركة الأنجاد) ، ثم أشار الى معركة وقعت بين (إباد) قومه وبين (تنوخ) انتصفت فيها (إباد) من تنوخ ، إذ يقول :

ولقد صَبَنَ على تنوخِ صَبَّةً فجزينهم يوماً بيوم قحادا

وكان علماء العربية لا يستشهدون بشعر (أبي ذؤاد) ولا بشعر (عدي بن زيد العبادي) ، لأن ألفاظها ليست بنجدية ^٢ .

ذكر (الجاحظ) ان (أبا إياس) النصري ، وكان أنسب الناس ، كان يقول : « كانوا يقولون : أشعر العرب أبو دواد الإيادي ، وعدي بن زيد العبادي » ^٣ . ويروي (الأصمعي) ان الرواة لا تروي شعر أبي ذؤاد ولا عدي بن زيد ، لأن ألفاظها ليست بنجدية ، ولمخالفتها مذاهب الشعراء ^٤ ، ولم يكن (الأصمعي) ممن يهوى اليه كثيراً ، بدليل انه جعل شعره صالحاً غير انه لم يجعله في عداد فحول الشعراء ^٥ .

وورد في الأخبار ان (الخطيئة) ، كان يرى انه أشعر الناس . فقد ورد ان (سعيد بن العاص) سأل (الخطيئة) : أي الناس أشعر ؟ قال : الذي يقول :

لا أعد الإفتار عُدماً ولكن فقد من قد رزته الأيام

وقائل هذا البيت ، هو أبو دواد الإيادي ^٦ .

وكان (أبو الأسود) الدؤلي ، وهو من الخدّاق العالمين بالشعر ، يتعصب له ^٧.

-
- ١ غرونبوم (٣١٠ وما بعدها) ، وقد أشار الى الموارد التي أخذ منها تلك الابيات
 - ٢ الشعر والشعراء (١٢٠) ، الاغاني (٩١/١٦ وما بعدها) ، الموشح ، للمرزباني (٧٣) ، الجرجاني ، الوساطة (٤٧) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١١٩/١) ، (١٢٦) ، الشعر والشعراء (١٦٢/١) ، (دار الثقافة) .
 - ٣ البيان والتبيين (٣٢٣/١) .
 - ٤ الاغاني (٩٧/١٥) ، الخزانة (١٩١/٤) ، الموشح (٧٣) .
 - ٥ غرونبوم (٢٦١) .
 - ٦ رسالة الغفران (٥٧٥) ، السيوطي ، شرح شواهد (٣٦٠/١) .
 - ٧ غرونبوم (٢٦١) .

وكانت (إيراد) تفخر بشاعرها (أبي دؤاد) ، وتقول : منّا أجود
العرب : كعب بن مامة ، ومنّا أشعر الناس : أبو دؤاد ، ومنّا أنكح الناس :
ابن الغزّال . وقد ادعت إيراد أن الشعر بدأ بها ، لأنه بدأ بأبي دؤاد^١ .

وقد استشهد علماء شواهد النحو بيت له ، هو :

ربما الجمال المزيل فيهم وعناجيج بينهن المهار

وقد ذكر السيوطي أنه من قصيدة طويلة عدتها ثمانية وسبعون بيتاً^٢ .

وقد عدّه بعض أهل الأخبار في الشعراء المقلين^٣ . ونجد له شواهد في الاتعاض
والأمثال وفي الشعر الجيد وفي أمور النحو ، وفي البديع^٤ . ولدينا أحد عشر
مطلعاً لإحدى عشرة قصيدة من قصائد أبي دؤاد وكلها مصرّعة^٥ . ويرى
(غرونبوم) قلة ما في شعر (أبي دؤاد) من الإقواء ، فلم يقف في شعره إلا
على اقواءين ، ووجد بيتين ، أحدهما من الرجز والآخر من الوافر ، يبدو فيها
شيء من علم الاستواء . وله مزايا خاصة استعملها في تفعيلات الخفيف . وأرى
أن التشعيت الذي لاحظته (العيني) في الأصمعية (٧٢) ، لا يعد خطأ ، بل هو
مظهر من مظاهر التطور الفني في هذا الوزن ، مظهر استنكر أو نسي مع الزمن
حين ظهر علم العروض ، بعد حوالي قرنين من وفاة أبي دؤاد^٦ .

وقد شرح ديوان (أبي دؤاد) العالم (ابن السكيت) ، وقد نقل منه
(البغدادى) في الخزانة^٧ . وقد ذكر (البغدادى) أن (لأبي دؤاد) ديواناً
وقف عليه وأخذ منه ، غير أنه لم يذكر اسم جامعه^٨ . وفي الشعر المنسوب إليه

-
- ١ السيوطي ، شرح شواهد (٣٥٩/١) ، الاغانى (٩٧/١٥ وما بعدها) .
 - ٢ المزهري (٤٧٧/٢) ، (تنقل الشعر في القبائل) .
 - ٣ الخزانة (١٨٩/٤ وما بعدها) ، (بولاق) .
 - ٤ المزهري (٤٨٦/٢) ، (المقلون من الشعراء) .
 - ٥ راجع البيت الخامس عشر من الأصمعية ٢٩ ، والبيت الثالث من القطعة (٤٨) ،
غرونبوم (٢٦٢) ، الباقلائي ، اعجاز (٧٩) ، التنويري (١١٢/٧) .
 - ٦ غرونبوم (٢٦٦) .
 - ٧ غرونبوم (٢٦٧ وما بعدها) .
 - ٨ الخزانة (١٩٠/٤) .
 - ٩ الخزانة (٩/١) .

شعر مصنوع ، وقد 'ذكر ان (خلف الأحمر) صنع على أبي دؤاد أربعين قصيدة^١ . ونجد في الشعر الذي جمعه (غرونيباوم) لأبي دؤاد شعراً لا يصح انه من شعره ، كما ان في شعره ما نسب لغيره ، ومنهم شعراء من إياد ، مثل (أبي المنذر) الإيادي^٢ .

ومن شعراء (إياد) : (لقيط بن يعمر) ، وقيل (معمر) الإيادي . وإياد من قبائل (نزار) ، ومن أكثر قبائل هذا الحلف عدداً ، قيل انهم كانوا لفاحاً لا يؤدون خراجاً ، وهم أول معدي خرج من تهامة ، فقتلوا السواد ، وغلبوا على ما بين البحرين الى (سنداد) و (الخورنق) . وكانوا أغاروا على أموال لأنوشروان فأخلوها ، فجهز اليهم الجيوش ، فهزمهم مرة بعد مرة ، ثم ان إياداً ارتحلوا حتى نزلوا الجزيرة ، فوجه اليهم كسرى بعد ذلك ستين ألفاً في السلاح ، وكان (لقيط) متخلفاً عنهم بالحيرة ، فكذب اليهم :

سلام في الصحيفة من لقيط الى من بالجزيرة من إياد
بأن الليث كسرى قد أتاكم فلا يشغلکم سوق النقاد
أتاكم منهم ستون ألفاً يزجون الكتاب كالجراد

فاستعدت إياد لمحاربة جنود كسرى ، ثم التقوا ، فاقتلوا قتلاً شديداً ، أصيب فيه من الفريقين ، ورجعت عنهم الخيل ، ثم اختلفوا بعد ذلك ، فلحققت فرقة بالشام ، وفرقة رجعت الى السواد ، وأقامت فرقة بالجزيرة . ونسبوا له قصيدة أخرى ، ذكروا انه نظمها في هذه القصيدة^٣ . من جملة ما ورد فيها :

قوموا قياماً على أمشاط أرجلكم ثم افزعوا قد ينال الأمر من فزعا
هيهات ما زالت الأموال من أبد لأهلها إن اصبوا مرة تبعاً

ومنها قوله في اختيار الرئيس وتدبير الحرب والانصياع للقائد :

وقلدوا أمرکم لله درکم رجب الذراع بأمر الحرب مضطلماً

١ غرونيباوم (٢٦٠) ، الموشح (٢٥٢) .

٢ غرونيباوم (٢٨١ وما بعدها) .

٣ الشعر والشعراء (١٢٩/١ وما بعدها) ، الاغانى (٢٣/٢٠) ، بروكلمن (١١٢/١) .

لا مترفاً إن رخاء العيش ساعده ولا إذا عض مكروه به جزعا
ما زال يحلب هذا الدهر أشطره يكون مُتبعاً طوراً ومُتبعاً
حتى استمرت على شذر مريرته مستحکم السن لا قحجاً ولا ضرعاً^١

وأنا إذ أذكر (لقيط بن يعمر) في هذا الفصل ، فلا أريد بذلك اثبات انه كان من الشعراء النصارى ، لأنني لا أملك نصاً بذلك ، إنما أدخلته هنا لمجرد أنه شاعر من شعراء إيراد ، كما أدخلت (أبا دؤاد) الإيادي فيه لما ذهب (ناليانو) الى أنه من النصارى ، وقد كانت النصرانية متفشية في إيراد وتغلب ، وقبائل أخرى من قبائل العراق وبلاد الشام ، والبادية التي بينهما .

أما (عدي بن زيد) العبادي ، فهو نصراني من غير شك ، فالعباديون ، نصارى ، وقد أطلقت اللفظة عند العرب على النصارى ، نصارى الحيرة ، كما نص أهل الأخبار على تنصره . وقد كان شعره سهلاً ليناً ، بعيداً عن شعر شعراء نجد ، قال (الأصمعي) : « كانت الرواة لا تروي شعر أبي دؤاد ولا عدي بن زيد لمخالفتها مذاهب الشعراء »^٢ أو « لأن ألفاظها ليست بنجدية »^٣ . وقد روى (الجواليقي) له شعراً في كتابه (المعرب) ، وهو كتاب ألفه في المعربات ، وفي استشهاده بشعره دلالة على تأثيره بالآرامية وبالفارسية التي درسها في (الكتاب)^٤ .

وإذا أخذنا بمذهب (الأصمعي) من ان الرواة كانت لا تروي شعر أبي دؤاد ولا عدي بن زيد ، لمخالفتها مذاهب الشعراء ، وما ذكره غيره لأن ألفاظها ليست بنجدية ، ولأن عدياً سكن الريف ، فلان شعره وبان ذلك على لسانه ، ولأنه تأثر بلغة أهل الحيرة ، واستعمل ألفاظهم ، وما شاكل ذلك من حجج ، وجب علينا رفض الاستشهاد بشعر (أمية بن أبي الصلت) كذلك ، فقد كان من أهل قرية ، وقد استعمل في شعره ألفاظاً لم تعرفها العرب ، وقرأ الكتب ، كما يجب لإدخال (الأعشى) معها أيضاً ، لأنه خالط أهل الريف ، واتصل بالحضر وبالأعاجم ، واستعمل في شعره ألفاظاً معربة ، كما اختلف مذهبه في الشعر عن

- ١ بلوغ العرب (١١٤/٣) وما بعدها ، الشعر والشعراء (١٣٠/١) .
- ٢ الاغانى (١٨/٢) ، (٩١/١٥) وما بعدها .
- ٣ الشعر والشعراء (١٦٢/١) .
- ٤ كارلو ناليانو ، تاريخ الاداب العربية (٩٠) .

مذهب شعراء البادية الأعراب ، فضلاً عن كونه من أهل اليمامة ، وأهل اليمامة
من اختلط لسانهم بلسان أهل اليمن ، وتأثر بهم .

ويخالف شعر (عدي) شعر شعراء نجد في ابتعاده عن الأعراب الطويلة
وميله إلى الأعراب القصيرة ، كما يخالفهم في أسلوب خمرياته ، فهو في وصفه
الخمر قريب من أسلوب (الأعشى) في الخمرات . وله أوصاف بديعة للخمر ،
تعبّر عن معانٍ حضريّة ، نابعة من طبيعة القرى والريف ، وبهذا الوصف يختلف
عن وصف امرئ القيس أو غيره من الشعراء للخمر . كما امتاز بوصفه القيّان
ومجالس الشرب ، وما كانت تولده له من نشوة وطرب ، واتخذ (عدي) من
الخمر ، فلسفة دفعته إلى الزهد ونيل الغرور ، لأن الدنيا زائلة ، وكل شيء
فيها لا بد وأن ينتهي إلى زوال . وهو شعر انبثق من طبيعة (عدي بن زيد)
ثم من الأحوال التي مرت عليه ، والتي انتهت به إلى السجن ، بعد أن وصل
أعلى ما يصل إليه إنسان في زمانه وفي مكانه .

واتخذ (عدي) من القصص القديم عبراً وجهها من سجنه إلى (النعمان) وإلى
الشامتين به ، الحاسدين له ، الذين كانوا سبب نكبته ، بأن قال :

أبها الشامت المعير بالدهـ	ر أنت المبرأ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من الأيـ	سام بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المتون خلدن أم من	ذا عليه من أن يضام خفيـ
أين كسرى كسرى الملوك أنوشـ	وان أين قبله سابور
وبنو الأصغر الكرام ملوك الـ	روم لم يبق منهم مذكور
وأخو الحضرة إذ بناه وإذ دجـ	سلة نجى إليه والخار
شاده مرمرأ وجله كلـ	سأ قلطير في ذراه وكور
لم يهبه ريب المتون فياد الـ	ملك عنه فياه مهجور
وتذكر رب الخورنق إذ شـ	سرف يوماً وللهدى تفكير
سره ماله وكثرة ما يمـ	ملك والبحر معرضاً والسدير
فارعى قلبه فقال : وما غبـ	سطة حي إلى الممات يصير
ثم بعد الفلاح والملك والأـ	مة وارثهم هناك القبور
ثم أضحو كأهم ورق جـ	سف فألوت به الصبأ والدبور

وله شعر آخر أوله :

أتعرف رسم الدار من أم معبد نعم ، فرماك الشوق قبل التجلد

قالى فيه :

أعاذل ما يلديك أن منيتي الى ساعة في اليوم أو في ضحى الغد
ذريني فلاني انما لي ما مضى أمامي من مالي إذا خف عودي
وحت لميقات إلي منيتي وغودرت قد وسدت أو لم أوسدا

وهو شعر نبع من واقع حاله الذي صار اليه ، فهو لا يلدي متى وفي أية ساعة ستأتيه منيته . ومن زج في سجن مثل سجنه ، وصار في حال مثل حاله ، يكون قلقاً لا يلدي ما الذي سيكون مصيره ، فهو شعر يعبر عن شعور انساني يتتاب الانسان في مثل هذه المواقف ، ليس له علاقة بنصرانية أو بدين .

والشعر المذكور إن صح انه من شعر (عدي) ، وانه غير مصنوع ولا معمول عليه ، يكون قد قدم لنا قصصاً قديماً من قصص أهل الجاهلية ، وحكايات كانوا يروونها من حكايات التأريخ ، ويكون بذلك شاهداً على ان أهل الجيرة ، والمتقنين منهم بصورة خاصة كانوا يعرفون تأريخ الماضين ، وقد وقفوا على تأريخ الفرس وتأريخ الروم ، والحضر ، وتأريخ غيرهم من شعوب معاصرة لهم ، ومن شعوب غابرة ، وردت أخبارها في الكتب القديمة ، ولا سيما في الكتب المقدسة وفي كتب التواريخ . فنحن نجد له قصيدة أشار فيها الى خطيئة آدم ، وهذه الخطيئة تلعب دوراً خطيراً في كل الأديان السهاوية المعروفة التي أقرت بالكتب المقدسة ، وقد صاغ قصتها على هذا النحو :

قضى لسته أيام خليقته وكان آخرها أن صور الرجل
دعاه آدم صوتاً فاستجاب له بنفخة الروح في الجسم الذي جبلا
نمت أورثه الفردوس يعمرها وزوجه صنعة من ضلعه جبلا
لم ينه ربه عن غير واحدة من شجر طيب : أن شم أو أكلا
فكانت الحية الرقشاء إذ خلقت كما ترى ناقة في الخلق أو جبلا
فعمدا التي عن أكلها نهيا بأمر حواء لم تأخذ له الدغلا
كلاهما خايط إذ بزأ لبوسها من ورق التين ثوباً لم يكن غزلا

فلاطمها الله إذ أغرت خليفته طول الليالي ولم يجعل لها أجلا
تمشي على بطنها في الدهر ما عميرت^١ والترب تأكله حزناً وإن سهلاً^٢
فاتعبا أبوانا في حياتهما وأوجدا الجوع والأوصاب والعلا
وأوتيا الملك والانجيل نقرأه نشفى بحكمته أحلامنا عللا
من غير ما حاجة إلا ليجعلنا فوق البرية أرباباً كما فعلا^٣

والشعر هذا مذكور في كتاب (الحيوان) للجاحظ ، وفي ذكره له ، دلالة
على أنه قد كان معروفاً في أيامه ، وهو يستند على ما ورد في (سفر التكوين)
السفر الأول من أسفار التوراة ، وفيه قصة الخليفة ، ونجد قصة (الحية) في
في شعر (أمية بن أبي الصلت) ، حيث يقول :

كلدي الأفعى تربيتها لديه وذئ الجني أرسلها تساب
فلا رب البرية يأمنها ولا الجني أصبح يستاب

وقد دون هذين البيتين (الجاحظ) كذلك في كتابه : (الحيوان) ، مما
يدل على أنها كانتا معروفين ، وهما من قصيدة ذكرها الجاحظ قبلها في رطوبة
الحجارة ، وأن كل شيء قد كان ينطق ، ثم عن مناداة الديك الغراب ، واشترط
الحمامة على نوح^٤ :

وقصة (عدي) قصة أوضح وأقرب إلى الأصل المذكور في الاصحاحات الثلاثة
الأولى من سفر التكوين ، من القصة المذكورة في الشعر المنسوب إلى (أمية) .
يظهر أن ناظمها قد صاغها عن مطالعة وعن إلام عام بها . فهي في الواقع قصيدة
شملت قصة دينية ، ضمت اسطورة الخلق كما جاءت في الاصحاحات المذكورة ،
مع بعض (الرنوش) والإصلاحات التي اقتضتها طبيعة نظم الشعر ، وقد تلخصها
تلخيصاً حسناً قريباً من الأصل ، يدل على إحاطة به . ولعلته من وضع شاعر
أحب صوغ هذه القصة في شعر ، فنظمها ونسبها إلى (عدي بن زيد) .

وقد ظل العباد يتغنون بجمريات وبشعر (عدي) أمداً طويلاً بعد وفاته . وقد
كان (القاسم بن الطويل) العبادي ، أحد ندماء (الوليد) الثاني ممن يروون

١ الحيوان (١٩٧/٤) وما بعدها .

٢ الحيوان (١٩٧/٤) .

شعره ، وجنّده الى الخليفة ، الذي كان شاعراً يحب الخمر ، وينظم الشعر فيها ،
بما صار باب من أبواب الخمريات في الشعر الإسلامي^١ . ومن شعره قوله :

أيها القلب تعلل بددن إنّ همي في سماع واذن^٢

ومن الشعراء النصارى الذين نصّ أهل الأخبار على تنصرهم : (موسى بن جابر بن أرقم بن سلمة بن عبيد) الحنفي اليامي ، المعروف بـ (أزيق اليامة) ، وبابن ليلي ، وهي أمه ، وكان نصرانياً . قال عنه (المرزباني) انه شاعر كثير الشعر ، وقد أورد له نقلاً من شعره^٣ ، ويمتاز ما ذكره بالبساطة والسهولة والليونة وهو يختلف بأسلوبه عن شعر الأعراب .

أما (الأعشى) ، وقد تحدثت عنه ، فهو من اليامة ، وقد كان معظم أهل اليامة على النصرانية عند ظهور الاسلام ، ولذلك فقد يكون على النصرانية ، غير اننا لا نستطيع أن نأتي بدليل مقبول يثبت تنصره ، وقد رأينا ان أهل الأخبار كانوا قد جعلوه في عداد (القدرية) و (أهل العدل) ، زعموا انه أخذها من (الحيرة) ، وكانوا عبّاداً ، وكان يزورهم يشرب الخمر عندهم ، كما كان راويته (يحيى بن متى) نصرانياً ، ولكن النصرانية لا تعني القدرية ، وكون راويته نصرانياً ، لا يعني انه كان نفسه نصرانياً ، وأما ما جاء في شعره من قصص وأمر معروفة عند النصارى ، فلا يكون دليلاً على تنصره ، فقد وردت مثل هذه الأمور في شعر غيره ، ولم ينص أحد على تنصرهم ، ثم ان شعره لا ينم على تعمق في نصرانية^٤ ، لكنني لا أريد أن أثبت انه كان وثنياً ، فوثنية الأعشى أو نصرانيته تخصه وحده ، وأنا لا أريد أن أنقص عدد النصارى ، وأن أزيد في عدد الوثنيين ، وانما هو رأي واستنتاج ليس غير .

ومن شعره الذي تطرق فيه الى أمور نصرانية قوله :

فأأيلى على هيكَل بناه وصكّب فيه وصاراً

- ١ بروكلمن (١٢٥/١) .
- ٢ أمالي المرتضى (٣٣/١) .
- ٣ المعجم (٢٨٥) ، (فراج) ، شرح الحماسة ، للمرزوقي (٣٢٦) ، (عبد السلام محمد هارون) ، الاغانى (١١٣/١٠) ، الخزانة (١٢٦/١) .
- ٤ G. Graf, Geschichte der Christlichen Arabischen Literatur, I, S. 33.

يرأوح من صلوات الملك طوراً سُجوداً وطوراً جُوراً
بأعظم منك بقي في الحساب اذا النسمات تفضن الغبارا

وهي من قصيدة مدح فيها (قيس بن معد يكرب) الكندي . وقد اتخذ (المعري)
هذا الشعر دليلاً على إيمان الأعشى بالله وبالحساب وبالبعث ، مما استوجب إدخاله
في الجنة^١ .

وهناك أفكار نصرانية نجدها في شعر (النابغة) وفي شعر (زهير) ، و (ليبيد) ،
غير أننا لا نستطيع أن نقول إنهم كانوا نصارى ، لوجود هذه الأفكار في شعرهم ،
فن الجائر أن يكون ورودها في شعرهم نتيجة لاختلاطهم بالنصارى ، وقد كانوا
يكثر من الذهاب الى الحيرة ، لمدح ملوكها طمعاً في نيل عطاياهم ، فاحتكوا
بذلك بنصارها ، وورد قصص نصراني في شعر أو نثر لا يدل حتماً على تنصر
الناثر أو الشاعر ، كما أن وقوف شخص على دين من الأديان ، لا يدل حتماً
على اعتناقه للملك الدين . ومن هنا أخطأ الأب (لويس شيخو) في دعواه بتنصر
أكثر الشعراء الجاهليين^٢ .

ونجد في شعر امرئ القيس إشارات الى معالم نصرانية، مثل الرهبان وصلواتهم
وسهرهم ، والى مصاييحهم ، مثل قوله :

نظرت اليها والنجوم كأنها مصاييح رهبان تشب لقفال^٣

ولكننا لا نستطيع إثبات أنه كان من النصارى .

و (حاتم الطائي) من شعراء طيء ، وقد مات قبل الاسلام ، وقبر
ب (عوارض) جبل فيه قبره ببلاد طيء^٤ . وهو (حاتم بن عبدالله بن سعد
ابن الحشرج بن امرئ القيس بن عدي) ، ويكنى (أبا سفانة) بابتة ، وابنه
(عدي بن حاتم) من الصحابة . واليه ينسب المثل « لو غير ذات سوار لطمتني » .
وسبب قوله اياه - كما يقول ذلك الرواة - ان حاتم الطائي كان أسيراً في (عترة) ،

١ رسالة الغفران (١٨١) .

٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٢٧/١) ، (الطبعة الثانية) .

٣ الخزائن (٣٣/١) ، (بولاق) .

٤ تاج العروس (٤٨/٥) ، (عرض) ، الحيوان (٢٢٩/١) .

فقال له امرأة يوماً : قم فافصد لنا هذه الناقة ! وكان الفصد عندهم ان يقطع عرقاً من عروق الناقة ، ثم يجمع الدم فيشوى . فقام حاتم الى الناقة فنحرها ، فلطمته المرأة . فقال حاتم : « لو غير ذات سوار لطمتني » فذهب قوله مثلاً^١ . وروي أيضاً انه قال : « هذا فصلي » ، يريد انه لا يصنع إلا ما تصنع الكرام . وقد نسب هذا المثل لكعب بن مامة ، وذلك انه كان أسيراً في عترة فأمرته أم مترله أن يفصد لها ناقة ، فنحرها ، فلامته على نحره إياها ، فقال : هكذا فصلي^٢ .

ويلاحظ ان (الجاحظ) وغيره يقدمون (كعب بن مامة) على حاتم الطائي في الجود ، « لأن كعباً بذل نفسه في إعطية الكرم وبذل المجهود فساوى حاتماً من هذا الوجه ، وبأينه يبذل المهجة »^٣ . كما نلاحظ ان بغض أخبار الجود المنسوبة الى (حاتم) تنسب الى (كعب بن مامة) كالذي رأيناه في تفسير المثل : « هكذا فصلي » .

ولما بلغ حاتم قول المتلمس :

قليل المسال يصلحه فيبقى ولا يبقى الكثير مع الفساد
وحفظ المال خير من فناء وعسف في البلاد بغير زاد

قال قطع الله لسانه ، حمل الناس على البخل فهلا قال :

فلا الجود يفني المال قبل ذهابه ولا البخل في مال الشيخ يزيد
فلا تلتمس مالاً بعيش مقرر لكل غد رزق يعود جديداً
ألم تر أن الرزق غادر ورائح وأن الذي أعطاك سوف يعيد

وذكر أن (زيد الخيل) عبر حاتماً الطائي في خروجه من طيء ومن حرب

-
- ١ السيوطي ، شرح شواهد (٢٠٩/١) ، الخزانة (٤٩٤/١) ، لاغاني (٩٦/١٦) ، الشعر والشعراء (١٦٤/١) وما بعدها ، الامالي ، للقالبي (١٥٤/٣) وما بعدها ، بروكلمن (١١١/١) وما بعدها .
 - ٢ الميداني ، أمثال (٣١٧/٢) ، الحيوان (٢٧٤/٤) ، الاغاني (١٠٢/١٦) ، الحيوان (٣٣/٥) ، البخلاء (١٥٨ ، ٣٨٢ وما بعدها) ، ثمار القلوب (٩٨ وما بعدها) .
 - ٣ الحيوان (١٠٧/٢) وما بعدها .
 - ٤ السيوطي ، شرح شواهد (٢٠٩/١) ، وتجده بعض الاختلاف في الروايات الاخرى ، المحاسن والاضداد (٤١) .

الفساد التي وقعت بين جديلة والغوث الى (بني بلر) حيث يقول :

وفرّ من الحرب العوان ولم يكن بها حاتم طبيباً ولا متطبياً
ورب حصناً بعد أن كان آيياً أبوة حصن فاستقال واعتباً
أقم في بني بلر ولا ما يهنا إذا ما تقضت حربنا أن تطرباً^١

وقد أسره (ثوب بن شحمة) العنبري ، وكان شريفاً في قومه ، وكان يقال له (مجير الطير) ، لأنه أجار الطير في أرضه ، فكان لا يثار ولا يصاد بأرضه^٢ . فقال حاتم :

إذا ما بجّل الناس هَرَّتْ كلابه وشقّ على الضيف الغريب عفورها
فلإني جبان الكلب يتي موطاً جواد إذا ما النفس شحّ ضميرها
ولكن كلابي قد أقرت وعودت قليل على من يعتريها هربها^٣

وظل (حاتم) أسيراً عنده زماناً ، وقد عُيّر (ثوب بن شحمة) بأنه وقومه أكلوا لحم المرأة ، فقال شاعر :

عجلتم ما صادكم علاج من العنوق ومن الدجاج
حتى أكلتم طفلة كالعاج^٤

وقد وصفت ابنته أباهاً للرسول ، وكان قد سألها عن أبيها على هذه الصفة :
« كان أبي يفك العاني ويحكي الدمار ، ويقرّي الضيف ، ويشبع الجائع ، ويفرج
عن المكروب ويعطّم الطعام ، وبفشي السلام ، ولم يردّ طالب حاجة قط » .
ووصفه (ابن الأعرابي) بقوله : « كان جواداً يشبه شعره جوده ، ويصدق
قوله فعله ... إذا غمّ أنهب وإذا سئل وهب ... وإذا أسر أطلق » . ويجب أن
تكون وفاة (حاتم) غير بعيلة عن ظهور الإسلام .

١ الحيوان (٣٢٩/١) .

٢ الحيوان (٢٦٩/١) .

٣ الحيوان (٣٨٣/١) .

٤ البخله (٢٣٥ ، ٣٧٤) .

٥ الاغانى (٩٧/١٦ وما بعدها) ، كارلو نالينو ، تاريخ الاداب العربية (٧٩) ،

الخزائن (٤٩٤/١ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٢٨/٢) .

ولأهل الأخبار قصص عن جود حاتم وكرمه ، ويبدأون به غلاماً ، يرى لإبل والده ، فرّ به (عبيد الأبرص) ، و (بشر بن أبي خازم) ، و (النابتة الديباني) ، وهم يريدون (النعمان) فنحر لهم ثلاثة من الإبل ، وهو لا يعرفهم ، ثم سألهم عن أسمائهم ، فسمّوا له ، ففرق فيهم الإبل كلها ، وبلغ أباه ما فعل ، فاعتزله . ثم يروون انه ذبح فرسه ، لما جاءته جارة له ، فشوى لحمها لها ولأولادها الجياع ، ثم استدعى بقية جيرانه فأطعمهم ، وبقي هو وأهله جوعاً ، ولم يكن لديه آنذاك غير فرسه هذه . ثم يروون قصصاً آخر مشابهاً ، يمتد الى ما بعد وفاته ، حيث يذكرون قصة رجل اسمه (أبو خبيري) ، ذكروا انه مرّ بقبر (حاتم) ، وأخذ يناديه : « يا أبا عدي أقرّ أهيفاك ! فلما كان في السحر وثب أبو خبيري يصيح : وارحلتاه ! فقال له أصحابه : ما شأنك ؟ فقال : خرج والله حاتم بالسيف حتى عقر ناقتي وأنا أنظر اليه ، فنظروا الى راحلته فإذا هي لا تنبث ، فقالوا : قد وافقه قراك ، فنحروها وظلوا يأكلون من لحمها ، ثم أردفوه وانطلقوا ، فبيناهم كذلك في مسيرهم ، طلع عليهم (عدي بن حاتم) ومعه جمل أسود قد قرنه بيعبره ، فقال : ان حاتمًا جاءني في المنام فذكر لي شتمك أباه ، وانه قراك وأصحابك راحلتك ، وقد قال في ذلك أياتاً ، ورددها عليّ حتى حفظتها :

أبا خبيري وأنت امرؤٌ حسود المشيرة لوأمها
فإذا أردت الى رمة بداوية صخب هامها
تُبغّي أذاها وإعسارها وحولك عوفٌ وأنعامها

وأمرني بدفع جمل مكانها اليك ، فخذها ، فأخذها .

ولأهل الأخبار قصة في كيفية تزوج (حاتم) (ماوية بنت عفر) ، وكيف وجد عندها (النابتة) ، ورجلاً من النبيت ، يريدان الزواج منها ، لما وصل اليها ، وكيف امتحتهم بقولها لهم : انقلبوا الى رحالكم ، وليقل كل رجل منكم شعراً يذكر فيه فعالة ومنصبه فإني متروجة أكرمكم وأشعركم ، ثم تذكر القصة تفصيل ما وقع بأسلوب منقّ وقروناً بشعر وقرار (ماوية) بتفضيل حاتم

١ الشعر والشعراء (١٧٠ / ١) ، الخزائنة (٤٩٤ / ١) وما بعدها . (بولاق) ، المحاسن والاضداد (٤١) وما بعدها .

عليها^١ . وتذكر قصة أخرى ان (ماوية) كانت ابنة من بنات ملوك اليمن ، وكانت ذات جمال وكمال ومال ، فألت ألا تزوج نفسها إلا من كرام الناس ، فقدم عليها حاتم ، وزيد الخليل ، وأوس بن حارثة لأم ، فقدم كل واحد يخطبها ، فقالت ليصف كل واحد منكم نفسه في شعره ، فلما أنشدوا فضلت (حاتم) الطائي عليها ، فزوجت نفسها منه . وذكر ان (معاوية) كان يهوى حديث (ماوية)^٢ .

وهم يذكرون أن جود (حاتم) جاء اليه من أمه (عنة) ، التي كانت سخية الى حدّ الإصراف ، حتى حبسها اخوتها سنة في بيت لعلها تكف عما كانت عليه ، إذا ذاق طعم البؤس وعرفت فضل الغنى ، ثم أخرجوها ودفعوا اليها صرمة من مالها ، فأنتها امرأة فسألنها ، فقالت لها : دونك الصرمة ، فقد والله مسني الجوع ما آليت معه ألا أمنع الدهر سائلاً شيئاً ! ثم أنشأت تقول :

لعمري لقدما عضني الجوعُ عضه فأليت ألا أمنع الدهر جئها
فقولا لهذا اللامي الآن أعفني وإن أنت لم تفعل فعض الأصابع
ولا ما ترون اليوم إلا طبيعة فكيف بركي ، يا ابن أم ، الطبائع^٣

ونسب لحاتم قوله :

واني لاستحي حياءً يسرني إذا اللؤم من بعض الرجال تطلعا
إذا كان أصحاب الإناء ثلاثة حياءً ومستحيا وكلباً مجشعا
فإني لأستحي أكيلي أن يرى مكان يدي من جانب الزاد أقرعا
أكف يدي من أن تمس أكفهم إذا نحن أهرينا وحاجتنا معا
وإنك مها تعط بطنك سؤله وفرجك نالا مستهى اللحم أجمعا^٤

وتنسب له قصيدة طويلة هي :

وعاذلتين هبتا بعد هجعة تلومان متلافاً مفيداً ملوما
تلومان لما غور النجم ضلة فتى لا يرى الاتفاق في الحمد مغرما

- ١ الشعر والشعراء (١/١٦٧ وما بعدها) ، الخزائنة (٢/١٦٤ وما بعدها) ، (بولاق) .
- ٢ الخزائنة (٢/١٦٤ وما بعدها) ، (بولاق) .
- ٣ الشعر والشعراء (١/١٦٥ وما بعدها) .
- ٤ البيان (٣/٣٠٧ وما بعدها) .

الى أن يقول :

ولن يكسب الصعلوك حداً ولا غنى إذا هو لم يركب من الأمر معظماً
لحا الله صعلوكاً مناه وهمته من العيش أن يلقي لبوساً ومغنياً
بنام الضحى حتى إذا نومه استوى تنبه مثلجوج الفؤاد مورماً
مقيماً مع المثربن ليس يبارح إذا نال جدوى من طعام ومجماً
ولله صعلوك يساور همه ويمضي على الأحداث والذهر مقمماً
ففى طلبات لا يرى الخمص ترحة ولا شعبة إن نالها عدماً
يرى الخمص تعدياً ولم يلق شعبة بيت قلبه من قلعة الهم مبهماً

وهي آيات أرى أنها من هذا الشعر الذي يشك في أكثره ، مثل الشعر المقال على لسان عروة والصماليك ، يظهر أن الظروف الاجتماعية جعلت الأدباء ينظمون على لسانهم ، يتشكون فيها من ظلم الأغنياء ، لما كانوا يرونه من قسوة أصحاب المال على المعدمين والبائسين .

ويشك في كثير من شعر حاتم . وقد صار حاتم بالقصص الوارد عنه من الأبطال المعروفين عند غير العرب أيضاً ، فنجد له ذكراً في الفارسية وفي التركية ، وألف فيه في اللغات الأوروبية ، وطبع ديوانه جملة طبعات^١ . وكان يشبه شعر النمر بن توبل بشعر حاتم الطائي ، وكانا يشتركان في الجسود وإنلاف الأموال وأريحية الطبع والتغني بملك في الشعر^٢ .

وكان (حاتم) على النصرانية على ما يظن ، وقد كان ابنه (عدي) عليها^٣ .
و (جابر بن حنّية بن حارثة بن عمرو بن بكر) من شعراء تغلب . وله قصيدة مطلعها :

ألا يا لقومي للجديد المصرم وللحم بعد الزلّة ، التوهم
وللمرء يعتاد الصباية بعدما أتى دونها ما فرط حول مجرم

١ الخزانة (١/٤٩٢) .

٢ بروكلن (١/١١١ وما بعدها) .

٣ البخلاء (٣٨٤) .

٤ الاصابة (٢/٤٦٠) ، (رقم ٥٤٧٧) .

ذكر ان سبب قوله لها ، ان (المتلبر بن ماء السماء) كان يبعث (عمرو بن مرثد بن سعيد بن مالك) ، و (قيس بن زهير) الجشمي ، على إتاوة ربيعة ، وكانت ربيعة تحسدهما ، فجاء (عمرو) يوماً ، فقال جلساء الملك حسداً له : انه يمشي كأنه لا يرى أحداً أفضل منه ! فجاء فحياً الملك بتحية ، فقال جابر هذه القصيدة ^١ . وقد أدخله (بروكلمن) في عداد الشعراء النصارى ^٢ .

ويذكر انه هو (جابر) المذكور في البيت المنسوب لامرئ القيس ، وهو :

فلما ترينني في رحالة جابر على حرج كالقر تخفق أكفاني ^٣

وكان امرؤ القيس آنذاك مريضاً ، فكان (جابر) و (عمرو بن قبيصة) يحملانه على الرحالة ، وهي خشبات ، وهي الحرج .

١ السيوطي ، شرح شواهد (٥٦٢/٢ وما بعدها) ، اللآلي (٨٤٢) ، المفضليات (٢٠٨) .

٢ بروكلمن (٧٣/١) .

٣ من قصيدة :

قفانبك من ذكرى حبيب وعرفان ورسم عفت آياته منذ أزمان
ديوان امرئ القيس (٨٩ وما بعدها) ، السيوطي ، شرح شواهد (٢٧٤/١) ،
الشعر والشعراء (٥٣/١) .

الفصل السابع والستون بعد المئة

آراء الشعراء الجاهليين

والشعر الجاهلي مادة مهمة تعيننا في الوقوف على آراء الجاهليين ، على الرغم من كون أكثره قد ورد في أمور لا صلة مباشرة لها بالرأي ، أعني بالتفكير في خلق الكون وفي الانسان نفسه ، لمَ جاء ولمَ يموت ، وما هي الغاية من ظهوره على هذه الأرض ، وعن الخلق والخالق ، من إثبات أو عدم ، وعن النظم وأصول الحكم والمجتمع والمعرفة والثقافة وما شاكل ذلك من أمور لها صلة بالتأمل والفلسف . ومع ذلك فإن في هذا الشعر المذكور ، ما يكفي لاستنباط شيء منه عن الرأي عند الجاهليين .

لقد حل خلو الشعر الجاهلي من العاطفة الدينية ، بعض المستشرقين على الحكم بأن الجاهليين لم يكونوا يملكون حساً دينياً ، وان دينهم سنتهم ، وستهم ما ألفوه عن آبائهم وأجدادهم وأعراف قبيلتهم ، وهي أعراف ورثوها وحافظوا عليها ، محافظتهم على حياتهم ، وقاوموا كل من كان يخرج عليها أو يتناول عليها. ونجد الشعراء يمجّدونها ويلذكرونها على حين لا تشعر بوجود حس ديني في شعرهم ، اللهم إلا في شعر عدد قليل من الشعراء^١ .

والشعر الجاهلي خلو من الشعر الديني الذي يجب أن ينظم في المناسبات الدينية ، مثل الحج . ولما كان الحج من المناسبات المؤثرة المثيرة ، التي تجمع الناس ،

فتثير في الشاعر شعوراً بروعة المناسبة وبروعة الاجتماع ، فلا بد وأن ينظم الشعراء شعراً فيه ، لإنشاده على المتجمعين حول الصنم ، غير أننا لا نملك أي شعر قيل فيه ولا في المناسبات الدينية المماثلة التي تدفع الإنسان إلى إظهار شعوره فيها^١. وهو أمر يلفت إليه النظر حقاً ، ويجعلنا نفكر في الأسباب التي أدت إلى عدم ظهور الروح الدينية في هذا الشعر ، هل هي طبيعة العربي في عدم اهتمامه بأمور الدين أم هي بسبب كره الإسلام رواية وحفظ ذلك الشعر الوثني !

لقد نسب بعض المستشرقين خلو الشعر الجاهلي من الوثنية ، إلى ترك المسلمين تعمداً رواية ذلك الشعر ، بسبب دخولهم في الإسلام واجتثاث دين الله لمعالم الشرك فلم يجد المسلم أن من المهيّن عليه ، حفظ شعر فيه تنويه بما أبطله وحرّمه كتاب الله ، فرموا منه ما كان ثقیل الوثنية ، وهدبوا منه ما كان خفيف الوزن ، بأن رفعوا أسماء الأصنام ، وأحلوا محلها اسم الله إن ناسب الاسم المعنى ، أو شذبوا فيه وأضافوا شيئاً عليه لإزالة معالم الوثنية منه . لأن من الصعب تصور إعراض الشاعر الجاهلي عن ذكر أصنامة في شعره ، بينما هو يتوسل ويتقرب إليها ، وينلر لها. فالوثني مهما كان رقيق الدين ، بعيداً عن التفكير فيه ، فإنه لا بد وأن يلجأ إليه ساعة الشدة وأيام المحن ، حيث يبحث عن يساعده للخروج من محنته ، شأنه في ذلك شأن أي إنسان آخر ، حين تنزل به التوازل ، فيلجأ حينئذ إلى إلهه أو آلهته وأصنامة وإلى القوى الطبيعية يستمد منها المساعدة والعون^٢ .

وأنا لا أستبعد احتمال موت هذا النوع من الشعر الوثني بسبب الاسلام ، فليس من المعقول إبقاء الاسلام له ، وفيه ما فيه من أمر الأصنام والوثنية المناهضة لدين الله . وعندني ان الجاهلي ، مهما قيل عنه من إعراضه عن الدين ومن عدم احتفاله به ، ومن بعده عنه ، إلا أنه كان مع ذلك شديد التمسك به في الأمور التي تمس حياته ، مثل التوسل إلى الآلهة بأن تبارك في إبله ، وأن تمنحه الغيث ، وأن تشفيه من مرضه ، إلى غير ذلك من أمور ، ذات صلة بالمصالح الشخصية للإنسان . ودليل ذلك ، هو أن معظم ما نجده في نصوص المسند من كتابات ، خللت أسماء الأصنام ، إنما دونت فيها الأسماء لمثل هذه الأمور . فإذا كان الأمر كذلك فنحن لا نستطيع استثناء الشعر الجاهلي من ذكر الأصنام في أمثال هذه المناسبات

على الأقل ، فالشاعر مثل أي انسان آخر ، لا بد وأن يشعر في يوم ما بعجزه وبحاجته الى مخاطبة أربابه وأن يتوسل اليها لتفغحه أو لتمنّ عليه بالصحة والعافية وبالمال ، يتوسل اليها شعراً ، فيمدحها ويشيد بذكراها ، ويسترضيها ، اقتداءً بفعله مع الملوك وسادات القبائل ، حيث يكيل المدح لهم شعراً لأنهم أحسنوا اليه .

وقد ورد اسم (الله) في الشعر وفي النثر الجاهليين ، على نحو ما ذكرت في الجزء السادس من هذا الكتاب . لقد ذكرتُ هناك أن غالبية المستشرقين شكّت في صحة ورود اسم الله في-هذا الشعر ، ورأت أن رواة الشعر وحملته في الإسلام هم الذين أدخلوا اسم الجلالة في هذا الشعر، وذلك أنهم حذفوا منه أسماء الأصنام، وأحلّوا محلها اسم الله . فاجاء فيه اسم (اللات) حل محله اسم الله وهكذا^١ . وذلك لاعتقادهم أن الوثنيين لم يكونوا يؤمنون بالله ، فلا يعقل ورود اسمه في شعرهم . وهو رأي لا أقرهم عليه ، لأن الجاهليين كانوا يؤمنون بالله ، ولم يكونوا ينكرون وجوده أبداً ، بدليل ما نجده في القرآن من تأكيد بأنهم كانوا يؤمنون به ، وانهم كانوا إذا سألهم سائل من خلق الكون ليقولون الله . وقد ذكرت في حينه كل الآيات الواردة في القرآن الكريم عن هذا الموضوع^٢ . وبينت أن أهل مكة وغيرهم من العرب الشماليين ، كانوا يؤمنون بإله واحد هو الله ، ولم يكن بينهم وبين الإسلام خلاف فيه، وخلافهم معه هو في تقربهم الى الأصنام والأوثان ، لتشفع لهم ، بزعمهم ، الى الله زلفى . مع أنها أجسام جامدة وأحجار لا حياة فيها ، فن هنا حل الإسلام عليها ، واعتبرها شركاً بالله ، لأنهم بتقربهم اليها يكونون قد أشركوها مع الله في ألوهيته ، وهذا هو الكفر والضلال في نظر الإسلام . ولذلك أمر بالابتعاد عنها وبنبذها وبنبذ كل ما يتصل بها من عبادة ، كما أمر بطمس الصور ، ومحوها لأنها من دلائل هذه الوثنية ومن معالمها .

وقريش نفسها لم تنكر على الرسول تعبده لله ، ولم تمنعه من الصلاة في بيت الله ، ومن ذكره وحده له ، لأنها لم تختلف معه في عبادته ، وإنما اختلفت معه، فيما هو دون الله من أصنام وأوثان ، وذلك حين عابها وسفه أحلامهم بتقربهم اليها وهي جامدة مخلوقة مصنوعة ، عندئذ هاجت وماجت واشتكت الى أعمام رسول

١ (ص ١٠٢ وما بعدها)

٢ (ص ١٠٣ وما بعدها)

الله والى ذوي رحمه ، ومن هنا كان عناد قريش وكفرها وعداوتها للرسول .
كما نص على ذلك صراحة في القرآن وفي كتب السير^١ . وأخلت تؤذيه وتؤذي
المسلمين كلما ازداد هجوم الإسلام على الأصنام والآوثان .

ويشبه هذا النزاع ما وقع في النصرانية من هجوم على تقديس التماثيل والصور
التي تمثل (الثالوث) ، و (المسيح) ، حيث اعتبرها البعض شركاً ، مما سبب
وقوع شقاق في الكنيسة . فقد اعتبر بعض رجال الدين ال (ايقونات) شركاً ،
وللذلك حاربوا التماثيل والتصاوير . وقد كانت هذه المشكلة قد بدأت في الكنيسة
نتيجة الصراع الذي وقع بين رجال الدين حول طبيعة المسيح .

ولو أخذنا بصدق ما نسب الى الجاهليين من شعر ورد فيه اسم الله ، وجب
إدخال عدد من شعراء الجاهلية في المتألمين ، القائلين بوجود إله ، هو (الله) .
ففي شعر ينسب الى (عروة بن الورد) ، نجد اسم الله مذكوراً فيه ، إذ يقول:
فسر في بلاد الله والتمس الغنى تعش ذايسارٍ أو تموت فتعثر^٢

ويجب عدّ (امرئ القيس) من المتألمين أيضاً ، فقد زعموا ان العرب كانت
لا تعدّ الشاعر فحلاً ، حتى يأتي ببعض الحكمة في شعره ، فلما قال :

والله أنجح ما طلبت به والبر خير حقية الرجل

عدّوه فحلاً^٣ . وهكذا أدخلوه بهذه الحكمة في جملة الفحول .

وقد ورد اسم الله في معلقته ، في البيت :

فقلت يمين الله ما لك حيلة وما إن أرى عنك الغواية تنجلي^٤

ونجده يحلف بالله ، فيقول : « يمين الله » ، و « حلفت لها بالله » ، وتقول

١ ابن هشام ، سيرة (١٧٠/١) ، (حاشية على الروض)

٢ ديوان عروة (١٩١)

٣ الشنقيطي ، شرح المعلقات (٦١)

٤ الشنقيطي ، شرح المعلقات (٨٢)

له صاحبه : « سيالك الله »^١ ، مما يدل على انه كان مؤمناً معتقداً به . ونجده يذكر الله في أشعاره الأخرى^٢ .

وزعم أهل الأخبار ان (الأفوه بن مالك) الأودي ، كان من المتألمين كذلك ، وانه لما شعر بدنو أجله ، أوصى قومه : ملحق ، بتقوى الله ، وصلة الأرحام ، وحسن التعزي عن الدنيا بالصبر^٣ .

وورد في معلقة (عبيد بن الأبرص) قوله :

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يجيب^٤

ويجب إدخال زهير في جملة المتألمين أيضاً ، فقد ذكر انه كان يتأله ويتعفف في شعره ويؤمن بالبعث ، ونسبوا له قوله :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومها يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم^٥

وهو يقسم في معلقته بالبيت ، فيقول :

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرحهم^٦

فهو مؤمن بالله العلام بما في نفوس الناس ، فلا يخفى عليه خافية ، ومها حاول الانسان كتمان سره في قرارة نفسه ، فإن الله لا يخفى عليه سره ، ولا يفوته أبداً^٧ .

وتنسب لزهير قصيدة مطلعها :

ألا ليت لشعري هل يرى الناس ما أرى من الأمر أو يبدو لهم ما بدا لي
بدا لي ان الناس تفتى نفوسهم وأموالهم ولا أرى الدهر فانيا

-
- | | |
|---|--|
| ١ | السيوطي ، شرح شواهد (٣٤١/١) |
| ٢ | السيوطي ، شرح شواهد (٣٧٥/١) |
| ٣ | المزهر (١٦٤/١) |
| ٤ | رسالة الغفران (١٨٦) |
| ٥ | الشنقيطي ، شرح المعلقات (٢٨ وما بعدها ، ١١٦) |
| ٦ | الشنقيطي ، شرح المعلقات (١١٤) |
| ٧ | الخزانه (٤٣٦/١) وما بعدها |

وهي قصيدة ذكر فيها أنه عاش أكثر من مائة سنة ، ثم ذكر الله ، وأنه حق ، وأنه كان مؤمناً به ، وأن أيامنا معدودات ، ولا يلدوم ويبقى إلا الله الذي أهلك تبعاً ولقمان بن عاد وعاديا ، وأهلك ذا القرنين ، وفرعون ، ثم ذكر النعمان ، وكيف حكم ، ثم جاء يوم غير كل شيء . وقد قال الأصمعي ، أنها ليست لزهير ، ويقال هي لصرمة الأنصاري ، ولا تشبه كلام زهير^١ . وربما كانت من المصنوعات ، صنعها من صنع من أمثالها من شعر الوعظ والإرشاد ، فنسبه الى الجاهليين .

ونجد (أبا طالب) يقسم بالله في شعره ، فيقول في قصيدة له ، يخاطب بها الرسول ، انك جئت بدين سمح ، هو من خير أديان البرية ديناً ، ولولا الملامة ، أو حذار سبة ، لوجدتني سمحاً بذلك مبيناً^٢ :

وروي ان (لبيد بن ربيعة) الشاعر المخضرم ، كان من المتألمين في الجاهلية وأنه نظم قوله :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكسل نعيم لا محالة زائل

قبل الاسلام ، أو عند ظهوره . وان الرسول قال : أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل^٣ .

وروي ان له ألياناً تشير الى التوحيد والصلاح ، والخير ، هي :

إن تقوى ربنا خيرُ نَقْل وبإذن الله ربِّي وعجل

وقوله :

أحمد الله فلا ندّ له يديه الخير ، ما شاء فعل

وقوله :

من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البال ، ومن شاء أضل^٤

١ الخزانة (٥٨٨/٣ وما بعدها) ، (بولاق)

٢ لن يصلوا اليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا

السيوطي ، شرح شواهد (٦٨٦/٢ وما بعدها)

٣ الشنقيطي ، شرح المعلقات (٣٥ ، ٣٨)

٤ رسالة الغفران (٢٦٧)

و (النابغة) اللبائي من المتألمين كذلك ، فقد نسبوا له شعراً ، ذكر أنه اعترف فيه بوجود الله ، إذ قال :

حلفت فلم أترك لنفسك رية وليس وراء الله للمرء مذهب^١
ونجده في معلقته يقول :

إلا سليمان إذ قال الإله له قم في البرية فأحددها عن القند^٢
ونراه يذكر مكة في شعره :

والمؤمن العائذات الطير تمسحها ركبان مكة بين الغيل والسعد^٣
وورد اسم الله في قوله :

أبى الله : إلا عدله ووفاءه فلا النكر معروف ولا العرف ضائع

أي ما يريد الله إلا عدل النعمان بن المنذر ، وإلا وفاءه ، فلا يدعه أن يجور ولا أن يغلر ، فلا النكر يعرفه النعمان ، ولا الجميل يضيع عنده^٤ . ومعنى هذا أن النابغة كان يرى أن الله هو الذي يقدر الأمور للناس ، وأن الإنسان مسير بأمر الله .

و (الحارث بن حنظل) الشكري من هذا الفريق كذلك ، لقوله :

فهداهم بالأسودين وأمر الله بلغ^٥ تشقى به الأشقياء^٦

ولقوله :

وفعلنا بهم كما علم الله وما إن للحاتنين دماء^٧

١ الشنقيطي ، شرح المعلقات (٦٤)

٢ الشنقيطي ، شرح المعلقات (٢٠٨)

٣ كذلك (ص ٢١٣)

٤ الخزانة (٤٦٨/٢) ، (هارون)

٥ الشنقيطي ، شرح المعلقات (١٧٧)

٦ الشنقيطي ، شرح المعلقات (١٧٩)

واذا صدقنا بمعلقة (عبيد بن الأبرص) ، وأخذنا بصدق الأبيات :

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا ينجب
بالله يدرك كل خير والقول في بعضه تلغيب
والله ليس له شريك علام ما أخفت القلوب^١

بل يجب عدّه من الأحناف الموحدين ، الذين آمنوا بآله واحد لا شريك له .
وهو في نظري شعر اسلامي ، ويبعد أن يكون من نظم ومن نفس شاعر جاهلي .
وقد ذهب (ابن الأعرابي) ، الى ان البيت الأول هو لشاعر آخر ، هو :
يزيد بن ضبة النخعي^٢ .

و (عمرو بن الإطنابة) سيد الخزرج في أيامه من هذا الرعي الذي ذكر اسم
الله في شعره ، إذ ذكره بقوله :

إني من القوم الذين اذا انتلوا بدأوا بحق الله ثم النائل

وانتلوا : جلسوا في النادي . فهو يبدأ بذكر الله ، وبحقه ، اذا ما جلس
في النادي^٣ .

وورد اسم (الله) في شعر الخدّاش بن زهير :

نقوه أيها الفتيان إنني رأيتُ الله قد غلب الجلود^٤

ونجد ذكر الله في شعر (صريم بن معشر بن ذهل) التغلبي ، وكان قد لقي
كاهناً ، فسأله عن موته ، فقال له : انك تموت في موضع يقال له (إلاهة) ،
فكثّ زماناً ثم سار الى الشام في تجارة ثم رجع في ركب من (بني تغلب) ،
فضلّوا الطريق ، ثم أتوا موضعاً اسمه (إلاهة) قارة بالساعة ، فلدغته حية ، ثم
تذكر قول الكاهن ، فقال :

-
- ١ شرح القصائد العشر ، للتبريزي (٥٤١ وما بعدها) ، البيت (١٨ وما بعده)
من المعلقة ، الحيوان (٨٩/٣)
 - ٢ الشنقيطي ، شرح المملكات (٢٢١) ، السيوطي ، شرح الشواهد (٢٦٦/١)
الشنقيطي (٢٢١) ، الخطيب التبريزي ، شرح القصائد العشر (٥٤١) .
 - ٣ المرزباني ، معجم (٨) ، (قراج)
 - ٤ العمدة (٢٧١/٢)

لعمرك ما يدري امرؤ كيف يبقى اذا هو لم يجعل له الله واقياً
كفى حزناً أن يرحل الحي غلوة وأصبح في أعلى الإلامه ثاوياً^١

وهو شعر إن صح أنه له ، دل على أن صاحبه كان يؤمن بأن لكل انسان
أجل ، وأنه اذا جاء الأجل ، فلا مرد له ، وأنه لا مرد لقضاء الله وقدره .
وفي شعر (قيس بن الحداية) ، إيمان بالله ، وأن الله هو الذي يقدر
الأمور ، إذ يقول :

فقلت لها والله يدري مسافر^٢ اذا أضمرته الأرض ما الله صانع

ويروى :

فقلت لها والله ما من مسافر يحيط بعلم الله ما الله صانع^٣

وفي شعر (النمر بن تولب) ، وهو من المخضرمين قوله :

سلام الإله وربحانه ورحمته وسما^٤ درر

و (العرب تقول : « سبحان الله وربحانه ، أي : واستزاقه »^٥ .

ونجد في شعر للأعشى أنه كان يؤمن بالرحمن ، إذ يقول :

وما جعل الرحمن بيتك في العلى بأجياد غربي الصفا والمحرم^٦

ويقول :

وإن تقى الرحمن لا شيء مثله فصبراً إذا تلقى السحاق الغرائيا

ثم يبين بعده إيمانه بإله واحد لا شريك له ، إذ يقول :

وربك لا تشرك به ان شرکه يحيط من الخيرات تلك البواقيا

١ الخزانة (٤ / ٤٦٠) ، (بولاق)

٢ المرزباني ، معجم (٢٠٢)

٣ انجمان في تشبيهات القرآن (٢٨٣)

٤ القصيدة رقم ١٥ ، البيت ٣٦ ، ديوانه (١٢٣)

بل الله فاعبد لا شريك لوجهه يكن لك فيما تكدح اليوم راعيا
وليك والمينات لا تقرينها كفى بكلام الله عن ذاك ناهيا^١

ونجده في القصيدة رقم (١٥) التي فيها البيت الأول ، يحلف ، برب الراقصات
الى منى ، ثم يذكر (ماء زمزم) ، أي مكة ، بينما نجده في القصيدة الثانية
مؤمن بالرحمن ، مؤله له ، موحد ، لا يشرك بربه أحداً . وهو شعر روي عن
(أبي عمرو الشيباني) ، ركيك ضعيف ، موضوع عليه^٢ .

وروي ان (الشنفرى) كان ممن آمن بالرحمن ، وذكره في شعره ، إذ قال :

لقد لطمت تلك الفتاة هجينها ألا بتر الرحمن ربي يمينها

ولكنه بيت يشك في صحته ، ولم ينقله الثقات^٣ .

وقد سبق لي أن تحدثت في الجزء السادس من هذا الكتاب عن عبادة الرحمن ،
وقلت ان قريشاً قالت للرسول لما نزل الوحي بـ « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن » :
« أتندرون ما الرحمن الذي يذكره محمد ، هو كاهن باليامة »^٤ ، وانها قالت :
« دق فوق ، انما تذكر مسيلمة رحمن اليامة » ، وكان قد تسمى بالرحمن قبل
مولد عبادة والد الرسول^٥ .

وقد زعم أهل الأخبار ان الأعشى كان قنبرياً ، وانه أخذ رأيه هذا من أهل
الحيرة . واستشهدوا على رأيه بالقدر بقوله :

استأثراهُ بالوفاء وبالعدل وولى الملامة الرجال^٦

١ القصيدة رقم ٦٦ ، البيت رقم ٨ وما بعده ، ديوانه (ص ٣٢٩)

٢ ديوانه (٣٢٨)

٣ الاشتقاق (٣٧)

٤ الاشتقاق (٣٧)

٥ الحيوان (٨٩/٤) ، تفسير الطبري (٥٧/١) ، مغازي ، الواقدي (٨٢/١) ،
ابن كثير ، البداية (٣٢٦/٦) ، تابع العروس (٣٠٧/٨) ، (رحم) ، الروض
الانف (٣٤٠/٢) ، ابن سعد ، طبقات (ج ١ ، ق ١ ، ص ١٠٩)

٦ راجع ديوان الاعشى (١٥٥) ، امالي المرتضى (٢١/١) ، (دار الكتاب العربي) ،
شرح ديوان الاعشى (٢٣٣) ، (القصيدة رقم ٣٥) ، وورد (وبالحمد) بدلا من
« وبالعدل » ، الاغاني (٧٦/٨)

وأبي الشريف (المرتضى) إلا أن يجعله على مذاهب أهل العدل^١ ، أي على مثل ما ذهب إليه (المعتزلة) والشيعة الإمامية الاثني عشرية في الاسلام . وعلى بعض أهل الأخبار سبب تحول الأعشى الى القدرية ، انه كان يأتي أهل الحيرة في الجاهلية ، وكانوا نصارى ، يأتيهم يشتري منهم الخمر ، فلقنوه ذلك^٢ . ورد في كتاب (الأغاني) : « قال لي يحيى بن متى راوية الأعشى وكان نصرانياً عبدياً ، وكان معمرأ ، قال : كان الأعشى قدرياً ، وكان لييد مثبأ . قال لييد :

من هداه سبل الخير اعتدى ناعم البال ومن شاء أضل

وقال الأعشى :

استأثر الله بالوفاء وبال عدل وولى الملامة الرجال

قلت : فمن أين أخذ الأعشى ملهه ؟ قال : من قبل العباديين نصارى الحيرة ، وكان يأتيهم يشتري منهم الخمر ، فلقنوه ذلك^٣ .

والبيت المذكور هو من قصيدة مدح فيها (سلامة ذا فائش) مطلعها :

إن تحللاً وإن مرتحلاً وإن في السفر ما مضى مهلاً
استأثر الله بالوفاء وبال عدل وولى الملامة الرجال^٤

شك في صحتها (ابن قتيبة) ، فقال : « وهذا الشعر منحول »^٥ ، والصنعة في الواقع بينة على القصيدة ، وإذا كان الأمر كذلك ، فيجب أن يكون القدرى صاحبها ، ذلك الرجل الذي نحلها الأعشى ، لا الشاعر الأعشى .
ويذكر أهل الأخبار أن الأعشى كان ممن أقر بالملكين الكاتبين في شعره ، إذ يقول :

-
- ١ أمالي المرتضى (٢١/١) ، (دار الكتاب العربي)
 - ٢ الأغاني (٧٦/٨)
 - ٣ الأغاني (٧٩/٨)
 - ٤ « وبالحمد » ، ديوان الاعشى ، القصيدة رقم (٣٥) ، (ص ٢٣٣) ، ابن قتيبة ، الشعر (١٥/١)
 - ٥ ابن قتيبة ، الشعر (١٥/١)

فلا تحسني كافراً لك نعمة على شاهدي يا شاهد الله ، فاشهد

وشاهدي ، يعني لساني ، ويا شاهد الله ، يريد الملك الموكل به . وكان هذا من إيمان العرب بالملكين . وقد نسبوا هذه العقيدة الى بقية من دين اسماعيل^١ ، وزعموا أن العرب ممن أقام على دين اسماعيل ، إذا حلفت تقول : وحق الملكين ، فكان الأعشى ممن أقام على دين اسماعيل والقول بالأنبياء . « والأعشى ممن اعتزل وقال بالعدل في الجاهلية »^٢ .

ونسب الى (ليبد) العكس ، أي القول بالجبر ، واستدل من نسبه الى الجبر ، بقوله :

إنّ تقرى ربنا خير قتل وبأذن الله ريتي والمجل
أحمد الله فلا نسد له يديه الخير ما شاء فعل
من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء أضل^٣

وقد قال بعض العلماء : ان هذه الأبيات لا تشير حتماً الى مذهب ليبد في الجبر ، وانها لا تكون سبباً في نسبة الجبر اليه ، وقد تأولها ، وأوجد لها مخارج في ابعاد القول بالجبر عنه . ثم قال : « اللهم إلا أن يكون مذهب ليبد في الاجبار معروفاً بغير هذه الأبيات ، فلا يتأول له هذا التأويل ، بل يحمل على مراده على موافقة المعروف من مذهبه »^٤ .

وينسب الى (زهير بن أبي سلمى) قوله :

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم^٥

١ الشعر والشعراء (١٨٦/١) ، الشنقيطي ، شرح المعلقات (٦١)

٢ السيوطي ، شرح شواهد (٢٤١/١)

٣ أمالي المرتضى (٢١/١) ، (دار الكتاب العربي) ، ديوان ليبد (١٧٤) ، (رقم ٢٦) ، وورد :

من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء أضل

الاغاني (٧٦/٨) ، ديوان ليبد (١٣) ، (رقم ٣٩) ، رسالة الغفران (٢٦٧)

٤ الخزائن (٣٠/٢) ، (بولاق) ، الامالي للمرتضى (٢١/١)

٥ ديوان زهير (١٨)

وذكر انه كان يتأله ويتعفف في شعره، ويدل شعره المذكور على إيمانه بالبعث
وبالحساب وبالثواب وبالعقاب^١.

ومن رأي الجاهليين ان الموت مكتوب على جبين الانسان ، ولا بد له من أن
يواجهه في يوم محنوم مكتوب عليه . ومن لم يمت عبطة ، مات هرمأ . وفي ذلك
يقول أمية :

من لم يمت عبطة يمت هرمأ وللموت كأس ، والمرء ذاقتها^٢
ويقول الأعشى :

ولو كنت في جب ثمانين قامه رُمقت أسباب السماء بسل^٣

ونجد رأي الجاهليين في الروح واضحاً في أشعارهم وفي أقوالهم عن الموت ،
فالموت - كما سبق أن تحدثت عنه - في نظرهم مفارقة الروح للجسد ، فإذا
فارقته صارت (هامة) ترفرف فوق قبر صاحبها . هذا (عمرو بن الورد) ،
يذكر الموت ، ثم يذكر ما سيقوله الناس عنه ، بقوله :

أحاديث تبقى ، والفتى غير خالد اذا هو أمسى هامة فوق صير^٤

وقد أشير الى (العتائر) التي تقدم في (رجب) ، في شعر (طرقة) :

عتاً باطلاً وظلماً كما تعد ترعن حجرة الربيض الظباء^٥

وكان الرجل من العرب ينذر نلراً على شائه اذا بلغت مائة أن يلذبح عن
كل عشرة منها شاة في رجب، وكانت تسمى تلك اللبائح الرجبية ، وهي العتائر .

١ الشعر والشعراء (٧٨/١) ، الخزائن (٣٧٦/١) ، (بولاق)

٢ أمالي المرتضى (٥٣٣/١)

٣ رسالة الغفران (٥٧١)

٤ ديوانه (٦٤) ، د قال أبو عمرو : بالهز الف صير ، يعنى قبورا من قبور أهل
الجاهلية ، ، اللسان (٤٧٧/٤) ، (صير) ، تاج العروس (٣٤٦/٣) ، (صير)

٥ مجالس العلماء (١٨ وما بعدها) ، شرح القصائد العشر ، للتبريزي (٤٦٣ وما
بعدها)

وكان الرجل منهم ربما يخل بشائه فيصيد ظباءً فينبجها عن غنمه في رجب ليوفي نلره^١ .

ومن الشعراء من غلبت عليهم نزعة التبرم من هذه الدنيا ، وذكر الموت ، والاتعاظ به ، وعلى رأس هؤلاء (عدي بن زيد) العبادي ، النصراني ، وهو خير من يمثل هذه النزعة التصوفية ، التي ترى أن اللذة لا تدوم ، وأن السعادة مؤقتة زائلة ، وإن على الانسان أن يتعظ بمن عاش قبله من الملوك العظام ، والأمم القوية ، ومن نزع هذا المتزع وإن كان دون (عدي) بكثير (الأسود بن يعفر) ، في قوله :

ماذا أوئل بعد آل محرق مرحوا منازلهم ، وبعد إيراد
أهل الخورقة ، وسدير وبارق والقصر ذي الشرفات من سنداد

الى أن قال :

أين الذين بنوا فطال بناؤهم وتمتعوا بالأهل والأولاد
فإذا التعم وكل ما يلهمي به يوماً يصير الى بلى ونقاد

وآخرها :

فإذا وذلك لا نقاد للكره والدهر يعقب صالحاً بفساد^٢

غير أن هذه النزعة ، لم تكن ناتجة عن رأي وعن فلسفة ودراسة تأمل لهذه الحياة ، وإنما هي نزعة نجدتها عند من أصيب بنكبة وعند من حلت به مصيبة ، وعند المسنين الذين غلب العمر عليهم ، فجعلهم حطاماً وكومة عظام ، لا يستطيعون الوقوف على أرجلهم ، فهم متعبون لا يجدون من يصغي اليهم أو من يعطف عليهم ، أو من يساعدهم في الخروج من المآزق التي وقعوا فيها ، فتهرموا لذلك من الحياة ، وأخلوا يلمونها ، وإنما هم يلمونها لأنهم صاروا في حال لا يتمكنون

١ مجالس العلماء (٢٠)

٢ السيوطي ، شرح شواهد (١٣٨/١) ، (٥٥٢/٢) وما بعدها ، المفضليات (٢١٦)
الاغاني (١٢٩/١١) ، ابن سلام (١١٩) ، الشعر والشعراء (١٧٦/١) وما بعدها
الجمان في تشبيهات القرآن (٣٠٨)

فيها من التلذذ بها ومن التمتع بنعم الحياة التي هي هي لا تتغير وأما الذي يتغير هو الشخص ، الذي كبر وعجز فصار يلزم الدنيا ، لأنه لم يعد قادراً على فعل ما كان يفعله أيام كان شاباً قوياً يحب الدنيا ، فتقبل الدنيا عليه .

ونجد في شعر ينسب للأعشى إشارة الى التطير ، إذ يقول :

ما تعيف اليوم في الطير الروح من غراب البين أو تيسن برح^١

وكان (النابغة) الديلمي من المتطيرين . خرج مرة مع (زبان بن منظور) الفزاري غازياً ، فسقطت عليه جرادة ، فتطير منها ، فرجع من الغزو ، ومضى زبان فظفر وغشم ، فقال :

تعلم أنه لا طير إلا على متطير ، وهي الثبور
بلى شيء يوافق بعض شيء أحياناً ، وباطله كثير

وقال خرز بن لوزان ، ويقال مرقش السدوسي :

لا يمنعك من بغا ء الخبير تعقاد الهائم
لا ، والتشاؤم بالعطا من ، ولا التباين بالمقاسم
ولقد غلوت وكنت لا أغدو على واق وحاتم
واذا الأشائم كالأيسا من ، والأيامن كالأشائم
قد خط ذلك في الزبو ر الأوليات القدائم^٢

وفي شعر (عبيد بن الأبرص) القائل :

نبئت أن بني جديلة أوعبوا نفراء من سلمى لنا وتكتبوا
ولقد جرى لهم فلم يتعيفوا تيس^٣ قعيد كالهراوة أعضب
وأبر الفراخ على خشاش هشيمة متنكب لبط الشائل يتعب
طعنوا بمرآن الوشيح فما ترى خلف الأسته غير عرق يشجب
وتبدلوا اليعبوب بعد لهم صمماً ففروا يا جديل وأعذبوا^٤

١ العمدة (٢٦٠/٢)

٢ العمدة (٢٦١/٢) وما بعدها

٣ الحيوان (١٠٠/٣) ، العمدة (٢٠٢/٢) ، الخزائن (٢٥٦/٣)

كلام عن العيافة ، فأشار الى تيس قعيد من الأطباء ، والقعيد الذي يأتي من الخلف ، والأعضب المكسور القرن ، وهو مما يتشام به العرب . وأبو القراح عني به الغراب ، واليعبوب صنم لجديلة ، وكان لهم صنم أخذته منهم بنو أسد ، رهط (عبيد بن الأبرص) ، فتبدلوا اليعبوب بدله .

وقد أشير الى التشاؤم بالغراب في شعر ينسب لعقمة الفحل :

ومن تعرض للغربان يزجرها على سلامته لا بد مشؤوم^١

ونجد في شعر (أبي ذؤيب) الهللي ، وهو من الشعراء المخضرمين ، إشارة الى تشاؤم العرب بطير الشمال ، إذ يقول :

زجرت لها طير الشمال فإن تكن هواك للتي تهوى يصبك اجتنابها^٢

والعرب تشام من (طير الشمال) ، على نحو ما تحدثت عن ذلك في الجزء السادس من هذا الكتاب .

وكان (خرز بن لوزان) السلوسي على مذهب من ينكر الطيرة ولا يعتقد بها ، وينسب اليه قوله :

لا يمنعك من بغيا ، الخير تعقاد التائم
ولقد غلبت وكنت لا أغدو على واق وحاتم
فإذا الأشائم كالآيا من والأيا من كالأشائم
وكذاك لا خير ولا شر على أحد بدائم
قد خط ذلك في الزبور الأوليات القدائم^٣

وفي شعر (عبيد بن الأبرص) إشارة الى رأي العرب في الحامة ، فالعرب تقول : « أخرق من حامة » ، وعبيد يقول في ذلك :

عيوا بأمرهم كما عيت ببيضتها الحامة
جعلت لها عودين من نشم وآخر من ثمامة

١ رسالة الغفران (٤٧٨)

٢ السيوطي ، شرح شواهد (٢٧/١)

٣ المؤلف والمختلف (١٠٢) ، تاج العروس (٣٤/٤) ، (خرز) ، الخزائن (١١/٣)

قال ذلك تعبيراً عن حمقها . فالنشم شجر من أشجار الجبال تتخذ منه القسيّ ،
والهامة نبت قصير يضرب به المثل في الضعف ، وذلك حمقها : أن تجمع بين
ضعيف وقوي ، فينكسر عشاها ويقع البيض فينكسر^١ .

وقد تطرق (العباس بن مرداس) الى ذكر (الغول) ، فقال :
أصابنا العام رِعلاً غول قومهم وسط البيوت ولون الغول ألوان
وهو يشير بذلك الى تلون الغول^٢ .

وفي شعر (زيد الخيل) اشارات الى عادة تعليق الحليّ ، وخشخشة الخلاخيل
على السليم ، ليبراً ويشفى ، اذ يقول :
أيم يكون النعل منه ضجيعه كما علّقت فوق السليم الخلاخل
ونجد مثل ذلك في أشعار شعراء آخرين^٣ .

ومن مذاهب أهل الجاهلية المذكورة في الشعر ، أنهم كانوا يستسقون السحائب
لقبور من فقدوه من أعزائهم ، ويستنبتون لمواقع حفرهم الزهر والرياض ، قال
النايفة :

فلا زال قبر بينَ تبني وجاسم عليه من الوسمي طلّ ووابل^٤
فينبت حَوْذاًناً وعرفاً منوراً صَانِعُهُ من خير ما قال قائل

وكانوا يحرون هذا الدعاء مجرى الاسترحام^٥ .

وفي شعر بعض الشعراء أن الحياة لا تلوم ، وان المال وان كان أساس هذه
الحياة ، لكنه متاع أيام وكل ذاهب . فبينما هو يجمعه ويحرص عليه ، إذا به
يعيث همج هامج ، وما المال إلا عارة فاخلف وأتلف ، فكله مع الدهر ذاهب ،
هذا (الحارث بن حلزة) الشكري ، يقول :

-
- ١ الحيوان (١٨٩/٣) ، (حاشية رقم ٤) ، أدب الكتاب (٥٥) ، ثمار القلوب (٣٦٩)
الميداني ، أمثال (٢٣٤/١) ، عيون الاخبار (٧٢/١)
 - ٢ الحيوان (١٦١/٦) ، المعارف (٣٦)
 - ٣ الحيوان (٢٤٧/٤) وما بعدها
 - ٤ أمالي المرتضى (٥٤/١)

بينما الغني يسعى ويسعى له تاح له من أمره خالج
يرك ما رقع من عيشه يعث فيه هيج هامج
لا تكسح الشول بأغارها إنك لا تدري من الناتج

وهذا تميم بن مقبل يقول :

فاخلف واتلف انما المال عارة وكله مع الدهر الذي هو آكله^١

ونجد في شعر الشعراء الجاهليين ، ذم للأغنياء الذين يملكون ولا يعطون شيئاً
منه للفقير والبائس والمحتاج ، وللذين يكبرون من شأن الكبير لماله ، ويبتعلون
عن الفقير لفقره ، ويعظمون الغني على كثرة عيوبه ونواقصه ، لا لشيء إلا لماله
وغناه ، فزى (عروة بن الورد) ، يقول :

ذريني للغني أسعى فلاني رأيتُ الناس شرّهم الفقير
وأبعدهم وأهونهم عليهم وان أمسى له حسب وخير
يباعده الندى وتزدريه حليته وينهره الصغير
وتلقى ذا الغنى وله جلال يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليل عيبه والعيب جم ولكن الغني رب غفور^٢

وللشعراء الجاهليين رأي في النساء . رأى أغلبهم ان المرأة متعة للرجل ، يلهم
بها ، ويقضي حاجته منها ، خلقت للبيت وللولادة ، وهي دون الرجل . وهي
تحب الشاب القوي ، والغني الكثير المال . ونجد هذا الرأي عند أكثر الشعراء
اتصالاً بالمرأة ، وعند أكثرهم لها مثل (امرئ القيس) حيث يقول :

فيا ربّ يومٍ قد أروح مرجلاً حبيياً الى البيض الأوانس أملسا
أراهن لا يحببن من قلّ ماله ولا من رأين الشيب فيه وقوسا^٣

١ البخله (١٦٤ وما بعدها)

٢ أمالي المرتضى (٥٠/١) ، ديوان عروة (١٩٨) ، المقد (٢١٢/١) ، (ولكن
للغنى) ، وتجد اختلافا في الالفاظ وفي ترتيب الابيات حسب المراجع ، البيان
(٢٣٤/١) ، (عبد السلام محمد هارون)

٣ ديوانه (١٠٦ وما بعدها) ، رسائل الجاحظ (٩٨/١ ، ١١٤) (مفاخرة الجواري
والغلمان)

ونجد الأعشى يقول :

وأرى الغواني لا يواصلن أمراء فقد الشباب وقد يصلن الأمردا^١

وفي شعر علقمة بن عبدة ترديد لرأي امرئ القيس وزيادة :

فلن تسألوني بالنساء فلأنني بصير بأدواء النساء طيب
إذا شاب رأس المرء أو قلّ ماله فليس له في ودهن نصيب
يردن ثراء المال حيث علمته وشرخ الشباب عندهن عجيب^٢

١ ديوانه (١٥١) ، رسائل الجاحظ (٩٨/١) ، (مفاخرة الجوّاري والفلماني) .
٢ ديوانه (١٣١ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٢٣٩/٣) ، المفضليات (١٣١ وما بعدها) ، رسائل الجاحظ (٩٩/١ ، ١١٤) ، (مفاخرة الجوّاري والفلماني)

الفصل الثامن والستون بعد المئة

شعر المخضرمين

المخضرم هو الذي أدرك الجاهلية والإسلام^١ . والشعراء المخضرمون هم الذين عاشوا في الجاهلية وفي الإسلام ونظموا الشعر في العهدين : الجاهلية والإسلام . والمخضرم من يدرك عهدين متناقضين .

والشائع بين الناس أن الإسلام قد سبب في انصراف الناس عن الشعر وعن روايته ، بما شغلهم من أمور الدين والنبوة والوحي وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه ، فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة ولم يتزل الوحي في تحريم الشعر وحظره . وسمعه النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وأثاب عليه ، فرجعوا حيثئذ إلى دينهم منه^٢ . وقد نسب إلى (عمر) قوله : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الإسلام ، فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولمت عن الشعر وروايته^٣ ، فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأن العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر ، فلم يثلوا إلى ديوان مدون ، ولا كتاب مكتوب ، وألفوا وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عنهم

١ تاج العروس (٢٨١/٨) ، (المخضرم) ، الخزائن (١٢٩/١) ، (بولاق)

٢ مقدمة ابن خلدون (٥٨١) ، كارلو ناليتو ، تاريخ الاداب العربية (١٠٣)

٣ ابن سلام ، طبقات (١٠) ، المزهري (٤٧٣/٢) ،

كثير ، ١ . والشائع بينهم أيضاً أن الشعر قد أصيب بسبب ما تقدم بنكسة ، فذبل وضعف وذهبت عنه قوة وسورة وجزالة وشدة الشعر الجاهلي ، وأعرض بعض الشعراء مثل (لييد) عن الشعر ، اذ رأوا أن في كلام الله ما يغنيهم عنه ، وقل بذلك عدد الشعراء ولا سيما الشعراء الفحول بالنسبة الى أيام الجاهلية ، وغلبت الليونة على الشعر الجديد ، فصار شعر (حسان) الذي قاله في الإسلام ضعيفاً ليناً بالنسبة الى شعره الجزل المتين الذي قاله في جاهليته .

وجوابي على هذه الدعاوى : صحيح ان الشعر الجاهلي قد نقص حجمه وضاع قسم كبير منه ، ولكن ضياعه ذلك لم يكن بسبب الاسلام ، وانما بسبب الأحداث والتطورات التي طرأت على جزيرة العرب ، بسبب دخولها في الاسلام ، كحروب الردة مثلاً والفتوح ، وافتتاح أرض الله الواسعة أمام المسلمين ، وفرار الكثير من أهل جزيرة العرب نحو الخارج بحثاً عن أرض أخصب وماء أوفر ، وجو أطيب وثراء وعيشة راضية . أما حروب الردة ، فقد أكلت من المسلمين ومن المرتدين جماعة عرفت برواية الشعر وبحفظها له ، وبنظم الشعر أيضاً ، فقلّ بهلاكهم عدد حفاظ الشعر ، كما قلّ في الوقت نفسه عدد حفاظ القرآن . وأما الفتوح ، فقد قتل فيها قوم من الشعراء ومن حفاظ الشعر ، فهلك بموتهم شطر من الشعر الجاهلي ، وتقلص عدد العلماء به . كما ألغت الناس عن الشعر ، بما فتحت لهم من آفاق الأرض وبما درّت عليهم من أموال وأشغال ، قلصت من فراغهم الذي كان يكون معظم حياتهم في البوادي ، فجعلتهم في الأرضين الجديدة بصرفون معظم وقتهم في استغلال الأرضين التي صارت من نصيبهم ، وفي إحياء الموات ، وفي تربية المواشي ، والاستغلال بالزراعة ، وهي أشغال تستبد بوقت الانسان ، وتصرف ذهنه اليها لمعالجتها ، فلا يشعر في مثل هذه الحالة بما كان يشعر به يوم كان في بواده فارغ البال ، يقضي وقته بالتعبير عن نفسه بشعر يقتل به فراغه ، ويسلي به نفسه بالتغني به لأصدقائه ، ثم هو قد يتعيش منه ، بما يناله من قبيلته من مال واحترام ، وبما قد يحصل عليه من مدحه للملوك وللسادات من عطايا وهبات ثمناً للمدح . ويحيط فيه شغل وعمل ، وفيه تعب جسماني وعقلي لا يساعد على نمو الشعر فيه ، ومن هنا كان إقبال أهل الحضرة مثل أهل مكة وأهل يثرب

وأهل الطائف وأهل اليمامة على الشعر ، ونبوغهم فيه أقل من إقبال أهل البوادي عليه ، بسبب انشغال أهل القرى والحضر عامة بتدبير أمور الحياة ، وبالحرف وباستغلال الأرض والمال والاتجار ، وبسبب تكتلهم وتجمعهم وتلاصق بيوتهم بعضها ببعض ، مما يجعلهم يطلعون على أحوال جيرانهم وعلى عورتهم ، ويقفون على أسرار حياتهم في الشعب وفي القرية ، فلا يكون للهجاء عندهم لهذا الأثر السلي يكون له عند الأعراب ، ولا يكون للمدح عندهم ما يكون له من أثر عند أهل البادية . ومن هنا نجد دولة الشعر وقد قلّت نفوذها في العالم العربي في هذا اليوم عما كان عليه نفوذها قبل ثلاثين سنة أو أكثر ، بسبب التطور الحضاري الذي أخذ يغزو العالم العربي ، وهو تطور يقلص من فراغ الإنسان ، ويستبد به ، جاء له بهوم وبمشاكل نفسية وبأمراض الحضارة التي تريد المزيد من التمتع بمتع الحياة من جنسية ومادية ، ليتمتع بها الإنسان في هذه الحياة التي لن يعود إليها مرة ثانية ، فصار يفكر في الحصول على المادة جهد طاقته ، ولو عن طريق إمالة أعصابه ، ليستمتع بأقصى حد ممكن باللذة الحسية ، التي صار يراها أنها سبب هذا الوجود ، وذلك قبل فواتها منه ، بموت يحترمه منها ، فزاد الإقبال على المتعة ، وعلى رأسها الاستمتاع باللذة الجنسية ، وبلذة الشرب والتدخين ، وقلّ الإقبال على الاستمتاع بالذات النفسية ، وفي جملتها الشعر ، فلا تجد اليوم له في أوروبا ما كان له من مكانة قبل عشرات السنين ، وغلب النثر عليه ، وقلّ عدد من كان يحفظ شعر الشعراء الماضين والمعاصرين ، وعلى هذا النحو صار حالنا اليوم ، فتناقص عدد حفاظ الشعر في النجف مثلاً تناقصاً كبيراً من حيث العدد والكم ، والنجف في الشعر والأدب كوفة العراق بالأمس أيام الأمويين والعباسيين . فالإعراض الذي لاقاه الشعر في صدر الإسلام ، لم يكن بسبب كره الإسلام له ، وإنما بسبب التطور الذي طرأ على حياتهم ، فغيرها من جميع الوجوه ، نتيجة لخروجهم من جزيرتهم ، واختلاطهم بأمم أعجمية ذات نظم أخرى ، ونظرات متباينة مع نظرات العرب إلى مفهوم الحياة .

أما إعراض (ليد) عن قول الشعر بعد اعتناقه الإسلام ، فليس مرده اعتقاده بكره الإسلام للشعر ، وإنما هو في رأبي بسبب تقدمه في السن ، والإنسان متى تقدم في العمر خفت مواهبه وبرد احساسه ، ووهنت عواطفه التي تكون متقدمة في أيام المراهقة والشباب ، أو قد يكون هذا العامل وعامل آخر ، هو سلطان

الدين الذي استولى عليه وهو في سن الشيخوخة ، بحيث صيره يشعر بوجوب الإنصراف نحو العبادة وحفظ ودراسة كتاب الله ، ومع ذلك فهناك روايات روت أن معظم شعره الذي فيه تدين وزهد وحث على العمل الصالح ، هو شعر قاله في الإسلام ، وان ما زعم من أنه ترك الشعر ، وانكب كلية على قراءة القرآن زعم غير صحيح .

وأما اعراض (بشار بن عدي بن عمرو بن سويد) الطائي عن الشعر، فيظهر أنه عن وازع نفسي ديني ، حمله على التفرغ لدراسة كتاب الله ، وعلى الزهد ، وقد يكون ذلك بسبب تقدمه في السن . وفي تركه الشعر يقول :

تركت الشعر واستبدلت منه كتاب الله ليس له شريك
وودعت المدامة والندامي اذا داعى منادي الصبح ديكاً

وأما إعراض (مالك بن عيمر) السلمي عن الشعر^١ ، فهو حادث فردي كذلك ، لا يعلم مبلغ درجته من الصحة ، ومع ذلك ، فإن كل من ترك الشعر من الشعراء لا يصل عددهم الى عشرة ، وهم قلة بالنسبة الى عدد الشعراء المخضرمين للدين استمروا في نظمهم في الإسلام .

وأما ما قالوه عن الضعف الذي ألمّ بشعر (حسان) الذي قاله في الإسلام ، وعن متانة شعره وجزالته في الجاهلية ، فلا يعقل إرجاع سببه الى الإسلام ، فقد اتخذ الرسول (حساناً) شاعراً له ، يجب عنه وعن الإسلام المشركين ، كما شجع غيره في الرد على شعراء الشرك ، وكان الرسول يستصوب الشعر الصلد الجزل المتين ذا المعاني الجيدة العميقة ، ومصدر ضعف (حسان) في شعره في الاسلام ، هو بسبب تقدمه في السن ، والتقدم في السن — كما سبق أن قلت — يضعف المواهب ، ومنها الشاعرية ، ويخمل العواطف ، فقد كان حسان في جاهليته شاباً ورجلاً ، قوي الجسم ككل رجل ، متقيد الحس ، متائق الحس ، متائق العاطفة ، ذا شاعرية حساسة ثائرة ، يشرب ويلهو ويسمع الغناء ويحضر مجالس الطرب ، فلما جاء الاسلام ، ودخل فيه مع من دخل ، كان قد تقدم في السن ،

١ الاصابة (١/ ١٧٤) ، (رقم ٧٦٧)

٢ الاصابة (٣/ ٣٣١) ، (رقم ٧٦٧٢)

فبرد حسه ، وضعف شعره في المداني التي قالها في الجاهلية ، وفي الدروب التي ملكها من دروب الشعر الجاهلي ، ولكنه تألق في معان أخرى تنسجم مع عمره ومع المثل التي اعتنقها ، فن ثم صار شعره يختلف عن شعره في الجاهلية . ولم يقع ذلك لحسان وحده ، وإنما وقع هذا الحادث لكل شاعر هجم عليه العمر ، واستبدت به الأعوام .

ومما وقع للشعر في الاسلام ، ان الزعامة انتقلت فيه من البوادي الى الحواضر ، فبعد أن كان شعر الأعراب ، يجزأته وبخشونته وبصلادته ، هو المقدم عند علماء الشعر والمحبين له ، وبعد أن كانت القبائل هي التي تنجب الفحول ، صارت الحواضر هي التي تنبت الفحول ، لتبدل الزمن ، ووقوع تغير في الذوق ، ولتغلب الحضارة على البداوة ، ولاهيام الناس بالمعاني ، أكثر من اهتمامهم بالشكل وبمظهر القوالب فقل شعر الشعراء الأعراب الفصحاء ، ثم انحسر الشعر من موطنه ، كما انحسر أكثر سكان البوادي عن بواديهم ، ليلحقوا بخير الحضرة ، وصار الشعر العربي الفصيح من حصنة الحضرة في هذه الأيام . كما حلت الكوفة ثم (دمشق) ثم بغداد فبقية الحواضر محل (الحيرة) وقصور الغساسنة ومضارب سادات القبائل في استقبال الشعراء وفي الانعام عليهم بالهدايا والألطاف . ولتغير الذوق بتغير المجتمع ، تغير الشعر كذلك ، ولا سيما في أيام بني العباس .

وفي شعر المخضرمين شعر قيل في الرسول وفي حوادث الاسلام ، وفي الرد على المشركين وتسفيه مقاتلتهم في دينهم ونيلهم من دين الله . قاله الشعراء بعد دخولهم في الاسلام . وعلى رأس هؤلاء من ذكرت من شعراء يثرب ، يتقدمهم (حسان ابن ثابت) شاعر الرسول ، الذي كان يستلعيه الرسول في المناسبات ليحجبه على شعر الشعراء الوافدين عليه ، كالذي كان من أمره مع شاعر وفد (تميم) الزبرقان ابن بلر .

وكان لرد شعراء يثرب على شعراء قريش ومن لف لفهم ، أثر كبير في نفوس المشركين . يروى ان النبي قال لحسان بن ثابت : اهجهم ، يعني قريشاً ، فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام ، في غلس الظلام ، اهجهم ومعك جبريل روح القدس^١ . وقد كان هجاؤه شديداً عليهم ، له وقع في نفوسهم أشد

١ العمدة (١٢/١) ، الاغانى (٧/٤) ، كارلو نالينو ، تاريخ الاداب العربية (١٠٧)

من وقع شعر بقية الشعراء عليهم . فقد كان لسانه حاداً قاطعاً ، لا سيما اذا ما تناول ناحية الهجاء وما يتعلق منه بالوقائع والأيام والتراخ القديم الذي كان بين أهل مكة ويثرب . فيجيد في ذلك كل الإجادة ، ويتفوق بهذه الناحية على شعراء قريش .

وكان حسان وكعب يعارضان شعراء قريش بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعبرانهم بالمثالب . وكان عبدالله بن رواحة يعبرهم بالكفر وينسبهم الى الكفر ، ويعلم انه ليس فيهم شر من الكفر ، فكانوا في ذلك الزمان أشد شيء عليهم قول حسان وكعب ، وأهون شيء عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلموا وفقهوا الاسلام ، كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة .

وأما شعر شعراء مكة الى عام الفتح ، فكان في إيذاء الرسول والاسلام ، وفي هجاء المسلمين ، وتمجيد قريش وورثاء من قتل من المشركين وتعظيم أمر الجاهلية وسنة الآباء وما ألفوه عن آبائهم من أمور . وقد حفظت كتب السير والمغازي والتواريخ شيئاً من شعرهم ، من النوع الذي لم يتضمن قلعاً شديداً بالاسلام ، ولا شتماً عنيفاً وهجاءً غليظاً بالرسول وبالمسلمين . أما النوع الثاني الذي أفحش فيه أولئك الشعراء ، وجاءوا فيه بشتائم وسباب ، فقد أنف أصحاب السير والمغازي والتاريخ من روايته ، فتركوه ، ولو جمع الباقي من شعرهم مع ما ردّ عليه ، لكوّن منه ديواناً ثميناً في المعارضة التي كانت بين المشركين والمسلمين في مبدأ ظهور الاسلام ، ولكان سجلاً قيماً لتاريخ ذلك الصراع ، ولكيفية تغلب الاسلام على الشرك . فهو وثائق تاريخية من الدرجة الأولى ، على أن يغربل ويفحص فحصاً علمياً للتبقي من درجة صفائه ونقاؤه بالطبع .

ونوع آخر من أنواع الشعر كان عند المخضرمين ، هو شعر القتال . القتال الذي وقع بين المسلمين والمشركين واليهود ، الى أن انتصر الاسلام . فاخفى صوت الشرك وصوت يهود ، وبقي صوت الاسلام وحده ، لا يعارضه أحد ، ولا يجابهه صوت . فقد كان من عادة العرب ، أنهم اذا تقاتلوا أنشدوا شعراً يفتخرون فيه بأنفسهم وبقبيلتهم وبشجاعتهم ، ولا سيما حين يخرج فارس لمبارزة فارس آخر ، وقد يقف الشعراء في صفوف المحاربين يحرصونهم على القتال والاستبسال :

ونجد في بطون كتب السير والمغازي والتواريخ ، نماذج طيبة من هذا الشعر :
شعر القتال . قال المحاربون عند خروجهم من صفوف المقاتلين لمقابلهم من سيخرج
لمبارزتهم من الجانب الثاني .

وتولد من هذا النوع من الشعر شعر آخر قيل في معارك الفتح . في المعارك
التي وقعت مع عرب الحيرة ، ثم مع الفرس ، وفي المعارك التي حدثت بين
المسلمين وبين الفساسة ، وبين المسلمين والروم ، ثم في الفتوحات الأخرى . فقد
ساهم في هذا القتال شعراء مخضرمون ، حاربوا في الجاهلية ، وحاربوا في الاسلام .
وحافظوا على تقاليدهم وأعرافهم القديمة التي كانت لهم في الجاهلية عند القتال ،
من التحمس في القتال والاندفاع من الصفوف الى الأمام لمبارزة من قد يبرز لهم
لمقاتلتهم ، ومن التغني بالقتال ومبارزة العدو . ونجد في كتب الفتح والتاريخ
والأخبار ، نماذج من هذا الشعر . ونجد في شعر (قيس بن مكشوح) المرادي
وصفاً ليوم القادسية ، وفخراً بسيره مع جمع من قومه من (صنعاء) الى وادي
القرى فديار كلب ، الى اليرموك ، فالشأم ، ثم القادسية بعد شهر ، ثم مقابلته
جمع كسرى وأبناء المرازبة ، وهجومه على رأس الفرس^١ . ولو جمعنا هذا الشعر
الذي قيل في هذا القتال لكوّننا منه ديواناً^٢ ، يصور هجرة القبائل العربية من
مواطنها الى البلاد المفتوحة ، ويتحدث عن الأبطال الذين ساهموا في جمع هذا
الديوان والملحمة الشعرية التي تروي قصص الفتح ، وما قام به المحاربون الشجعان
في حروب الفتح^٣ .

وهناك شعراء أسلموا ، لكن قلوبهم بقيت على ما كانت عليه قبل الاسلام ،
من عدم الاهتمام بأمور الدين ، فلم يحفلوا بالاسلام ، ولم يذكروا الرسول ، وهم
شعراء أهل البادية الأعراب .

وطالما كان يأتي الشعراء الى (يثرب) على طريقتهم في الجاهلية في إنشاد
شعرهم أمام رجل منهم عظيم ، مثل ملوك الحيرة أو الفساسة ، أو سادات القبائل .
فيقف الشاعر أمام الرسول لينشده شعره الذي أعده لهذه المناسبة ، أو ليقول شعراً

١ الاصابة (٢٦١/٣) ، (رقم ٧٣١٥) ، الاستيعاب (٢٣٥/٣)

٢ كارلو فالينو ، تاريخ الادب العربية (١١٦)

٣ بروكلن ، تاريخ الادب العربي (١٧٣/١)

بالمناسبة . ولما قدم وفد (تميم) ، المدينة ، ودخلوا المسجد ، وقالوا : « يا محمد ، جئناك لتفاخرنا ، فاثلن لشاعرنا وخطيبنا ، قال : نعم ، أذنت لخطيبكم فليقل ، فخطب : (عطار بن حاجب) ، فلما انتهى قال الرسول لثابت بن قيس بن شماس ، أجبه ، فأجابه . ثم قالوا : يا محمد ، اثلن لشاعرنا ، فقال : نعم ، فقام الزبير بن بدر فقال :

نحن الكرام فلا حي^١ يعادلنا منا الملوك وقينا تنصب البيع^٢

فلما انتهى منها ، أجابه حسان ، فحكموا ان خطيب المسلمين أخطب من خطيب تميم ، وان شاعر الرسول أشعر من شاعرهم^٣ .

وعادة التفاخر في مجالس الملوك وسادات القبائل ، وإنشاد الشعر في ذلك ، ورد الشعر بعضهم على بعض ، دفاعاً عن قومهم ، من العادات الجاهلية القديمة ، التي بقيت في الاسلام كذلك ، ولما أخذت الوفود تفد على الرسول بعد فتح مكة ، كان في أعضائها من يخطب على طريقتهم في الخطابة ، ومنهم من ينشد الشعر ، ثم يعلنون إسلامهم ، ومنهم من يشترط شروطاً ، وكان من بين المسلمين من يتولى الرد عليهم ، وقد يجيبهم الرسول بنفسه .

وقد كره الاسلام من الشعر الجاهلي الشعر الذي يتعرض بالأعراض ويتحرض بعورات الناس ، والشعر الذي يهيج الفتنة ، ويلقي البغضاء بين الاخوة ، فيعيد لها فتنة جاهلية ، ومن هنا جاء النهي عنه في قوله : « لأن يمتلئ جوف رجل قيحاً يريه خير^٤ له من أن يمتلئ شعراً^٥ » ، ولم يأت في عامة الشعر . وأخذ الخلفاء الشعراء المهجائين متى اقلعوا في شعرهم ، وتحاملوا فيه على الناس ، تحاملاً يغض منهم . وهنا حبس (عمر) الخطيئة ، وكان يقف بالمرصاد لمن يفعل فعله في نهش أعراض الناس . ولذلك تخوف المخضرمون في شعرهم من شعر المهجاء واحترسوا فيه امثالاً للمثل الإسلامية التي تأمر بالابتعاد عن ذكر المثالب والامتناع عن إيذاء الناس ، وخوفاً من تأديب الخلفاء لهم إن نهشوا أعراض المسلمين .

١ الطبري (١١٥/٣) ، (قدوم وفد تميم ونزول سورة الحجرات)
٢ البخاري ، (كتاب الزكاة ، باب قوله تعالى : لا يسألون الناس الحافا) ، وفي أبواب أخرى ، شرح النووي على صحيح مسلم (١٠٠/٩) وما بعدها) ، (حاشية على ارشاد الساري) ، زاد المسلم (٣٥٠/١) وما بعدها .

والقديم من شعر المخضرمين ، ولا سيما شعر المتقدمين منهم في السن ، هو استمرار في الواقع للشعر الجاهلي ، نظم على طريقة أهل الجاهلية وأساليبهم في نظم الشعر وعلى معانيهم التي كانوا يتطرقون إليها في شعرهم في الغالب ، فقد ولدوا في الجاهلية وقضى بعض منهم أكثر سني حياته فيها، ونظموا أكثر شعرهم في تلك الأيام وفي الأحداث التي وقعت فيها . ولذلك صار شعرهم يختلف عن شعر الشعراء الاسلاميين ، لأنهم لم يشهدوا الجاهلية ولم يدركوها ، وهم من ثم لم يتأثروا بعقليتها كثيراً ، ومن هنا يجب علينا أن نوجه لشعر الشعراء المخضرمين المسنين الذين قضوا أكثر أيام حياتهم في الجاهلية عناية خاصة ، وأن نقوم بدراسته دراسة فقد دقيقة ، إذ نتمكن بها من الوقوف على تطور الشعر الجاهلي ومكانته عند ظهور الاسلام .

ومن الشعراء المخضرمين من لقي الرسول وصحبه ومدحه وروى عنه ، ومنهم من صحبه ، لكنه لم يرو عنه ، ومنهم من لم يره لكنه دخل في الإسلام . وقد ذكر بعض العلماء أسماء الشعراء الذين صحبوا الرسول ورووا عنه ، منهم (حسان ابن ثابت) ، و (كعب بن مالك) ، و (عبدالله بن رواحة) ، و (عدي ابن حاتم) الطائي ، و (عباس بن مرداس) السلمي ، و (أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب) ، و (حميد بن ثور) الهلالي ، و (أبو الطفيل عامر ابن وائلة) ، و (أيمن بن خريم) الأسدي ، و (أعشى) بني مازن ، و (الأسود بن سريع) ، و (الحارث بن هشام) ، و (عمرو بن شاس) ، و (ضرار بن الأزور) ، و (خفاف بن ثدبة) ، و (ليد بن ربيعة) ، و (ضرار بن الخطاب) ، و (عبدالله بن الزبير) ، ولم تكن لليد ، ولا لضرار ولا لابن الزبير رواية عنه . وكذلك (أبو ذؤيب) الهللي ، و (الشماخ ابن ضرار) ، وأخوه (مزد بن ضرار) ^١ .

وقد عدّ (ابن سلام) (النابعة) الجعدي ، والشماخ بن ضرار ، وليد ، وأبو ذؤيب الهللي طبقة ، وقال : وكان الشماخ أشد متوناً من ليد ، وليد أحسن منه منطقاً ^٢ .

١ الاستيعاب (٥٦١/٣) ، (حاشية على الاصابة) .

٢ الاستيعاب (٥٦١/٣) ، (حاشية على الاصابة) .

و (الناطقة) الجعدي ، هو : (أبو ليلى عبدالله بن قيس) ، أو (قيس بن عبدالله بن عدس) ، وقيل : (حبان بن قيس) ، (حيان بن قيس) ، وغير ذلك . قيل له (الناطقة) ، لأنه كان يقول الشعر ثم تركه في الجاهلية ، ثم عاد اليه بعد أن أسلم ، فقيل : نبخ : قيل انه كان قديماً شاعراً مفلقاً طويل العمر في الجاهلية وفي الاسلام ، حتى زعم انه كان أسن من الناطقة الدياني ، واستدلوا على طول عمره بأبيات زعموا انه قالها هي :

ألا زعمت بنو أسد بأنني أبو ولد كبير السن فاني
فن يك سائلاً عني فلاني من الفتيان أيام الختان
أنت مائة لعام ولدت فيه وعشر بعد ذاك وحجتان
وقد أبقت صروف الدهر مني كما أبقت من السيف الباني^١

وذكر (السجستاني) في كتاب المعبرين ، انه عاش مائتي سنة . وهو القائل :

قال (؟) أمانة كم عمرت زمانه وذبحت من عتر على الأوثان
ولقد شهدت عكاظ قبل محلها فيها وكنت أعد من الفتيان
والمنلر بن محرق في ملكه وشهدت يرم هجائن النعمان
وعمرت حتى جاء أحمد بالهدى وقوارع تتلى من القرآن
ولبت في الإسلام ثوباً واسعاً من سيب لا حرم ولا منان^٢

وهو عند الأخباريين أسن من الناطقة الدياني وأكبر ، واستدلوا على أنه أكبر من الناطقة الدياني ، بأن الناطقة الدياني كان مع النعمان بن المنلر ، وكان النعمان ابن المنلر بن محرق . وقد أدرك الناطقة الجعدي المنلر بن محرق وناداه ، ولكن الناطقة الدياني مات قبله ، وعمر بعده عمراً طويلاً . ذكر بعضهم أنه عمر مائة وثمانين وذكر بعضهم أنه عمر أكثر من ذلك حتى ذكر بعض منهم انه عمر مائتين

١ تختلف هذه الابيات في النظم وفي الترتيب في كتاب الاصابة عنها في الاستيعاب وفي الكتب الاخرى ، الاصابة (٥٠٨/٣) وما بعدها ، (رقم ٨٦٤١) ، الاستيعاب (٥٥٢/٣) ، (حاشية على الاصابة) ، ابن هشام (٥٣/١) ، (حاشية على الروض) ، الروض الانف (٥٣/١) .
٢ الاصابة (٥٠٨/٣) ، (رقم ٨٦٤١) ، البخلاء (٢٠٢) وما بعدها ، ٢٠٨ وما بعدها ، ومواضع أخرى راجع ص ٦١٢ .

وعشرين سنة . وذكروا أن (عمر) قال له : كم لبثت مع كل أهل ؟ قال ستين سنة . وأنشده قوله :

لقيت أناساً فأفئيتهم وأفئيت بعد أناس أناساً
ثلاثة أهلين أفئيتهم وكان الإله هو المستأسأ

وجعل بعضهم عمره (٢٤٠) سنة ، وكان أكثرها في الجاهلية^٢ .

وهو من (الفلج) جنوب نجد ، وكان يزور بني لحم في الحيرة . وكان شاعراً مقلباً ، ما هاجى قط إلا غلب ، هاجى أوس بن مغراء ، وليلي الأخيلية ، وكعب بن جميل فغلبوه جميعاً . وذكر انه مكث الى أيام (عبدالله بن الزبير)^٣ . وذكروا انه كان يذكر في الجاهلية دين ابراهيم والحنيفية ويعصوم ويستغفر . وقال في الجاهلية كلمته التي أولها :

الحمد لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلام

وفيه ضروب من دلائل التوحيد والإقرار بالبعث والجزاء والجنة والنار وصفة بعض ذلك على نحو شعر أمية بن أبي الصلت ، وقد قيل ان هذا الشعر له ، ولكنه قد صححه علماء العشر مثل : يونس بن حبيب ، وحامد الراوية ، ومحمد ابن سلام ، وعلي بن سليمان الأنخس التابعة للجمدي^٤ .

وروي انه كان ممن فكر في الجاهلية وأنكر الخمر والسكر وهجر الأزلام واجتنب الأوثان وذكر دين ابراهيم^٥ .

-
- ١ الاستيعاب (٥٥٢/٣) ، (حاشية على الاصابة) ، الاغانى (١٢٨/٤) ، الخزانة (٥١٢/١) ، السيوطي ، شرح شواهد (٢٠٨) ، الموشح (٦٤) ، ابن سلام ، طبقات (٢٦) ، مجالس ثعلب (٦٦٣) ، الاشتقاق (٣٣٨) .
 - ٢ الروض الاتف (٥٣/١) ، (ليست أناسا) ، أمالي المرتضى (٢٦٤/١) .
 - ٣ السيوطي ، شرح شواهد (٦١٤/٢) وما بعدها ، الاغانى (١/٥) وما بعدها ، (دار الكتب) ، الجمحي ، طبقات (٢٦) وما بعدها ، الشعر والشعراء (١٥٨) وما بعدها ، المعجم ، للمرزباني (٣٢١) ، السيوطي ، شرح شواهد (٦١٤/٢) ، المعمرن ، للسجستاني (٦٦) ، الخزانة (٥١٢/١) ، أسد القابة (٢/٥) وما بعدها ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٢٣٢/١) ، البخله (٢٤٣) .
 - ٤ الاستيعاب (٥٥٢/٣) ، (حاشية على الاصابة) ، الخزانة (٥١٤/١) وما بعدها ، رسالة الغفران (٢٠٢) .
 - ٥ الاصابة (٥٠٩/٣) ، (رقم ٨٦٤١) .

وذكر ان (النابعة) قدم على (عثمان) يستأذنه في السفر الى البادية ، لأن نفسه اشتاقت اليها ، ليشرب من ألبانها ، وليشرب من شبح البادية ، فقال له عثمان :
 « أما علمت ان التعرب بعد الهجرة لا يصلح ؟ قال : لا والله ما علمت وما كنت لأخرج حتى استأذنك ، فأذن له ، وضرب له أجلاً » . ثم دخل على (الحسن بن علي) فودعه ، فقال له : أنشدنا من بعض شعرك ، فأنشده :
 الحمد لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظمأ

فقال : يا أبا ليلى ما كنا نروي هذه الأبيات إلا لأمية بن أبي الصلت ؟ قال : يا ابن بنت رسول الله ، والله اني لأول الناس قالها وان السروق من سرق أمية شعره ^١ .

وذكر أنه كان من أصحاب (علي) وحارب معه يوم صفين ، وله مع (معاوية) أخبار . ومات معمرأ بأصبهان سنة (٦٥ هـ) (٦٨٤ م) . وكان معاوية سيره اليها مع (الحارث بن عبدالله بن عوف بن أصرم) . وكان ولي اصبهان من قبل علي ^٢ .

وقد وفد النابعة على النبي وأنشده قصيدته الرائية التي فيها :

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ويتلو كتاباً بالمجرة نيرا

الى أن بلغ قوله :

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وإنا لترجو فوق ذلك مظهرا^٣

فقال رسول الله : إلى أين أبا ليلى ؟ فقال : إلى الجنة . فقال رسول الله : نعم إن شاء الله ^٤ .

١ ابن سلام ، طبقات (٢٧) .

٢ الاصابة (٥٠٩/٣) ، (رقم ٨٦٤١) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٢٣٢/١) ، الاصابة (٥١٠/٣) .

٣ تختلف الروايات في ضبط هذه الابيات ، ولعلماء الشعر روايات مختلفة عنها ، رسالة الغفران (٢٢٨) ، أمالي المرتضى (٢٦٦/١) ، الاغانى (٥٣٩/٤) .

٤ الاصابة (٥٠٩/٣) ، (رقم ٨٦٤١) ، الاستيعاب (٥٥٢/٣) وما بعدها .

ولما أنشدته :

ولا خير في حلم إذا لم تكن له بواذر تحمي صفوه أن يكسدا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له حلیم إذا ما أورد الأمر أصدرنا

فاستحسنه الرسول وقال : لا يفضض الله فاك . وذكر أن كلمة النابغة هذه قصيد مطوّل نحو مائتي بيت أوله :

خليلي غضا ساعة وتهجرا ولو ما على ما أحدث الدهر أو ذرا

وهو من أحسن ما قيل من الشعر في الفخر بالشجاعة سباطة ونقاوة وجزالة وحلاوة^١ . وقد تعرض فيها بأمور الجاهلية والاسلام .

وأسلم وحسن إسلامه وكان يرد على الخلفاء ورد على عمر ثم على (عثمان) .
ويظهر ان القصيدة قد طوّلت على (النابغة) فيما بعد ، وانها لم تكن على هذا النحو من الطول لما أنشدها على الرسول . وقد روى بعض العلماء منها أربعة وعشرين بيتاً^٢ ، لعلها هي الأبيات التي أنشدها أمام النبي .

وذكر انه كان بالبصرة ، فرعت (بنو عامر) في الزرع ، فبعث (أبو موسى) الأشعري في طلبهم ، فنصارخوا يا آل عامر ! فخرج النابغة الجعدي ومعه عصبة له . فضربه أسواطاً . فقال النابغة في ذلك :

رأيت البكر بكر بني ثمود وأنت أراك بكر الأشعرينا
فإن تك لابن عفان أميناً فلم يبعث بك البر الأمينا
فيا قبر النبي وصاحبيه ألا يا غوثنا لو تسمعونا
ألا صلى إلهكم عليكم ولا صلى على الأمراء فينا^٣

وقد مدح (النابغة) الجعدي عبدالله بن الزبير ، ويظهر انه كان في ضيق وعسر ، إذ يقول فيها :

-
- ١ الاستيعاب (٥٥٥/٣ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، وتجد أبياتا منها في الاستيعاب ، الاغانى (٨/٥) .
٢ الاصابة (٥١٠/٣) ، (رقم ٨٦٤١) .
٣ الاستيعاب (٥٥٦/٣ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .

أناك أبو ليلى تجوب به الدجى دجى الليل جَوَّابُ الفلاة عرمرم
لتجبر منه جانباً دعدت به صروف الليالي والزمان المصمم
فأعطاه فلاتص سبعاً وفرساً وخيلاً ، وأوقر له الركاب برأً وتمراً وثياباً^١ .
ومن جيد شعره قوله :

فنى كملت خيراته غير أنه جواد فما يبقى من المال باقيا
فنى تمّ فيه ما يسر صديقه على أن فيه ما يسوء الأعاديأ^٢

قال العلماء في شعر (النابغة) : « خمارٌ بواف ، ومطرف بآلاف . يريدون
أن في شعره تفاوتاً ، فبعضه جدّ مبرّز وبعضه ردّيء ساقط »^٣ . ونسب الى
(الفرزدق) قوله في النابغة الجعدي : « صاحب خُلُقَان ، يكون عنده مطرف
بألف دينار ، وخمار بواف »^٤ .

وقد ذكر (أبو العلاء) المعري قصيدة النابغة التي يقول فيها :

ولقد أغدو بشرب أنف قبل أن يظهر في الأرض ريش

فقال على لسان (النابغة) الجعدي : « ما جعلت الشين قسط رويأ ، وفي
هذا الشعر ألفاظ لم أسمع بها قط »^٥ .

وروى (المعري) له قصيدة ، استحسّن منها قوله :

طيبة النشر ، والبداهة ، والـ حِلَات ، عند الرُقَاد والنسم^٦

ومن شعره قوله في (زياد بن الأشهب بن أدد بن عمرو بن ربيعة بن جعدة)
العامري الجعدي :

مقام زياد عند باب ابن هاشم يريد صلاحاً بينكم ويقرب

-
- ١ الاستيعاب (٥٥٨/٣) ، (حاشية على الاصابة) .
 - ٢ الاستيعاب (٥٥٨/٣) ، (حاشية على الاصابة) .
 - ٣ الشعر والشعراء (٢١٠/١) ، (دار الثقافة) ، البيان والتبيين (٢٠٦/١) .
 - ٤ أمالي المرتضى (٢٦٩/١) .
 - ٥ رسالة الغفران (٢٠٩) .
 - ٦ رسالة الغفران (٢١٩ وما بعدها) ، تهذيب الالفاظ (٦٣١) ، السمط (٤٣١) .

وكان قد مشى في الصلح بين علي ومعاوية . وكان من أشرف أهل الشام
ومن المقربين الى معاوية^١ .

و (الطفيل بن عمرو بن طريف) الدوسي ، من الشعراء الأشراف . كان
شاعراً ليبياً . تذكر رواية انه أسلم حين كان الرسول بمكة ، وانه لما أتى مكة
ذكر ناس من قريش أمر النبي ، وسألوه أن يختبر حاله ، فأتاه فأنشده من شعره ،
فتلا النبي الاخلاص والمعوذتين فأسلم في الحال وعاد الى قومه . وتذكر رواية انه
عاد مرة أخرى الى مكة ، ثم عاد الى قومه حتى هاجر الرسول الى المدينة، فجاء
على رأس وفد من دوس ممن أسلم ، فوصل والرسول محاصر (خيبر) ، فكث
بالمدينة حتى اذا فتحت مكة ، بعثه الرسول الى (ذي الكفين) صم (عمرو بن
حمة) حتى أحرقه . وقد أورد (المرزباني) شيئاً من شعره^٢ .

وأعشى بن مازن ، أو الأعشى المازني ، هو (عبدالله بن الأعور) ، وقيل
ان اسم (الأعور) (رؤبة بن فزارة بن غضبان بن حبيب بن سفيان بن مكرز
ابن الحرماز بن مالك بن عمرو بن نعيم) . يكنى (أبا شعيفة) . وقال أهل
الحديث : يقولون المازني وانما هو الحرمازي ، وليس في بني مازن أعشى ، .
وذكر انه أتى النبي فأنشده :

يا مالك الناس وديان العرب اني لقيت ذربة من الذرب

وفيه قصة امرأته وهربها^٣ .

فكتب النبي الى (مطرف بن نهميل) ، وكانت امرأته عنده ، ان يعيدها
اليه ، فأعادها ، فقال :

-
- ١ الاصابة (٥٦٢/١) ، (رقم ٢٩٨٥) .
 - ٢ الاصابة (٢١٦/٢ وما بعدها) ، (رقم ٤٢٥٤) ، الاستيعاب (٢٢١/٢ وما
بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، سيرة ابن هشام (٢٣٤/١ وما بعدها) .
 - ٣ الاصابة (٢٦٧/٢ وما بعدها) ، (رقم ٤٥٣٥) . ورويت الابيات على هذا النحو :
يا سيد الناس وديان العرب أشكو اليك ذربة من الذرب
كالذبة الصلاء في ظل السرب خرجت أبغيها الطعام في رجب
فخالفتني بنزاع وهرب أخلفت العهد ولطمت بالذنب
وهن شر غالب لمن غلب .

الاستيعاب (٢٥٧/٢) ، (حاشية على الاصابة) ، (١٢٢/١) .

لعمرك ما حبي معاذة بالذي يغيره الواشي ولا قدم للمهد
ولا سوء ما جاءت به إذ أزلا غواة رجال إذ ينادونها بعدي^١

وذكر صاحب (الاستيعاب) ، ان اسم والد (أعشى) مازن ، هو (الأطول).
وقيل اسم الأطول أو الأعور : (عبدالله)^٢ .

وروى ان اسمه (عبد بن لبيد) الأعور . وقيل : (الأعرور بن قراد بن
سفیان) . وكان قد خرج في (رجب) يدير أهله من هجر ، فهربت امرأته
بعده ناشراً عليه ، فعادت يرجل منهم . فجاء (الأعشى) الى الرسول وعاذ به .
وأشأ يقول قصيدته^٣ .

ومن شعره :

يا حكم بن المنذر بن الجارود سراق المجد عليك ممدود
أنت الجواد ابن الجواد المحمود نبت في الجود وفي بيت الجود
والعود قد ينبت في أصل العود^٤

و (الحطيئة) ، وهو (جروول بن أوس بن مالك بن « حيوه » جثية بن
نخزوم بن مالك) العبسي ، ويكنى (أبا مليكة) « من فحول الشعراء ومقدميهم
وفصحائهم ، وكان يتصرف في جميع فنون الشعر من مدح وهجاء وفخر ونسب
ويجيد في جميع ذلك . وكان ذا شر وسفه ، وكان اذا غضب على قبيلة انتمى
الى أخرى ، زعم مرة انه ابن عمرو بن علقمة من بني الحارث بن سديس .
وانتمى مرة الى ذهل بن ثعلبة ، وأخرى الى بني عمرو بن عوف . وله في ذلك
أخبار مع كل قبيلة وأشعار مذكورة في ديوانه . وكان كثير الهجاء حتى هجا
أباه وأمه وأخاه وزوجته ونفسه ، وهو مخضرم أدرك الجاهلية والاسلام . وكان
أسلم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتد ثم أسر وعاد الى

١ الاستيعاب (٢/٢٥٨) ، (حاشية على الاصابة) .

٢ الاستيعاب (٢/٢٥٦) ، (حاشية على الاصابة) .

٣ الفائق (١/٤٢٢ وما بعدها) .

٤ الاصابة (٢/٢٦٨) ، (رقم ٤٥٣٥) .

الاسلام^١ . وكان ملحفاً شديد البخل ، لا يقف إلخافه في السؤال عند حد ، ولا ينجل من التصريح في الاستكداء وفي إذلال نفسه في الحصول على مال . طاف في الآفاق يمتدح الأمائل ويستجديهم . وقد عدّ في البخلاء . « قيل بخلاء العرب أربعة : الحطيئة ، وحيد الأرقط ، وأبو الأسود الدؤلي ، وخالد بن صفوان »^٢ . وقيل عنه انه كان « دنيء الطبع ، لثيم النفس ، كثير الطمع ، جعل الشعر متجراً ، فكان له من الهجاء معاش ومكسب » لأن الناس كانوا يهدون له الهدايا خوفاً من شره . فقال الأصمعي : كان الحطيئة جشعاً مسؤولاً ملحفاً دنيء النفس ، كثير الشر قليل الخير ، بخيلاً قبيح المنظر ، رث الهيئة مغموز النسب ، فاسد الدين ، وما تشاء أن تقول في شعر شاعر ما من عيب إلا وجدته فيه ، ولما تجد ذلك في شعره^٣ ، كان لا يبالي من « جبو من سبق أن مدحه وأثنى عليه ، لاغداقه المال عليه ، بل يظهر انه كان من ذلك الفريق من الناس المرضي النفوس الذين كانوا يسيئون الى من أحسن اليهم ، بل كانوا أول من يسيء الى من أحسن اليه ، لعقدة مستعصية في النفس .

وكان قصير القامة ، ولقصره هذا لقب بالحطيئة . وكان ذمياً ، قبيح الوجه ، سيء الهيئة ، ولعل هذه الأمور هي التي صبرته سيء الطبع ، هجاء لكل أحد ، فلا يسلم من لسانه أحد . قلما هجا أباه ، بأبيات قاسية شديدة منها :

فنعم الشيخ أنت لدى المخازي وبشس الشيخ أنت لدى المعالي
جمعت اللؤم ، لأحيالك ربي ، وأبواب السفاهة والضلال

قيل : « كان الحطيئة يرعى غنماً له ، وفي يده عصا . فرّ به رجل » فقال : يا راعي الغنم ما عندك ؟ قال : عجواء من سلم . يعني عصاه . قال : إني ضيف . فقال الحطيئة للضيفان أعددتها^٤ .

١ الاصابة (٣٧٧/١ وما بعدها) ، (رقم ١٩٩١) ، العمدة (٨١/١ وما بعدها) ، البيان (١٣/٢ وما بعدها) ، الخزائنة (٤٠٨/١) ، الاغانى (٤١/٢ وما بعدها) ، (٣٨/١٦) ، الطبقات ، لابن سلام (٩٢ وما بعدها) ، ديوان الاعشى (القاهرة ١٩٥٨ م) ، (نعمان أمين طه) ، الخزائنة (٤٠٦/٢) ، (هارون) ، (٤٠٩/١) ، (بولاق) .

٢ السيوطي ، شرح شواهد (٤٧٧/١ وما بعدها) .

٣ كارنو نالينو ، تاريخ الاداب العربية (١٠٩ وما بعدها) .

٤ البيان والتبيين (١٤٧/٢) ، (٨٠/٣) .

وهجا أمه بشعر موجه منه قوله :

تنحي فاقعدي مني بعيداً أراح الله منك العالمينا
ألم أوضح لك البغضاء مني ولكن لا أخالك تعقلينا
أغربالاً إذا استودعت سرّاً وكانوا على المتحدثينا
جزاك الله سرّاً من عجوز ولقائك العقوق من البنينا
حياتك ما علمت حياةً سوء وموتك قد يسر الصالحينا

ثم هجا أخاه وزوجته ، فلما لم يبق أمامه أحد سلم من هجائه إلا نفسه ، اذ
اطلع في حوض فرأى وجهه فقال :

أبت شفتاي اليوم إلا تكلماً بسوء فما أدري لمن أنا قائله
أرى لي وجهاً شرّاً الله خلقه فقبح من وجهه وقبح حامله^١

وقد جعل (المعري) هذا الشعر ، سبباً دخل به الجنة ، لقوله بالصدق^٢ .
وله قصيدة (سينية) مشهورة ، هجا فيها (الزبرقان بن بدر) ، فسجنه
(عمر) عليها ، منها قوله :

ملوا قراه ، وهرته كلابهم وجرحوه بأنياب وأضراس
دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد، فإنك أنت الطاعم الكاسي

وفيها :

من يفعل الخير لا يعلم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس^٣
وقد قال (أبو عمرو بن العلاء) عن هذا البيت : « لم تقل العرب قط
بيتاً ، أصدق ، منه^٤ »

١ الشعر والشعراء (٢٤٠/١) ، (والحطيئة الرجل الدميم أو القصير ، ومنه لقب
جرول الشاعر العبسي لدمايته . قاله الجوهري . وقيل : كان يلعب مع الصبيان
فسمع منه صوت ، فضحكوا . فقال : ما لكم إنما كانت حطيئة ، فلزمته نبزاً ،
وقيل غير ذلك) ، تاج العروس (٥٧/١) ، (خطأ) ، الخزائنة (٤٠٩/٢) ،
(هارون) .

٢ رسالة الفقران (٣٠٧) .

٣ رسالة الفقران (٣٠٧) .

٤ الاغانى (١٨٤/٢) وما بعدها) ، السيوطي شرح شواهد (٩١٦/٢) وما بعدها) .

وقد حلت دمامة خلقة الخطيئة ورثة هيئته وسوء ملبسه الناس على ازدراء شأنه وعلم الاهتمام به عند حضوره مجلساً لا يعرفه فيه أحد ، والى وقوعه في مشاكل معهم . وقد يكون من الصعب عليهم رتق الحرق بعد وقوعه وإصلاح حاله . غير أن منهم من كان يجد سيلاً الى ذلك ، باسترضائه بتقديم المال له ، وهو ما يطلبه ، فينسيه ما أصابه من ازدراء وإهمال^١ . وزعم أنه كا مغفور النسب ، وأنه كان من أولاد الزنا الذين شرفوا^٢ .

وقد غلب الهجاء على طبعه ، حتى عدّ من أنبيغ الشعراء المتقدمين فيه . وقد ذهب (بروكلمن) الى أن للهجاء الفضل في بقاء شعر الخطيئة^٣ . فالهجاء باب له متقدّد واسع الى العواطف حفظه الأعداء والحساد للنيل ممن قيل بحقهم من أعدائهم وحسادهم ، فحفظه الناس جيلاً عن جيل .

ويقال ان (عمر) لما لقي الخطيئة قال له : « كأنني بك عند بعض الملوك تغنيه بأعراض الناس . أي تغني بلمهم وذم أسلافهم في شعرك وتلبهم »^٤ . ولما هجا (الخطيئة) (الزبرقان بن بدر) استعدى عليه (عمر) ، فدعا (حسان بن ثابت) فقال : أتراه هجا ؟ قال : نعم وسلح عليه فحبسه ، فقال وهو في حبسه شعراً يستعطف به (عمر) حتى رق عليه ، وشفع له (عمرو بن العاص) ، فأطلقه على ألا يهجو أحداً^٥ . ويقال انه كتب الى عمر شعراً يتوسل فيه العفو عنه ، وأن يرحم حال أولاده الصغار بذني مرخ ، فيه :

ماذا تقول لأفراخ بذني مرخ حمر الحواصل لا ماء ولا شجر
أقيت كاسبهم في قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمر

-
- ١ راجع قصته مع « عتيبة بن النحاس العجلي » ، ثم قصة حضوره مجلس « سعيد بن العاص » « سعيد بن العاصي » ، وقصصاً أخرى ، وهي تتحدث عن ازدراء شأن الخطيئة لهيئته ولجهلهم به ، ثم عن استرضائهم له بعد وقوفهم على أمره ، الشعر والشعراء (٢٤٠/١ وما بعدها) .
 - ٢ الخزائن (٤٠٧/٢) ، (هارون) ، (٤٠٩/١) ، (يولاق) .
 - ٣ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٦٨/١) .
 - ٤ اللسان (١٧١/٧) ، (عرض) .
 - ٥ الاصابة (٣٧٨/١) ، (رقم ١٩٩١) ، السيوطي ، شرح شواهد (٩١٦/٢) وما بعدها ، الشعر والشعراء (٢٤٤/١ وما بعدها) . ابيان والتبيين (٢٤٠/١) .

أنت الأمين الذي من بعد صاحبه ألقى إليك مقاليد النهى البشر
لم يؤثروك بها إذ قدعوك لها لكن لأنفسهم كانت بها الخير^١

واذا صح ما روي من أن الخطيئة لما قدم المدينة ، يريد الرسول ، أرصدت له قريش العطاء ، خوفاً من شره^٢ ، فيجب أن يكون قدومه قبل عام الفتح ، وغلبة المسلمين على المشركين . ولكننا نجد بعض الرواة يشكون في دخوله في الإسلام حياة الرسول . يقول (ابن قتيبة) : « ولا أراه أسلم إلا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنني لم أسمع له بذكر فيمن وفد عليه من وفود العرب ، إلا اني وجدته يقول في أول خلافة أبي بكر رضي الله عنه حين ارتدت العرب :

أطلعنا رسول الله إذ كان حاضراً فيا لهفي ما بال دين أبي بكر
أبورثها بكراً إذا مات بعده فتلك ، وبيت الله ، قاصمة الظهر

وقد يجوز أن يكون أراد بقوله : أطلعنا رسول الله ، قومه أو العرب . وكيف ما كان فإنه كان رقيق الإسلام ، لثيم الطعم^٣ .

وقد مدح شعر الخطيئة ، فذكر عنه (أبو الفرج الأصبهاني) انه « كان من فحول الشعراء ومقدمهم وفصائحهم . وكان يتصرف في جميع فنون الشعر من مدح وهجاء وفخر ونسيب ، ويجيد في جميع ذلك » . وقال (الأصمعي) : « وما تشاء أن تقول في شعر شاعر ما من عيب إلا وجدته فيه ، إلا الخطيئة ، فقلما نجد ذلك في شعره » . وروي عن (اسحاق الموصلي) قوله : « ما أزعج ان أحداً من الشعراء بعد زهير أشعر من الخطيئة »^٤ . قال (الجاحظ) : وكان الأصمعي يقول : « الخطيئة عبدٌ لشعره . غاب شعره حين وجده كله متخيئراً متخبئاً مستويًا ، لمكان الصنعة والتكلف ، والقيام عليه »^٥ ، ونسب للأصمعي قوله :

-
- ١ ديوانه (رقم ٣٤) ، الشعر والشعراء (١/٢٤٥) ، البيان والتبيين (٢/٣١٨) .
 - ٢ الاصابة (١/٣٧٨) ، (رقم ١٩٩١) .
 - ٣ الشعر والشعراء (١/٢٣٨ وما بعدها) ، (دار الثقافة) ، الخزانة (٢/٤٠٨) .
 - ٤ الاصابة (١/٣٧٧ وما بعدها) ، (رقم ١٩٩١) ، الاغاني (٢/٤٣) .
 - ٥ البيان والتبيين (١/٢٠٦) .

١ زهير بن أبي سلمى ، والخطيئة وأشباهها عبيد الشعر ١ .

وكان (الخطيئة) راوية كعب بن زهير ، بل يقال انه كان راوية زهير ابن أبي سلمى ٢ . وله ديوان برواية (السكري) عن (محمد بن حبيب) ، طبع مراراً ٣ . وذكر انه « قال لكعب بن زهير : قد علمت روايتي شعر أهل البيت وانقطاعي ، وقد ذهب الفحول غيري وغيرك ، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك وتضعني موضعاً ، فإن الناس لأشعاركم أروى . فقال كعب :

فن للقوافي شأنها من يحوكها اذا ما نوى كعب وفوز جرول ٤

وروي « أن أعرابياً وقف على حسان وهو ينشد ، فقال له كيف تسمع ؟ قال ما أسمع بأماً ، فغضب حسان . فقال له : من أنت ؟ قال : أبو مليكة . قال : ما كنت قط أهون عليّ منك حتى اكتنيت بامرأة ، فما اسمك ؟ قال : الخطيئة ، فأطرق حسان ، ثم قال : إمض بسلام ٥ .

وذكر بعض الرواة أن (الخطيئة) لما حضرته الوفاة اجتمع اليه قومه فقالوا : يا أبا مليكة ، أوص . فقال : ويل الشعر من راوية السوء . قالوا أوص ، يرحمك الله . قال : من الذي يقول :

إذا أنبض الرامون عنها ترنمت ترنم ثكلى أوجعتها الجنائز

قالوا : الشماخ . قال أبلغوا غطفان أنه أشعر العرب . وتستمر الرواية على هذا النوع من طلب قومه منه أن يوصي ، ومن إجابته أجوبة لا صلة لها بالصيغة . حتى انتهت بأنهم حملوه على أنان وجعلوا يلذّبون به ويجيئون وهو عليها حتى مات ، وهو يقول :

١ البيان والتبيين (١٣/٢) .

٢ كارلو نالينو ، تاريخ الادب العربية (١١٠) .

٣ طبع سنة (١٨٩٣ م) بمدينة (لايبزك) ، وطبع ببيروت ، والقاهرة مع شروح ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٦٨/١) ، زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١٧٠/١) .

٤ ابن سلام ، طبقات (٢١) .

٥ الاصابة (٣٧٨/١) .

لا أحد الأم من حطيئة هجا بنيه وهجا المُرثة من لومه مات على القرينة^١

وروى (ابن قتيبة) القصة على هذا النحو : « قيل له حين حضرته الوفاة :
أوص يا أبا مليكة . فقال : مالي للذكور دون الأنثى ، فقالوا : ان الله لم يأمر
بهذا ، فقال : لكني أمر به ! ثم قال : ويل للشعر من الرواة السوء ، وقيل
له : أوص للمساكين بشيء ، فقال : أوصيهم بالمسألة ما عاشوا ، فإنها تجارة
لن تبور ! وقيل له : اصنع عبك يساراً ، فقال : اشهدوا انه عبد ما بقي
عبي ! وقيل له : فلان البتم ما توصي له ؟ فقال : أوصي بأن تأكلوا ماله
وتنكحوا أمه ! قالوا : فليس إلا هذا ! قال : احملوني على حمار فلانة لم يم
عليه كريم ، لعلي أنجو ! ثم تمثل :

لكل جديد للذة غير أنني رأيت جديد الموت غير لليد
له خبطة في الخلق ليست بسكر ولا طعم راح يشتهي ونيل

ومات مكانه ٢ .

وهي قصة لا تخلو من أثر الوضع والصنعة ، فبليت على لسانه ، لما عرف عنه
من اللوم والبخل والتعرض بالناس . وقد رويت بصور مختلفة^٣ .

وقد ذكر (الحطيئة) (سعيد بن العاصي بن سعيد بن العاصي بن أمية) ،
القرشي الأموي في شعره ، وكان سعيد ممن نذبه عثمان لكتابة القرآن . وكان
جواداً ، ولم يتزع قبضه قط ، وكان أسود نحيفاً ، وكان يقال له : (عكة
العسل) ، قال الحطيئة فيه :

سعيدٌ فلا يغرك قلة لحمه تخدعه اللحم فهو صليب^٤

-
- ١ الاغاني (١٩٥/٢ وما بعدها) ، (الدار) ، السيوطي ، شرح شواهد (٤٧٥/١) وما
بعدها ، الخزانة (١٤١/١) ، (يولاق) .
 - ٢ الشعر والشعراء (٢٣٩/١) .
 - ٣ الخزانة (٤١٢/٢ وما بعدها) ، (هارون) .
 - ٤ البيان والتبيين (٣١٤/١ وما بعدها) ، (١١٦/٣) .

ومن شعر (الخطيئة) المشهور قوله :

قوم هم الأنف والأذنان غيرهم ومن يساوي بأنف الناقة الذنبا

وكان الرجل من (بني أنف الناقة) اذا قيل له : ممن الرجل ؟ قال : من بني قريع ، فلما مدحهم (الخطيئة) بهذا الشعر صار للرجل منهم اذا قيل له : ممن أنت ؟ قال : من بني أنف الناقة افتخاراً ، في قصة سبق أن تحدثت عنها^١.

ومن جيد شعره قوله :

متى تأتته تعشو الى ضوء ناره تجد خير ناري عندها خير موقد^٢

والشاعر (كعب بن زهير) هو ابن الشاعر الجاهلي (زهير بن أبي سلمى) . فهو شاعر ابن شاعر ، وأبو شعراء : فقد كان ولداً (كعب) وهما : (عقبة) ، و (العوام) شاعرين . وقد ذكر أن (بجيراً) أخو (كعب) ، فارق أخاه عندما بلغا (أبرق) العراق ، وذهب الى الرسول لما سمع من خبره ، فأسلم . فلما بلغ (كعباً) خبر إسلامه ، ذم أخاه لمفارقته سنة آباءه وأجداده ، وخروجه على ما ألف عليه أباه وأمه . بشعر قال فيه :

ألا أبلغا عني بجيراً رسالة على أي شيء أنت متزل ذلكا
على خلق لم تلف أما ولا أباً عليه ولم تدرك عليه أخاً لك^٣

أو :

ألا أبلغا عني بجيراً رسالة على أي شيء ريب غيرك ذلكا
على خلق لم تلف أما ولا أباً عليه ولم تدرك عليه أخاً لك^٤
سقاك أبو بكر بكأس روية فأنهلك المأمور منها وحلكا^٥

-
- ١ البيان والتبيين (٣٨/٤) .
 - ٢ ديوان الخطيئة (٢٥) ، الاغانى (٥٩/٢) ، البيان والتبيين (٢٩/٢) .
 - ٣ الاستيعاب (٢٨١/٣) ، (حاشية على الاصابة) .
 - ٤ الاصابة (٢٧٩/٣) ، (رقم ٧٤١٣) . وجاءت الابيات على هذا النحو :
ففارقت أسباب الهوى واتبعته على أي شيء ويب غيرك ذلكا
على منذهب لم تلف أما ولا أباً عليه ولم تعرف عليه أخا لك^٥
كارلو نالينو ، تاريخ الادب العربية (١١٤) . (الطبعة الثانية ١٩٧٠ م) .

ورويت الأبيات على هذه الصورة أيضاً :

ألا ابلقا عني بجيراً رسالةً فهل لك فيما قلت بالخيف هل لك
سُقيت بكأس عند آل محمد فأنهلك المأمون منها وعلكا
فخالفت أسباب الهدى وتبعته على أي شيء ويَبْ غيرك ذلكا^١

ووردت بصورة أخرى^٢ ، مما يدل على اختلاف الرواية ، ووقوع خطأ في الاستنساخ . وقد لام فيها قومه لدخول أكثرهم في الإسلام ، وهجاء مرآ^٣ .

فبلغت أبياته رسول الله فأهذر دمه . وكتب بجير بملك اليه ، ويقول له النجاء ، ثم كتب اليه انه لا يأتيه أحد مسلماً إلا قبل منه وأسقط ما كان قبل ذلك ، ولما انتهى الى (كعب) قتل (ابن خطل) ، قدم المدينة فسأل عن أرق أصحاب النبي ، فدل على (أبي بكر) ، فأخبره خبره ، فشئ (أبو بكر) وكعب على أثره وقد التثم حتى صار بين يدي النبي فقال : رجل يبايعك . فدل النبي يده ، فد كعب يده فبايعه وأسفر عن وجهه فأنشده قصيدته التي مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول مُتَيْمٌ لآثرها لم يجزَ مكبول

وهي قصيدته الشهيرة التي طبعت مراراً وشرحت شروحاً كثيرة ، وتعدّ من (المشوبات) . فكساه النبي بردة له ، فاشتراها (معاوية) من ولده بعشرين ألف درهم ، وهي التي يلبسها الخلفاء في الأعياد^٤ .

وهي قصيدة نظمها على نفس شعراء البادية وطريقتهم في مدح الملوك وسادات القبائل ، ولولا الأبيات :

-
- ١ الشعر والشعراء (٨٠/١) ، ابن هشام (٨٨٩) ، (طبعة أوربة) ، الاغانى ١٤٧/١٥ وما بعدها) ، المرزباني ، معجم (٣٤٣) ، بروكلن ، تاريخ الادب العربي (١٥٦/١) ، الخزائن (٨/٤) .
 - ٢ المصون (٢٠٠ وما بعدها) ، كارلو نالينو (١١٤) .
 - ٣ بروكلن ، تاريخ الادب العربي (١٥٦/١) .
 - ٤ الشعر والشعراء (٨٩/١ وما بعدها) ، (دار الثقافة) ، طبقات ابن سلام (٨٣) ، المرزباني ، معجم (٣٤٣) ، الاغانى (١٤٧/١٥) ، الاصابة (٢٧٩/٣) ، (رقم ٧٤١٣) .

نبئت ان رسول الله أوعدني والمفوء عند رسول الله مأمول
مهلاً هداك الذي أعطاك ناقله الـ قرآن فيه مواعيط وتفصيل

والبيت :

إن الرسول لنورٌ يستضاء به مهندٌ من سيف الله مسلول

لقلنا : انه انما أراد ملكاً أو سيد قبيلة لا نبياً ، جاء يعلن دخوله في دينه ،
واقتناعه بنبوته^١ .

ويذكر علماء الشعر أن (الخطيئة) قال لكعب : قد علمت روايتي لكم أهل
البيت وانقطاعي إليكم ، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك ثم تذكرني بعلمك ، فإن
الناس أروى لأشعاركم ، فقال :

فن للقواني شأنها من يحوكها إذا ما مضى كعب وفوز جرول
كفيتك لا تلقى من الناس واحداً تنخل منها كل ما يتنخل
يثقفها حتى تلين كعوبها فيقصر عنها من يسيء ويعمل^٢

وقد ذكر (ابن قتيبة) هذه الأبيات في أثناء ترجمته (زهيراً) على هذه
الصورة :

ومن للقواني شأنها من يحوكها إذا ما توى كعب وفوز جرول
يقولُ فلا يعيا بشيء يقوله ومن قائلها من يسيء ويعمل
يقومها حتى تلين متونها فيقصر عنها كل ما يتمثل
كفيتك لا تلقى من الناس شاعراً تنخل منها مثل ما أنتنخل^٣

١ قيل لخلف الأحرار : زهير أشعر أم ابنه كعب ، قال : لولا أبيات لزهير
أكبرها الناس لقلت ان كعباً أشعر منه^٤ .

١ كارلو نالينو (١٠٤ وما بعدها) .

٢ الشعر والشعراء (١ / ٩١) ، الاصابة (٣ / ٢٨٠) ، (رقم ٧٤١٣) .

٣ الشعر والشعراء (١ / ٨٨) .

٤ الشعر والشعراء (١ / ٧٧ وما بعدها) ، الاصابة (٣ / ٢٨٠) .

وكان لكعب ابن يقال له : (عقية بن كعب) ، شاعرٌ ، وولد لعقبة العوام ، وهو شاعر كذلك^١ . فتنحن اذن أمام بيت توارث نظم الشعر .

وقد جمع علماء الشعر شعر (كعب) في ديوان ، كما شرحوا وفسروا قصيدة (بانث سعاد) التي نالت عندهم مكانة كبيرة ، لأنها قيلت في مدح الرسول ، ولتقدير الرسول لها واعطائه البردة ، تقديرًا لقيمتها ، حتى عرفت بقصيدة البردة، فصارت من أشهر أشعار العرب ، التي يتغنى بها في المناسبات ، حتى نفنن المغنون في غنائها ، وخلدت اسم الشاعر حتى اليوم. وقد ترجمت الى عدة لغات أعجمية، وشرطت وخمست ، لما صار لها من مكانة في أعين الشعراء^٢ .

ومن الشعراء المخضرمين : (العباس بن مرداس) من (بني سليم) ، وأمه (الخنساء) . أسلم قبل فتح مكة بيسير . ولما فرغ الرسول من ردّ سبايا (جنين) الى أهلها ، أعطى المؤلفة قلوبهم ، وكانوا أشرفاً يتألفهم ويتألف بهم قومهم ، فأعطى أبا سفيان وابنه معاوية ، وحكيم بن حزام ، والحارث بن كلدة، والحارث ابن هشام ، وسهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزّي ، وصفوان بن أمية، وكل هؤلاء من أشرف قريش ، والأقرع بن حابس بن عثان بن محمد بن سفيان المجاشعي النخعي ، وعيينة بن حصن الفزاري ، ومالك بن عوف النصري، أعطى كل واحد من هؤلاء مائة بعر ، وأعطى دون المائة رجالاً من قريش ، وأعطى العباس بن مرداس دون المائة ، أو أباعر ، فسخطها ، وقام بين يدي الرسول يعاتبه ، فقال :

• أنجعل تنهي ونهب العبيد بين عيينة والأقرع .

وأحياناً أخرى . فلما أنشد هذه الأبيات بين يديه ، قال : اقطعوا عني لسانه، فأعطي حتى رضي . وقيل أعطي مائة^٣ .

١ الشعر والشعراء (٨٠/١ وما بعدها) .

٢ للوقوف على التفاصيل المتعلقة بقصيدة البردة خاصة ، وبشعر كعب ، راجع بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٥٦/١ وما بعدها) ، وزيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١٨٣/١ وما بعدها) ، ودائرة المعارف الاسلامية .

٣ الخزائن (٧٣/١ وما بعدها) ، المرزباني ، معجم (٢٦٢) ، الشعر والشعراء (٢١٨/١) ، (٦٣٢/٢ وما بعدها) ، الطبري (١٣٧/٣) ، اللّالي (٣٢) .

ورويت الآيات على هذه الصورة :

كانت نهاباً تلافيتها وكترى على القوم بالأجرع
وحثي الجنود لكي يبلجوا اذا هجع القوم لم أمجع
فأصبح نهبي ونهب العبيد بين عينيه والأقرع
إلا أفاثل أعطيتها عديد قوائمه الأربع
وما كان بدر ولا حابس^١ يفوقان مرداس^٢ في المجمع
وقد كنت في الحرب ذاتدراً فلم أعط شيئاً ولم أمنع
وما كنت دون امرئ منها^٣ ومن تضع اليوم لا ترفع^٤

ولما بلغ زوجة العباس بن مرداس نبأ إسلامه ، قالت :

لعمرى لئن تابعت دين محمد وفارقت إخوان الصفا والصنائع
لبدلت تلك النفس ذلاً بكرة غداة اختلاف المهرقات القواطع^٥

ومن شعره قصيدته :

لأسماء رسم أصبح اليوم دارساً وأقفر إلا رحرحان وراكسا
وتعد^٦ من (المنصفات)^٧ .

وروي أن (حرب بن أمية) جد معاوية لما انصرف من حرب عكاظ هو
وإخوته مر بالقرية ، وهي إذ ذاك غيضة شجر ملتف لا يرام ، فقال له (مرداس)
والد العباس : أما ترى هذا الموضع ؟ قال : بلى فإله ؟ قال : نعم المزدرع
هو ، فهل لك أن تكون شريكى فيه ، ونحرق هذه الغيضة ثم نزرعه بعد ذلك ؟
قال : نعم . فأضرم النار في الغيضة ، فلما استطارت وعلا لها سمع من الغيضة
أنيناً وضجيجاً ، ثم ظهرت منها حيات بيض تطير وخرجت منها . ولم يلبث
حرب ومرداس أن ماتا : فأما مرداس فدفن بالقرية ، ثم ادعاها بعد ذلك

١ ابن سعد ، طبقات (٢٧٢/٤) ، (صادر) ، وقد رويت بشيء من التغيير في كتاب
الشعر والشعراء (٦٣٤/٢) .

٢ الاغانى (٦٦/١٣) .

٣ الخزائن (٥١٨/٣) ، الحماسة (١٦٨/١) ، البيان والتبيين (٦١/٣) .

(كليب بن أبي عهمة) الظفري ، فقال في ذلك عباس بن مرداس :

أكليب مالك كل يوم ظالماً والظلم أنكد وجهه ملعون
عجباً لقومك بحسبونك سيداً وإخال إنك سيد معيون
فإذا رجعت إلى نساءك فادهن إن المسالم رأسه مدهون
وافعل بقومك ما أراد بوائيل يوم للغدير سميت المطعون^١

وكان للعباس ولد اسمه (جاهمة) أسلم وصحب النبي^٢ .

وكان زيد الخيل بن مهلهل بن زيد (الطائي ممن وفد على رسول الله سنة تسع ، فسماه النبي : (زيد الخير) . وكان شاعراً خطيباً شجاعاً يكنى (أباً مكنف) . وأمه من (كليب) . وكان أحد شعراء الجاهلية وفرسانهم الملعودين ، وكان جسيماً طويلاً . مات (زيد الخيل) منصرفه من عند النبي ، وقيل في خلافة عمر^٣ .

ذكر أنه مر بفلام ، فسأله من أنت ؟ قال : أنا بجير بن زهير ، فحملة على ناقة ، ثم أرسل به إلى أبيه . فأراد (زهير بن أبي سلمى) والد الفلام لإثابته ، فأرسل إليه فرس ابنه (كعب) وكانت من جياد خيل العرب ، فاستاء (كعب) من ذلك ، وقال شعراً ليوقع بين قوم (زهير) وبين قوم (زيد الخيل) ، وهجا زيدا^٤ .

وكان لزيد الخيل ابنان ، يقال لهما مكنف وحرث ، أسلما وصحبا النبي وشهدا قتال (الردة) مع (خالد بن الوليد) . وحامد الراوية مولى (مكنف) . ولحرث شعر في رثاء (أوس بن خالد) ، وكان قد قتل في حرب^٥ .

وكان (مكنف) أكبر ولد أبيه ، وبه كان يكنى . وأسلم وحسن إسلامه ، وشهد قتال أهل الردة مع (خالد بن الوليد) . وكان أسلم هو وأخوه (حرث

١ الحيوان (١٤٣/٢) ، الاغانى (٨٩/٤) ، معاهد التنصيص (١٣/١) ، الحيوان (٢٠٨/٦) .

٢ ابن سعد ، طبقات (٢٧٤/٤) ، الاصابة (٢٢٠/١) وما بعدها) ، (رقم ١٠٥٢) .

٣ الاصابة (٥٥٥/١) ، (رقم ٢٩٤١) ، الاغانى (٦/١٦) ، الخزائن (٤٤٦/٢) ، عيون الانر (٢٣٦/٢) ، الشعر والشعراء (٢٠٥/١) ، (الثقافة) ، الحيوان (٢٠٤/٢) وما بعدها) .

٤ السيوطي ، شرح شواهد (٤٨٤/١) وما بعدها) .

٥ الشعر والشعراء (٢٠٥/١) وما بعدها) .

ابن زيد الخيل) ويقال له أيضاً (الحارث) ، وصحبا النبي . وشهدا قتال أهل الردة مع (خالد) واشترك (مكنف) في قتال (بني أسد) لما ارتدوا مع (طليحة) الأسدي . ونسبت له هذه الآيات في قتال طليحة :

ضلوا وغرهم طليحة بالمني كذباً وداعي ربنا لا يكذب
لما رأونا بالفضاء كئاباً يدعو إلى رب الرسول ويرغب
ولوا فراراً والرماح تؤزهم وبكل وجه وجهوا نرقب^١

و (حميد بن ثور بن حزن) الهلالي ، من الشعراء المخضرمين الفصحاء ، وكان كل من هاجاه غلبه . وقد وفد على النبي ، فأنشده شعراً فيه :

أصبح قلبي من سليمي مقصداً إن خطأ منها وإن تعمداً
حتى أتيت المصطفى محمداً يتلو من الله كتاباً مرشداً

وذكر أنه كان في عداد الصحابة الذين رووا عن الرسول ، وضعفه بعضهم . قيل إنه عاش إلى خلافة عثمان . وذكر بعض العلماء أنه عاش إلى ما بعد ذلك ، وأنه دخل على بعض خلفاء بني أمية ، فقال له : ما جاء بك ؟ فقال :

أتاك بي الله الذي فوق من ترى وبرك معروف عليك دليل^٢

وقد عدّه (ابن قتيبة) في الإسلاميين^٣ .

و (الأسود بن سريع بن حمير بن عبادة) التميمي السعدي ، ممن رأى الرسول وغزا معه وروى عنه . وكان شاعراً توفى في أيام (معاوية) ، وذكر أنه توفى سنة (٤٢ هـ) . وقيل فقد يوم الجمل ، وقيل ركب سفينة وحمل معه أهله وعياله ، لما قتل (عثمان) ، فما رؤي بعد . وكان قاصداً ، قيل إنه كان أول من قص في مسجد البصرة^٤ .

-
- ١ الإصابة (٤٣٦/٣) ، (رقم ٨١٩٩) .
 - ٢ الإصابة (٣٥٥/١) ، (١٨٣٤) ، تهذيب ابن عساكر (٤٦٠/٤) ، ياقوت ، ارشاد (١٥٣/٤) ، العيني (١٧٧/١) ، الاغانى (٩٧/٤) ، السيوطي ، شرح شواهد (٧٣) ، ديوانه ، (دار الكتب المصرية ١٩٥١ م) الفائق (٣٥٤/٢) .
 - ٣ الشعر والشعراء (٣٠٦/١) وما بعدها .
 - ٤ الإصابة (٥٩/١) وما بعدها ، (رقم ١٦١) ، الاستيعاب (٧٢/٢) ، (حاشية على الإصابة) .

وكان (ضرار بن الأزور بن مرداس) الأسدي ، فارساً شجاعاً وشاعراً مطبوعاً ، استشهد يوم اليمامة ، وقيل بعد ذلك . وقد أنى النبي فأنشده :

خلعت القداح وعزف القيان والحمر أشربها والهمالا
وكرى المجبر في غمرة وجهدي على المشركين القتالا
وقالت جميلة بددتسا وطرحت أهلك شتى شمالا
فيا رب لا أغبن صفقة فقد بعث أهلي ومالي بدالا^١

ولضرار قصيدة قالها في يوم الردة ، لما بلغه ارتداد قومه من (بني أسد) ، منها :

بني أسد قد ساءني ما صنعتم وليس لقوم حاربوا الله محرم
وأعلم حقاً انكم قد غويمت بني أسد فاستأخروا أو تقدموا
نهينكم أن تنهبوا صدقاتكم وقلت لكم : يا آل ثعلبة اعلموا
عصيتم ذوي أحلامكم وأطعمت ضجياً وأمر ابن اللقيطة أشام
وقد بعثوا وفدأ الى أهل دومة فقبح من وفد ومن يثيم
ولو مثلت عنا جنوب لجبرت عشية سالت عقرباء بها الدم

وضجيم هو (طلحة بن خويلد) ، وكانت أمه حميرية أخيلة ، وابن اللقيطة : (عيينة بن حصن) ، وقوله : يا آل ثعلبة ، أراد ثعلبة الحلاف بن دودان بن أسد . وعقرباء بأرض اليمامة^٢ . وكان (عيينة) قد انضم الى (طلحة) الذي تسميه الموارد (طليحة) استصغاراً لشأنه ، كما دعت (مسلمة) (مسيلمة) ، وقال : « والله لأن نتبع نبياً من الخلفين أحب إلينا من أن نتبع نبياً من قريش ؛ وقد مات محمد ، وبقي (طليحة) ، وقاتل معه حتى هرب . وكان يدير المعركة وهو متلطف في كساء له بفناء بيت له من شعر ، يتنبأ لهم ، والناس يقتتلون ، حتى جاءه الوحي بقوله : « ان لك رحا كرحاه ، وحديثاً لا تنساه » ، ثم لم يصمد ، فهرب^٣ .

وضرار هو الذي قتل (مالك بن نويرة) بأمر (خالد بن الوليد)^٤ .

-
- ١ الاصابة (٢٠٠/٢) ، (رقم ٤١٧٢) ، الاستيعاب (٢٠٣/٢) ، (حاشية على الاصابة) .
 - ٢ الخزانة (٥/٢ وما بعدها) ، (بولاق) .
 - ٣ الطبري (٢٥٦/٣) .
 - ٤ الخزانة (٨/٢ وما بعدها) ، (بولاق) .

وكان (هودّة بن علي) الحنفي شاعراً وخطيباً ، ذكر أنه كتب الى الرسول كتاباً يقول فيه : « ما أحسن ما تدعو اليه وأجمله ، وأنا شاعر قومي وخطيبهم ، والعرب تنهاب مكاني ، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك » . وقد مات عام الفتح . وهو شاعر يجب إدخاله في الجاهليين ، لأنه لم يعتنق الإسلام ، وقد تحدثت عنه هنا ، لأنه من المتأخرين ، وله خبر مع الرسول .

و (فروة بن مسيك بن الحارث بن سلمة) المرادي ، شاعر ، وهو صحابي مخضرم . وكان من أشرف قومه ، قدم على رسول الله ، مفارقاً للملوك كندة ، فبايعه ، ونزل على (سعد بن عباد) ، فكان يحضر مجلس رسول الله ، ويتعلم القرآن وفرائض الإسلام . ثم استعمله الرسول على مراد وزبيد وملحج كلها ، وكتب معه كتاباً الى الأبناء باليمن يدعوهم الى الإسلام ، فأقام فيهم حتى توفي رسول الله . وذكر أن النبي ، أجاز (فروة) باثني عشر أوقية ، وحمله على بعير نجيب وأعطاه حلة من نسج عمان . واستعمله (عمر) - كما جاء في رواية - على صدقات ملحج^٢ .

وقد جمع شعر (فروة) في ديوان ، رجع (السيوطي) اليه ، ونقل منه^٣ . و (عمرو بن معديكرب) الزبيدي من أشرف اليمن وساداتهم ، وقد اشتهر وعرف بالشجاعة ، قال عنه « أبو عمرو بن العلاء : لا يفضل عليه فارس في العرب » . وكان فحلاً في الشجاعة والشعر . وأكثر شعره في الحاسة . وقد اشتهر بسيفه (الصمصامة) ، والأرجح انه شهد (القادسية) ، وكان له أثر فيها . واختلف في صحبته للنبي ، فمن العلماء من ذكر انه لم يلق الرسول ، وانما قلم المدينة بعد وفاته ، ومنهم من ذكر انه قلم المدينة في وفد (زبيد) ، فأسلم سنة تسع أو عشر ، وصحب الرسول . ولا تخلو أقوال الرواة فيه من أثر العصبية لليمن أو عليها ، وقد اختلف في عمره ، وأكثرهم انه مات بعد أن تجاوز المائة : ومنهم من جعل عمره فوق المائة والخمسين^٤ . وهو ابن خالة (الزبرقان بن بدر)

١ ابن سعد ، الطبقات (١ / ٢٦٢) .

٢ السيوطي ، شرح شواهد (١ / ٨٢ وما بعدها) .

٣ السيوطي ، شرح شواهد (١ / ٨٢) .

٤ الاصابة (٣ / ١٨ وما بعدها) ، (رقم ٥٩٧٢) ، الاغانى (١٤ / ٢٤) ، المؤلف (١٥٦) ، المرزباني ، معجم (٢٠٨) ، الخزائن (١ / ٤٢٢) ، (٣ / ٤٦٠) ، الشعر والشعراء (١ / ٢٨٦ وما بعدها) .

التميمي ، وأخته (ربحانة بنت معدي كرب) والدته (حريد بن الصمة) ، و (عبدالله ابن الصمة) . وكانت تحت (الصمة بن الحارث)^١ .

وورد في بعض الروايات ، أنه قدم على رسول الله المدينة فأسلم ، ثم ارتد بعد وفاته فبقي ارتد باليمن ، ثم عاد الى المدينة فشهد اليرموك ثم هاجر الى العراق فأسلم ، وشهد القادسية ، وله بها أثره وبلاؤه ، وشهد مع النعمان بن مقرن المزني فتح نهاوند ، فقتل هناك ، مع النعمان وطليحة بن خويلد ، فقبورهم بموضع يقال له : (الاسفينهان)^٢ .

ومن شعره الذي يتمثل به ، قوله :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

وقوله :

أريد حباه ويريد قتلي عذيرك من خليك من مراد

وتمثل به علي بن أبي طالب ، لما رأى عبد الرحمن بن ملجم المرادي^٣ .

ولعمرو بن معديكرب ، ديوان برواية (أبي عمرو الشيباني) رآه (ابن حجر) وقال عنه « ورأيت في ديوانه رواية أبي عمرو الشيباني من نسخة فيها خط أبي الفتح بن جني قصيدة بقول فيها :

والقادسية حين زاحم رستم كنا الكماة نهر كالاسطان
ومضى ربيع بالجنود مشرقاً ينوي الجهاد وطاعة الرحمن^٤

وأورد (ابن حجر) له أشعاراً أخرى .

ونجد لعمرو بن معدي كرب شعراً في وصف الحرب ، ذكر أن (عمر) سأله :

-
- ١ الشعر والشعراء (٢٨٩/١) .
 - ٢ الشعر والشعراء (٢٨٩/١ وما بعدها) ، الخزائنة (٤٢٥/١ وما بعدها) ، (بولاق) .
 - ٣ المرزباني ، معجم (١٦) ، (مراج) .
 - ٤ الاصابة (٢٠/٣) ، (رقم ٥٩٧٢) ، الاغاني (٢٤/١٤) ، الخزائنة (٤٢٥/١) ، السيوطي ، شرح شواهد (٤١٩/١) .

« أخبرني عن الحرب » ، فقال : هي كما قال الشاعر :

الحرب أول ما تكون فتيةً تسعى بزيتها لكل جهول
حتى إذا استعرت وشبّ ضرامها عادت عجوزاً غير ذات حليل
شمطاء جَزَتْ رأسها وتكرت مكروهة للضم والتقييل

وهي في بعض الروايات من شعره^١ .

ومن شعر (عمرو بن معدى كرب) قوله :

سوى أنْ أصوباً باعقق لم يزل بها آنسٌ من أهلها غير بارح
وجدنا به العَمْرَيْنِ عمرُ بنِ عُدْية وعمرو بن عمرو في حلال سُلَاطِح
وجدنا بني عمرو ثمانين فارساً لكل صباحٍ كاشر التاب كالح
وكان الغدانيون تحت رماحهم رماح بني عمرو غداة المصايح
مصافين أصهاراً ورحماً وجيرةً وما كان فيهم فارس غير جامع^٢

وقوله :

وجدك مخفي^٣ على الوجه ناعس^٤ تشير به الركبان ما قام أفرع^٥

وله أشعار قالها في حروبه في العراق مع جيش الفتح .

و (ساعدة بن جؤية) (ساعدة بن جؤين) (جؤية) ، هو من الشعراء
المخضرمين . أدرك الجاهلية والاسلام ، وأسلم . وليست له صحيفة . قيل عن
شعره انه محشو بالغريب والمعاني الغامضة^٦ . وهو شاعر من شعراء مضر ، محسن ،
قيل عن شعره انه ليس فيه من الملح ما يصلح للمذاكرة^٧ .

-
- ١ شرح ديوان الحماسة (٢٥٢/١ ، ٣٦٨ ، ٤٠٨) ، الجمان في تشبيهات القرآن (٣٣٩) .
 - ٢ الصفة (١١٥) .
 - ٣ الصفة (١٢٦) .
 - ٤ السيوطي ، شرح شواهد (١٩/١ ، ١٥٦) ، ديوان الهذليين (١٦٧/١) ،
الخزانة (٢٦٧/١ وما بعدها) ، (ساعدة بن جؤين ويقال ابن حرية ٠٠٠ قال
أبو القاسم الحسن بن بشر الامدي : ساعدة بن حوية) ، الاصابة (١٠٦/٢) ،
(رقم ٣٦٥٠) .
 - ٥ الخزانة (٤٧٦/١) ، (بولاق) .

و (أبو ذؤيب) (خويلد بن خالد بن محرث) ، شاعر مخضرم ، مجيد . وهو من (هذيل) . رحل الى المدينة ، فوصلها والرسول مسجى ، فكان ممن صلى عليه وشهد دفنه . « سئل حسان من أشعر الناس ؟ فقال حياً أم رجلاً ؟ قالوا حياً ، قال : هذيل ، وأشعر هذيل غير مدافع أبو ذؤيب . وتقدم أبو ذؤيب على جميع شعراء هذيل بقصيدته العينية التي أولها :

أمن المنون وريبها تتوجع ^١ ، التي يرثي بها بنيه .

وقد قال عنه بعض المؤرخين انه شاعر مجيد مخضرم كان أشعر هذيل، وهذيل أشعر أحياء العرب ^٢ . وقال المرزباني عنه : كان فصيحاً كثير الغريب متمكناً في الشعر ، وعاش في الجاهلية دهرأ وأدرك الاسلام ، وأسلم . وعامة ما قال من الشعر في إسلامه ^٣ . هلك في زمان عثمان وقيل في زمن (عمر) ^٤ .

وكان راوية لساعدة بن جؤية الهللي ^٥ .

وتعد قصيدته المذكورة التي قالها في رثاء بنيه الخمسة أو الثمانية الذين قتلوا أو هلكوا بالطاعون في عام واحد ، من أجود شعره . وهي قصيدة تفيض بالأسى والحنان على بنيه الذين ترك فراقهم أمى وحسرة في قلبه . وأولها :

أمن المنون وريبها تتوجع والدمر ليس بمعتب من يجزع

ومن أبياتها الجيدة :

واذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كل نيمة لا تنفع ^٦

- ١ السيوطي ، شرح شواهد (٢٩/١) ، الشعر والشعراء (٥٤٧/٢ وما بعدها) ، الاغانى (٥٦/٦ وما بعدها) ، الخزائن (٢٠١/١) ، المؤلف (١١٩) ، ابن سلام ، طبقات (١١٠) ، معاهد التنصيص (١٦٥/٢) .
- ٢ السيوطي ، شرح شواهد (٣٠/١) ، ديوان الهذليين (١٥٨/١) ، دار الكتب المصرية .
- ٣ الاصابة (٦٦/٤) ، (رقم ٢٨٨) ، حسن المحاضرة (١١٣/١) ، أسد الغابرة (١٨٨/٥) ، ياقوت ، ارشاد (١٨٥/٤ وما بعدها) .
- ٤ السيوطي ، شرح (٣٠/١ وما بعدها) ، الاصابة (٦٦/٤) ، (رقم ٢٨٨) ، رسالة الغفران (١٥١ ، ١٦٦ ، ١٩٩ ، ٢٠٠) .
- ٥ الشعر والشعراء (٥٤٧/٢ وما بعدها) .
- ٦ جمهرة أشعار العرب (١٢٨ وما بعدها) ، (بولاق) ، السيوطي ، شرح شواهد (٩٢ وما بعدها) ، كارلو فالينو ، تاريخ الاداب العربية (١١١ وما بعدها) .

وقد وصف فيها حاله ، وكيف أن جسمه صار شاحباً من الوجد على ما حل ببنيه ، وكيف أنه صار لا يعرف طعم الراحة ولا النوم ، حتى صار بعيش ناصب ، يخال نفسه إنه لاحق بهم مستبج ، ولقد حرص بأن يدافع عنهم ، ولكن المنيّة منى أقبلت فلا دافع لها :

ولقد حرصت بأن أدافع عنهم وإذا المنيّة أقبلت لا تدفع
وإذا المنيّة أنشبت أظفارها الفيت كل تميّة لا تنفع

ولأبي ذؤيب شعر في رثاء الرسول وردت أبيات منها في (الاستيعاب) . وقد اختلف في المكان الذي توفي به هذا الشاعر ، كما اختلف في سنة وفاته^١ . وقد طبع ديوانه^٢ . وكان أبو ذؤيب ، شاعراً فحلاً ، لا غمزة فيه ولا وهن^٣ . ومن شعره في رثاء الرسول قوله :

لما رأيت الناس في عسلانهم من بين ملحد له ومضرح
متبادرين لشرجع بأكفهم نص الرقاب لفقد أبيض أروح
فهناك صرت إلى الموم ومن بيت جار الموم بيت غير مروح
كسفت لمصرعه النجوم وبدرها وتزعزعت أطام بطن الأبطح
وتزعزعت أجيال يثرب كلها ونخيلها لخلول خطب مفدح
ولقد زجرت الطير قبل وفاته بمصابه وزجرت سعد الأذبح

وكان لأبي ذؤيب ابن يقال له (مازن بن خويلد) ، ويكنى أبا شهاب ، وهو أحد شعراء هذيل^٤ .

و (أبو خيراش) ، (خويلد بن مرة الهذلي) من شعراء هذيل ، وهو شاعر مشهور ، أدرك الإسلام شيخاً كبيراً ووفد على (عمر) وفي أيامه كانت وفاته . وكان أحد الفصحاء . يقال إنه كان سريع الجري . دخل مكة

١ الاستيعاب (٦٧/٤) ، (حاشية على الاصابة) ، الخزاعة (٢٠٣/١) ، (بلاق) .

٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٦٩/١) وما بعدها .

٣ ابن سلام ، طبقات (٢٩) ، (ليدن) ، أمالي المرتضى (٢١٧/١) ، ٢٥٩ ، ٢٩٣ ، ٤٩٢ ، (٦١٦) .

٤ الروض الانف (٣٧٩/٢) .

٥ الشعر والشعراء (٥٥٠/٢) .

في الجاهلية ، وللوليد بن المغيرة فرسان ، فقال : ما نجعل لي إن سبقتها عدواً ؟
قال : إن فعلت فهذا لك ، فسبقها . يقال إن ضيوقاً من اليمن نزلوا عليه ، فلهب
يستقي لها الماء فنهشته حية ، فأقبل مسرعاً حتى أعطاهم الماء ، ولم يعلمهم ما
أصابه . فباتوا يأكلون ، فلما أصبحوا وجدوه في الموت ، فأقاموا حتى دفنوه .
فبلغ عمر خبره ، فكتب الى عامله أن يأخذ النقر الذين نزلوا بأبي خراش
فيغرمهم دينته^١ .

ومن شعره :

لا هم هذا رابع إن تمّا أتمه الله وقد آتّا
إن تغفر اللهم تغفر جمّا وأي عبد لك لا آتّا

قاله وهو يسمى بين الصفا والمروة ، وثم شجر يومئذ^٢ .

ولأبي خراش أخ يقال له : (عروة بن مرة) ، من شعراء هذيل المعدودين ،
وأخ آخر اسمه (أبو جندب بن مرة) ، أحد شعراء هذيل المعدودين
أيضاً^٣ .

و (صخر) الغني ، هو (صخر بن عبد الله) الحثيمي الهللي ، من شعراء
الحلاعة ، وقد عرف بشدة بأسه وكثرة شره ، وله صاحبة اسمها (دهماء) .
وقد ذكرها في قصيدته :

لاني بدهماء عزّ ما أجدُ يعتادني من حبابها زؤد
عاودني حبها وقد شحطت صرف نواياها فأنني كمد^٤

١ الاصابة (٤٥٧/١) ، (رقم ٢٣٤٥) ، الخزانة (٢٣٣/٣) ، السيوطي ، شرح
شواهد (٤٢٣/١) ، الاغانى (٥٤/٢١) ، طبع ديوانه في مجموعة الشعراء
الهذليين ، الخزانة (٢١٢/١ وما بعدها) ، (بولاق) ،

J. Hell, Neue Hudhailiten Diwane, 2 Leipzig, 1933.

كارلو فالينو ، تاريخ الاداب العربية (١١١) .

٢ السيوطي ، شرح شواهد (٦٢٥/٢) ، الخزانة (٢١١/١) .

٣ الشعر والشعراء (٥٥٤/٢ وما بعدها) .

٤ رسالة الغفران (٣٤٥) ، الشعر والشعراء (٥٥٩/٢) ، الاغانى (١٩/٢٠) ،

ديوان الهذليين (٥٧/٢) ، الاصابة (١٩٢/٢) ، (رقم ٤١٢٧) .

وهو على رأي (المرزباني) من المخضرمين^١ .

و (النمر بن تولب بن زهير بن أقيش) ، شاعر مخضرم ، يكنى (أباربيعة) ويسمى (الكيس) ، أدرك الاسلام وهو كبير ، وهو من (الصحابة) . وهو من (بني عكل) . وصف بأنه كان جواداً واسع القري ، كثير الأضياف ، وهاباً لاله . وانه كان أفنى الشعراء ، شاعراً فصيحاً جريئاً على المنطق^٢ . قال عنه (المرزباني) : « كان شاعراً فصيحاً ، وفد على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكتب له النبي صلى الله عليه وسلم كتاباً ، ونزل البصرة بعد ذلك . وكان أبو عمرو بن العلاء يسميه الكيس لجودة شعره وكثرة أمثاله . وكان جواداً وعمر طويلاً حتى أنكر عقله ، فيقال انه عمر مائتي سنة . وهو القائل :

يحبّ الفنى طول السلامة جاهاً فكيف يرى طول السلامة يفعل

وله شعر يخاطب به النبي منه :

إنّا أتيناك وقد طال السفر أقود خيلاً وجعا فيها ضرر^٣

وفرق (ابن حزم) بين (النمر بن تولب بن أقيش) العكلي ، وبين (النمر بن تولب) وبين (النمر بن قاسط) . وقال إنه الذي عاش حتى خرف . ويقال إن للنمر بن تولب العكلي ابناً يقال له (ربيعة) هاجر الى الكوفة^٤ .

وكان (النمر) شاعر الزباب في الجاهلية، ولم يمدح أحداً ولا هجا، واستحسن من شعره قوله :

-
- ١ الاصابة (١٩٢/٢) ، (رقم ٤١٢٧) .
 - ٢ السيوطي ، شرح شواهد (١٨١/١ وما بعدها) ، الاغاني (٢٨٧/٢٢) ، طبقات الشعراء (١٣٤) ، الشعر والشعراء (٢٦٨) ، العمدة (١١٨/٢) ، الشعر والشعراء (٢٢٧/١ وما بعدها) ، (دار الثقافة) ، الاغاني (١٥٧/١٩) ، (ساسي) ، المعمرين (٨٧ ، ٧٠) ، الخزانة (١٥٢/١) ، ابن سلام ، طبقات (١٣٣) ، (٣٧) ، (ليدن) ، البيان والتبيين (٣/١ ، ١٢ ، ٥٥ ، ١٥٤ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢٨٤ ، ٤٠٨) ، (١٣٤/٢) ، (٤٤/٣) ، البخلاء (١٦٣ ، ٢٢٩ ، ٣٨٤) ، رسالة الغفران (١٥٣) .
 - ٣ تختلف روايات هذا الشعر ، الاصابة (٥٤٢/٣) ، (رقم ٨٨٠٤) ، الاستيعاب (٥٤٩/٣ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
 - ٤ الاصابة (٥٤٣/٣) ، (رقم ٨٨٠٤) .

تدارك ما قبل الشباب وبعده حوادث أيام تمر وأغفل
يود الفتى طول السلامة والفتى فكيف يرى طول السلامة يفعل
يرد الفتى بعد اعتدال وصحة ينوء اذا رام القيام ويحمل^١

ومن الشعر المنسوب اليه قوله :

خاطر بنفسك كي تنالَ رغبةً إنَّ القعود مع العيال قبيح
إن المخاطر مالكُ أو هالك والجدُّ يجلي مرةً فيريج

وقوله :

ومتى تصبك خصاصةً فارحُ الفنى وإلى الذي يهب الرغائب فارغب
لا تغضبن على امرئ في ماله وعلى كرائم أصل مالك فاغضب^٢

وقد تعرض (النمر بن تولب) في شعره الى قصة (زرقاء) اليمامة وجديس ،
والى قصة غزو (تبع) لجديس واستباحته اليمامة^٣ . وقد ورد ذكر (عادباء)
في شعره بقوله :

هلا سألتِ بعادباء وبيتَه والخيل والخمر التي لم تمنع^٤

وفي شعره قصص عن (لقمان) وعن (لقيم بن لقمان) من أخته^٥ ، ويظهر
أنه كان من الأشخاص الذين كانوا يهتمون بالقصص والحكايات المروية عن
الجاهليين ، فأدبج شيئاً منه في شعره .

و (الخنساء بنت عمرو بن الشريد بن رباح بن ثعلبة بن عَصِيَّة بن خفاف
ابن امرئ القيس بن بهثة بن سليم) السلمية ، واسمها (تماضر) ، ممن أدركن
الاسلام . وقد أسلمت فعدت صحابية . و (الخنساء) لقبها ، قدمت على
رسول الله مع قومها فأسلمت . وذكر ان الرسول كان يستشدها ويعجبه شعرها .

١ الاستيعاب (٥٥١/٣) ، الخزانة (١٥٦/١) ، (يولاق) .

٢ بلوغ الارب (١٣٤/٣) وما بعدها .

٣ الخزانة (١٥٥/١) وما بعدها ، (يولاق) .

٤ البخلاء (١٦٤) .

٥ البيان والتبيين (١٨٤/١) .

« وأجمع أهل العلم بالشعر على أنه لم يكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها . وكانت أول أمرها تقول البيتين والثلاثة حتى قتل أخوها معاوية ثم أخوها صخر ، فأكثر من الشعر وأجادت »^١ . وهي أم الشاعر (العباس بن مرداس) ، وأم اخوته الثلاثة وكلهم شاعر . ولم تلد إلا شاعراً ، وذكر (الكلبي) أن أم ولد (مرداس) جميعاً الخنساء ، إلا العباس ، فلأنها ليست أمه ، ولم يذكر من أمه . غير أن (أبا فرج الأصبهاني) ذكر أنها أمه . وكان النبي يعجبه شعرها ويستنشدنا ويقول هيه يا خنساء ويومئ ييده »^٢ .

روي أنها كانت تقول الشعر في زمن النابغة الديلمي ، وكان النابغة تضرب له قبة حمراء من آدم بسوق عكاظ ، وتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها ، وكانت (الخنساء) ممن أنشدته شعرها ، ويقال أنه لما سمع شعرها ، قال : « والله ما رأيت ذات مثانة أشعر منك ، فقالت له الخنساء : والله ولا ذا خصيص »^٣ . ومن جيد شعرها ، قولها في (صخر) أخيها :

لا بد من ميتة في صرفها غير والدهر من شأنه حول واضرار
وان صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار^٤

وذكر أنها كانت سوتت هودجها براءة في الموسم ، وعاظمت العرب بمصبيتها بابتها (عمرو) وبأخويها صخر ومعاوية ، وجعلت تشهد الموسم وتبكيهم ، وأن هنداً ابنة عتبة لما قتل بيدر أبوها وعمها شيبة وأخوها الوليد فعلت كذلك وقالت : اقرونا جملي بجمال الخنساء ، فصارتا تبكيان وتناشدان »^٥ .

وروي أن رسول الله كان يستحسن قول الخنساء في صخر أخيها :

لا بد من ميتة في صرفها غير والدهر من شأنه حول واضرار^٦

- ١ السيوطي ، شرح شواهد (٢٥٣/١ وما بعدها) ، الخزائن (٢٠٩/١) ، (بولاق) ،
الآلغاني (١٩/١٣) ، الخزائن (٤٠٣/٣) ، بروكلمن (١٦٤/١ وما بعدها) .
- ٢ الخزائن (٢٠٨/١ وما بعدها) ، (بولاق) .
- ٣ الشعر والشعراء (٢٦٠/١ وما بعدها) .
- ٤ المحاسن والاضداد (٩٣) ، (أشم أبلج تأتم الهداة به) ، الشعر والشعراء (٢٦٣/١) .
- ٥ السيوطي ، شرح شواهد (٢٥٥) .

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وذكر أنها زارت (عائشة) وتحدثت معها^١ :

وروي أنها حضرت حرب القادسية ومعها بنوها أربعة رجال ، فحثهم على القتال والاسماتة فقتلوا جميعاً ، فقالت : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم . وكان (عمر) أمر أن تعطى الخنساء أرزاق أولادها الأربعة حتى توفي^٢ ، وله قصة معها ، وذكر أنه لما طلب منها أن تكف عن البكاء ، قال لها : ما الذي أفرح ما في عينيك ؟ قالت : البكاء على سادات مضر ، قال : إنهمهلكوا في الجاهلية ، وهم أعضاء اللهب وحشو جهنم . قالت : فذاك أبي وأمي فذلك الذي زادني وجعاً . ثم طلب منها أن تنشده من شعرها ، فأنشدته :

سقى جدناً أعراق غمرة دونه وييشة ديمت الربيع ووابله^٣

و (خفاف بن ندبة) ، هو (خفاف بن ضمير بن الحارث بن الشريد بن رياح بن يقظة بن عصبة) ويكنى أبا خراشة ، وهو ابن عم الخنساء و (ندبة) أمه . وهو شاعر مشهور من المخضرمين ، وله شعر يمدح به (أبا بكر) ، وبقي الى زمن (عمر) ، وكان أسود حالكاً^٤ . شهد الفتح وكان معه لواء (بني سليم) ، وذكر (الأصمعي) ، انه ودريد أشعر الفرسان . وله يقول :
العباس بن مرداس :

أبا خراشة أما أنت ذا نفر فإن قومي لم تأكلهم الضبع^٥

ويعد من فرسان قيس وشعرائها المذكورين .

وضابىء بن الحارث بن أوطاة البرجمي ، وسويد بن كراع العكلي، والحويطرة الذبياني ، واسمه قطبة بن أوس بن محصن بن جرجول ، وسُحيم عبد بني الحسحاس الأسديين ، من طبقة واحدة ، تكون الطبقة التاسعة في (طبقات الشعراء) ،

-
- ١ المحاسن والاضداد (٩٣) .
 - ٢ السيوطي ، شرح شواهد (٢٥٤ / ١) .
 - ٣ المحاسن والاضداد (٩٤) .
 - ٤ السيوطي ، شرح شواهد (٣٢٥ / ١) .
 - ٥ الإصابة (٤٤٨ / ١) ، (رقم ٢٢٧٣) .

لابن سلام^١ . وكان (ضابىء) ، رجلاً بدياً كثير الشر ، وكان بالمدينة ، صاحب صيد وصاحب خيل ، وقد حبسه عثمان ، وبقي في سجنه حتى مات^٢ .

و (سحيم) عبد بني الحسحاس ، شاعر مشهور مخضرم ، أدرك النبي ، وتمثل النبي بشيء من شعره . وكان عبداً أسود شديد السواد أعجمياً . وذكر ان اسم (عبد بني الحسحاس) (حميمة) ، وقيل (سحيم) ، وانه شبب بنساء قومه ، ثم بينت سيده فقتله ميلاً . وقيل ان قتله كان في خلافة عثمان^٣ . وله ديوان مطبوع^٤ . وورد ان (عمر) أمر بقتله لأبيات فاحشة . وذكر انه حُفر له أخدود وضع فيه وألقى عليه الحطب ثم أحرق^٥ . وورد ان (عمر) استشهده شعره ، وانه أنشده قصيدته :

ودع سليمى إن تجهزت غاديا كفى الشيب والاسلام للمرء ناهيا^٦

وكان سحيم حبشياً معلطاً قبيحاً ، وهو القائل في نفسه :

أتيت نساء الحارثيين غدوةً بوجه براه الله غير جميل
فشبهني كلباً ولستُ بفوقه ولا دونه إن كان غير قليل

اشتراه (عبدالله بن أبي ربيعة المخزومي) ، وكتب الى (عثمان) : « لاني قد اشتريت لك غلاماً حبشياً شاعراً ، فكتب اليه عثمان : لا حاجة بنا اليه ، فاردده ، فلانما حظ أهل العبد الشاعر منه إذا شيع أن يشبب بنسائهم ، وإذا جاع أن يهجوهم » . ويقال سمعه عمر بن الخطاب ينشد :

ولقد نخلت من كريمة بعضهم عرقاً على جنب الفرائس وطيب

١ (ص ٣٩ وما بعدها) .

٢ ابن سلام ، طبقات (٤٠) .

٣ السيوطي ، شرح شواهد (٣٢٧/١) ، الخزائن (٢٧٣/١) ، الاغانى (٩/٢٠) ، الخزائن (٢٧١/١) ، ابن سلام ، طبقات (١٥٦) ، أسماء المقتالين (٢٧٢) ، ديوان المعاني ، للمسكري (١٦٦/٢) ، الخزائن (١٢٨/١ وما بعدها) ، (بولاق) .

٤ ديوان سحيم عبد بني الحسحاس (تحقيق عبد العزيز الميمنى) ، (دار الكتب المصرية ١٩٥٠ م) .

٥ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٧١/١) .

٦ الاصابة (١٠٨/٢) ، (رقم ٣٦٦٤) .

فقال له : إنك مقتول ، فسقوه الخمر ثم عرضوا عليه نسوة ، فلما مرت به التي كان يتهم بها أهوى اليها ، فقتلوه ، ، الى غير ذلك من قصص^١ .

و (سحيم بن وثيل بن أعيقر بن أبي عمرو بن إهاب بن حيري) الرياحي ، شاعر مخضرم ، تفاخر هو وغالب بن صعصعة والد الفرزدق ، فتناحرا الإبل . وقد وصف بأنه شاعر خنذيد شريف مشهور الذكر في الجاهلية والإسلام . وله قصيدة مطلعها :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني
وماذا يترك الشعراء مني وقد جاوزت حد الأربعين^٢

و (ربيعة بن مقروم بن قيس بن جابر بن خالد) الضبي ، أحد الشعراء المخضرمين . وكان أحد شعراء مضر . ذكر أنه وفد على كسرى في الجاهلية ، ثم عاش الى أن أسلم^٣ . « وذكره دعبل في طبقات الشعراء ، وقال مخضرم حبسه كسرى بالمشقر ثم أدرك القادسية »^٤ . وكانت عبد القيس أسرته ، ثم منت عليه بعد دهر^٥ .

والشاعر (أبو زيد ، حرملة بن المنذر بن معديكرب بن حنظلة) الطائي من شعراء طيء ، وكان نصرانياً ومات على دينه بعد خلافة عثمان^٦ . وكان نديم

-
- ١ الشعر والشعراء (٣٢٠/١ وما بعدها) ، الخزانة (١٠٢/٢ وما بعدها) ، (عبد السلام محمد هارون) ، المحاسن والاضداد (١٤٣ وما بعدها) .
 - ٢ الخزانة (١٢٣/١) ، البيان والتبيين (٢٤٦/٢) ، الامالي (٢٤٦/١) ، الاشتقاق (٢٢٤) ، الشعر والشعراء (٦٢٦) ، الاصمعيات (رقم ١) ، السيوطي ، شرح شواهد (٤٥٩/١ وما بعدها) ، الشعر والشعراء (٥٣٨/٢) ، (دار الثقافة) ، ابن سلام ، طبقات (٤٨٩) ، ذيل الامالي (٥٢/٣) ، الاغاني (٥/١٩) ، الاصابة (١٠٩/٢) ، (رقم ٣٦٦٥) .
 - ٣ السيوطي ، شرح شواهد (٤٦٧/١) ، (٨٦٠/٢) ، شرح المفصليات (٣٥٥) ، الخزانة (٥٦٩/٣) ، الاغاني (٩٠/١٩) ، السمط (٣٧) .
 - ٤ الاصابة (٥١١/١) ، (رقم ٢٧٣٦) .
 - ٥ الشعر والشعراء (٢٣٦/١ وما بعدها) .
 - ٦ السيوطي ، شرح شواهد (٦٤٠/٢ وما بعدها) ، الاغاني (٢٣/١١) ، ابن سلام ، طبقات (١٣٢ وما بعدها) ، الخزانة (١٥٥/٢) ، الامالي ، للقالبي (١٨٣/٣) ، جمهرة اشعار العرب (١٣٨) .

(الوليد بن عقبة) ، يشرب الخمر معه ، ولما صار (الوليد بن عقبة) الى (الرقة) ، سار (أبو زيد) اليه ، فكان ينادمه ، وكان يحمل في كل يوم أحد الى البيعة ، فيحضر مع النصاري ، ويشرب ، ولما مات دفن على (البليخ) ، وهناك أيضاً قبر (الوليد بن عقبة)^١ . وقد اشتهر بوصف الأسد ، وكان مغرى بوصفه في شعره^٢ . وورد في رواية انه أسلم بتأثير (الوليد بن عقبة) عليه . لكن الأغلب انه بقي على نصرانيته ، وقد استعمله (عمر) على صدقات قومه ، ولم يستعمل نصرانياً غيره . قيل انه رثى (علي بن أبي طالب) . وكان له أخ (من خلصة ملوك المعجم) . وذكر انه بقي الى أيام معاوية^٣ .

و (الشماخ بن ضرار) الذبياني من الشعراء كذلك ، أدرك الجاهلية والإسلام . و (الشماخ) لقب ، واسمه (معقل) ، وقيل (الهيثم) . قال ابن الكلبي : كان الشماخ أوصف الناس للخمر وللقوس ، وأرجز الناس على بديهة ، وهو كثير المهجاء ، له مهاجاة مع (الخليل بن سعد) التغلبي . وله شعر في مدح (عرابة) الأوسي ، وكان قدم المدينة ، فأقر له عرابة راحلته تمرأ وبرأ وكساه وأكرمه^٤ . وكان له أخوان : مزرداً وجزءاً ، رويت مقطعات صغيرة من شعرهما . وللشماخ ديوان شعر مطبوع^٥ . قال عنه (ابن سلام) : « فأما الشماخ : فكان شديد متون الشعر ، أشد أسر الكلام من لييد ، وفيه كزازة . ولييد أسهل منه منطقاً ، وكان للشماخ اخوة ، وهو أفحلهم ، ومزرد هو أشبههم به^٦ . ذكر ان (الوليد بن عبد الملك) أنشد شيئاً من شعره في وصف الحمير ، فقال : ما أوصفه لها ، اني لأحسب ان أحد أبويه كان حمراً . قيل : كان يهجو قومه

-
- ١ الشعر والشعراء (٢٢١/١) .
 - ٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٧٣/١) .
 - ٣ الاصابة (٨٠/٤) .
 - ٤ الاصابة (١٥١/٢ وما بعدها) ، (رقم ٣٩١٨) ، الشعر والشعراء (٢٣٤/١) وما بعدها ، السيوطي ، شرح شواهد (٨٩٦/٢) .
 - ٥ الشعر والشعراء (٢٣٢/١ وما بعدها) ، الاغاني (٩٧/٨) ، الخزائن (٥٢٦/١) ، الموشح (٦٧) ، ابن سلام ، طبقات (١١٠) ، المؤلف (١٣٨) ، ديوانه ، (طبعة احمد بن الامين الشنقيطي) ، (القاهرة ١٣٢٧ هـ) ، بروكلمن (١٧٠/١) ، كارلو نالينو ، تاريخ آداب العرب (١١٠ وما بعدها) .
 - ٦ ابن سلام ، طبقات (٢٩) .

وضيفه ويمنّ عليهم بقراه ، وهو أرجز الناس على البديهة . وجعله (الجمحي) في الطبقة الثانية من شعراء الاسلام ، وقرنه بالنابغة الجعدي ، وليد ، وأبي ذؤيب الهللي . وقال : انه كان شديد متون الشعر ، أشد كلاماً من لبيد^١ . وكان معاصراً للحطيئة . ويروى ان (الحطيئة) كان يعدّه أشعر بني غطفان^٢ .

وأخوه (مزرد) ، واسمه (جزء بن ضرار) . وقيل يزيد وجزء أخوهما . وهو (مزرد بن ضرار بن صنان بن عمر بن جحاش بن بحالة الغطفاني) الثعلبي . يقال مزرد لقب له ، لقب به لقوله :

فقلت ترزدها عبيد فإنني لزرد الشيوخ في الشباب مزرد

وكان يكنى (أبا ضرار) ، وقيل : (أبا الحسن) ، وهو أسن من الشماخ ، وكان هجاء حلف أن لا يتزل به ضيف إلا هجاء ، ولا سكب منه ولا بيت يته إلا هجاء ، ثم أدرك الاسلام فأسلم . قدم على رسول الله فأنشد له آياتاً منها :

تعلم رسول الله لم أر مثلهم أحسن على الأدنى وأقرب للفضل
تعلم رسول الله أنا كأننا أفأنا بأغار ثعالب ذي غسل
وأغار رهطه ، وكان يهجوهم .

وورد عن (عائشة) انها قالت : من صاحب هذه الأبيات : تعني التي في عمر لما مات :

جزى الله خيراً من أمير وباركت
يد الله في ذاك الأديم الممزق

قالوا : مزرد ، فسألت من مزرد ؟ فحلف بالله انه لم يشهد الموسم تلك السنة ، ومنهم من نسب هذه الأبيات التي قبلها للشماخ^٣ .

١ الخزانة (١ / ٥٢٦) ، (بولاق) .

٢ بروكلمن ، (١ / ١٧٠) .

٣ الاصابة (٣ / ٣٨٥) ، (٧٩٢١) .

ومع بن أوس بن نصر بن زياد المزني ، شاعر مجيد فحل من المخضرمين .
عمر الى أيام ابن الزبير ، وهو من شعراء مضر . ذكر (المرزباني) ، أنه كان
رضيع (عبدالله بن الزبير) ، وكان مصاحباً له ، وكفّ في آخر عمره^٢ .

و (سويد بن أبي كاهل) أو (سويد بن غطيف) وقيل اسمه : (غطيف
ابن حارثة) الشكري ، ويقال (الوائلي) ، ويقال (الغطفاني) ، ويكنى
(أبا سعيد) ، هو شاعر مخضرم . وهو صاحب قصيدة مطلعها :

بسطت رابعة الحبل لنا فوصلنا الحبل منها ما اتسع

وهي قصيدة من أغلى الشعر وأنفسه في نظر علماء الشعر ، ذكر أن العرب
كانت تفضلها وتقدّمها ، وتعدّها من حكمها ، وكانت في الجاهلية تسميها (التيمة)
لما اشتملت عليه من الأمثال . وللشاعر شعر كثير ، ولكن برزت هذه على
شعره^٣ .

ذكر أنه كان إذا غضب على قومه ، ادعى الى غطفان ، فقال رجل من
(بني شيان) :

من يشري مسجد ذيان إذا ظعنوا
الى قزارة أو من يشري الدار

فأجابه سويد :

إن المساجد لا تباع وإنما باعت كحيلة بظرها البيطارا^٤

-
- ١ السيوطي ، شرح شواهد (٨٠٨/٢) ، جعل « زيدان » وفاته سنة « ٢٩ هـ » ، تاريخ
آداب اللغة العربية (١٨٤/١) ،
 - ٢ الاغانى (١٦٤/١٠) ، الخزائن (٢٥٨/٢) ، المرزباني ، معجم الشعراء (ص
٣٢٢) ، راجع معاهد التنصيص (٦٩٤) ، عيون الاخبار (١٨/٣) ، شرح الحماسة ،
للمرزوقي (١١٢٦) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٧٢/١ وما بعدها) ، معن
ابن أوس ، لمصطفى كمال ، القاهرة (١٩٢٧ م) .
 - ٣ السيوطي ، شرح شواهد (٧٤٠/٢ ، حاشية ٢) ، الشعر والشعراء (١٢١٨ ،
١٨٤) ، (٣٣٤/١) « دار الثقافة » ، الخزائن (٥٤٦/٢) ، الاغانى (١٧١/١١) ،
شعراء النصرانية (٤٢٥) ، طبقات ابن سلام (٣٥ ، ١٢٨) ، المزهر (٤٨٧/٢) ،
الاصابة (١١٧/٢) ، (رقم ٣٧٢٠) .
 - ٤ الاشتقاق (٢٠٥) .

وعدّ من المعربين ، ذكر أنه عمّر في الإسلام ستين سنة بعد الهجرة^١ .

وقد وضعه (ابن سلام) مع الحارث بن حلزة ، وعنزة ، وعمرو بن كلثوم في الطبقة السادسة من شعراء الجاهلية^٢ .

و (الزبرقان بن بدر) شاعر تميم من الشعراء المخضرمين . وكان اسمه (الحصين) . ولما قدم وفد (تميم) الى المدينة في أشرفهم ، كان الزبرقان أحدهم ، ولما تفاخروا بأنفسهم وتباهوا بفعالهم ، قالوا للرسول : يا محمد ائذن لشاعرنا ، فقال : نعم ، فقام الزبرقان بن بدر ، فقال قصيدته التي مطلعها :

نحن الكرام قلاحي^٣ يعادلنا منّا الملوك وفينا تنصب البيع^٤

وذكر أن الرسول ولّاه صدقات قومه فأداها في الردّة الى أبي بكر فأقره ، ثم الى عمر^٥ .

وقد هجا (الخطيئة) الزبرقان بن بدر ، وكان سبب ذلك أن الخطيئة لقي الزبرقان بـ (قرقرى) ومعه ابناه أوس وسودة وبناته وامراته فعرفه الزبرقان وسأله أين تريد ؟ قال : العراق لأصايف من يكفيني عيالي وأصفيه مدحي ، فقال له : لقيته ، قال : من ؟ قال : أنا ، قال : من أنت ؟ قال الزبرقان ابن بدر . وكتب له كتاباً الى امرأته ، لتعطيه وتتفق عليه ، فبلغ ذلك : (بغض ابن عامر) واخوته وبنو عمه ، وكانوا يتازعون (الزبرقان) الرياسة ، فدسوا الى (أم بدر) امرأة الزبرقان أن الزبرقان يريد أن يتزوج بنت الخطيئة ، ولللك أمرك ان تكرميه ، فجفته أم بدر ، فأرسل بغض وأهله الى (الخطيئة) ان ائتنا فنحن أحسن لك جواراً من الزبرقان ، وأطعموه ووعده ، فتحول اليهم ، فلما جاء (الزبرقان) بلغه الخبر فركب اليهم ، فقال لهم : ردوا عليّ جاري ، فأبوا حتى كاد أن يكون بينهم حرب ، فحضرهم أهل الحي فاصطلحوا على أن ينجروه

١ الخزانة (٥٤٦/٢ وما بعدها) ، (بولاق) .

٢ الطبقات (٣٥) ، رسالة الغفران (١٣٧) .

٣ الطبري (١١٦/٣) ، (دار المعارف) ، (قدوم وفد بني تميم ونزول سورة الحجرات) .

٤ الاصابة (٥٢٤/١ وما بعدها) ، (رقم ٢٧٨٢) .

فاختار بغيضاً ورهطه ، فجعل الحطيثة يمدحهم من غير أن يتعرض بالزبرقان ، فلم يزل كذلك حتى أرسل الزبرقان الى شاعر من (النمر بن قاسط) يقال له : (دثار بن شيان) فهجا بغيضاً وآل بيته ، فلما سمع الحطيثة شعر دثار ، حمى لجيرانه ، فقال شعره في الزبرقان معرضاً به ، فاستعدى الزبرقان (عمر) عليه ، فحبس الحطيثة أياماً ، فقال وهو محبوس :

ماذا تقول لأفراخ بندي مرخ
زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة
فاغفر عليك سلام الله يا عمر
وشفع له (عمرو بن العاص) فأطلقه^١ .

وقيس بن عاصم بن سنان المنقري ، من الصحابة ومن الشعراء الفرسان الشجعان . ومن الحلاء . قدم في وفد تميم على النبي ، فقال رسول الله : « هذا سيد أهل الوبر »^٢ . وقد عاش بعد الرسول^٣ .

و (عمرو بن سنان بن سمي بن سنان بن خالد بن منقر) المنقري ، من (بني منقر) ، فهو من شعراء تميم . ويغرف به (عمرو بن الأثم) ، سمي أبوه سنان الأثم ، لأن (قيس بن عاصم) المنقري ضربه بقوس فهتم فله . وكانت أم سنان سبيّة من الحيرة ، يقال إنها سُبّيت وهي حامل . قال قيس ابن عاصم :

نحن مبيّنا أمكم مُقرباً يوم صبحنا الحيرتين المتون
جاءت بكم غفرة من أرضها حيريةً ليست كما ترعمون
لولا دفاعي كنتم أعبداً منزلها الحيرة والسيلحون
و (غفرة) هي أم سنان .

-
- ١ الاصابة (١٧٧/١) ، (رقم ٧٨١ في ترجمة بغيض بن عامر بن شماس) ، (رقم ١٩٩١) ، (في ترجمة الحطيثة) .
 - ٢ الاصابة (٢٤٢/٣ وما بعدها) ، (رقم ٧١٩٦) .
 - ٣ السيوطي ، شرح شواهد (٥٨٧/٢) .

وأخو (عمرو بن الأهتم) ، عبدالله بن الأهتم ، جدُّ خالد بن صفوان بن
عبدالله بن الأهتم الخطيب . وآل الأهتم خطباء^١ ، وكلهم من البلغاء المشهورين^٢.

وعمر بن الأهتم ، ممن وفد على رسول الله ، وكان في الجاهلية يدعى
(المُكْحَل) لجلاله ، وكان له ابن يقال له (نعيم بن عمرو) من أجمل الناس ،
وفيه تأنيث ، وله يقول عبد الرحمن بن حسان :

قل للذي كادَ لولا خط لحيته
يكون أنثى عليها الدرّ والمسك
هل أنتَ إلا فتاة الحمي إن أمِنُوا
يوماً ، وأنت إذا ما حاربوا دُعِك^٣

ومن شعره قوله في حق الزبرقان بن بدر ، وكان ينافسه :

ظلت مفترشَ العلياء تشمتني
عند النبي فلم تصدق ولم تصب
إن تبغضونا فإن الروم أصلكم
والروم لا تملك البغضاء للعرب
فإن سوددنا عود وسوددكم
مؤخر عند أصل العجب والذنب^٤

و (نافع بن الأسود بن قطبة بن مالك) التميمي ثم الأسدي ، شاعر مخضرم
يكنى (أبا نجيد) . وقد شهد فتوح العراق ، وأُشيد له (سيف) في الفتح

١ الشعر والشعراء (٢ / ٥٢٨) ، المرزباني ، معجم (٢١) .

٢ الاصابة (٢ / ٥١٧) ، (رقم ٥٧٧٢) .

٣ الاغاني (٤ / ١٥٥) ، (١٤ / ٨٣) ، المفضليات (رقم ٢٣) ، الميداني (١ / ٥) ،
الامثال ، للمسكري (١ / ٥) .

٤ الاصابة (مفترش الهلباء) ، (٢ / ٥١٨) ، الاستيعاب (٢ / ٥٣٠) ، (حاشية على
الاصابة) .

أشعاراً كثيرة ، يفتخر فيها بقومه ، ويذكر فيها مشاهدته في فتوح الشام والعراق^١ .

ومن شعراء تميم المخضرمين : (متمم بن نويرة) الربوعي ، صاحب المراثي المشهورة في أخيه (مالك بن نويرة) الذي قتله (خالد بن الوليد) لما سار لقتال أهل الردة ، وتزوج امرأته ، مما أدى الى غضب بعض الصحابة ومنهم (عمر) على (خالد) ، لأمر أخلوها في قتله عليه . ومن شعره المشهور في رثاء (مالك) قوله :

أبى الصبر آيات^٢ أراها واني أرى كل جبل بعد جبلك أقطعا
واني متى ما ادعُ باسمك لا تجب وكنتَ جديراً أن تجيب وتسمعا
وكنّا كندمانى^٣ جديمة حبة من الدهر حتى قبل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كآني ومالكاً لطول اجتماع لم نبت ليلة معا
فإن تكن الأيام^٤ فرقن بيننا فقد بان عموداً أخي يوم ودعا
أقول وقد طار السنا في ربابه وغيث يسحّ الماء حتى ترعبا
سقى الله أرضاً حلّها قبر مالك دهب الفوادي المدجنات فأمرعا
وأثر^٥ سبل^٦ الواديين بديمة ترشح وسمياً من النبت خروعا^٧

وهي قصيدة مؤثرة تعد من المراثي الجيدة القوية ، تعبر عن قلب منقطر من شدة ما حلّ به من ألم . قيل ان (عمر) قال لمتمم لما دخل عليه أنشدني بعض ما قلت في أخيك فأنشده شعره المتقدم ، قال له (عمر) : « يا متمم ، لو كنت أقول الشعر لسرّني أن أقول في زيد بن الخطاب مثل ما قلت في أخيك ، قال متمم : يا أمير المؤمنين ، لو قتل أخي قتله أخيك ما قلت فيه شعراً أبداً ، فقال عمر : يا متمم ما عزّاني أحدٌ في أخي بأحسن مما عزّيتني به »^٨ . وقد ضربت الشعراء الأمثال به وبأخيه مالك في أشعارهم .

١ الاصابة (٣ / ٥٥٠) ، (٨٨٥٠) .

٢ الفضليات (٢ / ٣٢) .

٣ الشعر والشعراء (١ / ٢٥٥) ، ابن سلام ، طبقات (١٦٩ وما بعدها) ، الخزائن

(١ / ٢٣٤) ، المرزباني ، معجم (٤٦١) .

وما سبق اليه مالك ، وأخذته الناس منه قوله :

جزينا بني شيان أمس بقرضهم
وعُدنا بمثل اليد ، والعود أحمد

فقال الناس : العود أحمد^١ .

١ يروى ان عمر قال للحطيثة : هل رأيت أو سمعت بأبكي من هذا ؟ قال : لا والله ما بكى بكاء عربي قط ولا يبكيه^٢ . وكان عمر يستمع الى قوله في رثاء أخيه .

ومن شعره المشهور قوله :

وكل فتي في الناس بعد ابن أمه كساقطة احلى يديه من الخيل^٣

وكان (مالك بن نويرة) من الشعراء كذلك . وقد عرف بـ (فارس ذي الخمار) . وذو الخمار فرسه^٤ . ولقب بـ (الجفول) . وهو من شعراء وفرسان (بني يربوع) الملعودين . وكان من أشرفهم ومن أرداف الملوك . استعمله النبي على صدقات قومه ، وبقي عليها الى وفاة الرسول ، فيقال انه لما بلغه خبر وفاته أمسك الصدقة وفرقها في قومه وقال في ذلك :

فقلت : خلدوا أموالكم غير خائف

ولا ناظر فيما يجيء من الغد

فإن قام بالدين المحوق قائم

أطعنا وقلنا الدين دين محمد

وقد قتل خالد بن الوليد ، مالكاً ، في قصة ترد في كتب الردة والفتوح

١ الشعر والشعراء (٢٥٦/١) .

٢ الاصابة (٣/٣٤٠) ، (رقم ٧٧١٩) .

٣ الاصابة (٣/٣٤٠) ، (رقم ٧٧١٩) .

٤ الشعر والشعراء (١/٢٥٤ وما بعدها) ، ابن حزم ، جمهرة (٢٢٤) ، ابن سلام ،

طبقات (٤٨) ، الاغانى (١٥/٢٣٩) ، فوات الوفيات (٢/٢٩٥) .

والتأريخ ، وتزوج امرأته ، وكانت فائقة في الجمال ، مما حمل بعض الصحابة على مؤاخذته على هذا العمل ، ومنهم (عمر)^١ .

ومن المخضرمين (النجاشي) (قيس بن عمرو) الحارثي^٢ ، وكان ممن لازم علياً وشهد معه (صفين) ، ومدحه . وقد بلغ (علياً) وهو بالكوفة انه كان سكراناً في شهر (رمضان) مع (أبي سماك) الأسدي ، فهرب (أبو سماك) ، وقبض على (النجاشي) فحده (علي) ثمانين سوطاً ، ثم زاده عشرين ، فقال له : ما هذه العلاوة ؟ فقال : لجرأتك على الله في شهر رمضان ، ثم وقفه للناس ليروه ، فهرب الى (معاوية) وهجا (علياً) على ما يقال ، وهجا أهل الكوفة . وكان هجاء ، هجا (بني العجلان) ، فاستعدوا عليه (عمر) . فهدد (عمر) النجاشي ، وقال له : إن عدت قطعت لسانك . وهجا قريشاً هجاء مرأ . وهجا (عبد الرحمن بن حسان بن ثابت) ، ولما مات (الحسن بن علي) رثاه النجاشي ، وتوفي بعد ذلك بقليل .

وروي أنه هاجى (تميم بن مقبل) من (بني العجلان) ، وهو من شعراء الجاهلية ، الذين أدركوا الاسلام ، وعمر طويلاً . وكان يتهاجى مع (النجاشي) ، فاستعلى (تميم) (عمر) على النجاشي ، فسمع (عمر) ما قال فيه وفي بني قومه ، فلما وصل الى بيته :

أولئك أولاد المهجين وأسرة اللثيم ورهط العاجز المتذلل
وما سمي العجلان إلا لقوله خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

قال عمر : أما هذا فلا أعنرك عليه فحبسه وضربه^٣ . وكان (عمر) قد

١ الاصابة (٣/٣٣٦) ، (رقم ٧٦٩٧) ، ابن الاثير ، الكامل (٢/٢٣٧ وما بعدها) ، المحبر (١٢٦) ، المرزباني ، معجم (٢٦٠) .

٢ الشعر والشعراء (١/٢٤٦ وما بعدها) ، الاصابة (٣/٥٥١ وما بعدها) ، (رقم ٨٨٥٥) ، الخزائن (٤/٣٦٨) ، بروكلسن ، تأريخ الادب العربي (١/١٧٣ وما بعدها) ، البيان والتبيين (١/٢٣٩) .

٣ الاصابة (١/١٨٩ وما بعدها) ، (رقم ٨٦٢) ، ابن سلام ، طبقات (٣٤) ، ديوان تميم بن مقبل (١١ مقدمة) .

حكم (حساناً) في هجاء (النجاشي) لتميم ، فلما حكم (حسان) بإقداعه في هجائه له حبس (النجاشي) عليه . وقد جمع (أبو سعيد) السكري شعر (تميم بن مقبل)^١ ، وجمعه غيره من العلماء . وهو (تميم بن أبي بن مقبل) . وقد اشتهر بوصف القداح ، حتى جعل من أوصاف العرب للقدح ، ولذلك يقال : (قدح ابن مقبل)^٢ .

ويعدّ (تميم بن مقبل) من عوران قيس ، وعددهم خمسة شعراء ، وهم : تميم بن مقبل ، وعمرو بن أحمر الباهلي ، والشماخ معقل بن ضرار ، وراعي الإبل عبيد بن حصين التميري ، وحيد بن ثور الهلالي^٣ . وهو من الجاهليين الذين أدركوا الاسلام ، فأسلم ، فهو من المخضرمين . وقد أدرك زمن معاوية ، وكان هواه مثل هواي قبيلته مع (معاوية) علي (علي) . وكان عبائياً له قصيدة في رثاء أهل الجاهلية ، وكان يتذكر الجاهلية ويترحم على أيامها ، ويحن إليها ، ويرى ان الزمان قد تغير ، وان الأرض قد تغيرت ، وتبدلت أخلاق الناس ، فصار يرى نفسه غريباً في مجتمع غريب عنه ، له مثل تختلف عن مثل أهل الجاهلية ، فصار يحن الى أيام ما قبل الاسلام .

قبل تميم بن مقبل : تبيكي أهل الجاهلية وأنت مسلم : فقال :

وماليّ لا أبكي الديار وأهلها

وقد زارها زوّار عكٍّ وحبراً

وجاء قفاً الأجباب من كل جانب

فوقع في أعطافنا ثم طيراً

وفي هذه القصيدة المؤلفة من خسين بيتاً ، والمنشورة في ديوانه ، والتي وردت بروايات مختلفة، حين ظاهر إلى أيام الجاهلية ، وتوجع بين للتغير الذي حدث فاجتث ذكريات الأيام القديمة ، إذ باد أهلها ، وتنكر الناس لها ، وبرز من

١ ابن النديم ، الفهرست (١٢٣) .

٢ الشعر والشعراء (٣٦٦/١ وما بعدها) ، الاصابة (١٩٥/١) ، الخزائن (١١٣/١) طبقات ابن سلام (١٢٥) .

٣ رسالة الفهران (٢٣٧) ، الجمهرة (٢/٣٩٠) ، للمعارف (٢٥٣) .

لم يكن معروفاً إذ ذاك من الناس . فهو يرى أن الجاهلية بأيامها وبمثلها وبرجالها وبقباثلها ، وبمروءتها ، أحسن حالاً من الأيام الجديدة التي أخذت مكانها، والتي أحلت الموالي ونكرات الناس محل السادة الأشراف^١ .

وكان قد تزوج (الدهماء) زوجة أبيه في الجاهلية ، على عادتهم في تزوج نساء الآباء ، وأحبها حباً شديداً ، فلما جاء الاسلام وحرم هذا الزواج ، اضطر إلى تطليقها ، وهو مكروه ، فكان يقول :

هل عاشق نال من دهماء حاجته
في الجاهلية قبل الدين مرحوم^٢

ولعل هذا الطلاق ، كان في جملة العوامل التي جعلته يحن الى الجاهلية ويلذكرها بخير .

ومما ينسب إليه قوله :

فاخلف وأتلف أنما المال عارة
وكله مع الدهر الذي هو آكله
وأيسر مفقود وأهون هالك
على الحي من لا يبلغ الحي نائله

وقوله :

خليلي لا تستعجلا وانظرا غداً
عسى أن يكون الرفق في الأمر أرشداً^٣

١ أولها :

تأمل خليلي هل ترى ضوء بارق يمان ، مرته ريح نجد ففترا
وفيها يقول :

أجدي أرى هذا الزمان تغيرا وبطن الركاء من موالي أقفرا
وكائن ترى من منهل باد أهله وعيد على معروفه ، فتنكرا
ديوان تميم بن مقبل (ص ١٢٩ وما بعدها) ، (تحقيق الدكتور عزة حسن) .

٢ ديوان ابن مقبل (المقدمة) ، (تحقيق الدكتور عزة حسن) ، (دمشق ١٩٦٢) .
٣ بلوغ الارب (١٤٣/٣) .

وكان (عبد الرحمن بن حسل) الجمحي من الشعراء المهجائين . كان أبوه من أهل اليمن ، فسقط الى مكة ، فولد له بها : (كلدة) و (عبد الرحمن) ، وكانا ملازمين لصفوان بن أمية بن خلف الجمحي ، فنسبا الى (بني جمح) . وذكر أنهما كانا أخوي (صفوان) لأمه . وذكر أنه كان بمسكر (يزيد بن أبي سفيان) ، وأنه كان من مسلمة الفتح . وقد هجا (عثمان) لما أعطى مروان خمسمائة ألف من خمس (إفريقية) فقال :

وأحلف بالله جهد اليمين ما ترك الله أمراً سدى
ولكن جعلت لنا فتنة لكي نبتلي بك أو تبتي
دعوت الطريد فأدنيته خلافاً لما سنه المصطفى
ووليت قرباك أمر العباد خلافاً لسنة من قد مضى
وأعطيت مروان خمس الغنيمة آثرته وحيث الحمى
ومالاً أناك به الأشعري من لقيء أعطيته من دنا
فإن الأمين قد بيّنا منار الطريق عليه الهدى
فاأخذوا درهماً غيلة ولا قسمًا درهماً في هوى^١

فأمر (عثمان) به فحبس بنجر . وقيل ان (علياً) كلم (عثمان) فيه فأطلقه وشهد الجمل مع علي ، ثم صفيق فقتل بها . وذكر أنه قال وهو في السجن :

الى الله أشكو لا الى الناس ما عدا
أبا حسن غلا شديداً أكابده
بنجر في قعر الغموص كأنها
جوانب قبر أعرق اللحد لاحده
إن قلت حقاً أو نشدت أمانة
قتلت فن للحق إن مات ناشده^٢

١ تختلف هذه الابيات بعض الاختلاف عنها في كتاب الاصابة ، الاصابة (٣٨٧/٢) وما بعدها ، (رقم ٥١٠٨) ، الاستيعاب (٤٠٦/٢) وما بعدها ، وقد دعاه صاحب الاستيعاب « عبد الرحمن بن حنبل » .

٢ الاصابة (٣٨٧/٢) وما بعدها ، (رقم ٥١٠٨) .

و (ألس بن أبي أناس بن زنيم) الكتاني ، هو من الشعراء الذين كانوا قد هجوا الرسول فأهمل النبي دمه ، فبلغه ذلك ، فقدم عليه معتلراً ، وأنشده شعراً مدحه به . وكلمه فيه (نوفل بن معاوية) الديلي ، فعفا عنه ، قائلاً للرسول : « أنت أولى بالعفو ، ومن منا لم يؤذك ولم يعادك ، وكنا في الجاهلية لا ندرى ما نأخذ وما ندع حتى هدانا الله بك وأنقذنا من الهلكة ؟ فقال : قد عفوت عنه . فقال : فذاك أبي وأمي . وأول القصيدة يقول فيها :

فا حملت من ناقة فوق رحلها
أبرّ وأوفى ذمة من محمد

ويقول فيها :

ونبي رسول الله اني هجوته
فلا رفعت سوطي إليّ إذا يدي
فلاني لا عرضاً خرقت ولا دماً
هرقت فذكر عالم الحق واقصد^١

وقد ذكر (ابن قتيبة) ، ان (أبا أناس) ، والد (أنس) ، هو القائل في رسول الله :

فا حَمَلْتُ من ناقة فوق رحلها
أعف وأوفى ذمة من محمد^٢

وقد قال (دعل بن علي) في طبقات الشعراء ، هذا أصدق بيت قالته العرب . وفي جملة ما جاء في هذه القصيدة التي تنسب الى أنس بن زنيم قوله :

ونبي رسول الله أني هجوته
فلا رفعت سوطي إليّ إذا يدي
فلاني لا عرضاً خرقت ولا دماً
هرقت فذكر عالم الحق واقصد^٣

١ الاصابة (١/٨١ وما بعدها) ، (رقم ٢٦٧) .
٢ الشعر والشعراء (٢/٦٢٣) .
٣ الاصابة (١/٨٢) ، (٢٦٧) .

وذكر أن (عبيد الله بن زياد) كان يحرق بين الشعراء ، فأمر (حارثة) أن
يهجو (أنس بن زعيم) ، فقال فيه أبياتاً ، منها قوله :

وخبرت عن أنس أنه قليل الأمانة خوأنها

فأجابه أنس بأبيات أولها :

أتني رسالة مستنكر فكان جوابي غفرانها^١

وأنس هو القاتل لعبد الله بن الزبير ، حين تزوج مصعب عائشة بنت طلحة
على ألف ألف درهم :

أبلغ أمير المؤمنين رسالة من ناصح لك لا يُريدُ خياداً
بضع الفتاة بألف ألفٍ كاملٍ وتبيتُ سادات الجنود جِيعاً
لَوْ لأبي حفص أقول مقالتي وأنص شأن حديثكم لارتاعاً^٢

وكان (أسيد بن أبي إياس بن زعيم) الكنانى ابن اخي (سارية) الكنانى ،
من هجوا الرسول أيضاً ، فأهدر النبي دمه ، فخرج الى (الطائف) وأقام بها ،
مثل غيره من هجوا الرسول فخافوا على أنفسهم ، فلبجأوا الى ثقيف . فلما كان
عام الفتح ، خرج مع (سارية بن زعيم) ، وقلم على الرسول فأسلم . ومد
بشعر . وذكر انه كان قد رثى قتلى بدر ، فأهدر النبي دمه . وروي انه قال
في علي بن أبي طالب وفي مخاطبة قريش :

في كل مجمع غاية أخزاکم صدع يفوق على المداكي القرح
هذا ابن فاطمة الذي أفناكم ذبحاً وقتلاً بعضه لم يرتح
لله دركم أما تذكروا قد يذكر الحر الكريم ويستحي^٣

وورد في رواية انه كان قد أسلم وأهرك (أحداً) . وتشابه قصته في هدر

١ الاصابة (٨٢/١) ، (رقم ٢٦٧) .

٢ الشعر والشعراء (٦٢٣/٢) وما بعدها .

٣ الاصابة (٦٢/١) ، (رقم ١٧٥) .

النبي دمه وفي هجائه للرسول قصة (أنس بن زنيم) الكثناني ، المتقدم ، وهو ابن أخي (أسيد) على رواية (الإصابة)^١ .

وروي أن (سارية بن زنيم) الكثناني ، كان ممن هجا الرسول كذلك ، فبلغ ذلك الرسول ، فتوعده . فجاء اليه معتذراً فأشدد :

تعلم رسول الله أنك قاصر على كل حيٍّ من تهام ومنجد
تعلم رسول الله أنك مدركي وأن وعيداً منك كالأخذ باليد
تعلم بأن الركب إلا عويمراً هم الكاذبون المخلفو كل موعد
وفي رسول الله أني هجوته فلا رفعت سوطي إليّ إذا يدي^٢

وتليها أبيات أخرى ، نسبت كلها الى (أنس بن زنيم) . ويظهر أن التباساً قد وقع عند الرواة ، فخلطوا بين الثلاثة من (آل زنيم) .

وقد ذكر أن (سارية) هذا كان خليعاً في الجاهلية ، لصاً كثير الغارة ، وأنه كان يسبق الفرس عدواً على رجله ، ثم أسلم . وأرسله (عمر) فيمن أرسله من المسلمين لفتح فارس^٣ .

وكان (بشير بن أبيرق) (بشر بن أبيرق) الشاعر يقول الشعر ويهجو به أصحاب النبي ، وينحله بعض العرب^٤ .

وجعل (ابن سلام) : (أمية بن حرثان بن الأشكر) (أمية بن الأسكر) و (حريث بن مُحَقَّض) ، و (الكميث بن معرور بن الكميث) الأسدي ، و (عمرو بن شأس) الأسدي ، طبقة واحدة ، هي الطبقة العاشرة من طبقاته . وكلهم ممن عاش في الجاهلية والإسلام^٥ ، وكان (أمية بن الأسكر) الكثناني من سادات قومه وفرسانهم ، وله أيام ، وابنه (كلاب بن أمية) ، أدرك النبي

١ الإصابة (٦٢/١) ، (٨١) .

٢ الإصابة (٨١/١) ، (٢/٢) ، (رقم ٣٠٣٤) .

٣ الإصابة (٣/٢) .

٤ الاشتقاق (٢٦٤) ، تاج العروس (١٢٩/٨) ، (نحل) .

٥ ص ٤٤ وما بعدها) .

فأسلم مع أبيه . وقد سكن (كلاب) البصرة^١ . وروى لأمية شعراً في حروب
الفجار^٢ .

و (حريث بن محفض) (حريث بن محفض) ، المازني من بني تميم ،
من (خزاعي بن مازن) . وهو مخضرم له في الجاهلية أشعار ، وتمثل الحجاج^٣
بأبيات من شعره ، مثلاً لأهل الشام في طاعتهم وبأسهم ، وهي قوله :

ألم ترَ قومي إن دعوا لِمَلْئمةٍ
أجابوا وإن أغضب على القوم يغضبوا
بني الحرب لم تقعد بهم أمهاتهم
وأباؤهم آباء صديقٍ فأنجبوا
فإن يك طعن بالرُّدْبني يقطعوا
وإن يك ضرب بالمناصل يضربوا^٤

و (عمرو بن شأس) الأسدي ، المكنى بـ (أبي عرار) ، شاعر كثير
الشعر مقدم ، شهد القادسية^٥ ، ومنهم المستوغر ، واسمه (عمرو بن ربيعة) ،
ويكنى (أبا بهنس) ، وهو من تميم ، زعم أنه عاش ثلاثين وثلاثمائة سنة ،
وأدرك أيام معاوية^٦ . وذكر أن (عمرو بن شأس) عاش حتى أدرك أيام عبد
الملك بن مروان^٧ .

ومن الشعراء المخضرمين (المنذر بن رومانس) الكلبي ، وهو أخو النعمان بن
المنذر لأمه ، وأمها (رومانس) . وله شعر قاله بعد فتح الحيرة ، يتذكر فيه
أيام الحيرة الأولى ، وكيف كانوا يحكمون العراق ونجداً^٨ :

-
- ١ الخزانة (٥٠٦/٢) وما بعدها ، (بولاق) .
 - ٢ الاصابة (٧٨/١) ، (رقم ٢٥٣) .
 - ٣ الشعر والشعراء (٥٦١/٢) ، الاصابة (٣٧٥/١) ، (رقم ١٩٧٢) .
 - ٤ المرزباني ، معجم (٢٢) وما بعدها ، ابن سلام ، طبقات (١٦٤) ، الاغانى
(٦٠/١٠) .
 - ٥ المرزباني ، معجم (٢٣) .
 - ٦ الشعر والشعراء (٣٣٨/١) وما بعدها .
 - ٧ المرزباني ، معجم (٢٦٩) .

ومن المخضرمين (أبو الأعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل) ، وهو أحد الصحابة الذين أسلموا قديماً ، وفي بيته أسلم (عمر) ، لأنه كان زوج أخته فاطمة ، توفي سنة (٥٠) ، وقد أورد الجاحظ له شعراً ، وهو شعر نسب أيضاً لوالده ، وتروى كذلك لنيه بن الحجاج^١ .

و (سالم بن دارة من الشعراء المخضرمين) وهو (سالم بن مسافع «مسافع» ابن عقبة بن يربوع بن كعب بن علي) من (غطفان) . وكان رجلاً هجاء وبسبه قتل . قتله (زميل بن أبيير) (زميل بن عبد مناف) ، (زميل بن أبرد) ، (زميل بن وبير) من بني فزارة وكان (سالم) قد أمعن في هجاء فزارة ، وألح عليها في الهجاء ، فقال في جملة ما قاله :

حَدِّبْ دَبَا بَدِّبْ دَبَا مِنْكَ الْآنَ اسْتَمِعُوا أَنْشَدَكُمْ يَا وَلَدَانِ
إِنَّ بَنِي فَزَارَةَ بَنَ ذِيَّيَّانَ قَدْ طَرَقَتْ نَاقَتُهُمْ بِإِنْسَانِ
مُشِيلٌ أَعْجَبَ بِخَلْقِ الرَّحْمَنِ غَلَبَتْ النَّاسَ بِأَكْلِ الْجُرْدَانِ
كُلَّ مِثْلٍ كَالْعُمُودِ جَوْفَانِ وَسَرَقَ الْجَارُ وَنِيكَ الْبَعْرَانِ

الى غير ذلك من شعر مقدع ، فلما أمعن في الهجاء ، تعقبه (زميل بن أبيير) (زميل بن أم دينار) الفزاري ، فلحق به وضربه بالسيف ضربة جرحته ، وكان قد خرج من المدينة ، فعاد اليها ، يتداوى ، فدفعه (عثمان) الى طبيب نصراني ، ويقال إن (أم البنين) (بسرة بنت عيينة بن حصن) الفزاري ، وكانت عند (عثمان) ، جعلت للطبيب جعلاً حتى سمته فأت^٢ .

ومن شعره في هجاء فزارة قوله :

لَا تَأْمَنَنَّ فَزَارِيّاً خَلُوتَ بِهِ
عَلَى قُلُوصِكَ وَاكْتَبَهَا بِأَسْبَارِ

وله شعر يخاطب به (عيينة بن حصن) الفزاري ، وكان قد ارتد في خلافة

١ البيان والتبيين (٢٣٥/١) ، الخزائن (٩٩/٣) ، عيون الاخبار (٢٤٢/١) .
٢ الخزائن (١٤٤/٢) وما بعدها ، (عبد السلام محمد هارون) ، نوادر المخطوطات (١٠١/٢ ، ١٥٦ ، وما بعدها) ، الحيوان (٢٦٧/١) .

(أبي بكر) ثم عاد الى الاسلام ، وقال لأبي بكر : قصني وقصة الأشعث ابن قيس الكندي واحدة ، فإياكم أكرمتوه وزوجتموه ، ولم تفعلوا ذلك بي ، فأجاب سالم عن ذلك بقوله :

يا عيينة بن حصن آل عدي أنت من قومك الصميم صميم
لست كالأشعث المعصب بالناس ج غلاماً قد ساد وهو فطيم
جده آكل المرار وقيس خطبه في الملوك خطب عظيم
إن تكونا أنبياء خطب العذر سواكما فقد الأديم
فله هبة الملوك وللأشعث إن حان حادث قديم
إن للأشعث بن قيس بن معدى كرب عزة وأنت بهم

وأنت (سالم بن دارة) عدي بن حاتم ، فدحه ، فشاطره (عدي) ماله .

والأغلب بن عمرو بن عبيدة بن حارثة بن دلف بن جشم بن قيس بن سعد ابن عجل بن لجم بن الصعب بن علي بن بكر بن وائل ، من الشعراء المخضرمين ، ويعد من أربجز الرُّجَاز ، وأرصنهم كلاماً وأصحهم معاني . وهو أول من أطال الرجز ، وكان الرجل قبله يقول البيت والبيتين إذا فآخر أو شاتم . وذكر أنه استشهد بنهاوند^١ : وله ديوان^٢ . وقيل إن الخليفة (عمر) كتب الى (المغيرة ابن شعبة) وهو على الكوفة ، أن استشد من قبلك من الشعراء عما قالوه في الاسلام ، فكتب الى لييد ، فكتب لييد اليه سورة البقرة في صحيفة ، وقال : قد أبدلني الله بهذه في الاسلام مكان الشعر ، وجاء (الأغلب) الى المغيرة ، فقال له :

أرجزاً تريد أم قصيداً لقد طلبت هيناً موجوداً

فكتب بذلك الى (عمر) ، فكتب اليه أن انقص من عطاء الأغلب خمسمائة

١ الاصابة (١٠٧/٢) ، (٢٦٥٧) .

٢ الشعر والشعراء (٣١٥/٢ وما بعدها) .

٣ « الأغلب بن جشم بن عمرو بن عبيدة » ، الاصابة (٧١/١) ، (رقم ٢٢٥) ،

الخرانة (٢٣٩/٢) ، المؤلف (٢٢) ، الاغانى (١٦٤/١٨) .

٤ الخزانة (٢٥٨/٢) ، (بولاق) .

فزدها في عطاء لبيد ، وله قوله :

المرء تَوَاقَى الى ما لم ينل والموت يتلوه ويلهيه الأمل

وأشد له (أبو الفرج) أرجوزة يهجو فيها سجاح التي ادعت النبوة وتزوجت بمسيلمة الكذاب^١ .

وكان (هريم بن جواس) التميمي ، يهاجي (الأغلب) ، وهو من المخضرمين ، وافقه بسوق عكاظ ، فقال له :

قُبِحت من سالفَةٍ ومن قفا عبد إذا ما رَسب القوم طفا
فا صفا عدوكم ولا صفا كما شرار البقل أطراف السفا

فقال له : من أنت وبلك ؟ قال :

أنا غلام من بني مقاعس الضاريين فلك الفوارس^٢

ومن الشعراء المخضرمين : (عقيبة بن هُبيرة) الأسدي . وكان جريئاً ، وقد على معاوية بن أبي سفيان ، فدفع إليه رقعة فيها :

فهبنا أمة ذهب ضياعاً يزيد أميرها وأبو يزيد
أكلتم أرضنا فجردتموها فهل من قائم أو من حصيد
أطعم في الخلود إذا هلكنا وليس لنا ولا لك من نخلود
ذروا نخون الخلافة ، واستقيموا وتأمير الأراذل والعبيد
وأعطونا السوية لا تزركم جنود مردفات بالجنود

فقال له معاوية : ما جرأك عليّ ؟ قال : نصحتك إذ غشوك ، وصدقتك إذ كذبوك ! فقال : ما أظنك إلا صادقاً ! فقضى حوائجه^٣ .

ومنهم (حضرمي بن عامر بن مجمع بن مائلة « مَوَلَّة ») من بني أسد ،

١ الاصابة (٧١/١) ، (رقم ٢٢٥) .

٢ الاصابة (٥٨٤/٢) ، رقم (٩٠٤٩) .

٣ الخزائن (٢٦٠/٢ وما بعدها) ، (هارون) ، (٣٤٣/١ وما بعدها) ، (بولاق) .

وهو شاعر فارس سيد ، له في كتاب (بني أسد) أشعار وأخبار . وقدم مع وفد (بني أسد) ، وفيهم ضرار بن الأزور ، وسلمة بن حبيش ، وقتادة بن القائف ، وأبو مكعب ، وكتب لهم الرسول كتاباً . فتعلم (حضرمي) سورة (عبس وتولى) ، فزاد فيها : « وهو الذي أنعم على الحلي ، فأخرج منها نسمة تسعى » ، فقال له النبي : « لا تزيد فيها » . وورد ان السورة هي سورة : سبح اسم ربك الأعلى . وكان يكنى : (أبا كدام) ، وله شعر في حرب الأعاجم ، أنشد بعضه (عمر بن الخطاب) ، وقد نقل عنه (سيف بن عمر) في الفتوح بعض أخبار مسيلمة والردة ^١ .

ومن المخضرمين (حنيف بن عير) البشكري ، قاتل (محكم بن الطفيل) يوم اليمامة . وله شعر في قتله ^٢ .

ومن المخضرمين : (ربيعة بن مقروم بن قيس) ، وكان ممن أصفى عليه (كسرى) ، ثم عاش في الإسلام زماناً . شهد القادسية وجولاء ، وهو من شعراء (مضر) المعدودين ^٣ .

ومن الشعراء المخضرمين : (أبو بكر بن الأسود بن شعوب) الليثي ، وهو (شداد بن الأسود) ^٤ . وقيل اسمه : (عمرو بن سمي بن كعب بن عبد شمس) الكناني ، وأمه (شعوب) من بني خزاعة ، وله شعر كثير قاله وهو كافر ، ثم أسلم بعد . رمن شعره ، قصيدة في رثاء قتلى المشركين بيدر ، يقول فيها :
فاذا بالقلب قلب بيدر من القينات والشرب الكرام

الى أن يقول :

يخبرنا الرسول لسوف نحييا وكيف حياة أصدقاء وهام*

-
- ١ الاصابة (١/٣٤٠) ، (رقم ١٧٥٩) ، الخزانة (٢/٥٦) ، (بولاق) .
 - ٢ الاصابة (١/٣٨١) ، (رقم ٢٠١٦) ، الخزانة (٢/٥٤٤ وما بعدها) .
 - ٣ الخزانة (٣/٥٦٥ وما بعدها) ، (بولاق) .
 - ٤ ابن هشام (٢/١١٣) ، (حاشية على الروض الانف) .
 - ٥ هناك اختلاف في رواية أبيات هذه القصيدة وفي الفاظها ، ابن هشام ، سيرة (٢/١١٣) ، (حاشية على الروض الانف) ، نوادر المخطوطات ، كتاب من نسب الى أمه من الشعراء (المجموعة الاولى) (ص ٨٣ وما بعدها) .

ومن المخضرمين : (قطبة بن الزبيرى) ، وهي أمه . وهو (قطبة بن زيد ابن سعد بن امرئ القيس بن ثعلبة) من بني القين بن جسر . وكان سيد قضاة في الجاهلية وأول الاسلام . وله مفتخرأ :

حيثُ القوم قد علمت معد^١ ومن للقوم من مولى وجار
حبوت بها قضاة إن مثلي حقيق أن يذب عن الدمار
ولست كمن يُغمر جانباه كغمر التين تجنيه الجواري^٢

ومن المخضرمين (عبدة بن الطبيب)^٣ ، (عبدة بن الطبيب)^٤ ، وهو من (بني عبشمس بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم) . ومن جيد شعره في رثاء قيس بن عاصم ، قوله :

عليك سلام الله قيسَ بن عاصم
ورحمته ما شاء أن يترحمها
تحية من ألبسته منك نعمة
إذا زار عن شحط بلادك سلما
فلم يك قيس هلكه هلك واحد
ولكنه بَيَّان قوم تهدما^٥

وقوله :

والمرءُ ساع لأمر ليس يدركه
والعيشُ شح واشفاق وتأميل^٦

وقد أعجب (عمر) بهذه القصيدة الطويلة التي على اللام^٦ .

-
- ١ من نسب الى أمه (٨٦) ، نوادر المخطوطات ، (المجموعة الاولى) .
 - ٢ الشعر والشعراء (٦١٣/٢) ، البيان والتبيين (١٢٢/١) .
 - ٣ بلوغ الارب (١٤٣/٣) .
 - ٤ الشعر والشعراء (٦١٤/٢) ، وتختلف هذه الابيات عما ورد في الاصابة (١٠٠/٣) ، (رقم ٦٣٩٢) .
 - ٥ بلوغ الارب (١٤٣/٣) .
 - ٦ البيان والتبيين (٢٤٠/١) .

« واسم الطيب : يزيد بن عمرو بن علي بن أنس بن عبدالله بن عبد تميم بن
جشم بن عبد شمس بن سعد بن زيد مناة بن تميم) . وهو من مشاهير الشعراء ،
وقد ساهم في فتوح العراق ، وهو القاتل في قتال القرس :

هل جبل خولة بعد الهجر موصول
أم أنت عنها بعيد الدار مشغول

ثم يقول :

يقارعون رؤوس القرس ضاحية منهم فوارس لا عزل ولا ميل
وكان (أبو عمرو بن العلاء) يقول : قول عيلة :
وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهلمسا
أرثي بيت قبل :

ومن شعره قوله :

ولقد علمت بأن قصري حفرة غبراء يحلمن اليها شرجع
فبكت بنائي شجوهن وزوجتي والأقربون إلى ثم تصدعوا
وتركت في غبراء يكره وردها تسفى عليّ الريح حين أودع^١

وقوله :

لما نزلنا نصبنا ظل أخية وفار للقرم باللحم المراجيل^٢
ورداً واشقر لم يهته طابغ^٣ ما غير الغلي منه فهو مأكول
نمت قنا الى جرود مسومة أعرافهن لأيدينا متاديل^٤

ومن المخضرمين (عدي بن عمرو بن سويد بن زبان) الطائي ، المعروف
بالأعرج . وهو القاتل :

١ الاصابة (١٠٠/٣ وما بعدها) ، (رقم ٦٣٩٢) .

٢ نمار القلوب (٢١٩) .

تركت الشعر واستبدلت منه إذا داعي صلاة الصبح قاما
كتاب الله ليس له شريك وودعت المدامة والندامي^١

ومن الشعراء المعمرين : (أبو الطمحان) القيني ، واسمه حنظلة بن الشرقي
من بني كنانة بن القين . زعم أنه عاش مائتي سنة ، فقال في ذلك :

حتتني حانيات الدهر حتى كأنني خاتل أدنو لصيد
قصير الخطو يحسب من رأيي - ولست مقيداً - أنني بقيد
تقارب خطو رجلك يا سويد وقيدك الزمان بشر قيد^٢

ونسب إليه قوله :

إن الزمان ولا تفنى عجائبه فيه تقطع آلاف وأقران
أمت بنو القين أفرافاً موزعة كأنهم من بقايا حي لقمان^٣

وقد اختلف فيه ، فزعم بعض أنه جاهلي لم يدرك الإسلام ، وزعم بعض
آخر أنه أدركه . وانه قال شعراً يتبرأ فيه من اللذون كالزنا وشرب الخمر ،
وأكل لحم الخنزير ، والسرقه ، وكان نديماً للزبير بن عبد المطلب في الجاهلية ،
ونسب له قوله :

ولاني من القوم الذين همُّ همُّ إذا مات منهم ميت قام صاحبه
نجوم سماء كلما غاب كوكب بدا كوكب تأوي إليه كواكبه
أضواء لهم أحسابهم ووجوههم دُجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه^٤

١ الاصابة (٣/١٠٤ وما بعدها) ، (رقم ٦٤١٧) ، المزرباني ، معجم (٢٥١) ، البيان
والتبيين (٢٤٦/١) .

٢ امالي المرتضى (١/٢٥٧) .

٣ البيان والتبيين (١/١٨٧) ، (٣/٢٣٥) .

٤ امالي المرتضى (١/٢٥٧) ، الاصابة (١/٣٨١) ، (رقم ٢٠١١) ، الخزائنة
(٣/٤٢٦) ، العمرون (٥٧) ، المؤلف (١٤٩) .

ومن المعمرين الشعراء : (الربيع بن ضبع) الفزاري ، زعم انه أدرك أيام (عبد الملك بن مروان) وانه دخل عليه فقال له : « يا ربيع ، أخبرني عما أدركت من العمر والمسدى ورأيت من الخطوب الماضية ، قال : أنا الذي أقول :

هأنذا آمل الخلود وقد أدرك عقلي ومولدي حجرا

فقال عبد الملك : قد رويت هذا من شعرك وأنا صبي ، قال : وأنا القاتل :

إذا عاش الفتى مائتين عاماً فقد ذهب اللذأة والفتاء

قال : قد رويت هذا من شعرك ، وأنا غلام ، وأبيك يا ربيع ، لقد طلبك جد غير عائر ، ففصل لي عمرك ، قال : عشت مائتي سنة في فترة عيسى عليه السلام ، وعشرين ومائة في الجاهلية وستين سنة في الاسلام . وأخذ عبد الملك يسأله ، وهو يجيب . وقد علق (المرتضى) على هذا الخبر بقوله : « ان كان هذا الخبر صحيحاً فيشبه أن يكون سؤال عبد الملك له انما كان في أيام معاوية ، لا في أيام ولايته ، لأن الربيع يقول في الخبر : عشت في الاسلام ستين سنة . وعبد الملك ولي في سنة خمس وستين من الهجرة ، فإن كان صحيحاً فلا بد مما ذكرنا ، فقد روي ان الربيع أدرك أيام معاوية ^١ .

وزعم انه قال شعراً لما بلغ مائتي سنة ، وشعراً آخر لما بلغ مائتين وأربعين ^٢ . وهو مثل شعر المعمرين في العمر وفي ذهاب الشباب ، وتقدم السن ، وفي عدم تحمّل السنن والشبخوخة ، وغير ذلك من الأعراض التي تلازم الشيخوخة .

ومن شعراء بني تميم : (حارثة بن بسر بن حصين بن قطن بن غدانة) الغداني من (بني يربوع) ، كان من فرسان (بني تميم) ووجهها وسادتها ، وكان يعارض الشعراء نظراءه في الشعر ، ولم يكن معدوداً في فحول الشعراء ^٣ .

١ أمالي المرتضى (٢٥٣/١ وما بعدها) ، الخزائن (٣٠٦/٣) .

٢ أمالي المرتضى (٢٥٤/١ وما بعدها) ، المعرون (٦ وما بعدها) ، ذيل الامالي (٢١٤) ، الخزائن (٣٠٦/٣) ، شرح أدب الكتائب ، للجواليقي (٢٦٦) .

٣ أمالي المرتضى (٣٨٠/١ وما بعدها) ، الاغانى (١٣/٢١ وما بعدها) ، الاصابة (٣٧٠/١) ، (رقم ١٩٣٧) .

وقد نسبوا له قوله :

لعمرك ما أبقي لي الدهر من أخٍ حفيّ ولا ذي خُلّة لي أوصله
ولا من خليل ليس فيه غوائل فشرّ الأَحْلَاء الكثير غوائله
وقل لفسّادٍ إنّ نرا بك نزوة من الروع أفرخ، أكثر الروع باطله

وروى الشريف (المرتضى) أشعاراً أخرى ، أكثرها في المنايا ، وفي الصدق
والإخلاص ، والنصح ، وتجنب أمكنة السوء ، وفي تجاوز الأقرباء على حقوق
القريب وفي الوقوع في الفقر حيث يقول :

وإذا افتقرتَ فلا تكن متخشعاً ترجو الفواضلَ عند غير المفضل
واستغن ما أغناك ربك بالغنى وإذا تكون خصاصة فتجمل^١

وقد كان في أيام (زياد بن أبيه) ، وكان مستهتراً بالشراب^٢ . وله شعر
عائب به (عبيد الله بن زياد) لما تغير عليه بعد اختصاصه بأبيه^٣ .

ومما استحسّن من شعره قوله :

يا كعبُ ماراح من قوم ولا ابتكروا إلا وللموت في آثارهم حادي
يا كعبُ ما طلعت شمس ولا غربت إلا تقربُ آجالاً لميعاد^٤

وكانت لخفاف بن نضلة بن عمرو بن هذلة الثقفي ، وفادة على النبي ، وقد
عليه فقال :

إني أتاني في المنام مخبر من جنّ وجرة في الأمور موات
يدعو اليك ليالياً ولياليا ثم احزأل وقال لست بأت
فركبت ناجية أضرب بمننتها جمر نحت به على الأكيات
حتى وردت الى المدينة جاهاً كما أراك فتفرج الكربات

١ أمالي المرتضى (١ / ٢٨٢) .

٢ أمالي المرتضى (١ / ٢٨٤) .

٣ أمالي المرتضى (١ / ٢٨٦) .

٤ أمالي المرتضى (٢ / ٢٢٨) .

ويروى ان النبي استحسنتها ، وقال : ان من البيان لسحراً وان من الشعر
كالحكيم^١ .

و (بشر بن قطبة بن منان) الفقعسي ، من الشعراء الفرسان ، شهد اليمامة
مع (خالد بن الوليد) ، وقال في ذلك :

أروح وأغلو في كتيبة خالد على شطبة قد ضمها للغزو خيفتي

ومنها :

إذا قال سيف الله كروا عليهم كررنا ولم نجعل وصاة المعوق
أقول لنفسي بعدما رقى بالها رويلك لما تشققي حين تشققي
وكوني مع الراعي وصاة محمد وإن كذبت نفس المناق فاصدق^٢

ومن شعراء (بني أشجع) : (بقيلة) الأشجعي ، وكان سيداً كبيراً شاعراً.
ومن شعره :

لبس قرييك إن أطماره خلقت ولا جديد لمن لا يلبس الخلقا
فإن أشعر بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا
وانما الشعر لبّ المزمع يعرضه على المجالس إن كيساً وان حمقاً^٣

وكان (امرؤ القيس بن عابس بن المنذر بن امرئ القيس بن عمرو بن
معاوية الأكرمين) الكندي، من الشعراء ، وكان ممن حضر حصار حصن (النجير) ،
فلما أخرج المرتدون ليقتلوا ، وثب على عمه ليقنتله ، فقال له عمه : ويحك أتقتلني
وأنا عمك ؟ قال : أنت عمي والله ربي ، فقتله . وكان ممن ثبت على الاسلام ،
وأنكر على الأشعث ارتداده . وقد كتب الى (أبي بكر) في الردة :

ألا ابلغ أبا بكر رسولاً وبلغها جميع المسلمين
فليس مجاوراً بيئي يوتاً بما قال النبي مكلييننا^٤

-
- ١ الاصابة (٤٤٨/١) ، (رقم ٢٢٧٤) .
 - ٢ الاصابة (١٧٦/١) ، (رقم ٧٧٥) .
 - ٣ الاصابة (١٦٦/١) ، (رقم ٧٢١) .
 - ٤ الاصابة (٧٧/١) وما بعدها ، (رقم ٢٥٠) ، أسد الغابة (١١٥/١) ، الاستيعاب
(٩٤/١) وما بعدها . (حاشية على الاصابة) .

ومن شعره :

قف بالديار وقوف حابس وتأن^١ إنك غير آيس
ماذا عليك من الوقوف بهامد الطللين دارس
لعبت بهن العاصفات الراحات من الروامس

وقد أخله الكميت كله غير القافية فقال :

قف بالديار وقوف زائر وتأي^٢ إنك غير صاغر^١

ومن الشعر المنسوب اليه ، المعروف بخفة رويه ، قوله :

يا تملك^٣ يا تملي صليبي وذري عذلي
ذريني وسلاحي ثم شدي الكف بالغزل
ونبلي وفساها كعراقيب قطا طحل
ومني نظرة^٤ بعدي ومني نظرة^٥ قبلي
وثوباي جديسدان وأرخى شرك النعل
وإما مت^٦ يا تملي فكوني حرة مثلي

وتروى هذه الأبيات للفند الزماني^٢ .

وشداد بن عارض الجشمي من الشعراء المشهورين ، ذكره (ابن اسحاق) في المغازي ، ولما سار رسول الله الى الطائف ، قال في ذلك :

لا تنصروا اللات إن الله مهلكها وكيف ينصر من هو ليس ينتصر
إن الرسول متى ينزل بلادكم يظعن وليس بها من أهلها بشر^٣

و (هوزة بن الحرث بن عجرة بن عبدالله بن يقظة) السلمي المعروف بـ (ابن الحمامة) ، وهي أمه ، من الشعراء المخضرمين ، قال لعمر بن الخطاب لما قدم أناساً عليه في العطاء :

١ الشعر والشعراء (٤٨٦/٢) ، تهذيب ابن عساكر (١١٣/٣) .
٢ الشعر والشعراء (٢٩/١) ، السمع (٥٠٤) .
٣ الاصابة (١٣٩/٢) ، (رقم ٣٨٥٢) .

لقد دار هذا الأمر في غير أهله فأبصر أمين الله كيف تريد
أيدعي خثيم والشريد أماننا ويدعي ربناح قبلنا وطرود
فلن كان هذا في الكتاب فهم اذاً ملوك بني حرّ ونحن عبيداً

ولمالك بن عامر بن هانيء بن خفاف الأشعري ، قصيدة طويلة يشرح فيها
أحواله ، مذ كان في الجاهلية الى دخوله في الاسلام ، ونجيته النبي ، ثم اشتراكه
في الفتوح كالفدسية ، ثم مساهمته في حرب صفين مع (علي) . وقد ختمها بقوله :

كان الفتي لم يعيش ليلة اذا صار رسماً على صور
وطول بقاء الفتي فتنة فأطول لعمرك أو أقصر

وقيل انه أول من عبر دجلة يوم المدائن ، وله في ذلك قصيدة رجزاً .

ولقصيدة (مالك) الطويلة أهمية خاصة بالنسبة لدارسي الأدب العربي ، لأنها
تتناول ترجمة حياة الشاعر ، وتسجل سيرته بشعر ، وهو نموذج لم يتطرق اليه
شعراء العربية بكثرة .

و (مالك بن عيمر) السلمي من الشعراء المعروفين ، ذكر انه جاء الى النبي
فقال : « يا رسول الله انني امرؤ شاعر ، فافتي في الشعر ؟ فقال : لأن يمتلي ،
ما بين لبك الى عاقتك قبحاً خيراً لك من أن تمتليء شعراً » ويذكر الخبر أن
قال للرسول : « فامسح غني الخطيئة » ، فسح الرسول يده على رأسه ثم أمره
على كبه ثم على بطنه ، وترك بعد ذلك الشعر^١ .

ومن المخضرمين (شيبيل بن ورقاء) (شيبيل بن وفاء) من زيد بن كليب
ابن يربوع ، وكان شاعراً مذكوراً جاهلياً ، فأدرك الإسلام وأسلم إسلام سوء .
وكان لا يصوم رمضان ، فقالت له بته : ألا تصوم ؟ فقال :

تأمرني بالصوم لا درّ درها وفي القبر صوم ، يا نبال طويل^٢

-
- ١ الاصابة (٥٨٥/٣) ، (رقم ٩٠٥٩) .
 - ٢ الاصابة (٣٢٦/٣) ، (رقم ٧٦٤٢) .
 - ٣ الاصابة (٣٣١/٣) ، (رقم ٧٦٧٢) .
 - ٤ « لا أباك » ، الشعر والشعراء (٦٣٣/١) ، الاشتقاق (١٤٢) .

و (أنس بن مدرك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف) الخثعمي ثم الأكلبي ، والمعروف بـ (أبي سفيان) هو من الشعراء الجاهليين الذين أدركوا الاسلام . وكان شاعراً وقد رأس ، إذ كان سيد خثعم في الجاهلية ، كما كان فارسها . وذكر أنه قتل (السليك بن سلكة) الشاعر المعروف ، وكان قد اعتدى على امرأة من خثعم ، فلحقه وقتله ، فطالب (عبد ملك بن مويك) الخثعمي بدمية (السليك) ، وكان (السليك) يعطيه إتاوة من غنيمته على الحيرة ، فأبى (أنس) أن يديه لفجوره ، كما كانت له أخبار مع (دريد بن الصمة) في الجاهلية . وقد عاش طويلاً فزعموا أنه عاش مائة وأربعاً وخمسين سنة^١ .

وكان (سواد بن قارب) النوسي من الشعراء ، وكان يتكهن في الجاهلية ثم أسلم . ورووا له أبياتاً فيها إشارة الى (الرثي) والجن^٢ .

١ الاصابة (٨٥/١) ، (رقم ٢٨٠) .

٢ الاستيعاب (١٢٢/٢) وما بعدها ، (حاشية على الاصابة) .

الفهرست

١٤٤	الإعراب والعربية واللحن	٥
١٤٥	النحو	٣٥
١٤٦	الشعر	٦٢
١٤٧	حدّ الشعر	١٢٣
١٤٨	القريض والرجز والقصيد	١٦٩
١٤٩	العروض	١٩٢
١٥٠	البصرة والكوفة	٢١٣
١٥١	العصية والشعر	٢٢٨
١٥٢	تدوين الشعر الجاهلي	٢٥٠
١٥٣	أشهر رواة الشعر	٢٧٧
١٥٤	تنقيح الشعر والدواوين	٣٢٨
١٥٥	الشعر المصنوع	٣٥٥
١٥٦	أولية الشعر الجاهلي	٤٠٦
١٥٧	أوائل الشعراء	٤٣٩
١٥٨	المعلقات السبع	٥٠٦
١٥٩	أصحاب المعلقات	٥١٩
١٦٠	الشعراء الصعاليك	٦٠١
١٦١	شعراء القرى العربية	٦٥٤

٦٩٤	شعراء قریش .
٧١٩	شعراء یثرب .
٧٥٢	شعراء ثقیف .
٧٦٨	الشعراء اليهود .
٧٩٢	الشعراء النصاری .
٨١٩	آراء الشعراء الجاهلیین .
٨٣٨	شعر المخضرمین .